

بِسَامُ الْعَسَلِي

فِرْنَلْهُرْبُ الْأَسْلَامِي

أَيَّامُ الْجُرُوبِ الصَّلَيْبِيَّة



لِلْجَلَدِ الْمَرْدَلِي

كِتَابُ الْفَكَر

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فِي الْجَنَاحِ الْأَسْلَانِيِّ

أَيَّامُ الْجُنُوبِ الصَّلَيْبِيَّةِ

المَجَدُ الرَّابعُ

كِتَابُ الْمُكَبَّرِ



فِرْنَانْدُ الْأَسْلَامِيُّ

ابنَامِ الْجَرْوَبِ التَّلْمِيذِيَّةِ

ع

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ

بسام العسّاوي

فِرْنَانْدُ الْحَبْرُ الْإِسْلَامِيُّ

أيام الحروب الصليبية

المجلد الرابع

كتاب الفكر
للطباعة والنشر والتوزيع

جَمِيعِ حَقُوقِ اِعَاوَةِ الْطَّبِيعِ مَحْفُوظَةً لِلنَّاشرِ
الطبعة الأولى
١٤٠٨ - ١٩٨٨ م

المكاتب : البناية المركبة . هـافـ: ٢٤٤٧٣٩ . صـ: ٦١-٧١
١١/٨٢٣-٢ | ٨٣٧٨٩٨ | ٣٩-٦٦٣ | المطبع والمعلم : حارة حريك . شارع عبدالنور . هـافـ :
برقـيا : فـكـسـ . تـلـكـسـ ٤١٣٩٢ LE FIKR



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَقُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقْتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْنَتُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُغَنَّمِينَ * وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ نَفِقْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ . وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقْتَلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يَقْتَلُوكُمْ فِيهِ . فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكُفَّارِينَ * فَإِنْ آتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَقُتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ لَهُ . فَإِنْ آتَهُوا فَلَا عَذَابٌ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ *﴾
صدق الله العظيم-سورة البقرة-الآية: ١٩٣-١٩٠ .

المقدمة

حاول الباحثون الغربيون تحديد سبب معين لاندلاع نار الحروب الصليبية القديمة، وذهبوا في ذلك مذاهب شتى. فمنهم من زعم أن هذه الحروب قد جاءت نتيجة استيلاء الأتراك السلجوقية على بلاد الشام، وسيطراً لهم على طريق حجَّ الفرنج إلى القدس. ومنهم من زعم أن ما ظهر من ضعف دولة الروم - البيزنطيين - في معركة ملازكُرد والتي انتصر فيها السلطان ألب أرسلان السلجوقي على إمبراطور الروم أرمانوس سنة ٤٦٣ هـ = ١٠٧٠ م كان هو السبب في استشارة الغرب لتجريد الحملات الصليبية. وحاول آخرون ايجاد هذا السبب في وسط الغرب ذاته، فالفرق والجهل وسيطرة الكنيسة والانغلاق الفكري مقابل ما كان يعيشه العالم الإسلامي من تقدم فكري ورفاه اقتصادي وتطور اجتماعي قد استثار شهوة النهب والتدمير في وسط قيادات الغرب، ومارست الكنيسة دورها لتوجيه الجهود ضد المسلمين. وقد لا تكون هناك حاجة لدحض هذه المزاعم أو اقرار بعضها، ودحض بعضها الآخر. والحقيقة هي أن منطق التاريخ لا يقبل مثل هذا التجديد الزمني والمكاني للأحداث، فلقد كانت التاريخ المتدايق، ونسجه المتصل يرفض الانقطاع ويكتن عن التجزئة. فلقد كانت الأماكن المقدسة تحت حكم العرب المسلمين منذ قرون. وحاصر العرب المسلمين عاصمة الروم مرات كثيرة. ولم تكن قضية حفة من الحجاج - حتى لو وجدت مثل هذه القضية - جديرة بتجريد مثل هذه الحملات الضخمة. ولو كان الأمر كذلك أيضاً، لما كانت للفرنج حاجة لإقامة أماراتهم وملكتهم في بلاد الشام. ولما أوغلوا في عمق بلاد الشام فحاولوا الوصول إلى بغداد أو الأماكن المقدسة في الجزيرة العربية، ولما حاولوا احتلال مصر ودمشق.

يظهر استعراض النسيج التاريخي المتصل أن أرض الأندلس، وجزائر البحر الأبيض

المتوسط، كانت هي المهد المبكر للحروب الصليبية. وقد عملت الكنيسة - روما - باستمرار على توجيه الجهد وحشد القوى ضد المسلمين. غير أن انتصارات المسلمين على الجبهات كافة، دفعت قوى الفرنج الصليبيين لمهادنة المسلمين أحياناً، أو اتخاذ سياسة دفاعية في مواجهتهم في أحياناً أخرى. حتى إذا ما أحرز الفرنج انتصارهم الكبير على المسلمين فانتزعوا منهم طليطلة سنة ٤٧٨ هـ = ١٠٨٥ م. وجدت الكنيسة أن الفرصة قد باتت مناسبة أو مؤاتية للانتقال إلى الهجوم الشامل، وضرب المسلمين في عقر دارهم بالاستيلاء على بلاد الشام. ووقف البابا ايربان الثاني في جمع كثيرون - بفرنسا - سنة ٤٨٩ هـ = ١٠٩٥ م. فأعلن بندائه الشهير بداية الحروب الصليبية عندما قال:

«لينهض الغرب لنجد إخوانه المسيحيين في الشرق».

وما هي إلا أربع سنوات حتى وصلت طلائع الفرنج الصليبيين إلى بلاد الشام.

هكذا لم يكن إعلان البابا للحرب الصليبية إلا ثمرة مخاض طويل، وإلا نتيجة جهود مستمرة عبر أزمنة متالية، بدأت بمسرح الصراع الرئيسي على أرض أندلس المسلمين، وامتدت إلى جزائر البحر الأبيض المتوسط، وانتهت على أرض بلاد الشام، حيث القاعدة الأساسية لانطلاق جيوش الفتح العربي - الإسلامي.

اصطدمت جحافل الفرنج الصليبيين بجند المسلمين في كل مكان، وهبت جيوش المدن الإسلامية لمقاومة قوات الغزو، وظهرت منذ البداية محاولات لتنسيق التعاون بين جيوش المدن الإسلامية، واصطدمت هذه المحاولات بعقبات كثيرة حتى استطاع الزنكيون الانطلاق من الموصل إلى حلب ومنها إلى دمشق ثم مصر، فتمكن تشكيل جبهة إسلامية متراكمة أوقفت مد الفرنج، وانتزعت منهم بعض إماراتهم (الرهاء). مما دفع الفرنج لتجريد حملة صليبية ثانية، وجاء الإيوبيون في أعقاب الزنكيين الذين مهدوا لهم سبيل الحكم. فتابعوا حل راية الجهاد في سبيل الله، ووصلوا أوج قوتهم في معركة حطين وإعادة فتح القدس. وتبع ذلك تحول حاسم. حيث ظهر وجود الفرنج في بلاد الشام بأنه وجود ضعيف، مما دفع الفرنج لتجريد حملة صليبية ثالثة، وجاء بعد

ذلك المالك فتابعوا السير على درب الجهاد وقد اتضحت معالمه وتحددت أهدافه. فقدوا جموع المسلمين لخوض أكبر معركة ضد المغول - التتار (عين جالوت) وتبع انتصار المسلمين هجوم عاصف على بقايا الفرنج. ولم تتعجل الحملات المتالية إلا في إطالة أمد الحرب وإلا في التعرض للمزيد من الخسائر على طرفي جبهات الصراع المسلح. إلى أن انتهى الأمر بطرد الفرنج من بلاد الشام. إلا أن ذلك لم يضع نهاية للصراع. فقد شرع الأتراك العثمانيون في ممارسة دورهم برفع راية الجهاد، وانطلقوها من شمال بلاد الشام وأسيا الصغرى، فأتمكن لهم نقل ثقل الصراع المسلح إلى أوروبا. وجاهاوا هناك الحملات الصليبية المتالية ودمروها. ولم يكن فتح القدسية (اسلام بول) إلا ثمرة من ثمار تحول مسرح الصراع المسلح من بلاد الشام إلى شرق أوروبا.

هكذا، اشتركت الشعوب الإسلامية من عرب وببرير، كرد وترك، ديلم وفرس، وسواهم من أمم الأرض في احباط الحملات الصليبية ودحرها. وقد اجتهد الباحثون والمؤرخون في تصنيف هذه الحملات - في إطارها الزمني - فكان منها التصنيف التالي :

- ١ - **الحملة الصليبية الأولى:** سنة ٤٩٣ هـ = ١٠٩٩ م. وانتهت باحتلال انطاكية والقدس ومدن الساحل في بلاد الشام.
- ٢ - **الحملة الصليبية الثانية:** ٥٤٢ - ٥٤٤ هـ (١١٤٧ - ١١٤٩ م) وقد جاءت بعد إعادة فتح الرها وطرد الفرنج منها على أيدي الزنكيين. وقد حاولت هذه الحملة الاستيلاء على دمشق.
- ٣ - **الحملة الصليبية الثالثة:** ٥٨٥ - ٥٨٨ هـ (١١٨٩ - ١١٩٢ م) وقد جاءت بعد انتصار المسلمين في حطين وإعادة فتح القدس. ولم تتحقق نتائج هامة.
- ٤ - **الحملة الصليبية الرابعة:** ٥٩٩ - ٦٠١ هـ (١٢٠٢ - ١٢٠٤ م) اتجهت إلى القدسية واستولت عليها ودمرتها، واكتفت بهذا الإنجاز
- ٥ - **الحملة الصليبية الخامسة:** ٦١٦ - ٦١٨ هـ (١٢١٩ - ١٢٢١ م) وقد حاولت الإستيلاء على مصر لعزها عن المشرق الإسلامي، وانتهت الحملة إلى الفشل.

- ٦ - الحملة الصليبية السادسة: ٦٢٦ - ٦٢٧ هـ (١٢٢٨ - ١٢٢٩ م). أعادت القدس إلى حكم الفرنج، مع شريط أرضي يربطها بالساحل - حيث إمارات الفرنج.
- ٧ - الحملة الصليبية السابعة: ٦٤٦ - ٦٥٢ هـ (١٢٤٨ - ١٢٥٤ م) حاولت للمرة الثانية احتلال مصر - وفشلت في المنصورة.
- ٨ - الحملة الصليبية الثامنة: ٦٦٩ هـ (١٢٧٠ م) انتهت بالفشل أمام تونس.
- ٩ - الحملة الصليبية التاسعة: ٧٦٧ هـ (١٣٦٥ م) هاجمت الاسكندرية في مصر ونهبتها ودمرتها وعادت إلى قبرص.
- ١٠ - الحملة الصليبية العاشرة: ٧٩٨ هـ (١٣٩٥ م) أحبطها الأتراك العثمانيون في نيقوبولييس.
- ١١ - الحملة الصليبية الحادية عشرة: ٨٤٨ هـ (١٤٤٤ م) أحبطها الأتراك العثمانيون في فارنا.

لم تتوقف الحملات الصليبية بفتح الأتراك المسلمين للقسطنطينية سنة ٨٥٧ هـ = ١٤٥٣ م. ولا باستيلاء الفرنج الصليبيين على غرناطة سنة ٨٩٧ هـ = ١٤٩١ م. وأمام استمررت بعد ذلك في إطار حлат منظمة ضد أقطار المغرب العربي الإسلامي (المغرب والجزائر وتونس وبرقة) وهي الحملات التي قادها الإسبانيون والبرتغاليون. غير أن هذه الحملات لم توضع في إطار الحملات الصليبية. وكذلك الأمر بالنسبة للحملات الصليبية التي جرت تحت رايات (الاستعمار الغربي) والتي تركزت على أقطار العالم العربي - الإسلامي خاصة وأقطار العالم الإسلامي بصورة عامة. مما حمل الكثير من المؤرخين على تصنيف هذه الحملات تحت عنوان (الحملة الصليبية الثانية عشرة) وبذلك منحت الهجمة الإسرائيلية الجديدة التي أقامت الكيان الصهيوني على أرض فلسطين اسم (الحملة الصليبية الثالثة عشرة) باعتبار أن الصهيونية هي رأس الحربة في الحملة الصليبية الجديدة. بينما يطلق آخرون على الهجمة الصهيونية الحديثة عنوان (الحملة الصليبية العاشرة) لربطها مباشرة بالحملات التي وصلت إلى بلاد الشام مع تجاوز ما بين الحملات القديمة والهجمة الجديدة من حملات صليبية مختلفة.

لقد حظيت تجربة الحملات الصليبية القديمة باهتمام الباحثين في الأزمنة الحديثة . - في أقطار الغرب عامة . - وقد صدرت خلال النصف القرن الماضي - أي منذ إقامة الكيان الصهيوني على وجه التحديد - مجموعة ضخمة من المؤلفات والكتب والأبحاث، فهل جاء هذا الاهتمام المباغت بصورة تلقائية - عفوية - ؟.

أم جاء في إطار خطة مبرمجة هدفها استئثار الدروس المستخلصة من تلك التجربة؟

للإجابة على هذه التساؤلات ، وأمثالها ، قد يكون من الضروري مقارنة الممارسات الإسرائيلية - الصهيونية - الحديثة ، بما جرى على أرض فلسطين خلال الحملات الصليبية القديمة ، وعندئذ يظهر التشابه المثير في سلوك هذه مع تلك وممارساتها . وعلى سبيل المثال لا الحصر : ممارسة الإرهاب ضد العرب المسلمين خاصة ، وتنظيم الطوائف الدينية المتطرفة ، وتغذية ودعم المذاهب الطائفية في الوسط الإسلامي . ومحاولات عزل مصر عن العالم العربي - الإسلامي ، ومحاولات الوصول إلى ما وراء نهر الأردن بحججة تأمين العمق الاستراتيجي . وتصعيد الهجوم على القوى المضادة للصليبية مع كل تعاظم في الوعي الإسلامي الخ ... ومن المحتمل القول أن هذا التشابه هو من الأمور الطبيعية بسبب الوضع الخاص الذي تعشه إسرائيل مع ذاك الذي عاشته الكيانات التي أقامها الفرنج في الحملات القديمة . فعندما تتشابه الظروف فإنها تفرز ردود فعل سياسية واقتصادية واجتماعية متتشابهة . غير أن ذلك لا يزيل اليقين في محاولات أصحاب المشروع الصهيوني الافادة من تجربة الحملات الصليبية القديمة ، واستئثار الدروس المستخلصة منها ، وتوظيفها لصالحة الحملة الصليبية الجديدة .

تظهر من خلال ذلك أهمية العودة إلى التجربة التاريخية الذاتية ، في مجال فن الحرب سواء على مستوى السياسة الاستراتيجية أو على مستوى إدارة الحرب والأعمال القتالية ، بل وحتى على المستوى التعبوي - التكتيكي . - ولقد تطورت الأسلحةتطوراً مذهلاً . كما تطورت طرائق إدارة الحرب والعمليات بما يتناسب مع تطور الأسلحة ، غير أن الأسس الثابتة بقيت محفوظة بأهميتها الكاملة .

لقد كان الصراع بين الفرنج الصليبيين من جهة والعرب المسلمين من جهة ثانية، مجالاً لحوار الارادات المتصارعة، قذف فيه الفرنج بكل ما توافر لهم من القوى، وقدف فيه المسلمون بما يعادل تلك القوى. وارتبطت نتيجة الصراع في النهاية، بالطرف الأكثر تصميماً والأكثر عناداً، فكسب المسلمون الجولة النهائية، وبرهنا على أنهم الطرف الأقوى في الحوار، اعتقاداً منهم على حقوقهم وعلى عدالة قضيتهم. وعرف الفرنج هذه الحقيقة، فاضطروا مرغمين على الانسحاب من حلبة الصراع - ولو إلى حين -. ولقد تطورت أساليب الحوار وتتنوعت. ولعل هذا ما يمكن تعلمه من التجربة الذاتية، وهو الاعتماد على اسس الصراع الثابتة وتطوير العوامل المتحولة - أو غير الثابتة - بما يتناسب مع الظروف المحلية والدولية.

لقد جرى حوار الارادات المتصارعة بين المسلمين والفرنج في إطار سياسة استراتيجية هجومية - دفاعية. وأظهر المسلمون تفوقهم في الأساليب الهجومية، واعتمد الفرنج على الوسائل الدفاعية (الحصون والقلاع). فكان الحوار على مستوى الأفعال القتالية هو حوار بين الهجوم والدفاع. ولكن ذلك لا يعني أن المسلمين قد التزموا بالهجوم دائمًا، وأن الفرنج أخذوا بأساليب الدفاع باستمرار، بل كان الأخذ بالهجوم وفضيلته على الدفاع، أو المزج بين الهجوم والدفاع مرتبطة بكل مرحلة من مراحل الصراع، وبما يستجد فيه من العوامل.

لقد امتد مسرح الأفعال القتالية على امتداد الجبهات الإسلامية، بداية من أرض الأندرس ومروراً بأقطار المغرب العربي الإسلامي وجزائر البحر الأبيض المتوسط، ونهاية بأرض بلاد الشام. واستمر هذا الصراع طوال قرون متتالية. وهذا فقد يكون من الصعب التعرض لكل ما تضمنته هذه الحرب الشاملة من وقائع وأعمال. وحتى ما جرى على أرض بلاد الشام هو أكثر اتساعاً من أن يشمله بحث. وهذا كان لا بد من التوقف عند الأحداث الرئيسية، وتجاوز بعض الأحداث الثانوية. ونظراً لما كان للحصون والقلاع من دور في هذه الحرب الشاملة فقد ظهر أنه من المناسب التركيز على بعضها وليس كلها، وتجاوز ما كان دوره ثانوياً، أو ما كان متشابهاً، ولقد زالت أهمية القلاع والحصون بتطور الوسائل النارية، واستعيض عنها بالحفر عميقاً في باطن

الأرض - وهو ما يمثله خط بارليف والخنادق العميقه والواسعة في الجولان -. وبقي
الحوار مستمراً بين أساليب الحرب المجموعية ووسائل الحرب الدفاعية. وبقيت عوامل
الصراع وأساليب الحوار متشابهة. ومن هنا تظهر فائدة إفراد فصل خاص للقلاع
والمحصون في الحروب الصليبية القديمة .

لقد احتفظت تجربة الحملات الصليبية القديمة بأهميتها وفائتها ، لا من حيث
استطالة أمدها - لمدة قرنين من عمر الزمن على أرض الشام وحدها - ولا من حيث
اتساع مسرح عملياتها - الذي شمل - الأندلس والمغرب العربي - الإسلامي وبلاط
الشام وأوروبا الشرقية وجزر البحر الأبيض المتوسط أيضاً . ولا من حيث اشتراك عدد
كبير من الأقوام والشعوب على طفي جبهات الصراع . وإنما أيضاً وبالاضافة إلى
العوامل السابقة الاستمرارية في الصراع واتصال تلك التجربة بما يحدث اليوم ، وإذا
كان هناك من ينكر مثل هذا الاتصال ، ويتجاهل مثل هذه الاستمرارية - عن ضعف
وتخاذل ، فإن الغرب ذاته لازال يعلنها بشكل أو باخر ، تلميحاً أحياناً وتصرحاً في
أحياناً أخرى على شكل هجوم سياسي أو اعلامي ، ولعل ذلك هو العامل الأساسي في
فشل كل حوار مع الغرب الصليبي المتعصب والمتجرف . وليس الاصرار العنيد على
تكرار مقوله : (بقاء اسرائيل واستمرارها وخلودها - على ما يزعمون) إنما لاقناع
العرب المسلمين خاصة وال المسلمين عامة ، بأن أصحاب المشروع الإسرائيلي -
الصهيوني - قد أفادوا من تجاربهم المستمرة بحيث أنهم لن يكرروا جلاءهم عما احتلوه
في حملتهم الجديدة . وقد رد تعالى - عزَّ من قائل - على مقولتهم في محكم تنزيله :

﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الْزَّبْرُزِ ★ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ
جَمِيعٌ مُّنْتَصِرٌ ★ سَيَهُزُّمُ الْجَمْعُ وَيُؤْلُونَ الدُّبُرِ ★ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ
وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ﴾

صدق الله العظيم★ .

بسام العسلي

﴿الَّذِينَ آمَنُوا يَقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ الظُّفُورِ فَقُتِلُوا أُولَئِكَ الشَّيْطَنُ إِنْ كَيْدَ الشَّيْطَانَ كَانَ ضَعِيفًا﴾
صدق الله العظيم - النساء - الآية: ٦٧

الفصل الأول

- | | |
|--|--|
| ١٠٠ - نادت الشام - فوداعاً يا مصر . | ١ - الموقف على جبهي الصراع . |
| ١١٠ - يوم حطين . | ٢ - المسلمين في مواجهة الصدمة الأولى . |
| ١٢٠ - الحملة الصليبية الثالثة . | ٣ - الفرنج في بلاد الشام . |
| ١٣٠ - الصليبيون في دمياط . | ٤ - المخاض العسير في الموصل . |
| ١٤٠ - انهيار الأيوبيين . | ٥ - الزنكيون وقيادة الجهاد . |
| ١٥٠ - ملك فرنسا أسيراً في المنصورة . | ٦ - التحول الخامس . |
| ١٦٠ - المغول التتار - وعين جالوت . | ٧ - عشر سنوات من تاريخ مصر . |
| ١٧٠ - الانتقام العادل . | ٨ - العدو الأكبر للفرنج . |
| ١٨٠ - وابتلت رمال المسلمين بناء الفرنج . | ٩ - صلاح الدين ، والارت الكرم . |

١ - الموقف على جبهتي الصراع .

لطالما أجهد الباحثون الغربيون والمؤرخون أنفسهم في محاولة لتحديد بداية دقيقة للحروب الصليبية القديمة . وقد لا تكون هناك حاجة لتحديد مثل هذه البداية ، زمنياً ، إذ من المعروف تاريخياً أن الحرب بين العرب المسلمين من جهة وبين الروم البيزنطيين من جهة ثانية قد أخذ شكل حرب صليبية منذ البدايات الأولى للفتح ، واستمر هذا الصراع في صعود وهبوط ، طوال العهد الأموي والعهد العباسى . أما على جبهة الغرب ، فقد عرفت أرض الأندلس صراعاً مريضاً طوال العهد الأموي حتى إذا ما كان عهد ملوك الطوائف ، وتمزقت الأندلس إلى ممالك إسلامية متصارعة ، انتقل (نصارى الأندلس) للهجوم بدعم وتوجيه من الكنيسة التي حاولت حشد القوى لدول التصارى في جبهة واحدة ، وكانت هذه الدول تخوض بعضها ضد بعض حروباً مستمرة ، فنجحت الكنيسة في فرض السلام الداخلي ، وتوجيه العداء نحو الخارج ، وقد وجد هذا العداء له متنفساً على أرض الأندلس . وقد تشجع الأساقفة بما حققوه من نجاحات ، حتى إذا ما كان انعقاد بجمع كليرمونت (١٨ - ٢٨ تشرين الثاني - نوفمبر - ١٠٩٥) وجذ ثلثاء من رجال الدين أن الفرصة قد حانت لإعلان الحرب الصليبية - وأطلق البابا (ايrian الثاني)^(١) صيغته الشهيرة : « فلينطلق المسيحيون بالغرب لنجددة الشرق »^(٢) وبدأت عجلة الحرب الصليبية بالتوجه نحو الشرق . وقد أبرز المؤرخون الغربيون مجموعة العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي أسهمت

(١) البابا ايrian الثاني (URBAIN II) واسمه اودو - دولاجري : (ODO-DE-LAGERY) ولد سنة ١٠٤٢ م في شاتيون سيرمارن (CHATILLON-SUR-MARNE) - وانتخب لمنصب البابا سنة ١٠٨٨ م ، وأصبح سنة ١٠٩٥ م السيد الروحي للعالم المسيحي وذلك بإعلانه الحرب الصليبية في جمع كليرمونت CLERMONT - ومات سنة ١٠٩٩ م .

(٢) انظر الفصل الثاني في تاريخ الحروب الصليبية - رنسمان - ص: ١٤١ - ١٧٥ .

اسهاماً كبيراً في توجه الفرنج الصليبيين نحو الشرق الذي كان ينعم بحالة من الرفاهية والتطور الاجتماعي والاقتصادي مما جعل امراء الغرب وملوكيهم يستجيبون لنداءات الكنيسة التي كان يهمها حشد المقاتلين تحت غطاء فكري وعقائدي مناسب . وقد وجد فرسان الغرب، وبؤسائهم، على السواء فرصة لهم في اقتحام عالم مختلف عن عالمهم. وقد تعرض الباحثون والمؤرخون المسلمين من جانبهم للحرب الصليبية في بداياتها على أرض المشرق، فكان مما كتبوا : « كان ابتداء ظهور دولة الفرنج واشتداد أمرهم وخروجهم إلى بلاد الإسلام ، واستيلائهم على بعضها سنة ثمان وسبعين وأربعينة - ١٠٨٥ م - فملكوا مدينة طليطلة وغيرها من بلاد الأندلس . ثم قصدوا سنة أربع وثمانين وأربعين - ١٠٩١ م - جزيرة صقلية وملوكها . وتطرقوا إلى أطراف أفريقيا فملكوا منها شيئاً ، وأخذ منهم ، ثم ملكوا غيره ، فلما كان سنة تسعين وأربعينة - ١٠٩٧ م - خرجوا إلى بلاد الشام . وكان سبب خروجهم أن ملوكهم بردويل - ^(١) بلد़وين البولوني - جمع جعاً كثيراً من الفرنج ، وكان نسيب - رجار الفرنجي ^(٢) - الذي ملك صقلية ، فأرسل إلى رجار يقول له : قد جمعت جعاً كثيراً ، وأنا وأصل إليك وسائل من عندك إلى أفريقيا أفتحها وأكون مجاوراً لك ، فجمع رجار أصحابه واستشارهم في ذلك ، وقالوا : وحق الإنجيل هذا جيد لنا ولهم ، وتصبح البلاد بلاد النصرانية . فرفع رجله وحقق حبة عظيمة وقال : وحق ديني هذه خير من كلامكم . قالوا : وكيف ذلك ؟ قال : إذا وصلوا إلى احتاج إلى كلفة كبيرة ، ومراكب تحملهم إلى أفريقيا وعساكر من عندي أيضاً . فإن فتحوا البلاد كانت لهم . وصارت المؤنة لهم من صقلية ، وينقطع عنى ما يصل من المال من ثمن الغلات كل سنة ، وإن لم يفلحوا رجعوا إلى بلادي وتأذيت بهم . ويقول لي حاكم مصر الفاطمي - تميم - غدرت بي ونقضت عهدي . وتنقطع الوصلة والأسفار بيننا . وبلاد أفريقيا باقية لنا ، متى وجدنا قوة أخذناها . وأحضر رسول بردويل وقال له : إذا عزمت على جهاد المسلمين فأفضل

(١) رجار - هو روجر الأول : (ROGER) ابن تانكرد - وهو ملك صقليا - و (TANCREDE) وقد ولد سنة ١٠٤٠ م واستولى على صقلية وأقسام فيها مملكة : DE HAUTEVILLE ١٠٧٠ - ١١٠١ م) وخلفه روجر الثاني : (١١٠١ - ١١٥٤ م).

ذلك فتح بيت المقدس، تخلصونه من أيديهم ويكون لكم الفخر. فأما أفريقية فبني وبين أهلها أيمان وعهود. فتجهزوا وخرجوا إلى الشام. وقيل إن أصحاب مصر من الفاطميين لما رأوا قوة الدولة السلجوقية - السنة - وتمكنها واستيلاءها على بلاد الشام إلى غزة، ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم من الوصول إلى مصر وملكتها، خافوا وأرسلوا إلى الفرنج يدعونهم إلى الخروج إلى الشام ليملكونه ويكون بينهم وبين المسلمين. والله أعلم^(١).

لم يكن ملك صقلية هو الملك الوحيد الذي وضع هدفين له من التحرك الصليبي الشامل: إبعاد جوع الصليبيين عن حدود مملكته، واستثمارهم قدر المستطاع لدعم قدرته وامكاناته. وإنما سار معظم ملوك الغرب على هذا الاتجاه ذاته، ففرضوا قيوداً صارمة على تحرك جيوش الفرنج حتى لا تتعرض مالكهم للنهب والتدمير. وكذلك فعل أيضاً ملك الروم البيزنطيين الذي أراد الافادة من قوة الفرنج لتدمير قوة السلاجقة التي فرضت وجودها على آسيا الصغرى. وظن أن الدعوة الصليبية ستتوفر له دعماً يضمن له تحقيق هدفه. ولكنه ارتاع عندما علم أن جيوشاً بأكملها من الفرنج تشق طريقها نحو بلاده، بدلاً من الفرسان الفرادى والجماعات الصغيرة والتي توقع اخيازها إلى قواته. وقد صورت المصادر التاريخية موقف ملك الروم - الكسيوس أو الكسيس - بالكلمات التالية:

«لم يفرح الكسيوس بجيوش الفرنج، لأنه علم بالتجربة أن الفرنج هم عنصر متقلب الأهواء متغطش للحصول على المال، ولا يحفل بالوفاء بما يعتقده من الاتفاقيات. وعلى الرغم من شدتهم بالهجوم، فإن هذه الشدة ليست في بعض الأحوال من المزايا الطيبة. وانزعج البلاط البيزنطي لما علم - على حد قول الأميرة أنه كومين: أن كل القبائل المتبربرة في الغرب بأسره - من وراء بحر الادريatic حتى عمودي هرقل في مضيق جبل طارق - أخذوا يتحركون كتلة واحدة، مجتازين أوروبا نحو آسيا وجلبوا معهم أسرابهم.

(١) الكامل في التاريخ - أحداث سنة تسعين وأربعين.

ولم يكن امبراطور الروم وحده هو الذي انزعج لذلك ، بل شاركه في انزعاجه أفراد رعيته . وكان ذلك طيرة منذرة حيث تناقل الناس بأن أرتالاً ضخمة من الجراد تجتاح أوروبا ، فلا تمس الحبوب وإنما تلتهم الكروم . وفسر المنجمون ذلك بناء على ايعاز من بلاط الامبراطور حتى لا يشيع اليأس والقنوط ، بأن الفرنج لن يتعرضوا بالأذى للمسيحيين الآخيار ، الذين رمز لهم بالقمح مصدر خبز الحياة . وسوف يخطمون المسلمين ، وهم قوم جرى تشبهه شهوانيتهم بالكروم . والواقع أن ما أشاعته الأميرة (أنه) من تفسير ، يشوه بعض الريبة ، غير أن تشبهه الفرنج بالجراد هو أمر بالغ الواضح . ولهذا فقد شرع الامبراطور الكسيوس في اتخاذ التدابير الضرورية بهدوء ، من أجل تأمين المواد التموينية ، وإقامة المستودعات على امتداد الطرق التي ستسلكها جيوش الفرنج ، مع تنظيم الحراسة لمنع الفرنج من تخريب القرى وسلب السكان . وبالرغم من ذلك فقد حدثت مجموعة من الاشتباكات الصغرى بين جند الامبراطور الكسيوس وبين الفرنج ، ولم يكن بوسع الصليبيين مقاومة جيوش الامبراطور المشهورة بحسن اعدادها وتجهيزها .

وأفاد الامبراطور من ذلك ، ففرض على (جودفري - وبلدوين)^(١) وكبار القادة أن يخلفوا له مين الولاء ، وأن يعترفوا به سيداً على كل ما يفتحونه من

- (١) من المعروف أن قوات الحملة الصليبية الأولى قد انتظمت في خمسة جيوش :
- أ - جيش المتطوعين من كل أوروبا - وتولى قيادته بطرس الناسك : (PIERRE L'ERMITE) مع وولتر المغلس : (GAUTHIER SANS AVOIR) وقد دمره المسلمون التركان في نيقية .
 - ب - جيش اللورين والalamان - وهو أكبر الجيوش وتولى قيادته بودوان - دوهينـ BAUDOUIN . GODEFROY DE BOUILLON وغوفرمـ DE HAINAUT .
 - ج - جيش فرنسا الشمالية: وتولى قيادته - كونت دوفير ماندوا COMTE DE VERMANDOIS . ودوق نورماندي DUC DE NORMANDIE .
 - د - جيش البروفانس - وتولى قيادته كونت تولز CONTE DE TOULOUSE - وأديغار دومونتي ADEMAR DE MONTEIL .
 - ه - جيش النورمان في إيطاليا وصقلية ، وتولى قيادته - بوهمنـ BOHEMONDE DE TARENTE وتنكرد دوهـ HAUTEVILLE . (TANCREDE DE HAUTEVILLE)

بلاد . وأن يسلموا الموظفي الامبراطور كل ما استردوه من بلاد - كانت أصلًا من بلاد الامبراطور ثم فتحها المسلمون - .

وجرى هذا القسم في يوم عيد القيامة (٢ - نيسان - ابريل ١٠٩٧ م) وتلقى الصليبيون بعد ذلك هدايا كثيرة من الأموال . واحتفى بهم الامبراطور في مأدبة فاخرة .

لم يكن لدى الامبراطور الكسيوس سوى وقت قصير لمعالجة موقف جديد ، فقد علم أن جيشاً مختلطًا من اتباع جودفري ، الذين آثروا الرحيل عبر إيطاليا ، قد وصلوا إلى الضواحي الواقعة بأطراف القسطنطينية ، وقد أظهروا من الشراسة ما أظهره جودفري من قبل . فقرر الكسيوس اخضاعهم قبل أن يتضمنوا إلى جودفري ، وأمكن له السيطرة على تحركاتهم بعد قتال قصير . ثم أمر ببنقلهم بحراً إلى العاصمة حيث اخازوا إلى سائر الجماعات الصليبية الصغرى التي وصلت ، بعد أن شقت طريقها في البلقان . وبذل الامبراطور كل ما عنده من كياسة ، وأغدق الهدايا الوفيرة ، كما يحمل زعماءهم على أن يخلفوا له يمين الولاء والطاعة . ولما ارتضوا ذلك آخر الأمر ، زاد الامبراطور في جلال هذه المناسبة ، بأن دعا بدلوين وجودفري لشهود الاحتفال . فاشتد حنق زعماء الغرب ، وزادت شراستهم وحدتهم ، إذ جلس أحدهم على عرش الامبراطور ، وعندئذ انبرى بدلوين لتأنيبه ولفت نظره إلى أنه أصبح من أتباع الامبراطور ، وطلب إليه أن يراعي تقاليد البلاد . غير أن هذا القائد صار يتمت في غضب :

إذ كيف يجوز للامبراطور أن يجلس ، على حين أن عدداً كبيراً من القادة الشجعان يظلون واقفين؟

ولما علم الكسيوس بهذه الملاحظة ، بعد أن جرت ترجمتها له ، طلب أن يتحدث إلى الفارس . ولما أخذ الفارس يتباھي ببسالته التي لم تنثم في مبارزة فردية ، تلطّف الامبراطور معه ، ونصحه بأن يلتمس خططاً أخرى عند لقائه مع الأتراك المسلمين .

تصور هذه الحالة وأمثالها تصویراً دقیقاً تلك العلاقات التي كانت قائمة بين امبراطور الروم البيزنطيين وبين قادة الفرنج الصليبيين وجندهم . ولا ريب أن

أولئك الفرسان الأحلاف القادمين من الغرب ، اشتد تأثيرهم بما للبلاط البيزنطي من الأبهة والعظمة ، وبما اتسم به رجال البلاط من الطباع الرزينة والتصرفات المهدبة ، مع الحرص على مراعاة المراسيم ، غير أنهم نفروا من ذلك . وكان ما أصاب كبراءهم من الجراح هو الذي جعلهم غلاظ الطباع ، يمليون إلى المشاكسة ، شأن الأطفال الشرسين .

يمكن الانتقال إلى صورة أخرى تمثل قوة من القوى التي كان لها دورها الكبير في الحملة الصليبية الأولى ، وهي قوة النورمان في إيطاليا وصقلية . وهذه قوة لم تحفل في أول الأمر بدعوة البابا إيربان للحروب الصليبية ، نظراً لاستمرار الحروب الأهلية التي نشبت فيما بينهم في جنوب إيطاليا ، عقب وفاة روبرت جويسكارد ، فالمعروف أن روبرت هذا كان قد طلق زوجته الأولى التي انجب منها بوهمند . وأوصى بدوقية - أبوانيا - إلى ابنه روجر بورصا من زوجته الثانية سيجلجايتا . فأعلن بوهمند الثورة على أخيه روجربورصا ، وعزم على أن يستخلص لنفسه أوترانتو (طارنت) في أقصى الطرف الجنوبي الشرقي لشبه الجزيرة ، وذلك قبل أن يلجمأ عمها أمير صقلية - روجر - إلى تسوية الأمور بينهما . ولم يعترض بوهمند بالمدنة التي فرضها البابا ، فاستمر في العمل سراً وخلسة على مناهضة أخيه روجر بورصا . ثم حدث في صيف سنة ١٠٩٦ م ، أن اتفقت الأسرة الملكية كلها على أن تنزل العقاب بمدينة - أمالفي - التائرة عليهم . وكانت المرسومات البابوية المتعلقة بالحرب الصليبية قد صدرت فعلاً . واجتاز البحر جماعات صغيرة من الإيطاليين من جنوب شبه الجزيرة نحو الشرق . ثم أدرك بوهمند أهمية الحركة الصليبية حين وصلت جيوش الصليبيين المتحمسة والقادمة من فرنسا ، واستقرت في إيطاليا ، حيث أدرك بوهمند عندها أن من مصلحته الافادة منها ، لاسيما وأن عمه أمير صقلية - روجر - لن يسمح له مطلقاً بأن يضيف إلى أملاكه دوقية أبوانيا . فرأى أنه من الخير له بأن يقيم مملكة على الساحل الشرقي للبحر المتوسط . وما اتصف به الصليبيون الفرنسيون من الحماسة ، قد أثار عدوى الحماسة إلى الجنود النورمان المرابطين أمام - أمالفي - . ولقي النورمان التشجيع من بوهمند ، فأعلن أنه سوف يشترك في الحملة الصليبية ، ودعا بوهمند جميع المسيحيين المؤمنين

للانضمام إليه. وخلع بوهمند أمام الجيش رداءه الأحمر الثمين، ومزقه قطعاً صغيرة،
جعل منها صلباناً لقادته. وبادر أتباعه بالانضواء تحت لوائه. وهذا حذوه عدد كبير
من أتباع أخيه واتباع عمه صاحب صقلية - روجر - الذي جأر بالشكوى من أن
الحركة الصليبية قد سلبته جيشه.^(١)

يظهر من ذلك أن الكنيسة قد نجحت - في فرنسا خاصة وربما بحكم مجاورتها
للأندلس - بإثارة الحماسة لدى الجماهير من أجل الاشتراك في الحملة الصليبية الأولى.
ولقد انضمت تحت راية الصليبية أمم شتى، وكل يبحث عن الحل لمشكلاته على حساب
المسلمين وببلادهم: الفقراء أرادوها للحصول على الثروة، والامراء للحصول على
اقطاعات وإمارات ومالك ، والروم - البيزنطيين لازلة خطر المسلمين من الأتراك
السلاجقة. فكم بلغ عدد الذين اشتركون في الحملة الصليبية الأولى؟.

لقد تناقضت الروايات في تقويم الحجم الحقيقي للجيوش الصليبية. وأشارت بعض
المصادر إلى أن جموع بطرس الناسك قد ضمت بين صفوفها نحواً من عشرين ألفاً -
فيهم عدد كبير من غير المحاربين. أما الجيوش الصليبية الرئيسة، وهي جيوش ريموند
وجودفري ، وشمال فرنسا فقد زاد عدد مقاتلي كل منها على عشرة آلاف ، ونقص
جيش بوهمند عن ذلك قليلاً. كما انضمت إلى هذه الجيوش جموع أخرى أقل عدداً «
بحيث بلغ عدد الذين اجتازوا بلاد الروم البيزنطيين في طريقهم إلى بلاد الشام بين
صيف ١٠٩٦ وربيع ١٠٩٧ م قد تراوح بين ستين ومائة ألف صليبي .

ومقابل ذلك ، كان الموقف على الجبهة الإسلامية مثيراً للغاية ، حيث كانت
الصراعات الداخلية تمزق المجتمع الإسلامي تمزيقاً خطيراً. ولا سيما بين أهل السنة ،
 وبين المتشيعين حكام مصر (الفاطميين). وكانت بلاد الشام هي مسرح الصراع ، حيث
كان يحاول كل طرف فرض سيطرته عليها. واستطاع جند السلطان ملكشاه -
التركمان بقيادة تتش بالاستيلاء على حمص وطرابلس وسواها من مدن الشام : (سنة
٤٨٥ هـ = ١٠٩١ م). ولكن عسكر المستنصر بالله حاكم مصر تمكنوا من إعادة

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ١٢٠/١ - ٢٢٣ و ٢٤٣ .

الاستيلاء على مدينة صور في السنة التالية كما بقيت القدس تحت حكم مصر . وفي سنة ٤٩٠ هـ = ١٠٩٦ م . استطاع حكام مصر أن يفرضوا على حكام بلاد الشام - حتى حلب - سيطرتهم ، والدعاء لهم على المنابر ، وبقيت كل مدينة من مدن بلاد الشام مستقلة بحكمها وجيشهما ، وفي حرب مع المدن الأخرى - على نحو ما حدث سنة ٤٩٠ هـ = ١٠٩٦ م . عندما سار أمير حلب رضوان بن تتش بن ألب أرسلان إلى دمشق لمحاربة أخيه دقاق بن تتش والاستيلاء على دمشق . وكان هذا هو الموقف يوم وصل الفرنج في السنة التالية .

٢ - المسلمين في مواجهة الصدمة الأولى .

وصل بطرس الناسك وجيشه إلى القسطنطينية قبل بقية جيوش الفرنج . وعبر البوسفور إلى القسم الآسيوي . واقتصر امبراطور الروم على بطرس أن ينتظر في موضعه وصول الجيوش الرئيسية للفرنج . ولكن جند بطرس لم يتزموا بنصيحة بطرس . وبدأت جوع الألمان والايطاليين تحت امرة قياداتها بالمنافسة والسباق مع جوع الفرنسيين للإغارة على الأراضي الزراعية التي كانت تحت حكم الأتراك المسلمين ، فنهبوا القرى ، وطرقوا أبواب عاصمة السلطان السلاجوقى قلوج أرسلان - مدينة نيقية - فنهبوا القرى بالضواحي ، واستنقوا ما صادفوه من الماشية والأغنام ، وقتلوا السكان بوحشية بشعة -
من بينهم المسيحيين - وقيل أنهم قاموا بشواء الأطفال على السفافيد . وخرجت من المدينة سرية من الجيش التركي لقتالهم : غير أنها ارتدت على أعقاها بعد قتال عنيف . ثم عاد الصليبيون إلى قاعدهم - في كيفيتوت - حيث باعوا ما غنموه إلى رفاقهم وإلى البحارة البيزنطيين . وكان ما أحرزه الفرنسيون من الغنيمة الثمينة كافياً لإثارة شهية الألمان ، فخرجت قوة منهم في أواخر أيلول - سبتمبر - سنة ١٠٩٦ م ، ومعهم عدد من القسسين والأساقفة ، وتجاوزوا في سيرهم مدينة - نيقية - . وانطلقوا للنهر حتى وصلوا إلى قلعة كبيرة حلت اسم - اكسير يجوردون - وحاولوا الإستيلاء عليها لما عرفوا أنها زاخرة بالمؤن من جميع الأنواع ؛ ونجحوا في اقتحامها ، وقررروا اتخاذها قاعدة لهم من أجل الإغارة على الأراضي المجاورة . ولما علم السلطان قلوج أرسلان بذلك . وجه جيشاً لاسترداد القلعة التي كانت تختل رعنًا مرتفعًا . وتستمد ماءها من نبع يقع خارج الأسوار ، ومن نبع بالوادي الذي يجري تحتها . واستطاع الجيش التركي أن ينزل المهزية بقوات كمين نصبه الفرنج . وطوق القلعة وحرّم حامتها من الوصول إلى الماء . واستبد اليأس بالألمان بعد أن اشتد بهم الظماء حتى أشرفوا على الهلاك . ولم تنفعهم نصائح القسسين بالصبر ، ففتحوا الأبواب بعد أن حصل قائهم - رينالد -

على وعد بالإبقاء على حياته إذا تخلى عن المسيحية. وقتل كل من يرفض الدخول في الإسلام. وتقرر إرسال رينالد وأصحابه الذين اعتنقوا الإسلام إلى حلب وانطاكية وإلى خراسان أيضاً.

وصلت أنباء استيلاء الألمان على قلعة - اكسيريجوردون - إلى بقية قوات الصليبيين المقيمين في - كيفيتوت - ولكن أنباء استرداد القلعة لم تصلهم. وأشاع الأتراك بواسطة جواسيسهم أن قوة الألمان قد نجحت في احتلال - نيقية - ذاتها. وأنها أخذت في اقتسام الغنائم فيما بينها. وأدى ذلك إلى ما توقعه الأتراك المسلمين من حدوث اضطراب في معسكر كيفيتوت، حيث طلب الجندي السماح لهم بالإسراع إلى نيقية، ولم يتمكن القادة من كبح جماح جنودهم. إلى أن جرى فجأة اكتشاف ما نزل بقوة الألمان في قلعة اكسيريجوردون - حيث قتل معظم أفراد القوة البالغ عددهم ستة آلاف جندي. وعندما تحولت الآثار إلى ذعر. واجتمع قادة الجيش للتشاور فيما يفعلونه بعد ذهاب بطرس الناسك إلى القدسية للحصول على معاونة مادية. وأثبتت ثائرة الجيش وحاسته للانتقام لما وقع في اكسيريجوردون. غير أن والتر المفلس حتى زملاءه على انتظار عودة بطرس. وفي تلك الأثناء شاع أن الترك السلاغقة قد اقتربوا بحيوشيهم من كيفيتوت. فاجتمع مجلس الحرب مرة أخرى ، وقرروا بضغط من الجيش التاثر الخروج للقاء الأتراك المسلمين وتحرك الجيش الصليبي بأكمله من كيفيتوت عند بزوغ الفجر من يوم ٢١ تشرين الأول - أكتوبر - ١٠٩٦ م. وقد زاد عدد أفراده على عشرين ألف رجل. ولم يتركوا خلفهم سوى الشيوخ والنساء والأطفال والمرضى. وسار الجيش على طريق نيقية عبر واد ضيق تكتنفه الغابات حتى وصل قرية دراكون التي لا تبعد أكثر من ثلاثة أميال عن معسكر الفرنج في كيفيتوت.. واندفعت قوة الفرسان في المقدمة، وتبعها الجيش بدون نظام، وجبلة الجندي وضوضاؤهم تسقبهم إلى بعيد. وفجأة انهالت السهام من الغابة فأصابت خيول فرسان المقدمة أو قتلتها؛ وسادت الفوضى والاضطراب، وسقط الفرسان عن ظهور الخيل. وأظهر فرسان الفرنج - أو بعضهم على الأقل - شجاعة فائقة في قتال المسلمين الذين انقضوا عليهم. ولكن الذعر هيمن على الجيش بصورة عامة ، ولم تمض فترة طويلة

حتى شرع جيش الفرنج بكماله في التماس طريق النجاة - دون نظام - والفارار نحو معسكر كيفيتوت، فيما كان الترك المسلمون يطاردونهم حتى بلغوا معهم معسركهم، ولم تحدث في المعسكر مقاومة كبيرة، ولقي كثير من جند الفرنج مصرعهم، وقتل معهم قِسْسَهُمْ قبل أن يتهيأ لهم الوقت للتحرك والسير. والتوجه فريق منهم إلى الغابات المجاورة، فيما هرع آخرون إلى البحر، ولم يفلت منهم إلا القليل - وأسر الترك المسلمون صبيان الفرنج وفتياهم وجندهم الذين وقعوا في الأسر بعد أن انتهت الشدة الأولى من القتال. على أن ما يقرب من ثلاثة آلاف رجل كانوا أحسن حظاً من الآخرين، إذ نجحوا في الوصول إلى قلعة مهجورة تقع على شاطئ البحر، وتحجرت من أبوابها ونواذبها. غير أن اللاجئين الذين استمدوا من اليأس قوة، بادروا بإقامة التحصينات من أشجار الغابات المحيطة بهم، وتمكنوا من إيقاف هجمات المسلمين. وصمدت القلعة، غير أن كل شيء فيسائر الجهات الأخرى كان قد انتهى في منتصف النهار. فملأت جثث القتلى الطريق ما بين موقع المعركة والبحر. وكان فيمن هلك والتر المفلس وعدد كبير من قادة الجيش وامرأته. واستطاع أحد الروم - البيزنطيين - الذين كانوا برفقة الجيش، أن يعثر على قارب في الماء. فأقلع به إلى القسطنطينية، وروى خبر المعركة إلى كل من بطرس الناسك والأمبراطور البيزنطي الكسيوس الذي أصدر أمره على الفور بإرسال عدد من السفن الحربية لنقل قوات ضخمة وانقاذ من بقي من القوات. ولما وصلت قوات الروم، رفع الترك الحصار عن القلعة وانسحبوا إلى الداخل. وحلت السفن من تبقى حياً من جيش الفرنج الصليبيين، وعادت بهم إلى القسطنطينية، حيث جرى انزاحهم بالضواحي بعد أن نزع الأسلحة منهم.

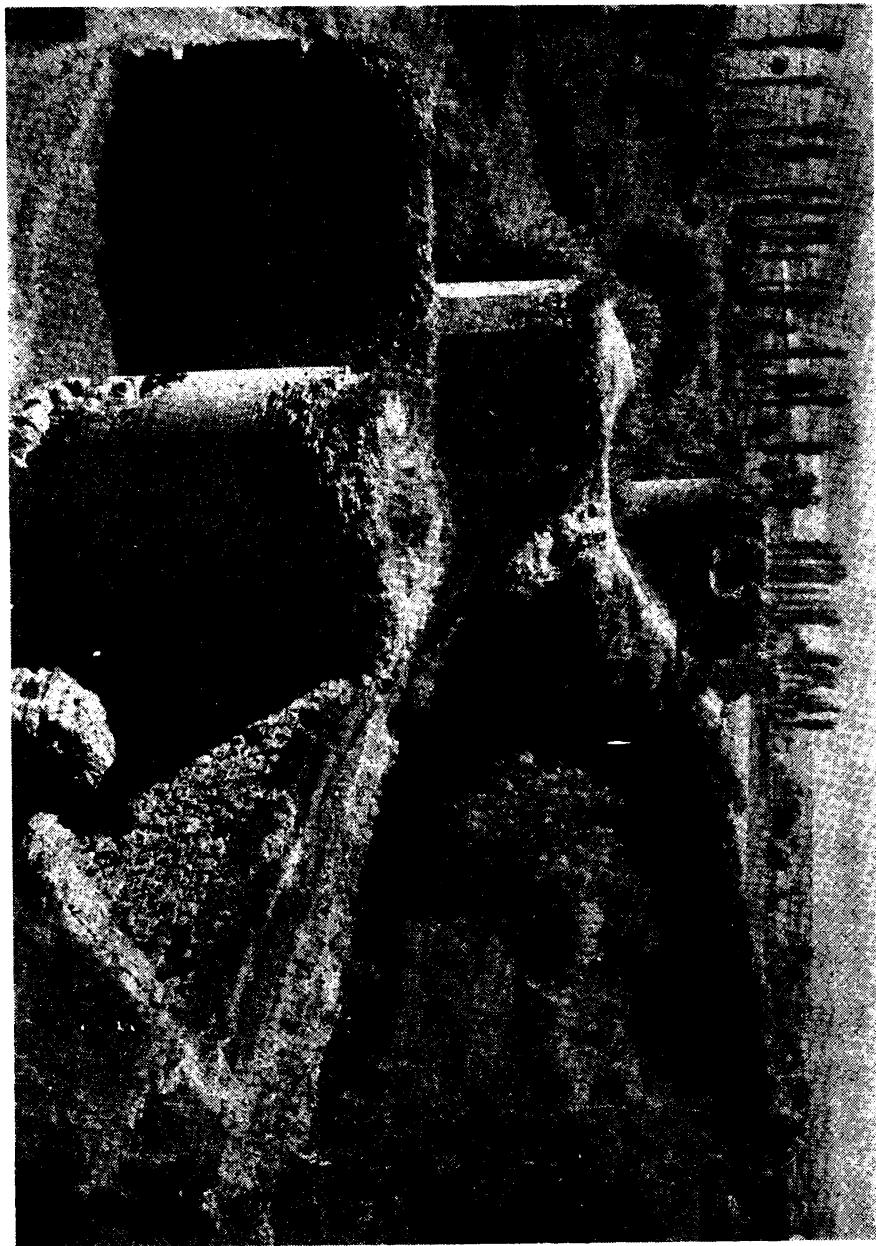
كانت هذه هي نهاية حلة الشعوب الصليبية. ولكن هذه النهاية لم تكن أكثر من بداية للحمة الحملات الصليبية. فقد دمر الأتراك المسلمون في آسيا الصغرى جيشاً واحداً، فيما كانت بقية الجيوش بعيدة عن مسرح الأحداث. ثم أخذت في الوصول تباعاً إلى المعسكر الذي أقامه لها الامبراطور البيزنطي - الكسيوس كومين - في (بليكانوم) مع مطلع فصل الربيع من سنة ١٠٩٧ م. وكان جيش اللورين والألمان - بقيادة جودفري دو بويون - هو أول جيش وصل إلى معسكر الحشد، ولحق به

جيش النورمان الذي تولى قيادته (بوهمند دوتارنت). وكان لا بد لهذه الجيوش من أن تدين بالعرفان لامبراطور الروم الكسيوس، باعتباره السيد الأعلى للمسيحية - لما قدمه من دعم ومساعدة جيوش الفرنج أثناء عبورها لبلاده، حيث كانت مستودعات التموين تقدم لها ما تحتاجه من الطعام والمساعدة طوال مسيرها من غرب بلاد الروم إلى شرقها. كما حرص ملك الروم على اعداد الأدلة من أجل مرافقة جيوش الحملة أثناء مسيرها لقتال المسلمين. وقد غادر جيش اللورين - بقيادة أميره جوفري - قاعده في بليكانوم وذلك يوم ٢٦ نيسان - ابريل - ١٠٩٧ (٤٩١ هـ) متوجهًا إلى (نيقوميديا)^(١) حيث توقف فيها ثلاثة أيام بانتظار وصول جيش - بوهمند - الذي تولى قيادته - تانكرد - وانضم إليه بطرس الناسك ومن تبقى معه من جوشه. أما بوهمند فإنه مكث بضعة أيام في القسطنطينية ليدير مع الامبراطور الكسيوس أمر إمداد الجيش بالمؤن. وصاحب الجيش الصليبي قوة من المهندسين البيزنطيين ومعهم أدوات الحصار. ثم قاد جوفري الجيش من نيقوميديا إلى - كيفيتوت - ثم انحرف جنوبًا، مخترقاً الدرب الذي هلك فيه رجال بطرس، ولا زالت عظامهم تغطي مدخل الدرب وتنبع المرور فيه. وإذا خشي جوفري أن يلقى مصرير من سبقه على هذا الدرب، فقد التزم بنصيحة امبراطور الروم، وأخذ بأسباب الحذر والخطة في سيره، فكان يدفع أمامه الكشافة والمهندسين لتطهير الدرب وتوسيعه، وتقرر وقتذاك تمييزه بإقامة سلسلة من الصلبان الخشبية، لتكون دليلاً للحجاج الذين يقدمون مستقبلاً. ووصل جوفري إلى (نيقية)^(٢) يوم ٦ - أيار - مايو -. ووقف أمام المدينة التي اشتهرت منذ القرن الرابع الميلادي بقوة تحصيناتها، والتي امتدت أسوارها بطول أربعة أميال وقامت على حراستها وحمايتها مجموعة من الأبراج بلغ عددها ٢٤٠ برجاً، وقد دأب الروم البيزنطيين على صيانتها واصلاحها باستمرار حتى استولى عليها الأتراك

(١) نيقوميديا: (NICOMEDIE) هو الأسم القديم لمدينة ازميت: (IZMIT) أو مدينة الخوجة علي - حالياً - (KOUJA-ELI) وهي مدينة تركية تقع على بحر مرمرة.

(٢) نيقية: (NICEE) وتعرف باسم ازنيك: (IZNIK) وهي مدينة في آسيا الصغرى - الأناضول - وقد اتخذها قلچ أرسلان سلطان السلاجقة عاصمة له.

ازنيك - أو نيقية - . أول عقبة على طريق الصليبيين.



السلاجقة ، وهي تقع على الطرف الشرقي من بحيرة أسكان ، وارتقت أسوارها الغربية من خلال المياه الضحلة ، فكانت شكلًا خاصاً غير منتظم .

أقام جودفري مسكنه ونظمه لخصار الجهة الشماليّة من السور ، وترك لجيش تانكرد مهمة إكمال الحصار من جهة السور الشرقي . وبقيت جهة السور الجنوبي حرّة بانتظار وصول جيش ريموند . وكان معظم سكان نيقية من المسيحيين ، إلا أنه توافرت لها حامية ضخمة من الأتراك المسلمين . وقد شعر قائد الحامية بالحاجة للامداد والدعم ، فوجّه الرسل الذين وقع أحدهم في قبضة الفرنج الصليبيين ، وطلب من السلطان دفع العساكر إلى المدينة من الأبواب الجنوبيّة قبل أن يكتمل تطويقها . ولكن ريموند وصل وجشه يوم ١٦ - أيار - مايو ١٠٩٧ م ، ووزع قواته أمام السور الجنوبي . ولم يمض يومان أو ثلاثة حتى انحاز إلى جيشه بوهمند وعساكره . وزادت كثافة قوات الجيش الصليبي بن اضم إليه من النورمان والفرنسيين . وصار يعمل على أنه كتلة واحدة ، على الرغم من أنه لم يكن للجيش وقتذاك قائد عام واحد . فكانت القرارات والأوامر تصدر عن الأمراء بعد اجتماعهم في هيئة مجلس . ولم يقع بينهم حتى وقتذاك اختلاف خطير ، وتحرك في تلك الائتاء الامبراطور الكسيوس إلى - بليكانوم ليكون في موقع متوسط بين عاصمته وبين نيقية .

عندما وصلت أول قوة تركية لنجدّة حاميّة (نيقية) وجدت بأنّ الحصار قد اكتمل من جهة البحر ، فاشتبكت لفترة قصيرة مع عسكـر - ريموند - ثم انسحبـت إلى موقع مشرف على مسكنـر الفرنـج ، وأخذـت في انتـظار وصولـ الكـتلة الرئـيسـة للـجيـش بـقيادةـ السـلطـان قـلـعـ أـرسـلـانـ ذـاتـهـ ، وأـثنـاءـ ذـلـكـ أـصدـرـ اـمـبرـاطـورـ الروـمـ - الكـسيـوسـ - تعـليمـاتهـ إلىـ قـائـدهـ - بوـتـومـيـتسـ - لـلاتـصالـ بـالـحـامـيـةـ التـرـكـيـةـ فـيـ المـديـنـةـ . وـقـامـ قـائـدـ الحـامـيـةـ التـرـكـيـةـ بـتسـهـيلـ مـهمـةـ بوـتـومـيـتسـ ، وـإـدـخـالـهـ إـلـىـ المـديـنـةـ . وـجـرـتـ مـفاـوضـاتـ حـولـ شـروـطـ الـاسـتـسـلامـ ، غـيرـ أـنـ الـمـفـاـوضـاتـ تـوقـفتـ عـنـدـمـاـ عـلـمـ قـائـدـ الحـامـيـةـ التـرـكـيـةـ بـوصـولـ جـيشـ السـلطـانـ إـلـىـ صـواـحـيـ المـديـنـةـ (يـومـ ٢١ـ -ـ آـيـارـ -ـ ماـيـوـ)ـ . حـيثـ حـاـوـلـ هـذـاـ جـيشـ اـقـتـحـامـ دـائـرـةـ الحـاصـارـ مـنـ جـهـةـ الـجـنـوبـ . وـدارـتـ مـعرـكـةـ ضـارـيـةـ اـسـتـمرـتـ طـوـالـ الـيـوـمـ ، وـأـسـفـرـتـ عـنـ وـقـوعـ خـسـائـرـ فـادـحةـ فـيـ قـوـاتـ الـطـرـفـيـنـ ، غـيرـ أـنـ جـيشـ الـمـسـلـمـيـنـ لـمـ يـنـجـعـ

في بلوغ هدفه، فقرر السلطان قلوج أرسلان الإفادة من ظلمة الليل للإنسحاب نحو الجبال، والتخلّي عن محاولة فك الحصار بالقوة، بعد أن عرف ضخامة جيش الفرنج وقوته، وأُرسل إلى قائد الحامية تعليمات للتفاوض مع الروم للإنسحاب وتسليمهم المدينة – إذا كان من المحال الاستمرار في المقاومة –.

حاول الفرنج تشديد الحصار بعد نجاحهم في منع قوات السلطان من الوصول إلى (نيقية) كما حاولوا في الأيام التالية نقب أحد الأبراج الواقعة إلى الجنوب. ونجح الناقبون في حفر قاعدة هذا البرج، غير أن الحامية الإسلامية كانت تصلح في الليل ما يخرقه الفرنج في النهار. وتبين للفرنج أن الحامية الإسلامية المدافعة عن المدينة كانت تحصل على ما تحتاجه من المواد التموينية عن طريق البحيرة. فطلب الفرنج من الامبراطور البيزنطي إرسال السفن لمنع وصول الإمدادات إلى المسلمين، فاستجاب الامبراطور لطلبهما وأُرسل اسطولاً صغيراً بقيادة بوتوميتس، وكلفه في الوقت ذاته بمعاودة الاتصال مع قائد الحامية المدافعة عن المدينة بهدف منع الفرنج من تخريب المدينة ونهبها والإساءة إلى رعاياه المسيحيين الذين كانوا بحماية المسلمين. وجرت المفاوضات حول شروط التسلیم. فيما كان الفرنج يعدون العدة للقيام بهجوم شامل حددوا موعده يوم ١٩ حزيران - يونيو -. وعندما أشرقت شمس هذا اليوم، شاهد الفرنج الصليبيون أعلام امبراطور الروم وقد ارتفعت على البرج. ذلك أن الأتراك استسلموا أثناء الليل. ودخلت قوات الروم إلى المدينة - ومعظمها من الجنادك - عبر الأبواب المطلة على شاطئ البحيرة. ويظهر أن قادة الفرنج كانوا على علم بالمفاوضات، ولم يستنكروها، لأنهم رأوا أنه ما من حاجة بهم لاضاعة الوقت، وخسارة الرجال من أجل اقتحام مدينة لن يسمح لهم بامتلاكها. غير أنهم بقوا في جهل تام بالمراحل الختامية للمفاوضات. ولكن سائر العساكر أدركوا أنهم خدعوا، وأنه جرى صرفهم عن غنيمتهم، إذ كانوا يأملون في نهب كنوز نيقية، ولكنهم بدلاً من ذلك حرموا من دخول المدينة إلا بمجموعات صغيرة - لا يزيد عدد أفرادها على العشرة، وتحت المراقبة الصارمة لجهاز شرطة امبراطور الروم. وكانوا يأملون في الحصول على فدية ضخمة من النساء والأطفال، غير أنهم رأوا هؤلاء وهم ينقلون مع امتعتهم تحت حراسة

شديدة إلى القسطنطينية أو إلى حيث كان الامبراطور ينزل في بليكانوم. فاشتدت كراهية الصليبيين للامبراطور. على أنه خف من حدة هذه الكراهية - إلى حد ما - ما اشتهر به الامبراطور من السخاء، إذ بادر الكسيوس بإصدار الأوامر بأن يصرف فوراً للكل محارب صليبي منحة من المؤونة. كما دعا القادة الصليبيين إلى التدوم إلى بليكانوم ومنحهم مقادير كبيرة من الذهب والجواهر مما غنمها من أموال السلطان السلجوقي - قلح أرسلان - واستبدت الدهشة بهؤلاء القادة لرؤيه اكداش الذهب التي كانت من نصبيه. ومقابل ذلك طلب الامبراطور الكسيوس إلى الفرسان الذين لم يخلفوا بعد مين الولاء له، أن يبادروا إلى ذلك، فأذعن لطلبه عدد كبير من صغار السادة المقطعين، الذين لم يشأ أن يزعجهم بذلك عند احتيازهم القسطنطينية. على أن الصليبيين صدمتهم ما كان من معاملة الامبراطور للأسرى الأتراك، إذ سمح لموظفي قصر السلطان وكبار القادة بافتداء أنفسهم. أما السلطانة - ابنة الأمير جكا - فجرى استقبالها في حفاوة بالقسطنطينية -. وكان لا بد أن تبقى بها حتى تصلها رسالة من زوجها ، عن الموضع الذي تلحقه به. وتقرر إنفاذها مع أبنائها إلى السلطان دون دفع الفدية★.

على كل حال ، ورغم ما أصاب الفرنج من خيبة الأمل في أنهم لم يستولوا بأنفسهم على مدينة نيقيا ، ولم يتمكنا من اغتنام ثرواتها ، فإن إعادة هذه المدينة لحكم الصليبيين ولو لمصلحة الروم ، قد ملأهم غبطة وسروراً وأملاً في المستقبل. وأرسلت الرسائل إلى الغرب للإعلام بأن هذا الموضع المجل قد عاد لل المسيحية مرة أخرى. وتلقى الناس هذا النباء وتناقلوه بحماسة شديدة ، فقد أحرزت الحملة الصليبية أول نجاح لها. فأخذ الجندي في التدفق على معسكر الفرنج. كما أن المدن الإيطالية التي بقيت حتى ذلك

★ لقد اعتبر أمراء الغرب وقادتهم أن امبراطور الروم يتصرف بوجهين مختلفين، وأنه ليس مخلصاً لقضية الصليبيين. وذلك أنهم كانوا يجهلون مثل هذا النوع من السلوك الذي طلما أخذ به المسلمين في تعاملهم مع أسرى اعدائهم، ومع أمرائهم وملوكيهم خاصة، بما حل بهؤلاء على التعامل مع المسلمين بالنهج ذاته. لقد علم المسلمون ملوك الروم أدب الحرب وتقاليد الحرب التي كان يجهلها الغربيون وملوكيهم وقادتهم.

الوقت شديدة الخدر ، وبالغة الميل إلى التمهل في تقديم ما وعدت به من المساعدة ،
أخذت تظهر مزيداً من الاهتمام بالحركة الصليبية .

تحركت مقدمة الفرنج بعد مضي أسبوع واحد على احتلال نيقية (يوم ٢٦ حزيران - يونيو) وتبعتها بقية قوات جيش الفرنج في اليومين التاليين . وكان على هذه القوات أن تصلك إلى (دوريليون)^(١) حيث كانت تتفرع منها الطرق نحو الشرق ، سواء للوصول إلى وادي الفرات وأرمينيا ، أو للوصول إلى أسطاكية عبر دروب جبال طوروس (اللكلام) . وقد تختلف عن الجيش عدد من الصليبيين الفرنج ، فيهم جرجى معركة نيقية - حيث انضموا إلى جيش امبراطور الروم الذي أحقهم بالقائد بوتوسيس بعد أن كلفه بإعادة تحصين نيقية ، واقامة حامية قوية فيها .

عقد أمراء جيش الفرنج مؤتمراً لهم للتشاور في قرية لويكي عند الجسر القائم على النهر الأزرق . وقرروا تقسيم الجيش إلى قسمين أو مجموعتين المجموعة الأولى بقيادة بوهمند والمجموعة الثانية بقيادة ريموند كونت تولوز - وسار الجيش على الفور نحو دوريليون ، تقدمة المقدمة ومعها الأدلة والمهندسين البيزنطيين .

عمل السلطان قلج أرسلان بعد فشله في إنقاذ حامية عاصمته - نيقية - على الانسحاب نحو الشرق ، لإعادة تنظيم قواته ، وعقد صلحًا مع الأمير الدانشمندي الذي كان يحاربه من قبل ، وذلك لمواجهة العدو المشترك ، ثم توجه من جديد نحو الغرب ، وقد حشد كل ما استطاع حشده من القوى . واخذ موقعه في واد قرب دوريليون يوم ٢٠ حزيران - يونيو - استعداداً لمواجهة الفرنج الصليبيين الذين لا بد لهم من المرور عبر هذا الوادي لمنطقة تقدمهم ولم يلبث الجيش الصليبي أن تقدم وأقام معسكراً في سهل - ساري سو - على الأغلب في مساء يوم ٢٦ حزيران - يونيو - وعند شروق الشمس من اليوم التالي ، اندفع فرسان الترك من جانب مرتفع - كردجا شهر - المشرف على معسكر الفرنج وهم يكثرون ويهللون ، فوجدوا أن الفرنج قد أخذوا

(١) دوريليون : (DORYLEEUM) وبالفرنسية : (DORYLEE) وباليونانية : (DORULAEION) وهي مدينة قديمة في آسيا الصغرى - الأناضول - وتقع بالقرب من مدينة أسكى شهر حالياً وعلى بعد مسافة ميلين إلى الشمال الشرقي منها .

أهنتهم ، وبادر غير المقاتلين منهم للتجمع في وسط المعسكر الصليبي حيث توافرت ينابيع المياه ، وقامت النساء بهمّة نقل المياه للمحاربين في الخط الأمامي . وتقرر نصب الخيام فوراً ، وصدرت الأوامر إلى الفرسان بالترجل عن خيولهم ، فيما توجه الرسل إلى الجيش الصليبي الثاني لحثّه على التعمّل بالسير . وجاء قائد الجيش - بوهمند - قادته ، وتحدث إليهم عن الاستعدادات لخوض قتال شديد شاق . وطلب إليهم أن يتزموا في بداية الأمر خطّة الدفاع . وأثناء ذلك كان الأتراك المسلمين قد أكملوا تطويق معسكر الصليبيين الذين تراءى لهم أن عدد الترك لا حصر له ، واستخدم المسلمين على ما اعتادوا عليه من الأساليب التكتيكية ، فكان رماتهم ينطلقون إلى الخط الأمامي ، فيقذفون بسهامهم ، ثم يترافقون لإفساح المجال لغيرهم ، وهكذا استمر انهار سيل السهام على الفرنج . ولما ارتفع النهار ، واشتدت الحرارة ، شعر الفرنج بأنهم لن يتمكّنوا من الصمود طويلاً . فقد نجح المسلمين الترك بتطويق المعسكرات فبات من المحال عليهم القاس طريق النجاة ، ولم يعد أمامهم إلا الاسترقاء والأسر إذا ما اضطروا للإسلام . ودفعهم الخوف من هذا المصير البائس للتعاهد على القتال حتى الموت . ولكن ما إن انتصف النهار حتى بدأت طلائع الجيش الصليبي الثاني في الوصول إلى ميدان المعركة . ولم يتمكن الأتراك المسلمين من منع الاتصال بين الجيدين الصليبيين . وانتقل الفرنج الصليبيون للهجوم على امتداد الجبهة الواسعة ، وكانت قوة من الصليبيين بقيادة أسقف لوبيو - أدهيم - قد انفصلت عن كتلة الجيش الرئيسة ، وصاحت الأدلة والكشافة ، وشرعت في التسلل عبر الشعاب والممرات الجبلية ، حتى إذا ما وصلت إلى مؤخرة جيش الأتراك ، بوجت هؤلاء مباغة أذهلتهم وحملتهم على الفرار ، وتخلىوا عن خيامهم مقاومة الأتراك ، ولم يلبث أن شرع جيشهما بالفرار إلى الشرق ، وتخلىوا عن خيامهم ومعسكريهم الذي ضمّ سرادقات السلطان والآمراء ، بما ذُخت به من الثروة والغنية . واستولى الفرنج على ذلك كله . وانتصر الفرنج انتصاراً حاسماً دفعوا ثمنه غالياً . فقد سقط على أرض المعركة عدد كبير من أمرائهم وفرسانهم . مما أرغمهم على الاعتراف بشجاعة الأتراك المسلمين والاعجاب ببطولتهم وكفاءتهم . وذهب بعضهم إلى وصفهم بأنهم :

«من أروع العناصر وأكثرها شجاعة - لو كانوا مسيحيين» .

أما السلطان قلوج أرسلان ، فإنه تابع انسحابه بقواته نحو الشرق بعد أن أدرك أنه غير قادر على ايقاف الفرنج الصليبيين . والتى أثناء انسحابه بقوات من الترك الذين قدموا من سوريا للاشتراك في المعركة ، فشرح لهم أن ما لدى الفرنج من الجنود والقوة هو أكبر بكثير مما كان يتوقعه . ولذا وجيشه إلى التلال بعد أن دمروا المدن والقرى التي في طريقهم حتى لا يجد فيها الفرنج الصليبيون ما يقتاتون به عند تقدمهم *

★ ★ ★

أعاد الجيش الصليبي تنظيم قواته بعد معركة دوريليوم ، وأخذ قسطه من الراحة ، ثم استأنف مسيره يوم ٣ تموز - يوليو - سنة ١٠٩٧ م (٤٩١ هـ) وقد حرص على أن يتقدم على شكل رتل متصل حتى يتتجنب ما سبق أن تعرض له من الخطر في دوريليوم . وأخذ يشق طريقه صوب الجنوب الشرقي عبر هضبة الأناضول . وتعرض الجند لصعوبات جمة بسبب أدوات الحرب الثقيلة التي كانوا يحملونها ، واحتيازهم لأقاليم مقفرة موحشة . علاوة على صعوبة العثور على التموين والمياه في أقاليم عمل الأتراك المسلمين على تخريبها وتدمير مواردها الحياتية ، إلى أن وصلوا إلى قونية في منتصف شهر آب - أغسطس - . وبعد استراحة قصيرة تابع الجيش الصليبي سيره حتى وصل إلى (هرقلة) حيث تعرض لهجوم صغير شنه الأتراك - الدانشمنديون - على شكل اغارة ، انسحب بعدها الأتراك « وومض في السماء مذنب مؤذناً بانتصار الصليبيين » .

وعقد قادة جيش الفرنج مجلساً لم في هرقلة تقرر فيه أن تسير الكتلة الرئيسية للجيش إلى انطاكية على محور قيصرية - كومانا - كوكسن أو جكشن

* قتل قلوج أرسلان بعد ذلك سنة ١١٠٦ م = ٥٠٠ هـ وذلك بعد هزيمته في معركة مع خصمه الدانشمندي - جاوي مقاور - وكان جيشه يضم خمسة آلاف مقاتل بينما كان جيش جاوي يضم أربعة آلاف مقاتل . ويظهر ذلك ضعف كافة القوى المتصارعة بالمقارنة مع ما حشده الفرنج الصليبيون من القوى .

حالياً - مرعش - بينما قرر تانكرد وبوهمند السير على محور آخر للوصول إلى مرات طوروس.

استقبل الأرمن جند الصليبيين في كل مكان بالحفاوة البالغة والترحاب الكبير. وهذا مما ساعد جيش الفرنج الصليبيين على بلوغ أهدافه دون صعوبات ومشاق، ومكنته من القضاء على إغارات مجموعات التركمان المتفرقة. والمعروف أن بدلويني البولوني كان قد أقام صداقات مسبقة مع زعماء الأرمن. كما كان هؤلاء الزعماء، وخاصة أمير الراها - توروس - وصهره أمير ملطيه - جريل - قد أوفدا إلى روما رسلاً للحصول على دعم البابا وتأييده، وهو هو الدعم يصل على شكل حلة صلبيية ضخمة، وظن الأرمن أن أخوانهم في الدين سيقدمون لهم المساعدة للاستقلال بأمورهم، ولمقاومة هيمنة الأتراك المسلمين وقد أفاد بدلوين من ذلك، فتحرك من هرقله بقوة صغيرة (مائة فارس ومائتي راجل) وتبعه تانكرد بقوة صغيرة أيضاً (خمسين فارس وألفي راجل - مشاة). وبعد مسيرة صعبة وشاقة، وصل بدلوين إلى الراها حيث استقبله توروس وتبناه. ومنحه سلطات واسعة، ولكن ما لبث بدلوين أن طمع بالحكم، ودبب مؤامرة قتل فيها توروس. وشكل مجلساً من الفرنج للحكم، واستبعد الأرمن من مراكز السلطة وعاملهم باحتقار مما دعاهم للثورة التي تمكّن بدلوين من إجهاضها في مهدها. وقتل المشتركون فيها. ولم يعد الندم يفيد الأرمن شيئاً، لقد استقدموا أخوانهم في الدين لنصرتهم على المسلمين. وهو هم يشعرون بالحنين لتلك الرابطة التي كانت تربطهم بالمسلمين. وزاد الشعور بالتباين بين الأرمن وبين هؤلاء الفرنج القادمين من الغرب، والذين ما إن علموا بما حققه بدلوين من النجاح في إقامة أول دولة صلبيّة في الراها، حتى أسرع عدد كبير منهم بالتخلي عن حصار انطاكية والإسراع إلى الراها، حيث كان بدلوين يغدق عليهم الأموال والاقتاعات ليدعم مركزه وقوته. ولو كان ذلك على حساب الأرمن حلفاء الفرنج الصليبيين وأنصارهم. وشرع بدلوين بالعمل لتوسيع حدود إمارته. وكان لا بد له من الاصطدام بال المسلمين في الإمارات المجاورة لإمارة الراها.

٢ - الفرنج في بلاد الشام .

أقام الفرنج على حصار أنطاكية فصل الشتاء (١٠٩٧ - ١٠٩٨ م). واشتد بهم الضيق حتى وصلوا إلى مرحلة اليأس من امكان اقتحام المدينة التي أتقن أميرها - ياغي سيان - الدفاع عنها وحصنتها وأعدوها اعداداً رائعاً غير أن خيانة أحد الأرمن واسمه زراد أو بروز به - كما يذكره ابن الأثير (وفيروز كما ذكره تاريخ الحروب الصليبية) وهو رجل اعتنق الإسلام حديثاً على ما يظهر أو تظاهر باعتناق ووصل إلى مرتبة جيدة في جيش ياغي سيان - اتصل باخوانه السابقين في الدين، وساعدهم على اقتحام المدينة وجرت مذبحة رهيبة حتى لم يبق في المدينة أحد من المسلمين *

أقام الفرنج بانطاكيه ، لتنظيم أمرها ، وحل مشكلة خلافاتهم وصراعاتهم الداخلية ، ثم ارتحلوا عنها يوم ٢٣ تشرين الثاني - نوفمبر - ١٠٩٨ م. ووصلوا بعد أربعة أيام إلى (معرة النعمان) فنازلوها وحصرواها ، وقاتلهم أهلها قتالاً شديداً ، ورأى الفرنج منهم شدة ونكأية ، ولقوا منهم الجد في حربهم والاجتهد في قتالهم ، فعملوا عند ذلك برجاً من خشب يوازي سور المدينة ، ووقع القتال عليه ، فلم يضر المسلمين ذلك ، فلما كان الليل خاف قوم من المسلمين وتدخلهم الفشل والهلع ، وظنوا أنهم إذا تحصنوا بعض الدور الكبار ، امتنعوا بها ، فنزلوا من السور وأخلوا الموضع الذي كانوا يحفظونه ، فرأهم طائفة أخرى ففعلوا ك فعلهم فخلا مكانهم أيضاً من السور ، ولم تزل تتبع طائفة منهم التي تلتها في النزول حتى خلا السور فصعد الفرنج إليه على السلاليم ، فلما علوه تحير المسلمون ، ودخلوا دورهم ، فوضع الفرنج فيهم السيف ثلاثة أيام ، فقتلوا ما يزيد على مائة ألف . وسبوا النبي الكثير ، وملكونه ، وأقاموا أربعين يوماً ،

* انظر القسم الثاني من الكتاب (الخصوص والقلاع - انطاكيه) والكامل في التاريخ ابن الأثير احداث سنة ٤٩٢ و ٤٩٣ هـ - وتاريخ الحروب الصليبية ١/٣٠٣ - ٣٧٠.

وساروا إلى عرفة، فحصرواها أربعة أشهر، ونقبوا سورها عدة نقوب، فلم يقدروا عليها، وراسلهم صاحب شيزر - منفذ - فصالحهم عليها. وساروا إلى حصن، وحصرواها، فصالحهم صاحبها جناح الدولة، وخرجوا على طريق الناوير إلى عكا فلم يقدروا عليها.

كان حكام مصر - الفاطميون - يعتقدون أن باستطاعتهم التفاهم مع الفرنج الصليبيين للعمل معاً ضد الأتراك المسلمين - أهل السنة -. كما كان الامبراطور البيزنطي الكسيوس قد نصح الفرنج - مذ وصلوا إلى القسطنطينية - بالسعى للوصول إلى اتفاق مع الفاطميين في مصر - باعتبارهم أشد الناس عداء للترك ، ولا يقبلون مطلقاً مصالحهم ، بينما اشتهروا بالتسامح مع رعاياهم المسيحيين ، وكانوا دائمًا مستعدين للتفاهم مع الدول المسيحية ، والراجح أن الفرنج الصليبيين لم يأخذوا بهذه النصيحة في بداية الأمر ، غير أنه حدث في أوائل فصل الربيع من سنة ١٠٩٨ م (٤٩٢ هـ) أن وصلت سفارة مصرية إلى معسكر الصليبيين أمام انطاكية ، أرسلها كبير وزراء الخليفة الطفل المستعili - الأفضل - وتقدمت السفارة بعرض لاقتسام الامبراطورية السلجوقية ، فيحوز الفرنج شهاب بلاد الشام ، بينما تحصل مصر على فلسطين ، ويظهر أنه الوزير الأفضل قد اعتبر الصليبيين مثلهم مثل العساكر المرتزقة الذين يعملون في خدمة أميراطور الروم الكسيوس ، فافتراض أن هذا التقسيم الذي قام على أساس ما كان معروفاً من وضع الأمور في القدم ، قبل غزوات الترك المسلمين ، سوف يلقى قبولاً تاماً . وقد استقبل أمراء الغرب سفارة الأفضل بملودة والحفاوة ، ولكنهم لم يتزموا بتبني أي موقف خاص ، ومكث المصريون في المعسكر الصليبي بضعة أسبوع ، عادوا بعدها إلى مصر ، ومعهم سفاره صغيرة من الفرنج وقد حللت معها المدايا الوفيرة - جاء معظمها مما غنمته الفرنج من بلاد المسلمين . واستخلص الصليبيون من المفاوضات ما يعود عليهم من المزايا والفوائد ، من خلال تدبير المؤامرات مع الدول الإسلامية للمضي في هدفهم من أجل الوصول إلى القدس .

كانت القدس تحت حكم الأمير سقمان ابن أرتق التركماني ، التابع لأمير دمشق تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان . فلما ظفر الفرنج بالأتراك على انطاكية ، وقتلوا فيهم ،

ضعف الترك وتفرقوا، فلما رأى المصريون ضعف الأتراك ساروا إليهم ومقدمهم الأفضل بن بدر الجمالي، وحصروه، ونصبوا عليه نيفاً وأربعين منجيناً، فهدموا مواضع من أسوار القدس، وقاتلهم أهل البلد، فدام القتال والحاصر نيفاً وأربعين يوماً، ثم دخل المصريون القدس بالأمان، وملكونه في شعبان سنة تسع وثمانين وأربعين (١٠٩٥ م). وانسحب سقمان وايلغازي ابنا ارتق ومن معها إلى دمشق، ثم ساروا إلى الفرات. واستناب المصريون حكم القدس رجلاً اسمه افتخار الدولة. ولكن ما إن مضت سنتان ونيف حتى وصل الفرنج الصليبيون إلى القدس - بعد أن حصروا في طريقهم عكا فلم يقدروا عليها - وحصروا القدس نيفاً وأربعين يوماً، ونصبوا عليه برجين أحدهما من ناحية صهيون وأحرقه المسلمين وقتلوا كل من به، فلما فرغوا من إحراقه أتاهم المستغيث بأن المدينة قد ملكت من جهة الشمال - ضحوة النهار من يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان سنة اثنين وتسعين وأربعين (١٠٩٨ م) وركب الناس السيف. وأصبحت القدس في قبضة الفرنج★.

لم يكن هذا ما يتوقعه الحكم الفاطمي في مصر ، ولهذا فعندما وصلت الأخبار إلى القاهرة باستيلاء الفرنج على القدس ، وطرد الحامية المصرية منها ، وذبح أهلها. جمع أمير الجيوش الأفضل جنده وحشد قواته وسار إلى عسقلان ، وأرسل إلى الفرنج ينكر عليهم ما فعلوا ويتهذّبم. فأعادوا الرسول بالجواب ، وعجلوا بالمسير في أثره. وطلعوا على المصريين عقب وصول الرسول . ولم يكن عند المصريين خبر وصوّلهم ولا من حرّكة ، ولم يكونوا على أبهة القتال. فتنادوا إلى ركوب خيولهم ولبسوا أسلحتهم. وأعجلتهم الفرنج فهزّوهم ، وقتلوا منهم من قتل ، وغنموا ما في معسّرهم من مال وسلاح وغير ذلك ، وانهزم الأفضل ودخل عسقلان . ومضى جماعة من المنهزمين فاستتروا بشجر الجميز وكان هناك كثيراً. فأحرق الفرنج بعض الشجر حتى هلك من فيه ، وقتلوا من خرج منه ، وعاد الأفضل في خواصه إلى مصر . ونازل الفرنج عسقلان ، وضايقوها ، فبذل لهم أهلها قطعة اثني عشر ألف دينار - وقيل عشرين

* انظر القدس في الفصل الثاني - الحصن والقلاع - وانظر قراءات في آخر الكتاب (القدس في يومين مشهودين).

ألف دينار، ثم عادوا إلى القدس، ليعيدوا تنظيم أمورهم، وليعملوا على تنظم إدارة البلاد التي احتلوها. واتفقوا على إقامة مملكة في القدس - وتم اختيار - جودفري - ليكون أول ملك لمملكة القدس. ولو أن جودفري تظاهر بالامتناع عن اتخاذ لقب ملك، واكتفى بلقب حامي القبر المقدس.★ وهكذا نجح الفرنج في إقامة مملكة لهم في القدس ملكها جودفري ، مع إقامة إمارة في الرها بحكم الأمير - الكونت بدلوين - وإمارة ثالثة في انطاكيه أميرها بوهمند .

وكان ذلك هو بداية الصراع لا نهايته. فقد أخذت كل إمارة في التوسع على حساب بلدان المسلمين، وكان لا بد من الصدام بقوى المسلمين المترفة ، والتي استطاعت في كثير من الأحيان احراز انتصارات مثيرة وذلك على نحو ما حدث سنة ٤٩٣ هـ (١٠٩٩ م) حيث كان حاكم ملطيه الأمير جبرائيل الأرمني قد طلب من أمير انطاكيه بوهمند أن يدعمه لمقاومة أمير سيواس الأمير الدانشمندي غازي جشتكن (أو أنوشتكين). وكان من الطبيعي أن يعمل الأمير جبرائيل على طلب الدعم من بوهمند الذي تقع إمارته على مسافة بعيدة، وألا يطلب مثل هذا الدعم من أمير الرها المتاخم لحدود امارته ، نظراً لما ظهر من أطماع أمير الرها بدلوين ، ولما قام به من أعمال ضد أمير أرمينيا السابق - توروس - بصورة خاصة وضد الأرمن بصورة عامة . وعلى كل حال ، فقد رحب - بوهمند - بهذا الطلب الذي يفسح له المجال لمنافسة أمير ملطيه في نفوذه ، فتولى قيادة خمسة آلاف من الرجاله★ وهو يعتقد أنه يستطيع أن يقهر الترك بقوة صغيرة العدد ، فسار دون اكترااث ، وارتقي التلال التي تفصل ملطيه عن وادي نهر أقسو . حيث اصطدم بأمير الدانشمند الذي كان قد تربص له وقواته بذلك الموضع فانهزم بوهمند - بيمند - وأسر . ثم وصل من البحر سبعة قيامصة - جع

* انظر الكامل في التاريخ - أحداث سنة ٤٩٣ هـ - ويذكر أن تاريخ الحروب الصليبية قد انقص من هذا العدد على نحو ما جرت عليه عادة المستشرقين وذلك للانتفاصل من قيمة النصر ، حيث ورد فيه ما يلي : « لم يصطبغ - بوهمند - معه إلا ثلاثة فارس وأتباعهم من الرجاله» تاريخ الحروب الصليبية : ٤٥٣/١ . أما عن قائد المعركة المسلم . فقد ذكر عنه ما يلي : « هو كمشتكين بن الدانشمند طايلو . وقيل له ابن الدانشمند لأن آباءه كان معلمأً للأولاد ».

كانت - من الفرنج وأرادوا تخلص بيمند ، فاتوا قلعة أنكورية فأخذوها وقتلوا من بها من المسلمين ، وساروا إلى قلعة أخرى فيها اسمعيل بن الدانشمند وحصرواها ، فجمع ابن الدانشمند جمّاً كثيراً ولقي الفرنج ، وجعل له كميناً وقاتلهم ، وخرج الكمين عليهم ، فلم يفلت أحد من الفرنج - سوی ثلاثة آلاف هربوا ليلاً وأفلتوا مجردين وسار ابن الدانشمند إلى ملطية فملكتها ، وأسر صاحبها . ثم خرج إليه عسكر الفرنج من انطاكية فلقاهم وكسرهم . وكانت هذه الواقعة في شهور قليلة . وبقي صاحب انطاكية - بيمند - في أسر الدانشمند حتى سنة ٤٩٥ هـ (١١٠١ م) حيث أطلق الدانشمند سراحه مقابل فدية قدرها مائة ألف دينار ، وبشرط اطلاق سراح ابنة أمير انطاكية السابق - ياغي سيان - . فلما عاد بيمند إلى انطاكية قويت نفوس أهلها الفرنج ، ولم يكدر بيمند يستقر حتى أرسل إلى أهل العاصم وقنسرين وما جاورها يطالهم بالاتaque ، فورد على المسلمين من ذلك ما طمس المعالم التي بناها الدانشمند .

تابع الفرنج الصليبيون تنفيذ مخططاتهم التوسعية ، وأعمال الابادة للمسلمين في كل مكان ، فعندما فتح الفرنج مدينة سروج التابعة لإمارة الرها (سنة ٤٩٤ هـ) قتلوا أهلها ونهبوا ما فيها . وعندما فتحوا طرطوس (أو أنطرطوس) وهي من أعمال طرابلس ، قتلوا من بها من المسلمين (سنة ٤٩٥ هـ) وحاولوا فتح حصن في هذه السنة أيضاً فعجزوا عن ذلك .

أما على جبهة الجنوب ، فقد استمر الفرنج في توسيعهم فملكونا (سنة ٤٩٦ هـ = ١١٠٢ م) يافا وأرسوف وقيسارية وحيفا وطبرية واللاذقية . أما طرابلس فقد بقيت تحت الحصار ، ولم يبق للمصريين غير قيسارية . مما أثار حاكم مصر . فأرسل أمير الجيوش - الأفضل - جيشاً بقيادة أحد ماليك أبيه - واسمه سعد الدولة ويعرف بالطواشي - لقتال الفرنج الصليبيين ، فاصطدم بهم في موضع بين الرملة ويافا - وكان جيش الفرنج بقيادة مقدمهم بدلوين - بدلوين - وتصافوا واقتتلوا ، وحملت الفرنج حلة صادقة فانهزم المصريون ، وتردى فرس سعد الدولة ، فسقط سعد الدولة ميتاً أثناء انهزامه . وملك الفرنج خيمه وجميع ما للمسلمين . فأرسل الأفضل بعده جيشاً كبيراً بقيادة ابنه شرف المعالي ، فالتحقى بالفرنج بيازوز قرب الرملة ، فانهزم الفرنج

وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وعاد من سلم منهم مغلولين . فلما رأى بلد़وين شدة الأمر ، خاف من القتل أو الأسر ، وألقى نفسه في المروج ، واختفى فيها ، فلما ابتعد المسلمون ، خرج من مخبئه إلى الرملة . وسار شرف المعالي بن الأفضل من المعركة ونزل على قصر بالرملة وبه سبعاءة من أعيان الفرنج - وفيهم بلدُوين الذي هرب متخفياً إلى يافا عندما وصل جيش المعالي بن الأفضل - وقاتل ابن الأفضل من بقي خمسة عشر يوماً ثم أخذها ، فقتل منهم أربعاءة صبراً ، وأسر ثلاثة فنقلهم إلى مصر . ثم اختلف أصحابه في مقصدِهم ، فقال قوم نقصد القدس ونتملّكه ، وقال قوم نقصد يافا وملوكها . فيينا هم في هذا الاختلاف إذ وصل إلى الفرنج خلق كثير في البحر قاصدين زيارة القدس ، فندبهم بلدُوين للغزو ، فساروا إلى عسقلان وبها شرف المعالي ، فلم يكن يقوى بحرُّهم ، إلا أن الفرنج هالهم ما شاهدوه من قوة تحصينات عسقلان ، وخفوا من هجوم ليلي يشنّه عليهم المسلمون ، فانسحبوا إلى يافا ، وعاد الأفضل إلى أبيه في مصر . وفي السنة التالية (٤٩٧ هـ = ١١٠٣ م) خرج الفرنج من الراها ، وافتقدوا فرقتين ، وأغاروا على الرقة وقلعة جعبر في يوم واحد . واستأقاوا المواشي وأسرروا من وقع بين أيديهم من المسلمين . أما في الجنوب ، فقد نجح الفرنج بالاستيلاء على جبيل . ودخلوها بالأمان فغدروا بأهلها وأخذوا أمواهم ، ثم استولوا على عكا وملقوها بالسيف ، قهراً ، وفعلوا بأهلها الأفعال الشنيعة . أما حاكمها فقد رجع إلى مصر .

قد يكون من طبيعة الأمور في مراحل الانهيارات التي تنتاب الشعوب أحياناً أن تختلط الأمور بعضها ببعض ، وأن تضيع القيم ، فيحاول الخصوم المتنافسون الاستعانة بالاعداء ضد الأصدقاء .

وهذا ما حدث في هذه السنة (٤٩٧ هـ) عندما توفي حاكم دمشق وأميرها دفاق بن تتش بن ألب أرسلان ، فتولى قائد الجيش - الأنباري طغتكين - الوصاية على ابن دفاق الطفل ، وطبع عم الطفل - بكتاش بن تتش - بحكم دمشق ، فقد بعلبك وجع الرجال وانضم إليه حاكم بصرى الأمير أيتكنن الحلبي ، وسارا إلى حوران ، ولحق بهما كل من يريد الفساد . واتصالاً بملك القدس بلدُوين - بلدُوين - فسار إليهما واجتمعوا واتفقوا ، غير أن بكتاش وأيتكنن لم يرانيا من بلدُوين غير التحريض على

الافساد في أعمال دمشق وتخريبها . فلما يئسا من نصره عادا من عنده ، وتوجهوا إلى الرحبة (الميادين حالياً) فملكها بكتاش . واستقام أمر طفتكن بدمشق ، وأحکم الأمر ، وأحسن إلى الناس ، وبث فيهم العدل فسروا به سروراً كثيراً . وتكررت الحروب والغارات بين عسكر دمشق وبين عسكر ملك القدس بلدوين - بعشوين - فتارة هؤلاء وتارة هؤلاء . فلما كانت سنة ٤٩٩ هـ = ١١٠٥ م جمع أمير دمشق - طفتكن - جيشه وسار به لتدمير حصن كان قد أقامه بلدوين بين بلاده وبين دمشق للإغارة منه على أقاليم المسلمين . فتصدى له أمير الحليل بقواته ، واقتتلوا واستندت القتال ، فانهزم أميران من عسكر دمشق . فتبعهما طفتكن وقتلهما ، وانهزم الفرنج إلى حصنهم فاحتلوا به . فقال طفتكن لجنده : من أحسن قتالهم وطلب مني أمراً فعلته معه ، ومن أتاني بمحجر من حجارة الحصن أعطيته خمسة دنانير ، فبذل الرجال نفوسهم ، وصعدوا إلى الحصن وضربوه وحلوا حجارته إلى طفتكن فوفى لهم بما وعدهم . وأمر بالقاء الحجارة في الوادي . وأسروا من بالحصن ، فأمر بهم فقتلوا كلهم ، واستبقي الفرسان أسراء ، وكانوا مائتي فارس . ولم ينج من كان في الحصن إلا القليل . وعاد طفتكن إلى دمشق منصوباً . فزین البلد أربعة أيام . وخرج منها إلى رفينية وهو من حصون الشام وقد تغلب عليه الفرنج وصاحبہ ابن اخت صنجل - سانت جيل الكونت ريموند - الذي كان مقیماً على حصار طرابلس ، فحصره طفتكن وقتل به خمسة رجل من الفرنج . وشعر - طفتكن - أنه بات قادرًا على تصفية الحساب مع صاحب بصرى أيتكن الحلبي الذي تعاون مع بكتاش بن تتش ودفعه للتحالف مع - أعداء الدين - من أجل العمل ضد دمشق - على نحو ما سبق ذكره - . فسار طفتكن بجيشه إلى بصرى وحصارها ، فهادنه أهلها واستمهلوه لتسليم البلد إليه ، فوافقهم حتى إذا ما حان الموعد المحدد ، تسلم طفتكن بصرى ، فأحسن إلى أهلها ، ووفى لهم بما وعدهم ، وبالغ في إكرامهم ، وكثير الثناء عليه والدعاء له ، ومالت النفوس إليه وأحبوه .

جرى الصراع على جبهة الشمال بصورة مشابهة لما كان عليه في جبهة الجنوب . فقد تولى أمير انطاكية طنكري - تانكرد - قيادة جيشه ، وسار به إلى حصن أرتاج وعمل

على حصره - وبه نائب أمير حلب رضوان بن تتش. وضيق الفرنج على المسلمين، فأرسل نائب الأمير بمحصن ارتاح إلى رضوان يعرفه ما هو فيه من الحصر الذي أضعف نفسه، ويطلب النجدة، فسار رضوان في عسكر كثير من الخيالة، وسبعة آلاف من الرجال منهم ثلاثة آلاف من المتطوعة، فساروا حتى وصلوا إلى قنسرین وبينهم وبين الفرنج قليل. فلما رأى طنكري كثرة المسلمين أرسل إلى رضوان يطلب الصلح، فأراد رضوان أن يجيب بالموافقة، ولكن أصبهذ صباوو منعه من ذلك فامتنع من الصلح، وأصطافوا للحرب، فانهزمت الفرنج من غير قتال، ثم قالوا نعود ونحمل عليهم حلة واحدة، فإن كانت لنا وإلا انهزمنا. فحملوا على المسلمين، فلم يثبت المسلمون وانهزموا وقتل منهم وأسر كثير، وأما الرجال - المشاة - فإنهم كانوا قد دخلوا معسكر الفرنج لما انهزموا فاشتغلوا بالنهب فقتلتهم الفرنج، ولم ينج إلا الشريد فأخذ أسيراً وهرب من في أرتاح إلى حلب وملكه الفرنج (سنة ٤٩٨ هـ).

كان أمراء المسلمين يخوضون حروبهم - بعضهم ضد بعض - بجناحاً عن النفوذ والسلطة أحياناً، وتحت غطاء الصراع المذهبي بين المتشيعين في مصر وأهل السنة في أحيان أخرى، وقد جاء الآن عامل جديد هو الصراع ضد الغزاة - الفرنج الصليبيين، ففرض وجوده بقوة، وأيقظ الوعي لدى جاهير المسلمين، ولدى أمرائهم أيضاً، على الواقع الجديد، حيث ظهرت الحاجة لحشد قوى المسلمين ضد العدو المشترك. وكان لا بد - على ما يظهر - من انقضاء فترة زمنية للتحول الكامل، والارتفاع عن مستوى الصراعات المحدودة والعقيمة - بين المسلمين بعضهم ضد بعض - لمواجهة الخطر الأكثر تهديداً، والأكثر خطراً. غير أن بعض أمراء المسلمين استمر في موقعه القديمة، واتخذ من العامل الجديد ذريعة هي حشد القوى ضد العدو المشترك: وذلك للاستيلاء على ممتلكات الأمراء المسلمين المناوئين له.

وهذا ما ظهر أيضاً سنة ٤٩٩ هـ = ١١٠٥ م. عندما نجح أمير حلب - رضوان ابن تتش - في حشد قواته للانتقام لهزيمته السابقة، وانضم إليه أصبهذ صباوو، وأمير

سنجر أليبي بن أرسلان تاش ، وأمير حامية بغداد ايلغازي بن أرتق . فقال لهم ايلغازي ابن أرتق :

« الرأي هو أن نقصد بلاد الموصل وما والاها - والتي كانت تحت حكم جكرمش والذى كان يرتبط بصلة المصاهرة مع أمير سنجر أليبي بن أرسلان - فملكها ، ونتذكر بعسركها والأموال - لقتال الفرنج ». ووافقه أليبي ، فسار إلى نصبيين في عشرة آلاف فارس . وكان جكرمش قد جعل فيها أميرين من أصحابه في عسكر ، فتحصنوا بالبلد وقاتلوا من وراء السور ، فأصاب سهم أليبي بن أرسلان ، فجرح جرحاً شديداً ، فانسحب إلى بلده سنجر . وأثناء ذلك استطاع جكرمش حشد قواته وإقامة عسركه في ظاهر الموصل واستعد للحرب . وعمل جكرمش في الوقت ذاته على استخدام الأسلوب الدبلوماسية لمجابهة الموقف ، فأرسل الرسائل إلى كبار قادة الأمير رضوان ، فاستهالم . كما أرسل رسائل إلى أصحابه بنصبيين للقيام بخدمة رضوان بن تتش وتأمين متطلبات جيشه والاحتراز منه في الوقت ذاته . ثم كتب إلى رضوان ذاته رسالة جاء فيها : « لقد تعرضت للحصار من قبل ، وتمكنت من التغلب عليه . واقتصر عليكم القاء القبض على ايلغازي الذي عرفت أنت وغيرك فساده وشره . وأنا معك ومعينك بالرجال والأموال والسلاح ». ولم يكن الأمير رضوان يطمئن إلى ما هو أكثر من ذلك . فعمل على استدعاء ايلغازي ، وقال له :

« هذه بلاد ممتدة ، وربما استولى الفرنج على حلب . والمصلحة هي في مصالحة جكرمش واستصحابه معنا . فإنه يسير بعساكر كثيرة ظاهرة التجمل ونعود إلى قتال الفرنج ، فإن ذلك مما يعود باجتثاع شمل المسلمين » .

فقال له ايلغازي وقد قويت نفسه بكثرة من اجتمع عنده من التركمان : « إنك جئت بمحكمك ، وأنت الآن محكمي ، لا يمكنك من المسير بدون أخذ هذه البلاد . فإن أقمت وإلا بدأت بقتالك ». غير أن الأمير رضوان كان قد اتخذ استعداداته ، فأمر بالقاء القبض على ايلغازي ، وعندما حاول جنده التركمان التمرد ، ولكن حركتهم فشلت فتفرقوا . وعاد رضوان إلى حلب . وعندما احتاج إلى الدعم وأرسل إلى

جكرمش يطلب إليه الوفاء بالوعد ، وارسال جيش لقتال الفرنج ، راوغ جكرمش بالإجابة وامتنع عن ارسال جيشه - للمحافظة على حكمه .

أفاد الفرنج من ذلك ، فتمكنوا من الاستيلاء على (حصن أفامية). كما أفاد ملك الروم من ذلك . فخرج جيشه من القسطنطينية ووصل إلى عمورية وملطية ، وقتل في غزاته مائة ألف من المسلمين . وأرسل إلى الخليفة العباسي القائم بأمر الله يسأله الصلح . وقام ألب أرسلان بعقد هذا الصلح الذي تضمن أن يقدم الخليفة لملك الروم مائة ألف دينار وأربعة آلاف ثوب من مختلف الأصناف وثلاثمائة رأس من البغال .

لقد حاول أمراء المسلمين في هذه الفترة الانتصار بالفرنج في قتالهم بعضهم ضد بعض . مع الإفادة من التناقضات والخصومات التي ظهرت بين الفرنج من جهة وبينهم وبين الروم من جهة أخرى .

وعلى سبيل المثال ، فقد وقعت حرب بين الروم وبين أمير انطاكيه بيمند - بوهمند - (سنة ٥٠٠ هـ = ١١٠٦ م) ودارت معارك طاحنة انتهت بانتصار الروم على الفرنج . وبعد سنتين (أي في سنة ٥٠٢ هـ = ١١٠٨ م) . سار أمير التركمان جاوي سقاوو من الموصل بعد أن استولى عليها ، وقد قرر الاستيلاء على حلب . فما كان من أمير حلب رضوان بن تتش إلا أن كتب إلى أمير انطاكيه - تانكرد - :

« يعرفه ما عليه جاوي من الغدر والمكر والخداع ، ويحذره منه ، ويعلمه أنه على قصد حلب ، وأنه إن ملكها لا يبقى للفرنج معه بالشام مقام . وطلب منه النصرة والاتفاق على منعه » .

فأجابه طنكري - تانكرد - وخرج من انطاكيه بجيشه وأرسل إليه رضوان ستمائة فارس لقتال معه . فلما علم جاوي بذلك أرسل إلى الكونت صاحب الرها يستدعيه لمساعدته . فلحق به صاحب الرها وهو على منج . ودارت معركة انتصر فيها جيش انطاكيه : « وقتل من المسلمين خلق كثير » .

هكذا ، حدث نوع من التعاون أو التحالف بين أمير انطاكيه تانكرد وبين أمير حلب رضوان ، ومثله بين أمير الموصل وأمير الرها . وفي هذه السنة ذاتها (٥٠٢ هـ =

(١١٠٨ م) حدثت هدنة أيضاً بين أمير دمشق طغتكين وملك القدس بعديون - بعديون - بعد حرب شديدة بين جيشهما، فقد سار طغتكين إلى طبرية وقد وصل إليها ابن أخت ملك القدس ، فتحاربا واقتلا . وكان طغتكين في ألفي فارس وكثير من الرجال - الماشة - . وكان ابن أخت ملك الفرنج في أربعين ألف فارس وألفي راجل ، فلما اشتد القتال انهزم المسلمون ، فترجل طغتكين ، ونادى بال المسلمين وشجعهم ، فعاودوا الحرب ، وكسروا الفرنج ، وأسرموا ابن أخت الملك وحل إلى طغتكين الذي عرض عليه الإسلام ، فامتنع به وبذل في فداء نفسه ثلاثة ألف دينار وإطلاق خمسة أسير ، فلم يقنع طغتكين منه بغير الإسلام ، فلما لم يجب قتله بيده . وأرسل إلى الخليفة ببغداد الأسرى . ثم اصطلح طغتكين وبعديون على وضع الحرب أربع سنين . وأراد طغتكين الإفادة من هذه الهدنة ، فوجه جيشه للاستيلاء على حصن عرقه - من أعمال طرابلس - . فتوجّهت لمقابلته قوة من جيش الفرنج الذي كان يحاصر طرابلس . فانهزم عسكر طغتكين ونهب الفرنج ثقلهم ورحاهم ودواهم . ووصل جيش طغتكين إلى حصن على أقبح حال من التقطيع ولم يقتل منهم أحد لأنهم لم يقاتلوا . ولما وصل طغتكين إلى دمشق بعد هزيمته أرسل إليه ملك القدس يقول له :

« لا تظن أنني أنقض الهدنة للذى تم عليك من الهزيمة ، فالمملوك ينالهم أكثر مما نالك ثم تعود أمرهم إلى الانتظام والاستقامة » .

لقد استطاع الفرنج بهذه التحالفات تقييد حرية العمل العسكري لامراء المسلمين في مراكز القوى الثلاث الرئيسة - دمشق وحلب والموصى - ومنع هؤلاء الأمراء من التعاون ضد الخطر المشترك ، وفadوا من ذلك لتوسيع مجال حرية عملهم العسكري ، وقد حدث بعد هزيمة دمشق مباشرة أن سار قفل عظيم من دمشق إلى مصر ، فخرج ملك القدس بجيشه وأخذ كل من فيه ولم يسلم منهم إلا القليل . وفي السنة التالية (٥٠٣ هـ = ١١٠٩ م) استولى الفرنج على طرابلس بعد حصار طويل ★ كما استولوا على بيروت وجبيل وبانياس . وتشكلت بذلك إمارة صليبية جديدة في طرابلس ، بقيت

★ انظر في الفصل الثاني قصة (طرابلس) وسواها من القلاع والخصون .

تابعة لملك القدس . وفي السنة التالية استولى الفرنج أيضاً على مدينة صيدا وحصن الأثارب - من أعمال حلب - وحصن زرданا - وسواها وذبحوا من بهم من المسلمين.

وصلت تحديات الفرنج إلى درجة مثيرة ومؤلمة ، وحاول أمراء المسلمين اتقاء شر الفرنج بعقد هدنة معهم ، غير أن الفرنج امتنعوا عن الإجابة إلا على قطيعة يأخذونها ، فصالحهم صاحب حلب الملك رضوان بن تتش على اثنين وثلاثين ألف دينار وغيرها من الخيول والثياب ، وصالحهم صاحب صور على سبعة آلاف دينار وصالحهم صاحب شيزر - ابن منقذ على أربعة آلاف دينار ، وصالحهم علي الكردي صاحب حماه على ألفي دينار وكانت مدة الهدنة إلى وقت إدراك الغلة وحصادها . ثم إن مراكب أقلعت من ديار مصر فيها التجار ومعهم الأمتنة الكثيرة ، فوقع عليها مراكب الفرنج فأخذوها ، وغنموا ما مع التجار وأسر وهم .

ولئن رضي أمراء المسلمين مثل هذا الذل والعار ، فقد رفضته جاهير المسلمين الذين سارت جماعة منهم من حلب إلى بغداد ، مستنفرين على الفرنج ، فلما وردوا بغداد اجتمع معهم خلق كثير من الفقهاء وغيرهم ، فقصدوا جامع السلطان واستغاثوا ومنعوا من الصلاة وكسروا المنبر ، فوعدهم السلطان إنفاذ العساكر للجهاد . وسير من دار الخلافة منبراً إلى جامع السلطان . فلما كان الجمعة الثانية قصدوا جامع القصر بدار الخلافة ، ومعهم أهل بغداد ، فمنعهم حاجب الباب من الدخول ، فغلبوه على ذلك ودخلوا الجامع ، وكسروا شباك المقصورة ، وهجموا إلى المنبر فكسروه وبطلت الجمعة أيضاً .

فأرسل الخليفة المستظاهر بالله ، إلى السلطان محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان يأمره بالاهتمام بهذا الفتق ورتفقه ، فتقدم السلطان محمد حينئذ إلى من معه من الأمراء بالمسير إلى بلادهم والتجهز للجهاد ، وسير ولده الملك مسعوداً مع الأمير مودود صاحب الموصل ، وتقدموا إلى الموصل ليلحق بهم الأمراء ويسيرون إلى قتال الفرنج . فلما دخلت السنة الجديدة (١١١١ هـ = ٥٠٥ م) وصل إلى الموصل جيش تبريز بقيادة الأمير سكمان القطبي . والأمير ايلبكي وزنكى ابنا برسق ولها همدان وما جاورها

وأمير مراغة - أحمد يل - وكتب الأمير أبو الهيجا صاحب إربل ، والأمير ايلغازي صاحب ماردين والأمراء البيكجية باللحاق بالملك مسعود مودود ، فاجتمعوا ما عدا الأمير ايلغازي فإنه سير ولده إياز . فلما اجتمعوا ساروا إلى بلد سنجار ، وفتحوا عدة حصون للفرنج وقتل من بها منهم ، وحصروا مدينة الراها . فاجتمعت الفرنج جميعها ، فارسها ورجالها ، وساروا إلى الفرات ليعبروا وليدافعوا عن الراها ، فلما وصلوا إلى الفرات بلغهم كثرة جمجم المسلمين ، فامتنعوا عن العبور وأقاموا على الفرات . فلما رأى المسلمون ذلك رحلوا عن الراها إلى حران ليطمع الفرنج ويعبروا الفرات إليهم ويقاتلوهم ، فلما رحلوا عنها جاء الفرنج ومعهم الميرة والذخائر إلى الراها ، فجعلوا فيها كل ما يحتاجون إليه بعد أن كانوا قليلي الميرة وقد أشرفوا على أن يؤخذوا - وحملوا معهم كل من فيه عجز وضعف وفقر ، وعادوا إلى الفرات وعبروه إلى الجانب الشامي . وطرقوا أعمال حلب فأفسدوا ما فيها ونهبوا وقتلوا فيها وأسروا وسبوا خلقاً كثيراً ، وكان سبب ذلك أن الفرنج لما عبروا إلى الجزيرة خرج الملك رضوان بن تتش - صاحب حلب - فاستعاد ما أخذه الفرنج من أعمال حلب ونهب منهم وقتل ، فلما عادوا وعبروا الفرات فعلوا بأعماله ما فعلوا . أما جيش بغداد (أو جيش محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان - والذي كان يعرف باسم العسكر السلطاني) فإنه لما علم بعودة الفرنج ، وعبورهم الفرات ، سار إلى الراها وألقى عليها الحصار ، فوجد أن المقاومة قد أعيد تنظيمها وتزايدت قدرتها بما توافر لها من الدعم والامداد ووفرة المقاتلين . فأدرك أنه لن يتمكن من إخضاع حامية الراها . فرحل عنها وعبر الفرات وقام بحصار قلعة تل باشر طوال خمسة وأربعين يوماً ، ثم رحل عنها ووصل إلى حلب . فأغلق الملك رضوان أبواب المدينة ، ورفض الاجتماع بقادة الجيش . ومرض هناك سكان القطي ، فانسحب بجيشه ، وتوفي عند بالس فحمل إلى عاصمته - تبريز - . ورحل بقية الجيش السلطاني - إلى معرة النعمان .

واجتمع أمير دمشق طفتكيين بقادة الجيش فاطلع على نيات فاسدة في حقه ، فخاف أن تؤخذ منه دمشق ، فشرع في مهادنة الفرنج سراً . ووجد في أمير الموصل مودود حلبياً مخلصاً .

فبقي معه إلى أن تفرق الجيش السلطاني، وكان صاحب شيزر يتعرض لحصار الفرنج فسار طغتكين ومودود بجيشهما إلى شيزر ، ونزلًا بالقرب من معسكر الفرنج، وحاولا دفع الفرنج للمعركة ، غير أن هؤلاء امتنعوا عن القتال لما رأوه من قوة جيش المسلمين ، وانسحبوا إلى أقامية ، وتبعهم المسلمون فتخطفوا من أدركوه في مؤخرتهم . وعاد طغتكين إلى دمشق ، كما عاد مودود إلى الموصل .

وتبع أمراء مراكز القوى الثلاث صراعهم ضد الفرنج ، ووقع العباء الأكبر في هذه المرحلة على عاتق دمشق التي كان يجب عليها مواجهة مطامع الفرنج سواء على تخوم فلسطين أو في الأقاليم البعيدة مثل - طرطوس - التي بقيت صامدة في وجه الفرنج . فكان طغتكين يغير على أعمال الفرنج من جميع جهاتها . وقد حصن الحبيس (أو حبيس جلدك) وهو من أعمال دمشق وقد ملكه الفرنج ، فحصره وملكه بالسيف وقتل كل من فيه . وقد استطاع طغتكين تهديد الفرنج في الجليل ، مما أرغم الفرنج على رفع الحصار عن طرطوس والعودة إلى بلادهم لحمايتها . وكان نصراً محدوداً أحرزه طغتكين ، غير أنه نصر مؤقت . فقد كان باستطاعة الفرنج دائمًا الإفادة من كل فرصة متواترة لضم المزيد من أراضي المسلمين لممتلكاتهم . لقد خاض الفرنج حتى الآن حرباً هجومية ، فيها كانت حرب المسلمين حرباً دفاعية . وكان باستطاعة الفرنج اختيار المكان المناسب والزمن المناسب لعدوانهم المباغت ، وفيها كانت ردود المسلمين متفرقة اختيار المكان المناسب والزمن نصراً حاسماً ، ولا تمكنت من استعادة إقليم من الأقاليم التي استولى عليها الفرنج .

٤ - المخاض المسير في الموصل .

مضت فترة خمسة عشر عاماً وال المسلمين في بلاد الشام يعيشون الابلاء ، وقد حاولوا التكيف مع الواقع الجديد الذي فرضه الفرنج الصليبيون ، ولكن التحدي كان أكبر من القدرة على التكيف . وكانت استجابة المسلمين دون مستوى التحدي المفروض . فكان لا بد من مضي فترة أخرى من المعاناة قبل أن تتحدد معلم النهج الصحيح الذي يجب الأخذ به ، والسير عليه . لقد بدأت نذر هذا النهج في الظهور وسط المسلمين منذ وصول الفرنج إلى آسيا الصغرى (الأناضول) ثم تقدمهم إلى أنطاكية سنة ٤٩١ هـ = ١٠٩٧ م . وها هي سنة ٥٠٧ هـ = ١١١٣ م تطل على مسلمي بلاد الشام وهم في صنف وضيق شديدين . فقد خرج ملك القدس بدوين - بلدوزين - بجيشه وتابع الغارات على ريف دمشق ، ونهبه وخربه . وانقطعت المواد عن دمشق ، وغلت الأسعار فيها ، وقتلت الأقوات ، فأرسل طفتكن إلى صديقه أمير الموصل - مودود - يشرح له الحال ويستتجده ويحثه على سرعة الوصول إليه ، فجمع مودود جيشه وانضم إليه جيش سنجار بقيادة أميرها تميرك ، والأمير أياز بن ايلغازي وسار عبر الفرات ، وخرج طفتكن بجيشه والتقي بجيشه مودود عند بلدة سلمية ، واتفق الرأي على قصد ملك القدس بدوين . فساروا إلى الأردن . ونزل المسلمين عند الأحوانة . وسار بدوين وجيشه بقيادة جوسلين ومعه المقدمين والفرسان المشهورين ، وتم اللقاء عند طبرية واشتد القتال وصبر الفريقان ، ثم إن الفرنج انهزوا وكثُر القتل فيهم والأسر ، ومن أسر ملتهم بدوين فلم يعرف ، فأخذ سلاحه وأطلق فنجا ، وغرق من الفرنج في بحيرة طبرية ونهر الأردن كثير ، وغم المسلمين أموالهم وسلاحهم . ووصل الفرنج إلى مضيق دون طبرية ، فلقيهم عسكر طرابلس وأنطاكية ، فقويت نفوذهم وعادوا للحرب فطوقهم المسلمين وأحاطوا بهم من كل ناحية . وصعد الفرنج إلى جبل غرب طبرية ، فأقاموا به ستة وعشرين يوماً وال المسلمين يزاهمون بهم بالنشاب ،

فيصيرون من يقرب منهم ، ومنعوا الميرة عنهم لعلهم يخرجون إلى قتالهم ، فلم يخرج منهم أحد . فسار المسلمون إلى بيسان ، ونهبوا بلاد الفرنج ما بين عكا وبين القدس وخربواها وقتلو من ظفروا به من النصارى . وانقطعت المادة عنهم لبعدهم عن بلادهم ، فعادوا ونزل الأمير مودود برج الصفر ، وأذن للعسكر في العودة والاستراحة ثم الاجتماع في الربع لمعاودة الغزاة ، وبقي في خواصه . ودخل دمشق للإقامة عند طفتين إلى الربع . وعندما أقبل يوم الجمعة ، ذهب مع طفتين لأداء الصلاة . فلما فرغوا من الصلاة . وخرج مودود إلى صحن الجامع ويده في يد طفتين ، وثبت عليه باطني - اسماعيلي - فضربه وجرحه أربع جراحات ، وقتل الباطني وقطع رأسه وأحرق . وكان الأمير مودود صائماً ، فحمل إلى دار طفتين ، واجتهد به ليفطر فلم يفعل ، وقال : « لا لقيت الله إلا صائماً ». فمات من يومه . ودفن في تربة دقاق بدمشق ، ثم حمل إلى بغداد فدفن في جوار أبي حنيفة ، ثم حمل إلى أصبهان . وكتب ملك الفرنج إلى طفتين عندما علم بقتل الأمير مودود :

« إن أمة قتلت عميدها يوم عيدها في بيت معبدها لحقيقة على الله أن يبيدها » .

وأفاد ملك القدس بلدوين من الاضطراب الذي أعقب اغتيال الأمير مودود لاستئناف أعماله العدوانية ، وعلم أن قفل عظيم - قافلة - قد خرجت من دمشق تريد الذهاب إلى مصر . فاعتراض طريقها واستولى عليها ، ولم ينج منها إلا القليل .

عندما علم السلطان محمد بن ملکشاه بن ألب أرسلان بقتل ابنه مودود في دمشق وجه جيشاً بقيادة الأمير اقسنقر البرسقي إلى الموصل وأعماها ، والياً عليها ، وسير معه ولده الأمير مسعود ، وأمره بقتال الفرنج ، وكتب إلى سائر الأمراء بطاعته .

فوصل إلى الموصل ، واتصلت به عساكرها وفيهم عmad الدين زنكي بن اقسنقر وكان له الشجاعة في الغاية . كما انضم إليه أمير سنحار - نميرك - . وسار البرسقي إلى

جزيرة ابن عمر فتسلمهَا من نائب الامير مودود ، وسار معه إلى ماردين ، فنازلا البرسي حتى أذعن له صاحبها ايلغازي ، وسير معه عسكراً مع ولده إياز . فسار عنه البرسي إلى الراها في خمسة عشر ألف فارس ، فنازلاها ، وقاتلها ، وصبر له الفرنج ، وأصابوا من بعض المسلمين غرة ، فأخذوا منهم تسعة رجال وصلبواهم على سورها . فاشتد القتال حينئذ . وهي المسلمين ، وقاتلوا ، فقتلوا من الفرنج خسرين فارساً من أعيانهم ، وأقام عليها شهرين وأياماً ، وضاقت الميرة على المسلمين ، فرحلوا من الراها إلى سميساط ، بعد أن خربوا ريف الراها وسرrog وسميساط . وأظهر أمير مرعش الطاعة ، فعاد البرسي إلى - شحتان - وبقبض على إياز بن ايلغازي لأنه لم يحضر أبوه ، ونهب سواد ماردين . وتصادف في تلك الفترة (من سنة ٥٠٨ هـ = ١١٤٠ م) أن مات كونت مرعش وكيسوم ورباعان فاستولت زوجته على المملكة ، وتحصنت من الفرنج - باعتبارها من الأرمن - وأحسنت إلى الأجناد ، وراسلت أقسنقر البرسي وهو على الراها واستدعت منه بعض أصحابه لتطيعه . فسير البرسي إليها أمير الخبرور سنقر دزدار ، فلما وصل إليها أكرمه وحملت إليه مالاً كثيراً ، وبينما هو عندها إذ جاء جمٌ من الفرنج ، فهاجوا أصحاب سنقر - وهم نحو مائة فارس - واقتتلوا قتالاً شديداً ، ظفر فيه المسلمين بالفرنج ، وقتلوا منهم أكثرهم . وعاد سنقر دزدار وقد أصبحت الملكة بالمدايا للملك مسعود والأمير البرسي ، وأذعنوا بالطاعة . ولما عرف الفرنج ذلك ، عاد كثير من عندها إلى أنطاكية . علم ايلغازي بقادام آقسنقر البرسي على أسر ابنه إياز ، فسار إلى حصن كيغا واستنجد بقائدها وحاكمها الأمير ركن الدولة داود . فأتجده وسارا معاً بعد أن حشدا جيشاً كبيراً من التركمان ، فلقيا البرسي ، واقتتلوا قتالاً شديداً صبروا فيه ، فانهزم البرسي وعسكره ، وخلص إياز بن ايلغازي من الأسر .

فأرسل السلطان محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان إلى ايلغازي يتهدده ويتوعده ، فخافه وسار إلى الشام ، ليأمن بحماية حبيه صاحب دمشق طفتين . فأقام عنده أيام ، وكان طفتين أيضاً قد استوحش من السلطان محمد لأنه نسب إليه قتل ولده . مودود . فاتفقا على الامتناع والالتجاء إلى الفرنج والاحتلاء بهم ،

فراسلا صاحب انطاكية، وحالفاه. فحضر عندهما على بحيرة قدس عند حصن .
وجددوا العهود . وعاد إلى انطاكية ، وعاد طفتكيين إلى دمشق .

عندما علم السلطان محمد بتحالف أمير دمشق - طفتكيين - مع الفرنج، حشد جيشاً
ضخماً بقيادة أمير همدان - برسق بن برق - ومعه الأمير جيوش بك والأمير
كتنعنيدي وانضم للجيش جند الموصل والجزيرة، وأصدر السلطان محمد أمره إلى قائده
بالبداية بقتال ايلغازي وطفتكين وقتلها ، فإذا فرغ من ذلك قصد بلاد الفرنج وقاتلهم
وحاصر بلادهم - وسار الجيش فعبر الفرات مع بداية سنة ٥٠٩ هـ = ١١١٥ م.
ووصل إلى حلب فوجد أن ايلغازي وطفتكين قد دعوا حاميتها بألفي فارس . فسار
الأمير برسق بن برق عندما أدرك أنه من الصعب عليه الاستيلاء على حلب ، وقصد
مدينة حماة التي كانت تحت حكم أمير دمشق طفتكيين . فحاصرها ، وفتحها عنوة ،
ونهبها ثلاثة أيام ، وسلمها إلى الأمير قرجان صاحب حصن ، الذي سلم أياز بن ايلغازي
إلى برق . وسار ايلغازي وطفتكين إلى انطاكية واستنجدوا بحاكمها - روجيل ، أو
روجر -. ووصل إلى انطاكية في تلك الفترة ملك القدس بعذرين وأمير طرابلس
وغيرها من قادة الفرنج في جيش كثيف . وحشدوا قواتهم في قلعة أقامية لمدة شهرين ،
ثم تفرقوا لما رأوا أنه لا قبل لهم بمعهاجمة جيش المسلمين الكبير الذي يقوده برسق . فعاد
ايلغازي إلى ماردين ، وعاد طفتكيين إلى دمشق ، ورجع الفرنج إلى بلادهم . ولما رأى
برسق تفرق الجيش قرر انتزاع كفرطاب وأقامية من قبضة الفرنج ، فسار إلى
كفرطاب وحاصرها ، فلما اشتد الحصار على الفرنج ، ورأوا الهلاك ، قتلوا أولادهم
ونساءهم وأحرقوا أموالهم ودخل المسلمون البلد عنوة ، وأسرروا حاكمها وقتلوا من بقي
فيها من الفرنج ، وسار برسق بجيشه إلى قلعة أقامية ، فرأها حصينة فعاد عنها إلى
المعرة ، وهي تحت حكم الفرنج أيضاً . وانفصل الأمير جيوش بك وسار إلى وادي
بزاغة فملكه . وسار برسق بجيشه عن المعرة إلى حلب ، وتقدمهم ثقلهم ودوا بهم على
جاريه العادة ، والعساكر في أثره متلاحقون وهو آمنون لا يظلون أحداً يقدم على
الاقتراب منهم . وكان أمير انطاكية - روجر - لما علم بحصار كفرطاب ، سار في
خمسينات فارس وألفي راجل للدفاع عن كفرطاب وحاليتها ، ووصل إلى مخيم المسلمين ،

فوجده خالياً من المقاتلين، فنهب جميع ما في المخيم، وقتل كثيراً من حرس المخيم وغلمانه. ووصل المقاتلون المسلمين متفرقين. فأخذ الفرنج في قتل كل من يصل تباعاً. ووصل الأمير برسق ومعه مائة فارس تقريباً. فلما رأى الموقف صعد إلى تل هناك ومعه أخوه زنكي، وأحاط بهم السوقية والغلمان، واحتموا بهم، ومنعوا الأمير برسق من النزول، فأشار عليه أخوه ومن معه بالنزول، والنجاة بنفسه، فقال: «لا أفعل، بل أقتل في سبيل الله، وأكون فداء المسلمين». فغلبوه على رأيه، فنجا هو ومن معه. فتبعهم الفرنج نحو فرسخ، ثم عادوا، وعموا الغنية والقتل، وأحرقوا كثيراً من الناس. وتفرق العسكر. وأخذ كل واحد جهة. ولما سمع الموكلون بالأسرى المأخوذين من - كفرطاب - ذلك، قتلواهم. وكذلك فعل الموكل بأياز بن ايلغازي قتله أيضاً.

وخف أهل حلب وغيرها من بلاد المسلمين التي بالشام، فإنهما كانوا يرجون النصر من جهة هذا العسكر، فأناهم ما لم يكن في الحساب. وعادت العساكر عنهم إلى بلادها. وسار الفرنج - من القدس، فملكوا رفينة وهي من أرض الشام التابعة لحكم طفتين، وقووها بالرجال والذخائر، وبالغوا في تحصينها.

فاهتم طفتين لذلك. وقوى عزمه على قصد بلاد الفرنج بالنهم لها والتخريب. فأتاه الخبر عن خلو رفينة من عسكر يمنع عنها، وليس فيها إلا قوة من الفرنج الذي تركوا لحماتها والدفاع عنها، فسار طفتين في قوة خفيفة من الفرسان، فلم يشعر بها إلا وقد هجم عليهم ودخل البلد عنوة وقهراً. وأخذ كل من فيه من الفرنج أسيراً، فقتل البعض وترك البعض. وغم المسلمين من سوادهم وكرايئهم وذخائرهم ما امتلأت منه أيديهم وعادوا إلى بلادهم سالمين.

لقد أدرك السلطان محمد، كما أدرك طفتين، خطأ سلوكهما، فقد كان سلوك السلطان محمد عاملاً دفع طفتين للتعاون مع الفرنج، كما أدرك أن العبور إلى الفرنج وقتاً من خلال القضاء على حاكم مسلم، هو عمل عقيم، وأدرك طفتين أنه من الخطورة بمكان التعاون مع أعداء الدين الطامعين في بلاده. وعرف الطرفان أن الفرنج هم المستفيدين الوحدين من خلافات

ال المسلمين ومن ضعفهم وتفرقهم . ولهذا لم يكن غريباً أن يسرع طفتين إلى بغداد لعقد صلح مع السلطان محمد (سنة ٥١٠ هـ = ١١١٦ م) . وهنا حدث حادث مثير أبرز دور الباطنيين - الإسماعيلية - في ايقاع الفرقة بين أمراء المسلمين وحكامهم .

فقد عملوا على قتل الأمير مودود وهو في ضيافة طفتين وبصحبته . وعندما كان طفتين بضيافة السلطان محمد - بغداد - حضر جماعة من الأمراء مجلس السلطان ومعهم صاحب مراغة - أحديل بن ابراهيم بن وهسودان الروادي الكردي . الذي جلس إلى جانب طفتين ، فأتاه رجل تظاهر بأنه متظلم ، وبيده رقعة ، وهو يبكي ، وسأل أحديل أن يوصل الرقعة إلى السلطان ، ولما مات أحديل يده لأخذ الرقعة ، انقض عليه الرجل وضربه بسكين في يده ، فجذبه أحديل ، وتركه تحته . فوثب رفيق للباطني وضرب أحديل سكيناً آخر ، فأخذتها السيف . وأقبل رفيق ثالث وضرب أحديل ضربة أخرى . فعجب الناس من إقدامه بعد قتل صاحبيه .

وظنّ طفتين والحاضرون أن طفتين كان المقصود بالقتل ، وأن ذلك جرى بأمر السلطان محمد . فلما علموا أنهم من الباطنية - الإسماعيلية - زال هذا الوهم .

لقد تبين لراكيز القوى الإسلامية أن الموصل هي مركز الثقل في الصراع ضد الفرنج الصليبيين . وكانت الموصل تحت حكم السلطان محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان ، فلما توفي سنة ٥١١ هـ = ١١١٧ م ★ انتقل الحكم إلى ابنه السلطان محمود . فسار على نهج أبيه وأخذ بسيرته . وكان لا بد للسلطان محمود من قضاء فترة لإعادة

★ السلطان محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان (٤٧٤ - ٥١١ هـ = ١٠٨١ - ١١١٧ م) كان عادلاً حسن السيرة شجاعاً . عرف خطر الباطنية - الإسماعيلية - فجرد الحملات لاخضاعهم وإبادتهم ، وقتل كثيراً منهم بعد أن استفحلا أمرهم وخافهم الناس واتقى الحكام شرهם بهادئهم . عندما شعر بدنو أجله كتب وصية أوصى بها للحكم لابنه محمود - وكان عمره يومها أربع عشرة سنة - وأمر ابنه في وصيته بالعدل والاحسان . وقد حاول طغول بن محمد منازعة أخيه السلطان محمود السلطة والحكم ، فأخضعه ثم اصطلحا ، كما حاول أخوه مسعود أيضاً منافسته .

تنظيم سلطته ، وتسوية الصراعات التي عادة ما كانت تنشب بين الإخوة المتنافسين على السلطة والحكم . علاوة على تلك الصراعات التي كانت تنشب بصورة طبيعية أو غير طبيعية مع الطامعين بحكم هذا الأقليل أو ذاك . هذا فيما كان الصراع مع الفرنج يتتطور باستمرار على الجبهات الأخرى . ففي هذه السنة (٥١١ هـ) قاد ملك القدس بجيشه وسار به إلى مصر ، وبلغ تنبيس ، وسبع في النيل ، فانتقض جرح كان به ، فلما أحس بالموت عاد إلى القدس . ولم يلبث أن مات (سنة ٥١٢ هـ) وأوصى ببدوين - بدلوين - بالحكم من بعده للكونت بردويل صاحب الراها السابق - وكان هذا الكونت قد جاء إلى القدس لزيارة بيعة قيامة - كنيسة القيامة - فتصادف مجيه مع وفاة بدوين ، فتسلم أمور المملكة . وخلال هذه الفترة ، كان أمير دمشق طفتين قد سار بجيشه من دمشق لقتال الفرنج ، فنزل باليرموك . ولما كان الملك الجديد للفرنج - بردويل - يحتاج لفترة من الاستقرار ، فقد أرسل الرسل إلى طفتين بطلب الماهنة . فاشترط طفتين إلى الفرنج التخلي له عن جبل عوف والحنانة والصلت والغور ، فرفض الفرنج ، فسار طفتين إلى طبرية ، فنهما وما حولها ، وسار منها إلى عسقلان التي كانت تحت حكم المصريين وبها حامية منهم . فتوقف بها طفتين وأقاما مع الحامية المصرية طوال شهرين على أمل مواجهة قوات الفرنج ، فلما رأى طفتين امتناع الفرنج عن القتال ، عاد بجيشه إلى دمشق . وما إن وصلها حتى علم بأن مائة وثلاثين فارساً من الفرنج قد استولوا على حصن من حصونه يعرف باسم (الحبس) ويعرف أيضاً باسم (حصن جلدك) . وانهم قصدوا - أذرعات - فنهبوا . فأرسل إليهم تاج الملوك بوري بن طفتين قوة ، فابتعدوا عن طريق هذه القوة وانسحبوا إلى جبل هناك ، فنازلتهم تاج الملوك ، وجاءه أبوه طفتين ، ونصحه بإفساح المجال أمام الفرنج للهرب ، غير أن تاج الملوك طمع بالفرنج وشدد قبضته عليهم ، فلما أيس الفرنج ، قاتلوا قتال مستقتل ، ونزلوا من الجبل ، وحملوا على المسلمين حلة صادقة هزموهم بها ، وأسرروا وقتلوا خلقاً كثيراً . وعاد الفل إلى دمشق علىأسأ حال .

فسار طفتين إلى حلب وبها إيلغازي ، فاستنجد به وطلب منه التعااضد على الفرنج ، فوعده المسير معه .

فبينما هو بحلب ، أتاه الخبر بأن الفرنج قصدوا حوران من أعمال دمشق. فنهبوا وقتلوا وسبوا وعادوا . فاتفق طغتكين وإيلغازي على أن يعود طغتكين إلى دمشق وحماية بلاده . وعود إيلغازي إلى ماردين وجع العساكر ، والاجتماع على حرب الفرنج . فصالح إيلغازي من يليه من الفرنج . وعبر إلى ماردين لجمع العساكر . كما عمل - إيلغازي - على إرسال رسول إلى بغداد لاستنفار المسلمين على الفرنج ، وذكر ما فعله الفرنج بالمسلمين في الديار الجزئية ، وأنهم ملكوا قلعة عند الرها ، وقتلوا أميرها ابن عطير ، فسيرة بذلك الكتب إلى السلطان محمود الذي كان منصوراً لا خضاع تمرد أخيه طغرل في ساوة وزنجان . وأفاد الفرنج من غياب إيلغازي ، فساروا بجموعهم من أنطاكية ، وملكوا بزاغة وغيرها ، وأخربوا بلد حلب ونازلوها . ولم يكن بحلب من الذخائر ما يكفيها شهراً واحداً ، وخففهم أهلها خوفاً شديداً ، ولو مكنوا من القتال لم يبق بها أحد ، لكنهم منعوا من ذلك ، وصانعوا الفرنج ، ووافقو على أن يقاسموا الفرنج على أملاكهم التي بباب حلب . وأرسل أهل حلب إلى بغداد يستغيثون ويطلبون النجدة فلم يغاثوا ، وأثناء ذلك كان إيلغازي قد نجح في حشد عشرين ألفاً من العساكر ومن المتطوعة للغزاة . فسار بهم من ماردين إلى الشام عازماً على قتال الفرنج . فلما علم الفرنج قوة عزم المسلمين على لقائهم - وكانوا ثلاثة آلاف فارس وتسعة آلاف راجل - ساروا فنزلوا قريباً من الأثارب - بموضع يقال له تل عفرين - بين جبال ليس لها طريق إلا من ثلاثة جهات . وظنَّ الفرنج أن أحداً لا يسلك إليهم لضيق الطريق ، فأخلدوا إلى المطاولة - المطاولة - وكانت تلك هي عادتهم كلما رأوا قوة من المسلمين ، وراسلوا إيلغازي وقالوا له :

« لا تتعب نفسك بالمسير إلينا ، فنحن واصلون إلينك » .

فأعلم أصحابه بما قالوه واستشارهم فيما يفعل ، فأشاروا بالركوب من وقته وقصدهم ، ففعل ذلك ، وسار إليهم ، ودخل المسلمين من الطرق الثلاثة ، ولم تعتقد الفرنج أن أحداً يصل إليهم لصعوبة المסלك ، فلم يشعروا إلا وأوائل المسلمين قد انقضت عليهم ، فحمل الفرنج حملة منكرة ، فولوا منهزمين ، فلقوا باقي العسکر متتابعة ، فعادوا معهم . وجرى بينهم حرب شديدة ، وأحاطوا بالفرنج من جميع

جهاتهم، وأخذوهم بالسيف من سائر نواحיהם. فلم يفلت منهم غير نفر يسير ، وقتل الجميع وأسرموا ، وكان في جلة الأسرى نيف وسبعون فارساً من مقدميهم . وحلوا إلى حلب . فبذلوا في نفوسهم ثلاثة ألف دينار . فلم يقبل منهم . وغم المسلمين منهم الغنائم الكثيرة★ . ثم تجمع من سلم من المعركة مع غيرهم فلقاهم ايلغازي أيضاً فهزهم ، وفتح منهم حصن الأنبار وزردننا وعاد إلى حلب . تعرض الفرنج لهزيمة مماثلة في الجنوب ، في هذه السنة ذاتها (١١١٩ هـ = ٥١٣ م) وذلك عندما خرج قائده حامية تل باشر - الكونت جوسلين - بقوة من مائتي فارس ، وأغار بها على طائفة من قبيلة طيء يعرفون - بني خالد - بالقرب من طبرية . فأخذهم وأخذ غنائمهم وسألهم عن بقية قومهم من بني ربيعة ، فأخبروه أنهم من وراء الحزن بوادي السلالة بين دمشق وطبرية فدفع جوسلين قوة من مائة وخمسين فارساً من أصحابه وسار هو في خمسين فارساً على طريق آخر ، وواعدهم الفجر ليلاً يأتونا ببني ربيعة . وعلم بنو ربيعة ذلك وأرادوا الرحيل ، فمنعهم أميرهم وكانوا في مائة وخمسين فارساً . فوصلتهم المائة وخمسون من الفرنج معتقدين أن جوسلين قد سبّهم ، أو أنه سيدركهم ، فأضل الطريق ، وتساوت القوتان ، فاقتتلوا وطعنوا العرب خيولهم ، فجعلوا أكثرهم رجالاً - مشاة - وظهر من أميرهم شجاعة وحسن تدبير وجودة رأي ، فقتل من الفرنج سبعون وأسر إثنا عشر من مقدميهم ، بذل كل واحد في فداء نفسه مالاً جزيلاً ، وعدة من الأسرى ، وأما جوسلين فإنه ضلَّ في الطريق ، وبلغه خبر الواقعة ، فسار إلى طرابلس ، فجمع بها جمعاً ، وسار بهم ليلاً إلى عسقلان ، وأغار على بلدها ، فهزمه المسلمون هناك فعاد مفلولاً .

عمل الخليفة المسترشد بالله على ارسال - خلعة - إلى نجم الدين ايلغازي - (سنة ٥١٤ هـ = ١١٢٠ م) مع شكره على ما يفعله من غزو الفرنج .
وسار ايلغازي لقتال الفرنج وقد حشد جيشاً كبيراً ، فاصطدم بالفرنج عند موضع

* أكثر الشعراء من مدح أيلغازي لما حققه من نصر ، وما قبل في هذا النصر :
قل ما تشاء فقولك المقبول وعليك بعد الحالق التعويل
وابشِر القرآن حين نصرته وبكى لفقد رجاله الانجيل

اسمه ذات البقل من أعمال حلب ، فاقتلوها واشتد القتال ، وانتصر المسلمون .

ثم اجتمع ايلغازي وأتابك طغتكين - صاحب دمشق، وحضروا الفرنج في معرة قنسرين يوماً وليلة.

ثم أشار طغتكين بالافراج عن الفرنج حتى لا يدفعهم اليأس إلى أن يستقتصوا ويخرجوا إلى المسلمين ، وربما يظفرون بهم . وكان طغتكين يخاف من جودة خيل الفرنج ، ومن سرعة انصراف التركمان ، وكان إيلغازي بدوره لا يطيل المقام في بلد الفرنج ، لأنه كان يجمع التركمان للطمع ، فيحضر أحدهم ومعه جراب فيه دقيق وشاة ، وبعد الساعات لغنية يتجلوها ويعود . فإذا طال مقامهم تفرقوا . ولم يكن لدى - ايلغازي - من الأموال ما يفرّقها عليهم . ولهذا أخذ بنصيحة طغتكين ، وأفرج لهم . ثم عاد ايلغازي إلى حلب ، ورجع طغتكين إلى دمشق .

تابع الفرنج تحدياتهم واستفزازاتهم ، وتابع المسلمون تصديهم للعدوان ومقاومتهم له . ففي السنة ذاتها توجه جيش من الروم ، بقيادة عفراس الرومي ، فاصطدم بجيش من المسلمين بقيادة بلک بن أرتق عند قلعة سرمين . وانتصر المسلمون ، وقتل من الروم خمسة آلاف رجل وأسر عفراس وكثير من جنده . كما قام صاحب الرها - جوسلين - بالاغارة على جيوش العرب والتركمان ، وكانوا نازلين بصفين غربي الفرات ، وغنم من أمواهم وخيلهم ومواشيهم شيئاً كثيراً ، ولما عاد خرب بزاغة ، ومقابل ذلك ، استطاع أمير دمشق - طغتكين - أن يفرض سيطرته على بلدة تدمر وقلعة الشيف .

بقيت الموصل هي مركز القوى الأكثر أهمية في الصراع ضد الفرنج ، غير أن الاشتباكات التي وقعت في بداية حكم السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه ابن ألب أرسلان . فلما استقر له الأمر ، أخذ في البحث عنمن يستطيع سد هذا الثغر ، وقرر تعيين أقسنقر البرسي أميراً على مدينة الموصل وأعمالها وما ينضاف إليها كالجزيرة وسنجار (سنة ٥١٥ هـ = ١١٢١ م) وأمره بمجاهدة الفرنج ، وأخذ البلاد منهم ، وأرسل إلى سائر الأمراء بطاعته ، فسار أقسنقر

البرسيق إلى الموصل في عسكر كثير، وملكتها، وأقام يدبر أمورها ويصلح أحواها.

وبقيت مصر وهي بعيدة نسبياً عن الصراع، منصرفة إلى صراعاتها الداخلية، وزاد الأمر سوءاً باغتيال أمير الجيوش الأفضل بن بدر الجمالي★ على أيدي الباطنية. وبقي على دمشق وحلب قيادة الصراع وحدهما. ففي الجنوب تمكن أمير دمشق طفتكن من الایقاع بطائفة من الفرنج، فقتل منهم وأسر، وأرسل من الأسرى والغنيمة للخليفة وللسلطان محمود. وفي الشمال، وجه أمير حلب ايلغازى جيشاً بقيادة ابن أخيه - بلk ابن بهرام - إلى مدينة الرها، فحاصرها، وبها الفرنج، وبقي على حصارها مدة، فلم يضفر بها ، فرحل عنها. فجاءه إنسان تركاني وأعلمته أن صاحب الرها جوسلين قد جمع من عنده من الفرنج وهو عازم على مباغنته، وكان قد تفرق عن بلk أصحابه، وبقي في أربعاءة فارس، فوقف مستعداً لقتالهم. وأقبل الفرنج، ودخلوا في أرض قد نصب عنها الماء فصارت وحلاً غاصت خيوthem فيه. فلم تتمكن مع نقل الفرسان والسلاح من الاسراع والجري. فرماهم أصحاب بلk بالنشاب، فلم يفلت منهم أحد، وأسر جوسلين، وجعل في جلد جل ، وخيط عليه، وطلب منه أن يسلم الرها فلم يفعل، وبذل في فداء نفسه أموالاً جزيلة، وأسرى كثيرة، فلم يجبه إلى ذلك ، وحمله إلى قلعة (خرتبرت) فسجنه بها ، وأسر معه جماعة من فرسانه. ولما علم ملك القدس - بعديون - بأسر أمير الرها، سار بجيشه. (سنة ٥١٧ هـ = ١١٢٣ م) فأعد بلk ابن بهرام بن أرتق عدته، وخرج لمقابلته - قرب دياربكر - وجرت معركة قاسية انتهت بهزيمة الفرنج وأسر ملتهم، ومعه جماعة من أعيان فرسانهم، فحملهم بلk إلى سجن (خرتبرت) ليلتقو هناك بأمير الرها جوسلين وغيره. وسار بلk عن خرتبرت

* الأفضل بن بدر الجمالي (٤٥٨ - ٥١٥ هـ = ١٠٦٥ - ١١٢١ م) كان هو صاحب الأمر والحكم بصر بعد أبيه بدر الجمالي. وكانت مدة ولايته بعد أبيه ثمانية وعشرين سنة، قتله ثلاثة من الباطنية - الاسماعيلية - لأنهم اتهموه بتضليل أمامهم، وترك معارضته أهل السنة واليهود عن مقاومتهم وإذنه للناس في إظهار معتقداتهم والمناظرة عليها. فكثير الغرباء في مصر لما عرف عنه من العدل بين الرعية وحسن السيرة. وقد عمل الحاكم الفاطمي الامر بأحكام الله على مصادرة أمواله بعد اغتياله. واعتقل أولاده السبعة.

إلى حراز ، فملكتها ، وأعمل الفرنج الحيلة باستهلاك بعض الجندي ، فأمكن لهم ملك القلعة ، واتخذ الملك بعذرين من الليل ستاراً للهرب ومضى إلى القدس . وعلم بذلك بما حدث فعاد بجيشه وحصر (خربت) وضيق على من بالقلعة واستعادها من الفرنج ، وجعل فيها من يحفظها ، وعاد عنها .

أظهر الأمير أقسنقر البرسيي كفاءة في إعادة تنظيم الموصل وما يتبعها . فما كان من السلطان محمود إلا أن ضم إليه مدينة واسط وأعهاها . فوجه أقسنقر إليها عماد الدين زنكي بن أقسنقر . واستطاع الفرنج بعد حصار متراوحاً على الاستيلاء على مدينة صور (سنة ٥١٨ هـ = ١١٢٤ م) مما زاد من طمعهم ، وقويت نفوسمهم ، وتيقنوا الاستيلاء على بلاد الشام . واستكثروا من الجموع . وقصدوا حلب ، فما كان من البرسيي إلا أن أسرع إليها . واتفق مع أهلها على تسليمها له★ ورحل الفرنج عن حلب عندما عرفوا قوتها . وعمل البرسيي على انتزاع كفرطاب من الفرنج (سنة ٥١٩ هـ = ١١٢٥ م) وعاد إلى الموصل حيث عمل الباطنية على قتلها في السنة التالية . ومن العجب أن صاحب أنطاكية أرسل إلى عز الدين مسعود بن البرسيي - الذي كان ينوب عن أبيه بحكم حلب - يعلمه بقتل والده ، قبل أن يصل إليه الخبر . وكان قد علم به الفرنج قبله لشدة عنايته بمعرفة الأحوال الإسلامية . وربما لاتصال الفرنج بالباطنية - الإسماعيلية - واستخدامهم لهم★ وعلى كل حال ، فإن المنية عاجلت عز الدين مسعود بن البرسيي ، فتوفي في السنة التالية (٥٢١ هـ = ١١٢٧ م) . وأصبح عماد الدين زنكي أميراً على الموصل ، وما ضمته الموصل من الأقاليم ، فانصرف عماد الدين زنكي لإعادة

* انظر (قلعة حلب) في الفصل الثاني .

★★ اغتيل قسم الدولة أقسنقر البرسيي بمدينة الموصل يوم الجمعة الثامن ذي القعده سنة ٥٢٠ هـ = ١١٢٦ م . وكان يصلى الجمعة مع العامة ، فوثب عليه بضعة عشر نفساً فجرحوه بالسكاكين . وكان أقسنقر ملوكاً تركياً ، خيراً ، يحب أهل العلم والصالحين ، ويرى العدل ويفعله ، وكان من خير الولاة ، يحافظ على الصلوات في أوقاتها . ويصلى من الليل متهدجاً . وعندما علم ابنه عز الدين مسعود بن البرسيي ، سار إلى الموصل ، وأحسن إلى أصحاب أبيه ، وأقر وزيره المؤيد أبا غالب على وزارته ، وأطاعه الأمراء والأجناد ، وأحضر إلى خدمة السلطان محمود ، فأحسن إليه وأعاده . ولم يختلف عليه أحد من أهل بلاد أبيه .

تنظيم أمور دولته واعدادها للحرب. واستكثر من الجندي، وأعاد تنظيم أمور ولاية الموصل، ثم سار إلى حلب فنظم أمورها. وأصبحت الموصل والجزيرة والشام تحت قيادة واحدة، فشرع عماد الدين زنكي في توحيد بلاد الشام تحت قيادته، وساعده على ذلك وفاة أمير دمشق طغتكين (سنة ٥٢٢ هـ). فسار عماد الدين إلى حماه، وضمها لحكمه. وعمل في سنة ٥٢٤ هـ على إعادة فتح حصن الأنبار. وسواء من الحصون التي كانت ذات ضرر كبير على المسلمين.

٦ - الزنكيون وقيادة الجهاد .

انطلق الزنكيون من الموصل ، وشرعوا في حشد القوى وتنظيمها ، ولما فرغ عmad الدين زنكي من أمر البلاد الشامية - حلب وأعمالها وما ملكه - وقرر قواعده ، عاد إلى الموصل وديار الجزيرة ، ليستريح عسكره . ثم أمرهم بالتجهز للغزوة ، فتجهزوا وأعدوا واستعدوا ، وعاد إلى الشام ، وقصد حلب ، فقوى عزمه على قصد حصن الآثارب ومحاصرته لشدة ضرره على المسلمين . وهذا الحصن بينه وبين حلب نحو ثلاثة فراسخ ، بينها وبين أنطاكية . وكان من به من الفرنج يقاسمون حلب على جميع أعمالها الغربية . فسار عmad الدين إليه ونازله . فلما علم الفرنج بذلك ، جعوا فارسهم وراجلهم ، وعلموا أن هذه وقعة لها ما بعدها . فحشدوا وجعوا ولم يتركوا من طاقتهم شيئاً إلا واستنفذوه ، فلما فرغوا من أمرهم ، ساروا نحوه ، فاستشار عmad الدين أصحابه فيما يفعل ، وكل أشار بالعود عن الحصن ، إذ أن لقاء الفرنج في بلادهم خطر لا يدرى على أي شيء تكون العاقبة . فقال لهم عmad الدين :

« إن الفرنج متى رأوا قد عدنا من أيديهم طمعوا وساروا في أثربنا ، وخربوا بلادنا ، ولا بد من لقائهم على كل حال » .

ثم ترك الحصن ، وتقدم إليهم ، فالتقوا واصطفوا للقتال ، وصبر كل فريق لخصمه . واشتد الأمر بينهم ، ثم أن الله تعالى أنزل نصره على المسلمين ، فظفروا ، وانهزم الفرنج أتبيح هزيمة . ووقع كثير من فرسانهم في الأسر . وقتل منهم خلق كثير . وتقدم عmad الدين إلى عسكره بالإنجاز ، وقال : « هذا أول مصاف عملناه معهم ، فلنذقهم من بأسنا ما يبقى رعبه في قلوبهم ». وعاد عmad الدين بعد المعركة إلى حصن الآثارب ففتحه عنوة ، وقتل وأسر كل من فيه . وأخربه وجعله دكاً . ثم سار منه إلى قلعة حارم - وهي بالقرب من أنطاكية - فحاصرها ، فبذل أهلها - الفرنج - نصف دخل بلد

حارم وهادنوه، فأجابهم إلى ذلك. وعاد عنهم وقد استدار المسلمين بتلك الأعمال، وضعفت قوى الكافرين، وعلموا أن البلاد قد جاءها ما لم يكن لهم في حساب، وصار قصاراً لهم حفظ ما بأيديهم، بعد أن كانوا قد طمعوا في ملك الجميع.

عندما كانت الأمور تسير بنجاح في الشمال، سارت الأمور في الجنوب على الاتجاه المضاد، فقد نجح الباطنية في طعن حاكم دمشق - تاج الملوك بوري بن طغتكين - وجرحه جرحين، برأ أحدهما، وتنسر الآخر، وبقي فيه ألمه، إلا أنه يجلس للناس ويركب معهم على ضعف فيه. فلما كانت السنة التالية (٥٢٦ هـ = ١١٣١ م) اشتد ضعف تاج الملوك بوري وتوفي، ووصى بالملك بعده لولده شمس الملوك اسماعيل، وطبع الفرنج بشمس الملوك واستضعفوه، وعزموا على نقض هدنة كانت قائمة بينهم، فتعرضوا إلى أموال جماعة من تجار دمشق - بمدينة بيروت - وأخذوها. فشكى التجار إلى شمس الملوك، فراسل في إعادة ما أخذوها، وكرر القول فيه، فلم يردوا شيئاً. فحملته الأنفة من هذه الحالة والغيظ على أن جمع عسكره وتأهب، ولا يعلم أحد أين يزيد، ثم سار وسبق خبره (سنة ٥٢٧ هـ = ١١٣٢ م) ونزل على بانياس وقاتلاته لساعته، وزحف إليه زحفاً متتابعاً، وكان الفرنج غير متأهبين. وليس في قلعة بانياس من المقاتلة من يحميها. وقرب من سور المدينة، وترجل بنفسه، وتبعه الناس من الفارس والراجل، ووصلوا إلى سور فنقبوه، ودخلوا البلد عنوة، والتجمّأ من كان من جند الفرنج إلى الحصن، وتحصنتوا به. فقتل من البلد كثيراً من الفرنج وأسر كثيراً، ونهبت الأموال، وقاتل القلعة قتالاً شديداً، ليلاً ونهاراً، حتى فتحها بالأمان، وعاد إلى دمشق. أما الفرنج فإنه لما سمعوا نزوله على بانياس شرعوا يجمعون عسكراً يسيرون إليه، فأتاهم خبر فتحها، فبطل ما كانوا فيه.

بینما كان شمس الملوك اسماعيل يقوم بعملياته الناجحة في الجنوب، كان ملك الفرنج - ملك القدس - قد خرج بخيالته ورجالته من القدس، وسار بهم إلى أطراف أعمال حلب. فلما علم نائب عماد الدين زنكي في حكم حلب - الأمير أسوار - خرج بجيشه، وانضم إليه كثير من التركمان، فاقتتلوا عند قنسرين، فقتل من الطائفتين جماعة كثيرة. وانهزم المسلمون إلى حلب، وتردد ملك الفرنج في أعمال حلب. فأعاد الأمير

أسوار تنظيم قواته وخرج إليه فيمن معه من العسكر. فوقع على طائفة منهم، فأوقع بهم، وأكثر القتل فيهم والأسر. فعاد من سلم من الفرنج منهزاً إلى بلادهم. وانجبر ذلك المصاص ب لهذا الظفر. ودخل أسوار حلب ومعه الأسرى ورؤوس القتلى وكان يوماً مشهوداً. ثم إن طائفة من الفرنج من الرها قصدوا أعمال حلب للاغارة عليها، فسمع بهم أسوار، فخرج إليهم، وأوقع بهم، وقتلهم عن آخرهم في بلد الشمال، وأسر من لم يقتل، وعاد وجنته إلى حلب سالمين.

لقد تحول الموقف لمصلحة المسلمين، ووجد المسلمون أن لديهم القدرة لمهاجة بلاد الفرنج. فخرج جمع كبير من التركمان من الجزيرة، وأغاروا على بلاد طرابلس، فخرج لقتالهم القمحص - الكونت - صاحب طرابلس في جموعه، فانسحب التركمان وأفسحوا له المجال لطاردتهم ثم عادوا إليه وقاتلوه فهزموه، وأكثروا القتل في جنده، ومضى هو ومن سلم معه إلى قلعة بعرین، فتحصنت بها وامتنعوا عن التركمان، فحصرهم التركمان فيها، فلما طال الحصار عليهم، نزل صاحب طرابلس ومعه عشرون فارساً من أعيان أصحابه سراً، فنجوا وساروا إلى طرابلس، وترك الباقين في بعرین لحمايتها والدفاع عنها. فلما وصل إلى طرابلس كاتب الفرنج، فاجتمع عنده منهم خلق كثير، وتوجه بهم نحو التركمان لبعادهم عن بعرین. فلما علم التركمان بذلك، قصدوهم وقاتلواهم، وقتل بينهم خلق كثير، وأشرف الفرنج على الهزيمة. فجمعوا نفوسهم وعادوا على حية إلى رفينة، فتعذر على التركمان اللحاق بهم إلى وسط بلادهم، فعادوا عنهم راجعين.

تابع شمس الملوك اسماعيل جهاده في الجنوب. فقد جيشه في السنة التالية (٥٢٨ هـ = ١١٣٣ م) واستولى بهجوم مباغت على شقيف نيرون في الجبل المطل على بيروت وصبراً. وعظم أخذه على الفرنج، فجمعوا عساكرهم، وساروا إلى حوران فخربوا أمهات البلد ونهبوا أماكنهم. وكان شمس الملوك لما رأهم يجتمعون، جع هو أيضاً وحشد، وانضم إليه جع كثير من التركمان وغيرهم، فنزل يازاء الفرنج. وجرت بينهم مناوشة استمرت عدة أيام. ثم إن شمس الملوك نهض بعض عسكره، وترك الباقى قبلة الفرنج وهم لا يشعرون، وقصد بلدتهم طبرية والتاصرة وعكا وما يجاورها من البلاد، فنهب وخرق وأحرق وسبى النساء والذرية، وامتلأت أيدي من معه من

الغنائم، واتصل الخبر بالفرنج، فانزعجوا ورحلوا في الحال، لا يلوى أخ على أخيه، وطلبوا بلادهم. وأما شمس الملوك فإنه عاد إلى عسكره على غير الطريق الذي سلكه الفرنج. فوصل سالماً. ورأى الفرنج بلادهم خراباً ففت في أعضادهم وتفرقوا، وراسلوا في تجديد الهدنة، فهادنهم شمس الملوك. ويظهر أن (شمس الملوك) قد شعر أن صراع دمشق ضد الفرنج قد استنزف قدرتها، فكتب إلى عماد الدين زنكي، وعرض عليه تسليم دمشق إليه واستحثه على سرعة الوصول. وأخلى المدينة من الذخائر والأموال ونقل الجميع إلى مقر قيادته. وتتابع إرسال الرسل إلى زنكي يحثه على الوصول إليه. وقال له: «إن أهملت المجيء سلمت البلد إلى الفرنج». فسار زنكي. وشاء الخبر، فامتنع أصحاب أبيه وجده، وأقلقهم. وذكروا الحال لوالدته، فساءها ذلك، ووعدتهم بالراحة من هذا الأمر. ثم إنها ارتقت الفرصة في الخلوة من غلمانه، فلما رأته على ذلك أمرت غلمانه بقتله، فقتل، وأمرت بإلقائه على موضع في الدار ليشاهده غلمانه وأصحابه، ولما قتل (شمس الملوك)★ ملك بعده أخوه شهاب الدين محمود بن تاج الملوك بوري. وأثناء ذلك كان عماد الدين زنكي قد تحرك بجيشه من الموصل، وعبر الفرات، استجابة لدعوة شمس الملوك، وأرسل الرسل للاتفاق على قواعد التسلیم، فرأى الرسل أن الموقف قد تبدل بقتل شمس الملوك، وقد استقبل أمير دمشق الجديد رسل عماد الدين استقبلاً لائقاً، وأكرمه، وأعادهم بأجل هيئة. ونقل الرسل إلى عماد الدين ما رأوه من استقرار الوضع في دمشق، وأن الكلمة متفقة بين أهلها على الطاعة. فلم يحفل عماد الدين بما سمعه، وسار إلى دمشق، فنازلاً وحضرها، وأجفل أهل السواد إليها، واجتمعوا فيها على محاربته. ونزل عماد الدين أولأ شمالي دمشق، ثم انتقل إلى ميدان الحصى، وزحف وقاتل، فرأى قوة ظاهرة وشجاعية عظيمة واتفقاً تماماً على محاربته، وقام (معين الدين أنس) مملوك طفتكنين جد أمير دمشق بقيادة

* شمس الملوك اسماعيل ابن تاج الملوك بوري بن طفتكنين (٥٢٩-٥٠٦ هـ = ١١١٢-١١٣٤ م) أظهر كفاءة قيادية عالية في الحرب - مع صغر سنه - ولكن ركب طرقاً من الظلم ومصادرات العمال وغيرهم في أعمال البلد، وبالغ في العقوبات لاستخراج الأموال. وظهر منه بخل زائد ودناءة نفس ولهذا فرح أهل الشام - حتى خاصته - عندما تم قتله.

الحرب بكفاءة عالية، وظهر من معرفته بأمور الحصار والقتال ما لم يكن متوقعاً أو معروفاً. ووصلت في تلك الفترة رسالة من الخليفة إلى عماد الدين تأمره بعقد صلح مع أمير دمشق ، فانسحب عماد الدين زنكي ورجع إلى الموصل.

تابع عماد الدين زنكي توجيه الجهد ضد الفرنج ، ففي سنة ٥٣٠ هـ = ١١٣٥ م اجتمعت عساكر أتابك زنكي صاحب حلب وحمة مع الأمير أسوار نائبه بحلب ، وقصدوا بلاد الفرنج على حين غفلة منهم ، وساروا إلى اللاذقية ، ولم يتمكن أهلها من الانتقال عنها ؛ والاحتراز ، فنهبوا ما يزيد عن الوصف وقتلو وأسرموا وفعلوا في بلاد الفرنج ما لم يفعله بهم غيرهم . وكان الأسرى سبعة آلاف أسير ما بين رجل وامرأة وصبي ، ومائة ألف رأس من الدواب ما بين فرس وبغل وحمار وبقر وغنم . وأما ما سوى ذلك من الأقمشة والخلي والأموال فيخرج عن الحد . وأخبروا بلد اللاذقية وما جاورها . ولم يسلم منها إلا القليل . وخرجوا إلى شيزر بما معهم من الغنائم سالمين ، فامتلاً من الأسرى والدواب ، وفرح المسلمين بذلك فرحاً عظيماً ، ولم يقدر الفرنج على شيء يفعلونه مقابل هذه الحادثة عجزاً منهم ووهناً وضعفاً .

قاد عماد الدين زنكي جيشه في السنة التالية (٥٣١ هـ = ١١٣٦ م) وألقى الحصار على (قلعة بعرین) وهي تحت حكم الفرنج وتقع على مقربة من مدينة حاه ، ومن أمنع الحصون وأقواها ، ولما نزل عليها قاتلها وزحف إليها ، فجمع الفرنج - فارسهم ورجالهم - وساروا في قضهم وقضيضهم ولو كفهم وقامصتهم وكندهم لابعاد عماد الدين زنكي عن قلعة بعرین ، فلم يرحل عنها ، وصبر لهم إلى أن وصلوا إليه ، فلقيهم وقاتلهم أشد قتال رأه الناس ، وصبر الفريقان ، ثم أجلت الواقعة عن هزيمة الفرنج . وأخذتهم سيف المسلمين من كل جانب ، واحتدم ملوكيهم بجصن بعرین لقربه منهم ، فحصرهم المسلمون ، ومنع أتابك زنكي عنهم كل شيء حتى الأخبار . فكان من به منهم لا يعرف شيئاً عن أخبار بلادهم ، لشدة ضبط الطرق ، وهيبة عماد الدين على جنوده .

فما كان من رهبانهم وقسوسهم إلا أن ساروا إلى بلاد الروم وببلاد الفرنج

ومن والاه من بلاد النصرانية، مستنفررين على المسلمين، وأعلمونهم أن زنكي إن أخذ قلعة بعرین ومن فيها من الفرنج، ملك جميع بلادهم في أسرع وقت، لعدم المحامي عنها. وأن المسلمين ليس لهم نية إلا قصد القدس.

فحينئذ اجتمعت النصرانية، وساروا على الصعب والذلول، وقصدوا بلاد الشام مع ملك الروم. وأما ما كان من عmad الدين زنكي، فإنه جد في قتال الفرنج، فصبروا، وقلت عليهم الميرة والذخيرة، ذلك أنهم لم يكونوا على استعداد مثل هذا الحصار، وكانوا يعتقدون أنه ما من أحد يقدر عليهم، بل كانوا يتوقعون ملك باقي البلاد بالشام، فلما قلت الذخيرة أكلوا دوابهم، وأذعنوا بالتسليم ليؤمّنهم ويترکهم يعودون إلى بلادهم، فلم يجدهم إلى ذلك، فلما علم باقتراب ملك الروم من حدود بلاد الشام، واجتمعه بن بقي من الفرنج، أعطى لمن في الحصن الأمان، وفرض عليهم تسلیم الحصن، ومن المال خمسين ألف دينار يحملونها إليه، فأجابوه إلى ذلك، فخرجوا وسلموا إليه. فلما فارقوه بلغتهم اجتماع من اجتمع بسببهم، فندموا على التسلیم حيث لا ينفعهم الندم.

وعمل زنكي في مدة مقامه عليهم، على فتح المعرة وكفر طاب، وانتزعها من الفرنج. وكان أهلها وأهل سائر الولايات التي بينها وبين حلب وحمة مع أهل بعرین في الخزي، لأن الحرب بينهم قائمة على ساق، والنهب والقتل لا يزال بينهم، فلما ملكها زنكي أمن الناس، وعمرت البلاد وعظم دخلها، وكان فتحاً مبيناً توجه زنكي بإعادة أراضي المعرة إلى أصحابها الأصليين، الذين كانوا يملكونها قبل استيلاء الفرنج الصليبيين عليها.

كان لا بد لملك الروم - الكسيوس - من تسوية حسابه مع أمير أنطاكية وأمير الدروب في أرمينية وذلك قبل دخول بلاد الشام. فسار إلى (نيقية) وحصراها، فصالحه أميرها على مال يؤديه له. وسار عنها إلى مدينة أذنة ومدينة المصيصة وهما بيد ابن ليون الأرمني - صاحب قلاع الدروب - فحصرها وملكتها. ورحل إلى عين زربة، فحصرها وملكتها عنوة، وملك تل حدون، وعمل على نقل أهله إلى جزيرة

قبرص ، وعبر ميناء الاسكندرية ، فحصر مدينة انطاكيه ، وضيق على أهلها ، فترددت الرسل بين صاحب انطاكيه - ريموند - وبين ملك الروم ، وتصالحا ، ورحل ملك الروم إلى بغراس . وتوجه منها إلى بلاد الشام (سنة ٥٣٢ هـ = ١١٣٧ م) وخاف الناس خوفاً عظيماً ، وقصد ملك الروم (بزاغة) فحصرها ، وهي مدينة لطيفة على سة فراسخ من حلب . فمضى جماعة من أعيان حلب إلى أتابك عماد الدين زنكي فاستغاثوا به واستنصروه ، فسير معهم كثيراً من جنده ، فدخلوا إلى حلب ليمنعوها من الروم إن حصروها . ثم إن ملك الروم قاتل بزاغة ونصب عليها منجنينات ، وضيق على من بها ، فملكتها بالأمان ، ثم غدر بأهلها فقتل منهم وأسر وسبى ، وكان عدة من جرح فيها من أهلها خمسة آلاف وثمانمائة نفس ، وتنصر قاضيها وجماعة من أهلها - نحو أربعمائة نفس - وأقام الروم بعد ملكها عشرة أيام يتطلبون من اختفى ، فقيل لهم إن جماعاً كثيراً من أهل هذه الناحية قد نزلوا المغارات ، فدخلوا عليها وهلكوا في المغاير . ثم رحلوا إلى حلب من الغد في خيلهم ورجلهم ، فخرج إليهم أحذاث حلب فقاتلواهم قتالاً شديداً ، فقتل من الروم وجرح خلق كثير ، وقتل بطريق جليل القدر عندهم ، وأقاموا ثلاثة أيام ، فلم يروا فيها طمعاً ، وعادوا خاسرين ، فرحلوا إلى قلعة الأنبار ، فخاف من فيها من المسلمين فهوبيا عنها ، فملكتها الروم ، وتركوا فيها سبايا بزاغة ، والأسرى ، ومعهم جماعة من الروم يحفظونهم ويحمون القلعة . فلما علم حاكم حلب - الأمير أسوار - رحل فيمن عنده من العسكر إلى الأنبار . فأوقع بن فيها من الروم فقتلهم ، وخلص الأسرى والسيي وعاد بهم إلى حلب . أما عماد الدين ، فإنه نظم قوة خفيفة من الفرسان ، لمطاردة مؤخرات الروم ، وقطع الإمداد عنهم ، فسار ملك الروم إلى شيزر وحصرها وأقام عليها أربعين يوماً ، فلما فشل في فتحها ، ترك المجانق وآلات الحصار ، وعاد إلى بلاده .

أصبحت معظم بلاد الشام تحت حكم عماد الدين زنكي ، وقد حاول ضم دمشق لحكمه وحصرها - كما سبق ذكره - غير أنه فشل في مسعاه ، فلما كانت سنة ٥٣٣ هـ = ١١٣٨ م ، شهدت دمشق أحذاثاً مثيرة ، اجتذبت إليها إنتاه عماد الدين زنكي . وحلته على إعادة المحاولة لضم دمشق إليه . فقد قام غلام صاحب دمشق - شهاب

الدين محمود بن تاج الملوك بوري بن طفتكيين - بقتله وهو على فراشه. فعمل (معين الدين أنس) على استدعاء أخيه جمال الدين محمد بن بوري الذي كان يحكم بعلبك ليملك دمشق بعد أخيه. فحضر في أسرع وقت، ودخل البلد، وحلف له الجندي وأعيان الرعية. وسكن الناس، وفوض أمر دولته إلى (معين الدين أنس) وزاد في علو مرتبته وكان أنس خيراً عاقلاً حسن السيرة فجرت الأمور عنده على أحسن نظام.

لم يكن عماد الدين زنكي بحاجة لما يحفزه للعمل، غير أن رسالة من زوجته (زمردخاتون) * والتي هي أم شهاب الدين محمود بن تاج الملوك - المقتول - وصلت إلى عماد الدين أعلمته فيها شدة وجدتها لقتل ولدتها وحزنها عليه، وطلبت إليه أن يقصد دمشق ويطلب بثار ولدتها. فلما قرأ عماد الدين الرسالة التي جاءته من حلب، وكان يومها بديار الجزيرة، بادر في الحال من غير توقف ولا ترثيث، وسار مجدداً ليجعل ذلك طريقاً إلى ملك البلد ، وعبر الفرات عازماً على قصد دمشق، فاحتاط من بها واستعدوا واستكثروا من الذخائر ، ولم يتركوا شيئاً مما يحتاجون إليه إلا وبذلوا الجهد في تحصيله، وأقاموا ينتظرون وصوله إليهم ، فتركهم وسار إلى بعلبك بعد أن حاول إغراء (معين الدين أنس) لتسليم دمشق مقابل بذول عظيمة يقدمها له فرفض

* هي زمردختون ابنة جاوي - من زعماء التركمان - تزوجها تاج الملوك بوري. فولدت له شمس الملوك اسماعيل وجمال الدين محمد وشهاب الدين محمود. وكان هناك رجل اسمه يوسف بن فiroz - قد تمكن من أمور الدولة أيام بوري ثم في أيام ابنه اسماعيل بعده واتهم بأم شمس الملوك، فأراد شمس الملوك قتل أمه. فبلغها الخبر، فقتلت خوفاً منه والله أعلم. وعلى كل حال فقد عمل أمير من أمراء دمشق - واسمه ترواش - على قتل يوسف بن فiroz سنة ٥٣٠ هـ - ولما رأى أتابك عماد الدين زنكي تمكنها من الحكم، أرسل إلى صاحب دمشق شهاب الدين يخطب إليه أمه ليتزوجها، وحملت إليه وهو في حصن فتزوجها سنة ٥٣٢ هـ - وإنما حله على التزوج بها أن يملك دمشق بالاتصال إليها، فلما تزوجها خاب أمله ولم يحصل على شيء، فأعرض عنها. فلما قتل عماد الدين زنكي سنة ٥٤١ هـ - عادت من حلب إلى دمشق، ثم زارت بغداد، وسارت من هناك إلى الحجاز، وجاورت بمكة سنة، ثم جادت فأقامت بالمدينة النبوية حتى ماتت سنة ٥٥٧ هـ = ١١٦١ م كانت كثيرة البر والصدقات والصلة والصوم. وهي أخت الملك دقاد بن تشن لأمه: وقد بنت مدرسة الخاتونية خارج دمشق - وإلى الغرب منها. وقل ما بيدها في آخر أيام حياتها حتى أنها كانت تتقوت من عملها في غربلة القمح والشعير.

معين الدين أنس العروض، مما حمل عباد الدين على السير إلى بعلبك، فلما وصلها نازحاً، وضيق عليها، وجد في مباربتها ونصب عليها أربعة عشر منجنيقاً، ترمي ليلاً ونهاراً حتى أشرف من بها على الالاك، وطلبو الأمان، وسلموا إليه المدينة، وبقيت القلعة وبها جماعة من الشجعان الأتراك، فقاتلهم، فلما أيسوا من معين ونصير، طلبو الأمان، فأمنهم، فسلموا إليه القلعة، فلما نزلوا منها، وملكتها، غدر بهم وأمر بصلبهم فصلبوا ولم ينج منهم إلا القليل، فاستقبع الناس ذلك من فعله واستعظموه، وخافه غيرهم، وحدروه، لاسيما أهل دمشق. فقالوا : « لو ملكنا لفعل بنا مثل فعله بهؤلاء » فازدادوا نفوراً وجدوا في مباربه عندما رجعوا إليهم، بعد أن فتح بعلبك. ونزل على قرية داريا - في ظاهر دمشق، (سنة ٥٣٤ هـ = ١١٣٩ م) فالنقت الطلاس، واقتتلوا، وكان الظفر لعسكر زنكي. وعاد الدمشقيون منهزمين وقد قتل كثير منهم. ثم تقدم زنكي من البلد، فلقيه جمّع كثير من جند دمشق وأحداثها ورجال الغوطة، فقاتلواه، فانهزم الدمشقيون، وأخذهم السيف، فقتل فيهم وأكثر، وأسر كذلك، ومن سلم عاد جريحاً، وأشرف البلد ذلك اليوم على التسلیم. لكن عاد زنكي وأمسك عن قتال دمشق عشرة أيام، وتتابع ارسال الرسل إلى صاحب دمشق، وبذل له بعلبك وحص وغیرها مما يختاره من البلاد، فما إن يسلم، وامتنع غيره من أصحابه من ذلك، وخوفوه عاقبة فعله، وأن يفعل ويغدر كما فعل بأهل بعلبك، فلما لم يسلموا إليه عاود القتال والزحف. وتصادف أن مات صاحب دمشق وولي بعده (مجير الدين أباق) ابن صاحبها جمال الدين، وتولى ترتيب دولته (معين الدين أنس) فلم يظهر لموت جمال الدين أثر مع أن عددهم على باب المدينة.

ورأى (معين الدين أنس) أن زنكي لا يفارقهم، ولا يزول عن حصرهم، فراسل الفرنج واستدعاهم إلى نصرته، وأن يتلقوا على مباربة زنكي، وأبعاده عن دمشق، وبذل لهم بذلاً، منها أن يسير إلى بانياس - التي كانت تابعة لحكم زنكي - وأن يأخذها ويسلمها لهم. كما خوفهم من زنكي إن ملك دمشق. فعلموا صحة قوله. وعرفوا أنه إن ملك دمشق لا يبقى لهم معه بالشام مقام. واجتمع الفرنج، وعزموا على المسير إلى دمشق ليلتقو ب أصحابها وعسكراها،

ويتعاونوا على قتال زنكي. وعندما علم زنكي بذلك، سار إلى حوران لقتال الفرنج قبل أن يجتمعوا بالدمشقين. فلما عرف الفرنج خبره، لم يفارقوا بلادهم. فلما رأاهم زنكي على هذه الحال، عاد إلى حصر دمشق، ونزل (بعذرا) شمالي دمشق، فأحرق عدة قرى من المرج والغوطة. ورحل عائداً إلى بلاده - الموصل - . ووصل الفرنج إلى دمشق. واجتمعوا ب أصحابها وقد رحل زنكي. فسار معين الدين أنز في عسكر دمشق إلى بانياس. وحصارها، وقاتل حاميتها، وضيق عليها، حتى أخذها وسلمها إلى الفرنج. ولما سمع زنكي بحصار بانياس، عاد بسرعة إلى بعلبك ليدفع عنها من يحصارها. وأقام هناك. فلما عاد عسكر دمشق بعد أن ملكوا بانياس وسلموها للفرنج، فرق زنكي عسكره، وأطلقهم للإغارة على حوران وأعمال دمشق، وسار هو في قوة خفيفة من الفرسان ليلاً، وباغت حامية دمشق ولما يعرف أحد خبره. فلما أصبح الناس ورأوا عسكره، اجتمعوا على السور، وفتحت الأبواب وخرج الجندي والرجال فقاتلوه. ولم يقدم زنكي على خوض المعركة لأن معظم جنده كانوا قد تفرقوا في البلاد. وانصرفوا للنهب والتخييب، وكان قصده من الإغارة على دمشق هو منع عسكرها من مغادرتها، والهجوم على عسكره وهم متفرقون. فلما اقتلوا ذلك اليوم قتل بينهم جماعة. ثم أحجم زنكي عنهم، وعاد إلى خيامه. ثم رحل إلى مرج راهط، وأقام ينتظر عودة عسكره، فعادوا إليه وقد ملؤوا أيديهم من الغنائم. لأنهم طرقوا البلاد وأهلها غافلون. فلما اجتمعوا عنده رحل بهم عائداً إلى بلاده.

انصرف عياد الدين لإعادة تنظيم أمور قاعدته الأساسية - الموصل - فأخضع لحكمه المناطق المتاخمة لحدود امارته، وأعاد فتح ماردين وحلين والموزر وغيرها من القلاع التي كانت خاضعة لحكم أمير الراها - الكونت جوسلين - ورتب أمور الجميع، ووضع فيها من الأجناد من يحميها ويدافع عنها. وقصد مدينة آمد وحانى. وأقام بتلك الناحية مصلحاً لما فتحه، ومحضراً لما لم يفتحه، ويستقر الفرصة المؤاتية لتحقيق أكبر أهدافه وهو إعادة فتح الراها.

كان ضرر الفرنج قد عمَّ بلاد الجزيرة، واستطار شرهم، ووصلت غاراتهم إلى أدنى الجزيرة وأقصاها حتى بلغت آمد ونصيبين ورأس العين والرقة. وكانت ممتلكاتهم

بهذه الديار تمتد من قرب ماردین إلى الفرات . وتشمل فيما تشمله الرها وسروج والبيرة وسن ابن عطية وحلين والفرادي وغيرها . وكانت هذه الأعمال وغيرها مما هو غرب الفرات تحت حكم أمير الرها - جوسلين - الذي كان مقدم الفرنج وقائد جندهم والمتحكم بأمورهم لما عرف عنه من الشجاعة وال默ك . وعرف عماد الدين زنكي أنه لا يستطيع فتح الرها إلا إذا عاجلها بهجوم مباغت ، وبات يتحين الفرصة المناسبة ، حتى إذا ما توافرت له المعلومات عن مغادرة أمير الرها لبلده ، قام بهجومه ، وحاصرها وفتحها عنوة★ . وسرعان ما انتشرت أنباء هذا الفتح المبين ، فقد تم تدمير أول إماراة للفرنج على أرض الشام . وكان ذلك نذراً خطيراً قرع أبواب الغرب الصليبي بعنف . ففتح الفرنج أبوابهم وأطلقو حلتهم الصليبية الثانية .

لم ينعم أتابك عماد الدين زنكي بن آقسنقر طويلاً بانتصاراته . فقد قتله جماعة من ماليكه ليلاً غيلة★ وشعر الفرنج بالفرحة الكبرى ، وتناقلوا البشائر بمorte . ولكن سرعان ما تبين لهم كانوا مفرطين في تفاؤلهم . فقد عمل ولداه - سيف الدين غازي ونور الدين محمود - على اقتسام إدارة ممتلكاته ، فأخذ سيف الدين غازي ولاية الموصل ، فيما جعل نور الدين محمود من مدينة حلب قاعدة له . ومضى على نهج أبيه في محاربة الفرنج . وكان أول عمل له هو إعادة فتح الرها . التي حاول - جوسلين - استعادتها ، فأحبط محاولته . ودمر الرها .

★ انظر الفصل الثاني : (القلاع والمحصون - الرها) .

★ قتل أتابك عماد الدين زنكي لخمس م屁ين من ربيع الآخر سنة ٥٤١ هـ = ١١٤٦ م . وقد زاد عمره على ستين سنة ، قتل والده وهو صغير ، فأظهر كفاءة عالية . وكان شديد الميبة على عسكره ورعيته ، عضم السياسة ، لا يقدر القوي على ظلم الضعيف ، وكانت البلاد قبل أن يملكتها خراباً من الظلم ، وتتقى الولاة ، ومجاورة الفرنج ، فعمرها ، وامتلأت أهلاً وسكاناً . وكانت الموصل من أقل بلاد الله فاكهة فصارت في أيامه وما بعدها من أكثر البلاد فواكه ورياحين وغير ذلك . وكان أيضاً شديد الغيرة على نساء الأجناد ، وكان يقول : إن لم تحفظ نساء الأجناد فسدن ، لكثرة غيبة أزواجهن في الأسفار . وكان أشجع خلق الله . وكان الأعداء محظيين بيلاده محددين بها ، وكلهم يقصدها ويريدون أخذها . فلم يقنع بمحظتها ، حتى أنه لا ينقضى عليه عام حتى يفتح من بلادهم . وقد اختلطت ولادته بالأعداء من كل جهاتها . فكان يقصد هذا مرة ، وهذا مرة ، ويأخذ من هذا ، ويصانع هذا إلى أن ملك من كل من يليه

٦ - التحول الحاسم .

بدأ نور الدين محمود عهده بمواجهة الحملة الصليبية التي توجهت إلى دمشق - وهي الحملة الصليبية الثانية - على أمل التعويض عن ضياع إمارة الراها من قبضة الفرنج. واستطاع المسلمين احباط هجوم الفرنج وتدمير قواهم، بفضل تعاون أمير دمشق (معين الدين أنس) مع نور الدين محمود. وما إن ازاح الخطر عن دمشق، حتى سار نور الدين إلى (حصن العزيمة) لإعادة فتحه وانتزاعه من قبضة الفرنج. وكان السبب في ذلك هو أن ملك الالمان كان قد اصطحب معه في الحملة الصليبية الثانية، ابن حاكم طليطلة - الفونسو - والذي كان جده قد استولى على طرابلس الشام وحصن العزيمة. فأراد هذا الابن اتخاذ حصن العزيمة مقراً له لتكوين امارة صليبية يحكمها. فسار إليه نور الدين ومعه معين الدين أنس، وأرسلا إلى سيف الدين - وهو بمحص - يستنجدانه، فأمددهما بجيش كثيف، فنازلوا الحصن وحصروه وبه ابن الفونسو - الفنش - فامتنع به، وزحف إليه المسلمون غير مرة، وتقدم إليه النقابون فنقبوا السور، فاستسلم حينئذ من به من الفرنج، وملكه المسلمين، وأخذوا كل من به من فارس ورجل وصبي وامرأة - وفيهم ابن الفنش - وأخرجوه من الحصن (سنة ٥٤٣ هـ = ١١٤٨ م) وعادوا إلى سيف الدين. وكان مثل ابن الفنش كما قيل: «خرجت النعامة تطلب قرنين فعادت بغير أذنين».

لقد كان ذلك تحولاً حاسماً في خط مسار الحرب ضد الفرنج، إذ استطاع المسلمين تدمير أكبر حشد للفرنج على أبواب دمشق، وأحبطوا أهداف الحملة الصليبية الثانية،

= طرفاً من بلده. وأشار الأمن في بلاده، وعاني في حياته كثيراً من الخطوب، فما أصابه الوهن ولا الضعف. واستعن بالاكفاء من الرجال من عرف تقاومه وعدهم في الرعية وحسن سياستهم للأمور. وكان عماد الدين يساوي عسكره في مأكله ومشربه ومسيره ونومه، ويسبقهم في خوض غمار الحرب.

وانتقلوا إلى الهجوم. غير أن طريق الصراع لا زال طويلاً وشاقاً. ولكن معالم الطريق باتت واضحة كل الوضوح. وظهر ذلك من خلال اعمال نور الدين محمود وانجازاته.

أراد الفرنج القيام بتظاهرة قوة للتعويض عن هزائمهم، فحشدوا جوعهم وساروا إلى حلب للإغارة عليها. فعلم نور الدين فسار إليهم بجيشه، والتقو - بغرى - القرية من حلب، واقتتلوا اقتتالاً شديداً، وأجلت المعركة عن انهزام الفرنج وقتل كثير منهم، وأسر جماعة من مقدميهم. ولم ينج من ذلك الجمع إلا القليل، وأرسل من الغنية والأساري إلى أخيه سيف الدين وإلى الخليفة ببغداد. وإلى السلطان مسعود وغيرهم ★ .

لقد كان على نور الدين محمود بعد ذلك أن ينصرف لبعض المشكلات الداخلية. فقد توفي أمير الموصل، سيف الدين غازي بن أتابك بن زنك (سنة ٥٤٤ هـ = ١١٤٩ م) فتولى أخوه (قطب الدين مودود) إمارة الموصل، الأخ الأصغر لنور الدين محمود. ويظهر أن نور الدين كان يخشى خروج أخيه على طاعته، فانطلق مسرعاً إلى سنجار، وليس معه إلا قوة صغيرة من الفرسان الخفيفة، حيث حصل على الدعم اللازم الذي يمكنه من التحرك إلى الموصل. واجتمع قطب الدين مع أركان دولته، وحشد جيشه وسار إلى سنجار وهو يقصد سنجار. واجتمع قطب الدين بأركان دولته، وقال لهم :

«ليس من الرأي قتال نور الدين فنحن الذين عظمنا مكانته عند السلطان وما يقوم به من الغزو، وجعلنا أنفسنا دونه. كما أنه هو الذي أظهر للفرنج عظمتنا وقوتنا، وأنه تابع لنا، وهو لا يزال يقول لهم: إن كنتم كما أحب وإلا

★ وقال ابن القيسري في هذه الواقعة قصيدة طويلة، مطلعها :

يا ليت أن الصد مصدود
أولاً فليت النوم مردد
وكيف لا ينسى على عيشنا الـ^ـ
محمد والسلطان محمود.
إلا وشلو الكفر مقدود.
وصارم الإسلام لا ينسى
مكارم لم تك موجودة
إلا ونور الدين موجود.
وكم له من وقعة يومها
عند الملوك الكفر مشهود.

سلمت البلاد لصاحب الموصل، وحينئذ يفعل بكم ويصنع. فإذا لقيناه، وهزمناه، طمع السلطان فينا، وقال: هذا الذي كانوا يعظمونه ويختمنون به وإذا به أضعف منهم. وإن هو هزمنا طمع فيه الفرنج وقالوا: إن الذين يختمن بهم هم أضعف منه وقد هزمهم وبالجملة».

وأشار عليهم بالصلح. وسار هو إليه واصطلح معه. وسلم نور الدين بلدة سنجر إلى أخيه قطب الدين، وتسلم مقابل ذلك مدينة حصن والرحبة - الميادين حالياً - ولم يكن نور الدين يريد ذلك، وعاد نور الدين إلى حلب، وحل معه ما كان قد ادخره أبوه - عماد الدين - من الخزائن، وكانت كثيرة جداً.

صار باستطاعة نور الدين متابعة جهده وجهاده ضد الفرنج الصليبيين، فقد جيشه إلى - حارم - وخاض معركة قاسية، أنزل الله فيها نصره على المسلمين، وقتل أمير انطاكيه. وفي السنة التالية (٥٤٥ هـ = ١١٥٠ م) نجح نور الدين بفتح حصن أقامية.

جاءه نور الدين محمود مأذقاً من مآذق الحرب الصعبة (سنة ٥٤٦ هـ = ١١٥١ م) عندما سار بجيشه لقتال جوسلين الذي كان فارس الفرنج غير مدافع، وقد جمع الشجاعة والرأي، فلما علم بتحرك نور الدين جع الفرنج فأكثر، والتقي بجيشه نور الدين واقتتلوا شمال حلب. فانهزم المسلمون وقتل منهم وأسر جع كثير، وكان في جملة من أسر سلاح نور الدين، فعمل - جوسلين - على إرسال سلاح نور الدين إلى ملك قونية - مسعود بن قلج أرسلان - وقال له :

«هذا سلاح زوج ابنتك، وسيأتيك بعده ما هو أعظم منه».

فلما علم نور الدين بذلك، عظم عليه الأمر، وأعمل الحيلة على جوسلين، وهجر الراحة ليأخذ بثاره، وأحضر جماعة من أمراء التركمان. وبذل لهم الرغائب إن هم ظفروا بجوسلين وسلموه إليه إما قتيلاً أو أسيراً، لأنه علم أنه متى قصده بنفسه احتمى بجماعته وحصونه، فجعل التركمان عليه العيون، فخرج متصيداً، فلحقت به طائفة منهم، وظفروا به. فصانعهم على مال يؤديه إليهم، فأجابوه إلى إطلاقه إذا أحضر المال، فأرسل في إحضاره، فمضى بعضهم إلى نائب نور الدين بحلب - أبو بكر بن

الداية - فأعلمك الحال، فسير جنداً معه وباغتوا أولئك التركمان وجوسلين معهم، فأخذوه أسرىًّا، وأحضروه عنده. وكان أسره من أعظم الفتوح لأنَّه كان شيطاناً عاتياً شديداً على المسلمين، قاسي القلب، وأصيَّت النصرانية كافة بأسره.

ولما أسر، سار نور الدين إلى قلاعه في شمال حلب. فملكها وهي: تل باشر وعين تاب وإعزاز وتل خالد وقورس والراوندان وبرج الرصاص وحصن البارة وكفرسود وكفرلاتا دلوك ومرعش ونهر الجوز، وغير ذلك من أعماله. وقد تم فتح ذلك كله في مدة يسيرة. وكان نور الدين كلما فتح حصنًا نقل إليه من كل ما تحتاج إليه الحصون خوفاً من نكثة تلحق المسلمين من الفرنج. فتكون بلادهم غير محتاجة إلى ما يمنعها من العدو★.

حاول الفرنج في السنة التالية (٥٤٧ هـ = ١١٥٢ م) استعادة ما فتحه نور الدين من بلاد جوسلين، فجمعوا جوعهم وساروا لقتاله، ووَقَعَت معركة عند (دلوك). واقتتل الفرنج والمسلمون أشد قتال رأه الناس. وصبر الفريقيان، ثم انهزم الفرنج وقتل منهم وأسر كثير، وعاد نور الدين إلى دلوك ففتحها وأعادها إلى حكم المسلمين.★★.

★ أكثر الشعراء من مدح نور الدين لما قام به من أعمال - من ذلك قول القيسري من قصيدة طويلة:

وأسعد قرن من حواملك الأسر
فأوبقه الكفر أن عدواه والكفر
تشق على النربين لو أنها وكر
بالافق الداجي إلى ذا السنَا فقر
وأقصاه بالأقصى وقد قضي الأمر
وليس سوى جاري الدماء له طهر

كما أهابت الأقدار القمص أسره
طغى وبغي عدوأ على غلوائه
وأمسَت عزاز كاسمها بك عزة
فسر واملك الدنيا ضياء وبهجة
كأنَّي بهذا العزم لافل حده
وقد أصبحت البيت المقدس طاهراً
ما قليل في نصر نور الدين على الفرنج :

أعدت بعصرك هذا الأنبياء
فواطأت يا جبذا أحد بها
وكان مهاجرها تابعه
تق فتوح النبي وأنصاره
وأسرت من بدر أبداره
ك وأنصار رأيك أنصاره

بقي الاستيلاء على دمشق هو الهدف الأول في مخططات نور الدين محمود - بمثيل ما كان عليه لدى والده عماد الدين - غير أن نور الدين سلك نهجاً جديداً لبلوغ هدفه، وزاد من تصميمه لبلوغ هدفه ما حدث من تطورات في الجنوب، فقد استولى الفرنج الصليبيون على (عسقلان) سنة ٥٤٨ هـ = ١١٥٣ م. وتدحر الموقف الداخلي على جبهة مصر. وكانت دمشق تعترض سبيل أي تحرك لقوات نور الدين بين بلاد الشام ومصر. ولهذا عمل نور الدين على توثيق صلاته بأمير دمشق مجير الدين، واستماله حتى وثق به، وواصله بالهدايا، وأظهر له المودة، حتى إذا ما شعر بأنه أصبح متمنكاً من مجير الدين، أخذ في تدمير جهاز الدولة التي يعتمد عليه مجير الدين وذلك عن طريق مجير الدين ذاته. فكان يقول له: «إن فلاناً قد كاتبني في تسلیم دمشق». فكان مجير الدين يبعد الذي قيل عنه ويأخذ إقطاعه. وكان آخر هؤلاء الأمراء عطاء بن حفاظ السلمي الخادم والذي اشتهر بشجاعته وشهادته. فلما أبعده مجير الدين وقتلته، سار نور الدين إلى دمشق؛ وكان قد كاتب من بها من الأحداث واستالم، فوعده بالتسليم إليه. فلما حضر نور الدين إلى دمشق، أرسل مجير الدين إلى الفرنج يبذل لهم الأموال، ويسلمهم قلعة بعلبك مقابل نجدة لهم له لابعاد نور الدين. وشرع الفرنج في حشد فارسهم ورجالهم، ولكن نور الدين تحرك بسرعة أكبر، وتسلم دمشق. فعاد الفرنج بخفي حنين (سنة ٥٤٩ هـ = ١١٥٤ م). وسار مجير الدين إلى العراق، وأقام ببغداد.

لقد مضت فترة زادت على الستين عاماً، منذ أن استولى الفرنج على القدس (سنة ٤٩٢ هـ = ١٠٩٨ م) ولما تقدم مصر لقتال الفرنج ما يتناسب مع قدراتها، ومع امكاناتها، وانصرفت لصراعاتها الداخلية، غير أن ذلك لم يصرف المسؤولين فيها عن متابعة ما كان يحدث على الساحة الإسلامية في بلاد الشام. ولقد أتعشت انتصارات

فجددت إسلام سلامتها
وما يوم أنس إلا كذا
صدمت عزيتها صدمة
وفي تل باشر باشرتهم
وإن دالكتهم دلوك فقد

وعمر جسدك عمارها
ك بل طال بالنوع أشمارها
أذابت مع الماء أحجارها
بزحف ت سور أسوارها
شددت فصدقـت أخبارها

نور الدين محمود الأمل في قلوب المسلمين. ولقد بُرِزَ ذلك في مناسبات كثيرة - منها على سبيل المثال اسهام وزير مصر الصالح بن رزيك والذي قُتل سنة ٥٥٨ هـ في الصلح بين نور الدين زنكي صاحب الشام وبين قلج أرسلان - حيث أرسل الصالح بن رزيك رسالة - شعرية -★ إلى قلج أرسلان ينهاه عن قتال نور الدين محمود، وينصحه بالتعاون معه لمصلحة المسلمين. وعلى كل حال، فقد تدهور الموقف على جهة مصر تدهوراً خطيراً (سنة ٥٥٨ هـ) بحيث كان فيها ثلاثة وزراء في وقت واحد هم: العادل بن الصالح بن رزيك ، وشاور ، وضرغام . وكان لا بد من تفجير الصراع بين هؤلاء الوزراء الثلاثة ، وما يتبعهم من مراكز القوى . وأدى هذا الصراع إلى قتل العادل ، ابن الصالح بن رزيك ، وسيطر ضرغام على الموقف ، مما أرغم خصمه شاور على الهرب من مصر ، واللجوء إلى نور الدين محمود ليتضرر له من خصمه ضرغام .

* كان مما تضمنته الرسالة الشعرية الطويلة التي أرسلها الصالح بن رزيك - وزير مصر - إلى قلج أرسلان :

ويعلم وجه الرأي والرأي بهم
بوفق للأمر الذي هو أحزم
وما أحد لما قضى الله يسلم
بفيهم وكانت وهي صاب وعلقم
وفيكم من الشحناه نار تضرم
أما في رعاياكم من الناس مسلم
إذا ما نصرنا الدين نحن وأنت
بأشدالها تخوی البلاد وتقسم

نقول ولكن أيّن من يفهم
وما كل من قاس الأمور وسامها
وما أحد في الملك يبقى مخلدا
أمن بعد ما ذاق العدا طعم حربكم
رجعتم إلى حكم التنافس بينكم .
أما عندكم من يتقى الله وحده
تمالوا لعل الله ينصر دينه
وننهض نحو الكافرين بعزمة

لا - عشر سنوات من تاريخ مصر

عندما تولى الخليفة الفاطمي العاكسد لدين الله منصب الخلافة سنة ٥٥٥ هـ = ١١٥٩ م. لم يكن له من السلطة والخلافة إلا اسمها ورسمها، فقد كانت أمور الخلافة قد انحنت منذ زمن بعيد، ولهذا لم يكن غريباً أن تصارع مراكز القوى بعزل عن إرادة دار الخلافة، ولهذا أيضاً فعندما انتصر الوزير ضرغام على الوزير شاور، وخرج شاور هارباً إلى بلاد الشام، لم يكن ذلك يعني شيئاً بالنسبة للخليفة العاكسد لدين الله. وكان باستطاعة شاور أن يفاوض نور الدين محمود، وأن يتقدم إليه مستجيراً به على خصمه، على أساس أن عودته للسلطة هي عودة شرعية طالما أنها تعتمد على القوة المادية من جهة وعلى مباركة الخليفة الفاطمي من جهة ثانية. وكان الوزير يتمتع بكلام السلطة التي تسمح له بالتفاوض، وعلى كل حال، فقد تقدم شاور إلى نور الدين بعرض سخي:

أن يكون لنور الدين ثلث دخل البلاد بعد اقطاعات العساكر، وأن يكون الجيش الذي سيرسله نور الدين إلى مصر تابعاً لنور الدين وخاضعاً لأوامره، وأن يلتزم شاور بأوامر نور الدين وتوجيهاته.

استقبل نور الدين الوزير شاور بالحفاوة والترحاب، وأكرم مثواه، وأحسن إليه، وأنعم عليه. غير أن تردد في قبول عرض شاور - على ما أشار إليه ابن الأثير بقوله: «كان يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، فتارة يحمله رعاية قصد شاور بابه وطلب الزيادة في الملك والتقوى على الفرنج - فيدفعه لقبول العرض - وتارة يمنعه خطر الطريق، وتخوفه من عدم وفاء شاور إذا ما استقر له الأمر بما تضمنه عرضه. ثم قوي عزمه على ارسال الجيوش فتقدّم بتجهيزها وإزاحة عللها».

كان لا بد من اختيار قائد تتوافر له كفاءة قيادية عالية لقيادة الجيش الذي تقرر

ساله إلى مصر . ووقع اختيار نور الدين على (أسد الدين شيركوه) ★ وأمره (بأن يعيد شاور إلى منصبه، وأن ينتقم له من نازعه) . وسارأسد الدين جيشه (سنة ٥٥٩ هـ = ١١٦٣ م) وقاد نور الدين محمود جيشه، إلى طرف بلاد الفرنج مما يلي دمشق حتى يمنع الفرنج من التعرض لأسد الدينوجيشه . فكان قصارى جهد الفرنج هو حفظ بلادهم من نور الدين . ووصلأسد الدين وجيشه إلى مدينة بليس ، فخرج إليهم ناصر الدين أخو الوزير ضرغام ومعه جيش مصر . ودارت معركة انتصر فيها أسد الدين ، وعاد ناصر الدين مهزوماً إلى القاهرة وقتل عند مشهد السيدة نفيسة . وعاد شاور إلى الوزارة ، وتذكر منها . وأقامأسد الدين وجيشه بظاهر القاهرة . فغدر به شاور ، وعاد عما كان قد تعهد بتقديمه لنور الدين وجيشه . ليس ذلك فحسب ، بل إنه أرسل إليه أمراً بالعودة إلى بلاد الشام . فامتنعأسد الدين عن الاجابة ، وطلب منه الوفاء بما تعهد بتقديمه . ولما لم يجيء شاور ، أرسلأسد الدين إلى نوابه أمراً باحتلال - بليس - والإقامة فيها ، ونظم جهاز الحكم في البلاد الشرقية . فأرسل شاور إلى الفرنج يستعد لهم ويخوفهم من نور الدين إن هو ملك مصر . وكان الفرنج قد أيقنوا بالملائكة إذا ما ملك نور الدينبلاد مصر . فلما وصلتهم رسالة شاور ، أسرعوا لاغتنام الفرصة ، وتجهزوا وساروا ، فلما علم نور الدين بتحرك الفرنج نحو مصر ، سارجيشه إلى

* أسد الدين شيركوه ، وأخوه نجم الدين أيوب ، هما ابنا شاذى من بدلوين من آذربيجان ، وأصلهما من الأكراد الزوادية . وهذا القبيل هم أشرف الأكراد . فقدموا العراق ، وخدما مجاهد الدين بهروز قائداً حامياً بغداد . فرأى من نجم الدين عقلأً وافراً وحسن سيرة - وكان أكبر من شيركوه - فجعله قائداً لخاصة قلعة تكريت ، وتصادف أن مني زنكي بن آقسنقر بهزيمة في معركة ضد قراجا الساقى سنة ٥٢٦ هـ - فقام نجم الدين يأعداد السفن لزنكي حتى عبر دجلة . وحفظ لها زنكي هذا الجميل . وضمهما لخدمته . فلما ملك قلعة بعلبك ، جعل أيوب قائداً لحميتها . وصار من أكبر الأمراء عند نور الدين . وكذلك أخيهأسد الدين شيركوه الذي كان في خدمة عماد الدين زنكي - والد نور الدين - فقربه وقدمه ورأى منه شجاعة يعجز غيره عنها ، فزاده حتى صار له حصن والرحبة - المابدين - وغيرها ، وجعله مقدم جيشه . وأسمهمأسد الدين وأخوه أيوب فيفتح دمشق مما زاد من مكانتها عند نور الدين . فلما أراد توجيه جيش إلى مصر . اختارأسد الدين لقيادته . وتوفيأسد الدين سنة ٥٦٤ هـ = ١١٦٨ م (الكامل في التاريخ - أحداث سنة ٥٦٤ هـ).

أطراف البلاد التي أخضعاها الفرنج لحكمهم. فلم ينفعهم ذلك لعلهم أن الخطر في مقامهم إذا ما ملك نور الدين مصر، هو خطر أكبر. ولهذا تركوا في بلادهم من يحميها وسار ملك القدس على رأس جيشه إلى مصر. وكان قد وصل إلى الساحل جعـ
كثير من الفرنج في البحر لزيارة القدس - والحج - فاستعان بهم الفرنج، فسار بعضهم معهم وأقام بعضهم في البلاد لحمايتها والدفاع عنها.

فلما اقترب الفرنج من مصر، انسحب أسد الدين بجيشه إلى بليس، فأقام بها وهي مؤخراته، والتقي جيش مصر بجيشه الفرنج وضربوا حصاراً على أسد الدين وجيشه، واستمر الحصار طوال ثلاثة أشهر، وأسد الدين ممتنع بها مع أن سورها قصير جداً وليس لها خندق ولا فصل يحميها، وهو يغاديرهم القتال وير哀هم، فلم يبلغوا منه غرضاً، ولا نالوا منه شيئاً.

فيينا هم كذلك، إذ أتهم خبر هزيمة الفرنج في حارم - على يد نور الدين وجيشه - وفتح حارم، وتوجه نور الدين بجيشه إلى بانياس، فخاف الفرنج، وأرادوا العودة إلى بلادهم لحمايتها. فراسلوا أسد الدين في الصلح والعود إلى الشام ومفارقة مصر، وتسليم ما بيده منها إلى المصريين. فأجابهم إلى ذلك لأنـه لم يكن يعلم ما فعله نور الدين بالفرنج في بلاد الشام، ولأنـ الأقوات والذخائر قلت عليه.

نظم أسد الدين انسحاب جيشه من - بليس - ووقف لحـمة انسحاب المؤخرة، وليس في يده إلا قضيب - لـت - من حديد. فيما كان المصريون والفرنج يرقبونه باعجاب، وتقدم إليه جندي من الفرنج الذين جاؤوا عن طريق البحر، وقال له:

«أما تخاف أن يغدر بك هؤلاء المصريون والفرنج وقد أحاطوا بك وب أصحابك، ولا يبقى لكم بقية؟».

فأجابه أسد الدين شـركوه:

«يا ليتهم فعلوه حقـ كنت ترى ما أفعله. كنت والله أضع السيف، فلا يقتلـ منـا رجلـ حقـ يقتلـ منهمـ رجالـ. وحينـئـذـ يقصدـهمـ الملكـ العـادـلـ نـورـ الدـينـ وقدـ

ضعقا وفني شجاعهم ، فنمك بلا دهم . ونهلك من بقي . والله لو أطاعني هؤلاء
- يقصد قادته - خرجت إليكم من أول يومهم . ولكنهم امتنعوا » .

فرسم جندي الفرنج شارة الصليب على وجهه ، وقال : « كنا نعجب من فرج هذه
البلاد ، وببالغتهم في صفتكم ، وخوفهم منك . والآن فقد عذرناهم » ثم رجع .

سار أسد الدين شير كوه إلى الشام ، فوصل سلماً ، وكان الفرنج قد وضعوا له على
مضيق في الطريق رصداً ليأخذوه ، أو ينالوا منه ظفراً ، فعاد عن ذلك الطريق .

عاد أسد الدين لخدمة نور الدين زنكي ، وهاجس الحديث عن مصر وضرورة
العودة إليها لم يفارقه . وتمكن من اقناع نور الدين لتوجيه الجيش مرة أخرى إلى مصر .
فأذن له ، وضم إليه جماعة من الأمراء ، وقوة من ألفي فارس . وسيَر معه جمِعاً لمرافقته
خوفاً من حادث يتجدد عليهم فتضعف قوة المسلمين . وسار أسد الدين بجيشه إلى
مصر ، وترك بلاد الفرنج على يمينه (سنة ٥٦١ هـ = ١١٦٥ م) وتوجه عندما وصل
مصر إلى بلدة - اطفيح - وعبر النيل عندها إلى الجانب الغربي ، ونزل بالجيزة ،
وتصرف بالبلاد الغربية وحكم عليها وأقام فيها وحسين يوماً .

فما كان من شاور إلا أن أرسل إلى الفرنج يستنجدهم ، فأتوه على الصعب
والذلول طمعاً في ملكها ، وخوفاً أن يملكونها أسد الدين فلا يبقى لهم في بلادهم
مقام معه ومع نور الدين .

فساروا إلى مصر والرجاء يقودهم والخوف يسوقهم حتى وصلوا وعبروا إلى الجانب
الغربي من النيل ، فسار أسد الدين وجيشه نحو الصعيد حتى وصل - البابين - وسار في
اثره جيش مصر وجيش الفرنج ، وكانت جواسيس أسد الدين التي تركها وراءه
توافيه ، تباعاً بعدد افراد قوات العدو ، وعددهم . فلما رأى كثرةهم عزم على قتالهم ،
ولكنه خاف من أن تضعف نفوس أصحابه عن القتال في هذا الموضع الخطير والذي لا
تتوافق فيه شروط جيدة تعادل ما به من شروط سيئة - منها : قلة العدد والبعد عن
الوطن وخطر الطريق . فاستشار أسد الدين أصحابه ، فكلهم وأشاروا عليه بعبور النيل
إلى الجانب الشرقي والعود إلى الشام . وقالوا له : « إن نحن انهزمنا وهو الذي يغلب على

الظن، فإلى أين نلتوجىء؟ ومين نختمي؟ وكل من في هذه الديار من جندي وعامي وفلاح هو عدو لنا». وعندها نهض صاحب برغش وهو أحد الأمراء من ماليك نور الدين وأسمه شرف الدين برغش، وكان معروفاً بشجاعته، وقال:

«من يخاف القتل والأسر فلا يخدم الملوك، بل يبقى في بيته مع امرأته. والله لئن عدنا إلى نور الدين من غير غلبة ولا بلاء نعذر فيه، ليأخذن مالنا من إقطاع وجامكية - راتب - وليعودن علينا جميع ما أخذناه منذ خدمناه إلى يومنا هذا، ويقول: تأخذون أموال المسلمين وتفرّون عن عدوهم. وتسليمون بلداً مثل مصر إلى الكفار. والحق بيده».

فقال أسد الدين: «هذا هو الرأي وبه أعمل» وقال ابن أخيه صلاح الدين بن أيوب مثل قوله، وكثير المواقفون لهم، واجتمعت الكلمة على القتال. فأقام بمكانه حتى أدركه المصريون والفرنج، وهو على تعبية، وقد جعل الأثقال في القلب يتکثر بها، وأنه لم يكن له أن يتركها بمكان آخر فينهبها أهل البلاد. وجعل صلاح الدين في القلب وقال له ولمن معه:

«إن المصريين والفرنج يجعلون حلتكم على القلب ظناً منهم أني فيه. فإذا حملوا عليكم فلا تصدقونهم القتال، ولا تهلكوا نفوسكم، وانسحبوا من أمامهم. فإذا عادوا عنكم فارجعوا في أعقابهم».

اختار أسد الدين من شجعان عسكره جماعة يثق بهم ويعرف صبرهم في الحرب، ووقف بهم في الميمنة فلما تقاتل الطائفة، فعل الفرنج ما ذكره أسد الدين، وحملوا على القلب، فقاتلهم من به قتالاً يسيراً، وانهزموا بين أيديهم غير متفرقين ومعهم الفرنج، فحمل حيئته أسد الدين فيمن معه على مؤخرة الفرنج والمصريين - من الفرسان والمشاة - فهزمهم، ووضع السيف فيهم فأثخن وأكثر القتل والأسر، فلما عاد الفرنج من مطاردة القلب رأوا عسكراً مهزوماً والأرض منهم قفرأً، فانهزموا أيضاً - وكان هذا من أعجب ما يُؤرخ أن ألفي فارس تهرّب عساكر مصر ومعهم عساكر الفرنج.

انطلق أسد الدين بجيشه من البابين، وسار إلى ثغر الاسكندرية، وجبى ما في القرى على طريقه من الأموال. ووصل إلى الاسكندرية فتسلمهما بمساعدة من أهلها، واستناب بها ابن أخيه صلاح الدين بن أيوب. وعاد إلى الصعيد فملكه وجبي أمواله، وأقام به. عمل الفرنج والمصريون بعد هزيمتهم على الانسحاب من البابين إلى القاهرة، حيث أعادوا تنظيم قواتهم، وجمعوا قوات جديدة، وساروا إلى الاسكندرية فحصروا صلاح الدين بها، واشتد الحصار، وقل الطعام على من بها، فصبر أهلها على ذلك، وسار أسد الدين من الصعيد إليهم. وكان شاور قد أفسد بعض من كان مع أسد الدين من التركمان.

فوصل رسول الفرنج والمصريين يطلبون الصلح. وبذلوا له خمسين ألف دينار سوى ما أخذه من البلاد، فأجاب إلى ذلك، وشرط على الفرنج ألا يقيموا بالبلاد، وألا يتملکوا منها ولو قرية واحدة.

فأجابوا إلى ذلك. واصطلحوا وعاد أسد الدين إلى الشام، وتسلم المصريون الاسكندرية.

لكن شاور اتفق مع الفرنج على النكث بشروط الاتفاق مع أسد الدين، فاستقر الأمر بين شاور والفرنج على أن تقيم حامية لهم بالقاهرة. وأن تكون أبوابها بيد الفرنج، حتى يمتنع نور الدين عن إرسال جيشه من جديد إلى مصر، وكذلك أن يقدم شاور للفرنج من دخل مصر كل سنة مائة ألف دينار. وقد جرى ذلك كله بالاتفاق مع شاور دون الرجوع إلى الخليفة الفاطمي العاضد الذي لم يكن له معه حكم لأن شاور قد حجر على الخليفة وحجبه عن الأمور كلها.

وعاد الفرنج إلى فلسطين وقد خلفوا وراءهم في القاهرة حامية قوية ضمت جماعة من مشاهير فرسانهم.

استقبل كثير من المصريين هذا الاتفاق بالاستياء وعدم الرضى، حتى أن الكامل شجاع بن شاور ذاته لم يكن راضياً عما فعله أبوه، فأرسل مع بعض الأمراء إلى نور

الدين ينهي إليه محنته وولاه ويُسأله الدخول في طاعته، وضمن على نفسه أنه يفعل هذا، وبذل مالاً يحمله كل سنة، فأجابه إلى ذلك، وحل إليه مالاً جزيلاً، واستمر على ذلك. وعلى كل حال. فلقد سارت الأمور في مصر لمصلحة نور الدين والمسلمين. فقد عمل الفرنج بعد أن تكروا في مصر، على حكم المسلمين حكماً جائراً. وركبواهم بالأذى العظيم. ولما رأى الفرنج ذلك، وأن البلاد ليس فيها من يردهم أرسلوا إلى ملك الفرنج بالشام وهو مري - امريليك - والذي لم يكن للفرنج مذ وصلوا إلى بلاد الشام مثله شجاعة ومكرًا ودهاء - يستدعونه ليملك مصر، وأعلموه خلوها من الموضع، وهونوا أمرها عليه، فلم يحبهم. فاجتمع إليه فرسان الفرنج ذو الرأي منهم، وأشاروا عليه بقصدها وملكها. فقال لهم :

«الرأي عندي أن لا نقصدها. ولا طمع لنا فيها طالما أن أمواها تساق إلى نقوى بها على نور الدين. وإن نحن قصدناها لنملكها فإن صاحبها وعساكره وعامة بلاده وفلاحيها لا يسلموها إلينا ويقاتلوننا دونها، ويجعلهم الخوف من على تسليمها إلى نور الدين. ولئن صار له فيها مثل أسد الدين، فهو هلاك الفرنج وإجلاؤهم من أرض الشام».

فلم يقبلوا قوله. وقالوا له: «ليس في مصر من يحميها - وإلى أن يتجهز عسكر نور الدين ويسير إليها ، نكون نحن قد ملكناها وفرغنا منها . وحينئذ يتمنى نور الدين منا السلامة». فسار ملك القدس - امريليك، أو مري - على كره منه بعد أن حشدوا قواتهم وقاموا بتظاهرة خداعية بأنهم يريدون التوجه إلى حصن ، ثم ساروا بسرعة حتى وصلوا إلى مدينة - بليبيس - وحصرواها وملكوها قهراً ونبوحاً وقتلوا فيها وأسروا وعمل جماعة من أعيان المصريين - منهم ابن الخطاط وابن فرجلة - على الكتابة إلى الفرنج ، ووعدوهم النصرة ، عداوة منهم لشاور . مما شجع الفرنج على المضي في تقدمه نحو القاهرة . ولكن المصريين الذين علموا بما فعله الفرنج في بليبيس من القتل والنهب والأسر ، خافوا من أن يفعل بهم الفرنج بمثل ما فعلوه بأهل بليبيس ، فقرروا المقاومة والامتناع عن تسليم البلد ، واتفقوا على القتال والدفاع . وبذلوا جهدهم . ولما شعر الوزير شاور بشدة المقاومة أمر بحرق مدينة مصر (في التاسع من صفر سنة أربع وستين

وخمسة = ١١٦٨ م) وأمر أهلها بالانتقال منها إلى القاهرة. وأن ينهب البلد، فانتقلوا. وبقوا على الطرق. ونهبت المدينة، وافتقر أهلها، وزالت عنهم نعمتهم وذهبت أموالهم. وبقيت النار تحرقها أربعة وخمسين يوماً.

وأرسل الخليفة العاضد للدين رسالة إلى نور الدين يستغث بها، ويعرفه ضعف المسلمين عن دفع الفرنج وأرسل مع الرسالة شعور النساء، وقال: «هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج».

شدد الفرنج الحصار على القاهرة، وضاق شاور ذرعاً بالمقاومة، وضعف أمره، فلجاً إلى الخيلة، وأرسل إلى ملك الفرنج رسالة عبر فيها عن مودته ومحبته، وأكد أن هواه معه خوفه من نور الدين ومن الخليفة العاضد للدين الله، وذكر أن المسلمين لا يوافقونه على التسلیم للفرنج، وأشار عليه بالصلح وأخذ مال لثلا يتسلم البلاد نور الدين، فأجابه إلى ذلك على أن يعطوه ألف ألف دينار مصرية، يعدل البعض ويمهل البعض، واستقر الاتفاق بينهم على ذلك. ورأى الفرنج أن البلاد قد امتنعت على شاور، وربما سلمت إلى نور الدين، فأجابوا كارهين. وقالوا: «نأخذ المال فنتقوى به ونعاود البلاد بقوة لا نبالي بنور الدين». وجعل لهم شاور مائة ألف دينار، وسائلهم الرحيل عنه ليجمع لهم المال، فرحلوا قريباً. وجعل شاور يجمع لهم المال من أهل القاهرة ومصر. فلم يتجمع له إلا خمسة آلاف دينار، لأن دور أهل مصر كانت قد احترقـت، ونهبـت وسلـبـت ما سـلمـ منها، فباتـوا وهم لا يقدـرونـ على الأقوـاتـ فضـلاًـ عن الأقسـاطـ. أما أهل القاهرة، فالـأـغلـبـ على أـهـلـهاـ الجنـدـ وـغـلـانـهمـ. وـهـذاـ تعـذرـتـ عـلـيـهمـ الأـموـالـ.

استمر أهل مصر خلال ذلك في إرسال الرسائل إلى نور الدين، وشرحوا له ما نزل بالمسلمين من البلاء، وبدلوا له ثلث بلاد مصر. وأن يبقى أسد الدين وجيشه في مصر، مقابل منحهم الاقطاعات من البلاد المصرية - علاوة على الثالث.

كان نور الدين بجلب لما وصلته رسائل الخليفة الفاطمي العاضد للدين الله، فأرسل

الرسل لاستدعاء أسد الدين شيركوه من حصن . وكان أسد الدين قد تلقى رسائل مماثلة من أهل مصر وأعيانها ، فخرج من حصن قاصداً نور الدين بحلب ، فالتحق برسل نور الدين قرب حلب ، فرجع وإياهم ، وعجب نور الدين من حضور أسد الدين في الحال ، وسره ذلك وتفاءل به . وأمره بالتجهز إلى مصر ، وأعطاه مائتي ألف دينار سوى الثياب والدواب والأسلحة وغير ذلك ، وأطلق يده في اختيار الجندي وأخذ ما يحتاجه من المال . فاختار ألفي فارس ، وأخذ المال ، وجمع ستة آلاف فارس ، وسار هو ونور الدين إلى دمشق ، حيث أعطى نور الدين كل فارس ممن مع أسد الدين عشرين ديناراً معونة غير محسوبة من راتبه - جامكيته - . وأضاف إلى أسد الدين جماعة أخرى من النساء ، منهم مملوكة عز الدين جرديك وغرس الدين قلبي وشرف الدين برغش وعين الدولة الياروقي وقطب الدين ينال بن حسان المنجبي وصلاح الدين يوسف بن أيوب أخي شيركوه الذي رافق عممه في هذه الحملة على كره منه★ . وسار أسد الدين بجيشه مجدًا من رأس الماء ، فلما قارب مصر رحل الفرنج إلى بلادهم خائبين .

وعلم نور الدين بعودهم فسره ذلك . وأمر بضرب البشائر في البلاد ، وبث رسالته في الأفاق مبشرين بذلك ، فإنه كان فتحاً جديداً لمصر ، وحفظاً للبلاد الشام وغيرها .

ودخل أسد الدين إلى القاهرة ، واجتمع بالخليفة العاضد لدين الله الذي خلع عليه . ثم عاد أسد الدين إلى خيامه . وفرح به أهل مصر ، وأجريت عليه وعلى عسكره

★ حكى صلاح الدين قصته في هذه الحملة بعد أن أصبح أميراً على مصر ، فقال: «... لما وردت كتب العاضد على نور الدين يستغيث به من الفرنج ، ويطلب إرسال العساكر . أحضرني وأعلمني الحال . وقال: امضى إلى عمك أسد الدين بمحصن مع رسولي إليه ليحضر ، وتحته أنت على الإسراع فما يتحمل الأمر التأخير . فعلت ، وخرجنا من حلب ، فماكنا على ميل من حلب حتى لقيناه قادماً في هذا المعنى . فأمره نور الدين بالمسير . فلما قال له نور الدين ذلك ، التفت عمي إلي ، فقال: تجهز يا يوسف . فقلت: والله لو أعطيت ملك مصر ما سرت إليها ، فلقد قاسيت بالاسكندرية وغيرها مالاً أنساه أبداً . فقال نور الدين: لا بد من مسيره معي ، فتأمر به . فأمرني نور الدين وأنا أستقيل . وانقضى المجلس ، وتوجه أسد الدين ولم يبق غير المسير ، فقال لي نور الدين لا بد من مسيرك مع عمك . فشكوت إليه الصائفة فأعطياني ما تجهزت به . فكانما أُساق إلى الموت » الكامل في التاريخ بإحداث سنة ٥٦٤ هـ .

الجريايات الكثيرة، والإقامات الوفرة. ولم يكن باستطاعة شاور القيام بأي عمل مضاد نظراً لكبر جيش أسد الدين، ونظراً لحصول أسد الدين على دعم الخليفة العاضد وتأييده. ولماذا لم يجرؤ على اظهار ما في نفسه، ولكنه شرع في مساطلة أسد الدين بتنفيذ ما بذل لنور الدين من المال وإقطاع الجندي، وإفراد ثلث البلاد لنور الدين. واستمر في الركوب كل يوم إلى أسد الدين والسير معه، وقطع الوعود. ثم إنه عزم على أن يوجه دعوة لأسد الدين والأمراء الذين معه، والقبض عليهم، وتولي قيادة جندهم بنفسه لحماية البلاد من الفرنج. فنهاه ابنه الكامل وقال له: «والله لئن عزمنا على هذا الأمر، لأعلم من شيركوه». فقال له أبوه: «والله لئن لم نفعل هذا لنقتلن جميعاً» فأجابه ابنه الكامل:

«صدمت! ولأن نقتل ونحن مسلمون والبلاد إسلامية، خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج. فإنه ليس بينك وبين عودة الفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه. وحيثند لو مشي العاضد إلى نور الدين لم يرسل معه فارساً واحداً ويملكون البلاد».

فترك شاور ما كان عزم عليه. وكان قادة جيش أسد الدين يتوجسون شرّاً كلما شاهدوا - شاور - في معسكرهم. فاتفق صلاح الدين يوسف بن أيوب وعز الدين جرديك وغيرها على قتل شاور، فنهاهم أسد الدين فسكنوا، واتفق أن جاء شاور إلى معسكر أسد الدين على عادته، فلم يجد أسد الدين في خيمته، وقام جمع من العسكر بخدمته وأعلموه بأن أسد الدين قد مضى لزيارة قبر الإمام الشافعي رضي الله عنه. ولقيه صلاح الدين وجرديك فسارا مع شاور لمسافة قصيرة، ثم التيأه أرضًا وأخذاه أسرى، وهرب من كان معه من الحرس. ولكنها لم يتمكنا من قتله قبل الحصول على موافقة أسد الدين، فتوكلوا بحفظه، وسيراوا إلى أسد الدين من يعلمه بما حدث. فحضر، فرأى أنه لا بد من إكمال ما بدأ صلاح الدين وجرديك بتنفيذه. وعلم الخليفة العاضد لدين الله بما حدث، فأرسل إلى أسد الدين وطلب منه ارسال رأس شاور، وتتابع الرسل بذلك، فقتل شاور، وأرسل رأسه إلى العاضد. ودخل أسد الدين القاهرة، فرأى من اجتماع الخلق ما هاله، وما أخافه على نفسه، فقال لهم: «إن أمير

المؤمنين - يعني العااضد - يأمركم بنهب دار شاور». فتفرق الناس عنه، وساروا إلى دار شاور لينهبوها. وكان الكامل بن شاور قد دخل وإخوته إلى قصر أبيهم واعتصموا به، فكان آخر العهد بهم، وعندما علم أسد الدين بقتلهم شعر بالحزن والأسف، لما كان يحمله من التقدير والحب للكامل - وكان يقول:

«وددت أنه بقي حياً حتى أحسن إليه جزاء صنيعه».

استقبل الخليفة العااضد في قصره أسد الدين شيركوه، وخلع عليه خلعة الوزارة، ولقبه الملك المنصور أمير الجيوش، وسار أسد الدين بخلع العااضد إلى دار الوزارة، وهي التي كان فيها شاور، واستقر في الأمر وغلب عليه، ولم يبق له مانع ولا منازع. واستعمل على أعماله من يثق إليه من أصحابه، وأقطع البلاد لعساكره. ولكن المنية عاجله قبل أن ينعم بالهدوء والاستقرار والملك. فتوفي يوم السبت الثاني والعشرين من جادي الآخرة سنة ٥٦٤ هـ = ١١٦٨ م. أسرع الخليفة العااضد فجمع مستشاريه لمناقشة الموقف بعد وفاة أسد الدين، وكان في الجيش جماعة من الأمراء كلهم يرى في نفسه أنه الأفضل لتولي الوزارة. ولكن مستشاري العااضد وأصحابه قالوا للعااضد:

«ليس في الجماعة أضعف ولا أصفر سناً من صلاح الدين يوسف، والرأي أن يولي، فإنه لا يخرج من تحت حكمنا، ثم نضع على العساكر من يستميلهم إلينا، فيصير عندنا من الجنود من نمنع بهم البلاد. ثم نأخذ صلاح الدين أو نخرجه».

وأخذ العااضد بهذا الرأي. واستدعى صلاح الدين، وأحضره عنده، وخلع عليه، وولأه الوزارة بعد عممه. ورفض معظم أمراء الجيش الخضوع لصلاح الدين. ولكن الفقيه عيسى الهكاري تمكن من اقناع معظم الأمراء بالخضوع لصلاح الدين. وعاد من أصر على الرفض إلى بلاد الشام، ليعمل مع نور الدين الذي تقبل الأمر بالرضى، وشرع بالكتابة إلى صلاح الدين بلقب الأسفهسلاط - قائد الجيش - صلاح الدين. وفعل مثل ذلك كافة أمراء الجيش بالديار المصرية. واستهال صلاح الدين قلوب الناس، وبذل الأموال، فهالوا إليه وأحبوه. وضعف أمر الخليفة العااضد، ثم أرسل

صلاح الدين يطلب من نور الدين أن يرسل إليه إخوته وأهله فأرسلهم إليه ، وشرط عليهم طاعته والقيامة بأمره ومساعدته ، وكلهم فعل ذلك ، وأخذ إقطاعات المصريين ، فأعطها أهله والأمراء الذين معه ، وزادهم ، فازدادوا له حباً وطاعة .

جاءه صلاح الدين يوسف مشكلة صعبة فور تسلمه الوزارة . فقد كانت أمور قصر العاكسد والحكم فيه ، والتقدم على جميع من يحيوه ، في قبضة خصي سوداني لقبه - مؤمن الخليفة - ويظهر أن استناد الوزارة إلى صلاح الدين قد حرمه وكثريين من كبار المصريين من امتيازاتهم ، فاتفقوا على مكاتبية الفرنج واستدعائهم إلى البلاد ، والتقوي بهم على صلاح الدين ومن معه ، وسيراوا الكتب مع إنسان يثقون إليه ، وأقاموا يتظرون جوابه . وسار ذلك المراسل إلى - البئر البيضاء - فلقيه جندي تركياني ، ورأى هذا الجندي مع المراسل نعلين جديدين ، فأخذهما منه . وقال في نفسه : « لو كانا مما يلبسه هذا الرجل لكانا خلقين ، فإنه رث الهيئة » وارتبا به وبها ، فأقلي به صلاح الدين ، ففتقها فرأى الكتاب فيها ، فقرأه وسكت عليه ، وكان مقصود مؤمن الخليفة أن يتحرك الفرنج إلى الديار المصرية ، فإذا وصلوا إليها خرج صلاح الدين في جيشه لقتالهم ، فيثور مؤمن الخليفة بن معه من المصريين على متخلفيه ، فيقتلونهم ، ثم يخرجون بأجمعهم يتبعون صلاح الدين فيأتونه من وراء ظهره ، والفرنج من أمامه ، فلا يبقى لهم باقية . فلماقرأ صلاح الدين الكتاب سأله عن كاتبه ، فقيل له : إنه رجل يهودي . فأحضر صلاح الدين هذا اليهودي وأمر بضربه واستجوابه ، فأشهر اليهودي إسلامه ، ثم اعترف وأخبره الخبر . وأخفى صلاح الدين معرفته بالأمر . واستشعر مؤمن الخليفة افتضاح أمره ، فلازم القصر لا يبارحه إلا برفة صلاح الدين الذي لم يظهر له شيئاً . فلما طال الأمر ، خرج مؤمن الخليفة من القصر إلى قرية له تعرف بالخرقانية للتنزه . فلما علم به صلاح الدين ، أرسل إليه جماعة ، فأخذوه وقتلوه ، وأتوا برأسه ، وعمل صلاح الدين فوراً على عزل جميع الخدم الذين كانوا يتولون أمر قصر الخليفة ، واستعمل على الجميع بهاء الدين قراقوش وهو خصي أبيض . وكان لا يجري في القصر صغير ولا كبير إلا بأمره . فغضب السودان لقتل مؤمن الخليفة - للجنسية - ولأنه كان ينتحب لهم . فحشدوا وجعوا ، فزادت عدتهم على خمسين ألفاً ، وقصدوا حرب

جند صلاح الدين ، فاجتمع العسكر أيضاً ، وقاتلواهم بين القصرين ، وكثير القتل في الفريقين . فأرسل صلاح الدين إلى محلتهم المعروفة بالمنصورة ، فأحرقها على أمواهـا وأولادهم . فلما أتاهـم الخبر بذلك ، ولوا منهـمين . فركبـهم السيف ، وأخذـت عليهم مداخل الطرق والدروب ، فطلبـوا الأمان بعد أن كثـرـ عليهم القتل ، فأجـبـوا إلى ذلك ، ونقلـوا من مصر إلى الجـزـة ، فعبرـ إليـهم شـمـسـ الدـوـلـةـ ، أـخـوـ صـلاـحـ الدـيـنـ الأـكـبـرـ ، في طائـفةـ منـ الجـنـدـ ، فأبـادـهـمـ بـالـسـيفـ . ولمـ يـبـقـ مـنـهـمـ إـلـاـ القـلـيلـ الشـرـيدـ . وأـمـنـ صـلاـحـ الدـيـنـ شـرـهـ .

عـنـدـمـاـ عـلـمـ فـرـنـجـ الشـامـ بـأـمـتـلـاكـ أـسـدـ الدـيـنـ شـيرـ كـوهـ لـمـصـرـ ، فـخـافـوـاـ وـأـيـقـنـواـ بـالـهـلاـكـ ، وـكـاتـبـواـ فـرـنـجـ الـذـيـنـ بـصـقلـيةـ وـالـأـنـدـلـسـ وـغـيـرـهـاـ يـسـتـمـدـهـمـ وـيـعـرـفـهـمـ ماـ اـسـتـجـدـ مـنـ مـلـكـ الـأـتـرـاكـ لـمـصـرـ ، وـأـنـهـمـ خـائـفـونـ عـلـىـ الـقـدـسـ . وـأـرـسـلـواـ جـمـاعـةـ مـنـ الـقـسـوسـ وـالـرـهـبـانـ للـتـحـريـضـ عـلـىـ الـحـرـكـةـ . فـأـمـدـوـهـمـ بـالـأـمـوـالـ وـالـرـجـالـ وـالـسـلـاحـ ، وـاسـتـعـدـواـ لـلـتـزـولـ عـلـىـ دـمـيـاطـ ظـنـاـنـهـمـ يـمـلـكـونـهـاـ وـيـتـخـذـونـهـاـ قـاعـدـةـ يـمـلـكـونـ بـهـاـ الـدـيـارـ الـمـصـرـيـةـ . وـجـاؤـواـ إـلـىـ دـمـيـاطـ وـحـصـرـوـهـاـ وـضـيقـوـهـاـ عـلـىـ مـنـ بـهـاـ ، فـأـرـسـلـ صـلاـحـ الدـيـنـ إـلـيـهـاـ العـساـكـرـ فـيـ النـيلـ ، وـحـشـرـ فـيـهـاـ كـلـ مـنـ عـنـدـهـ ، وـأـمـدـهـمـ بـالـأـمـوـالـ وـالـسـلـاحـ وـالـذـخـائـرـ . وـأـرـسـلـ إـلـىـ نـورـ الدـيـنـ يـشـكـوـ مـاـ هـوـ فـيـهـ مـنـ الـمـخـافـةـ وـيـقـولـ :

إـنـ تـأـخـرـتـ عـنـ دـمـيـاطـ مـلـكـهاـ فـرـنـجـ ، وـإـنـ سـرـتـ إـلـيـهـاـ خـلـفـيـ المـصـرـيـوـنـ فـيـ أـهـلـهـاـ بـالـشـرـ ، وـخـرـجـوـاـ عـنـ طـاعـتـيـ وـسـارـوـاـ فـيـ أـثـرـيـ ، وـفـرـنـجـ أـمـامـيـ فـلـاـ يـبـقـيـ لـنـاـ باـقـيـةـ .

فسـيرـ نـورـ الدـيـنـ العـساـكـرـ إـلـيـهـاـ أـرـسـالـاـ يـتـلـوـ بـعـضـهـاـ بـعـضاـ ، ثـمـ سـارـ هوـ بـنـفـسـهـ إـلـىـ بـلـادـ فـرـنـجـ بـالـشـامـ فـنـهـبـهـاـ وـأـغـارـ عـلـيـهـاـ ، وـاستـبـاحـهـاـ . فـوـصـلـتـ الغـارـاتـ إـلـىـ مـاـ لـمـ تـكـنـ تـبـلـغـهـ قـبـلـ ، فـلـمـ رـأـيـ فـرـنـجـ تـتـابـعـ العـساـكـرـ إـلـىـ مـصـرـ ، وـدـخـولـ نـورـ الدـيـنـ إـلـىـ بـلـادـهـمـ وـنـهـبـهـاـ وـتـخـرـيـبـهـاـ ، رـجـعـوـاـ خـائـبـيـنـ لـمـ يـظـفـرـوـاـ بـشـيـءـ ، وـوـجـدـوـاـ بـلـادـهـمـ خـرـابـاـ وـأـهـلـهـاـ بـيـنـ قـتـيلـ وـأـسـيرـ . وـكـانـتـ مـدـةـ مـقـامـهـمـ عـلـىـ دـمـيـاطـ خـمـسـيـنـ يـوـمـاـ (ـمـنـ سـنـةـ ٥٦٥ـ هـ = ١١٦٩ـ مـ) أـخـرـجـ فـيـهـاـ صـلاـحـ الدـيـنـ أـمـوـالـاـ لـمـ تـحـصـيـ ، وـقـالـ ذـاتـ مـرـةـ :

«ما رأيت أكرم من الخليفة العاضد، أرسل إلي مرة لمقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصرية سوى الثياب وغيرها».

جاء رد صلاح الدين على الفرنج في السنة التالية (٥٦٦ هـ = ١١٧٠ م) حيث قاد جيشه، وخرج من مصر إلى فلسطين للإغارة على بلاد الفرنج، فهاجم أعمال عسقلان والرملة وهاجم ريض غزة، فنهبه، وأتاه ملك الفرنج في قلة من العسكر مسرعين، لرده عن البلاد، فقاتلهم صلاح الدين وهزمهم، وهرب ملك الفرنج بعد أن أشرف أن يؤخذ أسيراً. وعاد إلى مصر، وعمل مراكب مفصلة، وحملها قطعاً على الجبال في البر، وقصد أيلة، فجمع قطع المراكب، وألقاها في البحر، وحصر أيلة برأ وجراً، وفتحها واستباح أهلها وما فيها. وعاد إلى مصر.

ثبت قدم صلاح الدين يوسف بمصر، وأزال المخالفين له، وضعف أمر الخليفة الفاطمي العاضد لدين الله، وصار يحكم فيه صلاح الدين ونائبه قراقوش، فكتب إليه نور الدين محمود بن زنكى بأمره بقطع الخطبة للعاضد، وإقامة الخطبة للخليفة العباسي المستضي، بأمر الله.

فامتنع صلاح الدين، واعتذر بالخوف من قيام أهل الديار المصرية عليهم، ليمليهم إلى العلوين (المتشيعين). وكان صلاح الدين يكره قطع الخطبة لهم، ويريد بقاءهم خوفاً من نور الدين إذ كان يخشى أن يدخل نور الدين إلى مصر ويأخذها منه، فكان ي يريد بقاء العاضد معه حتى إذا قصده نور الدين امتنع به وبأهل مصر عليه. فلما اعتذر إلى نور الدين بذلك، لم يقبل عذرها، وألح عليه بقطع الخطبة، وأنزلمه إلزاماً لا فسحة له في مخالفته، واتفق أن مرض العاضد لدين الله في هذا الوقت مريضاً شديداً فلما عزم صلاح الدين على قطع خطبته، استشار امراءه، فمنهم من أشار به، ومنهم من خافه، إلا أنه لم يكن هناك من يجرؤ على مخالفته أمر نور الدين. وكان قد دخل إلى مصر إنسان أعمى عرف - بالأمير العالم - فلما رأى ما هم فيه من الإحجام، وأن أحداً لا يتجرأ يخطب للخليفة العباسي، قال: «أنا أبتدىء بالخطبة له». فلما كان أول جمعة من المحرم سنة سبع وستين وخمسة (١١٧١ م) صعد المنبر قبل

الخطيب ودعا للمستضيء، ففعلوا ذلك - فلم ينتفع فيها عنزان. وكتب بذلك إلى سائر بلاد مصر، ففعلوا. وكان العااضد قد اشتد مرضه، فلم يعلمه أحد من أهله وأصحابه بقطع الخطبة، وقالوا:

«إن عوفي فهو يعلم، وإن توفي فلا ينبغي أن نفجعه بمثل هذه الحادثة قبل موته».

فتوفي يوم عاشوراء ولم يعلم بقطع الخطبة. ولما توفي، جلس صلاح الدين للعزاء. واستولى على قصر الخلافة وعلى جميع ما فيه، وكان بهاء الدين قراقوش قد رتبه وحفظه قبل موت العااضد، فحمل الجميع إلى صلاح الدين. وكان من كثرته يخرج عن الأحصاء. وفيه من الأعلاق النفيسة والأشياء الغريبة ما تخلو الدنيا عن مثله، ومن الجوادر التي لم توجد عند غيرهم، فمنه الحبل الياقوت وزنه سبعة عشر درهماً أو سبعة عشر مثقالاً، واللؤلؤ الذي لم يوجد مثله، ومنه النصاب الزمرد الذي طوله أربع أصابع في عرض عقد كبير... بالإضافة إلى الكتب النفيسة المعروفة المعدومة المثل. فباع صلاح الدين جميع ما فيه. ونقل أهل العااضد إلى موضع من القصر، ووكل بهم من يحفظهم، وأخرج جميع من فيه من أمة عبد، فباع البعض، وأعتق البعض، ووهب البعض، وخلا القصر من سكانه.

وصلت البشائر إلى بغداد معلنة عودة وحدة المسلمين تحت راية أهل السنة والجماعة، وزالت الفرق، وزينت بغداد عدة أيام، وظهر من الفرح والجدل ما لا حد عليه. وسیرت الخلع مع - عماد الدين صنديل - وهو من خواص خدم الخلافة العباسية إلى نور الدين وصلاح الدين، فسار صنديل إلى نور الدين وألبسه الخلعة، وسر الخلعة التي لصلاح الدين وللخطباء بالديار المصرية. ومعها الأعلام السوداء - شعار العباسين -. **وطويت صفحة الدولة العلوية - الفاطمية - ★ .**

★ كانت مدة هذه الخلافة منذ ظهر المهدي بسجلهاة - بالمغرب - في ذي الحجة من سنة سبع وتسعين ومائتين، إلى أن توفي العااضد في المحرم سنة سبع وستين وخمسمائة. (١١٧١ م) مائتان واثنتان وسبعين سنة، وشهر تقريباً. وجع من خطب لهم بالخلافة أربعة عشر خليفة منهم بأفريقيية أربعة هم المهدي والقائم والمنصور والمعز إلى أن سار إلى مصر. ومنهم بمصر المعز والعزيز والحاكم والظاهر المستنصر المستعلي والأمر والحافظ والظافر والفايز والعااضد. وكان العااضد من أفضل الخلفاء. وصفه صلاح

سار صلاح الدين بجيشه من مصر إلى بلاد الفرنج غازياً، ونال حصن الشوبك - وبينه وبين الكرك يوم - وحصره وضيق على من به من الفرنج. وأدام القتال، وطلبوا الأمان، واستمحلوه عشرة أيام، فأجابهم إلى ذلك، فلما علم نور الدين بما فعله صلاح الدين، سار عن دمشق قاصداً بلاد الفرنج أيضاً، ليدخل إليه من جهة أخرى، فقبل لصلاح الدين :

«إن دخل نور الدين بلاد الفرنج وهو على هذه الحال، أنت من جانب نور الدين من جانب، ملكها. ومتى زال الفرنج عن الطريق وأخذ ملكهم، لم يبق بديار مصر مقام مع نور الدين. وإن جاء نور الدين إليك وأنت هنا، فلا بد لك من الاجتماع به، وحينئذ يكون هو المحكم فيك بما شاء، إن شاء تركك أو لا، فقد لا تقدر على الامتناع عليه. والمصلحة الرجوع إلى مصر».

فرحل عن الشوبك عائداً إلى مصر، ولم يأخذ الحصن من الفرنج. وكتب إلى نور الدين يعتذر باضطراب الأوضاع في البلاد المصرية، وأن الشيعة العلوين عازمون على الوثوب بها، وأنه يخاف عليها من بعد عنها من أن يقوم أهلها على من تخلف بها، فيخرجونهم، وتعود ممتنعة، وأطال الاعتذار. فلم يقبلها نور الدين منه، وتغير عليه، وعزم على قصد مصر وإخراجه عنها، وظهر ذلك، فسمع صلاح الدين الخبر، فجمع أهله، وفيهم أبوه نجم الدين أيوب وخاله شهاب الدين الحارمي ومعهم سائر النساء. وأعلمهم ما بلغه من عزم نور الدين وحركته إليه، واستشارهم. فلم يجبه أحد بكلمة واحدة، فقام ابن أخي صلاح الدين - واسميه تقى الدين عمر - فقال:

«إذا جاءنا قاتلناه ومنعناه عن البلاد».

ووافقه غيرهم من أهله. فتصدى لهم نجم الدين أيوب وشتمهم، وأنكر ذلك واستعظمه، وشم تقى الدين وأقعده، وقال لصلاح الدين :

«أنا أبوك وهذا خالك شهاب الدين، ونحن أكثر محبة لك من جميع من ترى، والله لو رأيت أنا وخالفك هذا نور الدين لم نكث إلا أن نقتل بين يديه،

= الدين بقوله : «لقد اتصف بالكرم ولبن الجانب ، وغلبة الخير على طبعه ، وانقياده ».

ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف لفعلناه، فإذا كنا نحن كذلك في ظنك بغيرنا ، وكل من تراه عندك من الأمراء لو رأى نور الدين وحده لم يتجرساً على الثبات على سروج خيولهم ، وهذه البلاد له ، ونحن ماليكه ونوابه فيها ، فإذا أراد سمعنا وأطعنا ، والرأي أن تكتب كتاب مع خباب - تقول فيه: بلغني أنك ت يريد الحركة لأجل البلاد ، فأي حاجة إلى هذا؟ يرسل المولى خباباً يضع في رقبتي منديلاً ويأخذني إليك . وما ه هنا من يمنع».

وقام الأمراء وغيرهم وتفرقوا على هذا . فلما خلأ أبو بابنه صلاح الدين . قال له :

«بأي عقل فعلت هذا؟ أما تعلم أن نور الدين إذا علم عزمنا على منعه ومحاربته ، جعلنا أهمل الوجه إليه ، وحينئذ لا نقوى عليه؟ وأما الآن ، إذا بلغه ما جرى ، وطاعتني له تركنا واستغل بغيرنا . والأقدار تعمل عملها . ووالله لو أراد نور الدين قصبة من قصب السكر لقاتلته أنا عليها حتى أمنعه أو أقتل» .

ففعل صلاح الدين ما أشار به . فترك نور الدين قصده واشتغل بغيره . وبقي صلاح الدين وأهله في خوف من قدوم نور الدين إلى مصر . فاستقر الرأي بينهم على امتلاك بلاد النوبة أو بلاد اليمن ، حتى إذا وصل إليهم نور الدين لقوه وصدوه عن البلاد ، فإن تمكناً من منعه ، أقاموا بمصر ، وإن عجزوا عن منعه ركبوا البحر ولحقوا بالبلاد التي قد افتحوها . فجهز شمس الدولة تورانشاه بن أبو باب - أخو صلاح الدين الأكبر - جيشاً ، وسار به إلى أسوان ، ثم إلى بلد النوبة . فنازل قلعة اسمها - ابزم - فحصرها ، وقاتلها أهلها ، فلم يكن لهم بقتال العسكر الإسلامي قوة لأنهم ليس لهم جنة - دروعاً - تقىهم السهام وغيرها من آلة الحرب ، فسلموها ، فملكها شمس الدولة وأقام بها . ولم ير للبلاد دخلاً يرغب فيه ، وتحمل المشقة لأجله ، وليس لديهم إلا الذرة يقتاتون بها ، فلما رأى عدم الحصول وقشف العيش ، مع مباشرة الحروب ، ومعاناة التعب والمشقة تركها وعاد إلى مصر بما غنم . وكان عاملاً غنيمتهم العبيد والجواري (وذلك سنة ٥٦٨ هـ = ١١٧٢ م) . وفي هذه الفترة ، كان قد تم اتفاق بين نور الدين وصلاح الدين على حصار الكرك . على أن يخرج صلاح الدين من مصر ، ويسيطر نور

الدين من دمشق ، فأيهما سبق صاحبه يقيم إلى أن يصل الآخر إليه ، وتواعدا على يوم معلوم يكون وصوهما فيه . فسار صلاح الدين عن مصر ، لأن طريقه أبعد وأشق ، ووصل إلى الكرك وحصره .

وأما نور الدين فإنه لما وصله كتاب صلاح الدين برحيله من مصر ، فرق الأموال ، وجع المواد التموينية وما يحتاج إليه الجيش وسار إلى الكرك ، فوصل إلى الرقim وبينه وبين الكرك مرحلتان . فلما علم صلاح الدين بقربه ، خافه هو وجميع أهله ، واتفق رأيهم على العود إلى مصر ، وترك الاجتماع بنور الدين لأنهم علموا أنه إن اجتمعا كان عزله على نور الدين سهلاً ، فلما عاد أرسل الفقيه عيسى إلى نور الدين يعتذر عن رحيله بأنه كان قد استخلف أباه نجم الدين أيوب على ديار مصر ، وأنه مريض شديد المرض ، ويخاف أن يحدث حادث الموت فتخرج البلاد عن أيديهم ، وأرسل معه من التحف والمدادايا ما يجعل عن الوصف . فجاء الرسول إلى نور الدين وأعلمته ذلك ، ففطم عليه وعرف المراد من العود ، إلا أنه لم يظهر للرسول تأثراً بل قال له : « حفظ مصر أهم عندنا من غيرها » وسار صلاح الدين إلى مصر فوجد أباه قد قضى نحبه ولحق بربه .

أدّت هذه الظروف إلى زيادة مخاوف صلاح الدين وأهله من أن يأخذ نور الدين مصر من أيديهم . فاتفقوا على توجيه حلة إلى اليمن بقيادة شمس الدولة تورانشاه بن أيوب ، حتى تكون اليمن لهم عدة إن أخرجهم نور الدين من مصر . ولما كان لا بد لصلاح الدين من أن يستأذن نور الدين للقيام بمثل هذا العمل ، فقد أرسل إليه يستأذنه بحجّة قصد عبد النبي صاحب زيد لأجل قطع الخطبة العباسية . فأذن له نور الدين بذلك . وتجهز شمس الدولة ، وأعدّ المواد التموينية وحشد ما يحتاجه من السلاح والآلات والجنود . وسار من مصر إلى مكة أعزّها الله تعالى ، وتحرك منها إلى زيد ، فخرج إليه عبد النبي فقاتله ، ولم يثبت أهل زيد للقتال وانهزموا . ووصل المصريون إلى سور زيد ، فلم يجدوا عليه من ينفعهم ، فنصبوا السلام ، وصعدوا السور ، فملكوا البلد عنوة ونهبوه وأكثروا النهب ، وأخذوا عبد النبي أسرى ، وأخذوا معه زوجته المعروفة باسم الحرة ، والتي اشتهرت بصلاحها وصدقاتها الكثيرة . واستخرج عبد النبي أموالاً كثيرة أعطاها لشمس الدولة ، وكذلك فعلت زوجته الحرة .

أقام شمس الدولة في - زبيد - فترة قصيرة عمل خلاها على تنظيم الأمور فيها، وأقام الخطبة العباسية، وأصلاح أحوالها، ثم سار بجيشه إلى عدن، وهي على البحر، وله مرسى عضي. وهي فرصة المند والزنج والحبشة وعمان وكرمان وكش وفارس وغير ذلك، وهي من جهة البر من أمنع البلاد وأحسنها، وكان اسم صاحبها ياسر، فلو أقام بها ولم يخرج عنها، لعاد شمس الدولة وجيشه خائبين، وإنما حمله جهله وانقضاء مدته على الخروج إليهم ومبادرتهم قتالهم، فسار إليهم وقاتلهم وانهزم ياسر ومن معه، وسبقهم بعض عسكر شمس الدولة، فدخلوا البلد قبل أهله فملكونه، وأخذوا صاحبه ياسراً أسيراً. وأرادوا نهب البلد. فمنعهم شمس الدولة، وقال:

«ما جئنا لنخرب البلد، وإنما جئنا لنملكها ونعمراها وننتفع بدخلها».

فلم ينهب أحد منها شيئاً، فبقيت على حالها، وثبتت ملکه، واستقر أمره. وعاد شمس الدولة بجيشه إلى زبيد، حيث عمل على حصر ما في الجبل من الحصون، فملك قلعة تعز، وهي من أحسن القلاع. كما ملك قلعة النعكر وقلعة الجندي وغيرها من المعاقل والمحصون والقلاع. وجعل في كل قلعة نائباً من أصحابه. وأنجح شمس الدولة إلى أهل البلاد، واستصفى طاعتهم بالعدل والإحسان. وعادت زبيدة إلى أحسن أحوالها من العمارنة والأمن.

بینما كانت هذه الأحداث تأخذ مساراتها بعيداً عن مصر (سنة تسع وستين وخمسين = ١١٧٣ م) بدأت السحب في التجمع في سماء مصر ذاتها، فقد جمعت المصلحة المشتركة - أو الحقد المشترك - بين جماعة من الشيعة، مع جماعة من الجندي المcriين، وحاشية القصر، بالإضافة إلى جماعة من أمراء صلاح الدين وجنته، واتفق رؤيهم على استدعاء الفرنج من صقلية ومن ساحل الشام إلى ديار مصر - على شيء بذلك لهم من المال والبلاد، فإذا قصدوا البلد، خرج إليهم صلاح الدين بنفسه، مما يفسح للمتأمرين المجال لإعلان الثورة بالقاهرة ومصر، وإعادة الدولة العلوية - الشيعية - فلا يبقى لصلاح الدين مقابله الفرنج. أما إذا أقام صلاح الدين واكتفى بإرسال الجندي لمقابلة الفرنج، فعندها تقوم قوات الثورة باعتقاله لعدم وجود

من يحميه أو يدافع عنه. ووضع المتأمرون في حسبانهم ابتعاد قسم من الجيش في اليمن، وكذلك غياب شمس الدولة في قيادة جيش اليمن، إذ كان باستطاعته أن يحل محل أخيه الأصغر صلاح الدين في حال اعتقاله أو قتله. وأرسل المتأمرون إلى الفرنج يستدعونهم، غير أن أحد هؤلاء - واسمه زين الدين علي بن نجا الوعاظ والقاضي المعروف بابن نجية - توجه إلى صلاح الدين وأعلمته بتفاصيل الاتفاق وعما تم ترتيبه من تعين وترتيب لاشغال مناصب الخلافة والوزارة والمحاجبة والدعوة والقضاء الخ... عند تنفيذ المؤامرة. فأمره صلاح الدين بلالزمة المتأمرين ومخالطتهم ومواطئتهم على ما يريدون فعله، وتعريفه ما يتجدد أولاً بأول. ففعل ذلك، وصار يطالعه بكل ما عزموا عليه. ثم وصل رسول من ملك الفرنج - من فلسطين - بهدية ورسالة إلى صلاح الدين، بالظاهر، وللاتصال بتلك الجماعة من المتأمرين بالباطن. وكان ملك الفرنج يرسل إليهم بعض النصارى وتأتيه رسالهم، فأتى الخبر إلى صلاح الدين من بلاد الفرنج بجلية الأمر. فوضع صلاح الدين على رسول ملك الفرنج من يشق إليه من النصارى، وداخله. فأخبره الرسول بالخبر على حقيقته. فقبض حينئذ على المقدمين في هذه المؤامرة وصلبهم. ونودي في أجناد المصريين بالرحيل من ديار مصر ومقارقتها إلى أقصى الصعيد (سنة ٥٦٩ هـ = ١١٧٣ م) واحتبط على من بالقصر من سلالة العاضد وغيره من أهله. وأما الذين نافقو على صلاح الدين من جنده، فلم يتعرض لهم صلاح الدين، ولم يشعرون أنه يعرف عنهم شيئاً.

يظهر أن ملك صقلية لم يعرف أن صلاح الدين قد كشف المؤامرة، وصلب مقدميها، فأرسل اسطولاً كبيراً ضم مائتي سفينة (شانية وجعها شوانى) تحمل الرجال، وستاً وثلاثين طريدة تحمل الخيول، وست مراكب كبيرة تحمل آلة للحرب، وأربعين مركباً تحمل المواد التموينية، وفيها من المشاة خمسون ألفاً ومن الفرسان ألفاً وخمسةمائة. ووصل هذا الأسطول وحولته إلى الاسكندرية وباغتها بهجومه. فخرج أهل الاسكندرية بسلاحيهم وعدتهم ليمعنوهم من النزول، غير أن الوالي منعهم من الابتعاد وأمرهم بلالزمة السور. ونزل الفرنج إلى البر، وتقدموا إلى المدينة، ونصبوا عليها الدبابات والمنجنيقات، وقاتلوا أشد قتال، وصبر لهم أهل البلد. ورأى الفرنج من

شجاعة أهل الاسكندرية وحسن سلاحهم ما راعهم. وسیرت الكتب بالحال إلى صلاح الدين ، يستدعونه لدفع العدو عنهم. ودام القتال طوال اليوم ، وتجدد القتال في اليوم التالي ، وتمكن الفرنج من الوصول بدباباتهم إلى قرب سور المدينة. ووصل ذلك اليوم من العساكر الإسلامية كل من كان في أقطاعه وهو قريب من الاسكندرية ، فقويت بهم نفوس أهلها ، وأحسنوا القتال والصبر ، فلما كان اليوم الثالث ، فتح المسلمون باب البلد ، وخرجوا منه على الفرنج من كل جانب ، وهم غارون. وكثير الصياح من كل الجهات ، فارتاع الفرنج ، واشتد القتال ، فوصل المسلمون إلى الدبابات فأحرقوها ، وصبروا للقتال، فأنزل الله نصره عليهم ، وظهرت أمراته ، ولم يزل القتال إلى آخر النهار. وعاد أهل البلد إليه وهم فرحون مستبشرون بما رأوا من تبشير الظفر وقوتهم ، وفشل الفرنج وفتور حربهم ، وكثرة القتل والجراح في رجالهم. وأما صلاح الدين فإنه عندما علم نزول الفرنج بالاسكندرية ، سار بجيشه وسير مملوكاً له ومعه ثلاثة نجائب ليجد السير عليها إلى الاسكندرية يبشر بوصوله. وسير طائفة من الجيش إلى دمياط خوفاً عليها واحتياطاً لها. فسار ذلك المملوك فوصل الاسكندرية من يومه وقت العصر ، والناس قد رجعوا من القتال. فنادى في البلد بجيء صلاح الدين وجيشه مسرعين. فلما سمع الناس ذلك عاودوا إلى القتال ، وقد زال ما بهم من تعب وألم الجراح. وكل منهم يظن أن صلاح الدين معه ، فهو يقاتل قتال من يريد أن يشاهد قتاله. وسمع الفرنج بقرب صلاح الدين في جيشه ، فسقط في أيديهم ، وزادوا تعباً وفتوراً ، فهاجم المسلمون عند اختلاط الظلام ، ووصلوا إلى خيام الفرنج فغنمواها بما فيها من الأسلحة الكثيرة والتحمّلات العظيمة ، وكثير القتل في مشاهة الفرنج ، فهرب كثير منهم إلى البحر وقربوا شوانيهم إلى الساحل ليركبوا فيها ، فسلم بعضهم ، وركب وغرق بعضهم. وغاص بعض المسلمين في الماء ، وخرق بعض شواني الفرنج ، فغرقت. فخاف الباقيون من ذلك ، فولوا هاربين. واحتوى ثلاثة من فرسان الفرنج على رأس تل فقاتلهم المسلمون إلى بكرة ، ودام القتال إلى أن أضحي النهار ، فقلبهم أهل البلد وقهروهم. فصاروا بين قتيل وأسير ، وكفى الله المسلمين شرهم.

عندما كان صلاح الدين منصرفًا لقتال الفرنج في الوجه البحري . وقعت ثورة في

الجنوب ، (في سنة سبعين وخمسة أيضاً = ١١٧٤ م) حيث اجتمعت الرعية في الصعيد ومعهم السودان والعرب وغيرهم خلق كثير تحت زعامة رجل اسمه - الكنـز - الذي بدأ تمرده بقتل أحد أمراء صلاح الدين - وهو أخو الأمير أبي الهيجاء السمين - من كبار أمراء صلاح الدين أيضاً، فلما فرغ صلاح الدين من أمر الفرنج وجه جيشاً كثيفاً بقيادة جماعة من الأمراء - بقيادة أبي الهيجاء - لقتال الكنـز ، فسار الجيش حتى وصل مدينة طود ، وقاتل من بها قتالاً شاقاً وقتل كثيراً منهم ، وأذلهم بعد العز ، فقهروا واستكأنوا. ثم سار الجيش إلى قتال الكنـز ، فقاتله وقتلـه هو ومن معه من الأعراب وغيرهم. وأمنـت بعده البلاد ، واطمأنـت أهلها.

كم تغيرت دنيا المسلمين خلال هذه السنوات العشر ، لقد كانت مصر حلقة للفرنج أحياناً ، وبعيدة عن الصراع في معظم الأحيان. وإذا بها ما بين سنة ٥٥٩ و ٥٦٩ هـ (١١٦٢ - ١١٧٣ م) تتحول إلى قاعدة صلبة من قواعد المسلمين. وقد أمكن لها بفضل هذا التحول ، وبعد زوال الخلافة الفاطمية والقضاء عليها ، الالتقاء مع بلاد الشام على صعيد الجهاد في سبيل الله ضد الفرنج ، وصحـيح أن مصر واليـمن قد باتـت تحت حكم الأيوبيـين بينما كانت الشـام تحت حـكم الزـنكـيـن ، ولكن بـقـيـ الزـنكـيـونـ هـم الأقوى ، وكان باـسـطـاعـة نـورـ الدـينـ دائـئـاً تـوجـيهـ الجـهـدـ المشـترـكـ ضدـ العـدـوـ المشـترـكـ.

١٠ - المدّو الأكبير للفرنج .

لقد ظهر للفرنج أن نور الدين محمود هو أكبير عدو لهم . وأنه تجاوز بعدهم جميع من سبّه من النساء ومن قادة المسلمين الذين عرفهم الفرنج منذ وطئت أقدامهم تراب الشام . وقد استطاع نور الدين تحقيق انتصارات كثيرة على جيوش الفرنج ، وقتل كثيراً من أمرائهم وقادتهم ، وانتزع منهم كثيراً من قلاعهم وحصونهم ، غير أن الأهم من ذلك هو تنسيق التعاون بين مسلمي الشام ومصر ، وحشد كافة القوى ضد الفرنج الصليبيين . وقد ظهر ذلك واضحاً خلال الأعمال القتالية التي خاضها الفرنج على أرض مصر .

تعرض نور الدين محمود لأول وأكبر هزيمة في حياته سنة ٥٥٨ هـ = ١١٦٢ م . في الموقعة المعروفة باسم موقعة القيمة – تحت حصن الأكراد . حيث ضرب نور الدين حصاراً على هذا الحصن ، وذلك قبل توجهه إلى طرابلس لحصارها – على ما كان يعتزم . . فبينما الناس يوماً في خيامهم ، وسط النهار ، لم يرّعهم إلا ظهور صلبان الفرنج من وراء الجبل الذي عليه حصن الأكراد ، وذلك أن الفرنج اجتمعوا واتفقوا على مباغة المسلمين بهجوم نهاري ، حيث يكون المسلمون آمنين . فركبوا من وقتهم ، ولم يتوقفوا حتى يجمعوا عساكرهم ، وساروا بجدين ، فلم يشعر بذلك المسلمين إلا وقد قربوا منهم . فأرادوا منعهم فلم يطيقوا ذلك . فأرسلوا إلى نور الدين يعرفونه الحال ، فرهقهم الفرنج بالحملة ، فلم يثبت المسلمون ، وعادوا يطلبون معسّر المسلمين والفرنج في ظهورهم ، فوصلوا معاً إلى معسّر نور الدين ، ولم يتمكن المسلمون من ركوب الخيل وأخذ السلاح إلا وقد خالطوه ، فأكثروا القتل والأسر . وكان أشدّهم على المسلمين الدوقس الرومي – القائد البيزنطي قسطنطين كولومان – فإنه كان قد خرج من بلاده إلى الساحل في جمع كثير من الروم ، فقاتلوا محتسين في زعمهم ، فلم يبقوا على أحد ، وقصدوا خيمة نور الدين وقد ركب فيها فرسه ، ونجا بنفسه ، ونزل نور الدين

على بحيرة قدس بالقرب من حصن ، وبينه وبين موقع المعركة أربع فراسخ ، وتلاحق به من سلم من الجنд . وقال له بعضهم : « ليس من الرأي أن تقيم ه هنا ، فإن الفرنج ربما حل لهم الطمع على المجيء إلينا ، فتؤخذ ونخن على هذا الحال ». فوجئه نور الدين وأسكنه وقال :

« إذا كان معي ألف فارس لقيتهم ولا أبالي بهم . ووالله لا أستظل بسقف حتى آخذ بثاري وثار الإسلام » .

ثم أرسل إلى حلب ودمشق ، وأحضر الأموال والثياب والخيام والسلاح والخيل ، فأعطى الناس عوض ما أخذ منهم جميعه - بحسب أقوالهم - فعاد العسكر كأن لم تصبه هزيمة . وكل من قتل أعطي أقطاعه لأولاده . وأما الفرنج ، فإنهم كانوا عازمين على قصد حصن بعد انتصارهم ، لأنها أقرب البلاد إليهم . فلما بلغتهم نزول نور الدين بينها وبينهم ، قالوا لم يفعل هذا إلا وعنده قوة يمنعنا بها . ولما رأى أصحاب نور الدين كثرة خرجه - انفاقه - قال له بعضهم :

« إن لك في بلادك إدارات وصدقات كثيرة على الفقهاء والفقراء والصوفية والقراء ، فلو استعنت في هذا الوقت بها لكان أصلح » .

فغضب من ذلك وقال :

« والله إنني لأرجو النصر بأولئك ، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم . كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم على فراشي بسهام لا تخطيء ، وأصرفها إلى من لا يقاتل عني إلا إذا رأني بسهام قد تصيب وقد تخطيء ، وهؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال ، فكيف يحل لي أن أعطيه لغيرهم » .

ثم إن الفرنج راسلوا نور الدين يطلبون منه الصلح ، فلم يجدهم ، وتركوا عند حصن الأكراد من يحميه وعادوا إلى بلادهم .

استطاع نور الدين الوفاء بقسمه ، وثار لنفسه وللمسلمين عندما وجه في السنة التالية لهزيمته (سنة ٥٥٩ هـ = ١١٦٣ م) حلة إلى مصر بقيادة أسد الدين شيركوه . ثم حشد

جيشه الذي أعاد تنظيمه، وأرسل إلى أخيه صاحب الموصل قطب الدين مودود وإلى صاحب حصن كيفا - فخر الدين قرا أرسلان، وإلى صاحب ماردين نجم الدين أبي، وإلى غيرهم من أصحاب الأطراف يستتجدهم، فساروا إليه بجيوشهم، فسار بهم نور الدين إلى حصن حارم الذي حاول قبل ذلك أن يفتحه ولكن الحظ لم يحالفه، فحضره وضيق عليه، وأسرع الفرنج فاحتشد جيش انطاكية وجيش طرابلس بالإضافة إلى جيش الروم. واستطاع نور الدين الانتصار على تجمع جيوش الفرنج، وفتح حارم، ثم أتبعها بفتح بانياس. وفي سنة ٥٦١ هـ = ١١٦٥ م. فتح نور الدين حصن المسيطرة من بلاد الشام. وكان بيد الفرنج، ولم يحشد له ولا جمع عساكره، وإنما سار إليه في قوة خفيفة من الفرسان - جريدة - وحضر الحصن وجد في قتاله، فأخذه عنوة وقهراً، وقتل من به وسي وغم غنيمة كثيرة، فإن الذين به كانوا آمنين، فأخذتهم خيل الله بغتة وهم لا يشعرون. ولم يجتمع الفرنج لدفعه إلا وقد ملكه. ولو علموا أنه في قلة من الجندي لأسرعوا إليه، وإنما ظنوه أنه في جمٍّ كثير، فلما ملكه تفرق الفرنج وأيسوا من رده. وفي سنة ٥٦٢ هـ = ١١٦٦ م. وبينما كان أسد الدين شيركوه يخوض صراعاً مميراً في مصر، قام نور الدين بفتح صافيتا وعرية، وتمكن بذلك من إرغام الفرنج على الانسحاب من مصر. وعمل في سنة ٥٦٤ هـ = ١١٦٨ م على فتح قلعة جعبر التي كانت من أمنع القلاع وأحصنتها على الفرات. ورغم أنها لم تكن في قبضة الفرنج إلا أن امتلاكها زاد من قوته نور الدين. وعندما توجه الفرنج لحصار دمياط سنة ٥٦٥ هـ = ١١٦٩ م. قام نور الدين بإلقاء الحصار على الكرك. وتصادف في تلك الفترة أن سار صاحب قلعة ألبيرة - شهاب الدين الياس بن ايغازي بن أرتق - ومعه مائتي فارس. للالتحاق بجيش نور الدين، ووصل إلى قرية اللبوة القرية من بعلبك، فأرادأخذ قسط من الراحة، وخرج متصدداً فصادف ثلاثة فارس من الفرنج قد ساروا للإغارة على بلاد الإسلام، فاشتبك معهم، واشتد القتال، وصبر الفريقان وكان صبر المسلمين أكبر، إذ لا يمكن القول أن الفرنج قد صبروا وعدد فرسانهم ألف ثلاثة مقابل ثلاثة فارس من فرسان المسلمين. وكثير القتل بين الطائفتين، فانهزم الفرنج، وعمهم القتل والأسر. فلم يفلت منهم إلا من لا يعتد به، وسار شهاب الدين برؤوس القتلى

وبالأسرى إلى نور الدين. فركب نور الدين والعسكر فلقوهم، فرأى نور الدين في الرؤوس رأس صاحب حصن الأكراد - مقدم طائفة فرسان الاستبارية - وكان من الشجاعة بمحل كبير، وكان شجاً في حلوق المسلمين.

لقد كان نور الدين يشغل نفسه طوال الوقت بجهاد الفرنج وبحشد القوى، وحيث امراء البلاد وتحريضهم للعمل ضد أعداء الدين، وقد أعطى بذلك الأمثلة التي يجب على امراء البلاد والأقاليم الأخذ بها، والسير على نهجها، وهذا لم يكن موقفه غريباً من أتابك شمس الدين أيلدكز - صاحب همدان وبلد الجبل وأذربيجان وأصفهان والري يوم حاول هذا التدخل في شؤون الموصل، فأرسل إليه مع رسوله :

« لا تتدخل، وعند الفراغ من اصلاح البلاد يكون الحديث معك على باب همدان. فإنك قد ملكت هذه المملكة العظيمة وأهملت الثغور حتى غلب الكرج عليها. وقد بليت أنا بالفرنج وليس لي مثل ربع بلادك، والفرنج أشجع العالم. فأخذت معظم بلادهم، وأسرت ملوكيهم، ولا يحل لي السكت عنك، فإنه يجب علينا القيام بحفظ ما أهملت، وإزالة الظلم عن المسلمين » ★ .

وكذلك موقفه من عز الدين قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان - صاحب ملطية وسيواس وأقصرا وغيرها والذي تقاعس عن جهاد الفرنج المجاورين له. فقد صد محاربته والاستيلاء على بلاده، ثم جرى الصلح على شرط فرضه نور الدين : « أن ينجده بعساكر إلى الغزاة » .

وقال له : « أنت مجاور الروم، ولا تغزوهم، وبيدك قطعة كبيرة من بلاد الإسلام ولا بد من الغزاة معي » ★ .

ليس ذلك فحسب، بل إنه استعان بالأرمين لقتال الفرنج، فعمل على تعيين مليح ابن ليون الأرمني أميراً على بلاده المجاورة لحلب - والتي كانت معروفة باسم بلاد

* الكامل في التاريخ - أحداث سنة ست وستين وخمسة.

★ المرجع السابق - أحداث سنة ثمان وستين وخمسة.

الدروب - واعتراض بعض قادة نور الدين على هذا التعيين، فرد عليهم نور الدين بقوله :

«أستعين به على قتال أهل ملته، وأريح طائفة من عسكري تكون يازاته لمنعه من الغارة على البلاد المجاورة له».

وبرهن مليح بن ليون على ولائه ووفائه فلازم نور الدين، وشاركه في حربه ضد الفرنج. ومقابل ذلك كان مليح يستعين بنور الدين ويستنصر به ضد من يجاوره من الأرمن والروم. وكانت مدينة أذنة والمصيصة وطرسوس بيد ملك الروم صاحب القسطنطينية، فأخذها مليح منهم لأنها تجاور بلاده، فسير إليه ملك الروم جيشاً كثيفاً (سنة ٥٦٨ هـ = ١١٧٢ م) وجعل عليه بعض أعيان البطارقة من أقاربه - فلقيه مليح ومعه طائفة من جند نور الدين فقاتلته وصدقه القتال، فانهزمت الروم وكثيراً منهم القتل والأسر. وقويت شوكة مليح، وانقطع أمل الروم من تلك البلاد. وأرسل مليح إلى نور الدين كثيراً من غنائمهم ومن الأسرى ثلاثة رجالاً من مشهورتهم وأعيانهم، فسير نور الدين بعض ذلك إلى الخليفة المستضيء بأمر الله. وكتب يعتد بهذا الفتح لأن بعض جنده فعلوه.

هكذا اتسعت حدود البلاد التي يحكمها نور الدين، وطالت مملكته وعرضت أكتافها، وتباعدت أوائلها عن أواخرها. ثم إنها جاوزت بلاد الفرنج، وكانوا ربما نازلوا حصناً من ثغوره، فإلى أن يصل الخبر، ويسير إليهم، يكون الفرنج قد بلغوا غرضهم.

ومن أجل ذلك اتخذ نور الدين بالشام الحمام المواتي (سنة سبع وستين وخمسة = ١١٧١ م) وهي التي يقال لها المناسب، وتطير من البلاد البعيدة إلى أوكرانيا، وجعلها في جميع بلاده. حتى يصل الخبر إليه في يومه. وأجرى الجرایات - الرواتب - على المرتبين لحفظها وإقامتها، فحصل منها الراحة العظيمة، والنفع الكبير لل المسلمين.

لقد حرص نور الدين على أن يكبح جاج الفرنج الصليبيين باستمرار، وأن يضيق

عليهم قدر استطاعته، وبحسب ما يتوافر له من القدرات والامكانيات، فكانت كل زيادة في هذه القدرات والإمكانيات تساعده على تحقيق المزيد من النجاحات والانتصارات - في ميادين القتال - ومقابل ذلك أيضاً كان كل انتصار يتحقق على الفرنج يساعد على اكتساب المزيد من الدعم والتأييد من جاهير المسلمين - ومن أمرائهم -. وهذا ما يوضح حرص نور الدين على بذل جهد متوازن وفي آن واحد على الجبهتين الداخلية والخارجية. ولقد تطلب ذلك العمل المتواصل للإفادة من كل فرصة لتقيد حرية عمل الفرنج العسكرية، وزيادة حرية العمل العسكري لقوات المسلمين. ومن الأمثلة على ذلك، ما حدث سنة ٥٦٧ هـ = ١١٧١ م حيث خرج مرکبان من مصر إلى الشام، فأرسلتا بمدينة لاذقية، فأخذتها الفرنج وهما ملؤتان من الأمتعة والتجارة، وكان بينهم وبين نور الدين هدنة فنكثوا وغدروا. فأرسل نور الدين إليهم في المعنى وإعادة ما أخذوه من أموال التجار، فغالطوه، واحتجوا بأمره منها أن المركبين كانوا قد انكسرا ودخلهما الماء ، وكان الشرط أن كل مركب ينكسر ويدخله الماء يأخذونه. فلم يقبل نور الدين مغالطتهم، وجمع العساكر وبث السرايا في بلادهم بعضها نحو أنطاكية وبعضها نحو طرابلس، وحصر هو حصن عرقة وخرب ربيضه ، وأرسل طائفة من العسکر إلى حصن صافيتا وعربيمة ، فأخذتها عنوة ونهب وخرب وغنم المسلمون ، غنائم كثيرة ، وعادوا إليه وهو بعرقة . فسار في العساكر جميعها إلى أن قارب طرابلس ينهب ويحرق ويقتل . وأما الذين ساروا إلى أنطاكية ففعلوا في ولايتها مثل ما فعل في ولاية طرابلس ، فراجعه الفرنج وبذلوا جميع ما أخذوه من المركبين وتجديده المدنة معهم ، فأجاههم إلى ذلك ، وأعادوا ما أخذوا وهم صاغرون وقد خربت بلادهم وغنمته أموالهم . وحدث مثل ذلك أيضاً سنة ٥٦٨ هـ = ١١٧٢ م . عندما اجتمعت الفرنج وساروا إلى بلد حوران من أعمال دمشق للغارة عليه ، وبلغ الخبر إلى نور الدين . وكان قد بُرِزَ ونزل هو وجيشه بالكسوة . فسار إليهم بجداً ، وقدم بجموعه عليهم فلما علموا بقربه منهم ، وسار نور الدين فنزل في عشرة وسir منها سرية إلى أعمال طبرية فشنوا الغارات عليها ، فنهبوا وسبوا وأحرقوا وخربوا ، فسمع الفرنج ذلك ، فرحلوا إليهم ليمنعوا عن بلدهم . فلما وصلوا كان قد

فرغ المسلمون من نهبهم وغنيمتهم وعادوا وعبروا النهر ، وأدر كهم الفرنج ، فوقف مقابلهم شجعان المسلمين وحاتهم فقاتلواهم ، فاشتد القتال وصبر الفريقان : الفرنج يرثمون أن يلحققوا الغنية فيستردوها ، وال المسلمين يريدون أن يمنعوهم عنها لينجو بها من قد سار معها . فلما طال القتال بينهم ، وابتعدت الغنية وسلمت مع المسلمين ، عاد الفرنج ولم يستردو منها شيئاً .

يظهر ذلك بوضوح سبب غضبة نور الدين من سلوك صلاح الدين يوسف بن أيوب ، بعد أن ملكه مصر ، وفتوره في غزو الفرنج من ناحيته ، فقد اعتقد أن صلاح الدين يؤثر بقاء الفرنج بينه وبين بلاد الشام ، ليتمكن بهم . ولهذا أرسل إلى الموصل وديار بكر وديار الجزيرة بطلب العساكر للغزاة . وكان عزمه أن يتركها مع ابن أخيه سيف الدين غازي صاحب الموصل والشام ؛ ويسير هو بعساكره إلى مصر . فبينما هو يتجهز لذلك أتاه أمر الله الذي لا مرد له . وترك الدنيا لأهل الدنيا ، واكتفى من دنياه بما قدمه لآخرته ★

كان نور الدين في الحرب يأخذ قوسين وتركتين ليقاتل بها . فقال له القطب النساوي الفقيه :

* نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر (٥١١ - ٥٦٩ هـ = ١١٢٣ - ١١٦٧ م) مات بعلة الخوانيق ، ودفن بقلعة دمشق . ونقل منها إلى المدرسة التي أنشأها بدمشق عند سوق الحواصين . طبق ذكره الأرض بحسن سيرته وعدله حتى قيل فيه بأنه ليس بعد الخلفاء الراشدين ، وعمر بن عبد العزيز . أحسن من سيرته ، ولا أكثر تحريراً منه للعدل ، وأما شجاعته فالليها النهاية ، بني أسوار مدن الشام جميعها وقلاعها . فمنها دمشق وحمص وحلب وشيزر وبعلبك وغيرها . وبني المدارس الكثيرة للحنفية والشافعية ، وبنى الجامع النوري بالموصل . وبني البيمارستانات والخانات في الطرق . وبني الخانakahات في جميع البلاد . وكان يكرم العلماء وأهل الدين وبعظامهم ويقوم إليهم ويجلسهم معه ، وينبسط معهم ولا يردد لهم قولاً . ويكاتبهم بخط يده . كان يصلى كثيراً بالليل ، ولا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف إلا في الذي يخصه من ملك كان له ، قد اشتراه من سهمه من الغنية ، شكت له زوجته من الصائفة . فقال لها : « ليس لي إلا هذا ، وجميع ما بيدي أنا فيه خازن للمسلمين ، لا أخونهم فيه ، ولا أخوض نار جهنم لأجلك ».

« بالله عليك لا تخاطر بنفسك وبالإسلام . فإن أصبت في معركة لا يبقى من المسلمين أحد إلا أخذه السيف » .

فقال نور الدين :

« ومن محمود حتى يقال له هذا ؟ من قبل من حفظ البلاد والإسلام ؟ ذلك الله الذي لا إله إلا هو » .

وحفظ الله البلاد والإسلام ، وسخر للإسلام وأهله رجالاً من أمثال نور الدين محمود ، فجاء صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وورث عنه مملكته ، وسار على نهجه ، ولقد ترك موت نور الدين محمود شعوراً لدى الفرنج بالارتياح ، كمثل ذلك الشعور الذي تركته وفاة والده من قبله ، وكمثل الشعور الذي سيعقب وفاة صلاح الدين الأيوبي بعد ذلك ، غير أن حقيقة واحدة لم يدركها الفرنج الصليبيون - يومئذ - ولم يدركوها من بعد أيضاً ، وهي أن الملك لله وحده ، وأن الدين لله ، يسخر له من عباده من يقومون بحفظه ضد أولئك الذين يعملون على محاربته ويحاولون اطفاء نوره .

٩ - صلاح الدين والإرث الكريم .

انتقل نور الدين إلى الرفيق الأعلى . وعرف صلاح الدين أنه بات هو أقوى الأمراء والحكام في مصر والشام . وظهر ذلك في رسالته التي وجهها إلى الحكام والأمراء - وجاء فيها :

« لو أن نور الدين يعلم أن فيكم من يقوم مقامي أو ينتمي إليه مثل ثقته إلى ، لسلم إليه مصر التي هي أعظم ممالكه وولياته . ولو لم ي Urgel عليه الموت ، لم يعهد إلى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته غيري ، وأراك قد تفردت بمولاي وابن مولاي - الملك الصالح اسماعيل - دوني ، وسوف أصل إلى خدمته ، وأجازي إنعام والده بخدمة يظهر أثرها . وأجازي كلاً منكم على سوء صنيعه في ترك الذب عن بلاده » .

وأرسل صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى الملك الصالح اسماعيل يعزمه بوفاة والده نور الدين ، ويئنه بالملك ، وأرسل إليه دنانير مصرية عليها اسمه ويعرفه أن الخطبة والطاعة له - في مصر - كما كانت لأبيه من قبل .

كان الملك الصالح اسماعيل عندما توفي والده يبلغ من العمر أحد عشر عاماً (سنة ٥٦٩ هـ = ١١٧٣ م) فبأيعه الأمراء والمقدمون في دمشق . وحلفوا له . وأطاعوه الناس . وتولى تربيته وإدارة مملكته الأمير شمس الدين محمد بن عبد الملك (المعروف بابن المقدم) .

جاءت الظروف الداخلية لتخديم صلاح الدين ، ولتعمل على مساعدته ، فقد عمل سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود بن زنكي على الاستقلال بأمور البلاد الجزيرية - الجزيرة الشامية وعاصمتها الموصل - ووجه سيف الدين تهديده حلب ، مما دعى (ابن المقدم - الذي كان مريضاً بحلب) إلى الانتقال بالملك الصالح

اسماعيل إلى حلب. ووجه سيف الدين غازي عندها قواته إلى دمشق، مما دفع حكام دمشق للاستنصار بصلاح الدين. وكتبوا إليه يستدعونه لتسليميه البلد، وأسرع صلاح الدين بقواته حتى إذا اقترب من دمشق، خرج كل من بها من المعسكر إليه، فلقوه وخدموه، ودخل البلد فأعلن: (أنا ملوك الملك الصالح، ما جئت إلا لأنصره وأخدمه وأعيد البلد التي أخذت منه إليه). وسار منها إلى حمص وحاه فامتلكها بعد أن أعلن لامرائها: «أنه في طاعة الملك الصالح، وإنما يريد حفظ بلاده عليه». ثم سار إلى حلب. وأدرك الملك الصالح ما يريد صلاح الدين، فجمع أهل حلب، وقال لهم:

«قد عرفتم إحسان أبي إليكم، ومحبته لكم، وسيرته فيكم. وأنا يتيمكم. وقد جاء هذا القاتل الجاحد إحسان والدي إليه يأخذ بلدي ولا يراقب الله تعالى ولا الخلق...».

وقال من هذا كثيراً. وبكى فأبكي الناس. فبذلوا له الأموال والأنفس، واتفقوا على القتال دونه والمنع عن بلده. وجدوا في القتال. وهم أهل شجاعة، قد ألفوا الحرب، واعتادوها، حيث كان الفرج بالقرب منهم. فكانوا يخرجون ويقاتلون صلاح الدين عند جبل حوشن، فلا يقدر على ملك البلد أو الاقتراب منها.

اتصل مقدم جيش سيف الدين غازي (واسمه سعد الدين كمشتكين) إلى مقدم الإسماعيلية (ستان) وبذل له أموالاً كثيرة لقتل صلاح الدين. فأرسل سنان جماعة من طائفته إلى معسكر صلاح الدين، فرأهم أمير اسمه خارتكتين - صاحب قلعة بوقيس - فعرفهم لأنه كان جارهم في بلاد كثيرة، وكان غالباً ما يجتمع بهم، ويتردد عليهم لقتالهم. فلما رأهم قال لهم: «ما الذي أقدمكم؟ وفي أي شيء جئتم؟» فهجموا عليه وجرحوه جراحات مشخنة، وحل أحدهم على صلاح الدين ليقتله، فقتل دونه، وقاتل الباقون من الإسماعيلية فقتلوا جماعة ثم قتلوا.

استمر صلاح الدين في حصار حلب شهراً ونيف، فلما طال الحصار، عمل (سعد الدين كمشتكين) على إطلاق سراح أمير طرابلس - الكونت ريموند سانت جيل - مقابل مائة ألف وخمسين ألف دينار واطلاق ألف أسير من المسلمين - وكان نور الدين

قد أسره منذ سنة ٥٥٩ هـ فتم إطلاق سراحه الآن - سنة ٥٧٠ هـ = ١١٧٤ م. فلما وصل إلى بلده، اجتمع الفرنج عليه بهؤونه بالسلامة، وكان عظيماً فيهم من أعيان شياطينهم، فاتفق أن مات في تلك الفترة ملك القدس - أميريك أو إميري -. فتولى الكونت ريموند سانت جيل تدبير الملك. وجاءته رسالة من حلب تقترح عليه قصد بعض البلاد التي بيد صلاح الدين حتى يرحل عن حلب. فسار ريموند بالفرنج إلى حمص، واضطرب صلاح الدين لرفع الحصار والسير نحو الجنوب فوصل إلى حاه، ثم إلى الرستن، فلما علم الفرنج بقربه رحلوا. وتقدم صلاح الدين من حمص إلى بعلبك، فملكتها.

كان الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين قد أرسل إلى ابن عمه سيف الدين غازي يستنجد له على صلاح الدين، لما بلغه استيلاء صلاح الدين على دمشق وحمص وحاه، فجمع سيف الدين غازي جيشه وسار إلى حلب، حيث انضم إليه جيش حلب. وسار لقتال صلاح الدين الذي عمل عندما علم بتحرك جيش الجزيرة وجيش حلب، على إرسال رسالة إلى سيف الدين عرض فيها تسليم حمص وحاه مقابل احتفاظه بدمشق، ولكن سيف الدين لم يجب إلى ذلك، وقال:

«لا بد من إعادة جميع ما أخذ من بلاد الشام، والعود إلى مصر».

وكان صلاح الدين يعمل خلال ذلك على حشد قواته والاستعداد للحرب، فلما أنهى استعداداته، سار لقتال سيف الدين، والتقي به بالقرب من مدينة حاه، بموضع يقال له قرون حاه ودارت معركة قاسية انتصر فيها صلاح الدين، وغنم معسرك خصمه وما احتواه من الغنائم الكثيرة والأسلحة العظيمة، والخيول الفارهة. وعاد المنهزون إلى حلب.

ومنح صلاح الدين جيشه فترة قصيرة للراحة، ثم سار به إلى حلب، فنازها وحاصرها وقاتل أهلها. وقطع حبيش خطبة الملك الصالح، وأزال اسمه عن السكّة - النقود - في بلاده. ودام حاصراً لهم. فلما طال الأمر عليهم راسلوه في الصلح على أن يكون له ما بيده من بلاد الشام. ولم يأبه لهم منها،

**فأجابهم إلى ذلك. وانتظم الصلح. ورحل عن حلب، فلما وصل إلى حاه،
وصلت إليه خلع الخليفة مع رسوله.**

عندما رجع سيف الدين غازي إلى الموصل، أعاد تنظيم قواته، وفرق الأموال في جنده، واستنجد بامراء ماردين وحصن كيما وسواها، فأمكن لهم حشد ستة آلاف فارس. فسار سيف الدين بهم إلى نصبيين، وأطّال المقام حتى انقضى الشتاء، وضجر العسکر، ونفذت نفقاتهم، وصار العود إلى بيوتهم مع المزية أحب إليهم من الظفر، لما كانوا يتوقعونه ان ظفروا من طول المقام بالشام بعد هذه المدة. ثم سار إلى حلب، فنزل إليه مدبر دولة الملك الصالح (سعد الدين كمشتكين) ومعه جيش حلب. وكان صلاح الدين في قلة من الجندي لأنّه كان صالح الفرج في المحرم من هذه السنة (٥٧١ هـ = ١١٧٥ م) وسير جنده إلى مصر. فأرسل يستدعياهم. فلو عاجلوه لبلغوا غرضهم منه. لكنهم تريثوا وتأخروا عنه، ف جاءته قواته. فسار من دمشق إلى ناحية حلب. فالتقى الجيشان عند تلّ السلطان على طريق حاه - وعلى بعد مرحلة من حلب -. وكان سيف الدين قد سبقه. فلما وصل صلاح الدين كان وصوله وقت العصر، وقد تعب هو وأصحابه وعطشوا فألقوا نفوسهم إلى الأرض ليس فيهم حركة. فأشار جاعنة على سيف الدين بقتالهم وهم على هذا الحال، ولكن مقدم جيش الموصل - عز الدين محمود ويعرف باسم زلفندر - عارض ذلك وقال: «ما بنا هذه الحاجة إلى قتال هذا الخارجي في هذه الساعة غالباً بكرة نأخذهم كلهم». فلما أصبحوا اصطافوا للقتال، فجعل زلفندر أعلامهم في ودهة من الأرض لا يراها إلا من هو بالقرب منها. فلما لم يرها الناس ظنوا أنّ السلطان سيف الدين قد انهزم، فلم يثبتوا، وانهزموا ولم يلو أخ على أخيه. ولم يقتل بين الفريقين على كثرتهم غير رجل واحد. وسار سيف الدين إلى حلب وترك فيها قوة بقيادة أخيه عز الدين مسعود، لدعم الملك الصالح، وعاد إلى الموصل. وأما صلاح الدين، فإنه لما استولى على أثقال جيش الموصل، سار إلى بزاغة فاستولى عليها، كما استولى على منبج، وسار منها إلى إعزاز فحاصرها وضيق عليها، ونصب عليها المنجنيقات، وبينما صلاح الدين يوماً في خيمة بعض أمرائه، إذ وثب عليه باطني - اسماعيلي - فضربه بسكين في رأسه فجرحه،

فلولا أن المغفر الزرد تحت القلنسوة لقتله. فأمسك صلاح الدين يد الباطني بيده، ولكنه لم يتمكن من منعه من الضرب تماماً، ولكن ضربات الباطني أصبحت ضعيفة، وبقي الباطني يضرب صلاح الدين في رقبته بالسكين. فكانت الضربات تقع على حافة السترة الواقية - الكراون - فتقطعها، ولكن الزردية تمنعها من الوصول إلى رقبته. وجاء أمير من أمرائه - اسمه يازكش - فأمسك السكين بكفه فجرحه الباطني ولم يطلقها من يده إلى أن قتل الباطني، وجاء آخر من الإسماعيلية فقتل أيضاً، وثالث قُتل، وركب صلاح الدين إلى خيمته كالمذعور، لا يصدق بنجاته، ثم تفقد جنده، فمن عرفه أبقاء في خدمته، ومن أنكره أبعده. ولازم حصار أعزاز ثانية وثلاثين يوماً، كل يوم أشد قتالاً مما قبله، حتى أذعن أهل أعزاز، وسلموا إليه القلعة.

قاد صلاح الدين جيشه بعد ذلك إلى حلب، وحاصرها، وجد في قتال أهلها. وقاتلته أهل حلب بعناد، وصبروا شهراً ونيف، وكثير القتل في الطرفين، إلى أن سارت الرسل في الصلح فتم الاتفاق في العشرين من المحرم (سنة ٥٧٢ هـ = ١١٧٦ م) وشمل الاتفاق الملك الصالح في حلب وسيف الدين في الموصل وصاحب الحصن وصاحب ماردين واستقرت القاعدة أن يكونوا كلهم عوناً على الناكم العادر. وبعد أن تم الصلح، جاءت الأئمة الصغرى - وكانت طفلاً، إلى صلاح الدين، فأكرمهها، وحل لها شيئاً كثيراً. وقال لها: «ما تريدين؟». فقالت: «أريد قلعة أعزاز». وكانوا قد علموها ذلك. فسلتها إليها ورحل إلى قلعة مصياف - مصياف - لأخذ ثأره من الإسماعيلية الذين أرادوا قتلها أكثر من مرة، فنهب بلاد الإسماعيلية. وأرسل ستان مقدم الإسماعيلية إلى شهاب الدين الحارمي - صاحب حماه وحال صلاح الدين - يتوجه بالصلح، ويتهده. واستجاب صلاح الدين لطلب الصلح وقد شعر بأن جنده قد تعبوا لكتلة المشاق. فصرفهم إلى بلادهم. وعاد هو إلى مصر بجيشه.

أفاد الفرنج من هذه الصراعات الداخلية، ومن انصراف المسلمين عنهم، فهاجموا أعمال دمشق، وانتصر جيش دمشق في معركة صغرى كما انتصر الفرنج في معركة مائلة، فلما كانت السنة التالية (سنة ٥٧٣ هـ = ١١٧٧ م) خرج صلاح الدين بجيشه من مصر بهدف غزو الفرنج، وسار مجدداً حتى وصل إلى عسقلان، فأطلق جيشه، فنهبوا

وأسروا وقتلوا وأحرقوا وتفرقوا في تلك الأعمال مغيبين ، فلما رأوا أن جند الفرنج لم يخرجوه لقتالهم . طمعوا وانبسطوا وساحوا آمنين . ووصل صلاح الدين إلى الرملة عازماً على أن يقصد بعض حصونهم ليحصره ، ولم يرمه إلا والفرنج قد أشرف بأبطالها وفرسانها على جيشه ، ولم يكن مع صلاح الدين إلا قوات قليلة ، فاشتبكت قوات صلاح الدين مع الفرنج . وقتل عدد من أبطال المسلمين ، وانسحب صلاح الدين بقواته مستفيداً من ظلمة الليل ، فسار عبر الصحراء إلى مصر . ولقي وجنه في الطريق مشقة شديدة ، وقل عليهم القوت والماء . وهلك كثير من دواب العسكر جوعاً وعطشاً وسرعة سير . وأما العسكر الذي كانوا قد دخلوا بلاد الفرنج في الغارة ، فإن أكثرهم ذهب ما بين قتيل وأسير .

وصل في تلك الفترة إلى عكا فيليب كونت فلاندر ومعه جيش صغير ، وذلك من أجل الحج . وحاول ملك القدس - بدلوين - وبارونات الفرنج إغراءه لقيادة حلة ضد مصر ولكن فيليب كونت فلاندر رفض كل عروض ملك القدس وإغراءاته . وبعد زيارته للقدس سار إلى طرابلس . وهناك وافق على أن يرافق كونت طرابلس - ريموند - بالهجوم على حاه . وتصدى أهل حاه - ومعهم جند صلاح الدين - لحملة الفرنج ، وقاتلواهم قتالاً شديداً . وهجم الفرنج بعض الأيام على طرف من حاه ، وكادوا يملكون البلد قهراً وقساً . فاجتمع أهل البلد مع العسكر ، وساروا إلى تلك الناحية ، واشتد القتال ، وعظم الخطب على الفريقين ، واستقتل المسلمين ، وحاموا عن الأنفس والأهل والمال ، فأخرجوا الفرنج من البلد إلى ظاهره ، ودام القتال ظاهراً البلد ليلاً ونهاراً ، وقويت نفوس المسلمين حين أخرجوهم من البلد ، وطمعوا فيهم ، وأكثروا فيهم القتل ، فرحل الفرنج حينئذ خائبين ، وساروا إلى حارم فحصرواها . وأطلالوا المقام عليها مدة أربعة أشهر ، ونصبوا عليها التمجيدات والسلام . فلم يزالوا كذلك إلى أن بذل لهم الملك الصالح مالاً ، وقال لهم إن صلاح الدين واصل إلى الشام ، وربما يسلم القلعة من بها إليه ، فأجابوه حينئذ إلى الرحيل عنها . ورجع فيليب كونت فلاندر إلى بيت المقدس ، ليقضي عيد القيامة ، ثم استقل من اللاذقية سفينة حلته إلى القسطنطينية .
جمع الفرنج جعهم من الرجال والفرسان ، وقصدوا مدينة حاه من جديد (سنة

٥٧٤ هـ = ١١٧٨ م) طمعاً في النهب والغارة، فنهبوا القرى وأحرقوا وأسروا وقتلوا. فلما سمع العسكر المقيم بجاهه، ساروا إليهم وهم قليل، متوكلين على الله تعالى ، فالتحقوا واقتتلوا ، وصدق المسلمين القتال، فنصرهم الله تعالى ، وانهزم الفرنج ، وكثير القتال والأسر فيهم، واستردوا ما غنموه من السواد . وكان صلاح الدين قد عاد من مصر إلى الشام ، ووصل إلى ظاهر حصن ، فحملت الرؤوس والأسلاب إليه فأمر بقتل الأسرى فقتلوا.

عمل ملك الفرنج - بدلوين ملك القدس - على جمع قواته ، وسار بها إلى دمشق. فأغار على أعمالها ، فنهبها وأسر وقتل وسبى من المسلمين ، فأرسل صلاح الدين قوة من جيشه بقيادة ابن أخيه فروخشاه ، وأمره أنه إذا قارب الفرنج أن يرسل إليه يخبره - بواسطة الحمام الزاجل - ليسير إليه ، وطلب إليه أن يأمر أهل البلاد بالانتزاح من بين يدي الفرنج . فسار فروخشاه بن معه ، ولم يشعر إلا والفرنج قد أحاطوا به ، فاضطر إلى القتال ، فاقتتلوا أشد قتال رأه الناس ، وألقى فروخشاه نفسه عليهم وغشي الحرب ولم يترك القيادة لسواء ، فانهزم الفرنج ، وانتصر المسلمين عليهم ، وقتل من مقدميهم جماعة ، ومنهم همفري - سيدتبين - الذي كان يضرب به المثل في الشجاعة والرأي في الحرب . وكان بلاء صبه الله على المسلمين ، فأراح الله من شره ، وقتل غيره من أضرابه ولم يبلغ عسكر فروخشاه ألف فارس . وأثناء ذلك ، أغارت البرنس صاحب أنطاكية واللاذقية على المسلمين في ريف شيزر ، وأغار صاحب طرابلس على جع كثير من التركمان ، فأجحفل بأموالهم . وكان صلاح الدين على بانياس ، فسير ولد أخيه تقي الدين عمر إلى حماه ، كما أرسل ابن عميه ناصر الدين محمد بن شيركوه إلى حصن . وأمرها بحفظ البلاد وحياطة أطرافها من العدو .

قرر الفرنج تشييد استحكامات متينة على امتداد حدود إماراة دمشق ، فتم تحصين تل هونين على الطريق الممتد من بانياس إلى تبني. وشرع ملك القدس - بدلوين - بتشييد قلعة على المجرى الأعلى لنهر الأردن - بين بحيرة الحولة وبحر الجليل - كما تتحكم في المخاضة التي زعم الفرنج الصليبيون أنه دارت عندها المصارعة بين يعقوب والملاك والتي أطلق عليها الفرنج أيضاً اسم (مخاضة الأحزان) . وتعهد الفرنج لصلاح

الدين بـألا يقوموا مطلقاً بتحصين موضع العبور ، وأراد ملك القدس الالتزام بما تعهد به لصلاح الدين ، وأن يشيد القلعة في موضع آخر ، غير أن طائفة فرسان الداوية غلبوه على أمره ، وتقدم المسلمون من فلاحين ورعاة أغنام إلى صلاح الدين بالشكوى لما يقوم به الفرنج من نقض للعهود والأيمان ، فعرض صلاح الدين على ملك القدس بدلوين مبلغ ستين ألف دينار ، ثم زادها إلى مائة ألف دينار ليثنى عن عمله . فلما رفض الملك العرض ، أقسم صلاح الدين بأنه سوف يعمل ما بوسعه لمنعه . وسار بجيشه في سنة ٥٧٥ هـ (ربيع سنة ١١٧٩ م) فألقى الحصار على قلعة خاصة الأحزان . غير أن استحكاماتها الدفاعية بلغت من القوة والمتانة ما حمله على الارتداد عنها بعد مضي بضعة أيام ، فعسكر أمام بانياس . وأرسل من موقعه هذا قوات للاغارة على الجليل ، وتدمير المحاصيل الزراعية في الأراضي الواقعة بين صيدا وبيروت . فقام الملك بدلوين بحشد كل قوات المملكة ، ودعى ريموند كونت طرابلس للانحياز إليه ، فسارا معاً بمحاذين طبرية وصفد إلى تبنين ، حيث علموا أن فروخشا وجماعة من المغريين ، في طريق عودتهم قادمين من الساحل بغنية كبيرة ، فتحرّك صوب الشمال لاعتراضهم بوادي مرجعيون - بين نهر الليطاني والمجرى الأعلى لنهر الأردن . غير أن صلاح الدين سبق أن شاهد من برج للمراقبة ، على تل يقع شمالي بانياس ، ما حدث على الجانب الآخر من نهر الأردن ، من ذعر قطعان الأغنام وتشتتها ، فأدرك أن جيش الفرنج لا بد وقد اجتاز هذا الموضع ، فنهض لمطاردته . وبينما كان جيش الفرنج يخوض معركته ضد فروخشا (يوم ١٠ حزيران - يونيو - ١١٧٩) كان الكونت ريموند والداویه يتقدمون نحو نهر الأردن . وظهروا بصورة مباغنة أمام صلاح الدين . فبادر للدواية إلى الاشتباك في القتال على الفور ، غير أن ما قام به صلاح الدين من هجوم عليهم . ردّهم على أعقابهم ، فولوا الأدبار مذعورين إلى جيش الفرنج الذي يقوده الملك بدلوين ، والذي اضطر للارتداد أيضاً ، ولم يلبث الجيش الصليبي بأكمله أن لاذ بالفرار . واستطاع الملك بدلوين والكونت ريموند وبعضاً من قواتهما عبور نهر الليطاني واللجوء إلى قلعة شقيف أرنون ، الواقعة على مرتفع على الضفة الغربية ، وتعرض للقتل أو الأسر كل من تبقى من جيش الفرنج وراء نهر الليطاني - بعد التضييق عليهم وحصرهم . على

أن جماعة من الفارين لم يتوقفوا عند قلعة شقيف أرنون، بل مضوا في طريقهم إلى الساحل، فالتقوا برينالد سيد صيدا في عسكره، فأخظروه بأن الوقت قد فات، ولم يسعه إلا العودة، على الرغم من أنه لو استمر في سيره إلى نهر الليطاني، لكان بوسعي أن ينقد عدداً كبيراً من الفارين الآخرين.

لقد وقع في أسر صلاح الدين عدداً من كبار قادة الصليبيين، منهم مقدم الداوية أودوسانت أماند - الذي يعتبر تهوره وحماته السبب الأساسي للهزيمة - . وبلدوين سيد بيته، وهو سيد الجليل. ولم تلبث كونتيسة طرابلس - والدة هيyo - أن افتدت بخمسة وخمسين ألف دينار صوري. وطلب صلاح الدين مائة وخمسين ألف ديناراً، فدية عن بلدوين صاحب بيته، وهي فدية ملك ، نظراً لما كان لبلدوين من أهمية بالغة الشأن عند صلاح الدين. ولم تمض إلا بضعة شهور حتى تم إطلاق سراح بلدوين، مقابل الإفراج عن ألف أسير من المسلمين، فضلاً عن وعده بالتساس المال المطلوب للฟدية. وجرى الاقتراح بمبادلة أودو بأحد كبار الأسرى المسلمين. غير أن مقدم الداوية بلغت به الغطرسة أنه لم يقبل بأن يساوي أحد في القيمة. فضل في الحبس بدمشق حتى قضى نحبه في السنة التالية.

عاد صلاح الدين من موقع المعركة إلى بانياس ، وتجهز للدخول إلى حصن مخاضة الأحزان ومحاصرته ، فسار إليه ، وأحاط به ، وبث العساكر في بلد الفرنج للإغارة ، فعلوا ذلك ، وجعلوا من الأخشاب شيئاً كثيراً ليجعله متارس للمنجنيقات . فقال له جاويي الأسد ، وهو مقدم الأسدية ومن أكابر الأمراء :

«رأي أنا نخبرهم بالزحف أول فرة وندوق قتال من به ، وننظر الحال معهم فإن استضعفناهم وإلا فنصب المنجنيقات ما يفوت» .

فقبل رأيه ، وأمر فنودي بالزحف إليه والجذ في قتاله ، فزحفوا واشتد القتال ، وعظم الأمر ، فصعد إنسان من العامة ، بقميص خلق ، في باشورة الحصن ، وقاتل على السور لما علاه ، وتبعه غيره من أصرابه ، ولحق بهم الجندي فملوكوا باشورة ، فصعد الفرنج حينئذ منها إلى أسوار الحصن ليحموا نفوسهم وحصنهما إلى أن يأتيهم المدد .

وكان الفرنج قد جعوا بطيرية، فألح المسلمون في قتال الحصن خوفاً من وصول الفرنج إليهم، وإزاحتهم عنه. وأدر كهم الليل. فأمر صلاح الدين بالبيت بالبشرة إلى الغد، ففعلوا. فلما كان الغد وأصبحوا، نقبوا الحصن وعمقوا النقب وأشعلوا النيران فيه، وانتظروا سقوط السور، فلم يسقط لعرضه، وانتظروه يومين، فلم يسقط. فأمر صلاح الدين باطفاء النار التي في النقب، فحمل الماء وألقي عليها فطفئت، وعاد النقابون فنقبوا وخرقوا السور وألقوا فيه النار، فسقط يوم الخميس لست بقين من ربيع الأول ٥٧٥ هـ (٢٩ - آب - أغسطس - ١١٧٩ م). ودخل المسلمون الحصن عنوة وأسرموا كل من فيه، وأطلقوا من كان به من أسرى المسلمين، وقتل صلاح الدين كثيراً من أسرى الفرنج، وأدخل الباقين إلى دمشق فسجناً. وأقام صلاح الدين بمكانه حتى هدم الحصن وعفي أثره وألحقه بالأرض ★.

أرسل ملك القدس - بدلوين - إلى صلاح الدين بطلب عقد اهدنة، وذلك بعد أن قام الأسطول المصري بغارة ناجحة على سفن الفرنج الراسية في ميناء عكا. وبعد أن شنّ المسلمون غارة عنيفة على الجليل. وتحددت اهدنة لمدة سنتين. ووافق صلاح الدين، فوقعها ممثلون عن بدلوين وصلاح الدين في سنة ٥٧٦ هـ (في شهر أيار - مايو - ١١٨٠ م).

لقد كان هدف ملك الفرنج - بدلوين - من عقد هدنة مع صلاح الدين، هو كسب الوقت لإقامة جبهة صليبية قوية ومتاسكة تستطيع مواجهة القوة المتعاظمة لل المسلمين، وكان صلاح الدين يحتاج بدوره لمثل هذه الهدنة لإعادة تنظيم جبهته الداخلية. وتوجه - في فصل الخريف - صوب الشمال - إلى الفرات - حيث وقع

★ أكثر الشعراء من مدح صلاح الدين لتدمير حصن مخاضة الأحزان. فقال النشو بن نفاذة:

ملاك الفرنج أنتي عاجلاً وقد آن تكسر صلبانها. لما عمرت بيت دنا حتفها وكذلك قول علي بن محمد الساعاتي الدمشقي: أنسكن أوطنان النبین عصبة نصحتكم والنصح للدين واجب ذروا بيت يعقوب فقد جاء يوسف.	ولوم يكن قد دنا حتفها أنسكن أوطنان النبین عصبة نصحتكم والنصح للدين واجب ذروا بيت يعقوب فقد جاء يوسف.
--	---

شجار بين الأمير نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود صاحب حصن كيما وغيره من ديار بكر ، الذي أضحي حليفاً لصلاح الدين ، وبين السلطان السلاجوقى قلج أرسلان ، إذ كان نور الدين قد تزوج من ابنة السلطان السلاجوقى ، غير أنه أهملها ، ووقع في غرام فتاة تمهن الرقص★ . وعقد صلاح الدين مجلساً قرب سميساط ، وشهد هذا المجلس أمراء الأرادة ، ورسل من قبل السلطان قلج أرسلان ، وسيف الدين أتابك الموصل ، وروبين صاحب أرمينية ، وأقسم جميع الحاضرين على مراعاة السلام بينهم في السنطين التاليتين . وتوجه صلاح الدين بجيشه بعد فراغه من أمر قلح أرسلان إلى بلاد ابن ليون الأرمني ، وكان السبب في ذلك هو أن ابن ليون هذا ، كان قد استمال قوماً من التركمان المسلمين ، وبذل لهم الأموال ، وسمح لهم أن يرعوا مواشיהם في بلاده ، وهي بلاد حصينة كلها حصون منيعة ، والدخول إليها صعب لأنها مضائق وجبار وعرة . ثم غدر بهم وسي حريمهم وأخذ أموالهم وأسر رجالهم بعد أن قتل منهم من حان أجله . ونزل صلاح الدين على النهر الأسود . وبث الغارات على بلاده . فخاف ابن ليون على حصن له على رأس جبل أن يؤخذ ، فخرقه وأحرقه . وعلم صلاح الدين بذلك فأسرع السير إليه ، فأدركه قبل أن ينقل ما فيه من ذخائر وأقوات ، فغنمها وانتفع المسلمون بما غنموه ، فأرسل ابن ليون ببذل إطلاق من عنده من الأسرى والسي ، وإعادة أموالهم ، على أن يعودوا عن بلاده . فأجابه صلاح الدين إلى ذلك ،

* وردت القصة في الكامل في التاريخ - ابن الأثير - أحداث سنة ست وسبعين وخمسة . كما يلي : « جاء رسول قلح أرسلان إلى صلاح الدين وقال له : أريد أن أقول شيئاً من عندي ، ليس رسالة عن صاحبي - قلح أرسلان - وأحب أن تنصفي . فقال له صلاح الدين : قل . فقال رسول قلح أرسلان : يا مولانا ، ما هو قبيح بذلك وأنت أعظم السلاطين وأكبرهم شأناً أن تسمع الناس عنك أنك صالحت الفرنج وتركت الغزو ومصالح المملكة وأعرضت عن كل ما فيه صلاح لك ولرعيتك وللمسلمين عامة ، وجعلت العساكر من أطراف البلاد البعيدة والقريبة ، وخسرت أنت وعساكرك الأموال العظيمة لأجل قحبة مغنية . ما يكون عذرك عند الله تعالى ؟ ثم عند الخليفة وملوك الإسلام وكافة العالم ؟ وأحسب أن أحداً ما يواجهك بهذا أما يعلمون أن الأمر هكذا ؟ الخ ... » فقال له صلاح الدين : « والله الحق بيذك . وان الأمر لكم تقول . اجتمع أنت به وأصلح الحال بينكم على ما تحبون ، وأننا أعينكم عليه وأتيتكم فعلاً ». ومضى الرسول . وتم الصلح ، وتعهد صاحب حصن كيما - نور الدين - باخراج المغنية بعد سنة ، وصرفها ، ونفذ تعهده عند حلول الأجل المتفق عليه .

واستقر الحال، وأطلق الأسرى، وأعيدت أموالهم. وعلم صلاح الدين بوفاة أخيه شمس الدولة نورانشاه بن أيوب - في الإسكندرية، فرجع مسرعاً إلى مصر، بعد أن استخلف بالشام ابن أخيه عز الدين فروخشاه - أو فرخشاه -.

لقد استطاع صلاح الدين تنظيم جهاز جاسوسية دقيق ومحكم أمكن له بواسطته معرفة ما كان يجري على جبهة الفرنج من نزاعات وصراعات داخلية. وتواترت له المعلومات عن تداعي سلطة امبراطورية الروم - البيزنطيين - وتقزّتها. مما أبهج أمير أرمنية وانطاكية، واحتفلا بزوال ضغط بيزنطة بأن تشاير كل منها مع الآخر. إذ ما كاد أمير انطاكية بوهمند الثالث يعلم بوفاة الامبراطور البيزنطي - مانويل (في ٢٤ تشرين الأول - أكتوبر - ١١٨٠ م) حتى افترق عن زوجته اليونانية، فيما يتزوج من امرأة خليعة من أنطاكية اسمها سبيلاً، ومع أن بطريقه انطاكية - اميري - لم يكن راضياً عن زواج بوهمند من اليونانية، إلا أنه ارتابع لارتكاب جريمة الزنا ، فقطع بوهمند من الكنيسة، وفرض الحرمان الديني على مدينة أنطاكية ، وتوافر لنبلاء أنطاكية من الأسباب ما يحملهم على كراهية سبيلاً، إذ كانت جاسوسة تتلقى دخلاً من صلاح الدين مقابل ما تقدمه من معلومات عن قوة جيوش الفرنج وتحركاتها . وقام هؤلاء النبلاء بمساندة بطريقه اميري . واندلعت الحرب الأهلية . وابتھج صلاح الدين لما وقع بين امراء الفرنج في الشمال . إذ لم يعد باستطاعة الروم ، ولا فرنج الشمال ، أن يقوموا بأي عمل مزعج لإمارات المسلمين .

كان لزاماً على مملكة بيت المقدس ، في هذه الأحوال ، أن تحافظ على المدنية التي وقعت على وثيقتها (سنة ٥٧٦ هـ) وأن تتمسك بها قدر المستطاع - غير أن رينالد شاتيون الذي كان وقتئذ سيداً على إقطاع إقليم ما وراء الأردن وعاصمته الكرك - والذي وصفته المصادر الإسلامية بقولها : « كان البرنس أرناط صاحب الكرك من شياطين الفرنج ومردتهم وأشدّهم عداوة للمسلمين »★ لم يكن بوسعه أن يفهم كل سياسة تتعارض مع رغباته . فبمقتضى شروط المدنية ، أضحى للتجار المسلمين

وال المسيحيين الحرية في أن يجتاز كل من الجانبين بلاد الجانب الآخر . على أن رينالد ساءه أن يرى القوافل التجارية الإسلامية الوافرة الثروة وهي تسير مطمئنة آمنة قرب إقطاعه . ففي سنة ٥٧٧ هـ = ١١٨١ م ، استجاب رينالد لداعي الاغراء ، فقد قواته صوب الشرق ، وقد عزم على المسير في البر إلى تهاء ، ومنها إلى مدينة النبي ﷺ ، للاستيلاء على تلك التواحي الشريفة ، فلما وصل إلى قرب واحة تهاء ، انقض على قافلة كانت تسير مطمئنة إلى مكة المكرمة ، واستولى على كل ما تحمل من السلع التجارية . ولعله فكر أيضاً في المضي لمهاجمة المدينة ، غير أن نائب صلاح الدين في دمشق - فروخشاه - سارع إلى حشد جيش دمشق ، وسار إلى نواحي إمارة الكرك ونهب بلاده وخرابها ، وعاد إلى طرف بلادهم ، فلما علم رينالد شاتيون بذلك أسرع بالعودة إلى إقطاعه . وأقام فروخشاه ليمنع البرنس رينالد من المسلمين . فلما طال مقام كل واحد منها في مقابلة الآخر ، علم البرنس أن المسلمين لا يعودون حتى تفرق جمعه ، وانقطع طمعه من الحركة ، فعاد فروخشاه إلى دمشق .

قدم صلاح الدين احتجاجاً إلى ملك القدس - بدلوين - عن نقض اتفاقية الهدنة ، وطلب التعويض . وأقر الملك بدلوين عدالة الاحتجاج . وعلى الرغم من محاولة رينالد شاتيون - عرض وجهة نظره والدفاع عنها ، فإنه رفض أداء كل ما يصلح سلوكه أو يقرمه . ولقي رينالد من التأييد من أصحابه في حاشية الملك ما حل بدلوين الضعيف على تجاهله الموضوع . لكن صلاح الدين لم يتجاهله ، وحرص على متابعته ، وحدث بعد بضعة شهور أن ساءت الأحوال الجوية ، فأرغمت قافلة من السفن كانت تقل ألفاً وخمسائة حاج صليبي على الجنوح إلى الأراضي المصرية قرب دمياط ، دون أن تعلم ما حدث من انتهاك للهدنة . فأمر صلاح الدين بتكميلهم جميعاً بالأغلال . ثم أرسل إلى بدلوين يعرض عليه استعداده لإطلاق سراحهم عند رد المتأجر التي نبهها رينالد ، ولكن رينالد رفض للمرة الثانية أن يعيد شيئاً . فأضحت الحرب أمراً لا مفر منه .

لقد ارتبط ذلك بمحدث تطورات داخلية على جبهة الشام ، استدعت بدورها قدوم صلاح الدين إليها . فقد توفي أمير الموصل سيف الدين غازي بن مودود (سنة ٥٧٦ هـ) وخلف به في السنة التالية صاحب حلب (الملك الصالح إسحاق بن نور الدين

مُحَمَّد)★ . وَظَهَرَ احْتِمَالُ تَفْكِكِ الأُسْرَةِ الزَّنْكِيَّةِ أَوْ تَجَدُّدُ مَحاوِلَاتِهَا لِلسُّيُطَرَةِ عَلَى بَلَادِ الشَّامِ . إِذَا مَا كَادَ يَنْتَشِرُ نَبَأُ وَفَاتَةِ الْمَلِكِ الصَّالِحِ اسْمَاعِيلِ حَتَّى هَرَبَ تَقِيُّ الدِّينِ عَمَرَ ابْنَ أَخِي صَلَاحِ الدِّينِ مِنْ مَدِينَةِ حَاهَ . وَلَكِنَّ حَاهَ بِدُورِهَا أَعْلَنَتْ ثُورَتَهَا عَلَى الْحُكْمِ الْأَيُوبِيِّ وَوَلَاءِهَا لِلْزَنْكِيِّينَ ، وَاسْتَدْعَتِ الْحَامِ الْجَدِيدَ لِحَلبَ - عَزَّ الدِّينِ مُسَعُودَ بْنَ مُودُودٍ بْنَ زَنْكِيِّ - لِتَسْلِيمِهِ الْبَلَدِ . فَأَشَارَ عَسْكُرُ حَلبَ عَلَى عَزَّ الدِّينِ بِقَصْدِ دَمْشَقِ . وَأَطْمَعُوهُ فِي غَيْرِهَا أَيْضًاً مِنْ بَلَادِ الشَّامِ الَّتِي آتَتْ إِلَيْهِ حُكْمَ صَلَاحِ الدِّينِ ، وَأَعْلَمُوهُ مَحْبَةً أَهْلَهَا لَهُ وَلِلْزَنْكِيِّينَ ، وَلَكِنَّهُ امْتَنَعَ عَنْ كُلِّ تَحْرِكٍ وَقَالَ: «بَيْنَا وَبَيْنَ صَلَاحِ الدِّينِ يَمِينَ ، فَلَا نَغْدُرُ بِهِ» . وَلَمَّا كَانَ أَجْلُ الْمَدِنَةِ يَقْرَبُ مِنْ نَهَايَتِهِ فَقَدْ كَانَ لِزَاماً عَلَى صَلَاحِ الدِّينِ التَّحْرِكَ قَبْلَ اِنْتِهَاءِ الْمَدِنَةِ لِمَجَاهِدَهِ الْمُسْتَجَدَاتِ .

★ الْمَلِكُ الصَّالِحُ اسْمَاعِيلُ بْنُ نُورِ الدِّينِ مُحَمَّدٌ (٥٥٨ - ١١٦٢ هـ = ١١٨١ م) . تَوْفِيَ وَعُمُرُهُ تِسْعَ عَشَرَةَ سَنَةً ، مَرَضَ وَاشْتَدَّ مَرْضُهُ ، وَوُصَفَ لَهُ الْأَطْبَاءُ شَرْبُ الْخَمْرِ لِلتَّدَاوِيِّ . فَقَالَ: «لَا أَفْعُلُ» وَاسْتَفْتَى الْفَقِيهَاءَ فَأَفْتَاهُ فَقِيهَ مِنْ مَدْرَسَيِّ الْخَنْفِيَّةِ بِجَوازِ ذَلِكَ . فَقَالَ لَهُ: «أَرَأَيْتَ إِنْ قَدْرَ اللَّهِ تَعَالَى تَقْرَبُ الْأَجْلِ أَبْؤُخَرَهُ شَرْبُ الْخَمْرِ» . فَقَالَ الْفَقِيهُ: لَا فَرَدٌ عَلَيْهِ الْمَلِكُ الصَّالِحُ: «وَاللَّهُ لَا لَقِيتَ اللَّهَ سَبَحَانَهُ وَقَدْ اسْتَعْمَلْتَ مَا حَرَمَهُ عَلَيَّ» وَلَمْ يَشْرِبْهُ . فَلَمَّا أَيْسَ مِنْ نَفْسِهِ ، أَحْضَرَ الْأَمْرَاءَ وَسَائِرَ الْأَجْنَادَ ، وَوَصَّاهُمْ بِتَسْلِيمِ حَلبَ إِلَى ابْنِ عَمِّهِ عَزَّ الدِّينِ مُسَعُودِ بْنِ مُودُودٍ بْنِ زَنْكِيِّ ، وَاسْتَحْلَفُوهُمْ عَلَى ذَلِكَ . فَقَالَ لَهُ بَعْضُهُمْ: «إِنْ عَمَادَ الدِّينَ بْنَ عَمَكَ أَيْضًاً ، وَهُوَ زَوْجُ أَخْتِكَ ، وَكَانَ وَالدُّكُّ يَمْبَهُ وَيَؤْثِرُهُ ، وَهُوَ تَوْلِي تَرْبِيَتِهِ . وَلَيْسَ لَهُ غَيْرُ سَنْجَارٍ . فَلَوْ أَعْطَيْتَهُ حَلبَ لَكَانَ أَصْلَحُ . وَعَزَّ الدِّينُ لَهُ مِنَ الْفَرَاتِ إِلَى هَمْذَانِ ، وَلَا حَاجَةُ بَهِ إِلَيْ بَلْدَكَ» فَرَدَ عَلَيْهِمُ الْمَلِكُ الصَّالِحُ: «إِنَّ هَذَا لَمْ يَغْبُ عَنِّي . وَلَكِنَّهُ قدْ عَلِمْتُ أَنَّ صَلَاحَ الدِّينِ قَدْ تَغْلَبَ عَلَى عَامَةِ بَلَادِ الشَّامِ - سَوْيَ مَا بِيَدِي - وَمَتَى سَلَمَتْ حَلبَ إِلَى عَمَادِ الدِّينِ بَعْجَزٌ عَنْ حَفْظِهَا ، وَإِنْ مَلْكُهَا صَلَاحُ الدِّينِ لَمْ يَقْنُدْ لِأَهْلَنَا مَعَهُ مَقَامَ . وَعَزَّ الدِّينُ أَقْدَرَ عَلَى حَفْظِهَا» .

. ١ - نادت الشام، فوداعاً يا مصر

نادت الشام نداءها ، وخرج صلاح فلبى النداء ، وأقام خيمته بظاهر القاهرة حتى تجتمع العساكر والناس عنده وأعيان دولته وأرباب الآداب ، فمن بين موعد له ، وسائل معه وكل منهم يقول شيئاً في الوداع والفرارق ، وما هم بصدقه من السفر ، وكان في الحاضرين معلم لبعض أولاده ، فأخرج رأسه من بين الحاضرين ، وأنشد :

تمتع من شم عرار نجد فما بعد العشية من عرار

فانقبض صلاح الدين بعد انبساطه ، وتطير ، وتنكد المجلس على الحاضرين . وصدقت نبوءة المعلم . فلم يعد صلاح الدين إلى مصر إلى أن مات ، مع طول المدة بين خروجه من مصر وبين وفاته .

أنهى صلاح الدين استعداداته ، وغادر مصر يوم ٥ محرم ٥٧٨ هـ (١١ - أيار - مايو - ١١٨٢) وتبعه من التجار وأهل البلاد ، ومن كان قصد مصر من الشام بسبب الغلاء بالشام ، وغيره عالم كثير . فلما سار جعل طريقه على أيلة ، فسمع أن الفرنج قد جمعوا له ليحاربوا ويصدواه عن المسير . فلما قارب بلادهم سير الضعفاء والانتقال مع أخيه تاج الملوك بوري إلى دمشق ، وبقي هو في العساكر المقاتلة لا غير ، فشن الغارات بأطراف بلادهم - وأكثر ذلك بيلد الكرك والشوبك . وكان حاكم دمشق - فروخشاه - قد علم بأن الفرنج قد جعوا الفارس والراجل واجتمعوا بالكرك . بالقرب من الطريق الذي سيسلكه صلاح الدين ، لعلهم ينتهزون فرصة أو يظفرون بنصرة ، وربما أعاقوا المسلمين عن الوصول إلى دمشق ، بأن يقفوا على بعض المضايق . وبذلك خلت بلادهم من ناحية الشام . فجمع فروخشاه جيش الشام ، وقصد بلاد الفرنج - في الجليل - وأغار عليها ، ونهب دبورية وما يجاورها من القرى وأسر الرجال وقتل وأكثر ، وسي النساء ، وغم الأموال ، وظفر بعشرين ألف رأس من

الماشية -. وهاجم أئناء عودته حصن حبيس جلدك ، المحجوت في الصخرة التي تطل على نهر اليرموك وراء نهر الأردن وشق فروخشاه نفقاً في الصخرة فأضحتى الحصن تحت رحمته ، ولما لم تكن حامية الحصن المؤلفة من نصارى البلاد ، حريةصة على أن تموت من أجل قضية الفرنج ، فانها بادرت الى التسلیم . وأرسل فروخشاه إلى صلاح الدين بالبشاره ، ولقيه في الطريق ، ففت ذلك في عضد الفرنج ، وانكسرت شوكتهم . وسار صلاح الدين وفروخشاه إلى دمشق ، حيث أمضى صلاح الدين فيها ثلاثة أسابيع ، لاعطاء جنده قسطاً من الراحة ، ثم سار بهم إلى طبرية - ونزل بالقرب منها ، وخيم في الأقحوانة من الأردن . فسار ملك القدس بجيشه بعد أن استدعى البطريرك والصلب المقدس ، ليبارك أسلحته وجيشه . واتجه إلى الضفة الغربية لنهر الأردن . فوجه صلاح الدين قوة بقيادة ابن أخيه فروخشاه إلى بيسان ، فدخلها قهراً ، وغنم ما فيها وقتل وسبى ، وشنَّ غارة شعواء على الغور ، فعم أهلها قتلاً وأسراً ، وجاءت العرب فأغارت على جنين واللجان وتلك الولاية حتى قاربوا عكا . ووصل جيش الفرنج بقيادة ملك القدس بدلوين إلى سفح الجبل الذي تربع عليه قلعة كوكب الهوى . فأرسل إليهم صلاح الدين الرماة ليرموا عليهم بالنشاب ، فلم يبرحوا قلماً يتحرکوا لقتال . فأمر ابني أخيه : تقى الدين عمر وعز الدين فروخشاه ، فحملوا على الفرنج فيمن معهما ، فقاتلوا قتالاً شديداً . ثم إن الفرنج انحازوا على حاميتهم . فلما رأى صلاح الدين ما قد أثخن فيهم وفي بلاذهم . عاد عنهم إلى دمشق ، ولم يتوقف فيها إلا لفترة قصيرة . وانطلق منها إلى بيروت بعد أن أمر أسطوله بمصر - بواسطة الحمام الزاجل ، بالتقدم إليها ، فنهب بلدتها وحصارها برأ وجراً عدة أيام . وكان عازماً على ملازمتها إلى أن يفتحها ، فأتاه الخبر وهو عليها بأن الفرنج قد حشدوا أسطولهم في ميناء عكا وفي ميناء بيروت ، واتجهوا إلى مياه بيروت ، فأمر أسطوله بالعود إلى مصر . ورفع الحصار عن بيروت . ولما كانت المدنة مع أمراء الشمال - الزنكيين - قد انتهت وانقضى أجلها ، فقد سار صلاح الدين بجيشه ، وتناظر أنه يريد السير إلى حلب ، ولكنه انحرف فجأة وتحرك إلى الفرات ، فغيره عند البيره ، فهوتو أمامه مدن الجزيرة : الراها وسروج ونصيبين . ثم مضى في سيره إلى الموصل ، وشرع في منازلة المدينة التي صمدت وقاومت .

وارتاع الخليفة الناصر لما حدث من صراع بين المسلمين (الزنكيين والأيوبيين) فحاول التفاوض في أمر الصلح، وتجهز شاه أرمن السلاجوقى وأمير ماردين لإرسال قوة لانقاذ الموصل، فانسحب صلاح الدين إلى سنجار ، وهاجها وفتحها بعد حصارها لمدة أسبوعين . وتتابع فتوحاته فاستولى على ديار بكر - أكبر حصون الجزيرة وأوفرها ثروة وبها أروع مكتبة في العالم الإسلامي . وأعاد تنظيم أمور الجزيرة . وأفاد الفرنج من ابعاد صلاح الدين في الشمال فساروا نحو دمشق ، ونهبوا القرى ، ووصلوا إلى قرية داريا القريبة من دمشق ، وأرادوا تخريب جامعها - ذو الشهرة الذائعة - فأرسل نائب صلاح الدين في حكم دمشق وفداً من النصارى لمقابلة ملك الفرنج - بلدوين - وابلاعه :

«إنكم إن أخبرتم الجامع جددنا عمارته، وأخرتبنا كل بيعة - كنيسة - لكم في بلادنا . ولا نكن أحداً من عمارتها» .

فترکوه . وعلم صلاح الدين بهجوم الفرنج ، فلم يرجع ، وقال :

«يخربون قرى ، ونمك عوضها بلاداً ، ونعود نعمراها ، ونقوى على قصد بلادهم» .

أفاد صاحب الكرك أرنات - رينالد شاتيون - من هذا الموقف ، وشرع في تنفيذ حلم طالما راوده ، وهو الهجوم على الديار المقدسة ، وكان قد صنع أسطولاً من السفن في الكرك ، ولم يبق إلا جمع قطعه بعضها إلى بعض ، فحملوها إلى بحر إيلة - ايلات - وجمعها في أسرع وقت ، وفرغ منها وشحنتها بالمقاتلة ، وسيراها ، فساروا في البحر وافترقوا فرقتين : فرقة قامت على حصن إيلة يحصرونها ويعذبون أهلها من ورود الماء ، فنال أهلها شدة شديدة ، وضيق عليهم ، وأما الفرقة الثانية ، فانها سارت إلى عيداب . وأفسدوا في السواحل . ونهبوا وأخذوا ما وجدوا من المراكب الإسلامية ومن فيها من التجار . وبغتوا الناس في بلادهم على حين غفلة منهم ، فلأنهم لم يعهدوا بهذا البحر فرخيأ - لا تاجرأ ولا محارباً .

وكان بمصر الملك العادل أبو بكر بن أيوب ، ينوب عن أخيه صلاح الدين ، فعمر

أسطولاً، وسيره وفيه جع كثيـر من المسلمين ومقدمـهم حسام الدين لـؤلـؤ الحـاجـب، وهو متولي الأسطول بـديـار مصر، وـكان مـظـفـراً فـيهـ، شـجـاعـاً كـريـماً. فـسـارـ حـاسـامـ الدـينـ لـؤـلـؤـ مـجـداًـ فيـ طـلـبـهـمـ، فـابـتـدـأـ بـالـذـيـنـ عـلـىـ إـيـلـةـ، فـانـقـضـ عـلـيـهـمـ اـنـقـضـاـخـ العـقـابـ عـلـىـ صـيـدـهـ، فـقـاتـلـهـمـ، فـقـتـلـ بـعـضـهـمـ، وـأـسـرـ الـبـاقـيـ. وـسـارـ مـنـ وـقـتـهـ بـعـدـ الـظـفـرـ، بـقـصـ أـثـرـ الـذـيـنـ قـصـدـواـ عـيـذـابـ، فـلـمـ يـرـهـمـ، وـكـانـواـ قـدـ أـغـارـوـاـ عـلـىـ مـاـ وـجـدـوـهـ بـهـ، وـقـتـلـوـاـ مـنـ لـقـوهـ عـنـدـهـاـ وـسـارـوـاـ إـلـىـ غـيـرـ ذـلـكـ المـرـسـىـ، لـيـفـعـلـوـاـ كـمـاـ فـعـلـوـاـ فـيـهـ.

وـكـانـواـ عـازـمـينـ عـلـىـ الدـخـولـ إـلـىـ الـحـجـازـ - مـكـةـ وـالـمـدـيـنـةـ - حـرسـهـاـ اللـهـ تـعـالـىـ، وـأـخـذـ الـحـاجـ وـمـنـعـهـمـ عـنـ الـبـيـتـ الـحـرـامـ، وـالـدـخـولـ بـعـدـ ذـلـكـ إـلـىـ الـيـمـنـ. فـلـمـ وـصـلـ لـؤـلـؤـ إـلـىـ عـيـذـابـ وـلـمـ يـرـهـمـ، سـارـ يـقـفـوـ أـثـرـهـمـ، فـلـغـ رـابـعـ وـسـاحـلـ الـجـوزـاءـ وـغـيرـهـاـ، فـأـدـرـكـهـمـ بـسـاحـلـ الـجـوزـاءـ، فـأـوـقـعـ بـهـمـ هـنـاكـ، فـلـمـ رـأـواـ الـعـطـبـ وـشـاهـدـوـاـ الـهـلاـكـ، خـرـجـوـاـ إـلـىـ الـبـرـ، وـاعـتـصـمـوـاـ بـبـعـضـ تـلـ الشـعـابـ، فـنـزـلـ لـؤـلـؤـ مـنـ مـرـاكـبـهـ إـلـيـهـمـ، وـقـاتـلـهـمـ أـشـدـ قـتـالـ، وـأـخـذـ خـيـلـاـ مـنـ الـأـعـرـابـ الـذـيـنـ هـنـاكـ، فـرـكـبـهـاـ وـقـاتـلـهـمـ فـرـسـانـاـ وـرـجـالـةـ - مـشـاةـ - فـظـفـرـ بـهـمـ وـقـتـلـ أـكـثـرـهـمـ. وـأـخـذـ الـبـاقـيـنـ أـسـرـىـ، وـأـرـسـلـ بـعـضـهـمـ إـلـىـ مـنـ لـيـنـحـرـوـاـ بـهـ - عـقوـبـةـ مـنـ رـامـ إـخـافـةـ حـرـمـ اللـهـ تـعـالـىـ وـحـرـمـ رـسـوـلـ عـلـيـهـ السـيـرـةـ، وـعـادـ بـالـبـاقـيـنـ إـلـىـ مـصـرـ فـقـتـلـوـاـ جـيـعـهـمـ.

تـبـاتـ الـأـنـبـاءـ عـلـىـ صـلـاحـ الـدـيـنـ تـحـمـلـ إـلـيـهـ الـأـخـبـارـ السـيـئـةـ، وـمـنـهـا وـفـاةـ اـبـنـ أـخـيـهـ أـمـيـرـ دـمـشـقـ (عـزـ الـدـيـنـ فـروـخـشـاـهـ) - فـيـ جـادـيـ الـأـوـلـ مـنـ السـنـةـ ذـاتـهـاـ (٥٧٨ـهـ = ١١٨٢ـمـ) فـلـمـ يـصـرـفـهـ شـيـءـ عـنـ هـدـفـهـ، وـأـعـادـ - شـمـسـ الـدـيـنـ مـحـمـدـ بـنـ الـمـقـدـمـ - إـلـىـ حـكـمـ دـمـشـقـ، وـمـضـىـ هـوـ بـجـيـشـهـ إـلـىـ آـمـدـ، وـأـمـكـنـ لـهـ الـاستـيـلاءـ عـلـيـهـاـ (فـيـ الـعـاـشـرـ مـنـ مـحـرـمـ سـنـةـ تـسـعـ وـسـبـعـ وـخـسـيـانـةـ = ١١٨٣ـمـ). وـاـسـتـولـ عـلـىـ تـلـ خـالـدـ وـعـيـنـتـابـ. وـلـمـ يـلـبـثـ أـنـ اـسـتـولـ عـلـىـ (ـحـلـبـ وـحـارـمـ) أـيـضاًـ★ـ.

وبـذـلـكـ أـصـبـحـ صـلـاحـ الـدـيـنـ حـاـكـمـاـ عـلـىـ الـبـلـادـ - مـاـ بـيـنـ بـرـقـةـ غـرـبـاـ وـنـهـرـ دـجلـةـ وـالـفـرـاتـ شـرـقاـ، وـخـضـعـتـ لـحـكـمـهـ الـمـدـنـ الـكـبـرىـ الـثـلـاثـ: الـقـاـهـرـةـ وـدـمـشـقـ

★ انظر، قـلـمةـ حـلـبـ، قـلـمةـ حـارـمـ - فـيـ الـفـصـلـ الثـانـيـ.

وحلب . ولقي صلاح الدين التأييد من الخليفة العباسى ببغداد ، وسعى سلطان السلاجقة ببلاد الأناضول (آسيا الصغرى) إلى كسب صداقته ، ولم يكن لامراء السلاجقة بالشرق من القوة ما يدفعهم إلى مقاومته . ولم تعد الامبراطورية البيزنطية مصدر خطر له . ولم يتبق له سوى أن يقهر الدخلاء - الفرنج الصليبيين - الذين صاروا وصمة عار في جبين الإسلام ، بتملكهم فلسطين وساحل بلاد الشام .

وقعت خلال هذه السنة معركتان كان فيها الظفر لل المسلمين ، فقد خرج اسطول المسلمين من مصر ، وأوغل في البحر ، فلقوا سفينتين عليها ثلاثة من الفرنج بالسلاح التام ومعهم الأموال والسلاح إلى فرنج الساحل ، فقاتلواهم ، وصبر الفريقان . وكان الظفر للMuslimين ، وأخذوا الفرنج أسرى فقتلوا بعضهم ، واحتفظوا ببعضهم أسرى وغنموا ما معهم ، وعادوا إلى مصر سالمين . وحدث أيضاً أن سارت مجموعة كبيرة من مقاتلي الفرنج من نواحي الدارويم وهدفهم الوصول إلى مصر للإغارة والنهب ، فعلم بهم المسلمين ، فخرجوإليهم على طريق صدر وإيلة ، فانتزع الفرنج من بين أيديهم ، ونزلوا بماء يقال له - العسيلة - وسبقوا المسلمين إليه . فأثأهم المسلمون وهم عطاش قد أشرفوا على الملائكة ، فرأوا الفرنج قد ملكوا الماء ، فأنشأ الله سبحانه وتعالى بلطشه سحابة عظيمة ، فمطروا منها حتى رعوا . وكان الزمان قيظاً والحر شديد في بر مهلك ، فلما رأوا ذلك قويت نفوسهم ووثقوا بنصر الله لهم ، وقاتلوا الفرنج ، فنصرهم الله عليهم ، فقتلواهم ولم يسلم منهم إلا الشريد الفريد ، وغنم المسلمون ما معهم من سلاح ودواب ، وعادوا منصورين قاهرين بفضل الله تعالى .

ما إن فرغ صلاح الدين من أمر حلب ، حتى جعل فيها ولده الملك الظاهر غازي - وهو صبي - وجعل معه الأمير سيف الدين يازكج ، وكان أكبر الأمراء عنده ، وسار إلى دمشق ومعه جند الشام والجزيرة وديار بكر ، ثم سار إلى الفرنج فعبر نهر الأردن (يوم ٩ جادى الآخرة ٥٧٩ هـ = ١١٨٣ م) فرأى أهل تلك النواحي قد فارقوها خوفاً ، فقصد بيisan فأحرقها وخر بها ، وأغار على ما هناك ، فاجتمع الفرنج ، وأقاموا معسكراً في مواجهته ، فحين رأوا كثرة جنده لم يقدموا عليه ، فأقام عليهم

بالسهام وتناوشهم القتال، فلم يخرجوا، وأقاموا على ذلك خمسة أيام. ثم عاد المسلمون عنهم على أمل إغراء الفرنج بالخروج للقتال واستدراجهم. فلما رأى الفرنج انسحاب المسلمين، لم يطمعوا في الوصول إليهم. ورجع صلاح الدين بجيشه إلى دمشق، حيث منع جنده فترة قصيرة للراحة، وللاستعداد وكتب إلى أخيه العادل أبي بكر بن أيوب - وهو نائبه بمصر - يأمره بالخروج بجميع جنده إلى الكرك، وسار هو بجنه إلى الكرك، وكثُر جمه، وتمكن من حصره.

كانت الكرك يومها تختلف بعقد قران الأميرة إيزابيلا التي بلغت وقتذاك الحادية عشرة من عمرها، على هموري سيد تبين الذي كان يناهز سبع عشرة سنة من العمر. وعزم رينالد شاتيون على أن يهيء كل ما يستطيع من مظاهر الفخامة والأبهة للاحتفال بالعرس في قلعته بالكرك، والتي تعتبر العروس وريثة لها. فأخذت الضيوف تتواجد على القلعة. ومع أن عدداً كبيراً من هؤلاء الضيوف - مثل ملكة القدس ماريا كومينيا والدة العروس - كانوا أعداء شخصيين لرينالد شاتيون، فإنهم قدموا لحضور العرس على أمل بذل محاولة أخيرة لرأب الصدع بين أمراء الفرنج وقادتهم - مقدميهم - وتبع هؤلاء الضيوف أرباب الملاهي من الراقصات والحواء والموسيقيين من سائر إمارات الفرنج الصليبيين في بلاد الشام. غير أن هذه الاحتفالات عطلها فجأة ما ورد من أنباء مزعجة عن اقتراب صلاح الدين بجيشه من الكرك.

لقد أصبح تدمير الكرك وقائدها الجائد هو الهدف الأول في مخططات صلاح الدين. إذ طالما بقي الحصن الصخم في يد رينالد شاتيون، فإن باستطاعته اعتراض الطريق الذي تسلكه القوافل التجارية ما بين الشام ومصر. ويظهر أن الفرنج الصليبيين كانوا يتوقعون هجوم المسلمين، وهذا فعندما وصل جيش صلاح الدين ولحق به جيش أخيه العادل الذي قدم من مصر، أسرع الفلاحون والرعاة من المسيحيين السوريين فاقتادوا أغنامهم ومواشיהם ودخلوا بها إلى المدينة، ولاذ عدد كبير منهم ببناء القلعة. فبادر صلاح الدين على الفور إلى مهاجمة المدينة السفلى، وشق لنفسه منفذًا إليها. ولم يستطع رينالد شاتيون أن يفلت إلى القلعة إلا بفضل بطولة أحد فرسانه الذي ظل يقاتل بمفرده للدفاع عن الجسر القائم على الخندق الذي يفصل بين المدينة السفلى

والقلعة ، حتى تم تدمير ما يقع من الجسر وراء ظهره . وأمر صلاح الدين بنصب المنجنيقات على ربه . واشتد القتال ، فملك المسلمين الريض ، وبقي الحصن وهو والريض على سطح جبل واحد ، إلا أن بينهما خندقاً عظيماً عمقه نحو ستين ذراعاً . فأمر صلاح الدين بإلقاء الأحجار والتراب فيه ليطمه - يردهم - ولكن أحداً لم يتمكن من الاقتراب منه لكثره الرمي عليهم بالسهام والأحجار من المنجنيقات ، فأمر أن يبني بالأخشاب والبن ما يمكن الرجال من السير تحت السقائف لالقاء ما يردم الخندق ، فيما كانت المنجنيقات التسعة لل المسلمين تتبع الرمي باستمرار - في الليل والنهار - .

وأثناء ذلك ، استمرت احتفالات العرس تجري بداخل القلعة ، ولم ينقطع الرقص ولا الغناء ، وأعدت والدة العريس ستيفاني أطباقاً من طعام العرس وبعثت بها إلى صلاح الدين ، الذي أرسل مقابل ذلك يسأل عن أي الأبراج ينزل بها العروسان . وأصدر أمره بألا يتعرض هذا البرج للقذف من أدوات الحصار . وفيما عدا ذلك لم يخفف جهوده .

وأرسل الفرنج المحصورين بالكرك إلى الملك بدلوين بالقدس يستمدونه ويطلبون منه المعونة العاجلة ، ويعزفونه عجزهم عن حفظ القلعة ، وما هم به من ضعف ، فاستدعى بدلوين الجيش الملكي ، وأسند قيادته إلى كونت طرابلس ريموند ، وأصر على أن يحمل على محفظة كما يبقى مع رجاله - إذ كان وقتها مريضاً للغاية - وأسرع الفرنج - فارسهم وراجلهم - بالمبوط متتجاوزين أريحا ، ثم ارتفوا جبل النبي★ . ولما علم صلاح الدين بمسيرهم رحل عن الكرك إلى طريقهم ليلاقهم ويشتبك معهم ويعود بعد أن يهزهم إلى الكرك . فقرب منهم ، وخيم ونزل ، ولم يكن الدنو منهم لخشونة الأرض وصعوبة المسلك إليهم وضيقه ، وأقام ينتظر خروجهم من ذلك المكان ليتمكن منهم ، فلم يربحوا منه خوفاً على نفوسهم . فلما رأى ذلك رحل عنهم عدة فراسخ . وجعل بإزائهم من يعلمهم بمسيرهم . فساروا ليلاً إلى الكرك . فلما علم صلاح الدين ذلك

★ جبل النبي : هو الجبل الذي يقع على بعد اثنى عشر ميلاً من مصب نهر الأردن ، وتشير الروايات إلى أن النبي موسى عليه السلام قد توفي على هذا الجبل .

وقد استندوا إلى جبل هناك وخدقوا عليهم. فأحاط بهم، وجنده المسلمين ترميمهم علم أنه لا يمكن حينئذ منهم، ولا يبلغ غرضه، فسار إلى مدينة نابلس، ونهب كل ما على طريقه من البلاد، فلما وصل إلى نابلس أحرقها وخرّبها وقتل فيها وأسر ونبي وأكثر.

توجه صلاح الدين من جديد لمنازلة حصن الكرك في صيف السنة التالية (٥٨٠ هـ = ١١٨٤ م). والخاز إلى جيشه كتائب بعث بها الأمراء الأراثقة، غير أن الاستحكامات الضخمة للكرك صمدت للحصار. ولم يتمكن صلاح الدين من إغراء الفرنج بالخروج للقتال على المنحدرات أسفل المدينة. وأدرك صلاح الدين أن الوقت لم يحن بعد للتخلص من المسيحيين، فعاد إلى دمشق، بعد أن ترك قوة للإغارة على الجليل، ولتمضي في نهب البلاد الواقعة إلى الجنوب حتى نابلس.

أدرك الفرنج الصليبيون ما حدث من تحولات في غير مصلحتهم، بسبب تماسك الجبهة الإسلامية مقابل تمزق الجبهة الداخلية للفرنج الصليبيين، وتزايد الصراعات بين الأمراء والبارونات، مع استنزاف قدرة الفرنج في الحروب المستمرة، فتم تشكيل وفد للذهاب إلى أوروبا من أجل استئثار القوى وتوجيه حملة صليبية جديدة، وضم الوفد بطريق القدس - هرقل - ومقدما طائفتي فرسان الداوية والاسبتارية. واستقبل امبراطور الغرب - فريديريك الأول - وملك فرنسا هنري الثاني الوفد بكل مظاهر الحفاوة والتشريف. وعندما قدم هذا الوفد بياناً بما ينتظر الإمارات الصليبية في الشام من الأخطار، وما تتعرض له من التهديدات، التمس عاهلاً الغرب الاعذار التي تمنعها من الاشتراك في الحملة التي لم تتمكن من حشد سوى عدد قليل من الفرسان.

واجتمع كل أمراء الفرنج وقادتهم في القدس (سنة إحدى وثمانين وخمسة - أيار - مايو - ١١٨٥) بمناسبة موت ملك القدس بلدوبين وتنصيب جاي لوزنجيان ملكاً جديداً. وتبين للجميع أنه ما لم تقدم حملة صليبية ضخمة، فليس بوسع مملكة تقاد تهلك جوعاً أن تواجه الحرب. فوافقوا على اقتراح كونت طرابلس - ريموند - بأن يتlossenوا من صلاح الدين عقد هدنة لمدة أربع

سنوات . ووْجَد صلاح الدين أَنْ مِنْ مُصْلِحَةِ الْمُسْلِمِينَ عَقْدٌ مِثْلُ هَذِهِ الْمَدْنَةِ فِي تَلْكُ الْفَتْرَةِ . فَوَافَقَ عَلَيْهَا . وَتَقْرَرَ مِنْ جَدِيدٍ اسْتِئْنَافُ التِّجَارَةِ بَيْنَ إِمَارَاتِ الْفَرْنَجِ وَمَا يَجَاوِرُهَا مِنْ بَلَادِ الْمُسْلِمِينَ ، وَمَا تَدْفَقَ مِنَ الْقَمْحِ مِنْ بَلَادِ الْمُسْلِمِينَ هُوَ الَّذِي أَنْقَذَ الْفَرْنَجَ الصَّلَبِيِّينَ مِنَ الْهَلَكَةِ جَوْعًا .

أَفَادَ صَلَاحُ الدِّينِ مِنَ الْمَدْنَةِ لِتِسْوِيَّةِ بَعْضِ أَمْوَارِ جَبَهَتِهِ الدَّاخِلِيَّةِ ، فَتَوَجَّهَ إِلَى حَلْبَ ، وَمِنْهَا الْمُوَصْلَ . لَكِنَّهُ عِنْدَمَا وَصَلَ إِلَى (حَرَانَ) أَصَابَهُ مَرْضٌ شَدِيدٌ ، حَتَّى أَيْسَ أَهْلَهُ مِنْ عَافِيَّتِهِ ، فَحَلَّفَ النَّاسُ لِأَوْلَادِهِ ، وَجَعَلَ لِكُلِّ مِنْهُمْ شَيْئاً مِنَ الْبَلَادِ مَعْلُوماً . وَجَعَلَ أَخَاهُ الْمَلَكَ الْعَادِلَ وَصِيَّاً عَلَى الْجَمِيعِ ، ثُمَّ إِنَّهُ عَوَّفَ عَوَّفِي وَعَادَ إِلَى دَمْشَقَ بَعْدَ أَنْ مَلَكَ مِيَافَارِقَيْنِ . وَشَعَرَ صَلَاحُ الدِّينِ خَلَالَ مَرْحَلَةِ مَرْضِهِ ، وَبَعْدَ أَنْ عَوَّفَ ، بِالْحَاجَةِ لِإِعَادَةِ تَنْضِيمِ مُلْكِتَهُ فَنَقَلَ أَخَاهُ الْمَلَكَ الْعَادِلَ مِنْ حَلْبَ إِلَى مَصْرَ - وَمَعَهُ الْمَلَكُ الْعَزِيزُ ، وَنَقَلَ أَخَاهُ الْأَفْضَلَ مِنْ مَصْرَ إِلَى دَمْشَقَ .

عَادَ بَعْضُ الرَّحَاءِ إِلَى فَلَسْطِينَ بِفَضْلِ الْمَدْنَةِ الَّتِي انْعَقَدَتْ بَيْنَ الْفَرْنَجِ وَبَيْنِ الْمُسْلِمِينَ ، إِذْ نَشَطَتْ مِنْ جَدِيدٍ التِّجَارَةُ بَيْنَ دَاخِلِ الْبَلَادِ وَبَيْنَ مَيَانِيَّ عَكَّا وَصُورَ . وَظَهَرَ أَنَّ الْمَنْطَقَةَ مُقْبَلَةٌ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الْمَدْوَءِ ، عِنْدَمَا تَلَبَّدَتِ السَّحْبُ الْقَادِمَةُ مِنْ سَيَّاءِ إِمَارَاتِ الْفَرْنَجِ .

لَقَدْ كَانَ مِنَ الْمَعْرُوفِ - لِلْمُسْلِمِينَ - مَا كَانَ بَيْنَ الْفَرْنَجِ مِنْ صَرَاعَاتٍ وَمَنَافِسَاتٍ زَادَ مِنْ حَدَّتِهَا مَا بَرَعَ بِهِ بَطْرِيرُكُ الْقَدْسِ - هَرْقُلُ - وَمَلْكَةُ الْقَدْسِ سَبِيلَلَا مِنْ حَبَّ الْمُؤَامِرَاتِ وَالَّتِي أَدَتَتْ إِلَى دُفَعِ كُونْتِ طَرَابِلسِ - رِيمُونْدَ - لِلتَّحَالُفِ مَعَ صَلَاحِ الدِّينِ (سَنَةُ ٥٨٢ هـ = ١١٨٦ م أيَّضاً) . وَقَدْ وَرَدَتْ قَصْةُ هَذَا التَّحَالُفِ فِي الْمَصَادِرِ الْعَرَبِيَّةِ كَمَا يَلِي :

« كَانَ الْقَمْصَ صَاحِبُ طَرَابِلسِ - وَاسْمُهُ رِيمِندُ بْنُ رِيمِندِ الصَّنْجِيلِيِّ - قَدْ تَزَوَّجَ بِالْقَوْمِصَةِ صَاحِبَةِ طَبْرِيَّةٍ . وَانْتَقَلَ إِلَيْهَا ، وَأَقَامَ عِنْدَهَا بَطْرِيرِيَّةً . وَمَاتَ مَلِكُ الْفَرْنَجِ بِالشَّامِ ، وَكَانَ مَجْدُوماً ، وَأَوْصَى بِالْمَلِكِ إِلَى ابْنِ أَخْتِهِ لَهُ . وَكَانَ صَغِيرًا ، فَكَفَلَهُ الْقَمْصَ رِيمِندُ ، وَقَامَ بِسِيَاسَةِ الْمَلِكِ وَتَدْبِيرِهِ ، لَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِلْفَرْنَجِ ذَلِكَ الْوَقْتُ أَكْبَرُ مِنْهُ شَأْنًا وَلَا

أشجع ولا أجود رأياً منه ، فطمع في الملك بسبب هذا الصغير ، فاتفق أن الصغير ، فانتقل الملك إلى أمه - سبيلا - فبطل ما كان القمح يحدث نفسه به . ثم إن هذه الملكة هي رجل من الفرنج الذين قدموا الشام اسمه كي - جاي - فتزوجته ونقلت الملك إليه ، ووضعت التاج على رأسه . وأحضرت البطرك - هرقل الذي كان عشيق أمها - والقسوس ومقدمي الاستبارية والداوية والبارونية ، وأعلمتهم أنها قد ردت الملك إليه ، وأشهدتهم عليها بذلك ، فأطاعوه ودانوا له ، فعظم ذلك على القمح - ريموند - وسقط في يديه ، وطلب بمحاسب ما جبى من الأموال مدة ولاية الصبي ، فادعى أنه أنفقه عليه . وزاده ذلك نفوراً . وجاهر بالمشاققة والمبينة . وراسل صلاح الدين وانتهى إليه واعتضد به ، وطلب منه المساعدة على بلوغ غرضه من الفرنج . ففرح صلاح الدين والمسلمون بذلك ، ووعده النصرة والسعى له في كل ما يريد . وضمن له أنه يجعله ملكاً مستقلاً للفرنج قاطبة . وكان عنده جماعة من الأسرى من فرسان القمح ، فأطلقهم ، فحل ذلك عندهم أعظم محنة . وأظهر طاعة صلاح الدين ، ووافقه على خطأ ما فعل جماعة من الفرنج ، فاختلت كلامتهم ، وتفرق شملهم ».

كان من الأفضل للفرنج ، في مثل ما كانت عليه حالم ، أن يتزموا بشروط المدنية التي عقدوها مع المسلمين . وهي المدنية التي ضمنت حماية القوافل التجارية بالتنقل بحرية وأمن ما بين القاهرة ودمشق . ولكن حدث في نهاية سنة ٥٨٢ هـ = ١١٨٦ م أن ارتحلت قافلة ضخمة من القاهرة تحت حراسة قوة صغيرة من جند مصر - لحمايتها من إغارات البدو - وبينما كانت تتجه إلى مؤاب ، انقض عليها رينالد شاتيون بصورة مباغطة ، فقتل جند الحراسة ، وحل إلى قلعته بالكرك التجار وعائلاتهم وما في حوزتهم من الأمتنة . وتجاوزت الغنيمة في الضخامة كل ما سبق أن حازه . وأظهر صلاح الدين حرصه على مراعاة شروط المدنية عندما بلغته أنباء الاعتداء على القافلة . وأرسل إلى رينالد شاتيون طلباً لاطلاق سراح جميع الأسرى ، وتقدم تعويض عن خسائرهم . ولكن رينالد شاتيون رفض استقبال رسول صلاح الدين . فتوجهوا إلى القدس ، ورفعوا شكاهم واحتجاجهم إلى الملك جاي .

واستمع جاي للشكوى ، وأمر رينالد شاتيون بأداء التعويضات ، غير أن رينالد لم

يُحفل بأمر الملك ، لما يعلمه بأن الملك جاي يدين إلى مساندته في اعتلاء العرش والاحتفاظ به . ولم يكن بوسع جاي أن يفرض على رينالد شاتيون أن يطيعه . فنذر صلاح الدين نذراً أن يقتله إن ظفر به - وكان هذا النذر هو النذر الثاني ، إذ سبق لصلاح الدين أن أقسم على قتل رينالد شاتيون إن أظفره الله به ، يوم قام بالعدوان على الأماكن المقدسة .

أصبح وقوع الحرب أمراً لا مفر منه بعد أن تم انتهاء المدنة بمثل هذه الصورة الواقعة . فأسرع كونت طرابلس - ريموند - لعقد هدنة مع صلاح الدين شملت إمارة زوجته بالجليل ، وذلك على الرغم من أن السيادة على الجليل كانت تابعة لملك القدس جاي - . كما أسرع أمير انطاكيه بوهمند إلى تجديد المدنة مع صلاح الدين . وأنثاء ذلك ، كان صلاح الدين قد كتب إلى جميع البلاد يستنفر الناس للجهاد . وكتب إلى الموصل وديار الجزيرة وإربيل وغيرها من بلاد الشرق ، وإلى مصر وسائر بلاد الشام يدعوهم إلى الجهاد ، ويحثّهم عليه ، ويأمرهم بالتجهز له بغاية الإمكان . ثم خرج من دمشق - أواخر المحرم سنة ٥٨٣ هـ = ١١٨٧ م . وسار إلى رأس الماء ، وتلاحتت به القوات من بلاد الشام . فعين لقيادتهم ولده الملك الأفضل ، وسار هو في قوة خفيفة من الفرسان ، إلى بصرى ، حيث توافرت له المعلومات أن صاحب الكرك - رينالد شاتيون - يريد الهجوم على قافلة الحجاج المسلمين لأخذها ، ثم لينتقل بعد ذلك لمهاجمة القوات القادمة من مصر لمنعها من الالتحاق بصلاح الدين . وكان في الحجاج جماعة من أقاربه - منهم ابن أخت صلاح الدين ، محمد بن لاجين - . فلما علم رينالد باقتراب صلاح الدين من الكرك ، لم يفارق بلده ، وانقطع عما طمع فيه ، فوصل الحجاج سالمين . وبث سرایاهم عندها إلى ناحيتي الكرك والشوبك وغيرها ، فنهبوا وخربوا وأحرقوا ، والبرنس رينالد محصور لا يقدر على المنع عن بلده . ولزم سائر الفرنج طرق بلادهم خوفاً من جيش الأفضل من جهة ، ومن جيش صلاح الدين من جهة ثانية .

لم يكن باستطاعة صلاح الدين أن يطمئن إلى تحالفه مع كونت طرابلس - ريموند - ما لم يضع هذا التحالف موضع الاختبار . ولهذا أصدر أمراً إلى ابنه

الأفضل بتوجيه قوة استطلاعية إلى بلد عكا - ينهبونه ويخربونه - وجهز الأفضل قوة من الفرسان أنسد قيادتها إلى صاحب حران والرها - مظفر الدين كوكبى بن زين الدين - وأضاف إليه قايماز النجمي ودلام الياقوتى وهما من أكابر الأمراء وغيرهما. ولما كان لا بد لهذه القوة من اجتياز أراضي الكونت ريموند في الجليل. فقد جرى إخطاره واستئذانه . ولم يكن بوسع الكونت ريموند رفض هذا الطلب المثير للحرج والخيرة . وكل ما اشترطه ريموند ، هو أن تجتاز قوة المسلمين أراضيه قبل شروع الشمس ، وأن تعود من إغاراتها قبل حلول الظلام ، وينبغي ألا تلحق القوة أضراراً بأى مدينة أو قرية في البلاد التي يجتازونها والتي تتبع إمارته . كما أرسل مبعوثين من قبله للطواف باقطاعه ، والطلب إلى السكان بالبقاء طوال اليوم مع قطاعتهم داخل الأسوار ، وألا يتطرق إليهم الخوف . وشاهد ريموند من قلعته في الصباح المبكر من أواخر صفر (الأول من أيار - مايو) . الأمير مظفر الدين كوكبى على رأس سبعة آلاف فارس وهم يجتازون القلعة فرحين مبهجين . وما إن وصلت هذه القوة إلى عيون كريsson - مابين صفورية وكفركنا - حتى بواغتوا بهجوم قوة فرسان الداوية والسبتارية مع قوات أخرى من فرسان الفرنج . وتصدى المسلمين للهجوم . ودارت معركة تشيب لها المفارق السود . ثم أنزل الله تعالى نصره على المسلمين ، فانهزم الفرنج وتحولت هزيمتهم إلى مذلة قتل فيها معظم الفرنج ، وأسر الباكون - وفيمن قتل مقدم الاستبارية روجر - ومارشال الداوية - جيمس مايللي -. وكانوا من فرسان الفرنج المشهورين ولهم النكبات العظيمة في المسلمين ، ونهب المسلمين ما جاورهم من البلاد وغنموا وسبوا . وشهد ريموند قوة المسلمين وقد عادت في المساء عن طريق طبرية - وقد رفع فرسان المقدمة على اسنة رماحهم رؤوس فرسان الداوية ، وعادوا إلى قواعدهم قبل حلول الظلام ، دون أن يلحقوا ضرراً بأي بناء في الأقلم . وابتھج المسلمين لهذا النصر العظيم على فرسان الداوية والسبتارية - الذين كانوا جرة الفرنج - وسیرت البشائر إلى البلاد بذلك . ومقابل ذلك ، اهتز الفرنج بعنف لهذه الهزيمة التي نزلت بأفضل فرسانهم . وبعث ملك القدس - جاي - إلى كونت طرابلس ريموند ، البطرک والقسوس والرهبان وكثيراً من الفرسان ، فأنكروا عليه انتهاءه إلى

صلاح الدين . وقالوا له : « إنك لا شك قد أسلمت ، وإلا لم تصر على فعل المسلمين أمس بالفرنج ، يقتلون الداوية والاستبارية ، ويأسرونهم ، ويحتجازون بهم عليك ، وأنت لا تنكر ذلك ولا تجتمع عنه ». ووافقهم على ذلك من عند ريموند من جند طبرية وطرابلس ، وتهدهد البطريرك بالحرمان ، وأن يفسخ عليه نكاح زوجته ، إلى غير ذلك من التهديد . فلما رأى الكونت شدة الأمر عليه ، خاف واعتذر ، وتنصل وتاب ، فقبلوا عذرها ، وغفروا لها زلتة ، وطلبو منه الموافقة على حرب المسلمين والمؤازرة على حفظ بلادهم . فأججاهم إلى المصالحة والانضمام إليهم ، والاجتماع بهم . وسار معهم إلى ملك الفرنج - في القدس - واجتمعت كلمتهم بعد فرقتهم . وإذا تأثر أمير انطاكية بوهمند بما حدث ، فقد نكث بدوره اتفاقه مع صلاح الدين على المهدنة . ووعد بارسال كتيبة من قواته . وأرسل ابنه ريموند ليلحق بكونت طرابلس ريموند - الذي كان عراباً له عند التنصير - . وبدأ الفرنج بمحشد فارسهم ورجالهم في عكا ، بحيث لم ينقص شهر حزيران - يونيو - سنة ١١٨٧ م حتى اجتمع بالمعسكر الصليبي الذي أقيم أمام عكا ، ألف ومائتا فارس بكامل أسلحتهم ، وما يزيد على هذا العدد من الخيالة الوطنيين المتخفيين المعروفيين باسم - التركوبية - ونحو عشرة آلاف من المشاة - الرجالة - . وتقررت دعوة البطريرك هرقل للقدوم بالصلب المقدس ، غير أنه قال بأنه معتل الصحة . وعهد بالأثر المقدس إلى مقدم كنيسة القيامة - القيامة - كيما يسلمه إلى أسقف عكا . على أن أعداءه رووا أنه آثر البقاء مع عشيقته باشيا .

١١ - يوم حطين .

ما إن تلقى صلاح الدين البشرة بهزيمة الاستبارية والداوية حتى عاد عن الكرك ، إلى المعسكر الذي أقامه في بانياس – بقيادة ابنه الأفضل . والذي التحق به سائر الأمراء وجندهم . فاستعرض القوات التي بلغت عدتها اثني عشر ألف فارس من له الأقطاع والجامكية – الراتب – سوى المتطوعة ، فنظم هذه القوات ، وتولى بنفسه قيادة قلب الجيش ، وأسند قيادة المجنبة اليمنى لابن أخيه تقى الدين عمر ، وأسند قيادة المجنبة اليسرى للأمير مظفر الدين كوكبri زين الدين ، كما نظم المقدمات والطلائع المؤخرة . وعرف كل منهم موضعه و موقفه وأمره بملازمته ، وسار من بانياس بتنظيم القتال إلى خسفين ، ومنها توجه إلى الأقحوانه – عند الطرف الجنوبي لبحر الجليل ، ودفع كشافته واستطلاعه إلى الأرجاء لجمع كل ما يتعلق بأخبار قوات الفرنج الصليبيين . وعلم صلاح الدين بأن جيش الفرنج قد تحرك من عكا ، وأنه نزل بصفورية فجمع أمراءه واستشارهم ، فأشار أكثرهم عليه بترك اللقاء – تجنب المعركة – وأن يعمل على إضعاف الفرنج واستنزاف قوتهم بشن الغارات وإخراجه الولايات مرة بعد مرة . وقال له بعض أمرائه : « الرأي عندي أن نجوس بلادهم ، ونهب ونخرب ونحرق ونسبي . فإن وقف أحد من عسكر الفرنج بين أيدينا لقيناه فإن الناس بالشرق يلعنوننا ويقولون ترك قتال الكفار ، وأقبل يريد قتال المسلمين . والرأي أن نفعل فعلاً نعذر فيه ونكف الألسنة عنا ». فقال صلاح الدين :

« الرأي عندي أن نلقى بجمع المسلمين جمع الكفار . فإن الأمور لا تخرب بحكم الإنسان . ولا نعلم قدر البالي من أعمارنا . ولا ينبغي أن نفرق هذا الجمع إلا بعد الجهد بالجهاد » .

ثم رحل من الأقحوانة اليوم الخامس من نزوله بها (وهو يوم الخميس لسبع بقين

من ربيع الآخر = ٢ تموز - يوليو). فسار حتى خلف طبرية وراء ظهره، وصعد جبلها، وتقدم حتى قارب الفرنج، فلم يرَ منهم أحداً، ولا فارقا خيامهم. فنزل وأمر الجندي بالنزول، فلما جنه الليل، جعل في مقابل الفرنج من يمنعهم من القتال. ونزل في قوة من الفرسان إلى طبرية، وقاتلها، ونقب بعض أبراجها، وأخذ المدينة عنوة في ليله. ولجا من بها إلى القلعة التي لها، فامتنعوا بها، وفيها صاحبتها - الكونتيسة ايشيفا زوجة الكونت ريموند - ومعها أولادها، فنهب المدينة وأحرقها. فلما علم الفرنج بذلك اجتمعوا للمشاورة، فأشار بعضهم بالتقدم إلى المسلمين وقتالهم ومنعهم عن طبرية. فقال لهم الكونت ريموند :

«إن طبرية لي ولزوجتي. وقد فعل صلاح الدين بالمدينة ما فعل، وبقي القلعة وفيها زوجتي. وقد رضيت أن يأخذ القلعة وزوجتي وما لنا بها، ويعود. فوالله لقد رأيت عساكر الإسلام قدماً وحديثاً، ما رأيت مثل هذا العسكر الذي مع صلاح الدين كثرة وقوة. وإنه إن أخذ طبرية فإنه لا يمكنه المقام بها، فمكى فارقها وعاد عنها أخذناها. وإن هو أقام بها، فإنه لا يقدر على المقام إلا جمع عساكره، ولا يقدرون على الصبر طول الزمان وهم بعيدين عن أوطائهم وأهليهم، فيضطر إلى تركها. ونفتكم من أسرنا».

رد رينالد شاتيون - أرنات - على حجة الكونت ريموند المنطقية والمقنعة بقوله: «قد أطلت في التخويف من المسلمين، ولا شك أنك تريدهم وتميل إليهم، وإلا ما كنت تقول هذا، وأما قولك إنهم كثيرون، فإن النار لا يضرها كثرة الخطب».

فما كان من الكونت ريموند إلا أن قال:
أنا واحد منكم؛ إن تقدمت تقدمت، وإن تأخرت تأخرت، وسترون ما يكون».

فقوى عزمهم على التقدم إلى المسلمين وقتالهم. فرحلوا عن معسكرهم الذي لزموه - في صفورية - وقربوا من عساكر الإسلام. فلما علم صلاح الدين بذلك عاد عن

طبرية إلى معسكره وكان قريباً منه، وقد أدرك أنه حق هدفه، إذ كان قصده من محاصرة طبرية أن يفارق الفرنج معسكرهم الذي يتوافر فيه الماء والطعام، وأن يقودهم إلى ميدان المعركة الذي اختاره لقتالهم. وكان المسلمون قد نزلوا على الماء الذي كان هو الأكثر أهمية بالنسبة للمقاتلين - وخيولهم - في حر الصيف اللاهب. فوجد الفرنج العطش ولم يتمكنا من الوصول إلى ذلك الماء. وكانوا قد دمروا صهاريج المياه. ولم يتمكنا من الرجوع خوفاً من المسلمين، فبقاء على حالي الغد - وهو يوم السبت - وقد أخذ العطش منهم. وأما المسلمون فإنهم طمعوا فيهم، وكانوا من قبل يخافونهم، فباتوا يحرض بعضهم بعضاً وقد وجدوا ريح النصر والظفر. وكلما رأوا حال الفرنج خلاف عادتهم مما ركبهم من الخذلان، زاد طمعهم وجراحتهم، فأكثروا التكبير والتهليل طول لياليهم. ونظم صلاح الدين الحراسة تلك الليلة، وأفاد من الظلمة لنشر قواته على التلال المجاورة، وبات معسكر الفرنج مطوقاً من كل جهة؛ حتى لم يعد باستطاعة أحد الخروج من الفخ.

أصبح صلاح الدين والمسلمون يوم السبت خمس بقين من ربيع الآخر سنة ثلاث وثمانين وخمسين (الرابع من تموز - يوليو ١١٨٧ م) وقد أخذوا أهابتهم للحرب، وتقادوا بتنظيم القتال إلى جيش الفرنج.

ودنا بعضهم من بعض. فاقتتلوا واشتد القتال، وصبر الفريقان، ورمى رماة المسلمين من النشاب ما كان كالجبراد المنتشر، فقتلوا من خيول الفرنج كثيراً. واندفعت قوة من فرسان الفرنج ومشاهم وهي ت يريد الوصول إلى طبرية على أمل ورود الماء. فلما عرف صلاح الدين هدفهم، صدّهم عن مرادهم، ووقف وجنته في مواجهتهم، وطاف على المسلمين يحرضهم ويأمرهم بما يصلحهم، وينهاهم عما يضرهم، والناس يأثرون لقوله، ويقفون عند نهيه. وحل ملوك من مماليكه الصبيان حلة منكرة على صف الفرنج، فقاتل قتالاً عجب منه الناس. ثم تكاثر الفرنج عليه فقتلوه. فحين قتل حل المسلمين حلة منكرة ضعوا الكفار وقتلوا منهم كثيراً. فلما رأى كونت طرابلس ريونند شدة الأمر، علم أنهم لا طاقة لهم بال المسلمين، فاتفق هو وجماعة على الخروج من المعركة، وحملوا على من يليهم. وكان المقدم من المسلمين في تلك الناحية

تقي الدين عمر ، فلما رأى حلة الفرنج ، أمر جنده ب afsaq المجال لهم للخروج من المعركة ، ثم عاد فأقفل الطريق أو الثغرة ، واتخذ ريموند وأصحابه طريقهم إلى طرابلس .

كان بعض المتطوعة قد ألقى في تلك الأرض ناراً ، فاحتراق الحشيش الذي كان كثيراً ، وهبت الرياح فحملت حرّ النار والدخان . واجتمع على الفرنج العطش وحرّ الزمان وحرّ النار وحرّ القتال . وزاد من بؤسهم هرب الكونت ريموند حتى كادوا يستسلمون . ولم يلبث باليان إبليين ورينالد سيد صيدا أن شقاً لها بعد فترة قصيرة طريقاً إلى خارج ميدان المعركة ، فكانا آخر من هرب . ولم يعد عند الصليبيين بارقة أمل ، ومع ذلك ظلوا يقاتلون أثناء انسحابهم إلى قمتي التل المعروفتين بقرني حطين ، حيث تقرر نقل خيمة الملك جاي - الحمراء اللون - ونصبها بأعلى القمة ، والتلف الفرسان حوله وقد علموا أنه لا ينجيهم من الموت إلا الاقدام عليه . فحملوا حلات متداركة كادوا يزيلون المسلمين على كثرتهم عن مواقعهم ، لولا لطف الله بهم . إلا أن الفرنج لا يحملون حلة فيرجعون إلا وقد قتل منهم ، فوهنا لذلك وهناً عظياً . وأحاط بهم المسلمون إحاطة الدائرة بقطارها . فارتفع من بقي من الفرنج إلى تل بناحية حطين - عند قرني حطين - وحاولوا أن ينصبوا خيامهم ، ويحموا نفوسهم بها ، فاشتد القتال عليهم من سائر الجهات ، ومنعوهم عمّا أرادوا ، ولم يتمكنوا من نصب خيمة غير خيمة ملكهم لا غير . وأخذ المسلمين صليبيهم الأعظم الذي يسمونه - صليب الصليبيوت ، ويزعمون أن فيه قطعة من الخشبة التي صلب عليها المسيح عليه السلام ، فكان أخذه عندهم من أعظم المصائب عليهم ، وأيقنوا بعده بالقتل والهلاك ، هذا والقتل والأسر يعملان في فرسائهم ورجالتهم - مشاتهم - . فبقي الملك على التل في مقدار مائة وخمسين فارساً من الفرسان المشهورين والشجعان المذكورين .

وحكي الملك الأفضل ولد صلاح الدين قصة الفصل الأخير من المعركة - كما شهدتها - فقال : « كنت إلى جانب أبي في ذلك المضاف ، وهو أول مضاف شاهدته ، فلما صار ملك الفرنج على التل في تلك الجماعة ، حلوا حلة منكرة على من بإذائهم من المسلمين حتى أحقوهم بوالدي ، فنظرت إليه وقد علت كآبة وأربد لونه وأمسك بلحيته

وتقديم وهو يصبح - كذب الشيطان - فعاد المسلمون على الفرنج ورجعوا فصعدوا إلى التل، فلما رأيت الفرنج قد عادوا وال المسلمين يتبعونهم، صحت من فرحي: هزمناهم. فعاد الفرنج فحملوا حلة ثانية مثل الأولى، وألحقوا المسلمين بوالدي، وفعل مثل ما فعل أولاً. وعطف المسلمون عليهم فألحقوهم بالتل، فصحت أنا أيضاً: هزمناهم. فالتفت إلي والدي وقال: اسكت، ما هزمهن حتى تسقط تلك الخيمة. وبينما هو يقولها إذا الخيمة قد سقطت. فنزل السلطان وسجد شكرًا لله تعالى وبكى من فرحة. وكان سبب سقوطها أن الفرنج لما حملوا تلك الحملات ازدادوا عطشاً. وقد كانوا يرجون الخلاص في بعض تلك الحملات مما هم فيه، فلم يجدوا إلى الخلاص طريقاً، فنزلوا عن دوابهم. وجلسوا على الأرض. وصعد المسلمون إليهم، فألقوا خيمة الملك، وأسروه عن بكرة أبيهم، وفيهم الملك جاي، وأخوه، والبرنس أرناط - رينالد شاتيون - صاحب الكرك، ولم يكن في الفرنج أشدّ منه عداوة للمسلمين، وأسرموا أيضاً صاحب جبيل وابن هنفري - همفري - ومقدم الداوية وكان من أعظم الفرنج شأنًا، وأسرموا أيضاً جماعة من الداوية وجماعة من الاستبارية. وكثير القتل والأسر فيهم. فكان من يرى القتل لا يظن أنهم أسروا واحداً، ومن يرى الأسرى لا يظن أنهم قتلوا أحداً. وما أصيب الفرنج منذ خرجوا إلى الساحل، وهو سنة إحدى وتسعين وأربعين = ١٠٩٧ م. بمثل هذه الواقعة ».

انتهت المعركة، وعاد صلاح الدين إلى خيمته، حيث استقبل فيها الملك جاي وشقيقه الكندسطبل أمليك - ورينالد شاتيون، وابن زوجته همفري سيدتبني، فضلاً عن عدد كبير من صغار بارونات المملكة. فحياتهم صلاح الدين في لطف وبشاشة، وأجلس الملك جاي إلى جانبه، وإذا شهد ما حلّ به من الظُّلْم، ناوله كأساً امتلأ بالجلاب الذي أثلجه ما وضع به من قطع الثلج الوارد من جبل الشيخ - حرمون - فشرب منه جاي. ثم سلمه إلى رينالد الذي كان يجلس إلى جانبه، ووفقاً للتقاليد العربية في الضيافة، فإنه متى جرى بذل الطعام أو الشراب للأسير، فإن ذلك معناه البقاء على حياته، ولذا بادر صلاح الدين بأن قال للمترجم:

إن هذا الملعون لم يشرب الماء ياذني فينال ألماني». ثم كلام البرنس رينالد - وقرعه بذنبه ، وعدد عليه عوراته ، وقال له :

«كنت نذرت أن أقتله إن ظفرت به مرتين : إحداها لما أراد المسير إلى مكة والمدينة والثانية لما أخذ القفل غدرًا».

وقام إليه بنفسه فضرب رقبته ، وسحب وأخرج فلما قتله ارتعدت فرائص الملك جاي ، وظن أنه سيحل دوره . فطمأنه صلاح الدين بقوله :

«إن الملك لا يقتل ملكاً غير أن ما ارتكبه ذلك الرجل من الغدر والخيانة قد تجاوز كل حد».

ثم أصدر صلاح الدين الأوامر بأن لا يتعرض للأذى للبارونات العلمانيون ، بل ينبغي أن يلقوا في أسرهم الاحترام والمروءة . غير أنه لم يود الابقاء على حياة أحد من الفرسان الرهبان - باستثناء مقدم الداوية -. والمعروف أنه كان بجيشه صلاح الدين جماعة من الزهاد والتصوفين ، فعهد إليهم صلاح الدين بالاجهاز على الأسرى من الداوية والاسبتارية ، فاغبطوا للقيام بهذا العمل . فلما تم ذلك ، تحرك صلاح الدين بجيشه من حطين ، وما تناشر على ساحة القتال من جثث القتلى أصبح طعاماً للضياع والصقور . وجرى حمل الأسرى إلى دمشق ، حيث تهيات للبارونات أسباب الراحة في معاقلتهم . بينما تقرر بيع الأسرى الفقراء في سوق الرقيق . وبلغ من كثرة الأسرى بهذا السوق أن هبط سعر الأسير الواحد إلى ثلاثة دنانير . وأضحى بوسع الشخص أن يشتري أسرة سليمة بأكملها مؤلفة من رجل وزوجته وأبنائه الثلاثة وابنتين بثمانين ديناراً . بل إن أحد المسلمين اعتبر ما أجراه من مبادلة نعليه بأسير صفقة غير راجحة .

هكذا غربت شمس يوم السبت الخامس بقين من ربيع الآخر سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة (٤ تموز - يوليو - ١١٨٧ م) وقد تم على أرض حطين تدمير أضخم جيش صليبي لم يحشد الفرنج مثله من قبل . وضاع منهم صليب الصلوب ، وارتقي صلاح الدين الأيوبي إلى مرتبة عظامه أمراء المسلمين وحكامهم .

١٢ - الحملة الصليبية الثالثة .

انطلق المسلمون لاستئثار انتصارهم في حطين ، فأخذوا في فتح قلاع الفرنج وحصونهم ، وطرد الفرنج من كثير من المدن التي سبق لهم احتلالها ، وانطلقت جيوشهم من الجليل إلى القدس ثم إلى الساحل ، ومنه إلى الشمال وهي تحتاج كل ما تستطيع اجتياحه ، وتعرض لها يمتنع عليها فتحها . وعلى سبيل المثال فعندما فرض صلاح الدين الحصار على صور ، وطال أحد حصارها ولم تستسلم « رحل عنها وهذه كانت عادته ، متى ثبت البلد بين يديه ضجر منه ومن حصاره ، فرحل عنه » .

بينما كان المسلمون يعيشون في بلادهم حلاوة انتصاراتهم المتالية ، كانت رسول الفرنج تنطلق صوب الغرب - تباعاً - وهي تحمل تفاصيل معركة حطين وما تبعها من فتح المسلمين للقدس . وزعر الغرب الصليبي لهذه الكارثة التي لم يكن يتصورها في حسابه على ما يظهر ، رغم التحذيرات المتالية التي أرسلتها مملكة القدس وامارات الفرنج ، والتي أندثرت بتعاظم قدرة المسلمين . وتزايد قوتهم ، وكان في جملة رسول الفرنج إلى الغرب اسقف مدينة صور - جوسپاس - الذي غادر صور في صيف سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) قاصداً بلاط ملك صقلية (وليم الثاني) الذي ما إن عرف بتفاصيل ما حدث حتى ارتدى ثوباً من الخيش ، واعتزل الدنيا لمدة أربعة أيام ، خرج بعدها من عزته ، ووجه إلى رفاقه الملوك يحثّهم على الاشتراك في حملة صليبية جديدة (ثالثة) . بينما أخذ في الاعداد لتوجيه حملة إلى بلاد الشام بأسرع ما يمكن . ولما كان في تلك الفترة يخوض حرباً ضد الامبراطور البيزنطي اسحاق انجلوس ، فقد بادر إلى عقد صلح مع الامبراطور . وبينما كان اسقف صور - جوسپاس - يتبع بفرح جهد ملك صقلية ، بلغه نبأ موت البابا ايриبان الثالث (في ٢٠ تشرين الأول - اكتوبر - ١١٨٧ م) . إذ كانت شدة الصدمة أقوى من قدرة احتلال البابا ، فمات كمداً . وبادر خليفته في البابوية (غريغوري الثامن) فأرسل كتاباً دوريأً - تعميماً - إلى جميع المؤمنين

بالغرب، اورد فيه القصة الخطيرة عن ضياع الأرض المقدسة وصلب الصلوبت. وحرص على أن يذكر الذين يقرؤون كتابه، بأن ما حدث منذ أربعين سنة (عندما طرد المسلمون الفرنج من إمارة الراها والحملة الصليبية الثانية) كان نذيراً بذلك. وأضحت الحاجة ماسة إلىبذل جهود ضخمة.

«فليكفر كل انسان عن خططيه، وليدخر لنفسه كنزاً في السماء ، بأن يتخد الصليب» ووعد جميع الصليبيين بقدر وفير من غفران الذنوب، فينبغي أن ينعموا بالحياة الأبدية في السماء ، بينما تصرير سلتهم في الدنيا في حياة المقر المقدس.

واختتم كتابه بالدعوة إلى الصيام كل يوم جمعة، لمدة خمس سنوات، والامتناع عن تناول اللحم يومي الأربعاء والسبت. وسوف يصوم أيضاً يوم الاثنين أهل بيته وأسرات الكرادلة.

وتقرر أيضاً أن يتوجه من روما مبعوثون آخرون، ليفرضوا على جميع أمراء العالم المسيحي المدنة لمدة سبع سنوات. وترددت الرواية أن جميع الكرادلة أقسموا أنهم سوف يكونون من أوائل الذين يتخذون الصليب، وسوف يقودون الجيوش الصليبية إلى فلسطين باعتبارهم مبشرين متسللين.

لم يعش البابا غريغوري الثامن ليشهد نتيجة جهوده، إذ مات ولما يمض سوي شهرين على بابويته، فتم اختيار أسقف براينيست لمنصب الباباوية باسم (كليمانت الثالث). وقد بادر البابا الجديد إلى الاتصال بكتار ملوك الغرب، لتحريضهم على تجاوز خلافتهم، وتوجيه حلة صليبية جديدة. وأثرت هذه الجهود المكثفة فتم عقد هدنة بين ملكي فرنسا وإنكلترا.

وتقرر أن يسير الجيشان معاً، فاتخذ العساكر الفرنسيون الصليب الأحمر على أرديتهم، بينما اتخذ العساكر الإنكليز الصليب الأبيض، واختار الفلمنكيون الصليب الأخضر. وفرض الملكان ضرائب خاصة في نهاية كانون الثاني - يناير - ١١٨٨ م (٥٨٤ هـ) عرفت باسم عشر صلاح الدين، وهي نسبة عشرة بالمائة من ضريبة الدخل والأموال المنقوله، تحبى من الرعایا في فرنسا وإنكلترا.

وبينما كانت تجتاز الغرب حتى الأعداد للحملة الصليبية الثالثة، كان أميراطور الغرب - فريدريك بربروسه - قد أعد حلة من ألمانيا، وتولى قيادتها. وتلقى الصليب من يد الكاردينال اليانو. وسار بجيشه في سنة ٥٨٥ هـ = ١١٨٩ م، عن طريق المجر - ثم بلاد البيزنطيين، فيما كانت بقية قوات الغرب تسير عبر البحر إلى بلاد الشام. ولكن الجيش الألماني لم يتتجاوز أنطاكية، فقد مات فريدريك بربروسه في سنة ٥٨٦ هـ = ١١٩٠ م. وتمزقت حملته تحت وطأة ضربات المسلمين. وشعر صلاح الدين بنوع من الارتياح، فقد كان يشعر بالقلق من التقاء قوات الحملة الصليبية، هذه القادمة من الشمال، وتلك القادمة عن طريق البحر، وقد وصل ملك فرنسا - فيليب أغسطس - إلى عكا في يوم ٢٠ نيسان - أبريل - ١١٩١، بينما وصل ملك إنكلترا - ريتشارد قلب الأسد بعد أسبوع من ذلك (سنة ٥٨٧ هـ). وكان الصراع على أشده حول عكا. وقد يكون من المناسب العودة بهذا الصراع إلى بدايته (في أحداث سنة ٥٨٥ هـ) كما تعرضت لها أوابد المسلمين.

سار صلاح الدين بجيشه إلى قلعة (شقيف أرنون) في ربيع الأول من سنة ٥٨٥ هـ - وهذه القلعة هي من أمنع الحصون. فنزل بمرجعيون، فجاءه رينالد - أرنات - صاحب الشقيف، وصاحب صيدا، وكان من أعظم الناس دهاءً ومكرًا. فدخل إليه واجتمع به، وأظهر له الطاعة والموافقة، وقال له: «أنا محب لك، ومعترف بحسانك، وأخاف أن يعرف المركيس - صاحب صور - ما بيبي وبينك فينال أولادي وأهلي منه أذى، فإنهم عنده». فأشتهر أن تمهلني حتى أتوصل في تخلصهم من عنده. وحينئذ أحضر أنا وهم عندك، ونسالم الحصن إليك. وأكون أنا وهم في خدمتك، نقعن بما تعطينا من إقطاع». فظنَّ صلاح الدين صدقه وأجابه إلى ما سأله وأمهله ثلاثة أشهر لتسليم القلعة وأقام صلاح الدين بمرجعيون ينتظر الميعاد، وهو قلق مفكر لقرب انتهاء المدة بين صاحب أنطاكية البيمند - بوهمند - فأمر ابن أخيه تقي الدين بالسير فيمن معه من الجندي، ومن ينضم إليه من بلاد المشرق، ويكون مقابل أنطاكية لثلا يغير صاحبها على بلاد الإسلام عند انتهاء أجل المدنة. وكان أيضاً متزوج الخاطر، كثير الهم، لما بلغه من اجتماع الفرنج بمدينة صور، وما

يتصل بهم من الامداد في البحر . ولما عرف صلاح الدين خديعة رينالد - أرنات - عند انتهاء أجل المدة المحددة لتسليم قلعة الشقيف ، أرسله إلى سجن دمشق . وترك قوة لخصار القلعة . وسار إلى صور قد جمعوا جموعهم ، للسير إلى صيدا . فاصطدموا بقوة مسلمين التي تركها صلاح الدين في مواجهة صور ، وقاتلهم المسلمون على مضيق هناك ، ومنعوهم ، وجرب لهم معهم حرب شديدة يشيب لها الوليد ، وأسرموا من الفرنج جماعة ، وقتلوها جماعة . وقتل من المسلمين أيضاً جماعة . وعندما وصل صلاح الدين إلى صور ، كانت المعركة قد انتهت ، وعاد الفرنج إلى قaudتهم في صور . فأقام صلاح الدين في خيمة صغيرة ينتظر عودة الفرنج لينتقم منهم ، ويأخذ بثار من قتلوا من المسلمين ، فركب في بعض الأيام في عدة يسيرة - للاستطلاع - ولينظر إلى مخيم الفرنج من الجبل ، ليعلم بمقتضى ما يشاهده ، وظنَّ من هناك من غزاة العجم والعرب المتقطعة أنه على قصد المصف وال الحرب ، فساروا مجدين ، وأوغلووا في أرض العدو مبتعدين وفارقوا الخزم ، وخلفوا السلطان صلاح الدين وراء ظهورهم ، وقاربوا الفرنج . فأرسل صلاح الدين عدة من الأمراء يردونهم ويحموهم إلى أن يخرجوا ، فلم يسمعوا ولم يقبلوا .

وكان الفرنج قد اعتقدوا أن وراءهم كميناً ، فلم يقدموا عليهم ، وأرسلوا من ينظرحقيقة الأمر - فأتاهم الخبر أنهم منقطعون عن المسلمين ، وليس وراءهم ما يخاف . فحملت الفرنج عليهم حلة رجل واحد ، فقاتلوهم ، فلم يلبثوا أن أبادوهم . وقتل معهم جماعة من المعروفين .

وشق على صلاح الدين والمسلمين ما جرى عليهم ، وكان ذلك بتغريتهم في حق أنفسهم ، رحهم الله ورضي عنهم ، فلما رأى صلاح الدين ذلك ، انحدر في جيشه من الجبل وحمل على الفرنج ، فألقى الفرنج أنفسهم في الماء ، ففرق منهم نحو مائة دارع سوى من قتل . وعزم السلطان صلاح الدين على مصادرتهم ومحاصرتهم ، فتسامع الناس ، فقصدوه ، واجتمع معه خلق كثير . فلما رأى الفرنج ذلك عادوا إلى مدينة صور . فلما

عادوا إليها ، رجع صلاح الدين إلى تبنين ثم إلى عكا ينظر حالها ، ثم عاد إلى المعسكر في مرجعيون .

وعلم صلاح الدين وهو في معسكره أن الفرنج يخرجون من صور للاحتطاب والاحتشاش متبددين - متفرقين - . فكتب إلى من بعكا من الجندي ، وواعدهم في يوم معين (ثامن جادي الآخرة سنة ٥٨٥ هـ) ليلاقوا الفرنج من الجانبين ، ورتب كمناء في موضع من تلك الأودية والشعاب ، واختار جماعة من شجعان جنده ، وأمرهم أنهم إذا حمل عليهم الفرنج ، قاتلواهم شيئاً من قتال ، ثم تطاردوا لهم وأروهم العجز عن مقاتلتهم ، وانسحبوا من وجههم ، فإذا تبعهم الفرنج استجروههم إلى أن يجوزوا مواضع الكمين ، ثم يعطفوا عليهم ، ويخرج الكمين من خلفهم ، فخرجوها على هذه العزيمة .

فلما تراءى الجمuan ، والتقت الفتن ، أندف فرسان المسلمين أن يظهر عنهم اسم المذية ، وثبتوا ، وقاتلواهم ، وصبر بعضهم البعض ، واشتد القتال وعظم الأمر ، ودامت الحرب ، وطال على الكمناء الانتظار ، فخافوا على أصحابهم ، وخرجوا من مكانيهم نحوهم مسرعين ، وإليهم قاصدين ، فأتوهم وهم في شدة الحرب ، فازداد الأمر شدة على شدة ، وكان فيهم أربعة أمراء من ربعة طي ، وكانتوا يجهلون تلك الأرض ، فلم يسلكوا مسلك أصحابهم ، فسلكوا الوادي ظناً منهم أنه يخرج بهم إلى أصحابهم ، وتبعهم بعض ماليك صلاح الدين ، فلما رأاهم الفرنج بالوادي علموا أنهم جاهلون ، فأتوهم وقاتلواهم ، فقتلواهم . وجاء المسلمون من الغد إلى موضعهم فرأوا القتلى .

خرج الفرنج على الصعب والذلول برأاً وبجرأاً ، يحفزهم البعثة الدينية والنفساني لقتال المسلمين ، وجاؤوا من كل فج عميق ، فلو لا لطف الله تعالى بال المسلمين ، وإهلاكه لملك الأنمان لما خرج إلى الشام ، لكان يقال إن الشام ومصر كانتا للمسلمين . واجتمع الفرنج بصور يوج بعضهم في بعض ، ومعهم الأموال العظيمة ، والبحر يمدهم بالأقوات والذخائر والعدد والرجال من بلادهم . فضاقت عليهم صور ظاهرها وباطئها . وأرادوا قصد صيدا ، فلما فشلوا في مسعاهem ، اتفقوا على قصد عكا ومحاصرتها ومصادرتها . فساروا إليها بفارسهم وراجلهم وقضفهم وقضيضمهم ، ولزموا البحر في مسيرهم ، لا

ينار قونه في السهل والوعر الضيق والاسعة ، ومراكبهم تسير مقابلهم في البحر ، فيها سلاحهم وذخائرهم ، ولتكون عدة لهم إن جاءهم ما لا قبل لهم به ، ركبوا فيها وعادوا . وسار المسلمون الذين كانوا يحاصرون صور على أثر الفرنج ، يتخطفون المنفرد منهم ويأخذونهم . وعلم صلاح الدين بمسير الفرنج إلى عكا ، فقاد جيشه وقاربهم ، ثم جمع أمراءه واستشارهم :

« هل يكون المسير محاذاة الفرنج ومقاتلتهم وهم سائرون؟ أو يكون في غير الطريق التي سلكوها؟ » .

فقالوا : « لا حاجة بنا إلى احتمال المشقة في مسايرتهم ، فإن الطريق وعر وضيق ، ولا يتهيأ لنا ما نريده منهم . والرأي أننا نسير في الطريق المهيئ ، ونختمع عليهم عند عكا فنفرقهم وننزلقهم ». فعرف صلاح الدين ميل قادته إلى الراحة المعجلة ، فوافقهم . وكان رأيه مسايرتهم ومقاتلتهم وهم سائرون ، وقال :

« إن الفرنج إذا نزلوا لصقوا بالأرض ، فلا يتهيأ لنا إزعاجهم ، ولا نيل الغرض منهم ، والرأي قتالهم قبل الوصول إلى عكا » .

فخالفوه ، فتبعهم ، وساروا على طريق كفركنا ، فسبقهم الفرنج . وكان صلاح الدين قد جعل في مقابل الفرنج جماعة من الأمراء يسايرونهم ويناوelonهم القتال ويختطفونهم ، ولم يقدم الفرنج عليهم مع قلتهم . فلو أن جند المسلمين اتبعت رأي صلاح الدين في مسايرتهم ومقاتلتهم قبل نزولهم على عكا ، لكان بلغ غرضه وصدهم عنها .

رأى صلاح الدين عندما وصل إلى عكا أن الفرنج قد وصلوا إلى عكا ، ونزلوا عليها من البحر إلى البحر من الجانب الآخر ، ولم يبق للمسلمين إليها طريق . فنزل صلاح الدين عليهم ، وضرب خيمته على تل كيسان ، وامتدت ميمنته إلى تل الغياظية ، وميسرتها إلى النهر الجاري ، ونزلت الأنقال بصفورية ، وسیر الكتب إلى الأطراف باستدعاء العساكر فأتاه عسكر الموصل وديار بكر وسنجار وغيرها من بلاد الجزيرة ، وأتاه ابن أخيه تقي الدين ، وأتاه أيضاً صاحب حران والرها . مظفر الدين

ابن زين الدين كوكبri -. وكانت الأ Maddad تصل إلى المسلمين في البر ، وتأتي الفرنج في البحر .. وكان بين الفريقين مدة مقامهم على عكا حروب كثيرة ما بين صغيرة وكبيرة ، منها اليوم المشهور ومنها ما هو دون ذلك ، وما عدتها كان قتالاً يسيراً من بعضهم مع بعض .

وكان يوم (٥ شعبان ٥٨٥ هـ) من الأيام المشهودة ، ففي هذا اليوم ، باكر صلاح الدين الفرنج بالقتال ، واستدار عليهم من سائر جهاتهم ، واستمر القتال حتى الظهر ، وصبر الفريقان صبر حار له من رأه . فلما كان وقت الظهر ، حمل عليهم تقى الدين حلة منكرة من الميمنة على من يليه منهم ، فأذاحهم عن مواقعهم ، وركب الفرنج بعضهم بعضاً ، لا يلوى أخ على أخيه ، والتجزوا إلى من يليهم من أصحابهم ، واجتمعوا بهم ، وأخلوا نصف البلد ، وملك تقى الدين مكانيه والتتصق بالبلد . ودخل المسلمون البلد وخرجوا منه . واتصلت الطرق ، وزال الخصر عن فيه .

وأدخل صلاح الدين إليه من أراد من الرجال وما أراد من الذخائر والأموال والسلاح وغير ذلك ، ولو أن المسلمين لزموا قتالهم إلى الليل لبلغوا ما أرادوه . فإن للصدمة الأولى روعة ، لكنهم لما نالوا منهم هذا القدر ، أخلدوا إلى الراحة وتركوا القتال وقالوا : نباكرهم غداً ونقطع دابرهم . وقتل في هذا اليوم من الفرنج جماعة كبيرة .

نهض المسلمون لقتال الفرنج من الغد (وهو السادس شعبان) عازمين على بذلك جدهم ، واستنفاد وسعهم في استئصالهم ، فتقدموا على تعبيتهم ، فرأوا الفرنج حذرين محتاطين ، قد ندموا على ما فرطوا فيه بالأمس ، وهم قد حفظوا أطرافهم ونواحيهم ، وشرعوا في حفر خندق يمنع من الوصول إليهم ، فالج المسلمون عليهم في القتال ، فلم يتقدم الفرنج إليهم ، ولا فارقوا مرابضهم . فلما رأى المسلمون ذلك عادوا عنهم . ثم إن جماعة من العرب بلغتهم أن الفرنج تخرج من الناحية الأخرى إلى الاحتطاب وغيره من أغلالهم ، فكمروا في معاطف النهر ونواحيه ، فلما خرج جم من الفرنج على عادتهم (يوم ١٦ شعبان) حللت عليهم العرب فقتلوهم عن آخرهم ، وغنموا ما كان معهم ،

وحملوا الرؤوس إلى صلاح الدين فأحسن إليهم وأعطاهم الخلع . واستمر المسلمين كل يوم يغادون القتال مع الفرنج ويرأوهونه . والفرنج لا يخرجون من معسكرهم ولا يفارقونه . ثم إن الفرنج اجتمعوا للمشورة ، فقالوا : « إن عسكر مصر لم يحضروا ، وهذا هو الحال مع صلاح الدين ، فكيف إذا حضروا ؟ الرأي هو أن نلقى المسلمين غداً ، لعلنا نظفر بهم قبل اجتماع العساكر ، ووصول الامداد إليهم ». وكان كثير من جند صلاح الدين بعيد عنده ، بعضهم مقابل أنطاكية ليروا غائلة صاحبها البيمند - بوهمند - عن أعمال حلب - وبعضهم في حصن مقابل طرابلس ليحفظ ذلك التغر أيضاً . وهناك جند مقابل صور لحراية ذلك البلد ، فيما بقي جند مصر لحراية ثغر دمياط والاسكندرية وغيرها . وهذا مما أطعم الفرنج في الخروج لقتال المسلمين الذين كانوا يوم صبحهم الفرنج بهجومهم ، كعادتهم ، منهم من يتقدم إلى القتال ، ومنهم من هو في خيمته ، ومنهم من قد توجه في حاجته سواء لزيارة صديق أو تحصيل ما يحتاج إليه هو وأصحابه ودوابه وغير ذلك . فخرج الفرنج من معسكرهم لأنهم الجراد المنتشر يدبون على وجه الأرض ، قد ملؤوها طولاً وعرضًا ، وتوجهوا إلى ميمنة المسلمين وعليها تقي الدين عمر ، فلما رأى أن الفرنج نحوه قاصدين ، حذر هو وأصحابه ، فتقدموه إليه ، فلما قربوا منه تأخر عنهم . فلما رأى صلاح الدين الموقف وهو في القلب . أمد تقي الدين برجال من عنده ليتقوى بهم ، وكان عسكر ديار بكر وبعض الشرقيين في جناح القلب ، فلما رأى الفرنج قلة الرجال في القلب ، وأن كثيراً منهم قد ساروا نحو الميمنة مددأ لهم ، عطفوا على القلب ، وحملوا حملة رجل واحد ، فاندفعوا العساكر بين أيديهم منهزمين ، وثبت بعضهم ، واستشهد جماعة من الأمراء والفقهاء والشجعان ، ولم يبق بين أيديهم في القلب من يردهم ، فقصدوا التل الذي عليه خيمة صلاح الدين ، فقتلوا من مروا به ، ونبوا وقتلوا عند خيمة صلاح الدين جماعة ، وانحدروا إلى الجانب الآخر من التل ، فوضعوا السيف فيمين لقوه . وكان من لطف الله تعالى بالمسلمين ، أن الفرنج لم يلقوا خيمة صلاح الدين ، ولو أقوها لعلم الناس وصوّلهم إليها ، وإنزام العساكر بين أيديهم ، فكانوا انهزموا أجمعين ، ثم إن الفرنج نظروا وراءهم فرأوا أمدادهم قد انقطعت عنهم ، فرجعوا خوفاً أن ينزعزوا عن أصحابهم ، وكان سبب انقطاعهم أن

الميمنة وقفت مقابل الفرنج، فاضطر بعضهم للوقوف مقابلها، وحملت الميسرة على الفرنج، فاشتعل المدد بقتال من بها عن الاتصال بأصحابهم واللحاد بهم، وعادوا إلى طرف خنادقهم. فحملت الميسرة على الفرنج الواثلين إلى خيمة صلاح الدين، فصادفوههم وهم راجعون، فقاتلواهم، وثار بهم غلمان المعسكل. وكان صلاح الدين لما انهزم القلب، قد تبعهم يناديهم ويأمرهم بالكرة ومعاودة القتال، فاجتمع معه منهم جماعة صالحة، فحمل بهم على الفرنج من وراء ظهورهم وهم مشغولون بقتال الميسرة، فأخذتهم سيوف الله من كل جانب، فلم يفلت منهم أحد، بل قتل أكثرهم، وأخذ الباقيون أسرى، وفي جملة الأسرى مقدم الداوية، فأمر صلاح الدين بقتله. وكانت عدة القتلى - سوى من كان إلى جانب البحر - نحو عشرة آلاف قتيل، فأمر بهم فألقوا في النهر الذي يشرب الفرنج منه، وكان في جملة الأسرى ثلاثة نسوة فرنجيات، كن يقاتلن على الخيول، فلما أسرن وألقن عنهن السلاح عرفن أنهن نساء.

وأما المنهزمون من المسلمين، فمنهم من رجع إلى طبرية، ومنهم من جاوز الأردن وعاد، ومنهم من بلغ دمشق. ولو لا أن العساكر تفرقوا في الهزيمة، لكانوا بلغوا من الفرنج من الاستئصال والإهلاك مرادهم. على أن الباقيين بذلوا جهدهم، وجدوا في القتال، وصمموا على الدخول مع الفرنج في معسكلهم، لعلهم يفزعون منهم، فجاءهم النداء بأن رجالهم وأموالهم قد نهبت، وكان سبب هذا النهب أن الناس لما رأوا الهزيمة حملوا أثقالهم على الدواب، فثار بهم أبواباً العسكل وغلمانه، فنهبوه، وأتوا عليه. وكان في عزم صلاح الدين أن يباكي الفرنج القتال والزحف. فلما رأى اشتغال الناس بما ذهب من أموالهم، ويسعون في جمعها وتحصيلها، أمر بالنداء باحضار ما أخذ، فأحضر منه ما ملأ الأرض من المفارش والثياب والسلاح وغير ذلك، فرد الجميع إلى أصحابه، ففاته ذلك اليوم ما أراد، وسكن روع الفرنج، وأصلحوا شأن الباقيين منهم، وأعادوا تنظيم قواتهم.

جافت الأرض من نتن ريح قتلى الفرنج لكثرتهم، وفسد الهواء والجو، ووجدت الأمزجة فساداً. وانحرف مزاج صلاح الدين وأصحابه المرض ونال منه بشدة، فحضر

عنه الأماء ، وأشاروا عليه بالانتقال من ذلك الموضع ، وترك مضائق الفرنج ، وحسنوه له ، وقالوا : « قد ضيقنا على الفرنج ، ولو أرادوا الانفصال عن مكانهم لم يقدروا ، والرأي أن نبعد عنهم بحيث يتمكنون من الرحيل والعود ، فإن رحلوا فقد كفينا شرهم وكفوا شرنا . وإن أقاموا عاودنا القتال ، ورجعنا معهم إلى ما نحن فيه . ثم إن مزاجك منحرف والألم شديد ، ولو وقع إرجاف هلك الناس ، والرأي على كل تقدير بعد عنهم ». ووافقهم الأطباء على ذلك ، فأجابهم إليه ، ورحلوا إلى الخروبة (رابع شهر رمضان سنة ٥٨٥ هـ) وأمر من بعكا من المسلمين بحفظها وإغلاق أبوابها والاحتياط ، وأعلمهم بسبب رحيله . فلما رحل هو وجنته ، أمن الفرنج وانسقوا في تلك الأرض ، وعادوا وحصروا عكا وأحاطوا بها من البحر إلى البحر ، فيها كانت مراكبهم تناصرها من البحر أيضاً ، وشرعوا في حفر الخندق وعمل السور من التراب الذي يخرجونه من الخندق . وجاؤوا بما لم يكن في الحساب . وكان المسلمون الذين تركوا في مواجهة الفرنج ، يتوجهون لقتالهم كل يوم ، والفرنج لا يتحركون ، ولا هم لهم إلا حفر الخندق وإقامة السور عليهم ليتحصنوا به من صلاح الدين إن عاد إلى قتالهم . وعمل المسلمون على اعلام صلاح الدين أولاً بأول بما كان يفعله الفرنج ، وبعضمون الأمر عليه ، غير أن المرض كان يمنعه من الحركة . وأشار عليه بعضهم بأن يرسل جنده بكماله إلى عكا ليمنع الفرنج من حفر الخندق وإقامة السور ، وقتالهم ، وأن يبقى هو في موضعه - في الخروبة - فقال لهم :

« إذا لم أحضر معهم لا يفعلون شيئاً ، وربما كان من الشر أضعاف ما نرجوه من الخير » .

تحرك جيش مصر بقيادة الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب إلى عكا فوصلها في منتصف شوال ، فقويت نفوس الناس به وبين معه ، واشتدت ظهورهم . وأحضر معه من آلات الحصار والنشاب والأقواس شيئاً كثيراً ، وجمع صلاح الدين جنداً كثيراً من المشاة من البلاد الشامية ، وهو على عزم الزحف إليهم بالفارس والراجل . ووصل بعده الأسطول المصري ومقدمه حسام الدين لؤلؤ ، وكان شهماً شجاعاً مقداماً خيراً بالبحر والقتال فيه ، ميمون النقيبة ، فوصل بغتة ، فوقع على سفينة

كبيرة للفرنج فغمها وأخذ منها أموالاً كثيرة ومواد تموينية عظيمة، فأدخلوها إلى عكا.
فسكنت نفوس من بها بوصول الأسطول المصري، وقوى جنائهم.

أقام صلاح الدين في - الخروبة - إلى أن ذهب الشتاء، فلما دخل صفر من سنة ٥٨٦ هـ = ١١٩٠ م. علم الفرنج أن صلاح الدين قد سار للصيد. ووجدوا أن جيش المسلمين في مواجهتهم هو جيش صغير، وأن الورجل في عكا كثير ويشكل عائقاً أمام المسلمين إذا ما تحركوا لدعم الجيش المقابل لعكا. فقرروا الخروج من خندقهم، ومباغة جند المسلمين، عند العصر، فقاتلهم المسلمون، وحوا أنفسهم بالنشاب، وأحجم الفرنج عنهم حتى فني نشابهم، فحملوا عليهم حينئذ حلة رجل واحد، فاشتد القتال وعظم الأمر، وعلم المسلمون أنهم لا ينجيهم إلا الصبر وصدق القتال، فقاتلوا قتال مستقتل، إلى أن جاء الليل، وقتل من الفريقين جماعة كبيرة، وعاد الفرنج إلى خندقهم. ولما علم صلاح الدين بما حدث، ندب الناس إلى نصر إخوانهم، فأتاهم الخبر أن الفرنج عادوا إلى خندقهم. فجمع جنده الذين وصلوا من دمشق وحمص وححة وغيرها، وسار بهم من الخروبة نحو عكا، فنزل بتل كيسان، وقاتل الفرنج كل يوم، ليشغلهم عن قتال من بعكا من المسلمين. وكان الفرنج مدة صمامهم على عكا قد عملوا ثلاثة أبراج من الخشب عالية جداً، طول كل برج منها خمس طبقات، كل طبقة مملوقة بالمقاتلة، وقد جمع أخشابها من الجزائر، إذ أن مثل هذه الأبراج العظيمة لا يصلح لها من الخشب إلا القليل النادر، وغشوهها بالجلود والخل والطين والأدوية التي تمنع النار من إحراقها، وأصلحوا الطرق لها، وقدموها نحو مدينة عكا من ثلاثة جهات، وزحفوا بها (في العشرين من ربيع الأول ٥٨٦ هـ) فأشرفت على السور، وقاتل من بها من عليه، فانكشفوا وشرعوا في ردم - طم - الخنادق.

وكاد الفرنج يملكون البلد عنوة وقهراً، فأرسل المسلمون رجالاً سبع في البحر، وجاء إلى صلاح الدين، وأعلمه ما هم فيه من الضيق. وما أشرفوا عليه منأخذهم وقتلهم، فركب صلاح الدين وجنته وتقدموه إلى الفرنج، وقاتلواهم من جميع جهاتهم قتالاً عظيماً دائمًا يشغلهم عن مكاثرة البلد، فافترق الفرنج فرقتين: فرقة تقاتل صلاح الدين، وفرقة تقاتل أهل عكا، وبذلك خفت الأمر عن عكا، ودام القتال ثانية أيام

متتابعة ، وسُئِمَ الفريقيان القتال ، وملوا منه ملازمته ليلاً ونهاراً ، وتيقن المسلمين من استيلاء الفرنج على البلد لما رأوا من عجز من فيه عن دفع الأبراج ، فإنهما لم يتركوا حيلة إلا عملوها ، فلم يفده ذلك ، ولم يغرن عنهم شيئاً . وتابعوا رمي النفط الطيار عليها فلم يؤثر فيها ، فأيقنوا بالبوار والهلاك .

فأناهم الله بنصر من عنده ، وأذن من إحراق الأبراج ، وكان سبب ذلك أن إنساناً من أهل دمشق كان مولعاً بجمع آلات النفاطين ، وتحصيل عقاقير تقوي عمل النار ، فكان من يعرفه يلومه على ذلك وينكره عليه ، وهو يقول : « هذه حالة لم أباشرها بنفسي إنما أشتهرى معرفتها ». وكان بعكا لأمر يريده الله ، فلما رأى الأبراج قد نسبت على عكا ، شرع في عمل ما يعرفه من الأدوية المقوية للنار بحيث لا يمنعها شيء من الطين والخل وغيرها ، فلما فرغ منها ، حضر عند الأمير قراقوش ، وهو متولي الأمور بعكا والحاكم فيها ، وقال له : « يأمر المنجنيقى أن يرمي في المنجنيق المحاذى لبرج من هذه الأبراج ما أعطيه حتى أحرقه ». وكان عند قراقوش من الغيظ والخوف على البلد ومن فيه ما يكاد يقتله ، فازداد غيظاً بقوله ، وحرب عليه ، وقال له : « قد بالغ أهل هذه الصنعة في الرمي بالنفط وغيره ، فلم يفلحوا ». فقال له من حضر : « لعل الله تعالى قد جعل الفرج على يد هذا ، ولا يضرنا أن نوافقه على قوله ». فأجابه إلى ذلك ، وأمر المنجنيقى بامتثال أمره . فرمى عدة قدور نفطاً وأدوية ليس فيها نار . فكان الفرنج إذا رأوا القدر لا يحرق شيئاً يرقصون ويصيحون ويلعبون على سطح البرج ، حتى علم أن الذي ألقاه قدتمكن من البرج ، ألقى قدرًا ملوءة وجعل فيها النار ، فاشتعل البرج . وألقى قدرًا ثانية وثالثة فاضطررت النار في نواحي البرج ، وأعجلت من في طبقاته الخمس عن الهرب والخلاص . فاحتراق هو ومن فيه .

فلما احترق البرج الأول ، انتقل إلى الثاني وقد هرب من فيه لخوفهم ، فأحرقه . وكذلك الثالث ، وكان يوماً مشهوداً لم ير الناس مثله . والمسلمون ينظرون ويفرحون ، وقد أسفرت وجوههم بعد الكابة فرحاً بالنصر ، وخلاص المسلمين من القتل . وحمل

ذلك الرجل - الدمشقي - إلى صلاح الدين، فبذل له الأموال الجزيلة والأقطاع الكثيرة، فلم يقبل منه الحبة الفرد ، وقال :

«إنما عملته لله تعالى ولا أريد الجزاء إلا منه». وأرسلت الكتب إلى البلاد بالبشائر .

أرسل صلاح الدين باستدعاء العساكر الشرقية ، فجاءه جند سنجار وديار الجزيرة ، ثم جاءه جند الموصل ، ثم جند أربيل ، وكان كل جند إذا وصل يتقدم إلى الفرنج وينضم إليه غيرهم ويقاتلونهم ثم ينزلون . ووصل الأسطول من مصر ، فلما سمع الفرنج بقربه جهزوا إلى طريقه أسطولاً ليلاً ويقاتله ، فركب صلاح الدين في جيشه بكامله ، وقاتلهم من جهاتهم ليشتغلوا بقتاله عن قتال الأسطول ، ليتمكن من دخول عكا ، فلم يشتغلوا عن قصده بشيء ، فكان القتال بين الفريقين برأ وجراً . وكان يوماً مشهوداً لم يُؤرخ مثله .

وأخذ المسلمون من الفرنج مركباً فيه من الرجال والسلاح . وأخذ الفرنج من المسلمين مثل ذلك . إلا أن القتل في الفرنج كان أكثر منه في المسلمين . ووصل الأسطول الإسلامي سالماً .

أعاد الفرنج تنظيم قواتهم ، وخرجوا بفارسهم ورجالهم ، وبعدهم الكثير الذي لا يحصى ، وقصدوا عسكر مصر (في ٢٠ جادي الآخرة) فنظم الملك العادل أبو بكر قواته للقتال والتقدوا واقتلوا قتالاً شديداً ، فانحاز المصريون عنهم ، ودخل الفرنج خيامهم ، ونهبوا أموالهم ، فعطف المصريون عليهم ، فقاتلواهم من وسط خيامهم ، فأخرجوهم عنها . وتوجهت طائفة من المصريين نحو خنادق الفرنج ، فقطعوا المدد عن أصحابهم الذين خرجوا ، وكانوا متصلين كالنمل ، فلما انقطعت أ Maddahem القوا بأيديهم ، وأخذتهم السيوف من كل ناحية ، فلم ينج منهم إلا الشريد ، وقتل منهم مقتلة عظيمة يزيد عدد القتلى على عشرة آلاف قتيل .

وكانت عساكر الموصل بقيادة علاء الدين خرم شاه بن عز الدين مسعود . قريبة من جيش مصر . فحملوا أيضاً على الفرنج ، وبالغوا في قتالهم ، ونالوا منهم نيلاً كثيراً .

هذا جيئه ، ولم يباشر القتال أحد من الحلقة الخاصة التي مع صلاح الدين ، ولا أحد من الميسرة وكان بها عسکر سنجار وإربل وغيرهم بقيادة عماد الدين زنكي . ولما جرى على الفرنج هذه الحادثة ، خدت جرتهم ، وانت عريكتهم ، وأشار المسلمون على صلاح الدين بمبادرةهم القتال مبكراً من الغد ، ومناجزتهم القتال وهم على هذه الحال من الهمج والجزع . فاتفق أنه وصله من الغد كتاب من حلب يخبر فيه بموت ملك الألمان ، وما أصاب أصحابه من الموت والقتل والأسر ، وما صار إليه أمرهم من القلة والذلة ، واشتغل المسلمون بهذه البشرى والفرح بها عن قتال من يزاهم . وظنوا أن الفرنج إذا بلغهم هذا الخبر ازدادوا وهنأ على وهنهم وخوفاً على خوفهم ، فلما كان بعد يومين ، أتت الفرنج أعداد في البحر مع الكونت هنري ابن أخي ملك فرنسا لأبيه وابن أخي ملك انكلترا لأمه ، ووصل معه من الأموال شيئاً كثيراً يفوق الإحصاء ، فجند الأجناد ، وبذل الأموال ، فعادت نفوس الفرنج قوية واطمأنت . وأخبرهم أن الأعداد وائلة إليهم يتلو بعضها بعضاً ، فتماسكوا وحفظوا مكانهم . ثم أظهروا أنهم يريدون الخروج لقتال المسلمين ، فانتقل صلاح الدين من مكانه إلى الخروبة (في ٢٧ جمادى الآخرة) ليتسع المجال ، وكانت المنزلة قد أنتت بريع القتلى ، ثم نصب الكونت منجنيقاً ودببات وعربات ، فخرج من بعكا من المسلمين ، فأخذوها ، وقتلوا عندها كثيراً من الفرنج ، وأراد الكونت بعد أخذ منجنيقاته أن ينصب منجنيقاً ، فلم يتمكن من ذلك لأن المسلمين بعكا يمنعون الفرنج من عمل ساتر يختفي وراءه من يرمي بالمنجنيق ، فعمل تلاً من تراب بعيداً عن البلد ، وأخذ الفرنج في تقديم التل إلى البلد بالتدريج ، ويستترون به ، حتى وصل إلى المسافة التي يمكن للمنجنيق منها أن يرمي بحجاته على البلد ، ونصبوا وراء التل منجنيقين .

كانت المواد التموينية - الميرة - قد قلت بعكا خلال هذه الفترة ، فأرسل صلاح الدين إلى الاسكندرية ، يأمرهم بارسال الأقوات واللحوم وغير ذلك في المراكب إلى عكا ، فتأخر انفاذها . فسير صلاح الدين إلى نائبه بيروت في ذلك ، فأرسل سفينة ضخمة مملوأة من كل ما يريدونه وأمر من بها فلبسو لباس الفرنج وتشبهوا بهم ، ورفعوا عليها الصليبان ، فلما وصلوا إلى عكا لم يشك

الفرنج أنها لهم، فلم يتعرضوا لها، فلما جازت ميناء عكا أدخلها من بها من المسلمين، ففرح أهل عكا وانتعشوا وقويت نفوسهم وتبلغوا بما فيها، إلى أن أتتهم الميرة من الاسكندرية.

وخرجت مملكة من الفرنج من داخل البحر في نحو ألف مقاتل، فأخذت وأسرت بنواحي الاسكندرية. وأخذ المسلمون من كان معها أسرى. ثم إن الفرنج وصلهم كتاب من البابا - وهو كبيرهم الذي يصدرون عن أمره، قوله عندهم كقول النبيين، لا يخالف، والمحروم عندهم من حرمته والمقرب من قربه - يأمرهم بخلاف ما هم بصدده، ويعلمهم أنه قد أرسل إلى جميع الفرنج يأمرهم بالمسير إلى نجدتهم برأ وجرأً، ويعلمهم بوصول الأمداد إليهم، فازدادوا قوة وطمعاً. وتتابعت الأمداد إلى الفرنج، وجعلوا جمعاً كثيراً، فعززوا على الخروج من خنادقهم ومناجزة المسلمين، فتركوا على عكا من يحصراها ويقاتلا أهلها، وخرجوا (يوم ١١ - شوال - ٥٨٦ هـ = ١١٩٠ م) وهم كالرمل كثرة وكالنار حمرة، فلما رأى صلاح الدين ذلك نقل أنقال المسلمين إلى ميمون - وهو على ثلاثة فراسخ من عكا -. وكان قد عاد إليه من فرق عساكره، لما هلك ملك الألان، ولقي الفرنج على تعبية حسنة: فكان أولاده الأفضل على والظاهر غازي والظافر مما يلي القلب، وأخوه العادل أبو بكر في الميمنة ومعه عساكر مصر ومن انضم إليه. وكان في الميسرة صاحب سنجار عماد الدين زنكي وصاحب حمة تقي الدين وصاحب جزيرة ابن عمر - معزالدين سنجرشاه، مع جماعة من الأمراء، واتفق أن أصاب صلاح الدين ألم كان ينتابه في جوفه - مغس - مما أرغمه على البقاء في خيمة صغيرة تم نصبها له على تل مشرف على الجيش. فسار الفرنج شرقي نهر هناك حتى وصلوا إلى رأس النهر، فشاهدوا عساكر الإسلام وكثرتها، فارتاعوا لذلك، واستقبلتهم عناصر الاستطلاع والمقدمات، فأمطرتهم من السهام ما كاد يستر الشمس، فلما رأوا ذلك تحولوا إلى غربى النهر، ولزمهم جند الاستطلاع والمقدمات - الجاليشية - يقاتلونهم، والفرنج قد تجمعوا ولزم بعضهم بعضاً، وكان غرض هذه العناصر من المسلمين دفع الفرنج للقيام

بالمجوم عليهم فيلقاهم المسلمون ويلتحم القتال، فيكون الفصل ويستريح الناس.

ولكن ظهر أن الفرنج قد ندموا على مفارقة خنادقهم، فلزموا مكانهم، وباتوا ليتهم تلك، فلما كان الغد عادوا نحو عكا، ليغتصموا بخندقهم، ولكن عناصر استطلاع المسلمين طاردتهم واحتسبت معهم تارة بالسيوف وتارة بالرماح وتارة بالسهام، وكلما قتل من الفرنج قتيل أخذوه معهم لئلا يعلم المسلمون ما أصابهم. فلما بلغ الفرنج خندقهم ولم يخرجوا بعد ذلك منها، عاد المسلمون إلى خيامهم، وقد قتلوا من الفرنج خلقاً كثيراً.

نصبت جماعة من المسلمين كميناً للفرنج، قرب عكا، (يوم ٢٣ شوال). وأغارت قوة من المسلمين على الفرنج، فخرجت قوة للفرنج ضمت أربعين فارس، فتصدت لها قوة من المسلمين واحتسبت معها، ثم تظاهرت بالانسحاب والتراجع، وتبعهم الفرنج حتى جازوا موضع الكمين، فخرجوا عليهم، فلم يفلت منهم أحد.

اشتد الغلاء على الفرنج حتى بلغت غرارة الخطة أكثر من مائة دينار صوري، فصبروا على هذا، وكان المسلمون يحملون إليهم الطعام من البلدان، منهم مستحفظ بيروت الأمير أسامة الذي كان يحمل إليهم الطعام وغيره، ومنهم أمير صيدا سيف الدين علي بن أحمد المعروف بالمشطوب. وكذلك من عسقلان وغيرها، ولو لا ذلك هلكوا جوعاً، خصوصاً في الشتاء عند انقطاع مراكبهم للياج البحر - .

خاف الفرنج على مراكبهم التي عندهم، وكذلك لما هجم الشتاء وعصفت الرياح، فسيروها إلى بلادهم مثل صور وإلى الجزائر مثل قبرس، فانفتح الطريق إلى عكا في البحر، فأرسل أهلها إلى صلاح الدين يشكون الضجر والملاحة والسمأمة، فأمر صلاح الدين بإقامة البدل وإنفاذه إليها، وإخراج من فيها. وأمر أخاه الملك العادل مباشرة ذلك فانتقل إلى جانب البحر، ونزل تحت جبل حيفا، وجمع المراكب والشوا니 - السفن - وكلما جاءه جماعة من العسكر سيرهم إليها وأخرج عوضهم. فدخل إليها

عشرون أميراً، وكان بها ستون أميراً، فكان الذين دخلوا قليلاً بالنسبة إلى الذين خرجنوا.

وأهمل نواب صلاح الدين تجنيد الرجال وإنفاذهم. وكان على خزانة ماله قوم من النصارى، فكانوا إذا جاءهم جماعة قد جندوا، نعمتهم بأنواع شتى، تارة بإقامة معرفة، وتارة بغير ذلك، فتفرق بهذا السبب خلق كثير، وانضاف إلى ذلك تواني صلاح الدين ووثوقه بنوابه وإهمال النواب.

فانكسر الشتاء والأمر كذلك، وعادت مراكب الفرنج إلى عكا، وانقطع الطريق - إلا من سابع يأتي بكتاب -. وكان قد أشار جماعة على صلاح الدين بأن يرسل إلى من بعكا النفقات الواسعة والذخائر والأقوات الكثيرة، ويأمرهم بالمقام، فإنهم قد جربوا وتدربوا واطمأنت نفوسهم على ما هم فيه، فلم يفعل، وظن فيهم الضجر والملل وأن ذلك يحملهم على الضجر والفشل.

وصلت امدادات الفرنج من الغرب، إلى الفرنج القائمين على حصار عكا، وكان أول من وصل ملك فرنسا - فيليب أغسطس - في الثاني عشر من ربيع الأول سنة ٥٨٢ هـ = ١١٩١ م.

ولم يكن في الكثرة التي ظنواها، وإنما كان معه ست سفن كبيرة فقويت به نفوس من على عكا منهم. ولحوذا في قتال المسلمين الذين فيها. وكان صلاح الدين بشفرعم، فكان يركب كل يوم ويقصد الفرنج ليشغلهم بالقتال عن الزحف على عكا. وأرسل إلى مستحفظ بيروت - الأمير أسامة - يأمره بتجهيز ما عنده من السفن الكبيرة - الشوانى - والمراكب، وشحنتها بالمقاتلين، وتسيرها في البحر لمنع الفرنج من الوصول إلى عكا. فعل ذلك، وسير السفن، فصادفت خمسة مراكب للفرنج مملوءة بالرجال من أصحاب ملك إنكلترا - ريتشارد قلب الأسد - الذي كان قد تأخر بقبرس، وأرسلهم أمامه، فاقتلت سفن المسلمين مع مراكب الفرنج، فانتصر المسلمون عليهم، وأخذوهم وغنموا ما معهم من قوت ومتاع ومال وأسرروا الرجال. وكتب أيضاً صلاح الدين إلى من بالقرب من النواب له يأمرهم بمثل ذلك فعلوا. وأما

الفرنج القائمين على حصار عكا فانهم لازموا قتال من بها ، ونصبوا عليها سبع منجنيقات (٤ جادى الأولى) . فلما رأى صلاح الدين ذلك ، انتقل من شفرعم ونزل عليهم ، لئلا يتعب العسكر كل يوم في المجيء إليهم والعود عنهم ، فقرب منهم ، وكانوا كلما تحركوا للقتال ركب وقاتلهم من وراء خندقهم ، فكانوا يشتغلون بقتالهم فيخف القتال عن بعيداً من المسلمين .

ثم وصل ملك انكلترا ريتشارد قلب الأسد (في ١٣ جادى الأولى) ومعه خمسة عشرين قطعة كباراً مملوئة رجالاً وأموالاً ، فعظم به شرّ الفرنج واشتدت نكباتهم في المسلمين ، وكان رجل زمانه شجاعة ومكرًا وجلاً وصبراً ، ويل المسلمين منه بالداهية التي لا مثل لها . ولما وردت الأخبار بوصوله أمر صلاح الدين بتجهيز سفينة كبيرة مملوأة من الرجال والعدد والأقوات ، فتجهزت وسیرت من بيروت . وفيها سبعمائة مقاتل ، فلقيها ملك انكلترا مصادفة ، فقاتلها ، وصبر من فيها على قتالها ، فلما أيسوا من الخلاص ، نزل مقدمها - وهو يعقوب الخليبي - إلى أسفلها فخرقها خرقاً واسعاً لئلا ينضر الفرنج بن فيها وما معهم من الذخائر ، ففرق جميع ما فيها

مضى عامان وأهل عكا في ضيق وكرب وحصار ، وأدرك أمير عكا - سيف الدين علي بن أحد المكاري المعروف بالمشطوب - أنه بات من الحال الاستمرار في المقاومة ، فقرر الدخول في مفاوضات مع الفرنج لتسليم عكا ، فخرج إلى ملك فرنسا ومعه عدة من الأمراء ، وعرض تسلیم البلد والسماح لأهله المسلمين بالخروج من البلد واللحاق بالمسلمين ، فلم يوافق ملك فرنسا ، وعاد - المشطوب - إلى عكا ، وقد ضعفت نفوس أهلها وتخاذلوا وأهتمتهم أنفسهم . ثم أن الأمير بن عز الدين الأسدى وابن عز الدين جاوي ومعهم جماعة من الأمراء ، خرجوا ليلاً من عكا ولحقوا بمعسكر صلاح الدين ، فزادداد الناس وهنأ إلى وهنهم وضعفوا إلى ضعفهم ، وأيقنوا بالهلاك . وأرسل الفرنج إلى صلاح الدين لتسليم عكا بشرط اطلاق أسرى من الفرنج بعدد من كان من المسلمين بعكا ، وأن يسلم إليهم صليب الصليبيوت . ووافق صلاح الدين ، ولكن الفرنج عادوا واشتبوا في الطلب ، فأرسل صلاح الدين إلى أهل عكا وأمرهم بالخروج من عكا يداً واحدة ، وأن يتركوا البلد بما فيه ، ووعدهم أنه يتقدم إلى تلك الجهة التي

يخرجون منها بجيشه ويقاتل الفرنج فيها، وشرعوا في ذلك، واستغل كل منهم باستصحاب ما يملكون، فما فرغا من أشغالهم حتى أسر الفرنج، فبطل ما عزموا عليه لظهوره وافتتاح سرّه. وزحف الفرنج بجدهم وحديدهم إلى عكا، فظهر من بالبلد على سوره يحركون أعلامهم ليراها المسلمين - وكانت هي العلامة إذا اخترتهم أمر - فحملوا على الفرنج من جميع جهاتها طلباً منهم أن يستغل الفرنج عن الذين بعكا، وصلاح الدين يحرضهم وهو في أولهم، وكان الفرنج قد خفوا عن خنادقهم، ومالوا إلى جهة البلد، فقرب المسلمون من خنادقهم حتى كادوا يدخلونها عليهم ويضعون السيف فيهم، فعاد الفرنج إلى خنادقهم، ومنعوا المسلمين وتركوا في مواجهة عكا من يقاتل أهلها. فلما رأى المشطوب أن صلاح الدين لا يقدر على نفع، ولا يدفع عنهم ضرراً، خرج إلى الفرنج، واتفق معهم على تسلیم البلد وخروج من فيه بأموالهم، وأنفسهم، وبذل لهم عن ذلك مائتي ألف دينار وخمسة وأربعين أسيراً من المعروفين وإعادة صليب الصليبوس، وأربعة عشر ألف دينار للمركيز صاحب صور. فأجابوه إلى ذلك وحلفو له عليه. واتفقوا على أن تكون مدة تحصيل المال وإطلاق سراح الأسرى إلى شهرين. فلما حلفو له سلم البلد إليهم، ودخلوه سلماً يوم الجمعة سابع عشر جمادي الآخرة سنة ٥٨٧ هـ = ١١٩١ م. فلما دخلوه وملكته غدروا واحتجزوا من فيه من المسلمين وأموالهم، وحبسوهم. وأظهروا وأنهم يفعلون ذلك حتى يتسلموا ما تم الاتفاق عليه.

وراسل الفرنج صلاح الدين في إرسال الأموال والأسرى وصليب الصليبوس حتى يطلقوا من عندهم، فشرع في جمع المال، وكان هو الأمان له، إنما يخرج ما يحصل إليه من دخل البلد أولاً بأول، فلما اجتمع عنده من المال مائة ألف دينار، جمع الأمراء واستشارهم. فأشاروا بأن لا يرسل شيئاً حتى يعاود يستخلفهم على إطلاق أصحابه، وأن يضمن الداوية ذلك. فراسلهم صلاح الدين في ذلك، فقال الداوية: «لا تحلف ولا نضمن لأننا نخاف غدر من عندنا». وقال ملوكهم: «إذا سلمتم إلينا المال والأسرى والصلب، فلنا الخيار فيمن عندنا». فحينئذ علم صلاح الدين عزمهم على العذر، فلم يرسل إليهم شيئاً.

أضحي ريتشارد قلب الأسد حريصاً على أن يغادر عكا، وأن يزحف على بيت المقدس، وصار الأسرى المسلمين مصدر حيرة له. فانشرح صدره لما تهيا له من الذريعة للتخلص منهم، فأعلن في بروت شديد يوم الثلاثاء ٢٧ رجب ٥٨٧ هـ (٢٠ - آب - أغسطس - ١١٩١ م) أي بعد أن مضى ما زاد على أسبوع على عودة الرسل إليه، أن صلاح الدين نقض عهده، وأمر بالاجهاز على سبعمائة وألفي أسير من المسلمين الذين بقوا على قيد الحياة من حامية عكا. فاشتدت حماسة عساكره للقيام بهذه المجزرة، وأقبلوا على تنفيذها في جذل وسرور.

ولقيت زوجات الأسرى وأطفالهم مصرعهم إلى جوارهم. ولم يبقوا على حياة أحد - سوى بعض الأعيان - وبعض الرجال الأشداء للإفادة منهم في أعمال السخرة، وشهد المسلمين المرابطون في أقرب المعاقل إلى عكا ما قد حدث، فاندفعوا لإنقاذ ذويهم، وعلى الرغم من أنهن ظلوا يقاتلون حتى حلول الظلام، فإنهم لم يستطيعوا الوصول إليهم. ولما انتهت المذبحة. غادر الانكليز البقعة، وتقدم المسلمون للتعرف على إخوانهم الشهداء، ودفهم.

قاد ريتشارد الجيش الصليبي يوم الخميس ٢٩ رجب (٢٢ - آب - أغسطس) وغادر عكا، وقد تغيب عن مرافقته عدد كبير من البارونات المحليين. وكان الفرنسيون بقيادة دوق برغنديا في مؤخرة الجيش، قد خرجوا من عكا ساخطين، فما من أحد من العسكر يريد مغادرة المدينة التي ظلوا يعيشون فيها حتى الشهر الأخير في راحة ونعم، بما توافر فيها من الخبز والطعام، وبين تكاثر فيها من النساء الساقطات لأشباع شهواتهم. وما من أحد منهم ارتاح لما سمعه من أنه لم يسمح بأن يصحبهم من العاملات في العسكر سوى الفسالات، غير أن قوة شخصية ريتشارد قهرتهم. أما صلاح الدين فهاز عمال معسكراً في شفرعم، التي تحكمت في الطريقين الرئيسين الممتدتين من الساحل، فيتجه أحدهما إلى طبرية ودمشق، بينما يجتاز الطريق الثاني الناصرة إلى بيت المقدس.

عندما علم صلاح الدين برحيل الفرنج، نادى في عسكره بالرحيل، فساروا ، ودفع أمامه عناصر الاستطلاع والمقدمات بقيادة ابنه الملك الأفضل ومعه عدة من شجعان الأمراء، فضايقوا الفرنج في مسيرهم، وأرسلوا عليهم من السهام ما كان يحجب الشمس، ووقعوا على مؤخرة قوات الفرنج - ساقتهم - فقتلوا منها جماعة، وأسروا جماعة، وأرسل الأفضل إلى والده يستمدّه ويعرفه الحال، فأمر العساكر بالمسير إليه، فاعتذروا بأنهم ما ركبوا بأبهة الحرب وإنما كانوا على عزم المسير لا غير ، فبطل ارسال المدد. وعاد ملك انكلترا - ريتشارد - إلى ساقة الفرنج فحرها ، وجمعهم، وساروا حتى وصلوا حيفا ، فنزلوا بها . ونزل المسلمين بقرية قربة منهم - اسمها قيمون - وأحضر الفرنج من عكا عوض من قتل منهم وأسر ذلك اليوم وعوض ما هلك من الخيل ، ثم ساروا إلى قيسارية ، والمسلمون يسيراً ونهم ويتحفظون منهم ، ويقتلون على من قدروا عليه منهم ، لأن صلاح الدين كان قد أقسم أنه لا يضفر بأحد منهم إلا قتله بن قتلوا من كان بعكا . فلما قاربوا قيسارية ، لاصقهم المسلمين ، وقاتلواهم أشد قتال ، فنالوا منهم نيلاً كثيراً . ونزل الفرنج بها . وبات المسلمين قريباً منهم . فلما نزلوا ، خرج من الفرنج جماعة فابعدوا عن جماعتهم ، فأوقع بهم المسلمين الذين كانوا في الاستطلاع ، فقتلوا وأسروا منهم . ثم سار الفرنج من قيسارية إلى أرسوف ، وكان المسلمين قد سبقوهم إليها ، ولم يكن لهم مسيرة لهم لضيق الطريق . فلما وصل الفرنج إليهم ، حل المسلمين عليهم حلة منكرة ألحوهم بالبحر ودخله بعضهم . فلما رأى الفرنج ذلك اجتمعوا وحملت الخيالة على المسلمين حلة رجل واحد ، فولوا منهزمين لا يلوى أحد على أحد . وكان كثير من الخيالة والسوق قد ألغوا إقامة الخيام وقت الحرب قريباً من ميدان المعركة ، فلما كان ذلك اليوم كانوا على حالم . فلما انهزم المسلمون عنهم قتل منهم كثير ، والتجأ المنهزمون إلى القلب وفيه صلاح الدين ، فلو علم الفرنج أنها هزيمة ، لتبعتهم ، و Ashton هزيمة وهلك المسلمين ، ولكن كان بالقرب من المسلمين غيضة كثيرة الشجر ، فدخلوها ، وظنّها الفرنج مكيدة ، فعادوا وزال عنهم ما كانوا فيه من الصيق ، وقتل من الفرنج كونت كبير - الفارس جيمس أفيستيز - . وقتل من المسلمين مثله . فلما نزل الفرنج ، نزل المسلمين وأعنّة خيولهم بأيديهم ، ثم سار

الفرنج إلى يافا فنزلوها ، ولم يكن بها أحد من المسلمين فملكوها . وسار صلاح الدين عنهم إلى الرملة - واجتمع بائقاته بها ، وجمع الأمراء واستشارهم فيها يفعل ، فأشاروا عليه بتخريب عسقلان ، وقالوا له : « قد رأيت ما كان منها بالأمس - عند الهزيمة في أرسوف - وإذا جاء الفرنج إلى عسقلان ووقفنا في وجههم نصد هم عنها ، فهم لا شك يقاتلونا عنها ، وينزلون عليها . فإذا كان ذلك عدنا إلى مثل ما كنا عليه على عكا ، ويعظم الأمر علينا لأن العدو قد قوي بأخذ عكا وما فيها من الأسلحة وغيرها . ونحن قد ضعفنا بما خرج عن أيدينا ، ولم تطل المدة حتى تستجد غيرها ». فلم تسمح نفسه بتخريبها ، وندب الناس إلى دخولها والدفاع عنها ، فلم يجده أحد إلى ذلك ، وقالوا :

« إن أردت حفظها فادخل أنت معنا أو بعض أولادك الكبار وإلا فما يدخلها من أحد ، لئلا يصيّنا ما أصاب أهل عكا ».

لما رأى صلاح الدين ذلك ، سار إلى عسقلان ، وأمر بتخريبها (في ١٩ شعبان ٥٨٧ هـ) وألقيت حجارتها في البحر ، وهلك فيها من الأموال والذخائر التي للسلطان والرعاية مala يمكن حصره ، وعفي أثرها حتى لا يبقى للفرنج فيها مطعم . ولما علم الفرنج بتخريبها أقاموا مكانهم ولم يسروا إليها . وكان المركيز - كنراد مونتفيرات - لما أخذ الفرنج عكا ، قد أحس من ملك انكلترا بالغدر به ، فهرب من عنده ولجأ إلى مدينة صور ، وهي له وببيده - وكان رجل الفرنج رأياً وشجاعة وهو الذي أثار هذه الحرب كلها ، فلما خربت عسقلان ، أرسل إلى ملك انكلترا يقول له : « مثلك لا ينبغي أن يكون ملكاً ، ويتقدم على الجيوش . تسمع أن صلاح الدين قد خرب عسقلان وتقيم مكانك يا جاهل لما بلغك أنه قد شرع في تخريبها ، ولو أنك سرت إليه مجدأ فأبعدته عنها لملكتها صفوأً عفوأً بغير قتال ولا حصار ، فإنه ما خربها إلا وهو عاجز عن حاليها وحفظها . وإنني لو كنت معك ، وحق المسيح ، لكانت عسقلان اليوم بأيدينا ، لم يخرب منها غير برج واحد » .

عندما فرغ صلاح الدين من تخريب عسقلان ، رحل عنها (يوم ٢ رمضان ٥٨٧ هـ) ومضى إلى الرملة ، فخرّب حصنها ، وخرّب كنيسة لد ، ثم سار إلى القدس

فأعاد تنظيم أمورها ودعم دفاعاتها وزودها بالذخائر والأسلحة والرجال. وعاد إلى معسكره. وخرج ملك إنكلترا من يافا ومعه نفر من الفرنج من معاشرهم، فصدق متهم قوة من المسلمين وقاتلتهم قتالاً شديداً حتى كاد ملك إنكلترا يؤخذ أسرىً، فجاء بعض أصحابه، ودفعوا حياتهم ثمناً لحياته. ووّقعت معركة أخرى بين طائفتين من جند ريتشارد وبين المسلمين، كان النصر فيها للMuslimين. ولما رأى صلاح الدين أن الفرنج قد لزموا يافا ولم يفارقوها، وشروعوا في عمارتها، رحل من معسكره إلى النطرون (١٣ - رمضان) وخيم به، فراسله ملك إنكلترا بطلب المهاونة. فكانت الرسل تتردد إلى الملك العادل أبي بكر بن أيوب أخي صلاح الدين، فاستقرت القاعدة أن ملك إنكلترا يزوج أخته - الملكة جوانا، أو اليانور كونتيستة بريطاني - من العادل، ويكون القدس وما بأيدي المسلمين من بلاد الساحل للعادل، ويكون عكا وما بيد الفرنج من البلاد لأخت ملك إنكلترا، مضافاً إليها مملكة كانت لها داخل البحر قد ورثتها من زوجها. وأن يرضى الداوية والاستبارية بما يقع الاتفاق عليه. فعرض العادل ذلك على صلاح الدين، فوافق عليه. فلما ظهر الخير اجتمع القسيسون والأساقفة والرهبان إلى أخت ملك إنكلترا - الملكة جوانا - وأنكروا عليها، فامتنع من الإجابة - وقيل كان المانع منه غير ذلك والله أعلم -. وكان العادل وملك إنكلترا يجتمعان بعد ذلك، ويتجاريان حديث الصلح. وطلب من العادل أن يسمعه غناء المسلمين، فأحضر له مغنية تضرب بالجنب فغنت له ، فاستحسن ذلك . ولم يتم بينهما صلح.

كان ملك إنكلترا - ريتشارد - يفعل ذلك خديعة ومكرًا ، ثم إن الفرنج أظهروا العزم على قصد القدس ، فسار صلاح الدين ومعه قوة من الفرسان الخفيفة إلى الرملة ، وترك الأثقال بالنطرون . وقرب من الفرنج ، وبقي عشرين يوماً ينتظرون ، فلم يبرحوا فكان بين الطائفتين مدة المقام عدة وقفات ، في كلها ينتصرون المسلمين على الفرنج - وعاد صلاح الدين إلى النطرون . ورحل الفرنج من يافا إلى الرملة على عزم قصد القدس (يوم ٣ ذي القعدة) فقرب بعضهم من بعض ، فعظم الخطب واشد الحذر ، فكان كل ساعة يقع الانذار في المعسكرين بوقوع المعركة ، فلقوا من ذلك شدة شديدة . وأقبل الشتاء ، فاحتجز بينهما . ولما رأى صلاح الدين أن الشتاء قد هجم ،

والأمطار متواتلة متتابعة ، والناس منها في ضنك وحرج من شدة البرد ولبس السلاح والسهور في تعب دائم ، وكان كثير من العساكر قد طال بعدها عن أوطانها ، أذن لهم في العود إلى بلادهم للراحة والاستعداد . وسار هو إلى القدس فيمن بقي معه ، فنزلوا جميعا داخل البلد ، فاستراحوا بما كانوا فيه ونزل هو بالمسجد الأقصى ، مجاور بيعة القهامة - كنيسة القيامة - وقدم إليه عسكر مصر ، فقويت نفوس المسلمين بالقدس . وسار الفرنج من الرملة إلى النطرون (يوم ٣ ذي الحجة) على عزم القدس . فكانت بينهم وبين مقدمات المسلمين ومفارز استطلاعهم وقعات واستباقات ، وأسر المسلمون في وقعة منها نيفاً وخمسين فارساً من مشهوري الفرنج وشجاعتهم ، وكان صلاح الدين لما دخل القدس ، أمر بمعارة سورة ، وتجديده ما تداعى منه ، فأحكم الموضع الذي ملك البلد منه وأتقنه وأمر بحفر خندق خارج الفصيل . وسلم كل برج إلى أمير يتولى عمله . فوضع ولده الأفضل من ناحية باب عمود إلى باب الرحمة ، وأرسل صاحب الموصل أتابك عز الدين مسعود جماعة من الجحاصين لهم في قطع الصخر اليد الطولي ، فعملوا له هناك برجاً وبدنة . وكذلك جمع الجميع الأمراء . ثم إن الحجارة قلت عند العمال ، فكان صلاح الدين يركب وينقل الحجارة بنفسه على دابته من الأمكنة البعيدة ، فيقتدي به العسكر . فكان يجمع عنده من العمال في اليوم الواحد أكثر من يعملون قدر عدة أيام .

عاد الفرنج إلى الرملة (في ٢٠ من ذي الحجة) . وكان سبب عودهم أنهم كانوا ينقلون ما يريدونه من الساحل . فلما ابتعدوا عنه ، كان المسلمون يخرجون على من يجلب لهم الإمدادات والمواد التموينية ، فيقطعون الطريق ويغنمون ما معهم . ثم إن ملك انكلترا قال لمن معه من الفرنج الذين أقاموا من قبل في الشام : « صوروا لي مدينة القدس فإني ما رأيتها ». فصوروها له . فرأى الوادي المحيط بها ما عدا موضعًا يسيراً من جهة الشمال . فسأل عن الوادي وعن عمقه ، فأخبر أنه عميق وعر المسالك ، فقال : « هذه مدينة لا يمكن حصرها ، طالما بقي صلاح الدين حياً ، وطالما بقيت كلمة المسلمين مجتمعة . لأننا إن نزلنا في الجانب الذي يلي المدينة ، بقيت سائر الجوانب غير محصورة ، فيدخل إليهم منها الرجال والذخائر وما يحتاجون إليه ، وإن نحن افترقنا ، فنزل بعضنا من جانب الوادي وبعضنا من الجانب الآخر ، جمع صلاح الدين جيشه ،

وهاجم إحدى الطائفتين، ولا تستطيع الطائفة الأخرى تقديم المساعدة لأنها إن فارقت مكانها ، خرج المسلمين من القدس فغنمو ما فيه معسكرها ، وإن تركوا فيه من يحميه وساروا إلى أصحابهم ، وإلى أن يعبروا الوادي ويلحقوا بهم ، يكون صلاح الدين قد فرغ منهم . هذا سوى ما يتعدى علينا من إيصال ما يحتاج إليه الجندي التموين والامداد ». فلما قال لهم ذلك ، علموا صدقه ، ورأوا قلة الأطعمة والتموين عندهم ، وما يجري للجالبين لها على أيدي المسلمين ، فأشاروا عليه بالعود إلى الرملة . فعادوا خائبين خاسرين .

أراد ملك انكلترا ريتشارد تغطية فشله في الوصول إلى القدس ، فقرر بناء عسقلان . فسار بجيشه إليها (في محرم سنة ٥٨٨ هـ = ١١٩٢ م) . وشرع في تشييد تحصيناتها وخرج بقوة من الفرسان الخفيفة لمهاجمة عناصر استطلاع المسلمين ، فواقعهم وجرى بين الطائفتين قتال شديد انتصف بعضهم من بعض . وبقي صلاح الدين متقياً في القدس ، إلا أن سراياه ما برح تقصد الفرنج ، فتارة تواقع طائفة منهم ، وتارة تقطع التموين عنهم ، ومن جلتها سرية خرجت على قافلة كبيرة للفرنج فأخذتها وغنممت ما فيها . وكان صلاح الدين قد أرسل إلى مقدم طائفة الاسماعيلية - سنان شيخ الجبل - لقتل ملك انكلترا أو قتل المركيز كنزاد مونتفيرات ، مقابل عشرة آلاف دينار . فوجد سنان أن قتل ملك انكلترا ليس في مصلحته ، لثلا يخلو وجه صلاح الدين من الفرنج ، ويترفع له ولطائفته ، ولكنه رغب في الحصول على المال ، فقرر قتل المركيز كنزاد فأرسل رجلين في زي الرهبان ، واتصالاً بصاحب صيدا وصاحب الرملة باليان ابن بارزان ، وكانتا مع المركيز بصور ، وأقاما معهما ستة أشهر وها يظهران النسك والعبادة ، ووثق بها المركيز ، فلما كان يوم الثلاثاء ثالث عشر ربيع الآخر سنة ٥٨٨ هـ (٢٨ نيسان - ابريل - ١١٩٢) أقام أسقف بوبيه مأدبة عشاء ، حضرها المركيز ، وأكل طعامه ، وشرب مدامه ، وخرج من عنده ، فوثب عليه الباطنيان المذكوران فجرحاه جراحًا وثيقه . وهرب أحدهما ودخل كنيسة يختفي بها - فاتفق أن المركيز حمل إليها لمعالجة جراحه ، فوثب عليه ذلك الباطني فقتله ، وقتل الباطنيان بعده .

ونسب الفرنج قتله إلى ملك انكلترا ، لينفرد بملك الساحل الشامي . فلماً قتل ولي بعده الملك كند من الفرنج من داخل البحر يقال له الكند هري - الكونت هنري كونت شامبانيا - وتزوج بالملكة - ايزابيلا - وهو ابن أخت ملك فرنسا من أبيه ، وابن أخت ملك انكلترا من أمه ، وملك الكونت هنري بلاد الساحل ، وأصبح ملكاً على الفرنج .

ما إن فرغ الفرنج من تسوية مشكلاتهم الداخلية ، حتى وجه ملك انكلترا - ريتشارد - الدعوة إلى الملك هنري - ملك القدس والفرنج - ليلحق به في عسقلان - . وترددت شأنة عن قيام ابن أخي لصلاح الدين بالخروج على طاعة السلطان واستقلاله باقليم الجزيرة . فقرر ريتشارد أن يقوم بهجوم مباغت على حصن الداروم الساحلي والذي يبعد عشرين ميلاً من عسقلان . غير أن هنري ومن معه من الجيش الفرنسي أضعوا الوقت في اللهو والعبث في عكا . ولهذا لم ينتظر ريتشارد وصوّلهم ، ومضى في زحفه براً وبحراً وأمكن له بعد قتال مرير استمر خمسة أيام أن يقتتح المدينة السفل ، واستسلمت حامية القلعة . ولم يتعلم ريتشارد شيئاً من مروءة صلاح الدين أو من فضائل المسلمين ، فتم ذبح رجال الحامية ، وجرى تعليق بعضهم على شرفات الحصن . وفرض على سواهم الأسر .

لقد استولى الفرنج الصليبيون على الداروم وهي آخر حصن بقي في قبضة المسلمين على ساحل فلسطين ، دون مشقة كبيرة ، مما رفع من الروح المعنوية للصلبيين ، فقرروا مجدداً الزحف على القدس . ووصل هنري والعساكر الفرنسيون إلى الداروم بعد يوم من استيلاء ريتشارد عليها ، فعاد الجيش إلى عسقلان ، واتفق الانكлиз والفرنسيون على مهاجمة القدس . وسار الجيش الصليبي مرة أخرى من عسقلان ، واجتاز الرملة ، ووصل إلى النطرون فتوقف فيها ، وتلقى صلاح الدين - في القدس - امدادات من الجزيرة والموصل ، فلجأ الجانبان إلى المناوشات

وعلم ريتشارد أن قافلة ضخمة للمسلمين قادمة من الجنوب إلى القدس ، فانقض

عليها عند أبار الخوبلفة الواقعة في أقليم مقفر على بعد عشرين ميلاً إلى الجنوب الغربي من حبرون - ولم يكن المسلمين مستعدين للهجوم ، واستولى ريتشارد على القافلة بعد معركة قصيرة وحاسمة . فصار لدى الفرنج كميات ضخمة من المؤن ، وبضعة آلاف من الجنادل والإبل ، وعاد الجيش الصليبي متتصراً إلى معسكره في بيت نوبة . وارتاع صلاح الدين لضياع القافلة التي أمدت الفرنج بالقدرة لتابعة الهجوم على القدس ولكن الانباء التي كانت تصل تباعاً للملك ريتشارد عن تدهور الموقف في بلاده - انكلترا - حمله على العودة إلى يافا . وجرت مفاوضات من جديد - تخللها هجوم المسلمين على يافا ثم نجاح ريتشارد في استعادتها .

اقتنع ملك انكلترا بأنه من المحال عليه تحقيق أكثر مما حققه ، وأنه لا سبيل له لاستعادة القدس ، وليس باستطاعته مفارقة ساحل البحر ، وليس لل المسلمين بلد يطمع فيه . وقد طالت غيبته عن بلاده وظهرت أمور استدعت عودته ، فأرسل إلى صلاح الدين بطلب الصلح ، فلم يجده صلاح الدين ظناً منه أنه يفعل ذلك خديعة ومكرًا ، على نحو ما فعل من قبل ، ورد عليه صلاح الدين بطلب المصالف وال الحرب . فأعاد ريتشارد رسالته مرة بعد مرة ، وتوقف عن بناء عسقلان وغزة والداروم والرملة . وأرسل إلى الملك العادل في تقرير هذه القاعدة ، فأشار هو وجامعة الأمراء على صلاح الدين بالإيجابة إلى الصلح ، وعرفوه ما عند العسكر من الضجر والملل . وما قد هلك من أسلحتهم ودواهم ، ونفذ من نفقاتهم ، وقالوا له : « إن هذا الفرنجي إنما طلب الصلح ليركب البحر ويعود إلى بلاده . فإن تأخرت إجابته إلى أن يحيي الشتاء وينقطع الركوب في البحر ، تحتاج للبقاء هنا سنة أخرى ، وحينئذ يعزم الضرر على المسلمين ».

استطاع أمراء صلاح الدين اقناعه بالاستجابة لطلب ريتشارد . وعلم صلاح الدين أن خصميه مصاب بالحمى ، فأرسل إليه الخوخ والكمثرى ، والثلج من جبل الشيخ حرمون - لتبريد أشربه ، وحضر رسل الفرنج ، وعقدوا المهدنة ، وتحالفوا على هذه القاعدة ، وكان في جملة من حضر عند صلاح الدين باليان إبلين - الذي كان صاحب الرملة ونابلس وهنري كونت شامانيا ، ومقدماً الاستبارية والداوية ، وعقدت المهدنة

يوم ٢٠ شعبان سنة ٥٨٨ هـ (٢ - أيلول - سبتمبر - ١١٩٢ م) وحددت بمنطقة
ثلاث سنين وثمانية أشهر. أوها يوم التوقيع على المدنة.

وأقرت المدنة للصلبيين احتفاظهم بالمدن الساحلية جنوباً حتى يافا. وأضحت
الحجاج الحرية في زيارة الأماكن المقدسة. وللمسلمين والمسيحيين الحق في أن يجتاز
كل فريق منهم بلاد الفريق الآخر. أما عسقلان فكان لا بد من تدميرها.

قال بالبيان إبلين لصلاح الدين عندما وقع على اتفاقية المدنة: «ما عمل أحد
في الإسلام ما عملت، ولا هلك من الفرنج مثل ما هلك منهم هذه المدة، فإننا
أحصينا من خرج إلينا في البحر من المقاتلة، فكانوا ستائة ألف رجل، ما عاد
منهم إلى بلادهم من كل عشرة واحد، بعضهم قتلتهم أنت، وبعضهم مات،
وبعضهم غرق».

أذن صلاح الدين للفرنج في زيارة القدس، بعد التوقيع على المدنة، فزاروها
وتفرقوا. وعادت كل طائفة إلى بلادها. وأقام الكونت هنري ملكاً على الفرنج، وكان
خير الطبع قليل الشرّ رفيقاً بال المسلمين محبّاً لهم. وسار صلاح الدين إلى القدس، فأحكم
أمرها، وأمر ببناء مدرسة وبيمارستان ورباط فيها. وصام رمضان بالقدس. وعاد إلى
دمشق، ففرح به أهل دمشق فرحاً شديداً، لطول غيابه، وذهب العدو عن بلاد
الإسلام. ولكن رحلة العمر انتهت، فانتقل صلاح الدين إلى الرفيق الأعلى ★.

بذلك بلغت الحملة الصليبية الثالثة نهايتها، فلن يتوجه ثانية إلى بلاد الشام
مثل هذا الحشد الهائل من القوات، ومثل هذا اللثيف من الملوك والأمراء. ومع
أن أوروبا الغربية بأسرها اتخدت في ذلك الجهد الكبير، فان ما حصلت عليه

* صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادي (٥٣٢ - ٥٨٩ هـ = ١١٣٧ - ١١٩٣ م) توفي عن ٥٧ عاماً قضاهما في الجهاد في سبيل الله. مات ولم يخلف في خزائنه غير دينار صوري، وأربعين درهماً، أتفق كل ما تحصل لديه للجهاد، فأخرج في مدة مقامه على عكا قبلة الفرنج، ثمانية عشر ألف دابة من فرس وبلغ سوى الجبال، وأما العين والشياط والسلاح فإنه لا يدخل تحت الحصر. ولد في تكريت.
وتوفي في دمشق - وخلف سبعة عشر ولداً ذكراً.

من نتائج كان ضئيلاً. فكل ما حصلت عليه هذه الحملة هو إعادة احتلال عكا، والمدن الساحلية حتى يافا . ولكن الدرس غير المباشر لهذه الحملة كان كبيراً. فقد استنزفت الحملة قدرات المسلمين وامكانياتهم ، وأوقفت مدهم المتتصاعد. فكان لا بد من انقضاء فترة أخرى قبل تصعيد حركة الجهاد الإسلامي من جديد .

١٣ - الصليبيون في دمياط.

انصرف الفرنج والمسلمون إلى أمرهم الداخلية - طالما أنه لم تعد هناك قضايا خارجية يستغلون بها ، ولقد كان للفرنخ مشكلاتهم المعقدة ، والتي لم تكن على كل حال أقل حرجاً أو تعقيداً من مشكلات المسلمين . وكان صلاح الدين يدرك ذلك ، فحرص على تحقيق التماسك لدولته بأن جعل الأمر فيها لابنه الأفضل ، فلما شعر بدنو أجله ، استدعاي الأمراء وكبار القادة ، وأخذ عليهم العهود والمواثيق بالإخلاص لدولته ولبنيه من بعده . وألزمهم بالقسم على ذلك★ . ولكن تلك الاجراءات المسبقة التي اتخذها صلاح الدين لم تكن ثابتة ولا مستقرة . فعندما توفي صلاح الدين ، كان معه بها ولده الأكبر الأفضل نور الدين علي ، وحلف له الجندي ، وملك الساحل والقدس وبعلبك وصرخد وبصرى وبانياس وهو نين وتبنين وجميع الأعمال إلى الداروم .

وكان ولده الملك العزيز عثمان بمصر ، فاستولى عليها واستقر ملكه بها . وكان ولده الظاهر غازي بحلب فاستولى عليها وعلى جميع أعمالها مثل حارم وتل باشر وإعزاز وبرزية ودرب ساك ومنبج وغير ذلك . ولم يكن قد بقي على قيد الحياة من أخوة صلاح الدين ، عند وفاته سوى : طفتكين ، الذي سبق أن خلف نورانشاه في الإمارة على اليمن . ثم العادل ، الذي كان من الطموح ما جعل صلاح الدين يرتاب

* كان نص القسم كالتالي : «إنني من وقتي هذا ، قد أصفيت نبي ، وأخلصت طويبي للملك الناصر - صلاح الدين - واني لا أزال باذلاً جهدي في الذب عن دولته بنفسي وماله وسيفي ورجاله ، ممتلاً أمره ، واقفاً عند مراضيه ، ثم من بعده لولده الملك الأفضل علي . ووالله انني في طاعته ، وأذب عن دولته وببلاده بنفسي وماله وسيفي ورجاله ، وأمثال أمره ونبيه ، وباطني وظاهري في ذلك سواء . والله على ما أقول وكيل » .

النواذر السلطانية - ابن شداد - نشر الدكتور الشيال ، ص: ٢٤٥ .

فيه. فترك له اقطاع الرها وما حولها من بلاد الجزيرة، بالإضافة إلى اقطاع البلاد الواقعة وراء نهر الأردن. وحاز أبناء أخيه صلاح الدين وأبناء عمومته اقطاعات صغيرة. أما الأميران الزنكيان: عز الدين وعماد الدين، فحاذا الموصى وسنجار، فيما استقر النساء الأربع في ماردين وحصن كيما، وبقيت خلاط في قبضة أشهر أمراء صلاح الدين - الأمير بكتمر -.

وبوفاة صلاح الدين أخذت الجبهة الإسلامية بالتداعي والتمزق. فبينما ظهر التحاسد بين أبناء صلاح الدين، تحرك الشمال الشرقي لإعادة حكم الزنكيين في شخص أمير الموصى عز الدين، الذي سانده بكتمر والأمراء الأربع. ولم ينقذ الأيوبيين إلا ما اتخذه العادل من التدابير العاجلة والناجعة، والتي مارست فيها يد القدر لعبتها، حيث توفي الأميرين عز الدين وبكتمر في السنة ذاتها (٥٨٩ هـ = ١١٩٣ م). ولكن، مع زوال هذا الخطر، ظهر التمزق في الجنوب، حيث خرج الملك العزيز جيشه من مصر، وهاجم دمشق. فأرسل الأفضل إلى عميه الملك العادل أبي بكر بن أيوب، وهو صاحب الديار الجزرية، يستتجده، وكان الأفضل يثق بعمه الثقة كلها ويعتمد عليه الاعتماد كله. فسار الملك العادل إلى دمشق هو والملك الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب، وناصر الدين محمد بن تقى الدين صاحب حماه، وأسد الدين شيركوه ابن محمد بن شيركوه صاحب حمص، وعسکر الموصى وغيرها. فلما رأى العزيز اجتماعهم عرف أنه لا يستطيع الاستيلاء على دمشق، وترددت الرسل حينئذ في الصلح، وتم الاتفاق على أن تكون القدس وما يجاورها من أعمال فلسطين للملك العزيز حاكماً، وتبقى دمشق وطبرية وأعمالها والغور للأفضل، وأن يعطي الأفضل أخاه الملك الظاهر جبلة واللاذقية. وكان الخاسر الوحيد في هذه الصفقة هو الملك الأفضل، كما أن الملك العادل لم يكسب شيئاً في هذه الجولة، سوى أنه أصبح الحكم فيها ينشب بين إخوته من خلافات.

عاد الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين، فقد جيشه في السنة التالية (٥٩١ هـ = ١١٩٥ م) وخرج به من مصر قاصداً دمشق، وأسرع الأفضل مرة أخرى لطلب

النجدية من عمه الملك العادل، ولم يستمتع لنصح أخيه الظاهر غازي صاحب حلب الذي

قال له :

«أخرج عمنا من بيننا، فإنه لا يحيء علينا منه خير، ونحن ندخل لك تحت كل ما تريده. وأنا أعرف به منك، وأقرب إليه، فإنه عمي مثل ما هو عمك. وأنا زوج ابنته. ولو علمت أنه يريد لنا خيراً لكونت أنا أولى به منك». فأجابه الأفضل : «أنت سيء الضن في كل أحد. أي مصلحة لعمنا في أن يؤذينا، ونحن إذا اجتمعنا كلمتنا وسirنا معه العساكر من عندنا كلنا، ملك من البلاد أكثر من بلادنا ونريح الذكر الحسن».

سار العادل لنجدية الأفضل ، وانحاز أمراء الملك العزيز إلى العادل والأفضل ، مما أرغم الملك العزيز على الفرار والعودة إلى مصر . ولكن الأفضل وعمه العادل سارا إلى مصر وانضم جند مصر إلى الملك الأفضل ، فخاف العادل من امتلاك الأفضل لمصر بالإضافة إلى الشام ، فمنع الصدام بين الأخوين . وأجرى اتصالات سرية مع العزيز ، وتم الاتفاق على إعادة القدس لحكم الأفضل ، بالإضافة إلى جميع البلاد بفلسطين والأردن ، وأن يبقى العادل مع ابن أخيه العزيز في مصر . ولكن هذا الاتفاق الجديد لم يعمر طويلاً . فقد اتفق العادل مع العزيز على توجيه جيشه للاستيلاء على دمشق . وتم تنفيذ ذلك سنة ٥٩٢ هـ = ١١٩٦ م) واعتزل الأفضل بمدينة صلخد وانصرف للعبادة والتقوى . وتدخلت يد القدر مرة أخرى لمصلحة الملك العادل ، فقد توفي الملك العزيز بعد ستين في سنة (٥٩٥ - ١١٩٨ م) . وأصبح الملك العادل ملكاً على مصر والشام ، وأخضع سائر الأمراء الأيوبيين لحكمه . وأعاد تنظيم المملكة ، فتولى الكامل - أكبر أبناء العادل - الحكم في مصر . وتولى ثاني أبنائه - المعظم عيسى - حكم دمشق . بينما تولى ابنه الثالث - الأشرف - حكم معظم بلاد الجزيرة . وبذا عادت الوحدة الإسلامية تحت قيادة الملك العادل الذي لم تكن له مثل كفاءة أخيه صلاح الدين ، ولكن ربما كان أكثر منه مكرًا ودهاء .

لقد أفاد العادل من المهدنة التي وقعها صلاح الدين مع ريتشارد قلب الأسد فلما مات صلاح الدين تم تجديد هذه المهدنة لمصلحة الطرفين . ولكن حدث في سنة ٥٩٣ هـ = ١١٩٧ م ، ما أوجب نقض هذه المهدنة .

كانت مدينة بيروت تحت حكم الأمير أسامة. فدأب على ارسال السفن الكبيرة - الشوانى - لقطع الطريق على الفرنج. فاشتكى الفرنج من ذلك غير مرة إلى الملك العادل بدمشق وإلى الملك العزيز بعصر . فلم يمنعه أسامة من ذلك ، فأرسل فرنج الشام إلى ملوكيهم - في قبرص وأوروبا - يشتكون إليهم ما يفعل بهم المسلمين . و قالوا لهم : « إن لم تنجدونا أخذ المسلمين البلاد ». فأجابهم الفرنج بارسال امدادات كثيرة . ولم يلبث ملك الألمان هنري السادس أن وجه حملة ضخمة ، بقيادة القس كنراد - فلما علم العادل بذلك ، أرسل بطلب جيش مصر وجيش الجزيرة والموصل ، فجاءته الأمراء ، واجتمعوا على عين جالوت ، فأقاموا شهر رمضان وبعض شوال (سنة ٥٩٣ هـ) .

ورحلوا إلى يافا ، وملكوا المدينة ، وامتنع من بها من المقاتلين بالقلعة التي لها فخر المسلمين المدينة ، وحاصروا القلعة فملكوها عنوة وقهراً بالسيف في يومها . وأخذوا كل ما بها غنيمة وأسرأً وسيباً . ووصل الفرنج من عكا إلى قيسارية ليمنعوا المسلمين عن يافا ، فوصلتهم الخبر بها بملك المسلمين لها ، وكان سبب تأخرهم أن ملكهم - هنري كونت شامبانيا - سقط من موضع عال بعكا ، فمات . فاختلت أحواهم ، وتأنروا لذلك . وعاد المسلمين إلى عين جالوت ، فوصلتهم الخبر بأن الفرنج على عزم قصد بيروت ، فرحل العادل والعسكر (في ذي القعدة) إلى مرجعيون ، وعزم على تخريب بيروت . فسار إليها جم من العسكر ، وهدموا سور المدينة ، وشرعوا في تخريب دورها وتخريب القلعة ، فمنعهم أسامة من ذلك ، وتكلف بحمايتها والدفاع عنها . ورحل الفرنج من عكا إلى صيدا . وعاد عسكر المسلمين من بيروت . فالتقوا هم والفرنج بنواحي صيدا ، وجرى بينهم مناوشة ، فقتل من الفريقين جماعة ، وحجز بينهم الليل ، وسار الفرنج إلى بيروت ، فلما قاربوا هرب منها أسامة وجبيع من معه من المسلمين . فملكتها الفرنج صفوأً عفواً بغير حرب ولا قتال . فكانت غنيمة باردة . فأرسل العادل إلى صيدا من خرب ما كان بقي منها . وسار جند المسلمين إلى صور ، وأقاموا عليها ، فقطعوا أشجارها وخربوا مالها من قرى وأبراج . فلما علم الفرنج بذلك ، سارت قوات الحملة الألمانية من بيروت ، إلى صور وأقاموا عليها ، ونزل المسلمين عند قلعة هونين . وسمح الملك العادل لجند الجزيرة والموصل بالعودة إلى بلادهم ، ظناً منه

أن الفرنج يقيمون ببلادهم. وأراد أن يعيد جند مصر أيضاً، فجاءته المعلومات بأن الفرنج - الألمان - ي يريدون محاصرة حصن تبنيين والاستيلاء عليه. فسير العادل قوة لحمايةه والدفاع عنه. وسار الفرنج من صور ونالوا تبنيين (أول صفر سنة ٥٩٤ هـ = ١١٩٨ م). وقاتلوا من به، وجدوا في القتال ونقبوه من جهاتهم. ولما رأى المسلمين المدافعون عن حصن تبنيين ما أحدثه الألمان من نقوب خربت القلعة، ولم يبق إلا أن يملكونها بالسيف. بادروا إلى إجراء مفاوضات مع قائد الألمان - القس كنراد - وعرضوا عليه تسليم القلعة بمن في سجونها من أسرى الصليبيين والذين بلغ عددهم خمسة أسير، مقابل الإبقاء على حياة رجال الحامية وممتلكاتهم الشخصية. غير أن كنراد أصرَّ على التسلیم بدون قيد ولا شرط.

وإذ حرص بارونات الفرنج على الاحتفاظ بصداقه العادل، وخفوا ما تشيره المذبحة في رجال الحامية من الدعوة إلى الجihad، أرسلوا إلى السلطان العادل ينذرونـه أنـ الألمـان لنـ يـقـوا عـلـيـ حـيـاـ أـحـدـ مـنـ رـجـالـ الحـامـيـةـ.

فاستـهـاتـ المسلمينـ فيـ الدـافـاعـ عـنـ الـحـصـنـ، وـوـصـلـ دـعـمـ مـنـ مـصـرـ، وـشـعـرـ الـأـلمـانـ بـالـتـعبـ وـالـإـرـهـاـقـ، وـخـفـتـ حـاسـتـهـمـ، وـأـظـهـرـ عـدـدـ كـبـيرـ مـنـ قـادـتـهـ رـغـبـتـهـ بـالـعـودـةـ إـلـىـ الـأـلمـانـيـاـ. وـفيـ تـلـكـ الأـثـنـاءـ وـرـدـتـ إـلـىـ عـكـاـ الـأـنـبـاءـ بـوفـاةـ اـمـبرـاطـورـ الـمـانـيـاـ هـنـزـيـ السـادـسـ. فـقـرـرـ كـنـرـادـ وـرـفـاقـهـ التـخلـيـ عـنـ الـحـصـارـ، وـالـانـسـحـابـ إـلـىـ صـورـ وـمـنـهـ إـلـىـ عـكـاـ. وـلـكـنـ هـذـاـ الـانـسـحـابـ أـخـذـ شـكـلـ هـزـيـةـ وـفـرـارـ خـوـفـاـ مـنـ الصـدـامـ مـعـ جـيـشـ مـصـرـ. وـلـمـ تـنـقـضـ إـلـاـ بـضـعـةـ أـيـامـ حـتـىـ شـرـعـ الـجـيـشـ الـأـلمـانـيـ بـرـكـوبـ السـفـنـ مـنـ عـكـاـ رـاجـعاـ إـلـىـ بـلـادـهـ.

وـفـشـلتـ الـحـمـلـةـ الـأـلمـانـيـةـ فـشـلاـ ذـريـعاـ، إـذـ لـمـ تـحـقـقـ تـلـكـ الـانتـصـارـاتـ الـرـائـعـةـ الـتـيـ كانتـ تـحـلـ بـتـحـقـيقـهـاـ عـنـ قـدـومـهـاـ. وـلـمـ تـفـعـلـ شـيـئـاـ سـوـىـ اـحـتـلـالـ بـيـرـوـتـ. وـخـلـفـتـ وـرـاءـهـاـ -ـ فـيـ عـكـاـ -ـ طـائـفةـ دـيـنـيـةـ جـديـدـةـ حلـتـ اـسـمـ (ـفـرـسانـ الـتـيـوـتونـ)ـ الـذـيـنـ أـقـامـواـ بـحـيـ خـاصـ فـيـ عـكـاـ، وـاشـتـرـواـ بـعـدـئـذـ قـلـعـةـ مـوـنـتـفـورـتـ الـراـقـعـةـ عـلـىـ التـلـالـ الـمـسـيـطـرـةـ عـلـىـ صـورـ، وـأـطـلـقـواـ عـلـيـهـاـ اـسـمـ (ـشـتـارـكـنـبـرغـ)ـ.

كـانـتـ زـوـجـةـ هـنـزـيـ كـوـنـتـ شـامـبـانـيـاـ -ـ اـيـزـابـيلـلاـ -ـ قدـ تـزـوـجـتـ بـعـدـ موـتـ زـوـجـهـاـ

(في ١٠ - أيلول سبتمبر - سنة ١١٩٧ م) بملك قبرص - امبريak - لتوحيد مملكتي الفرنج (القدس وقبرص). ولهذا فما إن انسحبت القوة الألمانية حتى بادر امبريak في إجراء المفاوضات مع العادل لعقد هدنة جديدة، وتم عقد هذه الهدنة في شعبان ٥٩٤ هـ (أول - تموز - يوليو - سنة ١١٩٨ م). ونصت هذه المعاهدة، على أن تبقى يافا في حكم المسلمين مقابل الاعتراف ببقاء بيروت وجبيل للفرنج، ويقتسم الطرفان مدينة صيدا، وتقرر أن يكون أجل المعاهدة خمس سنوات وثمانية أشهر.

لم تكن الحملة الصليبية الألمانية السابقة سوى مقدمة لما كانت تعدد ألمانيا. ففي سنة ٥٩٥ هـ = ١١٩٩ م. وجه تيبارد كونت شامبانيا الدعوة إلى أصدقائه وجيشه الأمراء للحضور إلى حفل في قلعة ايكربي على نهر الاين. وجرى في الحفل بحث توجيه حملة صليبية جديدة. واستجاب الحضور لهذه المبادرة الصادرة عن ابن أخي - غير شقيق - لريتشارد قلب الأسد، وابن اخت - غير شقيقة - لملك فرنسا فيليب اغسطس، وشقيق ملك فلسطين السابق - هنري كونت شامبانيا. وجرى اخطار البابا - انوسنت الثالث - بالاتفاق على توجيه هذه الحملة، ووُضعت هذه الحملة هدفًا لها هو توحيد الكنيسة البابوية مع كنيسة القسطنطينية، وكان ذلك أمراً بالغ الأهمية بالنسبة للبابا الذي طالما عمل أسلافه على بذل الجهود لتوحيد الكنيسة، وحرمان الكنيسة الشرقية - الارثوذكسيّة - من استقلاليتها. فاتخذ انوسنت الثالث خطوة تمهدية لذلك بأن استهل المفاوضات مع الامبراطور البيزنطي الكسيوس الثالث، عن توحيد الكيسيتين.

وكان الكسيوس الثالث هذا قد دبر مؤامرة ضد أخيه الامبراطور إسحق، فعزله وسلم عينيه وألقى به في السجن مع ابنه الكسيوس الصغير (سنة ٥٩١ هـ = ١١٩٥ م) فلما كانت سنة ٥٩٨ هـ = ١٢٠١ م - هرب الكسيوس الصغير من السجن في القسطنطينية، واتخذ طريقه إلى بلاط اخته ايرين انجلينا، زوجة فيليب دوق سوابيا. وتصادف في تلك الفترة أن مات تيبارد كونت شامبانيا، فأجمع الأمراء والبارونات على انتخاب بونيفاس مونتفيرات ليكون قائداً للحملة. وقام بونيفاس مونتفيرات بزيارة فيليب دوق سوابيا الذي قدم له شقيق زوجته الكسيوس الصغير، وأظهر له رغبته في إعادة الكسيوس إلى عرش القسطنطينية، وبذلك تصير الامبراطورية الشرقية تابعة

للامبراطورية الغربية - الألمانية - وتحقق بذلك الحلم الذي عجز عن تحقيقه امبراطور الغرب السابق - هنري السادس - . وتم الاتفاق على أن تتجه هذه الحملة إلى القسطنطينية .

لقد طلب إعداد الحملة وقتاً طويلاً ، ولم تصل قواتها إلى القسطنطينية حتى صيف سنة ١٢٠٣ م فهرب الكسيوس الثالث ، وتم تنصيب الكسيوس ابن اسحق امبراطوراً - باسم الكسيوس الرابع ، وإذ عجز هذا عن تلبية نهم حلفائه الفرنج الذين جاؤوا به إلى الحكم ، قامت ثورة ضده ، وتم قتله (في شباط - فبراير - سنة ١٢٠٤) . وقام الفرنج بهجوم على القسطنطينية ودمروها تدميراً مريعاً . وقد تعرضت المصادر التاريخية لوصف بعض ما حدث بقولها :

« ليس لنهب القسطنطينية مثيل في التاريخ ، إذ ظلت المدينة العظيمة تسعة قرون عاصمة للمدينة المسيحية ، فزخرت بما تختلف عن بلاد اليونان القديمة من الأعمال الفنية ، وحفلت بما أجراه صناعها المهرة من الروائع . الواقع أن البنا دققة - أهل البندقية - أدركوا قيمة هذه الروائع ، فاستولوا على كل ما وصلت إليه أيديهم ونقلوه إلى مدینتهم ، فزيروا بها الميادين والكنائس والقصور . أما الفرنسيون والفلمنكيون ، فسلطت عليهم شهوة التدمير ، فاندفعوا كالكلاب المسعورة يجوبون الشوارع ، ويقطمون الدور ، ينتزعون كل ما يلمع ويرق . أو ينقضوا على مستودعات النبيذ ليتشووا منها . وهم في سيرهم يدمرون كل ما لا يستطيعون حله ، وكانوا كالعاصلة لا يتوقفون إلا لينهبو أو يقتلو . وامتدت يد النهب والتدمير حتى الأديرة والكنائس والمكتبات .»

بل حدث في كنيسة القديسة صوفية ذاتها ، أن جرت مشاهدة العساكر السكارى ي Mizqon الستاير الحريرية ، ويحطمون الأوانى الفضية الكبيرة . وداسوا بأقدامهم الكتب المقدسة والایقونات . وبينما كانوا يتناولون الشراب في أوانى المذبح مبهجين ، تربعث عاهرة على كرسى البطريرك ، وأخذت تردد أغنية فرنسية بذئنة . وتعرضت الراهبات للاغتصاب في أدبرتهن .

ولم تجر التفرقة بين القصور والأكواخ فيما تعرضت له من الهجوم والتدمر. وأخذ الجرحى من النساء والأطفال يلتفتون أنفاسهم في الشوارع. وظللت مناظر النهب وسفك الدماء المريعة مستمرة ثلاثة أيام. حتى أضحت المدينة الضخمة الجميلة شبيهة بسوق اللحوم. وهتف المؤرخ نكيتاس في صدق: إن المسلمين لأكثر منهم رحمة ★ «وليس بوعز أحد أن يخصي الذهب والفضة، ولا الصحون والجواهر، ولا الثياب الحريرية الفاخرة، أو المنسوجات الحريرية الثمينة، أو الثياب المصنوعة من فراء الفندس. أو الفراء الرمادي الفضي، أو فراء السنجانب... إنه منذ خلق الله العالم، لم ينزع من مدينة واحدة من الأشياء مثلاً أخذ من القسطنطينية. وتقرر تقسيم كل هذه الغنائم وفقاً لأحكام المعاهدة؟ بأن صار للفرنج الصليبيين ثلات أيامها، وللبندقة ثلات أيامها، بينما صار الرابع من نصيب الامبراطور المُقبل».

هكذا انتهت الحملة الصليبية المعروفة باسم الحملة الصليبية الرابعة سنة ستائة للهجرة (١٢٠٤ م) بتدمر القسطنطينية. وحاب أمل الفرنج بالشام من إمكان حصولهم على دعم جديد بالقدرة البشرية المقاتلة. كما حاب أمل المسيحيين في المشرق. فقد حدث عكس ما كان يتوقعه البابا والفرنج، وعوضاً عن توحيد الكنيستين الشرقية والغربية، زاد الانقسام عمقاً واتساعاً. والأهم من ذلك، هو زوال هيبة دولة الروم التي كانت تعتبر نفسها حامية للمسيحية ضد المسلمين في الجنوب، وضد البرابرة في الشمال.

يمكن أن يضاف إلى هذه الحملة التي عرفت أيضاً باسم - الحملة المنحرفة - لأنحرافها عن قتال المسلمين لقتال المسيحيين، تلك الحملة التي اشتهرت باسم (حملة الأطفال). والتي بدأت التبشير لها في سنة ٦١٢ هـ (١٢١٢ م) عندما تقدم صبي اسمه سيفان وعمره اثنى عشرة سنة ويعمل راعياً، إلى ملك فرنسا فيليب أغسطس، الذي كان يعقد محكمته في مدينة كلوي الصغيرة، وقدم إليه رسالة زعم أن المسيح

* انظر الكامل في التاريخ ابن الأثير - أحداث سنة ستائة - وتاريخ الحروب الصليبية: ١٩٥ - ٢٣٥. وذكر أبو شامة - أن البندقة باعوا قدرأً كبيراً من الغنمة للMuslimين. (أبو شامة: ١٥٤/٢).

بشخصه قد أعطاها له ، وأمره بأن يمضي فيدعو إلى الحرب الصليبية . ولم يتم ملك فرنسا بالراعي الصغير ، وطلب إليه أن يعود إلى داره . والمعروف أنه في الخمس عشرة سنة السابقة ظلّ المبشرون يطوفون بالقرى ، يحضون على الاشتراك في حلة صلبيّة لقتال المسلمين في إسبانيا أو في بلاد الشام . فكان من اليسير أن يتأثر صبي شديد العاطفة بفكرة أنه بوسعه أيضاً أن يكون مبشراً ، وأن يبز بطرس الناسك ، الذي بلغت بسالته وإقدامه في القرن الماضي من الجلال والتعظيم ما جعله أسطورة من الأساطير . وهذا لم ينزعج الصبي ستيفان من استخفاف الملك به . فشرع في التبشير عند مدخل دير القديس دينية ذاته ، وأعلن أنه سوف يقود جماعة من الأطفال لإنقاذ العالم المسيحي ، وسوف تجف البحار أمامهم ، وسوف يحتذون البحر مثلما فعل موسى عندما اجتاز البحر الأحمر ، فيصلون سالمين إلى الأرض المقدسة . وقام بعدئذ بجولة في أنحاء فرنسا ، فاستجاب له آلاف الأطفال الذين لم يتجاوزوا عمر الواحد منهم الثانية عشرة ربيعاً . وكان معظمهم من أبناء الفلاحين السذج ، باستثناء عدد قليل من الصبيان الذين انحدروا من أسر النبلاء ، ففرروا من دورهم ، ولحقوا بستيفان وأتباعه (الأتباء الصغار) . وكان معهم أيضاً فتيات صغيرات وبضعة قسس صغار ، فضلاً عن جماعة قليلة من الحاجين الذين يكبرونهم في العمر ، اجتذبت بعضهم التقوى ، بينما كان الدافع للآخرين ، على ما يبدو ، الرحمة . ومن المؤكد أن هناك جماعات أخرى لم تنضم إليهم إلا لمشاركة في المدايا التي سوف تنهمر عليهم جميعاً . وقدمت الجماعات متزاحمة إلى مدينة - فندوم - التي احتشد فيها ثلاثة ألف طفل ، وقد رأس كل جماعة منها قائداً حمل العلم الفرنسي الأحمر القديم ، والذي اخذه ستيفان شعاراً لحملته الصليبية . وسارّت الحملة نحو الجنوب - في حزيران - يونيو - ومات عدد كبير من الأطفال على جانبي الطريق من الجوع والعطش ، حتى وصلوا إلى مرسيليا . وأسرعوا نحو البحر ليعبروه ، ولكن البحر لم ينشق لهم . وحدث بعد بضعة أيام أن جاء تاجران من تجارة مرسيليا - اسم أحدهما هيyo الصلب ، واسم الثاني وليم الخنزير ، فعرضوا على الأطفال نقلهم بالسفن إلى فلسطين . وقبل ستيفان العرض بفرح كبير . ومضت ثانية عشرة سنة دون أن ترد عنهم أنباء .

ظهر في تلك الفترة ذاتها حركة مشابهة في ألمانيا تزعمها طفل اسمه نقولا - من قرية ببلاد الراين. واشتهر نقولا بما اشتهر به بطرس الناسك من البلاغة والفصاحة، فمضى في دعوته وتبشيره عبر بلاد الراين من أقصاها إلى أقصاها، وأمكن له جمع حشد من الأطفال - في كولونيا -. وتجهز للمضي إلى إيطاليا والبحر. على أن متوسط العمر للأطفال الألمان قد زاد قليلاً على ما كان عليه عمر أقرانهم من الفرنسيين. كما أن نسبة الفتيات زادت عندهم عما كانت عليه لدى الفرنسيين. وكان بينهم من أبناء الأشراف مازاد في العدد على ما كان عند الفرنسيين. وانحاز إليهم أيضاً عدد أكبر من ذوي السمعة السيئة ومن المترددين والعاهرات. وانقسمت الحملة إلى قسمين - تولى نقولا نفسه قيادة القسم الأول الذي ضم عشرين ألف طفل، وسار بهم من الراين إلى بازل، فمدينة جنيف إلى أن وصلوا جنوه، وكانت رحلة شاقة هلك فيها قسم من الأطفال. أما القسم الثاني من الحملة فاجتاز وسط سويسرا، واخترق مر سانت جوئار. ووصلوا إلى البحر عند انكونا، ولما لم ينفرج لهم البحر، ساروا إلى برنديزي.

عثر أطفال القسم الأول من الألمان على سفينتين نقلت عدداً كبيراً من الأطفال الذين لم يعرف بعد ذلك مصيرهم لفترة طويلة. وركب آخرون البحر أيضاً على سفن متفرقة. فيما استقر عدد كبير من الأطفال في جنوه. وفي سواها من المدن الإيطالية. وصل إلى فرنسا سنة ١٢٣٠ م قسّ قدم من الشرق، وأخذ يروي قصة غريبة: إذ قال أنه كان أحد القسّس الصغار الذين رافقوا ستيفان إلى مرسيليا، وأنه استقل معهم السفن التي قدمها التجاران إلى الأطفال. وعدها سبع سفن. ولم تنقض إلا بضعة أيام عليهم في البحر حتى جا بهم عاصفة دمرت سفينتين على جزيرة سانت بيترو. أما السفن الخامسة التي نجت من العاصفة، فلم تثبت أن وقعت في قبضة اسطول إسلامي من الجزائر. وأدرك الأطفال أنهم لم يحملوا إلى تلك الجهات إلا بناء على اتفاق مسبق، فيما يباعوا أسرى. فتم نقلهم جميعاً إلى بوجيه على شاطئ الجزائر. حيث تم بيع عدد كبير منهم عند وصولهم، فأمضوا حياتهم في الأسر. على حين جرى حمل الآخرين على السفن - ومنهم القس - فنقلوا إلى مصر. حيث اشتري أمير الاسكندرية الجانب

الأكبر من الحمولة ، فاستخدمهم في زراعة أراضيه ، وذكر القس أنه لازال منهم على قيد الحياة زهاء سبعمائة . وأنه لم ينقل منهم إلى بغداد سوى جماعة قليلة العدد . وكان القسسين الصغار ، والفتية القليلة التي تعرف القراءة والكتابة ، هم الأوفر حظاً من سواهم . إذ أن حاكم مصر العادل بن السلطان الكامل ، كان مهتماً باللغات الأجنبية ، فاشتراهم واستبقاهم عنده ، واستخدمهم على أنهم مترجمون ومعلمون وكتاب ، ولم يرغموا على اعتناق الإسلام . فأقاموا بالقاهرة . وتبعاً لذلك جرى إطلاق سراح هذا القس الذي عاد إلى فرنسا ليقص قصة (حملة الأطفال) .

لقد ساعد فشل الحملة الصليبية الرابعة ، وانصراف السلطان العادل لتوطيد دعائم الدولة الأيوبية ، على حرص الفرنج والمسلمين ، سواء بسواء ، على المحافظة على شروط الهدنة ، وتجديدها كلما اقتضى الأمر .

ولكن ذلك لم يمنع حدوث معارك صغرى ، واشتباكات محدودة . ففي سنة ٦٠٣ هـ = ١٢٠٣ م . وهي السنة التي سارت فيها القوات الصليبية إلى القدسية ودمرتها ، وصلت إلى عكا جوع من الفرنج ، وهدفها مهاجمة القدس وانتزاعها من قبضة المسلمين . فغادروا عكا ، ووصلوا إلى نواحي الأردن ، فنهبوا كثيراً من بلاد الإسلام ، وسبوا وفتوكوا . وكان الملك العادل بدمشق ، فأرسل في جمع الجندي من الشام ومصر . وسار معه من القوات فنزل عند الطور بالقرب من عكا لمنع الفرنج من قصد بلاد الإسلام . ونزل الفرنج برج عكا ، وأغاروا على كفركنا ، فأخذوا كل من بها وأموالهم ، والأمراء يحثون العادل على قصد بلادهم ونهبها ، فلم يفعل . فبقوا على ذلك حتى دخلت سنة ٦٠٤ هـ = ١٢٠٤ م ، حيث اصطلح هو والفرنج ، ونزل العادل للفرنج عن كثير من المناصفات في الرملة وغيرها ، وأعطاهم الناصرة وغيرها . وسار إلى مصر ، فقصد الفرنج مدينة حماه ، فلقيهم صاحبها ناصر الدين محمد بن تقى الدين عمر ابن شاهنشاه بن أيوب ، فقاتلهم ، وكان في قلة من الجندي ، فهزمهوا وأدخلوه حماه ، فخرج العامة إلى قتالهم ، فقتل الفرنج منهم جماعة ، وعاد الفرنج إلى الساحل . حيث وجهوا قوة بحرية إلى مصر ، فنهبوا مدينة فوه ، وأقاموا خمسة أيام وهم ينهبون ويسبون

وعساكر مصر مقابلهم، بينهم النيل، وليس لهم سبيل للوصول إليهم بسبب عدم وجود السفن. ثم عاد الفرنج بما غنموه إلى عكا.

كانت شروط المدنة قائمة سنة ٦٠٤ هـ (١٢٠٧ م) عندما قام الفرنج في قبرص بالاستيلاء على عدد من سفن الاسطول المصري، وأسر من فيها. ولما كان ملك قبرص هو ملك الفرنج بالشام، فقد أرسل إليه الملك العادل احتجاجاً، جاء فيه: «نحن صلح، فلم غدرتم بأصحابنا؟» وطلب إليه رد ما أخذوا. فاعتذر ملك قبرص بأن الفرنج الذين استولوا على القسطنطينية هم المسؤولين عن العملية، وأنه لا سلطة له عليهم. ولكن حدث في تلك الفترة أن عاد حكم قبرص إلى صاحب عكا والفرنج بالشام. فأعاد العادل مراسلته، فتجاهل ملك عكا وقبرص الطلب. مما حل السلطان العادل على قيادة جيشه، والخروج به من مصر إلى الشام. وكان الفرنج قد حشدوا قوات كبيرة بطرابلس، وحصن الأكراد، وأكثروا الإغارة على مدينة حصن وريفها. ونازلوا على مدينة حصن. فلم يكن لصاحبها أسد الدين شير كوه بن محمد بن شير كوه بهم قوة، ولا يقدر على دفعهم أو منعهم، فاستنجد بملوك الشام، فلم ينجده إلا صاحب حلب الظاهر غازي الذي أرسل جيشاً إلى حصن للدفاع عنها. وسار الملك العادل بجيش مصر إلى عكا، فصالحه صاحبها الفرنجي على قاعدة استقرت من إطلاق سراح أسرى المسلمين وغير ذلك، ثم سار العادل إلى حصن، فنزل على بحيرة قدس (قطينة) وجاءته عساكر الشرق وديار بكر والجزيرة. فحاصر موضعًا يسمى القليعات، وأخذه صلحًا، وأطلق صاحبه، وغنم ما فيه من دواب وسلاح وخرابه. ودخل الشتاء، وعادت العساكر إلى أوطانها. وسار العادل إلى دمشق.

استمرت المدنة حتى سنة ٦٠٧ هـ (١٢١٠ م) حيث قدم ملك قبرص (يوحنابريين) إلى عكا، ليعقد قرانه على ملكة القدس (ماريا). حيث تم عقد القران في صور. وبينما كان رجال البلاط يشهدون حفلة التتويج، أغارت الملك المعظّة: شه على ضواحي عكا، غير أنه لم يهاجم المدينة ذاتها، وفي صيف سنة ٦٠٨ هـ = ١٢١١ م. وافق الملك يوحنابريين لبعض أتباعه بالاشتراك مع طائفة فرسان الداوية بالاغارة على دمياط في مصر. غير أن هذه الحملة لم تظفر بشيء.

وأجرت المفاوضات مع الملك العادل، فتم ابرام عقد لهدنة مدتها خمس سنوات، على أنه لم يبدأ تنفيذها إلا في صيف سنة ٦٠٩ هـ = ١٢١٢ م. وأرسل يوحنا بريلين في الوقت ذاته رسائل إلى البابا. (في روما) يطلب إليه أن تكون الحملة الصليبية الجديدة مستعدة للقدوم إلى فلسطين عند انقضاء أجل الهدنة.

كان البابا أنوسنت قد أدرك التائج الخطيرة لتوجيه الحملة الرابعة إلى القسطنطينية، وعرف أنه من المحال استعادة القدس بحملات الأطفال، فشرع في التحرير لتنظيم الحملة الصليبية الخامسة. وكان دوق برغنديا، ودوق اللورين أول من استجاب للدعوة، وشرعَا في الاعداد للحملة الموعودة. وانصرف البابا أنوسنت حل الخلاف بين جنوه وبيزا - حتى تسهما معاً في نقل قوات الحملة إلى فلسطين. وكتب إلى السلطان العادل، يحذره بما سوف يحل به من الغضب، إن هو لم يتنازل للفرنج عن القدس. ولكن العادل تجاهل هذا التحذير، وفيما كان الاعداد للحملة يسير نحو نهايته، مات البابا أنوسنت الثالث (سنة ٦١٣ هـ = ١٢١٦ م). فخلفه هونوريوس الثالث (واسميه الكاردينال سافيلي). وأخذ على عاتقه تنسيق التعاون بين ملوك أوروبا وامرائها لتوجيه الحملة في الوقت المناسب.

أخيراً بعد عشرين عاماً من السلم المضطرب بين الفرنج وال المسلمين في بلاد الشام، وبعد اعداد استمر أربع سنوات، وصلت إلى عكا طلائع الحملة الصليبية الخامسة (سنة ٦١٤ هـ = ١٢١٧ م). وقد ضمت هذه الحملة قوات من سائر أخاء أوروبا، ومن فرنسا وال مجر والنمسا بصورة خاصة.

وأصدر ملك عكا (يوحنا بريلين) تعليماته إلى القوات المتحشدة بالسير فوراً إلى الجليل. وكان الملك العادل أبو بكر بن أيوب بمصر، فسار منها إلى الشام، فوصل إلى الرملة، ثم سار منها إلى اللد. وتوجهت قوات الفرنج لقتاله، فسار العادل نحوهم، عازماً على أن يسبقهم إلى أطراف البلاد مما يلي عكا ليحميها منهم. فساروا هم وسبقوه، وعندما نزل العادل على بيسان من الأردن، فتقدم إليه الفرنج عازمين على محاربته لعلمهم أنه في قلة من العسكر، لأن العساكر كانت متفرقة في البلاد، فلما رأى

العادل قر بهم منه ، تجنب الاشتباك معهم خوفاً من هزيمة تنزل بقواته الضعيفة العدد ، وكان حازماً كثير الحذر ، ففارق بيسان نحو دمشق ، ليقيم بالقرب منها ، ويرسل إلى البلاد ويجمع العساكر . فوصل إلى مرج الصفر ونزل فيه . وكان أهل بيسان وتلك الأعمال لما رأوا الملك العادل عندهم اطمأنوا ، ولم يفارقوا بلادهم ، ظناً منهم أن الفرنج لا يقدمون عليه . فلما أقدموا ، بوغت المسلمين بوصولهم . ولم يتمكن من النجاة إلا القليل . وأخذ الفرنج كل ما في بيسان من ذخائر قد جمعت ، وكانت كثيرة ، وغم الفرنج غنائم ضخمة . ونهبوا البلاد من بيسان إلى بانياس ، وبثوا السرايا في القرى ، فوصلت إلى خسفين ونوى (في سهل حوران) ونزلوا بانياس وأقاموا على حصارها ثلاثة أيام . ثم عادوا عنها إلى مرج عكا ومعهم من الغنائم والسيبي والأسرى ما لا يحصى كثرة ، سوى ما قتلوا وأحرقوا وأهلكوا . فأقاموا أياماً للراحة ، ثم ساروا إلى صور ، وقصدوا بلد الشقيف ، ونزلوا وبينهم وبين بانياس مقدار فرسخين . فنهبوا البلاد : صيدا والشقيف ، وعادوا إلى عكا .

سير الملك العادل قطعة جيدة من الجيش إلى نابلس بقيادة ابنه المعمض عيسى الذي كان يحكم دمشق ، وذلك ليمنع الفرنج من الوصول إلى القدس . ولكن الفرنج لم يعودوا إلى القدس ، بل تحركوا من عكا ، ومعهم آلات الحصار من مجازيف وغيرها ، وقصدوا قلعة الطور القريبة من عكا ، فحاصروها وزحفوا إليها ، وصعدوا في جبلها حتى وصلوا إلى سورها ، وكانت مملوكة ملكونه . فاتفق أن بعض المسلمين من فيها قتل بعض ملوكيهم ، فعادوا عن القلعة ، وتركوها ، ورجعوا إلى عكا . وكانت مدة مقامهم على الطور سبعة عشر يوماً . وعندها توجه الملك المعمض إلى قلعة الطور ، فخر بها ، إلى أن أتحققها بالأرض ، نظراً لقربها من عكا ، ولتعذر حمايتها والدفاع عنها .

كان مجمع لاتيران الكنسي قد أوصى عند إعداد الحملة الصليبية الخامسة أن تكون مصر هي الهدف لهذه الحملة . وكان ذلك هو ما أوصى به أيضاً ملك إنكلترا ريتشارد قلب الأسد عندما جاء في الحملة الثالثة إلى فلسطين . ذلك أنه إذا ما تم القضاء على المسلمين في مصر ، فسيفقد المسلمون أغنى أقاليمهم ، ولن يتمكنوا من الاحتفاظ بسيطرتهم لهم في شرق البحر الأبيض المتوسط . ولن

يكون بوسهم وبالتالي الاحتفاظ بالقدس في قبضتهم إزاء تعرضهم لهجوم مزدوج من السويس وعكا.

أكمل الفرنج الصليبيون استعداداتهم، ونظموا قواتهم، وركبوا البحر من عكا. ووصلوا إلى بر الجيزة في صفر سنة ٦١٥ هـ (أيار - مايو - ١٢١٨) - وكان النيل يفصل بينهم وبين دمياط التي تقع على بعد ميلين من مصب النيل، وتحميها من الخلف بحيرة المنزلة. ودللت تجربة الفرنج (سنة ٥٦٥ هـ = ١١٦٩ م) على أنه من الحال الانتصار على المقاومة في دمياط ما لم يتم الهجوم عليها في البر والبحر في آن واحد. وكان المسلمون قد أقاموا في النيل برجاً كبيراً لحماية دمياط، ودعموه بالسلاسل المصنوعة من الحديد الغليظ، والتي اتصلت عبر الماء بسور دمياط، لتنبع المراكب القادمة من البحر أن تصعد في النيل إلى ديار مصر.

شرع الفرنج فور نزولهم على أرض الجيزة ببناء سور وخندق لمنعهم ومحبهم من هجمات المسلمين، وانطلقوا للهجوم على البرج الذي كان مشحوناً بالمقاتلين، وعملوا آلات وأبراج يزحفون بها في المراكب إلى البرج ليقاتلوه ويلكوه. وجاء الملك الكامل ابن الملك العادل - صاحب مصر - فنزل بالعادية القريبة من دمياط، ودفع جنده إلى دمياط لمنع الفرنج من العبور إلى أرضها. واستمر الفرنج في قتال حامية البرج، فلم يظفروا بشيء، وكسرت آلاتهم وأبراجهم، ولكنهم تابعوا رغم ذلك محاولاتهم وهجماتهم طوال أربعة أشهر، إلى أن تمكنوا أخيراً من الاستيلاء على البرج. فلما تم لهم ذلك، قطعوا السلاسل لتدخل مراكبهم من البحر إلى النيل، فنصب الملك الكامل عوض السلاسل جسراً عظيماً، امتنعوا به من سلوك النيل، ثم إنهم قاتلوا عليه أيضاً قتالاً شديداً كثيراً حتى تمكنوا من قطعه، وعندها أحضر الكامل عدة مراكب كبيرة، وملاها، وخرقها فأغرقها في النيل، فمنعت مراكب الفرنج من سلوكه. ولما رأى الفرنج ذلك، توجهوا إلى خليج هناك يعرف بالأزرق، كان النيل يجري عليه قدماً، فحفروا ذلك الخليج، وعمقوه، ووصلوا به النيل بالبحر. وأصعدوا مراكبهم فيه إلى موضع يقال له - بورة - على أرض الجيزة. - مقابل المنزلة - التي أقام فيها الملك الكامل معكروه، وذلك ليقاتلوا من هناك، فأنهم لم يكن لهم إليه طريق يقاتلونه طالما

بقيت دمياط تحجز بينهم وبينه. فلما وصلوا إلى - بورة - حادوه فقاتلوا في الماء، وزحفوا إليه غير مرة، فلم يظفروا بطائل، ولم يتغير على أهل دمياط شيء حيث كانت الإمدادات والمواد التموينية تصل إليها بانتظام. كما كان النيل يحجز بينهم وبين الفرنج، وبقي أهل دمياط ممتنعون، لا يصل إليهم من الفرنج ضرر أو أذى.

توفي الملك العادل★ في جاهي الآخرة من سنة خمس عشر وستمائة (٢١٣ - آب - أغسطس - ١٢١٨ م) والصراع على أشدّه بين المسلمين والفرنج على أبواب دمياط. فضُعفت نفوس الناس. وكان أكبر أمير مصر هو عماد الدين أحمد بن علي - من الأكراد الهكارية - ويعرف بابن المشطوب، فاتفق مع مجموعة من الأمراء على خلع الملك الكامل، وتنصيب أخيه الفائز بن العادل، ليصير الحكم إليهم عليه وعلى البلاد، وعلم الكامل بالمؤامرة، فغادر المنزلة ليلاً ومعه قوة من الفرسان الخفيفة، وسار إلى قرية يقال لها - شمون طناح - فنزل عندها، وأصبح العسكر، فافتقدوا سلطانهم، ولما لم يجدوه، ركب كل انسان منهم هواه، ولم يقف الأخ على أخيه، ولم يقدروا لسرعتهم أخذ شيء من خيامهم وذخائرهم وأموالهم وأسلحتهم - إلا اليسير الذي يخف حله، وتركوا الباقى على حاله من المواد التموينية، والحبوب والسلاح والدواب والخيام وغير ذلك، ولحقوا بالكامل. وأصبح الفرنج من الغد فلم يروا من مقاتلي المسلمين أحداً على شاطئ النيل كجاري عادتهم، فوقفوا في ذهول لا يعرفون ماذا حدث، ولا

★ الملك العادل أبو بكر بن أيوب (٥٤٠ - ١١٤٥ = ٦١٥ - ١٢١٨ م) استخلفه أخوه صلاح الدين يوسف بن أيوب مصر لما سار إلى الشام، ثقة به واعتمد عليه، وعلم بما هو عليه من توفر العقل وحسن السيرة. فلما توفي أخيه صلاح الدين ملك دمشق، ثم ملك مصر ودمشق وسائر بلاد الشام. كان عاقلاً ذا رأي سديد ومكر شديد وخديعة. صبوراً حلماً ذا أناة، يسمع ما يكره ويغضض عليه حتى كأنه لم يسمعه. وقسم البلاد في حياته بين أولاده، فجعل مصر الملك الكامل مهداً، وجعل ابنه العظم عيسى بدمشق والقدس وطبرية والأردن والكرك وغيرها من الحصون المجاورة، وجعل لابنه الملك الأشرف موسى بعض ديار الجزيرة ومياهارقين وخلاط. وأعطى ولده الحافظ أرسلان شاه قلعة جعبر. فلما توفي الملك العادل ثبت كل منهم في المملكة التي أعطاها إياها أيوه. واتفقوا اتفاقاً حسناً، ولم يجر بينهم الاختلاف ما جرت العادة أن يحدث بين أولاد الملوك بعد آبائهم، بل كانوا كالنفس الواحدة، كل منهم يثق إلى الآخر. مما زاد من ملوكهم. وأطلال من أسد الدولة الأيوبية.

يستطيعون له تفسيراً أو تأويلاً، حتى جاءهم من أخبرهم حقيقة الموقف، فعبروا حينئذ النيل إلى بر دمياط آمنين، بغير منازع ولا مانع وذلك يوم ٢٠ ذي القعدة سنة ٦١٥ هـ. فغنموا ما في معسكر المسلمين، وكانت غنيمة ضخمة يصعب حصرها أو إجراء احصاء لها، والأهم من ذلك هو أن هذه الغنيمة قد جاءت الفرنج دون جهد ولا عناء. ولكن وبينما كان الكامل يغادر مصر، وقد فقد كل ثقة بجنده وقادته، وصل الملك المعظم عيسى على رأس جيش دمشق وما يض على حركة التمرد أكثر من يومين، فوجد الناس وهم في أمر مريج، ولما وقع الكامل على أخيه المعظم عيسى، استرد شجاعته، وقوى أزره وثبت جنانه، وأقام بمنزلته، ومضى لمعالجة الموقف، فأمكن له السيطرة عليه دونما عناء، وجاء المعظم عيسى بابن المشطوب، فأبعده عن مصر، وسيره إلى الشام، وألحقه بجند أخيه الملك الأشرف★. وقامت العرب خلال ذلك بالتجمع بقبائلها المختلفة، ونفذت المهمة التي أسندتها إليها ابن المشطوب وهي نهب البلاد المجاورة لدمياط، وقطع الطريق، ومارسة الأعمال التخريبية، فكانت أعمالهم أشد ثقلًا على المسلمين من أعمال الفرنج. وكان مما زاد من الكارثة التي نزلت بدمياط، أنه لم يكن بين أهلها أحد من الجندي، لأن السلطان وجنه كانوا عندهما يمنعون العدو من الوصول إليها. فأتتهم حركة العصيان والأعمال التخريبية بصورة مبالغة، فلم يدخلها أحد من الجندي ليقف مع أهلها ويشد من أزرهم. وأحاط الفرنج بدمياط، وقاتلوا أهلها برأ وجراً، وعملوا عليهم من جديد خندقاً يحميهم من هجمات المسلمين المبالغة - وكانت هذه عادتهم. واستمرروا في القتال، واشتد الأمر على أهلها، وتعدى عليهم الحصول على المواد التموينية والذخائر، وتبعدوا من القتال، وسمموا من

* يظهر أن عماد الدين أحد بن علي - المعروف بابن المشطوب، لم يتعظ بما ألحقه من الضرر بال المسلمين نتيجة تأمره على الكامل، ولم يستفد من الفرصة التي اتيحت له لاصلاح نفسه، فسار مع طبيعته التآمرية، إذ لم يكدر يستقر عند الملك الأشرف بالجزيرة، حتى أخذ في التآمر مع مظفر الدين الذي كان ينزعز أخيه ملكه في الموصل، ضد الأشرف الذي انتصر للأخر - بدر الدين - باعتباره الملك الشرعي. وانتصر الأشرف، فهرب ابن المشطوب إلى سنجار حيث تم اعتقاله، والقى به في السجن بجران إلى أن مات سنة ٦١٩ هـ = ١٢٢٢ م.

ملازمته ، لأن الفرنج كانوا يتناوبون القتال عليهم لكثرتهم ، وليس بدミاط من الكثرة ما يجعلون القتال بينهم مناوبة .

ومع هذا صبر أهل دمياط صبراً لم يسمع بمثله ، وكثير القتل فيهم والجرح والموت والأمراض . ودام الحصار عليهم حتى يوم ٢٧ شعبان سنة ٦١٦ هـ = ١٢١٩ م . فعجز من بقي من أهلها عن الحفظ لقلتهم ، ونفاد الأقرات عندهم . فسلموا البلد إلى الفرنج بالأمان . وخرج منهم من بقيت لديه قدرة للسير وأقام آخرون لعجزهم عن الحركة .

ما إن ملك الفرنج دمياط وأقاموا بها ، حتى بثوا سرایاهم في كل ما جاورهم من البلاد ، ينهبون ويقتلون ، فجل أهل البلاد عنها ، وشرع الفرنج في عمارتها وتحصينها وبالغوا في ذلك حتى أصبحت حصوناً لا ترام . وسمع الفرنج في بلادهم بفتح دمياط ، فأقبلوا على أصحابهم يهرون من كل فج عميق . وأقام الكامل بالقرب منهم في أطراف بلاده يحميها . وعاد الملك المعظم إلى الشام ، ودمر في طريقه تحصينات القدس (في ذي القعدة سنة ٦١٦ هـ) وذلك لأن الناس كافة قد خافوا الفرنج . وأشرف الإسلام وكافة أهله وببلاده على خطة خسف في شرق الأرض وغربها ، فقد أقبل المغول التتار من المشرق حتى وصلوا إلى أذربيجان ونواحي العراق ، وأقبل الفرنج من المغرب فملكوا مثل دمياط في الديار المصرية ، مع دعم الحصون المانعة بها من الأعداء . وأشرف سائر البلاد بمصر والشام على الملك . وصاروا يتوقعون البلاء صباح مساء . وأراد أهل مصر الجلاء عن بلادهم خوفاً من العدو ، ولات حين مناص وقد أحاط بهم العدو من كل جانب . ولو مكنهم الكامل من ذلك لتركوا البلاد خاوية على عروشها . وإنما منعوا منه فثبتوا .

تابع الكامل جهده وجهاده ، وكتب إلى أخيه : صاحب دمشق المعظم عيسى ، وصاحب الجزيرة وأرمينية وغيرها الأشرف موسى ، يستنجد بها ويحثها على الحضور بأنفسها ، فإن لم يتمكنا من الحضور فليرسلا جيوشها إليه . واعتذر الأشرف موسى ، فسار إليه أخيه المعظم عيسى ليقنعه بارسال الدعم إلى أخيها الأكبر بمصر . فرأاه

مشغولاًً عن انجاد أخيه بما دهاه من الفتنة، وما يواجهه من تمرد الملوك والأمراء على طاعته، فعذرها، وعاد عنه إلى دمشق. وبقي الأمر كذلك مع الفرنج حتىتمكن الأشرف موسى من السيطرة على الموقف وإخضاع أعمال التمرد وتسوية الأمور، فاستقامت له الأمور سنة ٦١٨ هـ = ١٢٢١ م فسار بجيشه من الجزيرة إلى دمشق. وعندها قال له قادة جنده وأمراءه بأن يعود بهم إلى بلاده خوفاً من حدوث حركات تمرد جديدة، فرفض رأيهم، وقال لهم: «قد خرجت للجهاد، ولا بد من إتمام ذلك العزم». وسار إلى مصر.

كان الفرنج قد غادروا دمياط - براجلهم وفارسهم، وقصدوا الملك الكامل، وزلزوا مقابله، بينما خليج من النيل يسمى - بحر أشمون - وهم يرمون بالمنجنيق والجرح إلى عسكر المسلمين، وقد تيقنوا هم وكل الناس أنهم على وشك امتلاك الديار المصرية. ووصل الأشرف موسى إلى مصر، فلما علم أخوه الكامل بقربه، توجه إليه واستقبله، واستبشر هو وكافة المسلمين باجتماعها. وعقد الكامل مؤتمراً مع الأشرف لمناقشة الموقف، وتم الاتفاق بينهما على التقدم نحو راوند النيل يعرف باسم - بحر المحلة -. فاقترب المسلمون من الفرنج، وقاتلوا سفن المسلمين إلى النيل فقاتلت سفن الفرنج، واستولت على ثلاثة قطع مبنية فيها من الرجال وما فيها من الأموال والسلاح، ففرح المسلمين بذلك، واستبشروا وتفاءلوا، وقويت نفوسهم، واستطاعوا على عدوهم. وكان الكامل قد تمكن من بناء أسطول قوي أرسله في الصيف الفائت (٦١٧ هـ = ١٢٢٠ م) من فرع رشيد إلى قبرص، حيث عثر على أسطول للفرنج الصليبيين في لياسول، فشنّ عليه هجوماً مباغتاً، أدى إلى إغراق كل السفن أو أسرها، كما وقع في أيدي المسلمين آلاف عديدة من الأسرى. وتقدم أسطول للبنادقة لاعتراض الأسطول الإسلامي، وليهاجم مينائي رشيد ودمياط. ولكن هذا الأسطول فشل في محاولته. وبذلك، وبانضمام جيش الجزيرة إلى جيش مصر ، امتلك المسلمين التفوق في البر والبحر .

كان القتال بين المسلمين وبين الفرنج مستمراً حول دمياط ، فيما كانت الرسل تتردد بين الطرفين لاتفاق على أساس للصلح ، وأظهر الملك الكامل استعداده للتنازل عن

القدس وعسقلان وطبرية وصيدا وجبلة واللاذقية وجميع ما فتحه صلاح الدين ـ ما عدا الكرك ـ مقابل الانسحاب من دمياط وتسليمها للمسلمين .

ولكن الفرنج طمعوا بالحصول على أكثر مما تضمنه هذا العرض السخي ، وطلبوa ثلاثة ألف دينار عوضاً عن تخريب القدس ليعمروه بها . وقالوا أيضاً : « لا بد من الحصول على الكرك ». وبينما الأمر على هذا بين عرض وامتناع ، اضطر المسلمين لقتال الفرنج ، وكان الفرنج يعتمدون على قوتهم واقتدارهم ، فلم يستصحبوا معهم من الماء التموينية والذخائر ما يكفيهم لأكثر من أيام قليلة ، ظنناً منهم أن المسلمين لن يستمرروا في مقاومتهم ، وأن القرى والريف جميعه يبقى في أيديهم ، يأخذون منه ما يريدون من التموين . وعرف المسلمون ذلك ، فدفع الكامل قوة إلى ناحية معسكر الفرنج ، ففجرت النيل ، وأغرقت الأرض ، حتى لم يعد للفرنج جهة يسلكون منها غير جهة واحدة فيها ضيق . فنصب الكامل حينئذ الجسور على النيل - عند أشمون - وعبر جند المسلمين عليها ، فسيطروا على الطريق الذي يسلكه جند الفرنج إذا ما أرادوا العود إلى دمياط . فلم يبق لهم خلاص ، وأحكم المسلمون الحصار على الفرنج . وتقدم مركب كبير للفرنج من أعظم مراكبهم يسمى مرمة - وحوله عدة حراقات تحميء والجميع مملوء من المواد التموينية والأسلحة وما يحتاج إليه جند الفرنج . فتصدت له سفن المسلمين ، وقاتلوا الفرنج ، فظفر المسلمون بمركب - مرمة - وبما معها من الحراقات ، وأخذوها . فلما رأى الفرنج ذلك سقط في أيديهم ، وأدركوا أنهم ضلوا الصواب عندما فارقوا دمياط ، وساروا في أرض مجهلة . وتتابع جند المسلمين حصارهم للفرنج واستمروا في استنزاف قوتهم برمي النشاب ، والإغارة على أطرافهم . فلما استد الأمر على الفرنج ، أحرقوا خيامهم ، ومجانيقهم ، وأنقذهم . وصمموا على مهاجمة المسلمين ، ومقاتلتهم ، واختراق دائرة الحصار للعودة إلى دمياط ، ولكنهم وجدوا أنه من المحال عليهم تحقيق هذا المهدف ، وحيل بينهم وبين ما يشهون لكثرة الوحش والمياه حولهم ، ولإحكام المسلمين قبضتهم على طريق انسحاب الفرنج وتراجعهم . ولما أيقنوا أنهم قد أحبط بهم من سائر جهاتهم ، وأنه أصبح من المتذر عليهم الحصول على ما يحتاجونه من الطعام والتموين ، وأن المنايا قد كسرت لهم عن أنبيابها ، ذلت نفوسهم ، وتنكست

صلبانهم، وضلّ عنهم شيطانهم، عاودوا الاتصال بالملك الكامل وأخيه الأشرف، وطلبو الأمان لتسليم دمياط بغير عرض.

تحرك جيش دمشق بقيادة الملك العظيم، وسار نحو مصر، فيما كانت الرسل تتنقل بين الطرفين للاتفاق على تسليم دمياط التي توجه إليها العظيم مباشرة، ظناً منه أن أخيه وجيشيهما قد نزلوها - وقيل بأن العظيم قد علم وهو في طريقه إلى مصر أن الفرنج قد توجهوا إلى دمياط، فسابقهم إليها ليلاقهم من بين أيديهم وأخواه من خلفهم -. وأقبل جيش كبير لهم رهج شديد وجبلة عظيمة من جهة دمياط، ففتنه المسلمين نجدة أنت للفرنج، ولم يطل بهم الأمر حتى عرف أنه جيش الملك العظيم فاشتد ظهور المسلمين، وازداد الفرنج خذلاناً ووهنا، وتمموا الصلح على تسليم دمياط. وذلك يوم ٩ رجب سنة ٦١٨ هـ (٨ - أيلول - سبتمبر - سنة ١٢٢١ م) وانتقل ملوك الفرنج وقاصتهم وكنودهم إلى الملك الكامل والأشرف رهائن، وعدتهم عشرون ملكاً. ودخل المسلمون دمياط، وكان يوماً مشهوداً.

أقامت الحملة الصليبية الخامسة في دمياط أربع سنين - غير شهر -. وخرجت دون أن تحقق أي كسب أو مفْن. وزالت الغمة عن المسلمين - ولو إلى حين - .

لقد وصل الفرنج الصليبيون، في مرتبين على الأقل، إلى حافة النصر. وأظهر السلطان الكامل استعداده للتنازل عن القدس وعن معظم أرجاء فلسطين. وقد تمسك الفرنج بشرط استعادة - الكرك - وحصون ما وراء نهر الأردن، على أساس أنه من المحال الدفاع عن القدس ما لم تقم على حاليتها قلاع شرقى الأردن وحصونها. وربما كانت وجهة النظر هذه سليمة - من الناحية الاستراتيجية -. ولكن التمسك بها حرّم الفرنج الصليبيين من الحصول على أية فائدة من حلتهم، التي كان أتعس ضحاياها، هم أقل الناس جنائية وذنباً، فقد حمل الفرنج مع حلتهم هذه، أحقادهم ومشاعرهم غير البيلة، والتي انتقلت بالعدوى إلى المسلمين. وهذا فيما إن انسحبت قوات الفرنج من دمياط، حتى طفت على مصر موجة جديدة من التعصب عند المسلمين، لتخوفهم من قدوم الصليبيين من الغرب. وعلى الرغم مما اشتهر به الكامل من التسامح، فقد تعرض

القبط والملكانين في مصر لقيود بالغة الشدة، زادت في عجزهم وضعفهم. فتقرر عليهم أن يؤدوا ضرائب باهظة، وجرى اغلاق الكنائس، و تعرضت كنائس كثيرة للنهب. ولم يستطع التجار الإيطاليون أن يستردوا وضعهم السابق بالاسكندرية، لأن مواطنينهم شجعوا الحملات الصليبية وساعدوها. ومع أنهم عادوا إلى متاجرهم. فانهم لم يعودوا موضع ثقة الناس.

لقد تضمنت اتفاقية انسحاب الفرنج من دمياط عقد هدنة مدتها ثمانى سنوات بين الفرنج وال المسلمين، ولكن هذه الهدنة لم تشمل الإيوبيين بحلب ولا السلاجقة في الموصل. وكان من غريب المصادفات، أن وصلت إلى دمياط بعد توقيع الاتفاقية قوة من مالطا - حلتها أربعون سفينة -. وقد يكون من الصعب معرفة ما إذا كان باستطاعة هذه القوة تغيير مصير الحملة. ولكن الفرنج شعروا بالأسف لوصول هذا الدعم بعد فوات الأوان. وعاد ملك قبرص وعكا (بوحنابريين) إلى عكا يجر أذیال الخيبة، فيما تحرك قائد الحملة - نائب البابا الكاردينال بيلاجيوس - نحو شمال بلاد الشام وهو يتجرع مرارة المهزيمة.

٤١ - انهيار الأيوبيين .

ظهر من خلال حصار الفرنج لدمياط ، اتفاق أولاد السلطان العادل اتفاقاً حسناً .
ما كان سبباً لحفظ بلاد الإسلام والدفاع عنها ، وسرّ الناس أجمعون بذلك ، فلما
انسحبت قوات الحملة الصليبية الخامسة من مصر . بقي الملك الكامل في مصر ، وعاد
الملك المعضم عيسى إلى دمشق ، كما عاد الملك الأشرف موسى إلى ديار الجزيرة ، ولكن
هذا الاتفاق لم يستمر طويلاً . وظهرت بوادر الخلاف والشقاق . فقد سار الأشرف من
الجزيرة إلى أخيه الكامل بمصر ، ومرّ على أخيه بدمشق ، ولم يستصحبه معه ، وأطال
المقام بمصر ، مما أثار الشك في نفس المعضم ، فسار إلى حماه لضمها إليه ، فأرسل إليه
أخوه من مصر ورحلة عنها كارهاً ، فازداد نفوراً ، وقيل إنه نقل إليه عنها أنها
اتفقا عليه . ثم انصاف إلى ذلك أن الخليفة العباسي الناصر لدين الله - رضي الله
عنه - كان قد غضب على الكامل لما فعله ولده صاحب اليمن ، عندما أظهر استهانته
بأمير الحاج العراقي في مكة المكرمة ، فأعرض عنه وعن أخيه الأشرف لاتفاقهما ،
وقطعاها ، وكتب إلى صاحب اربيل - مظفر الدين كوكبri بن زين الدين علي -
لعلمه بخصوصته للملك الأشرف ، فاستماله إليه . وزاد على ذلك أيضاً تعاظم سلطة جلال
الدين بن خوارزمشاه ، وامتداد ملكه في الشرق ، فصار يشكل خطراً على الملك
الأشرف ، ورأى الملك الأشرف أن باستطاعة أخيه الملك المعظم عيسى حرمانه من
الدعم الذي قد يصله من مصر إذا ما دعت الحاجة ، كما أن باستطاعته أيضاً منع
عساكر حلب ودمشق من دعمه ، وعلم أن الخليفة وجلال الدين قد كتبا إلى الملك
المعظم واستمالاه اليها ضد أخيه الكامل والأشرف ، فعظم الأمر على الأشرف وسار
إليه واستماله وأصلحه . فلما علم الكامل بذلك ، عظم الأمر عليه ، وظنَّ أن اتفاقهما
ضده ، ثم إنها راسلاه ، وأعلمها بنزول جلال الدين بن خوارزمشاه على خلاط ، وعظما
الأمر عليه . وأعلماه أن هذه الحال تقتضي الاتفاق بين أولاد العادل . وانقضت سنة

٦٢٣ هـ = ١٢٢٦ م، وأقبل الشتاء، وأخذ الناس في انتظار فصل الرياح لمعرفة ما سيتحقق عن هذا الصراع الخفي. وجاءت السنة التالية (٦٢٤ هـ = ١٢٢٧ م) فتوفي الملك العظيم عيسى، وولي بعده ابنه داود، ولقب بالملك الناصر. وكان عمره قد قارب عشرين سنة، وبايده جند دمشق وأهلها.

كان الامبراطور الألماني فريدرريك الثاني قد نظم حلة وسار بها إلى قبرص. وشرعت قوات الحملة بالانتقال إلى عكا. فكثُر جمعهم، وكان قد وصل قبل هؤلاء جمْ آخر أيضاً من الفرنج، فلما توفي المُعْظَم وولي بعده ابنه، الملك الناصر داود ، طمع الفرنج ، وخرجوا من عكا وصور وبيروت وساروا إلى مدينة صيدا - وكانت مناصفة بينهم وبين المسلمين وسورها خراب - فاستولوا عليها وعمروها وأزالوا عنها حكم المسلمين ، وقد تم لهم ذلك بسهولة نظراً لتخريب الحصون القريبة منها : تبنين وهونين وغيرها وبذلك عظمت قوة الفرنج وزاد طمعهم . واستثنى الكامل هذا التدهور فسار بجيشه من مصر إلى الشام ، ووصل إلى القدس ، ثم سار عنها إلى مدينة نابلس ، ووضع حامية قوية من قواته في كل من المدينتين . وخفَّ الملك الناصر داود أن يهاجمه عمه الملك الكامل ، بعد أن انتزع منه القدس ونابلس وبعض فلسطين ، فاستنجد بعمه الملك الأشرف ، وطلب إليه الحضور إلى دمشق ، فصار إليه في قوة من الفرسان الخفيفية ، وكتب إلى أخيه الكامل يستعطفه ويعلمه أنه ما جاء إلى دمشق إلا طاعة له وموافقة لاغراضه ، والاتفاق معه على منع الفرنج عن البلاد ، فأعاد الكامل الجواب . وقال :

«إنني ما جئت إلى هذه البلاد إلا بسبب الفرنج، فأئمهم لم يكن في البلاد عما يريدونه . وقد عمروا صيدا وبعض قيسارية ولم يمنعوا . وأنت تعلم أن عمنا السلطان صلاح الدين قد فتح القدس . فصار لنا بذلك الذكر الجميل على مر الأيام . فإن أخذته الفرنج حصل لنا من سوء الذكر وقبح الأحداثة ما ينافق ذلك الذكر الجميل الذي ادخره عمنا . وأي وجه يبقى لنا عند الناس وعند الله تعالى؟ . ثم إن الفرنج لن يقفوا حيثئذ عند حدود ما أخذوه، بل سيتجاوزو إلى غيره . وحيث أنك قد حضرت أنت، فأنا أعود إلى مصر ، واحفظ أنت البلاد . ولست بالذي يقال عني أني قاتلت أخي أو حصرته» وانسحب من نابلس . ونزل

على تل العجول . قرب غزة ، فخاف الأشرف والناس كافة بالشام ، وعلموا أنه إن عاد إلى مصر استولى الفرنج على القدس وغيره مما يجاوره ، لا مانع دونه . فسار الأشرف بنفسه إلى أخيه الكامل في تل العجول . فأقاما بمكانتهما . وشرعما في إجراء الاتصالات مع الامبراطور فريديريك الثاني الذي كان قد وصل إلى عكا في السنة السابقة ، وأوفد الكامل إلى عكا سفارة برئاسة فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، وكلفه بطاللة أمد المفاوضات قدر المستطاع . وانقضت عدة شهور في مساومات ، في جو ساده الشك من جانب الكامل والخداع من جانب فريديريك ، وأظهر الرجال رغبتهما كل في التعرف على أسلوب حياة الآخر ، ولم يكن كل منها مستعداً لتفجير الحرب طالما أنه بالمستطاع تجنبها وتفاديها .

غير أنه كان لزاماً على كل منها أن يبذل كل جهد ممكن في التشدد وذلك حتى يحافظ على مكانته وهيبته تجاه شعبه . وتعرض فريديريك لضغط كبير من جانب الفرنج ، إلا أنه استطاع مواجهة هذا الضغط لمعرفته بأن جيشه ليس بالقوة الكافية للقيام بحملة كبيرة . وكان الكامل من جانبه يتتجنب اللجوء إلى استعراض القوة أو استخدامها طالما أنه لم يسيطر بعد على دمشق ، فكان مستعداً للتنازل للمسيحيين عن امتيازات نسخ له للمضي في سياساته المادفة لإعادة توحيد الدولة الأيوبية ، والسيطرة عليها . على أن هذه التنازلات يجب أن تبقى ضمن حدود مقبولة أو معقولة . فلما طلب فريديريك استعادة كل فلسطين . أخبره فخر الدين - سفير الملك الكامل - بأنه ليس بالمستطاع الالقاء إلى مشاعر المسلمين إلى هذا الحد . وعندما حاول الامبراطور فريديريك دفع الأحداث للتسرع وذلك بإجراء تظاهرة عسكرية - لاستعراض القوة - فحشد كل القوات التي استطاع حشدها في سنة ٦٢٥ هـ = ١٢٢٨ م . وسار بها على امتداد الساحل إلى يافا ، التي شرع في بناء تحصيناتها ودعم دفاعاتها . ورفض الكامل الخضوع للابتزاز ، فقطع المفاوضات . ولم يستأنفها من جديد إلا بعد أن دفع فريديريك تعويضاً عن الخسائر التي نزلت بالقرى نتيجة قيام جند فريديريك بهبها . وبرهن فريديريك في نهاية الأمر على أنه يتتفوق على الكامل في مجال المساومة .

وتمكن له التوقيع على معايدة للصلح مع الكامل في مطلع سنة ٦٢٦ هـ =

١٢٢٩ م. وتضمنت نصوص المعاهدة تنازل الكامل للفرنج الصليبيين عن القدس وبيت حم مع شريط من الأرض يخترق مدينة اللد وينتهي عند يافا على البحر، بالإضافة إلى الناصرة وغرب الجليل بما استمل عليه من القلاع والخصون مثل مونفورت وتبين وما تبقى من المناطق الإسلامية المحيطة بمدينة صيدا. على أن يبقى المسجد الأقصى في قبضة المسلمين الذين لهم حق التردد عليه، ومارسة فرائضهم الدينية فيه بحرية. وأضحى باستطاعة فريدريك إعادة بناء أسوار القدس. وقضت المعاهدة بطلاق سراح الأسرى المحتجزين لدى الجانبين. وأن يكون أجلها عشر سنوات بالتقسيم الفرنجي (أي عشر سنوات وخمسة أشهر بالتاريخ الهجري). ولم تشمل هذه المعاهدة إمارة أنطاكية ولا إمارة طرابلس.

استطاع الامبراطور فريدريك، المقطوع من الكنيسة، أن يعيده بذلك للفرنج الصليبيين الأماكن المقدسة، دون أن يوجه ضربة واحدة. على أنه ما من معاهدة لقيت من الرفض ومن المقاومة، من المسلمين والفرنج على السواء، ما لقيته هذه المعاهدة.

فقد انتشرت موجة من الغضب عمت كل أرجاء بلاد المسلمين. ورفع الملك الناصر داود راية الرفض، في دمشق، وأعلن الحداد العام لما تعرض له الإسلام من الخيانة، بل إن أئمة الكامل ذاته، أعلنوا جهاراً أن هذه المعاهدة هي إساءة للإسلام وأهله.

ولم يتمكن الكامل من الدفاع عن نفسه إلا بتقدم أعدار تافهة لم تلق القبول من جهور المسلمين حيث زعم أنه لم يتنازل للفرنج إلا عن دور وكنائس خربة، بينما احتفظ للMuslimين ب المقدسات. وكذلك قوله بأنه لا زالت للMuslimين السيادة العسكرية في الأقليل.

أما الفرنج الصليبيون فقد أدركوا من جانبهم بأنه ما من فائدة من استعادة القدس طالما بقيت الخصون والقلاع في شرق الأردن تحت حكم المسلمين. وهيمن عليهم الحزن لأنهم لم يستعيدوا القدس بقوة السلاح.

ولهذا لم يستقبل الفرنج المعاهدة بما كان يتوقعه فريدريك من البهجة والاحبور . وما من أحد تجرأ على تقديم اقتراح برفع قرار الحرمان من الكنيسة عن الرجل الذي قدم للعالم الصليبي مثل هذه الخدمة .

احتفل الامبراطور فريدريك الثاني بدخوله القدس يوم ١٧ - آذار - مارس - سنة ١٢٢٩ م. ولم يرافقه إلا عساكره من الألمان والايطالين، وعدد قليل من امراء الفرنج المحليين. ولم يشترك من الطوائف الدينية العسكرية سوى طائفة فرسان التيوتون - الألمان -. واستقبل الامبراطور عند باب القدس، قاضي نابلس شمس الدين، الذي سلمه باسم الملك الكامل مفاتيح المدينة. ثم اجتاز الموكب الصغير الشوارع الخالية من الناس، حتى يلغ دار الاستبارية القديمة ، التي اتخذها الامبراطور فريدريك مقراً له.

لم تظهر على مدينة القدس ظواهر البهجة ، فقد هجر المسلمين المدينة ، وابتعد المسيحيون بحجة أن عودة الفرنج لن تجلب لهم الخير ، وتوجه فريدريك في صبيحة اليوم التالي إلى كنيسة القيامة ، التي لم يكن بها أحد من القسّس . وتقىدم فريدريك بثبات . فوضع الناج الملكي - تاج ملك القدس - على مذبح الجلجلة ثم تناوله بيديه ووضعه على رأسه . وعندما عاد الامبراطور إلى مقر إقامته ، أصدر أمره لاصلاح برج داود ، وباب اسطفان ، وسلم المقر الملكي الملافق لبرج داود إلى فرسان التيوتون . وأظهر خلال إقامته في القدس رغبة لزيارة المشاهد الإسلامية .

فقام السلطان الكامل بالييعاز إلى مؤذن المسجد الأقصى بعدم رفع الأذان خلال إقامة الامبراطور في القدس. ولكن الامبراطور فريدرريك احتاج على ذلك، وطلب بألا يتمنع المسلمون عن ممارسة شعائرهم الدينية، وقال إنه لم يحضر إلى القدس، إلا رغبة في سماع المؤذن وهو يدعو المسلمين للصلوة في جوف الليل.

أمر صلاح الدين بنقشه من كتابة حول القبة - من الفسيفساء - والتي تسجل تطهير البناء من الكفار الملحدين، فسأل الامبراطور مبتسماً :
«من يكون هؤلاء الكفارة الملحدون» .

وإذ شاهد أسياخاً بأعلى النوافذ ، أعلمه بأنها قد وضعت لبعد الطيور . فقال : «الآن قد بعث الله لكم الخنازير» . فاستخدم بذلك اللفظ - أو التعبير - الذي يستخدمه المسلمون في وصف المسيحيين . والمعروف أنه كان في حاشية الامبراطور جماعة من المسلمين ، منهم معلم في الفلسفة وهو عربي مسلم .

ومع أن المسلمين أبدوا اهتماماً بالتعرف على الامبراطور ، غير أنه لم يترك أثراً عميقاً في نفوسهم ، إذ أن مظهره خيب ظنهم وتوقعهم ، وقالوا إنه بوجهه الأحمر الناعم ، وعينيه الحولتين ، لا يساوي مائتي درهم في سوق الرقيق .

عاد فريدريك الثاني إلى بلاده بعد شهرين . وجابه الفرنج في القدس مازقاً صعباً ، فقد كان من المحال عليهم حراسة الطريق المؤدي إليها من الساحل .

ودأب المجاهدون المسلمين على مهاجمة الفرنج الصليبيين . ونظم شيوخ المسلمين في حبرون ونابلس إغارة على القدس ، ولما يمض أكثر من بضعة أسابيع على رحيل فريدريك إلى بلاده ، فهرب الفرنج الصليبيون إلى برج داود للاحتماء به ، ولم ينقد لهم إلا قدوم قوة من صيدا وعكا . وأنكر أمراء المسلمين أن تكون لهم علاقة بهذه الاغارة .

وهكذا استمر الصراع بين المسلمين والفرنج ، بعيداً عن إرادة الملوك الأيوبيين ، وخارجاً على إرادتهم ، فيما كانوا هم منصرون لصراعاتهم . فقد استطاع الملك الأشرف أن ينتزع من أخيه الناصر داود ملك دمشق (سنة ٦٢٦ هـ = ١٢٢٩ م) .

وحصل الناصر داود عوضاً عن دمشق على مملكة في وادي نهر الأردن واقليم ما وراء نهر الأردن - وعاصمتها الكرك - . وأصبح للتكامل السيطرة على أخيه الأشرف وابن أخيه داود . فانصرف لتوطيد سلطته في الجزيرة . وحقق انتصاراً كبيراً على ملك

الخوارزمية - جلال الدين خوارزمي (سنة ٦٢٧ هـ = ١٢٣٠ م). وظن المسلمين في بلاد الشام أن الدولة الأيوبية مقبلة على عهد من الاستقرار، ولكن حدث في سنة ٦٣٤ هـ = ١٢٣٦ م أن توفي حاكم حلب - الملك العزيز بن الظاهر غازي. فتولت صفيحة خاتون - شقيقة الكامل - الوصاية على حفيدها الصغير الظاهر الثاني. وأمكن لها الحصول على دعم كافة الامراء الايوبيين الصغار - باستثناء الناصر داود الذي وقف إلى جانب عمه الكامل. وبينما كان الصدام المباشر بين المعسكرين الايوبيين على وشك الواقع، توفي الملك الأشرف (سنة ٦٣٥ هـ = ١٢٣٧ م). وتولى الحكم في دمشق أخوه الأصغر الصالح اسْمَاعِيلْ ولم يترك الكامل فرصة أمام الصالح اسْمَاعِيلْ لإعادة تنظيم المعسكر المضاد له فزحف على دمشق سنة ٦٣٦ هـ = ١٢٣٨ م. وأضافها إلى مملكته، ومنح ابن أخيه الصالح اسْمَاعِيلْ مقابل ذلك إقطاعاً في بعلبك. غير أن الكامل لم يعش طويلاً بعد انتصاره، فمات وهو في الستين من عمره.

لقد اعتبر الكامل بأنه هو المسؤول - إلى حد كبير - عن صرف المسلمين عن الجهاد ضد الفرنج، وتوجيه جهودهم للمحافظة على الدول الايوبية، ولتوحيدها تحت سلطانه. ولقد جاءت وفاته لتزيد من تعقيد الموقف. فقد كان الصالح أيوب، الابن الأكبر للكامل، في شمال بلاد الشام، عندما توفي والده، فبادر بالسير إلى دمشق التي استولى على الحكم فيها الجواد - ابن أخي الكامل - وأمكن له الاستيلاء عليها، وطرد الجواد منها. وأخذ في الاعداد للمسير إلى مصر لينتزع الحكم فيها من شقيقه العادل الثاني الذي كان قد استقر في مصر. ولكن عمه - الصالح اسْمَاعِيلْ - تمكن من احداث ثورة في دمشق ضد الصالح أيوب الذي لجأ إلى الناصر داود من أجل دعمه ومساعدته. ووافق الناصر داود على مساعدته، ودعمه بالقوات. فسار الصالح أيوب إلى مصر، وأفاد من سوء إدارة العادل الثاني، فعزله عن الحكم (سنة ٦٣٨ هـ = ١٢٤٠ م). وأصبح الصالح أيوب ملكاً على مصر. وكافأ الناصر داود على ما قدمه له من المساعدة بأن منحه حكم بلاد فلسطين والأردن.

بقي الصالح اسْمَاعِيلْ ملكاً على دمشق، مما ساعد على تمزق الجبهة الإسلامية في بلاد الشام، خلال السنوات العشرة التالية، وذلك لاستمرار الصراع بين العم الصالح

اسمعيل، وابن أخيه الصالح أيوب. وامتد بساط الفوضى والاضطراب على شمال أرض الشام بسبب نشاط الخوارزمية في أعمال التدمير حيثما ساروا، متذرعين بأنهم تلقوا التوجيهات من الصالح أيوب لممارسة التخريب ونشر الفوضى. أما في الجزيرة، فلم يكن للمظفر الأيوبي - أمير ميافارقين - إلا نصيب زهيد من السلطة والنفوذ، وحاول تورانشاه ابن الصالح أيوب أن يحكم أملاك جده بالجزيرة، غير أن مدنًا كثيرة وقعت تحت حكم سلطان السلاجقة كيخرسرو الثاني. واتخذ الناصر يوسف، الذي خلف أخيه سنة ٦٣٤ هـ = ١٢٣٦ م على حكم حلب، خطبة الدفاع، بينما انصرف أميرا حماه وحص إلى مواجهة خطر الخوارزمية.

أوشك أسد المعاهدة التي كانت قد عقدت بين فريدريك الثاني والكامل، على الانتهاء، في وسط هذه الدوامة من الاضطرابات العنيفة. مما شجع البابا - غريغوري التاسع على إرسال مندوبين من قبله إلى فرنسا وإنكلترا (سنة ٦٣٧ هـ = ١٢٣٩ م) للتوجيه حملة صليبية جديدة. ولكن ملكي فرنسا وإنكلترا لم يكونا على استعداد لقيادة حملة صليبية، بصورة شخصية، غير أنها قدما كل دعم وتشجيع لدعوة هذه الحملة. وأمكن خلال فترة قصيرة تجهيز قوة كافية ضمت في قيادتها نخبة نبلاء فرنسا، وعلى رأسهم تيبيالد كونت شامبانيا وملك نافار، الذي كان ابن أخي هنري كونت شامبانيا، وبذا كان ابن عمّة ملوك فرنسا وإنكلترا وقبص.

وكان تيبيالد يأمل في ركوب البحر إلى فلسطين من ميناء برندizi الإيطالي، غير أن الصراع الذي نشب بين الامبراطور فريدريك الثاني وبين البابا، أرغم قوات الحملة على ركوب البحر من مرسيليا ومن ميناء آيج مورت. وجاءت الحملة خلال رحلتها أعاشر عاتية أرغمتها على التأخير، فلم تصل إلى عكا حتى بداية أيلول - سبتمبر - سنة ١٢٣٩ م. وانعقد في عكا على الفور مؤتمر لمناقشة أفضل السبل للإفاداة من هذه القوة المقاتلة الجديدة.

ووجد أمراء الفرنج أن الظروف مناسبة جدًا للإفاداة من قوة الحملة العسكرية لخدمة الأغراض السياسية، فما نشب من صراعات ومنازعات بين ذرية الكامل الأيوبي، مهدت السبيل للمساومة، وذلك للحصول على تنازلات

سخية من كل مراكز القوى الإسلامية المتصارعة، أو من كل واحد منها على انفراد .

ولكن قوات الحملة ما جاءت إلا للحرب والقتال، وهي لا تريد سلوك النهج المهين الذي أخذ به فريدرิก الثاني. ولهذا اتفق حضور المؤتمر على توجيه الحملة إلى مصر ، وذلك للإفاداة من كراهية الناس لملك مصر العادل الثاني، وأيد بعض النساء الاقتراح بتوجيه الحملة إلى دمشق باعتبارها العدو العنيد للفرنج.

ولكن لا بد للجيش الصليبي من تحصين قلاع الجليل قبل السير إلى دمشق ، وهذا تقرر الهجوم على مصر أولًا ثم التوجه للهجوم على دمشق .

خرجت الحملة من عكا في ٢ تشرين الثاني - نوفمبر - ١٢٣٩ م. واتجهت نحو الحدود المصرية ، وعلم بطرس كونت بريتاني أثناء المسير إلى يافا - من أحد الجواسيس - أن قافلة إسلامية وافرة الثروة تسير على امتداد نهر الأردن في طريقها إلى دمشق . فبادر بطرس بالركوب على الفور ، وسار معه مائتي فارس ، ونصب كميناً لهذه القافلة . واصطدم حرس القافلة الأشداء بقوة الكمين ، وأظهروا ببطولة فائقة حتى أن بطرس كاد يلقى مصرعه ، ولكن قوة الكمين المتفوقة بعدها ، والتي أفادت من المبالغة ، تمكنت في نهاية الأمر من الاستيلاء على القافلة التي اشتغلت على قطيع كبير من الماشية والأغنام . فاقتاد بطرس غنيمتها ، وعاد منتصراً إلى يافا التي بلغها وقتذاك رفاق الحملة . ولقي انتصاره ترحيباً كبيراً ، نظراً لأن مؤونة الجيش كانت آخذة في النفاد ، غير أن هذا الانتصار أثار عداء صاحب الكرك الناصر داود ، كما أثار حام مصر العادل الذي بادر بارسال جيش كبير إلى غزة بقيادة الأمير ركن الدين . وكذلك فقد اغتاظ هنري كونت بار من انتصار بطرس كونت بريتاني فقرر المبادرة بالهجوم على الجيش المصري في غزة ، ووضع خطة سرية للهجوم لم يطلع عليها إلا جماعة قليلة من أصدقائه - من سادة شرق فرنسا - . واتخذ استعداداته للبدء بتنفيذ خطته عند حلول الظلام من يوم ١٢ تشرين الثاني - نوفمبر - سنة ١٢٣٩ م. وسار بقوته التي ضمت ألف راجل وخمسين فارس ، وأفاد من ضوء القمر ليتقدم بسرعة ، وعندما علم قائد الحملة - تيالد كونت شامبانيا - بخروج هذه القوة ، حشد قواته تحت أسوار

عسقلان ، لمجابهة أي احتلال ، ولدعم قوة هنري كونت بار إذا ما تطلب الأمر . وصلت قوة هنري كونت بار ، مع الفجر ، إلى مسافة غير بعيدة من غزة . فتوقفت في منخفض بين التلال الرملية المجاورة لساحل البحر - من أجل الراحة -. واستطاع جواسيس الأمير ركن الدين انذاره في الوقت المناسب ، فأرسل رماته للالتفاف حول التلال الرملية ، وتطويق قوة الفرنج ، وشعر كونت يافا والتر الذي كان يرافق الحملة بحركة جند المسلمين ، فأمر جنده بالتراجع سراعاً لأنه ليس بإمكان الخيول التحرك بحرية وسط كثبان الرمل . وتبعه سائر الفرنج ، ولكن هنري كونت بار لم يرغب في التخلص عن جند المشاة - الرجال - الذين قادهم إلى الكمين المنصوب ، ولم يبق معه إلا بعض أصدقائه الخالص . ولم تستغرق المعركة وقتاً طويلاً ، فسقط الفرسان وخيوthem بين التلال الرملية ، وتبعهم المشاة المثقلون بالأسلحة ، وقتل منهم أكثر من ألف رجل - منهم هنري كونت بار - ووقع في الأسر نحواً من ستائة رجل ، جرى نقلهم إلى مصر - كان من بينهم كونت مونتفورت ، والشاعر فيليب نانتيل ، الذي أمضى أيامه في الحبس وهو ينظم قصائد الشعر في ذم الطوائف الدينية العسكرية ، حيث وجه له اللوم - عن عاطفة لا عن منطق - لما أصاب هذه الحملة من الفشل .

حاول تيبيالد كونت شامانيا التحرك فوراً من عسقلان ، عندما وصلته فلوں القوات المزقة في الهجوم على غزة . ولكن قادة الفرنج المقيمين في الشام امتنعوا عن التحرك ، فاضطر للعودة إلى عكا - بصورة بطئية - بعد أن تناقص عدد جنده .

كان أمير الكرك الناصر داود قد انتقم في هذه الفترة للقاڤلة التي هاجها الفرنج ، فزحف على القدس ، واحتل المدينة دون مقاومة تذكر ، غير أن الحامية المرابطة بالقلعة قاومت الحصار طوال سبع وعشرين يوماً ، اضطرت بعدها للاستسلام - وقد حصلت على الأمان بالانسحاب إلى الساحل . ودمر الناصر داود البرج الذي جدد الفرنج عماراته - برج داود - وكذلك التحصينات والسور - عند باب اصطفان - وعاد بقواته إلى الكرك .

تحرك تيبيالد بقواته ، بعد المعركة التي وقعت في غزة ، صوب الشمال إلى طرابلس . وعندما وصلها علم باندلاع القتال بين ملك دمشق الصالح اسماعيل وبين ملك مصر

السلطان الصالح أيوب، فأسرع تيبيالد لاغتنام الفرصة من أجل الحصول على مساومة راجحة، وقاد جيشه إلى عيون صفورية - في الجليل -. ولم ينتظر طويلاً حتى وصله اقتراح من الصالح اسماعيل لعقد معاهدة هجومية، إذ كان الصالح اسماعيل يخاف من اشتراك الصالح أيوب مع الناصر داود للهجوم على دمشق، فإذا ما عمل الفرنج على حراسة الحدود المصرية عند الساحل، وإذا ما أمدوه بالأسلحة، فإنه سيتزاول لهم عن الحصينين الكبيرين، هونين وصفد وما يقع بينهما من التلال. ولما كان لطائفة فرسان الداوية علاقاتها المالية والتجارية مع دمشق، فقد أمكن له توجيه المفاوضات بين المسلمين - في دمشق - وبين تيبيالد، وحصلوا على عمولتهم بمنحهم مدينة صفد. وارتاد المسلمين في صفد وهونين لما حذر، ورفضت حامية هونين الاستسلام للفرنج، فجاء الصالح اسماعيل بجيشه وحاصر القلعة وأرغم حاميتها على الاستسلام، وسلمتها للفرنج، وغضب المسلمين وغادروا المدينة، والتحق رجالان من كبار علماء الدين - منهم خطيب المسجد الجامع بمصر، احتجاجاً على تصرف الصالح اسماعيل الذي غدر بالمسلمين وسلم مدنهم لعدوهم.

إذا كانت طائفة فرسان الداوية قد حققت مكاسبًا باستيلائها على صفد، فيجب أن تقرر الطائفة المنافسة لها - وهي طائفة فرسان الاستبارية - للحصول على مكسب مماثل، فتوجهت سفارة منها إلى الصالح أيوب في مصر، والذي ابتهج لاستقبال هذه السفارة من أجل تحطيم التحالف الذي أقامه الصالح اسماعيل مع الفرنج. فعرض على السفارة اطلاق سراح الأسرى الذين وقعوا في يده في غزة، وأن يكون لهم الحق في احتلال عسقلان وتحصينها، مقابل التزام الحياد. وعندئذ وقع مقدم الاستبارية مع مثلي السلطان الصالح أيوب، الاتفاق في عسقلان. وفرح تيبيالد بهذا الاتفاق الذي ضمن للفرنج الصليبيين مكاسبًا جديدة، بالإضافة إلى تحرير عدد من أصدقائه في طليعتهم أمريكي مونتفورت. وغضب الفرنج - بتحريض من الداوية - لتخليهم عن الاتفاق مع دمشق، التي ظلت باستمرار العدو الصلب للفرنج، فكان عقد اتفاق صداقة معها أكثر أهمية من الاتفاق مع الصالح أيوب. ولم يتحمل تيبيالد ردة الفعل الغاضبة للفرنج، فغادر عكا (في أيلول - سبتمبر - ٦٣٨ هـ) ١٢٤٠ م). وعاد إلى بلاده.

لم يمض على رحيل تيغالد أكثر من بضعة أيام، حتى وصل إلى عكا (يوم ١١ تشرين الأول - أكتوبر - ١٢٤٠ م) شقيق هنري الثالث ملك إنكلترا - وهو ريتشارد ايرل كورنوال - والذي كانت أخته زوجة ملك ألمانيا وأمبراطور الغرب فريدرريك. وقد ارتاع ريتشارد بمجرد وصوله إلى عكا، لما شاهده من الفوضى بسبب تفجر الصراع بين الداوية وبين الاستبارية. حيث وقف معظم الفرنج في الشام إلى جانب الداوية، مما دفع الاستبارية لطلب الدعم من طائفة فرسان التيوتون ومن أنصار الامبراطور فريدرريك الثاني. وهرع ريتشارد إلى عسقلان لدراسة الموقف، فالتقى هناك برسل السلطان الصالح أيوب الذين تقدموا إليه بطلب التصديق على المعاهدة التي عقدها الصالح أيوب مع الاستبارية.

غير أنه أصر على أن يقر المصريون على ما تنازل به. أمير دمشق الصالح اسماعيل من البلاد للفرنج، وذلك بحججة استرضاء أمراء الفرنج - وباروناتهم -. كما أصر بأن يضيفوا إليها ما تبقى من الجليل - بما في ذلك قلعة شيف أرنون، وجبل الطور وطبرية -. ولما كان أمير الكرك الناصر داود قد انتزع من الصالح اسماعيل ما كان له من السيطرة على شرقي الجليل، فإنه لم يعد باستطاعة الصالح اسماعيل الامتناع عن كل تنازل عن بلاد أخرى.

وبذا استعادت مملكة القدس كل ما كان لها من أراضي غربي نهر الأردن، والتي امتدت جنوباً حتى أراضي غزة - باستثناء نابلس واقليم السامرية -. .

وظلت القدس مجردة من التحصينات. فشرع الفرنج في إعادة بناء قلعة طبرية. وأكملوا أيضاً بناء تحصينات عسقلان. وقام ريتشارد بإعادة تنظيم أمور المملكة، وعيّن حاكاماً للمدن التي استعاد الفرنج حكمها. وأقام في فلسطين حتى منتصف عام ٦٣٩ هـ = ١٢٤١ م ثم عاد إلى بلاده، وقد أعاد النظام والأمن للفرنج في بلاد الشام -. .

طمם الفرنج بال المسلمين بعدما حققوه من مكاسب لم تكلفهم ولو قطرة دم واحدة. ورفضت طائفة فرسان الداوية الالتزام بالهدنة التي تم عقدها مع الصالح أيوب. فأغار فرسانها في سنة ٦٤٢ هـ = ١٢٤٢ م على مدينة حبرون الإسلامية. ورد الناصر داود

- صاحب الكرك - على هذه الإغارة بأن أرسل قواته لقطع الطريق المؤدي إلى القدس، ولجباية رسوم من حجاج الفرنج وتجارهم عند اجتياز هذا الطريق. فرد فرسان الداوية على ذلك بأن خرجنوا من يافا (في ٣٠ تشرين الأول - أكتوبر - سنة ١٢٤٢ م) وانقضوا على نابلس، واستباحوها وقتلوا عدداً كبيراً من أهلها، وأحرقوا مسجدها. فاكتفى الصالح أيوب بارسال جيش ألقى الحصار على يافا لفترة من الزمن، ثم رجع عنها. وكان ذلك انتصاراً للدواوية الذين استمروا في ممارسة ضغوطهم على أمراء الفرنج لاستئناف المفاوضات من جديد مع حاكم دمشق الصالح اسماعيل. وكان قد نشب في هذه الفترة بين حاكم مصر الصالح أيوب وصاحب الكرك الناصر داود، ووجد الداوية الذين أصبحت لديهم كفاءة عالية في استثمار التناقضات والخصومات بين أمراء المسلمين، أن هناك فرصة جديدة قد سنت لهم، فحصلوا خلال مفاوضاتهم مع الصالح اسماعيل والناصر داود والصالح أيوب على موافقة منهم جميعاً باخراج المسلمين من المسجد الأقصى، وإعادته لحكم الفرنج الصليبيين.

وكتب مقدم الداوية - ارمان بريغورد - رسالة مثيرة لأوروبا (في نهاية سنة ٦٤١ هـ = ١٢٤٣ م) أورد فيها ما جرى من انجاز كبير، وذكر بأن طائفة الاستبارية قد شرعت بإعادة تحسين القدس. وكانت فرصة للإمبراطور فريدريك للتنديد بالدواوية الذين تحالفوا مع المسلمين، وهم الذين أنكروا عليه تحالفه مع المسلمين، ووقفوا ضده.

تشجع الداوية بما حققوه من انجاز، فلما اندلعت الحرب بين الصالح أيوب والصالح اسماعيل (في سنة ٦٤٢ هـ = ١٢٤٤ م) قام الداوية بتحريض أمراء الفرنج لل موقف إلى جانب الصالح اسماعيل، والذي انضم إليه كل من صاحب الكرك الناصر داود، وصاحب حصن المنصور ابراهيم. وقدمن المنصور ابراهيم بنفسه إلى عكا لابرام المحالفه، وليرضى على الفرنج - بالنيابة عن الحلفاء الأيوبيين - نصيبيهم في مصر، حينما تخل الهزيمة بالصالح أيوب. وجرى استقبال الأمير المسلم المنصور ابراهيم بكل مظاهر التشريف، وتکفل الداوية بمعظم الضيافة.

لم يقف الصالح أيوب جاماً أمام هذا التحدى، بل تحرك بسرعة أكبر، وحصل

على حليف أقوى من الفرنج، وهذا الخليف هو فرسان الخوارزمية الذين كانوا قد أقاموا في شمال بلاد الشام وانتشروا بين حران والرها. فحرضهم الصالح أيوب للهجوم على دمشق، واستجاب الخوارزمية لطلب الصالح أيوب الذي احتفظ بعلاقات جيدة معهم، على خلاف سائر الأمراء الأيوبيين، الذين حدوا من نشاط الخوارزمية، وقيدوا حرية عملهم في العمل. وانطلق حوالي ألف فارس من الخوارزمية الشجعان، وأخذوا في تدمير البلاد واحراق القرى حتى وصلوا إلى دمشق، وإذا أدركوا أنهم لا يستطيعون تدمير دمشق أو مهاجمتها، تابعوا اندحارهم نحو الجنوب. فاجتازوا طبرية بعد أن استولوا عليها، وعبروا الجليل، ووصلوا إلى القدس. وإذا أدرك بطريق القدس - روبرت - ما يتهدد القدس. سارع مع مقدمي طائفتي الداودية والاسبارية لتحسين المدينة، ودعم الحامية المدافعة عنها. ولكن ذلك لم ينفعهم شيئاً. فقد اقتحم أبطال الخوارزمية القدس (يوم ١١ تموز - يوليو - سنة ١٢٤٤ م) ووقع القتال في الشوارع، ولم يتأخر الخوارزمية كثيراً عن الوصول إلى دير الأرمي (المعروف باسم دير القدس يعقوب) فأجهزوا على الرهبان والراهبات. وقتل قائد حامية المدينة عندما حاول الانطلاق من القلعة للهجوم على المسلمين، وقتل معه قائد الاسبارية. ولما لم تقدم نجدات من الفرنج، استغاثت الحامية التي استمرت في مقاومتها بأمير الكرك الناصر داود - الذي كان أقرب الحلفاء المسلمين من القدس. ولكن الناصر لم يرغب في التدخل لمصلحة الفرنج. غير أنه تدخل لدى فرسان الخوارزمية لمنع الأمان للحامية حتى ينسحبوا بأمان إلى الساحل إذا سلموا القلعة.

وغادر القدس حوالي ستة آلاف من رجال الفرنج الصليبيين وأطفالهم ونسائهم، في يوم ٢٣ - آب - أغسطس - ١٢٤٤ . وبينما كان الفرنج يتحركون على الطريق إلى يافا، تطلعت جماعة منهم إلى الوراء، فشاهدت أعلام الفرنج وهي ترفرف على أبراج المدينة. وإذا اعتقادوا أن هناك خسارة قد وصلت بطريقة من الطرق إلى القدس، أصرّ معظمهم على الرجوع إلى المدينة، غير أنهم وقعوا في كمين تحت أسوار المدينة، فهلك منهم ألفي إنسان، وتعرض من بقي منهم حياً، لهجات المجاهدين المسلمين الذين كانوا يسيطرون على

الطرق - فلم يصل منهم إلى يافا سوى ثلاثة رجال . وعادت القدس نهائياً لل المسلمين . ولم يدخل أبوابها جيش صليبي إلا بعد سبعة قرون عندما قاد الجنرال اللبناني المجمعة الصليبية الحدبة ، ودخل المدينة المقدسة (سنة ١٩١٧) ليقول : « ها قد عدنا يا صلاح الدين » .

لقد تفجر غضب المسلمين على الفرنج الصليبيين . وزالت من نفوسهم تلك الرحمة التي لازمتهما في حروبهم كلها ، وجاء حصاد ما زرعه الفرنج الصليبيون من الحقد والكراهة ، فانطلق فرسان الخوارزمية يقتلون كل من يتعرض سبيلهم ، واقتحموا كنيسة القيامة - أو بيعة القيامة كما كانوا يسمونها ، وقتلوا كافة القسّيس الذين رفضوا معادرة المدينة ، ونبشت قبور ملوك الفرنج الذين دفنتوا في القدس ونثرت عظامهم . واشتعلت النيران بالكنيسة ، وأحرقت كنائس أخرى ، وتعرّضت دور الفرنج ودكاكينهم للنهب ، ولما أُنجز فرسان الخوارزمية أعمالهم ، غادروا المدينة ، ليلحقوا بالجيش المصري الذي كان يحتشد أمام مدينة غزة .

عمل الفرنج خلال ذلك على حشد قواتهم أمام عكا ، وانضم إليهم جيشاً حصّ ودمشق بقيادة أمير المنصور ابراهيم ، ثم انضم إليهم جيش الكرك بقيادة الناصر داود ، وشرعت القوات المتحالفه بالسير على الطريق الساحلي نحو الجنوب . وحرص الناصر داود - وجيشه من البدو - على البقاء منعزلاً عن سائر القوات المتحالفه ، بينما تميّزت علاقة الفرنج والمنصور ابراهيم ورجاله بالزماله الكاملة - أو رفقة السلاح - .

زج الفرنج في جيشهم أكبر جمع أمكن لهم حشدـه منذ معركة حطين . فبالإضافة لقوات صور ويافا وفرسان الداوية والاستبارية والتيوتون أرسلت كل من إمارتي طرابلس وأنطاكية قوات إلى هذا الجيش المشترك .

اتخذ الجيش المصري موضعه أمام غزة ، بقيادة أمير مملوكي صغير ، وهو ركن الدين بيبرس البندقداري ، وقد ضم هذا الجيش خمسة آلاف من نخبة الجنـد المصريـ ، فضلاً عن جمـوع الخوارزمـية . ووقع الالتحـام بين الجـيـوش المـتحارـبة يوم ١٧ تشرين

الأول - أكتوبر - سنة ١٢٤٤ م، عند قرية الحربية* الواقعة في السهل الرملي على مسافة بضعة أميال إلى الشمال الشرقي من غزة. فبادر الفرنج وحلفاؤهم لعقد مؤتمر للقادة، واقتصر المنصور ابراهيم ببقاء الجندي في مواقعهم، وتحصين معسكرهم لمجابهة هجمات الخوارزمية الذين كانوا عادة ما يتتجنبون الصدام بالواقع المحسنة، ونظراً لاعتماد جيش مصر على الخوارزمية فإنه قد يضطر للانسحاب إذا ما تم احباط هجمات فرسان الخوارزمية. ووافق عدد كبير من قادة الفرنج على اقتراح المنصور ابراهيم قائد جيشي دمشق وحمص. ولكن كونت يافا وولتربرين أصرَّ على القيام بهجوم مباشر ، معتمداً على تفوقه عددياً على الجيش المصري ، ومدفعياً برغبته الجامحة للقضاء على الخوارزمية والانتقام منهم، مع إذلال الصالح أيوب في الوقت ذاته ، فاتخذ وولتربرين طريقه للهجوم ، وتحركت الجيوش المتحالفة بأكملها وقد اتخذت تشكيل القتال ، حيث اتخذ الفرنج أماكنهم في الميمنة ، فيما اتخذ جيش دمشق وجيش حمص مواقعها في القلب ووقف جيش الكرك في الميسرة . وقد تصدى جيش مصر للهجوم ، بينما انطلق فرسان الخوارزمية للهجوم على المسلمين المتحالفين مع الفرنج . وصمد في القتال المنصور ابراهيم وجشه وحافظ على موقعه ، ولكن جيش دمشق أسرع في الانسحاب والفرار ، وتبعه جيش الكرك ، ولم يتأخر جيش حمص عن اللحاق بمسلمي دمشق والكرك ، وتركوا الفرنج وحدهم ، حيث قام الخوارزمية بالاتفاق على جناح الفرنج الصليبيين . ودفعوه نحو المصريين ، وما هي إلا ساعات قليلة حتى تحطم جيش الفرنج بكامله ، رغم ما أظهره جنده من الصمود والشجاعة . وسقط على أرض المعركة عدد كبير من القادة: منهم مقدم الداوية ومارشالهم ورئيس أساقفة صور وأسقف الرملة . ووقع في الأسر كونت يافا ومقدم الاستبارية وقائد جيش طرابلس - ولاذ بالفرار قائد الفرسان فيليب مونتفورت ، والبطريرك ، ولحق بهما من بقي على قيد الحياة من فرسان الطوائف الدينية العسكرية الثلاث ؛ فأجروا إلى يافا .

وقدر عدد القتلى بخمسة آلاف قتيل ، والراجح أنهم كانوا أكثر من ذلك .
ونقل ثمانمائة أسير تقريباً إلى مصر .

* وهي المعروفة عند مؤرخي الفرنج باسم : (LA FORBIE).

أسرع جيش مصر الظافر إلى عسقلان التي أقامت فيها حامية قوية من طائفة الاستبارية. وقد صمدت التحصينات التي تم دعمها أمام هجمات المصريين المتالية، فألقوا الحصار عليها بعد أن جلبوا السفن من مصر لاحكام الحصار براً وبحراً. وأثناء ذلك، سار فرسان الخوارزمية إلى يافا وقد حلوا معهم أسرهم - كونت يافا ولتربرين - وهددوا بشنقه إن لم تستسلم الخامسة، غير أن الكونت بربين صاح برجاله أن يصدوا في القتال. ولما كانت تحصينات يافا على درجة كافية من القوة، مما يجعل من الصعب اقتحامها؛ فقد انسحب الخوارزمية بأسرهم الذي أبقوها على حياته إلى حين.

خسر الفرنج في معركة الحربية - غزة - كل ما أحرزته لهم دبلوماسيتهم من الجازات ومكاسب على امتداد عشرات السنين الأخيرة.

والأهم من ذلك، هو أنهن فقدوا على أرض المعركة نخبة قدرتهم البشرية المقاتلة، مما جعلهم عاجزين عن تأمين الدفاع إلا عن المدن الساحلية، وبعض الحصون والقلابع الداخلية، ولم يفق معركة غزة في كثرة الخسائر إلا معركة حطين. وكان باستطاعة سلطان مصر الافادة من هذا الموقف لطرد الفرنج من بلاد الشام كلها، ولكنه أعطى الأفضلية للتغلب على خصمه في دمشق - الصالح اسماعيل - مما أتاح الفرصة للفرنج للبقاء سنوات أخرى على أرض بلاد الشام.

تابع الخوارزمية اغاراتهم على بلاد الفرنج في فلسطين، ومضوا في طريقهم حتى بلغوا أرباض عكا. ثم تحركوا إلى داخل البلاد، لي penetروا إلى جيش مصر الذي كان يحاصر دمشق. والمعروف أن جيش مصر بقيادة الأمير معين الدين، كان قد اجتاح فلسطين، وجرد الكرك الناصر داود من كل بلاده الواقعة غربي نهر الأردن، ثم وصل إلى دمشق (في نيسان - ابريل - سنة ١٢٤٥ م) واستمر حصارهم لدمشق ستة شهور، وأمر الصالح اسماعيل - أمير دمشق - بقطع الجسور التي تحجز مياه نهر بردى، فتحولت الأرضي الواقعة خارج أسوار دمشق إلى مستنقع يصعب اختراقه. غير أن الصراع المحكم الذي فرضه جيش مصر أثار قلق التجار وسواهم من السكان، مما حل بالصالح اسماعيل على قبول شروط الصلح (في أوائل تشرين الأول -

اكتوبر - سنة ١٢٤٥). فتخلى عن دمشق مقابل الحصول على إمارة بعلبك وحوران، واعترافه بسيادة الصالح أيوب.

أصبح باستطاعة الصالح أيوب أن يوجه جهده لقتال الفرنج، فأرسل جيشه إلى فلسطين سنة ٦٤٥ هـ = ١٢٤٧ م، فاستولى على طبرية وقلعتها التي أعاد الفرنج تخصينها حديثاً. ولم يلبث جيش مصر أن أعاد فتح جبل الطور وحصن شقيف أرنون، ثم تحرك نحو عسقلان التي كان الفرنج قد أعادوا ترميم أسوارها ودعموا تخصيناتها ووضعوا بها حامية من الاستبارية. فأسرع قبرص لارسال قوة بحرية من ثمانين سفناً كبيرة حملت مائة فارس. كما أرسلت عكا سبع سفن كبرى مع خمسين سفينة خفيفة. وتحركت بالمقابل من مصر قوة بحرية ضمت إحدى وعشرين سفينه كبيرة لاحكام الحصار على عسقلان من جهة البحر. لكن القوة البحرية المصرية اصطدمت بعاصفة، فتحطممت بعض السفن على رمال الشاطئ، واضطررت السفن الباقية للعودة إلى مصر. وأضحت باستطاعة الأسطول الصليبي أن يقلع إلى عسقلان دون خوف. فأمد الحامية بالدعم والتمويلين. ولكن سوء الأحوال الجوية أرغم أسطول الفرنج على العودة إلى عكا. وأفاد المصريون من حطام السفن لصنع المجانيد وأدوات الحصار فأمكن لهم اقتحام القلعة. وتم قتل معظم حامية عسقلان، ووقع الباقيون في الأسر. وتم بناء على أوامر السلطان الصالح أيوب تدمير حصن عسقلان، فأضحي خراباً موحشاً. ولم يتتابع الصالح أيوب استثار هذا النصر. وقام بزيارة القدس. وأمر بإعادة بناء أسوارها، ثم غادرها إلى دمشق، حيث أقام بها طوال فصل الشتاء من سنة ٦٤٦ هـ = ١٢٤٨ م وربيع سنة ١٢٤٩ م. وقدم عليه كل أمراء الشام يبذلون له الولاء والطاعة.

Sad al-hadou emarat al-franj fi blad al-sham , bissab ضعف قدرتها البشرية المقاتلة وما نزل بها من الخسائر . وبالمقابل ، لم يكن الصالح أيوب متوجلاً لتصفية وجود الفرنج على أرض الشام . وظهر أن هذا الهدوء قد يستمر طويلاً ما لم تحركه رياح الغرب . ولكن رياح الغرب لم تكن ساكنة ولا مستقرة . وما لبشت أن قذفت بأعصار جديد ، تمثل في حملة ملك فرنسا لويس التاسع (سانت لويس) . وهي الحملة التي جعلت من مصر هدفاً لها ، بعد أن أمسكت مصر بمجاتيح الحرب والسلم .

١٠ - ملك فرنسا أسيراً في المنصورة.

كان ملك فرنسا لويس التاسع في الثلاثين من عمره، عندما وقع فريسة لحمى الملاريا التي كادت تودي بحياته (في كانون الأول - ديسمبر - ١٢٤٤ م). وإذا أشرف على الهاك نذر أن يقود حملة صلبيّة إذا ما شفي من مرضه. وعندما استرد لويس صحته، شرع في الاعداد للوفاء بما قطعه على نفسه من النذر. وتلقى الفرنج أنباء الاعداد للحملة الصليبية بالبهجة والمحبور. فقد اشتدت الحاجة وقتذاك إلى دم جديد يرفد الصليبية بالقدرة على العيش أيامًا أخرى.

استغرقت استعدادات الملك ثلاث سنوات، إذ تقررت جباية ضرائب استثنائية للانفاق على الحملة، ولم يعف من أدائها رجال الكنيسة، مما أثار غضبهم. وكان لا بد من تنظيم حكومة البلاد، فتقرر أن تتولى الوصاية مرة أخرى - الملكة الوالدة بلانش - التي ثبتت كفايتها وقدرتها على الحكم أثناء وصايتها على ابنها عندما كان صغيراً. وكان على الملك أيضاً أن يحل بعض المشاكل الخارجية، إذ كان لا بد من اقناع ملك انكلترا بالمحافظة على السلام أثناء غيابه في الحملة الصليبية.

أما العلاقات مع أمبراطور الغرب وملك ألمانيا - فريدريك الثاني - فكانت بالغة الدقة. فالمعروف أن الملك لويس قد حظي بتقدير الامبراطور فريدريك وامتنانه، لوقفه موقف الحياد من الصراع الذي دار بينه وبين البابا، غير أنه كان على لويس أن يهدد بالتدخل حينما اقترح فريدريك على حلفائه (في سنة ١٢٤٧ م) أن يهاجروا البابا ذاته في ليون. وبالاضافة إلى ذلك، فقد كان فريدريك هو والد الملك الشرعي للقدس - كفراد -. فكان لا بد للملك لويس من الحصول على إذن منه لدخول بلاده.

ويظهر أن المبعوثين الفرنسيين قد أعلموا الامبراطور فريدريك على الحملة

التي يعد لها الملك لويس، فما كان من الامبراطور إلا أن أرسل المعلومات عنها إلى السلطان الصالح أيوب، وذلك على الرغم مما أظهره الامبراطور فريديريك من العطف على الحملة، ومساعدتها. وكان لا بد للملك لويس أيضاً أن يتلمس السفن اللازمة لنقل الحملة الصليبية إلى الشرق. فوافقت جنوه ومرسيليا، بعد مفاوضات جرت معهما، على أن تبدأ الحملة بما تحتاجه من السفن. أما البندقة الذين أصاهم الجزء فعلاً لكل خطة تؤدي إلى قطع علاقاتهم التجارية الطيبة مع مصر. فقد زاد في كراهيتهم لكل ما حدث. وغادر الملك لويس في نهاية الأمر باريس سنة ٦٤٦ هـ (١٢ - آب - أغسطس - سنة ١٢٤٨ م) ثم أبحر من ميناء ايج مورتز، قاصداً جزيرة قبرص، وصحبه في الرحيل الملكة واثنان من إخوته (هما روبرت كونت أرتوا وشارل كونت أنجو) وعدد كبير من الامراء الفرنسيين. بالإضافة إلى عدد من الامراء الانكليز مع قواتهم. ووصل الأسطول الملكي إلى ليماسول في ١٧ - ايلول - سبتمبر - سنة ١٢٤٨ م. وبدأت القوات تتدفق تباعاً على قبرص. كما توجه إلى قبرص مقدماً الطوائف الدينية وعدد من أمراء الفرنج في بلاد الشام. واستقبل ملك قبرص هنري - جميع القادمين، بكل مظاهر الود، وأعد لهم الضيافة اللائقة.

جرت مناقشة خطة الحملة، فوافق جميع الامراء والقادة على أن تكون مصر هي هدف الحملة. إذ كانت مصر أخصب أقاليم الدولة الأيوبية، وأيسرها منالاً عند الهجوم. وتذكر الفرنج أثناء مناقشاتهم ما حدث أثناء الحملة الصليبية الخامسة عندما عرض السلطان الكامل التنازل عن القدس مقابل الانسحاب من دمياط.

وعندما تم الوصول إلى الاتفاق بصدق هدف الحملة، أراد الملك لويس أن يشرع فوراً بالتوجه للقتال. غير أن مقدمي الداودية والاسبارارية وامراء - بارونات - الفرنج في بلاد الشام، أقنعوا بضرورة التمهل والترى ث ، فقد اقترب موسم العواصف الشتوية، وبات من الخطير الاقتراب من شاطئ الدلتا الذي يزخر بالجسور الرملية بالإضافة إلى قلة الموانئ . وعلاوة على ذلك كله، فقد كان أمراء الفرنج في الشام ومقدمي الطوائف الدينية يرغبون في حل الملك لويس على التدخل بالصراع الذي نشب بين الايوبيين. إذ

كان حاكم حلب الامير الناصر يوسف قد طرد ابن عمه الأشرف موسى من حصن ، واستولى على المدينة . فاستنجد الأشرف بالسلطان الصالح أيوب الذي قدم من مصر ، وأرسل جيشاً لاسترداد حصن . وكان الداوية قد دخلوا فعلاً في مفاوضات مع السلطان الصالح أيوب لدعمه بقوات إضافية مقابل التنازل للفرنج عن بعض الأراضي .

غير أن الملك لويس لم يظهر استعداداً للقيام بهذا الدور дипломатический ، إذ أنه لم يختلف عن سائر الفرنج الصليبيين الذين ظهروا في القرن الماضي ، فهو لم يقدم إلا لقتال المسلمين ، لا للغوص في مستنقع дипломатический . وأمر الداوية بقطع مفاوضاتهم مع السلطان الصالح أيوب .

أرسل الملك لويس رجاله لجمع المؤن والذخائر ، وأمكن جمع ما يكفي لشهر أو شهرين على الأكثر ، وحينما حلّ الربع من سنة ٦٤٧ هـ = ١٢٤٩ م طلب إلى الحاليات المحلية من التجار الإيطاليين أن يمدوه بالسفن ، وامتنع البناقة الذين رفضوا فكرة القيام بالحملة على مصر رفضاً كاملاً منذ البداية ، تقدم أي دعم أو مساعدة . ولم تلبث أن تفجرت حرب حقيقة بين الجنوبيين والبيازنة على امتداد ساحل بلاد الشام ، وتعرض الجنوبيون الذين اعتبرهم الملك لويس سنته الأساسي ، لأسوأ نتائج هذه الحرب . واستطاع سيد أرسوف - يوحنا أبلين - السيطرة على الموقف بعد ثلاثة أسابيع من الاقتتال . وفرض على الحاليات الإيطالية في عكا هدنة لمدة ثلاثة سنوات . وهكذا لم يتم الحصول على السفن اللازمة لنقل الحملة إلا في نهاية شهر أيار - مايو - ١٢٤٩ م . واستقبل الملك لويس في نيقوسيا خلال هذه الفترة من قصده من الزائرتين والسفارات ، فبعث إلى ملك أرمينية هيثوم بالهدايا التفصية ، كما استجاب لطلب أمير أنطاكية بوهمند ، بأن دعمه بجماعة من الرماة - بلغ عددهم ستة - من أجل حماية إمارته من هجمات المسلمين التركمان . ووصلت إلى نيقوسيا في قبرص - امبراطورة اللاتين بالقسطنطينية - ماريابرين - والتمست من الملك لويس مساعدتها ضد الامبراطور البيزنطي في نيقية . وأظهر الملك لويس عطفه عليها ، إلا أنه أخبرها بأنه ينبغي أن تكون الأسبقية لتوجيه الحملة الصليبية لقتال المسلمين . ثم وصل آخر الأمر إلى قبرص أمير أخايا وليم هاردوين في أربع وعشرين سفينة وكتيبة من الفرنج ، من

شبه جزيرة المورة، إذ أن دوق برجندية كان قد أمضى فصل الشتاء مع وليم هاردوين في إسبارطة، وأقنעה بأن يلحق بالملك لويس في قبرص.

ضاقت الجزيرة بنزلائها الفرنج، وأصبحت كالمحشر، وكادت تنفذ كميات الطعام التي جمعت لتزويد الحملة الموجهة إلى مصر. واحتشد في خليج لماسول أسطول ضم مئة وعشرين سفينة كبيرة لنقل الجنود، مع عدد كبير من السفن الصغيرة. وشرع جيش الفرنج في اتخاذ أماكنه عليها، ولكن عاصفة عاتية شتت السفن، وعندما صعد الملك لويس سفينة القيادة (مونتجوا) يوم ٣٠ أيار - مايو - ١٢٤٩ (٦٤٧ هـ) لم يقلع معه سوى ربع عدد الجيش، بينما أُبْرِرَ إلى مصر سائر رجال الحملة متفرقين. ووصل أسطول الملك إلى أمام دمياط يوم ٤ حزيران - يونيو - .

كان الصالح أيوب قد أمضى فصل الشتاء في دمشق، وكان يأمل في أن يتمكن جيشه من الاستيلاء على حصن قبل أن تصل قوات الفرنج. وتوقع أن يهبط الملك لويس على سواحل بلاد الشام - في عكا - فلما تأكد أن قوات الحملة قد سارت إلى مصر، رفع الحصار عن حصن، وسار سرعاً إلى مصر، بعد أن أمر جيوشه بالشام أن تلحق به. ولما كان الصالح أيوب مريضاً يعاني من مرض السل الذي وصل إلى مرحلة متقدمه، فأعاقه عن قيادة الجيش بنفسه، أمر وزيره المتقدم في العمر، فخر الدين - صديق فريديريك الثاني - أن يتولى القيادة، وعهد إليه بمنع الفرنج من النزول إلى البر، وأرسل إلى دمياط كميات كبيرة من الذخائر والتموين، وشحذها ب الرجال قبيلة بني كنانة وهم من البدو المشهورين بالشجاعة، واتخذ مقره في أشمون طناح، الواقعة على الفرع الرئيسي لنهر النيل وإلى الشرق منه.

تقدم كبار مرافق الملك لويس ومستشاريه، عندما وصل إلى أمام دمياط، وتوسلوا إليه - بالحاج - ألا يهبط إلى البر قبل أن تصل بقية السفن التي تقل جنده. غير أنه رفض التأجيل. وبدأت عملية النزول على الرمال الواقعة غربى مصب النهر، في فجر يوم ٥ حزيران - يونيو - ١٢٤٩ م. واصطدمت قوات الانزال بمقاومة

متفرقة لم تلبث أن تحولت إلى معركة ضارية على ساحل البحر. غير أن ما التزم به المقاتلون الفرنسيون من نظام بالغ الجرأة، وعلى رأسهم الملك، وما أبداه فرسان الفرنج الذين انضموا من بلاد الشام إلى الحملة - بقيادة كونت يافا يوحنا أبلين - من الشجاعة والاقدام، أرغم المسلمين على التراجع بعد أن تعرضوا للخسائر الفادحة.

أفاد فخر الدين من ظلمة الليل لينسحب بجنده إلى دمياط، بعد أن اجتاز إليها جسراً من السفن. وإذا أدرك فخر الدين ما استبد بأهل دمياط من الذعر، وما هيمن على حامية المدينة من القلق والاضطراب، قرر الجلاء عن دمياط، وتبعه كل المسلمين المدنيين، بعد أن أشعل هؤلاء النيران في الأسواق، غير أنهم تجاهلوا أوامره فلم يدمروا جسر السفن. وعلم الفرنج الصليبيون في صبيحة اليوم التالي، من المسيحيين الذين لزموا دورهم، أن دمياط قد تجردت من كل أسباب الدفاع. فاجتازوا الجسر في موكب النصر إلى المدينة.

ابتهر الفرنج لاستيلائهم على دمياط، ودهشوا إذ أمكنهم احتلالها بسهولة ويسراً، وهيمن عليهم جو من التفاؤل بالاستيلاء على مصر كلها. إلا أنه لم يكن باستطاعتهم استئثار نصرهم في تلك الفترة الزمنية، فقد اقترب وقت فيضان النيل، وأفاد لويس من التجربة المريرة التي عانتها الحملة الصليبية الخامسة، فرفض متابعة التقدم ما لم تهبط مياه الفيضان ويعود النيل إلى حالته الطبيعية. وبالإضافة إلى ذلك، فإنه كان ينتظر وصول إمداد من فرنسا بقيادة أخيه - الفونسو كونت بواتو -. وتم خلال ذلك تحويل مدينة دمياط مرة أخرى إلى مدينة مسيحية على نحو ما سبق حدوثه سنة ٦١٦ هـ = ١٢١٩ م، فأصبح المسجد كاتدرائية تم تعيين قسيس لها. واختصت الطوائف الدينية العسكرية الثلاثة بأحياء في المدينة. وتم توزيع المكافآت النقدية على كبار سادة الفرنج. وحاز كل من الجنويين والبيازنة سوقاً وشارعاً مكافأة لهم على ما قدموه من الخدمات.

ونجح البنادة في الحصول على مكافأة مماثلة بعد أن أظهروا ندمهم على سلوكيهم العدائي السابق من الحملة. ولقي الأقباط المسيحيون رعاية من الملك لويس، فرحبوا بحكمه. أما الملكة - زوجة لويس - والتي كانت قد توجهت مع سائر السيدات

الرافقات للحملة الصليبية إلى عكا ، حينما غادر الجيش الصليبي جزيرة قبرص ، فقد تقرر استدعاءها لتلتحق بالملك في دمياط . وظللت دمياط طوال شهور الصيف في حالة من الركود . وتأثر الجنود بحرارة الدلتا الرطبة ، وتفشت فيهم الأمراض ، فيما أخذت المؤن في التناقص وال النفاذ .

نزل الروع بالعالم الإسلامي لضياع دمياط ، وبادر السلطان الصالح أيوب فعرض على الفرنج استرداد دمياط مقابل التنازل للفرنج عن القدس . ولكن الملك لويس رفض هذا العرض ، إذ أنه ما زال مصرأً على عدم التعاون مع أي مسلم .

عمل الصالح أيوب على إنزال العقاب الصارم بالمسؤولين عن ضياع دمياط ، فأمر بإعدام أمراء بني كنانة ، وعزل فخر الدين وكبار قادة المالكية ، فحاول المالكية القيام بشورة على الصالح أيوب . لكن فخر الدين منعهم وأحبط عملهم ، فما كان من الصالح أيوب إلا أن أعاده إلى ما كان له جزاء أخلاقه . واندفع جند المسلمين إلى المنصورة - وهي المدينة التي شيدتها السلطان الكامل في الموضع الذي انتصر فيه على الحملة الصليبية الخامسة . وتم حل الصالح أيوب في حفة إلى المنصورة حتى يتمكن من الإشراف على تنظيم الجيش وتوجيه الأعمال القتالية . وانطلق البدو المشهورون في حرب العصابات يجوبون الريف ، وتقدموا حتى وصلوا أسوار دمياط ، وقتلوا كل جندي من الفرنج أمكن لهم العثور عليه خارج أسوار دمياط . فاضطر الملك لويس لاقامة الحاجز ، وحفر الخنادق حول معسكره ، لحمايته من اغارات البدو .

هبطت مياه النيل في نهاية شهر تشرين الأول - أكتوبر - سنة ١٢٤٩ م (٦٤٧ هـ) . ووصل في تلك الفترة ثاني أشقاء الملك الفونسو كونت بواتو . ومعه الإمدادات وقوات الدعم من فرنسا . فتقرر الزحف على القاهرة . وانطلق الجيش من دمياط (يوم ٢٠ تشرين الثاني - نوفمبر) وسار على الطريق المتوجه جنوباً نحو المنصورة . وبقيت بدمياط حامية قوية ، كما بقيت فيها الملكة مرغريت ، وبطيريك القدس .

توفي السلطان الصالح أيوب بعد ثلاثة أيام من انطلاق الفرنج من دمياط★ وهددت وفاته المسلمين بكارثة خطيرة . فقد كان ابنه الملك المعظم غياث الدين طوران شاه بعيداً في إقليم الجزيرة . ولكن جاريته - زوجته - شجرة الدر اتفقت مع الأمير فخر الدين ورئيس الخصي على كتمان وفاة الملك ، واستقدام ابنه ، وأخذت البيعة له من جميع الأمراء والقواد . وصار الأمير فخر الدين قائداً عاماً (أتابكا) له .

وتشجع الفرنج لما وصلتهم هذه المعلومات ، إذ ظنوا أن هذه الحكومة الضعيفة المكونة من امرأة وقائد كهل . سنهار بسرعة ، فأصرروا على أن يزحفوا على القاهرة . تعرض الطريق من دمياط إلى القاهرة - على ما هو معروف - مجموعة كبيرة من القنوات ومن فروع النيل ، أكبرها المعروف باسم البحر الصغير ، والذي يتشكل من الفرع الرئيسي للنيل - جنوب المنصورة - ثم يسير مختازاً - اشمون طناح - إلى بحيرة المنزلة . فيعزل بذلك ما يعرف باسم جزيرة دمياط .

احتفظ فخر الدين بالقسم الأكبر من قواته خلف البحر الصغير ، وأرسل قسماً من الخيالة - الفرسان - لإثارة الاضطراب في صفوف الفرنج عند اجتياز كل قناة ، وتمكن الفرنج من تجاوز العقبات المتالية . ثم تقدم الملك لويس بجذر وبصورة بطيئة نحو فارسكور حيث وقعت بالقرب منها يوم ٧ كانون الأول - ديسمبر - سنة ١٢٤٩ م حيث تراجعت قوة فرسان المسلمين . وأصر الداوية على مطاردة فرسان المسلمين المنسحبين ، ورفض الملك ارجاء مثل هذه المطاردة ، غير أن الداوية تحدوا أوامر الملك ومضوا حتى صادفوا صعوبة في الاتصال برفاقهم فتوقفوا ، ووصل الملك بجيشه إلى البرمون يوم ١٤ كانون الأول - ديسمبر - وأقام معسكراً بعد أسبوع على ضفاف البحر الصغير ، مقابل المنصورة .

★ توفي الصالح أيوب يوم ١٤ رمضان ٦٤٧ هـ = ٢٣ تشرين الثاني - نوفمبر - ١٢٤٩ م . وقد توفي بالمنصورة . وكانت أمه سودانية . اشتهر بالعبوس والمليل إلى العزلة ، كان دائمًا معتل الصحة ولكنه كان حاكماً توافت له كفاءة قيادية عالية . واعتبر آخر كبار رجال الأسرة الأيوبية .

ظل الجيشان ستة أسابيع، يواجه أحدهما الآخر، عبر البحر الصغير. وقد حاول الفرسان المسلمين اجتياز البحر الصغير إلى جزيرة دمياط، وراء البحر الصغير، لضرب مؤخرة جيش الفرنج، غير أن الفرنج تمكنا من احباط هذه المحاولة. وفي تلك الأثناء أمر الملك لويس باقامة جسر على البحر الصغير، غير أنه على الرغم من تشييد أروقة مسقوفة لحماية العمال والصناع، فإن ما لجأ إليه المسلمين من إلقاء القذائف من الشاطئ المقابل، ولاسيما النار الاغريقية، بلغ من العنف والشدة، ما دعى الفرنج إلى التخلّي عن العمل.

وصل إلى معسكر الملك لويس في مطلع شباط - فبراير - سنة ١٢٥٠ م رجل من أقباط مصر . وعرض على الملك أن يكشف له عن مكان مخاضة لعبور البحر الصغير، مقابل خمسين دينار. وشرع الفرنج في عبور المخاضة، في فجر يوم ٨ شباط - فبراير - وبقيت قوة كبيرة من الجنود لحماية المعسكر - بقيادة دوق برجنديا -. بينما ارتحل الملك لويس مع الجيش الصليبي الزاحف، وتولى أخيه روبرت كونت أرتوا قيادة مقدمة الجيش التي ضمت كتيبة من طائفة فرسان الداوية وكتيبة انكليلزية بقيادة الدوق وليم سالسبوري . وتلقى روبرت أوامر صارمة من أخيه الملك لويس بألا يهاجم المصريين إلا بعد الحصول على إذن بذلك. وتمكن الفرنج من عبور مخاضة البحر الصغير بعناء كبير ومشقة شديدة. وما إن انتهى عبور المقدمة حتى قرر - روبرت كونت أرتوا - مهاجمة معسكر المسلمين ، للإفاداة من ظلمة الفجر، وتحقيق المbagة . وحاول الداوية معارضته بحججة الالتزام بأوامر الملك ، غير أن روبرت أصر على تنفيذ الهجوم على المعسكر الذي لم يكن يبعد أكثر من ميلين . واندفع فرسان الفرنج، واقتحموا معسكر المسلمين وقتلو كثيراً من الجنود قبل أن يتمكنوا من الوصول إلى أسلحتهم . وهرب آخرون قبل أن يكملوا ارتداء ثيابهم ليجدوا في المنصورة ملاداً لهم .

أما القائد فخر الدين ، فإنه ما إن سمع الجلبة والضجيج، حتى وُثِبَ إلى صهوة جواده، ولما يكمل ارتداء ثيابه أو يضع درعه، وقذف بنفسه في المعركة، فأحاطت به طائفة من فرسان الداوية، ومزقت جسده بطنين رماحها وسيوفها .

قرر قائد المقدمة - روبرت كونت آرتوا - استئثار هذا الظفر والمجموع على المنصورة، ولم يأخذ بتوسلات مقدم الداوية أو قائد الكتيبة الانكليزية لانتظار عبور الملك والجيش الخاصة. واضطر الداوية مرة أخرى لاتباع أوامر - شقيق الملك روبرت - وكذلك فعل قائد الكتيبة الانكليزية وليم سالسبوري.

لم تتأثر قوات المسلمين لاستشهاد قائدها - فخر الدين - وتولى القيادة أقدر قادة المالك وأوفهم كفاءة - ركن الدين بيبرس البندقداري - الذي تمكن من السيطرة على الموقف، وأعاد النظام إلى الجند، ونشر رجاله داخل المنصورة، وعند تقاطع الأزقة الضيقة، وأمر بفتح باب المدينة، وترك لفرسان الفرج حرية التدفق إلى داخل المنصورة.

اندفع الفرسان الفرنسيون داخل المنصورة حتى وصلوا القلعة، وتبعدوا في اندفاعهم فرسان الداوية. وعندها انقض المالك المسلمين على الفرج من الشوارع والأزقة الجانبية، ولم يكن باستطاعة الخيول التحرك أو الاستدارة في الحيز الضيق، فوقع الفرسان على الفور في ذهول واضطراب وفوضى. ولم يتمكن من الهرب إلا عدد قليل من الفرسان الذين وصلوا راجلين إلى ضفاف النيل، الذي كان يتضمن وصوأهم ليغرقهم في مياهه. ولقي فرسان الداوية مصرعهم وهو يقاتلون في الشوارع، ولم يبق على قيد الحياة منهم إلا خمسة من قوتهم التي كانت تضم مائتي وتسعين فارساً. ولجا قائد المقدمة شقيق الملك - روبرت كونت آرتوا - وحرسه إلى أحد البيوت. ولكن المسلمين لم يتأنروا عن اقتحام هذا البيت، وقتلوا كل من فيه. وسقط في القتال قائد الكتيبة الانكليزية ايرل وليم سالسبوري ومعظم أفراد كتيبته، وكان بطرس كونت بريتاني مع قوات المقدمة، فأصابته جراح خطيرة في رأسه، ولكنه استطاع ركوب حصانه والخروج من المنصورة، والاسراع لإبلاغ الملك لويس بما حدث.

كان الجيش الصليبي قد فرغ من عبور البحر الصغير عندما علم لويس بنتائج معركة المنصورة. فأسرع لاقامة خط متقدم للدفاع من أجل مواجهة احتلال هجوم المسلمين. كما أرسل المهندسين والعمال لاقامة جسر على مجرى البحر الصغير. واتخذ الرماة مواضع لهم

على الطرف البعيد للنهر، من أجل حياة الجندي عند عبورهم إذا ما دعت الضرورة لذلك. وحدث ما توقعه الملك، إذ لم يكدر جند المسلمين - الماليك - أن انقضوا على خطوطه. واشتد الملك لويس في ضبط جنوده، بينما كانت سهام جند المسلمين تنها علىهم كالمطر. وعندما شعر الملك لويس أن سهام المسلمين قد أوشكت على النفاذ، أمر بشن هجوم مضاد على المسلمين، وتراجع فرسان المسلمين أمام قوات الفرنج، وأعادوا تنضم قواتهم ثم عادوا للانقضاض على الفرنج، بينما حاولت قوات أخرى أن تعيق عملية بناء الجسر. وكاد الملك لويس يسقط في القناة خلال تراجعه، ولم ينقذه إلا قيام قوات الفرنج بهجوم جديد. وحدث آخر الأمر - قبيل غروب الشمس - أن اكتمل بناء الجسر، فاجتازه الرماة، وكفل قدميه النصر للملك. وانسحب المسلمين مرة أخرى إلى المنصورة. وأقام الملك لويس معسكره في الموضع الذي سبق أن عسكر فيه جنده في الليلة السابقة. ولم يعلم الملك إلا وقتئذ بمصرع أخيه - روبرت كونت آرتوا - فاغرورقت عيناه بالدموع.

دفع الفرنج الصليبيون في قتال هذا اليوم ثمناً باهظاً. وأدرك الملك لويس أنه لم يعد يمتلك القدرة القاتالية لهاجمة المنصورة مرة أخرى. وظهرت خطورة الموقف عند مقارنته بما حدث في الحملة الصليبية السابقة (الخامسة) عندما توقف الجيش الصليبي في موضع قريب من هذه البقعة، واضطرب بعد ذلك للانسحاب.

ولم يأمل الملك لويس يومها بما هو خير من هذا المصير، إلا إذا وقع اضطراب في حكم مصر مما يرغّم حكومة القاهرة على التقدم بعرض شروط مقبولة للصلح. وفي انتظار حدوث مثل هذا الاحتلال، أمر الملك لويس بتحصين معسكره، ودعم الجسر الذي أقيم على البحر الصغير، وظهرت فائدة هذا التحصين بعد ثلاثة أيام، فقد تلقى المسلمون دعماً من الجنوب، زادهم قوة على قوتهم، فدارت معركة (يوم 11 شباط - فبراير - سنة ١٢٥٠ م) اعتبرت أعنف معركة عرفها مقاتلوا الفرنج، حيث توالي هجوم المسلمين مرة بعد أخرى، في موجات متتابعة، وكانوا يطلقون سحابة من السهام قبل كل انقضاض على الفرنج، بينما أخذ الملك لويس في منع الاشتباك مع

المسلمين المرة بعد المرة، حتى حان الوقت للقيام بهجوم معاكس على المسلمين - وصمد الجناح الأيسر للفرنج أمام هجوم المسلمين، ولكن الجناح الأيسر تعرض للتمزق والانهيار مما دفع الملك لويس للارساع بقيادة الدعم لهذا الجناح. ونجح المسلمون بتطويق الفونسو كونت بواتو الذي كان يتولى حماية معسكر الفرنج على الجناح الأيمن، ولم ينقذه إلا تدخل النساء والطباخين وخدم المعسكر. وعندما انتهى قتال اليوم، انسحب جند المسلمين في نظام رائع، ورجعوا إلى المنصورة.

توقف الملك لويس في معسكره أمام المنصورة لمدة ثمانية أسابيع وهو ينتظر حدوث المعجزة. ولكن المعجزة لم تحدث، ولم تقع ثورة في قيادة المسلمين. بل إن ما حدث هو التيقض لما كان يحلم به. فقد وصل طوران شاه ابن السلطان الصالح أيوب إلى مصر يوم ٢٨ شباط، فبراير - سنة ١٢٥٠ م. إذ أنه لم يكدر يسمع من زوجة أبيه - شجرة الدر - بنبأ وفاة والده، حتى غادر عاصمته في ديار بكر، وانحدر جنوباً حتى وصل إلى دمشق، فأمضى فيها ثلاثة أيام، وأخذ البيعة من أهلها، ثم انطلق نحو مصر. وكان قدومه إلى المنصورة إيذاناً بتصعيد الصراع المسلح. وكان أول ما فعله طوران شاه أن أمر بصنع اسطول من السفن الخفيفة التي تم نقلها على ظهور الجمال إلى الفروع السفلية من النيل، وأخذت هذه السفن في اعتراض طريق سفن الفرنج التي كانت تجلب لهم من دمياط الإمدادات والمواد التموينية. واستولى المسلمون بذلك على ثمانين سفينة للفرنج، الواحدة بعد الأخرى، وزاد الأمر على الفرنج صعوبة، عندما استولى اسطول المسلمين (يوم ١٦ - آذار - مارس) على قافلة للفرنج ضمت اثنى وثلاثين سفينة، وذلك بعد أن تعرضت هذه القافلة لهجوم واحد شنه عليهما اسطول المسلمين. وكان لا بد لمعسكر الفرنج نتيجة لذلك من أن يتعرض للمجاومة، وتبع ذلك انتشار الأوبئة والأمراض بين جند الفرنج - وخاصة التيفوئيد والدوسنطاريا.

أدرك الملك لويس أنه لا بد من بذل كل جهد مستطاع لإنقاذ الجيش من مأزقه، وسحبه إلى دمياط. وأظهر استعداده في نهاية الأمر للدخول في مفاوضات مع المسلمين. فأرسل إلى طوران شاه يعرض عليه أن يستبدل دمياط بالقدس. غير أن الوقت قد فات.

وعرف المسلمون ما وصل إليه جيش الفرنج من التدهور ، وهذا لم يلق عرض الملك لويس إلا الرفض . فما كان من الملك لويس إلا أن وجه الدعوة لقادته من أجل الاجتماع به ، ومناقشة قضية الانسحاب إلى دمياط . وتوصل القادة أن يتسلل الملك بحرسه إلى دمياط . غير أنه رفض في كبراء أن يتخل عن رجاله . فتقرر نقل المرضى على السفن بطريق النيل ، وأن يتخذ الأصحاء من الجندي الطريق الذي سبق أن سلكوه في قدوتهم .

قوض الفرنج معسكراً لهم في صبيحة يوم ٥ نيسان - أبريل - سنة ١٢٥٠ م . وبدأت الرحلة الشاقة ، واتخذ الملك لويس مكانه في المؤخرة لتشجيع الجنود الشاردين عن الطريق أو المتخلفين عن الجيش . وأسرع المسلمين لمطاردة الفرنج عندما شاهدوا انسحابهم ، فاكتشفوا أن الفرنج قد اجتازوا جميعاً البحر الصغير ، غير أن مهندسيهم لم يدمروا الجسر ، فهربوا لاجتياز البحر الصغير على هذا الجسر . وشروعوا في مضائق الفرنج وإزعاجهم من كل جانب . واستطاع الفرنج الذين كانوا يسرون بصورة بطئية ، أن يردوا هجمات المسلمين طوال ذلك اليوم . وخرّ الملك مريضاً في تلك الليلة ، ولم يتمكن من الاحتفاظ بتوازنه على صهوة جواده في اليوم التالي إلا بصعوبة كبيرة . وتتابع المسلمين تضيق دائرة الحصار على جيش الفرنج شيئاً فشيئاً ، وأخذوا في تصعيد هجماتهم بكل القوة المتوافرة لديهم . ومقابل ذلك تناقصت مقاومة جند الفرنج المرضى والذين أرهقتهم المقاومة . وظهر واضحًا أن النهاية قد اقتربت .

عمل قائد الحرس الملكي - جيفري سارجيتس - عندما اشتد القتال ، على اصطحاب الملك إلى كوخ بقرية ميت الخولي عبدالله ، الواقعة إلى الشمال من شرماساح . وببدأ قادة الفرنج بإجراء مفاوضات مع المسلمين ، وأثناء ذلك انطلق أحد فرسان الفرنج فأعلم القادة - باسم الملك - بالاستسلام للمسلمين دون قيد ولا شرط ، وجرى الظن أن المسلمين قد بذلوا الرشوة لهذا الفارس - الذي قيل إن اسمه ماريسل - للقيام بما قام به . فأطاع القادة الأمر الذي زعم أن الملك لويس لم يعرف عنه شيئاً ، وألقوا أسلحتهم بعد أن تم تطويق الجيش بأسره ، وحمل القادة إلى الأسر . وحدث في تلك

الساعة أيضاً أن جرى تطويق وأسر السفن التي كانت تحمل مرضى الفرنج وجرحاه إلى دمياط.

ذهل المسلمين لوفرة ما وقع في أيديهم من الأسرى، وتبين لهم أنه من المحال عليهم تأمين حراستهم جميعاً، فتقرر على الفور الاجهاز على أوائل الذين بلغوا من الضعف مرحلة لا تتمكنهم من السير. وتم نقل الملك لويس إلى دار ابن لقمان في المنصورة، وتوكل بأمره وأمر كبار البارونات الطواشى صبيح. وأرسل إليه السلطان طوران شاه أمراً بالتنازل لا عن دمياط وحدها، بل عن كل ما للفرنج من ممتلكات في بلاد الشام. فأجاب الملك لويس بأن هذه البلاد ليست من أملاكه، بل إنها تخص كنراد، ابن الامبراطور فريدرريك الثاني، وما من أحد سوى الامبراطور يستطيع التخلص عنها. فأغفل المفاوضون المسلمين هذا الطلب. وفرضوا على الملك لويس أن يفتدي نفسه بمبلغ مليون بيزنثي. فلما وقع الملك على شروط الصلح، جرى نقله مع كبار البارونات - على السفن - إلى فارسكور التي اتخذها السلطان طوران شاه مقراً له. وقضى الاتفاق أن يتم تسليم دمياط للمسلمين بعد يومين (أي في يوم ٣٠ نيسان - ابريل - سنة ١٢٥٠ م).

كان طوران شاه قد شرع منذ وصوله إلى مصر في إعادة تنظيم الدولة، وأسند القيادة لمن يثق بهم من القادة الذين ساروا معه من الجزيرة والشام. مما أغضب المالك، كما طالب زوجة أبيه شجرة الدر بكل ما كان بحوزة أبيه من أملاك، مما أغضب شجرة الدر التي نظمت مؤامرة لقتل طوران شاه. فلما كان يوم ٢٨ محرم ٦٤٨ هـ (٢ - أيار - مايو - ١٢٥٠ م) اقتحم ركن الدين بيبرس البندقداري - من كبار المالك البحريه - مقر إقامة الملك المعظم طوران شاه، وضربه بالسيف، وطارده حتى أجهز عليه، وتولت شجرة الدر الحكم، واعتمدت على عز الدين ابيك الذي جعلته أتابكاً (قائداً عاماً).

قام الفرنج بتسلیم حصن دمياط للمسلمين يوم الجمعة ٣٠ محرم ٦٤٨ هـ (٤ -

أيار - مايو - ١٢٥٠ م) وتم اطلاق سراح الملك وشقيقه الفونسو كونت بواتو - بعد أن تم دفع نصف المبلغ المتفق عليه . واحتفظ المسلمون بأعداد من الأسرى الذين تقرر عدم إطلاق سراحهم إلا بعد أن يؤدي الملك لويس بقية الفدية . وسارت السفن من دمياط إلى عكا تحمل رايات المزينة ، وذل الأسر ، وكان ذلك لم يكن كافياً فجاءت عاصفة عاتية لتزيد من معاناة الملك الذي لم يصل إلى عكا إلا بعد مشقة كبيرة .

١٦ - المغول التتار - وعيون جالوت.

لم يكن غريباً على الفرنج، وقد حفظهم الحقد الأسود، وحركتهم مشاعر الكراهة البغيضة، أن يعملا على زج كل قوى العالم ضد العرب المسلمين خاصة، وضد المسلمين عامة، حتى لو كانت هذه القوى تعنق الكفر والوثنية. ولما كان المغول التتار قد ظهروا على مسرح الأحداث من خلال اجتياحهم لأقطار المشرق والمغرب، ودمروا الدولة الخوارزمية التي كانت تحمي الدولة العباسية من جهة الشرق، وتمتد حدودها من كردستان والخليج العربي إلى بحر آرال وهضبة بامير ونهر السند. فقد ظهر للفرنج أن قوة المغول هذه قد تصلح أداة لتدمير الاسلام وأهله. ولم يكن من الصعب ابتداع القصص والأساطير للتوجيه الأنظار نحو قوة المغول للافادة منها، فزعم قسيس - اسمه يوحنا بريستر - أنه تحلى له بأن الأخلاص سوف يحيي من الشرق. ولما جاء البابا انوسنت الرابع - الذي سبقت الإشارة إليه، وإلى ما بذله من جهد لتوحيد جهود العالم الصليبي - أرسل سفارتين إلى بلاط الخان الكبير - في قراقورم -. الأولى في سنة ٦٤٣ هـ (١٢٤٥ م) والثانية في سنة ٦٤٥ هـ (١٢٤٧ م). وعلى الرغم من فشل السفارتين في اقناع الخان الكبير باعتناق المسيحية، والعمل من أجل الصليبية، إلا أن الفرنج الصليبيون تمسكوا بأوهامهم. وهكذا استمرت المحاولات. وعندما جاء ملك فرنسا لويس التاسع إلى قبرص، من أجل قيادة حملته على مصر. تصادف أن وصل إلى نيقوسيا مبعوثان نسطوريان، وهما مرقص وداود، وأفادا بأن القائد المغولي جهيداي، الذي كان مندوباً عن الخان الكبير في الموصل، قد أرسلها لحمل رسالة ملك فرنسا. ولقد تضمنت هذه الرسالة عبارات جافة عن عطف المغول على الصليبية. ورحب لويس بهذه الرسالة، وأسرع بایفاد بعضه ضمت رهاناً يتحدثون اللغة العربية. وحلت البعثة معها هدية تليق بخان بدوي حديث العهد باعتناق المسيحية، وهذه الهدية هي كنيسة متنقلة وما يلزم مذبحها من المخلفات الدينية، بالإضافة إلى هدايا دينوية أخرى. وقد

غادرت هذهبعثة قبرص سنة ٦٤٧ هـ = ١٢٤٩ م. وعادت البعثة بعد ثلاثة سنوات ومعها رسالة من أغول قايميش - الوصية على عرش المغول بعد وفاة زوجها الخان الكبير كيوك. وأفاد رئيس البعثة - اندره لونجيجيمو - أن أغول قايميش قد اعتبرت بأن هدايا الملك لويس ما هي إلا إتاوة من تابع إلى سيده. أما الرسالة التي حملها رئيس البعثة، فتضمنت الشكر لما أبداه تابعها - الملك لويس - من الاهتمام بها. وأكدت الوصية أنه لا بد للتابع من إرسال هدايا المتألة في كل سنة. وارتاع الملك لويس لهذا الرد، غير أنه لم يدخله اليأس في امكان التحالف مع المغول التتار في يوم من الأيام. وهكذا، فعندما انتقل الملك لويس من سجنه في المنصورة إلى عكا، بات أكثر رغبة للافادة من المغول، وعلم أن أحد أمراء المغول - وهو ساراتاق بن باطو - قد تحول إلى المسيحية، فبادر إلى إرسال راهبين من أجل حثّ الأمير المغولي، وتحريضه للإسراع بتقديم المساعدة لأخوانه المسيحيين في بلاد الشام. وساقت هذه البعثة الجديدة سنة ٦٥١ هـ = ١٢٥٣ م. غير أنه لم يكن لأمير مغولي صغير من السلطات ما يجعله يعقد محالفة تعتبر بالغة الأهمية.

كان المغول التتار قد أعدوا تنظيم أمورهم، وانتخب مجلسهم الوطني (الكوريلتاي) قائدتهم منكو لاشغال منصب الخان الكبير، وذلك في منتصف سنة ٦٤٩ هـ = ١٢٥١ م. وبقي منكو وأخيه الأصغر أريق بوقا في قراقورم - في منغوليا - فيما أسند إلى أخيه الثاني قبلاي مهمة فتح الصين.

ونقل باطو مقره إلى الروافد السفلية لنهر الفولغا، كيما يسيطر على أتباعه الأمراء في روسيا، وأنشأ بذلك الجهات الخانية المعروفة عند المؤرخين المسلمين باسم القبجاق، والتي تحولت إلى الإسلام، وعرفت عند المغول والروس باسم (القبيلة الذهبية) ★.

أما حكومة فارس، فقد انتقلت إلى ثالث أخوه منكو - وهو القائد هولاكو -. وتهيأت بذلك الظروف أمام المغول التتار لمتابعة سياستهم التوسعية.

كانت مملكة أرمينية بقiliقية هي أولى الكيانات الصليبية التي أدركت أهمية المغول، وما يمكن أن يتحقق على أيديهم ضد المسلمين. فأرسل ملك الأرمن - هيثوم - كتاباً إلى قائد المغول - بيجو - سنة ٦٤١ هـ = ١٢٤٣ م يفيض باللواط والاحترام. ثم عمل في سنة ٦٤٥ هـ = ١٢٤٧ م. على ارسال سفارة إلى بلاط الخان الكبير في قراقوز، نقلت إلى الخان كيوك استعداد ملك الأرمن ليكون تابعاً لخان المغول. فأرسل الخان تقليداً إلى هيثوم تعهد فيه بسلامة ممتلكاته ووحدتها. فلما أعيد تنظيم الامبراطورية المغولية سنة ٦٥٢ هـ = ١٢٥٤ م. أصبحت قراقوز مركز الدبلوماسية في العالم. وقصدها سفير الملك لويس التاسع وسفير الامبراطور اليوناني، وسفير الخليفة العباسى وسفير ملك دلهى وسفير السلطان السلجوقي بالإضافة إلى امراء من الجزيرة وكردستان وروسيا. وقد جاء هؤلاء جميعاً لخدمة الخان الكبير، الذي كان في خدمته أيضاً، تاجر جواهر من باريس مع زوجته المجرية، وامرأة أرذاسية تزوجت إلى مهندس روسي. ولم يكن بالباطل المغولي شيء من التفرقة الدينية أو العنصرية. إلا أنه كان للمسحيين النساطرة أقوى نفوذاً دينياً، فحباهم منكو بعطف خاص، وفاءً لذكرى أمه سورجققاني التي ظلت دائمةً مخلصةً لعقيدتها. ومراعاة أيضاً لزوجته الامبراطورة كوتوكتاي والكثيرات من زوجاته الأخريات اللواتي كن يعتنقن المذهب النسطوري. وهو المذهب الذي ارتاع له رجال الدين الغربيون الذين شاهدوا بأنفسهم ما كان عليه النساطرة من الجهل والانغماس في المباذل، بحيث أن صلواتهم لم تكن إلا ضرباً من فجور السكارى ومجون العاهرات.

ما كان لملك الأرمن هيثوم أن يتختلف عن تقديم الولاء للخان الكبير منكو. فسار بنفسه إلى قراقوز. وحاز حظوة خاصة، ذلك أن سائر السفراء الأجانب كانوا إما أتباعاً جرى استدعاؤهم برغم إرادتهم، وإما كانوا ممثلين للملوك زعموا لأنفسهم في تعاظم وتعال الاستقلال.

وقد أقام منكو حفل استقبال رسمي لضيفه هيثوم في ١٣ - أيلول - سبتمبر - سنة ١٢٥٤ م، وأعلن فيه منح هيثوم وثيقة تكفل لشخصه وملكته السلامة، وجرت معاملته على أنه كبير مستشاري الخان المسيحيين في كل ما

يتعلق بأمور غرب آسيا . ووعله منكو بأن يعفي كل الكنائس والأديرة المسيحية من الفرائب . وصرح بأن أخيه هولاكو ، الذي استقر في فارس ، قد تلقى الأوامر بالاستيلاء على بغداد ، وتدمير سلطان الخلافة . وتعاهد أنه إذا تعاون معه كل القرى المسيحية فسوف يعيد إلى المسيحيين مدينة القدس ذاتها .

وغادر هيئوم قراقوز مثقلًا بالهدايا ، ومبتهجًا بما تكللت به جهوده من نجاح .

وسار المغول التتار ، بقيادة هولاكو من منغوليا ، واجتاحوا بلاد فارس ، ودمروا في طريقهم معاقل حلفاء الملك لويس وهم طائفة الحشاشين (أو الإسماعيلية) . وعملوا على ابادتهم ابادة تامة . ثم وصلوا إلى بغداد ودمروها . ووجه هولاكو اهتمامه إلى الشام بعد تدمير بغداد ، فكان أول إجراء اتخذه هو احکام قبضته على الجزيرة ، وتدمير الأمير الأيوبي الكامل محمد - حاكم ميافارقين - والذي رفض قبول السيادة المغولية . فسار هولاكو إلى ميافارقين ، واستولى عليها سنة ٦٥٩ هـ = ١٢٦٠ م . ولقي هولاكو كل مساعدة من الكرج والأرمن مما ساعدته إلى حد كبير في فتح عاصمة الجزيرة ، حيث دارت مذبحة في المسلمين ، بينما جرى الابقاء على حياة المسيحيين . وتعرض الكامل للتعذيب الوحشي ، بأن أرغمه على أن يأكل من لحم جسده حتى مات .

قاد هولاكو الجيش المغولي للاستيلاء على شمالي غرب سوريا ، وتولى القائد كتبغا قيادة المقدمة ، بينما تولى بيجو قيادة ميمنة الجيش . وأسندت قيادة الميسرة إلى القائد سنجق الذي كان من المقربين إلى هولاكو . في حين تولى هولاكو قيادة قلب الجيش . واجتاح الجيش المغولي نصبيين وحران والرها ، حتى بلغ البيره وعبر عندها نهر الفرات . وحاولت سروج أن تقاومه فتعرضت للنهب . ووصل الجيش المغولي أخيراً إلى حلب (في مطلع سنة ٦٦٠ هـ = ١٢٦١ م) وأطبق عليها من جميع جهاتها . ورفضت الحامية الإسلام ، فتقرر اقتحام المدينة . وكان السلطان الناصر في دمشق عندما هبت العاصفة . وقد استبس في الدفاع عن حلب عم الناصر يوسف - واسمه طوران شاه - غير أن الأسوار لم تلبيت أن انهارت بعد أن تعرضت للقذف ستة أيام متواصلة . وتدفع المغول إلى داخل المدينة . وحدث بحلب مثلما حدث في كل مكان . إذ دارت المذابح في

ال المسلمين ، بينما لم يتعرض المسيحيون لسوء . - باستثناء عدد من الارثوذكس الذين لم يجر الاعتراف بكتيستهم حينما اشتد القتال . - ودارت مذبحة مماثلة بحمامة حصن حارم . وعندما قدم هولاكو إلى طرف أنطاكية ، وزار معسكره كل من ملك أرمينية وصهره أمير أنطاكية ، ليقدمما الولاء والطاعة له . ولما كان ملك أرمينية هيثوم قد دعم هولاكو بكتائب إضافية فقد كفأه هولاكو بأن منحه قدرًا من الغنائم التي حازها من حلب . وطلب إلى الأمراء السلاجقة - المسلمين - أن يردوا له ما سبق أن استولى عليه والدهم من ممتلكات ملك الأرمن في قيليقية . وظفر أمير أنطاكية - بوهمند - بمكافأة أيضًا ، جزاء له على خصوصه هولاكو ، فتقرر أن تعاد إلى إمارة أنطاكية بعض المدن والخصون التي أعاد المسلمون فتحها في عهد صلاح الدين الأيوبي - ومنها اللاذقية - وذلك مقابل أن يوافق بوهمند على أن يحل البطريرك اليوناني - يوثيميوس - في أنطاكية مكان البطريرك اللاتيني .

انحدرت جحافل المغول التتار نحو الجنوب ، ولم يحاول السلطان الناصر يوسف تنظيم الدفاع عن عاصمته - دمشق . - إذ أنه حينما نمى إليه نباء سقوط حلب ، وتحرك جيش المغول نحو دمشق ، فر إلى مصر . وأرسلت حمزة وفداً إلى هولاكو ليقدم إليه مفاتيح المدينة (في شباط - فبراير - ١٢٦٠) وحدثت حذوها دمشق بعد بضعة أيام .

فدخل كتبغا دمشق في أول - آذار - مارس - سنة ١٢٦٠ م ، على رأس جيش مغولي . وصحبه ملك أرمينية وأمير أنطاكية ، وشهد سكان عاصمة الأمويين لأول مرة منذ الفتح العربي - الإسلامي قبل ستة قرون ، ثلاثة من أمراء المسيحيين يركبون معاً بوكفهم عبر شوارع المدينة .

ظنّ المسلمين أن الدنيا قد أطبقت عليهم بعد أن اجتاح المغول التتار العاصمة الرئيسة الثلاث : بغداد وحلب ودمشق . وظنّ أعداء الإسلام بضياع هذه المدن الثلاث من المسلمين أن الإسلام وأهله قد حان منهم الأجل . وانتعش المسيحيون في بلاد الشام . فقد كان كتبغا ذاته مسيحيًا . ولم يحاول إخفاء عواطفه تجاههم . وأضحت المسيحيون في بلاد الشام كالغربياء وذلك لأول مرة منذ ظهور الإسلام . فأخذوا يتحرقون شوقاً للانتقام .

أرسل كتبغا خلال فصل الربيع من سنة ٦٥٩ هـ = ١٢٦٠ م. مجموعات قتالية من جيشه، فاحتلت نابلس وغزة غير أنها لم تصل مطلقاً إلى القدس ذاتها. وبذلك أجا ط المغول التتار بالفرنج من كل الجهات. ولم يكن في نية المغول التعرض لإمارات الفرنج وممتلكاتهم طالما أن هؤلاء الفرنج قد التزمو بالخضوع للسادة المغول. وقد أظهر عقلاً الفرنج استعدادهم لتجنب إثارة السادة المغول، إلا أنه لم يكن باستطاعتهم ضبط مثيري الفتنة عندهم. وكان سيد صيدا يولييان من بين هؤلاء المتعين - مثيري الفتنة - الذين ظهر لهم أن اقتتال المسلمين والمغول هو الفرصة المناسبة للحصول على مكاسب. فقد ظهر لهم أن اقتتال المسلمين والمغول هو الفرصة المناسبة للحصول على مكاسب. فقاد يوليان قواته وأغار على سهل البقاع الخصيب. غير أن كتبغا لم يكن ليسمح للفرنج بتقويض النظام الذي أقامه حديثاً. فأرسل جماعة صغيرة من المغول بقيادة ابن اخته لانزال العقاب بالفرنج. فما كان من يوليان إلا أن أسرع لطلب النجدة من جيرانه، فكمروا لابن اخت كتبغا وقتلواه. وإذا غضب كتبغا لما حدث، أرسل جيشاً كبيراً نفذ إلى صيدا وخرب المدينة. وغضب ملك أرمينية - هيثوم - حينما علم بما حدث، وألقى اللوم على الداوية الذين أفادوا من خسائر يوليان، فانتزعوا منه حق رهن صيدا والشقيق. وما حدث بعد ذلك بفترة قصيرة من إغارة سيد بيروت - يوحنا الثاني - والداوية، على الجليل، لقيت من القوات المغولية معاملة بالغة الصرامة. وكان على هولاكو أن يبقى قرب الطرف الشرقي لاملاكه، استعداداً للتحرك إلى منغوليا إذا ما تطلب الأمر، وذلك نظراً لما حدث من خلاف بين قبيلي وأخيه الأصغر أريق بوقا بعد وفاة أبيهما منكو سنة ١٢٥٩ م. وبالاضافة إلى ذلك:

فقد كان على هولاكو اتخاذ موقف الحذر من أبناء عمومته في القبيلة الذهبية، بعد أن ساءت العلاقات بينهم. إذ بينما كان بلاط هولاكو يظهر عطفه الشديد على المسيحيين، كان الخان بركة زعيم القبيلة الذهبية، قد تحول وقبيلته إلى الإسلام، وأنكر على هولاكو ما اتخذه من سياسة مناهضة للمسلمين. ووقع الصدام بين المعسكرين المغوليين في جبال القوقاز التي كانت هي الحد الفاصل بين منطقتين نفوذ بركة وهولاكو. وأخذ بركة وقادته على اضطهاد القبائل المسيحية انتقاماً لما كان يفعله هولاكو بالمسلمين. وما أقدم عليه

هولاكو من محاولة لتوطيد سلطانه في الجانب الشمالي لجبال القوقاز، أحبطتها الهزيمة الساحقة التي أنزلها نوعي - ابن اخت بركة - بجيش هولاكو قرب نهر تريك وذلك في سنة ٦٦٤ هـ = ١٢٦٥ م.

تجمعت كل قوى المسلمين في مصر التي بقيت أكبر كيان إسلامي لم يتعرض للهزيمة. وكان المماليك - الحكام الجدد لمصر - على درجة كافية من القوة لمحاربة تحدي المغول. كان المماليك قد أسدوا الحكم إلى عز الدين ايبك التركماني بعد قتل الملك المعظم طوران شاه (سنة ٦٤٨ هـ = ١٢٥٠ م). ثم اتفق المماليك على إقامة الأشرف موسى بن يوسف، خليفة على مصر، وصار عز الدين ايبك قائداً عاماً له (أتابك).

فلما كانت سنة ٦٥٢ هـ = ١٢٥٤ م، عمل المعز عز الدين ايبك على قتل خشداشه ★ القائد أقطاي الذي كان يمنعه عن الاستقلال بالسلطنة، وأبطل خلافة الأشرف موسى ابن الكامل بن أيوب، وبعث به إلى عهاته. فكان موسى المذكور هو آخر من خطب له من الأيوبيين بمصر. واستقل المعز ايبك بالسلطنة. ولما علمت المماليك البحريية بقتل أقطاي، توجهوا من مصر إلى صاحب الشام الناصر يوسف. ولم يلبث المعز ايبك أن تزوج شجرة الدر أم خليل. غير أن الحكم لم يستقر طويلاً، فقد حدث خلاف بين المعز ايبك وشجرة الدر التي نظمت مؤامرة لقتل ايبك، بينما كان ماراً في الدهليز السري الموصل إلى دار الحرم، إذ وثب عليه خمسة خصيان بيض، كانوا قد كمنوا له هناك، وخنقوه بعامته (في ٢٣ ربيع الأول - سنة ٦٥٥ هـ = ابريل - نيسان - ١٢٥٧ م) ولم تلبث شجرة الدر إلا شهراً وبضعة أيام حتى تعرضت للضرب الشديد حتى ماتت.

قرر المماليك المناداة بنور الدين علي ابن السلطان ايبك، سلطاناً على مصر، ولما يتجاوز عمره الخمسة عشر عاماً. ونظرأً لافتقار نور الدين للمؤهلات القيادية، فقد عزله أحد رفاق أبيه القدماء - وهو قطز - وذلك يوم الأربعاء ٤ محرم سنة ٦٥٧ هـ

* خشداشه - كلمة فارسية، تعني زميلين ملوكيين لسيد واحد.

= ٢٨ كانون الثاني - يناير - سنة ١٢٥٩ م ، وحل مكانه في السلطنة ، وإذ تولى قطر السلطنة ، عاد إلى مصر سائر المماليك - أمثال بيبرس - الذين حلتهم كراهيتهم لا ينكرون وخوفهم منه ، على الفرار إلى دمشق ، في وقت كانت دمشق ذاتها تتعرض لخطر المغول التتار .

لم يكن قطر قد أمضى أكثر من شهر في حكم مصر ، يوم وصلت إلى القاهرة سفارة أرسلها هولاكو بهمة الطلب إلى السلطان للخضوع والاذعان لحكم المغول . فما كان من قطر - أو قطوز - إلا أن أمر بقتل رسول هولاكو .

وأسرع بجشد جيشه الذي ضم أجناد مصر ، والقوات الخوارزمية التي لجأت إلى مصر . وكذلك جيش الكرك . وقاد قطوز جيشه واجتاز حدود مصر في نهاية شعبان ٦٥٨ هـ (٢٦ نوؤز - يوليو - ١٢٦٠ م) . وزحف على غزة ، وتولى بيبرس قيادة المقدمة ، وكان كتبغا قد ترك حامية بغزة بقيادة بайдار ، الذي أرسل إلى قائده كتبغا ينذره بالغزو ، غير أن المصريين تغلبوا على عساكره قبل أن تصلك إلينه النجدة .

كان قائد المغول في بلاد الشام - كتبغا - مقيناً في بعلبك عندما بلغه تحرك جيش المسلمين من مصر . فتجهز للمسير على الفور إلى وادي نهر الأردن . - بعد أن يتتجاوز بحر الجليل . إلا أنه لم يتمكن من التحرك بالسرعة التي يحتاجها الموقف ، فقد قام المسلمون في دمشق برفع راية التمرد واعمال نار الثورة ، وحطموا كنائس المسيحيين ودورهم . مما أرغم كتبغا على استخدام جنده من أجل إعادة الأمان إلى نصافيه . وأثناء ذلك ، قرر المظفر قطوز السير بجيشه على امتداد الساحل الفلسطيني ، ثم المضي إلى عمق البلاد - على اتجاه الشمال ، لتهديد خطوط امداد كتبغا وضرب مؤخراته ، إذا ما توجه كتبغا إلى فلسطين .

ولما كان هذا التحرك يتطلب اجتياز المناطق التي يحتلها الفرنج ، فقد تقرر إيفاد سفارة إلى عكا من أجل طلب الازن بالعبور ، والحصول على المواد التموينية التي يحتاجها جيش المسلمين أثناء مسيره ، مع الحصول على دعم من الفرنج - باشتراك قوات مقاتلة - إذا ما أراد الفرنج ذلك .

اجتمع امراء - بارونات - الفرنج في عكا، لمناقشة ما طلبه المظفر قطوز، وكان هؤلاء يشعرون بالمرارة لما قام به المغول من نهب لمدينة صيدا - منذ فترة قريبة. كما أنهم لم يثقوا بالمغول القادمين من جوف آسيا ، والذين حفل سجلهم بالمذابح الجماعية، وبكل أنواع الجرائم. لقد ألغوا الحضارة الإسلامية، وكان معظمهم يؤثرون المسلمين على المسيحيين الوطنين الذين حباهم المغول بقدر كبير من العطف والرعاية. وأظهر أمراء الفرنج - البارونات - في أول الأمر، ميلهم لدعم المظفر قطوز بقوات اضافية غير أن مقدم طائفة الفرسان التيوتون - انوسانخر هاوزن - حذرهم بأنه من الحماقة المبالغة في منع الثقة بال المسلمين، لاسيما إذا استد زهوم بما يحرزونه من النصر على المغول. والمعروف أنه كانت لطائفة فرسان التيوتون ممتلكات كثيرة في مملكة أرمينية. وكان مقدم هذه الطائفة - انوسانخر هاوزن - ينظر بتقدير إلى سياسة الملك هيثوم الذي تحالف مع المغول ضد المسلمين. واستطاع التأثير على بقية أمراء الفرنج، فتقرر رفض التحالف العسكري مع المسلمين، إلا انهم وعدوا المظفر قطوز بأن يسمحوا له باجتياز أراضيهم، وأن يقدموا المواد التموينية والتسهيلات التي يحتاجها جيش المسلمين.

قاد السلطان المظفر قطوز جيشه في شهر آب - اغسطس - على الطريق الساحلي، وعسكر في الحدائق والحقول الواقعة خارج عكا، لمدة عدد من الأيام ، وقام الفرنج بدعوة أمراء الجيش لزيارة المدينة، واستضافتهم، وكان الظاهر بيبرس من هؤلاء الأمراء ، فلما عاد من زيارته اقترح على قطوز القيام بهجوم مباغت للاستيلاء على عكا. وأظهر له سهولة القيام بهذا العمل .

ولكن المظفر قطوز رفض الغدر بما تم الاتفاق عليه، كما أنه أظهر خطر قيام الفرنج الصليبيين بأعمال انتقامية في وقت لم يتم فيه حسم الصراع مع المغول .

وزاد من حيرة الفرنج وارتباكم وفرا عدد الزائرين لمدينة عكا. ولكن زال ارتباكم عندما طأنهم المظفر قطوز ، ووعدهم ببيعهم خيول ما يقع في أيدي المسلمين من خيول المغول بأثمان منخفضة .

علم المظفر قطر وهو في معسكره أمام عكا أن كتبغا قد عبر جيشه نهر الأردن، وأنه وصل إلى الجليل الشرقي، فاسرع بقيادة جيشه على الفور نحو الجنوب الشرقي، واجتاز الناصرة، ووصل يوم ٢٥ رمضان ٦٥٨ هـ = ٢ أيلول - سبتمبر - ١٢٦٠ م إلى (عين جالوت).

حيث سبق للجيش الصليبي أن تحدى صلاح الدين الأيوبي في هذا الموضوع سنة ٥٧٩ هـ = ١١٨٣ م. وفي اليوم التالي، وصل الجيش المغولي مبكراً، وصاحب خيالة المغول كتائب كرجية وأرمينة. وافتقر كتبغا للفارز الاستطلاع. وكان السكان المسلمين يحملون مشاعر العداء له، فلم يدرك أنه أضحم قريباً جداً من جيش المسلمين. وقام قطر بنشر قواته الرئيسية وآخفائها وتقويمها في التلال القريبة، ولم يعرض للعدو إلا المقدمة التي قادها بيبرس. ووقع كتبغا في الفخ، إذ حل بكل جيشه على العدو الذي شاهده أمامه، فأسرع بيبرس في تقهقره إلى التلال بعد أن اشتدت مطاردة كتبغا له، فلم يلبث الجيش المغولي بأسره أن جرى تطويقه فجأة. وأقبل كتبغا في القتال، وأخذ جند المسلمين في التعرّض أثناء سيرهم. فدخل قطر قطوز المعركة لجمعهم. على أنه لم تنقض إلا بضع ساعات حتى ظهرت أهمية تفوق المسلمين في القتال. ومع أن جماعة من الجيش المغولي استطاعت أن تشق لها طريقاً للخروج من ساحة المعركة، غير أن كتبغا رفض أن يبقى على قيد الحياة بعد هزيمته. إذ كاد أن يكون بمفرده حينما قتل حصانه ووقع أسيراً. وبأسره انتهت المعركة، إذ جرى حله مقيداً بالأغلال إلى السلطان قطر الذي سخر لسقوطه، وأمر بقتله.

اعتبرت معركة عين جالوت من أهم المعارك الخامسة في التاريخ. إذ أن ما أحرزه المسلمون من انتصار هو الذي أنقذهم من أخطر تهديد جابهوا أو عرفوه.

ولو أوغل المغول في تقدمهم ووصلوا إلى داخل مصر، لما بقي للمسلمين في العالم دولة كبيرة. ومع أن المسلمين في آسيا كانوا من وفرة العدد ما يمنع من إبادتهم واستئصال وجودهم، إلا أنهم لم يعودوا يؤلفون العنصر الحاسم. ولو انتصر كتبغا

- المسيحي - لازداد عطف المغول على المسيحيين، ولأصبح للمسيحيين في آسيا السلطة لأول مرة منذ ظهور الديانات التي سبقت الإسلام.

ولكن انتصار المسلمين في عين جالوت عمل على اضعاف العنصر المسيحي. ولم يلبث أن شجع المغول الذين بقوا في غرب آسيا على اعتناق الإسلام.

دخل السلطان المظفر قطوز إلى دمشق، بعد انقضاء خمسة أيام على معركة عين جالوت. وعاد الأشرف الأيوبي إلى حصن من جديد - بعد أن انسحب منها المغول. كما رجع أمير حماة الأيوبي إلى إمارته. وتم استرداد حلب من المغول في خلال شهر. أما هولاكو، فقد تملّكه الغضب عندما علم بهزيمة جيشه، وساءه أن تخرب بلاد الشام من قبضته. فأرسل جيشاً لاسترداد حلب (في شهر كانون الأول - ديسمبر - ١٢٦٠ م). وقام هذا الجيش - كما هي عادته - باجراء المذابح في كل مكان، انتقاماً لقتل كتبغا، غير أن هذا الجيش اضطر للانسحاب. وكان هذا كل ما استطاع أن يفعله هولاكو ثاراً لصديقه الوفي كتبغا.

رجع المظفر قطوز إلى قاعدته - مصر - يكلله المجد والغار، وكان ركناً الدين بيبرس البندقداري قد طلب إلى قطوز تعيينه أميراً على حلب. ولكن المظفر قطوز ارتتاب بهذا الطلب، ولم يستجب له، فأصرّرها بيبرس في نفسه، وقرر الرد على ذلك بسرعة.

فلما كان يوم ١٦ ذو القعدة ٦٥٨ هـ = ٢٣ تشرين الأول - أكتوبر - سنة ١٢٦٠ م. خرج المظفر قطوز لقضاء يوم عطلة في ممارسة هوايته الصيد - عند حافة الدلتا. وخرج معه جماعة من امرائه، من بينهم بيبرس - ولم يكونوا قد ابتعدوا عن المعسكر عندما تقدم أحدهم إلى المظفر قطوز وأمسك بيده ليقبلها. فجاء بيبرس من خلف قطوز، وغرس سيفه في ظهر سيده.

وركض المتأمرون بخيوthem إلى المعسكر. وجلس بيبرس في دست السلطة، وبايده المالك، ثم أخذت له البيعة من الجندي ومن المسلمين. وعاد بيبرس إلى القاهرة سلطاناً على مصر، وانصرف بيبرس لتوطيد سلطته في مصر وببلاد الشام.

١١ - الانتقام العادل .

أضحي ركن الدين بيبرس البندقداري ★ ينchez الخمسين من عمره ، يوم أصبح سلطاناً على مصر . وقد عاش تجربة الصراع مع الفرنج الصليبيين في مصر والشام . كما عرف تجربة الصراع مع المغول التتار ، فكان عليه مواجهة الصراع على الجبهتين . وقد وضع في اعتباره قبل كل شيء تحطيم التعاون بين الفرنج والمغول ، وهذا فقد كان عليه توجيه المجهد القتالي بالدرجة الأولى ضد الكيانين اللذين تعاونا مع المغول وهم مملكة أرمينية وإمارة أنطاكية . وهذا فقد أرسل في سنة ٦٦٠ هـ = ١٢٦١ م جيشاً شنَّ غارات واسعة النطاق على أملاك أنطاكية . وتكررت الغارات بعنف أكبر في صيف السنة التالية (٦٦١ هـ = ١٢٦٢ م) وتعرض ميناء السويدية للتدمير والنهب ، وجرى تهديد أنطاكية ذاتها .

وأسرع ملك أرمينية - هيثوم - للاستنجاد بهولاكو ، الذي قاد جيشاً ضم المغول والأرمن ، فتمكن له إنقاذ أنطاكية في الوقت المناسب . وأدرك بيبرس أنه لا زالت للمغول التتار قوة كافية في شمال بلاد الشام . فتوجه إلى أمير القبيلة الذهبية خان بركة ، وتحالف معه . كما قام كيكاوس أحد سلطاني السلاجقة بالأناضول - والذي سبق أن حرمه من بلاده ما قام من تحالف بين المغول والبيزنطيين من جهة وبين شقيقه

* ركن الدين بيبرس البندقداري (٦٠٧ - ٦٧٦ هـ = ١٢١٠ - ١٢٧٧ م) كان ينتمي إلى الأتراب التبجاق . ضخم الجثة ، ذو صوت جهوري شديد الواقع . قدم إلى الشام لأول مرة بين عدد من الأرقام ، وجرى عرضه للبيع على أمير حاه الذي فحصه ، فاعتقد أنه غلام جلف غليظ ، فأعرض عنه . ولكنه لفت بالسوق نظر أحد الأمراء الماليك ، وهو الملوك البندقداري ، الذي أدرك ما عليه من ذكاء . وتم شراء بيبرس ، كيما يلحق بالماليك السلطانية . فارتفع شأنه بسرعة ، فلما أحرز النصر على الفرنج في المنصورة ، صار في مرتبة أكفاء عساكر الماليك ، وبرهن على أنه رجل سياسي رائع ، لا يعوقه شيء عن بلوغ هدفه .

قلج أرسلان من جهة ثانية ، فعقد تحالفًا مماثلاً مع خان بركه ، ثم عاد إلى بلاده بعد أن تلقى مساعدة من القبيلة الذهبية ومن بيبرس في آن واحد ، واستقر وقتذاك أيضًا في جنوب شرقى قونية زعيم تركياني اسمه قرمان ، فقرر بيبرس التعاون معه لممارسة ضغط مستمر على مملكة أرمينية . وبذلك استطاع بيبرس احكام الطوق على أرمينية وحصارها .

عاد الفرنج لمحاولاتهم التي أفادوا منها باستئثار كل فرصة ممكنة لانتزاع مكتسبات من المسلمين . فسار كونت يافا - يوحنا ، وسيد بيروت - يوحنا أيضًا - إلى معسكر الظاهر بيبرس في نهاية سنة ٦٦٠ هـ = ١٢٦١ م . وذلك للتفاوض معه في إعادة أسرى الفرنج الذين وقعوا في قبضة المسلمين خلال السنوات الأخيرة ، والحصول على قلعة - زدين - في الجليل وفقاً للوعد الذي كان قد قطعه على نفسه السلطان ايشك ، أو دفع تعويض عنها . ورفض بيبرس أن يستمع إليهما ، وأمر بارسال جميع الأسرى للعمل في المزارع والبناء والاعمال الأخرى . وعاد كونت يافا مرة أخرى لمقابلة بيبرس في مطلع سنة ٦٦٢ هـ = ١٢٦٣ م ، حيث كان بيبرس قد أقام معسكره يومها بالقرب من جبل الطور ، وحصل يوحنا كونت يافا على وعد بعقد هدنة مع الفرنج وتبادل الأسرى . غير أن طائفتي فرسان الداوية والاستبارية رفضوا التخلي عن أمرى المسلمين الذين بحوزتهم ، نظرًا لأنهم كانوا صناعاً مهرة . وارتاع بيبرس لهذا الجشע فقطع المفاوضات ، وسار بجيشه إلى بلاد الفرنج ، فنهب الناصرة ، ودمر كنيسة العذراء ، وشن هجوماً مباغتاً على عكا (في ٤ نيسان - ابريل - سنة ١٢٦٣ م) فدار قتال عنيف خارج أسوار عكا ، ثم انسحب بيبرس بجيشه بعد أن نهب أرباض عكا . ورد فرسان الداوية والاستبارية على ذلك بأن عملاً على توحيد قواتها (في بداية سنة ٦٦٣ هـ = ١٢٦٤ م) وقاما بشن هجوم مباغت على حصن ليزون الصغير - المعروف قدماً باسم مجدو - . ثم تبع ذلك قيام القوات الفرنسية - التي كانت تتضاعف رواتب من ملك فرنسا لويس التاسع - بالاغارة على أرباض بيisan ، فيما كان فرسان الداوية والاستبارية يقومون بالهجوم على عسقلان . ورد المسلمون على ذلك ، بالاغارة على قرى الفرنج في جنوب جبل الكرمل ، ونهبها ، ولم تعد الحياة مأمونة في قرى الفرنج .

توافرت المعلومات عند الظاهر بيبرس، عن عزم المغول التتار للقيام بالهجوم على شمال بلاد الشام. فخرج الظاهر بيبرس من مصر، في مطلع سنة ٦٦٤ هـ = ١٢٦٥ م. على رأس جيش كثيف، لمجابهة هجوم المغول. غير أنه علم بأن أميري حلب وحاجه تمكنا من تدمير جيش المغول ودحره. فقرر استخدام جيشه للهجوم على الفرنج في الجنوب.

تظهر بيبرس أنه يمضي وقته بالصيد في التلال الواقعة وراء أرسوف، ثم قاد جيشه وظهر بصورة مباغة أمام قيسارية، فسقطت المدينة في قبضته على الفور (يوم ٢٧ شباط - فبراير - سنة ١٢٦٥ م) واستسلمت قلعة قيسارية بعد ذلك باسبوع، وسمح بيبرس للحامية التي كانت تدافع عنها بالخروج دون أن يتعرض للأذى، وأصدر أمره بتدمير قيسارية وقلعتها وتسويتها بالأرض. ثم ظهر بيبرس وجيشه بصورة مباغة أيضاً أمام أسوار حifa - بعد بضعة أيام - فهرع إلى السفن الراية بالميناء من استطاع الهرب. وتم قتل من بقي في المدينة، وتم تدمير المدينة والقلعة على نحو ما حدث في قيسارية. وهاجم بيبرس أثناء ذلك قلعة عثليت الضخمة، التي كانت في قبضة طائفة الداوية، وأمر باشعال النار في القرية الواقعة خارج الأسوار، لكن القلعة استمرت في مقاومتها. فتخلى بيبرس عن حصارها. وسار إلى أرسوف التي شحنها فرسان الاستمارية بالجند والذخائر والمؤن، فقاتلت حاميتها بشجاعة كبيرة، وأظهرت صموداً كبيراً، غير أنها اضطرت للإسلام (في ٢٦ نيسان - ابريل).

وما حدث من سقوط الحصينتين الكبيرتين في قبضة المسلمين، أزعج الفرنج أزعاجاً كبيراً، مما أوحى إلى شاعر الداوية الغنائي ريسو بونوميل (من التروبادور) بنظم قصيدة تفيض بالحزن والمرارة. وشكى فيها من أن المسيح أضحي فيها يبدو مسروراً لما حلّ بالمسيحيين من ذلة ومهانة.

وحاول بيبرس بعد ذلك مهاجمة عكا، وإذا أدرك أن هناك حامية قوية قد نظمت للدفاع عنها، انسحب بجيشه وعاد إلى مصر.

مات هولاكو في ٨ شباط - فبراير - سنة ١٢٦٥ م. ومع أن مشاكله مع القبيلة

الذهبية ومع مغول التركستان الذين اعتنقوا أيضاً الإسلام ديناً لهم، كانت قد منعه من التعرض بالهجوم للملوك المسلمين، إلا أنه لا زال يمتلك من القدرة ما يكفي لمنع بيبرس من مهاجمة حلفاء المغول - مملكة أرمينية وامارة انطاكية -. وقامت طقر خاتون بدورها فضمنت لابن هولاكو - أباقا - والذي كان أثيراً عنده، بتبوأ منصب ايلخان وذلك بعد مضي أربعة أشهر من موت هولاكو. وماتت طقر خاتون بعد ذلك بأربعة أشهر أيضاً. وبات لزاماً على الايلخان الجديد - أباقا - أن يواجه التهديد المستمر الذي كان يتعرض له على أيدي أبناء عمومته، من القبيلة الذهبية، والذين أغروا على بلاده فعلاً في الربع التالي. وظهر واضحًا بأنه بات على المغول التatar التدخل في أمور بلاد الشام - خلال تلك المرحلة على الأقل -. وأصبح بوسع بيبرس الذي كانت دبلوماسيته هي العامل فيها نزل بالايلخان أباقا من المتاعب، مع جiranه في الشمال، أن ينصرف بكل جهده لقتال الفرنج الصليبيين دون خوف من أي تدخل خارجي.

كان الايلخان أباقا منصرًا لمواجهة هجوم شنه عليه الخان بركة في صيف سنة ٦٦٥ هـ = ١٢٦٦ م، عندما خرج من مصر جيشان للمسلمين، تولى بيبرس قيادة أحدهما، فأغار على أرباض عكا، ثم قام بظاهرة عسكرية أمام حصن مونتفورت - الذي كان في قبضة طائفة فرسان التيوتون - الألمان -. ثم زحف فجأة على صفد التي كانت في قبضة طائفة فرسان الداوية، والتي كانت تحكم بقلعتها الضخمة في مرتفعات الجليل. وكان معروفاً أن تھصینات صفد ودفاعاتها قد تجددت بأكملها منذ خمس وعشرين سنة، وأن الحامية المدافعة عنها كانت وفيرة العدد، وقد ضمت إليها عدداً كبيراً من المسيحيين من أبناء بلاد الشام. وقد نظم بيبرس ثلاث هجمات متتالية على صفد، غير أن الحامية المدافعة عنها تمكنت من إحباط هذه الهجمات، وعندما أعلن بيبرس - عن طريق المنادين - بأنه يمنح العفو عن كل من يستسلم له من العساكر الوطنين. ويظهر أن عدداً كبيراً من العساكر قد ونقوا بكلمة بيبرس ووعده. مما أثار الشك في وسط الداوية الذين هيمتن عليهم المهاجرات، وسادهم الشقاق والسباب، والذي تحول إلى اشتباكات. وأدرك الداوية، وقد أخذ عدد من المسيحيين

السوريين بالفرار الى معسكر بيبرس، بأنه من الحال عليهم الاحتفاظ بقلعتهم. فأرسلوا جندياً سورياً اعتقادوا في ولائه وإخلاصه، واسمه ليو، ليتقدم بعرض الى بيبرس لتسليم الحصن مقابل الحصول على وعد بأن تنسحب الخامسة إلى عكا دون أن تتعرض للأذى. ولما سلم الداوية القلعة الى بيبرس، وفقاً لهذا الشرط، أمر بيبرس بقتلهم جميعاً. وليس مؤكداً ما إذا كان - ليو - قد تعمد الغدر بالدواية، إلا أن اعتناقه الاسلام قد أثار الشك بوساطته.

ضمن بيبرس السيطرة على الجليل باعادة فتح صفد، فسار إلى تбинن التي أعاد فتحها دون قتال. ثم أرسل العساكر من تбинن لتدمير قرية قارة المسيحية، التي تقع بين حصن ودمشق، لعلاقة أهلها المسيحيين بالفرنج. فأمر بقتل البالغين من سكانها، واسترقاق الأطفال. ولما أرسل المسيحيون وفداً من عكا يطلب منه السماح لهم بممارسة جاث الموتى، أغاظ في رفض طلبهم، وقال لهم بأنهم إذا كانوا يتسمون جثث القتلى فسوف يجدونها في بلادهم.

ولتنفيذ تهديده، هبط بيبرس بجيشه إلى الساحل وقتل كل من وقع في يديه من المسيحيين. وعندما حاولت الكتبية الفرنسية المقيمة في عكا بالتعاون مع فرسان الطوائف الدينية العسكرية القيام بهجوم على الجليل، للانتقام، وقعت مقدمة قواتهم في كمين نصبه حامية صفد، بينما هاجم العرب المسلمين معسكر الفرنج، فانسحبت قوات الفرنج وقد تعرضت للخسائر الفادحة.

بينما كان بيبرس يتبع فتوحاته في الجليل، احتشد في حصن جيش المالك المسلمين الثاني - الذي كان قد خرج من مصر - بقيادة أكفا أمرائه سيف الدين قلاون الصالхи.

وقام قلاون بهجوم عاصف أعاد فيه فتح حصني القليعة وحالية ومدينة عرقة التي كانت تحكم في الطريق القادم من البقعة الى طرابلس. ثم انحرف صوب الشمال وأسرع في سيره ليلحق بجيشه حصن الذي خرج بقيادة المنصور أمير حصن. وتوجهت قواتها المشتركة الى حلب، ثم اتجهت غرباً إلى قيليقية.

كان ملك أرمينية - هيثوم - يتوقع قيام المالك المسلمين بالهجوم على بلاده - فحاول عندما علم بموت هولاكو أن يصالح بيبرس (سنة ٦٦٢ هـ = ١٢٦٣ م) ولما كانت البحرية المصرية تعتمد في بناء سفنها على ما يرد إليه من أخشاب لبنان وجنوب الأنضول، وكان هيثوم وصهره أمير أنطاكية بوهمند هما المسيطران على هذه الغابات، فكانا يأملان في استخدام هذه السيطرة وسيلة للمساومة. غير أن الحصار الذي فرضاه على تصدير الأخشاب لم يزد بيبرس إلا تصميماً على مهاجمة أرمينية. وإذا علم - هيثوم - في سنة ٦٦٥ هـ = ١٢٦٦ م، أن جيوش المسلمين على وشك الانطلاق لمهاجمة بلاده، أسرع إلى بلاط الإيلخان أباقا يلتزم منه الدعم والمساعدة. ولكن ما إن وصل إلى تبريز حتى علم بأن عاصفة المسلمين قد اجتاحت بلاده.

كان الجيش الأرمني بقيادة ولدي هيثوم (وهما: ليو وثوروس) ينتظر عند دروب الشام، وقد تولى فرسان الداوية في بغراس حماية جناحيه. غير أن جيش المسلمين لا يرى صوب الشمال، وعبر جبال الأمانوس قرب سرفتكار، فأسرع الأرمن لاعتراض طريقهم عند هبوطهم إلى سهل قيليقية، ودارت معركة حاسمة (يوم ٢٤ - آب - أغسطس) وتعرض الأرمن لهزيمة ماحقة، ولقي الأمير ثوروس مصرعه، فيما وقع الأمير الآخر ليو أسيراً، وتدفق المسلمين الظافرون فاجتاحتوا سهول قيليقية. وبينما قام قلاؤون وجشه بتدمير أياس وأذنة وطرسوس قاد المنصور جشه فتجاوز المصيصة إلى عاصمة الأرمن (سيس) حيث نهب القصر الملكي، وأشعل الحريق في الكاتدرائية، وقتل بضعة آلاف من السكان. وانسحب المنتصرون إلى حلب وقد حلوا معهم بضعة آلاف من السكان الأرمن (بلغ عددهم أربعين ألف أسير) بالإضافة إلى قافلة ضخمة من الغنائم.

أسرع الملك هيثوم بالعودة من بلاط الإيلخان أباقا، في جماعة صغيرة من المغول، فألفى ولي عهده أسيراً، وعاصمه خراباً وبلاده بأكملها مستباحة، ولم تنهض مملكة الأرمن بقيليقية مطلقاً من هذه الكارثة. وانتقم بيبرس من رأس التحالف مع المغول.

أرسل بيبرس بعد أن تخلص من الأرمن ، جيشاً لمهاجمة أنطاكية (في خريف السنة ذاتها ١٢٦٦ م) غير أن قادته قنعوا بنهب بلاد أنطاكية ، وفتر حاسهم ، واكتفوا بما قدمه إليهم أمير أنطاكية - بوهمند - من إتاوة ، مما أغضب بيبرس الذي قرر ألا يترك للفرنج فرصة للراحة ، فسار إلى عكا من جديد (في أيار - مايو - سنة ١٢٦٧ م) ورفع جنده الرايات التي سبق لهم أن أخذوها من الاستبارية والداوية ، مما ساعدتهم على الوصول إلى أسوار عكا ، حيث عملوا على تخريب القرى والريف .

خرج الظاهر بيبرس من مصر مرة أخرى في مطلع سنة ٦٦٧ هـ = ١٢٦٨ م . واجتاز في طريقه مدينة يافا ، ثم أعاد فتح قلعة عثليت . وسار شمالاً ، فوصل إلى أمام أنطاكية يوم ١٤ - أيار - مايو - . وقسم جيشه إلى ثلاثة مجموعات ، وجه واحدة منها لاعادة فتح السويدية ، وبذل قطع الاتصال بين أنطاكية والبحر ، ثم وجه مجموعة قتالية ثانية إلى ذروب الشام ، لمنع كل مساعدة تصل من قيليقية إلى أنطاكية . وتولى بيبرس بنفسه قيادة المجموعة الثالثة ، وحاصر أنطاكية فتم له فتحها يوم ١٨ - أيار - مايو - وبذلك تم تدمير الامارتين الصليبيتين اللتين تعاونتا مع المغول ضد المسلمين .

وإذ ضعفت أرمينية ، وتدمرت أنطاكية ، قرر الداوية أنه أصبح من المحال عليهم الاحتفاظ بقلاعهم في جبال أمانوس ، فجلوا بدون قتال عن بغراس وقلعة لاروش دي روسول ، التي تقل عنها شأناً . ولم يبق من إمارة أنطاكية في قبضة الفرنج سوى مدينة اللاذقية التي أصبحت جيّباً منعزلاً ، وقلعة القصير التي انعقدت أواصر الصداقة بين حاكمها وبين المسلمين المجاورين ، فسمحوا له بالبقاء بها سبع سنوات أخرى ، على أن يبقى تابعاً للسلطان الظاهر بيبرس .

أخلد بيبرس إلى الراحة ، فترة قصيرة ، بعد انتصاره في أنطاكية . فقد توافرت له معلومات عن استعدادات يقوم بها المغول للقيام بهجوم جديد . وترددت الشائعات أن ملك فرنسا لويس التاسع يعد للقيام بحملة صليبية ضخمة . فلما أرسل الوصي على

عرش قبرص - هيولوزجانان - إلى السلطان بييرس يطلب عقد هدنة، رد عليها بييرس بآيفاد سفاره إلى عكا برئاسة محي الدين، للتقدم بعرض لايقاف الأعمال العدائية بصورة مؤقتة. وكان هيyo يأمل في الحصول على بعض الامتيازات، فقام باستعراض قواته في تعبئة القتال، غير أن محي الدين لم يظهر اكتراثاً، وقال مخاطباً هيyo :

«إن كل هذا الجيش ليس في كثرة العدد ما يضارع أسرى الفرنج الصليبيين في القاهرة».

وطلب أمير أنطاكية السابق - بوهمند - أن يشمله عقد الهدنة، حتى يتمكن من الاحتفاظ باللاذقية، وسأله أن السلطان لم يخاطبه في إجابته إلا على أنه كونت ، نظراً لأنه فقد إمارته أنطاكية. غير أنه قبل في ارتياح ما تهيأ له من فترة للراحة. وعلى الرغم من قيام الماليك المسلمين بشن غارات صغيرة على بلاد الفرنج في ربيع سنة ١٢٦٩ م. فإن الهدنة ظلت بصورة عامة محترمة الجانب لمدة سنة.

أفاد الفرنج من الهدنة لاعادة تنظيم أمرورهم الداخلية، إذ كان ملك قبرص هيyo الثاني قد مات في نهاية سنة ٦٦٦ هـ = ١٢٦٧ م. فتم تتوبيح ملكاً على قبرص في عيد الميلاد سنة ١٢٦٧ م. باسم هيyo الثالث، غير ان تتوبيحه ملكاً على القدس قد تأخر حتى ٢٤ - ايلول - سبتمبر - سنة ١٢٦٩ ، حيث جاء هيyo الى عكا، ثم مضى إلى صور، حيث قام أسقف لد بتتويجه نيابة عن البطريرك . وكانت كاتدرائية صور قد أصبحت هي الموضع التقليدي لتتويج ملوك القدس منذ أن خرجت القدس من حكم الفرنج الصليبيين. فكان تتويجهم عبارة عن تسمية لا أكثر، ملوكاً على مملكة ليست لهم .

كانت الحروب الصليبية تدور بكل عنفها ، وبأشد قسوتها ، على أرض أندلس المسلمين ، ويظهر أن ملك أراغون وجد من القدرة ما يكفي لتوسيع دائرة حربه ، فقرر القيام بحملة الى فلسطين. وأُجبر من برشلونه ملك أراغون جيمس الأول في أول ايلول - سبتمبر - سنة ١٢٦٩ م. غير أن اسطوله الضخم صادف عاصفة عاتية مزقته ،

وأدخلت الرعب إلى قلوب رجال الحملة. فقرر الملك العودة إلى بلاده. غير أنه سمع ولديه غير الشرعيين. فرناند وسانكىز - أو سانشو - وبدره فرنانديز بالسير إلى فلسطين، فوصلوا بأسطولها الصغير إلى عكا في نهاية سنة ١٢٦٩ م. فقاما بالاشتراك في عمليات قتالية صغرى - لا تستحق الذكر - وعادا إلى بلادهما.

لم يأس الفرنج الصليبيون من الحصول على دعم المغول التتار للقضاء على المسلمين، فأرسل البابا كليمون الرابع بعثة إلى بلاط الإيلخان أباقا برئاسة جيمس الاريك في سنة ٦٦٦ هـ = ١٢٦٧ م. وذلك لاعلام أباقا عن قرب قدوم حلة ملك أراغون وحملة الملك لويس التاسع إلى فلسطين، وعقد تحالف عسكرية. غير أن الإيلخان أباقا لم يقدم للبعثة أكثر من وعد غامض بحسب انصرافه لقتال القبيلة الذهبية. ولم يلبث الإيلخان أباقا أن خاض حرباً جديدة مع أبناء عمومته الذين أغروا على حدود بلاده الشرقية سنة ٦٦٩ هـ = ١٢٧٠ م. ولم يتراجعوا إلا بعد معركة عنيفة دارت قرب هرّة. وعندها كتب الإيلخان أباقا إلى الملك لويس التاسع. تعهد فيها بت تقديم مساعدة عسكرية عند وصول الحملة الفرنسية إلى فلسطين. ولكن الملك لويس التاسع مات أمام تونس وهو يقود حملة الصليبية. فلم يتمكن أباقا من مساعدته.

كان كل ما استطاع الإيلخان أباقا تقديمها لخليفه ملك الأرمن هيثوم، هو اجراء مبادلة للأسرى. حيث أطلق سراح أحد الامراء المماليك وهو شمس الدين سنقر الأشقر (الباشق الأحمر) والذي كان المغول قد أسره في حلب. فوافق بيبرس مقابل ذلك على إطلاق سراح (ليو) ابن ملك أرمينية هيثوم، كما وافق على عقد هدنة مع هيثوم، بشرط أن يتنازل الأرمن له عن حصون جبال الأمانوس، وهي: درباسك وبهستا وربaban. وتم إبرام المعاهدة في آب - أغسطس - سنة ١٢٦٨ م.

ظل بيبرس ملتزماً الهدوء والسكون طوال صيف ٦٦٩ هـ = ١٢٧٠ م استعداداً لمواجهة احتلال هجوم ملك فرنسا لويس التاسع على مصر. وأنباء ذلك دبر أمر اغتيال فيليب مونتفورت لاصفاف الفرنج، وذلك نظراً لمكانة هذا الرجل الرفيعة بين أمراء الفرنج. وأظهر الاسماعيلية (الباطنية أو الحشاشين) استعدادهم لتنفيذ هذه المهمة.

تعبيرأً منهم عن ولائهم للسلطان بيبرس الذي حررهم - بفتحاته - من الاتاوة التي كانوا يدفعونها لطائفة الاستبارية ، وكذلك تعبيراً عن استنكارهم لتعاون الفرنج مع المغول الذين دمروا لهم معاقلهم وممتلكاتهم في بلاد فارس . وعلى هذا أرسل الاسماعيلية أحد رجالهم إلى صور ، فتظاهر هذا الرجل بأنه نصرافي ، ودخل إلى الكاتدرائية يوم الأحد ١٧ - آب - أغسطس - سنة ١٢٧٠ م ، حيث كان فيليب وابنه يوحنا يؤذيان الصلاة ، وانقض عليهما فجأة ، وضرب فيليب فأصابه بجرح قاتل ، غير أنه بقي على قيد الحياة إلى أن علم بأنه تم القبض على القاتل ، وأن ابنه يوحنا قد نجا من القتل .

علم بيبرس أن الحملة التي قادها ملك فرنسا لويس التاسع قد انتهت على أبواب تونس وأن قائدها الملك لويس قد توفي سنة ٦٦٩ هـ = ١٢٧٠ م . فصارت له الحرية للعمل ، ومتابعة جهده وجهاده ضد الفرنج ، وقد جيشه إلى الشمال حيث أعاد فتح صافيتا (سنة ٦٧٠ هـ = ١٢٧١ م) ثم فتح حصن الأكراد (أو قلعة الحصن) . وعرف قائد حصن مرقية القائم بين بانياس وطرسوس أن بيبرس لن يتركه ، فقرر طلب الدعم من المغول ، وغادر قائد الحصن - بارثولوميو - قلعته متوجهاً إلى بلاط الإيلخان أباقا في بلاد فارس ، مما أغضب بيبرس ، فحرض الباطنية (الاسماعيلية) على قتله . وتم قتله وهو في طريقه إلى بلاد فارس .

علم بيبرس أن انكلترا تعد حملة صليبية ، فأسرع لعقد هدنة مع أمير طرابلس - بوهمند لمدة عشر سنوات وسار بجيشه جنوباً فانتزع من طائفة فرسان التيوتون - الألمان - قلعة مونتفورت ، ثم تابع مسيره إلى مصر . وأرسل من هناك أسطوله الذي ضم سبع عشرة سفينة لمهاجمة قبرص . ولكن عاصفة صدمت هذه السفن على صخور ميناء ليماسول وحطمت معظمها .

كان ملك انكلترا هنري الثالث قد وعد منذ زمن طويل بالاعداد لحملة صليبية ، غير أن تقدمه في العمر ، واستنزاف قدرته في الحروب المستمرة ، منعه من قيادة الحملة بنفسه ، فعهد بقيادته لابنه وولي عهده - ادوارد - الذي بلغ من العمر ثلاثين عاماً .

وغادر الأمير ادوارد انكلترا في صيف سنة ٦٧٠ هـ = ١٢٧١ م . وصحبه ألف رجل تقريباً ، ورافقته زوجته اليانور قشتالة ، ثم تبعه بعد أشهر قليلة أخيه ادموند دوق

لانكستر ومعه الدعم والامداد ، كما صحب ادموند كتائب من البريتونيين والأراضي المنخفضة .

كان قائداً الحملة ادوارد يعتزم اللحاق بملك فرنسا لويس التاسع في تونس ، والاقلاع معاً إلى فلسطين . غير أنه لما علم بموت لويس ، وعودة الجنديين الفرنسيين إلى بلادهم ، أمضى فصل الشتاء في صقلية ، ثم أبحر في الربيع التالي إلى جزيرة قبرص ، ومنها إلى عكا .

صمم الأمير ادوارد لخالة الضعف والتمزق التي هيمنت على الفرنج في بلاد الشام . ولم يحصل على ما كان يتوقعه من دعم ملك القدس . فبادر لارسال سفارة إلى الإيلخان أباقا ، ضمت ثلاثة من الانكليز (هم ريجنالدرسل ، وجودفري ويليس ، ويوجننا باركر) فوافق أباقا على أن يقدم كل ما يستطيعه من الدعم والمساعدة . ولما كانت جيوشه الأساسية تقاتل أبناء عمومته في تركستان ، فقد عمل على سحب عشرة آلاف فارس من حامياته في بلاد الأناضول ، وأرسلهم إلى بلاد الشام . فتدفقوا عن طريق عين تاب ، وأنزلوا الهزيمة بالمقاتلين التركمان الذين كانوا يدافعون عن حلب . وهربت الحامية المملوکية بحلب من أمام فرسان المغول ، وتوجهت إلى حماة . وظل المغول يتبعون تقدمهم ، فتجاوزوا حلب إلى معبر النعسان وأقاموا . وساد الذعر والخوف بين السكان المسلمين ، وتلقى بيبرس الانذار في الوقت المناسب ، فخرج بجيشه الكثيف من دمشق ، وطلب الامداد من مصر ، وشرع في التحرك صوب الشمال ، انصرف المغول راجعين خوفاً من الاصطدام بالجيش الإسلامي الذي سار لقتاهم ، كما أن اتباعهم من الاتراك المسلمين في بلاد الأناضول جنحوا إلى التمرد ، فانسحبوا إلى ما وراء نهر الفرات ، وقد امتلأت أيديهم بما حصلوا عليه من الغنائم .

أفاد الأمير ادوارد من انصراف بيبرس لقتال المغول ، فقد جيشه عبر جبال الكرمل ، وأغار على السهول المجاورة ، غير أنه أدرك بأن جيشه أضعف من أن يستولي ولو على حصن صغير ، فقرر العودة إلى عكا وهو مقتنع بأنه من المحال إعادة انتطاكية إلى الفرنج ، أو تحقيق أي نصر كبير ، ما لم تصل من الغرب حملة صليبية ضخمة ، وما

لم تقدم حلة مغولية بالغة القوة. وشعر أن بقاءه هو مضيعة للوقت طالما أنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً ، فقرر عقد هدنة مع بيروس.

وتم ابرام عقد هذه المدنة في قيسارية بين السلطان بيروس وحكومة عكا . في ٢٢ أيار - مايو - سنة ١٢٧٢ م (٦٧٠ هـ) وقد كفلت هذه المدنة التي حددت مدتها بعشر سنوات وعشرة شهور ، أن يحتفظ الفرنج بممتلكاتهم التي باتت محصورة على السهل الساحلي ما بين عكا وصيدا .

عرف بيروس أن الأمير ادوارد يعتزم العودة الى بلاد الشام على رأس حلة صليبية ضخمة ، فقرر بيروس التخلص منه ، بما لا يتعارض مع بنود اتفاقية المدنة . وتم ارسال أحد رجال الباطنية - الاسماعيلية - للقيام بالمهمة ، وتنكر هذا الرجل في زي مسيحي وطني ، وأمكن له الدخول الى حجرة الأمير ادوارد يوم ١٦ حزيران - يونيو - ١٢٧٢ م ، وطعنه بخنجر مسموم . ومع أن الجراح لم تكن قاتلة ، إلا أن ادوارد ظلّ يعاني من آلامها شهوراً عديدة . ولم يكدر يتائل للشفاء حتى عاد الى بلاده ، فوجد أن والده قد مات ، وألفى نفسه ملكاً على انكلترا .

انصرفت الأطراف جميعها للافادة من المدنة التي تم عقدها . لقد عرف بيروس أن امارات الفرنج في بلاد الشام (عكا وطرابلس) قد وصلت إلى مرحلة من الضعف بحيث لم تعد تشكل تهديداً خطيراً للمسلمين ، وهذا لم يكن هناك ثمة مانع من بقائهما سنوات أخرى ربما تنضج ويحين قطافها . غير أن الخطر لا زال قائماً بالنسبة للمغول وللدول الصليبية في الغرب . وهذا ما يتطلب الاعداد وتنظيم القوى لمجابهة كافة الاحتمالات .

أما الفرنج ، فلم يدخلهم اليأس من امكان تحرير حلات صليبية جديدة ، فأخذ البابا (غريغوري العاشر) بجمع التقارير ، واجراء الأبحاث عن امارات الفرنج في الشام ، وأسباب الاخفاق ، وتطور جبهة المسلمين . وحالة الفساد في الكنائس مما اثر في الروح الصليبية . وتبع ذلك عقد مجمع ليون في سنة ٦٧٣ هـ = ١٢٧٤ م لمناقشة التقارير والتخاذل

قرارات ، وعمل المجمع على توجيه نداء جديد الى ملوك أوروبا وأمرائها لتوجيه حملة صليبية ضخمة الى فلسطين .

وأما المغول الوثنيين بقيادة الایلخان أباقا فقد أدركوا أنه لم يعد باستطاعتهم الصمود طويلاً في مواجهة القوى الإسلامية المتعاظمة ، فقرر الایلخان أباقا تطوير تعاونه مع الفرنج الصليبيين . ولكن الموقف تغير بصورة جذرية ، فبينما كان الفرنج في السابق هم الذين يبحثون عن وسيلة للتحالف مع المغول ، والتعاون معهم . بات المغول الآن وهم يتمسون الوسيلة لشد عضدهم بالفرنج . ومن أجل ذلك أرسل الایلخان أباقا خطاباً إلى الأمير ادوارد عندما كان في عكا سنة ٦٧٢ هـ = ١٢٧٣ م . يسأله متى سيعود في حملته الصليبية التالية . فأرسل ادوارد ردًا ودياً ، غير أنه أعرب عن أسفه بأنه لم يقرر هو والبابا متى تتوجه حملة صليبية أخرى إلى بلاد الشام . وظهر في السنة التالية (٦٧٤ هـ = ١٢٧٤ م) مبعوثون من المغول في مجمع ليون . وتنصر اثنان منها . إلا أن رد البابا والمجلس البابوي بشأن توجيه حملة صليبية ، كان ردًا غامضًا صيغ بعبارات ودية - حميّة - . وقام الایلخان أباقا بمحاولة أخرى في سنة ٦٧٥ هـ = ١٢٧٦ م حيث أرسل الأخوان الكرجيان - يوحنا وجيمس فاسيلي - إلى إيطاليا لزيارة البابا ، وزودهما بأوامر للمضي إلى بلاط كل من ملكي فرنسا وإنكلترا . وحلا رسالة شخصية من أباقا إلى إدوارد الأول ، اعتذر فيها عن ضعف المساعدة التي قدمها له في سنة ١٢٧١ م . ووعد بتقديم مساعدة أكبر في المستقبل . غير أنه لم يكن هناك استعداد لا عند الملك ادوارد ، ولا عند ملك فرنسا فيليب الثالث ، للقيام بحملة صليبية جديدة . كما أن المجلس البابوي خضع لتأثير معاكس - من قبل شارل كونت أنجو - الذي كره المغول لأنهم كانوا أصدقاء أعدائه - البيزنطيين والجنويين - كما أن سياساته قامت على الوفاق الودي مع بيروس . وكان البابوات والقسسين يأملون ، متفائلين ، في أن يسوقوا المغول إلى حظيرة كنيستهم . غير أنهم لم يدركو أن وعدهم بمكافآت السماء لم يشكل اغراء كافياً للأیلخان أباقا وجماعته .

صار باستطاعة الظاهر بيبرس أن ينفذ مشروعاته دون أن يتعرض لخطر تدخل الغرب الصليبي ، فقد بنفسه جيشه سنة ٦٧٣ هـ = ١٢٧٥ م . ومضى به إلى

قيليقية فنهب المدن الواقعة بالسهل . ثم قام بعد سنتين بغزو الأناضول . وعندما عاد من هذه الغزوة ، وافته المنية (يوم ٢٨ محرم سنة ٦٧٦ هـ = أول تموز - يوليو - سنة ١٢٧٧ م) فدفن في دمشق . . وحزن المسلمين عامة لوفاته ، فيما عمّت البهجة بلاد الفرنج . ولكن فرحة الفرنج لم تستمر طويلاً ، فقد جاء حكم المسلمين ملوك آخر - سيف الدين قلاوون الصالحي ، الذي اعتبر بحق من كبار قادة المماليك الأكفاء . وقد تسمى بالملك المنصور .

كان الايلخان أباقا حريصاً على أن يحارب المسلمين قبل أن يستطيع قلاوون توطيد مركزه . فقد جيشه وعبر به نهر الفرات في سنة ٦٧٩ هـ = ١٢٨٠ م . واحتل عين تاب وبغراس ودرب ساك . ثم اجتاح حلب (في ٢٠ تشرين الأول - أكتوبر - سنة ١٢٨٠ م) فنهب أسواقها ، وأشعل الحريق في المساجد . وهرب إلى دمشق المسلمين من أهالي تلك المناطق وقد استبد بهم الخوف والجزع . ووجه المغول قوة أوغلت في تقدمها فوصلت البقيعة ، وأشرفت على حصن الأكراد . واصطدمت أثناء عودتها بجيشه الإسلامي - قرب مرقية - فأمكن لها التغلب عليه . وأثناء ذلك ، حشد قلاوون جيشه في دمشق . ولما لم تكن قوة الجيش المغولي كافية للاحتفاظ بحلب والدفاع عنها ، فقد اضطر للانسحاب إلى ما وراء نهر الفرات . واكتفى السلطان قلاوون بارسال قوة لإنزال العقاب بالاستبارية لتعاونهم مع الفرنج .

وأثناء هذه الفترة ، أرسل الايلخان أباقا سفارة إلى عكا أعلمته الفرنج أن الايلخان قرر أن يرسل إلى بلاد الشام في ربيع السنة التالية جيشاً من مائة ألف رجل ، وطلب إلى الفرنج امداده بالرجال والذخائر . بعث الاستبارية إلى ملك انكلترا ادوارد لاعلامه بقرار الايلخان . وغضب قلاوون عندما علم بتصميم الايلخان على القيام بهجوم جديد . فبادر إلى ارسال سفارية إلى عكا لعقد هدنة مع الطوائف الدينية العسكرية لمدة عشر سنوات . وتم عقد هذه الهدنة في ٣ - أيار - مايو - ١٢٨١ م .

توجه جيشان مغوليان إلى بلاد الشام في أيلول - سبتمبر - سنة ١٢٨١ م (٦٨٠ هـ) . وتولى الايلخان أباقا قيادة الجيش الأول ، فيما تولى شقيقه منجو تيمور قيادة الجيش الثاني .

وبدأ الجيش الأول باخضاع الحصون الإسلامية القائمة على امتداد حدود الفرات ، فيها كان الجيش الثاني يؤمن الاتصال بملك أرمينية (ليو) ثم انحدر الى وادي نهر العاصي بعد أن اجتاز عين تاب وحلب ، وأسرع السلطان قلاوون الى دمشق حيث حشد فيها جيشه ، وسار به نحو الشمال . وتجنب الفرنج الانحياز للمغول – باستثناء طائفة الاستيارية في حصن المربك والتي رفضت الالتزام بالهدنة التي عقدها الاستيارية بعكا – فركبت جماعة منها وانضمت الى جيش ملك أرمينية (ليو) .

التقى جيش المسلمين بجيش المغول في ظاهر حمص يوم ٣٠ تشرين الأول - أكتوبر - سنة ١٢٨١ م . وتولى منجو تيمور قيادة قلب الجيش المغولي ، واتخذ أمراء مغول آخرون مواقفهم في ميسيرته ، بينما وقفت في الميمنة عساكر الكرج وجيش ملك أرمينية ليو وفرسان الاستيارية . ومقابل ذلك ، تولى صاحب حماه المنصور قيادة ميمنة الجيش الإسلامي . فيما تولى قلاوون ذاته قيادة قلب الجيش - الجندي المصري وجيش دمشق . أما الميسرة فقد ضمت جند شمال بلاد الشام والتركمان بقيادة الأمير سنقر الأشقر . دارت المعركة ، واحتدم القتال ، وتمكنـت مـيمـنـةـ الجيشـ المـغـولـ منـ الـانتـصارـ علىـ سنـقـرـ الأـشـقـرـ الذيـ استـمـرـ فيـ تـرـاجـعـ حتـىـ وـصـلـ إـلـىـ معـسـكـرـهـ فيـ حـمـصـ ،ـ فـانـقـطـعـ بـذـلـكـ الـاتـصالـ بـيـنـ مـيمـنـةـ الجـيـشـ المـغـولـ وـبـيـنـ بـقـيـةـ الـقـوـاتـ .ـ وـأـنـاءـ ذـلـكـ بـقـيـةـ مـيـسـرـةـ المـغـولـ صـامـدـةـ فـيـ الـقـتـالـ .ـ وـأـصـيـبـ منـجوـ تـيمـورـ بـجـراـحـ قـاتـلـةـ حـيـنـاـ شـنـ الـمـسـلـمـونـ هـجـومـهـمـ عـلـىـ قـلـبـ الجـيـشـ المـغـولـ .ـ وـبـدـأـ المـغـولـ بـالـتـرـاجـعـ سـرـاعـاـ .ـ وـوـجـدـ مـلـكـ أـرـمـينـيـةـ وـرـفـاقـهـ عـلـىـ قـلـبـ الجـيـشـ المـغـولـ .ـ وـبـدـأـ المـغـولـ بـالـتـرـاجـعـ سـرـاعـاـ .ـ وـوـجـدـ مـلـكـ أـرـمـينـيـةـ وـرـفـاقـهـ ضـمـنـ دـائـرـةـ الـحـصـارـ فـاضـطـرـوـ لـلـقـتـالـ لـيـشـقـواـ لـهـمـ طـرـيقـاـ لـلـعـودـةـ نـحـوـ الشـمـالـ ،ـ وـتـعـرـضـواـ لـلـخـسـائـرـ الـفـادـحةـ .ـ وـلـمـ يـتـمـكـنـ قـلاـوـونـ مـنـ مـطـارـدـةـ المـغـولـ نـظـرـاـ لـمـ نـزـلـ بـقـوـاتـهـ مـنـ الـخـسـائـرـ الـكـبـيرـةـ .ـ وـاجـتـازـ المـغـولـ وـمـعـهـمـ الـأـيـلـخـانـ أـبـاـقاـ ،ـ نـهـرـ الـفـرـاتـ الـذـيـ أـصـبـحـ هـوـ الـحـدـ الفـاـصـلـ بـيـنـ دـوـلـيـ مـسـلـمـيـنـ وـمـغـولـ .ـ

لقد أظهرت معركة حمص ، ضعف قدرة المغول وعجزهم عن النيل من قوة المسلمين ، فقد حشد الـأـيـلـخـانـ أـبـاـقاـ مـائـةـ أـلـفـ مـقـاتـلـ ،ـ وـرـغـمـ ذـلـكـ لـمـ يـحـرـزـ ماـ كـانـ يـتـوقـعـهـ مـنـ نـصـرـ .ـ وـأـدـرـكـ الـفـرـنجـ بـدـورـهـمـ مـاـ أـصـبـحـتـ عـلـيـهـ قـوـتـهـمـ مـنـ الـضـعـفـ فيـ مـجـاهـةـ

القوة المتعاظمة لل المسلمين . أما السلطان قلاوون فقد مضى لتابعه فتوحاته ، فانتزع من الفرج - طائفة الاستبارية - حصن المرقب (سنة ٦٨٤ هـ = ١٢٨٥ م) . وارتاع سكان عكا لضياع حصن المرقب . وأدرك الفرج أن أيامهم في بلاد الشام قد وصلت إلى نهايتها ، لاسيما وأن المعلومات القادمة إليهم من الغرب قد أكدت انصراف حكام الغرب إلى خصوماتهم التقليدية ، وصراعاتهم المستمرة .

١

١٧ - وابتلعت رمال المسلمين بناء الفرنج .

جاء تجار حلب الى السلطان قلاوون ، وتقدموا اليه بالشكوى ، فهم يشعرون منذ زمن بعيد بعدم الارتياح لارسال تجارتهم الى الميناء المسيحي باللاذقية والذي بقي آخر ما في قبضة الفرنج الصليبيين من اماراة أنطاكية . وكان باستطاعة قلاوون ارسال جيشه الى اللاذقية ، نظراً لأنها لم تدخل في المدنة المعقدة مع اماراة طرابلس ... وجاء الزنزال فضرب أسوار مدينة اللاذقية في ٢٢ - آذار - مارس - سنة ١٢٨٧ هـ) فوجه قلاوون جيشاً بقيادة الأمير حسام الدين طرنطاي ليتسلمهما . فسقطت المدينة في يديه دونما عناء . وجاءت فرصة أفضل من سابقتها في (سنة ٦٨٨ هـ = ١٢٨٩ م) حيث وقع خلاف بين البندقة والجنويين ، واجتاحت الفوضى المدينة ، مما سهل على المسلمين الذين كانوا يحاصرون طرابلس ، أمر اجتياح المدينة التي أمر السلطان قلاوون بتدميرها . ومضى المسلمين الظافرون فاحتلوا البترون ونبيين .

وصل ملك قبرص - هنري - إلى عكا بعد ثلاثة أيام من إعادة فتح المسلمين لمدينة طرابلس . فوجد فيها رسولاً أرسله السلطان قلاوون للاحتجاج على قيام الطوائف الدينية العسكرية بنقض المدنة ، حيث نهض رجال هذه الطوائف لمساعدة طرابلس . فرد هنري بأن المدنة لا تطبق إلا على مملكة القدس (عكا) . فلو أن طرابلس كانت داخلة في المدنة ، لما أقدم السلطان قلاوون على فتحها . وقبل المسلمين هذا العذر . وتجددت المدنة لمدة عشر سنوات أخرى وعشرة شهور وعشرة أيام ، على أن تدخل فيها مملكتا القدس وقبرص . وبادر ملك أرمينية وسيدة صور الى احتذاه هذا المثال . غير أن ملك قبرص هنري لم يعد يثق في عهد السلطان ، ولم يكن بوسعه أن يغامر فيستتجد بالمغول ، لأن السلطان قلاوون سيعتبر ذلك انتهاكاً للمدنة . فعاد الى قبرص سنة ٦٨٨ هـ = ١٢٨٩ . بعد أن خلف أخاه نائباً عنه في عكا . وعمل فور

وصوله الى قبرص على ارسال سفارة الى أوروبا - برئاسة يوحنا جرائيلي - ليشرح
ملوك الغرب مدى الخطورة التي وصلت إليها بقايا ممتلكات الفرنج في الشام.

انزعج ملوك الغرب أيضاً لما حل بطرابلس من مصر. غير أنه ما من أحد كان في وضع يسمح له ببذل اهتمام لما كانت تتعرض له قوات الفرنج فيها وراء البحار. وحاولت جمهورية جنوة الانتقام لما نزل بها من الخسائر الفادحة نتيجة لضياع طرابلس، فاستولت على سفينة مصرية كبيرة كانت تحمل بضائع تجارية وفيرة، في مياه جنوب الأنضول كما أرسلت قوات أغارت على ميناء التبنة بالدلتا والذي كان مجردًا من أسباب الدفاع ولما أغلق السلطان قلاوون ميناء الاسكندرية في وجه الجنوبيين، بادروا لعقد الصلح. وعندما وصلت رسائلهم الى القاهرة لاتمام الصلح، التقوا بسفارتين من قبل الامبراطور البيزنطي والامبراطور الألماني وهم تعملان في خدمة السلطان.

امتنع ملوك أوروبا وحكامها من الاستجابة لنداء البابا، إلا أن رعاع الفلاحين والمعطلون من سكان المدن الصغيرة في لومبارديا وتوسكانيا وشمالي ايطاليا استجابوا للنداء، وجاؤوا يدفعهم الطمع والجشع للحصول على غنائم. فقبل البابا مساعدتهم، وأسند قيادتهم الى أسقف طرابلس الذي كان قد جأ إلى روما. وكان يأمل بأنهم لن يرتكبوا حفارة، بعد أن خضعوا لسيطرة رجل كنيسة يستطيع أن يكبح جاجهم، فضلاً عن معرفته العميقه بأمور بلاد الشام. وقام البناقة بتقدم عشرين سفينه لنقل (قوات الحملة الجديدة). وانضمت إليها خمس سفن أرسلها ملك أрагون - جيمس - .

وعندما وصلت هذه القوات إلى عكا، وجدتها في حالة من اليسر والرخاء. فقد أعادت المدنة المعقودة بين ملك قبرص هنري ، وبين السلطان قلاوون ، الثقة للنفوس. وأخذ تجار دمشق في ارسال قوافل تجاراتهم الى الساحل، وتوافر المحصول الزراعي في تلك السنة (٦٨٩ هـ = ١٢٩٠ م)، مما حمل الفلاحين المسلمين في الجليل على ارسال منتجاتهم إلى عكا، التي لم تعرف من النشاط والحيوية مثل ما شاهدته في تلك السنة. وهذا فقد ارتبك أهل عكا عندما وصلتهم قوات الصليبيين الايطاليين الذين أخذوا في إثارة الفوضى والاضطراب في حياة المدينة المنظمة. واشتهر هؤلاء الايطاليين بالفجور

والسكر. وأخذوا في مهاجمة التجار وال فلاحين المسلمين. إلى أن حدث ذات يوم أن اندلعت فتنة أثارها هؤلاء وانتهت باجراء مذبحة المسلمين. فقرر قلاوون تصفيته وجود الفرنج في بلاد الشام بإعادة فتح عكا. وتوفي السلطان قلاوون وهو يعد لحملته الكبرى (سنة ١٢٩٠ م) وجاء ابنه الأشرف خليل. فنفذ وصية والده. وأكمل طرد الفرنج من عكا (في ١٨ - أيار - مايو - سنة ١٢٩١ م) وما تبقى من مدن الفرنج لم تلبث أن شاركت عكا في مصيرها. فتمنت إعادة فتح مدينة صور. وتبعتها مدينة صيدا ومدينة حifa.

هكذا ابتلعت رمال المسلمين بناء الفرنج، والذي ظن بناته ومهندسوه أنهم أقاموا بناءً خالداً على الزمان. وعادت أرض المسلمين للMuslimين.

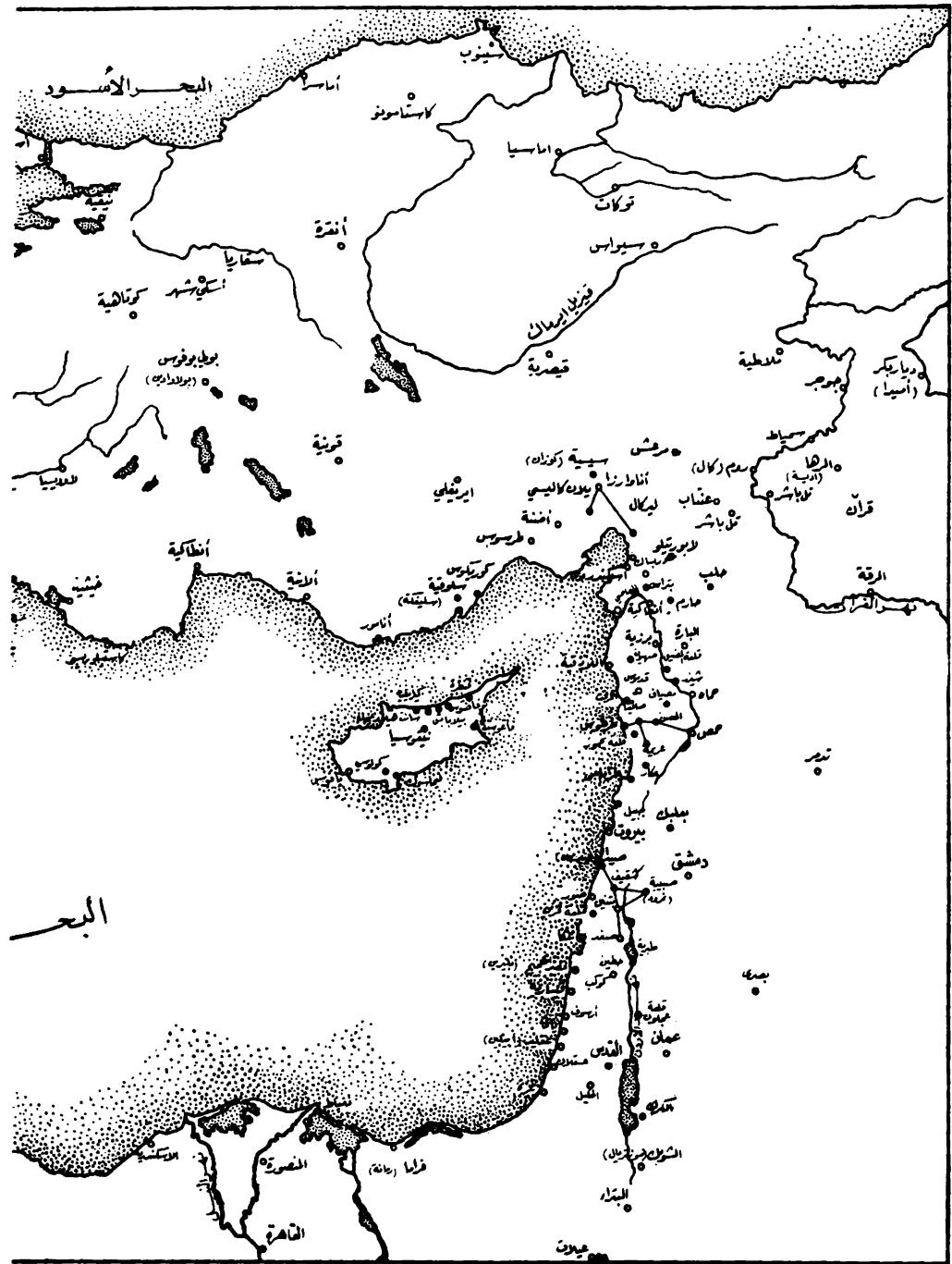
انطلقت جيوش المسلمين بعدئذ وهي تحوب بلاد الساحل من أقصاها إلى أقصاها طوال شهور عديدة، وذلك لتدمير كل ما قد يفيد الفرنج إذا ما نكروا في العودة إلى بلاد الشام. وبادر كل من بقي في الشام من كانت له أصول ترتبط بالفرنج، فاندمج بالمسلمين أهل البلاد. فما سبق أن اتصف به الإسلام من التسامح قد مضى، إذ لم يظهر المسلمون أي تسامح تجاه أعداء الدين. ولم يكن الفرنج الذين فروا إلى قبرص بأحسن حال. إذ ظلوا جيلاً من الزمان يعانون الحياة التعسة على أنهم لا جئون غير مرغوب فيهم. وطويت صفحة من صفحات جهاد بلاد الشام ضد الفرنج الغزاة، لتفتح صفحات أخرى.

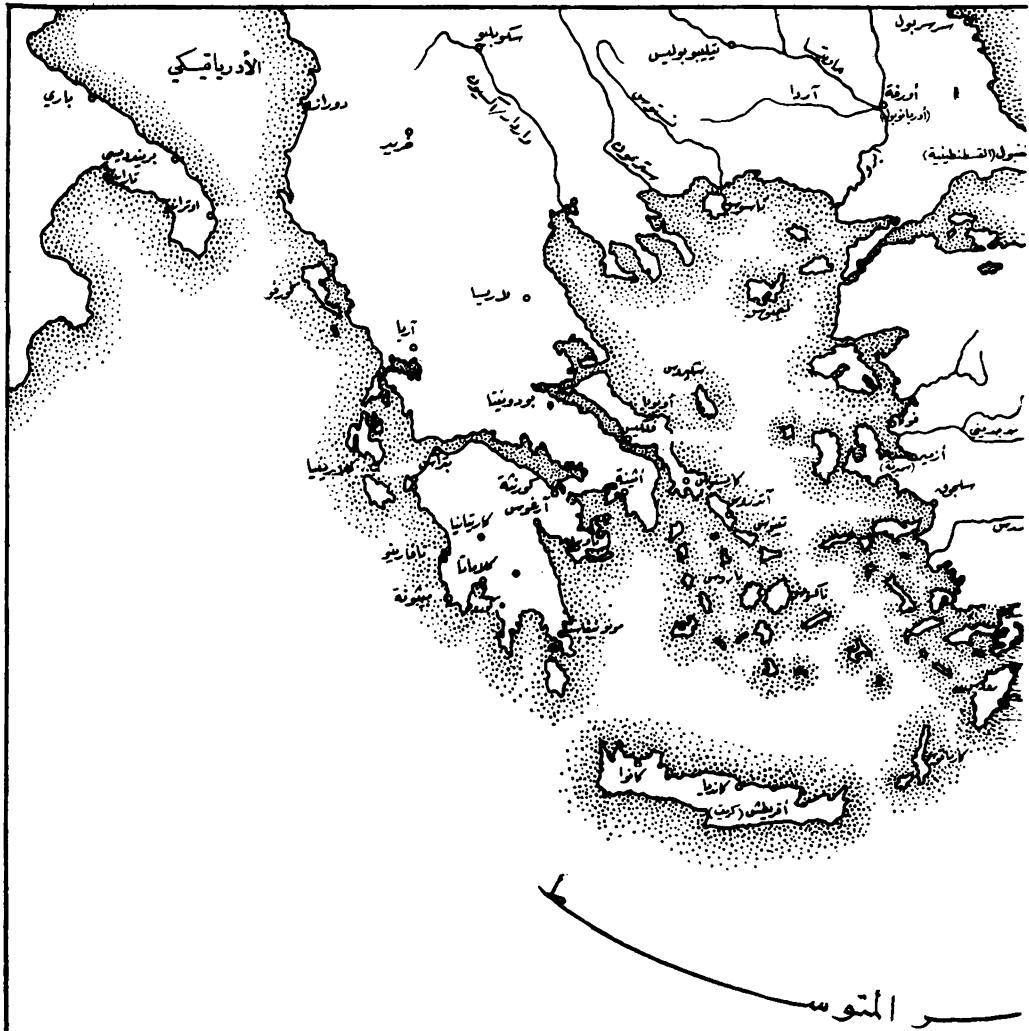
هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ
 مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوْلَى الْحَسْنَىٰ . مَا ظَنَّنْتُمْ أَنْ يَعْرُجُوا وَظَنَّوا
 أَنَّهُمْ مَا يَعْتَهُمْ حَصْرُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَنَّهُمْ أَهْلُ اللَّهِ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْسِبُوا
 وَنَدَّفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّغْبَةُ يَخْرُجُونَ بِمَا تَهْمِيمُ وَأَنْدَى
 الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولَى الْأَبْصَارِ . صَدِقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ
 سُورَةُ الْحَسْرَ - الآيَةُ : ٢

الفصل الثاني

القلاع والحسون أيام الصليبيين

١٤	- قلعة حارم.	١٠	- القدس.
١٥	- قلعة صور.	٢٠	- انطاكية.
١٦	- قلعة صهيون.	٣٠	- الراهء.
١٧	- قلعة طرابلس.	٤٠	- المضيق (أقامة).
١٨	- قلعة طرطوس.	٥٠	- قلعة الحصن - حصن الأكراد - .
١٩	- قلعة عكا.	٦٠	- قلعة المرقب.
٢٠	- قلعة عثليت.	٧٠	- قلعة الكرك.
٢١	- قلعة قيسارية.	٨٠	- قلعة بعلبك.
٢٢	- قلعة مصياف.	٩٠	- قلعة بغاراس.
٢٣	- قلعة نمرود.	١٠٠	- قلعة دمشق.
٢٤	- قلعة رودس.	١١٠	- قلعة شيزر.
٢٥	- قبرص وقلاعها.	١٢٠	- قلعة شيف.
		١٣٠	- قلعة حلب.

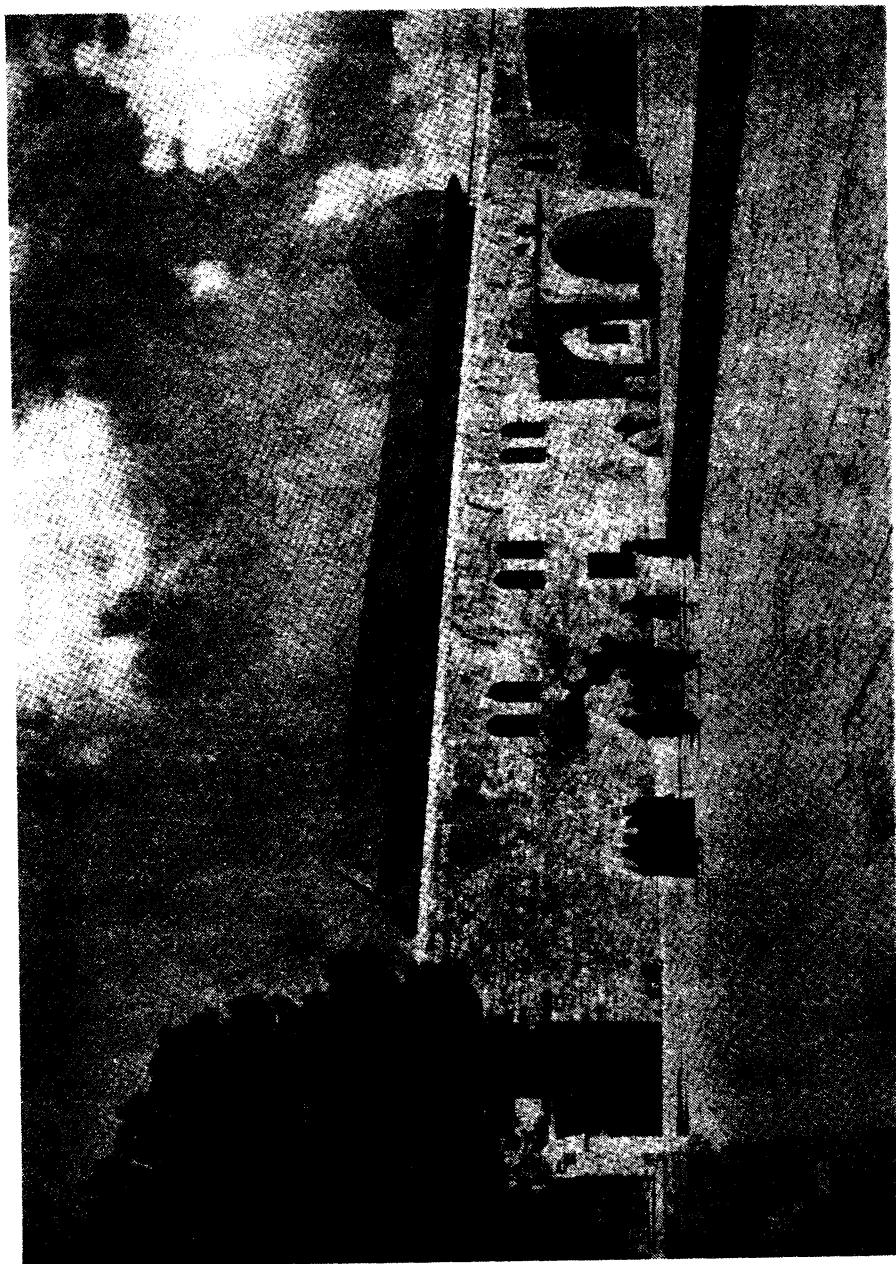


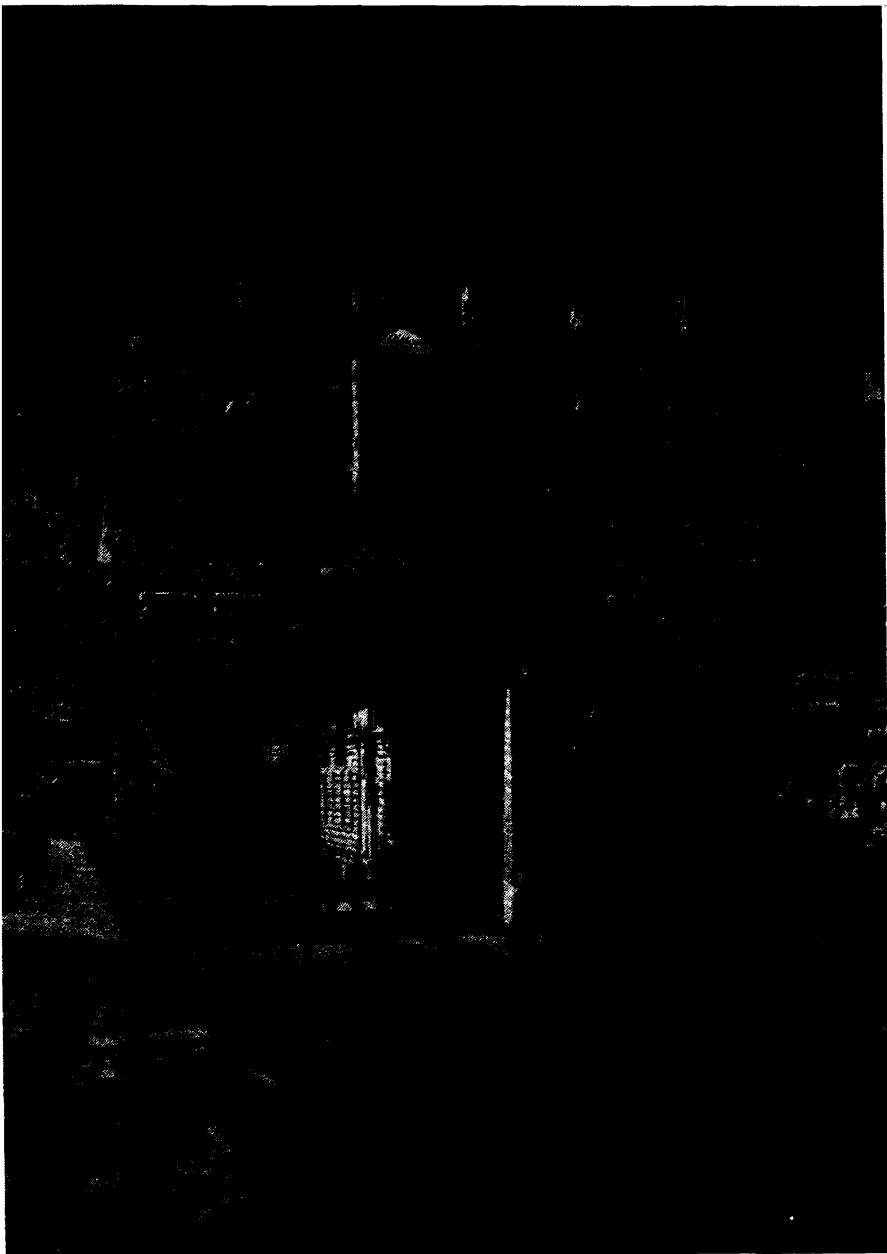


- مسرح الغرب الصليبية -

(أثير لماضي التقليد بدأ في سوداء)

الواجهة الغربية للمسجد الأقصى في ساحة المحرم الشريف.





الواجهة الغربية لبوابة سي مرم



القدس
منظر للمدينة القديمة - ويشاهد جبل الزيتون في خلفية الصورة.

١ - القدس وتحصيناتها .

تميزت تحصينات القدس منذ القدم بقوة تحصيناتها ومنعة أسوارها . فقد اهتم الرومان عبر قرون متتالية بتحصين المدينة المقدسة حتى تصمد في وجه هجمات الفرس ، حيث كانت الحرب بين الدولتين العظمى (الفرس والروم) سجالاً . وكانت بلاد الشام هي المسرح الأساسي للأعمال القتالية . ولهذا لم يكن غريباً أن تحظى مدن بلاد الشام بالنصيب الأوفى من التحصينات الدفاعية . وبقيت أسوار مدن القدس^(١) ودمشق وحلب من النماذج المميزة لتلك التنظيمات الهندسية الدفاعية . وعندما سارت جحافل المجاهدين في سبيل الله على درب الفتوح . كان لا بد لها وأن تصطدم بهذه الأسوار المتينة والتحصينات القوية . وقد نجح العرب المسلمين نهجاً مميزاً في التعامل مع أسوار المدن وتحصيناتها . فهم لم يصطدموا بها مباشرة . بل تركوا أمرها حتى تم لهم تدمير الكتل الرئيسية لتوابع العدو في البرموك وفحل وأجنادين وسواها . حيث أتاح لهم تفوقهم في حرب الحركات فرصة تدمير تفوق أعدائهم بالقوى والوسائل . ثم انتصروا بعد ذلك لعزل المدن الكبرى عن امكانات الدعم الخارجية . وتفرقوا جيوش العرب المسلمين بعد معركة البرموك الطافرة . وبعد موقعة فحل ، فسار أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد إلى حمص ، وسار شرحبيل بن حسنة لفتح الأردن ،

(١) تذكر المصادر التاريخية أن الامبراطور الروماني أدريان ADRIAN-OU-HADRIAN الذي ولد سنة ٧٦ م في روما . وحكم من سنة ١١٧ حتى سنة ١٣٨ م هو الذي شيد أسوار القدس سنة ١٣٠ م لمجابهة هجمات الفرس . وأن أدريان هذا هو ابن الامبراطور تراجان بالتبني ، فخلفه في الحكم ، اشتهر بشجاعته الصناعة والآداب والفنون ، واصلاح جهاز الادارة والحكم . وشيد في روما قصر ادريان المعروف اليوم باسم (قصر القديس الملائكة) كما نظم مجموعة القلاع والتحصينات المتصلة على حدود الامبراطورية الرومانية في انكلترا وألمانيا لحمايةها من هجمات الشعوب البرابرة . كما شيد القلاع - الليات - على حدود الامبراطورية في أفريقيا .

فيها سار عمرو بن العاص إلى فلسطين. واجتمع عسكر الروم - البيزنطيين - بغزة وأجنادين وبيسان بقيادة الأرطابون - الذي وصفته مصادر التاريخ العربي - الإسلامي بأنه أدهى الخلق -. فانتصر عليه عمرو بن العاص في أجنادين ، وأرغمه على الفرار إلى القدس. ثم تابع عمرو بن العاص أعمال الفتح، ففتح إيلاء وسبسطيه - وبها على ما يقال قبر يحيى بن زكريا وجامعة من الأنبياء والقديسين - وفتح نابلس وللد وتبني وعمواس وبيت جبرين ويافا ومرج عيون. ثم حصر القدس ، وقاتل الحامية المدافعة عن القدس ، وقد تجمعت فيها قوات الروم وفلوها. فأشجووا عمرو بن العاص وأشجارهم ، إلى أن طلب أهل القدس من عمرو بن العاص أن يصلحهم على صلح أهل مدن الشام. وأن يكون أمير المؤمنين ذاته - عمر بن الخطاب - رضي الله عنه ، هو المتولى لعقد الصلح. فكتب عمرو بن العاص إلى أمير المؤمنين: «إنني أعالج عدواً شديداً ، وببلاداً قد ادخرت لك ، فرأيك». فعرف أمير المؤمنين أن عمراً لم يقل ذلك إلا بشيء سمعه فسار عن المدينة ، واستخلف عليها علي بن أبي طالب. وكتب إلى أمراء الأجناد أن يوافوه بالجایة ليوم سماه لهم ، ويستخلفوا على أعمالهم . فلقوه بالجایة . وبينما عمر معسكر - بالجایة ، فزع الناس إلى السلاح . فقال أمير المؤمنين: ما شأنكم؟ قالوا: «ألا ترى إلى الخيل والسيوف؟» فنظر فإذا كردوس - كتبية - يلمعون بالسيوف.

فقال أمير المؤمنين: «مستأمنة ، فلا تراغوا». فأمنوهـم ، فإذا هـم أهل القدس وحـيزـها ، فـصالـحـهمـ أمـيرـ المؤـمنـينـ عـلـىـ الجـزـيـةـ . وـفـتـحـواـ الـقـدـسـ ، فـدـخـلـهـاـ الـمـسـلـمـونـ^(١)ـ وـهـكـذـاـ فـقـدـ عـلـمـ عـمـرـ بـنـ العـاصـ علىـ اـحـتـلـاـلـ وـفـتـحـ فـلـسـطـيـنـ بـكـاـمـلـهـاـ تـقـرـيـباـ قـبـلـ أـنـ يـتـجـهـ إـلـىـ الـقـدـسـ الـتـيـ أـصـبـحـتـ مـعـزـوـلـةـ وـمـطـوـقـةـ مـنـ جـيـعـ اـتـجـاهـاتـهـ ، مـاـ وـضـعـ الـحـامـيـةـ الـمـدـافـعـةـ عـنـ الـمـدـيـنـةـ الـمـقـدـسـةـ أـمـامـ مـوـقـعـ صـعـبـ لـاـ مـخـرـجـ مـنـهـ إـلـاـ بـالـاسـتـمـارـ فـيـ الـقـتـالـ حـتـىـ الـفـنـاءـ أـوـ الـصـلـحـ ، فـفـضـلـ أـهـلـ الـقـدـسـ الـصـلـحـ بـشـرـوـطـ مـشـرـفـةـ تـنـتـنـاسـ مـعـ الـمـكـانـةـ الـدـيـنـيـةـ وـالـعـسـكـرـيـةـ لـلـمـدـيـنـةـ ، وـاسـتـجـابـ أمـيرـ المؤـمنـينـ لـالـتـاسـ أـهـلـ الـمـدـيـنـةـ طـلـماـ أـنـ ذـلـكـ

(١) لمزيد من التفاصيل ، ولطالعة وثيقة الصلح مع أهل بيت المقدس - إيلاء - انظر تاريخ - الطبرى - والكامـلـ فـيـ التـارـيـخـ - أـحـدـاثـ سـنـةـ ١٥ـ لـلـهـجـةـ.

لا يتناقض مع أهداف الفتح، وطالما أن عقد الصلح يحقن دماء المسلمين ويوفر عليهم الجهد والمعاناة. ولقد وصف مصدر عربي مدينة القدس بقوله :

«بيت المقدس، مرتفع على جبال يصعد إليها من كل مكان. وبه مسجد ليس في الإسلام أكبر منه. وبه الصخرة وهي حجر مرتفع مثل الدكة. وعلى الصخرة قبة عالية جداً. وارتفاع الصخرة من الأرض قريب القامة. وينزل إلى تحتها مراقي إلى بيت يكون طوله بسطة في مثلها. وليس ببيت المقدس ماء جار سوى عيون لا تتسع للزروع. وهي من أخصب بلاد فلسطين، ومحراب داود بها، قال الحسن بن أحمد المهلبي في كتابه المسمى بالعزيزى: إن الوليد بن عبد الملك، لما بني القبة على الصخرة ببيت المقدس - سنة ٨٧ هـ = ٧٠٥ م - بنى أيضاً هناك عدة قباب، وسمى كل واحدة باسم؛ فمنها قبة المعراج، وقبة الميزان، وقبة السلسلة، وقبة المحشر الخ... وإنما فعل ذلك ليعظم موقع القدس في نفوس أهل الشام»^(١).

ويظهر أن تحصين القدس بقى مرتبطاً بمكانة المدينة من الناحيتين الدينية والعسكرية. ولهذا فقد اعتبرت القدس - بصورة طبيعية - من أضخم الحصون وأقوى المعاقل في عالم العصور الوسطى. وقد اشتهر موقعها بالمتانة والقوة منذ أيام البيوسيين، وتداولتها يد الاصلاح والتطویر عبر القرون. فالأسوار التي عسکر الفرنج الصليبيون في ظلها جرت على نفس الرسم الذي سار عليه ما شيده من أسوار فيما بعد السلطان العثماني سليمان القانوني (سنة ٩٣٨ هـ = ١٥٣١ م) والتي تحيط اليوم بالمدينة القدیمة، وهي أسوار تكاملت بصورة مثيرة في عهود الروم - البيزنطيين - ومن بعدهم الأمويين ثم الفاطميين، حيث ضمن وادي كیدرون - أو وادي ستي مریم حالياً - ومنحدراته، حماية السور من ناحية الشرق، وهي منحدرات حادة شديدة المبوط. بينما هبطت الأرض الى وادي جهنم من ناحية الجنوب الشرقي - ويجاذى

(١) تقوم البلدان - أبو الفداء ص: ٢٢٧ - والقلاع أيام الحروب الصليبية - ص: ١٣٧ - ١٣٨ وتجدر الإشارة الى أن بناء قبة الصخرة قد حدث في وقت واحد مع بناء المسجد الأموي بدمشق سنة ٨٧ هـ

السور الغربي واد آخر يقل عمقاً عن الواديين الآخرين . فتبقى الجهة الجنوبية - الغربية هي الجهة الملائمة للهجوم على الأسوار والتحصينات ، حيث يجتاز السور جبل صهيون ، وعلى امتداد السور الشمالي . أما القلعة - وهي برج داود - فتقع في منتصف السور الغربي ، وتسيطر على الطريق الذي يسير أزاء جانب التل حتى باب يافا . وعلى الرغم من أنه ليس بالمدينة آبار ، فإن ما توافر بها من الصهاريج ضمن لها الماء الغزير ، وإن ما أدخله الرومان من نظام المجاري لازال مستخدماً في القرن العشرين .

كانت مدينة القدس تحت حكم الفاطميين - العلوين في مصر - يوم جاءتها جحافل الفرنج الصليبيين . وكان يحكمها - افتخار الدولة - وتحت قيادته حامية قوية من الجند العربي والسودانيين . فعمل افتخار الدولة على اتخاذ الاجراءات الضرورية لتنظيم الدفاع ودعمه . وأرسل إلى مصر بطلب قوات دعم إضافية ، ووصل الفرنج الصليبيون فنظموا الحصار المحكم حول المدينة بحيث انتشرت قوات النورمان - أو النورمانديين - في مواجهة السور الشمالي - تجاه باب الزهور وهو باب هيرود أو باب الساهرة -. في حين انتشرت قوات الفلاندر إلى يمين الأولى ومقابل باب الأعمدة (وهو باب دمشق أو باب القديس اسطفان) . كما انتشرت قوات اللورين في مواجهة الركن الشمالي الغربي للمدينة حتى باب يافا . وبلغ عدد أفراد قوات الفرنج التي اشتراك في الحصار اثنى عشر ألفاً من المقاتلين المشاة - الرجال - بالإضافة إلى ألف وثلاثمائة فارس ، يدعهم عدد كبير من الرجال غير المقاتلين والنساء والأولاد الذين كانوا يقومون بدورهم في تأمين الغذاء والامداد الإداري ومتطلبات المقاتلين .

بدأ الفرنج الصليبيون بحصار القدس يوم 7 حزيران - يونيو - سنة ١٠٩٩ م . ثم قام الفرنج بهجومهم الأول يوم ١٢ حزيران - يونيو - غير أن هذا الهجوم تحطم أمام أسوار القدس وتحصيناتها . وأُسهم في إحباط هذا الهجوم ما توافر للحامية الإسلامية المدافعة عن المدينة من وسائل الدفاع مثل المنجنيقات ، علاوة على السهام وغيرها ، والتي كان الجندي المسلمون يسدونها باحكام على الفرنج . ولكن فشل الهجوم لم يمنع قادة الفرنج من إعادة محاولتهم ، فاستمر الصراع ، واستمرت الاشتباكات ، وعقد قادة الفرنج وملوكهم وأمراؤهم مؤتمراً لهم يوم ١٥ حزيران - يونيو - قرروا

فيه إعداد متطلبات الهجوم من أبراج وسلام وسواها من أدوات الحصار. وشاع في وسط الفرنج أن جيشاً إسلامياً كبيراً قد تحرك من مصر لدعم حامية القدس. فقرر الفرنج العمل بسرعة، حتى إذا ما فرغوا من بناء الأبراج الضخمة المترفة، دفعوها نحو المكان الوحيد الذي يصلح للهجوم، وهو القطاع الشرقي من السور الشمالي حيث مسطح جبل الزيتون، وقام جند الفرنج بردم الخندق، فيما كان جند المسلمين يقذفونهم من فوق الأسوار بالحجارة والسهام والتواريخ الملتهبة، والتي قابلتها الفرنج برد مماثل، إذ توافت لهم وسائل الحصار الالزمة وأدواته. ثم بدأ الفرنج انقضاضهم مساء يوم ١٤ تموز - يوليو - أي بعد خمسة أيام من الحصار المحكم والدقيق. ونجح الفرنج في اقتحام المدينة فيما استمر الصراع على الأسوار حتى ظهر اليوم التالي، وأظهر الفرنج ما حملوه من حقد دفين فانطلقوا للذبح وقتل كل من صادفهم من الشيوخ والأطفال والنساء. ولم ينج من المذبحة حتى أولئك الذين لجؤوا إلى رحاب المسجد الأقصى أو المعابد والكنائس. وتركت مذبحة بيت المقدس أثراً عميقاً في نفوس المسلمين في كل مكان، فزال ما اشتهروا به من التسامح، إذ لم يثر التعصب الإسلامي إلا التعصب الصليبي. وعندما حاول بعض عقلاه الفرنج اللاتين بعد ذلك إيجاد أساس للتعايش بين المسلمين والفرنج الصليبيين، كانت ذكرى هذه المذبحة الأليمة تعترض دائمًا سبيل الوصول إلى اتفاق أو تفاهم^(١). وأقام الفرنج مملكتهم في القدس، وحكموها على امتداد تسعين سنة هجرية. لم يتوقف الصراع المسلح خلافاً. حتى إذا ما انتصر المسلمون في حطين، انطلقت قواتهم لطرد الفرنج من طبرية وقلعتها، ومن مجدي يابا وعكا والمحصون المحيطة بها مثل الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعلياً والشقيف ويافا وتبنين ونابلس وبيسطية وصيدا وجبيل وبيروت بالإضافة إلى عسقلان وأصبح بممكان صلاح الدين الأيوبي بعد وصولهم الوصول إلى الهدف الكبير الذي طالما عمل من أجل بلوغه، وهو طرد الفرنج من القدس. فأرسل أمره إلى أسطوله في مصر للخروج إلى ساحل بلاد الشام. وتولى حسام الدين لؤلؤ الحاجب قيادة الأسطول،

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ٣٩٣/١ - ٤٠٦ والكامل في التاريخ - أحداث سنة ٤٩٢ هـ. وفيه تصوير رائع لما قام به الفرنج، ولبعض ردود فعل المسلمين على المذبحة وأثارها.

لقطع طريق البحر على الفرنج . فكان المسلمون كلما عثروا على مركب للفرنج في البحر غنموه ، وكلما وصلوا إلى شانياً - سفينة - أخذوه . وتوجه صلاح الدين بجيشه إلى القدس . ووقع اشتباك أمام المدينة حيث حاول الفرنج إيقاف تقدم جيش المسلمين ، غير أنهم سرعان ما تراجعوا ليحتموا بأسوار القدس القوية وتحصيناتها المنيعة . وباتت هذه الأسوار وهي تحمي وراءها جوحاً كبيرة من مقاتلي الفرنج الذين نجوا من المعارك السابقة فوجدوا في القدس لهم ملجاً وملادةً ، وذكر أن عدد مقاتلي الفرنج فيها تجاوز الستين ألف مقاتل .

بدأ المسلمون بمحصار القدس في منتصف شهر رجب سنة ٥٨٣ هـ (٢٠ - أيلول - سبتمبر - ١١٨٧ م) وأمضى صلاح الدين الأيوبي خمسة أيام وهو يستطعن أسوار المدينة وتحصيناتها ، ثم قرر الهجوم من جهة جبل الزيتون - قرب باب العمود - ليس بعيداً عن المكان الذي انطلق منه الفرنج في هجومهم قبل تسعين عاماً . ولما نزل المسلمون على القدس ، رأوا على أسوارها من الرجال ما هالهم ، وسمعوا لأهلها من الغلبة والضجيج من وسط المدينة ما استدلوا به على كثرة الجمع . ولم يجدوا عليه موضع قتال إلا من جهة الشمال - نحو باب العمود أو كنيسة صهيون . وهناك نصب المجنحنيات ، ونصب الفرنج بدورهم منجنيقات على سور البلاد ورموا بها ، فقتلوا أشد قتال رآه أحد من الناس ؛ كل واحد من الفريقين يرى ذلك ديناً وحشاً واجباً ، فلا يحتاج فيه إلى باعث سلطاني . وكانوا ينبعون ولا ينتعون ، ويذجرون ولا يتذجرون . وكان خيالة الفرنج يخرون كل يوم إلى ظاهر البلد ، يقاتلون ويبارزون ، فيقتل من الفريقين . ثم حل المسلمون حلة رجل واحد ، فأزالوا الفرنج عن مواقفهم ، فأدخلوهم البلد . ووصل المسلمون إلى الخندق فجاوزوه ، والتقصوا إلى سور فنقوبه ، وزحف الرماة يحمونهم ، والمجنحنيات توالي الرمي لتكشف الفرنج عن الأسوار حتى يتمكن المسلمون من حشو النقب بما جرت به العادة . فلما رأى الفرنج شدة قتال المسلمين ، وتحكم المجنحنيات بالرمي المتدارك ، وتمكن النقابين من النقب ، وأنهم قد أشرفوا على الهلاك ، اجتمع مقدموهم للتشاور فيما يأتون وما يذرون ، فاتفق رأيهم على

طلب الأمان، وتسلیم القدس إلى صلاح الدين. وأرسلوا جماعة من كبرائهم وأعيانهم في طلب الأمان. فلما مثلوا أمام صلاح الدين امتنع عن إجابتهم، وقال لهم:

«لا أفعل بكم إلا كما فعلت بأهله حين ملكتموه سنة اثنتين وتسعين وأربعين سنة من القتل والسيء، وجزاء السيئة بمنتها»^(١).

لكن اليأس لم يدخل قلوب الفرنج من إمكان الوصول إلى الصلح، فتابعوا اتصالاتهم، فيما بقي القتال مستمراً. واستشار صلاح الدين قادته، فقرر بذل الأمان للفرنج، ولعل صلاح الدين قد أراد بذلك تحنيب المسلمين لاقتال مع الفرنج اليائسين من الحياة، وتوفير القدرة البشرية لمتابعة القتال، أو لعله أراد تحنيب المذايغ في الأماكن المقدسة. فتقرر الإفراج عن الفرنج، مقابل دفع عشرة دنانير عن كل رجل - يستوي فيه الغني والفقير، وسلمت المدينة للمسلمين يوم الجمعة ٢٧ رجب سنة ٤٩٢ هـ (١١٨٧ م) بعد حصار لم يتجاوز الأربعين يوماً. وارتفع صوت المؤذن، فكادت قلوب المسلمين تطير فرحاً. وزال عن المسجد الأقصى الحزن والكآبة، وتظهر مما علق به من الأدران. أظهر العرض السابق ثلاث عمليات مما تعرضت له أسوار مدينة القدس من الحصار، وبرزت من خلال هذا العرض الملامع المشتركة لفن الحصار في العصور القديمة والعصور الوسطى، حيث تبين عدم حدوث تطور كبير في بناء القلاع والأسوار والتحصينات، وكذلك عدم حدوث تطور مماثل في وسائل الحصار مثل المجانق والأبراج والسلام وسواها. فبقي فن الحصار معتمداً على الأساليب التقليدية والشائعة: ومنها :

أولاً : عزل الهدف عن محيطه الخارجي، وحرمانه من امكانات الدعم. فقد عمل عمرو بن العاص في المرة الأولى على تدمير مقاومات الفرنج في معارك جبهية تصادمية. ثم فتح القلاع والخصون ذات الأهمية الثانوية، ثم انتقل بعدها إلى الهدف الأكثر

(١) الكامل في التاريخ. احداث سنة ٥٨٣ هـ - وتاريخ الحروب الصليبية: ٢/٧٤٨ - ٧٥٤ . والروضتين - أبو شامة - نص خطاب القاضي حبي الدين بن الزكي في المسجد الأقصى. بحضور صلاح الدين الأيوبي في ذلك اليوم المشهود.

أهمية - وهو هنا القدس -. و فعل الفرنج مثل ذلك عندما اجتازوا الساحل وعزلوا القدس عن امكانيات دعمها من مصر . وجاء صلاح الدين فسار على النهج ذاته ، إذ لم يحاول التعرض للقدس وأسوارها حتى تم له عزلها عزلاً كاملاً ، وحتى انتهى من تدمير قوات الفرنج وطردتها إلى الساحل ، مع فتح القلاع والمحصون المحيطة بمدينة القدس .

ثانياً : تتمتع الأسوار بمرتكزات قوتها الواضحة ، ولكن لها أيضاً نقاط ضعفها الأكيدة ، وتعود نقاط الضعف والقوة إلى الطبيعة الطبوغرافية المحيطة بالأسوار والتحصينات . ولهذا لم يكن غريباً أن تنطلق الهجمات على أسوار القدس من جبل الزيتون ومن باب العمود على وجه التحديد . ويبقى التعامل مع نقاط الضعف والقوة مرتبطاً بقدرة الحامية المدافعة عن الأسوار ، قدر ارتباطها بتصميم المهاجمين وما يتوافر لهم من وسائل الحصار .

ثالثاً : تبرز عمليات حصار القدس ، واقتحام أسوارها صورة عن تفوق المسلمين في الهجوم بمثل تفوقهم في الدفاع . فقد صمدوا في مواجهة هجوم الفرنج لمدة خمسة أيام تقريباً ، رغم تفوق الفرنج في القوى والوسائل . في حين لم يصمد الفرنج لهجوم المسلمين لأكثر من اثنين عشر يوماً ، وذلك رغم ما توافر لهم من الامكانيات الدفاعية ، ورغم توافر القدرة القتالية البشرية الكبيرة ، بسبب انضمام فلول الحاميات المهزقة إلى حامية القدس .

رابعاً : لم يكن دور الأسوار والتحصينات يتجاوز في الحالات كلها ايقاف تقدم القوات المعادية لمدة معينة ، فإذا انقطع الرجاء ، أو ضاع الأمل من امكان الحصول على دعم خارجي ، ضفت مقاومة الحاميات المدافعة عن الأسوار والتحصينات ، واضطربت للإسلام .

خامساً : ولقد ظهر في الحالات كلها ارتباط الأعمال القتالية الهجومية بالأعمال القتالية الدفاعية ، على نحو ما هو معروف في الأذمنة الحديثة وحروفيها ، وإذا اختفت الأسوار والتحصينات من فوق سطح الأرض - منذ ظهور المدفعية - فقد تمت الاستعاضة عنها بالملاجئ والتحصينات في باطن الأرض . وقد جاء هذا التغيير بسبب

تعاظم القدرة التدميرية للأسلحة النارية. وبقي الأساس الثابت وهو ذاك الارتباط الوثيق بين الأعمال القتالية الهجومية والأعمال القتالية الدفاعية. فالدفاع لم يكن قدماً وحديثاً إلا مرحلة مؤقتة لا يقف العدو ، ريشما يتم الانتقال إلى الهجوم ، أو ل توفير المجهد على محاور ثانوية من أجل التركيز بالقوى والوسائل على اتجاه الضربة الرئيسية - وهو أبرز ما تظهره عمليات حصار القدس وفتحها .

٢ - انطاكية، وأسوارها.

تقع مدينة انطاكية على نهر العاصي، على مسافة اثنى عشر ميلاً من البحر، أنشأها سقراط ثلثائة قبل الميلاد، سيلوقوس الأول وهو أحد خلفاء الاسكندر المقدوني، وأطلق عليها اسم أبيه أنطيوخس. واحتلت سهلاً بلغ طوله ثلاثة أميال تقرباً. وامتدت بعمق ميل نحو الداخل - بين نهر العاصي وجبل حبيب النجار، سيلبيوس - أما الاستحكامات الضخمة المحيطة بالمدينة كلها فتعود إلى أيام جوستينيان^(١) وجدد البيزنطيون تحصينها على امتداد قرن وفقاً لأحدث ما توافر لهم من الخبرة والمهارة الهندسية. فارتفعت الأسوار في شمالي المدينة - بداية من أرض البطائح المنخفضة الواقعة على امتداد النهر. أما في شرقي المدينة وغربيها، فقد ارتفعت الأسوار على منحدرات الجبال، وسارت الأسوار في الجنوب على امتداد قمة الحافة، ومضت قدماً حتى نفذت من تجويف يخترقه خور عفرين إلى السهل، وسارت إلى ما فوق الباب الخلفي للمدينة - وهو الباب المعروف باسم الباب الحديدي - حتى وصلت إلى القلعة المنيعة التي ترتفع عن المدينة بمقدار ألف قدم. واحتلت أربعينية من الأبراج مواقعها على أعلى الأسوار فضاقت المسافات فيما بينها بحيث كانت كل باردة في متناول سهامها. ويقع باب القدس بولس إلى الشمال - الشرقي من المدينة، وهو الباب الذي يؤدي إلى الطريق القادر من الجسر الحديدي وحلب، بينما يقع باب القدس جورج في الطرف الشمالي - الغربي، وهو الباب الذي ينتهي إلى الطريق القادر من اللاذقية، أما الطرق المؤدية للاسكندرية وميناء السويدية فانها تبدأ من الباب الكبير للمدينة الواقع

(١) جوستينيان الأول: (I JUSTINIEN) امبراطور الشرق من سنة ٥٢٧ إلى سنة ٥٦٥ م. اشتهر بفتحاته، وبظهور عدد من كبار قادة الروم البيزنطيين في عهده من أمثال بيلزير BELISAIRO ونرسيس NARSES - وانتصر جوستينيان على الفandal والفرس وفتح ايطاليا وأفريقيا.

على شاطئ النهر ، وتحتاز الجسر المنبع للاستحكامات . على أن الأبواب الصغرى أمثال باب الدوق وباب الكلب ، فانها تؤدي الى النهر من أقصى الشرق .

أصبحت أنطاكية^(١) بذلك أهم مدينة في آسيا ، وبلغ عدد مستوطنيها نصف مليون نسمة . بينما لا يتجاوز عدد سكانهااليوم خمسين ألف نسمة . واحتلت في زمان الروم - البيزنطيين - المرتبة الثالثة بين دول العالم - بعد روما والقسطنطينية - واشتهرت عند المسيحيين بمكانتها الدينية - المقدسة - ذلك لأنهم اتخذوا بها لأول مرة اسم - المسيحيين - وبها أقام القديس بطرس أول أسقفية له . وقد توافرت في المدينة مصادر المياه والأسواق والمتزهات والمراعي للأغnam ، مما كان يمكنها من ايواء جيش كامل ، مع ضمان تأمين الإمداد والتموين للحصار الطويل . وبالإضافة إلى ذلك ، فإنه لم يكن من السهل تطويق المدينة بكمالها ، إذ ليس باستطاعة القوات التي تعتمد مهاجمة المدينة وحصارها أن ترابط على الأرض الواقعة إلى الجنوب من انطاكية بسبب شدة انحدارها .

استولى الفرس - بقيادة كسرى الثاني - على انطاكية سنة ٦١١ ، ولكن ملك الروم البيزنطيين - هرقل - استعاد انطاكية في السنة الأولى من الهجرة (٦٢٢ م) وأخرج الفرس منها ومن سائر بلاد الشام . وعمل على إعادة تحصين انطاكية وترميم أسوارها . وعندما جاءت قوات العرب المسلمين واستولت على انطاكية بقيادة أبو عبيدة بن الجراح سنة ١٧ هـ = ٦٣٨ م ، كانت تحصينات المدينة بالغة القوة والمنعنة . وقد حفظ تاريخ انطاكية مما حفظه عن تلك الفترة موقف ملك الروم - هرقل - : « حيث كان هرقل في انطاكية عندما بلغته أنباء انتصارات العرب المسلمين . فاستبد به اليأس . لقد امتدت إليه يد الله ، لتنزل به العقاب لما أقدم عليه من زواج باطل من ابنة اخته مارتينا ... وبعد أن أدى قداس الرحمة في كاتدرائية انطاكية ، هرع إلى البحر ، واستقل السفينة إلى القسطنطينية ، وحينما غادر الشاطئ ، صاح في مرارة : الوداع : الوداع إلى الأبد يا سوريا » .

(١) انطاكية : (ANTAKIEH) وباللغة التركية (ANTAKIEH).

وهكذا أصبحت حاضرة الشرق - كما كانوا يسمونها - تحت حكم العرب المسلمين ، الذين حكموا بشرع الله على أرض الله ، فشاع العدل وانتفى الظلم . ولم يكن غريباً أن يتصدى جاثليق النساطرة لبطريق انطاكية عندما احتمم الجدل بينها في مطلع القرن العاشر الميلادي . فقال له : « اننا نحن النساطرة أصدقاء العرب المسلمين ، وندعو لهم بالنصر دائمًا ، فلتدع النساطرة الذين ليس لهم من ملك سوى العرب المسلمين »^(١) .

وقد عرف العرب المسلمون أهمية هذه الحاضرة ، وقدروها حق قدرها^(٢) . ولقد عاشت انطاكية أحداً مثيرةً منذ الفتح العربي - الإسلامي . فقد تابع الروم البيزنطيون حربهم ضد المسلمين في البر والبحر ، وكان لا بد لانطاكية بحكم موقعها من الاستئثار بعض مشاهد الصراع حيث بقيت هي القاعدة الرئيسية التي تمسك بالدروب الشامية ، فكانت جيوش العرب المسلمين تتوقف فيها أثناء ذهابها لغزوات الصوائف والشوافقي ، وعند عودتها منها ، هذا بالإضافة إلى الهجمات الكبيرة التي كان يقوم بها العرب المسلمون كثيراً ، ويقوم بها الروم في أحيان أخرى . وكان لا بد من أن يصيّب انطاكية بعض وقائع تلك الحروب ، فأضافت بذلك إلى إرثها الحضاري وتاريخها الطويل ، فصلاً مميزاً من أشكال الحروب التي يصعب إيجازها بكلمات أو اختصار وصف أحداثها بسطور . على أن أشد تلك الأحداث إثارة هو ما عرفته انطاكية خلال المرحلة التي سبقت الغزو الصليبي ، عندما عملت بيزنطة - الروم - على تصعيد الصراع ضد المسلمين وأعطت هذا الصراع أبعاداً جديدة بتوغُل جيوشها في بلاد الشام ، مع اثارة

(١) تاريخ الحروب الصليبية : ٣٥ / ٤٨ .

(٢) وصف أبو الفداء - في تقويم البلدان ، ص : ٢٥٥ مدينة انطاكية بقوله : « إنها بلدة كبيرة ذات أعين ، سور عظيم ، داخله خمسة أجبل ، وقلعة ، وغير بظاهرها نهر العاصي والنهر الأسود بمجموعين . وبها قبر حبيب التجار . قال ابن حوقل : انطاكية أنزه بلد الشام بعد دمشق . عليها سور من صخر يحيط بها وبجبل مشرف عليها . ويجري مياههم في دورهم : وسكنهم ومسجد جامعهم . ولها ضياع وقرى ونواحي خصبة جداً . قال في العزيزي : ومساحة دور السور اثنا عشر ميلاً . القلاع أيام الحروب الصليبية ص :

الأحقاد ضد حكم المسلمين. وقام ملك الروم - نقفور فوقياس - بالاستيلاء على انطاكية سنة ٩٦٩ هـ = ٢٥٩ م وذلك في طريقه لاجتياح بلاد الشام. وفي سنة ٤٧١ هـ = ١٠٧٨ م عمل ملك أرمينية - بهرام فيلاريتوس - على احتلال انطاكية، وقد استثار ذلك غضب المسلمين. فقام السلطان السلاجوقى بقيادة جوع التركمان واستعاد فتح انطاكية (سنة ٤٧٨ هـ = ١٠٨٥ م). وتابع السلطان - سليمان بن قتلمنش أو قطلمش - جهاده فطرد الروم - البيزنطيين منسائر البلاد التي سبق لهم احتلالها. واستولى - ملك شاه - على بلاد الشام وانتزعها من حكم الفاطميين حكام مصر. وعين - ياغي سيان - التركماني، حاكماً على انطاكية. فبقي ياغي سيان على حكم المدينة مدة عشر سنوات: وكان من نصبه مواجهة هجوم الفرنج الذي تعرضت له انطاكية سنة ٤٩١ هـ = ١٠٩٧ م، والذي ذكرته المصادر العربية وأوجزته بما يلي:

«تجهز الفرنج وخرجوا إلى الشام، وقيل إن أصحاب مصر من العلوين - الفاطميين - لما رأوا قوة الدولة السلاجوقية وتمكنها واستيلاءها على بلاد الشام حتى غزة، ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم من دخول السلاجقة إلى مصر وحصارها، خافوا وأرسلوا إلى الفرنج يدعونهم إلى الخروج إلى الشام ليملكونه، ويكونوا بينهم وبين المسلمين، والله أعلم. فلما عزم الفرنج إلى قصد الشام، ساروا إلى القسطنطينية ليعبروا المجاز إلى بلاد المسلمين، ويسيروا في البر فيكون أسهل عليهم، فلما وصلوا إليها منعهم ملك الروم من الاجتياز ببلاده. وقال لهم: لا يمكنكم من العبور إلى بلاد الإسلام حتى تحلفوا لي أنتم تسلمون إلى أنطاكية. وكان قصده أن يخthem على الخروج إلى بلاد الإسلام ظناً منه أن الأتراك - السلاجقة - لا يبقون منهم أحداً، لما رأى من صرامتهم وملكهم البلاد، فأجابوه إلى ذلك، وعبروا الخليج عند القسطنطينية.

ووصلوا إلى بلاد قلچ أرسلان بن سليمان بن قتلمنش، وهي قونية وغيرها، فلما وصلوا إليها لقيهم قلچ أرسلان في جموعه، ومنعهم، فقاتلوا وهزموا. واجتازوا في بلاده إلى بلاد ابن ليونالأرمني فسلكواها، وخرجوا إلى أنطاكية فحصروها. ولما سمع صاحبها - حاكمها - ياغي سيان بتوجههم إليها، خاف من النصارى الذين بها، فأخرج المسلمين من أهلها، ليس معهم غيرهم، وأمرهم بحفر الخندق.

ثم أخرج من الفد النصارى لعمل الخندق أيضاً، ليس معهم مسلم، فعملوا فيه إلى العصر . فلما أرادوا دخول البلد منهم ، وقال لهم : أنطاكية لكم تهواها لي حق أنظر ما يكون هنا ومن الفرنج . فقالوا له : من يحفظ أبناءنا ونساءنا . فقال : أنا أخلفكم فيهم . فامسکوا وأقاموا في عسكر الفرنج ، فحضروها تسعه أشهر .

أظهر ياغي سيان خلال فترة الحصار الطويل من الشجاعة ومن جودة الرأي والحزم والاحتياط ما لم يشاهد من غيره . فهلك أكثر الفرنج موتاً ، ولو بقوا على كثتهم التي خرجوا فيها لطبقوا بلاد الإسلام . وحفظ ياغي سيان أهل نصارى أنطاكية الذين أخرجهم ، وكف أيدي المطرقة إليهم . فلما طال مقام الفرنج على أنطاكية ، راسلوا أحد المستحفظين للأبراج - واسمه زراد ويعرف باسم بروزبه - وبذلوا له مالاً وإقطاعاً ، وكان يتولى حفظ برج يلي الوادي وهو مبني على شباك في الوادي ، فلما تقرر الأمر بينهم وبين هذا الملعون الزراد ، جاؤوا إلى الشباك ففتحوه ، ودخلوا منه ، وصعد جماعة كثيرة بالجلبال ، فلما زادت عدتهم على خمسة ، ضربوا البوق وذلك عند السحر ، وقد تعب الناس من كثرة السهر والحراسة . فاستيقظ ياغي سيان وسأل عن الحال ، فقيل له إن هذا البوق من القلعة ، ولا شك أنها ملكت ، ولم يكن صوت البوق من القلعة وإنما كان من ذلك البرج . فدخله الرعب ، وفتح باب البلد وخرج هارباً في ثلاثين غلاماً على وجهه . فجاء نائبه في حفظ البلد وسأل عنه فقيل له إنه هرب ، فخرج من باب آخر هارباً ، وكان ذلك معونة للفرنج ، ولو ثبت ساعة هلكوا . ثم إن الفرنج دخلوا البلد من الباب ونهبوا وقتلوا من فيه من المسلمين ، فما من أحد من الناس يستطيع أن يرتاد الشوارع دون أن تعر قدماه بالجثث التي لم تلبث أن تعفت بتأثير حرارة الصيف . وأما ياغي سيان فإنه لما طلع عليه النهار ، رجع إليه عقله ، وكان كالوهان ، فرأى نفسه وقد قطع عدة فراسخ . فقال لمن معه : أين أنا ؟ فقيل له : على أربعة فراسخ من أنطاكية ، فندم كيف خلص سلماً ولم يقاتل حتى يزيلهم عن البلد أو يقتل ، وجعل يتلهف ويسترجع على ترك أهله وأولاده والمسلمين ، فلشدة ما لحقه سقط عن فرسه مغشياً عليه ، فلما سقط على الأرض ، أراد أصحابه أن يركبوه ، فلم يكن فيه مسكة وقد

قارب الموت ، فترکوه وساروا عنه . واجتاز به إنسان أرمني كان يقطع الحطب ، وهو باخر رقم . فقتله ، وأخذ رأسه ، وحمله إلى الفرنج بأنطاكيه . وكان الفرنج قد كاتبوا صاحب حلب ودمشق بأننا لا نقصد غير البلاد التي كانت بيد الروم ، لا نطلب سواها . مكرأً منهم وخديعة حتى لا يساعدوا صاحب أنطاكيه .

لما سمع قوام الدولة كربوقا بحال الفرنج وملكتهم أنطاكيه ، جمع العساكر وسار إلى الشام . وأقام برج دابق ، واجتمعت معه عساكر الشام - تركها وعر بها سوى من كان بحلب - فاجتمع معه دفاق بن تتش وطعتكين أتابك - حكام دمشق - وجناح الدولة صاحب حصن ، وأرسلان تاش صاحب سنجار ، وسلمان بن أرتق ، وغيرهم من الأمراء من ليس مثلهم . فلما سمعت الفرنج ، عضمت المصيبة عليهم ، وخافوا لما هم فيه من الوهن وقلة الأقوات عندهم . وسار المسلمون فنازلوهم على أنطاكيه . وأساء كربوقا السيرة فيمن معه من المسلمين . وأغضب الأمراء وتكبر عليهم ظناً منه أنهم يقيمون معه على هذه الحال . فأغضبهم ذلك . وأضمروا له في أنفسهم الغدر إذا كان قتال ، وعزموا على التخلی عنه عند اللقاء . وأقام الفرنج بأنطاكيه بعد أن ملكوها اثنتي عشر يوماً . ليس لهم ما يأكلونه . وتقوت الأقواء بدواهم ، والضعفاء بالميته وورق الشجر ، فلما رأوا ذلك راسلو كربوقا يطلبون منه الأمان ليخرجوا من البلد . فلم يعطهم ما طلبوا وقال : « لا تخرجوا إلا بالسيف ». وكان معهم من الملوك بردويل وصنجيل - سانت جيل ريموند كونت تولوز - وكندفري - جودفري - والقمص صاحب الراها وبيمنت - بوهمند - صاحب انطاكيه وهو المقدم عليهم . وكان معهم راهب مطاع فيهم - اسمه بطرس بارثولوميو - وكان داهية من الرجال ، فقال لهم : إن المسيح عليه السلام كان له حرفة مدفونة بالقسيان الذي بأنطاكيه ، وهو بناء عظيم ، فان وجدتومها فإنكم تضفرؤن ، وإن لم تجدوها فالملاك متحقق . وكان قد دفن قبل ذلك حرفة في مكان فيه وأخفى أثراها . وأمرهم بالصوم والتوبة . ففعلوا ذلك ثلاثة أيام . فلما كان اليوم الرابع أدخلتهم الموضع جميعهم ومعهم عامتهم والصناع منهم . وحفروا في جميع الأماكن ، فوجدوها كما ذكر . فقال لهم : أبشروا بالظفر . فخرجوا في اليوم الخامس من الباب متفرقين - من خمسة أو ستة ونحو ذلك -. فقال المسلمون لكربوقا : ينبغي

أن تقف على الباب، فتقتل كل من يخرج، فإن أمرهم الآن وهم متفرقون سهل. فقال: لا تفعلوا، أمهلوهم حتى يتكمّل خروجهم فنقتلهم. ولم يكن من معاجلتهم. ونهض إليهم قوم من المسلمين فقتلوا جماعة من الخارجين فجاء إليهم هو بنفسه ومنعهم ونهض إليهم. فلما تكمّل خروج الفرنج، ولم يبق بأنطاكية أحد منهم، ضربوا مصافاً عظيماً. فولى المسلمون منهزمين لما عاملهم به كربوقاً أولاً من الاستهانة لهم والاعراض عنهم، وثانياً من معنهم عن قتل الفرنج، وقت المهزيمة عليهم، ولم يضرب أحد منهم بسيف ولا طعن برمح ولا رمي بسهم. وكان آخر من انهزم سقمان بن أرتق وجناح الدولة لأنهما كانوا في الكمين، وانهزم كربوقاً معهم. فلما رأى الفرنج ذلك ظنوه مكيدة، إذ لم يجر قتال ينهزم من مثله، وخافوا أن يتبعوهم. وثبت جماعة من المجاهدين. وقاتلوا حسبة وطلبوا للشهادة، فقتل الفرنج منهم ألفاً، وغنموا ما في معسكر المسلمين من الأقوات والأموال والأثاث والدواب والأسلحة. فصلحت حائم، وعادت إليهم قوتهم^(١)

أصبح باستطاعة الفرنج الصليبيين التقدّم إلى القدس بعد أن زالت العقبة الرئيسية التي كانت تجاههم. وواجهت الفرنج مشكلة صعبة. فقد اتفقوا على احتلال أنطاكية، وبذل قادتهم وأمرائهم حين الطاعة للإمبراطور البيزنطي بأن يعيشوا إليه أنطاكية فور احتلالها، ولكن مما عانوا لهم ذلك حتى ظهر بوهمند النورماندي - وهو أمير وأبرز جندي صليبي - من عائلة هوتفيل - نزوعه للاستقلال بإماراة أنطاكية. بحيث أنها تشكّل مع صقلية التي هي تحت حكم النورمان. مملكة واحدة. لا تدين بالولاء لدولة الروم - البيزنطيين. لاسيما وأن الإمبراطور البيزنطي لم يقدم دعماً حقيقياً للفرنج من أجل الاستيلاء على أنطاكية.

هكذا نصب بوهمند (أو بيمند كما تذكره المصادر العربية) نفسه كونتاً أو أميراً على أنطاكية، وذلك بفضل ما توافر له من القوة. فانصرف لتوطيد مركزه. ولم يكن ثمة ما يجعله يخشى الترك المسلمين في الوقت الراهن على الأقل. فوجّه جهده الرئيسي ضد الروم البيزنطيين، إذ كان يعلم أن الإمبراطور البيزنطي لن يغفر له أبداً استقلاله

(١) الكامل في التاريخ - احداث سنة ٤٩١ . وتاريخ الحروب الصليبية: ٣٠٣/١ - ٣٥٦ .

بحكم انطاكية، وانه لن يشعر بالأمن والطمأنينة طالما أن بحوزة الامبراطور البيزنطي أقوى أسطول في شرق البحر المتوسط ، بالإضافة لامتلاكه ميناء اللاذقية والواقع الى الجنوب من انطاكية . فقرر بوهمندي أن يجسم الأمر ، فتوجه لمهاجمة اللاذقية . وتحرك اسطول الروم بسرعة أكبر ، وكادت تقع الحرب بين أمير انطاكية بوهمندي من جهة وبين قوات الروم من جهة ثانية . غير أن أمراء الفرنج ورعبانهم تدخلوا للتوافق بين طرف في الصراع . وأمكن تجاوز الأزمة .

أصبح باستطاعة بوهمندي توجيه جهده لتوطيد مركز إمارته على حساب المسلمين وببلادهم . وجاءته الفرصة عندما طلب إليه أرمن ملطية المساعدة ، بعد أن كان بوهمندي قد وطد مركزه على الطرف الجنوبي الشرقي الواقع وراء نهر العاصي ، عندما أحبط هجوماً قام به أمير حلب - رضوان - فقرر التوجه لدعم أرمن ملطية الذين تعرضوا لهجمات أمير سيواس (غازي جشتكين - أنوشتكين الدانشمند) . ولكنَّه عمل قبل مغادرة أنطاكية على اتخاذ الاجراءات الوقائية في أنطاكية ذاتها ، حتى لا تخُرُّج على إرادته . فقد علم أن بطريرك أنطاكية يوحنا الرابع يحيل إلى تشجيع الأرثوذكس في بطريركيته على أتمِّ الحلاص على يد امبراطور الروم - البيزنطيين - . فطردَه بوهمندي من المدينة . وعِنْ مكانه بطريرك من اللاتين . اسمه برثارد فالنس . فتمكن بذلك من إحداث صدْع لا يحير بين الكنيسيتين اليونانية واللاتينية .

وسار بوهمندي ومعه خمسة آلاف مقاتل (سنة ٤٩٤ هـ = ١١٠٠ م) حتى إذا ما اقترب من ملطية ، لقيهم أنوشتكين الدانشمند ، فانهزم بوهمندي وأسر وأصبحت انطاكية بدون حاكم .

ووصل من البحر سبعة قوامص من الفرنج وأرادوا تحرير بوهمندي ، فتقدموه إلى قلعة أنكورية فاستولوا عليها وذبحوا من بها من المسلمين وساروا إلى قلعة أخرى كان يدافع عنها إسماعيل بن الدانشمند وحصرواها . فجمع ابن الدانشمند جمعاً كثيراً ولقي الفرنج ، وجعل له كميناً ، وقاتلهم . وخرج الكمين عليهم فلم يفلت أحد من الفرنج ، وكانوا ثلاثة ألف ، غير ثلاثة آلاف هربوا ليلاً ، وأفْلَتُوا مجردين . وسار ابن

الدانشمند إلى ملطية فملكها وأسر صاحبها. ثم خرج عليه عسکر الفرنج من انطاكيه فلقيهم وكسرهم.

وبقي أمير أنطاكيه بوهمند أسيراً في قبضة المسلمين لمدة سنتين، ثم أطلق سراحه مقابل فدية قدرها مائة ألف دينار وبشرط اطلاق سراح ابنة ياغي سيان الحاكم السابق لأنطاكيه، والتي وقعت في أسر بوهمند عندما استولى الفرنج على المدينة^(١).

بقيت إمارة أنطاكيه أغنى إمارات الفرنج وأكثرها أمناً وطمأنينة، فعلى الرغم من أنها لم تضم مساحة كبيرة من الأرض، ولم تتجاوز حدودها سهل أنطاكيه والوادي الأسفل لنهر العاصي وسلسلة جبال الأمانوس وميناء الاسكندرونة بالإضافة إلى ميناء السويدية، إلا أن مدينة أنطاكيه ذاتها كانت مدينة وافرة الثروة. ولم تؤثر فيها كثيراً الاضطرابات والخروب، فاستمرت مصانعها الشهيرة بانتاج المنسوجات الحريرية والبسط والزجاج والفحار والصابون. وما نشب من حروب بين المسلمين والفرنج الصليبيين لم يمنع القواقل التجارية القادمة من حلب والجزيرة من اجتياز أبواب أنطاكيه في طريقها إلى البحر الأبيض المتوسط. وكان سكان المدينة بعد ذبح المسلمين، من المسيحيين فقط، فكان منهم اليونانيين والسريان الأرثوذكس والسريان اليعاقبة وفئة قليلة من النساطرة، غير أنه اشتد بينهم من الحقد والكراهة ما يسر للنورمان ضبطهم والسيطرة عليهم. ولكن المسيحيين الأرثوذكس بداخل أنطاكيه حرصوا على متابعة التحرير لإعادة انطاكيه لحكم الروم البيزنطيين، بينما تابع بوهمند دوره في تحريض الأرمن والمسيحيين اليعاقبة ضد دولة الروم. ما إن رجع بوهمند من الأسر، ووصل إلى حاضرته أنطاكيه، حتى أخذ في الاعداد لحرب المسلمين، وتحالف مع جيش الراها، وتوجهت جيوش الفرنج الصليبيين سنة ٤٩٧ هـ = ١١٠٤ م لقتال المسلمين حيث وقعت معركة كبيرة على نهر البليخ، انتصر فيها المسلمون انتصاراً حاسماً. ولكن جيش

(١) الكامل في التاريخ - أحداث سنة ٤٩٣ و ٤٩٥.

انطاكية خرج من المعركة سالماً ، فقد هرب من القتال ولم يخسر من قوته شيئاً ووقع
ثقل المعركة بكماله على جيش الراها .

تجدد الصراع بين أنطاكية والقسطنطينية ، فقد عمل بوهمند على قيادة جيشه - من النورمان - وتوجه لغزو بلاد الروم ، ولكن جيش الروم نجح في تطويق بوهمند وجيشه أمام حصن دورازو - وهو مفتاح شبه جزيرة البلقان - وتبع ذلك إجراء مفاوضات انتهت بمعاهدة (ديغول سنة ١١٠٨ م) والتي أقرت البقاء على بوهمند أميراً على انطاكية - بشرط أن يحكمها تحت سيادة الامبراطور البيزنطي . وتشمل ولاية بوهمند : أنطاكية ذاتها وميناءها السويدية ، وما يقع إلى الشمال الشرقي من البلاد حتى مرعش ، فضلاً عن كل ما يغمره من البلاد من أيدي أمراء حلب وسائر الإمارات الداخلية في بلاد الشام ، مع إعادة مدن قليقية وساحل اللاذقية لسلطة امبراطور الروم .

تابعت أنطاكية بعدئذ أعمالها العدوانية ضد أقاليم المسلمين ، وانطلق جيشه في هجمات منظمة حتى فرض سيطرته على وادي العاصي ، وحتى بات يتهدد حلب ، بعد أن انتصر على المسلمين بهجوم مباغت في معركة تل دانث (سنة ٥٠٩ هـ = ١١١٥ م) . وجاء رد فعل المسلمين سريعاً ، لاسيما بعد أن استولى جيش أنطاكية على بزاغة (سنة ٥١٣ هـ = ١١١٩ م) فعمل ايلغازي على حشد جموع التركمان والأكراد والقبائل العربية الضاربة ببادية الشام ، وسار بهم للقاء الفرنج حيث دارت المعركة عند تل عفرين - وهي المعركة التي اشتهرت عند الفرنج باسم (معركة ساحة الدم)^(١) والتي أوجزت وصفها المصادر العربية بقولها :

« سار الفرنج إلى نواحي حلب ، فملكوا بزاغة وغيرها ، وأخبروا بلاد حلب

(١) معركة ساحة الدم : (AGER-SANGUINIS) . وقد ورد وصف أحدها بصورة تفصيلية في الكامل في التاريخ - أحداث سنة ٥١٣ هـ - وفي تاريخ الحروب الصليبية : ٢٣٤/٢ - ٢٤٣ . وقد أثارت المعركة انفعالاً مثيراً في أوساط المسلمين والفرنج على السواء . ومدح العقيمي حاكم حلب - ايلغازي - بقصيدة طويلة جاء فيها :

قتل ما تشاء فقولك المقبول
وعليك بعد الخالق التعويل
وابشِر القرآن حين نصرته
وبكى لقد رجاله الانجيل

ونازلوها ، ولم يكن بحلب من الذخائر ما يكفيها شهراً واحداً . وخفهم أهلها خوفاً شديداً ، ولو مكنوا من القتال لم يبق بها أحد . لكنهم منعوا من ذلك ، وصالح أهل حلب الفرنج على أن يقاسموهم أملاكهم التي بباب حلب وأرسل أهل حلب إلى بغداد يستغيثون ويطلبون النجدة ، فلم يغاثوا . وكان الأمير ايلغازي صاحب حلب ببلد ماردين ، يجمع العساكر والمتطوعة للغزاة ، فاجتمع عليه نحو عشرين ألفاً . فلما علم الفرنج ، وكانوا ثلاثة آلاف فارس وتسعة آلاف راجل ، ساروا فنزلوا قريباً من الأثارب ، بموضع يقال له تل عفرين ، بين جبال ليس لها طريق إلا من ثلاث جهات يبعد عن حلب خمسة عشر ميلاً لا أكثر . وظن الفرنج أن أحداً لا يصل إليهم لضيق الطريق ووعورته ، فأخلدوا إلى المطاولة والمحاطة ، وكانت عادة لهم إذا رأوا قوة من المسلمين . وراسلوا ايلغازي يقولون : « لا تتعب نفسك بالمسير إلينا ، فنحن واصلون إليك » . فأعلم ايلغازي أصحابه واستشارهم فيما يفعل ، فأشاروا بالركوب من وقته ، وقصدتهم . ففعل ذلك وسار إليهم ، ودخل المسلمين من الطرق الثلاثة . فلم يشعر الفرنج إلا وأوائل المسلمين قد غشيمهم ، فحمل الفرنج حلة منكرة ، فانهزم المسلمون ، فلقوا باقي العساكر متتابعة ، فعادوا معهم ، وجرى بينهم وبين الفرنج حرب شديدة . وأحاطوا بالفرنج من جميع جهاتهم ، وأخذهم السيف من سائر نواحיהם ، فلم يفلت منهم غير نفر يسير . وقتل الجميع وأسرموا . وكان في جملة الأسرى نيف وسبعين فارساً من مقدميهم حلوا إلى حلب . فبدلوا في نفوسهم ثلاثة ألف دينار ، فلم يقبل منهم ، وغم المسلمين منهم الغنائم الكثيرة . وقتل أمير أنطاكية - روجر - وحمل رأسه إلى حلب . وأسرع ايلغازي ففتح حصن (أرتاح) وانتزعه من قبضة الفرنج ، ثم فتح حصن زرданا . وتابع إغاراته على أراضي أنطاكية ، مما دفع كونت طرابلس للتحرك بسرعة من أجل إنقاذ أنطاكية . وخاض جيش طرابلس معركة طاحنة (معركة هاب) تعرض فيها للخسائر الكبيرة ، وعاد ايلغازي إلى عاصمته حلب وقد جرّ وراءه رتلًا من الأسرى . لكن أنطاكية بقيت في قبضة الفرنج » .

لم تكن هذه الأحداث بمجموعها أكثر من سطور قليلة في بداية ملحمة الصراع الطويل الذي استمر زهاء مائة وسبعين عاماً . ولقد تطور هذا الصراع بصورة ثابتة .

فكل عمل استفزازي يقوم به الفرنج في انطاكيه يرد عليه المسلمين بعنف أكبر . وقد حدث على سبيل المثال أن قام أمير انطاكيه - بوهمند الثاني - بقيادة هجوم للاستيلاء على (عين زربة) سنة ٥٢٥ هـ = ١١٣٠ م . فانقض عليه المسلمين التركمان ، وذبحوه وأبادوا قواته . فتولت ابنته - أليس - الحكم ، وأرسلت إلى عمار الدين زنكي في حلب رسولاً مع هدية ، وأعلنت عن استعدادها للخضوع لحكم زنكي إذا تعهد ببقاء انطاكيه في حوزتها . لكن ملك القدس تدخل وأوقف عقد هذا الاتفاق الذي لم يكن إلا برهاناً جديداً على فاعلية الاسلوب - أو النهج - الذي أخذ به المسلمين للرد على التحدي بتحد أكبر ، وعلى العدوان بعدوان أشد وأقوى . ولم يكن صراع المسلمين ضد الفرنج هو صراع عسكري معزول عن عامله الديني (العقائدي) . وقد استثمر الفرنج تفرق الكلمة المسلمين للاستيلاء على انطاكيه ، ومنها إلى سائر بلاد الشام . فقام المسلمين بعذئذ بممارسة الدور ذاته وقد عرّفوا ما بين الفرنج ذاتهم من اختلاف وعداء ، وأخذوا في ضرب بعضهم البعض لاستخلاص المكاسب . وأدرك قادة الفرنج - ملوكهم وأمراءهم - ما يمثله ذلك من خطر على وجودهم . فحاولوا بذلك كل جهد مستطاع لتجنب الصراع فيما بينهم ، وتوجيه الجهد الصليبي بكامله ضد المسلمين . ومارس رجال الكنيسة دورهم للتوفيق بين الأطراف المتصارعة أحياناً ، ولاذكاء الخلاف والصراع في أحياناً أخرى وفقاً لما كانت تتطلبه مصالحهم . وأخذ الصراع يتكمّل في إطار جبهة إسلامية واحدة ضد جبهة صليبية متكمّلة .

وقد بدأ عمار الدين زنكي وابنه نور الدين زنكي العمل من أجل توحيد الجبهة الإسلامية . فقام الفرنج بالرد على ذلك في تنظيم جهد الجبهة الصليبية الموحدة . وهذا ما ظهر سنة ٥٣٢ هـ = ١١٣٧ م ، عندما هاجم المسلمين أنطاكيه ، فأرسل حاكماها نداء استغاثة عاجل إلى ملك القدس (فولك) وإلى كونت طرابلس (ريموند) . فتحرك فولك بسرعة نحو الشمال ، وانضم إليه جيش طرابلس . وسارّت قوات الفرنج مجتمعة . وطافت حول سفوح تلال النصيريّة حتى بلغت (حصن بعرین) . وباغتهم المسلمون بالهجوم ، واستتبّل الفرنج في القتال ، غير أن المعركة لم تلبّي أن انتهت لصلحة المسلمين . ولقي معظم جند الفرنج مصرعهم على أرض المعركة . ووقع في الأسر

آخرون - منهم كونت طرابلس - بينما هرب فولك وحرسه الى حصن بعرین . وألقى عهاد الدين زنكي الحصار على هذا الحصن ، ونصب عليه عشرة مجانق تهدف أسوار القلعة ليلاً ونهاراً . وأسرع جيش أنطاكية وجيش الراها ، غير أنها لم يتمكنوا من التدخل . ووافق ملك القدس - فولك - على تسليم الحصن للمسلمين مقابل السماح له بالانسحاب ، فعاد إلى القدس وهو يجر أذیال الخيبة ، ويتجرجع مرارة الهزيمة .

لقد أخذت القوات الإسلامية بالتعاظم ، وبات من المحال ايقاف تطورها . ولقد جاءت الحملات الصليبية المتالية في محاولة لايقاف المد الإسلامي المتزايد . غير أن ملامح النهاية الحتمية لهذا الصراع بدت واضحة تماماً للطرفين للمتصارعين ، ولم تعد القضية للوصول إلى هذه النهاية أكثر من قضية زمن . وقد يكون بالمستطاع تجاوز أحداث الصراع المرير والطويل للوصول بقفزة واحدة إلى ما حدث عند وصول المغول التتار الى بلاد الشام .

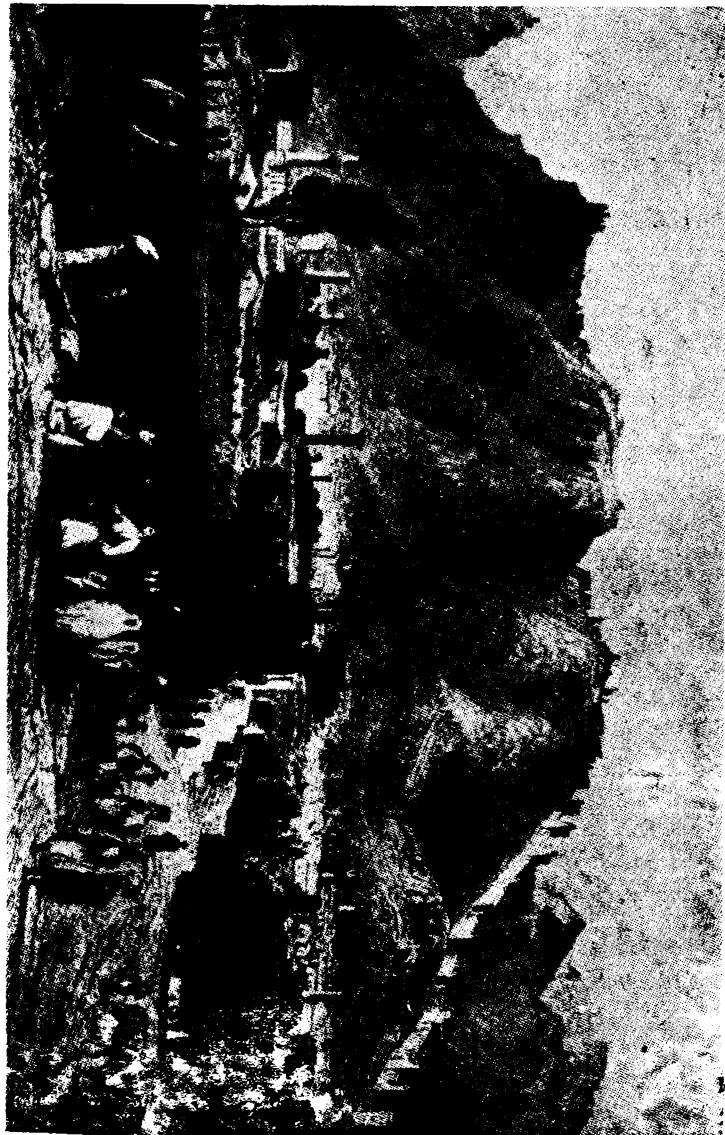
فقد تحالف الفرنج في أنطاكية والراها مع المغول ، وساروا في ركبهم ، واقتحموا معهم مدن بلاد الشام ، حتى إذا ما أسفرت معركة (عين جالوت) عن انتصار المسلمين ، جعل السلطان الظاهر بيبرس هدفه الأول هو في إزال العقاب الحق والجزاء العادل بانطاكية - وأميرها بوهمند - لقاء ما قدمه هذا للمغول من المساعدة . فأرسل في سنة ٦٦٠ هـ = ١٢٦١ م جيشاً للإغارة على أملاك أنطاكية ، وتكررت الغارات في صيف السنة التالية ، و تعرض ميناء السويدية للنهب والتدمير ، وجرى تهديد أنطاكية ذاتها ، فاستنجد كونت أنطاكية بقائد المغول - هولاكو - الذي أرسل قواته في الوقت المناسب لإنقاذ أنطاكية . فانصرف بيبرس لحرب الفرنج في بلاد الشام ، غير أنه عاد سنة ٦٦٥ هـ = ١٢٦٦ م فأرسل قواته لمهاجمة أنطاكية ، وأظهر قادته تهاوناً مما أثار غضب بيبرس ودفعه لاتخاذ قراره بقيادة حملة يتولى هو قيادتها . ونفذ قراره في السنة التالية ، فقد جيشه ، ووصل أنطاكية ، وقسم قواته الى ثلاثة جيوش ، توجه واحد منها إلى السويدية ، وعزل أنطاكية عن البحر ، وتوجه الجيش الثاني إلى دروب الشام لمنع وصول أي دعم من قليقية إلى أنطاكية ، بينما تولى بيبرس ذاته قيادة الجيش الثالث

الذى حدد له مهمته بمحصار انتاكية ذاتها وتطويقها . وكان أمير - كونت - انتاكية في طرابلس يوم وقع هجوم المسلمين . وكان العمل في إصلاح أسوار المدينة وتحصيناتها قد اكتمل ، غير أن الحامية المدافعة عن انتاكية لم تكن كافية لشحن أسوارها المتدهة . وزاد من ضعف هذه الحامية ما قام به قائدتها - الكندسطبل سيمون مانسل - عندما قاد قواته إلى خارج المدينة لمهاجمة المسلمين ، حيث لم يلبث أن وقع أسرًا في قبضة المسلمين الذين أمروه بتدبير أمر استسلام الحامية . ولكن نوابه داخل الأسوار رفضوا إطاعة أوامره . فقام المسلمين - الماليك - بأول هجوم لهم في اليوم التالي ، غير أن حامية المدينة تمكنت من صده وإحباطه . فاستؤنفت المفاوضات من جديد ، ولكن هذه المفاوضات لم تصب النجاح المطلوب . فشنّ المسلمون هجوماً عاماً في مستهل شهر جادي الثاني سنة ٦٦٦ هـ (١٨ - أيار - مايو - سنة ١٢٦٨ م) وشمل الهجوم القطاعات جميعها ، واشتد القتال ، ثم حدثت ثغرة في الأسوار المتدهة على منحدر جبل سليوس . وتدفق المسلمون إلى داخل المدينة . وبات من العسير كبح جاح الغضب المتفجر ، لقد حانت ساعة الثأر وأزف موعد الانتقام لإنزال العقاب العادل . ودارت رحى مذبحة بلغت من القسوة ما صدم المؤرخين المسلمين أنفسهم ، ولم ينافسها في قسوتها إلا المذايغ التي قام بها الفرنج يوم اقتحموا انتاكية وأبادوا مسلميها . فبناء على أمر الظاهر بيبرس ، تقرر إغلاق أبواب المدينة حتى لا يهرب أحد من السكان ، وتم قتل الفرنج بالشوارع على الفور ، أما الآخرون الذين لزموا بيوتهم فقد وقعوا في أسر المسلمين ، على أن ألوفاً من السكان هربوا مع عائلاتهم إلى القلعة الضخمة الواقعة على قمة الجبل . فتقرر الابقاء على حياتهم . وجمعت الغنائم ، فحاز المسلمون مقادير كبيرة من الذهب والفضة والخلي . وكان عدد الأسرى من الوفرة بحيث بيع الغلام الصبي باثني عشر درهماً .

لقد ماتت انتاكية الفرنج الصليبيين وتم تدميرها ، ومات معها كيان الفرنج في شمال بلاد الشام . وكان انهيار بناء الفرنج في انتاكية لطمة عنيفة للصلبيين بقدر ما كان أيضاً لطمة عنيفة للمغول التتار . إذ لم يعد باستطاعة انتاكية مطلقاً تحريض المغول الذين شكلوا في تلك المرحلة خطراً على المسلمين لا يقل عن خطر الفرنج . ولما كانت

أنطاكية هي مقر كل من الكنسيتين الارثوذكسيّة واليعقوبيّة، فانه لم يبق أمام بطاركة الكنسيتين المذكورتين إلا الانتقال إلى دمشق.

لقد كانت انطاكية أول امارة - كونتية - أقامها الفرنج الصليبيون في بلاد الشام لتكون حجر المرتفق في طريق الفرنج، إلى القدس وسائر بلاد الشام. فكان استعادة المسلمين لها وطرد الفرنج منها، هو بداية تصفيّة مرتکزات الفرنج وقواعدهم على ساحل بلاد الشام. واحتفظت انطاكية ببعض الحجارة - الآثار - التي تذكر بحدائق الفرنج الصليبيين وجراهم وما أعقب ذلك من أعمال انتقامية أزالت من النفوس، ومن على الأرض، ما خلفه الفرنج من جراحات في كيان الأمة الإسلامية.

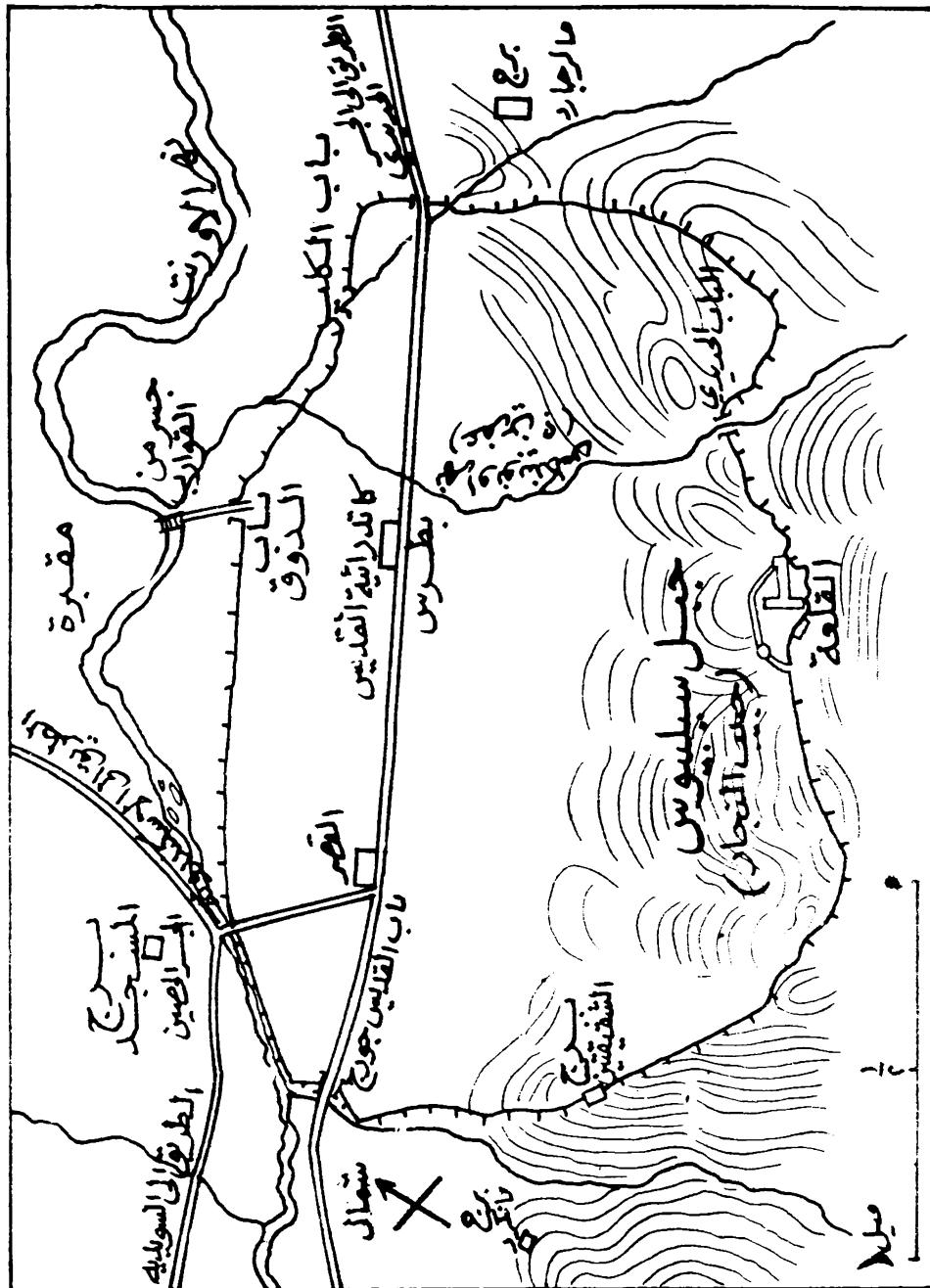


ANTIOCH FROM ACROSS THE RIVER' ORONTES

The fortified bridge is in the foreground. The section of the wall where the Crusaders entered the city is on the right, on the slope behind the city buildings.

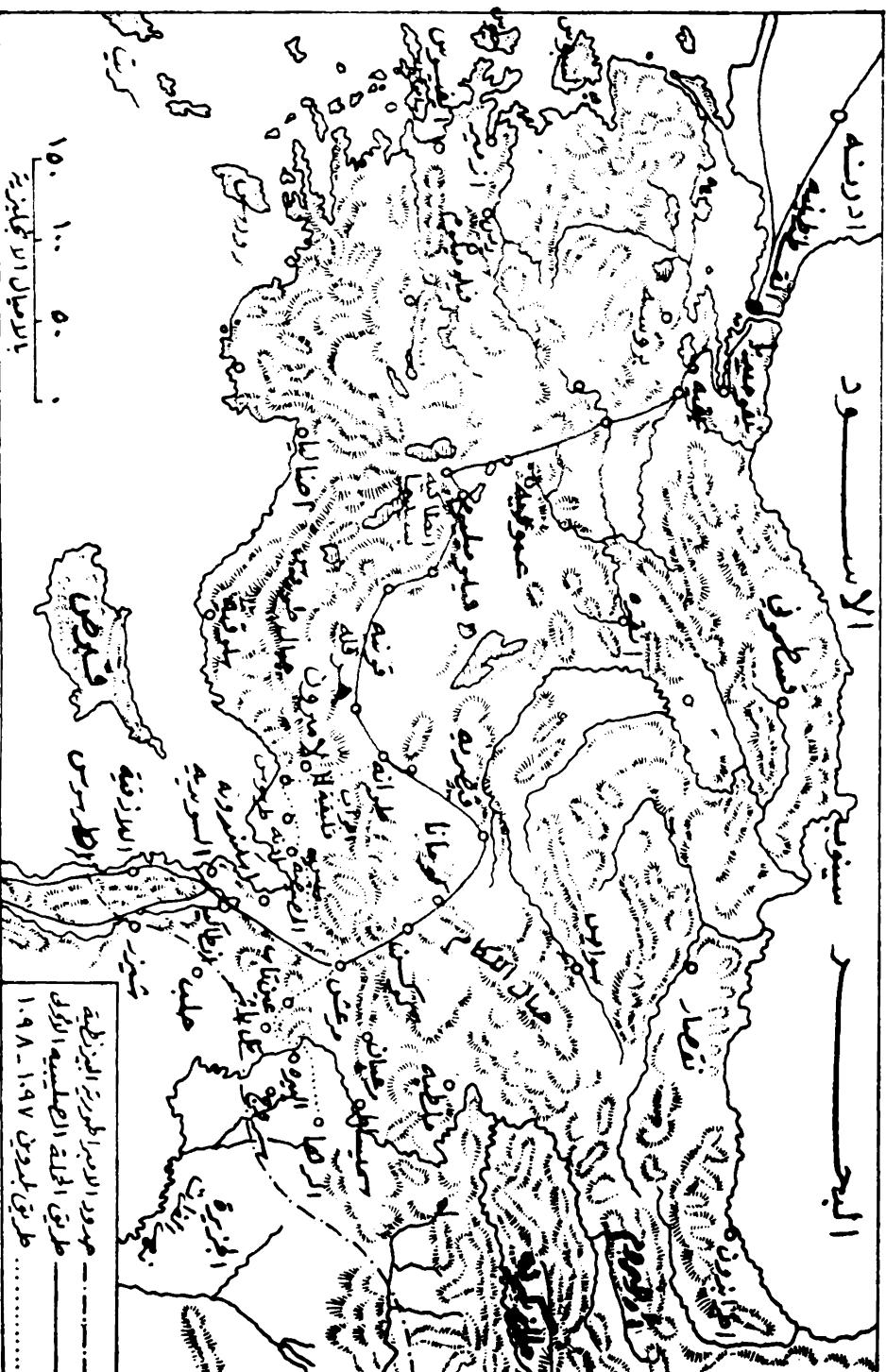
انطاكية ونهر الأورنت (الماصي)

الطبعة الأولى

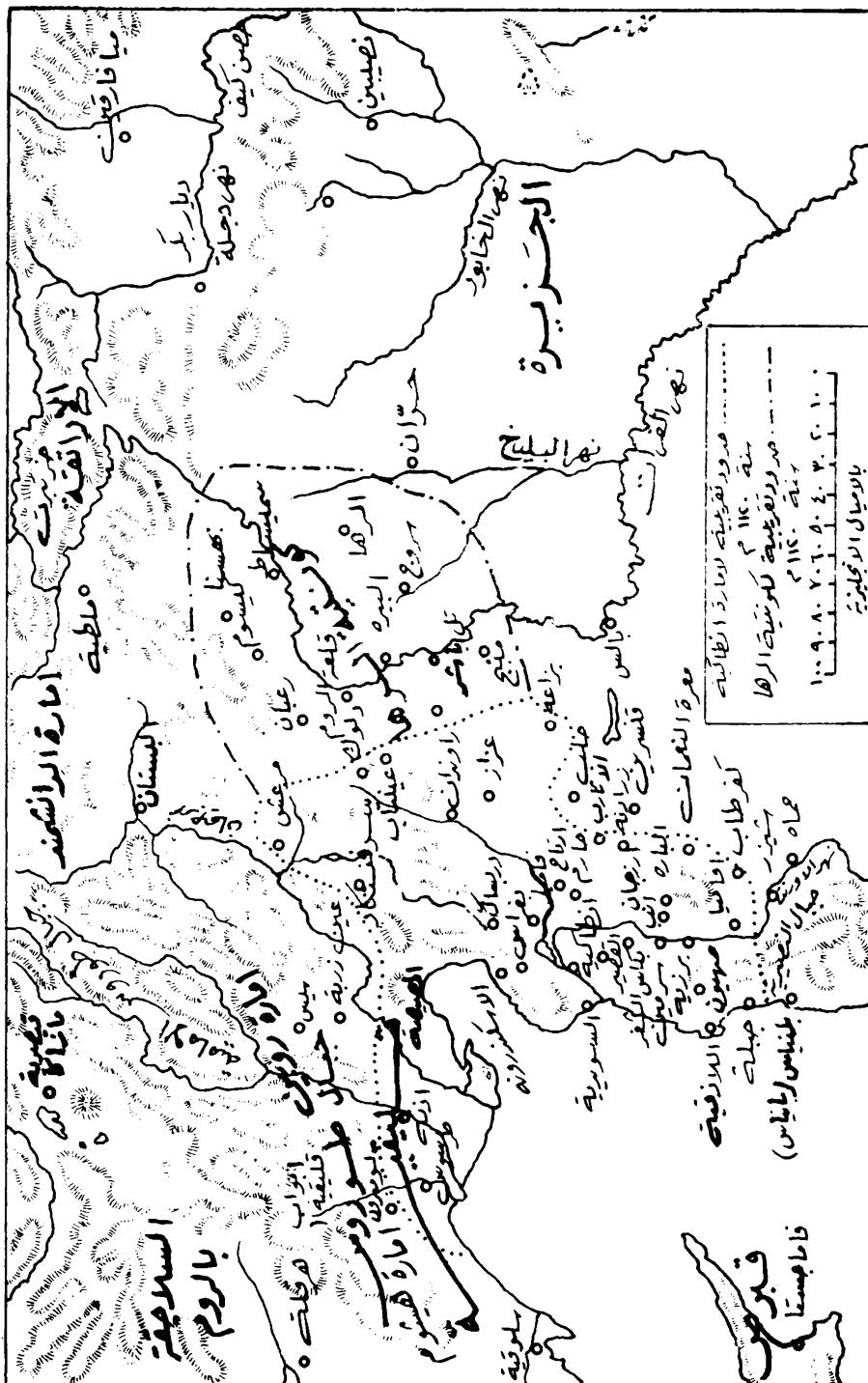


آسيا الصغرى زمن الحمولة الصناعية الأولى

— محمد الدميري البينطية
— طرق الحلة الصلبية الأولى
طريق بورون ١٩٨ - ١٩٧



أ- شمال الشام في القرن الثاني عشر الميلادي



٢ - الرهاء .

كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى عامله وقائد جنده في العراق - سعد بن مالك بن أبي وقاص رضي الله عنها : « سرح سهيل بن عدي إلى الجزيرة في الجندي ولبيات الرقة . فإن أهل الجزيرة هم الذين استشاروا الروم على أهل حصن . وإن أهل قرقيساء لهم سلف . وسرح عبدالله بن عبد الله بن عتبان إلى نصبيين ، ثم لينضضا حران والرهاة . وسرح الوليد بن عقبة على عرب الجزيرة من ربعة وتنوخ . وسرح عياضًا - ابن غنم - فإن كان قتال فقد جعلت أمرهم جميعاً إلى عياض »^(١) . وكان ذلك ردًا على هجوم الروم الكبير سنة ١٧ هـ = ٦٣٨ م . وهو الهجوم الذي تعاون فيه الروم مع عرب الجزيرة ، فوصلوا حتى مدينة حمص . وسار المسلمون ففتحوا الجزيرة ثم تقدموا في أرمينية ، فنزل عياض بن غنم على (الرهاء) فصالحه أهلها على الجزيرة ، وفتح المسلمون حران على مثل صلح الرهاة . وفتح المسلمون نصبيين ورأس العين . فخضعت (أرمينية)^(٢) للMuslimين . وقد حاول الروم إخراج المسلمين من أرمينية (سنة ٢٤ هـ = ٦٤٤ م) فحشدوا جيشاً من مائة ألف مقاتل من الروم والترك - بقيادة الموريان الرومي - فوجه أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضوان الله عليه جيشاً من الشام بقيادة حبيب بن مسلمة وأخر من العراق بقيادة سليمان بن ربعة الباهلي . فتم للعرب المسلمين تدمير تجمع الروم ، وفتح المسلمون أرمينية . ووصلت قواتهم إلى باب الأبواب (باكو

(١) تاريخ الطبرى ، والكامل في التاريخ ، أحداث سنة ١٧ هـ .

(٢) كانت أرمينية يوم فتحها العرب المسلمين تنقسم إلى أربعة أقاليم من الشرق إلى الغرب ، وتحمل تسلسلاً بالأرقام ، فأرمينية الأولى تضم شمشاط وقليقلاً وخلاط وأرجيش وباجنس . وتضم أرمينية الثانية السفرجان ودبيل وسراح طير وبغرونن . أما أرمينية الثالثة فكانت تضم جرزان . وتضم الرابعة السيسجان وأران . وكانت أرمينية الأولى والثانية تحت حكم الخزر . أما الثالثة والرابعة فكانتا تحت حكم الروم (البلاذري ص: ١٩٨) .

حالياً على بحر قزوين) ووصلت إلى تفليس. وخضعت أرمينية بكمالها لحكم العرب المسلمين.^(١)

كانت تلك هي البداية فقط لقصة الصراع الطويل بين المسلمين والروم على أرض أرمينية. فكانت ثغور المسلمين المتقدمة (العواصم) على أرض أرمينية هي: شمشاط وملطية وطرنده ومرعش وزبطرة والحدث وسواها ، والتي باتت برهاناً على استقرار الفتح العربي - الإسلامي في أرمينية، وثبات جذوره. وأما الرها فلم تكن إلا ثغراً من هذه الثغور التي طالما تعرضت لهجمات الروم وإغاراتهم الكثيرة ، والتي كان منها على سبيل المثال هجوم الروم سنة ٣٢١ هـ = ٩٤٢ م ووصولهم إلى الرها ثم رجوعهم عنها . وكذلك هجومهم سنة ٣٣٦ هـ = ٩٤٧ م وتهديدهم للرها ، ومجوبيهم بعدئذ سنة ٣٦١ هـ = ٩٧١ م واحتلالهم للرها ونهبها وتدمرها ، بالإضافة إلى استيلائهم على أرزن وميافارقين ونصيبين حيث قتلوا من المسلمين وسبوا ، وعملوا بعدها على طلب منديل . كان في كنيسة الرها ثم استقر في دار الخلافة . وزعموا أن السيد المسيح كان قد مسح وجهه به ، فارتسمت صورته فيه ، وذلك مقابل إطلاق سراح أسرى المسلمين الذين تم سبيهم جميعاً . ووافق الخليفة العباسي على الطلب وأرسل المنديل لهم ، فأطلق الروم سراح من بآيديهم من أسرى المسلمين ، فرجعوا إلى بلادهم . غير أن الروم قاموا بهجوم كبير سنة ٤٢٣ هـ = ١٠٣١ م ، وأفادوا من انقسام العالم الإسلامي بين الشيعة الفاطميين في مصر والشيعة في بغداد والشرق . فاستولوا على الرها ، وضموها إلى ممتلكاتهم . ويظهر أن ملك الأرمن قد شعر بضعف موقعه ، فقام بتسلیم عاصمة بلاده (آنی) للروم البيزنطيين سنة ٤٣٧ هـ = ١٠٤٥ م وذلك مقابل الحصول على بعض الضياع - القرى - بجبال طوروس . وقد صحبه إلى موطنه الجديد عدد كبير من الأرمن . وترتب على ذلك أن بات حصن الرها عرضة للهجوم في كل سنة . وقد تولى التركان - السلاجقة بقيادة ألب أرسلان ، أعباء الأعمال القتالية ضد الروم بهدف الحد من نزعاتهم العدوانية وما لبث السلاجقة طويلاً حتى بسطوا نفوذهم على أرمينية . وكان

(١) تاريخ الطبرى ، والكامل في التاريخ - أحداث سنة ٢٤ هـ .

فتح الترك - السلاجقة لأرمينية - أو بالأحرى إعادة فتحها - بمثابة لطمة عنيفة للتحالف البيزنطي - الفاطمي الذي كان هدفه اضعاف حكم السنة والخلافة الإسلامية ببغداد. وأدى ضعف هيمنة الروم البيزنطيين على أرمينية إلى تحرك الأرمن من جديد، فخرج أحد أقارب الامبراطور البيزنطي (روбин) على حكم الامبراطور، واستقر في التلال الواقعة إلى الشمال الغربي من قليقية. في حين ظهر زعيم أرمني آخر (اسمه أوشين ابن هيثوم) فأقام إمارة له غرب الإمارة السابقة، وعلى مسافة غير بعيدة عنها. ومارس كل من (آل روبين) و(آل هيثوم) دوراً مميزاً في الصراع الذي سيقع بعد فترة قريبة، عندما سيصل الفرنج الصليبيون إلى المشرق. غير أنه طمس اسم روبين وهيثوم اسم زعيم أرمني آخر هو (بهرام) أو فيلارتيوس كما تذكره مصادر الروم البيزنطيين، والذي استولى على طرسوس والمصيصة وعين زربة والرها وأنطاكية، وأصبح أمراء آل روبين وآل هيثوم من أتباعه.

ولم يكن باستطاعة الاتراك - السلاجقة - تجاهل هذه القوة المتعاظمة التي باتت تهدد أقاليمهم المجاورة. فاجتاحتوا أرمينية سنة ٤٥٨ هـ = ١٠٦٥ م. ووّقعت بعد سنتين معركة ملازكرد (٤٦٠ هـ = ١٠٦٧ م) التي سجل فيها المسلمون انتصارهم الرائع، والتي كان من نتيجتها اخضاع أرمينية بكمالها لحكم المسلمين. وإعادة فتح الرها. ومارس الأرمن إدارة بلادهم تحت إشراف المسلمين. وأقامت حامية تركية في الرها للمحافظة على الأمن في هذا الأقليم المصطرب. وبقي الأرمن في الرها كما في غيرها نهباً لولاء مزدوج، بين الولاء للترك المسلمين الذين ضمنوا لهم الحماية والاستقلال الإداري، وبين التبعية للروم بحكم الخصوص للكنيسة الارثوذكسية، غير أنهم لم يكونوا في الحالين بمعزل عن التحريض الصليبي القادم من الغرب. وقد جاء به الأرمن موقفاً حرجاً سنة ٤٨٣ هـ = ١٠٩٠ م. عندما توفي بهرام - أو فيلارتيوس - الذي نجح في إقامة كيان شبه مستقل للأرمن، فتمزقت إمارة أرمينية وتوزعت على مجموعة من الإمارات الصغرى التي كان من أبرزها إمارة الرها التي خضعت لحكم (ثوروس) وإمارة ملطية التي حكمها صهره (جبريل). وكانت تبعية هؤلاء الأمراء للكنيسة الروم الارثوذكسية، وعدم اتباعهم للكنيسة الأرمنية الانفصالية، سبباً

من أسباب ضعفهم أمام شعبهم الأرمني . فحاولوا دعم ضعفهم بالتحالف مع الأتراك المسلمين المجاورين لهم . وأظهر (ثوروس) كفاءة عالية في تأجيج نار العداء بين الروم وبين المسلمين .

وهكذا وبينما كان جبريل قد أرسل زوجته في سفارة إلى بغداد لتظفر باعتراف أعلى سلطة إسلامية ، كان أوشين بن هيثوم الذي أقام إمارته إلى الغرب من أبواب قليقية وجعل من قلعة لامرون المنيعة مقرًا له ، نظراً لوقع هذه القلعة على نشر يطل على جبال طوروس وسهل قليقية ، قد تابع توطيد ارتباطه بالقسطنطينية . أما قسطنطين ابن روبين والذي امتدت إمارته نحو الشرق حيث جبال طوروس ، فقد جعل من قلعة (بارتزبريت) الواقعة إلى الشمال الغربي من سيس قاعدة له ، وقد تابع هذا بدوره ارتباطه بكنيسة أرمينية الانفصالية ، فكان من أشد أنصارها^(١) . وتجدر الإشارة هنا إلى توجه أسقف أرمني إلى روما - قبل عشرين سنة من وقوع الغزو الصليبي ، ليظفر بدعم البابا غريغوري السابع . وحمل البابا على التفكير بارسال حملة لإنقاذ العالم المسيحي في الشرق . وقد أبرز ذلك ميل أمراء الأرمن . - حتى من كان يحمل منهم القبأ أو أسماء بيزنطية - للتحالف مع الغرب . ولكن من المعروف أن أمبراطور الروم البيزنطيين - الكسيوس - قد حرص على الزام قادة الحملة الصليبية الأولى على القسم باعادة ما يتم فتحه من أقاليم الروم التي حكمها المسلمون إلى حكم الروم ، ولما كانت أرمينية خاضعة لحكم الروم - ولو نظرياً - فقد كان لا بد لقادة الحملة الصليبية من إعادة الإمارات الأرمنية إلى حكم الروم . هذا فيما كان أمراء الأرمن يستخدمون كافة الوسائل للحصول على السيادة الإقليمية . ولم يكن من المهم بالنسبة لهؤلاء من أن تكون هذه السيادة بضمان من الفرننج الصليبيين ، أو تحت اشراف أمبراطور الروم - الكسيوس - . أو حتى بالتحالف مع الترك المسلمين .

خصص أمبراطور الروم مجموعة من الأدلة لمراقبة الحملة الصليبية . وقد ظهر فضل هؤلاء الأدلة الذين توافرت لهم الخبرة بقتال الأتراك المسلمين ، إذ لو لم يقوموا

(١) تاريخ الحروب الصليبية : ٢٧٧/١ - ٣٠١ .

بارشاد الصليبيين، ولو لم يقدموا لهم النصيحة الصادقة، لما استطاع هؤلاء أن يشقوا لهم طريقاً عبر آسيا الصغرى. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فقد قدم الأرمن مساعدات ضخمة للفرنج الصليبيين خلال تقدمهم. وكان (بلدوين البولوني)^(١) قد أظهر منذ البداية اهتماماً بأمر أرمينية، وضم حملته بعض كبار رجال الأرمن، وسار نحو الشرق. فاستقبله الأرمن في قيصرية وكومونا و kokosn استقبالاً حافلاً. وقد أرمن مساعدة كبيرة للفرنج مما ساعدتهم على الوصول إلى طرسوس والمصيصة ومروعش وعينتاب. وهناك ثمة شك كبير في أن يكون بلدوين قد أعد خطة مسبقة لإقامة إمارة صلبيّة على نهر الفرات تكون ذات فائدة له وللحركة الصليبية بكمالها. غير أن ما قدمه الروم والأرمن من مساعدة، وما شاهده في بلاد الأرمن من الغنى والثراء، قد أغراه على متابعة تقدمه نحو الشرق. وكان أمير ملطية - جبريل - قد التمس على الأرجح المساعدة من الفرنج، كما أن صاحب الرها - ثوروس - كان على اتصال مستمر بالفرنج. وهكذا، وبينما كان بلدوين في تل باشر، قدمت إليه سفارة من الرها، تستعجله للتحرك في مسيره، فقد انتاب - ثوروس - القلق عندما علم بأن أمير الموصل - كربوقا - قد أخذ في حشد جموع المسلمين لنجدته أنطاكية، وأن بإمكان - كربوقا - إزالة الرها وسائر الإمارات الأرمنية الواقعة في طريقه - دونما جهد كبير أو عناء.

ولكن بلدوين أظهر التمهل والتريث، فهو لن يذهب إلى الرها إلا بالشروط التي تلائمها. وظهر بوضوح أن ثوروس كان يأمل في استخدام بلدوين، على أنه من المرتزقة، بما يبذله له من الأموال. وما يغمره به من المتع والهدايا الشهينة. في حين كان بلدوين، ولو أنه من المرتزقة، يطمع بالحصول على ما هو أكثر من ذلك. وتلقت سفارة الرها في تل باشر تفويضاً بزيادة قيمة العرض - وأن - ثوروس - على

(١) بلدوين البولوني: BAUDOUIN-DE-BOULOGNE (دوق اللورين الأسفل ١٠٦١ - ١١٠٠ م) وهو أحد كبار قادة الحملة الصليبية الأولى. أقام إمارة للفرنج الصليبيين في الرها، ثم أصبح ملكاً للقدس. وهو شقيق جيدوفي دوبويون البولوني: GODEFROY-DE-BOUILLON الذي أصبح أول ملك لملكة القدس الصليبية بعد استيلاء الفرنج عليها. فلما مات سنة ١١٠٠ م. تم استدعاء شقيقه بلدوين، وجرى تنصيبه ملكاً على القدس.

استعداد لتبني بلدوين وجعله ابناً له ووريثاً. وأن يشاركه في حكم بلاده. ووافق بلدوين على العرض، وغادر - تل باشر - سنة ٤٩٤ هـ. ووصل إلى الرها يوم ٦ شباط - فبراير - سنة ١٠٩٨ م. فاستقبله الأرمن بمحاسة مثيرة، وأقام - ثوروس - على الفور مراسم تبني ثوروس^(١). غير أن هذا التبني لم يمنع بلدوين من تنظم مؤامرة لإشعال نار الثورة ضد ثوروس وقتله (يوم ١٠ - آذار - مارس - سنة ١٠٩٨ م. أي بعد شهر فقط من دخول بلدوين إلى الرها). وأصبح بلدوين أميراً على الرها. وارتاع أمير سميساط (بالدك أو بلق) حينما علم بارتفاع بلدوين عرش الرها ، فأرسل فوراً إلى بلدوين وعرض عليه بيع إمارته له مقابل عشرة آلاف دينار. وقبل بلدوين بهذا العرض، فقد وجد في الرها كميات مذهلة من الثروة والأموال والجواهر. فدفع المبلغ ودخل سميساط منتصراً بأموال الرها. ثم ما لبث أن غدر ببالدك - أو بلق - واتهمه بالتأمر ضده وقتله.

هكذا تشكلت إماراة - كونتية - الرها، لتكون الإمارة الصليبية الثانية للفرنج بعد أنطاكية، ولتصبح الحاجز الذي يحمي أنطاكية من المسلمين، وقد بلغت من المساحة والاتساع ما زادت به على إمارة أنطاكية حيث امتدت أملاكها على جانبي نهر الفرات: من راوندان وعينتاب إلى موضع غير معروف بالجزيرة الشامية - إلى الشرق من مدينة الرها -. وقد افتقرت الرها إلى الحدود الطبيعية قدر افتقارها إلى التجانس بين سكانها ، إذ كان هؤلاء يتالفون أساساً من المسيحيين - من السريان اليعاقبة والأرمن -. كما دخل في نطاقها مدن إسلامية مثل: سروج. ولم يأمل الفرنج الصليبيون في أن يقيموا بالرها حكومة مركزية، واستعاضوا عن ذلك بما شيدوه من حصون متعددة شحنوها بالعساكر . ومن هذه الحصون تولى الجندي جباية الضرائب والجزية

(١) وردت قصة هذا التبني في تاريخ الحروب الصليبية: ٢٩١/١ - كما يلي: (وفقاً لشعار الأرمن - وقتذاك - تقرر أن يجري من طقوس احتفال التبني ما يلائم طفلاً صغيراً، لا شخصاً مكتملاً للرجلة، إذ تجرد بلدوين من ثيابه - حتى الوسط - بينما ارتدى ثوروس قميصاً بلغ من الاتساع أن دخل فيه بلدوين، وأخذ كل من الوالد الجديد والابن الجديد، بعك صدره في صدر الآخر، وكرر بلدوين الاحتفال مع الأميرة - زوجة ثوروس» .

من القرى الإسلامية المجاورة. واستطاعوا أن يشنوا الغارات على ما يلي الحدود من الأقاليم الإسلامية، فظفروا منها بالكسب والغنيمة. وكانت هذه المنطقة بكمالها تعتبر إقليم حدود. فتعرضت لحروب متصلة. ومع ذلك فقد اشتغلت على أراض خصبة ومدن مزدهرة. وإن ما حصل عليه أمير - كونت - الراها من الضرائب ومن الغنائم قد ضمن له مورداً مالياً وافراً، زاد على ما أحرزه ملك القدس من الأموال والثروات^(١). على أن هذه الأموال والموارد لم تكن لتضمن لمدينة (الراها)^(٢) وإمارتها ، الأمان والاستقرار. حيث بقيت من أكثر امارات الفرنج الصليبيين هيجاناً واضطرباً.

لقد ظهر للفرنج الصليبيين في بداية الأمر أن كل شيء هو على أحسن صورة وأبهج منظر. فقد اتخذ بدلوين لنفسه لقب كونت الراها. وبات واضحأ أنه قد بدأ العمل ليفرد بالحكم، وأنه لا أهمية عنده لليمين التي حلفها للإمبراطور البيزنطي الكسيوس. وكان لنجاج بدلوين صدأه الواسع في وسط قوات الفرنج الصليبيين. فما إن انتشر خبر قيام - كونتية الراها - حتى عمل كثير من فرسان الغرب وهم في طريقهم لدعم الجيش الصليبي في أنطاكية ، على تغيير اتجاههم والسير الى الراها لمشاركة بدلوين حظه من النجاح ونصيبه من الثروة، بينما تخلى آخرون عن حصار أنطاكية العنيف، ولحقوا ببدلوين الذي كافأهم بما ضمته خزائن الراها من الهدايا الثمينة والمنع السخية وذلك من أجل إغرائهم على الإقامة بالراها ، كما شجعهم على الزواج بالأميراتالأرمنيات ، وجعل من نفسه نموذجاً لهم، فتزوج من ابنة أحد زعماء الأرمن. أما الأرمن ذاتهم فقد خاب أملهم باخوانهم في الدين ، إذ كرهوا تدفق فرسان الفرنج إلى ممتلكاتهم. وزاد من الكراهية سلوك الفرنج الذين أخذوا في معاملة الأرمن بالازدراء والاحتقار ، بل وحتى استخدام العنف معهم في كثير من الأحيان. واكتشف أعيان الأرمن أنه جرى استبعادهم من مجلس الكونت بدلوين ، حيث اقتصر التمثيل فيه على

(١) تاريخ الحروب الصليبية : ٢٥/٢

(٢) الراها : (EDDESSA) وهي اليوم بتركيا وتحمل اسم اورفة : (URFA).

الفرنج. وزاد الأمر سوءاً بزيادة الضرائب التي فرضها بلهودين وبالاضافة الى ذلك، فقد تقرر منح ضياع وقري الأرمن في الريف إلى الفرنج القادمين حديثاً. فتحول الفلاحون الأرمن إلى أقنان - عبيد - للسادة الفرنج، وفقاً لما كان سائداً في الغرب من عرف اقطاعي بالغ المتنانة والشدة. ولما حاول أعيان الرها تنظيم مؤامرة ضد الفرنج الصليبيين، بالتعاون مع المسلمين في ديار بكر، أسرع بلهودين فأمر بالقبض على الزعماء المتآمرين، وسلم عيونهم وجدع أنوفهم وقطع أرجلهم، كما ألقى بالسجن عدداً كبيراً من الأرمن الذين حامت الشبهات بشأن اشتراكهم في المؤامرة. وتقرر مصادرة أموالهم. واستذكر الأرمن بعاطفة قوية أيام ثوروس وجبريل وغيرهما من الزعماء الذين توافر لهم من الخبرة والتجربة في الحكم ما ضمن لهم المحافظة على استقلال الأرمن على الفرات، وفي وسط المسلمين، وإذا كانت جاهير الأرمن قد انكرت جهود قادتها في السابق، وكرهت دولة الروم البيزنطيين، وأظهرت استعدادها للتسامح مع اللاتيني، وأن تغفر له إلحاده وما كانت تنكره دائمًا على اليوناني، فإنه لا ينبغي لهذه الجماهير إلا أن تلوم نفسها إذا ما جرها أصدقاؤها - أو إخوانها في الدين - من الفرنج، إلى الكارثة - .

لقد امتلك الفرنج الصليبيون (الرها) بمكتبة أهلها لهم، واتصالهم بهم، ذلك لأن أكثرهم من الأرمن، وليس بها إلا قليل من المسلمين. فلما كانت سنة ٤٩٤ هـ = ١١٠٠ م عمل سقمان أمير سروج على حشد جمع كبير من التركمان - الأراثقة - وسار بهم إلى الرها. فقاتلته الفرنج، وهزموه. وساروا إلى سروج فحضروها وتسليموها وقتلو كثيراً من أهلها، وسبوا حرفيهم ونهاوا أموالهم، ولم يسلم إلا من مضى منهزاً^(١) فلما كانت سنة ٤٩٧ هـ = ١١٠٣ م، سار الفرنج إلى حران وحضروها. ولما علم معين الدولة سقمان وشمس الدولة جكرمش، أرسل كل منها إلى صاحبه يدعوه إلى الاجتماع معه لتلافي أمر حران، ويعلمه أنه قد بذل نفسه لله تعالى وثوابه. فكل واحد منها أجاب صاحبه إلى ما طلب منه، وسارا فاجتمعا على الخابور وتحالفاً، وسارا إلى لقاء الفرنج. وكان مع سقمان سبعة آلاف فارس من التركمان، ومع جكرمش ثلاثة آلاف

(١) الكامل في التاريخ. احداث سنة ٤٩٤.

فارس من الترك والعرب والأكراد، فالتحقوا على نهر بليخ. وكان المصالف بينهم هناك، فاقتتلوا، فأظهر المسلمين الانهزام، فتبعدهم الفرنج نحوً من فرسخين فعاد عليهم المسلمون فقتلوهم كيف شاؤوا وامتلأت أيدي التركمان من الغنائم، ووصلوا إلى الأموال العظيمة، لأن سواد الفرنج كان قريباً. وكان بيمند - بوهمند - صاحب انطاكيه، وطنكري - تانكرد - صاحب الساحل قد انفردا وراء جبل ليأتيا من وراء ظهور المسلمين إذا اشتدت الحرب، فلما خرجا رأيا الفرنج منهزمين وسوادهم منهوباً. فأقاما إلى الليل، وهربا، فتبعدهم المسلمون وقتلوا من أصحابها كثيراً وأسرروا كذلك، وأفلتا في ستة فرسان. وكان القمص بردويل - بدويون - صاحب الراها قد انهزم مع جماعة من قمامصتهم، وخاضوا نهر البليخ، فوحنت خيولهم، فجاء تركمانى من أصحاب سقمان فأخذهم أسرى، وحملهم إلى خيم سقمان. وأما جكرمش فإنه سار إلى حران، فاستعادها واستخلف بها صاحبه، وسار إلى الراها، فحضرها خمسة عشر يوماً، ثم عاد إلى الموصل. وكان عدة القتلى من الفرنج أثني عشر ألف قتيل^(١).

مضى على الراها ست وأربعين سنة وهي تحت حكم الفرنج الصليبيين، وشهدت خلال هذه الفترة صراعات قاسية ومعارك كثيرة، منها تلك الحرب التي وقعت بين اماري الفرنج: أنطاكيه والراها (سنة ٥٠٢ هـ = ١١٠٦ م) ومنها عودة المسلمين لحصار الراها سنة ٥٠٥ هـ = ١١٠٩ م. وكذلك ما حدث سنة ٥١٢ هـ = ١١١٦ م عندما تعاون الأرمن مع المسلمين ضد الفرنج. على أن أكثر الأحداث اثارة هو ما حدث سنة ٥١٦ هـ = ١١٢٢ م حيث وقع أمير الراها - جوسلين - أسيراً في قبضة المسلمين. ففي هذه السنة، خرج جوسلين وصاحب البيرة واليران راكبين في جماعة من الفرسان - قليلة العدد - ووصلوا إلى قرب سروج، حيث التقى بمجموعة من الترك المسلمين. فهاجموه، غير أن ما هطل من المطر الغزير عمل على تحويل المنطقة إلى بحيرة من الطين - الوحل -. فانزلقت الخيول وتعثرت، ولم يجد التركمان المتخفرون صعوبة في تطويق الفرنج وأسر جوسلين واليران. وتظاهر الفرنج الصليبيون في الراها بعدم تأثيرهم لأسر أميرهم، وعملوا على تطوير اغاراتهم على الأراضي

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ٦٩/٢ - ٧٥ - والكامن في التاريخ - احداث سنة: ٤٩٧ م.

الإسلامية المجاورة لهم. ووقع عبء أسر جوسلين على ملك القدس - بلدوين - الذي اضطر لرعاية شؤون إمارة الراها، فسار إليها في السنة التالية، وأعاد تنظيم الإدارة فيها، ثم خرج ليستطلع المكان الذي أسر فيه جوسلين، غير أنه وجد نفسه مطوقاً بفرسان المسلمين، فلقي معظم أفراد جيش بلدوين مصرعهم، ووقع الملك نفسه أسيراً. فجرت معاملته بما يليق به من الاحترام، وتقرر إرساله ليلحق بجوسلين في مقر اعتقاله - في قلعة خربرت - ولكنه تمكّن بعد فترة من الفرار.

تعاظم خطر الفرنج فعم بلاد الجزيرة، واستطار شرهم فوصلت إغارات جيش الراها إلى أقصى البلاد - فبلغت آمد ونصيبين ورأس العين والرقة. وكانت بلاد الراها في هذه الفترة تمتد من قرب ماردين إلى الفرات مع ما خضع لحكم الفرنج من غربي الفرات. وقد تمكّن جوسلين - بعد فراره - من ضبط حكم إمارته بما اشتهر به من الشجاعة والمكر.

قرر أمير الموصل أتابك عماد الدين زنكي بن أقسنقر فتح مدينة الراها، ووضع حد لشروع الفرنج واستفزازهم.

وكان يعرف أنه متى قصد حصرها اجتمع من الفرنج من يحميها وينعها ، فيتعذر عليه فتحها لما هي عليه من الحصانة والقوة. فتظاهر بالانصراف إلى ديار بكر - لخداع الفرنج ، وأنه غير متفرغ لقتالهم. فلما رأوه أنه غير قادر على ترك ملوك ديار بكر - الأراثقة - وانشغل بهم ، اطمأنوا . وخرج جوسلين فغادر الراها وعبر الفرات إلى بلاد الغربية ، فجاءت عيون أتابك - جواسيسه - فأخبروه الخبر ، فنادى في العسكر بالرحيل ، وأن لا يتأخّر عن الراها أحد من غد يومه ، وجع الأمراء عنده وقال لهم : « هاهو الطعام ، ولا يأكل معي على مائتي هذه إلا من يطعن معي غداً على باب الراها ».

وسار العسكر معه ، ووصل إلى الراها ، وكان هو أول من حمل على الفرنج ، فكاد يقتلـه فارس من الفرنج لولا أن بادر أحد مجاهدي المسلمين فقتلـ فارس الفرنج وأنقذـ أتابك عماد الدين الذي نازلـ الراها وقاتلـ أهلـها ثمانية وعشرين يوماً . وزحفـ إليها

عدة دفعات، وقدم النقابين فنقبوا أسوار البلد، ولحق في قتاله خوفاً من اجتماع الفرنج ومسيرهم إليه واستنقاذ البلد منه. فسقطت البدنة - الدعامة - التي نقها النقابون. وأخذ البلد عنوة وقهراً، وحصر قلعتها فملكتها أيضاً، ونهب الناس الأموال، وسبوا الذرية. وقتلوا المقاتلة. فلما رأى أتابك عماد الدين الرها أعجبته، ورأى أن تخربها هو أمر غير جائز في السياسة، فأمر فنودي بالعساكر برد ما أخذوه من الرجال والنساء والأطفال إلى بيوتهم، وإعادة ما غنموه من أثاثهم وأمتعتهم، فرددوا الجميع عن آخره لم يفقد منه شيء إلا الشاذ النادر، فعاد البلد على حاله الأول، وجعل فيه عسكراً لحفظه، وتسلم مدينة سروج وسائر الأماكن التي كانت قد خضعت للفرنج في شرق الفرات (سنة ٥٣٩ هـ = ١١٤٤ م). وأقام أمير الرها السابق - جوسلين - بتل باشر، وجعلها مقراً لحكم ما يجاور تل باشر، وشرع في إرسال الرسائل إلى أهل الرها وعامتهم من الأرمن، وأخذ في تحريضهم على العصيان والتمرد ضد المسلمين وتسلیم البلد إليه، فأجابوه إلى ذلك. وواعدهم يوماً يصل إليهم فيه، وسار في عساكره إلى الرها (سنة ٥٤١ هـ = ١١٤٦ م) وتمكن من اقتحام البلد غير أن القلعة وحاصيتها من المسلمين استمرت في مقاومتها. وبلغ الخبر إلى نور الدين محمود بن زنكى - وهو بحلب - فسار مجدداً إليها في عساكرة. فلما قاربها خرج جوسلين هارباً وعاد إلى بلده - تل باشر - ودخل نور الدين الرها، ونهبها حينئذ وسي أهلها. فخلت الرها من أهلها الأرمن. ودفعت الرها الشمن غالياً لقاء ما قدمته للفرنج من دعم ومساعدة. فقتل المسلمون كل من حمل السلاح. ولم يبق على قيد الحياة منهم أحد، إلا من وقع في السي من نسائهم وأطفالهم. وتقرر إخراج كل سكان الرها المسيحيين وأبعادهم إلى المنفى. فأضحت المدينة الكبيرة - الرها - التي زعم الفرنج الصليبيون أنها أقدم مدن المسيحيين في العالم، خاوية موحشة، ولم تسترد مكانتها بعد ذلك أبداً. وكانت هذه أول ثرة من ثمار الحملات الصليبية على بلاد الشام والتي جاءت بحججة إنقاذ المسيحيين. فكانت وبالاً عليهم وكارثة لهم.^(١)

(١) الكامل في التاريخ احداث سنة ٥٣٩ واحداث سنة ٥٤١ وتأريخ الحروب الصليبية:

تردد صدى إعادة فتح المسلمين للرها في جميع بلاد العالم الغربي والشرقي . فتجدد أمل المسلمين بعد أن تحطمت إمارة صليبية جاءت دخيلة في جوف بلادهم . واقتصر وجود الفرنج على البلاد التي تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط . وجرى تطهير الطرق الممتدة ما بين الموصل وحلب من الفرنج . وتم انتزاع الأسفين الذي دقه الفرنج بين الترك في بلاد فارس والترك في الأناضول . وحاز زنكي عن جدارة لقب (الملك المنصور - أو الغازي) . ومقابل ذلك ، أدى طرد الفرنج من الرها الى تدهور روحهم المعنوية ، وأثار خوفهم وقلقهم ، وشكل صدمة كبيرة للفرنج الصليبيين في أوروبا . إذ أدركوا ، ولأول مرة ، ضعف البنيان الصليبي الذي أقاموه في بلاد المشرق . وأرسلت ملكة القدس - ميليسيند - فور سماعها خبر فتح المسلمين للرها رسولاً الى انطاكيه للتشاور مع حكومتها فيما يجب عمله ، ولارسال سفاره الى روما لتنهي هذا النبا الى البابا ، واظهار ضرورة توجيه حملة صليبية جديدة . ولم يتأخر رد فعل اوروبا على فتح الرها . فجاءت الحملة الصليبية الثانية (سنة ٥٤٣ هـ = ١١٤٨ م) . ولكن هذه الحملة لم تتمكن من إعادة العجلة الى الوراء .

٤ - قلعة الماضي - أهامية -

﴿أَوْلَمْ يَهُدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾^(١) صدق الله العظيم .

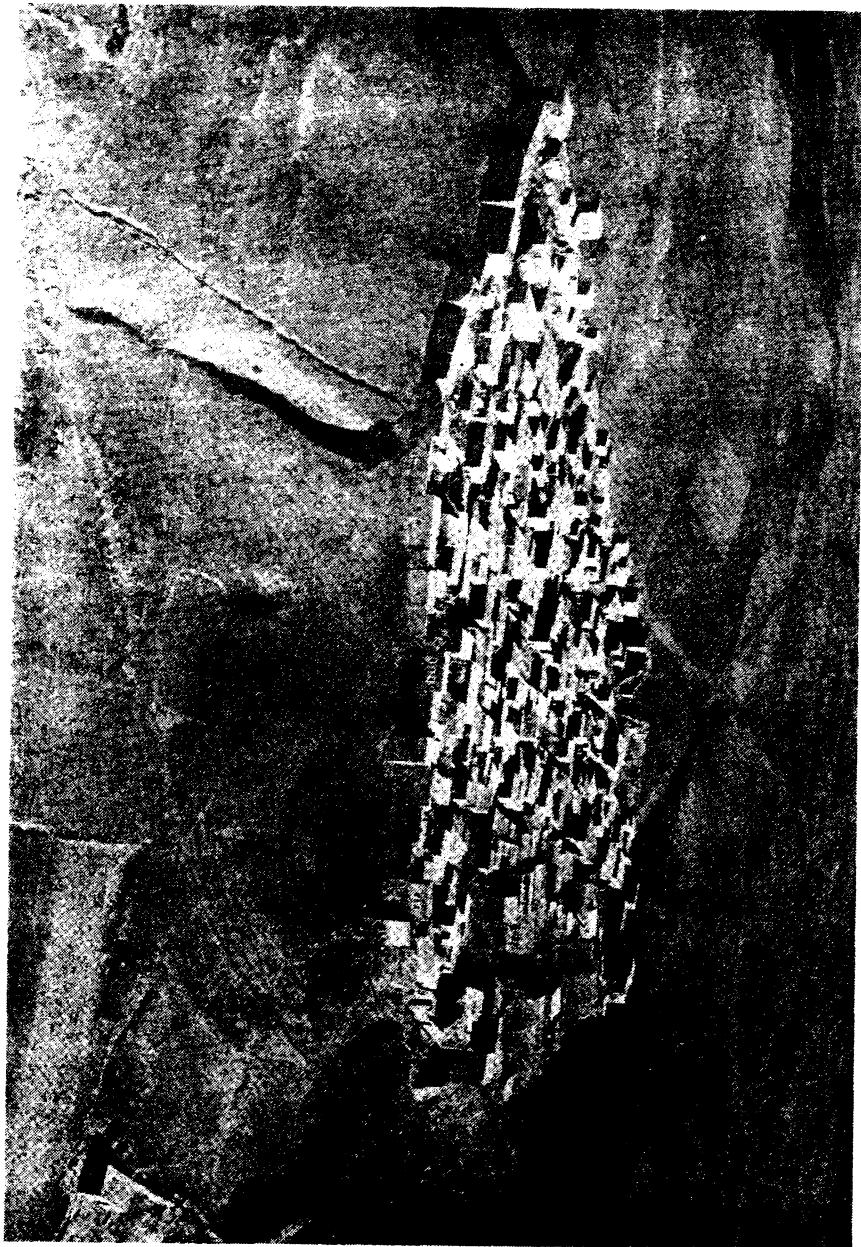
تلك هي قصة الحياة على الأرض ، وتلك هي أيضاً قصة قلعة أهامية . التي تشكلت عبر الأزمنة الغابرية السحرية ، كلما ذهب قرون ، جاء من بعدهم آخرون مشوا في مساكنهم ، وعمره فوق ما عمره السابقون ، حتى إذا ما أذهبهم الله واستبدلهم بآخرين ، جاء قوم في أعقاب من سبّهم . وهكذا ، فكلما كشف الباحثون عن مساكن لفترة معينة ، ظهر لهم مساكن أقدم وبيوت أعمق . ولعل ما هو أكثر وضوحاً من بين تلك الآثار ، تلك التي تركها ملك الفرس (كسرى الأول)^(٢) الذي دمر - أهامية -^(٣) عندما اجتاح بلاد الشام في حروبها ضد الروم البيزنطيين سنة ٨٦ ق. هـ = ٥٤٠ م. حيث كانت أهامية إحدى تلك اللياليات - القلاع - التي كان يستند إليها الروم في حروبهم ضد إغارات العرب وضد هجمات الفرس . إذ كانت الدولتان العظميان الفرس والروم في حالة حرب دائمة - مسرحها الأساسي هو بلاد الشام والعراق - وتذكر المصادر التاريخية أن العرب المسلمين لما

(١) الجزء الحادي والعشرين - سورة السجدة - الآية : ٢٦ .

(٢) كسرى الأول : (KHOSROSES I- LE GRAND) ملك من ملوك الفرس ، من سلالة الساسانيين ، حكم بلاد الفرس من سنة ٥٣١ حتى سنة ٥٧٩ م. قاد حروباً ظافرة ضد الروم . وجاء بعده كسرى الثاني : (٥٧٩ - ٦٢٨ م) أي أنه مات بعد الهجرة بست سنوات . وهو الذي انتصر على هرقل ، ثم انتصر عليه هرقل في قصة التهان المعروفة التي راهن فيها أبو بكر رضي الله عنه على انتصار الروم - فنزلت الآية الكريمة : ﴿أَلمْ * عُلِّيَتِ الرُّوْمُ فِي أَذْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلْبِهِمْ سَيْلُبُونَ * فِي بَعْضِ سَتِينِ لَهُ الْأَمْرِ مِنْ قَبْلِ وَمِنْ بَعْدِ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ صدق الله العظيم - الجزء الحادي والعشرين - الروم - الآية : ١ - ٤ .

(٣) أهامية : (AFAMIYA) والاسم القديم أياماً APAMEA وبالفرنجية أهامية AFAMIA أو الأفامي LA FAMIE





قلمة الضيق

فتحوا بلاد الشام والعراق قد أفادوا من البقايا القديمة لهذه القلعة - حجارتها - فنقوها وشيدوا بها مدينة - سامراء (أو سر من رأى) ^(١). وأفامية هي مدينة صغيرة محصنة في الشعاب الجنوبية الغربية المرتفعة في شمالي بلاد الشام، وهي تریض فوق تلة صخرية معزولة تطل على وادي نهر العاصي المستنقعي (الغاب) ويعتقد أن المستوطنة التي كانت قائمة في العصور الوسطى كانت تشغل منطقة المدافن من أفامية القديمة. وهو بالذات موقع المستوطنة الأقدم، لأن التل الذي تقوم عليه المدينة الحالية مدين بلا شك بقسم من ارتفاعه إلى الأطلال التي تركها المستوطنون على مر العصور وتتألف دفاعات القرون الوسطى من سور خارجي بسيط مدعم بأبراج زاوية مستطيلة، والبوابة الرئيسية في الجنوب التي حصنت تحصيناً قوياً بإضافة برجين ضخمين إليها. ولقد شيدت التحصينات بأكملها تقرباً من مواد أخذت من المباني القديمة. وقد حلت القلعة باسم (قلعة المضيق) في القرن السادس عشر أو السابع عشر الميلادي على ما يعتقد، ذلك أن المصادر العربية أيام الحروب الصليبية القديمة لا تذكرها إلا باسم (فامية - أو أفامية). وقد وصف أبو الفداء في مؤلفه تقويم البلدان قلعة أفامية بقوله: «يقال لفامية - أو أفامية - بزيادة الهمزة في أولها، وهي مدينة قديمة. ويطلق هذا الاسم على كورتها - ناحيتها - أيضاً. وفامية قرية من قرى فم الصلح من نواحي واسط أيضاً - . وقال في العزيزي: وكوره فامية لها مدينة كانت عظيمة على نشر من الأرض. ولها بحيرة حلوة يشقها النهر المقلوب المعروف بنهر العاصي».

عندما اجتاحت جحافل الفرنج الصليبيين بلاد الشام. شرع أمير انطاكيه - الكونت بوهمند - ^(٢) على الفور ببذل جهوده لتوسيع حدود إمارته على حساب بلاد المسلمين، فهاجم أفامية (سنة ٤٩٤ هـ = ١١٠٠ م) ولكنه فشل في الاستيلاء

(١) القلاع أيام الحروب الصليبية: ٧٠ و ٧١.

(٢) بوهمند: (BOHEMOND) اسم حلله عدد من أمراء النورمان من عائلة هوتفيل. أمراء انطاكيه واللاذقية وطرابلس، وأولهم بوهمند الأول الذي ولد سنة ١٠٥٢ ومات سنة ١١١١ م. وهو ابن روبرت جيسكار الذي تولى قيادة في الحملة الصليبية الأولى، وتزوج من إبنة ملك فرنسا فيليب الأول - واسمها كونستانس - وهو الذي استولى على قلعة أفامية.

عليها. وكان عليه الانتظار حتى سنة ٤٩٩ هـ = ١١٠٥ م إلى أن تمكن من ضمها لممتلكاته، مستفيداً من التناقضات والصراع بين المسلمين والباطنية - الإسماعيلية - فاستولى على أفارمية، وجعلها قاعدة متقدمة للعدوان على بلاد المسلمين، وقد ذكرت المصادر العربية قصة استيلاء الفرنج على أفارمية بما يلي: «ملك الفرنج حصن أفارمية من بلد الشام سنة تسع وتسعين وأربعين. وسبب ذلك أن خلف بن ملاعب الكلابي كان متغلباً على حمص، وكان الضرر به عظيماً، ورجاله يقطعون الطريق، فكثر الحرامية - اللصوص - عنده. فأخذها منه تتش بن ألب أرسلان وأبعده عنها. فتقلبت به الأحوال إلى أن دخل إلى مصر الفاطميين، فأقام بها. واتفق أن المتولي لأفارمية من جهة رضوان بن تتش أرسل إلى صاحب مصر، وكان يميل إلى مذهبهم، يستدعي من يسلم إليه الحصن، الذي هو من أمنع الحصون. وطلب ابن ملاعب منهم أن يكون هو المقيم به، وقال: إني أرغب في قتال الفرنج وأوثر الجهاد. فسلموه إليه وأخذوا رهائنه. فلما ملكه خلع طاعتهم ولم يرع حقهم. فأرسلوا إليه يتهددونه بما يفعلونه بولده الذي هو عندهم. فأعاد الجواب: إني لا أنزل من مكاني، وابعثوا إلي بعض أعضاء ولدي حتى آكله، فأيسوا من رجوعه إلى الطاعة. وأقام بأفارمية، يخيف السبيل ويقطع الطريق، واجتمع عنده كثير من المفسدين، فكثرت أمواله. ثم إن الفرنج ملكوا سرمين وهي من أعمال حلب - وأهلها من الغلاة في التشيع -. فلما ملكها الفرنج تفرق أهلها. فتوجه القاضي الذي بها إلى ابن ملاعب وأقام عنده، فأكرمه ابن ملاعب وأحبه ووثق به، فأعمل القاضي الحيلة. وكتب إلى أبي طاهر المعروف بابن الصائغ - وهو من أعيان أصحاب الملك رضوان ووجوه الباطنية - الإسماعيلية - ودعاتهم، واتفق معه على الفتكت بابن ملاعب، وأن يسلم أفارمية إلى الملك رضوان. فظهر شيء من هذا. ووصل إلى ابن ملاعب أولاده، وكانوا قد تسللوا إليه من مصر. وقالوا له: قد بلغنا عن هذا القاضي كذا وكذا، والرأي أن تعاجله وتحطط لنفسك فإن الأمر قد اشتهر وظهر. فأحضر ابن ملاعب، فأناه في كمه مصحف، لأنه رأى أمارات الشر. فقال له ابن ملاعب ما بلغه عنه. فقال القاضي: أيها الأمير! قد علم كل أحد أنني أتيتك خائفاً جائعاً، فأمنتني وأغنتني وعززتني، فصررت ذا مال وجاه، فإن كان بعض من حسدي

على منزلتي منك ، وما غمرني من نعمتك ، سعى بي إليك ، فأسألك أن تأخذ جميع ما معي وأخرج كما جئت ، وخلف له على الوفاء والتصح ، فقبل عذرها وأمنه . وعاد القاضي إلى مكتابة أبي طاهر بن الصائغ . وأشار عليه أن يوافق رضواناً على إنفاذ ثلاثة رجال من أهل سرمين ، وينفذ معهم خيولاً من خيول الفرنج ، وسلاماً من أسلحتهم ، ورؤوساً من رؤوس الفرنج ، ويأتون إلى ابن ملاعب ويظهرون أنهم غزا ، ويشكون من سوء معاملة الملك رضوان وأصحابه لهم ، وأنهم فارقوه فلقيهم طائفة من الفرنج فظفروا بهم ، ويحملون جميع ما معهم إليه . فإذا أذن لهم في المقام ، اتفقت آراؤهم على إعمال الحيلة عليه .

ففعل ابن الصائغ ذلك ، ووصل القوم إلى أfähمية ، وقدموا إلى ابن ملاعب بما معهم من الخيال وغيرها ، فقبل ذلك منهم ، وأمرهم بالمقام عنده ، وأنزلهم في ربس أfähمية . فلما كان في بعض الليالي نام الحراس بالقلعة ، فقام القاضي ومن بالحصن من أهل سرمين ، ودلوا الحال وأصعدوا أولئك القادمين جميعهم ، وقصد أولاد ابن ملاعب وبني عمّه وأصحابهم فقتلوهم . وهرب ابنها - ابن ملاعب - فقتل أحدهما ، والتحق الآخر بأبي الحسن بن منقذ - صاحب شيزر - فحفظه لعهد كان بينها . ولما سمع ابن الصائغ خبر أfähمية سار إليها ، وهو لا يشك أنها له ، فقال له القاضي : إن وافقتني وأقمت معي وبالربح والسعنة ونحن بحكمك ، وإلا فارجع من حيث جئت . فأيس ابن الصائغ منه . وكان أحد أولاد ابن ملاعب بدمشق - عند حاكمها طفتكن - وهو غضبان على أبيه . فولاه طفتكن حصناً بعد أن تعهد بالمحافظة على الأمن - ولكنه لم يفعل ، وقطع الطريق وأخذ القوافل ، فاستغراث الناس إلى طفتكن منه . فأرسل من طلبه ، فهرب إلى الفرنج ، واستدعاهم إلى حصن أfähمية ، وقال لهم : ليس فيها غير قوت شهر ، فأقاموا عليها يحاصرونها ، وجاء أهلها ، ومنكها الفرنج . وقتلوا القاضي المتغلب عليها ، وأخذوا ابن الصائغ وقتلوه - وكان هو الذي أظهر مذهب الباطنية -
الاسماعيلية - بالشام «^(١)» .

(١) الكامل في التاريخ - أحداث سنة تسعة وخمسين وأربعين - .

لم يكن النقص في المواد التموينية هو الذي أغري أمير أنطاكية - بوهمند - بالهجوم على أقامية واحتلاتها. كذلك لم يكن الحصار المطالع هو الذي أدى إلى سقوط أقامية في قبضة الفرنج. ولكن بوهمند عرف أن أقامية قد باتت معزولة عن محيطها الإسلامي، وأنه ما من أحد سيسرع لنجادتها إذا ما عمل على مهاجتها. ولهذا قام بقيادة قواته واستولى عليها، ثم استخدمها قاعدة متقدمة للهجوم منها على ما يجاورها من مدن المسلمين وقرابهم. ففي سنة ٥٠٥ هـ = ١١١١ م جمع المسلمين جوعهم ونزلوا على نهر العاصي. وجاء الفرنج جوعهم. وتم اللقاء قرب قلعة شيزر. وبدأت قوات المسلمين باستئناف الفرنج واستفزازهم لحملهم على خوض المعركة. ولما عرف الفرنج قوة المسلمين أحجموا عن القتال، ورجعوا إلى أقامية. وتبعهم المسلمون فتحطفوا من أدركوه من ساقتهم - مؤخرتهم - وهذا ما تكرر حدوثه أيضاً سنة ٥٠٨ هـ = ١١١٤ م. إذ حشد الفرنج حشودهم بقيادة ملوك وأمراء أنطاكية وطرابلس والقدس وغيرهم من شياطين الفرنج. فلما رأوا كثرة حشود المسلمين ، اتفق رأيهم على ترك اللقاء . وقالوا إنهم عند قدوم الشتاء سيتفرقون . واجتمعوا بقلعة أقامية ، وأقاموا نحو شهرین . فلما انتصف شهر أيلول - سبتمبر - ورأوا عزم المسلمين على المقام تفرقوا . ولما تولى أمير حلب نور الدين محمود بن زنكـي قيادة الجهاد في سبيل الله ، قدر خطورة أقامية ، فقرر إعادة فتحها وطرد الفرنج منها ، وقد جيشه سنة ٥٤٤ هـ = ١١٤٩ م وخاض معركة حاسمة ضد جيش أنطاكية ، فقتل أميرها بوهمند - إذ كان عاتياً من عتاة الفرنج . حتى إذا ما كانت السنة التالية (٥٤٥ هـ = ١١٥٠ م) قاد نور الدين جيشه إلى حصن أقامية فحصره وقاتل الفرنج ، وضيق على من بها منهم ، فاجتمع من بالشام من الفرنج ، وساروا نحوه ليبعدوه عنهم.

فلم يصلوا إلا وقد ملكه وملأه ذخائر وسلاماً ورجلاً وجميع ما يحتاج إليه . فلما علم نور الدين بسير الفرنج إليه ، رحل عن أقامية ، وقد فرغ من أمر تحصينها . وساد إليهم يطلبهم ، فحين رأوا أن الحصن قد ملك ، وعرفوا تصميم نور الدين على لقائهم ، عدلوا عن طريقه ، ودخلوا بلادهم ، وراسلوه في المهادونة وعاد سالماً مظفراً . ومدحه

الشعراء . وذكروا هذا الفتح . وأشاروا به .^(١)

وعادت أفامية إلى أهلها . وكان طرد الفرنج من أفامية هو بداية التحول الحاسم ، إذ وجد المسلمون في أنفسهم القدرة على مواجهة الفرنج بقوة أكبر من قواتهم ، وما هي إلا سنوات حتى طرد الفرنج من عدد كبير من قلاع شمال بلاد الشام . نجع المسلمين بطرد الفرنج من أفامية ولما تجاوز مدة احتلالهم لها أكثر من أربع وأربعين عاماً وإن وجود بعض الحجارة التي وضعها الفرنج (الآثار) لا يشكل دليلاً على رسوخ قدم الفرنج الصليبيين في بلاد الشام ، شماليها وجنوبها . فهذه الفترة القصيرة لا تشكل شيئاً من عمر الزمن ، وهي فترة طارئة تؤكد أن بلاد الشام التي أطلقت جيوش الفتح الإسلامي خلال العهد الأموي ، ما كانت إلا قاعدة ثابتة وقوية للعرب المسلمين . وإن طرد الفرنج منها إنما هو البرهان على أنه لا مكان للغزاة فيها . وأنه لا مكان فيها إلا للإسلام وأهله .

تناولت يد الأحداث - أفامية - بعد ذلك ، وضربتها الزلازل ثلاث مرات متواليات ، وكان المسلمون يسرعون في كل مرة لاصلاحها وترميمها ودعم أسوارها وتحصيناتها حتى إذا ما فرغوا من إنجاز أعمالهم جاءتها الضربة التالية فأنزلت فيها الدمار . وبقيت أفامية صامدة في وجه أحداث الزمن . ثم جاءها المغول التتار ، فاجتاحتها ودمروها كمثل تدمير الزلازل والأعصار ، وذلك على نحو ما فعلوه في كل مكان . ويدرك أن حدث في سنة ٦٧٠ هـ = ١٢٧١ م . أن قام المغول التتار بقيادة أباقا

(١) الكامل في التاريخ - أحداث سنة ٥٤٥ هـ - وفيه ما قاله الرومي في مدح نور الدين عند فتح أفامية - في تصدية طويلة منها :

أنسى الملك ما أطلت منارها
وأحق من ملك البلاد وأهلها
ومنها في وصف حصن أفامية :
ادركت ثارك في البناء وكتبت يا
ضاءت نجومك فوقها ولطاما
عارية الزمن العير سالمها
أنست مع الشعري العبور وأصبحت

وجعلت مرهفة الدسار دسارها
رؤوف تكنف عدله أقطارها .
مخسار أمة أحد خثارها .
باتت تنافها النجوم شرارها .
منك المغيرة فاسترد معارها .
شعراء تستغلي الفحول شوارها .

بشن هجوم على شمال بلاد الشام وذلك بالتعاون مع الفرنج الصليبيين. فانطلقوا من الأنضول ووصلوا إلى حلب، واستطاعوا إزالة الهزيمة بالحامية المدافعة عن المدينة، وفرت بقايا الحامية المملوكية المدافعة عن حلب. وتابع المغول تقدمهم حتى بلغوا معرة النعمان وأفامية، وساد الذعر والخوف بين المسلمين، إذ كان هدف المغول التتار من هجومهم هو الانتقام لهزيمتهم في عين جالوت. وعلم الظاهر بيبرس بأمر الهجوم، فانطلق بجيشه من دمشق نحو الشمال، وعندما أسرع المغول بالانسحاب، والعودة بقواتهم إلى الأنضول^(١).

وبعد ذلك بعشر سنين (٦٨٠ هـ = ١٢٨١ م) علم السلطان قلاون - الذي جاء بعد الظاهر بيبرس أن الفرنج الصليبيين قد اتصلوا بالمغول التتار، ونسقوا التعاون معهم للقيام بهجوم ضد بلاد الشام. فأسرع لأعادة تنظيم قوى الشمال وأسنده إلى حاكم حلب (سنقر) مهمة الدفاع عن أنطاكية وأفامية وأقطعه إياها^(٢). ويبرهن ذلك على أن أفامية قد احتلت في تلك الفترة خاصة - مركز الثقل في الصراع ضد الفرنج الصليبيين ضد من عمل معهم وتحالف وإياباهم. ولهذا لم يكن غريباً أن يحاول أعداء المسلمين بدورهم السيطرة على هذا المركز، غير أن كافة المحاولات باءت بالفشل أمام تصميم المسلمين وعزّ ملتهم على احباط أي عمل عدواني يستهدف أرضهم وببلادهم. ويظهر ذلك أن أفامية وقلعتها لم تكن مجرد موقع جيو استراتيجي هام، احتل مرتبة مميزة في الصراع الإسلامي - الصليبي - ولم تكن أيضاً مركزاً من مراكز القوى خلال تلك الحقبة التاريخية التي تكاثرت فيها مراكز القوى، فتكاملت وتلامحت أحياناً، وتنافت واختلفت في أحياناً أخرى. وإنما كانت بوقتها، وبما توافر لها من القوى، نموذجاً للتقاء الزمان والمكان في صنع الحدث التاريخي. وعلى هذا فإن فتح نور الدين زنكي لأفامية، واستخدامه لها قاعدة هجوم المسلمين، قد جعل من أفامية، وخلال تلك الفترة، نقطة الانعطاف في ايقاف مدة الفرنج الصليبيين، وتحويل انتصارتهم إلى هزائم. فقد كان فتح أفامية هو بداية مرحلة تصعيد الجهاد ضد الفرنج. ففي السنة التالية

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ٥٧٦/٣.

(٢) المرجع السابق: ٦٦١/٣.

لفتح أقامية، جمع نور الدين زنكي عسکره، وسار إلى بلاد جوسلين الفرنجي، وهي شمال حلب؛ منها تل باشر وعين تاب وإعزاز، وكان جوسلين لعنة الله فارس الفرنج غير مدافع، قد جمع الشجاعة والرأي، فاحتلال عليه نور الدين حتى أوقعه بكمين وأخذه أسيراً. وكان أسره من أعظم الفتوح، لأن جوسلين كان شيطاناً عاتياً شديداً على المسلمين، قاسي القلب. وأصيّبت النصرانية كافة بأسره. ولما أسر، سار نور الدين إلى قلاعه فملكتها وهي (تل باشر وعين تاب وإعزاز وتل خالد وقورس والراوندان وبرج الرصاص وحصن البارة وكفرسود وكفرلاتا ودلوك ومرعش ونهر الجوز) وغير ذلك من أعماله في مدة يسيرة. وكان نور الدين كلما فتح منها حصناً نقل إليه من كل ما تحتاج إليه الحصون خوفاً من نكثة تلحق المسلمين من الفرنج^(١).

حشد الفرنج حشودهم سنة ٥٤٧ هـ = ١١٥٢ م، وساروا نحو نور الدين، ودارت معركة قرب دлок انتصر فيها المسلمين، واستولوا على دлок. وبدأت مدن بلاد الشام في تسليم قيادها لنور الدين زنكي، حتى إذا ما كانت سنة ٥٤٩ هـ = ١١٥٤ م، خضعت دمشق لحكم نور الدين، فتوحدت بلاد الشام كلها تحت قيادة نور الدين، مما مهد له السبيل لاخضاع مصر لحكمه، وتوحيدها تحت قيادته، فرسم الطريق لصلاح الدين الأيوبي، الذي جاء بعده، وسار على نهجه. ولم يكن الفاصل الزمني بين فتح أقامية (قلعة المضيق) وبين توحيد بلاد الشام قد زاد على أربع سنوات. وقد لا تكون هناك حاجة لبراز مدى الدور الذي تركه فتح أقامية في التحول الحاسم بانتقال المسلمين من الدفاع المحدود وغير المنسق إلى الهجوم العام والشامل (الاستراتيجي).

وبعد، فما من مكان أو موقع يحتل مرتبة ثابتة بصورة مستمرة. وكثيراً ما تقفز بعض الواقع إلى المرتبة الأولى من القيمة والأهمية خلال فترة زمنية معينة - مثل ستالينغراد ولينينغراد في الحرب العالمية الثانية، أو سنغافوره - حتى إذا ما تجاوزها الزمن، وتجاوزتها الأحداث عادت لتحتل مرتبة ثانوية، وقد تضيع في زوايا التاريخ المجهولة. أو قد تزول من على الخارطة الجغرافية للبلدان. ولعل (قلعة أقامية - أو

(١) الكامل في التاريخ - أحداث سنة ٥٤٦ هـ.

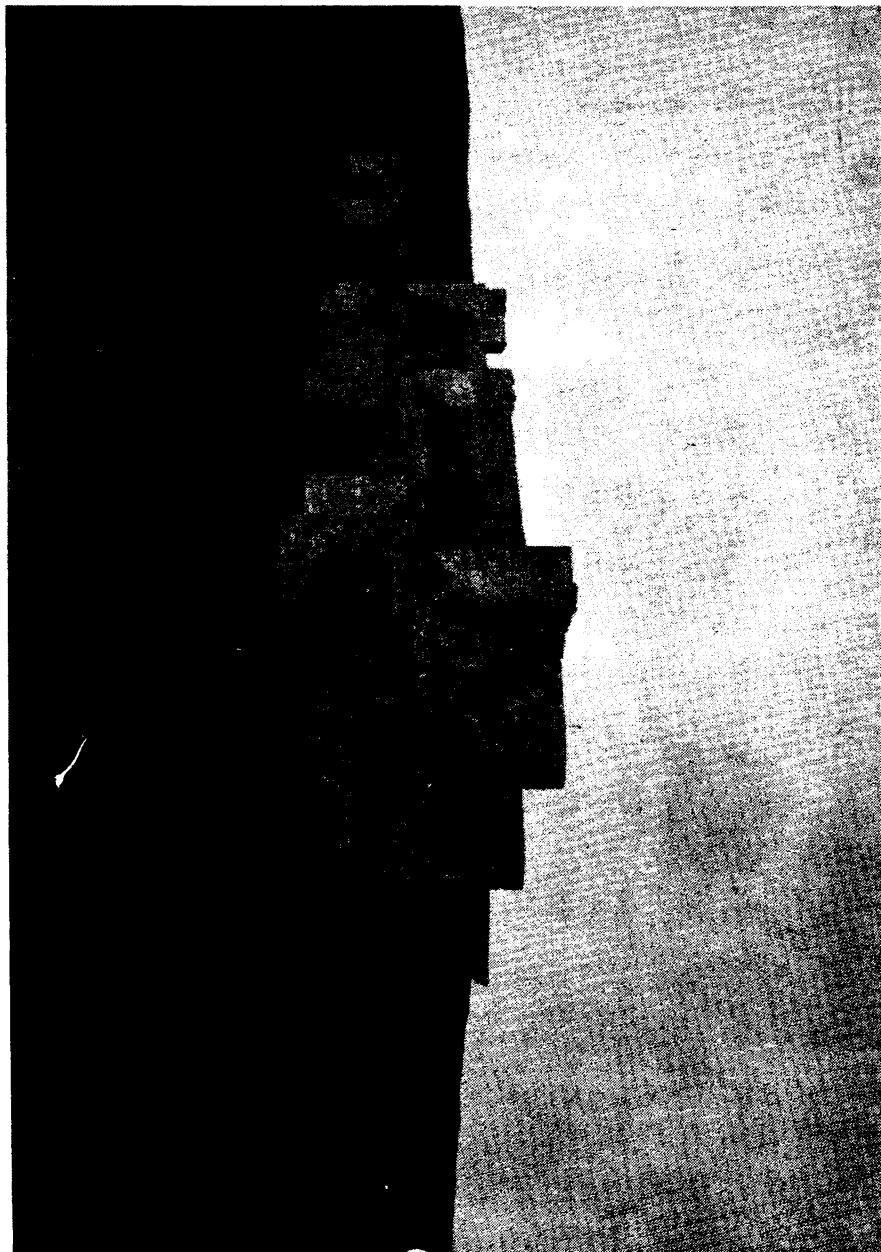
قلعة المضيق) هي أفضل نموذج يصور هذه الحقيقة. ذلك أن أقامية تنام اليوم هادئة، متناسية أنها كانت في يوم من الأيام هي قطب الرحي في صراعات دامية. وأنها رسمت على جدار الزمن نقطة التحول الخامسة في صراع المسلمين ضد الغزاة من الفرنج الصليبيين ومن المغول التتار. ولا بد من القول أيضاً أن هذا الارتباط الزمني والمكاني قد التحم بدوره أيضاً باسم القائد الذي صنع التحول (وهو نور الدين زنكي - الشهير بالشهيد). إنها يد القدر التي صنعت نور الدين ليكون رجل التحول. وهي ذات اليد التي جعلت من قلعة المضيق - أقامية - نقطة التحول وذلك سنة ٥٤٥ هـ = ١١٥٠ م. وقد استمر الصراع بعدئذ زمناً طويلاً. وليس من المبالغة في شيء القول أن البداية التي انطلقت من أقامية قد أخذت مداها في حطين وفي عين جالوت وعلى أسوار عكا ، حيث تم طرد آخر بقايا الفرنج الصليبيين من بلاد الشام .

٠ - قلعة الحصن (حصن الأكراد).

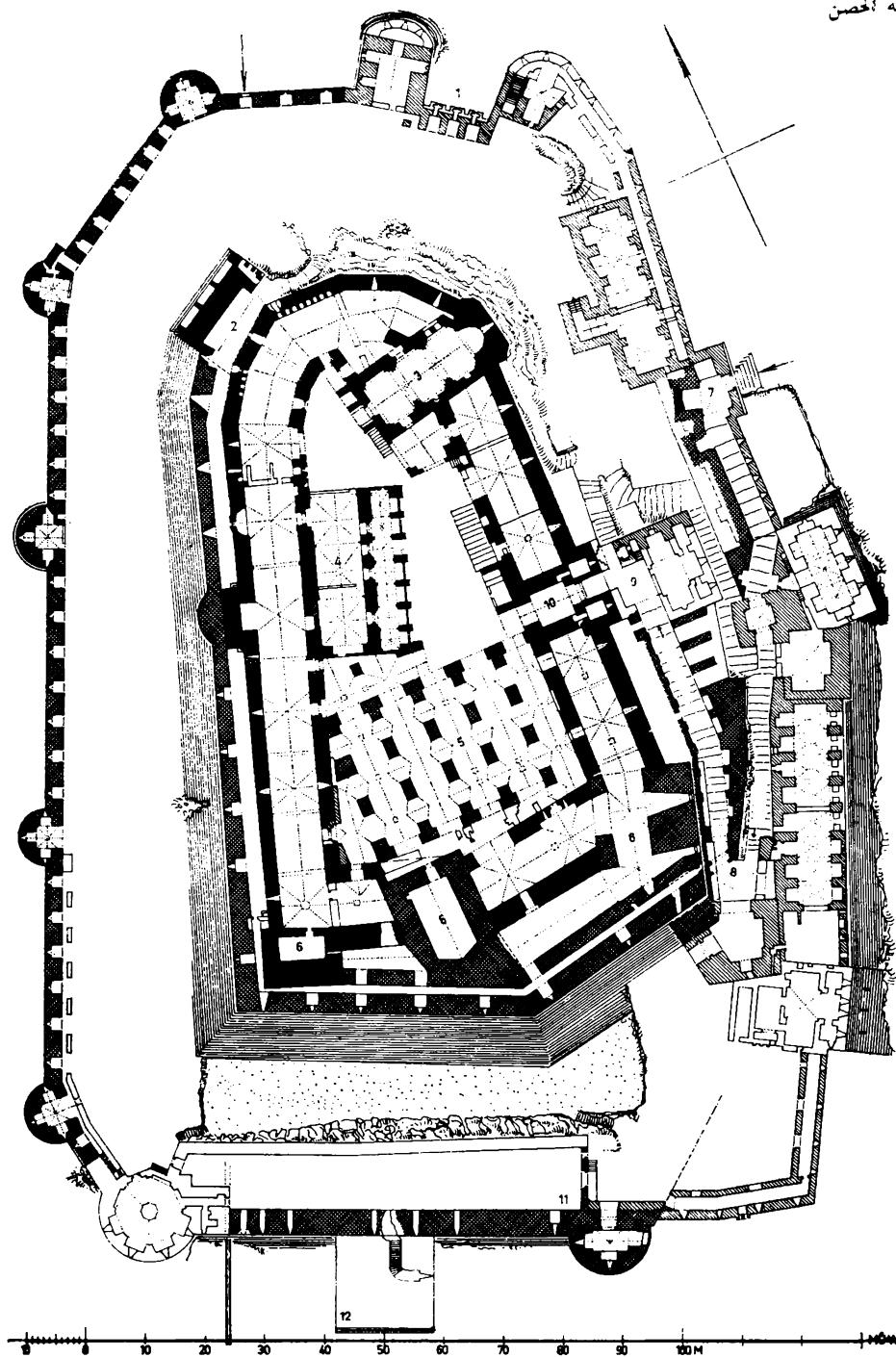
تقع قلعة الحصن (حصن الأكراد)^(١) وقريتها في شعاب جبال النضارة - أو النصيرية - (جبال العلوين حالياً) في وسط سوريا. وتحتل موقعاً ممتازاً فوق ذروة مرتفعة يزيد ارتفاعها على ألفي ومائة قدم. وتحيط بها المدرجات المتوسطة الانحدار من جميع جهاتها. وهي على اتصال مباشر بالنظر مع قلعة صافيتا (القصر الأبيض) المجاورة لها. وتعتبر قلعة الحصن واحدة من أفضل القلاع التي عاشت تجربة الحرب الصليبية القديمة، رغم أنها ليست أكبر القلاع التي اشتهرت خلال تلك الحقبة الزمنية - من حيث اتساع المنطقة المسورة -. وتضم بقايا القلعة قناة مائية قدت في الصخر، وهي التي تعزل القلعة عن الجرف المتند بعيداً باتجاه الجنوب. وهي تتتألف من حلقتين متحدتي المركز من التحصينات، موصولتين بمدخل طويل منحدر، يمكن للفرسان - الخيالة - الصعود عليه للوصول من بوابة الحصن الخارجي إلى الفناء الداخلي. وتأخذ الحلقة الخارجية شكل مقلع أهليبيجي، وهي تتتألف من سور يضم عدداً من الشرفات الدفاعية، ومقواة بمحصون بارزة نصف دائرة. وهناك حصنان بارزان ملاصقان تماماً للبوابة الثانوية الصغيرة في الواجهة الشمالية يضمنان حراستها وحمايتها. أما الواجهة الشرقية التي تتمتع بجمالية طبيعية أفضل من بقية الاتجاهات، فيحرسها ثلاثة حصنون بارزة مستطيلة الشكل صغيرة تحوي أحدها المدخل الرئيسي. وقد وصف المؤرخ أبو الفداء في مؤلفه تقويم البلدان قلعة الحصن بقوله: «حصن الأكراد هو قلعة حصينة مقابل مدينة حصن ، من غربيها ، على الجبل المتصل بجبل لبنان ، ولها ربن ، وكانت مقر ولاية السلطنة قبل فتح طرابلس ، وهي على مرحلة من حصن وكذلك عن

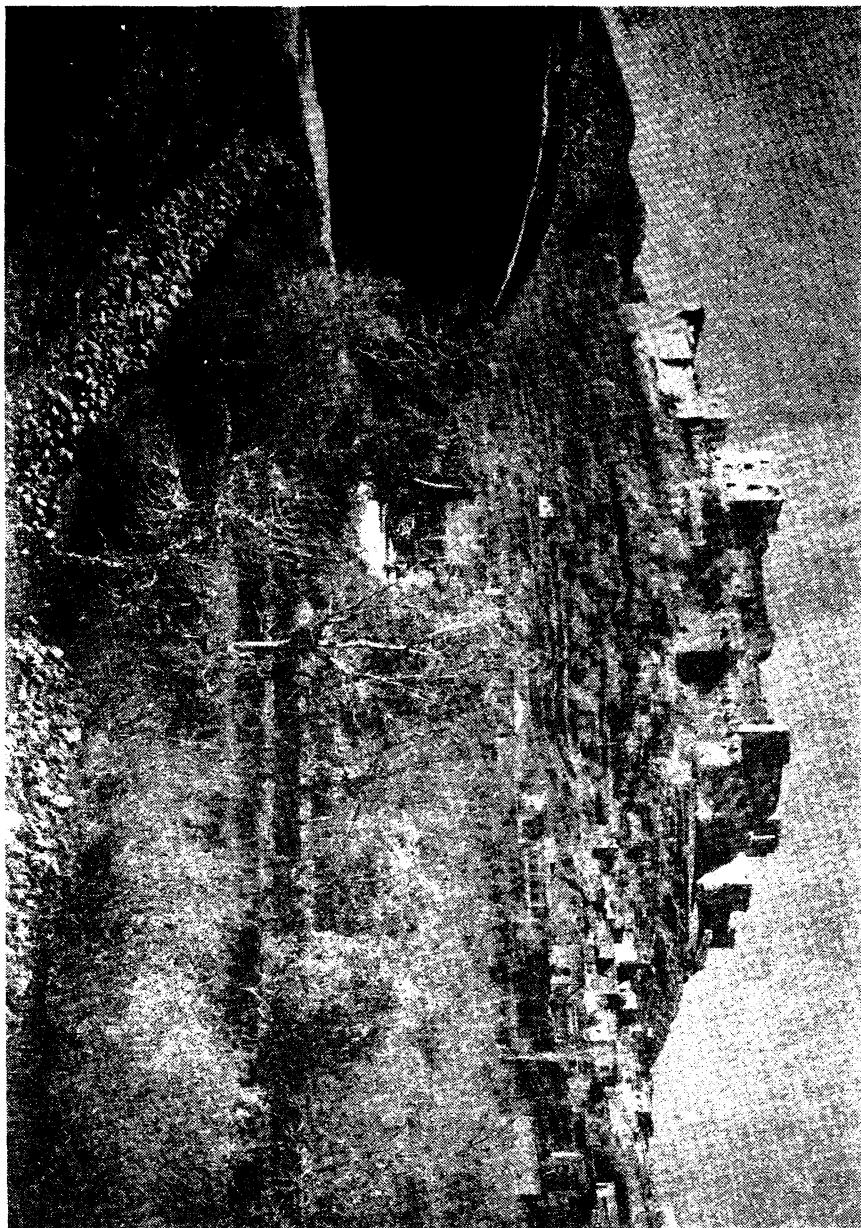
(١) قلعة الحصن - وباللغة الفرنسية CRAC أو حصن الاستبارية : CRAC DE L'OPITAL وباللاتينية - . CASTRUM-CRATI كراتوم CRATUM - وكاستروم كراتي

قلعة الحصن

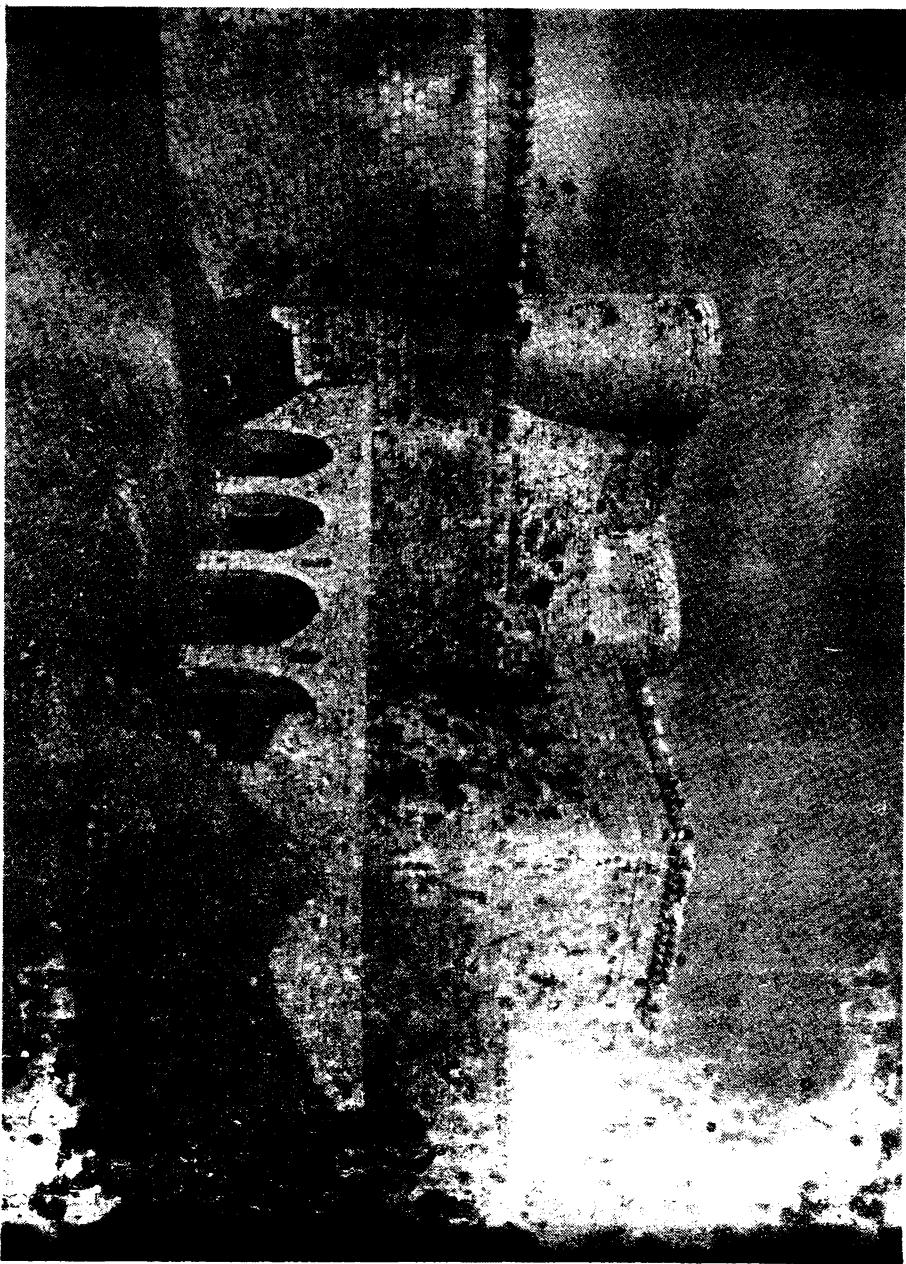


قلعة الخصن



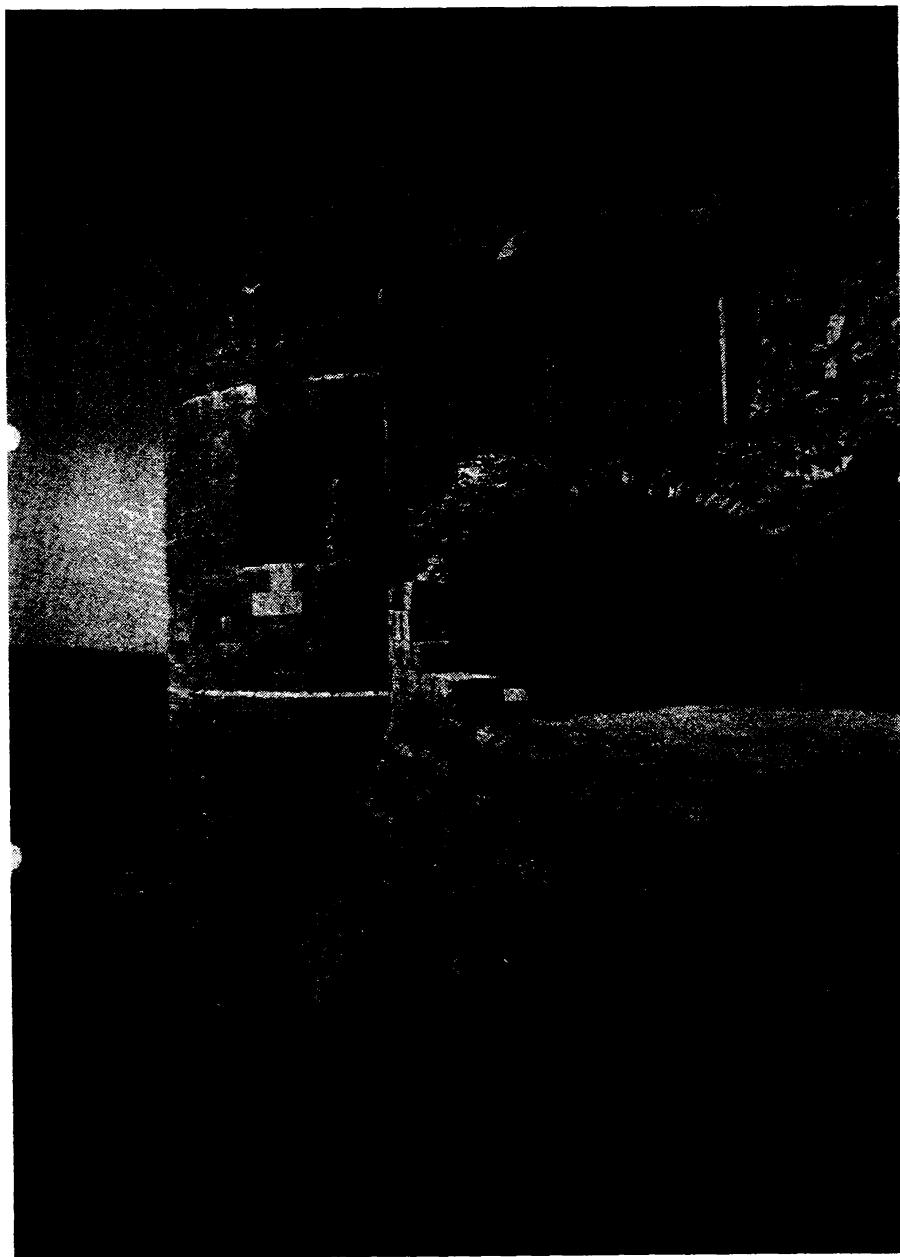


قلعة الحصن

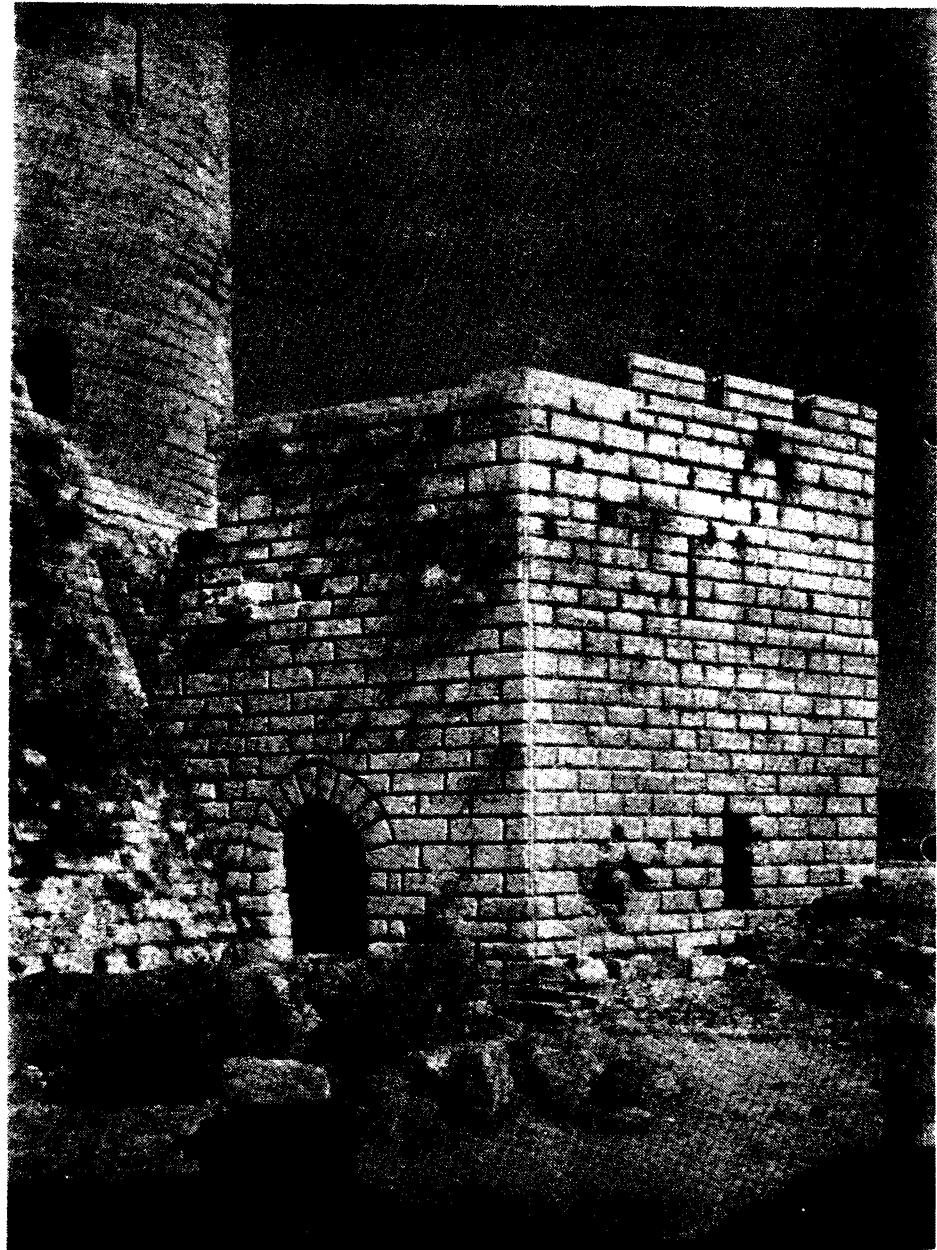




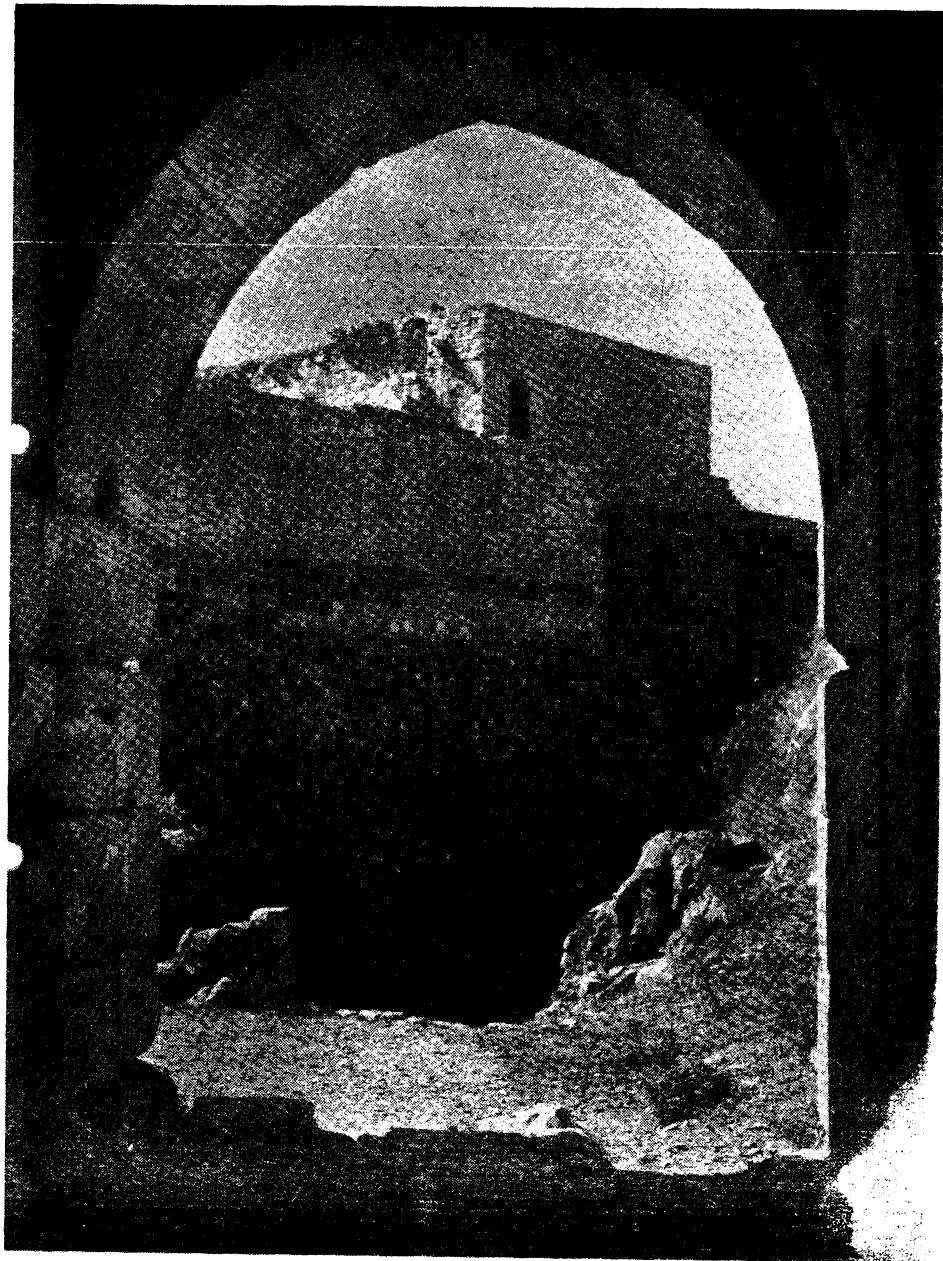
قلعة الحصن



قلعة الحصن



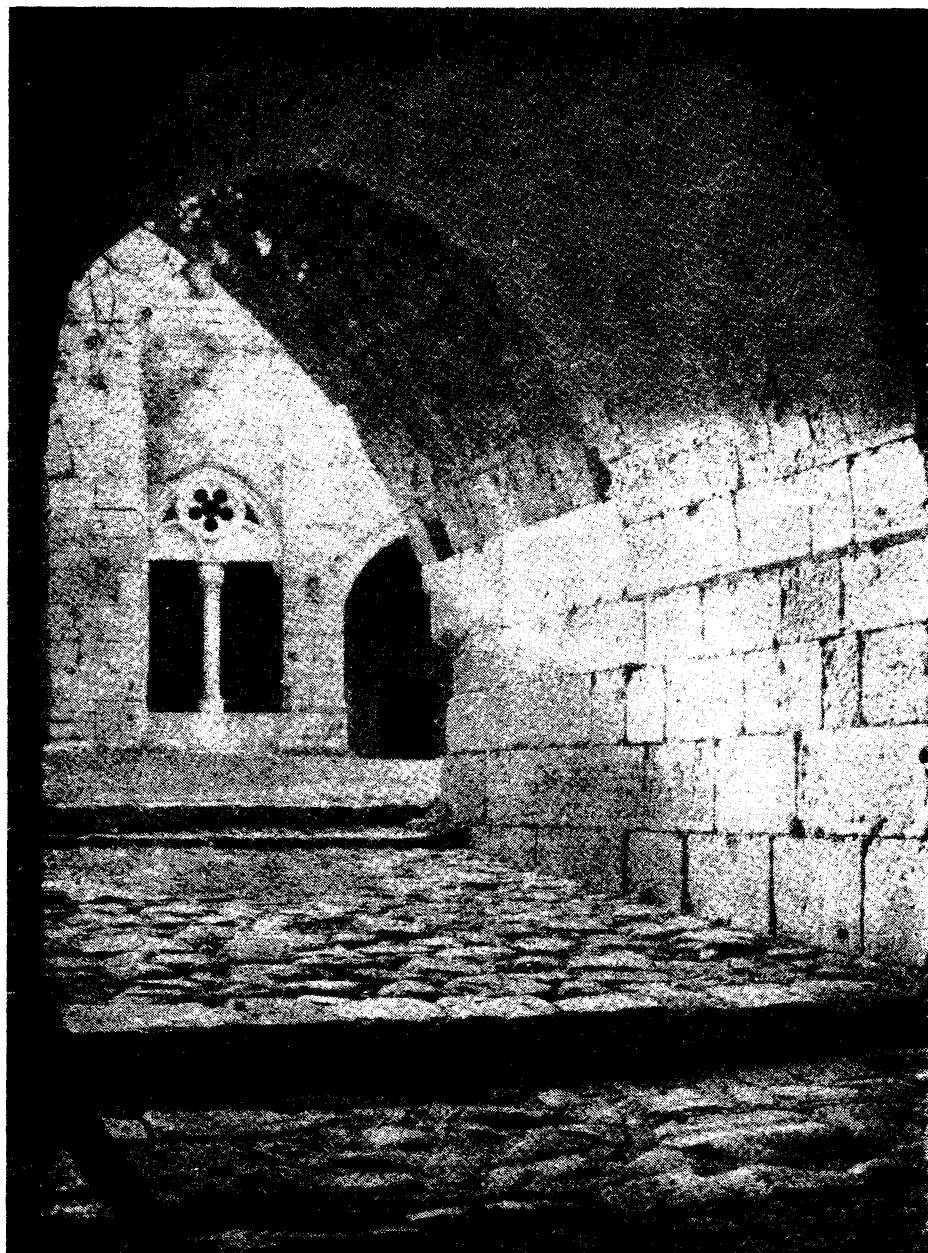
قلعة الحصن



قلعة الحصن



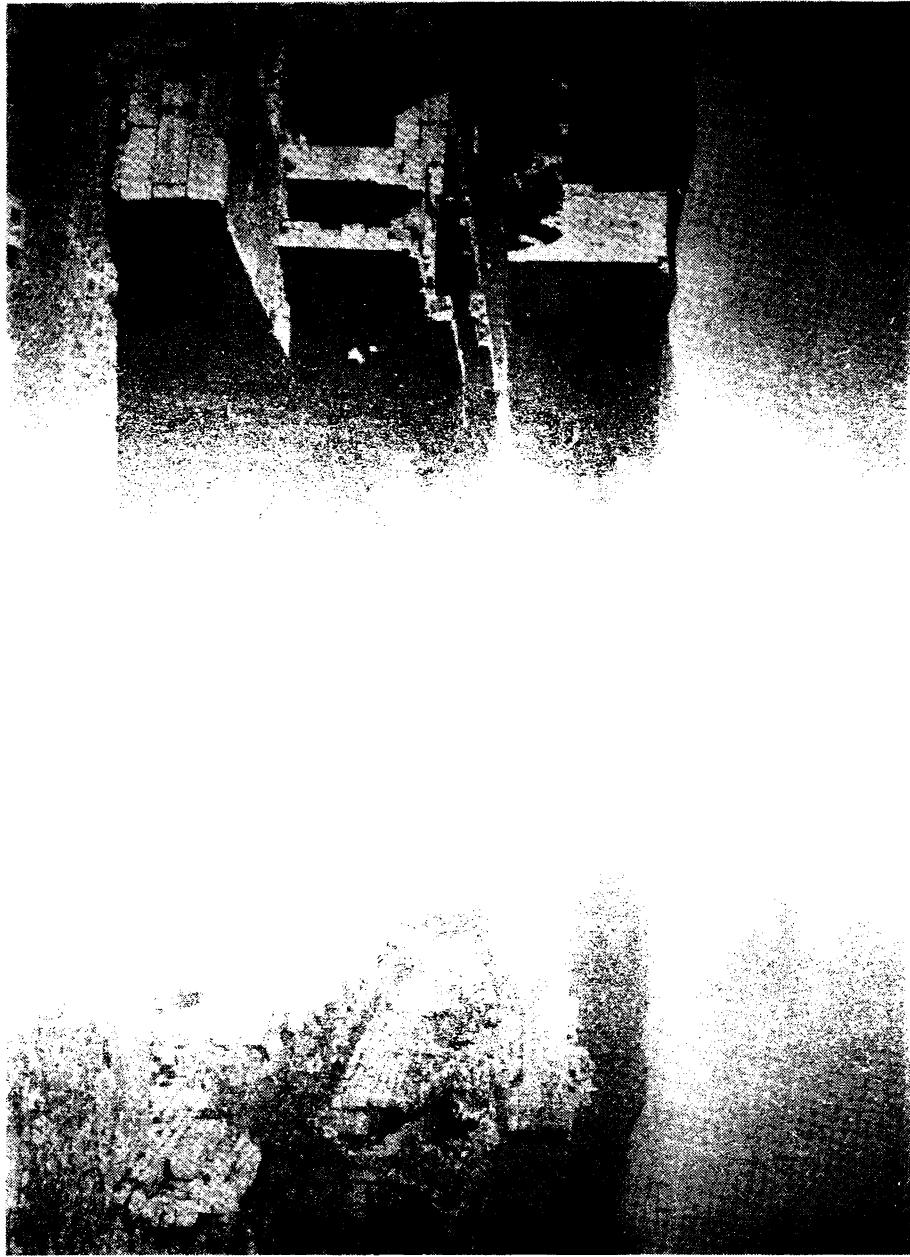
قلعة الحصن



قلعة الحصن



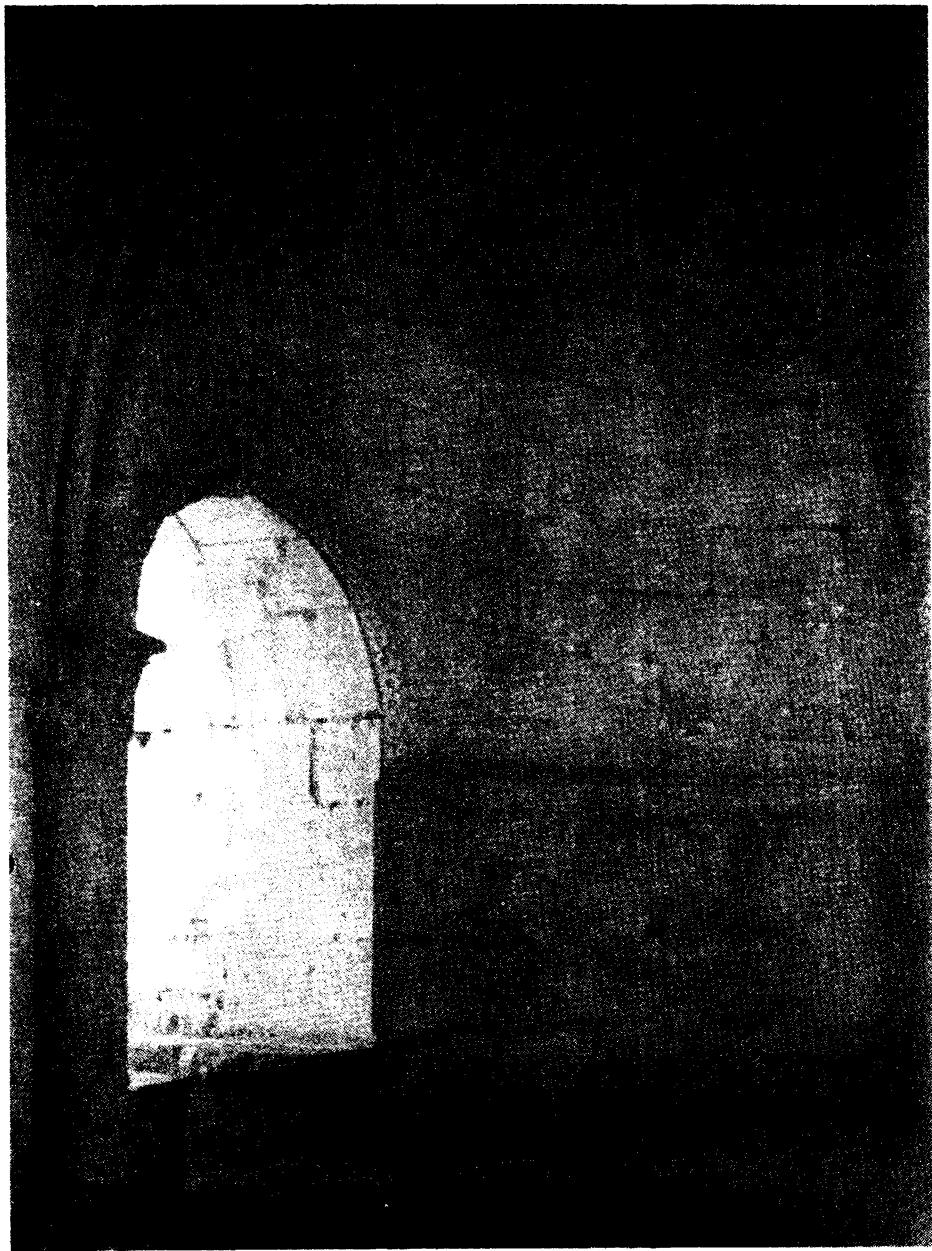
قلعة الحصن



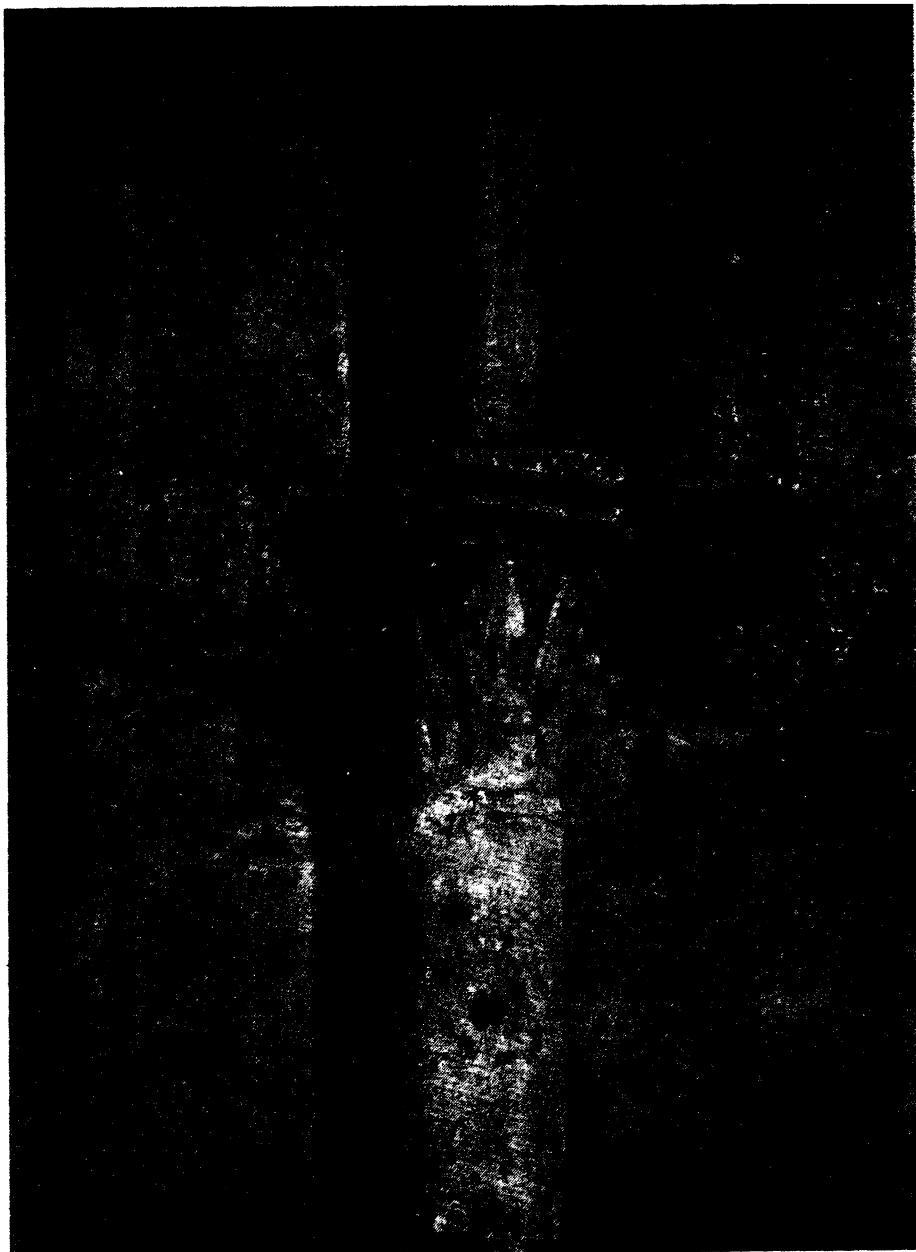
قلعة الحصن



قلعة الحصن



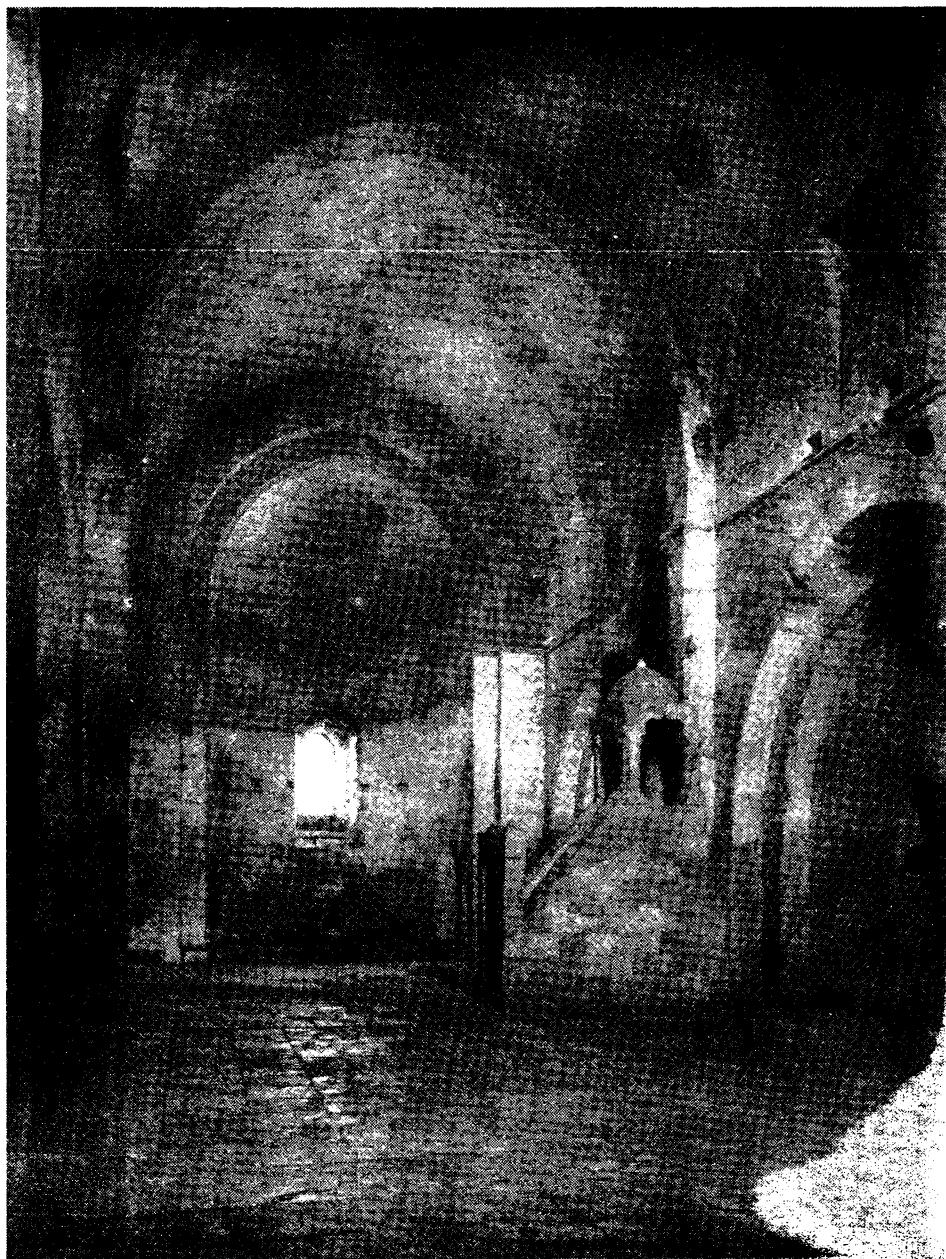
قلعة الحصن



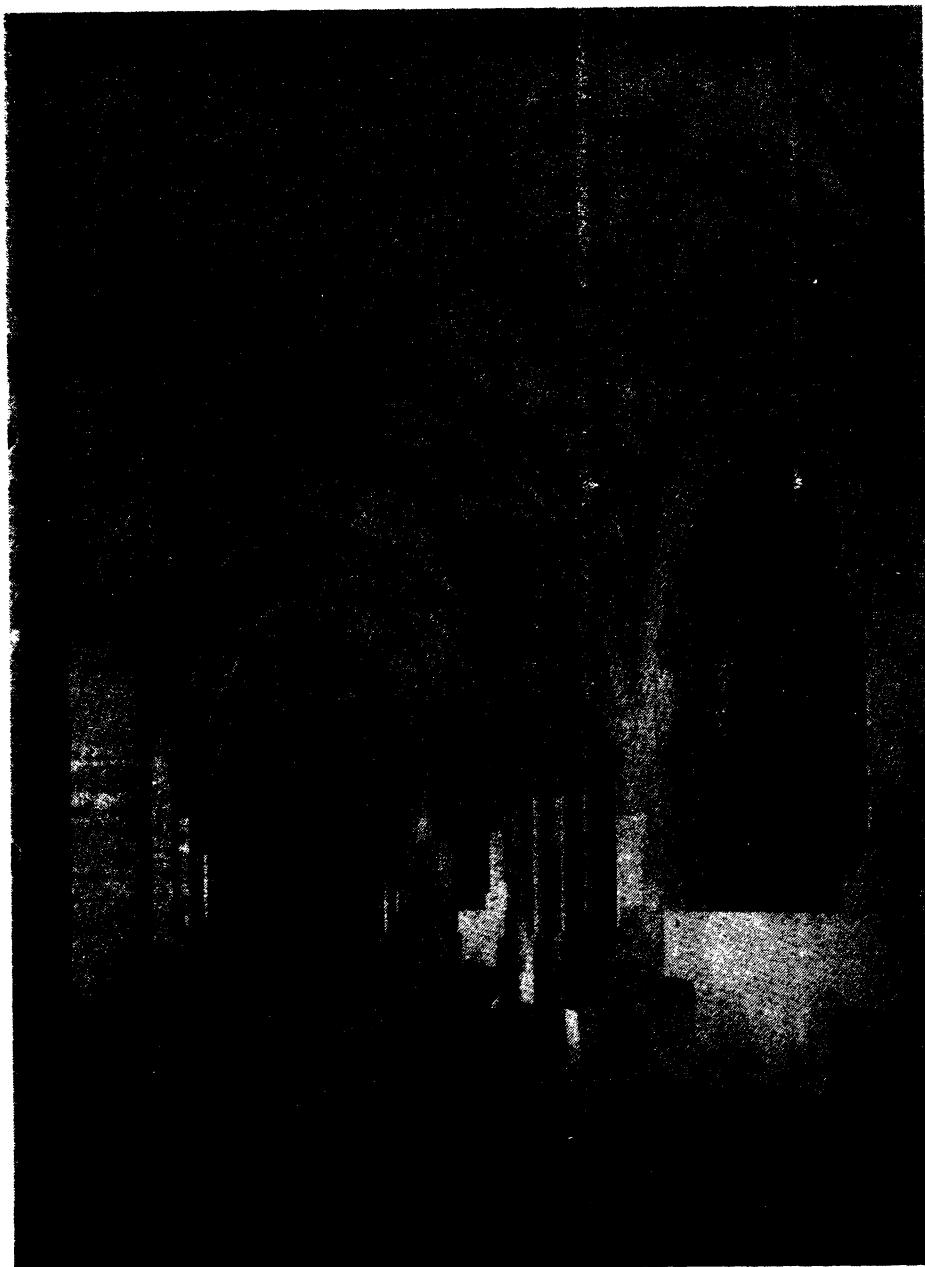
قلعة الحصن



قلعة الحصن



قلعة الحصن



قلعة الحصن

طرابلس - وهي بين حصن وطرابلس^(١). ولقد حلت القلعة اسم حصن الأكراد ، لأن أمير حصن قد أسس بناء هذه القلعة سنة ٤٢٣ هـ = ١٠٣١ م ، وأنزل بها حامية من الأكراد .

تلكم هي بعض ملامح البناء القائم على صهوة جبل مرتفع ، وهو بنيان يقف اليوم بجلال ووقار ، ويحاول الصمت على ما عرفه في الأيام الخواли من الأحداث المثيرة والقصص الشائقة والتي تشكل في حد ذاتها ملحمة كاملة ، تعود بداياتها إلى الأيام الأولى من اجتياح جحافل الفرنج الصليبيين لبلاد الشام سنة ٤٩٣ هـ = ١٠٩٩ م . ثم تتابعت الأحداث سرعاً ، حيث حاول الفرنج احتلال قلعة الحصن سنة ٤٩٥ هـ = ١١٠١ م ولكنهم فشلوا في ذلك . ثم عاود أمير انطاكية (الكونت تنكرد) المحاولة سنة ٥٠٣ هـ = ١١٠٩ م . ونجح في محاولته هذه المرة . وجرت العملية على النحو التالي : تقدمت قوات الفرنج في القيعة ، وأصيب السكان المسلمين بالذعر ، فاقتادوا قطعان مواشיהם ولجؤوا إلى حصن الأكراد يلتمسون في منعه وفي قوة أسواره الملاذ والأمن . ولكن الفرنج صمموا على مهاجمة الحصن ، والاستيلاء عليهم ، يحدوهم الأمل للحصول على ما يحتويه من الأغنام والمواد التموينية .

فعمل المسلمون على فتح أحد الأبواب ، وأخرجوا منه بعض الأنعام ، وسارع جند الفرنج لاحتواء هذه الغنيمة ، وتفرقوا لجمع ما تشتت منها ، فأسرع المسلمون بالانقضاض على الفرنج ، وأنزلوا بهم خسائر فادحة . وفي اليوم التالي أراد الفرنج الانتقام لهزيمتهم . فقاموا بهجوم شامل على القلعة . وكم كان ذهولهم كبيراً عندما بوغتوا بعدم وجود أحد من المسلمين في القلعة التي هجرها سكانها في ظلمة الليل . وأقام الفرنج فيها لمدة ثلاثة أسابيع ، كما يحكموا مخططات عملهم القادمة ، وليسقوا التعاون فيما بينهم ، وليمنحوا جندهم بعض الراحة^(٢) . ومضت ثلاث سنوات وقلعة الحصن تابعة لأمير انطاكية . ولكن هذه التبعية انتقلت في سنة ٥٠٦ هـ = ١١١٦ إلى كونت

(١) تقويم البلدان - أبو الفداء - ص: ٣٢٠ والقلاع أيام الحروب الصليبية ص: ٧٦ - ٧٩ .

(٢) تاريخ الحروب الصليبية: ٣٧٩/١ - ٣٨٠ .

طرابلس (ريوند الثاني) الذي أنسد قيادة الحامية المدافعة عنها إلى (الكونت غيمار دوكراتوم) ★ والذي ما لبث أن أقطعها للطائفة الدينية المعروفة باسم (فرسان الاستبارية) ★ وذلك مقابل التعويض على غليوم دوكراتوم باقطاع آخر - وتقع القلعة إلى قاعدة للعدوان على أقاليم المسلمين المجاورة. وكان السلطان السعدي - ألب أرسلان - قد حاول انتزاع القلعة من قبضة الفرنج سنة ٥٠٩ هـ = ١١٥٤ م وأنقى عليها الحصار لبعض الوقت، ولكنه لم يتمكن من إعادة فتحها.

و جاء زلزال فضرب القلعة (سنة ٥٠٣ هـ = ١١٥٧ م) ودمر بعض تحصيناتها فأسرع الفرنج لإعادة ترميمها واصلاحها. ويمكن تجاوز تلك الهجمات والمجازات المضادة والاغارات الصغرى، للتوقف عند تلك المعركة الكبرى التي وقعت بجوار القلعة سنة ٥٠٨ هـ = ١١٦٢ م والتي عرفت باسم (وقعة البقيعة) ★. حيث كان الفرنج الصليبيون قد قاموا بهجوم على مصر بقيادة ملك القدس - امريلك - (١) حل نور الدين زنكي لهاجحة حصن الأكراد - أو قلعة الحصن - إلى جانب هجمات أخرى على الفرنج بهدف تخفيف الضغط عن مصر. وحدث عندما كان نور الدين زنكي يحاصر قلعة الحصن، أن مرت قافلة كبيرة من الحجاج الفرنج، ووصلتها استغاثات الحامية المدافعة عن القلعة، فأسرعت لتقديم الدعم والمساعدة، وانضم إليها جيش طرابلس وجيشه أنطاكية علاوة على جيش الروم البيزنطيين. وبينما المسلمين في خيامهم وسط النهار، لم ير لهم إلا ظهور صليبان الفرنج من وراء الجبل الذي عليه حصن الأكراد. ولم يشعروا إلا والفرنج يغتربون، فلم يتحمل المسلمون ذلك أو يطيقونه، وأرسلوا إلى نور الدين يعرفونه الحال وقد رهقهم الفرنج بالحملة ولم يثبت المسلمون وأسرعوا إلى معسكرهم والفرنج في ظهورهم، فوصلوا والفرنج معاً إلى معسكر نور الدين. ولم يتمكن المسلمين من ركوب الخيل وأخذ السلاح إلا وقد خالطهم الفرنج، فأكثروا القتل والأسر في المسلمين. وكان الروم بقيادة - قسطنطين كولومان - هم

* غليوم دوكراتوم : (GUILLAUME DE CRATUM) وقد منح اسمه للقلعة لبعض الوقت.

** ومن أجل ذلك حللت القنطرة أيضاً اسم كراك دوشفالبيه (KRAK DES CHEVALIERS).

(١) وقعة البقيعة - الكامل في التاريخ أحداث سنة ٥٠٨ هـ . وتاريخ الحروب الصليبية : ٥٩٣/٢ .

لأن الجميع على المسلمين، وأنقلهم وطأة، بحيث أنهم لم يبقوا على أحد من المسلمين
وهيئوا خيمة نور الدين، وقد ركب فيها فرسه، ونجا بنفسه، ولسرعة ركب الفرس
فقد ركب نور الدين والشبحة في رجله، فنزل فارس كردي وقطع الشبحة، ونجا نور
الدين وقتل الكردي. فأحسن نور الدين إلى مخلفيه - ورثته وعائليه - ووقف عليهم
الوقوف ونزل نور الدين على بحيرة بالقرب من حصن ، وبينه وبين المعركة أربع
نights، وتلاحق به من سلم من العسكر . وقال له بعضهم: ليس من الرأي أن تقيم
هنا، فإن الفرنج رجعوا حلهم الطمع على المجيء إلينا، فنؤخذ ونخن على هذه الحال
فوجئوا واسكته وقال:

إذا كان معك ألف فارس لقيتهم ولا أبالي بهم، ووالله لا أستظل بسقف حتى
أخذ بياري وثار الإسلام .

ثم أرسل إلى حلب ودمشق، وأحضر الأموال والثياب والخيام والسلاح والخيل ،
فأعطي الناس عرض ما أخذ منهم جميعه ، بقوتهم ، فعاد العسكر كان لم تصله هزيمة .
وكمل من قتل أعطى إقطاعه لأولاده . وأما الفرنج فإنهما كانوا عازمين على تصد حصن
بعد المزية لأنها أقرب البلاد إليهم . فلما بلغهم نزول نور الدين بينها وبينهم ، قالوا: لم
يتعل هذا إلا وعنده قوة يعنينا بها .

ولما رأى أصحاب نور الدين كثرة خرجه - انفاقه - قال له بعضهم: إن
لك في بلادك إدارات وصدقات كثيرة على الفقراء والصوفية والقراء . فلو
استعنت في هذا الوقت بما تنفقه عليهم لكان أصلح ، فغضب من ذلك وقال:
والله إنني لا أرجو النصر إلا بهم . فإنما ترزاكون وتنصرتون بضعفائكم ، وكيف
أنقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم على فراشي بسهام لا تخطي ، وأصرفها
إلى من لا يقاتل عني إلا إذا رأي بسهام قد تصيب وقد تخطي ؟ وهؤلاء القوم
لم نصيب في بيت المال . فكيف يحل لي أن أعطيه لغيرهم ؟

ثم إن الفرنج راسلوا نور الدين يطلبون منه الصلح فلم يجدهم . وتركوا عند حصن
الأكراد من يحميه ، وعادوا إلى بلادهم .

جاءت السنة التالية (٥٥٩ هـ = ١١٦٣ م). ووفى نور الدين بقسمه، وأخذ بثأره وثار المسلمين، حيث سجل على الفرنج انتصاراً حاسماً في معركة وقعت قرب أرتاح. حيث أباد جيوش الفرنج، وكان في جلبة أسراءه أمير أنطاكية وأمير طرابلس، وقائد جيوش الروم - كولومان - فجرى ربطهم جميعاً بالحبال، وحلوا إلى حلب، وجرى تطويق حصن الأكراد غير أن المسلمين لم يتمكنوا من فتحه. وجرت محاولة ثانية (سنة ٥٦٣ هـ = ١١٦٧ م) لفتح حصن الأكراد، وانتزاعه من قبضة الفرنج. غير أن الفشل كان من نصيب هذه المحاولة أيضاً.

من المعروف أن طوائف الفرسان الدينية (الاستبارية والداوية والتيتون)، والتي نظمت أيام الحملات الصليبية القديمة، كانت من أشد مراكز القوى عداء للإسلام وأهله، وهذا فان امتلاك فرسان الاستبارية لقلعة (حصن الأكراد) قد وضعهم في موقع العدوان المباشر على الأقاليم الإسلامية المجاورة، لاسيما بعد وقوع أمراء الفرنج في أسر نور الدين زنكي في أرتاح. حيث جرى توزيع مناطق العمل وتقسيمها. فحااز الداوية طرطوس وكل الشطر الشمالي من كونتية طرابلس بينما استند فرسان الاستبارية إلى القلعة التي صارت تنسب إليهم - قلعة الحصن - للعمل في إقليم البقعة. وكان من طبيعة الأمور أن نظم المسلمين بالمقابل هجمات ضد قاعدة العدوان في قلعة الحصن. وكان هجوم صلاح الدين الأيوبي على هذه القلعة (سنة ٥٨٤ هـ = ١١٨٨ م) وحصاره لها لمدة شهر، ضمن هذا الإطار، إذ أنه لم يتعرض للحصن وحاميته من فرسان الاستبارية بهجوم مباشر، واكتفى بالهجوم على الواقع المحيطة بالقلعة، غير أن هجمات صلاح الدين وفتوحاته لم تترك للفرنج في شمالي بلاد الشام إلا أنطاكية وطرابلس. واحتفظ الاستبارية بحصن المرقب وحصن الأكراد (قلعة الحصن) كما احتفظ الداوية بطرطوس. وظن صلاح الدين أنه بات قادرًا على فتح القلعة بعد أن غدت معزولة. فألقى الحصار عليها، ولكن تدفق امدادات الفرنج من صقلية حمله على رفع الحصار عن قلعة الحصن والامتناع عن مهاجمة طرابلس. وتتابع فرسان الاستبارية أعمالهم العدوانية - بتشجيع من ملك القدس. حتى إذا ما كانت سنة ٦٠١ هـ = ١٢٠٤ م. انطلقوا من حصن الأكراد، ووصلوا بهجومهم إلى مدينة حماة وجوارها.

غير أن هذه الهجمات والاغارات لم تحقق شيئاً غير النهب والسلب والازعاج. وقد استثارت الأعمال العدوانية للطوائف الدينية الصليبية غضب السلطان الكامل الأيوبي، فقام سنة ٦٢٦ هـ = ١٢٢٨ م بقيادة هجوم على حصن الأكراد، فما كان من فرسان الاستبارية إلا أن ردوا في السنة التالية باهجوم على بعرىن. ثم اشتركوا مع فرسان الداوية في طرطوس - سنة ٦٢٨ هـ = ١٢٣٠ م. باهجوم على مدينة حماة. ولكنهم وقعوا في كمين وحلت بهم الهزيمة. ثم قامت الطائفة في السنة التالية بهجوم مباغت على جبلة ، وأمكن لها الاستيلاء عليها ، غير أنها لم تتمكنا من المحافظة عليها لأكثر من أسبوع قليلة.

عمل فرسان الاستبارية طوال هذه الفترة على بذل جهودهم لتحسين (قلعة الحصن) ودعم الدفاع عنها ، لاسيما بعد الزلازل التي ضربتها في سنوات ٥٥٣ و ٥٦٥ هـ (١١٥٧ و ١١٦٩ م). وتم تشييد كنيسة في القلعة بمساعدة - مالية - من ملك بوهيميا (فلاديسلاس الثاني)^(١). كما أن الزلازل التي وقعت سنة ٥٩٨ هـ = ١٢٠١ م تسببت في تدمير حلقة الدفاع الخارجية والجدار المنحدر الضخم في الجنوب. فتمت إعادة تشييدها مع المستودع الواقع خلف الواجهة الجنوبية - وهي الواجهة الرئيسية للقلعة العلوية التي تبدأ من الخندق مباشرة وتكون من ثلاثة أبراج نصف دائريه ضخمة تشرف على الدفوعات الخارجية ، وتبدو وكأنها تبرز بصورة طبيعية عن الساتر الحجري الشديد الانحدار . وقد اقيمت سرفتان دفاعيتان مقنطرتان خلف هذا الساتر المحمي بشكل رائع ، واللتين يتم الوصول إليهما من الغرف الكبيرة الموجودة فوق الطابق الأرضي للقلعة العلوية . وقد ضمت الأبراج الثلاثة كلها غرفاً ذات أسقف مقنطرة مرتبة في عدة طبقات ، بينما تحتوى البرج الدائري في الزاوية الجنوبية الغربية غرفة حسنة التجهيز خصصت لقدم الاستبارية (غرفة السيد) ★ إضافة إلى غرف اقيمت بين الأبراج . وهناك في الغرب أقيم برج نصف دائري أضيف إلى القلعة خلال

(١) فلاميسلاس الثاني : VLADISLAS II أو LADISLAS وهو اسم لعدد من ملوك هنغاريا وبولونيا - أشهرهم فلاميسلاس الأول - الملقب بالقديس (١٠٤١ - ١٠٩٥ م) ثم ابنه فلاميسلاس الثاني . ★ غرفة - أو ملجاً السيد : LOGIS DU MAITRE .

مراحل متعددة. بينما بربز الجزء الناقص والنصف الدائري من مذبح كنيسة القلعة بروزاً خفيفاً فوق مستوى الأسوار من الجهة الشرقية. واقامت صنوف متعددة من الأقواس على البرج المستطيل الموجود عند الذروة الشمالية للقلعة العليا مما أضفى روعة خاصة على الواجهات الخارجية. وغطيت أنواعاً كبيرة من الساحات المكشوفة في داخل القلعة بعقود ضخمة تقسم مساحتها السطحية إلى عدد من المساطب - أو المصاطب - والتي هي في الأصل ذات مستوى واحد كما يفترض - وتوجد القاعة الكبرى والرواق المعتم في الفناء المقابل للكنيسة. ولقد أضفت هذه التحسينات على قلعة الحصن هالة من البأس والقوة، علاوة على ما اشتهر به فرسانها من العناد والشدة في القتال. وقد كان لذلك دوره في فشل الهجمات المتتالية التي قام بها المسلمين على القلعة. وقد يكون من الطبيعي أن تشعر الخامسة المدافعة عن القلعة بالزهو والخيلاء لما تميزت به قلعتهم من الصمود والمنعة والقوة.

فقد انهارت مقاومات كثيرة عندما هاجمها صلاح الدين الأيوبي، واستسلمت كثير من القلاع والتحسينات. ونجحت قوات المسلمين في فتح معظم المدن والقلاع المجاورة لقلعة الحصن. فباتت القلعة معزولة عن امكانات الدعم من الفرنج. وأصبح وجودها غريباً وسط المحيط الإسلامي المطوق لها من اتجاهاتها كلها. وفي الوقت ذاته، لم يكن المسلمين في عجلة من أمرهم. فبقاء بعض القلاع والمدن الساحلية تحت حكم الفرنج الصليبيين، لم يعد أكثر من قضية زمن. وكانت هناك مشكلات تطلب منحها الأولوية على الاهتمام بشأن هذه القلاع. مثل مواجهة هجمات المغول التتار، والرد على الحملات الصليبية الطارئة. وظن الفرنج أن تحصيناتهم القوية مانعتهم من قبضة المسلمين.

وجاء الظاهر بيبرس وأمضى سبعة عشر عاماً من الجهاد المستمر حتى ضيق الخناق على الفرنج وحصرهم في عدد قليل من القلاع والمدن: (عكا وصمور وصيدا وطرابلس وجبيل وطرطوس - وقلاع عثليت والمربق والصن). وقرر بيبرس طرد الفرنج من قلعة الحصن (سنة ٦٧٠ هـ). فسار جيشه وضرب طوق الحصار عليها (يوم ٣ - آذار - مارس - سنة ١٢٧١ م) وانضم إليه في اليوم التالي أمير حماه وجيشه، كما

لحتت به كتائب الاسماعيلية - الباطنية أو الحشيشية -. على أن الأمطار الغزيرة التي ظلت تهطل بضعة أيام منعها من جلب وإحضار أدوات الحصار. واستطاع المسلمون أن يشقوا لهم طريقاً إلى باب السور الخارجي ، بعد قصف شديد لم يستمر طويلاً . ثم شقوا طريقهم بعد أسبوعين إلى السور الداخلي ، وقتلوا كل من تصدى لمقاومتهم من فرسان الاستبارية ، ومن المسيحيين - النصارى - الذين انضموا للاستبارية وعملوا معهم. وظل عدد كبير من فرسان الاستبارية يقاومون طوال عشرة أيام أخرى ، في البرج الكبير الواقع جنوب السور . ثم أعلنوا استسلامهم يوم ٨ نيسان - أبريل - سنة ١٢٧١ م. ووافق السلطان الظاهر بيبرس على إسرافهم إلى طرابلس تحت حراسة فرسان المسلمين. واستعاد المسلمون الحصن الضخم الذي قاوم هجمات المسلمين المتالية ، مما ضمن للظاهر بيبرس السيطرة على الطرق المؤدية إلى طرابلس. وأسرع بيبرس لاستئثار الضفر ، ففتح عكار . حيث قلعة الاستبارية في جنوب البقيعة (التي فتحت في أول شهر أيار - مايو) بعد حصار لم تتجاوز مده الأسبوعين . وخرج فرسان الاستبارية من صيدهم ، وأصبحوا عبرة للغزا الفرنج وللمسلمين ولن أراد أن يعبر .

أصدر السلطان الظاهر بيبرس أمره على الفور بوضع حامية إسلامية في القلعة - بقيادة صارم الدين قيماز - الذي بدأ بالعمل على إجراء اصلاحات واسعة تحت الاشراف المستمر للسلطان الظاهر بيبرس ذاته -. ولما كانت الواجهة الجنوبيّة ، وهي الجبهة الدفاعية الرئيسية للقلعة ، قد تعرضت للكثير من الدمار أثناء الحصار . فقد جرى التركيز على إعادة تحسينها بشكل جيد ، وهذا فقد استأثرت بالقسط الأكبر من التعديل والتبديل . وكانت هذه الواجهة تتشكل في الأصل - مثلها كمثل الواجهة الغربية الطويلة ، من سور واق تحميء حصون بارزة نصف دائيرية ، وشرفة متواصلة بها الكثير من الكوى - الفتحات -. فتم تشييد البرج المستطيل الضخم البارز عن الواجهة الجنوبيّة للسور الخارجي . وقد تطلب أعمال الترميم والاصلاح فترة طويلة استمرت إلى ما بعد سنة ٦٨٤ هـ = ١٢٨٥ م. حيث تم تشييد برج ضخم حمل اسم - السلطان قلاوون -. .

لقد كانت حامية قلعة الحصن - من فرسان الاستبارية - تعتمد على قوة الفرنج

الصليبيين وعلى دعمهم ومساندتهم . وذلك على نحو ما حدث سنة ٥٢٨ هـ = ١١٣٣ م . عندما خرج كونت طرابلس - بونز - كعادته للاغارة على بلاد المسلمين المجاورة لقلعة الحصن ، فوقع في كمين نصبه له فرسان التركمان المسلمين في جبال النصيرية . مما حمله على الهرب الى قلعة بعرин القريبة والواقعة على حافة وادي نهر العاصي^(١) وتصادف أن كان ملك الفرنج - ملك القدس فولك - يسير بجيشه نحو الشمال لنجددة مدينة أنطاكية التي كانت تجاهه تهديد المسلمين لها . فما كان من فولك إلا أن أسرع إلى قلعة بعرين ، فرفع الحصار الذي ضربه فرسان التركمان عن القلعة . وأنقذ أمير طرابلس وصاحب قلعة الحصن . ولكن وبعد أن تم طرد الفرنج من أنطاكية وسوهاها من المدن والقلاع . وجاء دور (قلعة الحصن) فلم يعد هناك من يستطيع نجاتها أو تقدم الدعم لها . وتتشابه فصول هذه القصة مع مجموعة قصص القلاع والخصون التي سيطر عليها الفرنج الصليبيون في هجماتهم الأولى ، ثم فتحها المسلمون في هجومهم الشامل . ولقد حكم الفرنج الصليبيون قلعة الحصن ١٦٤ سنة هجرية (١٥٩ سنة ميلادية) . وتركوا بعض الشواهد من الحجارة للتذكير بأحقاد الفرنج الصليبيين الدفينة ، ووحشيتهم وأصالتهم العدواية .

٤

(١) قلعة بعرين . هي القلعة المعروفة عند الفرنج باسم مونت فيراند - MONTEFERRAND

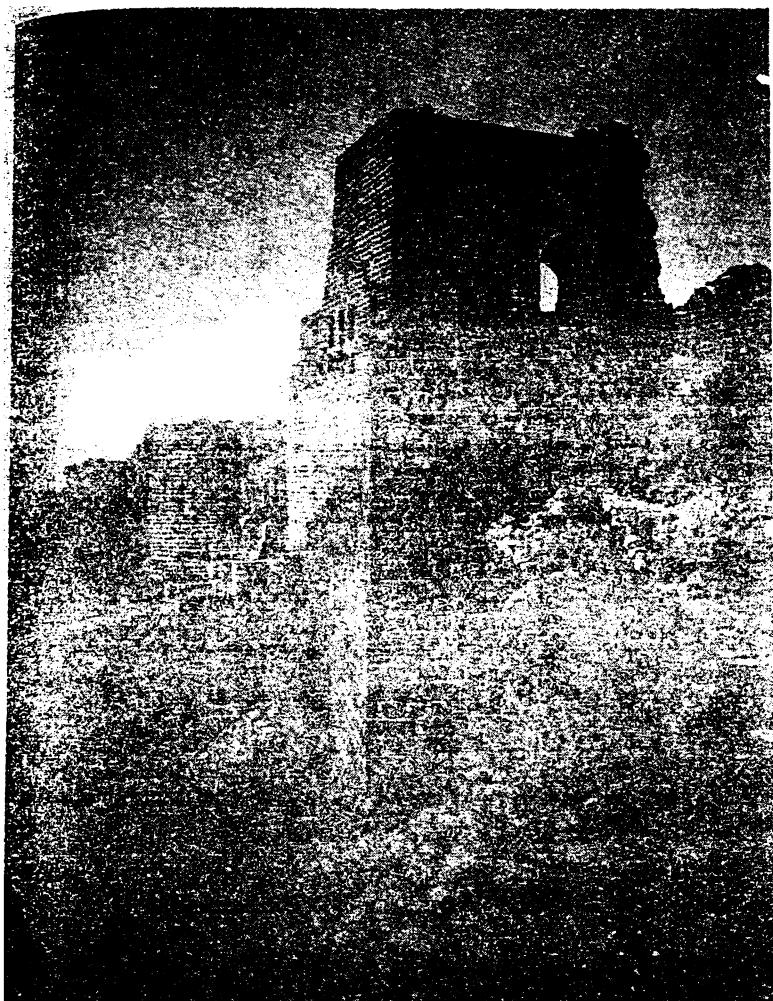
٦ - قلعة المرقب .

تحتل قلعة (المرقب)^(١) موقعها المشرف على مدينة بانياس ، فتطل من مريضها على البحر ، حيث ترتفع فوق ذروة رعن جبلي صخري متاخم للبحر مباشرة . ويتألف الموقع المحسن تحصيناً جيداً من قلعة داخلية قوية ، وقلعة خارجية أكثر اتساعاً ، مما يشير إلى أن القلعة كانت خلال تلك الفترة مكتظة بساكنيها ، ويحيط بها سور خارجي مزدوج جزئياً ، ومرتبط داخلياً بأبراج عديدة مختلفة الأشكال ومتباينة المقاييس والأبعاد . والقلعة الداخلية صغيرة مستطيلة الشكل تقريراً لها زوج من الأسوار - سورين - وتقع على الذروة الجانبيَّة لذلك الموقع . ويفصلها عن القلعة الخارجية قناة مائية عريضة . وقد دعمت الأسوار الخارجية بمحصون بارزة نصف دائريَّة . وقد بلغت القلعة ذروة تحصينها وقوتها في القرن الثالث عشر الميلادي حيث دعمت التحصينات الخارجية ، بعد أن أعاد المسلمون بناءها على أنقاض الدفوعات التي تهدمت . وقد وصفها مؤرخ حاه - أبو الفداء - بقوله : «المرقب» - هو اسم للقلعة الحصينة الحسنة البناء ، والمشرفة على البحر . وبانياس اسم بلدتها ، وبينها قريب من فرسخ ، وهي ذات أشجار فواكه وحمض كثير . ويزرع بها قصب السكر . ولها أعين كثيرة . قال العزيزي : ومدينة بانياس - أو بلينياس - دون مدينة جبلة . وبينها وبين أنططوس اثنا عشر ميلاً . وهو حصن أحدهُـ المسلمون سنة أربع وخمسين وأربعين = ١٠٦٢ م . نقله ابن منقد في تاريخ القلاع والمحصون^(٢) .

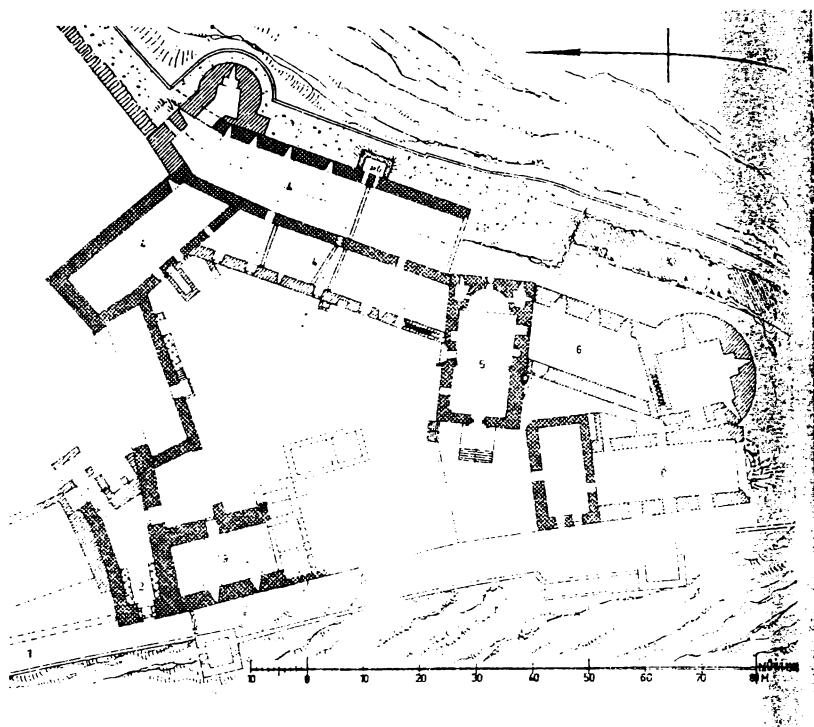
لم يكن من عادة العرب المسلمين في حروبهم - على ما هو معروف ، الاهتمام ببناء

(١) قلعة المرقب : QAL'AT MARQAB وباليونانية ماركابوس MARKAPPOS وما يشار إلىه : MARGATHUM وبالفرنجية مارغات MARGATIN ومرغاتوم : MARGANT .

(٢) القلاع أيام الحروب الصليبية ص : ٧١ - ٧٢ .



المرقب



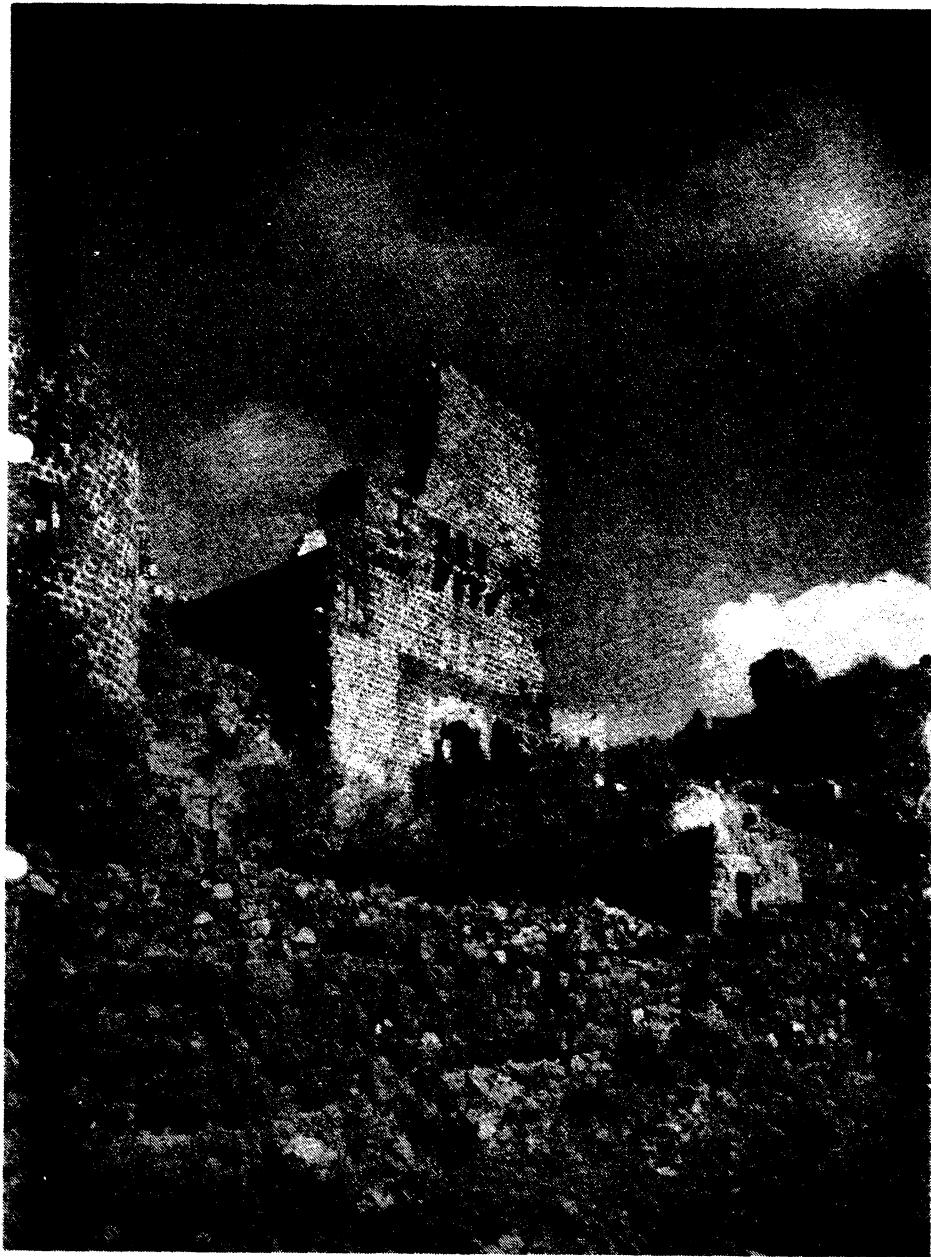
المخطط ١٢ : قلعة المرقب

موقع القلعة، المقياس: ١/١٠٠٠٠ .

١ - فناء أمامي بين البوابتين الخارجية والداخلية، ٢ و ٣ - أقبية مقتطرة لمبني ملحق بالكاتدرائية أزيل فيها بعد ، ٤ - غرف مستودعات، ٥ - كنيسة القلعة، ٦ - قاعة كبيرة من طابقين مع برج محصن ملحق بها ، ٧ و ٨ - قاعة. (بالاستناد إلى مسح المؤلف ورواسمه).



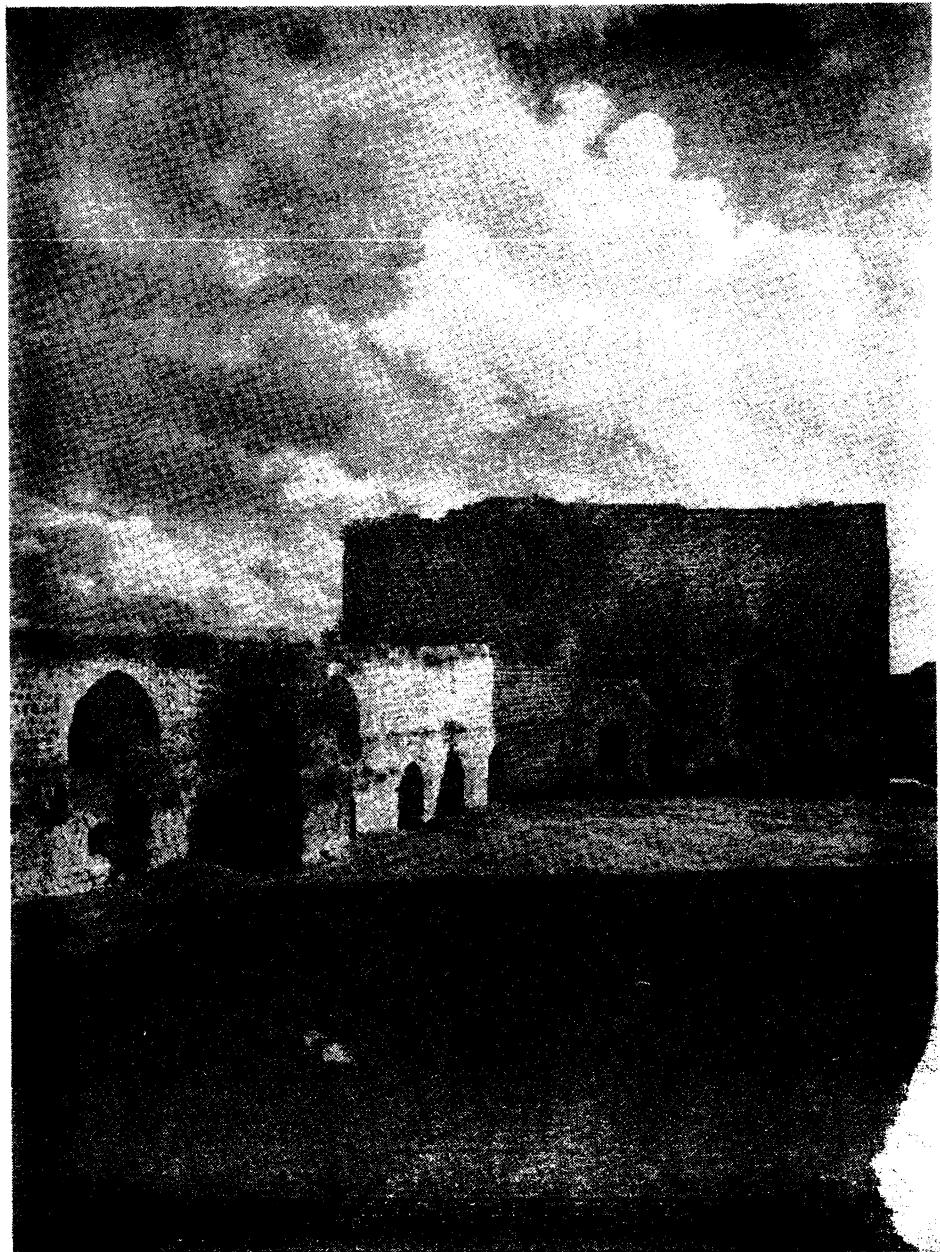
قلعة المرقب



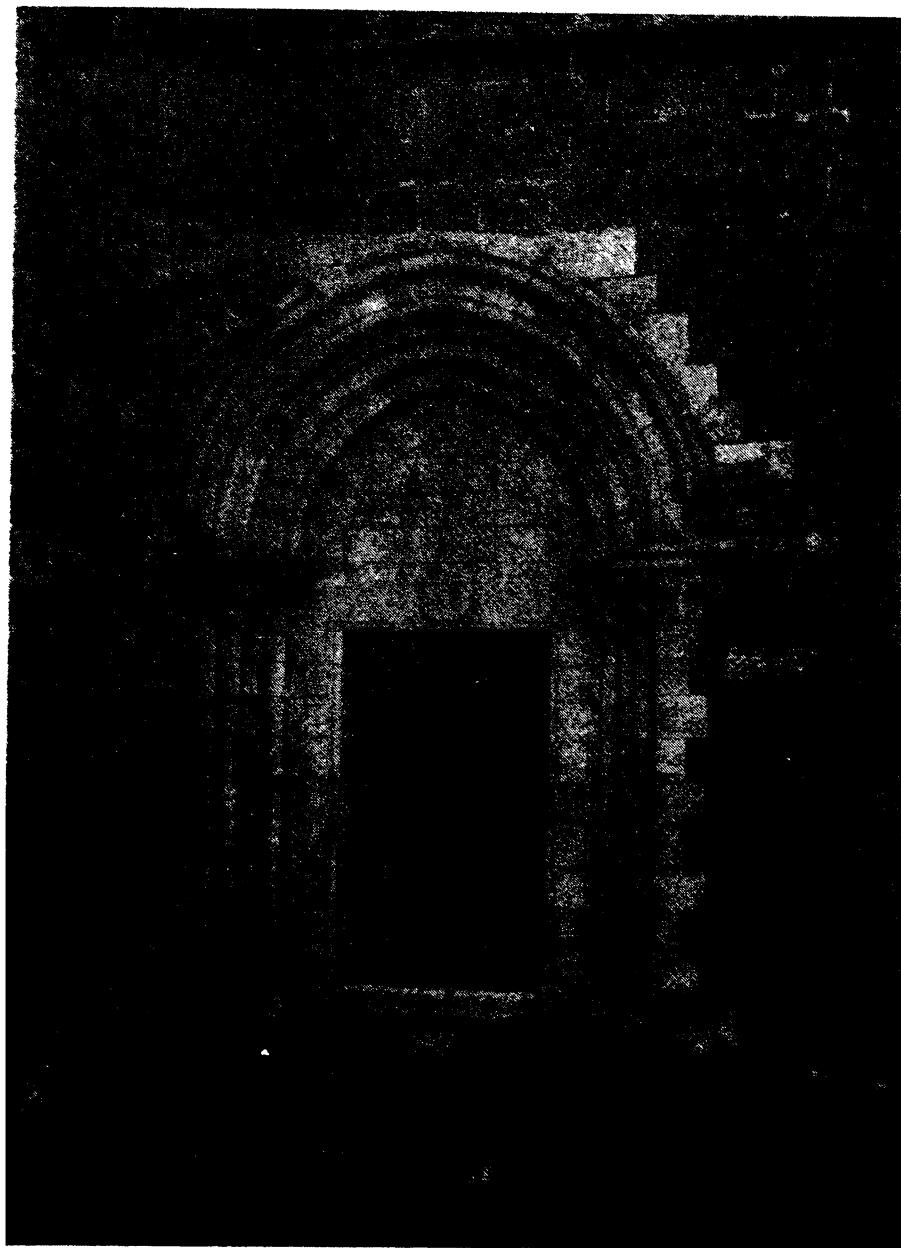
قلعة المرقب



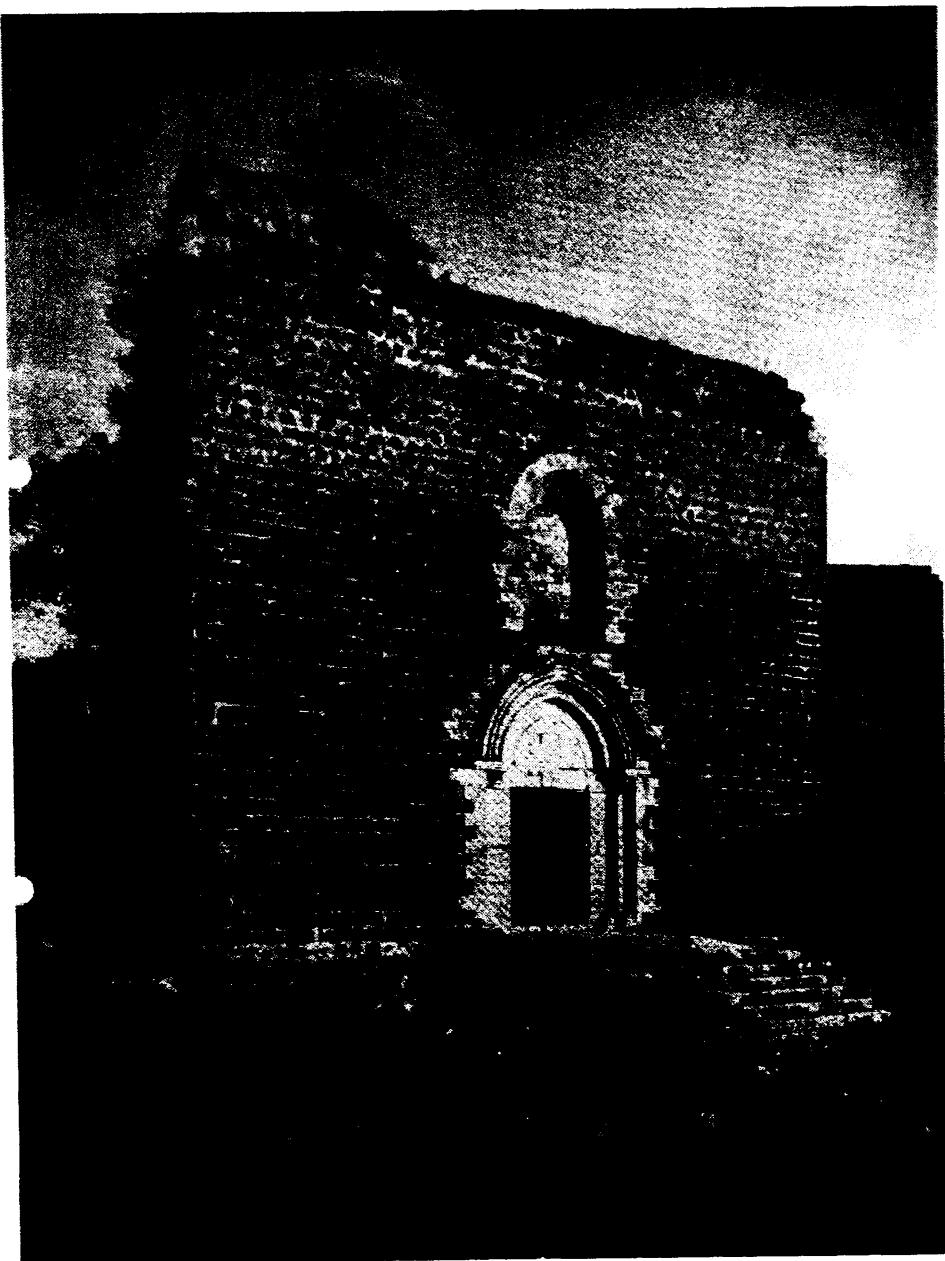
قلعة المرقب



قلعة المرقب



قلعة المرقب



قلعة المرقب



قلعة المرقب



قلعة المرقب

فن الحرب - الحروب الصليبية م ٢٣

القلاع والتحصينات. فهم سادة الدنيا في حرب الحرفة، يبحثون عن الحسم في المعركة، ويسرون للقاء العدو قبل أن يلقاهم. ويتجنبون المطاولة - المهاطلة - قدر المستطاع. ولقد صرف أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه معظم جهده لدرء خطر الروم البيزنطيين القادمين من البحر، وذلك منذ الأيام الأولى للفتح، إذ كان الروم وبيدهم السيادة على البحر الأبيض المتوسط، يستمرون كل مناسبة للكيد للمسلمين والنكاية بهم، فيعملون على إنزال قواتهم بصورة مباغطة على نقطة من الساحل، فيغزون ويقتلون ويسبون ويضلون بمثل السرعة التي ظهروا بها. وقد وضع معاوية بن أبي سفيان نظاماً لحماية الشعور البحري وحماية العرب المسلمين فيها. وكان في جملة التدابير المتخذة إنزال أقوام من العرب المسلمين في مدن الساحل وشعوره حتى يكونوا رباطاً للمسلمين وحماية لهم. مع تحسين مدن الساحل، وإقامة المراقب والمصالح. وأخذ العرب المسلمون بهذا النظام بعد أن عرّفوا أهميته وفائدة لضمان أمنهم. وليس اسم (المرب) إلا دليلاً على المضمون الذي أقيمت من أجله القلعة، وإن تأكيداً على وجوب هذه القلعة في مواجهة البحر.

عمل بناة القلعة، من أجل ذلك، على جعل الأسوار الخارجية للقلعة بمثابة امتداد لأسوارها الداخلية. وقد تشكل قلب القلعة الداخلية من برج متين البنيان ذو شكل دائري يصل قطره إلى ٧٢ قدماً وهو يواجه الجنوب. ويتصل هذا البرج من جانبيه بأبنية متعددة الطبقات ذات قاعات فسيحة مقنطرة السقف. وتوجد في منتصف القلعة آثار كنيسة كبيرة تقسم فناءها إلى قسمين غير متساوين. ولعل الاحتمال الأرجح هو أن آثار هذه الكنيسة لم تكن إلا المسجد الذي عمل الفرنج الصليبيون دائماً كعادتهم، على تحويله إلى كنيسة. وثمة مستودعات كبيرة تجتمع حول الفناء الشمالي الأكبر مع اسطبلات الخيول. ويتم الدخول إلى القلعة كلها عبر برج بوابة متين تتجه واجهته نحو الغرب عند سور الخارجي. ويتم الوصول من هناك إلى حصن البوابة (نزل الحرس) عبر فناء أمازي. ويتألف حصن البوابة من عدد من الغرف. وقد بقيت تحصينات القلعة في حالة جيدة نسبياً، وحافظت على شكلها الأساسي. وقد يكون السبب في ذلك هو أن القرية بقيت مأهولة بالسكان حتى القرن التاسع عشر.

لقد كان واجب (المرب) هو الرصد والانذار، وهذا فقد كان عمله هو حماية
أمن المدينة المجاورة له (بانياس) وبالتالي الاسهام في حماية ساحل بلاد الشام. ولا
غراة بعد ذلك أن تكون مدن الساحل خاضعة لقيادة واحدة. ونظراً لأن (طرابلس)
كانت هي أكبر مدن الساحل. فقد كان حكامها (بني عمار) هم القوة المهيمنة على
مدن الساحل وحصونه وقلاعه. وكانت قلعة المرب ومعها قلعة القدموس تحت حكم
(بني محرز) يوم وقوع غزو الفرنج. وكان بني محرز يعتمدون على حكام طرابلس
- بني عمار - الذين كان يتولى قيادتهم - جلال الدين أبي الحسن علي بن عمار -
والذي استطاع أن يسيطره على جبلة وبانياس وسواها من مدن الساحل. وكانت
بلاد الشام، وساحلها وخاصة، نهباً للصراع خلال تلك الفترة، بين دولة الشيعة
الفاطميين بمصر والذين كانوا يحاولون الوصول إلى بغداد، وبين الخلافة العباسية التي
كانت تعمل بدورها على وضع حد لأطماع الفاطميين ونفوذهم. هذا إلى جانب وجود
مراكز قوى طائفية أخرى - وأبرزها حركة الباطنية الإماماعيلية أو الحشاشين -.
وكان لا بد للملوك طرابلس - بني عمار - من الأخذ بهذه العوامل، والمناورة بينها،
للمحافظة على مواقعهم، ولضمان الدفاع عن ممتلكاتهم. وهذا لم يكن غريباً أن يتظاهر
بني عمار بالتشييع لكسب دعم مصر الفاطمية أو اتقاء لشرهم، أو للاثنين معاً. ولقد
انعكس ذلك بصورة حتمية على قوة الدفاع. فقد أفاد الفرنج الصليبيون - وأمير
انطاكية منهم بصورة خاصة. من التناقضات القائمة بين مراكز القوى الإسلامية
وتمزقها، واستثمرتا نقاط ضعفها، فبسطوا نفوذهم على مدن الساحل، وعلى القلاع
والحصون المجاورة لها. وأخذوا ينتشرون - مثل بقعة الزيت - نحو المدن الداخلية.
وهذا ما يفسر تلك السهولة الكبرى التي رافقت عملية احتلال الحصون الساحلية
والقلاع المنيعة التي كانت تقف في مواجهة الساحل. وإذا كانت معظم قلاع بلاد الشام
الداخلية قد شيدت أيام الروم البيزنطيين، أو أيام الفرنج الصليبيين، فإن قلعة المرب
لم تكن منذ نشأتها إلا قلعة عربية إسلامية، ومرقباً يطل بعيته على البحر ليكشف كل
تحرك مشبوه ولينذر مسبقاً عن كل عدو ان محتمل وقوعه.

وصلت قوات الحملة الصليبية الأولى إلى بلاد الشام سنة ٤٩٢ هـ = ١٠٩٨ م.

فاحتلت مدن الساحل ما بين انطاكية شمالاً وعسقلان جنوباً والقدس شرقاً. واشتراك قوات الروم البيزنطيين في هذه الحملة بقيادة (جون كانتاكوزينوس)^(١) فاستولت على المنطقة ما بين اللاذقية وبانياس - ومعها قلعة المرقب. ثم ما لبثت قوات الروم أن انسحبت سنة ٤٩٨ هـ = ١١٠٤ م. وتركت للفرنج حرية العمل في بلاد الشام، بعد أن وجدت أنها غير قادرة على مواجهة أمير أنطاكية - تانكرد - والاصطدام معه. وقد برهن ذلك للمسلمين على أن الخلافات والتناقضات بين الحلفاء الصليبيين هي أكثر اتساعاً وأكبر عمقاً مما كانت عليه بين القادة المسلمين. غير أن زخم قوة هجوم الحلفاء الصليبيين وقدرتهم القتالية لديهم كانت أكبر من تلك التي توافرت للمسلمين، فكان لا بد من أن تأخذ هذه القوة مداها واتساعها حتى يتمكن المسلمون من قلب موازين القوى، واستئثار تناقضات الفرنج وأحلافهم بمثل الطريقة وبمثل النهج الذي أفاد منه الفرنج الصليبيون في حلتهم الأولى. وعلى كل حال، فقد عمل - تانكرد - في ربيع سنة ١١٠٨ م (٥٠٢ هـ) على توسيع حدود مملكته - انطاكية - وذلك على حساب تفتیت مملكة بني عمار الإسلامية (مملكة طرابلس) فانتزع منهم جبلة وبانياس وقلعة المرقب. ويظهر أن المسلمين قد استعادوا سيطرتهم على قلعة المرقب، ولكن لفترة قصيرة، فعاد روجر - حفيد تانكرد - واهتم بقلعة المرقب، وأصلاح الحد الجنوبي لانطاكية، وأسند اقطاع قلعة المرقب إلى أسرة مانسوير^(٢) المعروفة أن القلعة قد تعرضت للدمار مرات متتالية بسبب الزلازل التي اجتاحت بلاد الشام في سنوات ٥٥٢

(١) جون كانتاكوزينوس (JEAN OU JOHN CANTACUZENE) من عائلة مارست دوراً هاماً في تاريخ الروم البيزنطيين، وقد كان أبرزهم هو جون كانتاكوزينوس هذا الذي عمل وصياً على أمبراطور الروم جون الخامس باليلوج PALEOLOGUE ثم انتزع منه العرش وحكم من سنة ١٣٤١ حتى سنة ١٣٥٤ م باسم جون السادس. ثم انتصر عليه جون باليلوج فاضطر كانتاكوزينوس إلى الانسحاب. واعتزل في أحدى الابرشيّات - الكensi.

(٢) أسرة مانسوير : (MANSOER) وانظر تاريخ الحروب الصليبية: ٩١/٢ و ٢١٨ وكذلك القلائع أيام الحروب الصليبية ص: ٧٥ حيث ورد ما يلي: «وفي سنة ٥١٠ - ١١١٦ هـ = ٥١٢ م - ١١١٨ تخلى صاحب المرقب ابن محز عن القلعة إلى أمير انطاكية روجر بعد مفاوضات طويلة، مقابل ولاية أخرى. وأهداها روجر بدوره إلى أسرة مانسوير».

و ٥٦٦ هـ (١١٥٧ و ١١٧٠ و ١١٨٦ م). مما تطلب تخصيص أموال ضخمة لإعادة اصلاح القلعة وترميمها ، ولما عجزت أسرة مانسuir عن تأمين هذه الأموال - قبلت عرض طائفة الاستبارية بالتخلي عن القلعة مقابل التعويض .

فمن المعروف أن طائفة فرسان المعد الدينية - الاستبارية - كانت تعمل باستمرار للسيطرة على القلاع والمحصون . وهذا فقد شرعت بإجراء مفاوضات انتهت بحصول الاستبارية على قلعة المرقب (سنة ٥٨٢ هـ = ١١٨٦ م) وذلك مقابل إيجار سنوي قدره ألفي بيزنط ذهبي دفعت لآخر مالك للقلعة وهو (برتراند المرقي)^(١) ولقد عانى المسلمين كثيراً من عنت هذه الطائفة وجورها ، بما عرف عنها وعن بقية الطوائف الدينية التي نظمت أيام الحروب الصليبية القديمة من الحقد الدفين والتتعصب الحاقد ضد الإسلام وأهله . ولم يكن باستطاعة أمراء المسلمين وقادتهم الكيد لحامية (قلعة المرقب) بسبب بعدها عن مراكز القوى الإسلامية في المدن الداخلية ، وبسبب ارتباط حامية قلعة المرقب بالفرنج المقيمين في بانياس ، ثم بسبب توافر امكانات الدعم البحري لحامية بانياس وقلعتها (المرقب) . وكان هذا هو الموقف الذي جاء به صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨ م) عندما مرت قواته على مقربة من قلعة المرقب ، وتجنبت الصدام معها ، وذلك وفقاً لما أوردته المصادر العربية ، بقولها : « سار صلاح الدين إلى ولاية أنطاكوس ، فخر بها ، ورحل عنها إلى المرقب ، وهي من حصونهم التي لا ترام ، ولا تحدث أحداً نفسه بملكه ، لعلوه وامتناعه . وهو لاستبار ، والطريق تحته ، فيكون الحصن على يمين المجتاز إلى جبلة والبحر عن يساره . والطريق مضيق لا يسلكه إلا الواحد بعد الواحد . فاتفق أن صاحب صقلية من الفرنج ، سير نجدة إلى فرنج الساحل في ستين قطعة من الشوانى - سفن النقل - وكانت بطرابلس . فلما سمعوا بمسير صلاح الدين ، جاؤوا ووقفوا في البحر تحت المرقب في شواناتهم ، ليمنعوا من المجتاز بالسهام . فلما رأى صلاح الدين ذلك أمر بالطارقيات والجفتيات فصفت على الطريق مما يلي البحر ، من أول المصيق إلى آخره . وجعل وراءه الرماة . فمنعوا الفرنج

(١) برتراند المرقي : (BERTRAND DE MARGAT)

من الدنو إليهم . فاجتاز المسلمون عن آخرهم حتى عبروا المضيق ووصلوا إلى جبلة^(١) وقد أعاد صلاح الدين فتح جبلة واللاذقية وبجامعة من الحصون . وترك المربك تحت حكم الاستبارية الذين كانوا ينطلقون من المربك للإغارة على الأراضي الإسلامية المجاورة . مما حل الملك الظاهر - غازي - ملك حلب لقيادة حلة تأديبية ضد المربك وحاميتها ، فحاصرها ، ونصب عليها المجانق ، فدمر عدداً من أبراجها الموجودة عند الأسوار الخارجية . وتتابع الظاهر بيبرس ما بدأه صلاح الدين الأيوبى ، فأخذ في التضييق على الفرنج ، وطردهم من المدن والقلاع . حتى إذا كانت سنة ٦٦٨ - ٦٧٠ هـ (١٢٦٩ - ١٢٧١ م) لم يكن قد بقي في قبضة الفرنج سوى عكا وطرابلس وبانياس والقلاع المجاورة لها . وقد عقد الفرنج مع الظاهر بيبرس معايدة لمدة عشر سنوات (سنة ٦٧٠ هـ = ١٢٧١ م) ضمنت للفرنج ، أو بالأحرى لبقائهم البقاء لفترة إضافية أخرى . ثم جاء السلطان قلاوون - الذي خلف الظاهر بيبرس - فحاصر قلعة المربك - سنة ٦٨٤ هـ = ١٢٨٥ م وحفر نفقاً تحت الواجهة الجنوبية ، ثم قصفها فانهار البرج الخارجي الجنوبي (المعروف باسم برج الأول أو برج أبرون) فاستسلم فرسان الاستبارية وقد أشرفوا على الهلاك .

كانت قلعة المربك من أولى القلاع التي ستوى عليها الفرنج الصليبيون . وعاشت حتى تكون من آخر القلاع التي أعاد المسلمين فتحها ، وطردوا منها الغزاة . فكانت مدة إقامة الفرنج فيها طويلة ناهزة المائة والأربعين وسبعين عاماً هجرية (٦٦٩ - سنة ميلادية) . وبذلك تكون قلعة المربك قد عاشت تجربة الحملات الصليبية القديمة كلها . ورأت كيف جاء الفرنج يحيرون جحافلهم ويسوقون جيوشهم ، ثم رأت كيف استطاع المسلمون استنزاف هذه القوة وتدميرها عبر المعارك الضارية التي لم توقف إلا لتجدد بقعة أكبر وتصسيم أعظم ، ولقد أدرك مقدم الاستبارية - ميوزيفيل - هذا التحول ، فعندما لم يبق للاستبارية إلا حصن المربك الضخم ، كتب تقريره في سنة ٦٦٧ - ٦٢٦٨ م - وهو التقرير الذي تضمن ما يلي : " لم يعد باستطاع الطائفة أن تنفق على

(١) الكامل في التاريخ - أحداث سنة ٥٨٤ هـ .

أكثر من ثلاثة فارس في الشرق. بعد أن كان لديها في الأيام السابقة عشرة آلاف فارس^(١). ولقد ظن فرسان الاستبارية أنه بإمكانهم دعم وجودهم عن طريق التحالف مع المغول التتار، كما ظن هؤلاء المغول أن تعاونهم مع فرسان الاستبارية سيتمكنهم من الانتقام لهزيمتهم الذي أنزلا بهم المسلمين. فشنوا هجوماً انطلق من الأنضول، ووصل معرة النعسان وحصن أقماصية. وتحرك المسلمون بسرعة (سنة ٦٧٠ هـ = ١٢٧١ م) فأحبطوا هجوم المغول. ثم انصرفا لتأديب فرسان الاستبارية الذين تعاونوا مع المغول. ودفعت حصن المربك قسطاً من الثمن، إذ رکز السلطان قلاون جهده ضدتهم. وأرسل قواته لتأديبهم. وقد أوردت المصادر العربية قصة الأيام الأخيرة لفرسان المعبد - الاستبارية - في قلعة المربك بما يلي: «كان الفرنج بحصن المربك، عندما بلغهم هجوم التتار على الشام. فانطلقوا لشن الغارات على بلاد المسلمين من سائر النواحي. فلما تراجع التتار عن الشام. استأذن صاحب حصن الأكراد - بليان الطباخى - ^(٢) في غزوهم. وسار إليهم في حامية الحصون بنواحيه، وجمع التركمان. وبلغ حصن المربك. ووقف أسفله. واستطرد له أهل الحصن - تظاهروا بالترابع - حتى تورط في أوغار الجبال، ثم هجموا عليه دفعه واحدة. فانهزم. ونالوا من المسلمين. وبلغ الخبر السلطان قلاون، فخرج من مصر لغزوهم. آخر سنة تسع وسبعين وستمائة (١٢٨٠ م). وانتهى إلى الروحاء ، فوصله هنالك رسائل الفرنج في طلب المهدنة وإقرارها لأهل المربك ، على أن يطلقوا سراح من أسروه من المسلمين في وقعة بليان . فعقد لهم المهدنة في المحرم سنة ثمانين وستمائة (١٢٨١ م) وتم العقد مع صاحب الاستبار وابنه، على أن لا يستجدوا أسير قلعة ولا غيرها ، ولا يدخلوا التتر في فتنة ، ولا يمروا عليهم إلى بلاد المسلمين إن أطاقوا ذلك . وعقد معهم المهدنة لأحدى عشرة سنة » ولكن الاستبارية في المربك غدرت باتفاق المهدنة ، ونكثوا ، وعادوا فتعاونوا مع المغول التتار ، فسار السلطان قلاون إلى

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ٥٨٩/٣.

(٢) بليان الطباخى: ترجم له المقريزى فى المقفى - مخطوطة برتو باشا ورقة ٢٦٧. ذكر أنه كان من مالك السلطان قلاون. تقلب في عدد من الوظائف، منها إمارة حصن الأكراد. واشترك مع قلاون في فتوحاته سنة: ٦٧٨ هـ = ١٢٧٩ م وتوفي سنة ٧٠٠ هـ.

الشام (سنة ٦٨٣ هـ = ١٢٨٤ م) لمحاصرة المرقب ، وانزال العقاب بجاميته لما فعلوه من مجازاة العدو . فحاصره حتى استأمنوا إليه . وملك الحصن من أيديهم ^(١) .

لم يسلم فرسان الاستبارية بسهولة ، ولم يتخلوا عن معلقهم الأخير بيسير ، وإنما قاتلوا بضراوة وعناد ، فعندما جاء السلطان قلاوون لمحاصرة المرقب ، جلب معه من المجانين التي بلغت من الوفرة ما لم يسبق أن شهدتها أحد . وتولى رجاله جرّ هذه المجانين على جانب التل ، ثم شرعوا في دك أسوار القلعة . على أن القلعة توافت عدتها ، وتميزت بجانيقها بما احتلته من أوضاع جيدة ، فتعرض للدمار عدد كبير من مجانين السلطان . وظل المسلمون شهراً تقريباً دون أن يحرزوا شيئاً من التقدم . وأدرك رجال الحامية أنهن خسروا كل شيء ، فلم يبق أمامهم إلا الإستسلام . فقرر السلطان قلاوون السماح لمن كان بداخل القلعة من قادة الاستبارية وعددهم خمسة وعشرون أن يخرجوا بكل متاعهم على ظهور خيولهم ، ومعهم سلاحهم الكامل . أما باقية رجال الحامية ففي وسعهم الانسحاب دون أن يحملوا معهم شيئاً . فلجؤوا إلى طرطوس ومنها إلى طرابلس . ودخل قلاوون القلعة في موكب الظفر يوم ٢٥ - أيار - مايو - سنة ١٢٨٥ م (٦٨٤ هـ) وارتاع الفرنج الصليبيون في عكا لضياع حصن المرقب ^(٢) .

عادت قلعة المرقب إلى أهلها ، وشرع المسلمين باعادة ترميمها وتحصينها تحت اشراف قائدها الأمير سيف الدين بليان الطباخي . ولقد زادتهم تجربة حصن المرقب ايماناً على ايمائهم بعدم جدوی الاستناد الى القلائع والخصون من أجل دفاع ثابت ومستقر . فقد عمل فرسان الاستبارية قدر استطاعتهم ، بل وأكثر مما يستطيعون ، للاحتفاظ بهذه القلعة . ولكن انقطاع الدعم الخارجي ، وعدم توافر الدعم من قلاع مجاوية أو حاميات قريبة ، جعل من قضية سقوط القلعة قضية زمن لا أكثر . وهذا ما فعله السلطان قلاوون الذي حاصر القلعة حتى سقطت في قبضته كالثمرة اليائعة .

(١) تاريخ ابن خلدون - دار الفكر بيروت ١٩٨١ (٤٥٦/٥ - ٤٥٧) .

(٢) تاريخ الحروب الصليبية : ٦٦٨/٣ - ٦٦٩ .

٨ - قلعة الكرك.

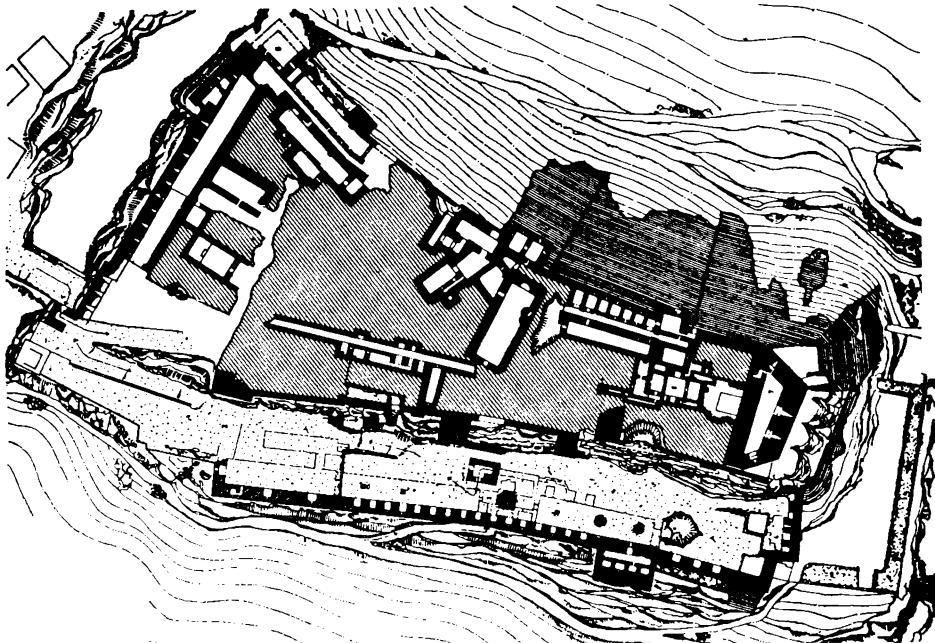
(الكرك)^(١) هي مدينة وقلعة في جنوب الأردن على بعد عشرة أميال تقرباً إلى الشرق من الطرف الجنوبي للبحر الميت، وتقع فوق ذروة مرتفع صخري تنحدر سفوحه من الجانبين بشدة حتى وادي الكرك الذي يتشعب إلى وادي الست ووادي الفرنجة أسفل المدينة الحصينة تماماً، وتنتصب القلعة ذاتها إلى الجنوب من المدينة مباشرة، فتحميها من الهجوم عبر الاتجاه الوحيد الصالح للهجوم من جهة الأرض المرتفعة المجاورة. ولقد شيدت القلعة فوق مسطحين - مصطبةين - تفصلهما عن المدينة قناة عميقة. كذلك كانت المدينة محاطة بسور يحف بها ويتأمن مع حواجز الصخور. ولكنها عريت منه في معظم الأماكن، في الأزمنة المتأخرة، وتعود الدفاعات الموجودة بنسب متساوية تقرباً إلى العهدين العربي - الإسلامي والفرنجي الصليبي، وتميز المرحلتان عن بعضها بعضاً بنوع الحجارة المستخدمة والتي نقلت من مقالع مختلفة. وقد وصف أبو الفداء قلعة الكرك بقوله: «هو بلد مشهور وله حصن عالي المكان، وهو أحد المعاقل بالشام التي لا ترام، وعلى بعض مرحلة منه مؤنة، وبها قبر جعفر الطيار وأصحابه رضي الله عنهم. وتحت الكرك واد فيه حمام وبساتين كثيرة، وفواكهها مفضلة من المشمش والرمان والكمثرى وغير ذلك، وهو على أطراف الشام من جهة الحجاز. وبين الكرك والشوبك نحو ثلات مراحل»^(٢).

تلکم هي واحدة من مجموعة كبيرة جداً من القلاع والمحصون التي تناشرت على امتداد المسطح الجغرافي لبلاد الشام. وهذا لم يعد من الغريب أو المستهجن أن يظهر

(١) الكرك - أو كرك مؤاب - هي حصن كبير أطلق عليه المؤرخون اسم حجر الصحراء - وعرفه الفرنج باسم: (PETRA-DESERTI) أو (CIVITAS-PETRACENSIS) وتحمل باليونانية اسم CHARACH

. MOBA وباللاتينية اسم كراك دومونتريال: (LE CRAC DE MONTREAL)

(٢) القلاع أيام الحروب الصليبية، ص: ٥٥.



AL KARAK الكرك

مخطط أرضي للقلعة العلوية والسفلى مقياس ١ / ٢٠٠٠.

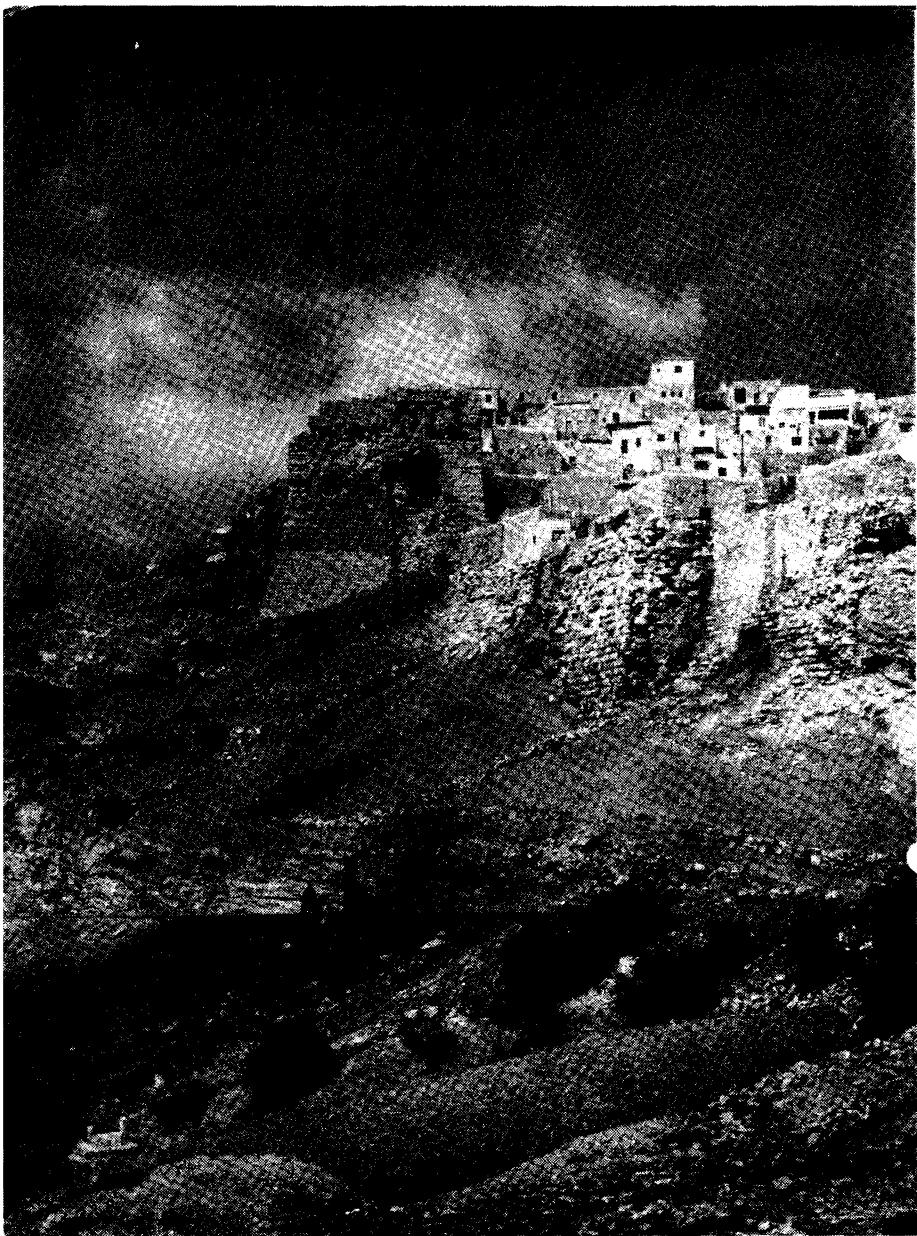
يبين المخطط المبني والأراضي التابعة له التي تقع تحت مستوى الأرض من القلعة العلوية، كذلك نفذت القلعة السفلى على مستوى الأرض لكشف الغرف تحت الأرضية التي أشير إليها بالرسم المنقط. وأشار إلى طوري البناء الفرجي الأول والثاني (١١٤٢ - ١١٨٨) باللون الأسود والتهشيم المتقطع، كما أشير إلى الفترة العربية (بعد العام ١١٨٨) بالتهشيم المكثف بينما رسمت الأبنية التحتية المطمورة تحت التراب والصخر بالتهشيم العريض.

- ١ - البوابة الرئيسية الحديثة، ٢ - القلعة السفلية، ٣ - البوابة السفلية، ٤ - السور الخارجي للقلعة السفلية، ٥ - البرج الزاوي الشمالي الشرقي (خرب)، ٦ - المباني التابعة للقصر، ٧ - برج محصن، ٨ - جدار حاجز (ساتر).





الكرك



الكرك



الكتاب

المؤرخون والباحثون وعلماء الآثار والمهندسو العسكرية اهتموا متعاظماً بما احتوته بلاد الشام من هذه التحصينات الدفاعية التي يعود تاريخ بعضها إلى العصور القديمة، والتي برزت أهميتها خاصة في العصور الوسطى. ذلك أن هذه القلاع والتحصينات قد عاشت أحداث الحروب الصليبية القديمة جميعها. فأصبحت من وجهة نظر المهندسين وعلماء الآثار من النماذج الحية لما كان عليه فن العمارة والبناء خلال تلك الحقبة التاريخية. وأصبحت من وجهة نظر العسكريين من النماذج الواضحة لما كان عليه فن الحرب من التطور ، ولما كان لهذه القلاع من دور في الأعمال القتالية - الهجومية والدفاعية - . وإذا أمكن تجاوز الخصائص الفنية لتلك القلاع والتحصينات ، وهي الخصائص التي فرضت بطبيعتها على المدافعين أساليبهم التعبوية - أو التكتيكية - بقدر ما فرضت على المهاجمين طرائقهم وحددت لهم وسائلهم لاقتحام التحصينات ، فإن أبرز ما يمكن تعلمه هو أن الفرجن الصليبيين والمسلمين على السواء ، لم يتعاملوا مع القلاع والتحصينات إلا على أساس أنها ذات دور محدود ، سواء لإعداد القوات للهجوم ، باعتبارها قاعدة للهجوم ، أو من أجل تلقي صدمة المهاجمين ، وتأمين الظروف المناسبة للصمود والمقاومة خلال فترة كافية يتم خلالها طلب قوات الدعم من الخارج للقيام بهجوم مضاد ولرفع الحصار عن الحاملات القائمة بالدفاع. وبكلمة أكثر وضوحاً ، فإن الجسم في الصراع المسلح حتى على مستوى العمليات ، بقي مرتبطاً بالهجوم وبالهجوم وحده. وهو ما يتوافق بدقة مع مفهوم الدفاع والهجوم في المعركة الحديثة للأسلحة المشتركة. وقد يكون ذلك هو أحد الحوافز المثيرة التي أعطت للباحثين قوة دفع إضافية ، للاهتمام بمزيد من العناية بقلاع بلاد الشام وتحصيناتها .

كانت (الكرك) تحتل مرتبة هامة عندما استولى عليها الفرنج الصليبيون خلال حملتهم الأولى (سنة ٤٩٢ هـ = ١٠٩٨ م). وقد أنسد ملك القدس - بلدوين الأول - إقطاع الكرك إلى أحد كبار رجال بلاطه - واسمه باجان الساقي - ^(١) الذي عمل على تحصين قلعة كرك مؤاب - وربطها بمجموعة قلاع الشوبك وحصن وادي

(١) باجان الساقي : (PAYEN LE BOUTEILLER-PAGANUS PINCERNA).

موسى^(٤). وأصبحت الكرك قاعدة لانطلاق الفرنج من أجل العدوان على مدن شرقي الأردن، ومن أجل التعرض لقوافل المسلمين التجارية التي كانت تتحرك ما بين بلاد الشام ومصر. الأمر الذي حل نور الدين زنكي (سنة ٥٦٦ هـ = ١١٧٠ م) على مهاجمة الكرك حتى يهيء لقافلة ضخمة من قوافل المسلمين فرصة اجتياز أقليم ما وراء نهر الأردن، والوصول إلى مصر. ثم عاد نور الدين للهجوم في السنة التالية على قلعة الكرك، وحاصرها. وكانت الكرك يومها تحت حكم (ستيفاني ميللي) التي ورثت الحكم عن زوجها همפרי سيد تبنيـن - ثم تزوجها - رينالد دوشانيـن - فأصبح حاكماً لقطاع الكرك. وقد أفاد أمراء الكرك - كونـتـات - من موقع الكرك للإغارات على أملاك المسلمين ونهبها والتعرض لقوافل المسلمين والاستيلاء عليها. مما ساعد على زيادة تحصين الكرك، وتجهيزها بمتطلبات الرفاه، حتى بلغت حياة أمراء الكرك مبلغاً من الترف وظواهر العظمة مما لم تبلغه أو تعرفه حياة الملوك في أوروبا خلال تلك الفترة. لاسيما خلال فترة إمارـة - رينالـد شـاتـيون - الذي حكم قطاع الأردن منذ سنة ٥٧٣ هـ = ١١٧٧ م. فاستخدم الكرك قاعدة لأعماله العدوانية المستمرة. مما دفع نور الدين زنكي - ثم صلاح الدين الأيوبي من بعده - لمهاجمة الكرك وحصارها ولكن بدون جدوـي نظراً لما تميزت به القلعة وأسوارها من القوة والمنعة. ولعل من أبرز الأحداث التي عاشتها القلعة خلال تلك الفترة هي حفلة الزفاف الشهيرة التي أقامها - رينالـد شـاتـيون - لابنة زوجته والوريثة الشرعية للقلعة - الأمـرة ايـزـابـيلا - على هـمـفـريـ سـيدـ تـبنيـنـ. وكانت الفتـاةـ يومـهاـ قد بلـغـتـ الحـادـيـةـ عـشـرـةـ منـ عمرـهاـ فيـ حينـ كانـ الزوجـ يـناـهزـ السـابـعـةـ عـشـرـةـ منـ عمرـهـ. وأعدـ رـينـالـدـ - أوـ أـرـنـاطـ كماـ تـذـكـرـهـ المصـادـرـ العـربـيـةـ - كلـ ماـ يـنـتـنـاـبـ معـ هـذـهـ المـنـاسـبـةـ منـ مـظـاهـرـ العـظـمـةـ والأـهـمـةـ. وأـخـذـتـ وـفـودـ الضـيـوفـ فيـ الـوـصـولـ إـلـىـ الـقـلـعـةـ أـثـنـاءـ شـهـرـ شـرـيـنـ الثـانـيـ.

(٤) تقع قلعة وادي موسى على تل شديد الانحدار، يُعرف حالياً باسم تل عوربة، على أطراف البتراء. حيث تطل خرائب تحصينات الفرنج التي تغطي مساحة كبيرة على وادي موسى. وفي هذه الجهة أيضاً خرائب حصن صغير يعود إلى أيام العصور الوسطى، كان مشيداً على تل حبيس في جوف البتراء. (تاريخ المروءة الصليبية: ٢/٣٧١).

- نوفمبر - سنة ١١٨٣ م. ومع أن عدداً كبيراً من هؤلاء الضيوف - مثل الملكة كونينينا والدة العروس ذاتها - كانوا أعداء شخصيين لرينالد شاتيون، إلا أنهم قدموا للقيام بمحاولة لاصلاح ذات البين بين مراكز القوى المتنافرة للفرنج المتصارعين على النفوذ والسلطة. وقد جاء مع هؤلاء الضيوف أرباب الملاهي من الراقصات والخواة والموسيقيين من سائر أنحاء إمارات الفرنج في بلاد الشام.

كان صلاح الدين الأيوبي خلال تلك الفترة في بلاد الشام. فكتب إلى أخيه العادل أبي بكر بن أيوب - وهو نائبه بمصر - يأمره بالخروج بجميع العساكر إلى الكرك، وسار صلاح الدين إليها، فوافاه أخوه العادل في شهر رجب (٥٧٩ هـ) ١١٨٣ م. وكثير جمع صلاح الدين، وتمكن من حصار القلعة، وصعد معه المسلمون إلى ربه، وملكه. وحصر الحصن من الربض. وتحكم عليه في القتال. ونصب عليه سبع منجنينات لا تزال ترمي بالحجارة ليلاً ونهاراً. وكان صلاح الدين يظن أن الفرنج لا يمكنونه من حصر الكرك، وأنهم يبذلون جهدهم في ردّه عنه. فلم يستصحب معه من آلات الحصار ما يكفي لمثل ذلك الحصن العظيم والمعلم المنيع. واستمر الرقص والغناء بداخل القلعة. وأعدت والدة العريس، ستيفاني - طعاماً بعثت به إلى صلاح الدين. فأرسل صلاح الدين يسأل بأي الأبراج ينزل العروسان. وأصدر أمره بآلا يتعرض هذا البرج للقذف من المنجنينات. وأسرع ملك بيت المقدس - بدلوين - لقيادة جيشه من أجل رفع الحصار عن الكرك - وبينما كان جيش الفرنج يتجاوز أريحا. كان صلاح الدين قد رفع الحصار وعاد إلى دمشق^(١).

جمع صلاح الدين جيشه في السنة التالية (٥٨٠ هـ = ١١٨٤ م) من جميع أنحاء البلاد. وسار به إلى الكرك. فحصر الحصن وضيق على من به، وأمر بنصب المنجنينات على ربه. واشتد القتال. فملك المسلمين الربض، وكان هو والحسن على سطح جبل واحد، إلا أن بينهما خندقاً عظيماً عمقه نحوً من ستين ذراعاً. فأمر صلاح الدين بإلقاء الأحجار والتراب فيه ليطمه - يردمه - فلم يقدر أحد على الدنو منه

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ٢/٧١٥ - والكامن في التاريخ - أحداث سنة ٥٧٩ و ٥٨٠ هـ.

لكتة الرمي عليهم بالسهام من البرج، ورمي الاحجار من المنجنيقات. فأمر أن يبني بالأخشاب واللبن ما يمكن الرجال من السير تحت السقائف، وأن يلقى في الخندق ما يطمه. فيما كانت منجنينات المسلمين ترمي الحصن ليلاً ونهاراً. وأرسل من فيه من الفرنج إلى ملكهم - ملك القدس - وإلى فرسانهم، يستمدو نعمتهم ويعرفونهم عجزهم وضعفهم عن حفظ الحصن، فاجتمعت الفرنج عن آخرها، وساروا إلى نجدتهم عجلين. فلما بلغ الخبر بمسيرهم إلى صلاح الدين، رحل عن الكرك إلى طريقهم ليلاقهم ويقاتلهم، ويعود بعد أن يهزّهم إلى الكرك، فقرب منهم وخيم ونزل، ولم يمكنه الدنو منهم لخشونة الأرض وصعوبة المسالك إليهم وضيقها. فأقام أياماً ينتظر خروجهم من ذلك المكان ليتمكن منهم، فلم يربحوا منه خوفاً على نفوسهم. فلما رأى ذلك ابتدع عنهم عدة فراسخ، وجعل يازائهم من يعلمه بمسيرهم. فساروا ليلاً إلى الكرك، فلما علم صلاح الدين ذلك، عرف أنه لن يتمكن من تحقيق هدفه، فسار عنهم إلى دمشق.

حاول حاكم الكرك - رينالد شاتيون، أو أرناط - التخفيف من ضغط المسلمين على إقطاعه، فالتمس عقد هدنة مع صلاح الدين. وتم له ذلك، وأخذت القوافل التجارية الإسلامية في التنقل مطمئنة ما بين الشام ومصر. فلما كانت سنة ٥٨٢ هـ = ١١٨٦ م. وبينما كانت إحدى القوافل العظيمة المحملة بالنفائس من الأموال والمتاع تمر على حدود إقطاع الكرك، نكث رينالد باتفاقه وعهوده، وخرق الهدنة، فهاجم القافلة واستولى عليها وغنم أموالها ودواها وسلاحها. وأودع السجن من أسر من الجند القليل الذي كان يرافقها. فأرسل إليه صلاح الدين يلومه ويقيح فعله وغدره ويتوعده إن لم يطلق سراح الأسرى والأموال، فلم يجب إلى ذلك، وأصر على الامتناع، فنذر صلاح الدين نذراً أن يقتله بيده إن ظفر به^(١).

(١) كانت هذه المرة الثانية التي أقسم فيها صلاح الدين الأيوبي على قتل رينالد شاتيون بيده إن أظفره الله به. وكانت المرة الأولى سنة ٥٧٨ هـ = ١١٨٢ م - عندما وجه رينالد شاتيون حملة من الكرك، نزلت في إيلات، ونقلت معها السفن التي تم صنعها وأعدادها في الكرك، وساررت عبر البحر الآخر فأغارت على رايغ وعيذاب والحواء وينبع. فأدرك قائد البحرية المصرية - حسام الدين لؤلؤ - قوات الفرنج في الحوراء - فهزّهم، وتم ذبح أسرابهم في القاهرة وفي مني يوم عيد الأضحى - عقاباً

عزم صلاح الدين الأيوبي على وضع حد حاسم ونهائي لما يقوم به أمير الكرك الصليبي من استفزازات وأعمال عدوانية. فحشد قواته من سائر ديار المسلمين. وكانت معركة حطين الخالدة يوم السبت لخمس بقين من ربىع الآخر سنة ثلاثة وثمانين وخمسين (٤ تموز - يوليو - ١١٧٨ م) ثم أعقبها فتح قلعة طبرية ومدينة عكا ومجدل يابا والناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعلبا والشقيف والخلوة تم يافا وتسين وصيدا وجبيل وبيروت وعسقلان وما يجاورها، وأعقب ذلك فتح القدس وهوئين. وترك صلاح الدين قوة لخصار الكرك التي باتت معزولة عن كل امكانات الدعم الخارجي. وضاق الحصار على الحامية المدافعة عن الكرك، وطال الأمد عليهم، حتى فنيت أزواب الفرنج وذخائرهم وأكلوا دوابهم. وانقضت فترة سنة تقريباً التمس بعدها الفرنج من صلاح الدين تسلم الكرك مقابل منحهم الأمان، فأجابهم إلى ذلك. وعادت الكرك إلى المسلمين. وأسد صلاح الدين حكم الأردن إلى أخيه الملك العادل، وأبقى الكرك عاصمة له، ومنح هذا المعلم الهام عناية فائقة. فقام الملك العادل بترميته وتقوية دفاعاته. ونظرأً للشهرة التي حازتها القلعة، بسبب قوتها ومنعتها، فقد استخدمها صلاح الدين لحفظ خزائن أموال المسلمين. وبعد وفاة الملك العادل، ورث عنه ابنه الملك العظيم امارة الأردن - وفيها الكرك -.

جاءت الحملات الصليبية الثالثة ثم الرابعة فالخامسة، رداً على ما أحرزه صلاح الدين والمسلمون من انتصارات، وقد نجحت هذه الحملات بتحقيق بعض المكاسب للفرنج، وأبرزها عقد صلح بين الامبراطور الألماني فريديريك الثاني والسلطان الكامل الأيوبي (سنة ٦٢٦ هـ = ١٢٢٨ م) تم بموجبه تسليم القدس للفرنج. ولم يقبل خبراء الفرنج من العسكريين بشروط هذا الصلح، لأنهم اعتبروا بأنه من المحال عليهم الاحتفاظ بالقدس ما لم يلحق بها اقليم ما وراء نهر الأردن وقادته الكرك. وقالوا: «كيف تستطيع القدس أن تبقى - في قبضة الفرنج - وليس يربطها بالساحل سوى

= لمن يجرؤ على مهاجمة الديار المقدسة الإسلامية أو يحاول انتهاك حرمتها. وأقسم صلاح الدين أن يقتل رينالد شاتيون بيده إن أفلغه الله به. (المزيد من التفاصيل انظر الكامل في التاريخ - أحداث سنة ٥٧٨ هـ).

شريط ضيق من الأرض». وهكذا استمرت الكرك بمحارسة دورها ضد الفرنج الصليبيين. ففي سنة ٦٣٧ هـ = ١٢٣٩ م. وكان الناصر داود - الأيوبي - قد أصبح ملكاً على الأردن، قام البريتون بال تعرض لقافلة إسلامية، فرد الناصر داود على ذلك بقيادة جيشه من الكرك، وهاجم القدس، واحتل قلعتها بعد حصار استمر سبعة وعشرين يوماً. ثم عاد إلى الكرك. وفي سنة ٦٤٠ هـ = ١٢٤٢ م أغار فرسان الداوية - الصليبيين - على مدينة حبرون الإسلامية، فوجه الناصر داود قواته من الكرك لقطع الطريق المؤدي إلى القدس، وجباهية الرسوم من حجاج الفرنج وتجارهم. وعندما وصل المغول التتار إلى بلاد الشام، تجمعت قوات الكرك مع الخوارزمية، وانضمت إلى جيش مصر الذي كان يقوده المظفر قطز، واشتركت جميعاً في معركة عين جالوت (سنة ٦٥٩ هـ = ٢٦ تموز - يوليو - سنة ١٢٦٠ م). وعندما استولى الظاهر بيبرس على الحكم، قام بزيارة لقلعة الكرك (سنة ٦٦٣ هـ = ١٢٦٤ م) وأمر بدعم القلعة وتقوية الدفاع عن المدينة وتحصينها، فتم تشييد الحصن الشمالي من سور المدينة، وحسنت قناة القلعة.

تعرضت قلعة الكرك لأضرار فادحة إثر الهزة الأرضية التي ضربت المنطقة سنة ٦٩٣ هـ = ١٢٩٣ م). واستمرت الاصلاحات لفترة طويلة امتدت حتى سنة ٧٠٩ هـ = ١٣٠٩ م. وبقيت الكرك محتفظة بأهميتها حتى نهاية العهد المملوكي. ثم زالت أهميتها بعد الفتح العثماني لبلاد الشام. وبقيت دفاعاتها بحالة سليمة حتى سنة ١٨٧٠ م. ثم أخذت في التداعي مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

لقد استولى الفرنج الصليبيون على الأردن خلال حملتهم الصليبية الأولى. وهذا يعني أن مدة احتلالهم للقلعة قد استمر ما بين ثمانين وتسعين سنة. وأقاموا اقطاعهم على أرضه بهدف ما يمكن أن يطلق عليه بحسب لغة المصطلحات الحديثة اسم (تأمين العمق الاستراتيجي للكيانات الصليبية) وجعلوا من الكرك قاعدة لأعمالهم العدوانية ضد الحجاز وضد دمشق.

غير أن هذه الأعمال العدوانية استثارت غضب المسلمين. ولا ريب أن هذه الأعمال

قد ساعدت على تصعيد وتيرة الصراع المسلح بصورة مستمرة ومنتظمة. وقد كانت ممارسات الفرنج في التعرض لقوافل المسلمين - لاسيما عندما كانت هناك فترات هدنة - وكذلك قيام الفرنج بالتعريض لمدن المسلمين - وخاصة تلك التي تركت اثراً عميقاً في نفوس المسلمين عندما وجه - رينالد شاتيون -^(١) حلته إلى الحجاز - كانت هي أسباب المباشرة لمعركة حطين.

لقد أقام الفرنج الصليبيون ممالكهم وأماراتهم واقطاعاتهم في بلاد الشام، من خلال هجومهم الشامل في حملتهم الصليبية الأولى، ولعل هذا ما يفسر سهولة استيلائهم على القلاع والتحصينات ومقابل ذلك، فقد حاول نور الدين زنكي إخراج الفرنج الصليبيين من قلعة الكرك مرتين. وفعل صلاح الدين الأيوبي مثل ذلك عبر محاولات الحصار المتتالية. وكان الفشل من نصيب هذه المحاولات جميعها لمجموعة من الأسباب التي أبرزتها مسيرة الأحداث ذاتها. فقد كانت قلعة الكرك تختلي موقعاً حصيناً، غير أن موقعها لم يكن هو السبب فيها اكتسبته من الشهرة الدفاعية، وإنما كان السبب هو في ارتباطها بجموعة من التحصينات المائلة هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية، فإن ما كانت تتلقاه القلعة من دعم خارجي خلال تعرضها للحصار كان عاماً أساسياً وحاصلـاً في مساعدتها على الصمود والمقاومة. ولهذا فعندما تم تحرير القدس والمناطق المجاورة لها. وأصبحت قلعة الكرك معزولة عن محيطها الخارجي، اكتفى صلاح الدين بترك قوة صغيرة لحصار القلعة، ولم يستخدم ضدها المنجنيقات أو أدوات الحصار الأخرى. حتى إذا ما نضجت الثمرة تحت نار الحصار الهادئ، سقطت بصورة تلقائية، فتلقيتها قبضة المسلمين، واحتفلت بها.

إن اتساع قلعة الكرك. وما توافر لها من أسباب الدفاع، ثم ما حشد فيها من

(١) رينالد شاتيون: (RENAULT DE CHATILLON) وقد وصفه ابن الأثير في الكامل في التاريخ - أحداث سنة ٥٨٣ هـ - بما يلي: «كان البرنس أرنانط صاحب الكرك من أعظم الفرنج وأخيبهم وأشدتهم عداوة للمسلمين، وأعظمهم ضرراً عليهم. وقد وقع فيأسر صلاح الدين الأيوبي يوم حطين. فقرعه بذنبه، وعدد عليه عوراته، وقام إليه بنفسه فضرب رقبته. وقال: كنت نذرت دفتين أن أقتله إن ظفرت به: إحداها لما أراد المسير إلى مكة والمدينة. والثانية لما أخذ القفل غدرأً».

متطلبات الحرب لمدة طويلة ، وتجهيزها بوسائل الترف ، إنما يبرهن على المكانة الرفيعة التي احتلتها قلعة الكرك أيام الحروب الصليبية القديمة ، باعتبارها عاصمة إقليم ما وراء نهر الأردن ، ثم باعتبارها القاعدة المتقدمة للدفاع عن الامارات والممالك الصليبية ، وللهجوم على بلاد المسلمين الداخلية في الوقت ذاته . وي يكن بعدئذ اعتبار استيلاء الفرننج على الكرك ، ثم قيام المسلمين بطردهم منها ، بمثابة برهان على الحقيقة الثابتة وهي : (تفوق الهجوم على الدفاع) وهذه الحقيقة بدورها هي أساس حقيقة ثانية معروفة وهي : (انه من المحال مجاهدة الدفاع الشامل بغير هجوم شامل) .

وإذا كانت قلعة الكرك قد انتظمت في إطار خطة دفاعية استراتيجية . فقد كان من المحال التعامل معها على مستوى هجمات محدودة على مستوى العمليات أو على المستوى التعبوي - التكتيكي -. وهذا ما أكدته تجارب الحصار الفاشلة المتالية . فكان لا بد من انتظار نتائج الهجوم الشامل - الاستراتيجي - الذي بدأت بمعركة حطين ، حتى يتم أخضاع حاميات القلاع والمحصون المنيعة - وفي مقدمتها قلعة الكرك .

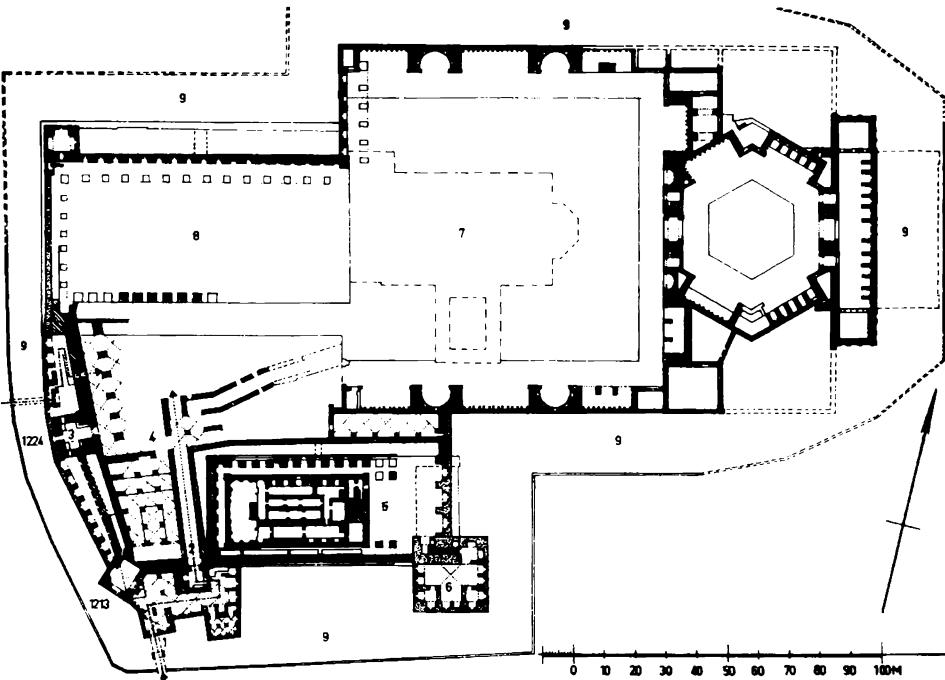
١١ - قلعة بعلبك .

بعلبك^(١) هي بلدة صغيرة في البقاع، تختل موقعها على هضبة مرتفعة تقع بين سلسلتي جبال لبنان الغربية والشرقية، اشتهرت بمعابدها القديمة. وقد حولت أرباض المعبد الكبير الذي يعود تاريخه إلى حقب مختلفة من عصر الامبراطورية الرومانية إلى قلعة ، وأدخلت عليها تحسينات متتالية خلال العصور الوسطى ، بالإضافة أسوار محيطية جديدة مع أبراج . وعلى الرغم من أن علماء الآثار والمهتمين بها ، قد نجحوا في المحافظة على آثار هذه التحسينات ضمن الحدود التي لا تتعذر فيها على المباني القديمة العهد ، فإن بعلبك تظفر بشكل مدهش كيف كان تكيف صروح العالم القديمة الضخمة ل تستغل في العصور الوسطى . وقد وصف المؤرخ أبو الفداء مدينة بعلبك بقوله : « هي بلدة قديمة ذات أسوار ، ولها قلعة حصينة عظيمة البناء ، وهي ذات أشجار وأنهار وأعين ، وهي كثيرة الخير . قال في العزيزي : وبعلبك مدينة جليلة قديمة ، بها مذبح ، تقول الصابئة : أنه بيوت من بيوتهم عظيم عندهم جداً . ومن بعلبك إلى الزيداني ثمانية عشر ميلاً . والزيداني مدينة ليس لها أسوار . وهي على طرف وادي بردى ، والبساتين متصلة من هناك إلى دمشق . وهي بلد حسن المنازه - المترهات - والخصب . ومنه إلى دمشق ثمانية عشر ميلاً »^(٢) .

كانت بعلبك تحت حكم الروم - البيزنطيين - عندما انطلقت جيوش العرب المسلمين لفتح بلاد الشام . وما إن فرغ العرب المسلمين من فتح دمشق ، وتدمير تجمع الروم في فحل - بيسان - حتى انطلقت جيوشهم لمناطق العمل المخصصة لها ، تنفيذاً

(١) بعلبك أو بعلبك : (BA'ALBEK) أو باليونانية هليوبوليس HELIOPOLIS وبالفرنجية بالبك : (MAUBEK) وما يكتب : (BALBEK)

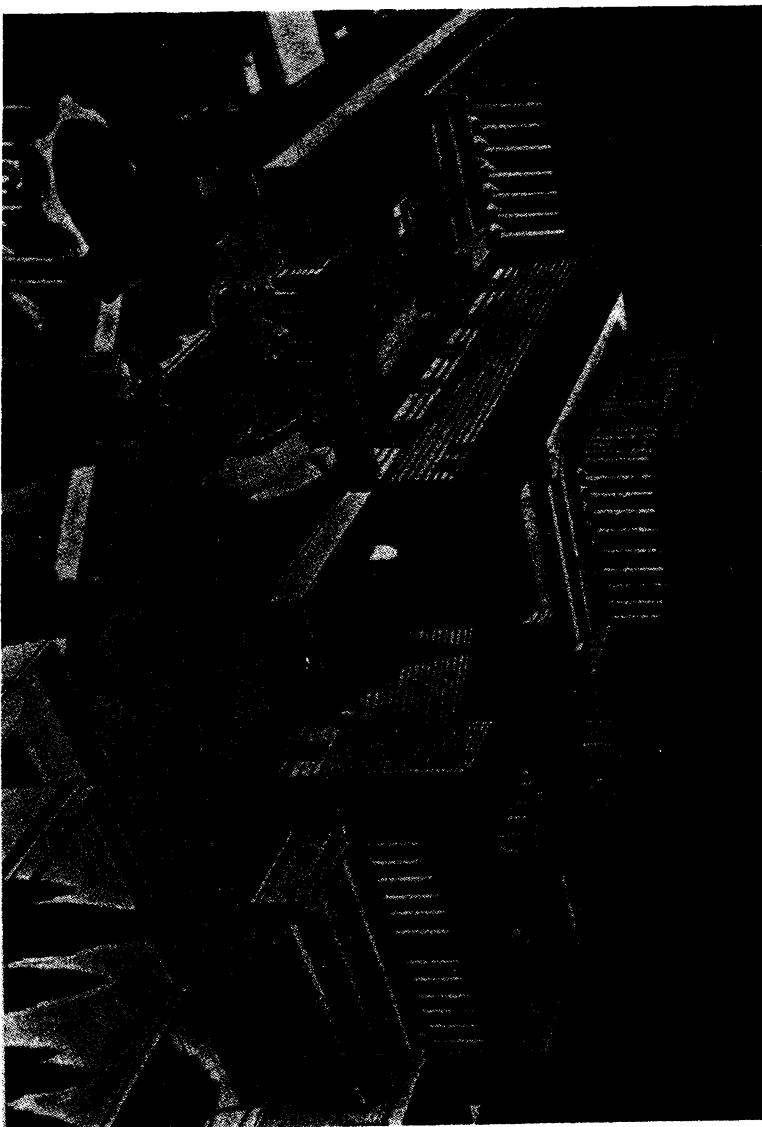
(٢) القلاع أيام الحروب الصليبية - ص: ٦٧ - ٦٨ .



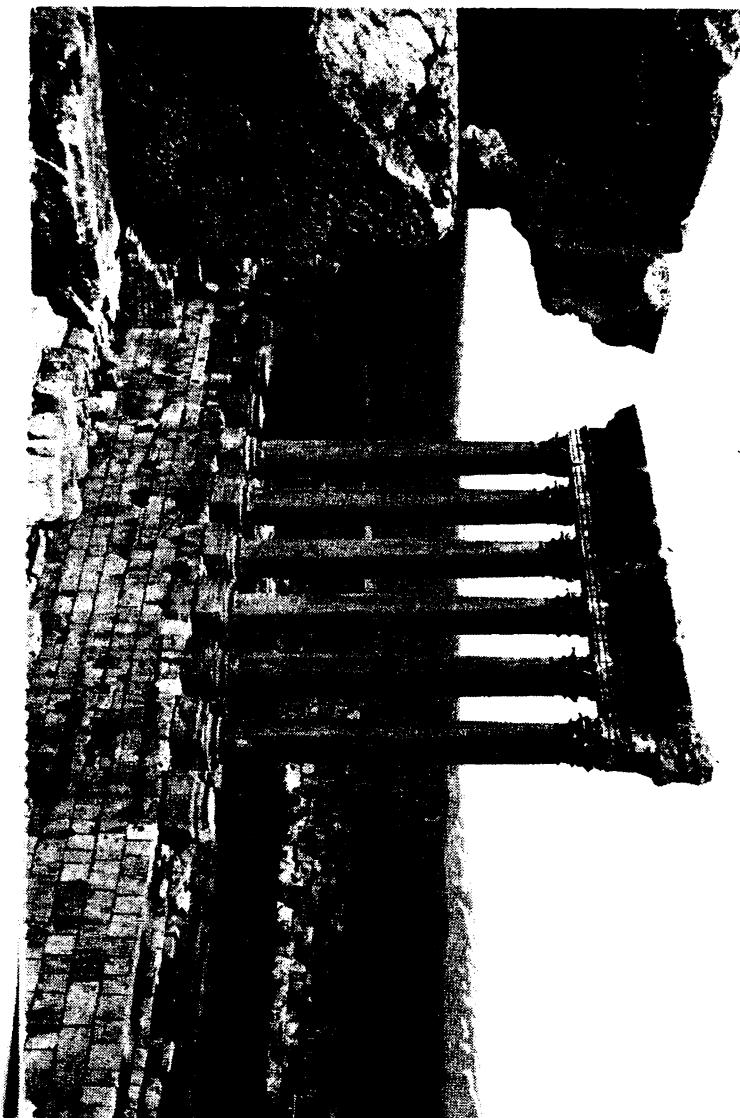
بعلك

مخطط عام لأراضي المعبد التي حولت لقلعة، المقياس ٢٠٠٠/١ . رسمت مباني عصر الإمبراطورية الرومانية باللون الأسود، والمباني السابقة لمنتصف القرن الثاني عشر بالتهشير المتقطع، والمباني العائدة للنصف الأول من القرن الثالث عشر بالتهشير، ومباني أواخر القرن الثالث عشر بالتنقيط.

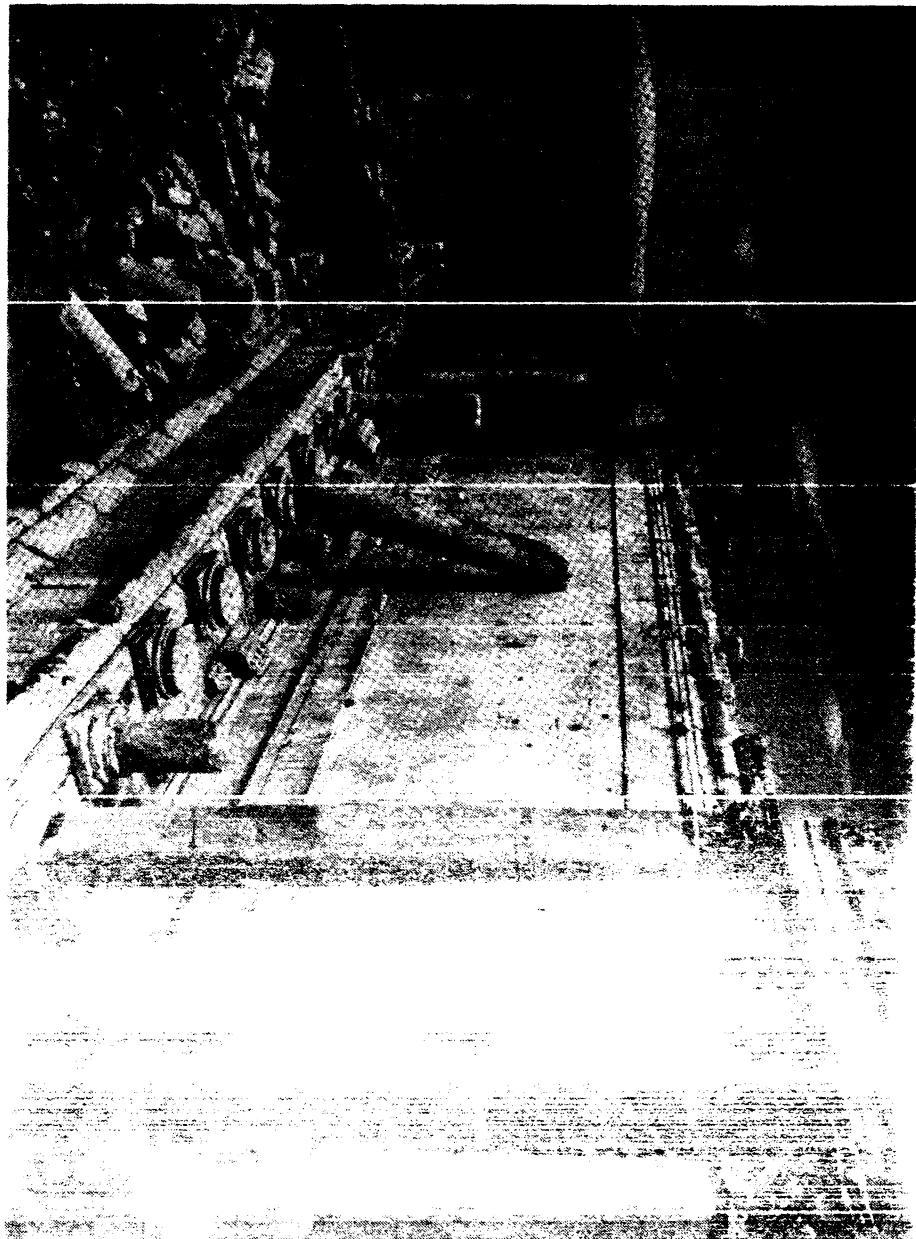
١ - حصن أمامي . ٢ - البوابة الجنوية الداخلية ، ٣ - البوابة الغربية القديمة ، ٤ - مسجد متتصدع ، ٥ - هيكل باخوس مع إضافات من العصور الوسطى ، ٦ - برج السلطان قلاوون ، ٧ - كنيسة بيزنطية (أزييلت أثناء التنقيب) ، ٨ - أساسات هيكل جوبير ، ٩ - خنادق دفاعية . (بالاستناد إلى شولتز - وينفلد - كرينكر مع تكبيرها من قبل المؤلف).



تصویر هایکل بعلبک



أعمدة هيكل جوبير المست في بعلبك



۷۷۹



بِلَادِ

لأمر أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه^(١) فكان من نصيب أبو عبيدة بن الجراح ومعه خالد بن الوليد، ففتح شمال بلاد الشام. فسار أبو عبيدة على محور مرج الصفر - البقاع - حمص. وكان لزاماً أن تصطدم قوات العرب المسلمين بالحامية البيزنطية في بعلبك. ولم تلبث أسوار بعلبك وتحصيناتها أن أسلمت قيادها بعد قليل من المقاومة للجند المجاهدين في سبيل الله. وأصبحت بعلبك، عاصمة البقاع، قاعدة للإسلام والمسلمين منذ فتحها (سنة ١٦ هـ = ٦٣٧ م). وجاءت بعلبك موقفاً صعباً سنة ١٢٧ هـ = ٧٤٤ م عندما أوغل الروم في تقدمهم عبر بلاد الشام. ووصلوا إلى بعلبك، وتمكنوا من تدمير تحصيناتها تدميراً جزئياً. وعاد الروم بقيادة الامبراطور (جون تزيميسكس)^(٢) فهاجموا بعلبك سنة ٣٦٤ هـ = ٩٧٤ م واحتلوها لفترة قصيرة، ودمروا بعضاً من أسوارها وتحصيناتها. وعندما جاء الفرنج الصليبيون لغزو بلاد الشام منحدرين من الشمال، واجتازوا أنطاكية، وجدوا أنفسهم مرغمين للسير على أحد محورين للوصول إلى القدس: إما طريق الساحل، وإما الطريق البديل الممتد من شمال بلاد الشام إلى فلسطين عبر وادي نهر العاصي - من حماه إلى حمص، ثم إلى أحد طرفيين أو لهما على طريق الساحل مروراً بمدينة طرابلس - والثاني يتجه إلى بعلبك ثم إلى منابع نهر الأردن عبر دمشق - وما كان هذا المحور سيصطدم بالمدن الداخلية القوية، فقد فضل الفرنج تجنبه. وبقيت بعلبك بعيدة عن قبضة الفرنج الصليبيين بفضل ارتباطها بأمير دمشق^(٣)

غير أن ذلك لم يمنع الفرنج من محاولة السيطرة على عاصمة البقاع باعتبارها العقدة المأمة على طرق مواصلاتهم، والتي يمكن بواسطتها فرض السيطرة على سهل البقاع الخصيب بأكمله. وجاءت فرصة مؤاتية عندما اتصل حاكم بعلبك (كمشتكين التاجي - الخصي) بالفرنج، وتعهد لهم بتسلیمهم القلعة مقابل إبقاءه حاكماً مستقلاً لها.

(١) انظر الكامل في التاريخ - ابن الأثير - وتاريخ الطبرى - أحداث سنة ١٥ هـ - مطالعة تفاصيل الفتح.

(٢) جون تزيميسكس: JOHN-TZIMISCES.

(٣) تاريخ الحروب الصليبية: ٩٥/٢ و ١٥٤ و ١٥٧.

ولكن حاكم دمشق (بورى بن أتابك) علم بذلك، فأحيط المؤامرة قبل الشروع في تنفيذها. وطرد كمشتكين من منصبه، وعين محله ابنه (شمس الدولة محمد). ولكن بعلبك لم تستقر طويلاً تحت حكمه، فقد قتل حاكم دمشق - شهاب الدين محمود بن تاج الملوك بوري بن طغدكين، أو طغتكين - فأسرع عياد الدين أتابك زنكي بن آقسنقر إلى دمشق، وعندما عرف أنه لن يتمكن من فتحها أو اخضاعها لحكمه، اتجه إلى بعلبك، ونازها، وضيق عليها، وجد في محاربتها، ونصب عليها من المنجنيقات أربعة عشر عدداً ترمي ليلاً ونهاراً، حتى أشرف من بها على الهلاك، وطلبوها الأمان. وسلموا إليه البلدة. وبقيت القلعة وبها جماعة من شجعان الأتراك، فقاتلهم حتى أيسوا وطلبوها الأمان، فأمنهم، فأسلموا اليه القلعة^(١). وأصبحت بعلبك وقلعتها، تحت حكم الزنكيين. فلما توفي السلطان أتابك عياد الدين زنكي (سنة ٥٤١ هـ = ١١٤٦ م) أسرع حاكم دمشق - معين الدين أنز - فأرسل قواته واستعاد بعلبك، كما أرغم أميري حصن وحاه على إعلان تبعيتها لدمشق. لكن نور الدين زنكي تابع السير على نهج والده في محاربة الفرنج. وما لبث أن بسط نفوذه على مدن حاه وحصن ودمشق، وأخضعها لحكمه (سنة ٥٤٩ هـ = ١١٥٤ م). وكان من المفروض أن تخضع بعلبك لنور الدين زنكي بعد أن خضعت دمشق لحكمه. لكن بعلبك كانت في تلك الفترة تحت حكم (ضحاك البقاعي) الذي نسب إلى بقاع بعلبك -. وكان قد ولاه إياها حاكم دمشق. فلما ملك نور الدين دمشق، امتنع ضحاك بها، ولم يتمكن نور الدين من محاصرته لقربه من الفرنج، فتلتطف الحال معه إلى أن ملكها واستولى عليها (سنة ٥٥٢ هـ = ١١٥٧ م)^(٢). وحدث أن تعرضت بعلبك لزلزال عظيمة وهزات أرضية متتابعة، لم يبر الناس مثلها، وتهدمت أسوار بعلبك.

فلما علم نور الدين زنكي بذلك، سار إلى بعلبك ليعمر ما تهدم من سورها

(١) الكامل في التاريخ أحداث سنة ثلاث وثلاثين وخمسة وسبعين. وتاريخ الحروب الصليبية: ٣١٢/٢ و ٣٢٢.

(٢) لمطالعة المزيد عن تفاصيل هذه الأحداث يمكن العودة للكامبل في التاريخ، أحداث سنوات ٥٤١ و ٥٤٩ و ٥٥٢ هـ. وعن دور الأيوبيين (أسد الدين شيركوه ونجم الدين أيوب) واتصالهما بالزنكيين وحكمهما لدمشق وبعلبك، انظر أحداث سنة ٥٦٤ هـ - في الكامل للتاريخ أيضاً.

وقلعتها . ثم جعل بعلبك من يعمرها ويخفظها - يدافع عنها - . وسار إلى حصن . فلما توفي نور الدين زنكي (سنة ٥٦٩ هـ = ١١٧٣ م) . أسرع صلاح الدين الأيوبي ، فسار من مصر إلى بلاد الشام فملك مدن دمشق . وحصن وحمة . ثم سار إلى بعلبك - وبها خادم اسمه مين وهو وال عليها من أيام نور الدين - فحضرها صلاح الدين ، فأرسل - مين - بطلب الأمان له ولمن عنده ، فأمنه صلاح الدين وتسلم القلعة رابع عشر من رمضان من سنة سبعين وخمسة (١١٧٤ م) . واتجه صلاح الدين شمالاً للاستيلاء على حلب . وأفاد الفرنج من ذلك ، فسار حاكم طرابلس - الكونت ريموند - من البقعة للاغارة على بعلبك والاستيلاء عليها . وقدم من الجنوب جيش مملكة القدس بقيادة هموري سيد تبني - وملك القدس الذي لم يكن قد تجاوز الخامسة عشرة من عمره - . وتعرض ريموند للهزيمة على يد أمير بعلبك (ابن المقدم) . وزال الخطر عن بعلبك التي بقيتتابعة لحكم الأيوبيين . فلما توفي صلاح الدين بقيت بعلبك تحت حكم أخيه - بهرام شاه - الذي بذل جهده لإعادة تحسين القلعة وإضافة عدد من الأبراج إليها مع دعم أسوارها . وعندما اجتاح المغول التتار بلاد الشام (سنة ٦٥٩ هـ = ١٢٦٠ م) جعل قائدهم - كتبغا - من بعلبك قاعدة له ، فلما علم بتحرك المسلمين من مصر بقيادة المظفر قطز ، غادر بجيشه بعلبك ، وسار إلى وادي نهر الأردن ، فلما دارت رحى معركة عين جالوت ، وطحنت جيش المغول وقتلت كتبغا ، اضطرر فل - فلول - المغول للانسحاب من بلاد الشام ، وعملوا كما حررت عليه عادتهم من التخريب . فدمروا بعلبك ، وجاء المسلمون وأعادوا ترميمها واصلاحها بسرعة . ودعمت بعد فترة قصيرة على يد السلطان قلاوون الذي شيد برج المدفعية الضخم المجاور لمعبد باخوس . وقوى السور الغربي للقلعة ، وأضاف حصنًا أماهياً إلى البوابة الجنوبية .

هكذا بقيت بعلبك وقلعتها قاعدة للمسلمين ، وتابع على حكمها (البوريون)^(١) ثم

(١) البوريون: سلالة من الأتراك - السلاجقة - حكموا دمشق ، وحلوا اسمهم نسبة إلى تاج الملك بوري ابن طفتكن الذي ولّ حكم دمشق سنة ٤٩٧ هـ = ١١٠٣ م وذلك بعد وفاة حاكمها دقاق بن تشن ابن ألب أرسلان . وقد تولى بوري بن طفتكن الدفاع عن دمشق وبعلبك ، وكانت له وقائع شهيرة مع الفرنج ، وطعنه أحد الباطنية - الإسماعيلية - غيلة سنة ٥٢٥ هـ = ١١٣٠ م . فتوفي متأثراً بجراحه =

الزنكيون وتبعهم الأيوبيون حتى جاء الملك ^(١) بعد ذلك . ولم تخرج عن حكم المسلمين إلا لفترة قصيرة خلال هجوم المغول التتار - بقيادة كتبغا - . وخلال هذه الفترة من تاريخ الحروب الصليبية القديمة . تلاحم تاريخ بعلبك بتاريخ دمشق ، حيث كانت بعلبك هي القاعدة المتقدمة الأساسية للدفاع عن دمشق . ومقابل ذلك ، فقد مارست بعلبك تأثيرها ونفوذها لتوجيه سياسة دمشق ، وظهر ذلك واضحاً عندما عمل الأيوبيون في مقدمة جيش نور الدين زنكي . وكذلك ، فعندما امتنعت دمشق على نور الدين أسمه نجم الدين أيوب وأخيه سيف الدين شركوه في استثارة دمشق وفتح أبوابها لجيش نور الدين . ولقد كانت تلاحم دمشق وبعلبك خلال تلك المرحلة كمثل تلاحم الأيوبيين بالزنكيين ، حيث أفاد الأيوبيون - على ما هو معروف - من قوة الزنكيين الذين مهدوا لهم حكم مصر ، حتى إذا ما حكموها واستقروا بها ، عادوا للاستيلاء على أملاك الزنكيين بالشام . وكان الأمر المهم في ذلك كله هو أن ذلك التلاحم قد ضمن القوة لل المسلمين في حروبهم ضد الفرنج الغزاة . وعلى هذا ، وبالرغم من أهمية الدور الكبير الذي اضطاعت به بعلبك في الدفاع عن دمشق خاصة ، وفي حرب الفرنج في جنوب بلاد الشام عامة ، إلا أن دورها السياسي كان أكثر عمقاً وأشد قوة من دورها في الحرب . وبذلك لم تكن قوة بعلبك أيام الحروب الصليبية هي في منعة تحصيناتها أو متانة أسوارها أو قدرة دفاعاتها ، وإنما كانت في قدرتها الكامنة في تصميمها العنيد على التصدي لحرب الفرنج الغزاة ، وفي استعداد أهلها الدائم للحرب والقتال . ويظهر العرض الوجيز السابق أن بعلبك لم تتعرض لهجمات الفرنج مباشرة ولم تواجه حصارهم . وباستثناء أعمال الحصار التي قام بها المسلمين بعضهم ضد بعض . على أسوار بعلبك وتحصيناتها ، فإن غزوات الفرنج لم تتجاوز أرباض بعلبك ، وكان أهل بعلبك وجيشها

= (سنة ٥٢٦ هـ) وخلفه على حكم دمشق ابنه شمس الملك اسماعيل ، وعلى حكم بعلبك ابنه شمس الدولة محمد .

(١) المالك ، هم الذين حكموا بلاد الشام ومصر بعد الأيوبيين ، ومنهم الملك البحري بداية من شجرة الدر والمعز عز الدين ابيك ، ثم المنظر قطز والظاهر بيبرس وسيف الدين قلاوون ، وقد حكموا من سنة ٦٤٨ حتى سنة ٧٩٢ هـ (١٢٥٠ - ١٣٨٩ م) وجاء بعدهم الملك البرجية الذين كان آخرهم طومان باي وقائمه الغوري وهو اللذين قضى عليهما الأتراك العثمانيون سنة (٩٠٢ - ١٥٠١ م) .

لقد مثلت بعلبك وقلعتها في هذا المضمار النموذج الأفضل والشكل الأوضح للحرب الدفاعية في المذهب العسكري الإسلامي، وهي الحرب التي لا تعتمد في أعمالها القاتالية على الواقع والتحصينات إلا من أجل الانطلاق للهجوم. فإذا ما دعى الداعي للحرب والقتال، لم يتناقل المجاهدون في سبيل الله، اعتقاداً منهم على منعة مواقعهم وقوة تحصيناتهم، وإنما نفروا خفافاً، وطاروا سراعاً للقاء العدو بحثاً عن إحدى الحسينين. وقد أظهر ذلك بوضوح وجلاء الفضائل الحربية للمجاهدين المسلمين وأبرزها الاستعداد الدائم للقتال، والمرونة وخفة الحركة. فالمسافة بين دمشق وبعلبك، أو بين بعلبك وطرابلس، ليست مسافة قصيرة بالمقارنة مع وسائل القدرة الحركية التي كانت تستخدمها القوات - الخيول -. ولكن قوات المجاهدين التي عاشت على صهوات خيولها لم تكن تجد في المسافات الجغرافية إلا بساطاً لابراز قدرتها الحركية

العالية ، وإلا مسطحاً لتأكيد قدرتها الهجومية . ولم تكن هذه الفضائل الخربية حكراً - أو ميزة - انفرد بها قوات بعلبك ودمشق دون سواها من جيوش المدن والأقاليم الإسلامية ، ولو أنها ظهرت بشكلها الأكثر وضوحاً في تحركات جيشي بعلبك ودمشق وعملياتها القتالية . وفي الحقيقة ، فإن هذه الفضائل هي الإرث الذي خلفته قوات الفتح منذ انتلاقها الأولى من جزيرة العرب وهي تحمل راية الإسلام ، وجاء الخلف فحافظوا على ارث السلف ، وعملوا على الإفادة منه وتطويره ، مما أكد التزام المسلمين عبر الأزمنة المتالية بالأسس والمبادئ ، التي برهنت باستمرار على نجاعتها وفاعليتها وصلاحيتها . ولقد وقفت بعلبك وقلعتها ، وسط الأحداث المثيرة التي حلتها هجمات الفرنج الصليبيين ، وعاشت هذه الأحداث وهي ترقب ما يحدث حولها ، وعملت على تقويم المواقف وتصحيح مساراتها . ولقد دانت بعلبك وأهلها للإسلام ، وارتضت ديناً فحرست على حاليه من كل أخraf ومن كل سوء . فكانت رؤيتها ورؤية أهلها للأمور واضحة جلية : لقد جاء الفرنج الصليبيون بأحفادهم وأسلحتهم وأعدتهم وهم يبغون تدمير الإسلام وأهله في إطار حرب هجومية شاملة ، فكان لا بد من الرد على هذا المستوى ذاته . ولقد انطلقت شرارة التحول من بعلبك ، فكانت هي السبيل لفتح دمشق أمام الزنكيين ، وكانت هي المنطلق للأيوبيين من أجل إعادة فتح مصر وإنهاء عزلتها عن العالم الإسلامي - السنى - . وكانت هي باستمرار النموذج الأفضل للحرب الدفاعية - الهجومية ضد الفرنج . لا في حدود بعلبك وحدها ، وإنما في سهل البقاع الخصيب كله ، وفي سائر بلاد الشام . وتتابعت دهور وعصور ، وجاء الفرنسيون تحت راية الانتداب في القرن العشرين ، فسرقوا بعض حجارتها ، وسلبوا بعض آثارها ونقلوها إلى عاصمتهم - باريس - وحاولوا الوصول إلى أعماق الأرض في محاولة لنبش مجد الروم البيزنطيين ، والتذكير بأنه كان للصلبية في هذه الأرض مربعاً ومرتفعاً ، وتجاهلو ما كانت تتنطق به الحجارة التي حلواها معهم والتي كانت برهاناً على أنه لا مكان على هذه الأرض إلا للإسلام وأهله .

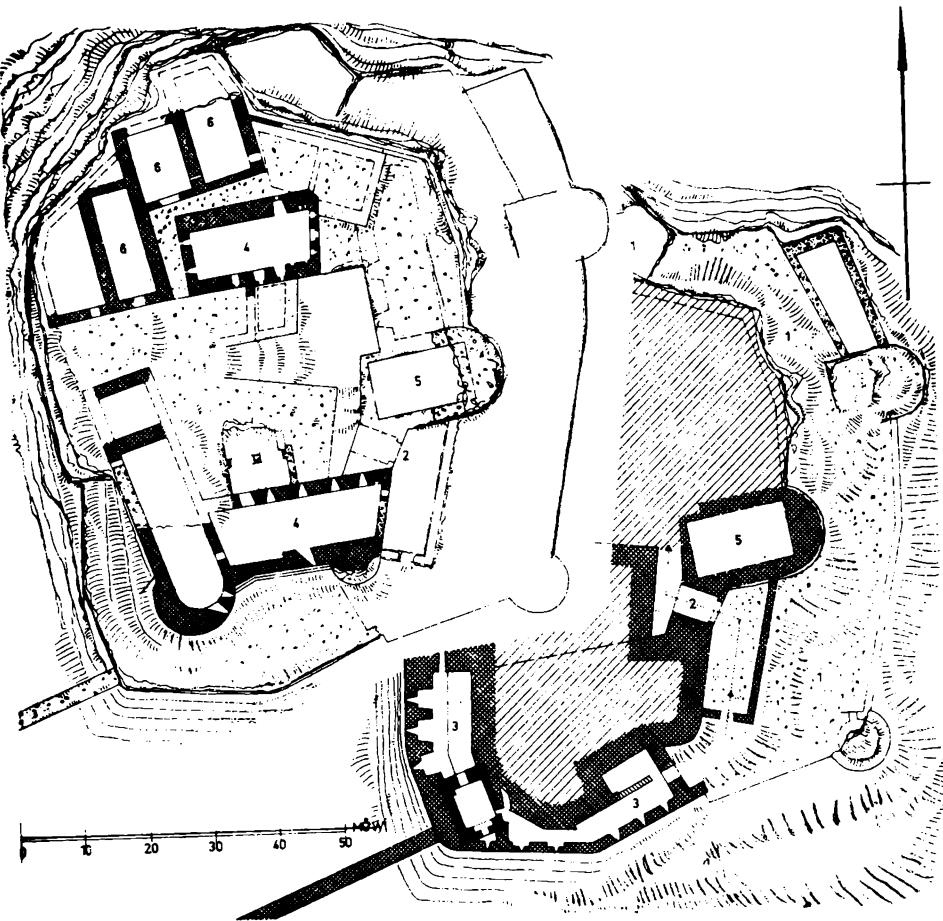
٩ - قلعة بغراس .

(بغراس)^(١) هي قلعة وقرية صغيرة في اقلم اسكندرون ، تقع بين الشعب الشرقي للسلسلة الجبلية التي تكون - قيزيل ضاي والأمانوس - وهي مثل - حصن الحصار - الذي يسيطر على شعب بيلان ذاته ، وكانت تشكل مفتاح الطريق الواصل بين انطاكية - الاسكندرون - قيليقيه ، وقد بقيت القلعة وهي في حالة جيدة ، تطل على واد جبلي فوق مخروط صخري ينحدر بشدة من جميع الجهات . ولقد شيدت القلعة على عدة مستويات بسبب شدة اندثار السفوح الصخرية ، وترتبط بعضها ببعض بمرات ومدرجات - سلام - وهي بذلك تقاشي مع الأرض المحيطة بها . ويتشابه تصميمها مع تصميم القلاع الأرمنية في قيليقيه - أو كيليكيا - . وإذا ما أمكن تجاوز تلك الغرف العديدة ذات العقود ، ومراتها الكثيرة المبنية داخل المنحدرات ، فإن ما بقي من القلعة العلوية لا يزيد على بقايا قاعتين كبيرتين . وتوجد عند أقدام القلعة قناة مائية ضخمة كانت تستخدم أيضاً لإغلاق القسم العلوي من الوادي . وقد أورد المؤرخ أبو الفداء في مؤلفه - تقويم البلدان - وصفاً لقلعة بغراس تضمن ما يلي : « هي قلعة مرتفعة ، ولهما أعين وواد وبساتين . وقال ابن حوقل : وبغراس على طريق الشגור . وكان بها دار ضيافة لزبيدة ، قال في العزيزي : وبغراس بينها وبين أنطاكية اثنا عشر ميلاً . وبينها وبين اسكندرونة أيضاً اثنا عشر ميلاً . وهي في الجبل المطل على عمق حارم . وحارم في جهة الشرق منها . وبينها نحو مرحلتين . وبغراس في جهة الجنوب عن درباسك ، وبينها بعض مرحلة »^(٢) .

كان الروم قد أقاموا بين الاسكندرونة وطرطوس سلسلة من الحصون والقلاع

(١) بغراس: (BAGRAS) وبالتركية بايراس: (BAGRAS) وباليونانية باغراي . أما بالفرنسية فتعرف باسم باغاراس - أو غاستون - GASTUN وغاستين: (GASTIN) وغواستون: (GUASTON) .

(٢) القلاع أيام الحروب الصليبية . ص: ٥٨ - ٥٩ .

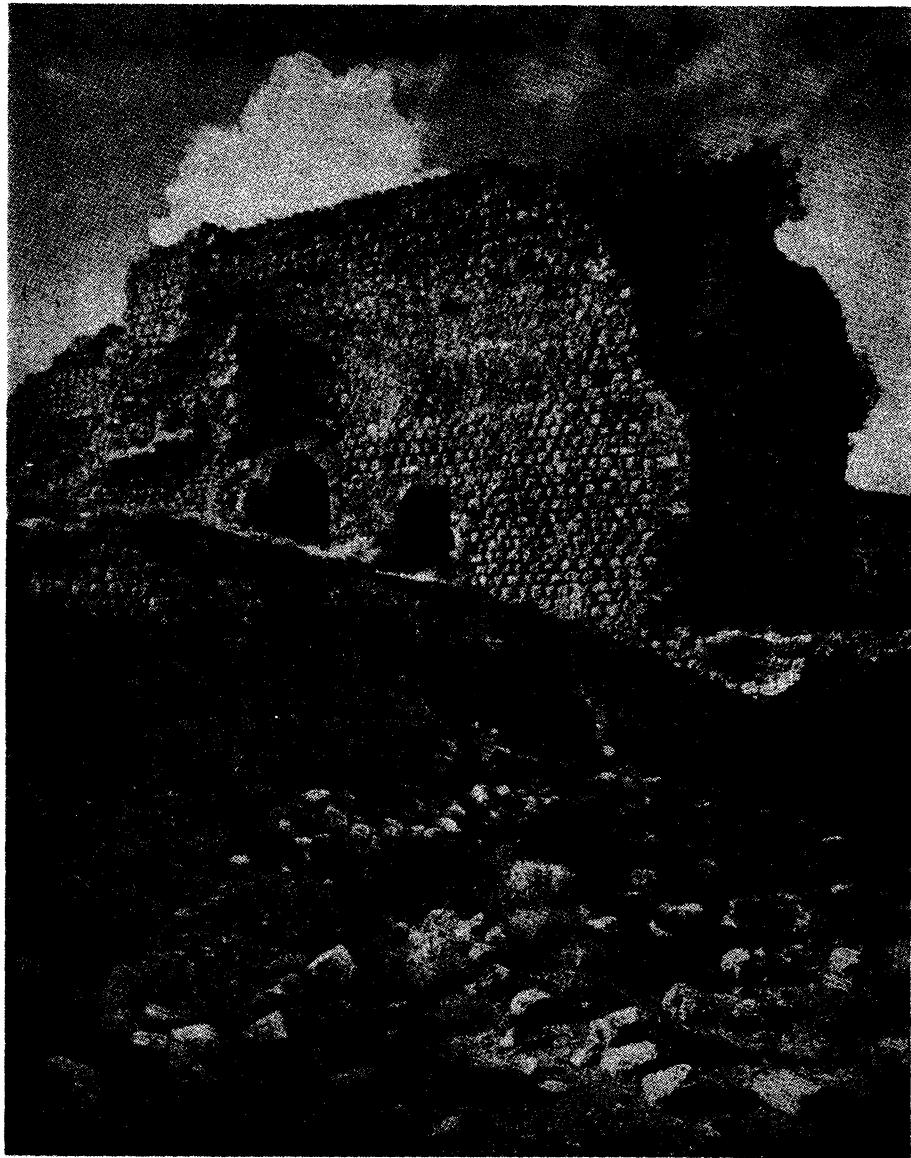


بغراس Bagras مخطط أرضي للقلعة، مقياس ١/١٠٠٠ .

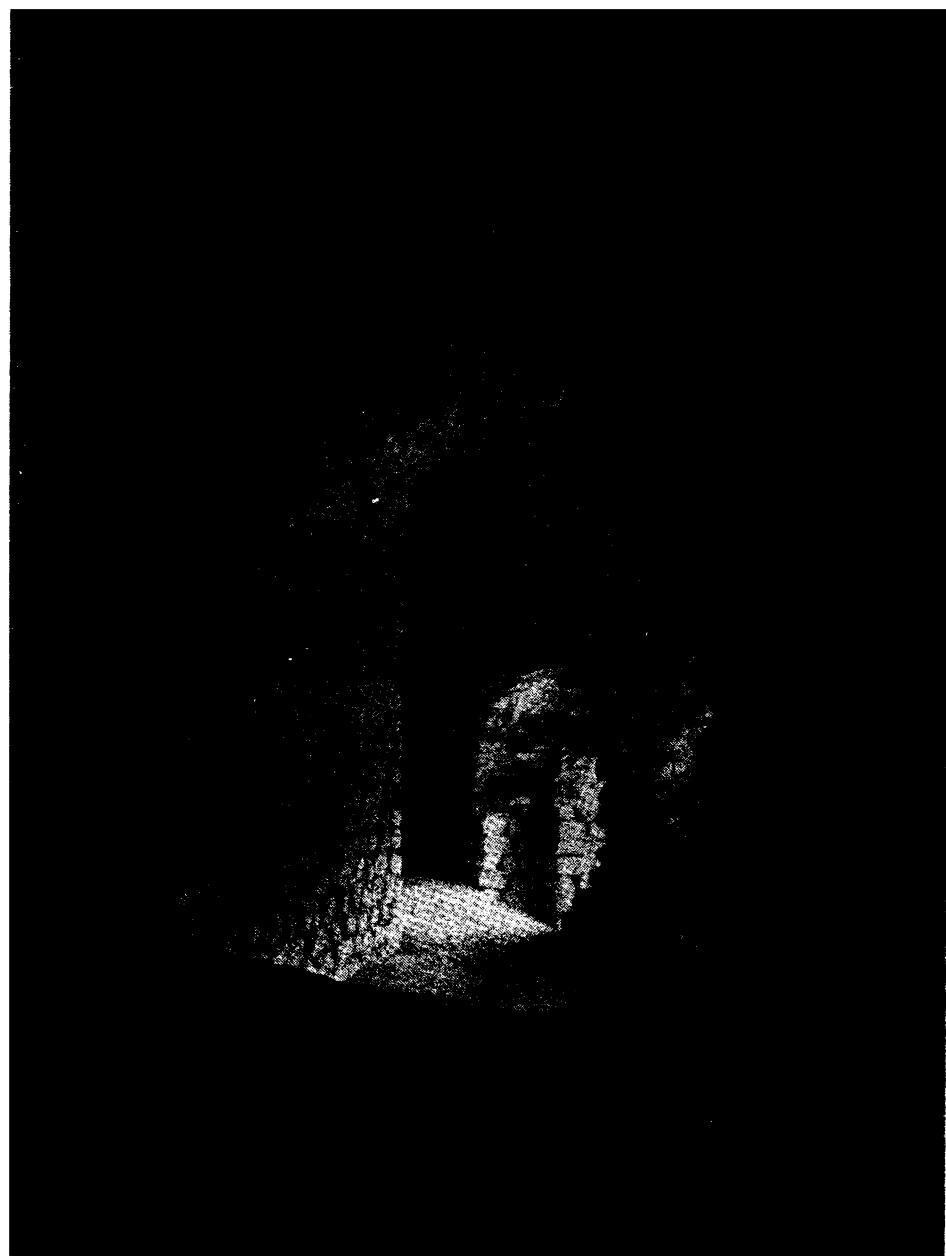
أ - القلعة السفلية والأرضية السفلية للقلعة العليا .

ب - الأرضية العلوية للقلعة العلوية (مباني الأرضية السفلية مبنية بالرسم المنقط) مع مبني الطور الأول (البيزنطي) وهي مرسومة باختط الأسود ، بينما رسم القسم الذي يعود تاريخه الى القرنين الثاني عشر والثالث عشر بالتهشير الكثيف .

١ - القلعة السفلية ، ٢ - ساحة أمامية وحصن الحرس (حصن البوابة) ، ٣ - الشرفة السفلية ، ٤ - مبني القصر ، ٥ - البرج الكبير ، ٦ - غرف المستودعات .

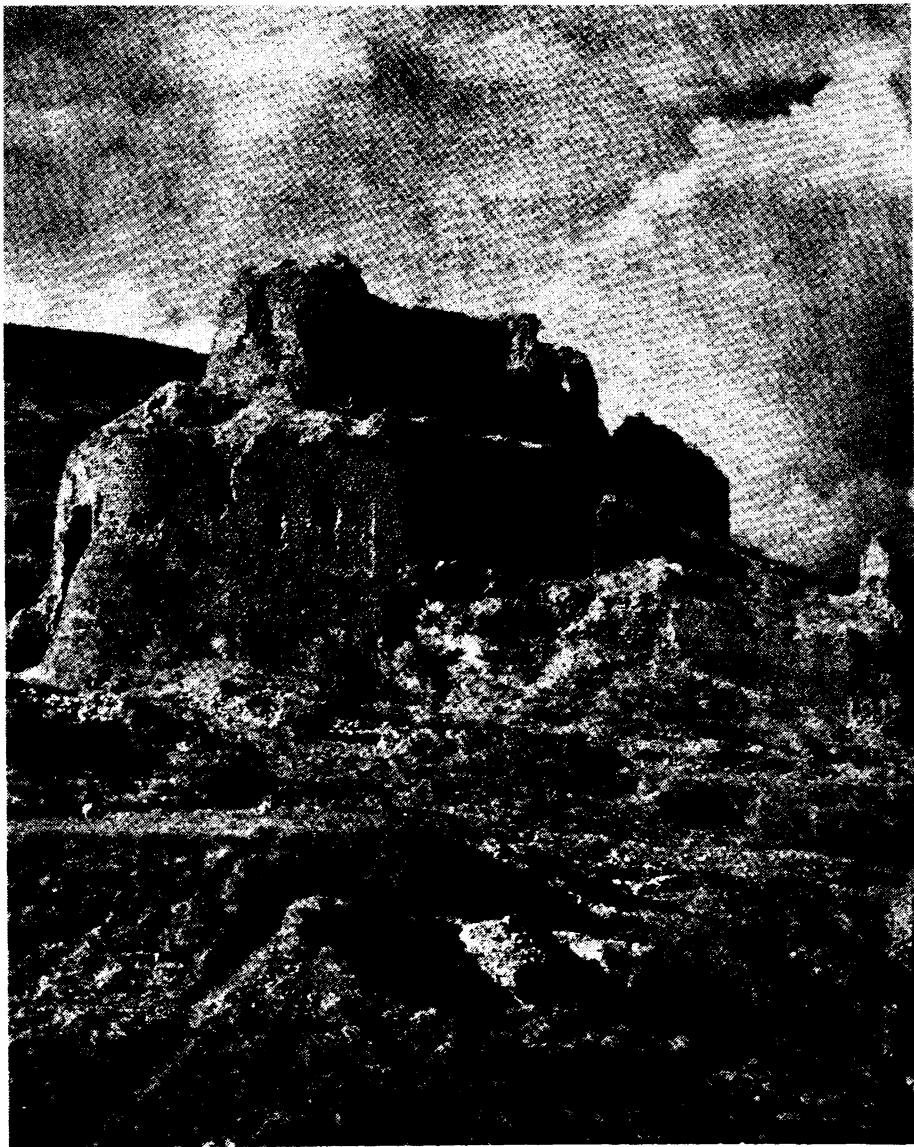


قلعة بفراس



قلعة بغراس

٢



قلعة بغراس

والمسالح. وعندما فتح العرب المسلمين بلاد الشام، وطردوا الروم منها ، عمل الروم على اجلاء سكان هذه المنطقة ، فأصبحت خالية من السكان. وقد رغب الروم في اجلاء سكان مناطق الحدود عن مدنهم وقراهم بهدف تدمير المنطقة وافقارها ، ومن ثم استخدامها مسرحاً للقتال وذلك بزج مجموعات صغرى من المقاتلين في تلك الحصون والمسالح - والتي أطلق عليها العرب المسلمين اسم المطامير - للقيام بمهمة قطع الطريق على قوات العرب المسلمين عند عودتها من غزو ما وراء الدروب ، ونصب الكمائن والقيام بالإغارات على مؤخرات قوات العرب المسلمين وقتل المتخلفين أو المنعزلين عن كتلة القوات الرئيسية ، لاحباط الروح المعنوية للمجاهدين في سبيل الله . وكان قائداً فتح بلاد الشام - أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه - هو أول من وصل بغزوهاته - الصوائف - إلى الحصون القائمة فيها وراء الدروب . فمرّ بالصيصة وطرطوس . وقام بجولة على الحصون المحيطة بهذه الثغور ، فوجدها خالية من السكان ، ثم دفع بقوات للغزو - بقيادة ميسرة بن مسروق العبيسي - فبلغ زنته . ثم عاد بصفته . وعندما تمردت انطاكية بعد فتحها بفترة وجيزة - وبتحريض من الروم البيزنطيين - أعاد أبو عبيدة فتحها ، ووجه مجموعة قتالية كبيرة بقيادة ميسرة للتغلب في بلاد الروم عن طريق بغرامس - أو بgrass - والتلى ميسرة بجيش من الروم ومعهم مستعرية غسان وتتوخ وإياد يريدون اللحاق بهرقل . فدارت معركة قاسية ، ووصلت إمدادات إلى ميسرة ساعدته على هزيمة الروم وتدمير قواتهم . ثم قام معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه بقيادة الصائفة ، وتوجه بها عبر الدروب إلى الثغور المتقدمة . ووجد معاوية أن الحصون بين أنطاكية وطرطوس خالية ، فنقل إليها جماعة من أهل الشام وقنسرين ، وأصبحت انطاكية - منذ سنة ٢٥ هـ = ٦٤٥ م - وطوال عهد معاوية ، هي الثغر الرئيسي لانطلاق الصوائف . وفي العام ٣١ هـ = ٦٥١ م . عاد معاوية ثانية لقيادة الصائفة من ناحية المصيصة ووصل حتى درولية ، وخلال عودته دمر جميع حصون الروم التي في طريقه حتى وصل انطاكية^(١) .

(١) فتح البلدان - البلاذري - ص: ١٦٢.

ويظهر أنه كانت لقلعة (بغراس) مكانة مميزة بين مجموعة القلاع والمحصون التي أقامها الروم فيها بين انطاكية وطرطوس، إذ كان الدرب الذي يخترقها قد حل اسمها، ولكن وبالرغم من ذلك فان دور بغراس لم يكن منفصلاً أو مستقلاً عن دور بقية قلاع ما وراء الدروب. والمعروف أن الصراع بين العرب المسلمين وبين الروم قد استمر قرونًا بعد ذلك، وتركز هذا الصراع على الدروب، أو ما يمكن تسميته محاور العبور الطبيعية، أو المرات الاستراتيجية الاجبارية، بين سلاسل الجبال الفاصلة بين بلاد الشام وبين بلاد الروم. ولم يكن النصر دائمًا لمصلحة المسلمين، فقد أفاد الروم أحياناً من الأضطرابات الداخلية في بلاد الشام للقيام بهجمات كبيرة وصلت إلى عمق بلاد الشام مثل حصن بيروت. وكان من الطبيعي أن تتعرض بغراس وسواها من قلاع الدروب للتدمير المتتابع أثناء مرور الجيوش بها جيئه وذهاباً، مما كان يدفع لإعادة بنائها وتجديدها. فلم يكن من الغريب - بالتالي - أن يختلط تاريخ بناء قلعة بغراس على الباحثين وعلماء الآثار، إذ ليس لبغراس تاريخ دقيق ومحدد لبنائها وانشائها. فإذا كان الروم البيزنطيون هم الذين شيدوها قبل الفتح العربي - الإسلامي، لا يقف هجمات الفرس المحتملة عبر الصراع الفارسي - البيزنطي الذي استمر قرونًا متتالية. فان الأمر الذي لا يقبل الجدل هو أن قلعة بغراس قد أصبحت موطنًا لقوات العرب المسلمين طوال العهد الأموي وصدر العهد العباسي الأول على الأقل، وذلك باستثناء فترات قصيرة جداً من هذين العهدين (الأموي والعباسي). ولقد أفادت الحاميات العربية - الإسلامية بالتأكيد من موقع قلعة بغراس، وما توافر له من الأهمية الجيواستراتيجية. فعملت هذه الحاميات على دعم تحصينات القلعة وزيادة منعتها. ولقد أغفلت المصادر العربية وغير العربية - البيزنطية - دور هذه القلعة، ذلك لأنه لم يكن لها في الواقع دور أساسي وحاسم في الصراع، إذ أنها لم تكن أكثر من مراكز أمنية متقدمة، للجيوش التي تنطلق عبر الدروب للوصول إلى الشغور - العاصم - القائمة على طرف في الجبال الفاصلة بين بلاد المسلمين وببلاد الروم. ولقد برزت عبر الصراع المستمر أسماء عد من العاصم مثل هرقلة وعمورية وملطية ومرعش والحدث وزبطة وملازكـرد وسواها، بسبب ارتباطها بمعارك حاسمة وشهيرة، في حين لم يكن لقلاع

الدروب وحصونها - ومنها قلعة بغراس - إلا دور ثانوي مثل الرصد والانذار والقتال التأخيري - الإعاقه -. وهي من الأعمال التي لا تخظى عادة باهتمام الكتاب والمؤرخين، سواء في القديم أو في الأزمنة الحديثة - وذلك رغم أهمية مثل هذه الأعمال وخطورتها وتأثيرها - تأثراً حاسماً في بعض الأحيان - على مسيرة الأعمال القتالية.

عندما اندحرت جحافل الفرنج الصليبيين من بلاد الروم إلى بلاد الشام عبر الدروب (سنة ٤٩١ هـ = ١٠٩٧ م). كانت السيطرة على الدروب في قبضة السلاجقة الذين كانت عاصمتهم - نيقية - وكان ملكهم آنذاك السلطان قلج أرسلان الأول، والذين كان يناظرهم السلطة على حدودهم الشرقية التركمان - الدانشمند - وهو الذين اتخذوا من ملطية عاصمة لهم. في حين كان أمير الأرمن - جبرائيل - يمارس دوره لاذكاً روح الفتنة، وتجديد الصراع بين (الدانشمند)^(١) والسلاجقة حتى يحتفظ بقوته وملكه. وعندما وصل الفرنج الصليبيون، عمل الأرمن أدلة لهم عبر الدروب بهدف إقامة كيان مستقل لهم، مما مكنتهم من بسط نفوذهم على ممتلكات السلاجقة وقلائعهم في قيليقية، غير أن التركمان نجحوا في استعادة السيطرة عليها بعد عبور جحافل الفرنج. ثم عاود الأرمن فرض هيمنتهم عليها. وفي سنة ٥٣١ هـ = ١١٣٦ م، تعاظمت قوة المسلمين في الشمال من بلاد الشام. فخاف الفرنج من أن ينقطع عليهم طريق اتصالهم البري: «فبعثوا إلى ملك الروم في القسطنطينية يستصرخون به، ويعرفونهحقيقة الموقف. فسار ملك الروم مجدًا، وابتداً بر Cobb البحر حتى نزل بأنطاكية. وأقام ينتظر المراكب التي فيها أئقاليه وسلامه. فلما وصلت سار عنها إلى مدينة نيقية فحصرها، فصالحه أهلها على مال يؤدونه، فسار عنها إلى مدينة أذنة ومدينة المصيصة - وهو بيد ابن ليون الأرمني - صاحب قلاع الدروب، فحصرها وملكها. ورحل إلى - عين زربة - فحصرها وملكها عنوة، وملك تل حدون... ثم رحل عنها إلى بغراس، ودخل منها إلى بلد ابن ليون الأرمني. فبذل ابن ليون أموالاً كثيرة، ودخل في

(١) الدانشمند - زعيم التركمان، واسمه (الدانشمند طابلو) وكان له ولدان كمشتكين واساعيل وقد أقاما في آسيا الصغرى. وقد قيل لكمشتكين - ابن الدانشمند - لأن أبوه كان معلمًا للتركمان، وتقلبت به الأحوال حتى ملك ملطية وسيواس وغيرها - ابن الأثير - أحداث سنة ٤٩٣ هـ.

طاعته^(١) وفي سنة ٥٣٧ هـ = ١١٤٢ م «كان امبراطور الروم البيزنطيين - يوحنا - متأنباً للعودة الى الشام، فاندفع نحو الشرق قاصداً قيليقية العليا ، ليسترد المحسون التي سبق أن انتزعها الدانشمنديون ، ثم ظهر فجأة عند تل باشر - الحاضرة الثانية لجوسلين كونت الراها . فأسرع الكونت جوسلين وقد أذهله المباغة ، وبذل مين التبعية للأمبراطور يوحنا الذي تابع سيره حتى بلغ بغراس - وهي الحصن الكبير الذي أصبح في حوزة الفرسان الداوية والذي يتحكم في الطريق المؤدي من قيليقية إلى أنطاكية . ثم عاد إلى بلاده^(٢) وبقيت بغراس قاعدة للعدوان مما حل نور الدين زنكي لهاجة إماراة أنطاكية سنة ٥٤٤ هـ = ١١٤٩ م . حيث دارت معركة في بغراس ، انتصر فيها نور الدين على ريموند كونت أنطاكية^(٣) .

وقام الأرمن سنة ٥٤٨ هـ = ١١٥٣ م بالتوغل في إقليم اسكندرونة ، الذي اعتبره الفرنج جزءاً من إماراة أنطاكية . فقام أمير أنطاكية الجديد (رينالد) بإرجاع الأرمن إلى قيليقية بعد معركة قصيرة قرب اسكندرونة ، ثم أهدى الإقليم الذي استولى عليه إلى طائفة فرسان الداوية الذين تولوا أمر اسكندرونة ، وأعادوا بناء قلعتي قسطنطون وبغراس اللتين تحكمان في الدروب . ولم يلبث فرسان الداوية أن وسعوا حدود إقطاعهم في الإقليم المحيط بقلعة بغراس . وعرف نور الدين زنكي بما هو قائم من خلاف بين الأرمن والفرنج ، وعمل على استئثار هذا الخلاف ، فدعم زعيم الأرمن - توماس^(٤) بالقوات ، مما مكنه من استعادة سيطرته على المصيصة وأذنة وطرسوس ، ثم هاجم الداوية في بغراس . غير أن الداوية نجحوا في احباط هذا الهجوم ، واحتفظوا بقلعتهم بغراس ، حتى إذا ما كانت سنة ٥٨٤ هـ = ١١٨٨ م . وأحرز صلاح الدين الأيوبي انتصاره في حطين وفتح القدس وكثيراً من قلاع بلاد الشام ومدنها ، سار شمالاً

(١) ابن الأثير - الكامل في التاريخ - احداث سنة ٥٣١ هـ .

(٢) تاريخ الحروب الصليبية: ٣٥٥/٢ - ٣٥٦ .

(٣) تاريخ الحروب الصليبية: ٥٢٤/٢ والكمال في التاريخ - أحداث سنوي ٥٤٣ و ٥٤٤ هـ .

(٤) تاريخ الحروب الصليبية: ٥٥٩/٢ و ٥٥٨ . كما ورد في الصفحة ٦٢٩ بما يلي : « كان توماس هذا قد انخرط في وقت من الأوقات في سلك الداوية ، ثم هرب إلى نور الدين زنكي فاعتنق الإسلام » .

فتح درب ساك. ثم سار إلى قلعة - بغراس - فحصرها. وحدث خلاف بينه وبين أصحابه - قادته - بشأن حصارها، فمنهم من وافق عليه، ومنهم من قال: بأنه حصن حصين وقلعة منيعة، وهو بالقرب من انطاكية، ولا فرق بين حصره وحصارها، ويحتاج أن يكون أكثر العساكر مقابل انطاكية، فإذا ما تم ذلك قلل عدد المقاتلين عليها. إلا أن صلاح الدين لم يأخذ بهذا الرأي، وجعل عسكره مقابل انطاكية، يغرون على أعمالها، وكانتا حذرين خوفاً من أهلها إن هم غفلوا لقربيهم منها. ومضى صلاح الدين في بعض جنده إلى قلعة بغراس فقاتلها، ونصب المنجنيقات، فلم يؤثر فيها شيئاً لعلوها وارتفاعها. فغلب على الظنون تuder فتحها وتأخر ملكها. وشق على المسلمين قلة الماء عندهم، ولكن صلاح الدين نصب الحياض وأمر بحمل الماء إليها، فخفف الأمر عليهم. فبينما هو على هذه الحال، إذ فتح باب القلعة، وخرج منه إنسان يطلب الأمان، فأجيب إلى ذلك، وأذن له في الحضور، فحضر وطلب الأمان لمن في الحصن حتى يسلموه إليه بما فيه. فأجابهم صلاح الدين إلى ما طلبوا. فعاد الرسول ومعه الأعلام الإسلامية، فرفعت على رأس القلعة، ونزل من فيها، وتسلم المسلمون بغراس بما فيها من ذخائر وأموال وسلاح. وأمر صلاح الدين بتخريبه فخراب. وكان ذلك مضره عظيم على المسلمين. إذ أن صاحب الأرمن - ابن ليون - خرج إليه من ولايته، وهو مجاوره، فجدد عمارته وأتقنه، وجعل فيه جماعة من عسكره، يغرون منه على البلاد. فتضرك بذلك المسلمين»^(١).

وهكذا، ومع ابعاد صلاح الدين ورجاله عن قلعة بغراس، أسرع ملك أرمينية - ليو - فاحتل القلعة. ولما كان ملك أنطاكية (بوهمند الثالث) هو صاحب إقطاع الدروب. فقد توجه إلى - ليو - بطلب إعادة قلعة بغراس إلى فرسان الداوية. غير أن الملكالأرمني ليو رفض الطلب. فتوجه بوهمند بطلبه إلى صلاح الدين، ولكن صلاح الدين لم يتدخل في الأمر، وظللت قلعة بغراس في حوزة الأرمن. وقد أثار استنجاد بوهمند بصلاح الدين غضب الملك ليو، ولكن زوجة بوهمند - سبيلا -

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ٧٦١/٢. والكامل في التاريخ - احداث سنة ٥٨٤ هـ.

تدخلت لتهيئة ثائرة الملك ليو، وذلك بهدف الحصول على دعمه ومساعدته من أجل نقل إرث انطاكية إلى ابنها وليم، على حساب أبناء زوجها الآخرين.

وحدث في تشرين الأول - أكتوبر - سنة ١١٩٣ م (٥٩٠ هـ) أن عمل الملك ليو على توجيه دعوة إلى بوهمند، للقدوم إلى بغراس من أجل تسوية المشكلة بكمالها. واستجابة ملك انطاكية للدعوة، فجاء إلى بغراس وبصحبته زوجته سبيلاً وأبنها. وقبل بوهمند ما عرضه ليو من استضافته داخل أسوار قلعة بغراس. ولكن لم يكدر بوهمند يدخل القلعة حتى وجد نفسه أسرى في قبضة مضيقه، ومعه كل أفراد حاشيته. وجرى إخطاره بأنه لن يطلق سراحه ما لم يتنازل عن السيادة على انطاكية لمضيقه ليو. وقبل بوهمند والحزن يزقه شروط ليو، ولعله لم يفعل ذلك إلا بتحريض زوجته سبيلاً التي كانت تأمل في أن يعمل ليو متى صارت إليه السيادة على انطاكية على أن يجعل لابنها وراثة الحكم في انطاكية. وتقرر ارسال مارشال بوهمند - وهو بارثولوميو توريل - مع جند من الأرمن إلى انطاكية، لإعداد المدينة للعهد الجديد.

ووصل مارشال الكونت بوهمند إلى انطاكية، وأظهر الأرمن - البارونات - الذين تجري في عرق عدد كبير منهم الدماء الأرمنية، استعدادهم لقبول ليو ملكاً عليهم. وسمحوا لبارثولوميو أن يدخل بالعساكر الأرمنية إلى أنطاكية، وبأن يستقروا في قصر أميرها بوهمند. ولكن المستوطنين من اللاتين واليونانيين ارتابعوا لما حدث، وخافوا من أن يقوم ليو بحكم انطاكية بنفسه، مما يسمح للأرمن بالسيطرة عليها، ونجح هؤلاء بإشعال نار الثورة بالقصر ثم بالمدينة، وتم طرد الأرمن منها، فرجع هؤلاء إلى بغراس. وتشكل بانطاكية كومون - إدارة - حكم المدينة خلال فترة غياب ملكها الشرعي بوهمند. وأقسم أعضاء الكومون - الإدارة - ميين الولاء لريموند أكبر أبناء بوهمند. وأسرعت إدارة انطاكية بارسال طلب النجدة من كونت طرابلس - شقيق بوهمند -. واستجابة كونت طرابلس للطلب، فشعر ليو أن فرصته قد ضاعت، فما كان منه إلا أن نقل أسراه من قلعة بغراس إلى عاصمته - سيس -. وقام الفرنج بالوساطة بين ليو وبين بوهمند. وجاء هنري كونت شامبانيا فتحالف مع الإسماعيلية - الحشاشين - لصلحة بوهمند كونت انطاكية. ثم توجه إلى نيس فقابل

ليو، وتم الاتفاق على اطلاق سراح بوهمند مقابل الاعتراف بأن تبقى بغراس وما حولها من أملاك أرمينية، وألا يكون لأي من الأمراء السيادة على الآخر.

وبذرت للوجود من جديد المملكة الأرمنية، فكان يوماً تاريخياً حافلاً عند الأرمن. على أن هذه التسوية المؤقتة لم يتضمن عدم تجدد الصراع بين الأرمن وبين الأفرنج في أنطاكية. فأخذ الفرنج بحشد القوى ضد أرمينيا وملكيها. وكان فرسان الداوية من أشد الناس حماسة لانطاكية، نظراً لاحتفاظ الملك ليو بقلعة بغراس وما حولها. ومقابل ذلك، فقد ظفر ملك الأرمن - ليو - بالتحالف مع بابا روما. فما كان من الداوية إلا أن نقلوا إلى روما كل ما توافر لهم من النفوذ والتأثير لممارسة الضغط على البابا من أجل اقناع ليو بإعادة بغراس إليهم. لكن الملك ليو أغفل كل تلميح بشأن إعادة بغراس إلى الداوية. نظراً لما كانت تمثله بغراس بالنسبة إليه من الأهمية من حيث ضمان السيطرة على انطاكية. وأدى تمسك الطرفان - الأرمن والفرنج - بعواقبهما إلى اندلاع نار الحرب بين أرمينية وأنطاكية، وهو الصراع الذي استمر طوال فترة ربع القرن التالي (من سنة ٥٩٨ إلى سنة ٦٢٢ هـ = ١٢٠١ حتى ١٢٢٥ م) وجرّ معه المسلمين إلى دائرة الصراع. وقد بدأ ذلك عندما أُعلن كونت طرابلس - بوهمند - نفسه أميراً على انطاكية بعد وفاة والده - بوهمند الثالث - متحدياً بذلك حقوق ابن أخيه - ريموند روبين -. فما كان من ملك أرمينيا - ليو - إلا أن زاد إصراراً على التمسك بحقه في إسناد إمارة أنطاكية إلى ابن اخته ريموند. وزاد الأمر تعقيداً بما نشب من شجار بين ليو وبين الداوية، بعد أن رفض ليو أن يعيد إليهم قلعتهم - بغراس - وعندئذ اخاز فرسان الاستبارية إلى الملك ليو في مقاومته لمشاريع بوهمند، الذي كان باستطاعته الاعتماد على دعم الأتراك السلوجقة لأنهم كانوا في حرب مستمرة مع ملك أرمينيا - ليو -. ومقابل ذلك، كان باستطاعة بوهمند الاعتماد على دعم أمير حلب - الظاهر غازي -. وأرسلت الكنيسة سفارية من قبلها للوساطة. ففظاً هر ليو بقبول حكم البابا في روما. غير أن رفض الصلح مع الداوية، أو التنازل لهم عن بغراس وفقاً لما أمر به البابا كان بمثابة رفض حكم البابا. وقرر ليو حسم الصراع، فألقى في سنة ٦٠١ هـ (نهاية سنة ١٢٠٤ م) الحصار

على انطاكية . ولكنه اضطر لرفع الحصار بعد فترة قصيرة عندما تقدم جيش حلب بقيادة الظاهر غازي لنجدته بوهمنـد .

ضجر البابا من هذا الصراع الذي لم يقف عند حد ، فعهد إلى بطريرك القدس بمسؤولية تسويته . وحدث في سنة ٦٠٥ هـ = ١٢٠٨ م أن اشتد غيظ ملك أرمينيا ليو ، فخرب ما يحيط بانطاكية من بلاد . وفشل سفاره بطريرك القدس في مهمتها بسبب إصرار ليو على عدم منح بغراس للدواية . وفي سنة ٦١٣ هـ = ١٢١٦ م استطاع ليو بما ذرـه من مؤامرة ناجحة احتلال انطاكية دون قتال . ولفرط فرجه بما حققه من نتيجة باهرة بعد الحرب الطويلة ، رد بغراس الى الدواية ، كما أعاد إلى الكنيسة اللاتينية أراضيها في قيليقية . غير أن انتصاره كلفه ما حدث من استيلاء سلطان السلاجقة - كيكاوـس - في قونية ، على حصون تقع الى غرب قيليقية وعبر جبال طوروس .

عادت قلعة بغراس أخيراً للفرسان الداوية الذين عاودوا الأخذ بنهمتهم العدواني وتحديـم الاستفزازي . فقاموا سنة ٦٣٥ هـ = ١٢٣٧ م بالانقضاض من بغراس على القبائل التركمانية النازلة إلى الشرق من بحيرة انطاكية ، والتي كانت مستقرة في مرابعها ومواطنها آمنة مطمئنة ، فتحرك جيش حلب بكمـل قوتـه للانتقام من الدواية ، وحاصر بغراس ، التي لم ينـقـذـها إلا قدوـمـ أمـيرـ أـنـطاـكـيةـ - بوـهـمـنـدـ الخامسـ - الـذـيـ عـقـدـ معـ أمـيرـ حـلـبـ هـدـنـةـ لـمـدةـ عـشـرـ سـنـوـاتـ . غيرـ أنـ فـرسـانـ الدـاـوـيـةـ نـقـضـواـ الـمـدـنـةـ ، فـعـادـ جـيشـ حـلـبـ وـدـمـرـ جـيشـ فـرسـانـ الدـاـوـيـةـ الصـغـيرـ ، وـقـتـلـ مـقـدـمـ الدـاـوـيـةـ - وـلـيمـ مـونـفـيرـاتـ - وـوـقـعـ مـعـظـمـ رـفـاقـهـ فـيـ الأـسـرـ (١) .

المعروف بعد ذلك أن أمـيرـيـ أـنـطاـكـيةـ وـأـرـمـنـيـةـ قدـ تـحـالـفـاـ معـ المـغـولـ التـتـارـ عندما جاءـ هـؤـلـاءـ لـغـزوـ بـلـادـ الشـامـ ، فـلـماـ أـسـفـرـتـ مـعرـكـةـ عـيـنـ جـالـوتـ (٦٥٩ هـ = ١٢٦٠ م) عنـ اـنـتـصـارـ الـمـسـلـمـيـنـ وـطـرـدـ التـتـارـ . قـرـرـ الـمـسـلـمـوـنـ - الـمـهـاـلـيـكـ - الـاـنـتـقـامـ منـ حـلـفـاءـ المـغـولـ التـتـارـ . وـعـرـفـ ذـلـكـ أـمـيرـ أـرـمـنـيـةـ - هـيـثـومـ - فـحاـوـلـ مـصـالـحـةـ الـظـاهـرـ بـبـيرـسـ ، فـلـمـ فـشـلـ فـيـ مـحاـوـلـتـهـ تـوـجـهـ إـلـىـ بـلـاطـ الـأـيـلـخـانـ فـيـ تـبـرـيزـ يـطـلـبـ دـعـمـهـ . وـأـثـنـاءـ ذـلـكـ ،

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ٣/١٦٢ - ٢٤٢ و ٥٦٠ و ٦٦٠ .

احتشد أضخم جيش للملاليك في حصن بقيادة قلاوون الذي عرف بأنه من أكثر قادة السلطان بيبرس قدرة وكفاءة. وسار إلى أنطاكية، فتولى ولدي هيثوم (ليو - ثوروس) قيادة الدفاع عن أرمينية، وقام فرسان الداوية في بغراس بحماية جنائي جيش أرمينية.

غير أن المعركة التي وقعت يوم ٢٤ - آب - أغسطس - سنة ١٢٦٦ م (٦٦٥ هـ) أسفرت عن تدمير جيش أرمينية وقتل ثوروس ووقوع ليو في الأسر. وانساب المسلمين الظافرون في قيليقية، فدمروا طرسوس وأذنة وأياس والمصيصة وعاصمة الأرمن - سيس - وكانت نهاية أرمينية. ثم تبعها سقوط أنطاكية في قبضة المسلمين (سنة ٦٦٧ هـ = ١٢٦٨ م). ولما ضعفت أرمينية ودمرت أنطاكية، قرر الداوية أنه بات من المحال عليهم الاحتفاظ بقلاعهم في جبال الأمانوس، فجلوا بدون قتال عن بغراس - وعن قلعة لاروش دي روسول - التي تقل عن بغراس شأنًا. ومضى زمن بغراس مجلاً الغزاة الفرنج عن بلاد الشام - شهلاً وجنوباً - وسيطر الأتراك المسلمين لا على سهول قيليقية فحسب، بل انسابوا إلى الغرب، مطوقين بذلك دولة الروم البيزنطيين من جميع جهاتها. فكان في ذلك بداية النهاية لدولة الروم ذاتها.

١ - قلعة دمشق .

دمشق هي أقدم مدينة على الأرض - هكذا قيل - وإن لم تكن كذلك فهي من المدن القديمة التي عاشت تجربة الحياة الإنسانية على الأرض. ولكن . وعلى الرغم من رسوخ قدمها في عمق التاريخ ، فإنها لم تكن لتجاوز في أهميتها وقيمتها حدود واحدة صحراوية أو حاضرة تجارية ، لولا الفتح العربي - الإسلامي . فقد جاءها العرب المسلمين ووقفوا أمام أسوارها أشهرأ^(١) حتى خضعت لهم - بعضها سلماً وبعضها حرباً - ثم اعتنقت الإسلام دينناً (منذ سنة ١٣ هـ = ٦٣٤ م) وتولى سيد من حكم الدنيا حكمها - معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه - في سنة ١٨ هـ = ٦٣٩ م . وأصبحت عاصمة الدولة العربية - الإسلامية (الأموية) منذ عام الجماعة ومباعدة معاوية بالخلافة سنة ٤١ هـ = ٦٦١ م . وانطلقت منها جيوش الفتح العربي - الإسلامي شرقاً وغرباً . واستقرت فيها أمجاد العرب المسلمين وعزهم وسُؤددهم . فلا هو أمر غريب إن حفظت في قلبها الولاء لبني أمية وقد عرفت فيهم أصالة العرب وصدق الإسلام وفضائله . وتتوالت بعد ذلك عهود وعهود . وانتقلت منها العاصمة إلى توأمها بغداد بقيام الحكم العباسى (سنة ١٣٢ هـ = ٧٤٩ م) وتبدلت الدنيا من حول دمشق وما تبدلت دمشق . وتقلبت الأقوام وما تقلب القوم في دمشق . وبقوا لعهد

(١) دمشق ، أو جلق ، أو داري سليمان نسبة إلى دمشق وتدمير . وعن اشتقاق تسمية دمشق انظر تهذيب ابن عساكر - مطبعة روضة الشام - سنة ١٣٢٩ (١٤/١ - ١٨) وعن فتح دمشق - قال القمعان بن عمرو التميمي (المصدر ذاته ص: ١٥٦) .

أقمنا على داري سليمان أشهرأ
قصصنا إلى الباب العراقي عنوة
نجالد روما وما قد حلنا بصارم
فدان لنا مستلماً كل قائم
أقيموا لهم حرث الدري بالغلاصم
وتدمير عضواً منها بالأباهام .

الإسلام راعون، وبأصالة العرب متسلكون، يوالون من صدق إسلامه، وينفرون من انحرف عن عقيدته. وأصبحت دمشق مع الأيام نموذجاً لصفاء المعتقد والإخلاص له، ومثلاً للوفاء بالقول والعمل. حتى إذا ما جاء الفرنج الصليبيون وطرقوا بابها بعد استيلائهم على القدس (سنة ٤٩٢ هـ = ١٠٩٨ م) ثار غضب دمشق، وانتصبوا أسوارها شاهقة لا ترام، ومنيعة لا تضعف ولا يتطرق إليها الوهن.

فلقد تطلع الفرنج الصليبيون نحو دمشق بمجرد استقرارهم في القدس. وعرفت دمشق ذلك، وأدرك أهلها بما توافر لهم من الخبرات القتالية المتراكمة أنه من المحال البقاء في موقع الدفاع عن دمشق وحدها، وأنه من المحال أيضاً تنظيم الدفاع إلا في إطار هجومي يتطلب من القوى والامكانيات أكبر مما تمتلكه دمشق وحدها. وهكذا انطلقت دمشق، وانطلق أهل دمشق، لمجاهدة الغزاة الفرنج في كل موقع تستطيع الوصول إليه قواتها. ومضت دمشق، ومضى أهل دمشق، لاستفار القوى وحشد الامكانيات. وجرت سنة ٤٩٩ هـ = ١٠٩٨ م أول وقعة كبيرة بين جيش دمشق وبين جيش الفرنج «وكان سبب ذلك هو تكرز الحروب والغارات بين عسكر دمشق وعسكري بغدوين^(١) فتارة هؤلاء وتارة هؤلاء». وعمل بغدوين في نهاية الأمر على تشييد حصن بينه وبين دمشق نحو يومين. فخاف أمير دمشق - طفتكتين عاقبة ذلك، وما يحصل من الضرب، فجمع عساكره وخرج لمقاتلتهم. فسار ملك القدس بغدوين وعكا وغيرها لدعم حاكم الجليل - تانكرد -^(٢) وليعاضده ويساعدده على المسلمين. فأعلمه تانكرد أنه قادر على مقارعة المسلمين وحده إنهم قاتلوه. فعاد بغدوين إلى عكا.

(١) بغدوين كما تذكره المصادر العربية هو - بليدين - شقيق ملك القدس - جودفري كونت اللورين GEOFFROY الذي كان أحد كبار قادة الحملة الصليبية الأولى. ولد سنة ١٠٦٠ م واشتراك في قيادة الحملة ومعه أخوه يوستاس وبلديين. وعندما تم الاستيلاء على القدس أصبح جودفري ملكاً عليها. لكنه ما لبث أن مات سنة ١١٠٠ م. فتولى أخيه بليدين الملك على مملكة القدس.

(٢) تانكرد: (TANCREDE) أمير صقلية، من عائلة هوتفيل التورمانية، وهو أحد قادة الحملة الصليبية الأولى. اشتراك في الاستيلاء على القدس، ثم أصبح أميراً للجليل، ثم أميراً على أنطاكية. ومات سنة

وتقديم طغتكين بجيش دمشق. فجاء به الفرنج، واقتلوه أشد قتال. فانهزم أميران من عسكر دمشق ، فتبعها طغتكين وقتلها ، وانهزم الفرنج إلى حصنهم فاحتلوا به . فقال طغتكين : من أحسن قتالهم وطلب مني أمراً فعلته معه ، ومن أتاني بحجر من حجارة الحصن أعطيته خمسة دنانير . فبذل الرجال نفوسهم وصعدوا إلى الحصن وخربوه وحملوا حجارته إلى طغتكين فوفى لهم بما وعدهم . وأمر بالقاء الحجارة في الوادي . وأسرموا من بالحصن ، فأمر طغتكين بقتلهم فقتلوا جميعاً . واستبقى الفرسان أسراء ، وكانوا مائتي فارس . ولم ينج من كان في الحصن إلا القليل ، وعاد طغتكين إلى دمشق منصوراً . ثم خرج منها إلى - رفنية ^(١) وهو من حصون الشام التي ملكها الفرنج ، فحصره طغتكين وملكه وقتل به خمسة رجل من الفرنج ^(٢) .

أرسل طغتكين بعد ذلك جيش دمشق لنصرة طرابلس التي كان يحاصرها الفرنج . ولكن نتيجة المعركة لم تكن لصالحة المسلمين ، وذلك سنة ٥٠٢ هـ = ١١٠٨ م . وبقيت دمشق قاعدة ثابتة للمسلمين في جدهم وجهادهم . فقد عمل طغتكين على دعم حاكم - أمير - طرابلس وجبيل وبانياس (فخر الملك ابن عمار) . فلما استولى الفرنج على طرابلس وبيروت سنة ٥٠٣ هـ = ١١٠٩ م . لجا فخر الملك إلى دمشق هو ومن معه من العرب المسلمين ، فأقطعهم طغتكين منطقة الزبداني التي هي من أغنى مناطق دمشق . واتفق طغتكين مع أمير الموصل - مودود - وسار جيشهما فنزلوا على نهر العاصي . ولما علم الفرنج ، ساروا إلى شيزر . وتحرك جيش دمشق وجيش الموصل فنزلوا في مواجهتهم سنة ٥٠٥ هـ = ١١١١ م . وضيق المسلمون على الفرنج ، وقطعوا عنهم خطوط إمدادهم وتقوينهم ، واستثاروهم للقتال . غير أن الفرنج الذين عرفوا قوة المسلمين ، وأيقنوا بتصميمهم على القتال ، قرروا الانسحاب ، وتبعهم المسلمون ، فتحطفووا من أدركوه من ساقتهم - مؤخرتهم - . وحدث بعده أن احتل الفرنج قلعة رفنية القريبة من دمشق سنة ٥٠٩ هـ = ١١١٥ م . وشحذوها بالرجال والذخائر ،

(١) رفنية تدمر (معجم البلدان) .

(٢) الكامل في التاريخ - ابن الأثير - أحداث سنة ٤٩٩ هـ . وتاريخ الحروب الصليبية : ٤٣٣/١ . و ٤٣٦ - ٤٣٧ و ٤٥٦ - ٤٥٧ .

وبالغوا في تحصينها. «فاهتم حاكم دمشق - طفتكن - بذلك ، وقوى عزمه على قصد بلاد الفرنج بالنهب والتخييب . وعلم طفتكن بضعف قوة الفرنج المدافعين عن رفنية ، فسار إليها في قوة خفيفة من الفرسان ، وباغت الفرنج ، فلم يشعروا به إلا وقد هجم عليهم ، ودخل رفنية عنوة وقهرًا ، وأخذ كل من فيها من الفرنج أسرى ، وقتل بعضهم . وغم المسلمين من سوادهم وكرايئهم وذخائرهم ما امتلأت منه أيديهم ، وعادوا إلى دمشق سالمين »^(١) .

وهكذا أدت سياسة دمشق الدافعية - الهجومية ، وسياسة الفرنج العدوانية إلى تمركز الصراع حول القلاع والمحصون المتصلة بدمشق ، فقد قام حاكم الجليل ببناء قلعة على الجبال لتحكم بالطريق الذي كان يربط بين صور وبانياس ودمشق « وهي القلعة التي حللت اسم قلعة تورون - أو - تبنين » كما شيد قلعة ثانية على التلال الواقعة إلى الجنوب الغربي من بحيرة طبرية (حللت اسم قلعة علعل) وذلك حتى تكون قاعدة متقدمة للاغارة على الأراضي الخصبة الواقعة إلى الشرق من بحر الجليل . ولم يكن باستطاعة حاكم دمشق - طفتكن - أن يسمح للفرنج بتهديد موطنـه ، فاغتنم فرصة قيام حاكم الجليل بالاغارة على الجليل ، واستيلائه على غنيمة ثقيلة ، فانقض عليه وعلى قواته أثناء عودته بعثنته إلى (علعل) فقتل حاكم الجليل ، وأباد قواته ، وأسرع فاستولى على - علعل - ودمرها ، ولما يكتمل بعد تشييدها وتحصينها^(٢) ثم قام (طفتكن)^(٣) بالإغارة من جديد على الجليل ، وتمكن من أسر قائد الجليل الجديد ومعظم قادة جيشه - خارج طبرية - .

فرض ملك القدس ببدوين - أو بدوين - عقد هدنة مع دمشق . فاشترط

(١) الكامل في التاريخ - أحداث السنوات الواردة في مجرى البحث (٥٠٢ و ٥٠٣ و ٥٠٥ و ٥٠٩ هـ) .

(٢) تاريخ الحروب الصليبية : ١٥٤/٢ - ١٦٠ .

(٣) هو ظهير الدين أتابك طفتكن ، كان مملوكاً للملك تتش ابن ألب أرسلان - السلاجقي . تولى حكم دمشق سنة ٤٩٧ هـ بعد وفاة دقادق بن تتش . وكان عاقلاً خيراً كثير الغزوات والجهاد للفرنج ، حسن السيرة في رعيته ، مؤثراً للعدل فيهم ، ولا توفي سنة ٥٢٢ هـ أوصى بالحكم من بعده لابنه تاج الملوك بوري .

طفتكين إعادة طبرية وعكا وحيفا لل المسلمين . فلما رفض بلدوين الطلب ، أمر طفتكن بقتل حاكم الجليل وقائدها - جيرفاس بوسوك - ورفع رأسه على رمح ، وسير به في مقدمة جيش دمشق الإسلامي المظفر .

ثم تجددت الجهود لعقد هدنة مع دمشق ، فتم عقد هدنة مدتها عشر سنوات ، تعهد - بوجبها الفرنج بالامتناع خلال مدة المدنة عن مهاجمة دمشق . ولكن هذه المدنة لم تمنع الفرنج من مهاجمة بعلبك التي كانت تابعة لدمشق ، كما أنها لم تمنع جيش دمشق من تقديم الدعم والمساعدة للمدن الساحلية .

وهكذا نقض الطرفان المدنة عندما وجدا أنها غير مفيدة لها .

وحدث في سنة ٥١٢ هـ = ١١١٨ م أن سار أتابك طفتكن من دمشق على رأس جيشه لقتال الفرنج ، فنزل بين دير أيوب وكفر يصل باليرموك . فجاءته رسائل الفرنج بطلب الماهنة ، غير أن المدنة لم تتجدد بسبب امتناع الفرنج عن قبول شروط طفتكن ، فسار طفتكن إلى طبرية فنهبها وما حولها ، وسار منها نحو عسقلان لدعم جيش مصر الذي كان يواجه هجوم الفرنج . فأقام الجيشان المسلمان (جيش مصر وجيش دمشق) لمدة شهرين تقريباً . وامتنع الفرنج عن التعرض للمسلمين . فعاد طفتكن إلى دمشق ، ولكنه علم فور الوصول إليها بأن قوة للفرنج قد استولت على حصن (حبيس جلدك) ونهبت أذرات ، فأرسل اليهم ابنه تاج الملوك بوري ، فانسحب الفرنج ، غير أن تاج الملوك حاصرهم وضيق عليهم ، مما دفعهم إلى مقاتلته قتالاً يائساً انتهى بهزيمة جيش دمشق هزيمة منكرة . فسار طفتكن إلى حلب ، وعقد اتفاقاً مع الحاكم الأرتقي إيلغازي لقتال الفرنج ، وتبادل الدعم والمساعدة . وأفاد الفرنج من غياب طفتكن فقصدوا حوران ونهبوا ، مما اضطر طفتكن للعودة إلى دمشق بسرعة . وتمكن طفتكن من الایقاع بطائفة من الفرنج (سنة ٥١٥ هـ = ١١٢١ م) فقتل منهم وأسر ، وأرسل من الأسرى والغنيمة إلى الخليفة ببغداد .

ومضت خمسة أعوام ، حتى إذا ما كانت سنة ٥٢٠ هـ = ١١٢٦ م اجتمعت الفرنج وملوكها وقائمتها وكونوها - جمع كونت - بقيادة ملكهم بلدوين ، وساروا إلى

نواحي دمشق، فنزلوا برج الصفر، عند قرية يقال لها سقحبا بالقرب من دمشق، فعزم الأمر على المسلمين واشتد خوفهم. وكاتب طغتكين أمراء التركمان من ديار بكر وغيرها، وجمعهم، وسار بهم عن دمشق إلى جهة الفرنج حيث وقع الصراع بين الجيшиين عند تل الشقب على مسافة عشرين ميلاً إلى الجنوب الغربي من دمشق، واشتد القتال، فسقط طغتكين عن فرسه وظن أصحابه أنه قتل فانهزما، وركب طغتكين فرسه ولحقهم، وتبعهم الفرنج. وبقي التركمان الذين لم يقدروا على اللحاق بجيش دمشق، فلما رأوا فرسان الفرنج وقد تبعوا المنهزمين، ووجدوا أن معسكر الفرنج ورجالهم - مشاتهم - ليس لهم مانع ولا حام، حملوا على الرجال - المشاة - فقتلواهم، ولم يسلم منهم إلا الشريد. ونهبوا معسكر الفرنج وخيماتهم وأموالهم وجميع ما معهم - وفي جملة كنيسة فيها من الذهب والجوهر ما لا يقوم كثرة - فنهبوا ذلك جميعه، وعادوا إلى دمشق سالمين. ولم يعدم منهم أحد. ولما رجع الفرنج من أثر المنهزمين، ورأوا رجالتهم قتلى وأموالهم منهوبة، تموا منهزمين لا يلوى الأخ على أخيه.

وكان هذا من الغريب أن طائفتين تنهزمان كل واحدة من صاحبتيها.

وإذا كان الفرنج لم يتمكنوا من إحراز نصر على دمشق، إلا أنهم نجحوا في إعادة الكرة على حصن رفنية الذي يتحكم في المنفذ المؤدي إلى البقعة من جهة وادي نهر العاصي فملكونه بعد حصار استمر ثمانية عشر يوماً. فضمنوا بذلك الاتصال بين القدس وانطاكية^(١).

لقد فشل الفرنج حتى الآن في النيل من صمود دمشق أو إخضاعها، فلجهزوا إلى وسيلة التدمير من الداخل. وتحالفوا مع الإسماعيلية - الباطنية - للسيطرة على دمشق وتسليمها للفرنج (سنة ٥٢٣ هـ = ١١٢٨ م) غير أن طائفة الإسماعيلية فشلت في مهمتها.

فقد اكتشف حاكم دمشق (تاج الملوك بوري بن طغتكين)^(٢) المؤامرة، فقتل مقدم

(١) الكامل في التاريخ - أحداث سنة ٥٢٠ هـ وتاريخ الحروب الصليبية: ٢٧٨/٢ - ٢٧٩.

(٢) تاج الملوك بوري ابن طغتكين - أمير دمشق - كان كثير الجهاد، شجاعاً مقداماً، سد مسد أبيه وفاق عليه، وكان مدحأً أكثر الشعراً من مدحه. طعنه الباطنية فجرحوه جرحين، فبراً أحدهما، وتنسر الآخر وبقي فيه ألمه، إلا أنه يجلس للناس ويركب معهم على ضعف فيه. فلما كانت السنة التالية

الإسماعيلية - المزدقاني - ومعه ستة آلاف من أفراد طائفته، وكفى الله المسلمين شرهم، ورد على الكافرين كيدهم. فلما بلغ الفرنج قتل المزدقاني والإسماعيلية، عظم عليهم ذلك، وتأسفوا على دمشق حيث لم يتم لهم ملكها. وغمتهم المصيبة، فاجتمعوا كلهم: ملك القدس بدلوين وكانت انطاكية وكانت طرابلس وغيرهم من الفرنج وقامصتهم ومن وصل إليهم في البحر للتجارة أو للزيارة - الحج - فاجتمعوا في خلق عظيم - نحو ألفي فارس وأما الراجل فلا يحصى عدده - وساروا إلى دمشق ليحصروها. فنزلوا عند جسر الخشب على مسافة ستة أميال إلى الجنوب الغربي من دمشق. وأرسل ملك الفرنج بدلوين قوة كبيرة من جيشه إلى حوران لنبهه والإغارة على البلاد وجمع المبرة - التموين -. وعلم تاج الملوك بوري بذلك، فجمع العرب والتركمان، فاجتمع معهم ثمانية آلاف فارس، وسير أميراً من أمرائه (اسمه شمس الخواص) في جمع من المسلمين لقتال الفرنج الذين توجهوا إلى حوران، وكان خروجهم في ليلة شاتية كثيرة المطر، ولقوا الفرنج من الغد، فوقعوا بهم، واقتتلوا قتالاً شديداً، وصبر بعضهم لبعض، فظفر بهم المسلمون وقتلوا بهم، فلم يفلت منهم غير مقدمهم - ولم يمور - ومعه أربعون رجلاً. وأخذ المسلمون ما كان معهم - وهي عشرة آلاف دابة موقرة وثلاثمائة أسير - وعادوا إلى دمشق، لم يمسسهم قرح. فلما علم من عليها من الفرنج ذلك، ألقى الله في قلوبهم الرعب، فرحلوا عنها شبه المنهزمين. وأحرقوا ما تعذر عليهم حله من سلاح وميرة وغير ذلك. وتبعهم المسلمون والمطر شديد والبرد عظيم، يقتلون كل من تخلف منهم، فكثر القتلى منهم ^(١) وصمدت دمشق مرة أخرى.

غير أن الفرنج انتقموا لهزيمتهم بأن حرضوا الإسماعيلية على قتل أمير دمشق - تاج الملوك - وتم لهم ذلك.

= اشتد عليه الجرح وأضعفه وأسقط قوته، فمات بعد أن أوصى بالحكم من بعده لابنه شمس الملوك إسماعيل (وانظر الكامل في التاريخ - أحداث سنة ٥٢٥ هـ).

(١) تاريخ الحروب الصليبية : ٢٨٦ / ٢ - ٢٨٨ والكامل في التاريخ - أحداث سنة ٥٢٣ هـ.

ولكن دمشق لم تضعف، ولم تهن. إذ ما لبست أن وجدت لها دعماً بتحالفها مع الزنكيين، وتسلّم راية الجهاد لهم، وذلك بعد مرحلة من الاضطراب والصراع الداخلي.

تولى حكم دمشق سنة ٥٢٦ هـ = ١١٣١ م - الأمير معين الدين أنس، وذلك بعد اغتيال تاج الملوك بوري ابن طفتين، فأحسن السيرة، وتابع رفع راية الجهاد، وحدث سنة ٥٤٢ هـ = ١١٤٧ م، أن أعلن حاكم بصرى وصلخد في حوران - واسمه التوتناش وهو أرمني الأصل - أعلن تمرده على معين الدين أنس، وطلب الدعم من ملكة القدس - ميليسيند - التي كانت تمارس دور الرصابة على ابنها البالغ من العمر يومها سبعة عشر عاماً واسمه بلدويون - .

ووجد الفرنج أن الفرصة سانحة لهم للاستيلاء على حوران وتهديد دمشق، فحشدوا قواتهم، وبدؤوا زحفهم. وجرت اتصالات بين الملكة ميليسيند ومعين الدين أنس، أسفرت عن اقتناع الملكة بایقاف الحملة. غير أن رعاع جند الفرنج أعلنوا غضبهم بسبب التخلّي عن غارة مشمرة على بلاد المسلمين، وأصرّوا على المضي للقتال. فارتاع الملك بلدويون والبارونات، ولم يسعهم إلا النزول على إرادتهم. فسار جيش الفرنج وعبر نهر الأردن، وزحف على أقليم الجولان. وأسرع معين الدين أنس فجمع قواته من العرب والتركمان، وأخذ في ممارسة الضغط على قوات الفرنج أثناء معاناتهم لشق طريقهم عبر وادي اليرموك نحو درعا. وأرسل معين الدين أنس في الوقت ذاته وفداً إلى حلب لطلب الدعم من نور الدين زنكي، فاستجاب نور الدين وأسرع بالتحرك، فالتحق بجيش دمشق، وسار مع معين الدين فوصل إلى بصرى. ولم يعلم الفرنج بوصول قوات المسلمين إلى بصرى إلا في المساء، وقد أضناهم التعب والارهاق، ونفذت المياه، وأضحت بصرى على مرمى بصرهم. ولما لم تسمح لهم حالتهم بالمضي لقتال المسلمين، فإنه لم يبق أمامهم إلا الارتداد والانسحاب. فلقو أثناء عودتهم من المشاق والصعوبات أكثر بكثير مما لقوه أثناء تقدمهم، إذ نفذت الأطعمة - التموين - وانظمرت آبار عديدة، وألح المسلمون على مضايقة مؤخرة جيش الفرنج. وقتل المسلمون من صادفهم من الجنديين ضلوا الطريق. وأظهر ملك الفرنج - بلدويون - بطولة فائقة بالنسبة إلى صغر عمره، إذ أنه رفض الاقتراح بأن يتخلّى عن كتلة جيشه، وأن يلتمس طريق

النجاة بحماية حرسه الخاص. وكان موقفه هذا عاملاً مؤثراً في متابعة الفرنج انسحابهم بنظام، فيما تابع المسلمون ضغطهم على الفرنج، مما أدى إلى وقوع أعنف اشتباك عندما كان جيش الفرنج يعبر نهر الأردن في طريق عودته إلى القدس. وفشلت هذه الحملة التي طلبت تكاليف باهظة للوصول إلى دمشق التي زادت قوتها ومنعة بفضل تحالفها مع نور الدين زنكي^(١).

جاءت بعد ذلك الحملة الصليبية الثانية (والتي عرفت باسم حشد الملوك) إذ أنها ضمت ملك فرنسا لويس السابع وملك ألمانيا كنراد وعدد كبير من النساء. وما كانت قوة الألمان في هذه الحملة هي القوة الرئيسية، فقد بقيت هي المهيمنة على خط سير الحملة وعلى أعماها القتالية. وعندما وصلت قوات الحملة إلى عكا، دعت مملكة القدس وملكيها - بدلوين - إلى اجتماع تم عقده يوم ٢٤ حزيران - يونيو - ١١٤٨ م (٥٤٣ هـ) حيث تقرر بعض شيء من المعارضة أن تتركز قوة الهجوم للاستيلاء على دمشق.

لقد اعتبر الفرنج أن الاستيلاء على دمشق يستحق كل تضحية، ذلك أن تملكتهم لها يقطع الصلة نهائياً بين المسلمين في مصر وأفريقيا وبين إخوانهم المسلمين في بلاد الشام والمشرق. كما أن مملكة البواريين بدمشق هي التي انفردت باستقلاليتها في العمل ضد الفرنج. وطبع بارونات القدس في الحصول على البلاد الخصيبة التي تدين بالولاء والتبعية لدمشق، واشتد تأثيرهم كلما ذكروا ما تعرضوا له في حملتهم السابقة من المذلة والموان، فطلع ملوكهم الشاب بدلوين للانتقام. وعلاوة على ذلك كله، فقد جرى تمجيل دمشق في الكتاب المقدس للمسيحيين. ولهذا فإن انتزاعها من قبضة المسلمين سوف يردد مجد المسيح فيسائر البلاد. ولقد ظهر للفرنج أن انتزاع دمشق قد بات ممكناً بعد أن توافر لهم حشد أضخم جيش قذف به الفرنج إلى ساحة المعركة. وهكذا سار جيش الفرنج، فاجتاز الجليل، ووصل إلى بانياس، ثم تابع زحفه وأقام معسكراً على حافة الحدائق والبساتين المحيطة بدمشق يوم ٢٤ توز - يوليو - سنة ١١٤٨ م

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ٣٩٠/٢ - ٣٩٢.

(٥٤٣ هـ) والتي حلت منذ ذلك اليوم اسم (منازل العساكر) على بعد أربعة أميال تقريباً إلى الجنوب من دمشق، حيث لاحت من المعسكر أسوار المدينة وأبراجها البيضاء - عبر أشجار البساتين الكثيفة.

لم يصدق أمير دمشق معين الدين أنز، لأول وهلة، ما سبق تحرك الحملة الصليبية من شائعات، ولم يتوقع أن تجعل هذه الحملة من دمشق هدفاً لها. فلما تبين له الموقف على حقيقته، أسرع فأصدر أوامره إلى ولاة الأقاليم بارسال كل من يستغون عنه من الرجال، وهرع وفد إلى حلب فالتمس من نور الدين زنكي ارسال الدعم إلى دمشق. وأثناء ذلك، عجل الفرنج بالسير إلى قرية المزة لتوافر الماء بها. وحاول جيش دمشق منع تقدمهم، غير أنه اضطر إلى الارتداد إلى ما وراء الأسوار. وإذا انتصر الفرنج الصليبيون، أرسل قادتهم جيش القدس إلى البساتين للقضاء على مجاهدي المسلمين الذين كانوا يشنون حرب العصابات، وتمكن الفرنج من بسط سيطرتهم على البساتين الواقعة إلى الجنوب من دمشق، وأقاموا الحواجز - المتاريس - من الأشجار التي قطعواها. وأظهر كزداد شجاعة فائقة في قيادة جنده وشق الطريق إلى الربوة الواقعة على نهر بردى - تحت أسوار المدينة مباشرة. وظن أهل دمشق عندها أنهم على وشك خسارة كل شيء، فشرعوا في إقامة الحواجز والمتاريس بالشوارع استعداداً للاستماتة في القتال دفاعاً عن دمشق. ولكن الموقف أخذ في التحول مع قدوم اليوم التالي حيث أخذت الإمدادات في التدفق من الأقاليم إلى المدينة - عبر بوابتها الشمالية وأسرع أنز فقد هجوماً مضاداً أبعد فيه الفرنج عن الأسوار، ثم تابع هجماته في اليومين التاليين، بينما انتشر المجاهدون في الحدائق والبساتين، وأوغلووا في تقدمهم وهم يوجهون إلى الفرنج الضربات الموجعة. وبلغت هذه الهجمات من العنف ومن الخطورة ما حمل الملوك: كزداد ولويس وبلدوين، على عقد مؤتمر تقرر فيه الجلاء عن البساتين الواقعة إلى الجنوب من المدينة، والتحرك نحو الشرق لاقامة المعسكر في بقعة تحريم المسلمين من استئثار حواجز البساتين وسواترها وسدودها.

تحرك الجيش الصليبي بكامله إلى السهل الواقع خارج سور الشرقي، يوم ٢٧ تموز - يوليو - وكان هذا القرار بالغ الخطورة، فقد كان الموضع الجديد يفتقر إلى الماء،

كما أنه واجه أمنن وأقوى قطاع في سور دمشق. وتوافر للمجاهدين في المدينة قدر كاف من الحرية للالتفاف من حول البساتين. واعتقد عدد كبير من عساكر الفرنج أن بارونات فلسطين الذين نصحوا الملوك بالانتقال إلى معسكرهم الجديد، قد تقاضوا رشوة كبيرة من أنسز حتى يسدوا هذه النصيحة، إذ ضاعت آخر فرصة للاستيلاء على دمشق بفضل تحرك جيش الفرنج إلى الموضع الجديد.

علم أنسز أن نور الدين زنكي قد انحدر بجيشه من حلب نحو الجنوب، وأفاد - أنسز - من تعاظم قوة جيشه وتزايد عدده، فجدد هجماته على معسكر الفرنج، وأرغم الجيش الصليبي على اتخاذ خطة الدفاع، ولم تعد دمشق هي المدينة الخاضعة للحصار بل بات الجيش الصليبي هو الواقع تحت الحصار. وترددت كلمات الخيانة والتخاذل في وسط الجيش الصليبي، وشاع الهمس في وسط جنده، فيما انصرف الملوك والأمراء لمناقشتهم بشأن مستقبل دمشق عندما يتم الاستيلاء عليها، إذ كان ملك القدس يريد لها تابعة له، بينما كان آخرون يريدونها إمارة لهم، وأنباء ذلك كانت الاتصالات السرية مع حاكم دمشق مستمرة - فيما ذكرته مصادر الفرنج - وقيل أن أنسز دفع مبلغًا ضخماً من المال لملك القدس حتى يصرف جيوش الحملة - وخاصة الجيش الألماني والجيش الفرنسي - عن دمشق. واقتنع بارونات الفرنج، بعد فوات الوقت، أنه من الحماقة المضي في مهاجمة دمشق، لاسيما بعد أن توافت المعلومات عن اقتراب نور الدين زنكي وجيشه من دمشق. ففرض البارونات رأيهما على الملكين لويس وكونراد - كونراد -. وجأر الملكان بالشكوى لما اكتشفاه من الخيانة والافتقار إلى الحماسة لقضية الصليبيين، غير أنها أدر كا أنه ليس باستطاعتها عمل أي شيء إلا إذا توافر لها دعم الفرنج المحليين الذين استقروا في بلاد الشام منذ الحملة الأولى، فأمرا بالارتداد عن دمشق وذلك بعد خمسة أيام فقط من بدء فرض الحصار على المدينة. وقوض الصليبيون معسكرهم، وساروا نحو الجليل (يوم الأربعاء ٢٨ تموز - يوليو - سنة ١١٤٨ م). ومع أن أموال أنسز هي التي حلتهم على الانسحاب - بالإضافة إلى الوعد الذي قطعه أنسز لملك القدس بتسليمه قلعة بانياس إن هو نجح في حل الفرنج على الانسحاب -. فان أنسز لم يدعهم يرتحلون في هدوء وسلام، فظل فرسان التركمان

الخفيفي الحركة يعملون طوال اليوم - وخلال الأيام التالية أيضاً - على ممارسة ضغط قوي ضد جناحي الجيش الصليبي، ويطرونه بوابل من السهام، فتناثرت جثث الرجال وخواصمهم على امتداد طريق الانسحاب الى فلسطين، وأفسدت رائحتها السهل لشهر عديدة تالية. وكان كل ما حققته هذه الحملة هو أنها أضاعت حياة عدد كبير من رجالها، وقدراً كبيراً من عتادها، وتعرضت لهوان شديد. الواقع ، فإن ما حدث من إر غام جيش في هذه الضخامة والروعـة ، على التخلـي عن هـدفـه ، ولـما يـضـعـ على القـتـالـ سـوـىـ أـرـبـعـةـ أـيـامـ ، يـعـتـبـرـ ضـرـبةـ قـاصـمةـ لـكـرـامـةـ الفـرنـجـ الصـلـيـبيـنـ . فقد تـبـدـتـ بـذـلـكـ اـسـطـورـةـ فـرـسـانـ الغـرـبـ الـذـينـ لـاـ يـقـهـرـونـ ، وهـيـ اـسـطـورـةـ الـتـيـ نـفـتـ وـتـرـعـرـعـتـ أـثـنـاءـ مـغـامـرـةـ الـحـمـلـةـ الصـلـيـبيـةـ الـأـوـلـىـ ، بـيـنـاـ اـنـتـعـشـتـ آـمـالـ الـعـالـمـ الـإـسـلـامـيـ (١)ـ .

يمكن بعد ذلك تجاوز الدور الذي قامت به دمشق وجيشها في تقويم موقف مصر ، وفي الدفاع عنها (بقيادة أسد الدين شير كوه وابن أخيه صلاح الدين الأيوبي (سنة ٥٦٤ هـ) ثم ما تبع ذلك من توحيد جهد العالم الإسلامي تحت قيادة واحدة ، وذلك بالقضاء على الحكم الفاطمي في مصر . كما يمكن تجاوز دور جيش دمشق في معركة حطين الخالدة (سنة ٥٨٣ هـ = ١١٨٧ م). وكذلك تحرك جيش دمشق وانتقاله الى مصر من أجل رفع الحصار عن دمياط يوم هاجمها الفرنج (٦١٦ - ٦١٨ هـ = ١٢١٩ - ١٢٢١ م). فقد كان ذلك كله في إطار سياسة استراتيجية هجومية شاملة للانتقام من الفرنج الصليبيين الذين دنسوا تراب بلاد الشام بجرائمهم وأثامهم . فكان جيش دمشق وفقاً لهذه السياسة الاستراتيجية وهو في حالة حركة دائمة ، للضغط على الفرنج باستمرار في أي موقع تطلب ممارسة مثل هذا الضغط . وهذا لم يكن غريباً أن تتصدى دمشق وحاكمها الناصر الأيوبي لعملية التوقيع على المعاهدة التي وقعتها حاكم مصر الملك الكامل الأيوبي مع الامبراطور الألماني فريدريك الثاني (سنة ٦٢٦ هـ = ١٢٢٨ م) حيث استعظام المسلمين في دمشق ما تضمنته هذه المعاهدة من إعادة القدس للفرنج الصليبيين . وأكروا أمرها ، ووجدوا فيها من الوهن والتآلم ما لا يمكن وصفه ،

(١) الكامل في التاريخ - أحداث سنة ٥٤٣ هـ - و تاريخ الحروب الصليبية : ٤٥١ / ٢ - ٤٥٨ .

فأعلنت دمشق الحداد العام لما تعرض له الإسلام من خيانة، وجهر أئمة المساجد بالهجوم على المعاهدة. واستمرت دمشق في مقاومتها حتى سنة ٦٤٢ هـ = ١٢٤٤ م. حيث دفعت فرسان الخوارزمية الذين طردوا الفرنج من القدس بصورة نهائية.

بقيت دمشق كابوساً ثقيلاً أرهق كاهل الفرنج الصليبيين وجثم على صدورهم. وبقي الاستيلاء على دمشق هاجسهم، غير أنهم عجزوا في كل مرة عن بلوغ أسوارها والوصول إلى تحصيناتها. غير أن خطراً جديداً دهم دمشق عندما تحالف الفرنج مع المغول التatars. فدخل موكب قائد المغول - كتبغا - إلى دمشق وبرفقته ملك أرمينية وملك أنطاكية. وشهد سكان عاصمة الأمويين، وللمرة الأولى منذ ستة قرون - ثلاثة ملوك صليبيين وهم يركبون معاً، ويشقون بموكبهم شارع المدينة، فأخذ المسلمين فيها يتحرقون شوقاً للانتقام، ولم يطل انتظارهم، فقد انتصر المسلمون في عين جالوت بعد أشهر قليلة (سنة ٦٥٩ هـ = ١٢٦٠ م) ودخل موكب المظفر قطز إلى دمشق بعد خمسة أيام من انتصاره في عين جالوت، وانطلق المسلمون في الشام للانتقام من هؤلاء الذين دنسوا أرضهم. وكان انتقاماً عادلاً.

لقد ارتدت جحافل ثلاث حملات صليبية عن أسوار دمشق. ولم يكن ذلك بسبب قوة الأسوار ومنتها، وإنما كان بسبب تصميم المسلمين في بلاد الشام على حماية مدینتهم نقية ظاهرة من أن تدنسها أقدام الغزاة الصليبيين. ولماذا كان المجاهدون في سبيل الله يسرعون لمجابهة الفرنج، وقتالهم، بعيداً عن أسوار عاصمة بني أمية، وبعيداً عن القاعدة التي انطلقت منها جيوش الفتح شرقاً ومغرباً.

لم تكن قوة دمشق في أسوارها المنيعة وتحصيناتها الصلبة - ولو أن تلك الأسوار والتحصينات كانت على درجة كافية من القوة والمنعة - وإنما كانت قوتها في إيمانها الثابت بحتمية انتصارها على أعداء الدين، وبما يمتلكه المسلمون من القدرات الذاتية. وكذلك باستثمار نقاط ضعف الأعداء. ونتيجة لذلك، فقد تميز دور دمشق خلال

الحروب الصليبية القديمة بدمج عوامل الصراع السياسي والعسكري ، مع ما يتفرع عن هذا الصراع من عوامل اجتماعية واقتصادية وحتى شخصية ، وقد أظهر العرض السابق أن دمشق قد خاضت صراعها وهي مدركة تماماً لمتطلبات الصراع في كل مرحلة من مراحله ، فبقيت دمشق هي القاعدة الصلبة والمأمونة التي استند إليها كبار قادة المسلمين في حروبهم ضد الفرنج الصليبيين ، وفي طليعتهم نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي والظاهر بيبرس ، وهم الذين استأثرت دمشق بحفظ رفاتهم فضمتها إلى ما امتلكته أرضها من رفات السلف الصالح .

لقد أبرزت الحملات الصليبية ضد دمشق ، وارتدادها خائبة عنها ، ما توافر لأهل دمشق الأجداد من الفضائل الحربية . وما تراكم فيها من خبرات قتالية عبر جهادها المستمر منذ الأيام الأولى للفتح العربي - الإسلامي . فلم يكن صراع دمشق مجرد صراع مسلح فحسب ، وإنما كان صراعاً دينياً عقائدياً - أو سياسياً بحسب المصطلحات الحديثة - وكان هذا الصراع قد تطلب قبل كل شيء توافر درجة عالية من الإيمان مع توافر كفاءة عالية في إدارة الصراع السياسي - العسكري على جبهتي الأصدقاء والأعداء على السواء . وبرهنت دمشق هنا أيضاً أن ما امتلكته من الخبرات المتراكمة في المجالات الإدارية والسياسية لم تكن أقل من رصيدها في الفضائل والخبرات الحربية . وهذا ما ضمن لها النجاح في ممارسة دورها .

لقد تتابعت على حكم دمشق خلال فترة الحروب الصليبية القديمة أنظمة مختلفة ، مثل السلاغقة والبورين فالزنكيين والأيوبيين فالماليك ، غير أن النهج السياسي العسكري لدمشق بقي ثابتاً ولم يتبدل أو يتغير . وهذا يعني ببساطة أن دمشق كانت هي التي فرضت فكرها السياسي - العسكري على حكامها المتابعين . ولم تكن دمشق تهم كثيراً بشخص حاكمها إلا بقدر ما كان يبرهن عليه هذا الحاكم من إخلاص في الجهد والجهاد . وإلا بقدر ما يتواافق له من الكفاءة في إدارة الحرب ضد الفرنج الصليبيين . ولم يكن من الغريب بعد ذلك أن تستأثر دمشق المجاهدة بحقد الفرنج ، فبقيت تحتل المرتبة العليا في تفكير ملوك الفرنج وفي أعمالهم ضدها . وكان لدمشق من إيمانها درعاً

وأقياً وكافياً لاحباط مكائدhem واسقاط مخططاتهم، ورد أعمالهم العدوانية. وخرج الفرنج مدحورين من بلاد الشام. وبقيت دمشق حصينة بدرعها المادي والمعنوي والمعنوي قبل المادي. ولقد زادتها تجارب الحروب الصليبية يقيناً على ايمانها بجتنية انتصارها على كل عدو إن هي استطاعت التمسك بدينها والالتزام بما تفرضه عليه عقيدتها من واجب الجهاد في سبيل الله.

١١ - قلعة شيزر

(قلعة شيزر)^(١) من القلاع التي انتصبت بعض بقاياها لتذكر بما كان لها من أمجاد غابرة. وقد وصفها ابن الأثير بقوله: «قلعة شيزر من أمنع المضون. قريب من حماة. بينهما نصف نهار. والقلعة على جبل عال منيع، لا يسلك إليه إلا من طريق واحدة»^(٢) ووصفها أبو الفداء بقوله: «قلعة شيزر هي قلعة حصينة، وير بها نهر العاصي من شهاها، وينحدر عندها النهر المذكور على سكر - سد - ارتفاعه يزيد على عشرة أذرع يسمونه - الخطلة - وهي ذات أشجار وبساتين وفواكه كثيرة أكثرها الرمان. قال في العزيزي: بين شيزر وبين حماه تسعة أميال. وبينها وبين حصن ثلاثة وثلاثون ميلاً. ومن شيزر إلى أنطاكية ستة وثلاثون ميلاً. ولها سور من لبن. ولها ثلات أبواب وير العاصي مع السور من شهاها»^(٣).

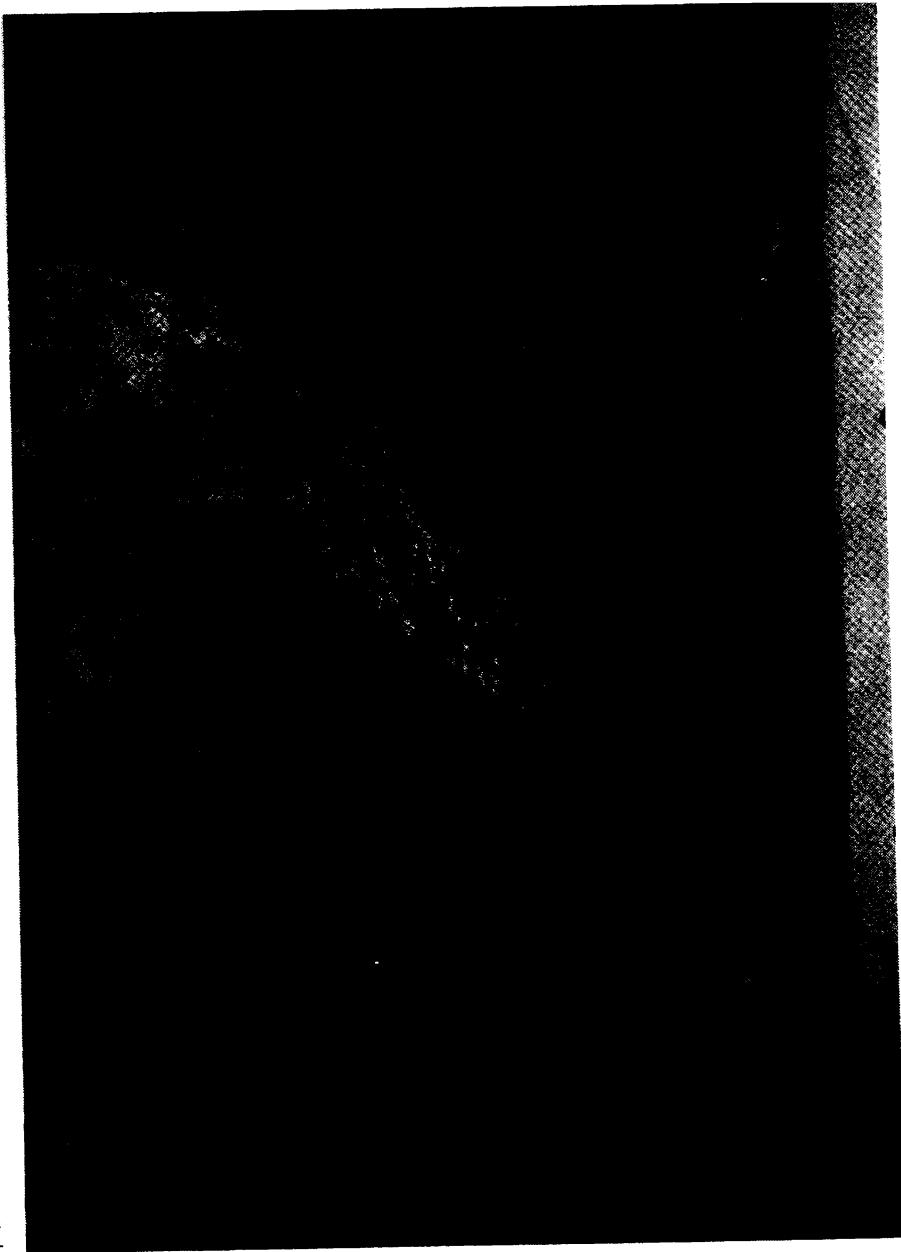
وشيزر إذن هي عبارة عن قرية وقلعة تقع في وسط بلاد الشام، بالقرب من جسر قدم ومحاضة على المجرى الأعلى لنهر العاصي، إلى الشمال الغربي من مدينة حماه. وتنتصب القلعة مجانية للنهر، فوق جرف صخري متراوّل وضيق. يفصله عن السفح الصخري المتصل به في الجنوب قناة عميقه. ويرتفع الجدار الأمامي للبرج الممحصن فوق هذا الخندق مباشرة. وهو صرح ضخم يتالف من طابقين داخلين وشرفة سطحية واسعة، وهو دون شك نتاج فترات بناء متعددة. وقد انهارت الجدران التي كانت تكسو حافة الجرف على كل من ضلعي القلعة الطويلين في معظمها، ولم يبق سوى

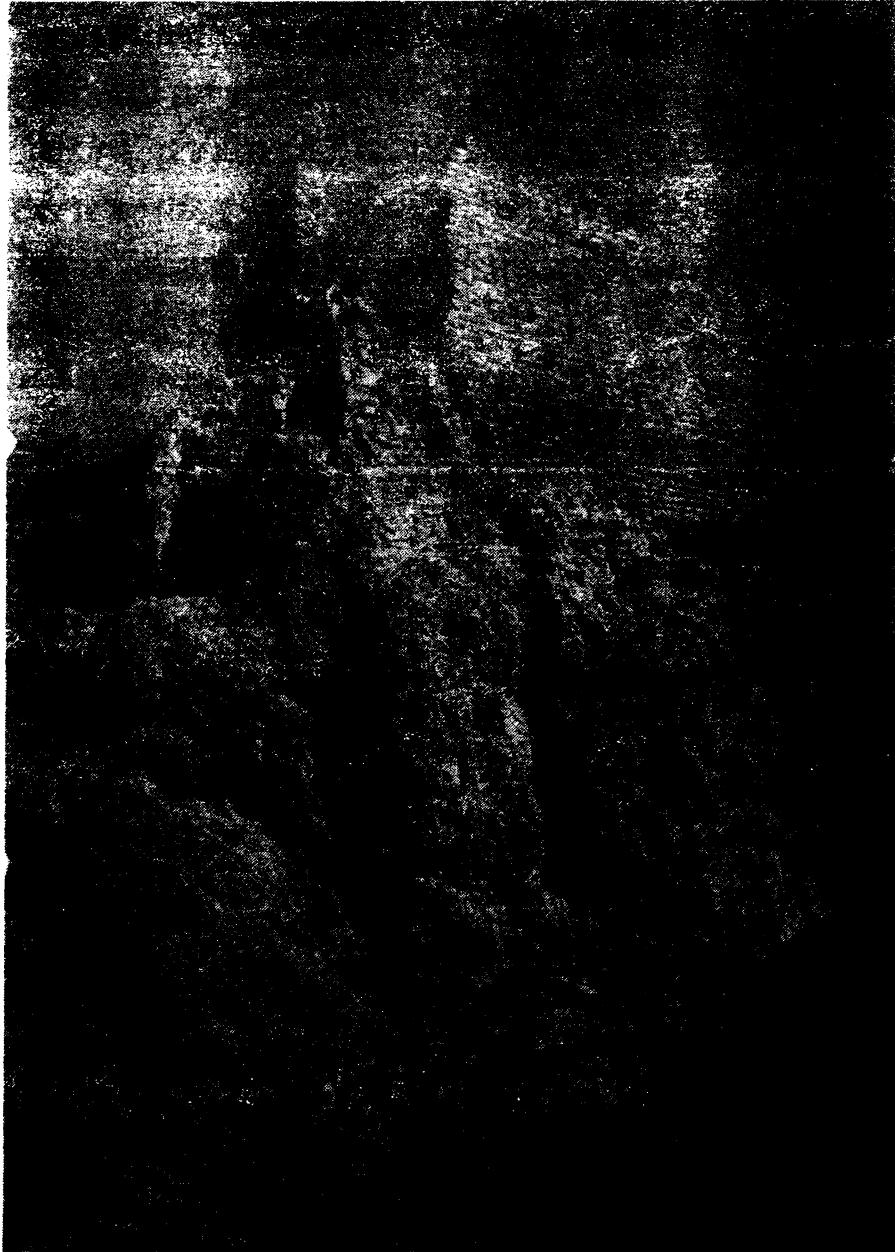
(١) شيزر، وتكتب باللاتينية: (SHEIZAR) وباليونانية سيزارا: (SIZARA) وتوسيزير: (TOSEZER).

(٢) الكامل في التاريخ - ابن الأثير - دار الفكر - بيروت - ١٢٨٧ هـ (٣٦٠/٨) و (٩/٥٣). و (١٠٦).

(٣) القلاع أيام الحروب الصليبية، ص: ٦٩ - ٧٠.







قلعة شيد

الركن الشمالي الأقصى من القلعة والتي هي عبارة عن سواتر ترابية شديدة الانحدار ، ولا زالت البوابة متيبة البناء ، قائمة على أصولها .

لا تختلف قصة قلعة شيزر - التاريخية - عن قصص سواها من القلاع القدية التي عاشت على أرض بلاد الشام . فتاريخ القلعة يعود إلى أيام السلوقيين - خلفاء الاسكندر الأكبر المقدوني وورثته - وعندما ورث الرومان عن اليونان ما كان لهم من بلاد خضعت لحكمهم، أصبحت هذه القلعة تحت حكم الرومان ، ثم استقلت دولة الروم - البيزنطيين - بحكم منطقة البحر الأبيض المتوسط . فأنشأت اللبيات - القلاع - على امتداد حدودها في الشرق والغرب ، وكانت شيزر في جلة هذه اللبيات . حتى إذا ما فتح العرب المسلمين بلاد الشام ، خضعت لهم القلعة والمحصون ، ودانت لحكمهم . وتعرضت القلعة في شمال بلاد الشام لهجمات الروم البيزنطيين مرات عديدة ، ولم تنج شيزر من الاجتياح الرومي وخاصة أيام نقورس فوقياس الذي استطاع فرض الهيمنة على شيزر في الفترة ما بين ٣٥٢ - ٩٦٣ هـ (١١٣٨ م) وعندما اجتاح الفرنج الصليبيون بلاد الشام ، صمدت شيزر في وجه هجماتهم . وكانت هناك عائلة عربية قد استقرت في شيزر حملت اسم (آل منقد) . اضطاعت بواجب الجهاد في سبيل الله . وبذلت جهدها لتنسيق التعاون مع القوى الإسلامية في الأقليم . ولهذا لم يكن غريباً أن يرتبط اسم قلعة شيزر باسم (آل منقد) طوال الحروب الصليبية . لاسيما في سنة ٥٣٣ هـ = ١١٣٨ م عندما حاول الامبراطور البيزنطي جون الثاني (كومين) الاستيلاء على شيزر ، وضرب الحصار عليها بالتعاون مع الفرنج الصليبيين . لكن شيزر صمدت للحصار وانتصرت وكان هذا الهجوم الكبير قد بدأ بالهجوم على بزاغة - وهي مدينة لطيفة تقع على بعد ستة فراسخ من حلب - . مما دفع عياد الدين زنكي لارسال بعض قواته لدعم الحامية المدافعة عن حلب . غير أن الروم تابعوا هجومهم فحاصروا بزاغة ونصبوا عليها المنجنيقات ، مما أرغم أهل بزاغة على طلب الأمان لأنفسهم ، ولكن ملك الروم غدر بأهلها وقتل وأسر وسبى ، وتنصر قاضيها وجاءه من أهلها - نحو أربعين نسمة - . وأقام الروم بعد ملكها عشرة أيام يتطلبون من اختفى . فقيل لهم إن جمعاً كثيراً من أهل هذه الناحية قد نزلوا المغارات ، فدخلوا

عليهم، وهلكوا في المغایر. وعندما أراد الروم الرحيل عن حلب، خرج إليهم أحاديث حلب، فقاتلواهم قتالاً شديداً، فقتل من الروم وجرح خلق كثير، وقتل بطريق جليل القدر عندهم. وعادوا خاسرين، فلم يروا فيها طمعاً. فرحلوا إلى قلعة الأنبار، فخاف من فيها من المسلمين فهربوا عنها وملكها الروم، وتركوا فيها سبايا بزاغة وأسراهم ومعهم جمع من الروم يحفظونهم ويحمون القلعة وساروا عنها. فلما علم أمير حلب (الأمير أسوار) بذلك، قاد جنده إلى الأنبار. وأوقع بن فيها من الروم فقتلهم وخلص الأسرى والسي وعاد بهم إلى حلب.

وأما عماد الدين زنكي، فكان قد غادر حصن ، وسار إلى سلمية فنازلها ، وعبر نهر الفرات إلى الرقة . وأقام جريدة - قوة خفيفة من الفرسان - لينبع الروم ويقطع عنهم الميرة - التموين - . ولكن الروم تجاهلوه عماد الدين زنكي وقوته وتابعوا تقدمهم وهدفهم الاستيلاء على قلعة سizer التي لم تكن تابعة لزنكي ، وإنما كانت تابعة للأمير أبي العساكر سلطان بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني^(١) . فنازلوها وحصروها ونصبوا عليها ثمانية عشر منجنيناً . فأرسل صاحبها - حاكمها - إلى زنكي يستتجده ، فسار إليه ، ونزل على نهر العاصي بالقرب منها ، بينها وبين حماه ، وكان زنكي يركب كل يوم ويسير إلى شيزر هو وعساكره ، ويقفون بجحث يراهم الروم ، ويرسل السرايا فتأخذ من ظفرت به من الروم .

أرسل عماد الدين زنكي بعد ذلك إلى ملك الروم من قال له :

«إنكم قد تحصنتم مني بهذه الجبال ، فأنزلوا منها إلى الصحراء ، حتى نلتقي ،

(١) كانت شيزر لبني منقذ الكنانيين يتوارثون ذلك من أعواام عشرين وأربعين (١٠١٩ م) حتى انتهى الملك إلى المرهف نصر بن علي ابن نصیر بن منقذ بعد أبيه أبي الحسن علي . فلما حضره الموت سنة تسعين وأربعين، عهد لأخيه أبي سلمة بن مرشد . وكان عالماً بالقراءات والأدب . وولى مرشد أخيه الأصغر سلطان بن علي ، ونشأ مرشد بنون كثيرون وكبروا وسدوا - منهم عز الدولة أبو الحسن علي ، ومؤيد الدولة أسمامة وولده علي . وقد صد بعضهم نور الدين زنكي . ثم وقعت الزلازل وضرب حصن شيزر وتهدم .

(تاریخ ابن خلدون : ٥٤١ / ٥ - ٥٤٤) و (الکامل في التاریخ - أحداث سنة ٥٥٢ هـ) .

فإن ظفرت بكم أرحت المسلمين منكم. وإن ظفرتم استرحم وأخذتم شيزر وغيرها .

ولم يكن لدى عياد الدين من القوة ما يكفي لقتال الفرنج والروم. ولكنه أراد أن يرهبهم بهذا القول وأشباهه. فأشار فرنج الشام - الصليبيين - على ملك الروم بمواجهته وهونوا أمره عليه، فلم يفعل ، وقال لهم : «أتظتون أنه ليس معه من العسكر إلا ما ترون. إنما هو يريد أن تلقونه فيجيئه من نجدات المسلمين مالا حد له ». وكان زنكي يرسل أيضاً إلى ملك الروم ويوجهه بأن الفرنج الصليبيين بالشام خائفون منه، فلو فارق مكانه تخلعوا عنه. ويرسل إلى فرنج الشام يخوفهم من ملك الروم ، ويقول لهم : «إن ملك الشام حصناً واحداً ملك بلادكم جميعاً». فاستشعر الخوف كل من صاحبه، ورحل ملك الروم عن شizer بعد أن أقام على حصارها أربعين يوماً. وترك المجانق والآلات الحصار بحالها. فسار زنكي يتبع مؤخرة جيش الروم ، فظفر بكثير من تخلف منهم. وأخذ جميع ما تركوه. ولما عاد ملك الروم عن شizer ، مدح الشعراء أتابك زنكي وأكثروا^(١). ومن عجيب ما يحكى أن ملك الروم لما عزم على حصر شizer وسمع من بها ذلك ، قال الأمير مرشد بن علي - صاحبها - وهو ينسخ مصحفاً - :

(١) الكامل في التاريخ - أحداث سنة ٥٣٢ هـ. وفيه ما قيل في مدح أتابك - القائد - زنكي ، بهذه المناسبة ، ما قاله المسلم بن الخضر بن قسم الحموي في قصيدة طويلة مطلعها :

<p>تعززك أهلاً الملك العظيم تنزل لرك الصعاب وتسنم</p> <p>تبين أنه المثلث الرجم كان الجحفل اللليل البهيم ودان لخطبته الخطباء العظيم تقن أن دللك لا يدوم فأحرب لا يسير ولا يقيس توقد . وهو شيطان رجم وليس سوى الحمام لمه حيم</p>	<p>ألم ترَ أن كلب الروم لما فجاءه فطبق الفلوتوس خيال وقد نزل الزمان على رضاه فحيسن رميته بك في حبس وأبصر في المفاسدة منك جيشاً كائناً في العجاج شهاب نور أراد بقاء مهجنـه فسوى</p>
--	--

« اللهم بحق من أنزلته عليه، إن قضيت بمجيء ملك الروم، فاقبضني إليك ». فتوفي بعد أيام.

لقد عجز الروم عن احتلال شيزر بسبب صمود حاميتها بقيادة (آل منقذ) الذين وصفوا بأنه ليس لهم من عمل إلا تلاوة القرآن والقيام بالعبادات وجihad الكفار. وهذا ما حملهم على الاستعانة بأخوانهم المسلمين - الزنكيين - ضد أعداء الدين. ولم يكن غريباً إلا يحاول الزنكيون الاستيلاء على شيزر أوفرض سيطرتهم عليها ، ذلك أن جهد الزنكيين قد تركز على حشد الجهود لقتال الغزاة من الفرنج الصليبيين والقضاء على من والاهم أو هادنهم أو تعاون معهم.

وبذلك التقى آل منقذ والزنكيون تحت راية الجهاد في سبيل الله، فكانت أخوتهم بالله وفي سبيل الله، وكان النصر في ركا بهم. حتى إذا ما كانت سنة ٥٥٢ هـ = ١١٥٧ م وقعت زلزال بالشام وضربت شيزر بقوة حتى أنه لم ينج من بيته منقذ - الذين بها - أحد . وكان سبب هلاكهم أجمعين أن صاحبها منهم - أميرها - كان قد ختن ولدأ له ، وعمل دعوة للناس ، وأحضر جميع بنى منقذ عنده في داره . وكان له فرس يحبه ولا يكاد يفارقها . وإذا كان في مجلس أقيم الفرس على بابه . وكان الفرس - المهر - في ذلك اليوم على باب الدار . فجاءات الزلزلة ، فقام الناس ليخرجوا من الدار . فرمي الفرس رجلاً كان أولهم فقتله . وامتنع الناس من الخروج . فسقطت الدار عليهم كلهم وخربت القلعة وسقط سورها وكل بناء فيها ، ولم ينج منها إلا الشريد . وخاف نور الدين زنكي أن يستولي الفرنج على ما تهدم من القلائع والخصون . فأقام بأطراف البلاد حتى فرغ من بناء حصونها وأسوارها . وأصبحت شيزر في حكم نور الدين زنكي ، غير أن انتقال شيزر إلى حكم الزنكيين لم يحيط من إرادته (آل منقذ - الكنانيين) فتابعوا دورهم في حل رسالة السيف والقلم لقتال الفرنج . وإذا كانت شيزر رمزاً للمقاومة ، فقد كان أسامة بن منقذ رمزاً لفارس المقاومة ورجلها وأديبها ، حتى أنه اعتبر صورة حية عن الثقافة العربية - الإسلامية في عصر صلاح الدين الأيوبي - من خلال كتابه الشهير - الاعتبار - ^(١) « المعروف أنه نشأت بين أسامة هذا ، وبين

(١) ترجم الدكتور فيليب حتى كتاب أسامة (الاعتبار) إلى اللغة الانكليزية بعنوان:

فرسان الفرنجة صلات ود وصداقة. ثم إنه شارك في حلات نور الدين عليهم. وانضوى تحت لواء صلاح الدين بدمشق، على الرغم من بلوغه سنًا متقدمة. ومع أنه كان متمكناً من الصناعة اللغظية الشائعة في عصره، على ما تشهد سائر كتبه، فقد ازدرها بالكلية في مذكراته هذه. إنه هنا يقص علينا في لهجة قصصية بسيطة مختلف مغامراته في الحرب والسلم، وفي الطرد - الصيد - بصورة خاصة. وإنه ليبلغ غاية عجيبة من النزاهة والتجرد في أحکامه على المسلمين والنصارى جيأعا^(١).

لقد حفظ التاريخ ما حفظه، لآل منقذ والكتانين، دورهم في الدفاع عن مصر، وفي دعم الدولة الزنكية ثم الدولة الأيوبية من بعد. ويرهن ذلك على أن آل منقذ، شأنهم كشأن كافة القبائل العربية - الإسلامية، لم يكن يهمها أن تتبوأ مكان القيادة، قدر ما كان يهمها نصرة قضية الإسلام والمسلمين، ورفع راية الجهاد ضد أعداء الدين. وهذا فانها كانت على استعداد لوضع سيوفها وتقديم الولاء لكل من توافرت له القدرة والكافية للدفاع عن الإسلام وأهله. وقد عرف آل منقذ أخلاقهم وقدرتهم فعملوا معهم بمحاسة وإخلاص. وكذلك فعلوا مع صلاح الدين الأيوبى.

إن موضع البحث هنا هو موضوع (قلعة شيزر) وليس موضوع (آل منقذ) غير أنه في ذلك المكان، وفي تلك الحقبة التاريخية، تلاحم اسم القلعة باسم حاتها والمدافعين عنها من آل منقذ. ولقد خضعت معظم القلاع والمحصون المجاورة لحكم الفرنج الصليبيين، وامتنعت قلعة شيزر عن الخضوع للغزا. وقامت القبيلة العربية - المسلمة بواجبها في حماية معلقها والدفاع عنه واعداد الوسائل الضرورية للحرب. حتى إذا ما انهارت القلعة وهجرها آل منقذ، تابع من بقي منهم على قيد الحياة دورهم في حمل السيف والجهاد بكل الوسائل المتوفرة. وبذلك لم تكن القلعة هي التي وفرت لآل منقذ الظروف المناسبة للدفاع، وإنما هم آل منقذ الذين اضطلاعوا بواجب الدفاع وحملوا

أعباءه، وأعدوا له أسبابه ووسائله. فبرهنو مرة أخرى في التاريخ على أن النصر في الصراع المسلح، إنما يرتبط بتصميم الإنسان المؤمن وإيمانه بربه وإرادته على انتزاع هذا النصر - في البحث عن إحدى الحسينين.

لم يكن بذلك (أسامة بن منقذ)^(١) هو الوحيد في آل منقذ ، والذي وضع سيفه وقلمه في خدمة المسلمين - لاسيما خلال فترة عمله مع صلاح الدين الأيوبي - بل كان هناك أيضاً (شمس الدين بن منقذ) والذي عمل سفيراً لصلاح الدين الأيوبي لدى المنصور يعقوب المودي ، عندما طلب صلاح الدين من سلطان المغرب - المنصور - إرسال اسطوله لجهاد الفرنج في بلاد المشرق^(٢). ولعل ما أسبغه سلطان المغرب على (شمس الدين بن منقذ) من التكريم ، إنما هو برهان على ما بلغته سمعة (آل منقذ) من الشهرة في الجهاد. وما كان لها من مكانة رفيعة في المجتمع الإسلامي خلال تلك الحقبة التاريخية .

يبرز العرض السابق أن شيزر وقلعتها لم تنفرد عن سواها من قلاع بلاد الشام وحصونها بشيء يضيف رفداً جديداً لفن حرب الحصار. فهي تتمتع بموقع منيع حقاً، وتحتل موقعاً جيو - استراتيجياً هاماً - بحسب المصطلحات الحديثة - غير أن منعة

(١) الكامل في التاريخ - أحداث سنة ٥٨٤ - وورد في الحاشية ما يلي : « توفي في هذه السنة الأمير الكبير . سلالة الملوك والسلطانين ، الشيزري مؤيد الدولة أبو الحارث وأبو المظفر أسامة ابن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ . أحد الشعراء المشهورين المشكورين . بلغ من العمر ستة وتسعين سنة . وكان عمره تاريخاً مستقلاً وحده . وكانت داره بدمشق - مكان العزيزية . وكانت معلقاً للفضلاء ، ومنزلة للعلماء ... وكان مولده في سنة ثمان وثمانين وأربعين وأربعمائة وكان في شبيته شهباً شجاعاً . قتل الأسد وحده مواجهة ، ودفن شرقى جبل قاسيون ».

(٢) وردت قصة هذه السفارة في نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب (٤٤٤/١ - ٤٤٥) وكانت هذه السفارة من سنة ٥٨٦ إلى سنة ٥٨٨ هـ (١١٩٠ - ١١٩٢ م). وذكر أن ابن منقذ عاد من سفارته بغير فائدة . وبعث بعقوب المودي - المنصور - مع ابن منقذ هدية حقيقة لصلاح الدين . أما ابن منقذ فإن السلطان يعقوب أحسن إليه وأغناه ، لا لأجل صلاح الدين بل لبيته وفضله . وانظر صبح الأعشى : ٥٣٠ / ٦ - ٥٢٦ / ٦ والروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - لأبي شامة - القاهرة - ١٩٦٢ (١٧٤ / ٢ - ١٨٨ / ٢).

موقعها ومكانها لم يضمن لها مميزات خاصة ، بل إن سواها من القلاع ، مثل قلعة صلاح الدين (صهيون) وقلعة صافيتا ، تتفوقان عليها سواء من حيث متانة تحصيناتها ، أو من حيث قوة موقعها ، أو حتى من حيث أهميتها . وعلى هذا فقد يصعب استخلاص مميزات خاصة بالقلعة . وإن ما حصلت عليه قلعة شيزر من الشهرة إنما يعود لارتباطها بآل منقذ من جهة ، ولصومودها في وجه الفرنج الصليبيين من جهة أخرى . ولقد حاول الفرنج مهاجمة شيزر والاستيلاء عليها ، بعد الزلزال الذي ضرب القلعة فدمر أسوارها وتحصيناتها سنة ٥٥٢ وسنة ٥٥٣ هـ (١١٥٧ - ١١٥٨ م) ولكن هجوم الفرنج فشل المرة بعد المرة . كما عاد الزلزال فضرر قلعة شيزر سنة ٦٣١ هـ = ١٢٣٣ م فدمرها . وأسرع المسلمين لإعادة ترميم القلعة وتحصينها . ويؤكد ذلك تصميم المسلمين على حماية القلعة والدفاع عنها ، كما يؤكّد في الوقت ذاته أن قوة القلعة كانت كامنة في تنسيق التعاون بين الحامية المدافعة عنها وبين القوة الخارجية الداعمة لها . وهذا يبرهن على ماسبقة الإشارة إليه من أن القلاع تبقى ضعيفة في مواجهة الهجوم الخارجي مهما توافر لها من المنعة والقوة ، وأنه لا بد لها من ضمان الدعم الخارجي الثابت . ذلك أن مهمّة القلاع هي التصدي للعدوان الخارجي وايقافه لفترة محدودة من أجل اتاحة الفرصة أمام قوات الدعم الرئيسة للتدخل في الوقت والأسلوب المناسبين . وقد تأكّدت هذه الحقيقة عندما سقطت قلعة شيزر في قبضة المغول التتار ، وذلك عندما انحدرت جحافل هؤلاء من الشمال ، فاجتاحت حصون بلاد الشام وقلاعها دون مقاومة تقرّيباً بسبب عدم توافر الدعم الخارجي . ويذكر أن المغول قد عملوا خلال اجتياحهم لقلعة شيزر على تدمير أسوار القلعة وتحصيناتها (سنة ٦٥٨ هـ = ١٢٥٩ م) وعندما تم طرد المغول جاء الظاهر بيبرس فعمل على إعادة تشييد قلعة شيزر وتحصينها (سنة ٦٦٠ هـ = ١٢٦١ م) وتحمل آثار القلعة اليوم ما يشير إلى أن السلطان قلاوون قد أكمل تحصين شيزر ودعم استحكاماتها سنة ٦٨٩ هـ = ١٢٩٠ م . وهذا يعني أن عملية إعادة التحصين قد استمرت طوال ثلاثة عاماً . ولم يكن العمل مستمراً طوال هذه الفترة - بالتأكيد - وإنما كان نوباً ، ومن المحتمل أن يكون السلطان قلاوون قد أضاف بعض الاضافات سواء لزيادة قوة التحصينات أو لاضفاء بعض الظواهر التجميلية التي

تليق بالقلعة (مثل البوابة الخارجية). والمعروف أن الظاهر بيبرس والسلطان قلاوون لم يعتمدَا في حروبهما على الواقع الدفاعية والتحصينات، وكانا يعتمدان على الهجوم والهجوم وحده. ولكن ذلك لم يمنعهما من الاهتمام بالقلاع والتحصينات، وذلك لصد الهجمات المباغة، وباعتبارها القواعد الثابتة لانطلاق الهجوم.

لقد تجاوز الزمن عمر القلاع والتحصينات، وبيات من الحال أن تصمد الأسوار الشاهقة لضربات الأسلحة النارية، وهذا عمل العثمانيون على أهمها. فسقطت أهمية القلاع الشاهقة والتحصينات المرتفعة، وانتقل التحصين إلى باطن الأرض بدلاً من ظاهرها، غير أن تجربة شيزر التاريخية، وتجارب سواها من القلاع بقيت ذات نتائج ثابتة من أهمها ارتباط الدفاع الداخلي بالهجوم الخارجي، وارتبط نظم الدفاع برباط واحد، وتفوق الهجوم على الدفاع.

١٢ - قلعة الشقيف [بوفورت].

قلعة (شقيف أرنون)^(١) هي قلعة في جنوب لبنان، تقع على جرف جبلي شديد الانحدار ، ارتفاعه ٢٠٠ قدماً، مقابل نهر الليطاني. وهي مثل قلعة صبيبة (بانياس) التي تقع على اتصال بالنظر معها . تتحكم بالمنافذ الجنوبية لمضبة البقاع الحصبية. شيدت القلعة العليا التي لها برج محصن كبير وسور ضخم من الحجارة المداخلة فوق هضبة مستديرة صخرية بارزة ، بينما تتصل بها القلعة السفلية عن طريق ريف صخري ضيق من جهة الشرق . وتنفصل أرباض القلعة كلية عن المضبة المحيطة بها ، والتي كانت مأهولة فيما مضى - بخندق مائي محفور في الصخر الأصم . وقد وصفها أبو الفداء في تقويم البلدان بقوله : « شقيف أرنون بين دمشق والساحل ، بالقرب من بانياس ، وأرنون اسم رجل ، والشقيف المذكور معقل حصين . والشقيف أيضاً - شقيف تيرون - بكسر المثناة الفوقية وسكون المثناة التحتية وضم الراء المهملة وواو ونون - وهي أيضاً قلعة بقرب صور بالساحل »^(٢) .

لقد كان لقلعة الشقيف وضعها الخاص أيام الحروب الصليبية القديمة . فما إن احتل الفرنج مدينة القدس (سنة ٤٩٢ هـ = ١٠٩٨ م) حتى انصرفوا للتوسيع على حساب بلاد المسلمين وأمكن لهم احتلال مدينة صيدا سنة ٥٠٣ هـ = ١١٠٩ م . وعلى الرغم من تمزق المسلمين في تلك المرحلة التاريخية ، فقد أخذ أمراء المدن الداخلية (حص وحاه وحلب) في الشمال و(دمشق والقاهرة) في الجنوب ، بتصعيد الصراع ضد الغزاة الصليبيين . ووجد الفرنج أنه لا قبل لهم بمجابهة الهجمات المباغتة والاغارات السريعة

(١) قلعة الشقيف ، وبالعربية شقيف أرنون . وبالفرنجية بوفور - أو المحصن الجميل (BEAUFORT) وبلغور : (BELLIFORTE).

(٢) القلاع أيام الحروب الصليبية ، ص : ٨٠ .

المخطط ١٥ : قلعة شيف Beaufort

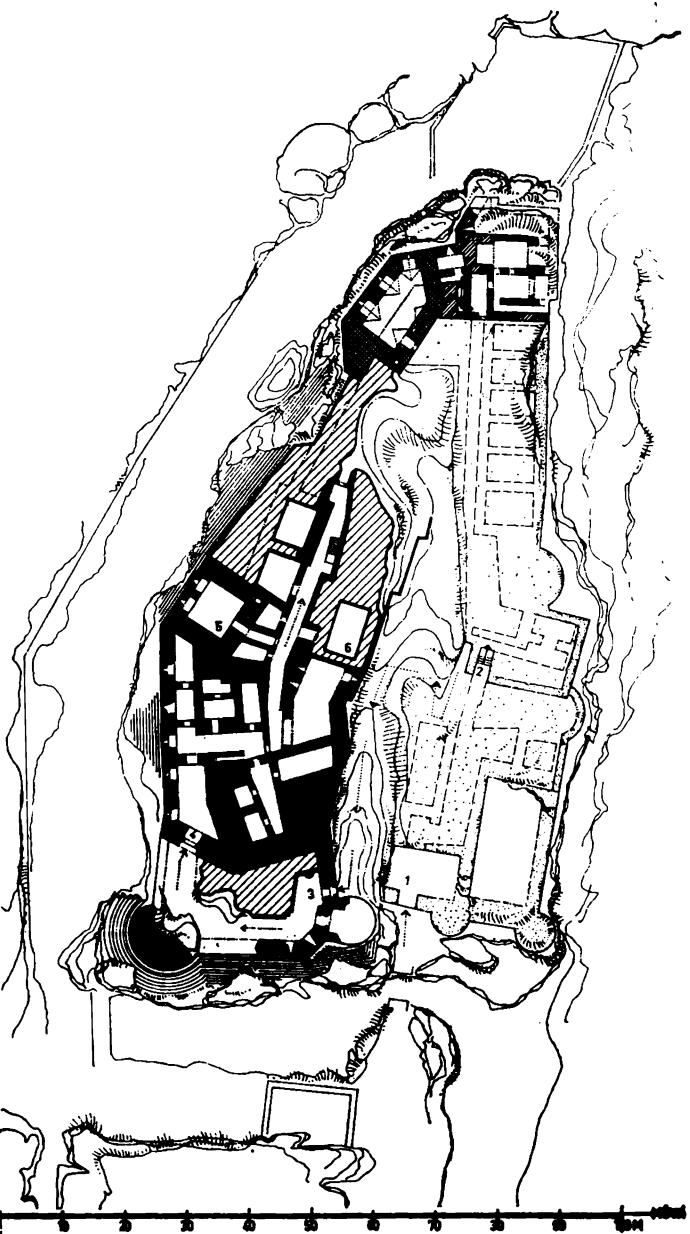
المخطط ١٥ : قلعة شيف

Beaufort

مخطط أرضي عام للقلعة،
المقياس ١/١٠٠٠ ، رسمت
الأجزاء التي تعود بتاريخها إلى
فترق البناء الفرنجيين الأولى
والثانية باللون الأسود،
والإضافات العربية (١١٩٠ -
١٢٤٠) بالتهشير المتقطع،
والإضافات العربية الأخرى (بعد
١٢٤٠) بالتهشير الكثيف،
والأنبوبة المشادة تحت الأرض
والصخر بالتهشير العريض.

- ١ - غرفة البوابة الخارجية
للقلعة السفلية ، ٢ - ممر عبر بوابة
تحت الأرض إلى فناء القلعة
السفل ، ٣ - البوابة الخارجية
للقلعة العليا ، ٤ - البوابة الداخلية
للقلعة العليا ، ٥ - برج محسن ،
٦ - أساسات الكنيسة ، ٧ -
ـ صهريج ماء في قنطرة القلعة
(بالاستناد إلى دوشامب ، القصور

. (II)



شيف أرnon (بوفورت)





البنان الجنوبي في تطهيره من الصليبية الجديدة
واعادة البناء فارون ويتمنى أن يعود ملوكه

المدمرة، فوجهوا اهتمامهم لبناء القلاع والمحصون على امتداد حدود إماراتهم مع بلاد المسلمين. مع تحصين المدن والقلاع في معظم المناطق ذات الأهمية الاقتصادية والجيوستراتيجية. أما المسلمون فقد احتفظوا بسياستهم الاستراتيجية الهجومية، وهذا لم يعملا على إقامة تحصينات مقابلة، باستثناء ما تطلبه تحصين المدن من الدعم. وكان هدفهم باستمرار هو تطوير أساليب حرب الحركة، والعمل على تدمير حصن الفرنج وقلاعهم، وانتزاعها منهم. فتطور لديهم فن الحصار ومهاجمة القلاع والتحصينات، وأمكن لهم التركيز على تطوير الأبراج والمجانق وسواها من وسائل الحصار.

لقد كانت قلعة الشقيف هي إحدى تلك القلاع التي أراد الفرنج الصليبيون اتخاذها درعاً حصيناً لهم، بسبب موقعها على المرتفع الصخري المطل على الضفة الغربية من نهر الليطاني، خلف تلال صيدا - فاحتلها ملك القدس، - فولك - سنة ٥٣٤ هـ = ١١٣٩ م ووهبها إلى صاحب صيدا الاقطاعي الذي عمل على تقوية القلعة باضافة برج محصن إليها مع سور خارجي متين. وأصبح واجب قلعة الشقيف هو الدفاع عن صيدا، والهيمنة على السهول المحيطة بها. وتجاهله هجمات الجيوش الإسلامية القادمة من الجنوب (مصر).

ولهذا فقد كان من الطبيعي أن تبقى الحامية المدافعة عنها مرتبطة بأمير مدينة صيدا (كونت صيدا) - وبالرغم من صغر حجم هذه الكونتية (الإمارة) وبالرغم من ضعف امكاناتها فإن موقعها الهام أكسبها قيمة تزيد كثيراً على حجمها وامكاناتها.

بقيت كونتية صيدا وشقيف تابعة لملكة القدس. وقد برزت أهمية شقيف بصورة خاصة في مرحلة تعاظم هجمات المسلمين على الأرضي التي احتلها الفرنج وأقاموا فيها مالكمهم وإمارتهم. وما حفظه التاريخ عن هذه القلعة هو ما حدث سنة ٥٨٥ هـ = ١١٧٩ م. ففي ربيع هذه السنة، وعندما بدأ موسم حركة قطuan الأغنام، نهض ملك القدس - بذرلين - لاعتراض سبيل هذه القطuan القادمة من سهول دمشق نحو بانياس ليسوقها أمامه. فأرسل صلاح الدين الأيوبي قوة بقيادة ابن أخيه (عز الدين فروخشاه)^(١) لمراقبة ما كان يحدث. وكان لزاماً عليه أن يخطر عمه عن طريق الحمام

(١) عز الدين فروخشاه: ابن أخ صلاح الدين، وكان ينوب عنه في حكم دمشق وقيادة جندها، وهو

الزاجل بالاتجاه الذي سار عليه الفرنج. غير أن فروخشاه بوجت بظهور جيش الفرنج أمامه (يوم ١٠ نيسان - أبريل ١١٧٩ م) فانقض عليه من واد ضيق في غابة بانياس، وأخذ ملك الفرنج على حين غرة، فكاد يهلك وجشه لولا الشجاعة النادرة التي أظهرها سيد تبنين الكندسطبل الشيخ هموري. والذي استمر في مقاومة هجوم المسلمين حتى أفلت جيش الفرنج. وأعقب انتصار قوات صلاح الدين قيامه بـالقاء الحصار على قلعة مخاضة يعقوب، والانتقال بمعسكره إلى بانياس، حيث أرسل من هذا الموضع قوات للإغارة على الجليل ولبنان، والعمل على تدمير المحاصولات الزراعية في أراضي صيدا وحتى بيروت. فقام الملك بلدوين بمحشد كل قوات مملكة القدس. ودعا كونت طرابلس (ريوند) للانضمام إليه، فسارا معاً مجتازين طبرية وصفد إلى تبنين، حيث علما أن فروخشاه وجاء من المغرين في طريق عودتهم قادمين من الساحل بغنية كبيرة. فتحرّك على اتجاه الشمال لاعتراضهم بوادي مرجعيون - بين نهر الليطاني والمجرى الأعلى لنهر الأردن - غير أن صلاح الدين سبق أن شاهد من برج للمراقبة على تل يقع شمال بانياس، ما حدث على الجانب الآخر من نهر الأردن من ذعر قطعان الماشية وتفرقها، فأدرك أن جيش الفرنج قد اجتاز هذا الموضع، فنهض لمطاردته. وبينما كان جيش الفرنج يصطدم بقوة فروخشاه، كان جيش طرابلس الصليبي ومعه فرسان الداوية يتقدمون نحو نهر الأردن، فاصطدموا بجيش صلاح الدين عند مدخل الوادي. وبادر الداوية إلى الاشتباك في القتال على الفور، غير أن ما قام به صلاح الدين من هجوم عليهم، ردّهم على أعقابهم، فولوا الأدبار مذعورين، واتجهوا نحو معسكر ملك القدس - بلدوين -. واضطرب جند هذا المعسكر بدورهم إلى الارتداد والهزيمة. ولم يلبث الجيش الصليبي بأكمله أن لاذ بالفرار. وتمكن ملك مملكة القدس

= موضع ثقته من أهله ويعتمد عليه أكثر من جميع أفراد أسرته، كان شجاعاً وكريماً وفاضلاً وعلمه بالأدب وغريوه، وله شعر جيد من بين آشعار الملك، وكان كثير الفزاعة لبلاد الفرنج. خرج من دمشق سنة ثمان وسبعين وخمسين (١١٨٢ م) إلى غزو الفرنج، فعرض عاد مريضاً فيها. ووصل خبر موته إلى صلاح الدين وقد عبر الفرات إلى ديار الجزيرة، فأعاد شمس الدين محمد بن المقدم إلى دمشق ليكون مقدماً على عسكراها. وانظر : الكامل في التاريخ - أحداث سنة ثمان وسبعين وخمسين.

- بلد़وين - و معه كونت طرابلس - ريموند - ومعها بعض الرجال ، من عبور نهر الليطاني واللجوء الى قلعة الشقيف . وأدركت سيف المسلمين من بقي من جنود الفرنج وراء نهر الليطاني فأخذتهم بالقتل ووقع آخرون بالأسر ، ولو لا لجوء ملك القدس وبعض جنده الى قلعة الشقيف لكان الفناء هو مصير الجيش الصليبي بأكمله .

جاءت بعد ذلك معركة حطين الخالدة ، و تم تحرير صيدا (سنة ٥٨٣ هـ = ١١٨٧ م) ولم يبق أمام صلاح الدين إلا أن يعيد فتح حصون الأرض المقدسة التي أخذت في التساقط تباعاً حتى تم طرد الفرنج من الجليل بكماله تقريباً . ثم تحرك صلاح الدين على امتداد ساحل بلاد الشام ، ولما وصل الى الشقيف وجد أن حاكم صيدا - رينالد - قد لجا اليها . فحاول رينالد هذا ، وقد رأى نجاح المسلمين في اعادة فتح قلعة كثير من المدن والقلع ، أن يلجأ الى الأساليب الدبلوماسية من أجل انقاذ قلعة الشقيف . وكان حاكم صيدا هذا - رينالد - قد اشتهر بكفایته الدبلوماسية إلى جانب أنه كان رجلاً يميل للعلم والدراسة ، وأظهر ميلاً كبيراً لدراسة الأدب العربي . فقدم إلى خيمة صلاح الدين ، وأعرب عن رغبته في تسلیم قلعته واللجوء الى دمشق إذا ما أمهله صلاح الدين ثلاثة شهور لتسوية أموره ، بل إنه ألمح إلى أنه قد يعتنق الإسلام . وبلغ من اللياقة في حديثه أنتمكن من اقناع صلاح الدين بصدق نيته وصفاء طويته . ولم يكتشف صلاح الدين إلا بعد فوات الوقت أن - رينالد - كان يخدعه ، إذ أقام صلاح الدين برجعيون في انتظار انتهاء الموعده ، وأثناء ذلك ، أخذ القلق ينتابه بسبب قرب موعد انتهاء المدنة بينه وبين صاحب أنطاكية (بوهمند الثالث - البيمند) فأمر ابن أخيه تقي الدين أن يسير فيمن معه من الجندي ، وأن يضم إليه من يأتيه من جند المشرق ، ليكون في مواجهة صاحب أنطاكيه - أميرها - حتى يحرمه من فرصة الاغارة على بلاد الإسلام عند انتهاء المدنة .

و زاد من ضيق صلاح الدين و همومه ما توافر له من معلومات عن اجتماع الفرنج بمدينة صور ، وما كان يصلحهم من الامداد عن طريق البحر . و خاف صلاح الدين من ترك (الشقيف) وراء ظهره والتقدم إلى صور وفيها الجموع المتوافرة ، فينقطع عنه الامداد . ومع ذلك ، فقد صمم على الالتزام بتعهداته لصاحب قلعة الشقيف رينالد (أو

أرناط كما تذكره المصادر العربية) في حين كان رينالد هذا يستمر أيام المهدنة لشراء المواد التموينية والأسلحة من الأسواق ، بالإضافة إلى ما كان يشتريه من الوسائل لتحسين القلعة ، وبقي صلاح الدين وهو يحسن الظن به ، ويرفض قبول ما كان يقال له عن مكر رينالد ، وأن هدفه هو كسب الوقت إلى أن يخرج الفرنج من صور وعندها يظهر على حقيقته . فلما قرب موعد القضاء أجل المهدنة ، تقدم صلاح الدين من معسكره إلى القرب من شقيق ، وأحضر عنده رينالد (أو أرناط) وقد بقي من الأجل ثلاثة أيام ، وطلب إليه تسليم الشقيق . فاعتذر رينالد بأولاده وأهله ، وزعم أن المركيز ريموند - كونت طرابلس - لم يسمح لهم بالمجيء إليه ، وطلب التأخير مدة أخرى . فعلم صلاح الدين حينئذ مكره وخداعه . فاخذه وحبسه وأمره بتسليم القلعة . فطلب قسيساً ذكره ليحمل رسائله إلى قائده الحامية المدافعة عن الشقيق ليطلب إليه تسليمهما فأحضروه عنده ، فساوره - همس إليه - بما لم يعلموا ، فمضى ذلك القسيس إلى الشقيق ، وطلب إلى قائده الحامية باللغة العربية أن يقوم بتسليم القلعة ، غير أنه طلب إليه باللغة الفرنسية أن يقاوم ويكتنف عن التسلیم . ولم تكن مثل هذه الحيلة التافهة والقدرة لتنطلي على المسلمين . فأمر صلاح الدين بنقل رينالد إلى مدينة دمشق ، وإلقائه في سجنها^(١) . وسار صلاح الدين بجيشه إلى الشقيق فحاصرها وضيق عليها ، وجعل عليها من يحفظها وينفع عنها الذخيرة والرجال .

هكذا بقى قلعة الشقيق شوكاً في جانب المسلمين ، ولم يكن باستطاعة صلاح الدين تجاهل خطورتها على خططاته ، غير أن إخضاعها كان يتطلب قوات واستعدادات أكبر من تلك التي كانت متوافرة له ، لاسيما وقد أرغمه الأحداث على نشر جيشه حول كافة إمارات الفرنج ، بداية من أنطاكية في الشمال وحتى طرابلس وعكا في الجنوب . ولهذا قرر ترك قوة صغيرة تكفي لحصار قلعة شقيق وعزماً . ومضى معظم جيشه لمجابهة الخطر الذي نتج عن تجمع الفرنج في صور ، وهو التجمع الذي استنجد منه صلاح الدين بأن الفرنج يريدون التوجه إلى صيدا لانتزاعها من قبضة

(١) الكامل في التاريخ - أحداث سنة ٥٨٥ - وتاريخ الحروب الصليبية : ٣/٥٦ و ٦٣ .

المسلمين ، ثم التقدم لرفع الحصار عن الشقيف . لكن صلاح الدين لم يلبث طويلاً حتى تأكد أن هدف الفرنج هو استعادة عكا وليس المjom على صيدا ، فمضى بجمع الجيش إلى عكا حيث دارت معارك متطاولة كان النصر في معظمها إلى جانب المسلمين ، وأثناء ذلك ، كان الصراع مستمراً حول الشقيف . وقد أدى الحصار القوي والمستمر ، وغياب الأمل من نجاح الفرنج بالوصول إلى القلعة ، إلى إضعاف المقاومة شيئاً فشيئاً . وأمكن للMuslimين في النهاية اقتحام قلعة الشقيف والاستيلاء عليها ، وطرد الفرنج الصليبيين منها ، وضمن صلاح الدين بذلك تحقيق هدفين : أولهما القضاء على التهديد الذي كانت تشكله القلعة . وثانيها الافادة من القوات التي كان قد خصصها لاخضاع قلعة الشقيف ، وضمنها إلى قواته في فترة كان أحوج ما يكون فيها للدعم .

استثارت انتصارات صلاح الدين ملوك الغرب (إنكلترا وفرنسا وألمانيا) فأسرعوا لقيادة الحملة الصليبية الثالثة . ودارت صراعات مريرة لم تتحقق للفرنج الصليبيين مكاسب كبيرة . وجرت بعد ذلك مفاوضات تم خلاها إطلاق سراح سيد صيدا وشقيف السابق - رينالد - من سجنه ، واستخدمه صلاح الدين في المفاوضات ، وغفر له مكره وخداعه للاحتفاظ بقلعته (الشقيف) .

تدور الموقف بموت صلاح الدين وانقسام الأيوبيين على أنفسهم ، الأمر الذي أتاح الفرصة أمام الفرنج لاستثمار الانقسام القائم بينهم واحراز بعض المكاسب . وتم لهم استرداد قلعة الشقيف وما تبقى من الجليل (سنة ٦٣٩ هـ = ١٢٤١ م) حيث أرغموا سلطان مصر الصالح أيوب على التصديق على المعاهدة التي وقعاها أمير دمشق الصالح اسماعيل مع (فرسان الاستيبارية) . وقد استشاط العالم العربي - الإسلامي غضباً لهذا الأمر ، مما أرغم الصالح أيوب على إرسال جيشه عام ٦٤٥ هـ = ١٢٤٧ م للاستيلاء على جبل الطور والشقيف وعسقلان . فهدأت ثائرة المسلمين . وتحرك الفرنج على الاتجاه المضاد ، وجاء ملك فرنسا لويس التاسع (القديس لويس) على رأس الحملة السادسة التي منيت بالفشل (في دمياط) . ولكن لويس هذا تعلم كيف يمكن له أن يحقق بالطرق الدبلوماسية ما عجزت عن تحقيقه القوة في الحرب . وكان الصراع بين الأيوبيين والماليك قد برز بصورة حادة . فتحالف لويس التاسع مع الماليك الذين كانوا

يسطرون على مصر ضد الأيوبيين الذين كانت لهم السيطرة على بلاد الشام. وبذلك
تمكن له استعادة الشقيف مع جزء من الجليل. وعادت الشقيف مرة أخرى لحكم الفرنج
الصليبيين.

تعاظم الخطر المغولي الزاحف من الشرق في تلك الفترة، وبذل الخليفة العباسي
المعتصم جهده للتوفيق بين الماليك والأيوبيين من أجل مواجهة خطر المغول التتار، وأفلح
المعتصم في مسعاه. وتوحد العرب المسلمين كعادتهم عندما يواجهون الخطر الخارجي.

تمكن المغول (سنة ٦٥٩ هـ = ١٢٦٠ م) من الاطلاق على الفرنج في نابلس وغزة،
بقيادة كتبغا، ولم تهاول قوات المغول مهاجمة الفرنج طالما أنهم لم يتعرضوا لهم. وتجابو
الفرنج مع رغبة كتبغا وأعلنوا خضوعهم له. ولكن حاكم الشقيف صيدا - يوليان -
ظن أن بوسعه الاعتماد على قوة تحصيناته، واستئثار الصراع بين المسلمين والمغول
للتوسيع. فقام بقيادة اغارة على سهل البقاع المخصيب. ولكن كتبغا لم يكن ليسمح
لأحد بتقويض النظام الذي فرضه على الأقاليم التي أخضعها لحكمه. فأرسل قوة صغيرة
من جنده بقيادة ابن اخته لانزال العقاب ببولييان وجاعته. وأسرع يوليان لطلب
النجدية من جيرانه الفرنج. فكمروا لابن اخت كتبغا وقتلوه. فثار غضب كتبغا لهذا
الاستفزاز، وأرسل جيشاً كبيراً وصل إلى مدينة صيدا ودمراها. وأفاد فرسان الداوية
من الاضطراب، فانتزعوا من يوليان حق رهن صيدا والشقيف، لدى الداوية، مقابل
مبلغ كبير من المال استداناها منهم لتلبية متطلباته في الاسراف والتبذير.

انتصر المسلمون في السنة ذاتها على المغول في عين جالوت (سنة ٦٥٩ هـ = ١٢٦٠ م)
وأعقب ذلك فترة من الانقسام بين الماليك. حتى إذا ما أمكن للظاهر بيبرس السيطرة
على الموقف، توجه لتأديب الفرنج، فخرج بجيشه من مصر، وطرد الفرنج من يافا، ثم
جعل هدفه الثاني هو الاستيلاء على قلعة الشقيف التي طالما أزعجهت جيوش المسلمين.
وشرعت المجانق في قصف القلعة اعتباراً من يوم ٥ نيسان - ابريل - ١٢٦٦ م
(٦٦٥ هـ). واستمر القصف المتواصل لمدة عشرة أيام. مما أرغم فرسان الداوية
للاستسلام. فجعل الظاهر بيبرس للنساء والأطفال حرية الانتقال إلى صور. أما الرجال

فتقرر الاحتفاظ بهم أرقاء . وأصلح بيرس القلعة وشحنتها بقوة كبيرة من العساكر .

يمكن الصراع للسيطرة على قلعة شقيف على امتداد قرن ونصف القرن من عمر اليرس هو من أجل الاستيلاء على قلعة أو تحريرها ، وكذلك الأمر بالنسبة لما دار من صراع ومعارك ضارية حول بقية القلائع والمحصون . بل إن هذا الصراع كان تعبيراً صادقاً عن التصميم الثابت في حوار الإرادات المتصارعة . وقد كان من الحال مجاهدة العدوان وأسلحته وقلاعه وحصونه ومستوطنه بغير الأسلحة التي استخدمها العدوان ذاته . وبغير ذلك لا يتحقق الشرط الأساسي من حوار الإرادات المتصارعة وتبقى العملية الكاملة عملية فرض إرادة من جانب أحد الطرفين ، وهو الطرف المنتصر . وقد صمم المسلمون على تحقيق النصر في النهاية ، فكان لا بد لهم من الاحتكام للسلاح دائمًا حتى يقابلوا نهج العدو وأسلوبه بنهج ماثل ، وبذلك استمرت عملية حوار الإرادات المتصارعة وتطورت . ولقد حاول الفرنج الغزوة أيام ريتشارد قلب الأسد (ملك إنكلترا في الحملة الثالثة) وأيام الملك لويس (القديس لويس - ملك فرنسا في الحملة السادسة) تغلب الصراع السياسي على الصراع المسلح ، مستثمرين الظروف المرحلية لانقسامات أمراء المسلمين وملوكيهم . غير أن ما حققه الملكان من انتصارات (شملت فيما شملته استعادة قلعة الشقيف وحتى مدينة القدس) لم تثبت أن تهاوت بسرعة عندما عادت الأطراف لتابعة حوار الإرادات المتصارعة . وقد كان ذلك بالبرهان على حتمية فشل الحلول السياسية عندما تكون معزولة عن الجسم العسكري في إطار الحرب طويلة الأمد ذلك أن مثل هذه الحلول السياسية تبقى واهية ضعيفة في أنظار الحكام والمحكومين ، لأنها تأخذ صفة الاملاع أو الفرض ، ولأنها تسير على اتجاه يغایر المسار الطبيعي لحركة حوار الإرادات المتصارعة .

لم يكن بالمستطاع اقتناء الفرثيج الحاقدين بالتخلّي عن إماراتهم ومعالكهم التي أقاموها على سراب بلاد الشام إلا بالبرهان لهم على أن هذه الإمارات والملك هي عبء ثقيل يرهق كاهلهم بأكثر مما هي مكاسب لهم أو مفخرة يغنمونه . وكان الصراع المسلح هو الوسيلة الوحيدة لتشكيل مثل هذه القناعة . وهكذا كان استمرار الصراع حول شقيف وسوها من القلائع والتحصينات هو الذي حول الإمارات الصليبية إلى عبء ثقيل عجز

الفرنج عن حمله . وكان تحويل الامارات الصليبية إلى عبء هو بداية طرد الفرنج من بلاد المشرق العربي - الإسلامي .

بقيت قوات الفرنج الصليبيين في قلعة الشقيف زهاء قرن ونصف القرن من عمر الزمن وطردوا منها ثم عادوا إليها مرتين . وفي المرة الثالثة خرجوا منها مرة واحدة . ولم يعودوا إليها إلا بعد عودة الحملات الصليبية الجديدة في رداء الصهيونية .

ففي يوم ٨ حزيران - يونيو - ١٩٨٢ ، وبعد ثلاثة أيام من المعارك الضارية التي أظهرت فيها المقاومة الفلسطينية بطولة رائعة أذهلت العدو الصهيوني وأوقعت به الخسائر الفادحة ، استطاع جند جيش العدوان الصهيوني الاستيلاء على قلعة الشقيف (في إطار اجتياح لبنان بما أطلقته عليه إسرائيل اسم سلامة الجليل) وجاء رئيس وزراء الكيان الصهيوني - الارهافي مناحيم بيغن - وبرفقته وزير دفاعه - الارهافي اريئيل شارون - للاحتفال رسمياً باعادة قلعة الشقيف لحكم الصليبية ، وتسليمها للرائد اللبناني سعد حداد وهو يقول له : « ها نحن نعيد لك القلعة » .

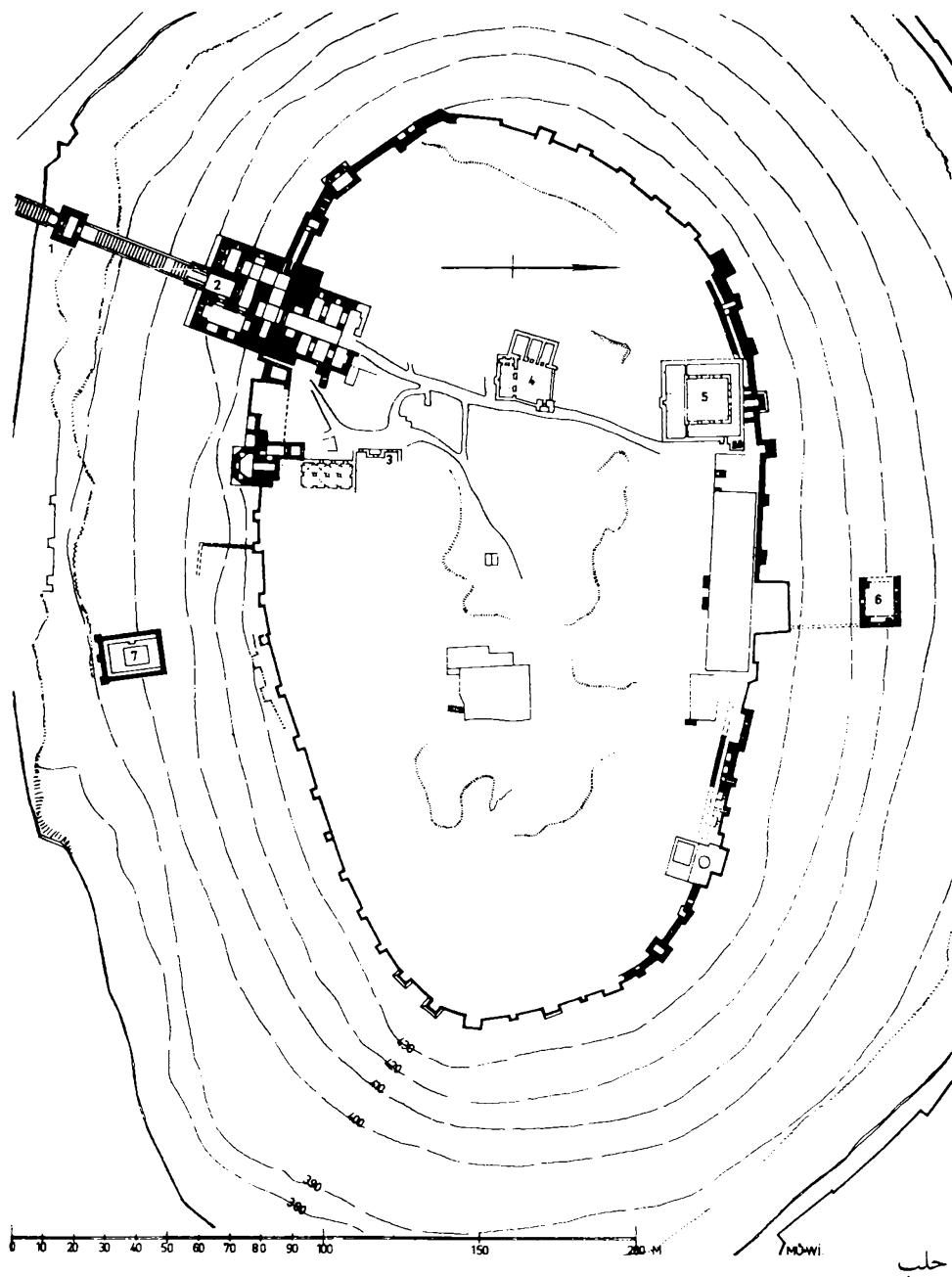
١٢ - قلعة حلب

حلب هي عاصمة الشمال في بلاد الشام ، ومدينة مأهولة منذآلاف السنين ، تكون الموقع الأساسي للمنطقة السكنية من التل الضخم في وسط المدينة الحديثة ، والذي تم تحويله إلى قلعة منذ العصور الوسطى . وقد شغلت الأحياء السكنية - منذ العصور الوسطى أيضاً مثلها كمثل المدينة القديمة - المساحة الكائنة ما بين القلعة ونهر قويق الصغير ، وهي رقة من الأرض تنحدر تدريجياً باتجاه الغرب . وقد أصبحت حلب في نهاية القرن العاشر الميلادي عاصمة للحمدانيين الذين كان من أشهرهم (سيف الدولة الحمداني)^(١) وقد تعرض المؤرخ أبو الفداء لمدينة حلب بقوله : « .. وحلب بلدة عظيمة قديمة مرتفعة حصينة ، وبها مقام ابراهيم الخليل صلوات الله عليه . ولها بساتين قلائل وير بها نهر قويق . وهي على مدرج طريق العراق إلى الشعور وسائر الشامات . وبين حلب وبين قنسرين أثنا عشر ميلاً . وقال في العزيزي : وهي مدينة جليلة عامرة حسنة المنازل ، عليها سور من حجر ، وفي وسطها قلعة على تل لاترام . وبينها وبين معمرة النعمان ستة وثلاثون ميلاً . وبينها وبين مدينة بالس ، خمسة عشر فرسخاً »^(٢) .

ما إن أسلمت حلب قيادها للعرب المسلمين سنة ١٦ هـ = ٦٣٧ م حتى أصبحت قاعدة لانطلاق المجاهدين في سبيل الله في غزوائهم لما وراء الدروب (الصوائف

(١) سيف الدولة الحمداني - هو أبو الحسن علي بن أبي الهيجاء عبدالله بن حدون التغلبي الربعي . ٣٠٣ - ٩١٥ هـ = ٩٦٦ م) مات بحلب ، وحل تابوتة إلى ميافارقين فدفن بها . اشتهر بالشجاعة وكثرة الجهاد ، وهو من الملوك الكثيري الإحسان على ما كان فيه من التشيع . واتفقت له أشياء غريبة منها أن خطيبه كان مصنف الخطب ، أحد الفصحاء البلغاء ، ومنها أن شاعره كان المتني . ومنها أن مطربه كان أبو النصر الفارابي . ولم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من الشعراء .

(٢) القلاع أيام الحروب الصليبية ص: ٨٥ - ٨٦ . وتقويم البلدان - أبو الفداء - ص: ٣٦٧ .



مخطط عام للقلعة، المقياس ١/٢٠٠٠ . حلب

١ - البوابة الخارجية ، ٢ - البوابة الرئيسية ، ٣ - حام متتصدع ، ٤ - مسجد صغير (يدعى مسجد إبراهيم، شيد عام ١١٦٢ على يد نور الدين)، ٥ - المسجد الكبير (شيد عام ١٢١٠ على يد الملك الظاهر) ، ٦ - البرج الخارجي الشمالي (فوق أطلال سور القلعة السابق)



قلعة حلب

والشواطي) لمغارعة الروم البيزنطيين والنكابية بهم واساغلهم بأنفسهم عن المسلمين. ولم يتمكن الروم من التعرض لحلب أو غزوها بسبب ما توافر لها من أسباب القوة والمنع، ولبعدها النسي عن التغور. حتى إذا ما كانت سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة (٩٦٢ م) توافت ملك الروم (نقفور فوقياس)^(١) معلومات عن انشغال المسلمين بأنفسهم - وبصراعاتهم الداخلية، فقرر مهاجمة بلاد المسلمين. وأوجزت المصادر العربية قصة هذا الهجوم بما يلي: «وصل - الدمستق - إلى حلب، وقد حشد مائتي ألف رجل من الجندي، منهم ثلاثون ألفاً بالجواشن، وثلاثون ألف للهدم وإصلاح الطرق من الثلوج وأربعة آلاف بغل يحمل الحس克 الحديد. غير أنه لم يتقدم بجيشه هذا، وإنما خلفه بقيسارية، وسار بقوه خفيفة من الفرسان - جريدة - فأغار على حلب قبل أن يشعر به أحد من المسلمين. ولم يعلم به سيف الدولة الحمداني ولا غيره. فلما بلغها ، وعلم سيف الدولة الخبر ، أوجله الأمر عن الجموع والاحتضاد ، فخرج إليه فيمن معه فقاتله ، فلم يكن له قوة الصبر لقلة من معه فقتل أكثرهم حتى لم يبق من أولاد داود بن حدان أحد ، بل قتلوا جميعهم ، وانهزم سيف الدولة . وظفر الدمستق بداره وكانت خارج مدينة حلب تسمى الدارين ، فوجد فيها لسيف الدولة ثلاثة بدرة من الدرام . وأخذ له ألفاً وأربعين بغل ، ومن خزائن السلاح ما لا يحصى ، فأخذ الجميع وخرب الدار ، وملك الحاضر وحصر المدينة وبذل لأهلها الأمان إن هم سلموا إليه ثلاثة آلاف صبي وصبية ، وما لا ذكره ، وينصرف عنهم . فلم يجيئه وقاتلوه . فعمل الروم على إحداث ثلمة في سور . فقاتلهم أهل حلب عليها . فقتل من الروم كثير ودفعوهم عنها . فلما جنهم الليل عمروها . فلما رأى الروم ذلك تأخروا إلى جبل جوشن . ثم إن رجال الشرطة بحلب قصدوا منازل الناس وخانات التجار لينهبوها ، فلحق الناس أموالهم

(١) نقفور فوقياس - أو فوكاس - : (NICEPHORE II PHOCAS) امبراطور الروم البيزنطيين ولد سنة ٣٠٠ هـ = ٩١٣ م. وأصبح امبراطوراً سنة ٣٥٦ هـ حتى سنة ٣٥٩ هـ (٩٦٣ - ٩٦٩ م) ذكره ابن الأثير (الكامل في التاريخ - أحداث سنة ٣٥٦ هـ) بما يلي: «اسم الدمستق . وكان هذا الملعون من أغعظ الملوك قليلاً وأشدتهم كفراً وأقواهم بأساً وأحدهم شوكة وأكثرهم قتلاً وقتلاؤ المسلمين في زمانه».

ليمعنوها ، فخلا السور منهم . فلما رأى الروم السور خالياً من الناس قصدواه ، وقربوا منه ، فلم ينفعهم أحد . فصعدوا إلى أعلىه ، فرأوا الفتنة قائمة في البلد بين أهله ، فنزلوا وفتحوا الأبواب ودخلوا البلد بالسيف يقتلون من وجدوا ، ولم يرفعوا السيف إلى أن تعبوا وضجروا . وكان في حلب ألف وأربعين إسir من الروم ، فتخلصوا وأخذوا السلاح وقتلو الناس ، وسي من البلد بضعة عشر ألف صبي وصبية وغنموا ما لا يوصف كثرة . فلما لم يبق مع الروم ما يحملون عليه الغنيمة ، أمر ملك الروم - الدمستق - باحرق الباقى وأحرق المساجد ، وقصد المسلمين القلعة ، فمن دخلها نجا ، وأقام الدمستق تسعة أيام ، فلما لم يتمكن من فتح القلعة انسرب عنها ، ورجع عائداً إلى بلاده .

لم تكن هذه الكارثة التي نزلت بعاصمة شمال بلاد الشام هي الكارثة الوحيدة ، ولو أنها كانت من أثقل الكوارث وأكثرها فداحة . وكانت حلب ومعها بلاد الشام مسرحاً للصراع بين الشيعة في مصر - الفاطميين - وبين السنة أهل الطاعة والجماعة وقادتهم مقر الخلافة في بغداد . وقد خضعت بلاد الشام للفاطميين أدعية الشيعة . حتى إذا ما كانت سنة ثلاثة وستين وأربعين (١٠٧٠ م) برزت للوجود القوة المتعاظمة للسلاجقة الذين جاؤوا من النصرة الخلافة ودعم أخوانهم السنّيين . فما كان من حاكم حلب (محمود بن صالح بن مرداش) إلا أن جمع كبار أهل حلب واستشارهم ، فتقرر العودة إلى السنة والطاعة والجماعة ، وإقامة الخطبة لل الخليفة العباسي . غير أن أهل حلب استمروا في رفع الأذان برمز أهل التشيع (حي على خير العمل) فسار السلطان ألب أرسلان - السلجوقي - إلى حلب ، وحصرها . فقيل له بأن حاكم حلب قد لبس قلعة الخليفة العباسى ، وخطب له . فأجابهم :

«أي شيء تساوي خطبتهن لهم يؤذنون : حي على خير العمل؟» .

فما كان من حاكم حلب - محمود بن صالح بن مرداش - إلا أن خرج إلى السلطان ألب أرسلان ، وأعلن خضوعه له ، فقبل منه السلطان ، وأعاده إلى بلده . وعادت حلب

قاعدة لل المسلمين من أهل السنة^(١). وتابعت حلب دورها في ركب الجهاد. فعمل حاكمها سنة ٤٦٨ هـ = ١٠٧٥ م على انتزاع منبج من قبضة الروم. ولما جاء الفرنج الصليبيون إلى بلاد الشام، واستولوا على انطاكية (سنة ٤٩١ هـ = ١٠٩٧ م) ثم استولوا على القدس في السنة التالية، أصبحت حلب على خط المواجهة - مثلها كمثل دمشق وبقية المدن الداخلية - ولم تكن حلب تمتلك القدرة على مجاهدة الفرنج، فقبل حاكمها مصانعة الفرنج على مال ومهادنتهم (سنة ٥١١ هـ = ١١١٧ م) وشعر الزنكيون أمراء الموصل بالخطر من امتلاك الفرنج لحلب، لاسيما بعد أن عاد الفرنج سنة ٥١٣ هـ = ١١١٩ م فهاجموا حلب ونازلوها. ولم يكن بحلب من الذخائر ما يكفيها شهراً واحداً. وخاف أهل حلب خوفاً شديداً. فصانعوا الفرنج على أن يقاسموهم أموالهم التي بباب حلب. ثم أرسل أهل حلب إلى بغداد يستغفion. فأقبل الأمير ايلغازي، وأصطدم بالفرنج عند الأثارب. ونصر الله المسلمين نصراً عزيزاً.

جاءت حلب موقعاً صعباً سنة ٥١٨ هـ = ١١٢٤ م. عندما توجه زعيم شيعي اسمه دبيس بن صدقة إلى الفرنج، وأطعمهم في الاستيلاء على حلب. وقال لم إن أهل حلب من الشيعة يملؤون إليه، وأنهم سوف يسلمونه البلد، فيحكمها نائباً عن الفرنج ويبقى مطيناً لهم. وبدل لهم على مساعدته بذلة كثيرة.

ووجد الفرنج في ذلك فرصة كانوا لا يحلمون بجدوتها مثلها. فاخذت قوات جيشي انطاكية والرهاه إلى قوات دبيس بن صدقة. ونزلوا على أسوار حلب وطوقوها، وقاتلوا أهلها قتالاً شديداً، ووطروا نفسيهم على المقام الطويل، وأظهروا أنهم لا يفارقونها حتى يملكونها، وبنوا البيوت لأجل الحر والبرد. وطال الحصار ثلاثة أشهر. فلما رأى أهل حلب ذلك ضعفت نفوسهم وخافوا الملوك. وظهر لهم من حاكمهم

(١) استول السلطان السلاجقى ألب أرسلان على حلب سنة ٤٦٣ هـ = ١٠٧٠ م وهي السنة التي وقعت فيها معركة ملازكى - مع الروم - وانتصر فيها المسلمين انتصاراً حاسماً بقيادة ألب أرسلان - وانظر تفاصيل هذه الأحداث في الكامل في التاريخ - أحداث سنوات ٣٥١ و ٤٦٨ و ٤٩١ و ٥١٣ و ٥١٨ .

(تمرشش بن ايلغازي - الارتقى) وهناً وعجزاً، وقلت الأقوات في حلب، فقرر زعماء المدينة الاستنجاد بصاحب الموصل (آقسنقر البرسي) الذي اشترط على أهل حلب تسليميه القلعة. ووافق أهل حلب. فسار آقسنقر البرسي بجيشه، وانضم اليه جيش حمص وجيش دمشق (بتقيادة طفتكن) فلما رأى الفرنج ذلك ، رفعوا الحصار عن حلب. وانسحبوا إلى أنطاكية؛ وأصبحت حلب تحت حكم آقسنقر البرسي، فاتصل حكم حلب بحكم الموصل وحمص ودمشق .

انتقم الفرنج لهزيمتهم بأن اتفقوا مع الباطنية - الإسماعيلية - على اغتيال آقسنقر ، فأرسل الباطنية من اغتاله وهو يصلٍ صلاة الجمعة في الموصل (سنة ٥٢٠ هـ) فخلفه ابنه عز الدين مسعود الذي توفي بدوره في السنة التالية (٥٢١ هـ) فخلفه ابنه عز الدين زنكي الذي كان أول عمل له هو دعم الدفاع عن حلب.

فقد أراد الفرنج الافادة من اضطراب الأوضاع للاستيلاء على حلب. فتقدم كونت الراها - جوسلين - فحاصر حلب. ولكن أهلها دفعوا له فدية، فانصرف عنهم. وجاء بعد ذلك حاكم أنطاكية في حشد من الفرنج (سنة ٥٢٢ هـ = ١١٢٨ م) فخندق المحليون حول القلعة، ومنعوا الداخل والخارج إليه من ظاهر البلد. وأشرف الناس على الخطر العظيم. ولما علم عmad الدين زنكي بذلك أرسل قواته لنجدته أهل حلب. ثم سار إليها في جيشه وعساكره، فلما اقترب منها خرج إليه أهلها لاستقباله، والتقوه واستبشروا بقدومه. ودخل حلب ورتب أمره، وأقطع أعماله الأجناد والأمراء ، فلما استقر له الأمر، سار سنة ٥٢٤ هـ = ١١٢٩ م. فقصد (حصن الأثارب) لفتحه ، بسبب شدة ضرره على المسلمين - وهذا الحصن بينه وبين حلب نحو ثلاثة فراسخ ، بينها وبين أنطاكية ، وكان من به من الفرنج يقادون حلب على جميع أعمالها الغربية ، حتى على رحاً (طاحون) لأهل حلب بظاهر باب الجنان ، بينها وبين البلد عرض الطريق. وكان أهل حلب معهم في ضر شديد وضيق. ولا يكاد يعي يوم حتى يغروا عليهم وينهباً أموالهم. فلما رأى عmad الدين ذلك صمم على فتحها. وأقبل الفرنج بجموعهم. ودارت معركة طاحنة ، وأنزل الله نصره على المسلمين ، وانهزم

الفرنج أقبح هزيمة . ووقع كثير من فرسانهم في الأسر ، وقتل منهم خلق كثير . وتقدم عmad الدين الى (حصن الأنبار ففتحه . وقتل مقاتلته . وأمر بهدمه وجعله دكماً . ولقد استشعر الفرنج الخطر من تعاظم قدرة المسلمين ، فاستنصروا بملك الروم البيزنطيين الذي خرج بجيشه الى اقليم حلب - وخاض مجموعة من المعارك في (بزاغة وقلعة الأنبار)^(١) وانسحب الروم بعدها .

لم تعد حلب وقلعتها عرضة للخطر أو للتهديد بجهات الفرنج ، بعد أن انتظمت جيوش مدن المسلمين تحت قيادة واحدة . وتحول الموقف فعاد جيش حلب للعمل بحرية كاملة ضد الفرنج . ولما كانت اماراة الرها - في الجزيرة - هي وانطاكيه تمثلان مصدر التهديد المباشر لمدينة حلب وما حولها . فقد تم فتح الرها (سنة ٥٤٠ هـ = ١١٤٥ م) . ولما توفي أتابك عmad الدين زنكي في السنة التالية ، اضطلع ابنه (نور الدين محمود زنكي) باعباء قيادة الجهاد ، وبدأ بفتح الحصون في الشمال مثل أرتاح والعزمية . حتى إذا ما جاءت سنة ٥٤٣ هـ = ١١٤٨ م . حشد الفرنج جيوشهم بهدف السير الى حلب والهجوم عليها . فعلم نور الدين زنكي فسار إليهم في عسكره ، فالتحقوا عند (يفري) واقتتلوا قتالاً شديداً حتى أنزل الله نصره على المسلمين . وقتل كثير من الفرنج ، وأسر جماعة من مقدميهم ، ولم ينج من ذلك الحشد إلا القليل ، وأرسل نور الدين من الغنيمة والأسرى إلى أخيه سيف الدين في الموصل وإلى الخليفة ببغداد . وجاءت السنة التالية (٥٤٤ هـ) وأمسك نور الدين بالمبادرة . فسار إلى بلاد الفرنج من ناحية أنطاكيه ، وقصد حصن حارم الذي كان تحت حكم الفرنج ، فحاصره وضرب ربه ونهب سواده ، ثم رحل إلى حصن أنب ، فحاصره أيضاً . فاجتمعت الفرنج مع أمير أنطاكيه وحارم وتلك الأعمال ، وساروا لقتال نور الدين ، فلقيهم واقتتلوا قتالاً عظيماً ثم انهزم الفرنج أقبح هزيمة ، وقتل منهم جمّ كثير ، وأسروا مثلهم . وكان من قتل البرنس

(١) يمكن الرجوع الى بحث (قلعة شيزر) لمطالعة تفاصيل ما قام به جيش الروم ورد فعل عmad الدين زنكي . وانظر تاريخ الحروب الصليبية : ٢٧٤ / ٢ - ٢٧٦ والكامل في التاريخ احداث سنة ٥٢٤ هـ . وسنة ٥٣٢ هـ .

صاحب انطاكية . وكان عاتياً من عتاة الفرنج وعضمياً من عظمائهم . وفي سنة ٥٤٦ هـ = ١١٥١ م . جمع نور الدين محمود جيشه وسار من حلب نحو الشمال بهدف حصر (تل باشر) و(عين تاب) و(إعزاز) وسواها . فلم علم أمير الفرنج - جوسلين - وكان فارس الفرنج غير مدافع ، قد جمع الشجاعة والرأي ، فسار نحو نور الدين . واقتتلوا ، فانهزم المسلمون ، وقتل منهم وأسر جمع كثير . وكان في جملة من أسر الأئمين على سلاح دار نور الدين - فأخذوه جوسلين ومعه سلاح نور الدين - وعظم الأمر على نور الدين ، وأعمل الحيلة على جوسلين ، وهجر الراحة ليأخذ بثاره ، وأحضر جماعة من أمراء التركمان ، وبذل لهم الرغائب إن هم ظفروا بجوسلين وسلموه إليه إما قتيلاً أو أسيراً ، لأنه علم أنه متى قصده بنفسه احتمى بجامعة وحصونه . فجعل التركمان عليه العيون - الجوايس - . حتى إذا ما خرج يوماً للصيد ، لحقت به طائفة منهم وظفروا به ، فصانعهم على مال يؤديه إليهم . فأجابوه إلى إطلاقه إذا أحضر المال . فأرسل في إحضاره . ومضى بعضهم إلى نائب نور الدين بحلب (بكر بن الداية) فأعلمه الحال ، فسير عسكراً معه . فكبسو أولئك التركمان وجوسلين معهم . فأخذوه أسيراً وأحضروه عنده ، وكان أسره من أعظم الفتوح ، لأنه كان شيطاناً عاتياً على المسلمين ، قاسي القلب ، وأصيّت النصرانية كافة بأسره . ولما أسر جوسلين ، سار نور الدين إلى قلاعه فملكتها ، وهي تل باشر وعين تاب وإعزاز وتل خالد وقورس والراوندان وبرج الرصاص وحصن الباره وكفرسود وكفرلاتا ودلوك ومرعش ونهر الجوز وغير ذلك من أعماله . وكان نور الدين كلما فتح حصنأ منها ، نقل إليه كل ما تحتاج إليه الحصون خوفاً من نكثة تلحق المسلمين من الفرنج . فتكون بلادهم غير محتاجة إلى ما يمنعها من العدو . وأصبحت هذه القلاع والمحصون هي الدرع لحماية حلب .

لقد كانت هذه النتيجة هي الشمرة اليائعة للتحول الحاسم الذي بدأ عاد الدين زنكي بقيادته وتوجيهه نحو مساراته الصحيحة ، ثم جاء نور الدين فسار على نهجه . وافتدى بسيرته ولقد ظهرت بوأكير هذا التحول واضحة قبل ذلك (في سنة ٥٢٧ هـ = ١١٣٢ م) وفي تلك السنة قاد ملك القدس جوعه وسار إلى حلب ، فخرج للقاءه جيش حلب بقيادة أميرها (أسوار) وانضم إليه جع كبير من التركمان ، ووقعت

معركة قرب قنسرин فقتل من الطائفتين جماعة كثيرة، وانهزم المسلمون إلى حلب. فأعاد أمير حلب تنظيم قواته، وخرج بها لتأديب الفرنج الذين تابعوا عيّنهم وفسادهم ونهبهم وقتلهم لل المسلمين في ريف حلب. واصطدم جيش حلب بطايفة منهم، فأُوقع بهم، وأكثر القتل فيهم والأسر. فعاد من سلم منهزاً إلى القدس. وانهزم ذلك المصايب بهذا النصر. وعاد جيش حلب ومعه الأسرى ورؤوس القتلى. وكان يوماً مشهوداً في حياة حلب. ثم إن طائفة من الفرنج - من إمارة الراها - قصدوا حلب للإغارة عليها. فخرج إليهم جيش حلب، فأوقعوا بهم وقتلوا عن آخرهم في بلد الشمال، وأسرموا من لم يقتل ورجعوا إلى حلب سالمين. وكان أتابك عماد الدين زنكي يتبع الموقف. فأراد ايقاف أعمال الفرنج العدوانية على حلب. فقد جيشه من الموصل (سنة ٥٣٠ هـ = ١١٣٥ م). وانضم إليه جيش حلب بقيادة الأمير أسوار، وجيشه حاه، وقصدوا بلاد الأفرنج على حين غفلة منهم، وساروا إلى ريف اللاذقية، ولم يتمكن أهلها الفرنج من الانتقال منها والاحتراء، فنهبوا منها ما يزيد على الوصف، وقتلوا وأسرموا، وفعلوا في بلاد الفرنج ما لم يفعله بهم غيرهم. وكان الأسرى سبعة آلاف أسير ما بين رجل وامرأة وصبي - ومائة ألف رأس من الدواب ما بين فرس وبغل وحمار وبقر وغنم. وأما ما سوى ذلك من الأقمشة والعين والخليل فيخرج عن الحد. وأخربوا بلد اللاذقية وما جاورها. ولم يسلم منها إلا القليل. وعاد المسلمون ظافرين.

تشاهدت الأيام بعد ذلك، وتتابعت الانتصارات، وأصبح جيش حلب يرتد أطراف البلاد التي احتلها الفرنج على امتداد الساحل بحثاً عن المعركة، أو رداً على العدوان، أو فتحاً لبلد أو معلق. وتوحدت بلاد مصر والشام تحت راية الجهاد في سبيل الله، بعد أن تم القضاء على عامل الفرقة الذي طالما أثارته مزاعم التشيع والذي مثلته الدولة الفاطمية. وتوفي نور الدين زنكي وقد حقق للأمة الإسلامية وحدتها. ونظم لها قوتها، ووضع لها نهجها. وجاء صلاح الدين الأيوبي، فقرر الاستيلاء على أرث الزنكيين، وخرج بجيشه من مصر، فأسلمت إليه بعض بلاد الشام قيادها طوعاً. وقاومته بلاد أخرى إلى حين. وبقيت حلب وفيها للزنكيين الذين ما عرفت فيهم إلا الصدق في الجهاد والكفاءة في القيادة ولكن حاكم حلب (عماد الدين زنكي بن مودود

زنكي) قرر التنازل لصلاح الدين عن حلب بعد حصار متطاول (سنة ٥٧٩ هـ = ١١٨٣ م)^(١) ودخل صلاح الدين بموكبه الظافر مدينة حلب. واستقبل فيها استقبالاً حافلاً.

يمكن بعده تجاوز الدور الذي قام به جيش حلب مع بقية جيوش مدن المسلمين في تحقيق الانتصارات المتتالية التي أحرزها المسلمون، للتوقف عند ما تعرضت له حلب على أيدي المغول التatars. فبعد أن اجتاح هؤلاء عاصمة المسلمين - بغداد - . قاد هولاكو جيشه للاستيلاء على شمال غرب بلاد الشام (سنة ٦٥٨ هـ = ١٢٥٩ م) فتولى القائد كتبغا قيادة المقدمة، فيما تولى القائد بيجو قيادة الميمنة. وتولى سنجق قيادة الميسرة. وانفرد هولاكو بقيادة الكتلة الرئيسية للجيش - القلب - . و Zhengf مجنزاً نصبيين وحران والرها حتى بلغ البيرية ، وعبر نهر الفرات. وقد حاولت سروج مجاهدة هجوم المغول فتعرضت للنهب والاستباحة. وأطبق الجيش المغولي على حلب من كل جهاتها في مطلع سنة ٦٥٩ هـ = ١٢٦٠ م. ورفضت الحامية المدافعة عن المدينة عرض الاستسلام ، فقرر المغول اجتياحها . ولما هبت العاصفة يوم ١٨ كانون الثاني - يناير - ١٢٦٠ ، كان السلطان الناصر حاكم دمشق لا زال يأمل في أن يكون وجود ابنه في معسكر هولاكو سبباً في درء الخطر عن بلاده ، ولما تبين له خطأ تقادره ، أسرع إلى مصر ، وأعلن خضوعه للملوك الذين وعدوه بالمساعدة. وعمل في الوقت ذاته على حشد جنده خارج دمشق ، ودعا ابني عميه أميري حاه والكرك لمساعدته من أجل دعم جيش حلب. غير أنه بينما كان ينتظر في دمشق ، شرع بعض قادته الترك في التآمر عليه ، واكتشف خططهم في الوقت المناسب ، ولكن المتآمرين أسرعوا إلى الهرب وحلوا معهم أحد إخوته إلى مصر. وأدى تسليهم وهرفهم إلى أن أصبح جيشه ضعيفاً إلى درجة حرمته من السير لنجدية حلب.

(١) امتدح قاضي دمشق - محي الدين بن الزكي - جهد صلاح الدين وفتح حلب في قصيدة منها :
وتحكم حلب بالسيف في صفر مبشر بفتح القدس في رجب .
ولقد تم فتح حلب في شهر صفر من سنة تسع وسبعين وخمسة وسبعين . وجاء فتح القدس في رجب من سنة ثلاثة وثمانين وخمسة . وكانت نبوة القاضي محي الدين بن الزكي فالخير على صلاح الدين وعلى المسلمين . (الكامل في التاريخ - أحداث سنة ٥٧٩ هـ).

كان توران شاه - عم الناصر يوسف - يدافع عن حلب ، وأظهر شجاعة مذهلة وتصميماً رائعاً في الدفاع عن المدينة ، غير أن الأسور انهارت بعد أن تعرضت للقصف المستمر طوال ستة أيام . وتتدفق المغول إلى داخل المدينة ، وحدث بحلب ما سبق أن وقع في كل مكان اجتاحته المغول ، حيث دارت المذابح في المسلمين . بينما لم يتعرض المسيحيون لسوء باستثناء عدد قليل من الارثوذكس الذين لم يجر الاعتراف بكنيستهم ، وظلت القلعة على مقاومتها بقيادة توران شاه طوال أربعة أسابيع أخرى فيما بقي القتل في سكان حلب مستمراً . ولما سقطت القلعة في آخر الأمر ، أظهر هولاكو من الرحمة ما لم يكن متوقعاً منه ، إذ أبقى على حياة توران شاه لكر سنه وشجاعته . ولم تتعرض حاشيته للأذى والضرر . ووقع في يدي هولاكو مقادير كبيرة من الثروة . ثم عهد هولاكو بحكومة حلب إلى أمير حصن السابق - الأشرف - والذي كان قد التحق بمعسكر المغول قبل ذلك بأشهر ، عديدة ، وأمده هولاكو بمستشارين من المغول ، وبخامية مغولية لفرض سيطرته على حلب . ولكن ما إن انتصر المسلمون في عين جالوت (يوم ٣ - ايلول - سبتمبر - سنة ١٢٦٠) حتى عاد الأشرف الأيوبى إلى إمارة حصن بعد أن أدار ظهره للمغول وتنكر لهم . وأمكن استرداد حلب بعد شهر . مما أغضب هولاكو . فأرسل جيشاً لاسترداد حلب في شهر كانون الأول - ديسمبر - سنة ١٢٦٠ م . غير أن جيش هولاكو اضطر للانسحاب بعد أربعين يوماً عمل خلالها على اجراء مذبحة استشهد فيها عدد كبير من المسلمين . وهذا كل ما استطاع المغول عمله انتقاماً لهزيمتهم .

لم تكن هذه هي آخر كارثة تعرضت لها حلب على أيدي المغول - التار - فالمعروف أن تيمور الأعرج (تيمورلنك) قد اجتاح بلاد الشام سنة ٨٠٣ هـ = ١٤٠٠ م . وأنزل الهزيمة بجيش الملك في حلب أولاً ، ثم في دمشق ، ودمر واستباح كل المدن الكبيرة ببلاد الشام . ثم انسحب وقد خلف وراءه الدمار في كل مكان سار فيه . يظهر العرض السابق ما تعرضت له حلب وقلعتها من هجمات ، وما جابهته من أحداث ، علاوة على تلك الكوارث الطبيعية - الزلازل - والتي ضربت حلب ، فأنزلت بها أضراراً كبيرة في مرات عديدة ، كان من أخطرها ما حدث سنة ٥٥٢ هـ

= ١١٥٧ م ، الأمر الذي دفع نور الدين زنكي يومها للعمل على ترميمها ودعمها تحت اشرافه مباشرة . واستمر العمل بعد ذلك ، ففي عهد السلطان الظاهر غازي - ابن صلاح الدين الأيوبي - اكتملت إعادة بناء قطاعات كبيرة من دفاعات المدينة ، وكيفت مع التبدلات التي فرضتها متطلبات حرب الحصار ، ومنها تحصينات القلعة ، وبخاصة البوابة الرئيسية التي كانت في الأصل مؤلفة من برجين مع مدخل وبашورة بينهما . ثم رمت وعدلت بشكل أساسي في الفترة بين العامين ٨٠٧ و ٨٠٩ هـ (١٤٠٤ - ١٤٠٦) لاصلاح الأضرار التي ألحقها المغول التتار في هجاتهم المتالية ، فتم وصل البرجين بقاعة فسيحة . وقام آخر الملوك السلاجقة بترميم القلعة أثناء الصراع ضد الأتراك العثمانيين . وشرع السلطان قانصوه الغوري ببناء البوابة الخارجية سنة ٩١٠ هـ = ١٥٠٤ .

ومضى الزمن وخلف قلعة حلب وراءه لتذكر بصمود هذا الحصن ومقاومته لجحافل الغزاة من روم وفرنج ومغول . ولقد كان الإسلام هو أساس ذلك الصمود الرائع . فقد استطاع أهل حلب بفضل جهدهم وجهادهم اجراء التحولات في مسيرة الصراع . وكان تلاميذ مسلمي حلب مع اخوانهم في الموصل وحاه وحصن دمشق هو الذي ضمن الدفاع عن حلب بأكثر ما ضمنته حجارة القلعة وتحصيناتها .



قلعة حارم

٤٦ - قلعة حارم.

تقع (قلعة حارم)^(١) ومدينتها في شمال بلاد الشام، حيث الشعاب الغربية من جبل باريشا. وتشرف على السهل المحيط ببحيرة العمق، وتسيطر على الطريق الرئيسي بين أنطاكية وحلب. وقد احتلت القلعة موقعها فوق مرتفع صخري ازداد ارتفاعه على مر العصور بسبب أعمال البناء التي قام بها السكان. وكانت القلعة محية بقناة مائية تحيط بها من جميع جهاتها، وهي قناة أمكن شقها عميقاً في الصخر من الجهة الشمالية الشرقية. وتمت مناطق واسعة من السفح المتجلانس المحيط بها، وتكونت من سور حاجز، دعم بأبراج متينة. وشيدت قلعة مستطيلة كبيرة الحجم إلى الشرق من موقع القلعة البيضاوي الشكل. ولقد تداعى السور بفعل الأيام والأحداث، وزال بناء القلعة ولم يبق منه سوى أثر ضئيل. غير أن هذا الأثر بقي كافياً للتذكير ب أيام حارم خلال صراع المسلمين مع الروم والفرنج. وقد وصف أبو الفداء - في تقويم البلدان. حارم بقوله: « هي بلدة صغيرة ذات قلعة وأشجار وأعين ونهر صغير. قال ابن سعيد: وحارم حصن كثير الأرزاق. وقد خص بالرمان الذي يظهر باطنها من ظاهره، مع عدم العجم وكثرة المياه. وتقع حارم وقلعتها على بعد مرحلتين من حلب في جهة الغرب، وبين حارم وأنطاكية مرحلة »^(٢) ولهذا فقد بقية حارم تعيش الأحداث التي تعرضت لها حلب من جهة وانطاكية من جهة أخرى .

ليس هناك ما يشير إلى أن حارم وقلعتها قد مارست دوراً كبيراً في الحروب الفارسية - البيزنطية التي سبقت الفتح العربي - الإسلامي. ولعلها لم تكن أكثر من

(١) حارم: (HARIM) أو: (HARREM) أو هارنيش: (HARRENCH) وبالفرنجية كاستروم هارنك: (CASTRUM-HARENC).

(٢) القلاع أيام الحروب الصليبية ص: ٨٤.

قلعة (ليم) لحراسة الحدود ومراقبتها. فلما جحافل العرب المسلمين الظافرة، اجتاحت شمال بلاد الشام. وأصبحت حارم في جملة القواعد الشمالية لشد المجاهدين في سبيل الله من أجل غزو بلاد الروم البيزنطيين. ولقد استمر الصراع بين المسلمين والروم عبر حرب الشغور، ومن خلال غزوات الصوائف والشواطئ. ولقد تمكن الروم من غزو بلاد الشام مرات عديدة، كان من أهمها وأخطرها تلك الغزوات التي قادها (نقوص) فوقياً ما بين سنة ٣٥٢ و ٣٥٩ هـ. والتي وصل بها إلى جوف بلاد الشام، ثم انسحب بعد أن نهب ودمر وسبى. وكانت حارم في جملة ضحايا الروم. ولقد استنزفت هذه الحروب قوة الحمدانيين وسواهم من الأقوام. حتى جاء الأتراك السلاجقة فأضططعوا بحمل راية الجهاد في سبيل الله، وبسطوا سيطرتهم على حلب وأنطاكية وسواهما من العواصم وما بينهما من القلاع. وكان هذا هو الموقف يوم وصلت جيوش الفرنج الصليبيين، فاجتاحت بلاد الروم وتوقفت أمام أنطاكية حيث أسرع حاكمها السلجوقي - ياغي سيان - لمواجهة جيوش الفرنج. وأرسل إلى حاميته المراقبة أمام حارم، عبر الجسر الحديدى على الطريق المؤدى إلى حلب، وطلب إليها أن تنزل الأضطراب والارتباك في صفوف الفرنج، وضرب مؤخرات جيوشهم. وقامت حامية حارم بواجهها، وأنزلت بجيوش الفرنج ضربات موجعة. ولم تلبث أن تجمعت في حارم جيوش حلب وحاته وديار بكر لنجدته أنطاكية (في أوائل شهر شباط - فبراير - سنة ١٠٩٨ م = ٤٩٢ هـ) غير أن الفرنج نجحوا في الاستيلاء على أنطاكية. ولم يبق أمام حامية حارم إلا الانسحاب إلى حلب، فاستلم النصارى حارم، وقاموا بتسليمها للفرنج الصليبيين^(١). وتولى قيادة حامية الفرنج في حارم أمير من الفرنج اسمه (جاي - ولقبه الزانة) وكان تابعاً في حكمه لأمير أنطاكية. ولعل أبرز دور قامت به حامية حارم في تلك الفترة هو خوضها معركة (تل داتث) سنة ٥٠٩ هـ = ١١١٥ م. حيث كانت جيوش المسلمين من الموصل وسنجار وحلب ودمشق قد تجمعت، فتصدى لها جيش حارم بقيادة (جاي فريسل) وصمد جيش سنجار صموداً رائعاً

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ٣١٠ / ١ و ٣٢١ - ٣٢٢.

بقيادة (تير أو تيراك) إلا أن جيش حارم جلب امدادات جديدة، ساعدته على تطويق جيش سنجار ، وحسم الصراع لمصلحة الفرنج^(١)

جاء التحول الحاسم في قتال المسلمين ضد الفرنج على أيدي الزنكيين . وقد عرفت حارم فصلاً من فصول هذا التحول سنة ٥٤٤ هـ = ١١٤٩ م عندما قاد نور الدين زنكي جيشه وقصد حارم ، فحضر قلعتها وخراب ربضها ونهب سوارها ، ثم تابع تقدمه فهزم الفرنج عند (حصن أنب) وقتل صاحب أنطاكية الذي كان عاتياً من عتاة الفرنج . وقد أثارت انتصارات نور الدين حماسة المسلمين بقدر ما أحبطت من عزيمة الفرنج^(٢) . وعاد نور الدين لمهاجمة قلعة حارم المنيعة والقائمة في خور المسلمين . فحضرها وضيق على أهلها . فاجتمعت الفرنج من قرب ومن بعد وساروا نحوه ليرحلوه عنها . وكان بالحصن شيطان من شياطينهم يعرفون عقله ، ويرجعون إلى رأيه (واسمه رينالد سانت فاليري)^(٣) فأرسل إلى الفرنج وقال لهم : « إننا نقدر على حفظ القلعة . وليس بنا ضعف ، فلا تخاطروا أنتم بلقاء نور الدين . لأنه إذا هزمكم أخذها وغيرها . والرأي مطاولته - مماطلته - ». فأرسل الفرنج إلى نور الدين ، وصالحوه على أن يعطوه نصف أعمال حارم . فاصطلحوا على ذلك^(٤) .

(١) الكامل في التاريخ - أحداث سنة ٥٠٧ - ٥٠٩ هـ وتاريخ المروء الصليبية : ٢١٥/٢ .

(٢) الكامل في التاريخ - أحداث سنة ٥٤٤ ، وفيها قصيدة مشهورة نظمها الكاتب القيسرياني ، وامتدح فيها جهد نور الدين وجهاده - ومنها :

هذا العزائم لا ما تدعى القصب
وهذه المهمم الباقي متى خطبت
أغرت سيفوك بالإفرنج راجفة
طهرت أرض الأعداء من دمائهم

(٣) كان الفرنج قد اختلفوا فيما بينهم على حكم حارم . وجاء جيش من الفرنج سنة ٥٥٢ هـ = ١١٥٧ م فحاصر حارم . وقدفها بالمنجنيق قصراً شديداً ، فأذعنـت الحامية . وتقرر تعين رينالد سانت فاليري حاكماً لها . وطرد حاكمها السابق - جاي فريستـل - غير أن حارم بقيت تابعة لحاكم أنطاكية (تاريخ المروء الصليبية : ٥٦٤/٢) .

(٤) الكامل في التاريخ ، أحداث سنة إحدى وخمسين وخمسمائة ، وفيها قصيدة قالها أحد الشعراء في مدح نور =

لم يكن الصلح بين المسلمين والفرنج أكثر من هدنة مؤقتة حتى يكمل كل طرف من الطرفين استعداداته لصراع لا بد من تجده، إذ لم يكن باستطاعة الفرنج ايقاف أعمالهم العدوانية، ولم يكن باستطاعة المسلمين تجاهل التحديات المصرية التي فرضها غزو الفرنج لبلادهم. وهكذا عاد نور الدين محمود بن زنكي وقاد جيشه وسار إلى قلعة حارم (سنة ٥٥٧ هـ = ١١٦١ م) فحصرها وجد في قتالها، فامتنعت عليه بمحصانتها وكثرة من بها من فرسان الفرنج ورجالهم وشجاعتهم. فلما علم الفرنج ذلك جمعوا فارسهم وراجلهم من سائر البلاد وحشدوا واستعدوا وساروا نحوه ليحلوه عنها. فلما قاربوا طلب منهم المصالف، فلم يجيبوه إليه، وراسلوه وتلطقوه الحال معه. فلما رأى نور الدين أنه لا يستطيع أخذ الحصن، ولا يستطيع دفع الفرنج للاشتباك معه في معركة حاسمة، رفع الحصار عن حارم ورجع إلى حلب^(١).

بقي الوضع في شمال بلاد الشام في مرحلة يمكن وصفها بحسب المصطلحات الحديثة (بالتوازن الاستراتيجي) غير أنه ظهر واضحاً لل المسلمين بأن حارم هي المقل القوي للدفاع عن إمارة أنطاكية التي كانت أقوى إمارات الفرنج في الشمال. ولهذا فإن كل جهد لاضعاف أنطاكية وتجريدها من قوتها لا بد وأن يبدأ بإعادة فتح حارم. وطرد الفرنج الصليبيين منها.

تعرض نور الدين لأكبر هزيمة وأخطرها سنة ٥٥٨ هـ = ١١٦٢ م. وفي الوقت ذاته، تدهور الموقف في مصر مما أطمع الفرنج فيها. فكان لزاماً على نور الدين القيام بثلاث أعمال كبرى في وقت واحد: الأول هو إعادة تنظيم

= الدين - ومنها :

عزاً له فوق السها آساد حتى تتفق عزوده المياد عدد يراع به ولا استعداد حاصوا فرائس كيدهم أو كادوا حزماً (حارم) والمصاد مصاد وأبووه ذاك العمارض المداد	ألبست دين محمد يا نوره مازلت تشمله بعياد القنا لم يبق مذ أرهفت عزمك دونه حاصوا فلما عاينوا خوض الردى ورأى البرنس وقد تبرنس ذلة من منكر أن ينسف السيل الربا
--	---

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ٥٩٦/٢ والكامن في التاريخ - أحداث سنة ٥٥٧ هـ.

جيشه وحشد كل القوى المتوافرة . والثاني هو توجيه حلة إلى مصر لاحباط نوايا الفرنج الصليبيين . والثالث هو توجيه تهديد لامارات الفرنج بالشام لحملهم على سحب قواتهم من مصر ودعم قوات المسلمين فيها .

وقد استطاع نور الدين أن يعيد تنظيم قواته بسرعة - فعاد العسكر كأن لم تصبه هزيمة - . ووجه حلة إلى مصر (بقيادة أسد الدين شيركوه) حتى إذا ما جاء شهر رمضان من السنة التالية (٥٥٩ هـ = ١١٦٣ م) قرر نور الدين زنكي التحرك لاعادة فتح حارم . وكتب إلى أخيه صاحب الموصل وديار الجزيرة - قطب الدين مودود - والى صاحب حصن كيما - فخر الدين قرا أرسلان - وإلى صاحب ماردین - نجم الدين أبي - وغيرهم من أصحاب الأطراف ، يستنجدهم ويستمدّهم . فأما قطب الدين ، فإنه جمع عساكره وسار مجدًا وعلى مقدمته أمير جيوشه - زين الدين علي - . وأما صاحب حصن كيما - خير الدين - فإنه تلّكاً في الإجابة ، ولما سأله ندماًه وخواصه عن قراره ، أجاهم بأنه قرر القعود . وقال لهم :

«إن نور الدين قد تكشف من كثرة الصوم والصلة: وهو يلقي بنفسه في المهالك» .

فكلهم وافقه على هذا الرأي . فلما كان الغد ، أمر بالتجهز للغزوة ، فقال له خواصه : «ما عدا مما بدا - فارقناك أمس على حالة ، فنراك اليوم على ضدها . فقال لهم :

«إن نور الدين قد سلك معي طريقة إن لم أخده خرج أهل بلادي عن طاعتي ، وأخرجوا البلاد من يدي . فإنه قد كاتب زهادها وعبادها ، والمنقطعين عن الدنيا ، يذكر لهم ما لقي المسلمين من الفرنج ، وما نالهم من القتل والأسر . ويستمدّ منهم الدعاء . ويطلب أن يخنوا المسلمين على الغزوة . فقد كل واحد من أولئك ومعه أصحابه وأتباعه ، وهم يقرؤون كتب نور الدين ، ويلعنوني ويدعونه علي ، فلا بد من المسير إليه» .

ثم تجهز وسار بنفسه . فلما اجتمعت العساكر ، سار نور الدين نحو حارم ، فحصرها

ونصب عليهما المجانق. وتابع الزحف إليها. فاجتمع من بقي بالساحل من الفرنج، فجاؤوا في حدهم وحددهم، وملوکهم وفرسانهم وقوسهم ورهايهم، وأقبلوا إليه من كل حدب ينسلون. وكان المقدم عليهم صاحب انطاكيه البرنس بيمند - بوهمند - وقمص - كونت - صاحب طرابلس وأعمالها، وابن جوسلين وهو من مشاهير الفرنج. والدوك - الدوق - وهو مقدم كبير من الروم. وجعوا الفارس والراجل، فلما قاربوه رحل عن حارم إلى أرتاح طمعاً أن يتبعوه، فيتمكن منهم ببعدهم عن بلادهم إذا لقوه، فسار الفرنج ونزلوا على غمر، ثم علموا عجزهم عن لقائه، فعادوا إلى حارم. فلما عادوا تبعهم نور الدين في أبطال المسلمين على تعبيه الحرب. فلما تقاربوا اصطفوا للقتال، فبدأ الفرنج بالحملة على ميمنة المسلمين، وفيها عسكر حلب وعسكر حصن كيما، فانهزم المسلمون فيها وتبعهم الفرنج. وكانت تلك الهزيمة من الميمنة على اتفاق ورأي دبروه، وهو أن يتبعهم الفرنج فيبعدوا عن راجلهم - مشاتهم - فيميل عليهم من بقي من المسلمين بالسيوف، فإذا عاد فرسانهم، لم يلقوا راجلاً يلحوون إليه، ولا وزيراً يعتمدون عليه. ويعود المنهزمون - جيش حلب وكيفا - في آثارهم، فيأخذهم المسلمون من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيائهم وعن شمائتهم. فكان الأمر على ما دبروه.

فإن الفرنج لما تبعوا المنهزمين، عطف عليهم - زين الدين علي - في عسكر الموصل. وهاجم مشاة الفرنج، فأفناهم قتلاً وأسراً، وعاد خيالتهم ولم يعنوا في الطلب خوفاً على مشاتهم. فعاد المنهزمون في آثارهم، فلما وصل الفرنج رأوا مشاتهم قتلى وأسرى، فسقط في أيديهم، وأدركوا أنهم قد هلكوا، وبقوا في الوسط وقد أحدق بهم المسلمون من كل جانب. واشتدت الحرب وكثير القتلى في الفرنج، وتمت عليهم الهزيمة. فعدل حينئذ المسلمين عن القتل إلى الأسر، وأسرموا ما لا يجد. وكان في جملة الأسرى صاحب انطاكيه، والقمص صاحب طرابلس والدوك مقدم الروم وابن جوسلين. وكان عدة القتلى تزيد على عشرة آلاف قتيل. وأشار المسلمين على نور الدين بالمسير إلى أنطاكيه وتملكها خلوها من حام يحميها ومقاتل يدافع عنها. فلم يفعل وقال: «أما المدينة فأمرها سهل، وأما القلعة فمنيعة وربما سلموها إلى ملك الروم، ومجاورة الفرنج

أفضل من مجاورة الروم». وبث السرايا في تلك الأعمال فنهبوا وأسروا أهلها وقتلوهم. ثم إنه فادى برنس بيمند صاحب أنطاكية واشترى من المسلمين - الأسرى - خلقاً كثيراً فأطلقهم.

عادت قلعة حارم إلى أهلها المسلمين، وخرج الفرنج مدحورين بعد ٦٨ سنة هجرية من احتلالهم لهذه القاعدة الإسلامية (٦٦ سنة ميلادية). وأسرع نور الدين فشحن قلعة حارم بالرجال والسلاح، وأقام فيها حامية قوية، ورمم أسوارها ودعم تحصيناتها. وباتت حارم وهي مصدر تهديد دائم للفرنج بعد أن كانت مرتكزاً من مرتكزات قوتهم. ولم يكن باستطاعتهم احتلال هذا التحول، غير أنهم كانوا عاجزين عن القيام بعمل ضدّها. فأخذوا في انتظار الفرصة المناسبة. وقد واتتهم هذه الفرصة. فقد توفي أكبر عدو للفرنج - نور الدين زنكي - سنة ٥٦٩ هـ = ١١٧٣ م. وكان صلاح الدين الأيوبي في مصر، ولم يتمكن بعد من بسط نفوذه على بلاد الشام جميعها. وتصادف ذلك مع قدوم (فيليب كونت فلاندر) إلى القدس. (سنة ٥٧٣ هـ = ١١٧٧ م) فعمل ملك القدس على تجهيز جيش لقتال المسلمين في شمال بلاد الشام. وقد فليبي هذا جيشه حتى وصل إلى (حارم) وانضم إليه كونت انطاكية - بيمند - فنصب الفرنج المنجنيقات، وأخذوا بضرب قلعة حارم، وشددوا الحصار عليها طوال أربعة أشهر، غير أن عمليات نقب الأسوار لم تلق شيئاً من النجاح، وصمد المسلمين صموداً رائعاً، ولما علم الفرنج بوصول صلاح الدين إلى دمشق، وأنه في سبيله لقتالهم، عملوا على رفع الحصار والانسحاب. ورجع جيش أنطاكية إلى مدينته، أما فيليب كونت فلاندر، فقد رجع بدوره إلى القدس، ليقضي فيها عيد القيمة. ثم استقل سفينته من اللاذقية إلى القسطنطينية^(١).

بقيت حارم تحت حكم أحد ماليك نور الدين زنكي (واسم هذا المملوك هو سرخ) فلما كانت سنة ٥٧٩ هـ = ١١٨٣ م، ونجح صلاح الدين في السيطرة على بلاد الشام ووصل إلى حلب وضمها لحكمه، أرسل إلى سرخ وطلب منه تسلّم

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ٦٧٠/٢ - ٦٧١ ، والكامل في التاريخ - احداث سنة ٥٧٣ هـ.

حaram ، وقال له : « أطلب من الاقطاع ما أردت ». فخاف سرحد وأرسل رسالة الى أمير أنطاكية يطلب حمايته ، فعلم من معه من الأجناد أنه يراسل أعداء الدين - الفرنج - فخافوا أن يسلم حارم إليهم ، فوثبوا عليه وأوثقوه وحبسوه . وراسلوا صلاح الدين يطلبون منه الأمان والانعام . فأجابهم إلى ما طلبوا ، وسلموا اليه القلعة . فوضع فيها حامية قوية أسدت قيادتها إلى أقدر رجاله (واسمه دز دارا) على أن يبقى تابعاً لحلب .

أخذ صلاح الدين الأيوبي بعد ذلك بمحشد قواته من كل البلاد استعداداً لمعركة حطين (في سنة ٥٨٣ هـ = ١١٨٧ م) . فخاف حاكم حلب شقيق صلاح الدين - الملك المظفر تقي الدين عمر - أن يطمع الفرنج في حارم . فقداد جيش حلب وسار إلى حارم في تظاهرة لعرض القوة ، فأسقط في يد الفرنج ، وامتنعوا عن القيام بأي عمل . وبقيت حارم آمنة وبعيدة عن أي تهديد ، لاسيما وقد انتقل المسلمين بعد حطين من الدفاع إلى الهجوم . ولكن الضربة المدمرة جاءت إلى حارم على أيدي المغول التatars . ففي سنة ٦٥٩ هـ = ١٢٦٠ م . استولى المغول على حلب ، وساروا منها نحو حارم . ورفضت الحامية المدافعة عن قلعة حارم الانصياع لحكم هولاكو ، ما لم يضمن أحد المسلمين الوعد الذي بذله هولاكو بالمحافظة على حياة سكانها المسلمين . واعتبر هولاكو أن طلب حامية حارم هو إهانة له ، فقرر إنزال العقوبة بحارم وأهلها . فلما اجتاحتها جحافل المغول التatars دارت مذبحة في المسلمين على نحو ما جرت عليه عادة المغول في كل مكان سارت فيه قواتهم . ولم ينج من أهل حارم أحد ، باستثناء من واتهم الحظ فخرجوا من حارم قبل اجتياح المغول لها .

ولكن ما إن انسحب المغول من بلاد الشام بعد هزيمتهم في عين جالوت ، حتى أسرع المسلمين لبناء حارم ، اصلاح قلعتها ، ودعم تحصيناتها وأسوارها . ويظهر أن عملية البناء لم تكن قد اكتملت بعد عندما رجع المغول بعد ذلك بعشرين سنة (سنة ١٧٠ هـ = ١٢٧١ م) في محاولة للانتقام لهزيمتهم . فأعادوا تدمير حلب وحارم وسواهما من المدن والقلاع في شمال بلاد الشام . وكان ذلك كل ما استطاع المغول عمله . فقد اضطروا للانسحاب سرعاً عندما علموا بتحرك جيش دمشق وجيش حمص نحوهم .

وانتهى بذلك دور قلعة حارم . فقد زال خطر الفرنج بعد ذلك وتم طردتهم من كل بلاد الشام . وزال خطر المغول وذابوا في المجتمع الإسلامي . ولم يبق من قلعة حارم أكثر من بقايا تشهد بما قدمه العرب المسلمين من تضحيات ، وما بذلوه من الجهد ، حتى تبقى راية الله عالية على كل بلد وعلى قلعة من بلاد الإسلام حارم .

١٠ - قلعة صور

(صور)^(١) هي مدينة ومرفأ على ساحل بلاد الشام. وهي من المدن القدية والتي كانت تشكل إحدى قواعد العرب الفينيقيين. ولقد ارتبط اسم صور في القدم بالتوجه البحري للقرطاجيين، وبالصياغ الأرجواني الذي اشتهرت به^(٢). غير أن شهرة صور في الحرب لم تكن أقل من شهرتها في الصناعة والتجارة، إذ أنها المدينة الأولى التي تصدت لمقاومة غزو الاسكندر المقدوني سنة ٣٣٢ م. خلال زحفه للاستيلاء على مصر. ولم تستسلم إلا بعد حصار طويل ومقاومة ضارية، مما أدى إلى دمارها، فتناقصت أهميتها. ولكن صور عادت وازدهرت بعد أن فتحها المسلمون سنة ١٥ هـ = ٦٣٦ م إذ أصبحت ثغراً من ثغورهم البحرية، وقاعدة لانطلاق أسطولهم.

ولقد عانت مدينة صور بخاصة من فترة الاضطراب التي هيمنت على أقطار العالم العربي - الإسلامي خلال المرحلة التي سبقت الحروب الصليبية بسبب الانقسام بين الحكم الفاطمي المتظاهر بالتشيع في مصر، وبين أهل السنة من المسلمين. ولعل من أبرز ما وقع خلال تلك المرحلة تقدم أمير الجيوش الفاطمي من مصر، وقيادته لاسطوله وجيشه لالقاء الحصار على صور. فلما تم له فتحها (سنة ٤٨٢ هـ = ١٠٨٩ م) سار عنها إلى مدينة جبيل. ولم يلبث أمير صور (منير الدولة الجيوشي) أن أعلن تمرده على الحكم الفاطمي (سنة ٤٨٤ هـ = ١٠٩١ م) فسير المستنصر العلوى جيشاً من مصر فحضر مدينة صور وقاتل أهلها، وفتحها ونهب البلد وفرض عليها ستون ألف دينار،

(١) صور TYR أو SOUR.

(٢) كانت صور مع مدن صيدا وعكا وجبيل - بيلوس - وبيروت وطرابلس وأرورد تشكل مدن المملكة الفينيقية : (PHENICIE).

فتم إفقار البلد ، وتم تعيين حاكم جديد تابع للحاكم الفاطمي ، واسمه - كتيلة - الذي لم يلبث أن أعلن بدوره التمرد . فسار جيش مصر واسطولاً من مصر إلى صور ، فحصروها وضيقوا عليها وفتحوها بالسيف ، وقتل بها خلق كثير ، ونهب منها المال الجزيء^(١) وكان استيلاء الفاطميين على المدن الساحلية لبلاد الشام ، فصلاً من فصول الصراع المريء بين الحكم الفاطمي أو العلوى في مصر وبين أهل السنة الخاضعين للطاعة والجماعة في مقر الخلافة ببغداد . وخلال هذه المرحلة . والصراع في ذروته وصلت جحافل الغزاة من الفرنج الصليبيين واحتلت أنطاكية .

ولما كان الفاطميون من أشد الناس خصومة للترك - السنة - ولا يقبلون مطلقاً مصالحهم . مع ما اشتهروا به من التسامح مع رعاياهم من المسيحيين . فقد كانوا دائماً مستعدين للتتفاهم مع الدول المسيحية ، فقد أرسلوا سفاراً إلى أنطاكية مقابلة ملوك الفرنج للاتفاق معهم على اقتسام مناطق النفوذ ، بحيث يجوز الفرنج شمال الشام . بينما تأخذ مصر فلسطين . واستخلص الفرنج من المفاوضات ما يعود من المزايا عليهم نتيجة تدبير المؤامرات مع الدول الإسلامية . ولقد ظن الفاطميون أنهم يستطيعون بمؤامراتهم مع أعداء الدين تحقيق مكاسب إقليمية . لكن الغزاة الفرنج كانوا يحملون معهم من الأطعاء قدرأً يزيد كثيراً على ما كان يتصوره الفاطميون^(٢) إذ لم يلبثوا أن وصلوا إلى طرطوس (٤٩٣ هـ = ١٠٩٩ م) وتوقفوا في أرباضها ، قبل أن يستأنفوا سيرهم نحو القدس ، فلما احتلوها ، عمل ملك القدس بعدوين على قيادة جيشه ، وقصد مدينة صور وحصراًها ، وأمر ببناء حصن عندها ، وأقام شهراً محاصرأً لها ، فصانعه واليها على سبعة آلاف دينار ، فأخذها ورحل عن المدينة^(٣) .

عاد الفرنج بعد أربعة أعوام . فحشدوا قواتهم بقيادة ملك القدس (بعدوين) وحاصروا مدينة صور ، وضيقوا عليها ، ونصبوا عليها المجانق ، وألصقوها أحدداً إلى

(١) الكامل في التاريخ - أحداث سنوات ٤٨٢ و ٤٨٦ و ٤٩٠ هـ .

(٢) تاريخ الحروب الصليبية: ١/٢٢٥ - ٣٢٦ .

(٣) الكامل في التاريخ - أحداث سنة ٥٠١ .

سور البلد ، وأخلوه من الرجال . وكانت صور تحت حكم - عز الملك الأعز - التابع لحاكم مصر - القائم بأمر الله العلوى -. وكانت الأبراج التي صنعوا الفرنج - وعددتها ثلاثة - من الخشب ، ارتفاع البرج منها سبعون ذراعاً . وفي كل برج ألف رجل . فجمع حاكم صور أهل البلد واستشارهم في حيلة يدفعون بها شر الأبراج عنهم . فقامشيخ من أهل طرابلس وضمن على نفسه إحراقها . وأخذ معه ألف رجل بالسلاح التام ، ومع كل رجل منهم حزمة حطب ، فقاتلوا الفرنج حتى وصلوا إلى البرج المتتصق بالمدينة . فألقى الخطب من جهاته ، وألقى فيه النار . ثم خاف أن يستغل الفرنج الذين في البرج باطفاء النار ويتحلصوا ، فرميهم بجرب كان قد أعد لها ملوءة من العذرة . فلما سقطت عليهم اشتبلاوها بها وبما نالهم من سوء الرائحة والتلوث ، فلمكنت النار منه . فهلك كل من به إلا القليل . وأخذ المسلمين ما قدر عليه بالكلاليب . ثم أخذ سلال العنبر الكبار ووضع فيها الخطب الذي سقاهم بالنفط والزفت والكتان والكريت ، ورميهم بسبعين سلة وأحرق البرجين الآخرين ، ثم أن أهل صور حفروا سراديب تحت الأرض ليسقط فيها الفرنج إذا زحفوا إليهم ، وليخسف برج إن عملوه وسرروه إليهم ، فاستأمن نفر من المسلمين إلى الفرنج وأعلمواهم بما عمله أهل صور فحدروا منه . وأرسل أهل البلد إلى حاكم دمشق أتابك طغتكين يستنجدونه ، ويطلبونه ليسلموا البلد إليه ، فسار في جنده إلى نواحي بانياس ، ووجه إليهم نجدة من مائتي فارس ، فدخلوا البلد ، وامتنع من فيه بهم . واشتد قتال الفرنج خوفاً من اتصال النجدة ، ففني نشاب المسلمين ، فقاتلوا بالخشب ، وفي النقط ، فقضوا بسرداب تحت الأرض فيه نفط لا يعلم أحد من خزنه . ثم إن عز الملك صاحب صور ، أرسل الأموال إلى طغتكين ليكثر من الرجال ، ويقصدهم ليملك البلد ، فأرسل طغتكين طائراً فيه رقعة ليعلمه بوصول المال ، ويأمره أن يقيم مركباً بمكان ذكره ، لتجيء الرجال إليه ، فسقط الطائر على مركب الفرنج ، وقرأ الفرنج الرسالة ، فأرسل ملك الفرنج مركباً إلى المكان الذي حده طغتكين ، وفيه جماعة من المسلمين الذين استأمنوا إليه من أهل صور . فوصل إليهم عسكر طغتكين ، فكلموهم بالعربية ، فلم ينكروهم ، وركبوا معهم . فأخذوهم أسرى وحملوهم إلى الفرنج فقتلواهم . وطمعوا في أهل صور . فما كان من طغتكين إلا

أن أخذ في الاغارة على البلاد التي احتلها الفرنج من جميع جهاتها . وقصد حصن - حبيس جلاك - في السواد من أعمال دمشق فحصره وملكه بالسيف وقتل كل من فيه من الفرنج ، ثم عاد إلى الفرنج القائمين على حصار صور ، فقطع عنهم الميرة - التموين - من جهة البر ، فأحضروها في البحر ، وخندقوا عليهم ، ولم يخرجوها لقتاله ، فسار طفتكن إلى صيدا وأغار على ظاهرها فقتل جماعة من البحرية ، وأحرق عشرين مركباً تقرباً على الساحل . واستمر أثناء ذلك كله في إرسال الكتب إلى أهل صور . وطلب إليهم الصبر . وقاتل أهل صور قتال من أيس من الحياة ، فدام القتال إلى أن أدرك الفرنج أنه من الصعب عليهم الاستيلاء على صور - وكانت قد مضت على مدة الحصار والقتال خمسة أشهر (سنة ٥٠٥ هـ = ١١٢٤ م) - فرفعوا الحصار ورجعوا إلى عكا . وعاد طفتكن وجشه إلى دمشق . وانصرف أهل صور إلى إصلاح ما شعثت من سور بلدتهم وخندقها ^(١) . وبقيت صور تابعة لحكم الفاطميين في مصر .

علم أهل صور سنة ٥١٦ هـ = ١١٢٢ م - أن ملك الفرنج - ملك القدس - قد جمع عساكره ليسير إلى صور . فخافوا وأرسلوا إلى أتابك طفتكن حاكم دمشق يطلبون إليه أن يرسل أميراً من عنده يتولاهم ويحميهم وتكون البلد له . وقالوا له : « إن لم ترسل لنا ولانا وعسكراً سلمنا البلد إلى الفرنج ». فسير إليهم عسكراً وجعل عندهم ولانا اسمه مسعود . وكان شهماً شجاعاً عارفاً بالحرب ومكايدها ، وأمده بعسرك وسير إليهم ميرة - تموين - ومالاً فرقه فيهم ، وطابت نفوس أهل البلد . ولم تغير الخطبة حاكم مصر ولا السكة - النقود - . وكتب طفتكن إلى الأفضل حاكم مصر وشرح له الموقف وأعلمه عن استعداده لتسليم صور له عندما يرسل من يتولاها ويقوم على أمر حاليتها . وطلب إليه عدم الانقطاع عن إرسال الأسطول من مصر للدعم صور بالرجال والقوة . فشكراً للأفضل على ذلك ، وأثنى عليه وصوب رأيه فيما فعله . وجهز أسطولاً وسيره إلى صور . فاستقامت أحوال أهلها .

ولكن حدث في سنة ٥١٨ هـ = ١١٢٤ م أن جاء أسطول من مصر ومع مقدمه

(١) الكامل في التاريخ - أحداث سنة ٥٠٥ .

تعليمات بالاستيلاء على صور. فلما خرج حاكم صور - مسعود - للسلام على مقدم الاسطول واستقباله، تم اعتقاله وأرسل إلى مصر حيث أعيد إلى دمشق. ودخل الوالي الفاطمي المعتمد إلى صور. ولما علم الفرنج بعزل - مسعود - عن حكم صور ، قوي طمعهم فيها ، وحدثوا نفسهم بذلكها ، وشرعوا في الجمع والتأهب للنزول عليها . وعلم والي صور ، وعرف أنه لا قوة له ولا طاقة على رفع الفرنج عنها ، لقلة من بها من الجندي والميرة . فأرسل إلى حاكم مصر وطلب إليه أن يرد ولاية صور إلى طغتكين حاكم دمشق . فأرسل إليه موافقته على رأيه . فملك طغتكين صور ، ورتب بها من الجندي وغيرهم ما ظن فيه كفاية . وسار الفرنج إليهم ونازلوهم وضيقوا عليهم ولازموا القتال . فقللت الأقوات ، وسائل من بها من القتال ، وضعفت نفوسهم . وسار طغتكين إلى بانياس ليقرب منهم ، وليدافع عن البلد ، وعلى أمل أن يرحل الفرنج عن صور إذا ما اقترب منهم . ولكن الفرنج لم يتحركوا ، ولزموا الحصار . فأرسل طغتكين إلى ملك الفرنج واتفق معه على تسليم صور له ، على أن يسمح له من بها من الجندي والرعاية بالخروج ومعهم ما يقدرون على حمله من أموالهم ومتاعهم . وغادر المسلمون صور ، وملكها الفرنج ، وكان ضياعها وهنأً عظيمًا على المسلمين ، لأن صور كانت أحسن البلاد وأمنتها^(١) .

أصبحت صور - موطن المؤرخ المسيحي لفترة الحروب الصليبية وليم الصوري -^(٢) - تحت حكم الفرنج الذين انصرفوا لتنظيم أمورهم فيها . فوزعوا المدينة على الحاليات المشتركة في الحروب الصليبية . فكانت هناك أحيا منفصلة للبنادقة

(١) الكامل في التاريخ - أحداث سنة ٥١٦ وسنة ٥١٨ . وتاريخ الحروب الصليبية : ٢٦٩ / ٢ - ٢٧٣ .

(٢) وليم الصوري : (GUILLAUME DE TYR) من مواليد بلاد الشام قبل سنة ١١٣٠ م تعلم في طفولته اللغتين العربية واليونانية . ثم توجه إلى بلاد الفرنج - فرنسا - لاكتمال تعليمه الديني . وعاد إلى فلسطين فأصبح سنة ١١٦٠ م رئيساً لشمامسة صور . ثم أصبح رئيساً لديوان الرسائل بالملكرة - مملكة القدس . ثم تقلد سنة ١١٧٥ منصب رئيس أساقفة صور . ولما فشل في أن يصبح بطريقاً لها إلى روما سنة ١١٨٣ م وبقي بها إلى أن مات سنة ١١٨٧ م . وكان وليم الصوري قد شرع منذ سنة ١١٦٩ م بكتابة تاريخه الشهير : (تاريخ ما جرى من أمور فيها وراء البحار) :

historia rerum in partibus transmarinis gestrum) وهو يتناول دراسة الفترة الواقعة بين سنتي ١٠٩٥ و ١١٨٤ م . وفرغ من الكتب الثلاثة عشرة الأولى في سنة ١١٧٣ م . ثم تابع عمله في روما حتى موته .

والجنوبيين وأهل بيزا ومرسيليا وبرسلونه وسواها. وأقامت هذه الحاليات تجمعاً لها وادارتها المستقلة - قوموناتها -. ولم تكن العلاقات حسنة بين هذه الحاليات، وإنما كان يسودها الحسد والمنافسة، بل وحتى الصراع المسلح أحياناً. غير أنها كانت تشتراك جيغاً بما كان يوحد بينها من حقد ضد الإسلام والمسلمين. وقد يكون بالمستطاع تجاوز تلك الصراعات الصغرى، سواء بين قومونات الفرنج بعضها ضد بعض، أو بينها مجتمعة ضد المسلمين، للتوقف عند مرحلة التحول الحاسم الذي حملته معركة حطين الخالدة. ففي غداة المعركة، لم تهيمن نشوة النصر على المجاهدين في سبيل الله فتقعدهم عن القتال، وإنما اندفعت جيوشهم بقيادة صلاح الدين فأعادت فتح عكا والقدس واللاذقية وصبرا وسواها من المدن والقلاع. وكان أغرب ما في الأمر أن سمح صلاح الدين للفرنج بالانسحاب من المدن والقلاع، والتوجه إلى صور التي باتت مكتظة بالقوات. فتولى الكونت الألماني - كنراد مونتفيرات - إعادة تنظم هذه القوات وعمل على تحسين المدينة وتنظيمها للدفاع. وقد أوردت المصادر العربية قصة ما حدث يومها فقالت: «لما انہزم صاحب طرابلس من حطين إلى مدينة صور، أقام بها على أنها أعظم بلاد الشام حصانة، وأشدّها امتناعاً على من رامها. فلما رأى أن المسلمين قد ملكوا تبنين وصبرا وبيروت، خاف أن يقصد صلاح الدين صور وهي فارغة من يقاتل فيها ويحيمها وينعها فلا يقوى على حفظها، فتركها وسار إلى مدينة طرابلس. فبقيت صور شاغرة لا مانع لها ولا عاصم من المسلمين. فلو بدأ صلاح الدين بمدينة صور قبل تبنين وغيرها، لأخذها بغير مشقة، لكنه استعصمها لحصانتها، فأراد أن يفرغ أولاً مما يجاورها من نواحيها ليسهل أخذها، فكان ذلك سبب حفظها، وكان أمر الله قدرًا مقدورًا، واتفق أن إنساناً من الفرنج الذين دخل البحر، يقال له المركيش^(١) - لعنه الله، خرج في البحر بمال كثير للزيارة والتجارة، ولم يعلم بما حدث

(١) المركيش هذا هو كنراد ابن المركيز مونتفيرات، كان مقيناً بالقسطنطينية، غير أنه تورط مجرية قتل، فأُبْخِرَ سراً مع جماعة من فرسان الفرنج بهدف الحج إلى الأماكن المقدسة، ولم يكن يعلم شيئاً عن الكوارث التي نزلت بالفرنج الصليبيين في فلسطين - وانظر (تاريخ الحروب الصليبية: ٢٦٢ - ٢٦٤) و (٣٢١، ٤٢، ٢٩) وكذلك الكامل في التاريخ - أحداث سنة:

للفرنج، فأرسى بعكا، وقد رايه ما رأى من ترك عوائد الفرنج عند وصول المراكب من الفرح، من ضرب الأجراس والنواقيس وغير ذلك، وما رأى أيضاً من زي أهل البلد. فوقف ولم يدر ما الخبر، وكانت الريح قد ركدة، فأرسل الملك الأفضل إليه بعض أصحابه في سفينته للاستعلام. وعندما عرف المركيش بهزيمة الفرنج وخروج عكا من قبضتهم، وأرسل المركيش إلى الملك الأفضل رسولاً يطلب الأمان ليدخل البلد بما معه من متعة ومال، فأجيب إلى ذلك، وأرسل السفراء المرة بعد المرة وهو يطلب في كل مرة شيئاً لم يطلبه في المرة السابقة، وقد فعل ذلك انتظاراً لهبوب الريح ليسير به. فبينما هو مستمر في اتصالاته، إذ هبت الريح، فسار نحو صور، وسير الملك الأفضل الشواني في طلبه فلم يدركوه. ووصل المركيش إلى صور وقد اجتمع بها من الفرنج خلق كثير. لأن صلاح الدين كان كلما فتح مدينة أعطى أهلها الأمان فساروا كلهم إلى صور. وكثير الجمع بها، إلا أنه ليس لهم رأس يجمعهم، ولا مقدم يقاتل بهم، وليسوا أهل حرب، وهم عازمون على مراسلة صلاح الدين وتسليم البلد إليه، فأتاهم المركيش وهم على ذلك العزم، فردهم عنه، وقوى نفوسيهم، وضمن لهم حفظ المدينة. وبذل ما معه من الأموال، وشرط عليهم أن تكون المدينة وأعهاها دون غيره، فأجابوه إلى ذلك. فأخذ أيامهم عليه، وأقام عندهم، ودبر أحواهم، وكان من شياطين الأنس، حسن التدبير والحفظ، وله شجاعة عظيمة، وشرع في تحسينها، فعمل أسوارها. وزاد في حصانتها، وحفر خنادقها، واتفق من بها على الحفظ والقتال دونها. فلما فرغ صلاح الدين من فتح عسقلان والقدس، سار إلى صور، فوجد أن المركيش قد انتهى من دعم سور المدينة، وزاد من حفر خنادقها وتعميقها ووصلها من البحر إلى البحر من الجانب الآخر، فصارت المدينة كالجزيرة في وسط الماء، لا يمكن الدنو منها أو الوصول إليها. فما كان من صلاح الدين إلا أن نزل على نهر قرب البلد. وقسم القتال على العسكر، كل جمع منهم له وقت معلوم يقاتلون منه بحيث يتصل القتال على الفرنج. ولكن الموضع الذي يقاتلون منه ضيق الجبهة، قريب المسافة، تكفيه جماعة قليلة من الفرنج للدفاع عنه، لاسيما وأن الخنادق قد وصلت من البحر إلى البحر، فلا يكاد الطير يطير عليها. والمدينة كالكف في البحر، والساعد متصل بالبر والبحر من

جانبي الساعد . والقتال إنما هو في الساعد . فزحف المسلمون مرة بالمنجنيقات والعرادات والجروخ والدبابات . وكان أهل صلاح الدين يتناوبون القتال ، مثل ولده الأفضل وولده الظاهر غازي وأخيه العادل بن أيوب وابن أخيه تقي الدين ، وكذلك سائر الأمراء . وكان للفرنج شواني - سفن - وحرافات يركبون فيها في البحر ، ويقفون من جانبي الموضع الذي يقاتلون المسلمين منه ، فيرمون المسلمين من جانبهم ، فعوضم الأمر على المسلمين . لأن الفرنج يقاتلونهم من بين أيديهم وأصحاب الشواني يقاتلونهم من جانبهم ، فكانت سهامهم تندى من أحد الجانبين إلى الجانب الآخر لضيق الموضع ، فكثرت الجراحات في المسلمين وكثير القتل ، ولم يتمكنوا من الدنو إلى صور .

فأرسل صلاح الدين إلى الشواني التي جاءته من مصر - وهي عشر قطع كانت بعكا - فأحضرها برجاتها ومقاتلتها وعدتها ، وكانت في البحر تمنع شواني الفرنج من الخروج إلى قتال المسلمين . فتمكن المسلمون حينئذ من القرب من صور ، ومن قتال الفرنج فيها ، وقاتلواهم برأً وبحراً ، وضايقواهم حتى كادوا يضفرون بهم ، فجاءت الأقدار بما لم يكن في الحساب ، وذلك أن خمس قطع من شواني المسلمين باتت في بعض تلك الليالي مقابل مينا صور ، ليمنعوا من الخروج منه والدخول إليه ، فباتوا ليتلتهم يحرسون ، وكان مقدمهم عبدالسلام المغربي موصوفاً بالخذق في صناعته وشجاعته ، فلما كان وقت السحر أمنوا فناموا ، وما شعروا إلا بشواني الفرنج قد نازلتهم وضايقتهم ، وأوقعت بهم ، فقتلوا من أرادوا قتله ، وأخذوا الباقين براً كفهم وأدخلوهم مينا صور . والمسلمون في البر ينظرون إليهم . ورمي جماعة من المسلمين أنفسهم من الشواني في البحر ، فمنهم من سبع فنجاً ومنهم من غرق . وأمر صلاح الدين باقي الشواني بالسير إلى بيروت لعدم انتفاعه بها لقلتها . فسارت ، فتبعها شواني الفرنج ، فحين رأى من في شواني المسلمين الفرنج مجدين في طلبهم ، ألقوا أنفسهم في شوانيم إلى البر فنجوا وتركوها ، فأخذها صلاح الدين ونقضها وعاد إلى مقاتلة صور في البر . وكان ذلك قليل الجدوى لضيق المجال ، وخرج الفرنج في بعض الأيام فقاتلوا المسلمين من وراء خنادقهم فاشتد القتال بين الفريقين ودام إلى آخر النهار ، وكان خروجهم قبل العصر ،

وأسر منهم فارس كبير مشهور بعد أن كثُر القتال والقتال عليه من الفريقين لما سقط .
فلمَّا أسر قتل . وبقوا كذلك عدة أيام .

لما رأى صلاح الدين أن أمر صور يطول ، رحل عنها . وهذه كانت عادته ، متى ثبت البلد بين يديه ضجر منه ومن حصاره فرحل عنه . وكان هذه السنة لم يطل مقامه على مدينة ، بل فتح الجميع في الأيام القريبة بغير تعب ولا مشقة . فلمَّا رأى هو وأصحابه شدة أمر صور ، ملوها وطلبوها الانتقال عنها . وقام الفرنج بطلب النجدات من ملوك الغرب ، فأجابوهم بالتلبية لدعوتهم ، ووعدوهم بالنصرة ، وأمرוهم بحفظ صور لتكون دار هجرتهم ، يحتمون بها ويلجؤون إليها ، فزادهم ذلك حرصاً على حفظها والدفاع عنها . واستشار صلاح الدين أمراءه في أمر الرحيل عن صور ، فتقرر رفع الحصار عنها . وترك صلاح الدين قوة في مواجهة مدينة صور .

ومضت سنة ٥٨٤ هـ = ١١٨٨ م . ثم جاءت السنة التالية ، وامتلكت حامية صور قوة كبرى بفضل ما وصلها من الدعم والأمداد . وتحركت قوات الحملة الصليبية الثالثة التي ضمت فيما ضمته من القوات أسطولاً بحرياً ضخماً من السفن الدانمركية والفلمنكية التي بلغ عددها خمسين سفينة . وقرر الفرنج في صور الانتقال من الدفاع إلى الهجوم ، والبدء بالقاء الحصار على صيدا لاعادة السيطرة عليها . ودارت رحى معارك طاحنة نجح المسلمون فيها من منع الفرنج من الوصول إلى صيدا . ثم أعاد الفرنج في صور تنظيم قواتهم ، وانطلقوا بهجوم جديد ، غير أن الفشل كان من نصيبهم أيضاً ، حيث دارت رحى معارك طاحنة قادها صلاح الدين الأيوبي بنفسه ، وتعرض فيها الفرنج لخسائر فادحة . وعاود الفرنج محاولتهم للمرة الثالثة وكان ثمن الفشل غالياً . غير أنه نجحوا في المرة الرابعة بمعادرة صور ، والوصول إلى عكا ، حيث انضم إليهم قوات الفرنج القادمة من الشمال ومن البحر ، فألقوا الحصار على عكا .

لقد كان الاغتيال السياسي هو أحد الوسائل التي اعتمدتها الفرنج في بداية أمرهم للقضاء على القيادات الإسلامية وأضعاف المسلمين وتفریقهم ، وأصبح باستطاعة

قيادات المسلمين اللجوء إلى هذه الوسيلة ذاتها بعد أن تحول الموقف لمصلحتهم واتحدت قيادتهم وتعاظمت قوتهم. ولما كان - الكونت كنراد مونتفيرات - قد اضططع بدور كبير في الدفاع عن صور ، وفي التحرير للحملة الصليبية الثالثة التي ضمت ملك انكلترا ريتشارد قلب الأسد وملك فرنسا فيليب اوغست وامبراطور جermania فريدرريك بربروسه . فقد طلب صلاح الدين إلى زعم الباطنية - الاسماعيلية - والمعروف باسم سنان شيخ الجبل . أن يقتل ملك انكلترا أو المركيز كنراد مقابل عشرة آلاف دينار . ووجد سنان أنه ليس من مصلحته قتل ملك انكلترا حتى لا يتفرغ صلاح الدين له ولطائفته ، كما طمع في الوقت ذاته في الحصول على المال ، فعدل إلى قتل المركيز . وأرسل رجلاً في زي الرهبان ، واتصالاً بصاحب صيدا وصاحب الرملة وكانا مع المركيز بصور فأقاما معهما ستة أشهر وهما يظهران التقى والعبادة ، ووثق المركيز بهما وأحبهما . ثم إن أسقف صور عمل دعوة للمركيز ، فحضرها وأكل طعامه وشرب مدامه ، فلما خرج من عنده وثبت عليه الباطنيان المذكوران فجرحاه جراحًا وثيقة ، وهرب أحدهما ودخل الكنيسة واحتفى بها . فاتفق أن المركيز حل إليها ليشد جراحه ، فوثب عليه ذلك الباطني فقتله . وقتل الباطنيان . ونسب الفرج قتيله إلى تدبير ملك انكلترا حتى ينفرد بحكم ساحل بلاد الشام .

جاء بعد ذلك الظاهر بيبرس فسار على النهج ذاته ، إذ دبر أمر اغتيال فيليب مونتفيرات في صور أيضًا ، وكان فيليب هذا من أعلام الفرنج ومن كبار باروناتهم . وكان الباطنية - الاسماعيلية أو الحشاشين - قد انضموا تحت راية الظاهر بيبرس ، إذ أن فتوحاته وانتصاراته قد حررتهم من سيطرة الاستبارية ، ومن دفع الجزية لهم . كما اشتد انكارهم لتعاون الفرنج مع المغول الذين دمروا معاقلهم وأبادوهم في بلاد الفرس . وبناء على طلب بيبرس ، أرسلوا أحد رجالهم إلى صور ، وزعم الباطني عندما دخل صور بأنه نصراوي . فدلل فيليب يوم الأحد ١٧ آب - أغسطس - سنة ١٢٧٠ هـ) إلى الكنيسة ، حيث كان يؤدي الصلوة بها فيليب وابنه يوحنا ، فانقض عليهم فجأة ، وتعرض فيليب لجراح قاتلة قبل أن تصل إليه النجدة . على أنه بقي على قيد الحياة حتى علم بأنه قد تم القاء القبض على القاتل ، وأن ابنه نجا من القتل . وقد كان

قتل فيليب مونتييرات ضربة خطيرة للفرنج الصليبيين في بلاد الشام^(١).

تابع المسلمون جهدهم وجهادهم، وأيدهم الله بنصره، فطردوا الفرنج من المدن والقلاع التي ظنوا أنها مانعهم، حتى إذا لم تبق إلا عكا وصور وبعض القلاع في أيديهم، ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، غير أنهم لم يفقدوا الأمل بحملة صليبية جديدة تعيد لهم ما فقدوه من الأرض التي أقاموا عليها لبعض الوقت، وهذا احتفظ القسس والأمراء بألقابهم السابقة التي حلوها قبل إعادة الفتح (مثل كونت طرابلس، وأسقف عكا الخ). وجرى في سنة ١٢٨٦ م أيضاً توبيخ ملك قبرص (هنري الثاني) في مدينة صور. وأحيط حفل التوبيخ بجميع مظاهر الترف والعظمة. ولا ريب أن السلطان قلاوون قد ابتسم وهو في القاهرة عندما علم بأفراح الفرنج التافهة، فقد كان قلاوون على ثقة تامة بأن بقاء الفرنج في بلاد الشام لم يعد أكثر من قضية وقت. وأن الفرنج يخدعون أنفسهم عندما يتوهمون بامكان بقائهم في بلاد الشام إن هم احتفظوا بمدينة صور أو بعض القواعد الأخرى. وهذا ما أكدته مسيرة الأعمال القتالية بعد ذلك. ولئن توفي السلطان قلاوون قبل إكمال إعادة فتح بقية المدن الساحلية. فقد جاء ابنه - الأشرف خليل - فعمل على إكمال هذا الواجب. فطرد بقايا الفرنج من عكا بعد حصار طويل ومعارك ضارية (سنة ٥٨٧ هـ = ١٢٩١ م). ولم تنتظر قوات صور وحاكمها حدوث الزلزال، أو هبوب العاصفة، فقد ركبوا البحر سرعاً وانتقلوا إلى قبرص بمجرد سماعهم بتحرك جيش المسلمين الضخم نحوهم، وتخلوا عن صور دون قتال. وابتلعت رمال صور ما تركه الفرنج من حطام. وعادت صور مزهوة إلى سابق عهدها، ثغراً من ثغور العرب المسلمين.

(١) لمطالعة المزيد عن التفاصيل لهذا الحادث المثير - يمكن الرجوع الى الكامل في التاريخ - أحداث سنة ثمان وثمانين وخمسة وعشرين. وتاريخ الحروب الصليبية: ١٢٤/٣ - ١٢٨ و ٥٧٠.

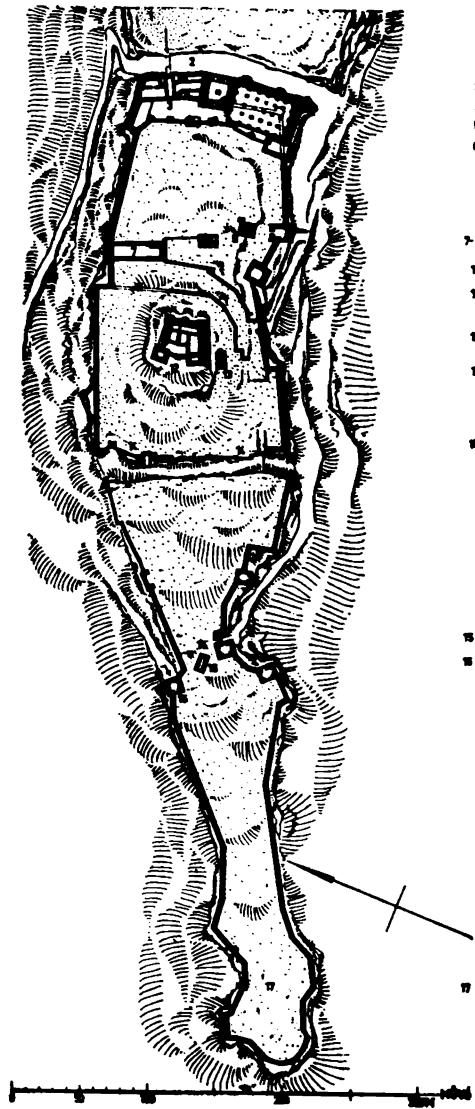
١٦ - قلعة صلاح الدين الأيوبي [صهيون]

قلعة صلاح الدين الأيوبي أو (قلعة صهيون)^(١) من القلاع التي اكتسبت شهرة كبيرة أيام الحروب الصليبية القدية، بسبب منعها وقوة أسوارها وتحصيناتها. وقد وصفها ابن الأثير بقوله: «قلعة صهيون هي قلعة منيعة شاهقة في الهواء، صعبة المرتفق، على قرنة جبل يطيف بها واد عميق فيه ضيق في بعض المواقع، بحيث أن حجر المنجنيق يصل منه إلى الحصن. إلا أن الجبل متصل بها من جهة الشمال. وقد عملوا لها خندقاً عميقاً لا يرى قعره، وخسدة أسوار منيعة»^(٢) كما وصفها أبو الفداء بقوله: «ومدينة صهيون هي بلدة ذات قلعة حصينة لا ترام، من مشاهير معاقل الشام. وبقلعتها المياه كثيرة متيسرة من الأمطار. وهي على صخر أصم، وبالقرب منها واد، وبه من الحمضيات ما لا يوجد مثله في تلك البلاد. وهي في ذيل جبل من غربيه. وتظهر من عند اللاذقية. وبينها نحو مرحلة. تقع في الشرق ويعيلها إلى الجنوب عن اللاذقية». وتبرز المقولتان من تراث التاريخ ما تميزت به هذه القلعة الشهيرة التي لازالت أطلالها الصامدة تحتفظ بهيبتها وبوقارها وهي تتربع على موقعها الشاهق لتلمس الغمام، ولتشرف من مترقبها على ما يحيط بها. ولتحتفظ لنفسها بأسرار ما عرفته من أحداث وما عاشته من قصص مثيرة عبر العصور. وهي أسرار قد يكون من المحال على الباحثين والعلماء معرفتها والكشف عنها مما تتوفر لهم من خصب الخيال.

لم يبق من قلعة صلاح الدين سوى بقايا متهدمة تتربع فوق جرف صخري متطاول

(١) قلعة صلاح الدين الأيوبي. وقد حملت أيام الفرنج الصليبيين اسم قلعة صهيون نسبة إلى أول من حكمها منهم وهو الكونت روبر صهيون (COUNT ROBERT SAHYOUN LE PIEUX) المجنوم. ونكتب: (SAHYUN) وباليونانية: (SIGON) وبالفرنجية: (SAONE) أو: (SAHAUNE).

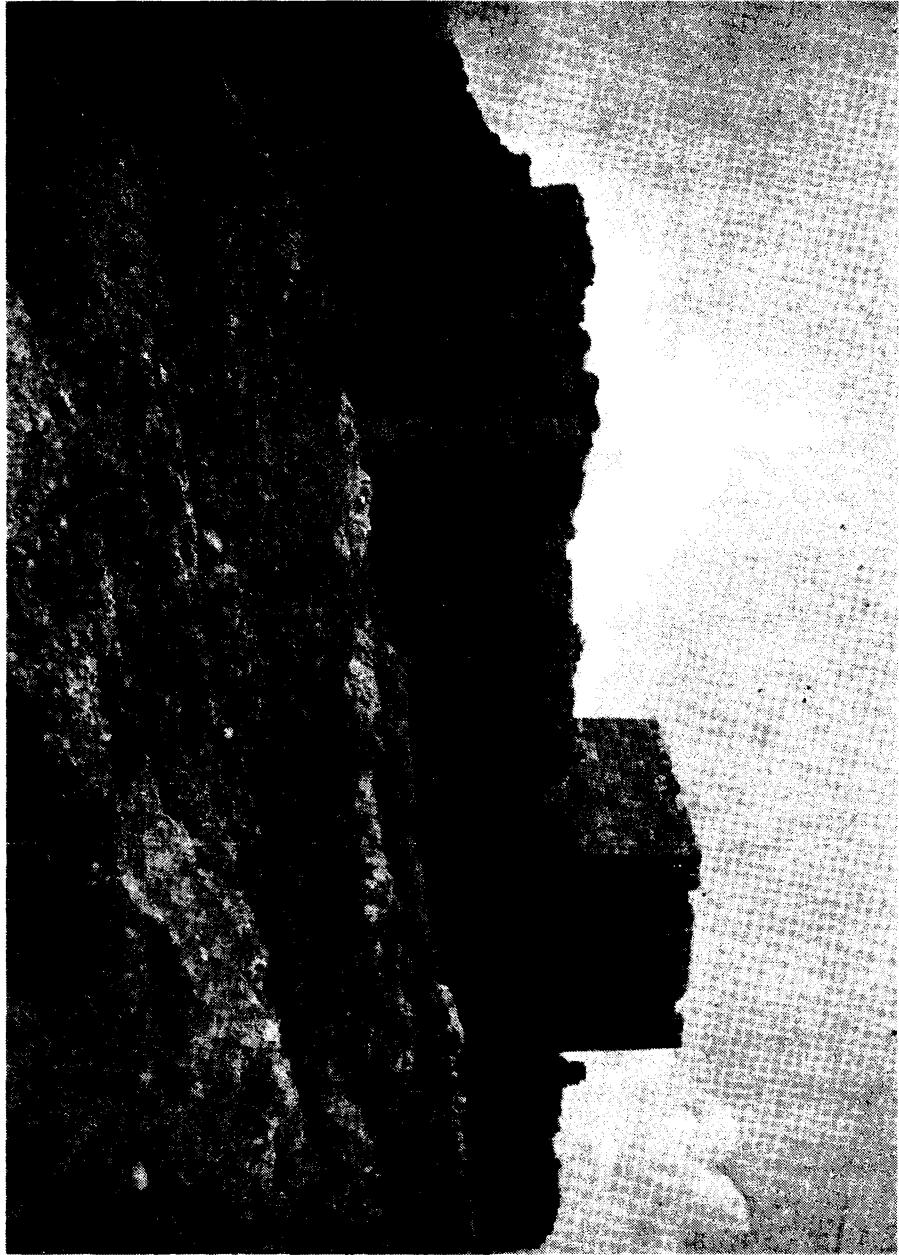
(٢) الكامل في التاريخ - أحداث سنة ٥٨٤ - والقلاع أيام الحروب الصليبية ص: ٥٠.

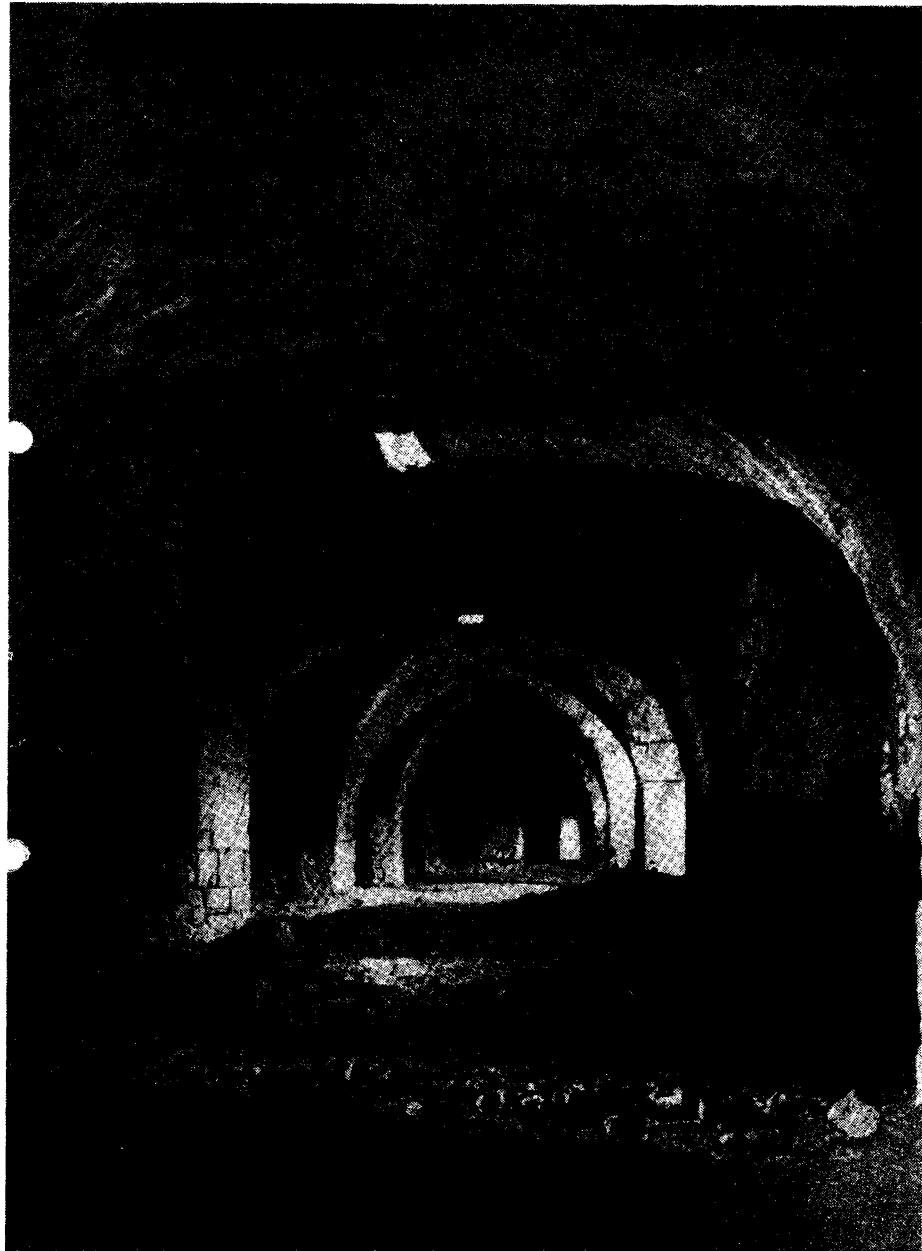


قلعة صلاح الدين (صهيون) Sahyun - الموقع والمخطط العام، المقياس ١/٥٠٠٠ .

- ١ - بقايا قرية العصور الوسطى ، ٢ - قناة الماء ، ٣ - البوابة الرئيسية وأول سور عرضي بيزنطي ، ٤ - مستودع ضخم شيد فوقها فيما بعد ، ٥ و ٦ - بقايا السور العرضي البيزنطي الثاني ، ٧ - خزان ماء ، ٨ و ٩ - حمامات ومسجد ، يعود تاريخ الحمام إلى العهد العربي ، ١٠ و ١١ - السوران العرضيان البيزنطيان الثاني والثالث ، ١٢ - القلعة البيزنطية الداخلية ، ١٣ - كنيسة فريجية صغيرة ، ١٤ - السور العرضي الجنوبي الغربي والقناة ، ١٥ - بوابات القلعة السفلية ، ١٦ - كنيسة ، ١٧ - الفناء السفلي فوق السور.

قلعة صهيون (صلاح الدين)

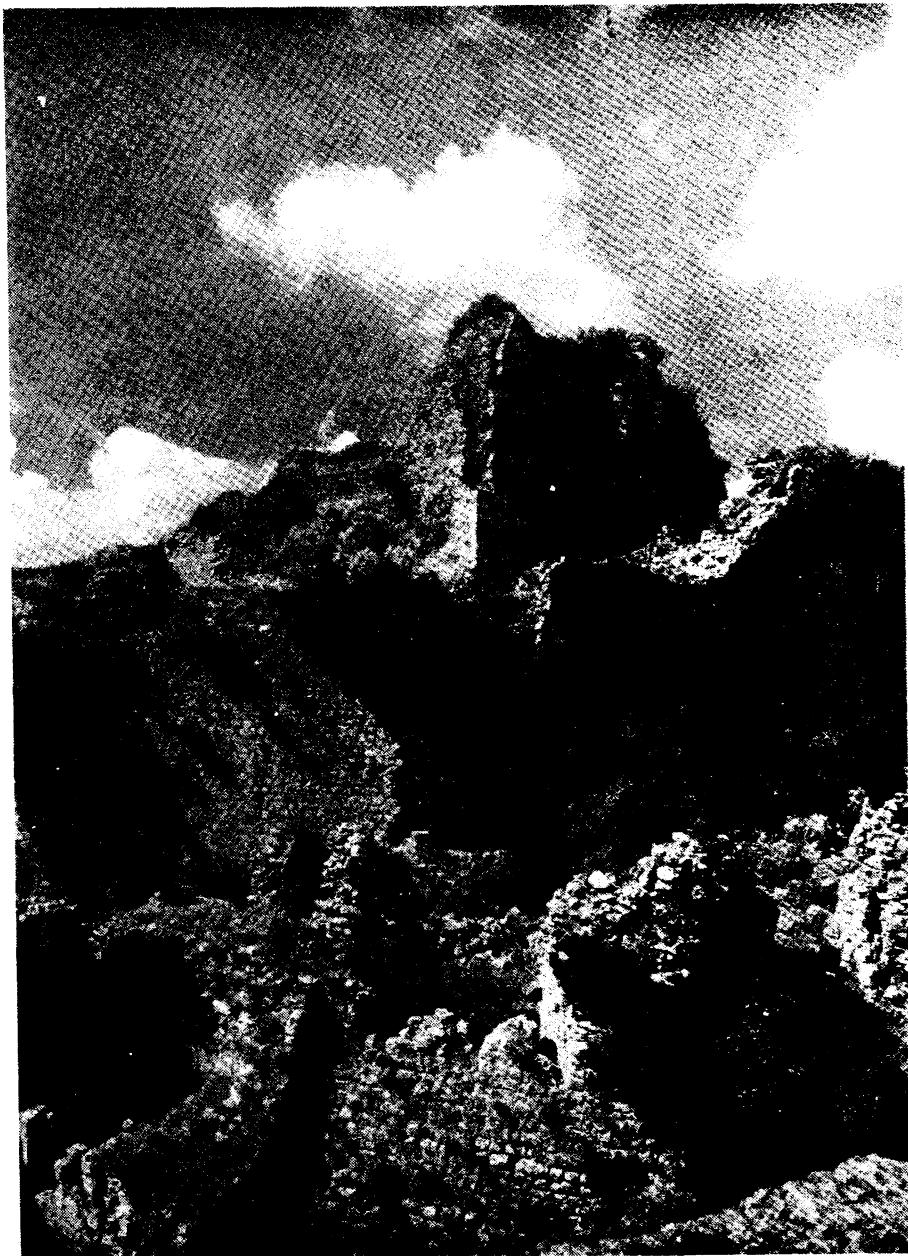




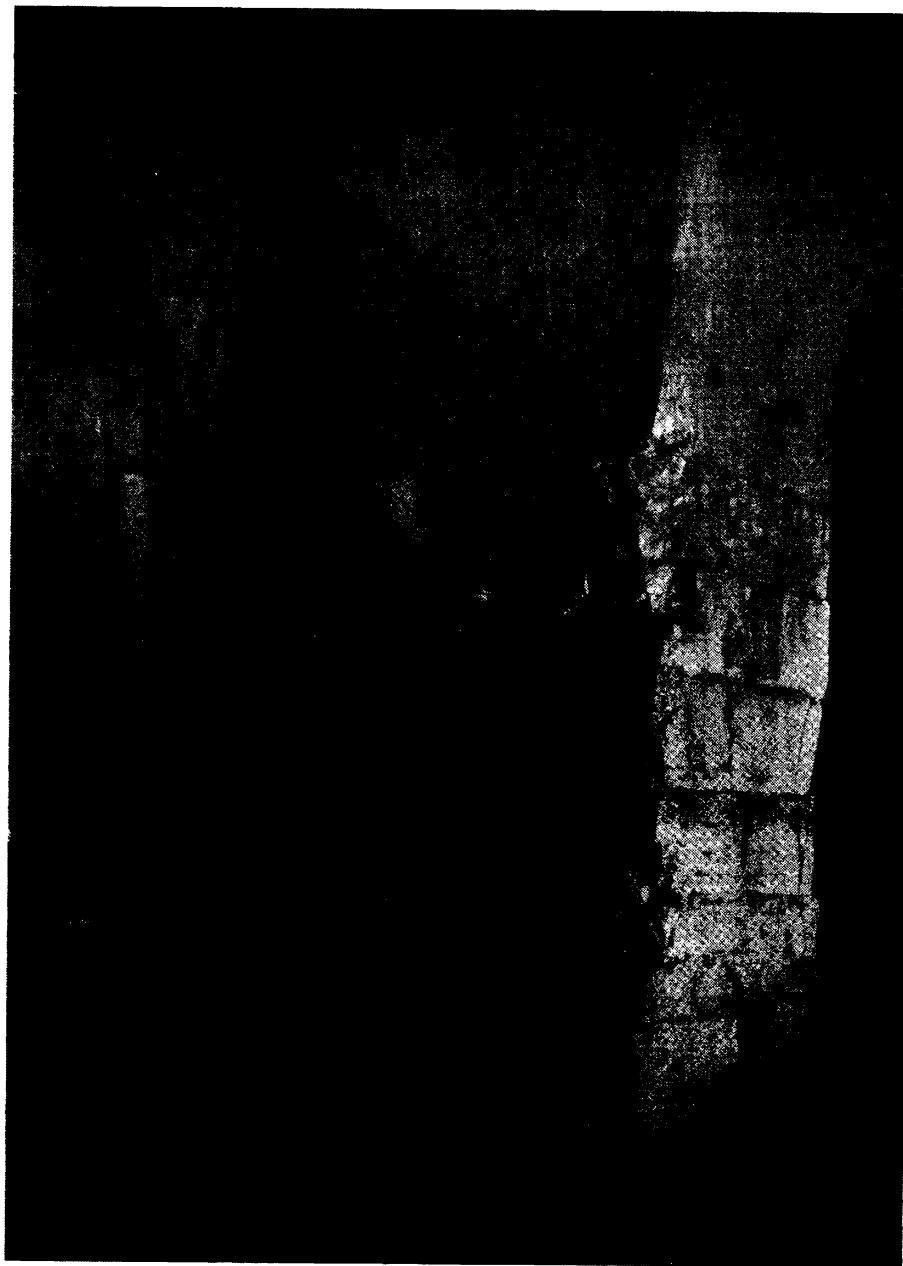
قلعة صلاح الدين (صهيون)



قلعة صلاح الدين (صهيبون)



قلعة صهيون (صلاح الدين)



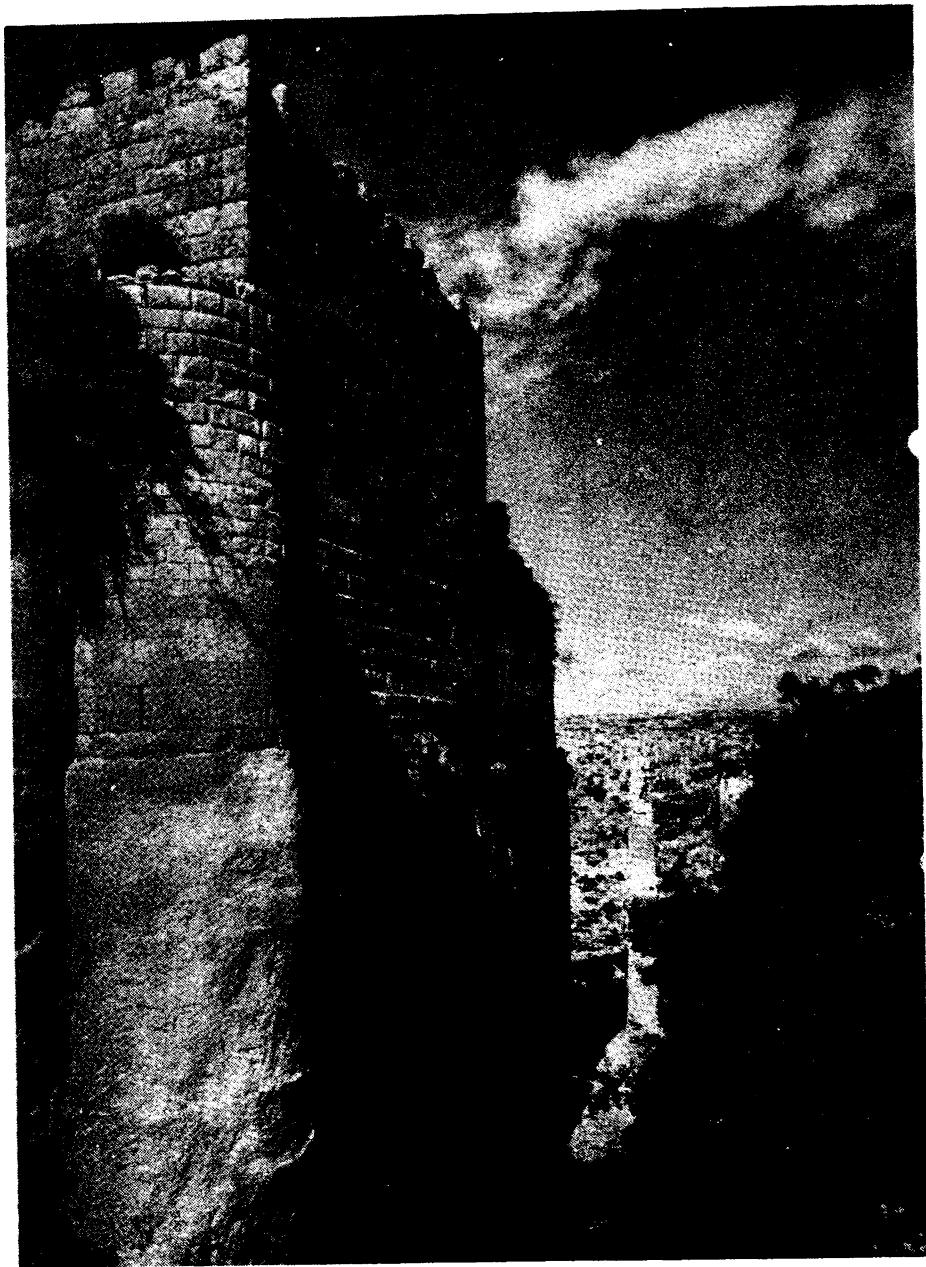
قلعة صهيون (صلاح الدين)



قلعة صهيون (صلاح الدين)

٤٨١

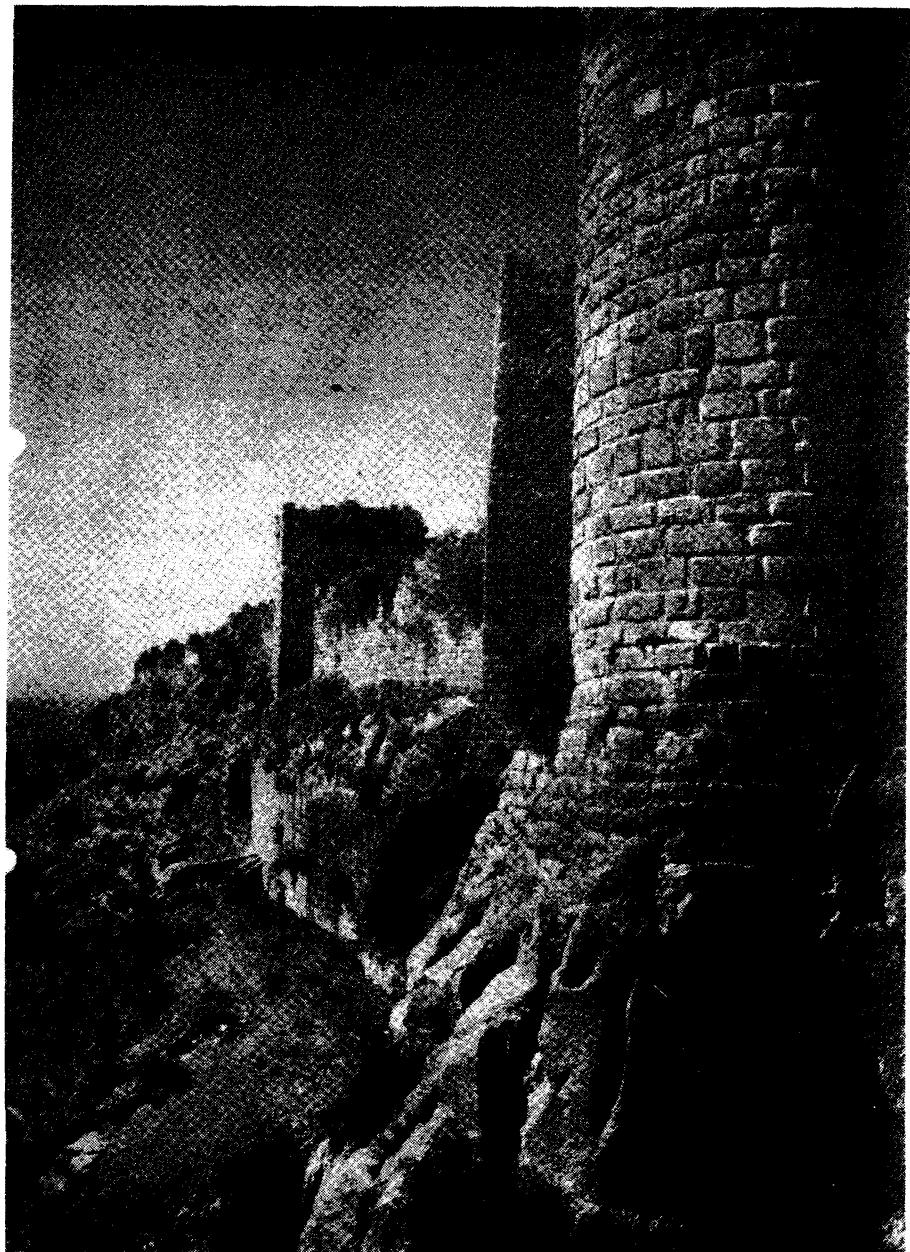
فن الحرب - الحروب الصليبية م ٣١



قلعة صهيون (صلاح الدين)



قاعة صلاح الدين (صهiron)



قلعة صهيون (صلاح الدين)

ما بين خانقين عميقين في جبال النصيرية، على مسافة خمسة عشر ميلاً تقرباً شمالاً شرقاً مرفأ اللاذقية البحري، وعلى استقامه واحدة، وتغطي التحصينات نحواً من ١٢,٥ فدان، ويفصلها عن باقي المضبة من الشمال قناة منحوتة في الصخر يقارب طولها ١٦٠ ياردة، ولها من العرض في حدود ستين قدماً، وعمقها ٩٠ قدماً تقرباً. والقلعة التي تمتد على طول الجرف في سلسلة مصاطب منفصلة، تتتابع من الشمال الشرقي وحتى الجنوب الغربي بطول يزيد على ٧٦٠ ياردة وعرض يتراوح بين ٥٥ و ١٦٠ ياردة، وتحف بها السفوح الصخرية شديدة الانحدار حتى وادي النهرين الواقعين تحتها.

لقد كانت هذه القلعة أيام الروم البيزنطيين واحدة من الليمات (ومفردها لم) والتي تنتظم في خط متناسب مع بقية القلاع على امتداد جبال الشام وحتى مصر وأفريقيا. وما كانت هذه القلاع مخصصة لإقامة الحاميات، وللدفاع ضد هجمات الفرس وضد اغارات العرب المباغطة، فقد جهزت بمتطلبات الحياة الضرورية، وحصلت على الطريق البيزنطية، حيث السور المضاعف المقام على مسافة جانبية قصيرة، مع بعض الأبراج النصف الدائرية، إلى جانب قلعة صغيرة في الداخل. وقد دخلت القلعة في طاعة العرب المسلمين (سنة ١٥ هـ = ٦٣٦ م) فعملوا على تحصينها لمجابهة الأعمال العدوانية المحتملة للروم البيزنطيين. ويحتمل ألا يكون العرب المسلمون قد جهزوا القلعة بأكثر مما تحتاجه الحياة في القلعة، مع صيانة الأسوار ودعمها عند الضرورة، حيث لا توافر هناك شواهد تاريخية تشير إلى اهتمام العرب المسلمين اهتماماً خاصاً ببناء الحصون والقلاء الداخلية التي لم تكن معرضة بصورة مباشرة للهجمات وللأعمال العدوانية. ولقد تعرضت قلعة صهيون لهجوم الامبراطور البيزنطي جان الأول (سنة ٣٦٥ هـ = ٩٧٥ م). ولعلها المرة الوحيدة التي جاهدت فيها هذه القلعة مثل هذا العدوان. ولكن وعندما جاء الفرنج الصليبيون واحتلوها (سنة ٥٠٢ هـ = ١١٠٨ م) عملوا على دعم الواجهة الشمالية الشرقية المركزة على المضبة.

وقد أقام الفرنج الصليبيون برجاً محصناً ضخماً وأسواراً ملائقة له إلى جانب القناة التي يصعب تخطيها أو تجاوزها، وقد عززت هذه الأسوار بمحصون بارزة نصف دائيرية. ونظراً لأن الواجهة الشمالية الطويلة محكمة بصورة طبيعية بواسطة الجروف

الصخرية ومنحدراتها الحادة. فقد ركز الفرنج الصليبيون اهتمامهم لحماية الواجهة الجنوبية الضعيفة نسبياً، فعملوا على بناء سور قوي مجهز بأبراج مستطيلة سميكه الجدران. وكذلك فقد تم قطع الفناء العلوي للسور الشديد التحصين عن الفناء الأدنى فيه، الأكثر تعرجاً، بجدار عرضي يستغل وهدة طبيعية عميقه استغلالاً ماهراً. وأمنت المواصلات بين الفناءين العلوي والسفلي عن طريق ممرتين جانبين، أحدهما كبير والآخر صغير. وللقلعة السفلية بوابتان خاصتان بها، واحدة على كل جانب. أما الأسوار المحيطة للفناء السفلي، والتي تمتد بعيداً بالاتجاه الجنوبي - الغربي وترتبط بشدة بالأرض الصخرية، فقد دعمت بمحصون بارزة صغيرة في عدة نقاط منها فقط، ولا زالت الجدران العرضية قائمة في معظمها حتى الآن، لتشير نحو دور البيزنطيين ومنتبعهم من الفرنج الصليبيين في بلاد الشام. غير أن معظم ما بقي من الآثار يعود إلى أيام العرب المسلمين الذين كان حكمهم طويلاً ومستمراً. ويظهر ذلك واضحاً في بناء المسجد والحمامات وسوى ذلك من المرافق، المرتبطة بحياة المسلمين. ويظهر أن حجم القلعة لم يكن على قدر كاف من الاتساع لاستيعاب الجندي الإسلامي المدافع عن القلعة، وكذلك العاملين في المنطقة المحيطة بالقلعة من رعاة ومزارعين وصناع وسواهم، فتم بناء قرية صغيرة خارج القلعة مباشرة، لا زالت بقايها رابضة فوق الجرف الطويل القائم على الأرض المرتفعة الواقعة إلى الشمال الشرقي من القلعة.

ذلك هو بعض ما يتضمنه حديث الأطلال والآثار، ولقد حفظت أوابد التاريخ العربي - الإسلامي ما عجزت عن حفظه الأطلال والآثار من القصص والأحاديث. فقد عاشت القلعة قصة ذلك الصراع المريض الذي عرفته الشعور طوال قرون متالية، وشهدت قوات الروم البيزنطيين من جهة وقوات العرب المسلمين من الجهة المقابلة، وهي تجتاح الأقاليم لتدمير وتحرق في عمليات انتقام متبادلة. ولقد أبرزت هذه العمليات أسماء عدّ كبير من القادة، لعل من أكثرها شهرة من جانب الروم (الدمستق نقفور)^(١) والحمدانيون وفي طليعتهم سيف الدولة من جانب العرب المسلمين. ففي سنة

(١) نقفور : (NICEPHORE) هو اسم يجدد من أباطرة الروم، أبرزهم هنا نقفور الثاني الذي ولد سنة ٩١٢ م وأصبح أميراً من سنة ٩٦٣ حتى سنة ٩٦٩ م. وجاء بعده جان الأول تزيسيكيس :

٣٥١ هـ = ٩٦٢ م. حشد الروم جيشاً من مائتي ألف مقاتل، منهم ثلاثون ألف رجل بالجواشن وثلاثون ألفاً للهدم واصلاح الطرق من الثلوج، وأربعة آلاف بغل يحمل الحس克 الحديد. وقاد الدمستق هذا الجيش، فاستولى على أربعة وخمسين حصناً للمسلمين - كما هاجم حلب واستباحها -. وأعاد سيف الدولة في السنة التالية بناء بعض الحصون، وسير جيشاً من طرسوس إلى بلاد الروم، فعمموا وقتلوا وسبوا، وأوغلووا في تقدمهم حتى وصلوا قونية. ولقد استمر النصر نوباً بين الروم والمسلمين^(١). حتى إذا ما كانت سنة ٣٥٩ هـ = ٩٧٠ م. أنفذ الروم جيشاً كبيراً إلى حلب، فملكوا المدينة، وملكوا أيضاً حماه وحمص وكفرطاب والمعرة وأفامية وشيزر وما بين ذلك من الحصون والقرايا. لكن الروم لم يستقروا، فقد أجمع المسلمين أمرهم وأفادوا من تمزق الروم، فأعادوا فتح الحصون والقلاع التي ملكها الروم. ولقد استنزفت هذه المخوب قدرة الروم بقدر ما استنزفت قدرة المسلمين. وهذا شهدت الواقع على الحدود نوعاً من المدوء - إلا من بعض العمليات الصغرى وفي فترات متباudeة -. غير أنه حدث في سنة ٣٨١ هـ = ٩٩١ م. أن قام الروم بهجوم كبير بقيادة أميراطورهم (باسيل) ووصلوا إلى حمص، كما اجتاحوا شيزر ونهبوا ثم عادوا إلى بلادهم.

يظهر العرض الوجيز السابق أن القلاع - بما فيها القلعة التي حلت بعدها اسم صلاح الدين - لم تكن ذات أهمية كبيرة عند وقوع هجوم كبير وشامل. فقد نجح الروم مرات متتالية في الوصول إلى وسط بلاد الشام (حصص). واجتاحوا كافة القلاع والمحصون ونهبوا ودمروها. وكذلك فعل الفرنج الذين اجتاحوا عدداً كبيراً من هذه

= (JOHN-TZIMISKES) الذي كان دمستقاً - والدمستق عند الروم هو الذي كان يحكم بلاد الروم التي هي شرقي خليج القسطنطينية - وتذكر المصادر العربية أن نقفور هذا لم يكن ملكاً للروم. أو من أهل بيت الملكة، وإنما كان دمستقاً، وهو من ولد رجل مسلم من أهل طرسوس يعرف بكنية (ابن الفقس) تنصر وكان أشدیداً على المسلمين. فلما عظم أمره قتل ملك الروم وتزوج امرأته (الإمبراطورة تيوفانو) ولكن الإمبراطورة لم تثبت أن انفقت مع الدمستق جان الأول المعروف باسم (ابن المشيق) فقتلت نقفور سنة ٩٦٩ م. وتزوجت جان الأول الذي بقي إمبراطوراً حتى سنة ٩٧٥ م. (الكامن في التاريخ: أحداث سنة ٣٥٦ هـ - ٣٥٩ هـ).

(١) لمطالعة تفاصيل هذه الأحداث في الكامل في التاريخ - أحداث السنوات من ٢٥١ حتى ٣٦٠.

الموقع ، وجعلوا منها قواعد للهجوم على الأقاليم الإسلامية المجاورة في إطار سياسة استراتيجية استعمارية توسعية - بحسب مصطلحات لغة العصر -. وكان من الصعب على المسلمين مواجهة هذه الأعمال ، أو تنظيم دفاع ناجح ، إلا في إطار سياسية استراتيجية هجومية - دفاعية شاملة . وليس التوقف عند حدود الدفاع عن قلعة ، أو التمسك بمحصن . وكان لا بد لهذه التحولات من أن تأخذ أبعادها عبر التفاعلات التي يفرزها الحوار بين الارادات المتصارعة فبقيت قلعة صهيون نتيجة لذلك تحت حكم الفرنج طوال ثمانين عاماً من عمر الزمن .

تعرضت بلاد الشام خلال تلك الفترة لهزات أرضية عنيفة ، كان من أبرزها زلزال سنة ٥٥٢ هـ = ١١٥٧ م . وزلزال سنة ٥٦٥ هـ = ١١٦٩ م . فتهدمت أسوار القلاع وتحصيناتها . وهذا هو ما يفسر بالدرجة الأولى وجود تلك البصمات التي تركها الفرنج على قلاع بلاد الشام وحصونها . وصحيف أن الفرنج قد أجروا بعض التعديلات بمجرد احتلالهم للقلاع ، مثل تحويل المساجد إلى كنس ، وتحصيص أماكن للعبادة ، غير أن إعادة تحسين الأسوار قد جاءت بصورة اضطرارية . فقد كانت الزلازل من القوة ما حل الفرنج على هجر القلاع ، والفرار عنها من شدة الذعر . مما أرغم الفرنج على إعادة بناء القلاع ودعم ابراجها وتحصيناتها ، واصلاح ما دمرته الاهزات الأرضية . ولم يكن الفرنج يخافون وهم يعيدون تشييد ما تهدم من القلاع والتحصينات قيام المسلمين بهجمات مباغطة وكبيرة . فقد كان المسلمون بدورهم يعملون على إعادة تحسين قلاعهم ودعم أسوارها واصلاح ما تهدم منها . فكان الخوف المتبادل عاملاً في الامتناع عن ممارسة الهجوم ضد الدفاع .

لقد خسر الفرنج الصليبيون قلاع بلاد الشام وحصونها بمثل ما اكتسبوها ، ولكن بنهاج مضاد . ففي أعقاب انتصار المسلمين في حطين (٥٨٣ هـ = ١١٨٧ م) تم إعادة فتح القدس . وبدأت قلاع الجنوب وحصونه في العودة الى أهلها المسلمين ، حيث أعيد فتح عكا ومجدل يابا والناصرة وقيسارية وصفورية ومعليا والشقيف والفولة ويافا وتبني وصΐدا وجبيل وبيروت وعسقلان وما يجاورها من بلاد الرملة ودامور وغزة وبيت لحم وبيت جبريل والنظرتون . وكل ما كان لطائفة فرسان الداوية من قلاع في فلسطين ، مثل

صفد وكوكب والكرك . حتى إذا ما كانت السنة التالية (٥٨٤ هـ = ١١٨٨ م) سار صلاح الدين الأيوبي بجيشه شمالاً . فأغار على حصون صافيتا والعرية ويحمور وفتح جبلة واللاذقية . ثم رحل عنها وقصد قلعة صهيون ، فنزل على الجبل المتصق بها ، ونصب عليه المنجنيقات ورمها ، وتقدم إلى ولده الظاهر صاحب حلب ، فنزل على المكان الضيق من الوادي ، ونصب عليه المنجنيقات فرمى الحصن منه ، وكان معه من رجال حلب خلق كثير ، وهم في الشجاعة بالمنزلة المشهورة . ودام رشق السهام من قسي اليد والجرح والزنبو克 والزيار . فجرح أكثر من بالحصن ، وهم يظهرون التجلد والامتناع . وزحف إليهم المسلمون - ثانى جادى الآخرة - فتعلقوا بقرنة من ذلك الجبل قد أغفل الفرنج إحكامها . وتسلقوا منها بين الصخور حتى وصلوا إلى السور الأول ، فملكوها منها ثلاثة ، وغنموا ما فيها من أبقار ودواب وذخائر وغير ذلك . واحتمى الفرنج بالقلعة فقاتلهم المسلمون عليها ، فنادوا وطلبا الأمان . فلم يجدهم صلاح الدين إليه ، فقرروا على أنفسهم مثل قطعية أهل القدس . وتسلم صلاح الدين الحصن وسلمه إلى أمير يقال له (ناصر الدين منكورس - صاحب قلعة أبي قبيس)^(١) فدعمه وحصنه وجعله من أقوى القلاع . ولما ملك المسلمين صهيون . تفرقوا في تلك النواحي ، فملكوها حصن بلاطوس . وكان من به من الفرنج قد هربوا منه وتركوه خوفاً ورعباً . وملك المسلمون أيضاً حصن العيد وحصن الجماهرتين . فاتسعت المملكة الإسلامية بتلك الناحية . إلا أن الطريق إليها من البلاد الإسلامية على عقبة ، بكسر جبل شاق شديد ، لأن الطريق السهلة كانت غير مسلوكة ، حيث كان بعضها بيد الباطنية - الاسماعيلية - وببعضها بيد الفرنج . ثم فتح المسلمون حصن بكاس والشغر

(١) حكم ورثة ناصر الدين منكورس القلعة حتى ربيع الأول سنة ٦٧١ هـ = ١٢٧٢ م وقد ذكر ذلك ابن كثير - البداية النهاية - حوادث سنة ٦٧١ هـ - بقوله : « توفي في هذه السنة الأمير سيف الدين محمد ابن مضرور الدين عثمان بن ناصر الدين منكورس صاحب صهيون . ودفن في تربة والده . وكان له في حكم صهيون وبرزية إحدى عشرة سنة وتسليمها بعده ولده سابق الدين . وأرسل إلى الملك الظاهر بيبرس - يستأذنه في الحضور فإذا ذكر له . فلما حضر أقطعه خبراً . وبعث إلى البلدين نواباً من جهته ، وانظر الكامل في التاريخ - حوادث سنة ٥٨٤ هـ . »

وسرمنية وبرزية ودرن ساك وبغراس. ولم يبق في قبضة الفرنج إلا أنطاكية التي أسرع أميرها بيمند - الكونت بوهمند - إلى عقد هدنة مع صلاح الدين مدتها ثمانية أشهر.

عادت قلعة (صهيون) إلى أهلها، وأطلق عليها اسم فاتحها - صلاح الدين -. وجاء بعد ذلك السلطان قلاوون، فشيد مسجداً داخل القلعة. ولم تعرف القلعة بعد ذلك حدثاً مثيراً - باستثناء ما تعرضت له من قصف سنة ١٨٤٠ عندما جاء إبراهيم باشا فاصطدم مع الحامية التركية التي كانت مقيمة في القلعة.

لقد انهارت مقاومات الفرنج في قلعة صهيون، كما انهارت في القلاع الكثيرة التي أعاد المسلمين الظافرون فتحها. فقد كانت هذه القلاع على قوتها ومنتها ضعيفة في عزلتها عن امكانات الدعم الخارجي. ولقد نجح المسلمون في تدمير الجيوش في المعارك التصادمية - وأبرزها معركة حطين - فبات من المحال على حاميات القلاع أن تصمد في وجه الهجمات الشاملة والقوية. وكان ذلك هو عكس ما حدث عندما جاء الفرنج الصليبيون في حملتهم الأولى. فقد تمكروا من تدمير جيوش المسلمين في المعارك التصادمية - وأبرزها معركة أنطاكية - مما أرغم حاميات القلاع على الاستسلام. وكانت التجربة بكمالها برهاناً ثابتاً على علاقة الهجوم بالدفاع.

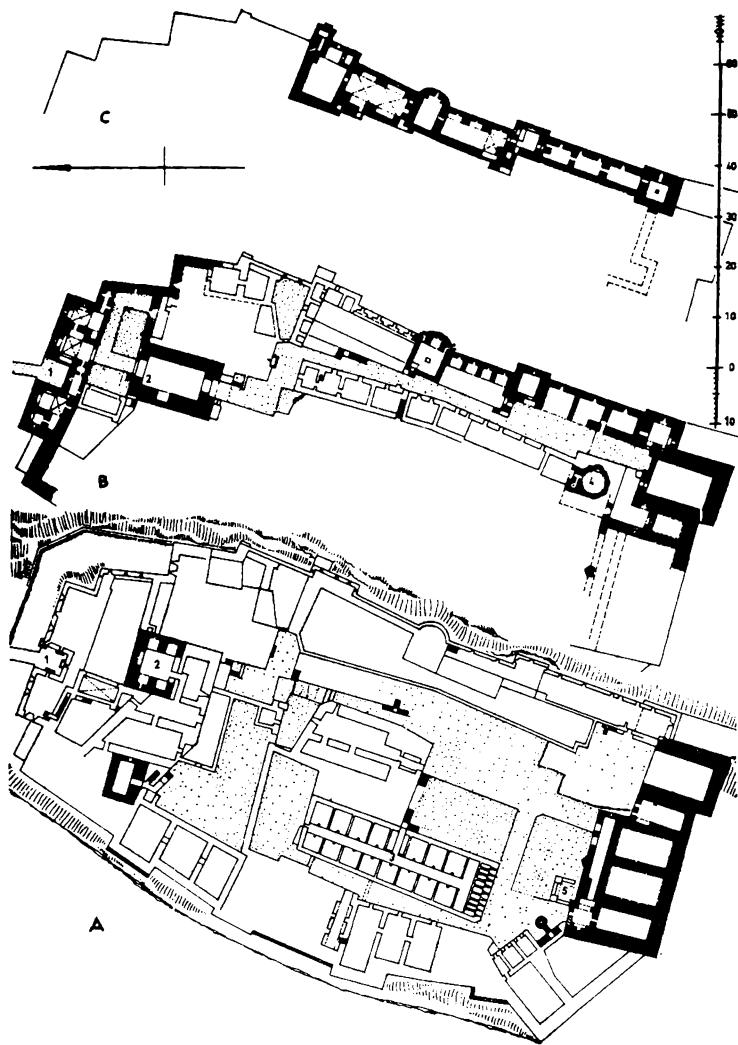
١١ - قلعة طرابلس

مدينة أطربالس هي من مدن العالم القديم ، وصفها المؤرخ أبو الفداء بقوله : « مدينة أطربالس ^(١) هي مدينة رومية ، على طرف داخل البحر ، فتحها المسلمون - سنة ١٥ هـ = ٦٣٦ م . وخربواها في سنة ثمان وثمانين وستمائة وعمرروا على نحو ميل منها مدينة سموها باسمها ^(٢) وها بساتين وأشجار كثيرة ، ويزرع بها قصب السكر وها نهر - قال المتنبي : وقصرت كل مصر عن طرابلس . وفي العزيزي : وبين طرابلس وبعلبك أربعة وخمسون ميلاً . وبين طرابلس ودمشق تسعون ميلاً . ومنها إلى أنططوس ثلاثون ميلاً » ^(٣) وقد أصبح اسم (طرابلس) بحذف الألف من أوله - هو الشائع - وهي مدينة ومرفأ على ساحل بلاد الشام . وبقيت مرفاً هاماً لدمشق طوال عهود عديدة . ويوجد الميناء الآن في موقع المستوطنة القديمة ومستوطنة العصور الوسطى . وهو عبارة عن شبه جزيرة صغيرة مع مرفاً محني جيداً بريف صخري . أما الحي السكني الحديث الواقع على السفوح الجبلية ، أعلى من الميناء ، فهو يتجمع حول القلعة العائد للعصور الوسطى . ويختلف نهر قاديشا - أو نهر أبو علي كما يسمى أيضاً - . وقد شيد هذا

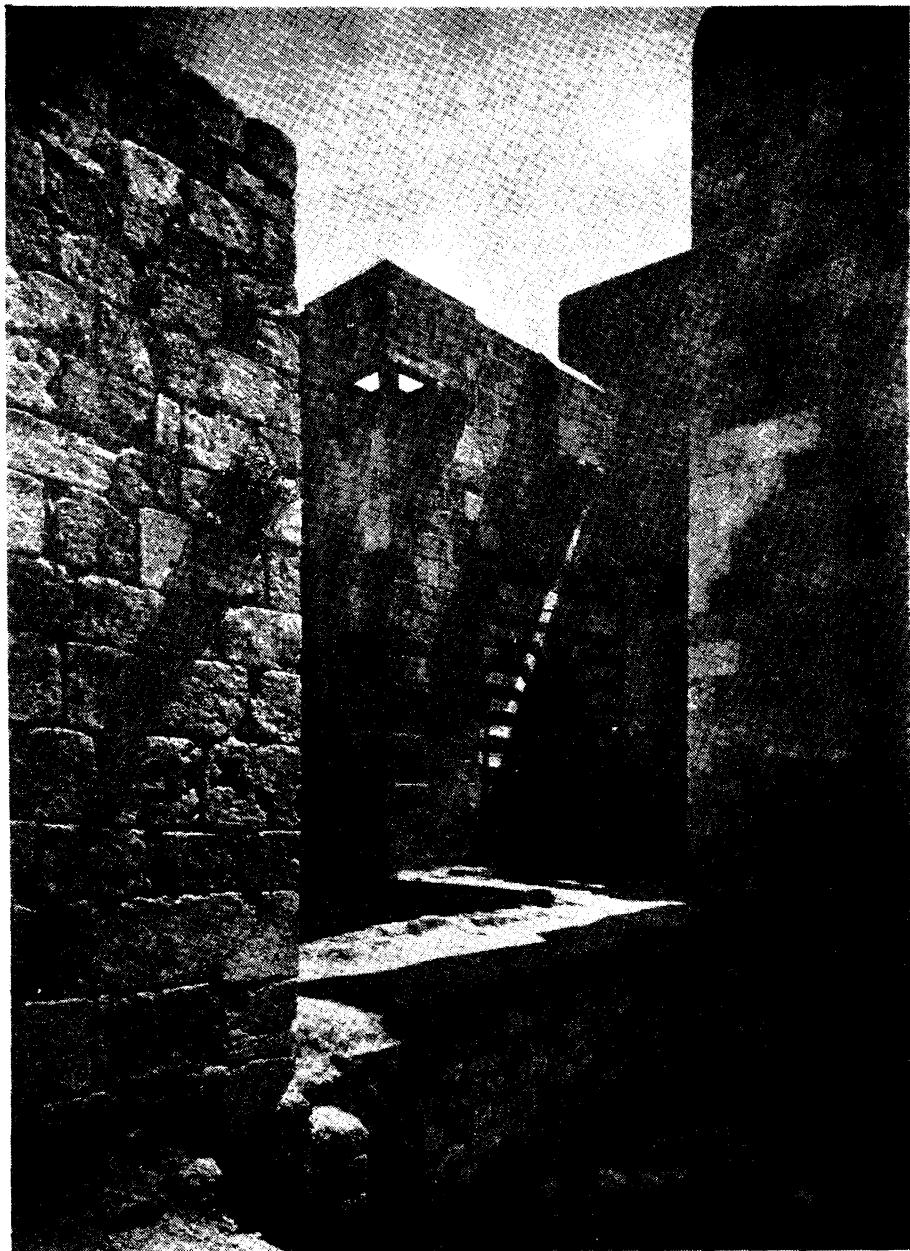
(١) مدينة أطربالس - أو طرابلس - (TRABLUS) وباليونانية : TRIPOLIS' وبالفرنكية . أما القلعة فقد أطلق عليها الفرنج اسم (قلعة صنجل) نسبة إلى ريموند كونت تولوز سانت جيل (RAYMOND IV ST. GILLES) الذي كان أحد كبار قادة الحملة الصليبية الأولى - ومات أثناء حصار طرابلس سنة ١١٠٥ م وتذكره المصادر العربية باسم (صنجل) . وتذكر المصادر الغربية أيضاً القلعة باسم (مرتفع الحجيج) (MONT PELERIN) أو مونت بيليرينوس (MONT PELLERINUS) - أو مونت بيرغرينوس (MONT PEREGRINUS) .

(٢) لم يكن هذا التدمير الذي وقع سنة ٦٨٨ هـ = ١٢٨٩ م هو أول تدمير للمدينة بهدف إعادة بنائها في مكان أكثر منعة . فقد سبق للعرب المسلمين أن دمروها سنة ٦٩ هـ = ٦٨٨ م وأعادوا بناءها نحو الداخل - كما فعل السلطان قلاوون بعد ذلك .

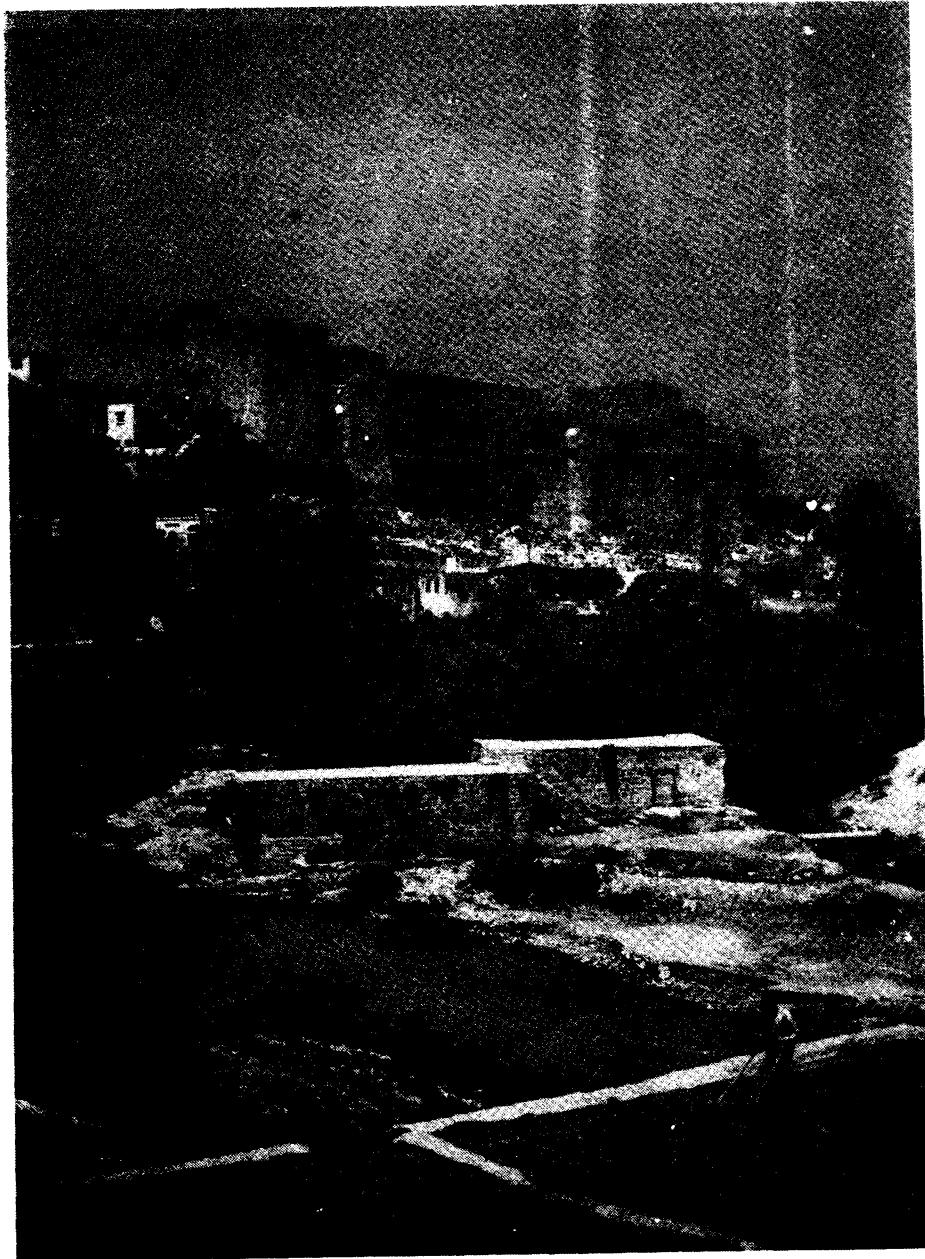
(٣) القلاع أيام الحروب الصليبية . ص : ٤٧ - ٤٨ .



١ - طرابلس - قلعة صنjjيل Tripoli-Mons Peregrinus . المخطط الأرضي للقلعة، المقاييس ١/١٠٠٠ ، أ - مخطط المستوى الأرضي الحالي ، ب - مخطط المستوى تحت الأرضي ، ج - مخطط المستوى تحت الأرضي الثاني . رسم ما أنشأه الفرنجية باللون الأسود ، ورسمت الإضافات العربية الأولى والتعديلات بالتهشير المتقطع ، والإضافات العربية المتأخرة بالتهشير العادي ، والإضافات التركية غير مهشّرة . ١ - حصن البوابة . ٢ - برج محصن . ٣ - كتلة الإسطبلات . ٤ - كنيسة فرنجية (كشفت مجدداً) . ٥ - مدافن إسلامية (أقيمت فوق أخرى مساحت) .



قلعة طرابلس



قلعة طرابلس

الحي بعد أن أعاد المسلمون فتح المدينة وطردوا الفرنج منها. ولم تكن المدينة قوية التحصين، ولكنها كانت تعتمد في دفاعها على حمامة القلعة لها. وهي تنتصب فوق جرف صخري قائم فوقها. ولم يبق من القلعة سوى قليلاً من الآثار التي تعود إلى أيام الحروب الصليبية القديمة. وقد تم تجديد القسم الأكبر منها بعد إعادة الفتح الإسلامي، وكذلك في أيام الحكم التركي العثماني.

تناولت على حكم طرابلس منذ الفتح العربي - الإسلامي سلالات وعائلات عربية كثيرة لعل من أكثرها شهرة عائلة (بني عمار) التي حكمت طرابلس منذ سنة ٤٦٣ هـ = ١٠٧٠ م. وعندما اجتاحت ربيع الحكم الفاطمي ساحل بلاد الشام، سيطرت على طرابلس سنة ٤٩٣ هـ = ١٠٩٩ م. وعندما جاء الفرنج الصليبيون، فاستولوا على انطاكية سنة ٤٩١ هـ = ١٠٩٧ م. ثم أقاموا مملكتهم في القدس في السنة التالية. وجدوا أنه لا بد لهم من الاستيلاء على طرابلس لتأمين الاتصال بين إمارتهم في الشمال وأمارتهم ومملكتهم في الجنوب. وهكذا توجه ريموند كونت تولوز سانت جيل بجيشه وألقى الحصار على طرابلس سنة ٤٩٦ هـ = ١١٠٢ م. وقد ذكرت المصادر العربية قصة هذا الحصار - ودور بنو عمار - بما يلي: «أرسل فخر الملك بن عمار صاحب طرابلس إلى الأمير ياخز خليفة جناح الدولة على حمص، وإلى الملك دقاق بن تتش. يستنصر بها على صنjjيل الفرنجي. فخرج الأمير ياخز بنفسه، وسير دقاق ألفي مقاتل. وأتواهم الإمداد من طرابلس، فاجتمعوا على باب طرابلس. وصافوا صنjjيل هناك، فأخرج صنjjيل مائة من عسكره إلى أهل طرابلس ومائة إلى عسكر دمشق وخسین إلى عسكر حمص. وبقي هو في خسین فأما عسكر حمص فانهم انكسروا عند المشاهدة - قبل الصدام - وولوا منهزمين. وتبعهم عسكر دمشق. وأما أهل طرابلس فإنهما قاتلوا المائة الذين قاتلواهم. فلما شاهد ذلك صنjjيل حل في المائتين الباقيتين، فكسرها أهل طرابلس، وقتلوا منهم سبعة آلاف رجل. ونازل صنjjيل طرابلس وحصرها. وأتاه أهل الجبل فأعانوه على حصارها. وكذلك أهل السواد. وأكثرهم من النصارى. فقاتل من بها أشد قتال. فقتل من الفرنج ثلاثة. ثم إنه هادنهم على مال وخيل. فرحل

عنهم إلى مدينة أنططوس - طرطوس - وهي من أعمال طرابلس ، فحصرها ، وفتحها وقتل من بها من المسلمين».

وفتح صنجل أيضاً مدينة جبلة وهي من أعمال مدينة طرابلس ، ثم عاد فأقام على طرابلس يحصرها ، ولما لم يقدر على اقتحامها ، فقد شيد بالقرب منها حصنًا ، وبني تحته ربضاً ، وأقام المراصد وهو ينتظر الفرصة المناسبة . فخرج صاحب طرابلس - القاضي فخر الملك أبو علي بن عمار - فأحرق ربضه . ووقف صنجل على بعض سقوفه المحترقة ومعه جماعة من القمامصة والفرسان ، فانكسف بهم ، فمرض صنجل من ذلك عشرة أيام ومات ، وحمل إلى القدس فدفن بها . « ثم أن ملك الروم - البيزنطيين - أمر أصحابه باللاذقية وقبرص ليحملوا الميرة والمئون إلى هؤلاء الفرنج الذين على طرابلس . فحملوها في البحر . فأخرج إليها فخر الملك ابن عمار اسطولاً ، فجرى بينهم وبين الروم قتال شديد . فضفر المسلمون بمركب من مراكب الروم ، فأخذوه وأسرموا من كان به وعادوا . ولم تزل الحرب بين أهل طرابلس والفرنج خمس سنين ، فعدمت الأقوات في طرابلس ، وخاف أهلها على نفوسهم وأولادهم وحرمهم . فجلا الفقراء ، وافتقر الأغنياء . وظهر من ابن عمار صبر عظيم وشجاعة ورأي سديد . فأجرى الجرایات على الجندي والضعفاء . فلما قلت الأموال عنده ، شرع يقتطع على الناس ما يخرجه في باب الجهاد . وأخذ من رجلين من الأغنياء مالاً مع غيرهما . فخرج الرجلان إلى الفرنج ، وقالا إن صاحبنا صادرنا ، فخرجنا إليكم لنكون معكم . وذكرما أن الميرة تأتي إلى طرابلس من عرقه والجبل . فجعل الفرنج جماعاً على ذلك الجانب يحفظه من دخول شيء إلى البلد . فأرسل ابن عمار وبذل للفرنج مالاً كثيراً ليسلموا الرجلين ، فلم يفعلوا . فوضع عليهما من قتلها غيلة . وكانت طرابلس من أعظم بلاد الإسلام . وأكثرها تجارة وثروة . فباع أهلها من الخلي والأواني الغربية ما لا حد له . حتى بيع كل مائة درهم نقرة بدینار . وصار الرطل من التمر يباع بدینار »^(١) . وقرر صاحب طرابلس - القاضي فخر الملك أبو علي بن عمار - مواجهة هذا الموقف بالتوجه

(١) الكامل في التاريخ . (أحداث سنة ٤٩٥ هـ- ٤٩٩ هـ- ٥٠١ هـ) وتاريخ ابن خلدون ٤٠٣ / ٥ - ٤٠٨ - ٤٠٩ . وتاريخ المزوب الصليبية (٩٩ / ٢ - ١٠٦).

إلى عاصمة المسلمين - بغداد - لطلب الدعم والمعونة من الخليفة العباسي (المستظر بالله)^(١) ومن السلطان السلاجوقى (محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان)^(٢) وقد أورد المؤرخ ابن الأثير قصة هذه الزيارة بما يلي: «قصد ابن عمار بغداد، مستنفراً على الفرنج، طالباً تسيير العساكر لازاحتهم، والذي حثه على ذلك، أنه لما طال حصر الفرنج لمدينة طرابلس، وضاقت عليه الأقوات وقتلت، واشتد الأمر عليه وعلى أهل البلد، فمن الله عليهم بحيرة في البحر من جزيرة قبرص وأنطاكية وجزائر البندقة، فاشتدت قلوبهم وقووا على حفظ البلد. فاستناب ابن عمه ذا المناقب، وأمره بالمقام بها، ورتب معه الأجناد برأ وجراً، وأعطاهم جامكية - راتب - لمدة ستة أشهر سلفاً، وجعل على كل موضع من يقوم بحفظه، وبحيث أن نائبه ابن عمه - ذو المناقب - لا يحتاج إلى فعل شيء من ذلك».

ما إن غادر صاحب طرابلس مدینته في طريقه إلى بغداد ، حتى علم أن ابن عمه الذي استخلفه على الحكم أثناء غيابه - ذو المناقب - قد اتصل بالفاطميين حكام مصر ، وعرض عليهم تسلیم مدینته ، فكتب صاحب طرابلس - القاضي ابن عمار - إلى أصحابه وأمرهم بالقاء القبض عليه وحمله إلى حصن الخواي ، ففعلوا ما أمرهم. وتتابع ابن عمار زيارته لبغداد ، ثم عاد منها إلى دمشق ، وفيها علم بأن جماعة من أهل طرابلس قد راسلوا الأفضل وزير الفاطميين ، وأمير جيوشهم بمصر ، وطلبوها منه تعيين أمير عليهم - والياً - فأرسل إليهم شرف الدولة بن أبي الطيب . فلما وصل هذا إلى طرابلس قبض على جماعة من أهل ابن عمار وأصحابه ، واستولى على ما وجده من ذخائره وألاته وغير ذلك ، وحل الجميع في البحر وأرسلهم إلى مصر . وهكذا خرجت طرابلس من حكم بني عمار .

(١) الخليفة، أمير المؤمنين، المستظر بالله، ولد سنة ٤٧٠ هـ، بويع بالخلافة سنة ٤٨٧ هـ. وتوفي سنة ٥١٢ هـ. وهو أبو العباس أحمد بن المقتدي بأمر الله. اشتهر بالبر والإحسان، وبويع بالخلافة بعده ابنه المسترشد بالله.

(٢) السلطان السلاجوقى محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان. ولد سنة ٤٧٤ هـ وتولى أمور السلطة سنة ٤٩٢ هـ. وتوفي سنة ٥١١ هـ خاض في مدة سلطنته حروبًا قاسية، كان أصعبها وأكثرها مشقة حرشه ضد أخيه بركيارق. وقد استطاع السيطرة على الموقف والانفراد بالسلطة في النهاية. وخلفه ابنه محمود.

توفي ريموند كونت تولوز أمام أبواب طرابلس - كما سبق ذكره - وأدت وفاته إلى ظهور خلاف مستحكم بين وريثيه (وليم جورдан) و(برتراند). ووقف ملك الروم البيزنطيين - الكسيوس - وأمير انطاكيه تانكرد وأمير الراها جوسلين إلى جانب وليم جوردان. كما وقف إلى جانب برتراند كل من الجنوبيين وملك القدس بلدوين . وتحرك الجميع بجيشهم إلى طرابلس لتسوية الخلاف على الارث. فجاء برتراند بجيشه ، وجاء بلدويون من الجنوب بجيشه ضم خمسة فارس وعدد كبير من الرجال - الماشة -. كما رافق تانكرد سبعين من خيرة الفرسان ، بالإضافة إلى قوات الراها . واجتمع كل امراء الفرنج وملوكهم خارج أسوار طرابلس في حزيران - يونيو - ١١٠٩ م. وعقدوا مؤتمراً لهم في قلعة (جبل الحجيج - أو جبل الحاج). وتم الاتفاق على تقسيم إرث ريموند كونت تولوز . فقرر أن يحفظ وليم جوردان بطرطوس وحصن عرقه ، وأن تكون جبيل وطرابلس - عند الاستيلاء عليها - من نصيب برتراند . ونهض جيش الفرنج الصليبيين بمجموعة للهجوم على طرابلس . وتعرض المسلمين في طرابلس لمعاناة لا توصف ، لاسيما بعد أن شدد الفرنج حصارهم براً وبحراً . وقرر (شرف الدولة) تسليم المدينة للفرنج . وأرسل إلى ملك القدس - بلدويون - وعرض عليه شروط التسليم ، فطلب الأمان لكل من أراد أن يغادر المدينة من سكانها ، بما يحمل من متاع . أما من أراد منهم البقاء ، فيعتبر من رعايا الفرنج ويحتفظ بأملاكه على أن يؤدي ضريبة سنوية . وطلب لنفسه الاذن بالرحيل مع عساكره . ووافق بلدويون على هذه الشروط . ودخل الفرنج إلى مدينة طرابلس ، وشقوا طريقهم إلى داخل المدينة ، وبعد أن تبين لهم خلوها من وسائل الدفاع ، نكثوا عهدهم ، وأخذوا ينهبون الدور ويحرقونها ، ويقتلون كل من يصادفهم من المسلمين ، وتم في غمرة هذه الفوضى احراق مكتبة بني عمار بكاملها ، والتي كانت تعتبر من أروع مكتبات العالم في تلك الحقبة .

احتلت طرابلس وامارتها مكانة مميزة بين إمارات الفرنج ، بسبب موقعها باعتبار أنها عقدة الاتصال بين الشمال وبين الجنوب ، وبسبب ما توافر لها من موارد الثروة . وأصبحت من قواعد العدوان الثابتة ضد المسلمين . ومن ذلك على سبيل المثال ما حدث سنة ٥٢٨ هـ = ١١٣٣ م عندما خرج كونت طرابلس - بونز - للاغارة على

بلاد المسلمين، وبينما كان يجتاز جبال النصيرية - العلوين حالياً - وقع في كمين نصبه له فرسان التركمان، فهرب إلى (قلعة بعرین)^(١) الواقعة على حافة وادي نهر العاصي. فما كان من ملك القدس - فولك - وكان، في طريقه لنجدته إمارة أنطاكية، إلا أن توجه إلى قلعة بعرین، ورفع الحصار عن كونت طرابلس، وأنقذه من مأزقه.

ومقابل ذلك، كان العرب المسلمين يوجهون هجماتهم ضد قاعدة العدون في طرابلس، كلما توافرت لهم الفرصة المناسبة، على نحو ما حدث - مثلاً - سنة ٥٣١ هـ = ١١٣٦ م عندما انطلق جيش دمشق عبر لبنان إلى طرابلس. فهاجم جيش طرابلس وقتل ملكها - بونز - فما كان من وريثه (ابنه ريموند الثاني والذي تولى الحكم بعده) إلا أن جرّد حملة انتقامية ضد المسلمين في القرى المجاورة لمدينة طرابلس، فقتل كل رجالها، وسبى النساء والأطفال فباعهم ريقاً بطرابلس. ثم انضم بجيشه إلى جيش ملك القدس للهجوم على المسلمين، حيث وقعت معركة قاسية وحاسمة قرب قلعة بعرین، انتصر فيها المسلمين وقتلوا كونت طرابلس - ريموند الثاني - . أما ملك القدس - فولك - فقد هرب إلى قلعة بعرین، فأسرع جيش الرها وجيش القدس لإنقاذ ملك القدس الملك فولك من الحصار الذي ضربه المسلمون على القلعة. ودارت مفاوضات وافق فيها فولك على تسليم القلعة للمسلمين مقابل إطلاق سراح الفرنج الذين كانوا معه تحت الحصار.

قد يكون من غير المفيد الإطالة في البحث للاحاطة بمجموعة الأحداث التي عاشتها طرابلس تحت حكم الفرنج، وما تعرضت له من زلازل الطبيعية ومن الصراعات الداخلية، ومن الحروب الخارجية، والمهم في الأمر هو أن هذه الأحداث جيئها لم تصرف حكام طرابلس المتتابعين عن العمل باستمرار لزيادة قوة تحصينات طرابلس ودعمها. فكان الحي السكني محيناً من جهة البحر بستة أبراج قوية. كما كان الميناء

(١) قلعة بعرین - هي القلعة المعروفة عند الفرنج باسم (MONTEFERRAND).

- رأس طرابلس - محياً بكماله بسور متصالب، تدعمه أبراج وخنادق. ولم تكن كونتية - إمارة - طرابلس تعتمد على قوة دفاعها الذاتي قدر اعتمادها على القلاع والحسون المجاورة لها - والتي كانت بمثابة درع الوقاية مثل جبلة وبانياس وطرطوس. وعندما تحول المسلمون من الدفاع إلى الهجوم، وأخذوا في القضاء على وجود الفرنج وتصفية قواعدهم ومرتكزاتهم، عملوا بصورة معاكسة تماماً، وهذا لم يتعرضوا لمدينة طرابلس مباشرة. وإنما بدؤوا بتجريدها من القلاع والحسون المجاورة لها. ففي سنة ٦٦٥ هـ = ١٢٦٦ م. وبينما كان الظاهر بيبرس يعمل على طرد بقايا الفرنج من الجليل في فلسطين. عمل الأمير قلاوون على حشد جيش كبير من المالكية في حمص. وانطلق به في هجوم عاصف على اتجاه طرابلس. ففتح حصني القليعة وحالة ومدينة عرقة التي كانت تحكم بالطريق القادر من البقيعة إلى طرابلس ثم قاد الظاهر بيبرس بنفسه جيشاً ضخماً من المسلمين ففتح قلعة الشقيف في ١٥ نيسان - أبريل - ١٢٦٨ م (٦٦٧ هـ). ثم تابع الظاهر بيبرس^(٢) تقدمه شمالاً، فوصل طرابلس، ولكنه تجنب الاصطدام بها، وسار حتى وصل انطاكية، ففتحها بعد حصار طويلاً ومعارك ضارية. وتابع السلطان قلاوون^(٣) السير على نهج سلفه الظاهر بيبرس، ففتح حصن المربك سنة ٦٨٤ هـ = ١٢٨٥ م. وفتح اللاذقية سنة ٦٨٦ هـ، وجاء دور طرابلس سنة ٦٨٨ هـ. حيث قاد السلطان قلاوون جيش مصر بكماله، ليظهر بصورة مباغته وغير

(١) تاريخ الحروب الصليبية : ٥٥٢ / ٣ .

(٢) الظاهر بيبرس. هو الملك الظاهر ركن الدين (١٢٢٣ - ١٢٧٧ م) أشهر بأنه من أقدر سلاطين المالكية البحرية في مصر. خدم في جيش الملك الصالح نجم الدين الأيوبي وتوران شاه. وبرز اسمه في معركة البحرية - المنصورية - سنة ١٢٥٨ م. حيث هزم الفرنج هزيمة منكرة، كما برع اسمه في معركة عين جالوت ضد المغول (سنة ١٢٦٠ م) وأمضى بقية حياته مجاهداً في سبيل الله ضد الفرنج في بلاد الشام (١٢٦٥ - ١٢٧٧ م) ففتح كثيراً من البلاد التي كانت تحت حكمهم. ومات ودفن بالظاهرية في دمشق.

(٣) السلطان قلاوون - الملك المنصور (١٢٢٣ - ١٢٩٠ م) مؤسس أسرة قلاوون في مصر اشتهر بكفاءاته القيادية العليا، وإيمانه واخلاصه وشجاعته. انتصر على المغول. وهزم ملك النوبة. وخلفه في الحكم ابنه (الأشرف خليل).

متوقعة أمام أسوار طرابلس. وأسرع الفرنج لارسال الامدادات والدعم من قبرص وعكا. كما أرسلت الطوائف الدينية (الداوية والاستبارية) أفضل قواتها. وجاءت سفن للبنادقة وبيزا وجنة لتقديم الدعم البحري. وعلى الرغم من أنه صار للفرنج السيطرة على البحر ، فإن ما كان للمسلمين من التفوق في عدد افراد الجيش وفي توافر أدوات الحصار ، قد برهن على أنه لا سبيل لمقاومتهم. فلما انهار برج الأسفف الواقع في الركن الجنوبي الشرقي للأسوار البرية ، وبرج الاستبارية الواقع بين برج الأسفف والبحر ، بعد أن تعرضا للقصف الشديد ، قرر البنادقة أنه من المحال المضي في الدفاع. فبادروا إلى شحن سفنهم بكل أمتاعهم ، ثم أقلعوا إلى خارج المدينة . ولحق بهم الجنويون على عجل ، مما أثار الفوضى خلال تدفق المسلمين إلى المدينة ، حيث ثمت إبادة المقاومات فيها. وعندما تم احتلال طرابلس ، أمر السلطان قلاوون بتدمير المدينة ومساواتها بالأرض حتى لا يحاول الفرنج الاستيلاء عليها من جديد بقوتهم البحرية. وأصدر الأوامر بوضع أساس مدينة جديدة في سفح تل الحاج (أو الحجيج) وعلى مسافة أميال إلى الداخل. ومضى جند المسلمين - المالك - ففتحوا البرتون ونيفين. وبذلك لم يبق في قبضة الفرنج من مدن الساحل إلا عكا وجبيل. ولهذا فقد تسبب فتح المسلمين لطرابلس بصدمة قوية لحامية عكا وللفرنج المقيمين فيها ، إذ تبين لهم بوضوح المصير الذي يتضررهم ، وأن مصيرهم وبقاءهم على أرض بلاد الشام لم يعد أكثر من قضية وقت . وانزعج ملوك الغرب أيضاً لما حل بطرابلس من مصير ، غير أنهم كانوا في حالة عجز تام عن القيام بعمل عسكري جديد. لقد استنزفت الحملات الصليبية المتتالية قدرة الغرب العسكرية ، بمثل ما استنزفت قدرة المسلمين ، لكن هؤلاء بقوا أكثر تصميماً على الوصول بالحرب إلى نهايتها الظافرة ، فحطموا أحلام المحرضين على الحروب الصليبية ومستمربيها ، وماتت حماستهم للحرب - ولو بصورة مؤقتة - .

أنسَدَ السُّلْطَانُ قِلَاوُونَ - وابنِهِ الْأَشْرَفِ خَلِيلٌ مِّنْ بَعْدِهِ - مَهْمَةُ اِعْدَادِ بَنَاءِ طَرَابِلُسَ إِلَى الْأَمْيَرِ الْعَرَبِيِّ - سَيفِ الدِّينِ أَسْدِ مِرْكُوجِيِّ، الْمُنْصُورِيِّ - الَّذِي عَمِلَ عَلَى بَنَاءِ طَرَابِلُسَ الْجَدِيدَةِ. وَاسْتَمْرَرَ فِي الْعَمَلِ حَتَّى سَنَةُ ٧٠٩ هـ = ١٣٠٩ م. وَأَجْعَمَ التَّجَارُ الَّذِينَ يَجْوِبُونَ الْبَلَادَ أَنَّهُ مَا عُمِرَ مِثْلَهَا فِي بَلَدٍ مِّنَ الْبَلَادَنَ. وَعَادَتِ إِلَى طَرَابِلُسَ بِهِجْتَهَا

وطهرها ، وعمر قيسارية كما شيد بعض القلعة ، وأقام أبرا جاً ، فاز دهرت طرابلس
ورجعت قاعدة قوية للإسلام وأهله . وحفظت أطلال المدينة للمجاهدين ذكرًا هم
الطيبة فإذا كان بنو عمار قد بذلوا أكثر مما هو مستطاع . فقد جاء قلاؤون لينتقم
للسلف من بني عمار ، ولمن سار على دربهم من المجاهدين في سبيل الله .

١٠ - قلعة طرطوس .

طرطوس^(١) (أنططروس. قدماً) هي مدينة وميناء بحري ومحطة للقوافل. شغلت موقع مستوطنة كبيرة وقدية على ساحل بلاد الشام. وكان للمدينة الصغيرة سور يحيط بها، تحرسه أسوار، مع قلعة قوية في الزاوية الشمالية الغربية. وتمة خنادق وأسوار خارجية تحيط بالسور الداخلي مدعمة بأبراج مستطيلة. وتتأخر - القاعة الكبيرة - القسم الداخلي من جهة الشمال. وتنشر حول الجوانب الأخرى أحياe سكنية بسيطة مع حوانيت على شكل ممرات متراوحة ذات عقود. وإلى جوار البحر مباشرة ينتصب برج محسن قوي - لا تزال موجودة بعض الآثار من أساساته وقواعده. وتوجد في الحي السكني كنيسة (القديسة ماريا - كما يسمونها)★ والتي رمت حديثاً، وكانت من قبل كانتدرائية وكنيسة هامة عندما احتل الفرنج الصليبيون مدينة طرطوس وأقاموا فيها. ولا بد من التمييز بين طرطوس هذه، وبين طرطوس الأخرى التي حلت الاسم ذاته وهي تقع في قيليقية والتي بقيت ثغراً من ثغور العرب المسلمين مع المصيصة وأذنة ومرسين (في تركيا حالياً). وكان لها دورها أيضاً في الحروب الصليبية القديمة، مما خلق التشابه لا في الاسم فقط، وإنما في الدور التاريخي أيضاً، وقد وصف أبو الفداء أنططروس. بقوله: «أنططروس هو حصن على بحر الشام. وهو ثغر لأهل حصن». وكان به مصحف عثمان رضي الله عنه. قال في اللباب: هي بفتح الممزة وسكون النون وفتح الطاء وسكون الراء وضم الطاء الثانية ثم واو وفي آخرها سين. فتحها العرب المسلمون. وخربوا أسوارها. وهي آهلة»^(٢). والمعروف أن معاوية بن أبي سفيان رضي

(١) طرطوس: (TARTUS) وبالفرنجية تورتوزا: (TORTOSA) أو تورتوس: (TORTOUSE) نسبة إلى اسمها القدم، انططروس ANTARSUS وأنتاردوس: (ANTARDUS).

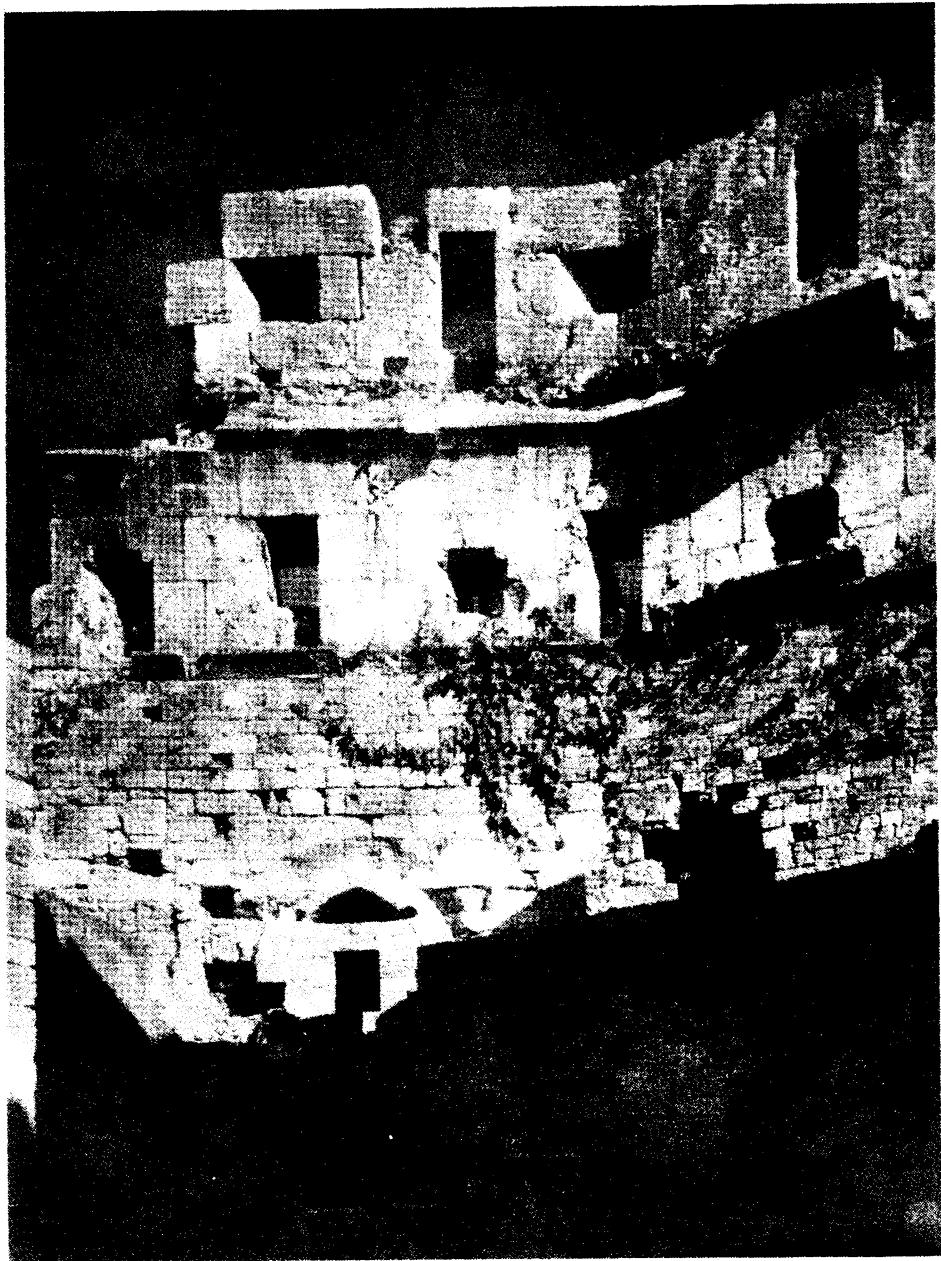
* كنيسة القديسة ماريا: (CHURCH OF ST. MARY).

(٢) القلاع أيام الحروب الصليبية، ص: ٦١ - ٦٢.

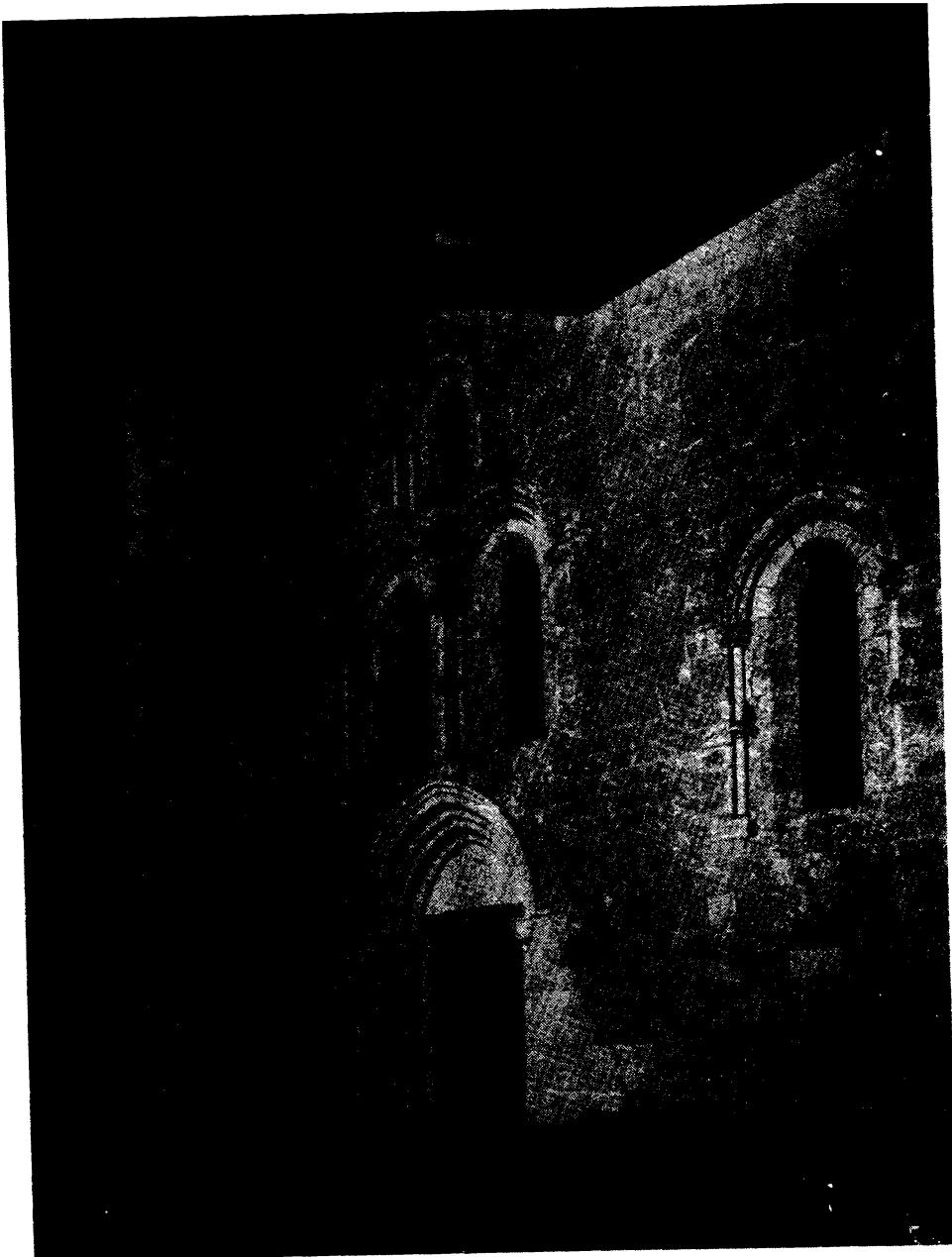


طرطوس Tartus
مخطط المدينة، المقياس ١/١٠٠٠٠ (الخطوط المنقطة تمثل مقاطع السور التي لم تعد موجودة).

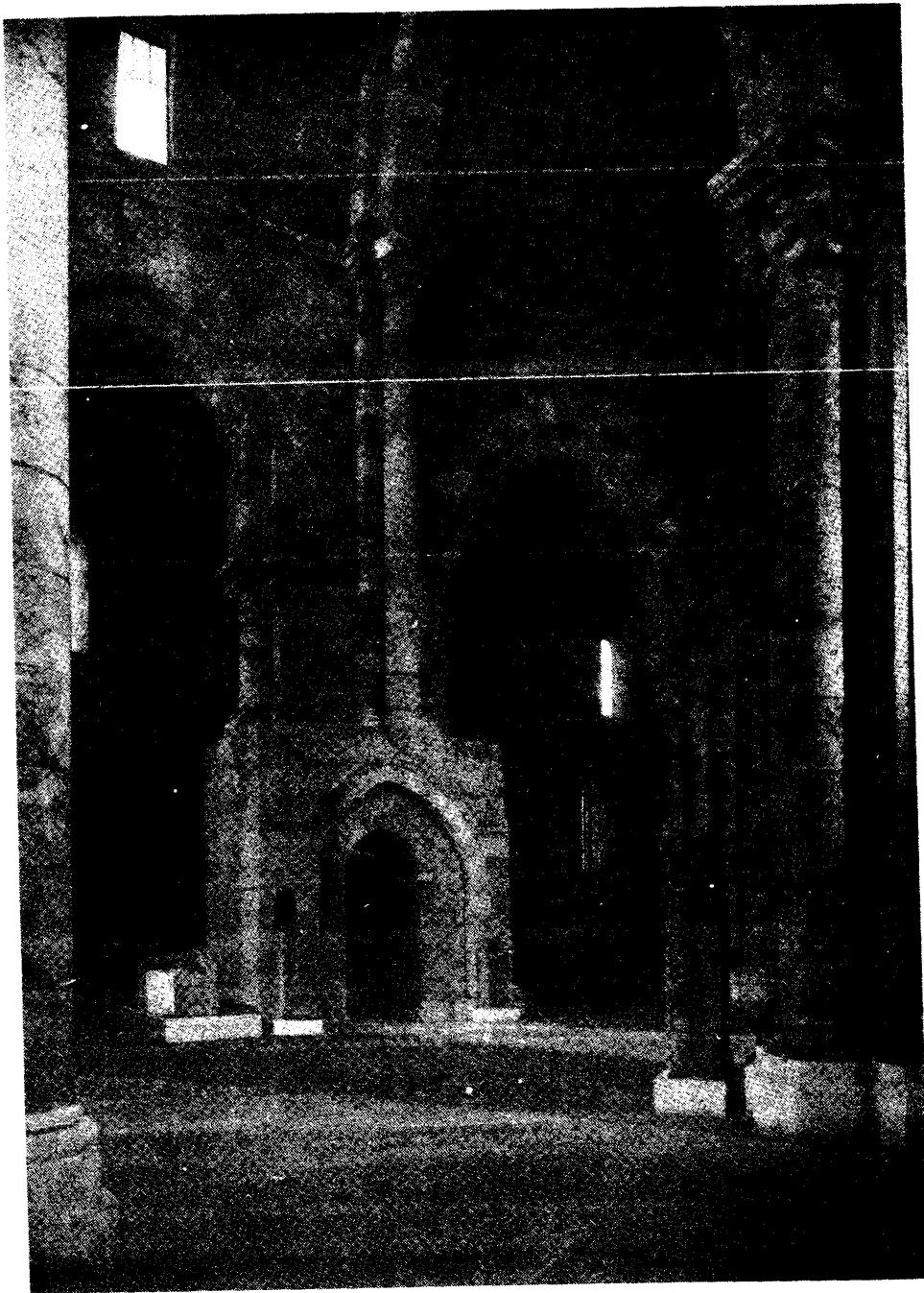
١ - فناء أمامي لقلعة الداوية، ٢ - برج محصن، ٣ - كنيسة متصدعة، ٤ - القاعة الكبرى Chapter house، ٥ - سور المدينة (مخرب جزئياً)، ٦ - بوابة المدينة، ٧ - كاتدرائية القدسية ماريا.



قلعة طرطوس



قلعة طرطوس



قلعة طرطوس

الله عنه قد جعل من طرطوس ثغراً بحرياً، وداراً لبناء السفن، وجلب إليها العمال، فاعتزت وازدهرت، واستمرت في ممارسة دورها في رفع راية jihad في سبيل الله. فكان لها شأن كبير أيام حرب التغور. وتعرضت لحقد الروم، ولكنها صمدت في مواجهة التحديات. حتى إذا ما أقبل القرن الرابع للهجرة، ومزقت الصراعات المذهبية المجتمع الإسلامي شرّ تمزيق. وجدت طرطوس أنه ليس باستطاعتها ، هي أو سواها من مدن بلاد الشام ، الساحلية منها والداخلية على السواء. عزل نفسها عن ذلك الصراع ، والدامي أحياناً ، بين دار الخلافة ببغداد ، حيث الطاعة والجماعة والإمامية لأهل السنة ، وبين الفاطمية في القاهرة حيث التشيع وما تفرع عنه من المذاهب الباطنية (الاسماعيلية والدرزية) .

وكان من طبيعة الأمور أن يرافق هذا الصراع ظهور حركات التمرد وأعمال الانشقاق والعصيان في إطار الولاء لهذا المعسكر أو ذاك مع وجود التحرير والتوريض المضاد ، والذي يغذي النزعات الاستقلالية لامراء المدن وجيوشها كلما حانت الفرصة المناسبة. وقد عرفت طرطوس مثل هذه الأعمال عندما فرض عليها الفاطميون حكمهم ، فأعلنوا ثورتها المرة بعد المرة ، مما حمل حاكم مصر الفاطمي - المستعلي بأمر الله - على ارسال اسطوله وجيشه سنة ٤٨٦ هـ = ١٠٩٣ م وسنة ٤٩٠ هـ = ١٠٩٦ م. من أجل اخضاع طرطوس الثائرة. وقد يكون من الصعب تقدير مدى الضعف الذي نزل بجيوش المدن وأهلها نتيجة لهذا الصراع الطائفي - المذهبي - على أن الأمر الثابت هو أن الغزوة من الفرنج الصليبيين قد استثمروا هذا الواقع ، وأفادوا منه حتى أبعد الحدود. مما ساعدتهم على احتلال انطاكية ومعرة النعمان (سنة ٤٩١ هـ = ١٠٩٧ م) ثم القدس وقيسارية (سنة ٤٩٤ هـ = ١١٠٠ م) وأصبحت للفرنج السيطرة على فلسطين كلها - باستثناء عسقلان - مع اللاذقية. وبقيت طرطوس - مع طرابلس - صامدة في وجه غزو الفرنج. وقد تساقطت من حولها المدن الساحلية والداخلية ، مع ما يتبعها من حصون وقلاع ، وما يحيط بها من سهول وجبال.

كان (ريوند كونت تولوز) هو أغنى أمراء الحملة الصليبية الأولى. فلما استقر في

أنطاكية شرع في التفكير بإقامة إمارة تحكم في الطريق الساحلي وطريق نهر العاصي. على أن تكون مدينة حمص هي عاصمة هذه الإمارة. وجعل هدفه الأول الاستيلاء على بقية المدن الساحلية، بالإضافة من دعم أسطول جنوه الذي كان قد وصل إلى سواحل بلاد الشام. وتحرك ريموند من أنطاكية، حتى إذا ما وصل إلى مدينة اللاذقية، انضممت إليه القوات، فسار بها إلى طرطوس. وما بلغ أسوار المدينة، كان أسطول جنوه قد وقف في عرض البحر تجاه الساحل. ووجد حاكم طرطوس أنه لا قبل له بمواجهة هذا الحصار البري والبحري. غير أنه بذل من المقاومة قدر استطاعته. ونجح لفرنج في اقتحام المدينة (في منتصف شهر شباط - فبراير - سنة ١١٠٣ م) وقتلوا على جري عادتهم كل من كان بها من المسلمين. وقرر ريموند أن يجعل من طرطوس عاصمة له ولamarah.

وكان سقوط أنطاكية - طرسوس - في قبضة الفرنج هو البداية لانهيار بقية المقاومات في المدن الساحلية، إذ لم تلبث طرابلس وبيروت حتى لحقتا بطرطوس (سنة ١١٠٣ هـ = ٥٠٣ م) وتبعتها صيدا وصور في السنين التاليتين. وأصبحت مدن ساحل بلاد الشام تحت قبضة الفرنج الصليبيين. وكما كانت طرطوس غموضاً للعناد في القتال، أيام المسلمين، فقد عمل الفرنج، بمجرد استيلائهم عليها، على تحويلها وجعلها قاعدة للعدوان على بلاد المسلمين. فعمل (ريموند كونت تولوز) على تنظيم قواته في طرطوس، وانطلق بها لمهاجمة طرابلس. وقد أدرك المسلمون خطورة ما أراد تحقيقه ريموند، فسارع أمير حمص وأمير دمشق إلى إرسال بعض قواتهما لقتال ريموند، وانضم جيش طرابلس إليها، غير أن الانتصار الذي أحرزه ريموند وما نتج عن ذلك من مغامن مادية. قد ضمن لريموند القدرة على متابعة تنفيذ مخططه التوسيعي. فخرج في ربيع السنة التالية (٤٩٧ هـ = ١١٠٣ م) للاستيلاء على قلعتي الطوبان والحسن بهدف عزل طرابلس والوصول إلى حمص. غير أن هذه المحاولة باءت بالفشل. فأعاد ريموند محاولته واستولى على جبلة، وعاد لخصار طرابلس وهناك لقي مصرعه (٤٩٩ هـ = ١١٠٥ م) غير أنه حقق للفرنج كسباً كبيراً، إذ أقام لهم إمارة صليبية، وحدد لهم

النهج الذي يسرون عليه . وجعل من طرطوس ثغراً للفرنج ، وقاعدة للعدوان والتلوّع على حساب بلاد المسلمين^(١) .

استأثرت الأعمال العدوانية للفرنج باهتمام قادة المسلمين ، الذين حاولوا الرد عليها بشكل مناسب . حتى إذا ما جاء نور الدين زنكي ، تولى قيادة جيشه وهاجم طرطوس (سنة ٥٤٧ هـ = ١١٥٢ م) وأمكن له فتحها وطرد الفرنج منها . فأسرع ملك الفرنج - بدلوين الثالث - لقيادة جيشه ، واستطاع احتلال طرطوس من جديد (سنة ٥٥٣ هـ = ١١٥٨ م) ومنحها إلى فرسان الداوية الذين جعلوا منها مقراً لقيادتهم ، وقاعدة لأعمالهم العدوانية . وكان استيلاء نور الدين على طرطوس ، ثم تحرك الفرنج بسرعة لاستعادة السيطرة عليها ، بمثابة برهان على ما كانت تمثله طرطوس من الأهمية في مشاريع الفرنج وخططاتهم . ولم يكن تسليمها لطائفة فرسان الداوية - المتطرفين - إلا تأكيداً على تصميم الفرنج للتمسك بهذه القاعدة بقوة في وسط (متلكاتهم) كما كانوا يزعمون .

انصرف فرسان الداوية لاستئصال موقع المدينة فعملوا على إعادة بناء المرفأ - الميناء - وأقاموا التحصينات الكاملة ، ودعموا الدفاع ، وتابعوا بناء الكنيسة التي كان الفرنج قد شرعوا باقامتها منذ سنة ١١٢٣ م (وأطلقوا عليها اسم كنيسة القديسة ماريا) وظلت طائفة فرسان الداوية أنها أصبحت بآمن من ويلات الحرب وهي متخصصة وراء أسوارها و مواقعها الدفاعية . غير أن المسلمين أفادوا من نتائج موقعة حطين لتطهير أعمالهم المجوهرة . وسار صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٤ هـ = ١١٨٨ م . نحو الشمال : « فنزل بأنططروس ، في السادس من جادى الأولى ، فرأى أن الفرنج قد أخلوا المدينة ، واحتلوا في برجين حصينين كل واحد منها قلعة حصينة ومعقل منيع ، فحاصرها صلاح الدين ، فنزل إليه من في أحد البرجين بأمان ، وسلموه بأمانهم . وضرب البرج ، وألقى حجارته في البحر . وبقي الذي فيه الداوية لم يسلمه . وكان

(١) الكامل في التاريخ: احداث سنوات: ٤٨٦ و ٤٩٠ و ٤٩٩ و ٥٤٧ و ٥٥٣ و ٥٨٤ وتاريخ الحروب الصليبية: ٩٥/٢ - ١٠١ .

معهم مقدمهم الذي أسره صلاح الدين يوم حطين. ثم أطلقه ملك القدس، فهو الذي حفظ هذا الحصن. فخرّب صلاح الدين ولاية أنططوس. ورحل عنها». وما إن ابتعد صلاح الدين وجيشه حتى أسرع الداوية لترميم حصونهم وإصلاح قلاعهم، وعاودوا أعمالهم العدوانية. وفرضوا هيمتهم على الريف المحيط بهم. كما فرضوا على طائفة الاسماعيلية - الباطنية أو الحشاشين - إتاوة ضخمة يؤدونها لهم سنويًا. وضاق الاسماعيلية ذرعاً بهذه الاتاوة، فدفعوا أحد رجالهم لاغتيال الكونت ريموند - أكبر أبناء أمير أنطاكية بوهمند وذلك سنة ٦١٠ هـ = ١٢١٣ م. فلقي ريموند مصرعه في كاتدرائية طرطوس.

ولما كان الفرنج في أنطاكية وطرابلس قد أدركوا أن بقاءهم في بلاد الشام يرتبط بقدرتهم على التعايش مع المسلمين، فقد أخذوا في إقامة علاقات معهم بوجوب هدنة يعقدونها لمدة طويلة (عشر سنوات). إلا أن المتطرفين من الفرنج، وفي طليعتهم طائفة فرسان الداوية، كانوا يثيرون المتابعة في وجه حكامهم ويدفعونهم للبقاء على جذوة العداء متقدة ضد المسلمين - على نحو ما حدث مثلاً سنة ٦٢٨ هـ = ١٢٣٠ م عندما انطلق فرسان الداوية من طرطوس، ومعهم طائفة فرسان الاستبارية، فأغاروا على حاه، إلا أن المسلمين نصبووا كميناً للفرنج، وألحقوا بهم هزيمة ساحقة. ثم قام بوهمند الرابع أمير أنطاكية بهجمات على الداوية بطرطوس - ما بين حين وآخر - لکبح جاح تطرفهم، وحلهم على الالتزام بشروط الهدنة مع المسلمين، فتجددت الهدنة حتى سنة ٦٣٥ هـ = ١٢٣٧ م. حيث قام الداوية مجدداً بانتهاك شروط الهدنة عندما انقضوا على قبائل التركمان التي كانت ترتع آمنة إلى الشرق من بحيرة أنطاكية، مما دفع جيش حلب لهاجتهم، فتدخل أمير أنطاكية مرة أخرى وتجددت الهدنة. وأدرك الداوية أخيراً أنه لا قبل لهم بالتصدي لغضب المسلمين، ومجابهة هجماتهم، فاستكانوا. وعندما قام السلطان الظاهر بيبرس بشن هجماته الواسعة لطرد بقايا الفرنج من بلاد الشام، وأعاد فتح صيدا، ووصل في تقدمه إلى شمال طرابلس (سنة ٦٦٧ هـ = ١٢٦٨ م) أسرع الداوية في طرطوس، فأعلنوا خضوعهم، والتمسوا من السلطان أن يبقى لهم بلادهم وتتوسلوا إليه، فتركهم إلى حين، ومضى عنهم إلى أنطاكية حيث أعاد فتحها.

أصبحت طرطوس هي القاعدة الأخيرة لتجمع بقايا الفرنج - وبصورة خاصة منهم فرسان الداوية -. فعندما أعاد الظاهر بيبرس فتح صافيتا (القلعة البيضاء) سنة ٦٧٠ هـ = ١٢٧١ م. سمح لمن بقي من فرسان الداوية بعد انتهاء القتال باللجوء إلى طرطوس. وأدرك مقدم الداوية (توماس بيبراد) أن مستقبل ما بقي للدواية من ممتلكات في طرطوس بات غامضاً ومحفوفاً بالمخاطر ، فأخذ في البحث عن مكان أكثر أمناً ، وتوجه بيبره نحو قبرص. وضاقت الأرض - أرض الشام - على رحبتها ببقايا الفرنج. فعندما استولى السلطان قلاوون على حصن المرقب سنة ١٢٨٥ م خرج خمسة وعشرون رجلاً لا أكثر ومعهم كل أمتعتهم، ولجؤوا إلى طرطوس. وعندما أعاد الأشرف خليل - ابن السلطان قلاوون - على عكا سنة ١٢٩١ م انسحب الداوية إلى طرطوس ، وتبعدوا الفرنج من بقية مدن الساحل . وما لبث فرسان الداوية أن غادروا طرطوس إلى جزيرة أرواد القريبة من الساحل - ولم ينسوا أن يحملوا معهم صورة العذراء مريم التي انتزعوها من الكنيسة. وظن الداوية أن باستطاعتهم البقاء في هذه الجزيرة المنعزلة ، غير أن المسلمين تقدموها إلى جزيرة أرواد ، وطردوا منها الداوية بقيادة السلطان المملوكي الناصر محمد . وعاد الفرنج للهجوم على طرطوس في مرات متباude ، منطلقين في هجومهم من جزيرة قبرص. غير أن الفشل كان من نصيب هذه الهجمات. وبقيت طرطوس ومعها أرواد قاعدة ثابتة من قواعد الإسلام وأهلها.

١٩ - قلعة عكا

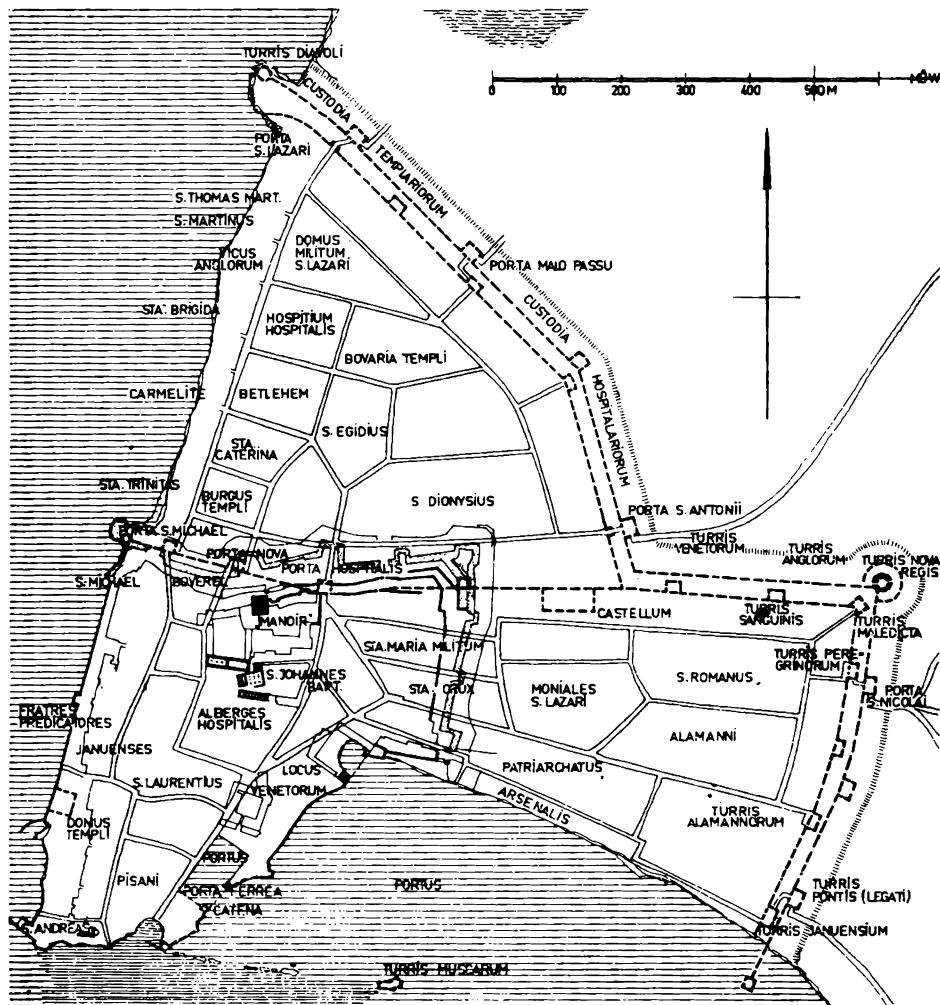
تقول أوايد العرب المسلمين التاريخية بأن أمير المؤمنين سعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، هو أول من عرف أهمية عكا بعد الفتح: «ولقد كان اهتمام معاوية بركوب البحر، قد دفعه لاستئثار العمال، ومن لهم خبرات في صناعة السفن، وحشرهم في عكا. ورمم الحصن والمرفأ. وجعله داراً لصناعة السفن وتجهيز الأسطول العربي واعداده. وقد كانت الصناعة بساحل الأردن على عهد معاوية في مدينة عكا. كما كانت السفن تبني في أيام معاوية في سواحل الشام. صور وعكا وطرابلس»^(١) وهكذا شهدت عكا ولادة أول أسطول للعرب المسلمين. وعاشت أحداث الفتوح البحريّة الإسلامية المثيرة. ولقد أقام العرب المسلمون بعد ذلك دوراً لصناعة السفن على سواحل البحر الأبيض المتوسط، مثل جزيرة الروضة في مصر وفي تونس وفي الأندلس. غير أن عكا لم تفقد أهميتها. وبقيت ثغراً رئيساً من ثغور العرب المسلمين. وقد وصف مؤرخ حماه - أبو الفداء - مدينة (عكا)^(٢) بقوله: «عكا هي مدينة كبيرة من سواحل الشام. وداخلها عين تعرف باسم عين البقر، وبها مسجد ينسب إلى صالح عليه السلام. ومن كتاب المسالك: وبين عكا وبين طبرية أربعة وعشرون ميلاً. ومنها إلى مدينة صور اثنا عشر ميلاً. وقد حل بها الخراب بعدما استرجعوا المسلمين من أيدي الفرنج سنة تسعين وستمائة»^(٣). ويصلح ميناء عكا لرسو السفن في كل الفصول.

وبعد عكا عن القدس مسافة تزيد على مائة ميل، وهذا الميناء هو الميناء الرئيسي

(١) فتوح البلدان - البلاذري - ص: ١٢٤.

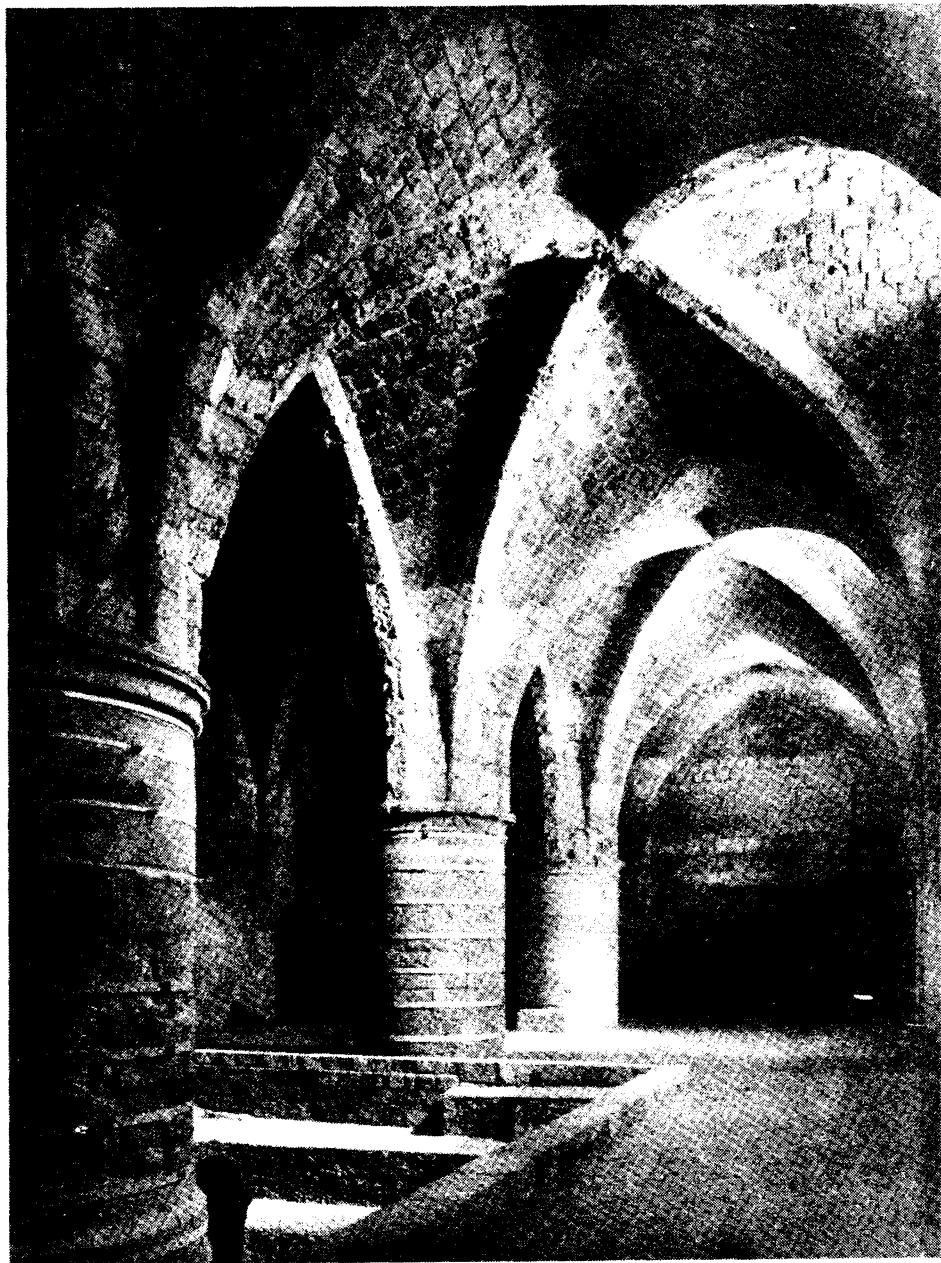
(٢) عكا: (ACRE-AKKON) وباليونانية بتولومايس (PTOLEMAIS) وبالفرنسية: (SAINT-JEAN D'ACRE) وأكري: (ACRI).

(٣) القلاع أيام الحروب الصليبية ص: ٩٤ - ٩٦.



عكا

خطط المدينة يشمل محاولة لإعادة تركيب الأسوار القديمة، المقياس 1/10000، بالاستناد إلى مخطط المدينة الحالي (أشير إلى التحصينات الجديدة بخطوط متقطعة) ولكنه يبين الأحياء التي أشير إليها في الخرائط القديمة للقرن 14 - 18 مع أسمائها اللاتينية «الأصلية». استند تمديد الشارع على الخرائط المذكورة جزئياً وإلى الآثار المتبقية التي ما تزال قابلة للتمييز في المدينة الحديثة. إن المباني القائمة أو التي جرى التنقيب عنها مؤخراً مرسومة باللون الأسود (أي بقايا حي الأسبتارية والبرج المسماى برج السلطان والذي ما يزال قائماً بجانب المراfa).



قلعة عكا



8

017

لفلسطين . وقد بقي كذلك طويلاً ، لأن ميناء يافا لم يكن عميقاً إلى درجة كافية لرسو السفن الضخمة . كما كان ميناء حيفا أكثر عمقاً . وكانت حافة جبل الكرمل تحميه من الرياح الجنوبية الغربية ، إلا أنه كان معرضاً لأعاصير الرياح الشمالية . وبقي ميناء عكا هو الوحيد المحمي من الرياح الموجاء ، وله العمق الكافي لرسو السفن الضخمة . ولهذا حرص الفرنج الصليبيون على امتلاك عكا والسيطرة على مينائها منذ وصولهم إلى فلسطين . لتأمين أغراضهم التجارية ومتطلباتهم العسكرية . ورغم أن عكا بقى هي المرفأ الرئيسي للفرنج طوال أيام الحروب الصليبية القديمة ، فإنها لم تتحفظ إلا بالقليل من آثارهم . ولعل كل ما بقى من آثار تذكر بذلك الاحتلال الذي استطال لمدة قرنين - تقرباً - من عمر الزمن ، لا يتجاوز بعض العقود لكنيسة من الكنس ، أو بقية قصر ، أو برج واحد من مجموعة الأبراج التي شكلت جزءاً من الدفاعات عن المدينة . ولقد كانت عكا هي أول مدن الساحل التي استعمرواها الفرنج ، ثم كانت آخر مدينة من المدن التي أعاد المسلمون فتحها . فتلخص بها تاريخ الفرنج الصليبيين الذي بدأ على أرض الشام سنة ٤٩٣ هـ = ١٠٩٩ م . حيث هاجم الفرنج عكا ، غير أنهم فشلوا في اخضاع المدينة . فلما كان ربيع سنة ٤٩٦ هـ = ١١٠٢ م . قام ملك القدس بدلوين بفرض الحصار على عكا . وساعده في ذلك ما كان تحت تصرفه من السفن الانكليزية . وكادت الحامية تستسلم لولا أن ألقع من صور وصيدا اسطول من اثنى عشرة سفينة ضخمة تابعة للاسطول المصري - الفاطمي - . وأسرع هذا الاسطول لنجددة حامية عكا ومعه القوات وألات قذف النار الاغريقية - الحرارات والعرادات - مما أرغمه الفرنج على الانسحاب .

ولكن حدث في السنة التالية (٤٩٧ هـ = ١١٠٣ م) أن وصل إلى ميناء حifa أسطول جنوي ضخم مؤلف من سبعين سفينه ، فأسرع ملك القدس بدلوين للجتماع بقيادة الأسطول في حيفا ، وظفر بمحالفتهم لاخضاع عكا بعد أن بذل لهم الأجر المأثور - وهو ثلث الغنيمة وامتيازات تجارية وهي في السوق . وبدأ الحلفاء حصار عكا يوم ٦ - أيار - مايو - . واشتدت مقاومة المسلمين بقيادة الملوك زهر الدولة الجيوشي - نسبة إلى الملك الجيوش الأفضل الفاطمي - ولكنه اضطر بعد عشرين يوماً

من الحصار ، وبعد أن فقد الأمل بالحصول على دعم من مصر - بقبول التسلیم بشرط السماح لمن يرغب من السكان بمعادرة المدينة آمناً ومعه أمتعته ، أما من رغب في البقاء فيصبح من رعايا ملك الفرنج . وقبل بدلوین هذه الشروط . ووافق أن يحتفظ المسلمين بمسجدهم . ولكن ما إن ملك الفرنج البلد حتى انقضوا على من كان يريد الهجرة وذبحوا عدداً كبيراً منهم ، وسلبوهم كل ما معهم . وفعلوا بهم الأفعال الشنيعة . وسار الوالي زهر الدولة الجيوشي إلى مصر . واعتذر إلى الأفضل ، فقبل عذرها^(١) وهبط على عكا ليل الاستعمار الصليبي الطويل . غير أن هذا الليل لم يكن هادئاً ، بل انتابته العواصف الموجاء ، وهيممت عليه الأحداث المثيرة . فقد أصبحت عكا مركز انطلاق قوات الفرنج للهجوم على الأقاليم الإسلامية المجاورة ، ومقابل ذلك ، دأب أمراء دمشق وحكام مصر على إرسال قواتهم للهجوم على الفرنج كلما توافرت الفرصة لللagaraة على عكا وأرباضها . وكان من أكثر الأحداث اثارة لما شهدته تلك البداية قصة زواج ملك القدس - بدلوین - من كونتيسة صقلية - أديلايد سالونا - التي كانت باللغة الثراء ، مما أطمع فيها ملك القدس الذي لم يكن يرغب في بائتها فحسب ، بل إنه كان يطمع أيضاً في الافادة من دعم النورمان في صقلية ، وبما يتوافر لهم من قدرة بحرية . وعندما تم الاتفاق على الزواج . أجرت الكونتيسة من صقلية سنة ٥٠٧ هـ = ١١١٣ م في أبهة وروعة لم يشهدها البحر الأبيض المتوسط منذ أن أقلعت كليوباترا إلى نهر البرдан لتلتقي بانطونيوس - إذ افترشت في سفينتها بساطاً منسوجاً من خيوط الذهب ، بينما ترصعت مقدمة السفينة بصفائح الفضة والذهب . ورافقتها اثنان من الشوانى الحربية . وعزز كل منها ثلاثة صفوف من المجاذيف لدفعها . وزينت أيضاً مقدماتها . وحملتا حرسها العسكري . وكان أكثر ما لفت النظر هو حرس ابنها الخاص من العرب المسلمين ، بوجوههم السمراء ، وأرديةتهم الناصعة البياض . وسار في أثرها سبع سفن أخرى حلت كل ما ملكت من الكنوز والثروة . وهبطت الكونتيسة في عكا ، فاستقبلها الملك بدلوین بكل ما عرضته مملكته من الأبهة ، إذ خرج الملك ورجاله في

(١) الكامل في التاريخ - أحداث سنة ٤٩٧ . وتاريخ الحروب الصليبية : ١٤١/٢ - ١٤٤ .

ثيابهم الحريرية الفاخرة، وتزيينت خيوthem وبغاتهم بالارجون والذهب. وجرى فرش الشوارع بالبسط الثمينة، ورففت من نوافذ الدور وشرفاتها الأعلام الأرجوانية».

بقيت عكا هي مركز الثقل في مملكة القدس، رغم اعتراف الفرنج بالقدس عاصمة لاماراتهم وملكتهم في بلاد الشام. فعندما حاول كونت طرابلس - بونز - التمرد على ارادة ملك القدس (سنة ٥١٦ هـ = ١١٢٢ م) خرج ملك القدس بجيشه من عكا. ولكنه لم يكدر يقترب من طرابلس حتى أعلن بونز ولاءه وخضوعه للملك. وعندما وقع ملك القدس - بدلوين - في أسر المسلمين قرب الفرات (سنة ٥١٧ هـ = ١١٢٣ م) انعقد مجلس المملكة في عكا - وليس في القدس - لتعيين مجلس إدارة المملكة خلال فترة غياب الملك في أسر المسلمين.

كانت عكا هي قاعدة انطلاق الاسطول العربي - الاسلامي لضمان السيادة العربية الاسلامية على شرق البحر الابيض المتوسط. وأخذ الفرنج الصليبيون منذ استيلائهم عليها بالعمل لاستخدامها ضد الأساطيل الاسلامية. وإذا كان الفرنج قد أفادوا من تجزئة العالم العربي - الاسلامي وانقساماته لتحقيق مثل ذلك النجاح في حلتهم الأولى - فباتوا وهم لا يخشون أي تهديد بري، إلا أن الاسطول الاسلامي - المصري - بقي قوياً في البحر. وشكل تهديداً قوياً لأساطيل الفرنج وللمدن الساحلية التي سيطروا عليها. وللحذر من هذا الخطر، تحرك أسطول البندقية - بناء على طلب ملك القدس وموافقة البابا - وقد ضم أكثر من مائة سفينة حربية كبيرة، حللت عدداً كبيراً من الرجال والفرسان فضلاً عن أدوات الحصار، فوصل عكا في نهاية شهر أيار - مايو - سنة ٥١٧ هـ (١١٢٣ م). ثم تحرك نحو عسقلان بعد أن توافرت له المعلومات عن وجود أسطول اسلامي - مصرى - يحجب البحر قريباً من عسقلان. ودفع اسطول البندقية أمامه مجموعة من السفن الصغيرة، خفيفة التسلیح، كيما تدفع الاسطول المصري للاشتباك في معركة. ووقع الاسطول المصري في الفخ، فما كان من ظنهم إحراز انتصار سهل، حملهم على أن يخرجوا بسفنهم إلى عرض البحر، فاضحوا بين اسطولين للبنادقة يفوقان الاسطول المصري عدداً. ولم تفلت سفينة اسلامية واحدة

من الكارثة، إذ غرق بعضها، ووقع بعضها الآخر في أيدي البنادقة. وأضاف البنادقة إلى انتصارهم ما استولوا عليه من أسطول تجاري مؤلف من عشر سفن كانت تحمل سلعاً ثمينة، وذلك عند التقائهم به أثناء ابحارهم راجعين إلى عكا. وكان وجود الأسطول الإسلامي - المصري - عاملاً حاسماً في حرمان الفرنج من الاستيلاء على عسقلان. فلما زال خطر الأسطول الإسلامي، قام الفرنج في السنة التالية (٥١٨ هـ = ١١٢٤ م) بمحصار عسقلان برأ بينما انطلق أسطول البنادقة من عكا لاحكام الحصار البحري، فأمكن لهم الاستيلاء عليها. وأعقب ذلك استيلاء الفرنج على صور - بالطريقة ذاتها - فأصبح ساحل فلسطين بكامله تحت قبضة الفرنج^(١).

تابعت عكا، تحت حكم الفرنج، دورها في إدارة الحرب دون هوادة ضد المسلمين. فعندما جاءت الحملة الصليبية الثانية بقيادة ملك فرنسا (لويس السابع)^(٢) وأمبراطور الغرب (كنزad - أو كونراد)^(٣) جرى استقبالهم في عكا في احتفالات مشيرة، وانضم إليهم جميع الفرنج الصليبيين في بلاد الشام. ووجهت مملكة القدس - ميليسيند - وابنها بلدوبين الثالث - الدعوة إلى أمراء الحملة وقادتها لعقد مجلس كبير في عكا في ٢٤ حزيران - يونيو - سنة (١١٤٨ م = ٥٤٣ هـ) وتميز هذا المجلس بضواهر الأبهة والعظمة. فقد ضم ملوك وأمراء الصليبيين الذين تجمعت تحت قيادتهم أضخم ما حشده الفرنج من جيوش وقوات، وقرر المجلس مهاجمة دمشق، والاستيلاء عليها. غير أن هذه الحملة لم تبلغ غايتها، وتحطمت أمام أسوار دمشق^(٤). وعاد كنزاً دركب البحر من عكا ورجع إلى بلاده. والمهم في الأمر هو أن عكا - وليس

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ١٦٧/٢ - ١٦٨ و ٢٦٥ - ٢٦٨.

(٢) لويس السابع (LOUIS VII LE JEUNE) - ابن لويس السادس وأديلايد دوسافوا - ولد سنة ١١٢٠ م. وأصبح ملكاً لفرنسا سنة ١١٣٧ م حتى توفي سنة ١١٨٠ م. تزوج البيانور - داكينانيا ALL ENOR D'AQUITAINe). وحاول عثنا الاستيلاء على كونتية تولوز - وأسهם مع إمبراطور الغرب كونراد في الحملة الصليبية الثالثة. غير أنه فشل في الاستيلاء على دمشق.

(٣) كنزاً - أو كونراد: (CONRAD) اسم عدد من الملوك الجerman. والمقصود هنا هو كونراد الثالث الذي ولد سنة ١٠٣٩ م، وأصبح إمبراطوراً للغرب سنة ١١٣٨ م ومات سنة ١١٥٢ م.

(٤) انظر قلعة دمشق (البحث ١٠ من هذا الفصل).

القدس - هي التي عاشت الأحداث المثيرة لقيادة قوات الفرنج ومؤمراتهم ومؤامراتهم وخططاتهم العدوانية ضد المسلمين في البر والبحر على حد سواء.

عرفت عكا أقسى صراع، وأعنف قتال، طوال الفترة من سنة ٥٨٣ هـ = ١١٨٧ م حتى سنة ٥٨٧ هـ = ١١٩١ م. فخلال مرحلة الحشد التي سبقت معركة حطين، أرسل صلاح الدين الأيوبي إلى ابنه الأفضل وأمره بتوجيه قوة كافية من جيشه إلى عكا ، لنهاها وتدميرها . فأرسل قوة بقيادة مظفر الدين كوكبri زين الدين - صاحب حران - وأضاف إليه قايماز النجمي ولدرم الياقوتي وهما من أكابر الأمراء وغيرهما. فساروا ليلاً وصباووا (صفورية) أواخر صفر سنة ٥٨٣ هـ - فخرج إليه الفرنج في جمع من الداوية والاستبارية وغيرهما. فالتقوا هناك ، وجرت بينهم حرب تشيب لها المفارق السود . ثم أنزل الله نصره على المسلمين . فانهزم الفرنج وقتل منهم جماعة وأسر الباقون . وفيمن قتل مقدم الاستبارية وكان من فرسان الفرنج المشهورين . وله النكبات العظيمة في المسلمين . ونهب المسلمين ما جاورهم من البلاد ، وغنموا وسبوا وعادوا سالمين إلى طبرية . وكان فتحاً عظيماً ، فقد كان الداوية والاستبارية هم جرة الفرنج ، وسیرت البشائر إلى البلاد بذلك ^(١).

سارت جيوش المسلمين بعد ذلك إلى حطين ، فلما أحرز المسلمون انتصارهم الخامس ، توجه صلاح الدين إلى عكا ، فإذا بأهلها وقد صعدوا على سورها يظهرون الامتناع والحفظ ، فعجب هو والناس من ذلك ، لأنهم علموا أن عساكرهم من فارس ورجل قد سقطوا بين قتيل وأسير ، وأنه لم يسلم منهم إلا القليل . فركب صلاح الدين وقد صمم على الزحف إلى البلد وقتاله . فبينما هو ينظر من أين يزحف ويقاتل ، إذ خرج كثير من أهلها يضرعون ويطلبون الأمان فأجابهم إلى ذلك ، وأمنهم على أنفسهم وأموالهم . وخيرهم بين الإقامة والظعن ، فاختاروا الرحيل خوفاً من المسلمين ، وساروا عنها متفرقين ، وحملوا ما أمكنهم حمله من أموالهم . وتركوا الباقى على حاله . ودخل المسلمين إليها يوم الجمعة مستهل جادي الأولى سنة ٥٨٣ هـ ، وصلوا بها الجمعة في

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ٢/٧٣١ - ٧٣٤ (وقعة عيون كريستون) والكامل في التاريخ - احداث سنة ٥٨٣ هـ.

جامع كان لل المسلمين قد يأتم ثم جعله الفرنج بيعة - كنيسة - ثم أعاده صلاح الدين جامعاً. وهذه الجمعة أول جمعة أقيمت بالساحل الشامي بعد أن ملكه الفرنج. وسلم صلاح الدين البلد إلى ولده الأفضل، وأعطي جميع ما كان فيه للداوية من أقطاع وضياع وغير ذلك للفقيه عيسى. وغنم المسلمين ما بقي مما لم يطق الفرنج حمله. وكان من كثرةه يعجز الاحصاء عنه. فرأوا فيها من الذهب والجوهر والسلاح وغير ذلك من أنواع الأمتعة كثيراً. ذلك أن عكا كانت مقصدًا للتجار الفرنج والروم وغيرهم من أقصى البلاد وأدنها. وكان كثير منها قد خزنه التجار وسافروا عنه لكساده، فلم يكن له من ينقله.

فرق صلاح الدين وابنه الأفضل ذلك جميعه على أصحابها، وأكثر ذلك فعله الأفضل لأنه كان مقيماً بالبلد، وكانت شيمته في الكرم معروفة. وأقام صلاح الدين عكا، وفرق منها عسكره إلى الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعلياً والشقيف والفولة وغيرها من البلاد المجاورة لعكا، فملكوها وأسرموا رجالها، وسبوا نساءها وأطفالها، وقدموا من ذلك بما سدّ الفضاء. وفتح المسلمين يافا وتبنين وصیدا وجبيل وبيروت، ولم يبق في قبضة الفرنج إلا صور التي احتشد فيها الفرنج من كافة المدن التي فتحها المسلمون^(١). ولما علم البابا ايربان الثالث بما أحرزه المسلمون من انتصارات، مات كمداً يوم ٢٠ تشرين الأول - أكتوبر - سنة ١١٨٧. وجاء خلفه البابا جريجوري - أو غريغوري الثامن - فوجّه رسالة إلى المؤمنين في الغرب^(٢) لحشد

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ٧٤٣/٢ - ٧٤٧ والكامل في التاريخ - أحداث سنة ٥٨٣ هـ.

(٢) كان مما تضمنته رسالة البابا: «فليکفر كل انسان عن خطایاه، ولیدخـر لنفسه كثـراً في السـماء، بأن يتـخد الصـلـیـب، مع الـوـعـدـ لـجـمـعـ الـصـلـیـبـیـنـ بـقـدـرـ وـفـیرـ مـنـ غـفـرـانـ الذـنـوبـ. وـأـنـ يـنـعـمـواـ بـالـحـیـاـةـ الـاـبـدـیـةـ فـيـ السـماءـ. بـینـاـ تـصـبـرـ سـلـعـهـ فـيـ الدـنـیـاـ فـیـ حـایـةـ المـقـدـسـ» واختتم رسالته بالدعوة إلى الصيام كل يوم جمعة لمدة خمس سنوات، والامتناع عن اللحم يومي السبت والأربعاء. وأقسم جميع الكرادلة على أن يرفعوا الصليب. وأن يتولوا قيادة الجيوش الصليبية إلى فلسطين، باعتبارهم مبشرين متسللين. وتقرر أن يتوجه من روما مبعوثون ليفرضوا على جميع ملوك العالم المسيحي وأمرائهم هدنة - فيما بينهم - لمدة سبع سنوات. وعقد مجلس في (لومانز) سنة ١١٨٨ م. تقرر فيه أن تؤدي الفريرية المعروفة باسم (عشر صلاح الدين) والتي حددت بعشرة بالمائة من ضريبة الدخل والأموال المنقوله. =

القوى - وتوجيهه حملة صليبية جديدة. وانطلق دعاة الحروب الصليبية ومستثمريها ، من أساقفة وأمراء لاستثارة المشاعر والتحريض على الحرب. وأفلحت الجهد بتنظيم أكبر حشد صليبي تولى قيادته ملك انكلترا (ريتشارد قلب الأسد)^(١) وملك فرنسا (فيليب اوغست)^(٢) وملك ألمانيا (كززاد) علاوة على عدد كبير من أمراء الغرب.

وبدأت الإمدادات في التدفق على صور وكان أول ما وصلها (في أواخر خريف سنة ١١٨٨ م (٥٨٤ هـ) أسطول قوي التسلیح أرسله ملك صقلية ومعه مائتين من خيرة الفرسان تدريباً وإعداداً. كما أرسل البيازنـه - نسبة إلى بيزا - اسطولاً من اثنين وخمسين سفينة (وصل في ٦ نيسان - ابريل - ١١٨٩ م) وبدأ الفرنج تحركهم نحو عكا. واشتبك المسلمون مع الفرنج، وقاتلوا لهم، ومنعوهم. وجرى لهم معهم حرب شديدة يشيب لها الوليد. وأسروا من الفرنج جماعة، وقتلوا جماعة، وقتل من المسلمين أيضاً جماعة. وتوقف الفرنج. ثم عاودوا محاولتهم ثانية ففشلوا بعد قتال عنيف.

ونجحت المحاولة الثالثة، ووصل الفرنج إلى ظاهر عكا يوم ٢٨ - آب - أغسطس - سنة ١١٩٠ م (٥٨٥ هـ) وأقاموا معسكراً على تل الفخار، وما لبث أن وصلتهم إمدادات جديدة، حيث انضم إليهم أسطول ضخم للدانين والغرizzan، بالإضافة إلى سفن نقل نقلت قوات فلمنكية وفرنسية. ودارت معركة طاحنة يوم ٤ تشرين الأول - أكتوبر - كان النصر فيها حليفاً للمسلمين. غير أنه لم يكن نصراً كاملاً. إذ

= لغطية نفقات الحملة. وفرضت هذه الضريبة على رعايا انكلترا وفرنسا. (تاريخ الحروب الصليبية: ٢٢ و ٢٤).

(١) ريتشارد قلب الأسد: RICHARD COEUR DE LION ملك انكلترا. ولد في اكسفورد سنة ١١٥٧ م. أصبح ملكاً سنة ١١٩٣ م ومات سنة ١١٩٩ م اشتراك في الحملة الصليبية الثالثة. ووقع أسرياً في قبضة ملك النمسا - ليوبولد - أثناء عودته من فلسطين. وعندما عاد إلى بلاده. قاد الحرب ضد ملك فرنسا فيليب أوغست سنة ١١٩٤ م. ومات تحت أسوار قصر شالو في فرنسا.

(٢) فيليب أوغست - أو فيليب الثاني: PHILIPPE II-AUGUSTE ولقبه الغائع، أو الغازي، وهو ابن لويس السابع. ولد في غينيس سنة ١١٦٥ م. وأصبح ملكاً سنة ١١٨٠ م. ومات سنة ١٢٢٣ م. اشتراك في الحملة الصليبية الثالثة. حارب ملكي انكلترا - هنري الثاني، ثم ريتشارد قلب الأسد، وانتصر عليها.

احتفظ الفرنج بمواقعهم وهم يحاصرون عكا. غير أن الاسطول الاسلامي - المصري - نجح في دفع خمسين سفينة في وسط أساطيل الفرنج، مما ضمن للحامية المدافعة عن عكا كميات كافية من المؤن والذخائر. وحدث نوع من التوازن مما أدى إلى حدوث استقرار نسبي ، تخللتة معارك قاسية في بعض الأحيان ، وذلك على نحو ما حدث يوم ٢٥ - تموز - يوليو - سنة ١١٩٠ م حيث قام الفرنج بهجوم جريء لم يسفر عن نتائج تذكر ، سوى وقوع خسائر فادحة في قوات الطرفين المتحاربين. واستمر القتال سجالاً بين المسلمين والفرنج طوال سنة ١١٩٠ م. إلى أن حدث التحول الحاسم عندما هبط ملك فرنسا فيليب اوغست على أرض عكا يوم ٢٠ نيسان - ابريل - سنة ١١٩١ م. ولحق به ملك انكلترا بعد سبعة أسابيع (حيث نزل ريتشار قلب الأسد في عكا يوم ٨ حزيران - يونيو). ومقابل ذلك ، انضم إلى معسكر صلاح الدين المقابل لعكا ، جيش سنجار وجيش شيزر وحاه وجيش من مصر . على أن أكثر ما أضر بالمسلمين هو حرمانهم من الدعم البحري ، مما حرم الحامية الاسلامية المدافعة عن عكا من الإمدادات أرجاء أوروبا لحصار عكا ، مما حرمت الحامية الاسلامية المدافعة عن عكا من كل وطوال هذه الفترة. ونصب الفرنج المجانيق ، وأحضاروا أدوات حصار كثيرة منها مقلاع ضخم أطلقوا عليه اسم (مقلاع الله) وسلموا لتسلق الأسوار حل اسم (سلم الهر). وأخذت المقايلع ترمي الحجارة ليلاً ونهاراً. ودارت معارك دامية ، تخللتها مفاوضات متطاولة ، تم فيها الاتفاق على تسليم عكا للفرنج بكل ما تحتويه. مع تسليمهم صليب الصليوب أيضاً. وإطلاق سراح الأسرى من الجانبين. ودخل الفرنج عكا عندما غادرها آخر جندي من الحامية الاسلامية التي كانت تدافع عنها. وكما هي عادة الانكليز بالغدر ، فقد تظاهر ريتشارد قلب الأسد بأن صلاح الدين قد أخل بشروط الاتفاق ، واتخذ من ذلك حجة لذبح أسرى المسلمين وعددهم سبعمائة وألفي أسير. واشتدت حاسة الجند الانكليز لتنفيذ المجازرة ، ولقيت زوجات الأسرى وأطفالهم مصرعهم إلى جوارهم. وشهد المسلمون المرابطون في أقرب المعاقل إلى عكا ما كان يحدث ، فاندفعوا لإنقاذ أخوانهم وذويهم. وعلى الرغم من أنهم ظلوا يقاتلون حتى

حلول الضلام ، فانهم لم يستطيعوا الوصول اليهم . ولما انتهت المذبحة ، غادر الانكليز البقعة ، فتقدم المسلمون لدفن شهدائهم^(١) .

تابعت الأحداث ، متسرعة أحياناً ، ومتباطئة في أحياناً أخرى ، وظهر التحول لمصلحة المسلمين بشكل واضح ، لاسيما بعد فشل هجوم المغول التتار ، ووقفت عكا وسط دوامة الأحداث وهي تحاول السيطرة عليها لمصلحتها ولدعم مركزها بعد أن أخذ بناء الفرنج في الانهيار من حوالها . وعرف الفرنج في عكا أن النهاية قد اقتربت ، فأسرعوا لعقد هدنة مع السلطان قلاوون لمدة عشر سنوات (تبدأ من سنة ٦٨٢ هـ = ١٢٨٣ م) ولكن حدث في سنة ٦٨٩ هـ = ١٢٩٠ م . أن قام الفرنج الصليبيون باجراء مذبحة في عكا ، سقط فيها عدد كبير من شهداء المسلمين - التجار - . مما أغضب السلطان قلاوون ، ودارت مناظرة بين الفقهاء في القاهرة أقنعت السلطان قلاوون بأنه لا إثم عليه من الناحية الشرعية إن هو نقض المدنة . فأصدر أوامره إلى جيشه في مصر بالاستعداد ، كما أصدر أمره إلى دمشق باعداد جيشه ، وصدرت أوامر مماثلة إلى جيوش الأقاليم . واتخذت الاحتياطات لابقاء الاستعدادات في طي الكتمان . وعندما انتهت الاستعدادات ، وشرع في التحرك ، أعلن أنه أقسم بألا يترك في عكا ولو واحداً من الفرنج على قيد الحياة . إلا أن السلطان قلاوون توفي يوم ٤ تشرين الثاني - نوفمبر - سنة ١٢٩٠ م . فأخذ ابنه - الأشرف خليل - على عاتقه انجاز ما بدأ به والده . وشرع الجيش الإسلامي في التحرك من مصر في شهر آذار - مارس - سنة ١٢٩١ م . وذلك بعد أن اكتملت استعدادات الأشرف ، فأضحت بالغة الدقة . إذ تم جمع آلات الحصار من جميع البلاد . وبلغت أمتدة الجيش عند خروجه من حاه ، من الثقل ، ما جعله يحتاج شهراً للوصول إلى عكا ، وتعرض خلاله لطقس ممطر ، وخاض تربة تراكم فيها الطين وذلك عند مسيره من حصن الأكراد ، حيث توقف فيها فترة من الوقت لينقل معه عرادة ضخمة حملت اسم (المنصورة) بالإضافة إلى مائة من آلات الحصار الأخرى التي تم صنعها في دمشق والقاهرة . وكان مع الجيش أيضاً

(١) الكامل في التاريخ . احداث سنة ٥٨٥ وسنة ٥٨٧ هـ . وتاريخ الحروب الصليبية : ٤٥/٢ - ١٠٩ .

عراة كبيرة أخرى اسمها (الغاضبة). ومناجيق اشتهرت باسم (الثيران السوداء) وكانت أخف وزناً، ولكنها من طراز بالغ القوة والتأثير.

ووصل الأشرف جيشه إلى أمام عكا، وتحدث الناس أن جيشه قد ضم ستين ألف فارس ومائة وستين ألف راجل - وقد يحمل هذا التقدير بعض المبالغة. غير أن الأمر الثابت هو أن جيشه قد تجاوز حدود كل ما استطاع الفرنج حشده من قوات.

ما إن علم الفرنج في عكا بتحرك الجيش الإسلامي حتى أرسلوا نداء الاستغاثات المستعجلة إلى أوروبا، فوصلتهم بعض النجدات. وتقرر في عكا تجنيد كل قادر على حل السلاح ليقوم بدوره في الدفاع. وكان باستطاعة الخامية الاعتماد على تحصينات المدينة التي بقيت سليمة وقوية، وجرى تعزيزها مؤخراً لزيادة منعتها وقدرتها، فضلت خطأ مكوناً من سورين مزدوجين لحماية شبه الجزيرة التي تقوم عليها المدينة وضاحيتها الشمالية حيث تقع قلعة عند التقائه السورين المزدوجين. وانتصب اثنى عشر برجاً على أبعاد متساوية على امتداد السورين الداخلي والخارجي.

بدأ الحصار يوم ٦ نيسان - أبريل - سنة ١٢٩١ م، فصارت منجينات المسلمين وعراةاتهم تقذف يوماً بعد يوم الأحجار الضخمة، والقدور المليئة بالمواد الحارقة، على أسوار المدينة. أو تلقىها من فوق الأسوار إلى داخل المدينة. وأمضر رماة المسلمين بسهامهم المدافعين فوق أفاريز الأبراج ورد هاتها ومراتها. بينما تحرك المهندسون المسلمين لنقب مواضع الضعف في الاستحكامات. وتردد القول بأن السلطان الأشرف خليل قد خصص لكل برج ألف مهندس. واستمر الفرنج الصليبيون في مقاومتهم بذلك بفضل ما توافر لهم من الإمدادات عبر البحر. وقام رجال الطوائف الدينية - فرسان الداوية والاسبارارية - بهجومين ليليين على معسكر المسلمين، كان الفشل من نصيبهما. ومضى شهر على الحصار عندما وصل ملك قبرص إلى عكا حاملاً معه إمدادات جديدة، أسهمت في رفع الروح المعنوية للفرنج، غير أنها لم تغير من موقف المسلمين الذين كانوا قد نجحوا في نقب بعض الأبراج التي أخذت في التداعي والتساقط تباعاً. وحاول الفرنج مفاوضة السلطان الأشرف خليل، غير أنه رفض المفاوضات إلا

على أساس الاستسلام الكامل. وأصدر الأشرف خليل أمره بشن هجوم عام صباح يوم الجمعة ١٨ - أيار - سنة ١٢٩١ م. وجرى الهجوم على امتداد الأسوار، ولكنه تركز على اتجاه (البرج الملعون) الواقع في زاوية الحصن. وقدف السلطان بكل قواه في المعركة، ولم تتوقف المنجنيقات عن القذف. أما سهام الرماة فكانت أشبه ما تكون بكتلة صلبة عند سقوطها داخل المدينة. واندفعت كتائب المسلمين الواحدة بعد الأخرى بقيادة امرائهم الذين لبسوا العياليم البيضاء وهم يقتلون تحصينات المدينة. وكان الضريح يشير الرعب والحزع، فقد كان المسلمين يرثون أصواتهم بالتهليل والتکبير، فيتردد مجلجاً وهو يختلط بقرع الطبول وأصوات الكوسات والشبابات التي حلها ثلاثة جمل. ودار قتال عنيف عند الأسوار والأبراج وفي شوارع المدينة. وبدأت المقاومة في الانهيار، وسقط جند الفرنج صرعى، فيما توجه الباقيون بحثاً عن طريق للهرب، وقد ضاقت بهم الأرض، وأسرع الرجال والنساء والأطفال إلى الميناء عسى أن يجدوا فيهم مرکباً ينقذهم وينقلهم إلى قبرص. وشهد الرصيف زحاماً مرعباً. وغرق أحد المراكب من كان يحملهم، لأنه حل أضعاف ما يستطيع حله. واغتنم المغامرون هذه الفرصة للحصول على الثروة - ومنهم المغامر روجرفلور - الذي قاد سفينة كبيرة للداوية، وحقق ثروة ضخمة بما ابتزه من أموال نبيلات عكا. ووصل جند المسلمين، فأسرروا من لم يتمكن من الهرب. ووفروا عليهم عناء البحث عن طريقة للهرب.

ما إن صارت عكا في قبضة المسلمين حتى شرع الأشرف خليل في تدميرها وفقاً لخطة موضوعة حتى لا يفكر الفرنج الصليبيون في الافادة منها لتعود موقعاً متقدماً إذا ما أرادوا توجيه حملة جديدة ضد بلاد المسلمين في الشام. فتقرر استباحة دورها وأسواقها ثم اشعال النار بها. وجرى تدمير استحكامات دور الطوائف الدينية العسكرية والأبراج والقلاع المنيعة. وجرى نقل حجارة الكنيس لبناء مسجد السلطان الأشرف خليل في القاهرة. وما إن انتهى وجود الفرنج في عكا، حتى انطلقت جيوش المسلمين وهي تحجوب بلاد ساحل الشام من أقصاه إلى أقصاه، لتدمر كل ما تعتبره مفيدةً للفرنج فيما إذا حاولوا مرة أخرى النزول إلى البر. لقد أخذت الحركة الصليبية يوم سقوط عكا في الخروج من مجال السياسة العملية للغرب - ولو بصورة مرحلية - .

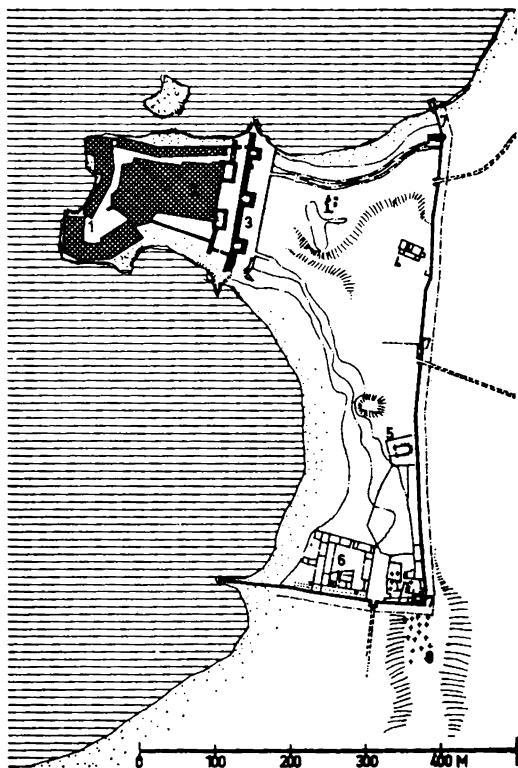
لقد جاء نابليون بونابرت على رأس حلة صليبية جديدة، وألقى الحصار على عكا من ٩ كانون الثاني - ديسمبر - حتى ٦ - أيار - مايو - ١٧٩٩ م (١٢١٣ هـ) وقد قاوم والي عكا - أحمد باشا الجزار - الحصار ببطولة. مما حل بونابرت على الاستنجاد باليهود ووعدهم باقامة وطن لهم في فلسطين إنهم قدموه له المساعدة. ولكنهم كانوا أضعف من أن يقدموا لجيش بونابرت ما يحتاجه، فاضطر للانسحاب خائباً. وبقيت عكا وأهلها حصناً للاسلام والمسلمين حتى احتلها اليهود سنة ١٣٦٨ هـ = ١٩٤٨ م. لقد عادت الصليبية من جديد تحت الاعلام اليهودية.

. ٢ - قلعة عتليت (قصر الحجيج) .

تقع القلعة التي حلت اسم (قلعة عتليت - أو قصر الحجيج)^(١) فوق شبه جزيرة صخرية صغيرة، على بعد نحو عشرة أميال جنوبى ميناء حيفا في فلسطين. وكانت القلعة محية من جهة البر بخندق مائي عميق، وسور متقطع قوي له ثلاثة أبراج متينة مبنية في داخله. أما التحصينات من جهة البحر، فقد كان هناك برج محصن خلف السور الخارجي والفناء الأمامي الذي يتخذه، وقد عززت جوانب هذا البرج المحصن بأبراج بارزة (مثل البرج المحصن في قلعة الداوية في طرطوس). بينما اختصت الأسطبلات والأحياء السكنية والمستودعات بالأبنية المتاخمة للشاطئ الصخري. وقد شيدت القلعة على أنقاض قلعة قديمة بمساعدة الحاج الفرنج - وهذا حلت أيضاً اسم قصر الحجيج - وباشراك طائفتي فرسان الهيكل (الداوية) والفرسان الألمان (التيتون) لتحول محل القلعة القديمة التي أقامها فرسان الداوية والتي تبعد حوالي ميل واحد عنها - وحلت اسم (قلعة ديتروا)^(٢). واكتشف فرسان الداوية أثناء العمل، أساسات الأسوار التي كانت تعود في يوم من الأيام إلى مستوطنة فينيقية قديمة صغيرة. وعثروا فيها على كنز من النقود المعدنية. وأعيد استخدام تلك الأساسات، بينما صرفت النقود الذهبية من ضمن نفقات البناء. وكانت الأسوار التي ترتفع مباشرة من البحر هي القطاعات الأطول، وحيث يجتاز سور الدائري المزدوج والمعقد، شبه الجزيرة التي تصل عتليت بالبر. وحرص الذين شيدوا قلعة عتليت أن تكون واجهة الأسوار مصقوله حتى يتذرع على السلام المتحركة أن تستقر عليها، مع التوسيع في

(١) قلعة عتليت: (ATLIT) أو قصر الحجيج: (CHASTEL PELERIN) وقصر بلغرینو (CASTLE PELLEGRINO) وكاستروم فيلي داي (CASTRUM FILII DEI).

(٢) قلعة ديترويت: (CHASTEL DESTROIT) أو ديستريكتوم: (DISTRICTUM) أو بيترانتشيزا: (GAUTEIR D'AVESNES) وقد شيد القلعة الكونت غوتير دافن: (PETRA INCISA).



عتليت - قصر بيليرين (قصر الحجيج) Chastel Pelerin (Qasr al-Hajjig)

مخطط أرضي عام للمستوطنة، المقياس ١/١٠٠٠٠

- ١ - القلعة الداخلية، ٢ - الموقع المحتمل للحصن الكبير، ٣ - السور والخندق، ٤ - الحمامات، ٥ - كنيسة متهدمة، ٦ - الإسطبلات، ٧ - سور البلدة والخندق، ٨ - المدافن الفينيقية.



عتليت (قصر الحجيج)

استخدام ساتر الأسياخ الحديدية، والمزاغل الالزمة للرمادة، بالإضافة إلى زيادة التعقيد في أبواب الدخول.

ما إن استقر الفرنج الصليبيون في القدس ، وأعلنوا عن إقامة مملكتهم فيها ، حتى وجه ملكها - بدلوين - دعوة إلى رجال الكنيسة وكبار المقطعين في المملكة لحضور مجلس في نابلس ، بهدف رفع المستوى الديني - الأخلاقي - لرعاياه ، والاهتمام برخائهم المادي . وتقرر تنظيم طائفة من الفرسان الذين يعاهدون ربهم على التقشف والطهارة والطاعة ، وينذرون أنفسهم لقتال المسلمين . ويظهر أن فكرة إنشاء طائفة لتلتزم بالجانبين الديني والعسكري قد جاءت على لسان فارس من شمبانيا - اسمه هيو باينز - استطاع سنة ١١١٨ أن يقنع الملك بدلوين الأول بأن يسمح له ولifetime قليلة من رفاقه بالنزول في جناح القصر الملكي بساحة المعبد (وهو المسجد الأقصى) . فحملوا اسم (فرسان المعبد) ★ . وخضع فرسان المعبد في البداية للبابا مباشرة - في روما - وذلك قبل أن يصبحوا طائفة مستقلة . وتشكلت طائفة فرسان المعبد (الداوية) من ثلاثة طبقات : الفرسان ، وكلهم من أصل نبيل ، ثم الأجناد من الورجوازية ، واعتبروا أنهم هم ساسة الجماعة ومراقبتها . وأما الطبقة الثالثة فهي طبقة رجال الدين الذين شغلوا المناصب الدينية ، والذين كان واجبهم هو القيام بكل ما لا يمت إلى العسكرية بصلة من الصلات . واتخذ فرسان الداوية من الصليب الأحمر شعاراً لهم . فجعله الفرسان على أردitiهم البيضاء . واتخذه الأجناد على ستراتهم السوداء . وكان من أول الواجبات التي اضطلع بها فرسان الداوية ، هي ضمان الأمن على امتداد الطريق ما بين ساحل البحر الأبيض المتوسط وبين القدس . غير أنهم لم يلبثوا أن اشتركوا في كل حملة قام بها الفرنج الصليبيون . وأمضى مقدم الطائفة زمناً طويلاً في أوروبا خشداً المتطوعين لطائفته . وبذل ملك القدس - بدلوين - للدواية كل دعم وتأييد ، رغم استقلال الطائفة عن سلطانه وخصوصيتها للبابا ، وقدم لها الأحباس - الأوقاف - دون أن يفرض عليها الالتزام بالقتال مع جيشه . ولكن الطائفة لم تبلغ من الثراء ومن القوة ما

يسمح لها بتحدي سلطة الملك خلال تلك المرحلة الأولى - ومقابل ذلك ، فقد قدمت الطائفة لمملكة القدس ما كانت تحتاج إليه ، وهو جيش منتظم يضم إليه العساكر المدربين والذين أضحت وجودهم الدائم حاجة ملحة ، ذلك أنه في الاقطاعات التي حازها النساء - الكونتات - كانت تحدث اضطرابات عند انتقال الارث إلى سيدة أو طفل إذا ما مات السيد الاقطاعي بصورة مباغة . فكان الفرسان الرهبان هم القوة التي تضمن الاستقرار ، نظراً لما اشتهر به هؤلاء من نظام قوي ، ولما عرف عنهم في الغرب من المكانة ومن المحبة ، مما كان يضمن لملك القدس باستمرار مددًا منتظمًا من المحاربين الأوفياء الذين لا يصرفهم عن واجبهم طموح شخصي أو ربح ذاتي^(١) .

وهكذا حصل فرسان الداوية على إقطاع منطقة عتليت ، وأقاموا قلعتهم هناك ، وهي القلعة التي تميزت على ما عادها في فن العمارة . ذلك أن معظم قلاع بلاد الشام - في الشمال والجنوب - كانت قائمة منذ أيام الروم - البيزنطيين - أو كانت مما شيده العرب المسلمين ، ثم جاء الفرنج فعملوا على تحويلها أو اصلاحها بما يناسب احتياجاتهم . في حين شيدت قلعة عتليت تلبية لمتطلبات فرسان الداوية . فتم تشييد البرج المتوسط الذي اعتبر أقوى وأمنع جانب في القلعة ، عند أضعف قطاع بدائر القلعة . وأضحي البرج مدوراً لا مستطيلاً ، نظراً لأن السطح المدور كان بالغ الصلابة في مقاومة ما يتعرض له من قذف . وتزايد عدد ما جهزت به القلعة من الأبواب والأبواب الخلفية . ونزع حجم القلعة إلى الضخامة . ولم يكن للنساء مأوى في قلعة الفرسان الداوية - وفي قلاع طوائف الفرسان الداوية بصورة عامة - وقد خصصت لكتاب الموظفين والقادة حجرات أنيقة ، رغم أنه لم ينزل ضيفاً بها إلا لغرض حري . واعتبرت قلعة عتليت عبارة عن مدينة عسكرية ، تستطيع أن تؤوي إليها عدة آلاف من المقاتلين والخدم اللازدين لهذا الجمع . غير أنه قيل أن امتلأت هذه القلعة عن آخرها^(٢) . ولعل أغرب ما في قصة (قلعة عتليت) هو أن تشييدها قد جاء في وقت متاخر

(١) تاريخ الحروب الصليبية : ٢٤٧/٢ - ٢٥١.

(٢) تاريخ الحروب الصليبية : ٦٣٠/٣ - ٦٣١.

جداً من تاريخ الحملات الصليبية القديمة. فقد احتل الفرنج مدينة القدس سنة ٤٩٢ هـ = ١٠٩٨ م. ووقعت معركة حطين الخالدة سنة ٥٨٣ هـ = ١١٨٧ م. وأعيد فتح القدس في السنة التالية، وهاجم الفرنج مصر واستولوا على دمياط سنة ٦١٥ هـ = ١٢١٨ م وطرد المسلمون الفرنج من مصر بعد معركة المنصورة الفاضلة سنة ٦١٨ هـ = ١٢٢١ م وفي هذه السنة شرع فرسان الداوية في تشييد قلعة عتليت، على أرض الساحل. أي أن تشييد قلعة عتليت قد تأخر مقدار القرن وربع القرن تقريباً عن بداية الحملات الصليبية القديمة. كما كان الفرنج - وفرسان الداوية منهم بصورة خاصة - يهتمون بالقلاع ذات الأهمية الجيو - استراتيجية. والتي تحكم بالسهول ومحاور المواصلات. في حين تم بناء قلعة عتليت على أرض الساحل، وبعيداً عن السهول أو الأهداف الحامة. وقد كان لذلك أسبابه وعوامله. فقد خرج من قبضة الفرنج كثير من القلاع الحصينة والمدن الداخلية، عبر صراعهم المستمر مع المسلمين. ولم يبق للفرنج إلا عدد قليل من المدن الساحلية مع مجموعة متفرقة من القلاع. ولهذا فقد جاء بناء قلعة عتليت ، وجرى تشييدها ، وسط العواصف الモحاء التي هزت كيان الفرنج وزعزعت وجودهم. فحاول - فرسان الداوية - من خلال تشييد القلعة التأكيد على تصميمهم للاحتفاظ بما بقي لهم من الواقع على أرض بلاد الشام. وإن التوسيع الكبير في بناء القلعة إنما جاء استجابة لأكثر من هدف. مثل الاستعداد لضم اللاجئين والنازحين والمهاجرين من يطردتهم المسلمين من المدن والقلاع التي يتم إعادة فتحها. ومثل ضمان الأمن للحجاج الذين يغدون إلى بلاد الشام للحج. بالإضافة إلى ضرورة التوسيع في تأمين الخدمات والمواد التموينية حتى تستطيع القلعة الصمود والمقاومة في وجه الحصار لأطول فترة ممكنة.

ولقد عرف المسلمون هدف فرسان الداوية من بناء قلعة عتليت. فهي سنة ٦١٥ هـ = ١٢١٨ م. «وبينا كان فرسان الداوية والفرسان البيوتون يشيدون قلعة عتليت الضخمة - جنوبي جبل الكرمل - وهي المعروفة بقلعة الحجاج - قام حاكم مصر - السلطان العادل - بالهجوم على قلعة عتليت. كما دمر الحصن الذي تم تشييده على جبل الطور ، نظراً لأنه سهل المتناول. وليس ثمة ما يدعو للبقاء عليه». وفي السنة ذاتها ،

وخلال مرحلة استعداد الفرنج لغزو مصر . أفلع اسطولهم إلى عتليت كما يجلب مؤناً أخرى . ثم رفعت السفن مراسيها بعد بعض ساعات ، غير أن الرياح أزرمتها بالبقاء ، فلم تغادر الميناء إلا سفن قليلة اتجهت إلى مصر ». وفي سنة ٦١٧ هـ = ١٢٢٠ م . وخلال هجوم الفرنج على مصر . عمل حاكم دمشق - المغضум الأيوبي - على بذل الجهد لتخفيض الضغط عن مصر . فهاجم قلعة قيسارية التي لم يفرغ من بنائها وإعادة ترميمها إلا منذ زمن قصير . ثم تحرك لحصار عتليت - معقل الدفاع لفرسان الداوية - فما كان من فرسان الداوية المشتركون في الحملة على مصر ، إلا أن انسحبوا عائدين من دمياط ، للدفاع عن قلعتهم . واستمر المغضум في حصار عتليت من شهر آذار - مارس - حتى تشرين الثاني - نوفمبر - سنة ١٢٢٠ م ». وعندما وصل الامبراطور الألماني فريدريك الثاني إلى فلسطين سنة ٦٢٧ هـ = ١٢٢٩ م . بدأ جولته من عكا . فقام بزيارة عتليت ثم زار القدس ، وعقد مع حاكم مصر السلطان الكامل الأيوبي معاهدة استعاد بموجبها الفرنج الحكم في القدس وبيت لحم مع شريط من الأرض يخترق اللد وينتهي عند يافا ، على أن يحتفظ المسلمون بالمسجد الأقصى وقبة الصخرة ، وللمسلمين الحق في التردد إليها ، والعبادة فيها بحرية . وحددت مدة المعاهدة بعشرين سنة وخمسة أشهر بالتاريخ الهجري . ولكن هذه المعاهدة اصطدمت برفض المسلمين في دمشق ومقاومتهم لها . كما رفضها فرسان الداوية . فما كان من الامبراطور (فريدريك الثاني)^(١) إلا أن جمع ممثلي مملكته كلها ، واجتمع بهم ، وعرض عليهم تقريراً عن أعماله . ولم تلق كلماته إلا الرفض والغضب من قبل الحاضرين . وعندئذ لجأ فريدريك إلى القوة ، فأقام نطاقاً من الحرس حول مقر فرسان الداوية ، ووضع الحرس على منافذ مدينة القدس حتى لا يخرج منها ، أو يدخل إليها ، إلا من كان يحمل تصريحاً بذلك . وأشاع أنه يعتزم مصادرة - حصن عتليت الكبير وانتزاعه من قبضة الداوية . غير أنه علم أن الحصن مشحون بجامية بالغة القوة ، فلم يحاول الاقدام على هذه

(١) فريدريك الثاني: (II) ابن فريدريك الأول (١١٩٤ - ١٢٥٠ م) أصبح ملكاً على صقلية سنة ١١٩٧ م ثم ملكاً للجرمان سنة ١٢١٦ ، ثم امبراطوراً للغرب سنة ١٢٢٠ م . ودخل في صراع مستمر ضد البابا والكنيسة البابوية ، واشتراك في الحملة الصليبية السادسة .

المخاطرة، لاسيما وأن مقدم الداوية قد اتخذ الاجراءات الضرورية، واحتفظ بحرس
لحماية نفسه. وانتهت الأزمة بعودة فريدرريك إلى إيطاليا.

أصبح الموقف سنة ١٢٦٤ هـ = ١٢٦٥ م لمصلحة المسلمين بشكل واضح، فقد
انحصر وجود الفرنج بعدد محدود من المدن والقلاء، وأمكن الانتصار على المغول التتار
والقضاء على خطتهم. فتولى الظاهر بيبرس قيادة جيشه، وانطلق به من مصر ، ففتح
قيسارية وقلعتها ، ثم فتح حيفا ، وهاجم قلعة عتليت الصخمة فأحرق قريتها الواقعة
خارج الأسوار . أما القلعة فانها نجحت في مقاومتها ، فتخلى الظاهر بيبرس عن
حصارها . وترك لفرسان الداوية، حماة القلعة، فرصة العيش لفترة اضافية أخرى وهم
أسرى تحصيناتهم وأسوارهم . وما هي إلا ثلاثة سنوات ، حتى لم يبق للفرنج من
ممتلكات جنوب عكا سوى قلعة عتليت ومدينة يافا التي أعاد الظاهر بيبرس فتحها سنة
١٢٨٣ م = ١٢٦٩ م . وعندما وقع السلطان قلاوون الهدنة مع الفرنج سنة ١٢٨٣ م
ولمدة عشر سنوات ، وقع على هذه الهدنة من جانب الفرنج حاكم عكا والداوية في
عتليت وصيدا . وجاء الأشرف خليل - ابن السلطان قلاوون - فقرر وضع حد نهائي
لوجود الفرنج في بلاد الشام ، فطردهم من عكا سنة ٦٩٠ هـ = ١٢٩١ م . ثم انتقل
جيشه إلى طرطوس فأعاد فتحها . وجاء دور عتليت ، فاستسلمت حاميتها التي لم تعد
تمتلك من القوة ومن القدرة ما يمكنها من المقاومة ، فركبت البحر إلى جزيرة أرورداد
المقابلة لطرطوس ، ثم ارتحلت منها إلى قبرص . لقد أنهى دور (فرسان المعد -
الدواية) ولم يعد لهم معبد يعملون من أجله ويذرعون بذرعيته ، فضاعت منهم
عتليت ، آخر معاقلهم في بلاد الشام . وخسروا كل شيء ، ولم يبق أمامهم إلا العيش
على أحلام الماضي . وصحيغ أنهم امتلكوا ثروات ضخمة ساعدتهم على المحافظة على ما
بقي من وجودهم المزدي خلال فترة معينة - في قبرص - إلا أن هذا الوجود بقي
مضطرباً وقلقاً . إذ تألف ضدتهم ملوك أوروبا وأمراءها ، حتى أولئك الذين عملوا
بالآمس على دعمهم وتنظيمهم . فكانت نهايتهم كمثل نهاية معظم التنظيمات المتطرفة
الارهابية التي عاشت لفترة محدودة ، وتلبية لمطلبات فترة معينة ، ثم ماتت عندما انتهت

حجـة وجودها وزالت الحاجـة إليها^(١)

عاشت عتليت مدة ٧٦ سنة هجرية (٦١٤ - ٦٩٠هـ) أو ٧٤ عاماً ميلادياً تقريباً (١٢١٧ - ١٢٩١م) وهي مدة قصيرة جداً من عمر الزمن، لعله أقصر عمر عاشته قلعة من القلاع على أرض الشام. ولقد احتفظت كثير من القلاع على بعض هيكلها أو رموزها، من خلال ما بقي على سطح الأرض من حجارتها. غير أن عتليت فقدت معالمها الكاملة، ولم يعد لوجودها أثر. ذلك أنها برأت من أجل هدف معين، فزالت بزوال هذا الهدف، شأنها في ذلك كشأن أولئك الذين عملوا على تشيدها وأقاموا فيها.

لقد عمل فرسان المعبد - الداوية - وهم يشيدون قلعتهم عتليت، على الافادة من تجرب حروب الحصار مع المسلمين طوال قرن وربع قرن، كما أفادوا من بناء القلاع على نحو ما كانت عليه قلاع بلاد الشام وحصونها. فجاء فن عمارة قلعة عتليت فريداً في تكامله وقوته وتناسقه، وجاء المسلمين فصدتهم جدران القلعة المنساء وأبراجها القوية وتحصيناتها المنيعة: «فَمَا أَسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهِرُوهُ وَمَا أَسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبَا★ قال هذا رَحْمَةٌ مِّنْ رَبِّي إِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دُكَاهَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقَّا»^(٢) صدق الله العظيم.

وهكذا انهارت مقاومة فرسان الداوية، واستسلمت قلعتهم عندما جاء وعدها، ودخل المسلمون قلعة عتليت، فأذلوها من عالم الوجود. غير أن اسم (عتليت) سيقى مقترناً باسم فرسان المعبد - الداوية - حيث يعتبر هذا الاسم رمزاً لتجربة تاريخية فريدة، لا في فن الحرب فحسب، بل في القيم التي ترتبط بتلك الحرب. ذلك أنه من طبيعة الحرب أن تفرز بعض القيم وبعض التنظيمات التي تشكل نتوءاً بارزاً وغير طبيعي، مما يحتم زوالها والقضاء عليها عندما تزول عوامل وجودها.

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ٢٦٦/٣، ٢٦٩، ٢٩٣، ٣٣٧، ٥٤٦، ٥٥٦، ٦٣١، ٦٦٥ وعن نهاية الداوية بعد خروجهم من عتليت انظر المرجع ذاته: ٧٣١/٣ - ٧٣٥.

(٢) الجزء السادس عشر - سورة الكهف - الآيتين: ٩٧ و ٩٨.

١٢ - قلعة قيسارية .

كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى عامله وقائد جنده في الشام يزيد بن أبي سفيان رضي الله عنها : « أما بعد ! فقد وليتك أجناد الشام كلها . وكتبت لهم أن يسمعوا لك ويطيعوا ، ولا يخالفوا لك أمراً . فأخرج فعسکر بال المسلمين ، ثم سر بهم إلى - قيسارية - ^(١) فأنزل عليها ، ثم لا تفارقها حتى يفتحها الله عليك ، فإنه لا ينبغي افتتاح ما افتتحت من أرض الشام مع مقام أهل قيسارية فيها ، وهم عدوكم ، وإلى جانبكم ، ولا يزال قيسر طاماً في الشام ما بقي فيها أحد من أهل طاعته ممتنعاً . ولو قد فتحتموها قطع الله رجاءه من جميع الشام . والله عزّ وجلّ فاعل ذلك به . وصانع المسلمين إن شاء الله » ^(٢) . وجهز يزيد بن أبي سفيان جيشاً كبيراً أسد قيادته إلى أخيه معاوية . وسار معاوية في جنده حتى نزل على أهل قيسارية ، فهزّهم وحصرهم في قيسارية ، ثم إنهم جعلوا يزاحفونه ، فكان في كل مرة يهزّهم ويردّهم إلى حصنهم ، ثم زاحفوه آخر ذلك ، وخرجوا من صياصيهم . فاقتتلوا في حفيظة واستماتة فبلغت قتلهم في المعركة ثمانين ألفاً ، وكمّلها في هزيمتهم مائة ألف وبعث بالفتح إلى أخيه يزيد ^(٣) الذي أرسل إلى أمير المؤمنين عمر يعلمبه بما تم من فتح قيسارية التي ذكرها أبو الفداء بقوله : « قيسارية مدينة بساحل الشام وتعد من أعمال فلسطين وكانت من أمهات المدن

(١) قيسارية : (CAESAREA) وتذكر أيضاً قيسارية : (QESARI) - أو - (QAISARIYA) وباليونانية : (KAISSAREIA) أو ستاتونوس : (STRATONOS) وباللاتينية قيسارية البحر : (SEZARE) وبالفرنجية سيزاري : (CESAREE) وسيزارية تعني قصر : وسيزير : (SEZAIRE, CEZAIRE) و : (SESSAIRE) الخ ...

(٢) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ، ص : ٤٩١ - ٤٩٣ .

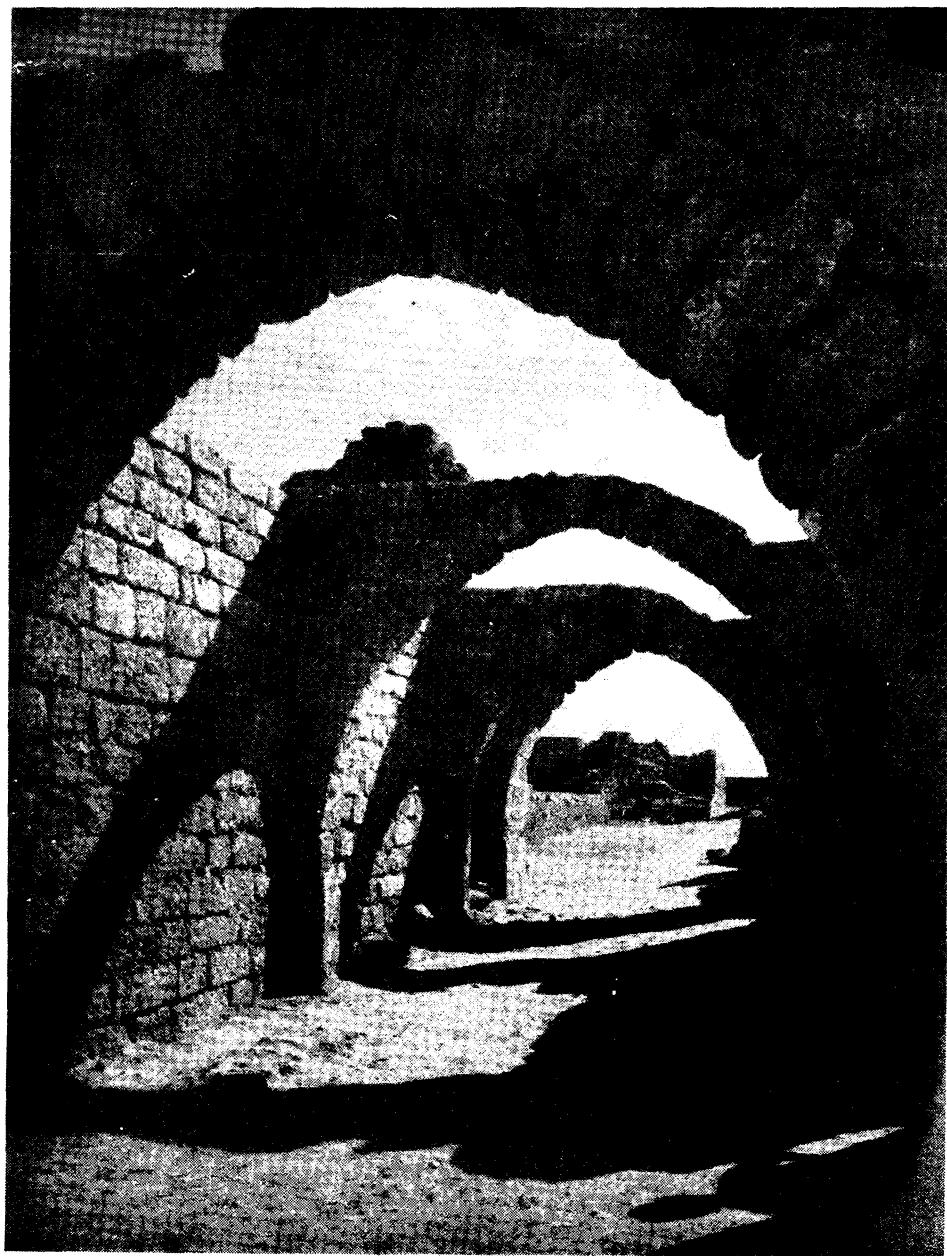
(٣) تاريخ الطبرى . أحداث سنة ١٥ هـ - وهذا أقرب للصحة ، وفقاً لتطور الأحداث . ومناك روایات تذكر أن الفتح قد حدث سنة ١٦ هـ أو ١٩ هـ .



قلعة قيسارية



٨٣ قلعة قيسارية



قلعة قيسارية

العظم. وبها مرسى كبير. وقال العزيزي : بينها وبين الرملة على صفة البحر اثنان وثلاثون ميلاً . ومنها إلى عكا ستة وثلاثون ميلاً »^(١) .

كانت قيسارية مرفأ هاماً من مرافء فلسطين ، منذ أقدم العصور ، وبقيت كذلك حتى القرون الوسطى ، ذلك أنها احتلت موقعها على خليج طبيعي ، يشكله نتوءان صخريان كبيران داخل البحر ، ما بين حيفا ويافا . وكانت الدفاعات المتينة تحيط بمنطقة ذات شكل شبه منحرف تقربياً من جانب الخليج . وكانت متصلة من جهة الجنوب بقلعة قديمة ، كانت تشغل حيزاً من الأرض عند الطرف الجنوبي للمرفأ . ويحيمها من جهة البر سور قوي^(٢) . غير أن صمود قوات الروم البيزنطيين بعد فتح بلاد الشام ، لا يعود إلى قوة التحصينات والأسوار . فقد انهارت أسوار أضخم وأقوى : مثل دمشق . وخضعت قلاع وحصون أمنع وأصعب : مثل بصرى وبعلبك . وإنما كان يعود لقوة الحامية . فقد تجمعت في قيسارية فلول جند الروم من سائر بلاد الشام وقلاعها بعد أن فتحها العرب المسلمين . وكان هذا الحشد الضخم في قيسارية يتلقى الدعم والامداد عن طريق البحر ، حيث كانت للروم السيطرة الكاملة على البحر . مما كان يساعدهم على تأمين متطلبات الحامية المدافعة عن قيسارية ، وذلك على أمل استخدامها في هجوم مضاد شامل على العرب المسلمين . وقد أدرك أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه هذه الحقيقة ، فأمر باقتلاع جذور الروم منها حتى لا يبقى لهم أمل بالعودة إليها .

بقيت قيسارية ثغراً هاماً من ثغور العرب المسلمين على امتداد خمسة قرون تقربياً من عمر الزمن . حتى إذا ما وصل الفرنج إلى بلاد الشام ، أخذوا في البحث عن الموانئ التي تضمن لهم الاتصال ببلادهم عن طريق البحر . وظن المسلمين من سكان المدن الساحلية أن بإمكانهم التعايش مع هذه الوافدة الجديدة التي حلّت راية الصليبية . فأرسلت مدن أرسوف وقيسارية وعكا وصور وفوداً عنها وهي تحمل الهدايا الثمينة إلى

(١) القلاع أيام الحروب الصليبية ص: ٩٧ - ٩٨ .

(٢) تجدر الإشارة إلى أنه قد بدأت الأبحاث في موقع قيسارية منذ سنة ١٩٥٨ م . وأمكن الكشف عن أجزاء من تحصينات القرون الوسطى ، مع بعض المباني التي ترجع للعصور القديمة والقرون الوسطى .

ملك القدس - بدلوين - . غير أن محاولة - المجاملة، أو التقبية - لم تضمن لقيسارية الأمن أو السلام. فالحملات الصليبية القدية - شأنها كشأن كل حركة استعمارية استيطانية . (بحسب المصطلحات الحديثة) كانت تريد الحصول على أرض فارغة من السكان حتى تقيم عليها مدنها ومستوطناتها ومجتمعها ، ثم تعمل بعد ذلك على الافادة من تحتاجهم من يد العاملة من أهل البلاد .

وهكذا كان مصير قيسارية التي وصلتها جحافل الفرنج الصليبيين بقيادة ملك القدس - بدلوين - وألقت عليها الحصار (يوم ٢ - أيار - مايو - سنة ١١٠١ م). ورفضت حامية قيسارية الاستسلام ، وقاومت قدر استطاعتها مستفيدة من منعة تحصيناتها وأسوارها ، إلى أن تمكن الفرنج من اقتحام قيسارية عنوة يوم ١٧ - أيار - مايو - . وجرى الاذن للجندي المنتصرة بأن تنهب المدينة كيفما شاءت ، وصاحب النهب من الأهوال ما ارتاع له قادة الجندي أنفسهم ، ووُقعت أعنف مذبحة بالمسجد الجامع - الذي زعم الفرنج أنه كان قدّيماً يحمل اسم معبد هيرود أجريبا - وقد لجأ إليه عدد كبير من سكان المدينة ، والتمسوا الرحمة ، غير أنهم لقوا مصرعهم رجالاً ونساء على السواء . حتى صار صحن الجامع بحيرة من الدماء . ولم ينج من الذبح من سكان المدينة إلا عدد قليل من الفتيات والأطفال ، وقاضي القضاة ، وقائد الحامية ، اللذين أبقى بلدوين على حياتهما ليحصل على فدية كبيرة . وكانت القسوة والشدة عن قصد وأصرار « وأراد بدلوين بذلك أنه لا يرحم من لا يسامله »^(١) .

اقسم الفرنج الصليبيون الغنية فيما بينهم ، شأنهم في ذلك هنا كشأنهم في كل مكان انتزعوه من المسلمين . فحصلت كل قوة من القوى التي شاركت في الحملة على نصيبها من قيسارية ، حيث استوطنت في حي خاص بها - تجمعاً أو كوموناً - . وتم تنصيب بطريرك لقيسارية يتبع لملك الفرنج - ملك القدس - . وكان على هذا البطريرك أن يحفظ بقوة جاهزة للقتال . بصورة مستمرة ، لاستخدامها من أجل الدفاع عن قيسارية ، أو لارسالها إلى حيث تدعو الحاجة وهكذا اشتراك قوة قيسارية في عدد من المعارك

(١) الكامل في التاريخ - أحداث سنة ٤٩٤ و تاريخ الحروب الصليبية : ١٢١ / ٢

على أرض مصر والشام ، ومنها معركة حطين الخالدة حيث حشد الفرنج قواتهم من جميع المدن والقلاع ، فلما انتهت المعركة بانتصار المسلمين وبدمir قوات الفرنج ، أصبحت حاميات المدن ضعيفة ، بحيث أن جحافل المسلمين الظافرة لم تتوقف عند قيسارية ، وإنما اجتاحتها دون جهد ولا عناء ، ولم يكن للأسوار أو التحصينات دور يذكر في الدفاع عن قيسارية بغياب من يدافع عنها أو يحميها . وما إن خضعت قيسارية مجدداً للمسلمين حتى عمل صلاح الدين الأيوبي على تدمير التحصينات القديمة فيها حتى لا تكون عقبة في طريق حرب الحركة التي كان يمارسها المسلمون^(١) .

ما إن وصلت أخبار انتصارات المسلمين في حطين ، وفي القدس ، وفي كل مكان من بلاد الشام ، إلى أسماع الغرب ، حتى تسارع دعاة الحروب الصليبية لاستنفار الملوك والأمراء ، ولحشد القوى . وجاءت الحملة الصليبية الثالثة التي نجحت قواتها بعد صراع ممرين استعادة عكا (سنة ٥٨٧ هـ = ١١٩١ م) وتتابعت قوات الحملة تحركها على درب الساحل حيث سبق لصلاح الدين أن عمل على تدمير استحكامات المدن وتحصيناتها وأسوارها . حتى إذا ما وصل الفرنج إلى قيسارية أضحموا الالتحام وشيك الواقع بين المسلمين والفرنج . وأخذ القتال الحاد ينشب كل يوم . ولقي الفرنج صعوبات كبيرة . وأخذوا يرددون : « كن لنا عوناً أيها القبر المقدس »^(٢) وحشد صلاح الدين قواته في موضع يمتد أمامه سهل فسيح يسمح باستخدام الفرسان ، وتغطيه الغابات التي كانت تمتد حتى مسافة مليون من البحر . وهناك دارت يوم ٧ - أيلول - سبتمبر -

(١) كان من عادة العرب المسلمين تدمير الأسوار والتحصينات التي قد يستخدمها العدو للامتناع وراءها ، وباعاقة حرب الحركة التي أنقذ العرب المسلمين فنونها وأساليبها . ولعل أوضح غموض مبكر لهذا النهج هو ما قام به عمرو بن العاص رضي الله عنه في فتح الإسكندرية الثاني سنة ٢٥ هـ - فقد جاء الروم وأنزلوا قواتهم في الإسكندرية ، واعتصموا بها ، فسار إليهم عمرو بن العاص ، واقتتلوا قتالاً شديداً وأصاب المسلمين ضيق شديد ، فأقسم عمرو بن العاص لئن أظهره الله عليهم ليهدم من سورها حتى تكون مثل بيت الزانية تؤتي من كل مكان . فلما نصره الله عليهم وانهزموا - هدمه . (ناریخ الطبری - والکامل في التاریخ - أحداث سنة ٢٥ هـ . وكذلك فتوح مصر - ابن الحکم).

(٢) كن لنا عوناً أيها القبر المقدس : (SANCTUM SEPULCHRUM ADJUVA).

١١٩١ م. المعركة المعروفة باسم (معركة أرسوف) والتي حقق فيها الفرنج نصراًً أمكنهم من إعادة فرض هيمنتهم على قيسارية. وتمكن صلاح الدين من سحب الحامية التي كانت تدافع عن قيسارية والتي لم يكن أفرادها يزيدون على الخمسين فارساً. وقد تم سحبهم مع نسائهم وأطفالهم ومتاعهم. ودارت بعد ذلك مفاوضات بين صلاح الدين الأيوبي وريتشارد قلب الأسد، أمكن في نهايتها الاتفاق على أن تكون قيسارية هي الحد الفاصل بين ممتلكات الفرنج وبين بلاد المسلمين. وعاد حكام الفرنج السابقون إلى حيفا وقيسارية وأرسوف. وشرع الفرنج على الفور بإعادة بناء استحكامات قيسارية وتحصينها. وقد تطلب بناء الأسوار الجديدة في قيسارية جهداً كبيراً وأموالاً ضخمة. وأفاد ملك القدس (يوحنا بريين)^(١) من الحملة الصليبية الخامسة، حيث حصل على المال من ليوبولد - دوق أوستريا - ومن جاي أمبرياكو سيد جبيل. وعهد إلى (غوتبيه دافين)^(٢) باكمال تحصينات قيسارية. غير أن الملك الأفضل على بن صلاح الدين عمل سنة ٦١٧ هـ = ١٢٢٠ م - وكان يومها ملكاً على دمشق - على مهاجمة البلاد الساحلية، فاستولى على قيسارية وخرب تحصيناتها. وعاد الفرنج فشيدوها وحصنوا أسوارها، ولما كان الفرنج يومها يحاصرون دمياط في مصر. فقد قام جيش دمشق بالهجوم على ممتلكات الفرنج الساحلية، وهاجم قيسارية التي لم يفرغ من إعادة بنائها إلا منذ زمن قريب. ولكن الفرنج أعادوا إصلاح ما تهدم من الأسوار، وأضيفت إليها تحصينات جديدة، مثل إضافة الدعم لحصن البوابة، وشق القناة الكبيرة المكسوة، والجدار المائل المتواصل الخ... وقد ظهر أن الاحتفاظ بقيسارية والدفاع عنها ودعمها يتطلب نفقات باهظة، الأمر الذي دفع سيد قيسارية - يوحنا - إلى بيع نصيه في قيسارية إلى طائفة الفرسان الرهبان (الداوية). وبقيت قيسارية في قبضة الفرنج حتى سنة ٦٦٤ هـ = ١٢٦٥ م. حيث خرج الظاهر بيبرس من مصر على رأس جيشه الكثيف، حتى إذا ما وصل إلى فلسطين، أقام معسكراً في الجنوب، وتظاهر أنه سيقوم بحملة صيد في التلال الواقعة وراء أرسوف. ثم ظهر بصورة مباغة أمام

(١) يوحنا بريين: (JEAN DE BRIENNE).

(٢) غوتبيه دافين: (GAUTIER D'AVESNES).

قيسارية، فسقطت المدينة على الفور في قبضته (يوم ٢٧ شباط - فبراير - سنة ١٢٦٥ م) غير أن القلعة صمدت لمدة أسبوع. ثم أذعنـت الحامية للمسلمين، وسمح بيرس لأفراد الحامية بالخروج. ولم يتعرض لهم أحد بأذى. غير أنه أمر بتدمـير المدينة والقلعة وتسويتها بالأرض. ولم تلبـث القلاع المجاورة لقيسارية (عتليـت وأرسوف) أن خضـعت بدورـها لـجـاحـافـلـ المـسـلمـينـ الضـافـرةـ.

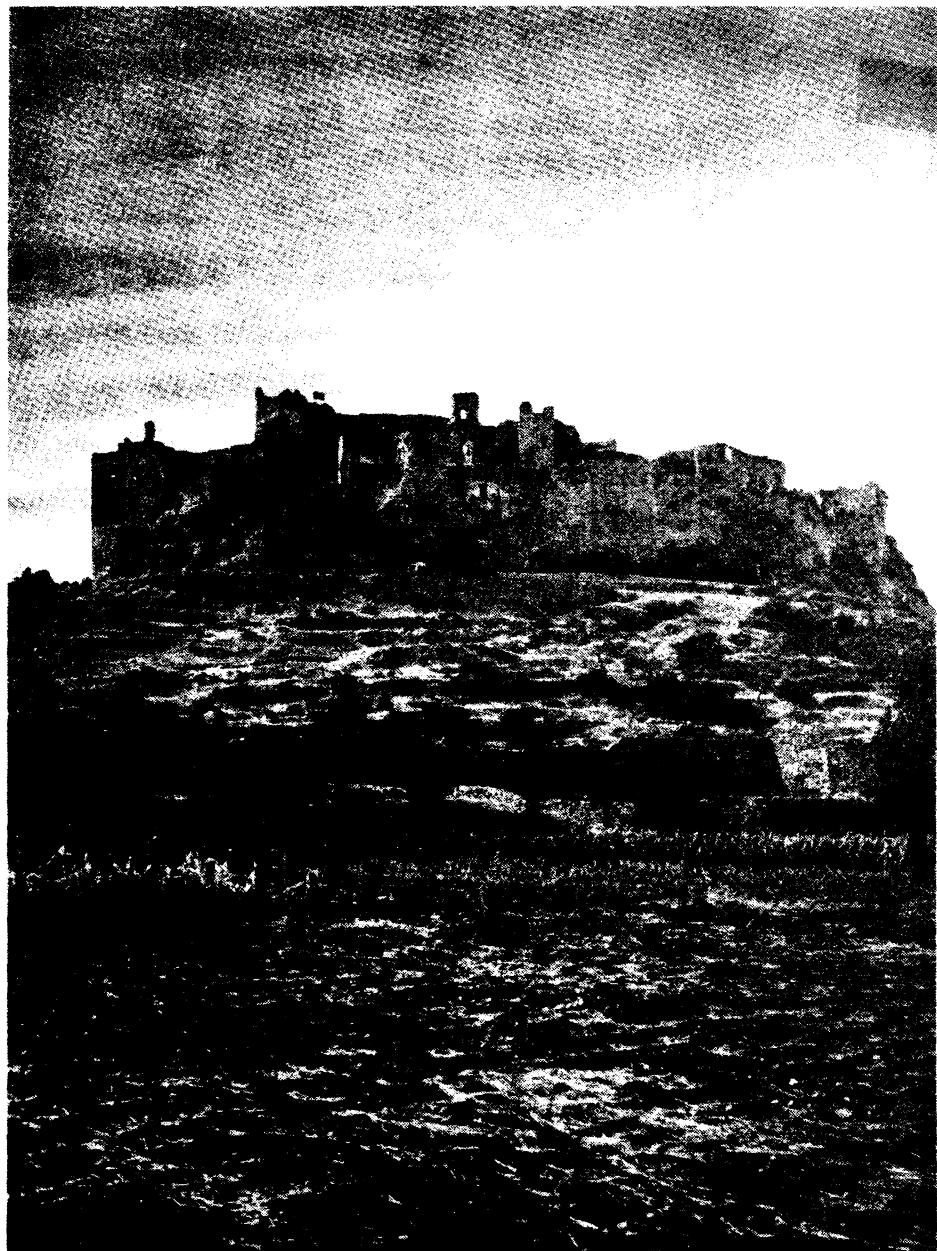
وابـعـ الضـافـرـ بـيرـسـ أـعـالـ الفـتحـ، حتىـ إـذـاـ لمـ يـقـ فيـ قـبـضـةـ الفـرنـجـ إـلاـ بـعـضـ المـدنـ وـالـقـلـاعـ، أـسـرـ عـوـاـ يـلـتـمـسـونـ الـهـدـنـةـ. فـمـ فيـ قـيـسـارـيـةـ عـقـدـ هـدـنـةـ لـمـدةـ عـشـرـ سـنـوـاتـ وـعـشـرـةـ شـهـورـ (بـدـأـتـ يـوـمـ ٢٢ـ -ـ أـيـارـ -ـ مـاـيـوـ -ـ سـنـةـ ١٢٧٢ـ مـ) وـضـمـنـتـ لـلـفـرنـجـ الـبقاءـ بـالـسـاحـلـ الـضـيقـ الـمـمـتدـ مـنـ عـكـاـ إـلـىـ صـيـداـ. وـأـنـ يـكـونـ هـمـ الـحـقـ فيـ اـسـتـخـدـامـ طـرـيقـ الـحـجـاجـ إـلـىـ النـاصـرـةـ. وـعـادـ الـفـرنـجـ عـنـدـمـاـ اـنـتـهـىـ أـجـلـ الـهـدـنـةـ فـالـتـمـسـوـاـ مـنـ السـلـطـانـ قـلـاـوـنـ تـجـديـدـهـاـ (سـنـةـ ١٢٨٣ـ)ـ غـيرـ أـنـ الـفـرنـجـ فيـ عـكـاـ نـقـضـوـاـ الـهـدـنـةـ (سـنـةـ ١٢٩٠ـ). فـسـارـ الأـشـرـفـ خـلـيلـ لـطـرـدـ بـقـايـاـ الـفـرنـجـ مـنـ بـلـادـ الشـامـ. وـقـامـ جـيـشـ دـمـشـقـ بـفـتحـ قـيـسـارـيـةـ، فـأـمـرـ الأـشـرـفـ خـلـيلـ بـتـدـمـيرـ أـسـوـارـ قـيـسـارـيـةـ وـتـحـصـيـنـاتـهاـ تـدـمـيرـاـ كـامـلاـ. وـكـذـلـكـ فـعـلـ بـجـمـيعـ الـحـصـونـ وـالـقـلـاعـ السـاحـلـيـةـ. ذـلـكـ أـنـ الأـشـرـفـ خـلـيلـ عـلـمـ بـتـجـمعـ قـوـاتـ لـلـفـرنـجـ فيـ قـبـرـصـ. وـوـصـلـتـهـ مـعـلـومـاتـ عـنـ قـيـامـ مـلـكـ قـبـرـصـ وـأـمـرـاءـ الـفـرنـجـ بـاـجـراءـ الـاتـصالـاتـ مـعـ مـلـوـكـ الـغـرـبـ لـتـنـظـيمـ حـمـلـةـ صـلـيـيـةـ جـديـدـةـ. فـقـرـرـ تـدـمـيرـ جـيـعـ الـقـوـاعـدـ وـالـمـرـتكـزـاتـ الـتـيـ يـكـنـ لـلـفـرنـجـ الـاسـتـنـادـ إـلـيـهاـ فيـ أـيـ حـمـلـةـ جـديـدـةـ.

٢٢ - قلعة مصياف .

تقع (قلعة مصياف)^(١) ومدينتها في وسط - غرب - سوريا . وتحتل مكانتها فوق
نطاق الاتساع في الشعاب الشرقية من جبال النصيرية - العلوين حالياً - والمدينة
معروفة بخاتمة سور واق بسيط . تقع القلعة عند نهايتها الشرقية . وتتشاءى أسوارها
الخارجية مع الخطوط العامة للمرتفع الصخري المطلوب الذي تربع فوقه . وهي محية
شكل مثير للعجب باستغلال الطبيعة الطبوغرافية استغلاً تماماً . وتتألف هذه القلعة
الضخامة للغاية من جناح علوى محاط بقلعة خارجية . يتميز كل عنصر من عناصرها
بنوع أسلوب البناء فيه على نطاق واسع ، وشتات من حقب متباينة جداً . ذلك أن
تاريخ القلعة يعود إلى أيام الروم البيزنطيين . ثم عاشت حياة العهود الإسلامية المتالية ،
أيام الحملات الصليبية القديمة . وتعرضت خلال العهود المتالية لأحداث كثيرة
وشيكة ، لم يكن أقلها شأنآ أو خطورة تلك الزلازل أو المزارات الطبيعية التي كانت تترك
في كل مرة خراباً ودماراً ، يعقبه اصلاح وبناء . ولقد كان من أكثر ما عرفته القلعة
من أحداث مثيرة هو أنها كانت قاعدة رئيسة لمجاعة الاسماعيلية - الباطنية أو
الخشائين - والذين مارسوا دوراً هاماً في مجال الارهاب ، أيام الحروب الصليبية
القديمة . وقد وصف أبو الفداء مدينة مصياف بقوله : « مصياف هي بلدة جليلة ، وبها
أنهر صغار من أعين ، وطا بساتين ، ولها قلعة حصينة ، وهي مركز دعوة الاسماعيلية ،
وهي في لحف جبل اللكام الشرقي . ومصياف تقع في جهة الشمال من قلعة بعرin وعلى
مسافة فرسخ منها . وكذلك فهي تقع الى جهة الغرب من مدينة حاه وعلى مسيرة يوم
منها . وجبل اللكام ، بضم اللام وتشديد الكاف وألف وميم »^(٢) .

(١) مصياف: (MESSIAT) ومصياد: (MASYAD) وبالفرنجية مصياط :

(٢) القلاع أيام الحروب الصليبية: (ص - ٨٨ - ٨٩).



قلعة مصياف

ويظهر من ذلك أن قلعة مصياف قد ارتبطت - أو اقترنـت - باسم طائفة الاسماعيلية، خلال فترة الحروب الصليبية. وهذا ما أشار إليه مصدر عربي - اسلامي بقوله: «ملك الاسماعيلية حصن مصياف - مصياف - بالشام، وكان واليه مملوكاً لبني منقذ، أصحاب شيزر، فاحتالوا عليه ومكروا به حتى صعدوا إليه وقتلوه وملكو الحصن. فصار بأيديهم سنة خمس وثلاثين وخمسائة»^(١). وإنـذ فقد يكون من الضروري التعرض لهذه الطائفة بقدر ما يتطلبه البحث هنا. ولقد ضمت المراجع العربية الاسلامية فيضاً من أخبار الاسماعيلية ومعتقداتهم وأعمالهم ومارساتهم. ويتركز البحث في هذا المضمار على الجانب العسكري المتعلق بقلعة مصياف. وقد ورد بشأن طائفة الاسماعيلية أصحاب القلعة ما يلي: «الاسماعيلية هم الباطنية، وهم الذين كانوا يعرفون قبل ذلك بالقرامطة. وكان أول ظهورهم بأصفهان - في بلاد فارس - وكان من أول أعمالهم قتل نظام الملك السلاجوقى. واجتمعوا عند قاين - بلد في فارس أيضاً - وعلموا بمرور قافلة عظيمة من كرمان إلى قاين، فتعرضوا لها، وقتلوا أهل القافلة أجمعين. وصاروا يسرقون من قدروا عليه من مخالفتهم ويقتلونهم. وفعلوا هذا بخلق كثير. وزاد الأمر حتى أن الإنسان كان إذا تأخر عن بيته عن الوقت المعتمد تيقن أهله من قتيله وقعدوا للعزاء. فحضر الناس وصاروا لا ينفرد أحد منهم. وكان الباطنية إذا اجتاز بهم إنسان أخذوه إلى دار منها وقتلوا وألقوا في بئر الدار، قد صنعت لذلك. وكان على باب درب منها رجل ضرير، فإذا اجتاز به إنسان، يسأله أن يقوده خطوات إلى باب الـدرـب، فيفعل ذلك، فإذا دخل الـدرـب أخذ وقتل. ثم استولى الاسماعيلية على عدة حصون منها قلعة أصفهان - استولى عليها أحمد بن عطاش - ونان المسلمين منه ضرر عظيم من أخذ الأموال وقتل النفوس وقطع الطريق والخوف الدائم. ومنها قلعة الموت، من نواحي قزوين (ومعنى الموت تعليم العقاب بلغة الـديـلم) وقد استولى عليها الحسن بن الصباح، أحد تلامذة ابن العطاش، وقد زار ابن الصباح مصر وبایع المستنصر الفاطمي الذي أمره بدعاوة الناس إلى إمامته، فعاد وكثير أتباعه،

(١) الكامل في التاريخ - أحداث سنة: ٥٣٥ مـ.

واستولى على قلاع سمنكوه وخالنجان وأستوناوند وكردكوه وقلعة الناظر بنور بن ناز
وقلعة الظبور وقلعة خلادخان الخ...». وقد انبسط - انتشر - جماعة منهم في
عسكر المسلمين - عسكر بركيارق - واستغروا كثيراً منهم وأدخلوهم في مذهبهم،
وكادوا ينفرون بالكثرة والقوة. وحصل بالعسكر منهم طائفة من وجدهم وزاد
أمرهم. فصاروا يتهددون من لا يوافقهم بالقتل. فصار يخافهم من يخالفهم، حتى لم
يعد أحد يتجرأ على الخروج من منزله حاسراً. سواء كان أميراً أو متقدماً. بل ينشر
تحت ثيابه درعاً، حتى أن الوزير الأعز أبا المحاسن كان يلبس زردية تحت ثيابه «.

تعاظمت قوة الإسماعيلية بعد ذلك: «وسار جمع كثير منهم من طريقه عن بعض
أعمال بيهق، وشاعت الغارة في تلك النواحي؛ وأكثروا القتل في أهلها والنهب لأموالهم
والسي لنسائهم، وكان من جلة فعلهم أن قافلة للحجاج تجمعت فيها وراء النهر
وخراسان والمند وغيرها من البلاد، ووصلوا إلى جوار الري، فاتاهم الإسماعيلية وقت
السحر، فوضعوا فيهم السيف، وقتلوا، وغنموا أموالهم ودواهم، ولم يتركوا شيئاً
وقلوا أيضاً أبا جعفر بن المشاط، وهو من شيوخ الشافعية، وكان يدرس بالري ويعطي
الناس، فلما نزل من كرسيه أتاهم باطني فقتله... وتفرغ السلطان محمد السلجولي لحرفهم،
وأرسل من يناظرهم لاستزاحهم من قلعة شاهدرز - القرية من أصبهان - فقالوا: إننا
نخاف على دمائنا وأموالنا من العامة فلا بد من مكان نختمي به منهم ...».

وامتد نفوذ الإسماعيلية إلى الشام، وأهلها مصرفون لحرب الفرنج الصليبيين،
فتبعوا سيرتهم ضد المسلمين وقادتهم. وكان من أول أعمالهم قتل أمير الجيوش الأفضل
ابن بدر الجمالي - صاحب الأمر والحكم بمصر، وذلك لأن الإسماعيلية قد كرهوه
بسبب عدم معارضته لأهل السنة في اعتقادهم. والنهي عن التعرض لهم. وإذا
للناس في إظهار معتقداتهم»^(١).

كما واصل داعي الإسماعيلية (هرام ابن أخت الأسد أبادي) إلى بلاد الشام،
وأخذ يتردد في البلاد، ويدعو أوباش الناس وطغامهم إلى مذهبهم، فاستجاب له منهم

(١) الكامل في التاريخ - أحداث سنوات: ٤٩٥ و ٤٩٨ و ٥٠٠ و ٥١٥ و ٥٢٠ -

من لا عقل له، فكثراً جمعه، إلا أنه يخفي شخصه فلا يعرف. وأقام بجلب مدة، واتصل ب أصحابها ايلغازي الذي أراد أن يعتمد به لاتقاء الناس شره وشر أصحابه، لأنهم كانوا يقتلون كل من خالفهم. وأشار ايلغازي على صاحب دمشق - طفتين - بأن يجعله عنده لهذا السبب، فقبل رأيه وأخذه إليه. فأظهر حينئذ شخصه وأعلن عداوته، فكثراً أتباعه من كل من يريد الشر والفساد، وأعانه الوزير أبو طاهر بن سعد المرغيناني قصداً للاعتراض به على ما يريد، فعظم شره واستفحلاً أمره. وصار أتباعه أضعافاً مما كانوا.

فلولا أن عامة دمشق يغلب عليهم مذاهب أهل السنة، وأنهم يشددون عليه فيما ذهب إليه، لملك البلد. ثم إن برامرأى من أهل دمشق فظاظة وغلظة عليه، فخاف عاديتهم، فطلب من طفتين حصنًا بأويإليه هو ومن اتبعه. فأشار الوزير بتسلیم قلعة بانياسإليه. فلما سار إليها اجتمع إليه أصحابه من كل ناحية. فعظم حينئذ خطبه، وجلت المحنّة بظهوره. واشتد الحال على الفقهاء والعلماء وأهل الدين. لاسيما أهل السنة والستر والسلامة. إلا أنهم لا يقدرون على أن ينطقوا بحرف واحد خوفاً من الاسماعيلية. فتربيصوا بهم الدوائر يتظرون الفرصة المناسبة للفتك بهم.

لقد عمل الاسماعيلية على خدمة الصليبية. وهذا ما تضمنه بحث لمستشارين جاء فيه: «كان أمير انطاكيه - كونت تانكرد - من أشد الصليبيين عداء للإسلام وأهله. فأخذ في العمل للكيد للمسلمين. وكان ما هو أكثر عوناً له، وما هو أشد خطراً على كل محاولة لقتال الصليبيين، ظهور مذهب جديد يعتمد على التدمير - هو مذهب الاسماعيلية الذي اشتهر فيما بعد باسم الحشيشية، والذي استخدم لتحقيق أغراض سياسية، حيث وجه لمناهضة الخلفاء العباسين ببغداد، وإلى السلجوقة الذين دعموا الخلافة. فكان لقوتهم دورها في إطالة عمر الخلافة العباسية. وقد صار للاسماعيلية معاقل في الشام، وكان أول حادث اغتيال قاموا به في الشام، هو ما وقع سنة ٤٩٧ هـ = ١١٠٣ م عندما اغتالوا أمير حمص جناح الدولة. ولم تمض ثلاث سنوات على هذا الحادث حتى قتلوا أمير أفامية - ابن ملاعب - الذي لم يفدو من مصرعه إلا الفرج في

أنطاكية. ومع أن الباطنية لم يكشفوا حتى ذلك الوقت عن سياستهم، إلا بما أقدموا عليه من اغتيالات متفرقة، فانهم أضحووا عاماً في السياسة الإسلامية، لم يسع المسيحيون أنفسهم إلا تقديره^(١).

تابع الاسعاعيلية دورهم، فعملوا في سنة ٥٢٠ هـ على اغتيال أكبر عدو للفرنج الصليبيين، وهو أمير الموصل قسم الدولة آقسنقر البرسي: « وقد اغتالوه وهو يصلى الجمعة. وكان ابنه عز الدين مسعود بجلب يحفظها من الفرنج. فكان من العجب أن صاحب أنطاكية - تانكرد - أرسل إلى عز الدين بن البرسي يخبره بقتل والده، قبل أن يصل إليه الخبر». وفي السنة التالية (سنة ٥٢١ هـ) قتل معين الملك أبو نصر أحمد ابن الفضل، وزير السلطان سنجر - قته الباطنية. وفي سنة ٥٢٣ هـ - قام أهل دمشق بقتل الباطنية، وكان سبب ذلك أنه لما سار بهرام إلى قلعة بانياس وتملكتها، ترك في دمشق خليفة له، يدعو الناس إلى مذهبة، فكثروا وانتشروا، وملك هو عدة حصون من الجبال منها القدموس وغيره. وكان بودي التيم من أعمال بعلبك أصحاب مذاهب مختلفة من النصيرية والدرزية والمجوس وغيرهم... فسار إليهم بهرام فقاتلهم، فهزموه وقتلواه.

وجاء خليفته - أبو الوفا - إلى دمشق، فراسل الفرنج ليسالم إليهم مدينة دمشق، ويسلموا إليه مدينة صور، واستقر الأمر بينهم على ذلك. وتقرر بينهم الميعاد يوم الجمعة، وقرر الاساعاعيلية أن يحتاطوا بذلك اليوم بأبواب الجامع. فلا يمكنون أحداً يخرج منه حتى يصل الفرنج ويتسلموا البلد. فبلغ الخبر تاج الملوك - صاحب دمشق يومئذ - فنادى في البلد بقتل الباطنية، فقتل منهم ستة آلاف نفس. وخاف الاساعاعيلية في بانياس أن يثور المسلمين، فيهلكوا. فراسل مقدمهم اساعاعيل الفرنج واتفق معهم على تسليم بانياس إليهم. والانتقال إلى بلادهم. فأجابوه. فسلم القلعة إليهم. وانتقل هو ومن معه من أصحابه إلى بلاد الفرنج.

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ١٩٣/٢ - ١٩٥

عامل الفرنج الاسماعيلية معاملة سيئة، فقرروا اعتزامهم. وفي سنة ٥٢٧ هـ = ١١٣٢ م. اشتري الاسماعيلية بالشام قلعة حصن القديوس من صاحبه (ابن عمرون) وصعدوا إليه، وأقاموا بحرب من يجاورهم من المسلمين والفرنج، وكانوا كلهم يكرهون مجاورتهم.

يمكن بعد ذلك تجاوز مجموعة الأحداث الصغرى، للوصول إلى موقف الاسماعيلية من صلاح الدين الأيوبى، بسبب كراهيتهم له لقادمه على الغاء الخلافة الفاطمية بمصر والتي كانوا يزعمون ارتباطهم بها معنويًا. ويسبب التحريرات والاغراءات التي كانت تدفعهم لمناصبة العداء. ففي سنة ٥٧٠ هـ، أرسل مقدم الاسماعيلية في مصياف - سنان شيخ الجبل - جماعة لقتل صلاح الدين وهو يحاصر حلب. فلما وصلوا رأهم الأمير خارتكين - صاحب قلعة بوقيس - فعرفهم لأنه كان جارهم في البلاد وكثير الاجتاع بهم والقتال لهم. فلما رأهم قال لهم: ما الذي أقدمكم؟ وفي أي شيء جئتم؟ فهاجموه، وجرحوه جراحات متخنة، وحمل أحدهم على صلاح الدين ليقتله، فقتل دونه، وقاتل الباقون من الاسماعيلية، فقتلوا جماعة من رجال صلاح الدين، وقتلوا. وفي السنة التالية (٥٧١ هـ) وبينما كان صلاح الدين يقيم على حصار قلعة أعزاز، دخل ذات يوم إلى خيمة مقدم الطائفة الأسدية. فوثب عليه باطني - اسماعيلي - فضربه في سكين في رأسه فجرحه، فلو لا أن المغفر الزرد تحت القلنسوة لقتله، فأمسك صلاح الدين يد الباطني بيده، إلا أنه لا يقدر على منعه من الضرب بالكلية، إنما يضرب ضرباً خفيفاً. واستمر الباطني بضرب صلاح الدين في رقبته بالسكين. وكان عليه كراغند، فكانت الضربات تقع في زيق الكراجند فتقطعه، والزردية تمنعها من الوصول إلى رقبته، حتى جاء أمير من أمراء صلاح الدين فأمسك بالسكين في كفه، فجرحه الباطني، ولم يطلقها من يده إلى أن قتل الباطني. وجاء آخر من الباطنية فقتل أيضاً، وثالث فقتل وركض صلاح الدين إلى خيمته كالمذعور، لا يصدق بنجاته. ثم اعتبر جنده، فمن أنكره أبعده. ومن عرفه أقره على خدمته^(١).

(١) لمطالعة المزيد عن تفاصيل الأحداث المذكورة، يمكن الرجوع إلى الكامل في التاريخ - أحداث سنوات ٥٢١ و ٥٢٣ و ٥٢٧ و ٥٧١ و ٥٧٠ و ٥٧٢.

لم يكن باستطاعة صلاح الدين الأيوبي تجاهل استفزازات الاسماعيلية وتحدياتهم. فسار إليهم سنة اثنين وسبعين وخمسائة (١١٧٦ م) فذهب بلدتهم وخربه وأحرقه وحصر قلعة مصياف - وهي أعظم حصونهم وأمنع قلاعهم. فنصب عليها المنجنيقات. وضيق على من بها. ولم يزل كذلك، فأرسل مقدم الاسماعيلية سنان إلى صاحب حماه - شهاب الدين الحارمي - وهو خال صلاح الدين. يسأله أن يدخل بينهم ويصلح الحال ويشفع فيهم. وأنذره بقوله: إن لم تفعل قتلناك وجميع أهل صلاح الدين. فشفع لهم، وسأل الصفح عنهم. فأجاهم إلى ذلك وصالحهم ورحل عنهم. وبقيت مصياف في قبضة الاسماعيلية - وتتابع مقدم الاسماعيلية دوره للافادة من ظروف الصراع بين المسلمين والفرنج الصليبيين. ففي سنة ٦٥٠ هـ = ١٢٥٢ م. وبعد أن فشلت حملة ملك فرنسا لويس التاسع^(١). على مصر. وانسحب لويس التاسع إلى عكا. فأرسل إليه زعيم الاسماعيلية سفارة طلبت من لويس مالاً مقابل التزام الاسماعيلية - الحشيشية - الحيد. غير أن السفارة لم تنجح لأن الملك الفرنسي طلب ارجاء التحالف معها. فأرسل مقدم الاسماعيلية سفارة ثانية، طلبت بصفة خاصة أن تتحلل من الالتزام بدفع جزية لللاستبارية، وحملت السفارة معها إلى الملك الهدايا الثمينة، ووافقت على إقامة تحالف وثيق مع الفرنج. ونظرًا لما كان يعلمه الملك لويس من العداوة التي تضمرها الاسماعيلية للMuslimين السنة، فقد شجع خطوتهم. وأنفذ (يف البريتوني) للاتفاق على عقد معاهدة. وأعجب (يف البريتوني) بالمكتبة التي اقتناها الحشيشية في مصياف، إذ عثر فيها على موعظة من سفر الاخبار، كان السيد المسيح قد وجهها إلى القديس بطرس، والذي اعتبر بحسب ما قاله رجال الحشيشية تحسيداً آخر لهابيل ونوح وابراهيم. وتم

(١) لويس التاسع: LOUIS IX-OU-SAINT LOUIS) ابن ملك فرنسا لويس الثامن وملكتها بلانش كاستيل. ولد في بواسي - فرنسا - سنة ١٢١٤ م. وأصبح ملكاً لفرنسا من سنة ١٢٢٦ حتى وفاته سنة ١٢٧٠ م. حكم في البداية تحت وصاية أمه. قاد حملة صليبية سنة ١٢٤٩ للاستيلاء على مصر. غير أنه هزم في معركة المنصورة سنة ١٢٥٠ م فافتدى نفسه ومن بقي من حملته. وخرج من مصر إلى عكا حيث أقام فيها أربع سنوات (١٢٥٠ - ١٢٥٤ م) عاد بعدها إلى بلاده. وفي سنة ١٢٦٩ حل الصليب، وقاد الحملة الصليبية الثامنة التي تحطمت على أبواب تونس. ومات لويس التاسع هناك.

يهم ابرام معااهدة للدفاع المشترك»^(١). ولكن هذه المعااهدة لم تتمكن الفرنج أو الاسماعيلية من ايقاف المد الضارف لل المسلمين. فقد تعاظمت قوة المسلمين، وأخذوا في التصريح على الفرنج في كل مكان. غير أن خطراً جديداً جاء من الشرق. فقد انطلق الغول من جوف آسيا، وعلو خلال سيرهم على اقتلاع جذور الاسماعيلية وإبادة أصحابها. وبذروا بقلعة آمود، ثم تابعوا ذبح اتباع الاسماعيلية، والاستيلاء على حصنهم وقلاعهم في بلاد فارس كلها. وعندما وصلوا إلى بلاد الشام استولوا على مصيف في جلة ما استولوا عليه من القلاع. حتى إذا ما انتصر المسلمون في عين حائل (٦٥٩ هـ = ١٢٦٠ م) وانسحب المغول، عملوا قبل انسحابهم على تدمير مصيف وقلعتها.

خسر الاسماعيلية قلاعهم وحصونهم جميعاً، وأصبحوا شتاناً، فوجدوا أن من يصلاح لهم الوقوف إلى جانب الأقوية للمحافظة على ما بقي من شتاهم. وكان الظاهر بيروس قد أخذ بائز العقاب بالفرنج الذين تحالفوا مع المغول (إمارتي أنطاكية وارمينية) فوق الاسماعيلية إلى جانب الظاهر بيروس الذي حارب أعداءهم التتار فهزهم، والذي حرر الاسماعيلية من الآناوة - الجزية - التي كانوا يدفعونها لفرسان الاستبارية. فنظم الاسماعيلية مجموعة من الكتائب التي اشتهرت مع المسلمين في فتح عدد من الحصون والقلاع^(٢). ولم يكن السلطان بيروس ليسمح باعادة مصيف إلى الاسماعيلية. فوضع فيها حامية من المسلمين، وأتبعها إلى قيادة قلعة الحصن. ثم أتبعها إلى ولاية طرابلس.

يظهر العرض الوجيز السابق، أن قلعة مصيف قد انفردت عن كل ما عدتها من قلاع بلاد الشام وحصونها بدورها المميز. فإذا كانت قلعة البلاد الساحلية قد انتضمت في إطار دفاعي متكملاً لحماية المناطق التي احتلها الفرنج. وإذا كانت قلعة البلاد الداخلية وحصونها قد انتضمت بدورها في إطار دفاعي متكملاً لحماية بلاد المسلمين.

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ٤٨١/٣ - ٤٨٢.

(٢) المرجع السابق: ٥٧٠/٣ - ٥٧١.

فقد ارتبطت مصياف وقلعتها بمجموعة القلاع المتناثرة والمتباعدة والممتدة حتى عمق بلاد فارس . ولقد اختار الاسماعيلية حياة العزلة في القلاع نظراً لما كان يفصلهم عن محيطهم من غرابة في التفكير وشذوذ في المعتقدات . والخراف في ممارساتهم الاجرامية . ولهذا حار بهم المسلمون وتنكر لهم الفرنج ، وأجهز عليهم المغول التتار . ولئن تعرض تنظيم الاسماعيلية - الحشاشين - للضربة القاضية على أيدي المغول ، إلا أن المسلمين والفرنج قد أخضعوهم من قبل لقيود صارمة . وإذا كان بقاء قلعة مصياف في قبضة الاسماعيلية طوال فترة الحروب الصليبية القديمة ، على حدود خط الصراع بين المسلمين والفرنج . هو برهان على كفاءتهم الدينية وبasisية العالية . وبرهان أيضاً على مرونتهم في التحرك بين مراكز القوى المتصارعة . فان نهايةهم انما هي البرهان الثابت على عجزهم عن إقامة كيان مميز لهم . رغم ما توافر لهم من الثراء الفاحش ، والامكانيات الضخمة . ذلك لأن مصدر ثرائهم قد اعتمد على النهب والسلب والابتزاز والقتل والارهاب - وهي وسائل كفيلة في حد ذاتها بالقضاء على كل كيان حتى لو تمكّن مثل هذا الكيان الظهور لبعض الوقت ، في أي وقت ، على سطح الأرض .

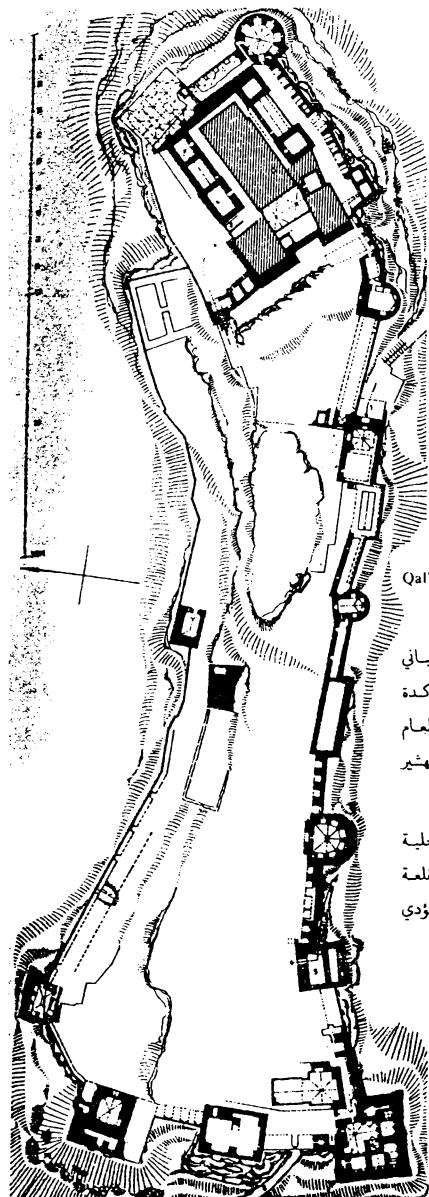
٢٤ - قلعة نمرود (الصبيبة) .

تقع (قلعة نمرود)^(١) في الشعاب الجنوبية لجبل لبنان الشرقي، وهي الى الشمال مباشرة من بلدة بانياس الصغيرة في الجولان، على الحدود بين سوريا وفلسطين التي تحملها اسرائيل، قرب ينابيع الاردن. وتحتل جرفاً صخرياً مطولاً، يشرف على هضبة عالية. ترتفع تدريجياً نحو الشمال. وتواجه دفاعاتها الرئيسة الجبال في الشمال. وإن درجة الانحدار - الميل - المتواضعة على السفوح الجنوبية قد تطلبت إقامة تحصينات أقوى على هذا الجناح الذي كانت تحميه ثمانية أبراج وحصون بارزة من أحجام متباعدة وتصميم مختلف. أما الجناح الشمالي، فيتمتع بجمالية طبيعية على سفح صخري شديد الانحدار ، ولم يكن يحميه سوى سور بسيط مضلع السطوح، بينما كان الجناح الغربي متكيقاً مع الطبيعة الطبوغرافية ، وهو محظي بعدد من الأبراج القوية، مثله كمثل الجناح الجنوبي. ونظرأً لوجود هذه القلعة على مسافة متوسطة بين الشام - دمشق - وفلسطين. فقد كانت مركزاً للصراع بين دمشق وجيشها من جهة ، وبين الفرنج وجيشهما من جهة أخرى. وقد وصفها أبو الفداء بقوله: «بانياس - اسم لبلدة صغيرة ذات أشجار محضات وغيرها. وذات أنهار. وهي على مرحلة ونصف من دمشق ، من جهة الغرب ، بميلاً الى الجنوب . والصبيبة اسم لقلعتها . وهي من الحصون المتبعة . قال العزيزي: ومدينة بانياس في لحف جبل الثلوج - المعروف باسم جبل الشيخ أو جبل حرمون - وهو مطل عليها . والثلوج على رأسه كالعامة ، لا يعدم منه صيفاً ولا شتاء»^(٢).

عندما استقر الفرنج الصليبيون في القدس (سنة ٤٩٢ هـ = ١٠٩٨ م) شرعوا على

(١) قلعة الصبيبة: (QAL'AT SUBEIBE) أو قلعة بانياس أو بانياس: (PENEAS)-(BELINAS).

(٢) القلاع أيام الحروب الصليبية. ص: ٥٢ - ٥٤.



قلعة غرود (صبيبة - بانياس)

Subeibe-Paneas

الخطط العام للقلعة ، المقياس ١ / ٢٠٠٠
الغرة الفرعية (١١٢١ - ١١٣٢) باللون الأسود ، غير المؤكدة
منها بالتهشيم التصالب ، بينما رسمت المنشآت العربية بعد العام
١١٦٤ بالتهشيم الكثيف ، والمقطع الأفقي للتربة والصخر بالتهشيم
العربي .

- ١ - بوابة الخارجية الرئيسية ، ٢ - بوابة الداخلية المؤدية إلى القلعة ، ٣ - بوابة خاصة للقلعة ، ٤ - القلعة الفنية ، ٥ - بوابة جانبية للقلعة الفنية ، ٦ - الطريق المؤدي إلى الطلعة حالياً

قلعة صبيحة بابليس (غمرود)



الفور بالعمل على توسيع حدود مناطقهم التي احتلوها. فعهد ملك القدس - بلدوين - بامارة الجليل الى (هيوسانت أومر) وشجعه على أن ينتهج سياسة توسيعية عدوانية ضد المسلمين. فكان أول عمل قام به - هيyo - هو تشييد قلعة على الجبل (قلعة توروون - والمعروفة باسم قلعة تبنين) للتحكم بالطريق الذي يربط بين صور وبانياس ودمشق. وذلك حتى يعد أفضل الظروف للاغارة على الأراضي الخصبة الواقعة إلى الشرق من بحر الجليل. ثم شيد قلعة أخرى على التلال الواقعة إلى الجنوب من بحيرة طبرية - أطلق عليها العرب اسم قلعة علمال - واكتمل بناء القلعتين (سنة ٤٩٩ هـ = ١١٠٥ م) غير أن حصن علمال لم يبق في أيدي الفرنج سوى فترة قصيرة. إذ أن أمير دمشق - طفتكن - لم يسمح بأن تتعرض بلاده للتهديد ، فقد جيشه سنة ٤٩٩ هـ - بينما كان أمير الجليل هيyo عائدًا إلى علمال بغنية ثقيلة بعد إغارة قوية على أملاك المسلمين. وانقض طفتكن بجيشه ، فأصيب هيyo بجراح أودت بحياته ، وتفرق رجاله ، ولم يجد طفتكن صعوبة في الاستيلاء على قلعة علمال^(١).

هكذا أصبحت بانياس وقلعتها (قلعة نمرود أو الصبيحة) على خط الصدام المباشر بين جيش دمشق المدافع عن جنوب فلسطين ، وبين جيش الفرنج الصليبيين في القدس والجليل. وكان مقدم طائفة الاسماعيلية (بهرام الاسترابادي)^(٢) قد حصل من تاج الملك بوري بن طفتكن على قلعة بانياس. فقام الاسماعيلية بتسليمها إلى الفرنج. فما كان من أمير دمشق - شمس الملوك بن تاج الملك واسمه اسماعيل - إلا أن حشد جيشه دون أن يعلم أحد مقصدته ، ثم سار وسبق خبره - أواخر المحرم من سنة سبع وعشرين وخمسمائة - فنزل على بانياس ، وقاتلته لساعته ، وزحف إليه زحفاً متتابعاً. وكان الفرنج غير متأهبين وليس في القلعة من يدافع عنها. واقترب شمس الملوك من سور المدينة ، وترجل بنفسه ، وتبعه الناس من الفارس والراجل ، ووصلوا إلى السور ، فنقبوه ودخلوا البلد عنوة. والتراجأ من كان فيها من جند الفرنج إلى الحصن وامتنعوا به ، فقتل من البلد كثير من الفرنج ، وأسر كثير ، ونهبت الأموال ، وقاتل المدافعين عن

(١) تاريخ المروءة الصليبية: ١٥٥/٢.

(٢) انظر (قلعة مصياف) و(قلعة دمشق).

قلعة غرود - الصبية قتالاً شديداً، واتصل القتال ليلاً ونهاراً. حتى ملكها شمس الملوك بالأمان، وعاد إلى دمشق. وكان الفرنج عندما علموا بهجوم جيش دمشق على بانياس وقلعتها قد شرعوا بجشد جندهم، والسير إليها. فأتاهم خبر فتحها، فبطل ما كانوا فيه.

حدث بعد ذلك تطور مؤلم بالنسبة لبلدة بانياس وقلعتها غرود. ففي سنة أربع وثلاثين وخمسة (١١٣٩ م) كان نور الدين زنكي قد قطع شوطاً بعيداً في توحيد بلاد الشام، وحشد القوى لقتال الفرنج. ويظهر أن حاكم دمشق - مجير الدين آبق - قد خاف من استيلاء نور الدين على دمشق وإخراجه منها - وفي الوقت ذاته أدرك الفرنج أن نور الدين قد بات وهو يشكل أكبر خطر يتهددهم. فلما جاء نور الدين بجيشه إلى دمشق اتفق مجير الدين آبق ومتولي ترتيب دولته - معين الدين أنز - مع الفرنج على تبادل الدعم والمساعدة ضد نور الدين، وذلك مقابل تسليم بانياس وقلعتها غرود إلى الفرنج. وحشد الفرنج جيشه، وساروا إلى دمشق، فانسحب نور الدين إلى الشمال، ولم يصطدم بهم، وسار جيش دمشق مع الفرنج إلى بانياس، فقاومت حامية قلعة غرود قدر استطاعتها، غير أنها اضطرت للاستسلام. فقام مجير الدين بالوفاء بوعده، وسلم بانياس وقلعتها إلى الفرنج الصليبيين، وعاد جيش دمشق إلى دمشق. وأقام الفرنج حامية لهم في قلعة غرود بقيادة - رينيه بروس - الذي أقاموه حاكماً عليها. وتم تعيين رئيس شامسة عكا - آدم - أسقفًا لها^(١).

تعلم الفرنج من تجربتهم هذه درساً يقضي بأنه كيما يعيش الفرنج في بلاد الشام، فإنه ينبغي عليهم عدم الامتناع عن التفاهم مع المسلمين، بل يجب عليهم أن يظهروا استعدادهم للتعاون مع من هم أقل خطراً عليهم ضد من هو أكثر خطراً. وحل ملك القدس - فولك - نبلاءه على أن يتبنوا سياسته، وأن يسيروا على نهجه، وظن فولك

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ٢٨٧/٢ - ٢٨٨ و ٣٦٤ - ٣٦٧ والكامل في التاريخ - أحداث سنة ٥٣٤ هـ وسنة ٥٣٤ هـ.

والفرنج أنه باستطاعتهم استثمار التناقضات بين أمراء المسلمين لتحقيق هدفهم بالاستيلاء على دمشق، بعد أن أصبحت بانياس وقلعتها غرود في قبضتهم، فانطلقا منها (سنة ١١٤٨ م) بأضخم جيش زج به الفرنج في القتال، وتوجهوا نحو دمشق. واتخذ معين الدين أنس ما هو ضروري من الاجراءات للدفاع. وأرسل إلى نور الدين زنكي بحلب يستجد به، وأسرع نور الدين بالتحرك، وصمد جيش دمشق. وفشل هجوم الفرنج. ثم قامت جماعة من التركمان وجهها أمير بعلبك سنة ٥٤٦ هـ = ١١٥١ م فأغارت على بانياس. ورد الفرنج على ذلك بتوجيهه قوة من بانياس للاغارة على بعلبك، ولم يلبث نور الدين زنكي أن نظم بالتعاون مع أمير دمشق مجير الدين آبق، إغارة على بانياس سنة ٥٤٨ هـ = ١١٥٣ م. وقد برهنت هذه الاغارة على أن جهود الفرنج للتفرق بين المسلمين لم تسفر إلا عن زيادة التعاون فيما بينهم، مما أدى بالتالي إلى خصوّع دمشق لنور الدين زنكي (سنة ٥٤٩ هـ = ١١٥٤ م). وعقد الفرنج هدنة مع نور الدين زنكي حتى يوجهوا جدهم ضد مصر. غير أنهم لم يلبيوا حتى عادوا لاستفزاز دمشق. وحدث في سنة ٥٥٢ هـ = ١١٥٧ م أن عمل ملك القدس - بلدوين - على نقض الهدنة، وهاجم الرعاة الذين جاؤوا بقطعاً منهم من الخيول والأغنام لانتجاج المراعي الغزيرة والقريبة من بانياس - وحصل بذلك على أعنى غنيمة أمكن للفرنج الحصول عليها طوال عشرات السنوات السابقة. فما كان من نور الدين زنكي إلا أن شهر سيف الانتقام. وتمكن قائده شير كوه من إزالة الهزيمة بجماعة من الفرنج كانوا يغيرون على الحقيقة. كما تمكن نصرة الدين - شقيق نور الدين - من إزالة هزيمة مماثلة بجماعة من فرسان الاستبارية قرب بانياس. وجاء نور الدين بجيشه فحاصر بانياس التي لم تلبث أن استسلمت له، غير أن قلعة غرود - الصبية - والواقعة على بعد ميلين من بانياس، قاومت الهجوم بضراوة بقيادة الكندسطبل هموري سيد تبنيين. وأسرع ملك القدس - بلدوين - بقيادة جيشه لإنقاذ حامية قلعة غرود، والتي كانت على وشك الاستسلام للمسلمين. فما كان من نور الدين إلا أن أحرق بلدة بانياس وانسحب منها، ونصب كميناً لجيش الفرنج أثناء عودته من بانياس إلى القدس، وأنزل به خسائر فادحة. حتى أن الملك بلدوين لم ينج إلا بأعجوبة، وعاد

الملعون لمحاصرة قلعة بانياس، غير أنهم ما لبثوا أن رفعوا الحصار عنها، انتظاراً لفرصة أفضل^(١).

كانت الأوضاع في مصر تتدحرج بصورة خطيرة خلال هذه المرحلة، مما أفسح المجال أمام الفرنج لارسال قواتهم إلى مصر. فأرسل الخليفة الفاطمي إلى نور الدين يستجد به ويستمده. وأسرع نور الدين فجهز جيشاً ووجهه إلى مصر بقيادة أسد الدين شيركوه. وقام نور الدين بقيادة جيشه إلى طرف بلاد الفرنج مما يلي دمشق ليمنع الفرنج من التعرض لأسد الدين، ثم هاجم بانياس. حتى إذا ما تجاوزت الحملة سيناء، توجه نور الدين بجيشه صوب الشمال، حيث دمر جيشاً للفرنج كان قد احتشد عند حارم. وعاد بعد ذلك من أقصى الشمال إلى الجنوب، ليظهر بصورة مباغته أمام بانياس، وقد وردت قصة المعركة عند ابن الأثير - كما يلي: «فتح نور الدين محمود قلعة بانياس سنة تسع وخمسين وخمسمائة - ١١٦٣ م. وكان نور الدين بعد أن فتح حارم، قد أذن لعسكر الموصل وديار بكر بالعود إلى بلادهم. وأظهر أنه يريد طبرية، فجعل من بيقي من الفرنج همهم في حفظها وتقويتها. فسار نور الدين إلى بانياس لعلمه بقلة من فيها من الحياة المانعين عنها، وناظما وضيق عليها وقاتلها.

وكان في جلة عسكره أخيه نصرة الدين أمير أمiran. فأصابه سهم فأذهب إحدى عينيه، فلما رأه نور الدين قال له: لو كشف لك عن الأجر الذي أعد لك لتمنيت ذهاب الأخرى.

ووجد في حصارها، فسمع الفرنج، فجمعوا ، فلم تتكامل عدتهم حتى فتحها. على أن الفرنج كانوا قد ضعفوا بقتل رجالهم بحارم وأسرهم، فملك القلعة، وملأها ذخائر وعدة ورجالاً. وشاطر الفرنج في أعمال طبرية، وأقرروا له على الأعمال التي لم يشارطهم عليها مالاً يؤدونه له في كل سنة. ووصل خبر ملك حارم وحصن بانياس - غرود - إلى الفرنج بمصر ، فصالحوا أسد الدين شيركوه. وعادوا ليدركوا بانياس، فلم يصلوا إلا وقد ملكوها.

(١) تاريخ المروءة الصليبية: (٤٧٢ و ٥٤٣ و ٥٤٨ و ٥٥٢ و ٥٩٤ - ٥٩٩).

ولما فتح حصن نمرود - الصبيحة - كان مع نور الدين ولد معين الدين أنس، الذي سلم بانياس الى الفرنج، فقال له نور الدين : لل المسلمين بهذا الفتح فرحة واحدة ولك فرحتان . فقال كيف ؟ فأجابه نور الدين : لأن اليوم برد الله جلد والدك من نار جهنم »^(١) .

كان فتح نور الدين لبلدة بانياس وقلعتها ، بمثابة ضربة عنيفة لأحلام الفرنج بالتوسيع في بلاد الشام ومصر . فلما توفي نور الدين (سنة ٥٦٩ هـ = ١١٧٣ م) . ظن ملك الفرنج في القدس - امبرييك - أن باستطاعته اغتنام الفرصة لاستعادة سيطرته على بانياس . فزحف بجيشه إلى بانياس . وخرج حاكم دمشق (محمد ابن المقدم) يقود جيشه ، فالتقى الجيșان ، غير أنه لم يحدث صدام بينهما ، إذ سرعان ما تم عقد هدنة تعهد فيها ابن المقدم بدفع مبلغ كبير من المال للفرنج ، مع التعهد باطلاق سراح أسرى الفرنج المحتجزين في دمشق . وما لبث ملك القدس امبرييك أن مات ، وخلفه بدلوين ، الذي قرر تشييد استحكامات متينة على امتداد حدود اماراة دمشق . حيث أدى ضياع بانياس وقلعتها نمرود ، إلى قلب نظام الدفاع في مملكة القدس رأساً على عقب ، ففيما انصرف هموري سيد تبنيين الى تحصين (تل هونين) على الطريق الممتد من بانياس الى تبنيين ، شرع الملك بدلوين في تشييد قلعة على المجرى الأعلى لنهر الأردن ، بين بحيرة الحولة وبحر الجليل ، كما تتحكم في المخاضة والتي يزعمون أنه دارت عندها المصارعة بين يعقوب الملّاك فأطلق الفرنج عليها اسم (مخاضة الأحزان) . وحدث في سنة ٥٧٥ هـ = ١١٧٩ م وحينها بدأ موسم حركة قطuan الغنم في الربع أن نهض ملك القدس بدلوين ليقترض الأغنام القادمة من سهول دمشق خو بانياس ليسوقها أمامه . وكان صلاح الدين في مرصدته في قلعة نمرود ، فوجّه قواته ودارت معركة انتصر فيها المسلمون انتصاراً حاسماً^(٢) .

قدر صلاح الدين أهمية قلعة نمرود بحكم موقعها المشرف على الجليل ، والذي

(١) الكامل في التاريخ - أحداث سنة تسع وخمسين وخمسة.

(٢) انظر بحث (قلعة شقيف أرنون وهو البحث رقم ١٢).

يشكل مرصدًا رائعاً لتحركات الفرنج. فوضع فيها حامية قوية بقيادة ابنه الأفضل. وكان يكلفه بتنفيذ بعض المهام القتالية.

تعرضت وحدة المسلمين للتمزق بين الاخوة الأيوبيين - بعد وفاة صلاح الدين وجاءت الحملة الصليبية الخامسة. وخاف أمير دمشق - المعظم الأيوبي - أن يعود الفرنج لاستخدام بانياس وقلعتها نروف - الصبية - قاعدة للهجوم على دمشق. فأمر بتخريبها، غير أن أمراء دمشق عادوا سراغاً وعملوا على إعادة ترميم القلعة واصلاحها وتحصينها. وجاء الظاهر بيبرس فقدر أهمية القلعة، فأمر بدعمها وزيادة قوتها، حتى تبقى عقبة قوية على طريق التقدم من فلسطين الى دمشق.

انتهت الحروب الصليبية القديمة. وفقدت قلعة بانياس أهميتها ، وتجاوزها الزمن، فتداعت أركانها ، ولم يبق منها سوى أطلال تشهد بما عاشته قلعة نروف من أمجاد يوم دافعت عنها سيف المسلمين. وجاءت الحملة الصليبية الجديدة تحت راية اليهودية (الصهيونية). وسارت على خطوات الحملات التي سبقتها. وأمكن لها الاستيلاء على بانياس وقلعتها (يوم ٩ حزيران - يونيو - ١٩٦٧). وأسرع قادة جيش العدوان الصهيوني لاجراء الحفريات - تحت قلعة نروف أو الصبية - على أمل الوصول الى ثروات يمكن نهبها واضافتها الى ما يتم نهبه من ثروات سطح ارض فلسطين.

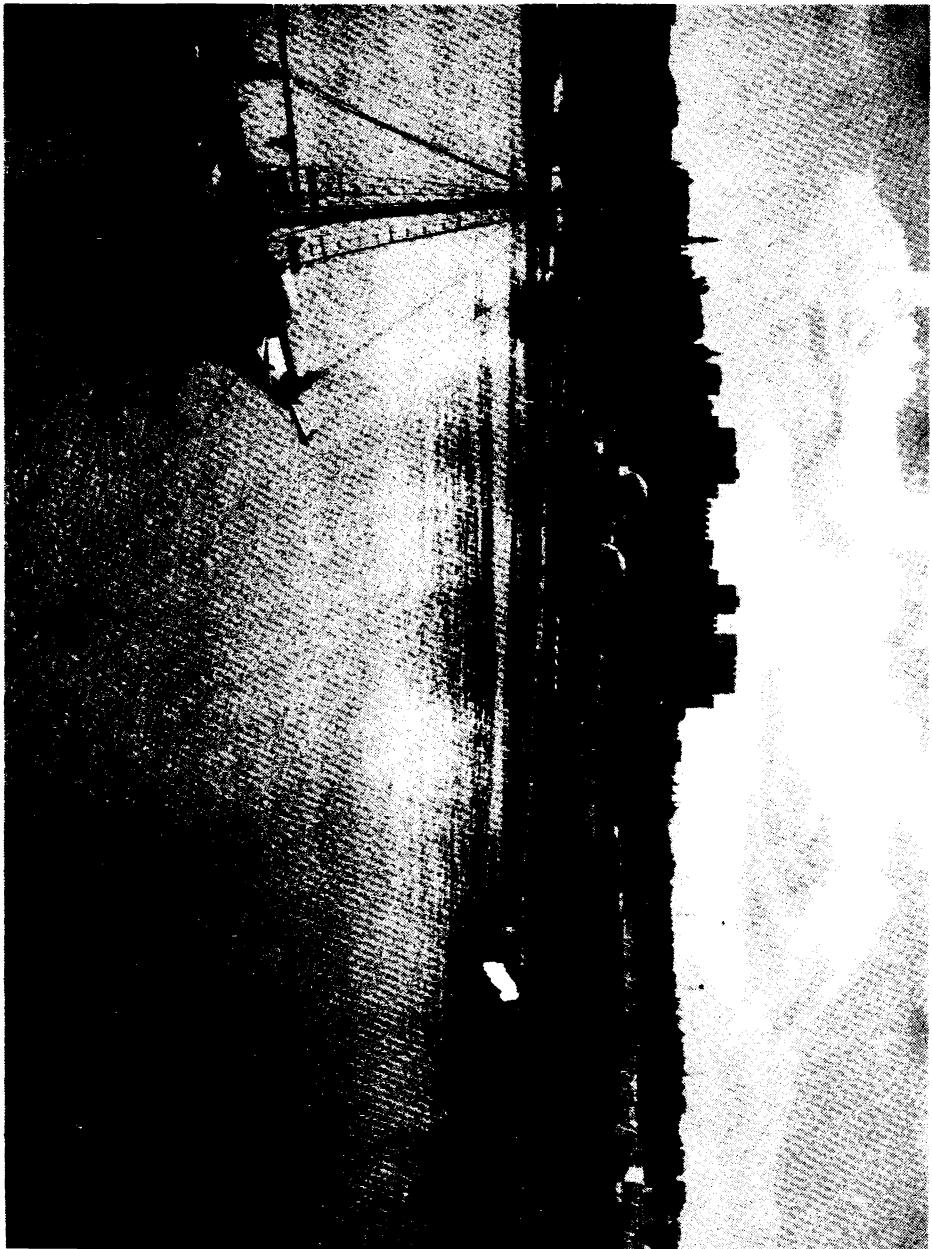
٤ - قلعة رودس .

كان لا بد للعرب المسلمين من أن يفتحوا جزيرة رودس، وهم ينazuون الروم البيزنطيين نفوذهم في البحر ويشدون عليهم الخناق لضبطوا أمم الأرض - كما قال معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ، ففي سنة ٥٣ هـ = ٦٧٢ م. وبينما كان العرب المسلمون يحاصرون عاصمة الروم - القسطنطينية وتوجهت قوة بحرية بقيادة جنادة بن أبي أمية الأزدي إلى رودس^(١) ففتحتها ، ونقل معاوية إليها جماعة من العرب المسلمين ، فزرعوا الأرض ، وشيدوا المساكن وكانوا إذا أسموا دخلوا الحصن . ولم يناظر يحذرهم ما في البحر من يربدهم بكيد ، فكانوا على حذر منهم ، وكانت أشد شيء على الروم . فيعترضونهم في البحر ، فيقطعون سفتهم . فخافهم العدو . وكان معاوية يدر لهم الأرزاق والعطاء^(٢) وقد يكون من الطبيعي أن يظهر العرب المسلمين اهتمامهم بجزيرة رودس ، وأن يعملوا على فتحها ، نظراً لما تميز به من موقع جيوستراتيجي قد ضمن لها الهيمنة على مدخل بحر إيجية . وكان حصار القسطنطينية مرتبط بالهيمنة على بحر إيجية .

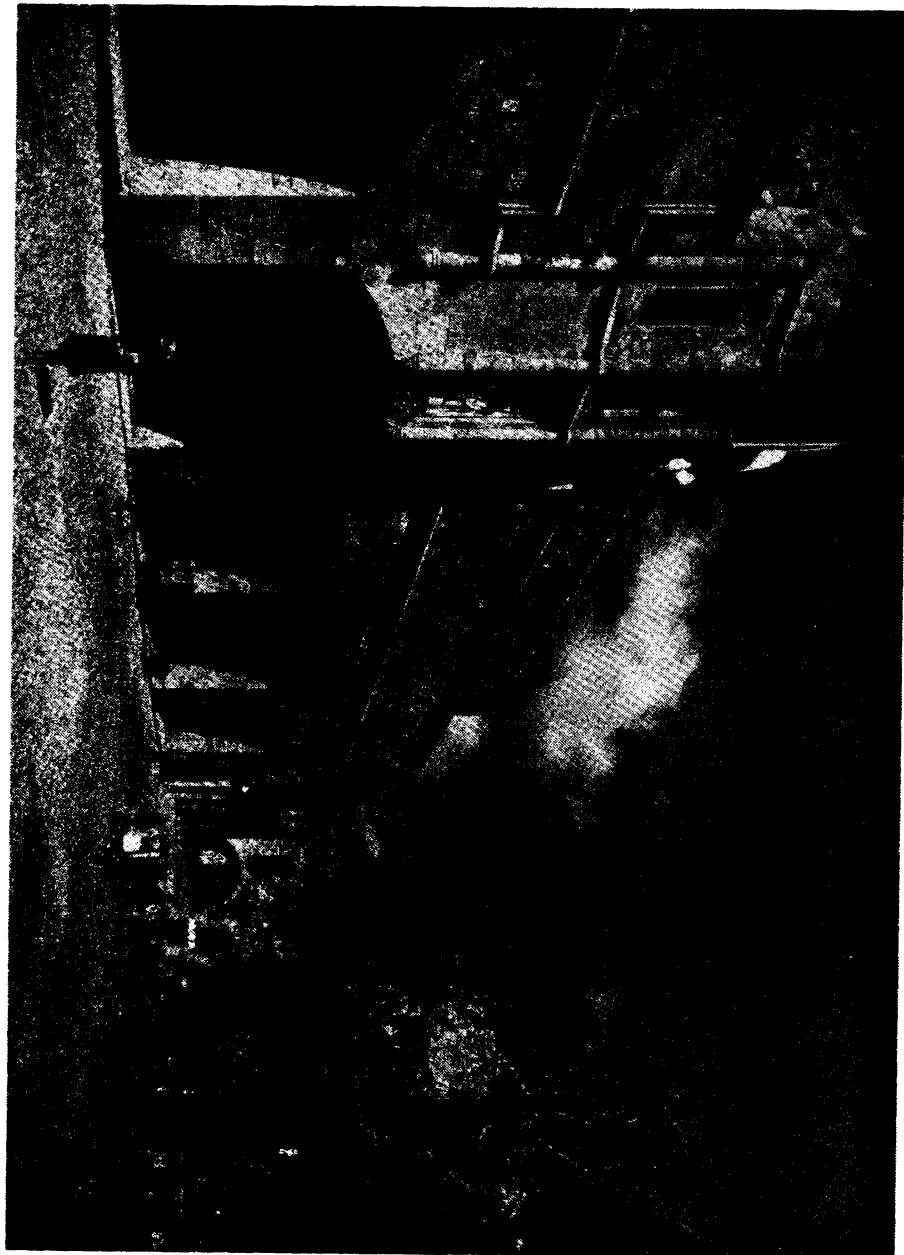
وهكذا بقيت أهمية رودس مرتبطة بصراع المسلمين ضد الروم ، ثم بصراع العثمانيين ضد قوى الصليبية ضد قوى الغرب فيما بعد . وقد وصف أبو الفداء الجزيرة بقوله : «جزيرة رودس ، فتحها المسلمون في زمن معاوية ، وامتداد هذه الجزيرة إلى الجنوب بالخراف نحو حسين ميلاً . وعرضها نصف ذلك ، وبين هذه الجزيرة وبين ذنب أقريطش - كريت - مجرى واحد . وبعض رودس للفرنج . وبعضاً لصاحب

(١) رودس: (RHODES) وباليونانية: (RHODOS) وباللاتينية: (RODI) وهي مدينة وقلعة تقع على الطرف الشمالي لجزيرة رئيسة من جزر الدوديكانيز: (DODECANESE) وتعمل الاسم ذاته.

(٢) تاريخ الطبراني . والكلمل في التاريخ . أحداث سنة ٥٣ هـ .

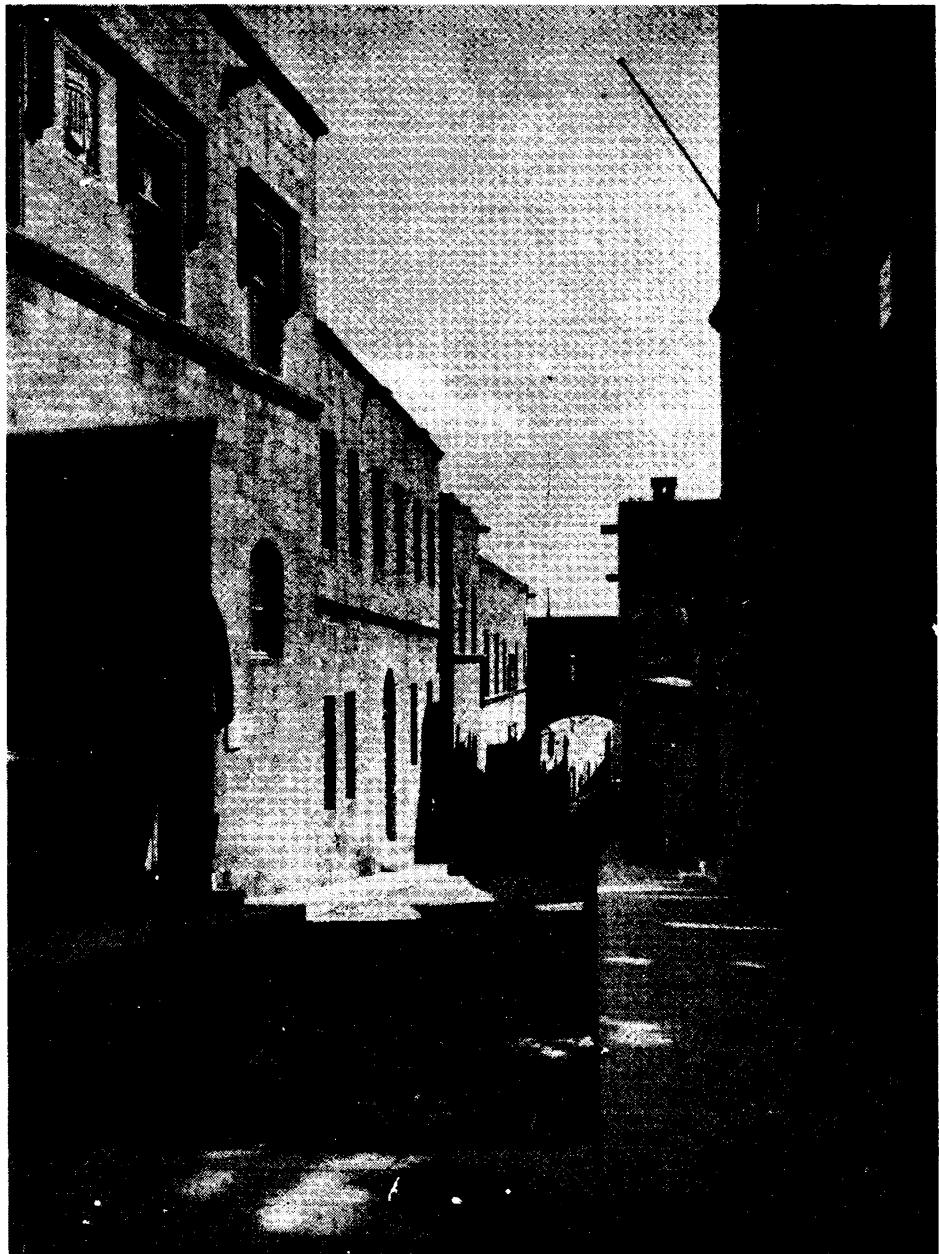


رودس البلدة وقصر مقدم الطائفة



رس

مستشفى فرسان القدس يوحنا الاورشليمي



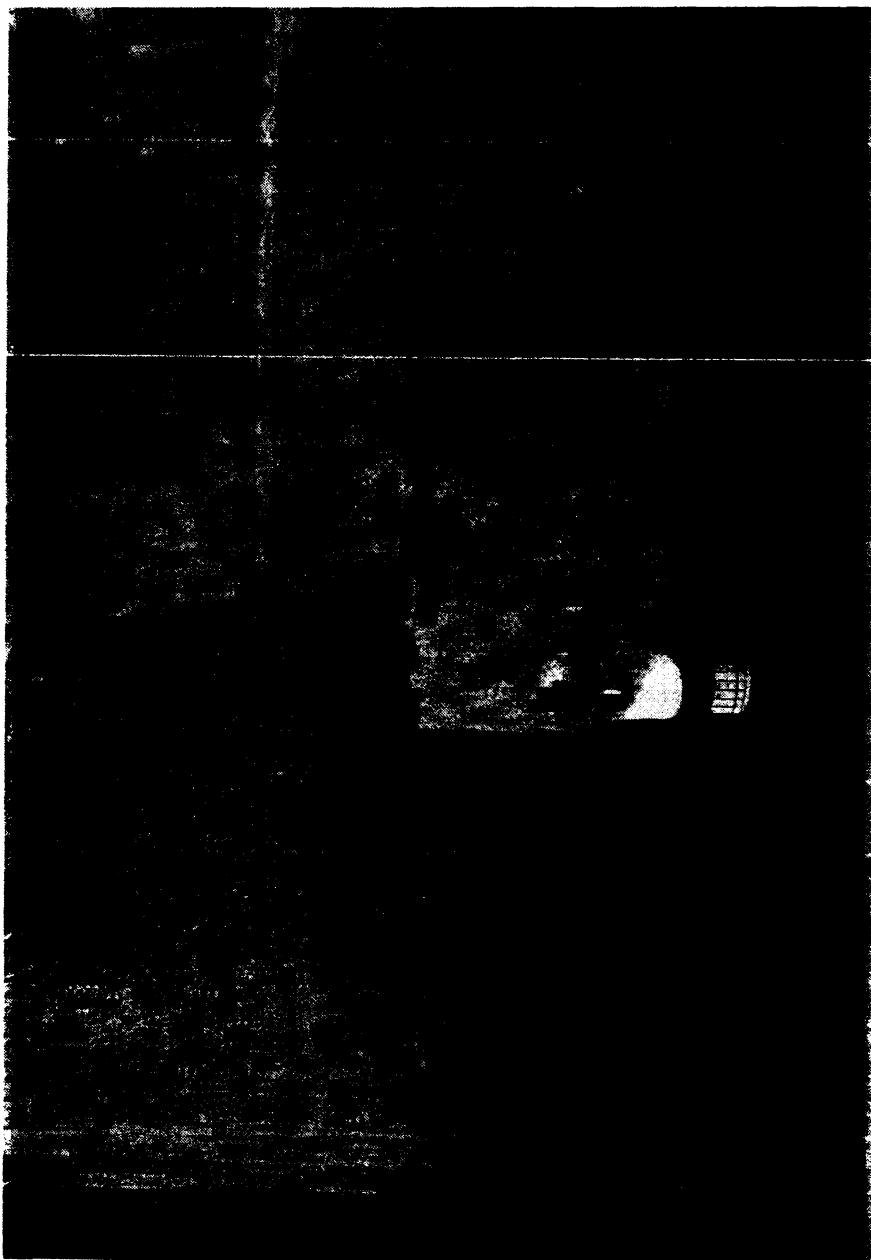
رودس

رودس الشارع الرئيسي للرباط - كاستروم ، ونزل فرنسا الى اليسار .



رودس

رودس بوابة دخول صغيرة في غرب المدينة



جامعة التخصصيات المثلثية للقديس نيقولا



رودس البوابة مع قصر المقدم



رودس سید . تراسبورغ (١٢٩٠) لویس التاسع ملک فرنسا مع زوجته مارغیرت دوبروفتس .

اصطنبول. ورودس في الغرب عن قبرص، بانحراف إلى الشمال. وهي بين جزيرة المصطكي وبين جزيرة أقريطش^(١).

وقد يكون بالمستطاع تجاوز مجموعة الأحداث التي عرفتها جزيرة رودس عبر البحر البحري المطاول بين العرب المسلمين من جهة وبين الروم البيزنطيين من جهة ثانية فقد تداولت أيدي المسلمين والروم هذه الجزيرة مرات كثيرة. حتى جاءت الترسانة الصليبية فجعلت من رودس قاعدة - في جلة قواعد الفرنج للهجوم على بلاد المغاربة وعندما انتهت الحملات الصليبية إلى الفشل وطردت بقايا الفرنج من بلاد المغاربة ظهرت مشكلة الطوائف الدينية، وهي الجناح الصليبي المتطرف - إذ أن هذه الطوائف قد نظمت وعاشت للحرب ومن أجل الحرب - وهذا فقد شرعت هذه الطوائف في البحث عن قواعد لها حتى تتبع دورها الوظيفي. فذهب فرسان التيوتون - الألمان - إلى بحر البلطيق واستقروا هناك، بينما ذهب فرسان الداوية إلى قبرص. وكان فرسان الاستيتاريه أكثر تعقلًا وحكمة، فقد توجهوا باسطولهم الصغير إلى جزيرة رودس، ونزلوا على أرضها، وشرعوا في اخضاعها. واستتبّلت الخامقة اليونانية بالجزيرة في القتال. ولم تسقط قلعة فيليرمو الكبيرة في أيدي الغزاة الاستيتاريه إلا بالخيانته (سنة ٧٠٦ هـ = ١٣٠٦ م) بينما استمرت رودس المدينة - في مقاومتها لمدة ستين أخرى، وعندما شرع الاستيتاريه بتنظيم أمورهم وجعلوا من المدينة - بمبنائها الرائع، أمنع حصن في شرق البحر الأبيض المتوسط.

فقد بدأ مقدم الاستيتاريه (فولكو دوفيلاريه)^(٢) على الفور بتحسين دفاعات المدينة واستمر في عمله بدعم التحسينات وتقويتها بدون انقطاع ولا توقف، سواء في مدينة رودس أو في قلعة بودروم. وغالباً ما كان البناء محصوراً في الجزء الخصين من المدينة، أي البلدة الداخلية التي ضمت قصر مقدم الطائفة والأحياء السكنية للجاليات القومية المختلفة من تلك الطائفة، وقد زيدت مساحة المدينة بالإضافة إلى السكني

(١) تقع البلدان - أبو النداء - ص: ١٩٥.

(٢) فولكو دوفيلاريه: (FULCO DE VILLARET).

الخارجي الذي أطلق عليه اسم (برغس)^(١). وجرى هذا التوسيع تحت اشراف مقدم الطائفة (ديودونية دوغوزون)^(٢) وذلك في القرن الرابع عشر. ثم أضيفت أجزاء عديدة من الدفوعات وأعيد تحسينها، أو شيدت مجدداً أثناء قيادة مقدمي الاستبارية (فيليب دونياك) و(أنتونيو فلافيانو)^(٣) حيث تم بناء برج الحصار الضخم عند المرفأ، وعززت البوابات الجنوبية لمحاربة احتلال غزو الاسطول المصري لجزيرة رودس. والمعروف أن ملك قبرص والبابا ايربان قد عملا باستمرار على تحريض ملوك أوروبا وقادتها من أجل توجيه حملة صليبية جديدة – بعد إعادة فتح المسلمين لمدينة عكا – . ونجحت الجهود المبذولة فتم حشد قوات حملة صليبية جديدة في جزيرة رودس (سنة ٧٦٧ هـ = ١٣٦٥ م) وعندما انتهت الاستعدادات جاء ملك قبرص – بطرس – الى جزيرة رودس وقاد الاسطول الذي ضم ثمان ومائة سفينة ، بالإضافة الى السفن الضخمة التي اشتركت بها البندقية ، وبالاضافة أيضاً الى سفن الاستبارية ، بحيث وصل عدد سفن الاسطول الى خمس وستين ومائة سفينة ، وسار هذا الاسطول الى الاسكندرية. ونزلت قوات الحملة بصورة مباغطة فاستولت على المدينة . واحتفل الفرنج الصليبيون بانتصارهم ، بأن أجروا مذبحه وحشية لا مثيل لها . وما وقع في الحروب الصليبية التي استمرت مائتي سنة تقريباً لم تعلم الصليبيين شيئاً عن الانسانية ، فما ارتكبوه من الجرائم في الاسكندرية ، لم يضارعها سوى تلك التي حدثت في القدس سنة ٤٩٢ هـ = ١٠٩٨ م وفي القسطنطينية سنة ٦٠٠ هـ = ١٢٠٣ م^(٤) . وكان من طبيعة الأمور ، وقد فشلت الحملة الصليبية في هجومها على الاسكندرية ، لأن يتوقع مقدم الاستبارية في رودس (جان دولاستيك)^(٥) قيام الاسطول المصري بعملية انتقامية ضد رودس.

(١) برغس : (BURGOS)

(٢) ديودونيه دوغوزون : (DIEUDONNE DE GOZON)

(٣) فيليب دونياك : (PHILIBERT DE NAILLAC)

وأنتونيو فلافيانو : (ANTONIO FLAVIANO)

(٤) تاريخ الحروب الصليبية : ٧٢٩/٣ - ٧٣١ و ٧٤٣ و ٧٥٠

(٥) جان دولاستيك : (JEAN DE LASTIC)

فعمل على دعم الجناحين الغربي والجنوبي من دفاعات المدينة. ولم يتأخر اسطول مصر في الرد. فأغار على رودس سنة ٨٤٤ هـ = ١٤٤٠ م. وعاد الاسطول المصري سنة ٨٤٨ هـ = ١٤٤٤ م فأنزل قواته على أرض الجزيرة، وحاصرت قوات المسلمين مدينة رودس لمدة زادت على ستة أيام. غير أن أسوار رودس وتحصيناتها صمدت للحصار، وأحيطت كافة الهجمات. مما حلّ قوات المسلمين على الانسحاب. وتبع ذلك تعزيز دفاعات المدينة بالإضافة سور خارجي متواصل، حيث شيد مقدم الاستبارية (ريوند زاكوستا)^(١) الحصن الخارجي سنة ٨٦٥ هـ = ١٤٦٠ م، وهو الحصن الذي حمل اسم (سان نيكولا) والذي احتل موقعه فوق بقعة الأرض الفاصلة بين المرفأ الرئيسي. و(مرفأ ماندراكي)^(٢). ثم استمر العمل في دعم التحصينات والدفاعات بعدئذ في عهد مقدمي الاستبارية (جيوفاني أورسيني، وبير دوبوسون)^(٣) حيث ظهرت الحاجة لتطوير وسائل الدفاع بسبب تعاظم قدرة الاتراك العثمانيين الذين أخذوا على عاتقهم قيادة أعمال الجهاد في سبيل الله ضد الفرنج الصليبيين، فنقلوا الحرب الصليبية إلى أرض أوروبا. وأفاد فرسان الاستبارية من موقع جزيرتهم لمتابعة اذكاء روح الحرب الصليبية، وللاشتراك فيها بقوتهم واسطولهم.

لقد بدأ الاتراك العثمانيون بالظهور على مسرح الأحداث مع نهاية الحروب الصليبية في الشرق^(٤). وأدرك الأوروبيون - اللاتين - سراعاً خطر هذه القوة المتعاظمة. فلما احتل الفرسان الاستبارية جزيرة رودس، زاد الاهتمام ببحر ايجية، وحاول أمير آيدىن - التركي - إنشاء اسطول في أزمير لمجابهة خطر فرسان

(١) ريموند زاكوستا: (RAYMOND ZACOSTA).

(٢) مرفاً ماندراكي: (MANDRAKI HARBOUR).

(٣) جيوفاني أورسيني: (GIOVANNI ORSINI).

وبير دوبوسون: (PIERRE D'AUBUSSON).

(٤) طرد المسلمين بقايا الفرنج من عكا، ومن آخر المقاتل التي بقيت في آيدىن سنة ٦٩٠ هـ = ١٢٩١ م. في حين ولد مؤسس الدولة العثمانية - مهتان - سنة ٦٥٨ هـ = ١٢٥٩ م وأصبح سلطاناً سنة ٦٨٧ هـ = ١٢٨٨ م وتوفي سنة ٧٢٦ هـ = ١٣٢٦ م.

الاستبارية ، فأسرعت البندقية وفرسان الاستبارية وملك قبرص والبابا ، بتجهيز اسطول مشترك (من ٣٤ سفينة) ووجهوا حملة استولت على أزمير ، (سنة ٧٤٥ هـ = ١٣٤٤ م) وأقاموا الاستبارية في أزمير إلى أن طردهم تيمور الأعرج - تيمورلنك - منها (سنة ٨٠٥ هـ = ١٠٤٢ م). ولكن قبل هذا التاريخ بقليل كان الفرنج الصليبيون - من فرنسيين وانكليز و مجر وألمان واسبان وايطاليين - قد جهزوا جيشاً مشتركاً زاد عدد أفراده على مائة ألف مقاتل ، للقيام بحملة صليبية جديدة ضد المسلمين. وتولى فرسان الاستبارية قيادة اسطول الحملة الى البحر الأسود بقيادة مقدمهم فيليب دو ناياك . والمعروف أن السلطان العثماني بايزيد^(١) قد دمر هذا الهجوم ، وشتت قوات الفرنج في معركة نيقوبوليis^(٢) الشهيرة. وقد أكدت هذه المعركة للأتراك العثمانيين مجدداً خطورة الدور الذي يمارسه فرسان الاستبارية من جزيرة رودس ، وذلك في مجال التحرير ضد المسلمين ، ومارسة العدوان عليهم. كما أن انتصار السلطان بايزيد في نيقوبوليis قد وضع فرسان الاستبارية وجزيرة رودس على خط القتال الأول ضد الأتراك العثمانيين. ولكن هؤلاء كانوا غير قادرين في تلك الفترة على توجيه الجهد ضد رودس ، إذ كانت لهم متابعيهم الكثيرة سواء على جبهة أوروبا أو على جبهتهم الداخلية ، فصرروا النظر مؤقتاً عن الجبهة البحرية. حتى إذا ما جاء السلطان محمد الفاتح ، وفتح القدسية ، وأطلق عليها اسم مدينة الإسلام (اسلام بول) ثم انتصر على تحالف المجر والنمسا ، أصبح باستطاعته توجيه الجهد البحري ، فأرسل سنة ٨٨٥ هـ = ١٤٨٠ م عمارة بحرية لفتح جزيرة رودس وانتزاعها من قبضة (رهبنة القديس حنا الاورشليمي) والتي كانت يومها بقيادة مقدمها (بيردو بوسون -

(١) بايزيد خان الأول - رابع السلاطين العثمانيين. ولد سنة ٧٦١ هـ = ١٣٦٠ م وتولى السلطنة بعد قتيل أبيه في معركة قوص اوه - الواقعة جنوب يوغوسلافيا بين البوسنة وبولغاريا والمقدونيا، سنة ١٣٨٩ م. وتوفي سنة ٨٠٥ هـ = ١٤٠٣ م بعد أن انتصر عليه تيمور الأعرج - تيمورلنك - وأخذه أسرى ، وسجنه في قفص حديد حتى مات.

(٢) نيقوبوليis: (NICOPOLIS) مدينة بلغارية ، تقع على نهر الدانوب ، وفيها انتصر القائد البيزنطي تراجان على الداسين والبارثين (١٠١ - ١٠٥ م). وفيها كان النصر أيضاً للسلطان بايزيد على الفرنج الصليبيين سنة ٧٩٩ هـ = ١٣٩٦ م.

الفرنسي الأصل). ولما كانت هذه الطائفة في حالة حرب مع المماليك في مصر ومع والي تونس. فقد عمل مقدمها على ابرام صلح مع مصر وتونس حتى يتفرغ لحرب الأتراك العثمانيين الذين وصلوا إلى رودس وألقوا الحصار عليها (يوم ١٣ ربيع الأول سنة ٨٨٥ هـ = ٢٣ - أيار - مايو - سنة ١٤٨٠ م) وظلت المدافع تقذف عليها القنابل الحجرية، لتهدم أسوارها. لكن حامية القلعة كانت تعمل في الليل على إصلاح ما تخربه المدافع بالنهار. ولذلك استمر حصارها ثلاثة أشهر.

حاول العثمانيون خلاطا الاستيلاء على أهم قلاعها - وهي قلعة القديس نيكولا - ولكن المحاولة باءت بالفشل، مما دفع القائد العام للقوات التركية لاصدار أمره بالهجوم على القلعة واقتحامها عبر الثغرة التي فتحتها قنابل المدافع في أسوارها. وقامت القوات التركية بالهجوم على القلعة (يوم ٢٠ جمادي الأولى سنة ٨٨٥ هـ = ٢٨ تموز - يوليو - سنة ١٤٨٠ م) غير أن حامية فرسان الاستبارية قاومت بشجاعة خارقة الهجمات المتالية للأتراك العثمانيين، مما اضطر هؤلاء للانسحاب، بعد أن تعرضوا للخسائر الفادحة، وتم رفع الحصار عن رودس، وشرع فرسان الاستبارية بقيادة مقدمهم - بيير دوبوسون - على الفور باعادة ترميم القلاع والخصوص والأسور. وجاءت الهزات الأرضية - الزلزال في السنة التالية (٨٨٦ هـ = ١٤٨١ م) فأذلت برودس ودفعاتها أضراراً بالغة. مما دفع حامية المدينة وأهلها لادخال تحسينات أخرى على الدفاعات في الجناحين الجنوبي والغربي، بما في ذلك تشييد حصن ايطاليا (سنة ٩٢١ هـ = ١٥١٥ م) وحصن القديس جورج (٩٢٨ هـ = ١٥٢١ م) وأعيد بناء جميع البوابات، وزيد في سماكة الأسوار من ١٧ قدمًا حتى ٤٠ قدمًا تقريباً. كما شقت قناة أخرى مع متراس بين الخندقين الموجودين سابقاً.

كان السلطان سليم الأول - الغازي - يعتزم فتح جزيرة رودس، فجهز أسطولاً لهذه الغاية وحشد القوات الكافية لتنفيذ العملية، غير أن انشغاله بفتح بلاد الشام ومصر (سنة ٩٢٤ هـ = ١٥١٦ م - ٩٢٦ هـ = ١٥١٨ م) حل له على تأجيل عملية فتح رودس. فلما فرغ من حروبها في بلاد الشام، وافته المنية. وأصبح باستطاعة رودس أن تنعم بفترة أخرى من الراحة. لكن العاصفة ما لبثت أن عادت إلـ رودس في عهد

السلطان الغازي سليمان خان الأول - القانوني ^(١) . فقد عمل السلطان سليمان على اكمال الاستعدادات البرية والبحرية الضرورية لعملية الغزو . ثم أخذ ينتظر الظروف السياسية الدولية المناسبة . ووُجِدَ أن الفرصة المناسبة قد حانت في سنة ٩٢٩ هـ = ١٥٢٢ م . حيث كان ملك فرنسا (فرنسوا الأول) مشغولاً بحربه ضد ملك إسبانيا وأمبراطور الغرب (شارل كان) كما أن البابا ليون العاشر (جان مدتيشي) كان مشغولاً في صراعه مع البروتستانتية (لوثر) في حين كانت بلاد المجر مضطربة في الداخل بسبب عدم اتفاق أمرائها وأعيانها ، وصغر سن ملكها لويس الثاني .

هكذا باتت الظروف مناسبة لفتح رودس وتحويلها إلى قاعدة اتصال بين إسلام بول - أو استانبول - وبين مصر والمغرب العربي - الإسلامي ، وحرمان الصليبيين من مركزهم الحصين في قلب بلاد المسلمين ، والذي طالما استخدموه لخشد أسطولهم وقواتهم ضد بلاد المشرق الإسلامي . وحاول السلطان سليمان تجنب الحرب فأرسل إلى مقدم الاستبارية (فيلييه دوليسيل آدم) ^(٢) كتاباً عرض عليه إخلاء الجزيرة ، والانسحاب منها بكل من معه من المحاربين الصليبيين وأنصارهم من المسيحيين الذين يرغبون في الهجرة على البقاء ، وذلك مقابل التعهد بعدم التعرض لهم أو لأموالهم وممتلكاتهم . ولما رفض مقدم الاستبارية هذا العرض ، أمر السلطان سليمان أسطوله بالتوجه إلى رودس . وسافر هو عن طريق البر إلى خليج (مرمورة - أو مار ماريس) المقابل للجزيرة من جهة آسيا . ووصلت قطع الأسطول إلى رودس يوم ٢٦ حزيران - يونيو - سنة ١٥٢٢ م . وأرسلت إلى البر مدفع الحصار والمؤونة والذخائر . ووصل إليها السلطان سليمان يوم ٢٨ تموز - يوليو - فبدأ الحصار المحكم فور وصوله . ودافع من بها دفاع الأبطال ، خصوصاً الفرسان الرهبان . وقيل أن النساء كن يساعدن الرجال في

(١) السلطان الغازي سليمان خان الأول القانوني - عاشر السلاطين العثمانيين . ولد سنة ٩٠٠ هـ (١٤٩٥ م) وتولى دست السلطة بعد وفاة والده سنة ٩٢٦ هـ = ١٥٢٠ م . وبلغت الدولة العثمانية في عهده أوج قوتها وازدهارها . وتوفي سنة ٩٧٤ هـ = ١٥٦٦ م .

(٢) فيلييه دوليسيل آدم : (VILLIERS DEL'ISLE ADAM) فرنسي الأصل تولى قيادة طائفة رهبان القدس حنا الاورشليمي - الاستبارية - . ولد سنة ١٤٦٤ م . ومات سنة ١٥٣٤ م .

الدفاع ، بالقاء الحجارة على المحاصرين ، وصب الزيوت الحارة على رؤوسهم ، لكن هذا الجهد كله لم يكن ناجعاً أمام المدافع العثمانية الضخمة التي لازالت بعض حجارتها حتى الآن في الجزيرة . والتي تشير الاستغراب لضخامتها . وأدرك مقدم طائفة الاستبارية أن الاستمرار في المقاومة قد بات ضرباً من الانتحار . وتبين له بوضوح أنه ما من أحد من دول الغرب سيهرب لنجددة رودس وانقاد الطائفة من محنتها . كما نفت المؤن والذخائر وتدهرت الحالة المعنوية للمقاتلين بعد طول حصار .

فأرسل مقدم الطائفة فارسين من رهبانه إلى السلطان يوم ٢ صفر سنة ٩٢٩ هـ (٢١ كانون الأول - ديسمبر - ١٥٢٢ م) والتمسا السماح لهم باخلاء الجزيرة في مدة اثنى عشر يوماً ، بشرط أن تبتعد القوات التركية عن المدينة المحصورة مسافة ميل من كل جهاتها ، حتى لا يتعرض أحد من المحصورين للضرر أو الأذى عند خروجهم . فقبل السلطان ذلك . لكن قوة من الانكشارية تدفقت إلى المدينة يوم ٥ صفر ، وذلك رغم أوامر السلطان ، واحتلوا المدينة ، وأجرعوا مذبحة وقع ضحيتها بعض الجندي ، مما أغضب السلطان . فأمر ببراعة شروط التسلیم . وأنزل العقوبة بالمفسدين . فعاد الأمن وسادت السكينة . وقابل السلطان في اليوم التالي رئيس الرهبنة ، وأنعم عليه بخلعة سنية . وانتقل فرسان الاستبارية إلى مدینتي (فيترو - سيفيتافيشيا) ^(١) .

كان ملك إسبانيا شارل الخامس (شارلكان) يبحث عن أي قوة يمكنه الافادة منها في حربه الصليبية الشاملة ضد المسلمين . فعمل على منح جزيرة مالطا هذه الفتة الدينية المتطرفة حتى تتبع دورها في التحریض ضد المسلمين ، فاستخدمت الجزيرة لممارسة أعمال القرصنة ضد سفن المسلمين . مما دفع الدولة العثمانية لتوجيه قوة بحرية من مائتي سفينة تقريباً وذلك سنة ٩٧٣ هـ = ١٥٦٥ م لفتح جزيرة مالطا والقضاء على طائفة رهبان القديس حنا الأورشليمي الذين أخذوا في فرض سيطرتهم على الخانق البحري بين جنوب إيطاليا وتونس . وقامت هذه القوة البحرية بمحصار مالطا لمدة أربعة أشهر ،

(١) فيترو : (VITERBO) مدينة إيطالية على بعد ٤٨ كيلومتر من روما . أما سيفيتافيشيا . (CIVITA-VECCHIA) فهي مدينة إيطالية أيضاً تقع على البحر الأبيض المتوسط .

اضطرت بعدها للانسحاب . وبقي رهبان القديس حنا في مالطا حتى احتلها نابليون
بونابرت عند قدومه إلى مصر سنة ١٢١٣ هـ = ١٧٩٨ م.

بقيت رودس قاعدة للمسلمين طوال قرون أخرى ، حتى إذا جاءت الهجمة الصليبية الجديدة باسم (الاستعمار الغربي) تحولت رودس وسواها من جزر شرق البحر الأبيض المتوسط إلى قواعد أحق ببعضها باليونان ، وببعضها بآيطاليا ، وخضعت بعضها للغرب - بريطانيا - . غير أن رودس فقدت أهميتها العسكرية منذ أن سيطر الأتراك العثمانيون على بحر إيجه وعلى ما تحتواه هذا البحر من الجزائر والخلجان . وتعطي تجربة رودس التاريخية نموذجاً لارتباط أهمية الجزر بما تشغله من موقع جيواستراتيجي في إطار الصراعات البحرية . إذ لو لا اهتمام العرب المسلمين بالتضييق على الروم . ولو لا توجيه الحملات الصليبية لخرب المسلمين ، لما برزت أهمية رودس . ولما احتلت قلاعها وتحصيناتها تلك المكانة المرموقة في تاريخ فن الحرب .

٢٠ - قبرص وقلاعها .

لم تكن (جزيرة قبرص) ^(١) إلا حجر المرتفقى لكل من يقصد بلاد الشام أو مصر أو آسيا الصغرى (تركيا) فهي بحكم موقعها المتوسط، وبحكم مساحتها الصغيرة، لا تتمتع بسميات خاصة ^(٢) وإنما اكتسبت أهميتها عبر التاريخ من خلال دورها في تأمين الاتصال لقوات البحر. وهذا تداولتها الأيدي كثيراً، منذ ظهور امبراطوريات العالم القديم من رومان ويونان وقرطاجيين وسواهم. وارتبط تاريخها منذ ظهور الإسلام، بالعرب المسلمين، الذين ما إن فتحوا بلاد الشام ومصر، حتى تطلعوا إلى البحر. ويعود فضل ركوب البحر وإنشاء البحريـة العربية - الإسلامية إلى أمير المؤمنين معاوية ابن أبي سفيان رضي الله عنه - فهو الذي عمل منذ كان والياً لبلاد الشام على تنظيم البحريـة العربية الإسلامية. مما اضطره للسير شوطاً بعيداً عبر مجموعة غير متناهية من الصعوبات والعقبات، التي لم يكن أقلها شأنـاً الافتقار إلى الأيدي العاملة الاختصاصـية، ولم يكن أقلها شأنـاً أيضاً تامر الروم البيزنطيـين لاحباط كل جهد عربي - إسلامي لركوب للبحر. غير أن أمير المؤمنين، وهو القائد الصلـب، تمكن من تذليل كل العقبـات التي واجهـته بتحدياتها الثقيلة حتى أمكن له بلوغ المـدفـ العـظـيم، وفتح أـمـامـ العرب المسلمين مجال البحر الواسـعـ. فانطلقـ المجـاهـدونـ فيـ سـبـيلـ اللهـ يـقارـعونـ الروـمـ.

(١) قبرص : (CYPRE) أو (CHYPRE).

(٢) تبلغ مساحة قبرص ٣٦٠٠ ميل بحري وهي :

تبعد عن اللاذقية - سوريا - ١٠٠ ميل بحري.

وتبعد عن سلوقية - تركيا - ٥٠ ميل بحري.

وتبعد عن بور سعيد - مصر - ٢٣٦ ميل بحري.

وتبعد عن رودس ٢٠٠ ميل بحري.

وتبعد عن كريت ٣٢٥ ميل بحري.

البيزنطيين في البحر وينازعونهم نفوذهم الذي انفردوا به دون منازع على امتداد قرون متالية. وكان غزو قبرص هو أول عمل بحري سجله التاريخ لعاوية بن أبي سفيان. ففي سنة ٢٨ هـ = ٦٤٨ م أكمل معاوية استعداداته، وعين لقيادة البحر رجلاً من رجال البحر المعروفين (هو عبدالله بن قيس الجاسي - حليفبني فزاره) وحشد من تطوع لركوب البحر. وركب مع زوجه - أم حرام بنت ملحان الأنصارية - وركب معه نفر من كبار الصحابة - فيهم أبو ذر الغفاري وعبادة بن الصامت والمقداد وأبو الدرداء وشداد بن أوس، ومضي معاوية وال المسلمين على بركة الله إلى قبرص. ففتحوها صلحاً. وتضمنت معايدة الصلح: «أن يؤدي أهل قبرص لل المسلمين جزية مقدارها سبعة آلاف دينار كل سنة، يؤدون إلى الروم مثلها لا يعنهم المسلمين عن ذلك، وليس على المسلمين منعهم من أرادهم من وراءهم. وعليهم أن يؤذنوا - ينذروا - المسلمين بمسير عدوهم من الروم إليهم. ويكون طريق المسلمين إلى العدو عليهم. وأن يقوم إمام المسلمين باختيار الطريق عليهم منهم»^(١).

يظهر واضحاً من نص المعايدة أن معاوية بن أبي سفيان قد رغب في ضمان ترتيبات أمنية لحماية بلاد العرب المسلمين من خطر اسطول الروم. ولهذا فقد فرض عليهم الجزية دون أي التزام بالدفاع عن قبرص، وحدد مقدار هذه الجزية بمثل ما كانت تدفعه قبرص للروم التي عجزت عن حمايتها من المسلمين، وضمن معاوية لاسطول العرب المسلمين حق استخدام الجزيرة، والافادة من الانذار عن تحركات اسطول الروم، وتأمين الإمداد والتموين لقوات الاسطول. هذا إلى جانب فصل الكنيسة القبرصية عن هيمنة الروم بتعيين بطريقك من أهل قبرص لا يكون معادياً للمسلمين، مع عدم التدخل في الشؤون الكنيسة - الدينية - لأهل الجزيرة.

بقيت قبرص درعاً لبلاد المسلمين في الشام ومصر. حتى إذا ما ضعف شأن البحرية العربية الإسلامية في العصر العباسي. أسرع الروم لاغتنام الفرصة، فاحتلوا الجزيرة سنة

(١) تاريخ الطبرى - والكامن في التاريخ - أحداث سنة ٢٨ هـ (غزو قبرص).

٢٦٣ هـ = ٨٧٦ م ، وبسطوا سيطرتهم عليها . ولكن الاسطول الاسلامي في مصر - في عهد الطولونيين - استطاع أن يستعيد فتح قبرص (سنة ٢٩٣ هـ = ٩٥٠ م) . وبقيت تحت حكم المسلمين حتى سنة ٣٥٤ هـ = ٩٦٥ م حيث أعاد الروم قبرص لحكمهم . وكان ذلك قبل ثلاثة عقود تقربياً من وصول قوات الحملة الصليبية الأولى الى بلاد الشام .

ظهرت أهمية قبرص وفائتها بعدها ، إذ أصبحت سندأً بالغ الجود والكرم للفرنج الصليبيين حيث كانت كميات المؤن تصل إلى ميناء السويدية - سان سيمون - ومعظمها من قبرص . واتخذت بحرية الروم - البيزنطيين - من قبرص قاعدة لها أثناء الحملات الصليبية المتالية . وكان الفرنج يستأجرون السفن من الجنوبيين لقطع المسافة ما بين قبرص واللاذقية . وكان دور قبرص كبيراً في فرض هيمنة البيزنطيين على الفرنج الصليبيين ، وعلى سبيل المثال ، فعندما حاول كونت طرابلس الامتناع عن إرسال الأموال التي فرضها عليه الامبراطور البيزنطي ، هدد السفير البيزنطي بقطع ما يرد على طرابلس - من قبرص - من المؤن والتموين . مما أرغم كونت طرابلس على الاذعان . ولقد حصلت قبرص بنتيجة ذلك على ثروات طائلة . وازدهرت تجاراتها ، الأمر الذي استثار شهية الفرنج ، فقام أمير انطاكيه رينالد شاتيون - أو أرناط كما تذكره المصادر العربية - بالاغارة على قبرص ونهبها ثم تدميرها (سنة ٥٥١ هـ = ١١٥٦ م) ولم تنتعش جزيرة قبرص بعد هذا التخريب لمدة طويلة ، والذي نفذته العناصر الفرنسية بالتحالف مع العناصر الأرمنية . وتبع ذلك قيام المصريين بالاغارة على الجزيرة التي باتت محرومة من وسائل الدفاع . وعندما توجهت الحملة المشتركة من الفرنج والصليبيين لهاجحة مصر (سنة ٥٦٥ هـ = ١١٦٩ م)^(١) جعلت من قبرص قاعدة لها حيث أفلعت سفن الاسطول الأساسي الى جزيرة قبرص ، وانتظرت فيها حتى اواخر ايلول -

(١) ورد في كتاب التواریخ المجریة : (سارت الافرنج بقصد دمیاط في شهر صفر سنة ٥٦٥ هـ ووصلت إلى دمیاط في ربيع أول فأقامت الحرب حس وحسین يوماً بين الافرنج وبين تقی الدین عمر ابن أخي صلاح الدين والأمير شهاب الدين الحازمي . وقد بارحت الافرنج دمیاط في ٢٥ ربيع الثاني ، لما علمت بمسیر نور الدين محمود بن زنکی صاحب الشام . على املاکها . وانظر تاریخ الحروب الصليبية (٥١ و ٣١٥) و (٣ و ٢٤ و ٦١ و ٢٢٣ و ٥٦١ - ٦٢٤ و ٥٦٣ - ٦٢٦) .

سبتمبر - ثم توجهت منها لحصار دمياط والهجوم على مصر. وكذلك، فعندما قاد ملك انكلترا ريتشارد قلب الأسد حملته الصليبية للانتقام من المسلمين الذين انتصروا في حطين وأعادوا فتح القدس، كان أول عمل له هو اتخاذ جزيرة قبرص قاعدة له، فاستولى عليها سنة ٥٨٧ هـ = ١١٩١ م بحججة ما تملكه الجزيرة من الأهمية للدفاع عن الساحل السوري، وما سينجم من الخطر لو قام ملوكها باجراء تحالف وثيق مع صلاح الدين. وأصبحت الجزيرة بذلك تحت حكم ملك انكلترا.

إلا أن الاضطرابات التي اجتاحت قبرص أرغمت ريتشارد - ملك انكلترا - على بيعها لطائفة فرسان المعبد - الداوية - وذلك سنة ٥٨٨ هـ = ١١٩٢ م. وعندما أخذ المسلمون بطرد الفرنج الصليبيين من بلاد الشام، أصبحت الجزيرة موطن اغراء متصل، لا بالنسبة للمهاجرين القادمين من الغرب، للنزول بهذه الجزيرة فحسب، بل أيضاً بالنسبة للبارونات الذين كانوا أبناء وحكاماً في بلاد الشام ثم جردوا من اقطاعاتهم وإماراتهم وأصبح لزاماً عليهم عبور البحر الضيق للوصول إلى مرفأً الآمان - قبرص -. وإذا كان سادة الجزيرة يودون اختيار البحر للقتال من أجل الصليب كلما اقترب الخطر ، فسوف تكون قبرص بالغة الأهمية للشرق. وهذا تقرر أن تلتزم حكومة قبرص بالقوانين التي كانت سائدة في مملكة القدس. بما في ذلك تنظيم الكنيسة بإقامة الأسقفيات في نيقوسيا وبافوس وفاماغوستا وليماسول. مع إقامة دار للمحفوظات والوثائق بجزيرة قبرص. وتم الاعتراف بملكية القدس سنة ٥٩٤ هـ = ١١٩٨ م. وبذلت محاولات لتوحيد ملكيتي القدس وقبرص . إلا أن ملك قبرص رفض هذا التوحيد حتى لا تتكلف قبرص ب النفقات القدس. وتحولت قبرص إلى مركز للصراع بين مالك الغرب التي هيمنت عليها المنافسة للسيطرة على الجزيرة. وشهدت أرض الجزيرة صراعات دامية واضطرابات متيرة، وأخذت القبضات القوية في تناوب السيطرة عليها .

وكان قبرص هي قاعدة ملك فرنسا - لويس التاسع - الذي قاد الحملة الصليبية ضد مصر سنة ٦٤٦ هـ = ١٢٤٨ م فوصل إلى الجزيرة في ١٧ - أيلول - سبتمبر - سنة ١٢٤٨ م وأقام فيها. وكان ملك قبرص قد أصبح هو الموجه للتعاون مع المغول

التار للقضاء على المسلمين. وأمضت الحملة الفرنسية في قبرص سنة كاملة، بحيث أنها لم تستأنف تحركها نحو مصر إلا في شهر أيار - مايو - سنة ١٢٤٩ م. وحشد الصليبيون خلال هذه الفترة جميع ما توافر لهم القدرات لفتح مصر. وعندما انتصر المسلمون في المنصورة، انسحب أسطول الفرنج إلى قواعده في قبرص، وكان قادة سفنه في معظمهم من البيازنة والجنوبيين.

تولى الحكم في قبرص سنة ٦٦٢ هـ = ١٢٦٣ م الملك هيوب الذي عمل على توحيد مملكتي قبرص وعكا. فأصبحت مملكة قبرص هي المسؤولة عن حماية عكا، آخر قلاع الفرنج الصليبيين في بلاد الشام. وهكذا، فعندما تحرك الظاهر بيبرس للهجوم على عكا سنة ٦٦٤ هـ = ١٢٦٥ م. قام ملك قبرص بارسال النجدات إلى عكا، كما انتقل هو إليها لقيادة إغارة على الجليل. وقد انتهت هذه العملية إلى الفشل، حيث ظهرت التحولات الحاسمة في المعارك البرية التي قادها الظاهر بيبرس ضد الفرنج الصليبيين في بلاد الشام. وأفاد الظاهر بيبرس من هذه التحولات فأرسل أسطولاً ضم ١٧ سفينة للهجوم على قبرص، وذلك عندما علم بأن ملك قبرص قد غادر عكا عائداً إلى جزيرته.

وظهر الأسطول الإسلامي بصورة مباغطة أمام لياسول. وبالرغم من عدم تحقيق نتائج حاسمة، وبالرغم أيضاً من تعرض القوة البحرية الإسلامية لخسائر كبيرة، فإن هذه العملية قد برحت على تحول الموقف حتى في المجال البحري لمصلحة المسلمين. وعندما تمت إعادة فتح عكا وطرد الفرنج منها (سنة ٦٩٠ هـ = ١٢٩١ م). بقيت قبرص هي المملكة الصليبية الوحيدة التي ارتبط وجودها بالحملات الصليبية، وظل ملوك قبرص ولأجيال عديدة بعدئذ وهم يحرصون بعد أن يتم الاحتفال بتتويجهم ملوكاً على قبرص في نيقوسيا، على أن يتلقوا تاج مملكة القدس في (فاماغوستا) التي اعتبرت بأنها أقرب مدينة لملكتهم المفقودة في بلاد الشام - على ما زعموا -. وبقي خليل - محرر عكا وبقية بلاد الشام من الفرنج - على اتخاذ قرار بفتح قبرص. وأمر

بعمارة مائة سفينة. غير أن خطر المغول أعاده عن غزو قبرص. وبقي هذا الغزو هو هاجسه بحيث أنه مات وهو يردد: قبرص. قبرص. قبرص.

تولى بطرس الأول عرش قبرص سنة ١٣٥٩ هـ = ١٢٦١ م وشرع على الفور في التحرير من حملة صليبية جديدة. وأفلحت جهوده فتم توجيه هذه الحملة إلى الإسكندرية سنة ١٣٦٥ هـ = ١٢٧٧ م وبالرغم من فشل هذه الحملة التي لم تنجح إلا في التدمير والنهب. فان قبرص تابعت دورها في التحرير الصليبي ضد المسلمين. ونظراً لتعاظم قوة الأتراك العثمانيين، فقد وجهت قبرص الانظار ضد تركيا. فكان لا بد للعثمانيين من العمل لاقتحام قاعدة العدوan وإعادة فتح قبرص. غير أن المحاولات المتالية التي قام بها الأتراك باءت بالفشل. حتى إذا ما كانت سنة ٩٧٨ هـ = ١٥٧٠ م تولى رئيس الوزراء لاله مصطفى باشا - في عهد السلطان سليم الثاني - قيادة قوة بحرية ضخمة ضمت مائة ألف جندي، وسار بها إلى (لياسول) التي أمكن فتحها بعد حصار قصير (يوم ٨ ربيع الآخر سنة ٩٧٨ هـ = ٩ - أيلول - سبتمبر - سنة ١٥٧٠ م). ثم توجهت القوات لحصار فاماگوستا. ولقد ساعد الشتاء على تأخير فتحها حتى أوائل الربيع. وعادت قبرص من جديد قاعدة بحرية للمسلمين، من أجل تأمين الاتصال بين تركيا وبلاد الشام ومصر وأقطار المغرب العربي - الإسلامي (الجزائر خاصة).

كان ضياع قبرص لطمة قوية للفرنج الصليبي الذي سارع كما جرت عليه عادته فحشد قوة للانتقام. وشكل اسطولاً ضخماً ضم سبعين سفينة إسبانية، ومائة وأربعين سفينة تابعة للبنديقة، وأثنتي عشرة سفينة تابعة للبابا وتسعة سفن لطائفة الفرسان الراهب - الداوية - الذين انتقلوا إلى مالطا بعد طردتهم من قبرص. وسارت هذه القوة بقيادة ابن شارل كان ملك إسبانيا وامبراطور الغرب (دون خوان). فاصطدمت بالاسطول العثماني عند ليبيان وتمنت من تدميره (سنة ٩٧٩ هـ = ١٥٧١ م). غير أن العثمانيين أفادوا من فصل الشتاء، فأعادوا بناء اسطولهم بأقوى مما كان عليه قبل معركة ليبيان^(١).

(١) بقيت قبرص تحت حكم الأتراك المسلمين حتى سنة ١٨٧٨ م حيث تنازلت تركيا عنها في هذه السنة لبريطانيا مكافأة لها على ما قدمته من الدعم السياسي والعسكري للدولة العثمانية في حربها ضد روسيا =

قد يكون متوقعاً على ضوء العرض الوجيز السابق، أن تستأثر جزيرة قبرص بأكبر عدد من القلاع والمحصون. إذ أنها عاشت على امتداد العصور القديمة والوسطى وحتى الحديثة، وهي في حالة الحرب الدائمة والاضطرابات المستمرة، فقد تداولت على السيطرة عليها أقوام وأقوام. وكان كل قوم يعملون على إقامة القلاع وتشييد المحصون، لضمان الحياة لقواتهم. وقد زالت تحصينات كثيرة وبادت، وبقيت تحصينات أخرى تروي قصص، أو بعض قصص، أحداث الماضي القريب والبعيد.

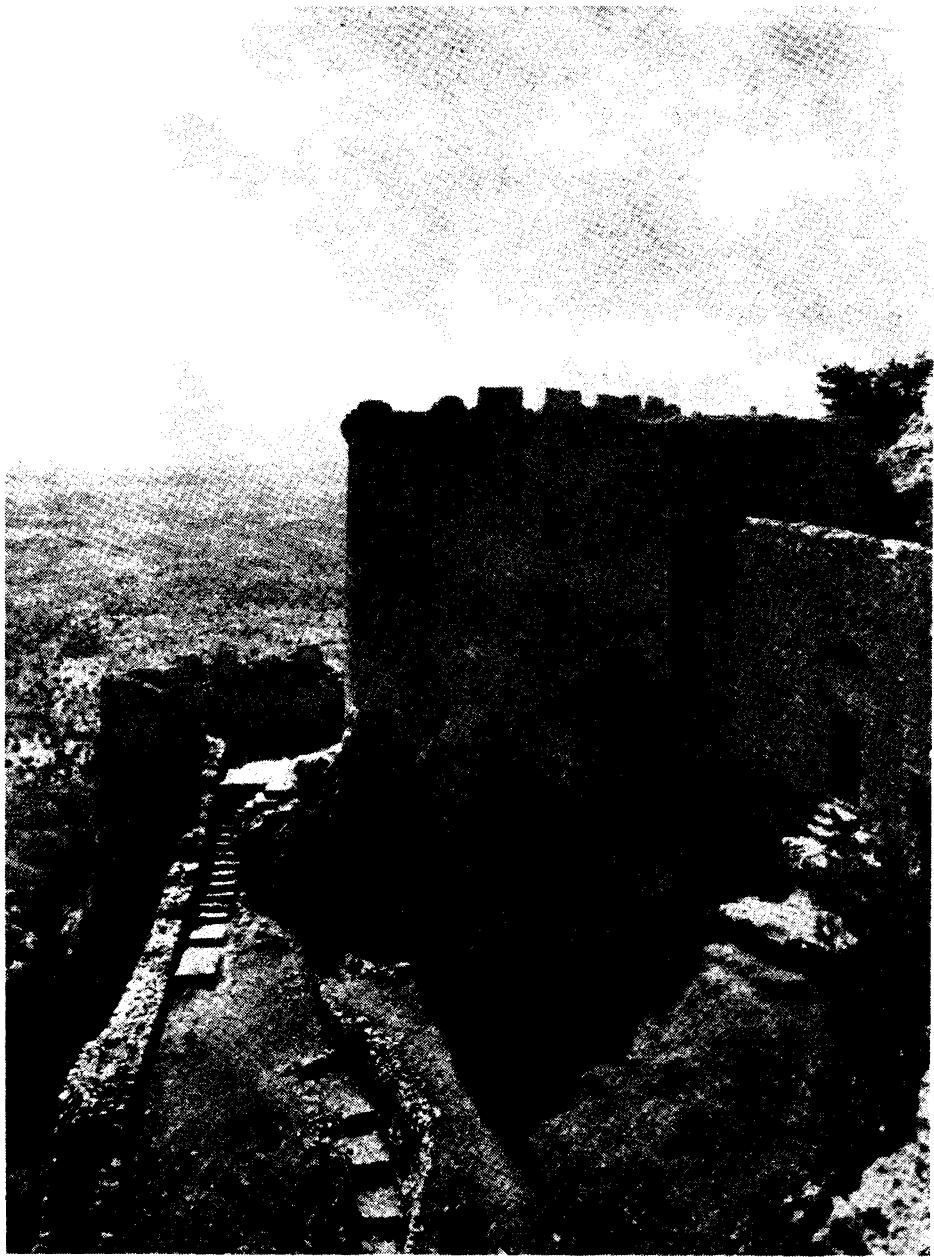
ولعل أكثر ما يثير الانتباه هو انتشار معظم القلاع على الواجهة الشمالية للجزيرة - في مواجهة تركيا -. الأمر الذي يبرز ملامح ذلك الصراع المير الذي خاضه الأتراك العثمانيون ضد الفرنج الصليبيين وبقاياهم في الجزيرة. وهذا يؤكّد بدوره أن هناك تحصينات كثيرة كانت تحتل مواقعها على الواجهة الشرقية - في مواجهة بلاد الشام - ومثلها على الواجهة الجنوبية - في مواجهة مصر - ثم زالت وبادت، إما بتأثير عامل الحروب والصراعات المتتالية، وإما بتأثير عامل الزمن والتقادم - أو بتضليل العاملين معاً. وعلى كل حال، فقد يكون بالمستطاع التوقف قليلاً عند بعض ملامح هذه القلاع والتحصينات.

أولاً: قلعة القنطرة^(١).

وهي تقع على الساحل الشمالي من قبرص، على بعد ٣٨ ميلاً تقريباً من كيرينيا والى الشرق منها. وتحتل موقعها على ارتفاع حوالي ٢٠٠٠ قدم فوق جرف شديد الانحدار في السلسلة الشمالية، وهي على اتصال بالنظر مع بوفافنتو وفاماغوستا. ولقد دعم السور المحيط بأطراف ذلك الموقع شديد الانحدار، بشكله غير المنتظم، بعدد من الأبراج القوية والمحصون البارزة - ولكن من الجهة الجنوبية والجهة الجنوبية الشرقية فقط.

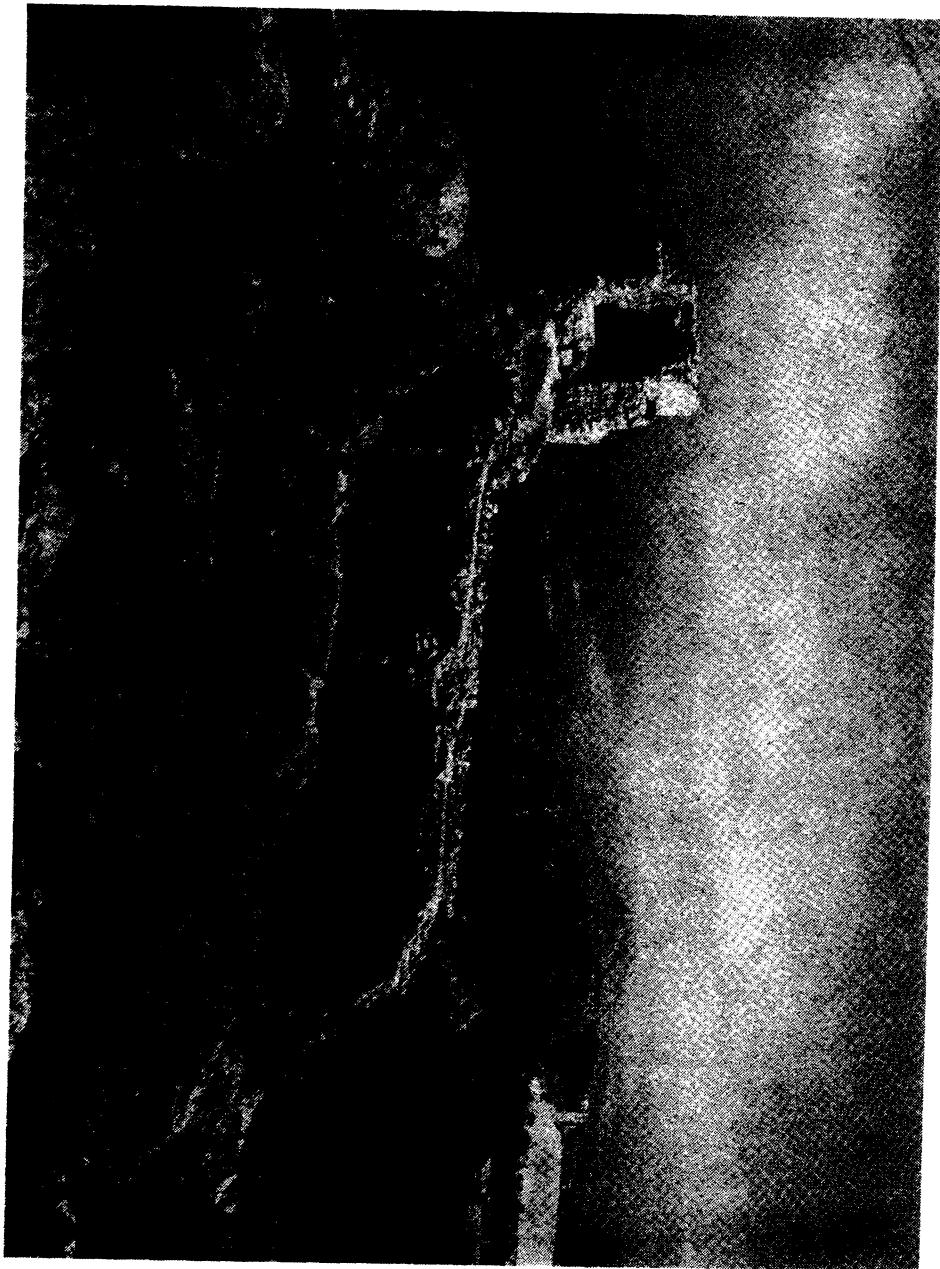
= القنطرة (بموجب معاهدة سان ستيفانو). وأعلنت قبرص دولة مستقلة سنة ١٩٤٥ هـ = ١٣٦٥ م بعد ثورة منظمة أيوكا - الارهابية الدينية - .

(١) القنطرة: (KANTARA) وبالفرنجية لوكاندار: (LE CANDARE) ولوكاندير: (LA CANDARE). ولا كاندار: .



قلعة قنطرة

البوابة الرئيسية والبرج الغربي والمصنن البارز الخارجي.



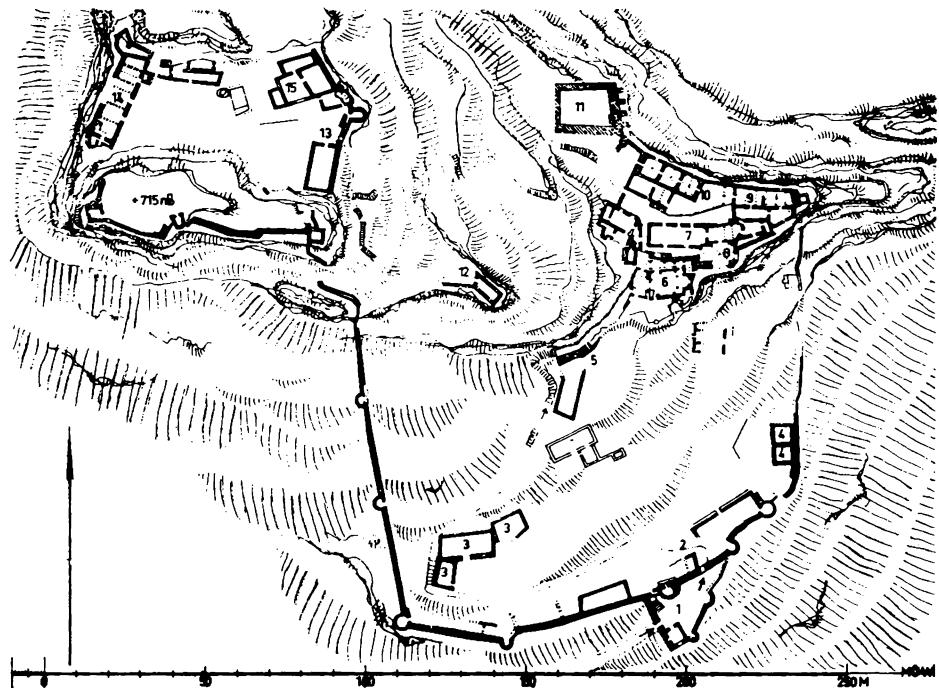
وهناك ساعة برج صغيرة تشغل أعلى نقطة في القسم الداخلي، فتشكل ظاهرة مميزة للقلعة التي ما تزال محفوظة بحالة جيدة. ولعل أبرز ما عرفته هذه القلعة من الأحداث هو قيام قوات قبرصية بمحاصرتها سنة ١٢٢٨ - ١٢٢٩ م من أجل طرد حامية الامبراطور الجermanي فريديريك الثاني، والتي كانت قد احتلت القلعة وأقامت فيها. وقد صمدت الحامية رغم ما أصاب السور من تدمير جزئي بقدائف المنجنيق. ثم تمكّن رام ماهر من اصطياد المدافعين، وطردهم من صخرة مجاورة، غير أن أتباع الامبراطور فريديريك نجحوا في استعادة السيطرة على القلعة (سنة ١٢٣٢ م) وقام القبارصة بعد ذلك بفترة قصيرة بهجوم جديد، ونجحوا في احتلال القلعة حتى إذا ما كانت سنة ١٣٧٣ م. فرض الجنوبيون سيطرتهم على القلعة. وحولوها إلى قاعدة هامة من قوادهم. وبقيت في حوزتهم حتى سنة ١٥٢٥ حيث فقدت القلعة كل أهمية لها.

ثانياً: قلعة سانت هيلاريون^(١).

وهي قلعة تقع على الساحل الشمالي من قبرص مباشرة إلى الجنوب - الغربي من كيرينيا، وتحتل مركزها على ارتفاع يترواح بين ٢٣٠٠ و ٤٠٠ قدمًا. وتسيطر على الطريق الواصل بين كيرينيا ونيقوسيا. وهي مثلها كمثل المعاقل الجبلية في قبرص، قد اعتمدت على الطبيعة الطبوغرافية المجاورة لها. وتتألف من قلعة خارجية فسيحة، تحوي مبان معزولة وجناحاً منخفضاً مغلقاً مع كنيسة وأحياء سكنية وخزان مياه مكشوف ضخم، وقلعة علوية تحوي أجحة ملكية، وكانت منفصلة عن القلعة السفلية بسور تسنده الأبراج. ويقال بأن القلعة قد شيدت على الأرجح أثناء حملة الامبراطور البيزنطي (الكسيوس الأول)^(٢) على حاكم الجزيرة الذي تمرد عليه. وقيل أيضاً في اسطورة بناء القلعة أنها أقيمت في موقع كان يشغله دير في السابق. وقد عمل الكسيوس الأول بعد هجومه على تحسين القلعة. غير أن أتباع الامبراطور الجermanي

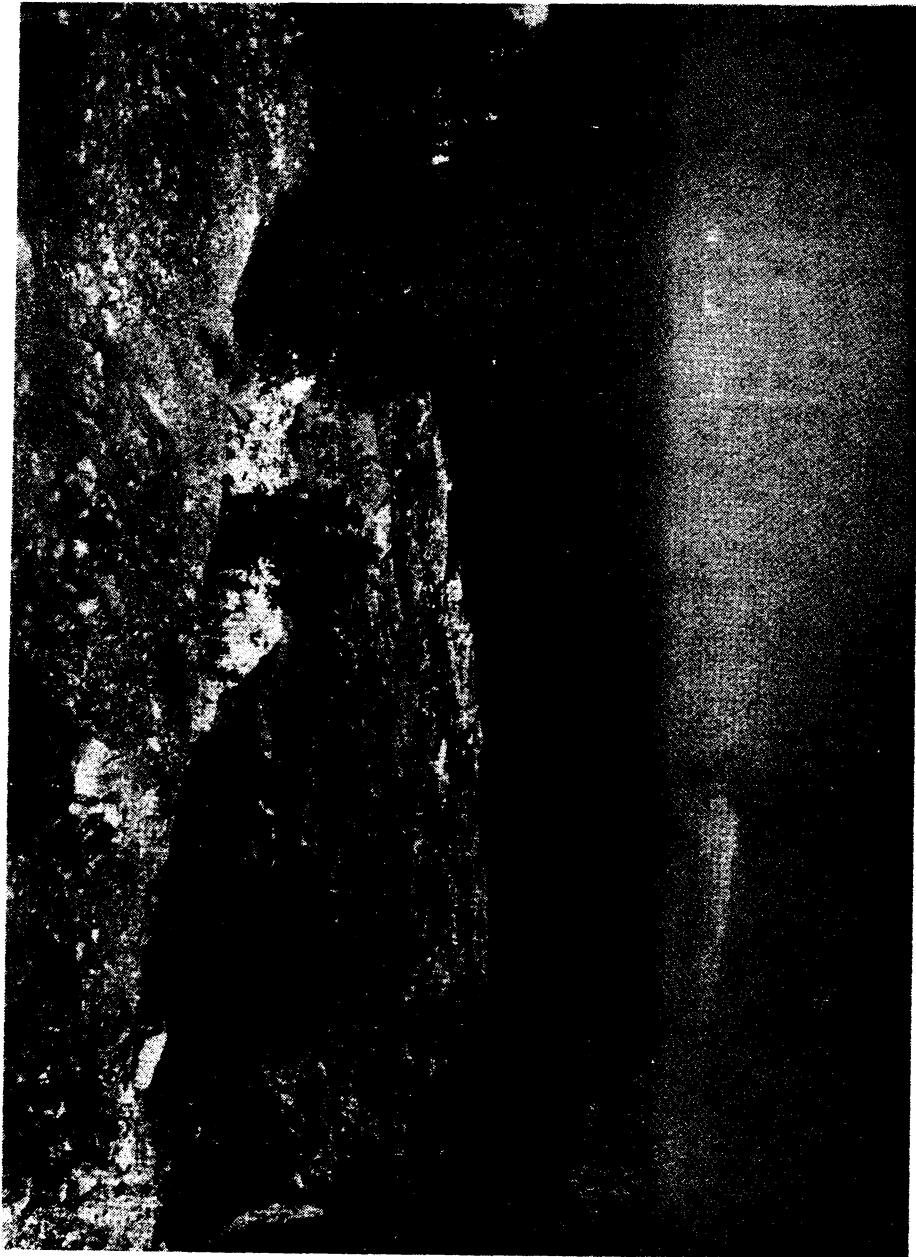
(١) سانت هيلاريون: (ST. HILARION) وباليونانية ديديموس: (DIDYMOS) وبالفرنكية: (DIEU D'AMOUR) أي إله الحب: (DIEUDAMUR).

(٢) الكسيوس الأول: (ALEXIS) امبراطور بيزنطى عرف باسم كومين: (COMMENE) عاصر الحملة الصليبية الأولى. وحكم من سنة ١٠٨١ م حتى سنة ١١١٨ م.

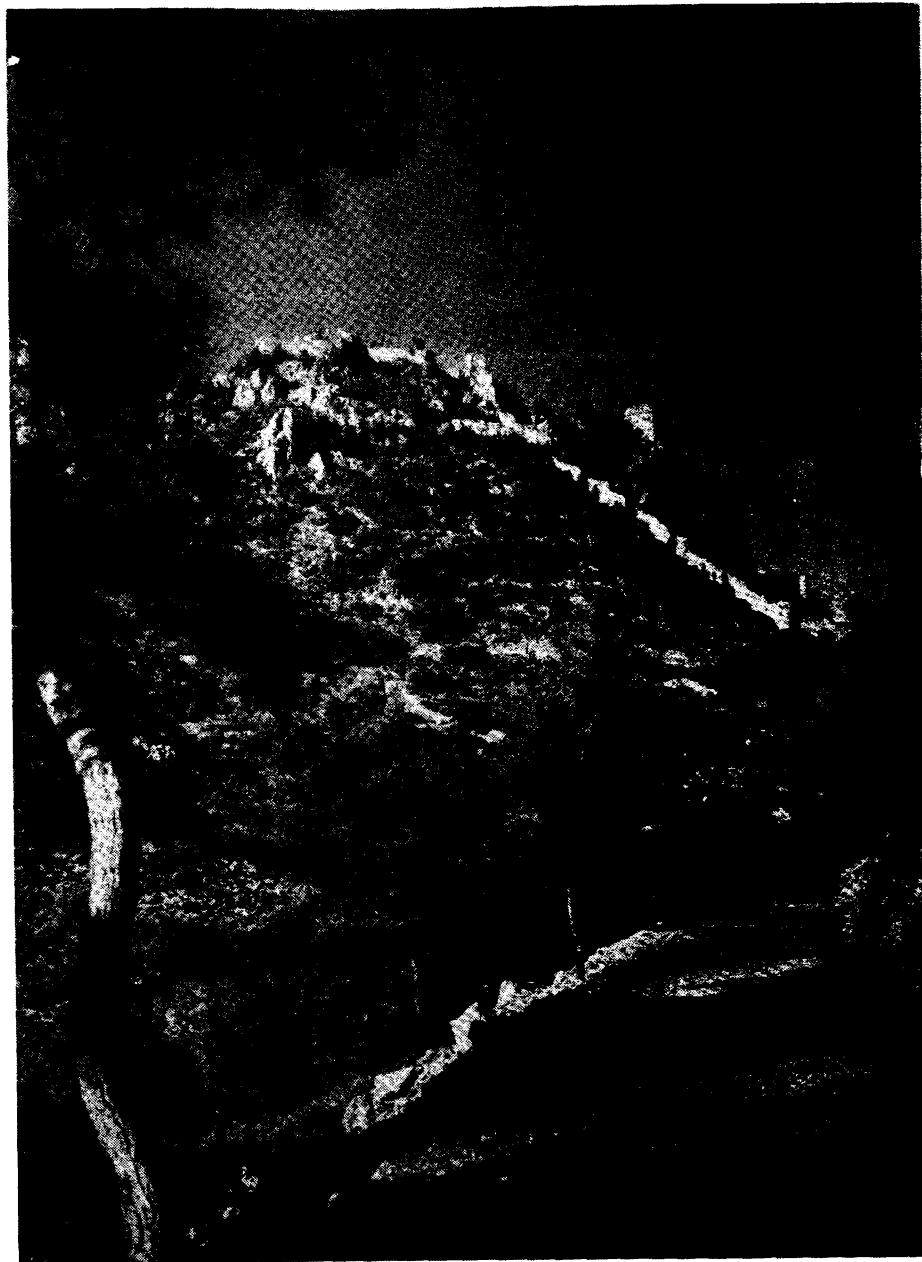


سانت هيلاريون - ديدامور (St Hilarion-Dieadamour)
 المخطط الأرضي للقلعة، المقياس ١/٤٠٠٠. رسمت مباني العهد البيزنطي (القرن العاشر)
 باللون الأسود، والإضافات الفرنسية الأولى بالتهشير المتقطع، ومباني القرن الرابع عشر بالتهشير
 البسيط.

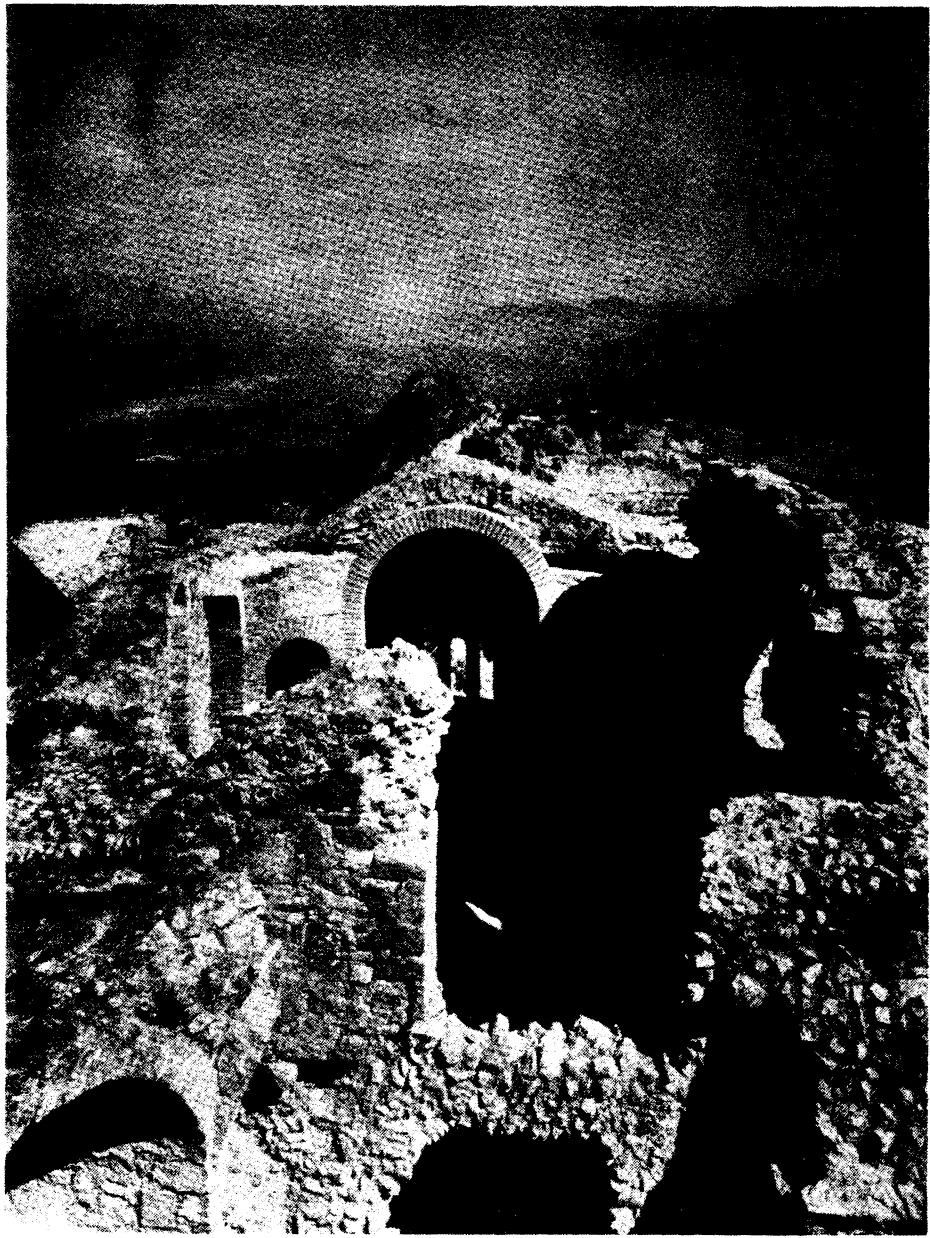
- ١ - حصن خارجي والبوابة الخارجية ، ٢ - البوابة الداخلية المؤدية إلى القناة المسور السفلي ،
- ٣ - الإسطبلات ، ٤ - الصهاريج ، ٥ - البوابة الداخلية المؤدية إلى القناة المسور الأوسط ،
- ٦ - كنيسة بيزنطية (النصف الثاني من القرن العاشر) ، ٧ - قاعة كبرى (القرن الرابع عشر
 فوق أساسات بيزنطية) ، ٨ - منظرة (مَطْلَبٌ) (Belvedere) ، ٩ - شقق سكنية من أربع طبقات ،
- ١٠ - أحيا سكنية (براكات) ، ١١ - صهريج مياه ، ١٢ - برج الأمير جون ، ١٣ - بوابة
 القناة العلوى المسور ، ١٤ - الجناح الملكي ، ١٥ - مكاتب ومطابخ.



إطلالة الى أسفل من القلعة. وبلدة كيرينا الصغيرة.



سانت هيلاريون
الجناح الغربي للقلعة. وبرج الأمير جون في المنتصف.



سانت هيلاريون
القلعة السفلية



منظر عام من جهة الشرق . وتبعد الى اليمين القلعة السفلی وفوقها برج الأمير جون .

فريدرريك الثاني استولوا عليها (سنة ١٢٢٩ م) بعد حصار استمر تسعه أشهر. ثم عملت العائلة الملكية بعدها على استخدام القلعة مقراً صيفياً لها. وقد حاول الجنويون غزو قلعة سانت هيلاريون (سنة ١٣٧٣) غير أن القلعة استطاعت مقاومتهم. ثم فرض البنادقة سيطرتهم عليها في مطلع القرن السادس عشر. وفي عهدهم فقدت القلعة أهميتها.

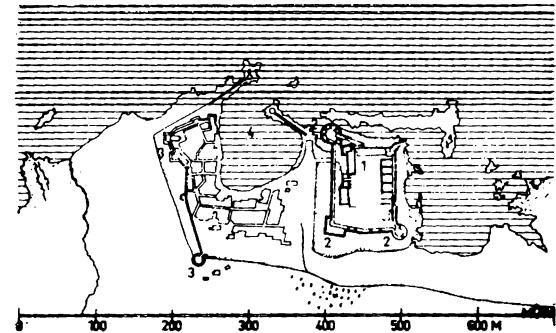
ثالثاً: قلعة كيرينيا^(١).

هي قلعة هامة في بلدة صغيرة لها مرفأ يقع على الساحل الشمالي من قبرص. ولقد حدد البنادقة المظهر الخارجي للقلعة الضخمة، شبه المستطيلة، مع أبراجها المستديرة وحصنها المصلع البارز الضخم من الناحية الجنوبية الغربية، وأسوارها الساترة السميكة. أما البرج نصف الدائري الواقع في الزاوية الشمالية - الشرقية، والسور الواقي الملائق له، بالإضافة إلى قسم كبير من أحياء السكن والمخازن التي تناهض الفناء الداخلي الفسيح، فتعود إلى أيام الفرنج الصليبيين. ولم يبق من ذخائر العهد البيزنطي سوى القليل جداً من الأسوار الداخلية، والكنيسة الصغيرة التي طغى عليها البرج المدور البندقي في الشمال الغربي. وكل ما بقي من دفاعات البلدة الأصلية هو أطلال برجيز نصف دائريين فقط. ولقد كانت بلدة كيرينيا من البلاد القديمة، إلا أن الأسطول البيزنطي استخدمها مرفأً له سنة ١٠٩٢ م. أثناء الحملة التي قام بها ضد الحاكم - رابسوماتيس - المتمرد. وقد قرر الحاكم البيزنطي لقبرص - اسحاق كومين - أن يجد لنفسه ملاذاً في كيرينيا سنة ١١٩١ م. ولكنه وقع في الأسر قبل أن يصل إليها وعندما جاء الفرنج الصليبيون، حاصروا كيرينيا واستولوا عليها. وظلت دفاعات البلدة دون تطوير حتى سنة ١٢١١ م، حيث دعمت القلعة بشكل واضح.

تعرضت القلعة لهجوم أتباع الامبراطور فريدرريك الثاني الذين استولوا عليها سنة

(١) قلعة كيرينيا: (KYRENIA) وباليونانية: (KERYNIA) وكيرين: (KYRENE) وباللاتينية: (CERYNIA) وبالفرنجية: (CERINA) وسيرين: (CERINES) وشيرنيس: (SCHERNIS) وسيروني: (SCHERONI).

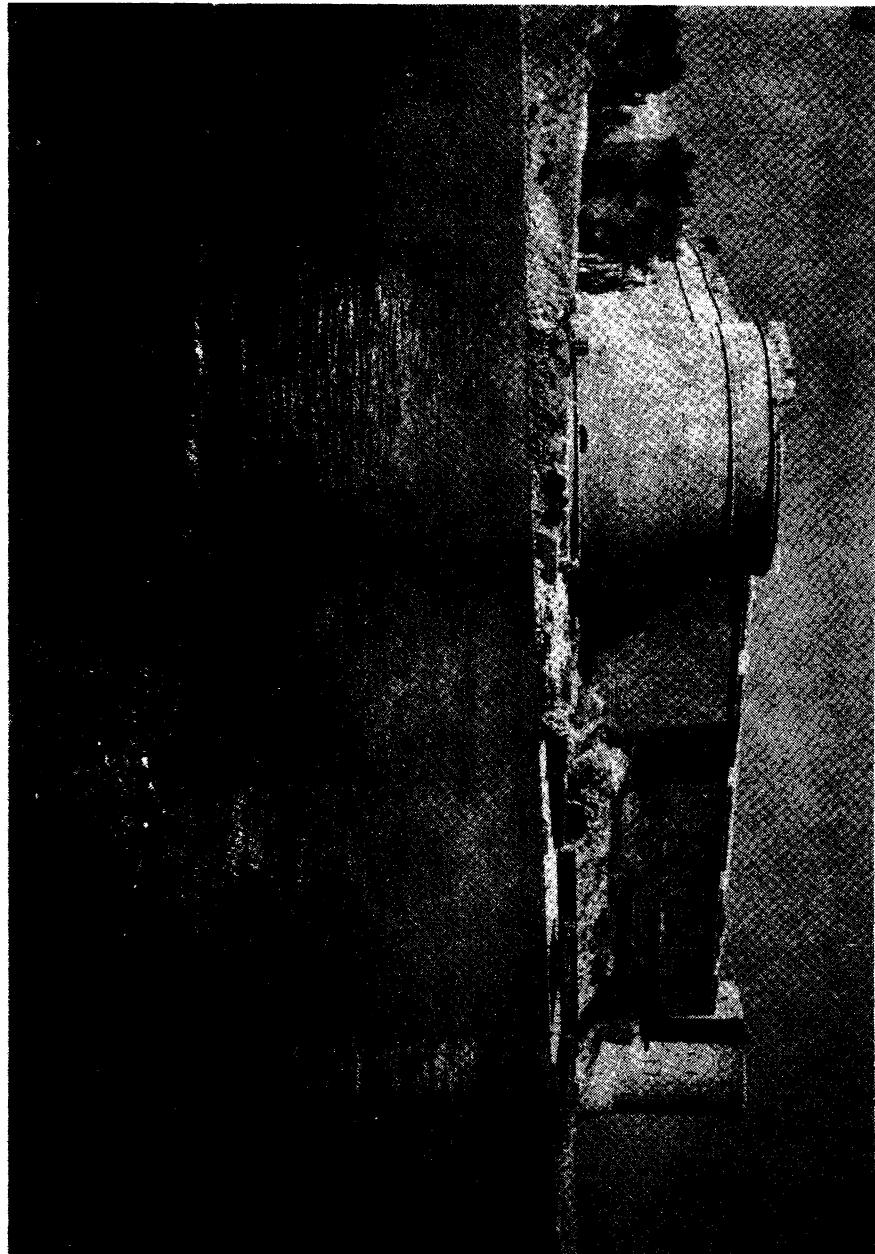
الخ..



كيرينيا

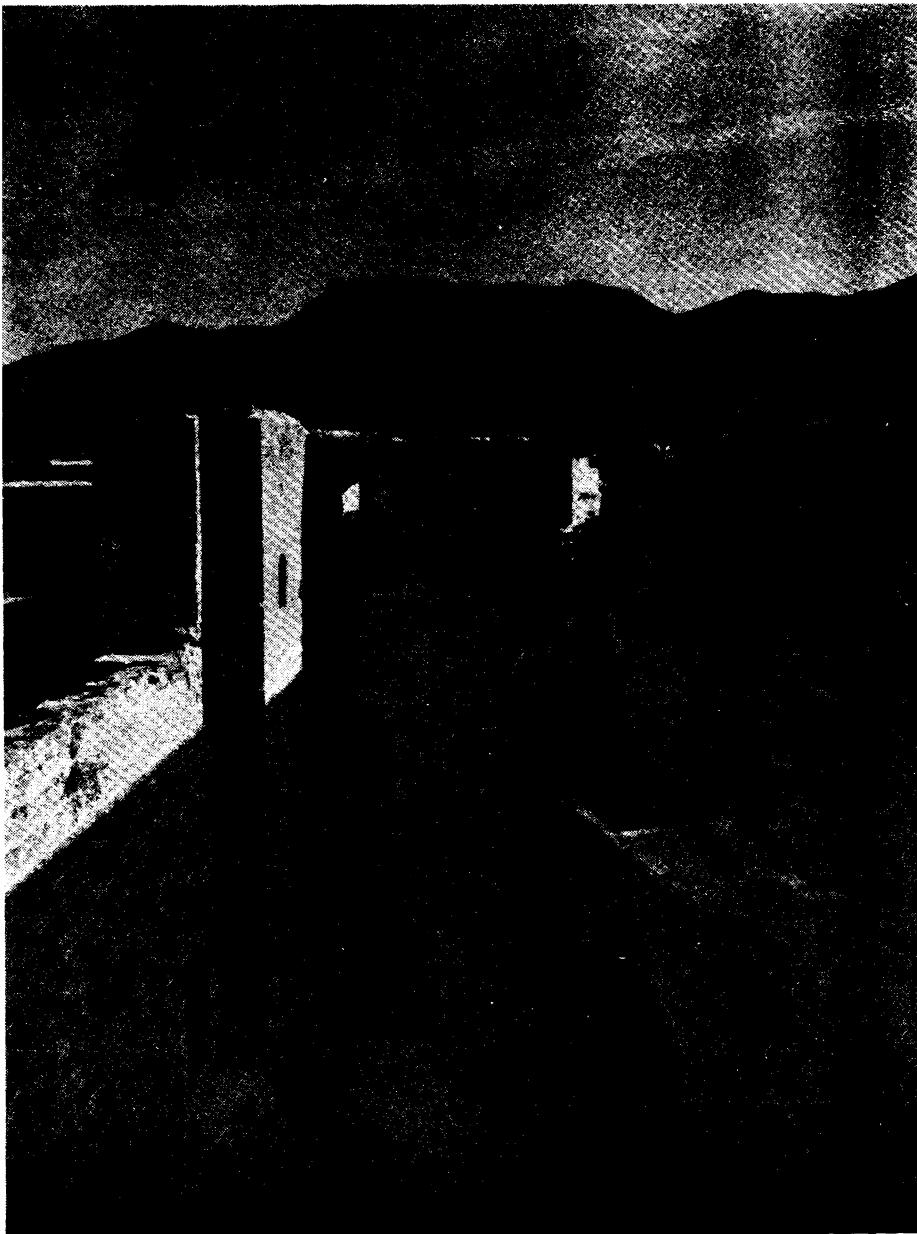
مخطط المدينة (كما كانت عليه في نهاية القرن التاسع عشر). المقياس ١/١٠٠٠ رسمت التحصينات العائدة إلى العهدين البيزنطي والفرنجي باللون الأسود، وتلك التي تعود للعهد البندقي بدون تظليل.

- ١ - القلعة البيزنطية والفرنجية، ٢ - حصنون بارزة من القرنين الخامس عشر والسادس عشر، ٣ - قطاعات أزيلت من سور البلدة، ٤ - المرفأ.



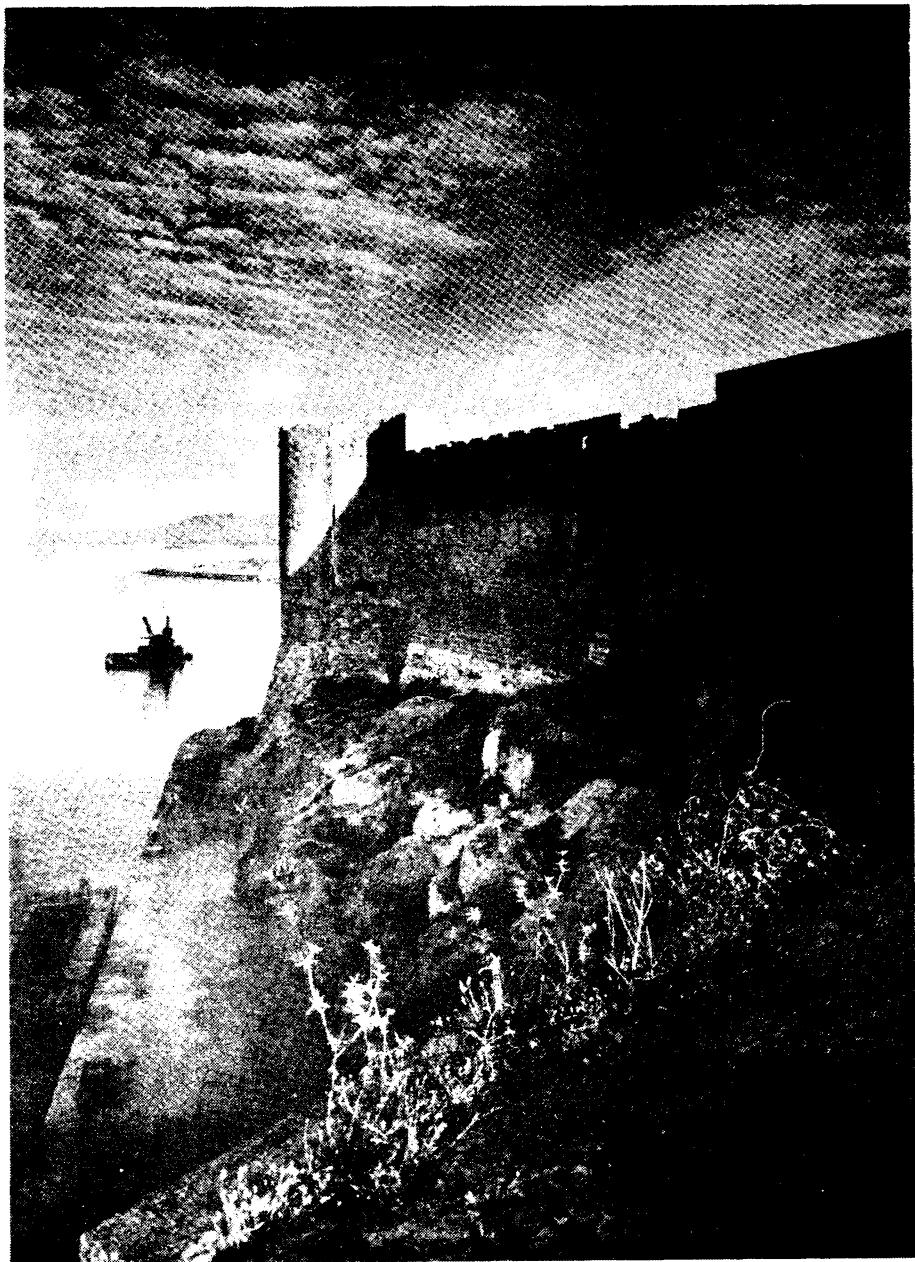
كتاب
العنوان

الجناح الشرقي للقلعة وبرج البندقة الى اليسار والبرج الفرنخي الى اليمين.



كيرينيا

اطلالة الى الأسفل من منصة المدفعية.



كرينيا - الامام : الجناح الشمالي للقلعة .



كيرينيا

الكنيسة البيزنطية الصغيرة.

٦٠٢

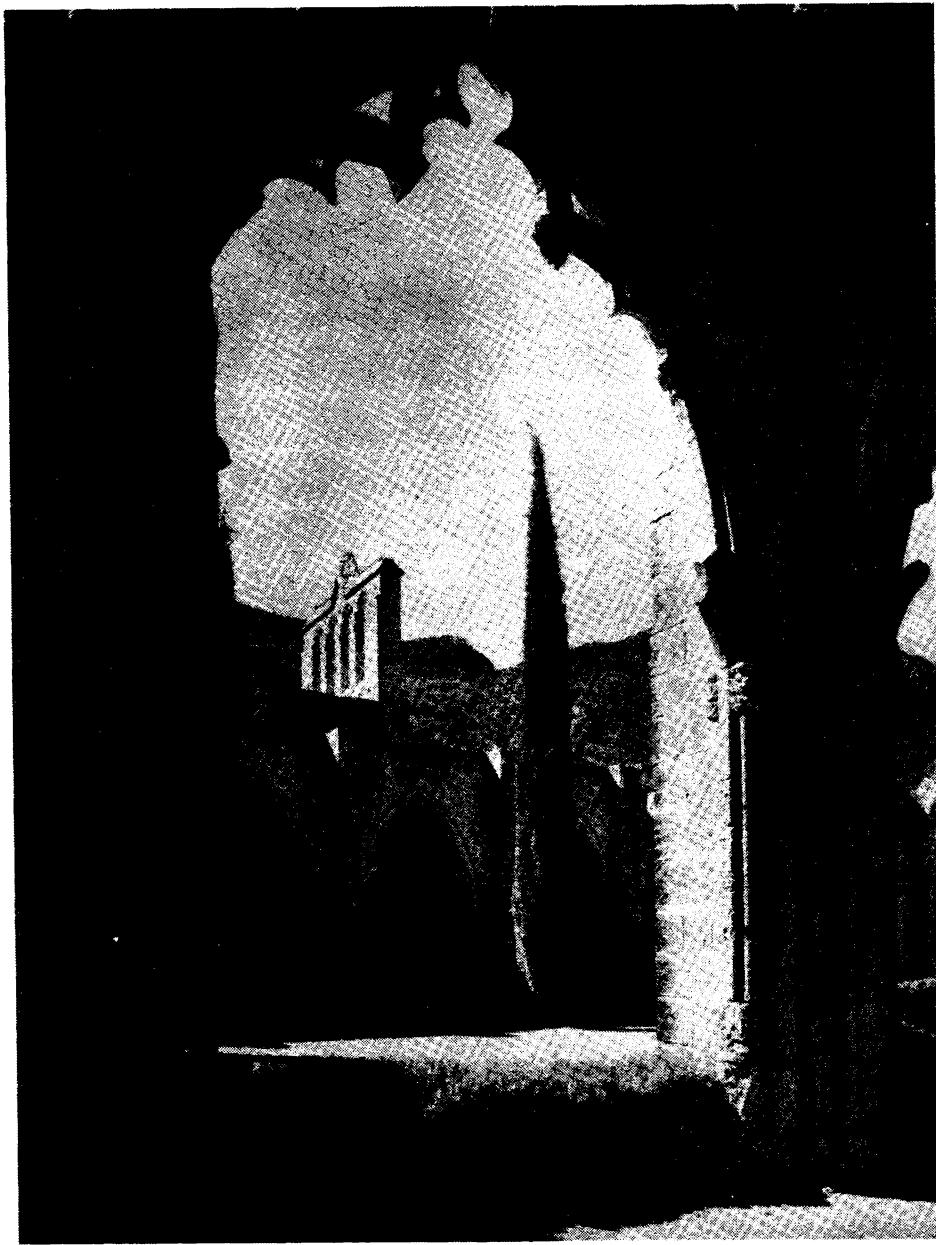
١٢١٣ م ، وتبع ذلك قيام القبارصة بمحاربين للقلعة سنتي ١٢٢٨ و ١٢٣٤ م . ثم نجح القبارصة في استعادة القلعة التي ما لبثت أن تحولت إلى سجن لملكة قبرص (في القرن الرابع عشر) . وقام الجنويون بمحارب كيرينيا سنة ١٣٧٤ م . ولكن الملك جيمس الأول صمد في القلعة رغم قصفها بمدفع الحجارة الثقيلة ، وكان للقلعة دورها الحيوى في المحافظة على مؤخرة المدافعين . وعندما هاجم المالك المسلمين قبرص سنة ١٤٢٦ م . وهزموا القبارصة في خير وكيتيا ، انسحب الوصي (الكاردينال دي لوزينيان) إلى كيرينيا . ولكن المالك لم يهاجموا القلعة ، وتجنبوا الصدام بدفعاتها القوية . ثم نشأ نزاع حول حقوق الوراثة بين (شارلوت دي لوزينيان) وأخيها غير الشرعي (جيمس الثاني) وتعرضت كيرينيا لمحار طويل استمر ثلاث سنوات تقريباً (١٤٦٠ - ١٤٦٣ م) واضطرب حاكم كيرينيا في النهاية للاستسلام . ثم جاء البنادقة فاحتلوا كيرينيا سنة ١٥٤٤ م . فبذلوا عناء خاصة لإعادة بناء القلعة وتحصينها بعد أن أضحت عتيقة متداعية . وهم الذين عززوا الأسوار الجنوبية والغربية ، وأقاموا برجاً دائرياً وحصنًا بارزاً ضخماً فيها . غير أن هذه التحسينات لم تمنع قلعة كيرينيا من السقوط في قبضة الاتراك العثمانيين دونما قتال (سنة ١٥٧٠ م) فعمل الأتراك المسلمين على استخدام القلعة قاعدة لحماتهم وسجناً للعصابة وال مجرمين .

رابعاً : قلعة بيلابايس^(١)

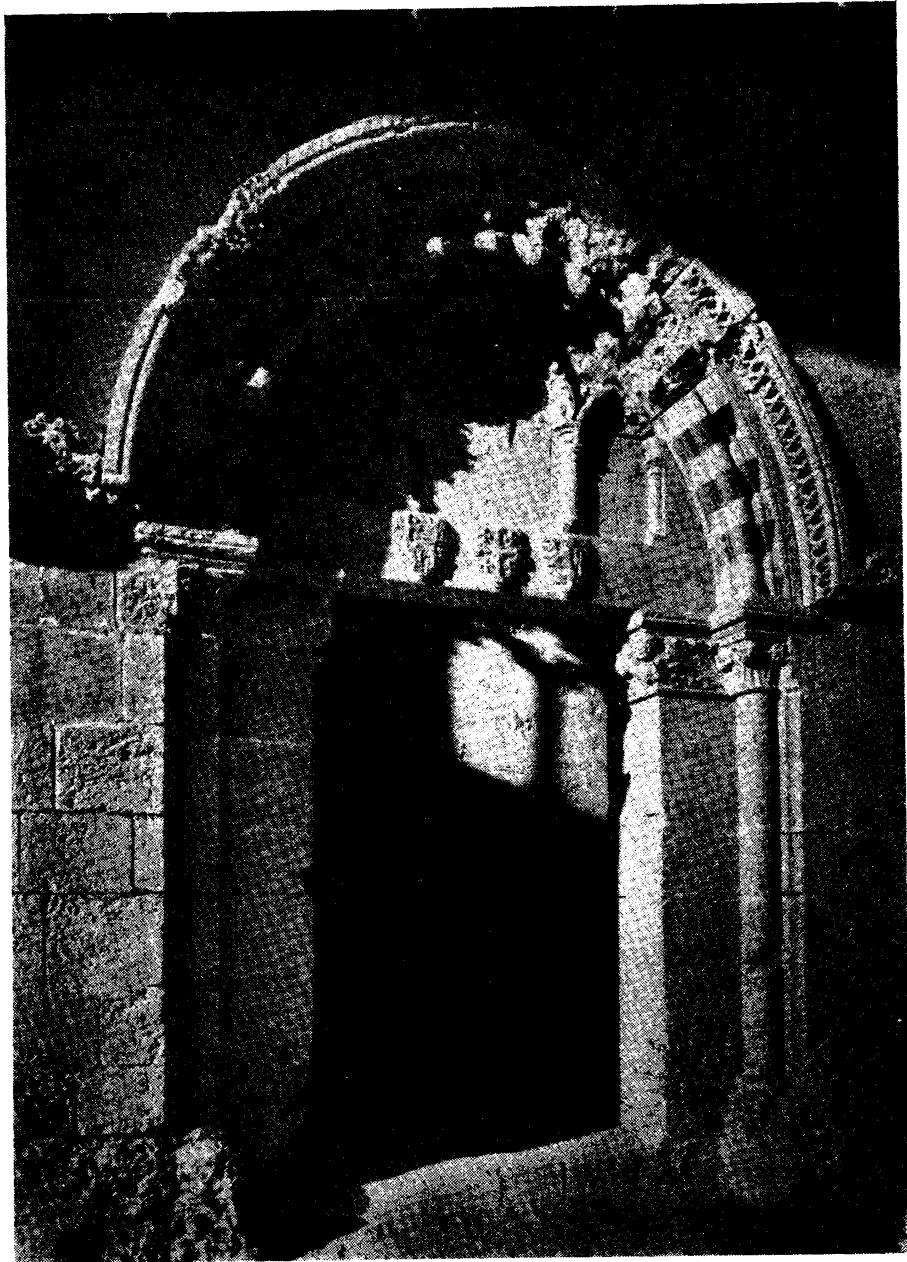
تقع في قرية شمال قبرص ، وكانت ديراً - بيعة - لطائفة البرومتربيين^(٢) . وقد احتلت القرية وقلعتها مركزها على مسافة أميال قليلة إلى الجنوب - الشرقي من كيرينيا . وقد صمم الدير الذي ما يزال في حالة جيدة جداً ، وفقاً لننموذج التقليدي

(١) بيلابايس : (BELLAPAIS) وبالفرنكية لابايس : (LAPAIS) ودير ايسكوبى : (ABBAYE DE EPISKOPIA) وايسكوبيا :

(٢) طائفة البرومتربيين : هي طائفة من الروم الكاثوليك . نظمها نوربرت دوكسانتين الموصوف بالقديس وذلك سنة ١١٢٠ م ، وأقام طائفته ديراً في بريمونتري - فرنسا - وتسمى أيضاً نظام بريمونتري : (ORDRE DES PREMONTRES) أو القانون الأبيض وهو نظام يقوم على تطبيق مباديء القديس أوغسطين (SAINT AUGUSTIN) في الحياة .



بيلابايس : الواجهة الغربية للكنيسة.



بِلَابَيْس

الباب الرئيسي لحجرة الطعام في الكنيسة.

المعروف ، فالفناء الداخلي مكشوف وحوله الأروقة المعمدة : وتنتصب الكنيسة الصغيرة في الجهة الجنوبية منه ، وفيها صحن وجناحان . وتوجد في الشمال قاعة الطعام الكبيرة . كما يوجد في الغرب قبو المؤونة والمطبخ الذي له فسحة خاصة منفصلة . ولقد ارتبط تشييد القلعة وبناء الدير بعملية إعادة فتح القدس وطرد الفرنج منها على أيدي المسلمين بقيادة صلاح الدين (سنة ٥٨٣ هـ = ١١٨٧ م) فقد عمل ملك القدس أملريك لوزينيان (١١٩٨ - ١٢٠٥ م) على تأسيس الدير لطائفة رهبان بريمونتي الذين هربوا إلى قبرص . وبعد أن اكتمل بناء القلعة والدير خلال عهود متالية ، أضيفت إليه أقسام جديدة ، وخصص له من الوقت - الأحباس - ما يكفيه . و تعرضت القلعة والدير لأزمات حادة عبر صراع القبارصة والجنوبيين . وتصدع الدير كثيراً في عهد حكم البندقة . حتى إذا ماجاء الأتراك العثمانيون ، عملوا على طرد الطائفة الدينية . غير أنهم سمحوا للقرويين المسيحيين بالتردد على الكنيسة ، وأقاموا حامية لهم في القلعة .

خامساً: فاماغوستا (أو فماغوستا) ^(١) .

هي مدينة لها مرفاً ، وتضم قلعة هامة على الساحل الشرقي من قبرص . ورغم أن داخل المدينة أصبح مهجوراً من السكان بسبب مناخها غير الصحي . فإن تخصيصاتها التي تعود في معظمها إلى عهد حكم البندقة للجزيرة ما تزال في حالة جيدة ، كما هو الحال بالنسبة لكتائسها العديدة أيضاً . وتقع فاماغوستا فوق أرض مستوية تقرباً إلى جوار خليج نحني جيداً ، بريف صخري بارز ، ويمكن إغلاقه تماماً - في العصور الوسطى - بسلسلة حديدية تتد من القلعة إلى برج الحصار . ولا ينفك تخطيط المدينة مع أي تخطيط معروف ، فقد كانت محاطة بأسوار غير منتظمة ، مدعمة بمحصون بارزة . والقطاع

(١) فاماغوستا : (FAMAGUSTA) وباليونانية أموخوستوس : (AMMOCHOSTOS) وتعني (في الرمال) وقد ظلت هذه التسمية هي الشائعة حتى القرن الثالث عشر . وبعدها أصبحت تعرف باسمها الفرنجي فقط الذي هو فاماغوستا : (FAMAGOSTA) وقد اقيمت فاماغوستا على أنقاض مستوطنة قدية اسمها : (SALAMIS-CONSTANTIA) سالاميس كونستانسيا ، وكانت على بعد أميال قليلة عن الساحل - من جهة الشمال .

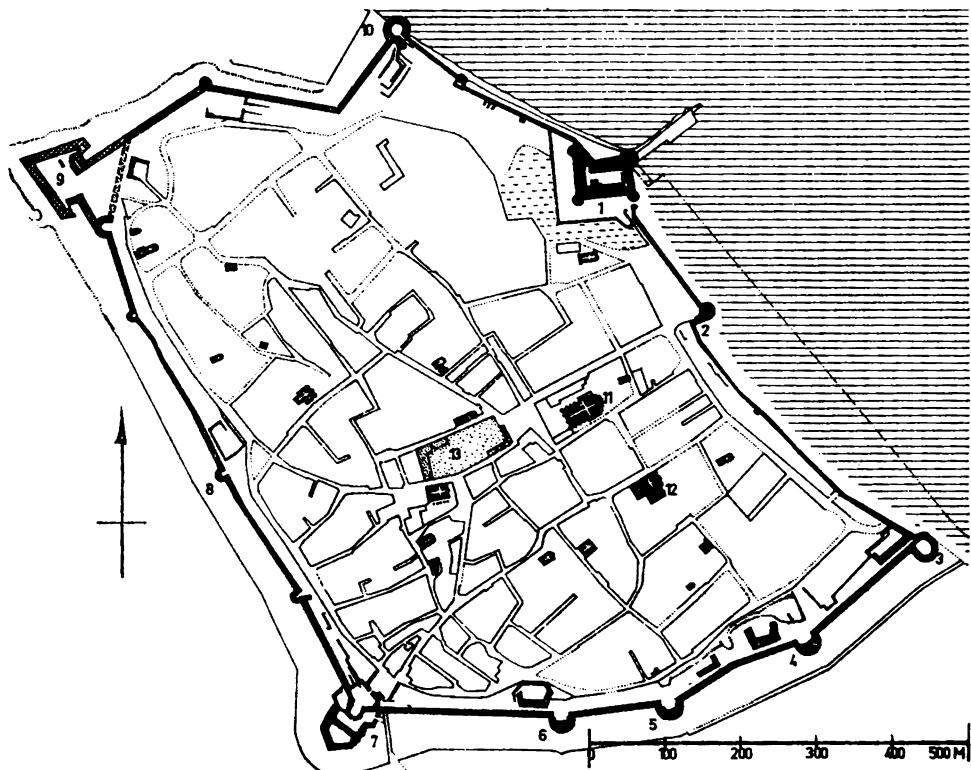
الوحيد المحسن جيداً من هذه الأطراف الداعية لها زاويتا المدينة. أي البوابة البرية الجنوبيّة - الغربية، مع الحصن الأمامي الذي يعود تاريخه إلى سنة ١٥٤٤ . وما يسمى بحصن مارتينينغو ★ حوالي سنة ١٥٥٠ - ١٥٦٠ م. في الشمال الغربي المشيد بالأسلوب الإيطالي القديم.

وتوجد القلعة في منتصف الواجهة المطلة على البحر - وهي القلعة التي عرفت في العهد التركي العثماني باسم (إيش كال - أو القلعة الداخلية) ويعود قلب القلعة في تاريخه إلى القرن الرابع عشر . بينما شيد السور الخارجي في العام ١٤٩٢ م وذلك بعد أن استولت البندقية على قبرص.

وعرفت فاماغوستا (أو فاماگوستا) عبر تاريخها أحاديثاً مثيرة، لم يكن أقلها شأنًا وأهمية، قيام ريتشارد قلب الأسد وجي لوزينيان باحتلالها سنة ١١٩١ م. ثم قيام صراع بين القبارصة الملكيين وأتباع الامبراطور فريدرريك الثاني سنة ١٢٣٢ م. وقد عرض ملك قبرص (هنري الثاني ١٢٨٥ - ١٢٢٤ م) على الفرنج الذين طردتهم المسلمين من عكا سنة ١٢٩١ م. أن يستقرروا في فاماگوستا. وبدأ العمل وقتها ل إعادة تحسين القلعة وتنمية دفاعاتها . واستمر العمل في دعم الدفاعات بجهة حتى سنة ١٣١٠ م حيث تم بناء القلعة مع إضافة أنواع جديدة إلى القصر الملكي والمدينة. كما تم تحسين السور البحري ما بين البوابة البحرية وحصن المدفعية في القسم الجنوبي الشرقي. وتم أيضًا حفر خنادق بمساعدة الفلاحين الذين جندوا من جميع أرجاء الجزيرة. ولم تثبت فاماگوستا أن ازدهرت بسرعة حتى أصبحت في سنة ١٢٣٦ م واحدة من أغنى مدن الشرق وأجملها باكمال بناء كاتدرائية القديس نيكولا الضخمة (التي شيدت بين سنة ١٣٠٨ وسنة ١٣١٥ م). وقد أثارت غنى فاماگوستا شهية دوله جنه التي عملت على احتلالها بعد حصار قصير (سنة ١٣٧٣ م) وظلت ضمن ممتلكاتها حتى العام ١٤٦٣ م. وذلك رغم المحاولات العديدة التي بذلها ملوك قبرص من أجل استعادتها واتباعها لحكمهم. حتى إذا ما كانت سنة ١٤٦٤ م. وبعد ثلاثة أعوام من

الحصار ، استردها البيت الملكي القبرصي بموجب معاهمدة مع جيمس الثاني . غير أن البنادقة - فينيسيا - كانوا قد وطدوا أقدامهم فيها قبل ذلك بزمن طويل ، حتى إذا ما كانت سنة ١٤٨٨ م ، ارتفع علم البندقية على (فاغوستا) . وفي السنة التالية ، أرغمت جيوش جمهورية البندقية آخر ملوكات قبرص (كاترينا كورنارو) على التنازل عن العرش ، والتخلي عن حقوقها الشرعية بالجزيرة . وشرع البنادقة بتحسين مدينة فاغوستا ودفاعاتها ، وأعادوا ترميم السور الخارجي للقلعة ، وببوابة البحر . وتم تشييد (حصن موراتو) وذلك حتى سنة ١٤٩٦ م . وأضيفت تحسينات أخرى الى الدفاع (من سنة ١٥٤٤ حتى سنة ١٥٦٥ م) كان من بينها بوابة البحر وحصن مارتينينغو .

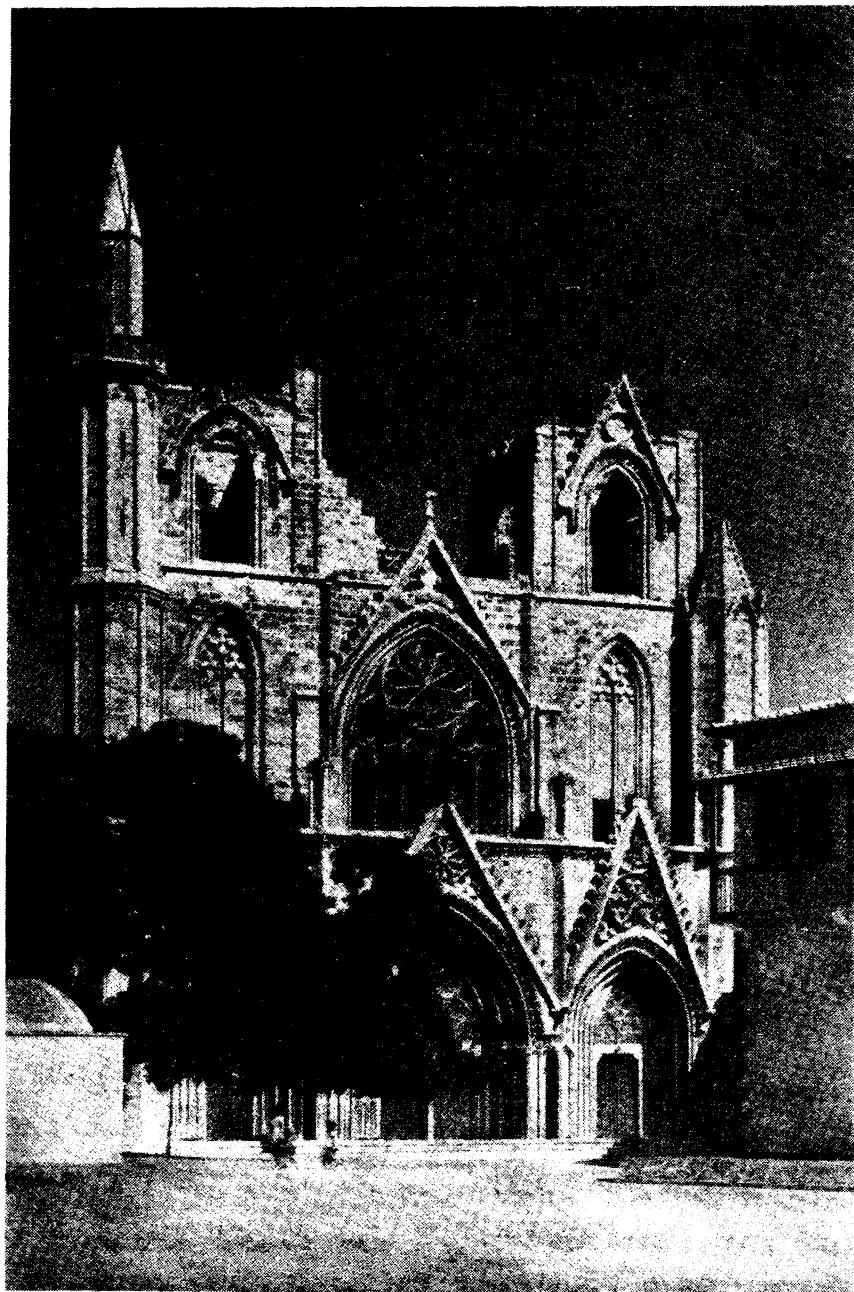
نزل الجيش التركي الإسلامي بقيادة لala مصطفى باشا على أرض قبرص سنة ١٥٧٠ م . وأقام على حصار فاغوستا زهاء السنة ، عمل الأتراك المسلمين خلاها على نقب الأسوار - عن طريق الانفاق - مما أدى الى انهيار الواجهة الجنوبية . فاستسلمت الحامية يوم ٢٩ تموز - يوليو - سنة ١٥٧١ م . بعد أن فقدت الحامية مؤونتها وذخائرها ، وفقدت معها الأمل بأي دعم خارجي . فعمل الأتراك المسلمين على إعادة توطين الصليبيين في قرية (فاروش) الصغيرة ، إلى الجنوب من فاغوستا ، وحرم عليهم دخول أسوار المدينة عند حلول الظلام لعدة عقود من الزمن تلت ذلك . وعمل الأتراك على الفور . على اصلاح دفاعات فاغوستا . ثم ما لبثت هذه الدفاعات أن فقدت أهميتها .



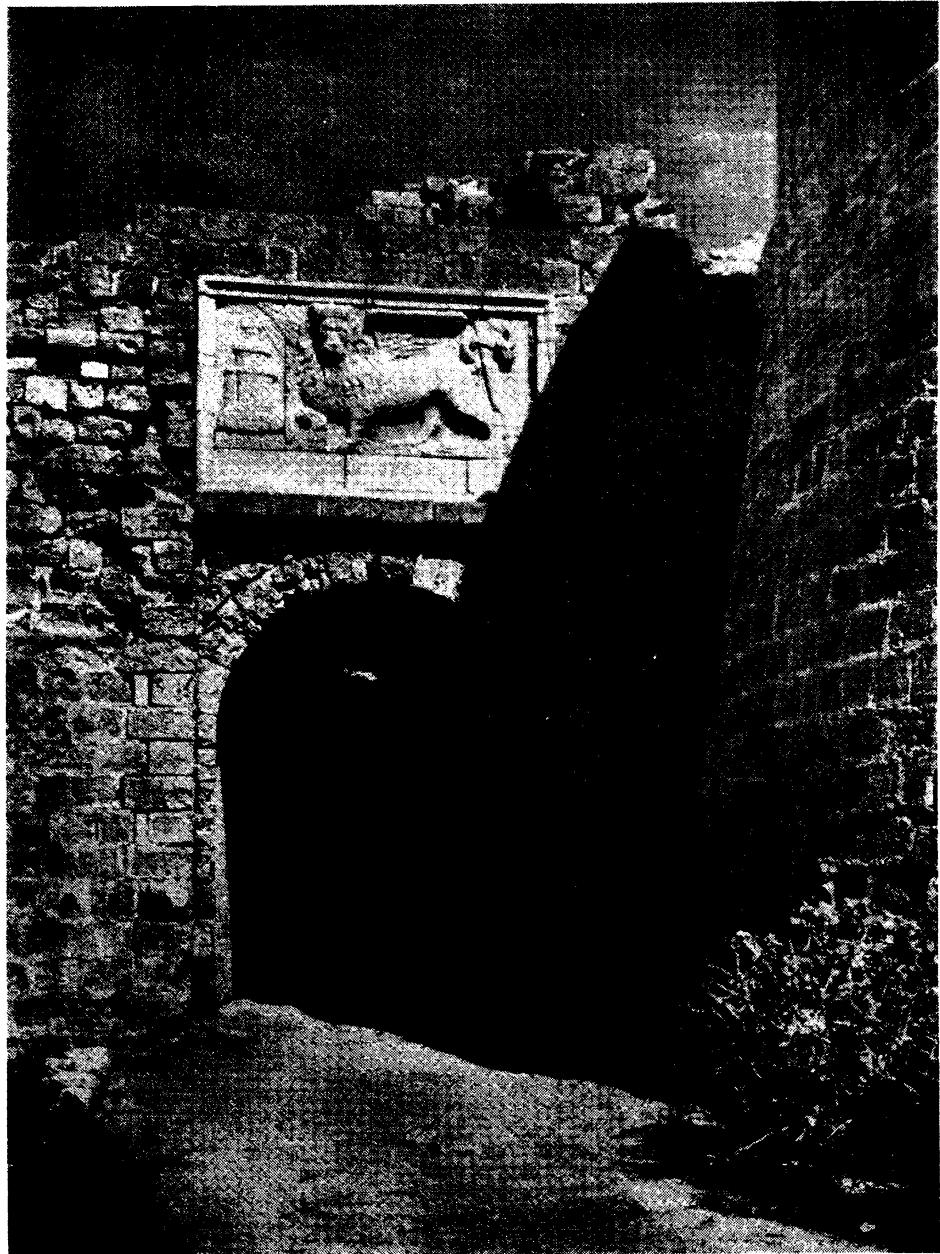
فاماگوستا . Famagusta

إعادة تركيب للمدينة كما كانت في منتصف القرن السادس عشر ، المقياس ١/١٠٠٠٠ . رسمت تحصينات أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن التاسع عشر باللون الأسود . ومباني منتصف القرن السادس عشر بالتهشيم المتقطع . Arsenal Bastion .

١ - القلعة (إيتش كال، أو حصن البحر) ، ٢ - بوابة البحر ، ٣ - حصن المدفعية ، ٤ - حصن كامبو سانتو ، ٥ - حصن أندروزي ، ٦ - حصن القدس ناية ، ٧ - بوابة البر ومعلم أمامي (Ravelin) ، ٨ - حصن موراتوا ، ٩ - حصن مارتينينغو ، ١٠ - حصن الجوهرة ، ١١ - كاتدرائية القديس نيقولا لللاتين (أيا صوفيا كامي Camii Aya Sofya) ، ١٢ - كاتدرائية القديس جورج لليونان ، ١٣ - موقع القصر الملكي السابق وأطلاله (بالاستناد إلى تقرير مديرية الآثار - قبرص) .

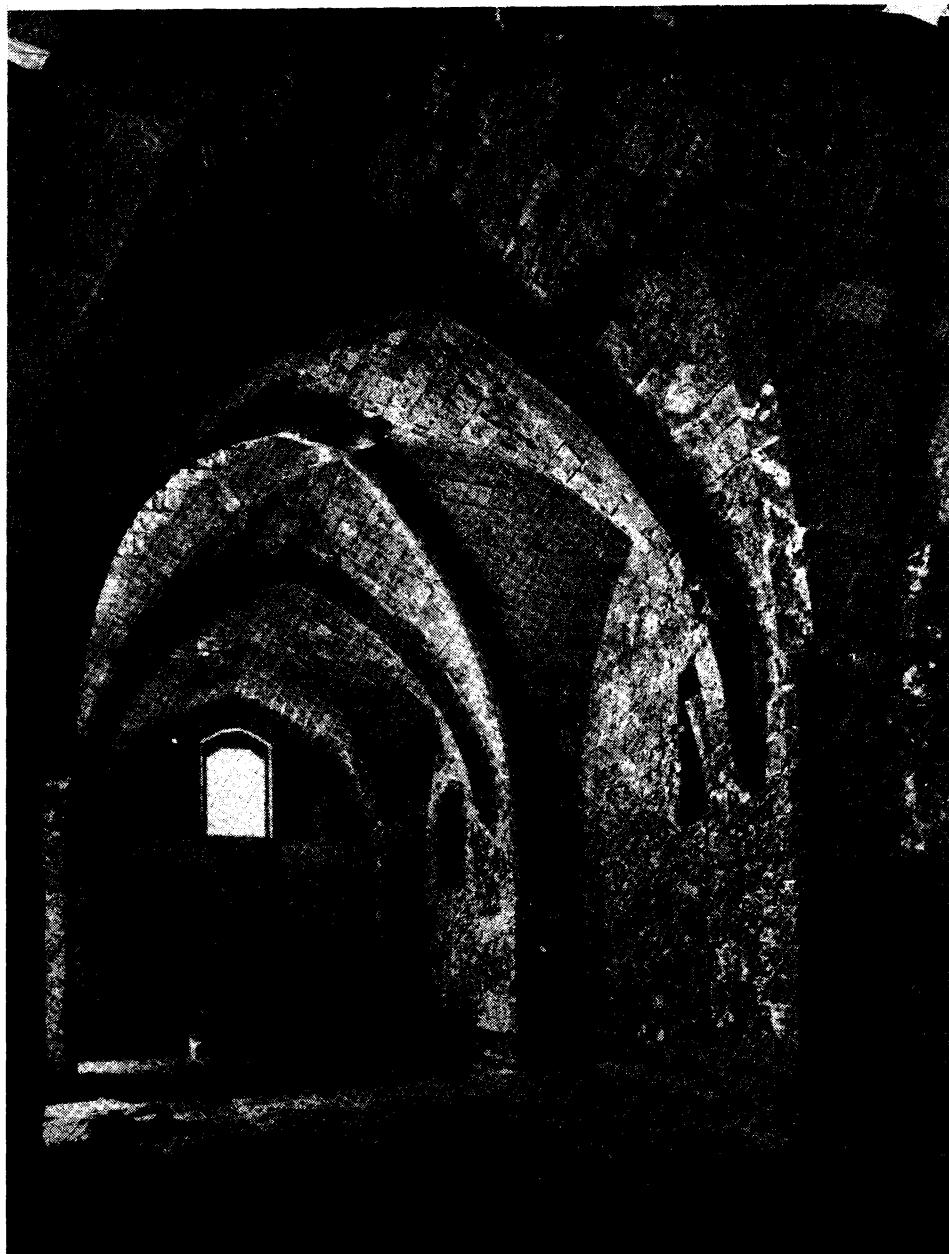


فِياغوستا : الامام - كاتدرائية القديس نيكولا

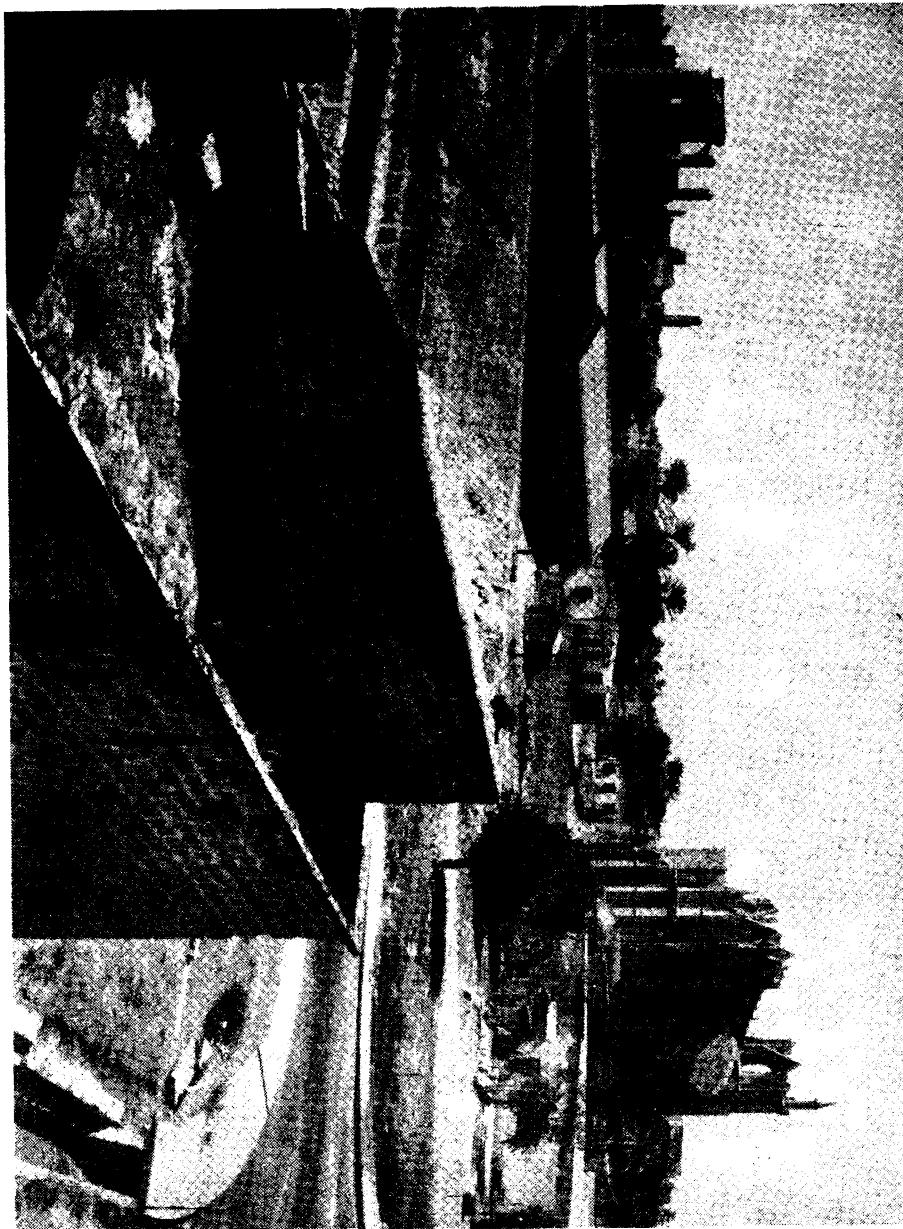


فاغوستا

الخلف - البوابة الرئيسية للقلعة. ويلوها أسد القديس مارك.



فاغوستا - الامام - غرفة الطابق الأرضي - على الجانب الشمالي لخصن البحر .



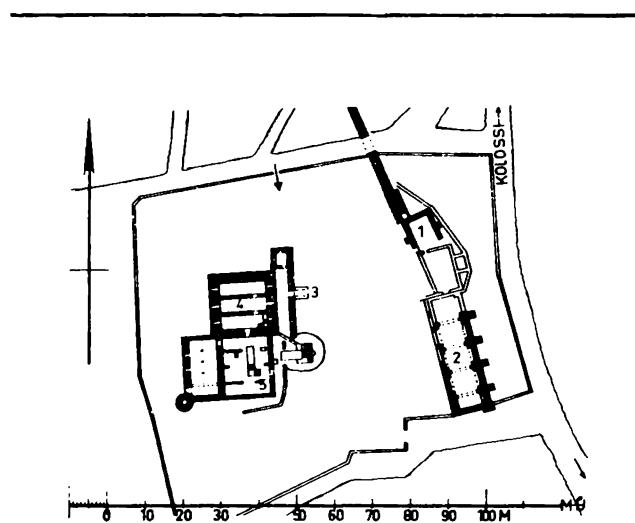
فاغوستا

الخلف - منظر حصن بوابة البحر - والى اليسار كاتدرائية القديس جورج.

سادساً : قلعة كولوسي^(١) .

هي قلعة تقع في قرية جنوب قبرص. وتبعد ستة أميال غربي ليماسول، على الطريق إلى بافوس. وقد زالت معظم معالم القلعة، ولم يبق منها سوى برجها المحسن الضخم. وتوجد إلى الجنوب من هذا البرج بعض مبان متهدمة. كما يقوم بناء ذو عقود مع اكتاف داعمة قوية - هو بناء معمل السكر سابقاً - مع أطلال مطحنة تكملها ساقية الطاحون، إلى الشرق من البرج المذكور مباشرة. وثمة صهاريج مياه في قبو البرج المحسن والمألف من ثلاثة طبقات، ومخازن في الطابق الأرضي، وحجرة استقبال - انتظار -. ومطبخ في الطابق الأول. وغرفة نوم بسقف ذو عقود في الأعلى. ولم تتوافر معلومات دقيقة عن القلعة الأولى التي شيدت في كولوسي. ولكن من المحتمل أن يكون الموقع قد شغل قديماً بعقل بزنطي صغير. إلا أن القلعة كانت موجودة بالتأكيد عندما قرر ملك قبرص منحها للفرسان الرهبان بعد أن طردتهم المسلمين من عكا ، فعمل مقدم الطائفة على جعل قلعة كولوسي مقراً له ، ومركزًا لممتلكات الطائفة الغنية التي كانت تضم العديد من القرى والكروم. وقد تعرضت كولوسي بعدئذ لاغارات الجنوبيين سنة ١٣٧٣ م وسنة ١٤٠٢ م ، ثم لهجوم المالك من مصر سنة ١٤٢٥ م. فعمل مقدم الطائفة على تشييد البرج المحسن (١٤٥٠ - ١٤٦٨ م) والذي حل إلى جانب شعار من بناء ، شعارات مملكة القدس وقبرص وأرمينيا وسواها. وقد أصابت هزة أرضية القلعة بأضرار بالغة سنة ١٥٦٨ م. وفي سنة ١٥٧٠ م ، انتقلت قبرص وممتلكات الطائفة إلى الأتراك العثمانيين الذين أعادوا بناء معمل تكرير السكر.

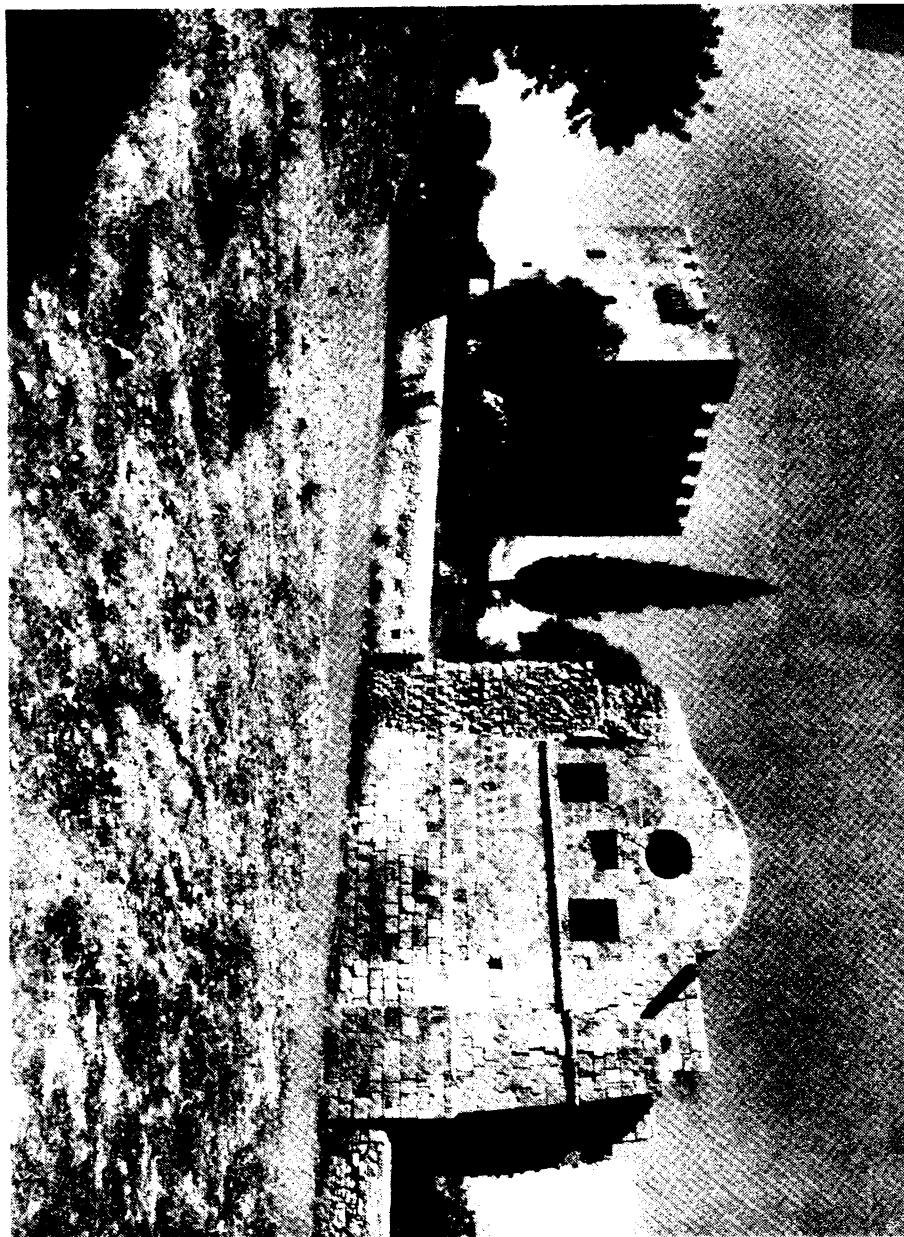
(١) كولوسي: (KOLOSSI) باليونانية، وبالفرنسية كولوسو: (COLOSSO).



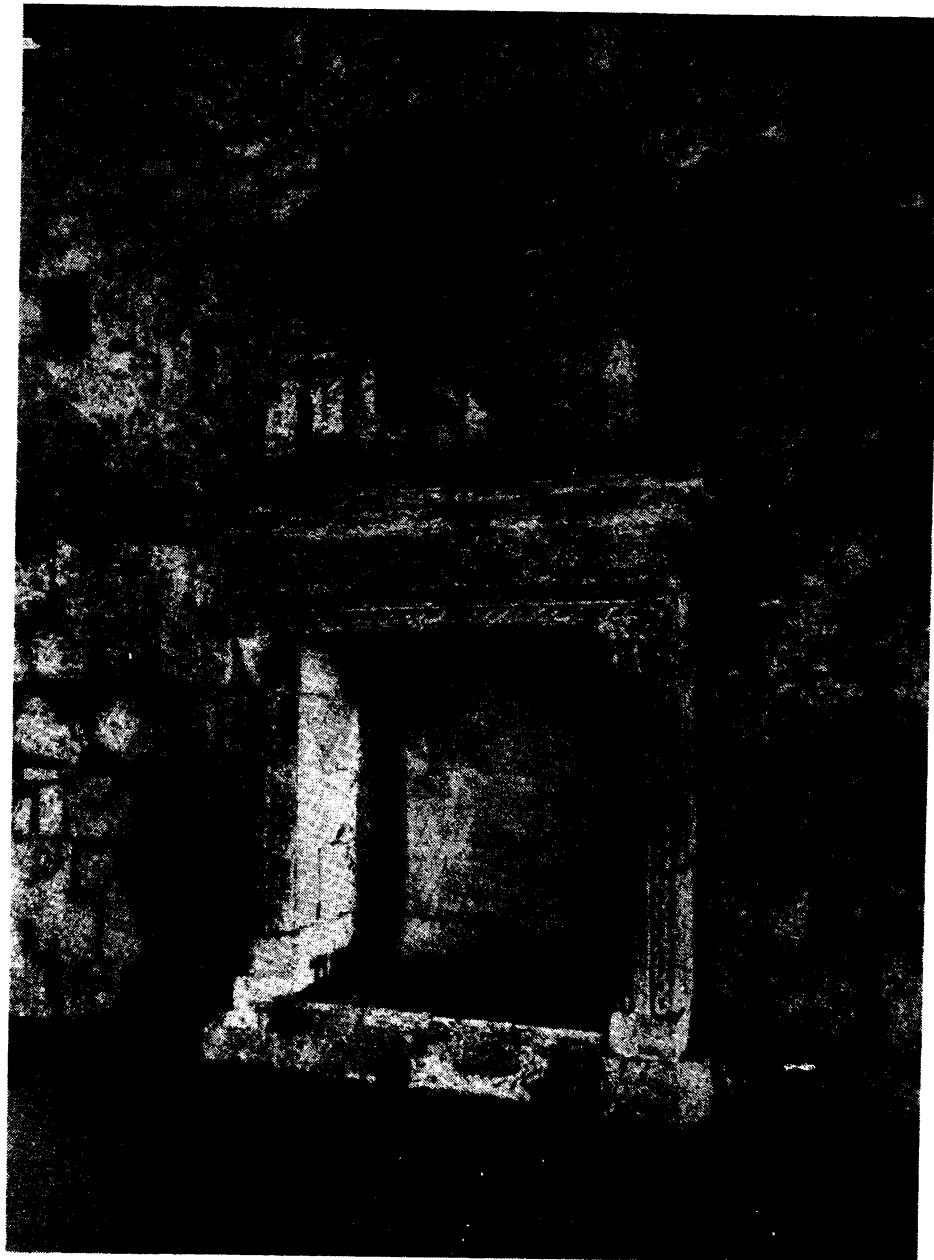
كولوسي
Kolossi

مخطط أرضي لأملاك الأسبتارية، المقياس ٢٠٠٠/١.

- ١ - الطاحون وساقية الطاحون، ٢ - معمل تكرير السكر السابق، ٣ و ٥ - مبان خارجية، ٤ - البرج المحصن.



كولوسى: الامام - منظر عام من جهة الجنوب الشرقي مع معمل تكرير السكر في مقدمة الصورة.

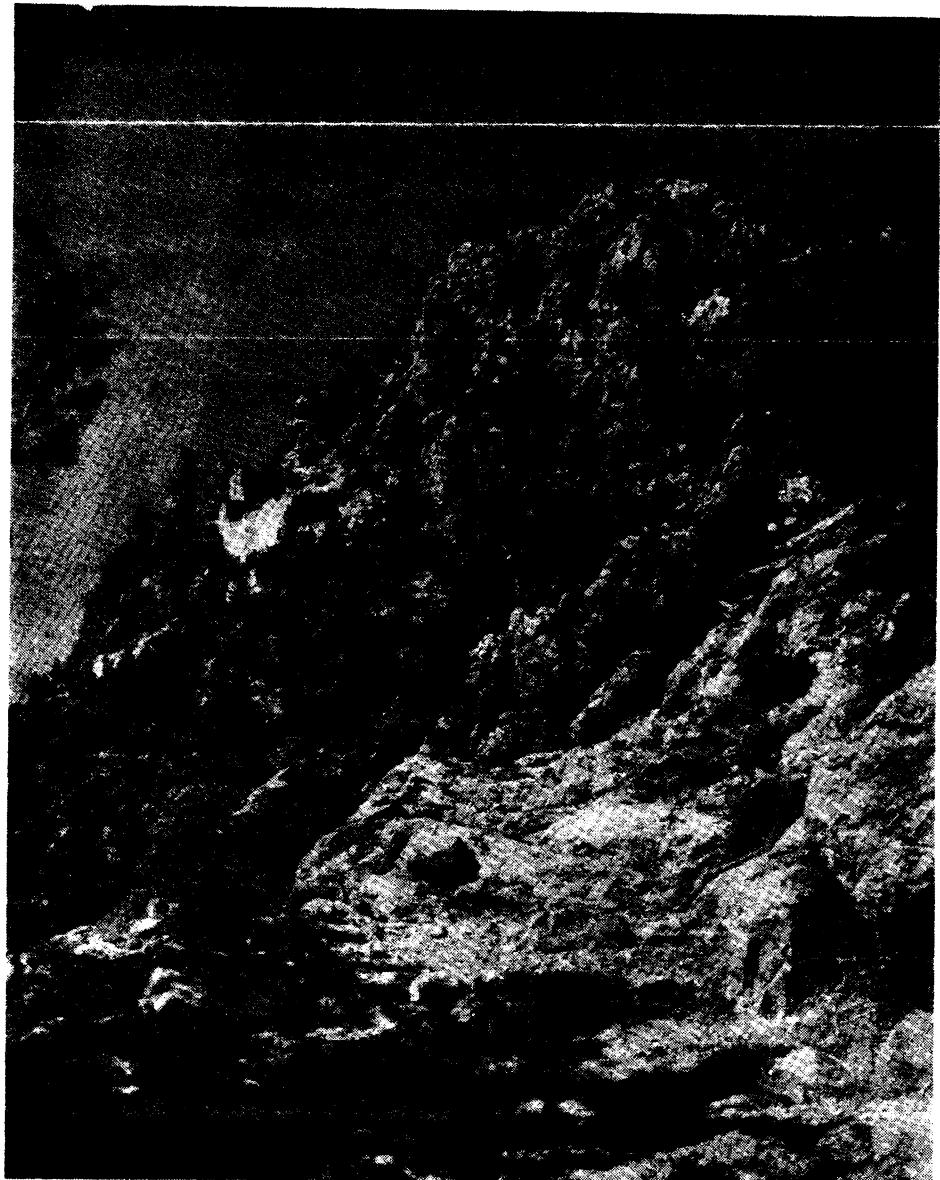


کولوسي

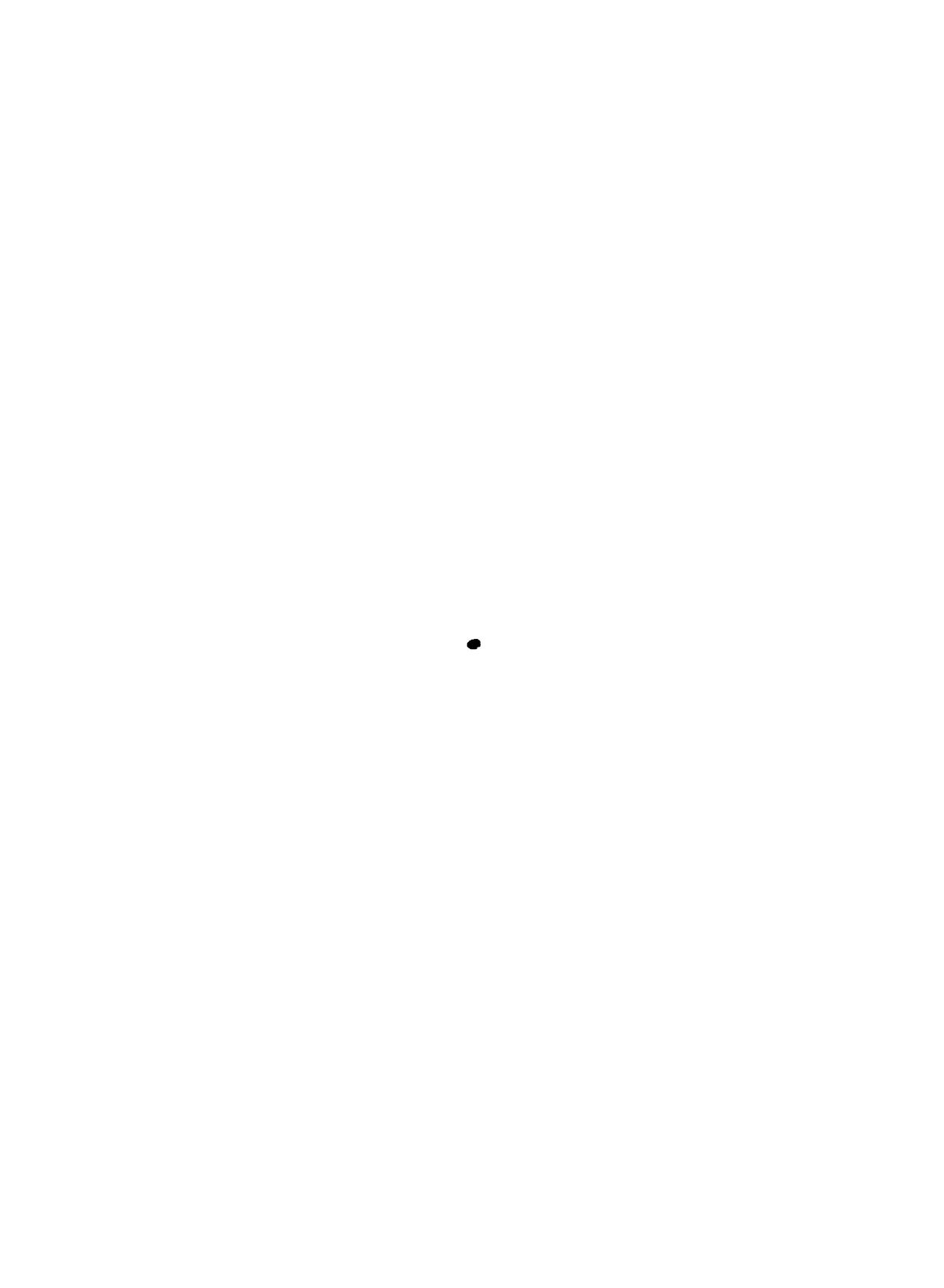
سابعاً : قلعة بوفافنتو^(١) .

وهي قلعة تقع على الساحل الشمالي من قبرص ، على بعد نحو ستة أميال إلى الجنوب الشرقي من كيرينيا . وقد تمركت القلعة بين الجروف شديدة الانحدار ، من السلسلة الشمالية ، على ارتفاع زاد على ثلاثة آلاف متر . وهي على اتصال مباشر بالنظر مع كيرينيا ومع قلعة القنطرة . وقد استخدمت لفترة طويلة ، بسبب موقعها الملائم ، مركزاً لاضرام النيران ، كإشارات انذار وتحذير ، عند اقتراب السفن الغريبة من الجزيرة . وهي تتألف من قلعة سفلية مبنية فوق السفح الجنوبي . وتحوي مخازن وأماكن لإقامة الحامية ، ومن قلعة علوية على ارتفاع ثمانين قدماً تقريباً عن الأولى . وقد صمم مخططها المحروم من التناقض والتناقض ليتكيف مع طبيعة الأرض الجبلية . ولقد كان دور قلعة بوفافنتو مشابهاً لدور سواها من قلاع قبرص وتحصيناتها .

(١) بوفافنتو : (BOUFFAVENTO) بالفرغية - وباللاتينية بوفيفنت : (BUFEVENT) وبوفافان : (BUFFAVENT) الخ ... كذلك تسمى ليونته : (LEONTE) وقصر الأسد : (CHATEAU DU LION) وقصر الملكة : (CHATEAU DE LA REINE) .



يوفاقنزو المظهر الجنوبي للأطلال



﴿قَاتُلُوهُمْ بِعِذْنِهِمُ اللَّهُ بِأَنْدِيَكُمْ وَيَخْرِمُونَ
 وَيَنْصُرُوكُمْ عَلَيْهِمْ وَتَشَفِّ صَدَّارَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ *
 وَيَدْهِبُ عَنْ يَظْ قَوْبِهِمْ وَتَرْبُّ اللَّهُ عَلَى مِنْ يَسَاءَ
 وَاللَّهُ عَلَيْهِ حَكْمٌ﴾ . صدق الله العظيم - الجزء العاشر
 - سورة التوبة - الآية: ١٤ و ١٥ .

الفصل الثالث

الحروب الصليبية وفن الحرب

- ١٠ - الصمود في حوار الارادات المتصارعة .
- ٥ - العامل الاقتصادي - والانسان المسلم .
- ٦ - قصة المعركة الإسلامية وتطورها .
- ٧ - التجربة التاريخية للحروب الصليبية .
- ٨ - إن في ذلك لذكرى من كان له قلب .
-
-
-
-
-
-
-
-
-
-

١ - الصمود في حوار الإرادات المتصارعة .

جاء الفرنج الصليبيون بثقل عددهم وعدتهم ، حاملين أحقادهم التي غذتهم بها الكنيسة البابوية زمناً طويلاً ، وكانت هجمتهم ثقيلة إلى درجة أذهلت كل ذات حل عن حلها ، وإلى حد أن وضعت كل انسان مسلم أمام ابتلاء لم يعرفه منذ ظهور الإسلام . وهذا ما يفسر ارتداد بعض المسلمين إلى النصرانية ، فالمسلم لا يرتد إلا إذا نزل به الروع ثقيلاً إلى درجة زادت عن قدرة احتفاله . وقد تناقل المسلمون ، في مدنهم وقرائهم ، في سهوهم وجبارتهم ، أبناء هجمة الفرنج الثقيلة ، وما رافق هذه الهجمة من مذابح وحشية ، وجرائم عجزت الأقلام عن تصويرها . وبالرغم من ذلك كله ، فقد أظهر العرض السابق لمسيرة الأحداث ، مدى الصمود الرائع لجمهور المسلمين . فقد اصطدم الفرنج الصليبيون بمقاومة عنيفة حيثما ساروا ، وحيثما اتجهوا . وكان صمود المسلمين للهجمة الصليبية رغم ثقلها وشدة وطأتها ، هو البداية فقط لخط المقاومة المتصاعدة . فقد قرر المسلمون ومنذ البداية ، أنه لا مكان على أرض المسلمين وفي بلاد الإسلام إلا للإسلام والمسلمين ، وأنه لا بد من لفظ هذا الجسم الغريب ، وإعادته من حيث جاء .

ولقد جاءت الأحداث والشهادة ، في كل مناسبة لتأكيد تصميم المسلمين على بلوغ هذه الغاية ، منها تطاول الزمن . وكان من أبرز هذه الشهادة :

- ١ - صناعة منبر المسجد الأقصى في حلب قبل إعادة فتح القدس بسنوات كثيرة .
- ٢ - توقيت كل هدنة تم عقدها بين المسلمين والفرنج بموعده محدد وزمن معروف . وكان هذا التوقيت يسجل بالنسبة للفرنج بالتاريخ الميلادي ، وبالنسبة للمسلمين بالتاريخ الهجري . ولهذا كان من الطبيعي ، ونظرًا لاختلاف عدد أيام السنة بين التقويمين الميلادي والهجري ، أن تحدد مدة الهدنة بالسنين والشهور والأيام . بحيث يتم استئناف الحرب مع انتهاء مدة الهدنة .

ومقابل ذلك ، فقد كان لدى الفرنج تصميم مماثل على تطوير هجومهم والاحتفاظ بما يمكن لهم الاستيلاء عليه من بلاد المسلمين ، وقد عبر هذا التصميم عن ذاته بشواهد كثيرة أيضاً منها :

- ١ - الابقاء على تسمية مملكة القدس ، وتناقل الناج الملكي وذلك بعد أن طرد المسلمين الفرنج من القدس وأزالوا وجودهم .
- ٢ - اغتنام كل فرصة ممكنة لتجريد حملات جديدة من أجل استعادة ما يفقده الفرنج في حروبهم مع المسلمين . وهكذا جاءت حملة صليبية بعد ضياع امارة الرها من الفرنج . وجاءت حملة ثانية بعد طرد الفرنج من القدس . وجاءت حملة بعد القضاء على وجود الفرنج في انطاكية .

وهكذا ، ومع توافر التصميم لدى الأطراف المتصارعة لبلوغ غايات متضادة ، كان من طبيعة الأمور أن يصمد الطرفان المتصارعان - المسلمين والفرنج - في مواقعهما ، لا تضعف من جندهما إرادة ، ولا تزعزع من قيادتها ثقة مجتمعيه بلوغ الهدف النهائي . فكانت الانتصارات والهزائم عبر مسيرة الصراع الشاقة والطويلة ، مجرد نقاط علام أو مؤشرات لمرحلة من مراحل الصراع لا أكثر ولا أقل . أما النتيجة النهائية ، فتقررها الإرادة الأكثر تصميماً ، والأصدق إيماناً ، والأشد عزماً ، فكان لا بد وبالتالي من استمرار الصراع المسلح ، وتصعيده ، كلما توافرت الضروف والامكانيات للطرفين المتصارعين .

لقد استمرت الحرب على أرض بلاد الشام زهاء متى من السنون ، لم تحمد جذوة الحرب فيها ، ولا انطفأت نار القتال . فكان كل عمل قتالي يصطدم بعمل قتالي مضاد ، وكان كل تحد يفرضه أحد الأطراف يصطدم باستجابة الطرف المقابل على هذا التحدي . ولم يعد أي من الأطراف المتصارعة يجهل قدرة الطرف المقابل ، أو ينخدع بأعماله ، أو يستسلم لنواياه ، وأدى ذلك بالضرورة إلى تعقيدات شديدة سواء في ادارة الحرب ، أو في ممارسة الأعمال القتالية (على مستوى العمليات) أو في خوض المعركة (على المستوى التعبوي أو التكتيكي) . وبات الاختبار الحقيقى للصمود في حوار

الارادات المتصارعة، هو في إضافة عوامل جديدة الى محصلة العوامل المتشابكة في صلب الصراع المسلح: مثل القدرة البشرية ، والقدرة الاقتصادية والقدرة السياسية . وإذا كانت المرحلة الأولى التي امتدت زهاء ثلاثة أرباع القرن - حتى معركة حطين - قد تميزت بروعة أعماها القتالية المجردة من المحاكمات السياسية ، فقد حللت المراحل التالية مزيجاً معقداً من العوامل المختلفة والتي كان يطفو بعضها على السطح ليحتل المرتبة الأولى في مجموعة عوامل الصراع ، ثم لا يلبث أن يتراجع ليفسح المجال أمام آخر . وخلال ذلك كله بقي خط الصراع المسلح ثابتاً ومستقراً ، يتمسك به كل طرف عندما تساقط أهمية العوامل الأخرى ، أو تنحسر ، بسبب وصولها إلى مآزق حقيقة لا يمكن حلها إلا بالعودة والاحتكام الى السلاح .

لقد كان من طبيعة الأمور ألا تتساوى أو تتعادل إرادة الصراع على جبهي الصراع ، بل وحتى على الجبهة الواحدة ، سواء بسبب الاختلاف في تقوم المواقف ، أو بسبب التباين في وجهات النظر من هذه الموقف ، أو حتى لأسباب شخصية . مما كان يؤدي الى الصراع داخل الجبهة الواحدة . وإذا كانت انتصارات الفرنج في المرحلة الأولى قد أخفت كثيراً من تناقضات الفرنج ، وصراعاتهم ، واختلافاتهم ، وحتى فضائحهم التي كمنت في صلب الكنيسة - أدلة التحرير - فإن ذلك قد طفع على السطح بوضوح في المراحل التالية ، وهو ما عبرت عنه باسهام التقارير التي جمعها البابا غريغوري العاشر ، والتي تحدثت باسهام عن « المنازعات بين الملوك والنبلاء ، وفساد رجال الدين ، وسوء استخدامهم صكوك الغفران . واقدام رجال الكنيسة على انفاق الأموال في اقتناء الخيول الفارهة ، والقرود الأليفة . وعدم اسهام رجال الدين بتأدية الفرائب الالزمة لتمويل الحملات الصليبية » .

ولهذا لم يكن أمراً غريباً أن يتحدث شاعر الفرنج - همبرت - بمرارة وحزن: « عن ضياع المزايا الروحية التي وعد بها المحارب الصليبي » . وأن يعلن كثير من الشعراء الغنائين - التروبادور - في قصائدهم التي حظيت بانتشار واسع في وسط المحاربين الصليبيين: « بأنه لم يعد لله أهمية في الحروب الصليبية » . وأنه « لافائدة

من المضي في الاستسلام لما اعتقده من أمثال الملك لويس التاسع - من أن المزائيم والاهانات هي في مصلحة النفس».

ولقد سار الأمر على النقيض من ذلك على جبهة المسلمين. فقد حدثت اخترافات كثيرة، غير أن الانتصارات قد عملت هنا بدورها على إذابة وصهر التناقضات، والقضاء على الخلافات. وكانت المنافسة مستمرة بين امراء المسلمين وملوكهم - عامة - لتقديم البدائل الأفضل والحلول الأمثل. وكان لجمهور المسلمين دوره الأساسي والحادي في دعم ارادة الصمود. فإذا كانت هذه الإرادة تتغذى لدى الفرنج الصليبيين من امثال رؤساء رجال الكنيسة، والملوك والأمراء - الذين كان يفتقر معظمهم للأخلاق والصدق. فقد كانت هذه الإرادة تتغذى لدى المسلمين من جمهور المسلمين ذاته ، الذي كان يوجه أعمال الملوك والامراء والسلطانين. ويرفدها بالدعم القوي ، وفقاً لما أبرزته الواقع والأحداث على امتداد صفحة الحروب الصليبية. ومن هنا جاء الاختلاف الحاسم في موارد إرادة الصراع بين إرادة تأتي - اغراء وفرضياً من القيادة - وبين ارادة تنبع من الأعماق في وسط القاعدة الكبيرة لدى جاهير المسلمين. ولقد حقطت الأوابد التاريخية لل المسلمين شواهد مثيرة ومذهلة عن مواقف جاهير المسلمين في مختلف الحالات. فقد كانوا يتحدون ثقتهم دونما حدود ، لمن يعمل مخلصاً في جهده وجهاده ، ويحجبون ثقتهم ، ويكتنون عن دعم كل مقصراً أو متهاون - وكان ذلك يدفع سلطانين المسلمين للمزيد من المنافسة من أجل الحصول على دعم المجاهدين في سبيل الله ، وتأييدهم ، واكتساب ثقتهم. وإذا ظهر في وسط الفرنج رجال توافرت لهم فضائل الصدق في القول والأخلاق في العمل. من أمثال الملك لويس التاسع -. فان قائمة ملوك المسلمين الذين ضارعواه في فضائله ، ونافسوا بتفوق كبير في صدقه واخلاصه هي أكبر من أن تدخل في حصر . ولم يكن عماد الدين زنكي ونور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي والظاهر بيبرس والمظفر قطوز والسلطان قلاوون والأشرف خليل ، سوى رجال احتلوا ذروة هرم ضخم من الامثليات الرائعة التي لم تجد لها نداً عند الفرنج.

لقد كان الصراعسلح على أرض أندلس المسلمين مجالاً للاحتكاك الدائم. وقد

عكفت الكنيسة على جمع المعلومات من شبكات جاسوسيتها المنتشرة في كل مكان ، عبر الأديرة والكنس . فحاولت عند تنظيم الحملات الصليبية محاكاة المسلمين في طرائقهم وعقائدهم . ولم تكن قصة (صكوك الغفران) و (فرض الصوم في أيام معينة) سوى محاكاة للفرائض التي جاء بها الإسلام . وهنا ظهر الفارق المميز بين ما أنزله الله فوق في قلوب المؤمنين وعقوّلهم ، وبين ما وضعه الناس ، فأثار حماسة بعضهم إلى حين ، وفتن عقول آخرين إلى حين أيضاً ، وعندما ازاحت الغشاوة ، وتسقطت الأقنعة الوضعية ، ظهر زيف ما وضعه الإنسان وأصالته ما أنزله الله . واصطدم الباطل بالحق ، فانتصر الحق ودفع الباطل وأسقطه .

كان اعتقاد المسلمين في حروبهم الصليبية - كما كان شأنهم دائماً - على عاملين أساسين الاخوة الإسلامية في الله ، والالتزام بفرضية الجهاد في سبيل الله . وهذا مما ساعد المسلمين على الاستعانة بعضهم ببعض ، وشد أزر بعضهم البعض . وكان فرسان المسلمين ينطلقون من خوارزم - من أقصى الشرق ليরددوا إخوانهم في الشام . فكان في ذلك بعض عدتهم في الصمود عبر حوار الارادات المتصارعة .

رب قائل : وكيف كان المسلمين يعتمدون في حروبهم على شد أزرهم بعضهم البعض ، وهم الذين كانوا يقتلون كلما توافرت لهم فرصة للاقتال ؟ ثم ألم يحدث في مرات كثيرة أن تعاون المسلمين والفرنج ضد المسلمين ، على نحو ما حدث عندما سارت جيوش بلاد الشام مع الفرنج لقتال المسلمين المهايلك في مصر ؟ ثم هل كانت هذه الميزة حكراً على المسلمين ووقفاً لهم ، أم شاركهم فيها الفرنج الذين عملوا جميعاً تحت راية الصليب ؟ للرد على مثل هذه التساؤلات يمكن العودة إلى مسيرة الأحداث والواقع ذاتها ، فعندما سارت الجيوش الإسلامية جنباً إلى جنب مع الفرنج ، ووقفت في تنظيم القتال ، رفضت جاهير المسلمين حل السلاح بعضها ضد بعض ، فهرب جيش حص وهرب جيش الكرك ، وهرب جيش دمشق ، وترکوا جيش الفرنج وحده في مواجهة مسلمي مصر . والأمثلة بعد ذلك كثيرة . أما فيما يتعلق التزام المسلمين بفرضية الجهاد في سبيل الله ، فالأمثلة بدورها واضحة في كل موقف وفي كل معركة . إذ لو لا

هذا الالتزام ، لما تمكّن المسلمين من متابعة الصراع رغم الاحباطات المستمرة - لاسيما في المرحلة الأولى - ورغم ظواهر الوحشية التي لازمت هجمات الفرنج والمغول على السواء ، فأعمال الاستباحة والابادة الاجاعية والنهب والتدمير كافية لالقاء الروع في قلوب جميع الناس . إلا من عصم الایمان قلبه من الخوف فكانت إحدى الحسينين هي هدف وجوده وغايته ، وكان هؤلاء من الكثرة مما جعل من المحال على الفرنج وأحزاهم القضاء على الإسلام وأهله .

هذا لا يعني بداعاه أن الكنيسة - وسلطنة البابا - لم تفلح في توحيد جهد الفرنج تحت راية الصليب . وخلق نوع من الاخوة بين رفاق السلاح . غير أن هذه الاخوة بقيت محكومة بالصلحة الدينوية . فكان مثلها كمثل الاخوة التي نشأت بين المسلمين والفرنج في ظروف معينة ، فلما ظهر زيف هذه المصلحة ، أو انهارت عوامل تكوينها ، زالت الاخوة . وهذا ما تصوره بوضوح عمليات تدمير القسّطنطينية على أيدي الفرنج الصليبيين ، وكذلك قيام الفرنج بغزو قبرص ونهبها . بالإضافة إلى تلك الصراعات المستمرة بين الجنوبيين والبنادقة وبينهم وبين فرنج الغرب . ثم هل كان الحصول على (صكوك الغفران) وبيعها أكثر من غطاء مادي لتغطية الافتقار للإيمان الحقيقي . إذ لو كان الحافر هو الإيمان الحقيقي لما كانت هناك حاجة للصكوك المادية لتشيّط العلاقة بين الإنسان وربه على أيدي تجار الصكوك .

هذا لا يعني بداعاه عدم توافر إرادة الصراع لدى الفرنج ، إذ لو لا هذه الارادة لما سارت جموع الفرنج من كل فج عميق من أرجاء الغرب للوصول إلى فلسطين . ولو لا هذه الارادة لما ظهرت إرادة الحوار لدى الأطراف المتصارعة ، ولا تنتهي الصراع بمجرد انتصار أحد الأطراف . ولكن الصمود والاستمرار عبر أجيال متتالية حتى بلوغ المدف هو المقياس لقوة الارادة . وقد برهن المسلمون أنهم هم الأقوى .

٧ - التوازن الاستراتيجي - والتفوق .

انتصر الفرنج الصليبيون انتصاراً حاسماً بقواتهم المعاونة، على قوات المسلمين المتفرقة. فأقاموا إماراتهم وملكتهم على أرض بلاد الشام، وذلك خلال السنوات الأولى من هجومهم الشامل. وانصرف أمراء المدن المسلمين في بلاد الشام لتنظيم الدفاع ضد الوافدة الجديدة، وأخذت الحرب بين الفرنج والمسلمين شكل حرب استنزاف حقيقة بين هذه الوافدة التي تحاول التوسيع والانتشار ، وبين قوات المسلمين التي حاولت حصار قوات الوافدة في حدود معينة، غير معترف بها ، ولكنها تشكلت بما فرضته القوة من واقع. ولهذا أخذ الصراع خلال هذه المرحلة يتركز حول هذه الحدود التي مثلتها القلاع والتحصينات.

وأفاد المسلمون من تفوقهم الكبير في أساليب الحرب الهجومية - أو حرب الحركة - لحرمان الفرنج من حرية العمل العسكري، وذلك من خلال التوسيع بأعمال الكمان والاغارات.

فأمكן خلال سنوات قليلة استنزاف قوة الفرنج الصليبيين، وطردهم من أول إمارة أقاموها على أرض بلاد الشام - وهي إمارة الرها -. ولقد كان انتصار المسلمين - رغم أنه لم يحظ كثيراً باهتمام الباحثين والمؤرخين - في القدم والحديث - انتصاراً ضخماً لا يقل في حجمه واتساعه عن انتصارهم في حطين أو في عين جالوت. فقد عرف المسلمون من خلاله أن باستطاعتهم الانتصار على هذه القوة التي ظهرت للوهلة الأولى بأنها قوة لا تقهـر . كما عرف الفرنج أن انتصار المسلمين في الرها هو بداية تحول حاسم سيتطور بسرعة ، فبادروا لارسال حلتهم الصليبية الثانية.

وكان انتصار المسلمين في الرها مؤشراً على حدوث نوع من التوازن

الاستراتيجي في القوى. فكانت الحملة الثانية هي من أجل تحطيم هذا التوازن، وإعادة الفرنج إلى الموقع المتفوق الذي احتلوه في هجومهم الأول.

وأدرك أمراء الموصل - الزنكيون - أنه لا بد من التحرك - سراعاً - للمحافظة على هذا التوازن، وذلك بإضافة قوى جديدة في إطار جهد موحد. مع الاستمرار في استنزاف قوة الفرنج. وهكذا أخذ العمل منذ هذه المرحلة شكلاً مميزاً وأكثر تعقيداً مما كان عليه في المرحلة السابقة.

إذ انتقل العمل ليشمل جبهتي الصراع، فكانت كل إضافة لقوى المسلمين تساعد على تحقيق المزيد من الاستنزاف لقوى الفرنج. كما كان كل استنزاف لهذه القوى يضيف رفداً جديداً يساعد على الاحتفاظ بالتوازن الاستراتيجي.

وبذلك تم توحيد قوى المسلمين في بلاد الشام تحت راية الجهاد في سبيل الله والتي حمل لواءها الزنكيون. وعندما حاول الفرنج الفرار من الضغط الذي يتعرضون له في بلاد الشام، إلى منطقة الضغط الأضعف - في مصر - بادر نور الدين زنكي لارسال الحملات المتتالية إلى مصر (وهي ثلات حлат على نحو ما سبق عرضه). وبذلك أمكن فرض الحصار على امارات الفرنج، وتم تقييد حرية عملهم العسكري. وقد تأكّدت حقيقة وصول المسلمين إلى مرحلة التوازن الاستراتيجي من خلال إحباط الجهد الذي بذلته الحملة الصليبية الثانية لإعادة الفرنج لموقع التفوق. واستمر المسلمين في استنزاف قدرة الفرنج، وتدمير قواتهم تدميراً منهجاً منظماً، حيث أمكن حصرهم في الشمال، وانتزاع عدد كبير من الخصون والقلاع التي سيطروا عليها في هجومهم الشامل الأول.

جاء الأيوبيون - بقيادة صلاح الدين يوسف بن أيوب - وقد أصبح سبيل العمل واضحاً. وأصبح النهج محدداً. وقد حاول الفرنج بأكثر ما يستطيعون، تحقيق أهداف ثلاثة: أولاً توسيع مجال حرية العمل العسكري - فكانت الهجمات على الجليل، وفي الشمال، وغزو البلاد المقدسة - الحجاز - تعيناً عن الضيق الذي كان يفرضه المسلمون على الفرنج والذي حرم الفرنج من استخدام قدرتهم القتالية. وثانياً - الحصول على موارد اقتصادية زراعية وغمونية وبشرية تساعد على دعم القدرة القتالية وتأمين

متطلباتها . وقد تمثل ذلك بهجوم الفرنج على القوافل التجارية للمسلمين ، وعلى قراهم ومزارعهم ، ونهبها . وثالثها - حرمان قوات المسلمين من ميزةها الأساسية وهي تفوقها في حرب الحركة - الهجومية ، وذلك بالظهور في مناطق الضغط الأضعف ، مثل هجومهم على دمشق خلال فترة وجود صلاح الدين وجيشه في بلاد الشام . ومثل محاولة قطع حركة الاتصال المستمر بين بلاد الشام ومصر . وكان رد صلاح الدين واصحابه وتمثل بما يلي :

أولاً - متابعة استنزاف قدرة الفرنج الاقتصادية والبشرية ، بتنظيم هجمات متتالية على - ممتلكات الفرنج - سواء في الجليل ، أو في الشمال (حول انطاكية) للقيام بتدمير القرى واحراق الحقول والمزارع ، ونهب كل ما يمكن أن يفيد الفرنج ويدعم قدرتهم القتالية .

ثانياً - متابعة حشد قوى المسلمين وزجها في إطار قوة متكاملة . وتنظيم أعمالها بصورة متناسقة .

ثالثاً - عدم الانسياق - أو الرد - لما كان الفرنج يخططون له ويعملون . فعندما بلغه ما قام به الفرنج - وهو في شمال بلاد الشام - من أعمال تدميرية ونهب في الجنوب ، لم يتحول عن هدفه ، وأطلق مقولته الشهيرة : « يملكون قرى ويخربونها ، وملك مدناً نتقوى بها عليهم » .

وقد عبرت هذه المقوله عن عامل التوازن الاستراتيجي : تدمير القدرة القتالية للعدو - البشرية والاقتصادية والمعنوية - وإضافة قوى جديدة لجبهة المسلمين .

وقد يكون من المناسب هنا الإشارة إلى أن العمل على الجبهة الداخلية للعدو قد شمل الإفادة من التناقضات بين مراكز قوى العدو وضرب بعضها ببعض لاضعافها جيئاً ، مما يزيد بالتالي من قدرة المسلمين . وقد عمل نور الدين محمود بن عياد الدين على الإفادة من أمير الأرمن ودعمه ببعض قوات المسلمين لتدمير القوى المضادة في أرمينية . وكذلك فعل صلاح الدين الأيوبي عندما أفاد من كونت طرابلس ريموند للعمل ضد الفرنج مما أدى إلى انتصار المسلمين في صفورية - على الداوية

والاستراتيجية - قبل معركة حطين مباشرة. وقد أدرك الزنكيون ومن بعدهم الأيوبيون أن ما يكنى تسميتها - بالتوازن الاستراتيجي في المصطلحات الحديثة ما هو إلا مرحلة مرنة ومتحولة للوصول إلى التفوق وأن التفوق والمحافظة عليه هو الهدف ، وهذا فعندما أدرك صلاح الدين أنه أحرز هذا التفوق ، صمم على زج القوى في حطين. وقاوم رغبات أمرائه الذين أرادوا الاستمرار في حرب الاستنزاف ، وتجنب زج كل قوى المسلمين ضد كل قوى الفرنج. وقد أكد ذلك الحوار والنقاش الذي دار في المؤتمر السابق لليوم حطين ، أن أمراء المسلمين قد عرّفوا أهمية حرب الاستنزاف للابقاء على التوازن الاستراتيجي ، فقد كانت حرب الاستنزاف هذه ، واستباقاتها الضاغطة ، تزيد في كل يوم من قدرة المسلمين ، وتضعف يوماً بعد يوم من قدرة الفرنج . ولهذا فقد اعتقد الامراء الذين أيدوا فكرة الاستمرار في حرب الاستنزاف أنه بالمستطاع تدمير قوات الفرنج دونما حاجة للبحث عن الجسم في الصراع المسلح. أما صلاح الدين فقد عرف أن التوازن ما هو إلا مرحلة للوصول إلى التفوق . وأن تأكيد الوصول إلى هذا التفوق لا يتحقق إلا من خلال المعركة الخامسة. ومقابل ذلك ، فقد عرف الفرنج أنه لا قبل لهم بمتابعة حرب الاستنزاف ، إذ كانوا يخسرون كل يوم من القوى ما لا يستطيعون تعويضه ، وقد أكدت مناقشات الفرنج التي سبقت حطين أن قادتهم كانوا يبحثون عن المعركة الخامسة ، لا جنباً في المعركة أو رغبة فيها ، وإنما تعلقاً بأمل أن يؤدي الجسم إلى إيقاف الاستنزاف . وكان ذلك يعني ببساطة أن الفرنج كانوا يجهلون حقيقة الموقف على جبهتي الصراع ، فيما كان أمراء المسلمين وقادتهم يعرفون عن قناعة ، ويدركون عن وعي ، متاحلات الصراع في كل مرحلة من المراحل .

خلف المسلمين وراءهم ، على ذرى حطين ، مسألة التوازن الاستراتيجي ، فقد تم لهم تدمير الكتلة الرئيسة لجيوش الفرنج ، ولم يبق في مدنهم وحصونهم وقلائعهم إلا الحمايات الدفاعية المحرومة من القدرة الحركية . وبات باستطاعة الجيوش الإسلامية تحقيق التفوق في كل موقع ، فانطلقت جيوشهم تجوب بلاد الشام من أقصاها إلى أقصاها وهي تجتاح كل ما تستطيع اجتياحه . وذهل الغرب لهذا التحول ، رغم أنه كان متوقعاً ، إذ كانت نذرته وبواكيه قد أثبتت منذ عهد بعيد بحدوثه . فقذفت انكلترا

وفرنسا وألمانيا وسائر دول الغرب بتجمع صليبي جديد في محاولة لإعادة التوازن المفقود . واستطاعت هذه الحملة الصليبية الضخمة تمجيد الأوضاع . غير أنها لم تتمكن من سلب المسلمين موقع تفوقهم ، ولم تتمكن من رفع قدرة الفرنج إلى موقع التوازن الاستراتيجي . وعاد المسلمون إلى استئثار تفوقهم في أساليب العمليات وفي تفوقهم التعبوي - التكتيكي - لاستنزاف قوة الفرنج في معارك متتالية واشتباكات مستمرة .

وتبع الفرنج ارسال موجات الدعم المتتالية ، والحملات المتتابعة ، غير أن الاستنزاف المستمر - مادياً ومعنوياً ، اقتصادياً وبشرياً - لم يترك للفرنج فرصة بناه قوة جديدة تساعد على استعادة التوازن . وهكذا أخذت المدن والقلاع في العودة إلى أصحابها المسلمين . وأدرك ملوك الغرب ، وامرأته ، ومقاتليه ، أن المشروع الصليبي هو مشروع خاسر ، ولا يحقق الفائدة المرجوة ، وأنه من المحال إمداده بالقدرة المستمرة ، ولهذا فعندما جاءت الضربات النهائية ، لم ينهض أحد من ملوك الغرب لإنقاذ ما كان قد بقي للفرنج من وجود على أرض بلاد الشام . وأخت من على الأرض وزالت حتى بقايا قوات الفرنج .

لقد حاول الفرنج ، عندما فقدوا توازنهم الاستراتيجي ، استعادة هذا التوازن باستخدام سياسة استراتيجية مزدوجة ، **أو لها تحزنـة جبهـة العالم الإسلامي وتفتيـتها من الداخـل ، سـواء بالمجـوم عـلـيـها مـباـشرـة** - وذلك بتوجيه الحملات إلى مصر لعزلها عن بلاد الشام - وهي الحملات التي تم تدميرها مرّة في دمياط والثانية في المنصورة . أو بواسطة استخدام بعض مراكز القوى الداخلية (مثل تحالف لويس التاسع مع الباطنية - الإسماعيلية) . أو بواسطة استئثار التناقضات بين أمراء المسلمين وحكامهم . غير أن هذه السياسة فشلت أمام صمود المسلمين . أما ثانـيها - فهو قـذـف قـوات من خـارـج سـاحة المـعرـكة . وإذا كان وـقـود الصـلـيـبيـة قد عـجز عـن اـمـداد آـلـة الـحـرب بـمـتـطلـباتـها . فقد تكون قـوـة المـغـولـ التـتـارـ قادرـة عـلـى تـأـمـين الـوقـود الـلـازـم لـاضـعـاف الـإـسـلـامـ والمـسـلـمـينـ . وهـنـا كان دورـ المـسـلـمـينـ في مـواجهـةـ التـتـارـ ، مـاثـلاًـ لـدورـهـمـ في مـواجهـةـ الـفـرنـجـ . فقد انطلقـ المـغـولـ التـتـارـ بـجـهـافـهـمـ الضـخـمةـ منـ جـوـفـ آـسـياـ . وأـمـكـنـ لهمـ اـجـتـياـحـ سـيـبـيرـياـ وـأـورـوبـاـ الشـرـقـيةـ بـسـرـعـةـ مـذـهـلةـ وـيـقاـوـمـةـ لـاـ تـكـادـ تـذـكـرـ . ولكنـ هـذـهـ

الجحافل اصطدمت منذ انطلاقتها بالقوات الإسلامية في أقصى الشرق. وحملت الدولة الخوارزمية عبء المواجهة الأولى، حيث دارت معارك ضارية، استنزفت كثيراً من قدرة المغول. وعلى الرغم من استخدام المغول التمار الأسلوب الوحشية كالإبادة والتدمير لكل ما على سطح الأرض من مظاهر الحياة، بهدف ادخال الرعب في قلوب المسلمين، وحملهم على الاستسلام دونما مقاومة. إلا أن هذه المقاومة لم تتوقف، وقد كان من الغريب حقاً - بالنسبة للفرنج والمغول على السواء - أن تصمد المدن الإسلامية في وجه المغول التمار، وأن تقاوم جحافل البربرية، قدر استطاعتها بل وبأكثر من استطاعتها ، رغم معرفتها بما ينتظرها على أيدي الغزاة التمار.

وهكذا استمر المسلمون في استنزاف قدرة التمار واضعافها حتى إذا ما وصل سيلهم إلى فلسطين، كان قد بلغ غايته. وهذا لا يعني أن المغول في هذه المرحلة قد فقدوا كل قوتهم. ولكنهم وصلوا إلى مرحلة التوازن الاستراتيجي مع جيش مصر. وجاء تفوق المسلمين في أساليب العمليات لينقل المسلمين من موقع التوازن إلى موقع التفوق الاستراتيجي. فقد أعد المظفر قطوز جيش المغول كميناً في التلال المحاطة بعين جالوت، وعمل على استدرج خصميه المغولي كتبغا إلى موضع الكمين، وعمل على تدمير جيشه وإبادته. فكانت هذه المعركة من المعارك الخامسة التي لم يشهد تاريخ فن الحرب إلا نادج قليلة لها (مثل معركة كاني بقيادة هاني بعل) حيث تم تدمير جيش بكامله في كمين محكم. ولقد حاول هولاكو بعد ذلك استعادة التوازن المفقود. كما حاول خليفته (الإيلخان أباقا - أو أباكه) استعادة هذا التوازن عندما زجَّ جيشاً من مائة ألف مقاتل. إلا أن هذا الجيش لم يتمكن من تجاوز حدود سوريا الوسطى (حص). حيث تعرض الهجوم الجديد لما كان قد تعرض له جيش كتبغا في عين جالوت.

لقد برهنت هذه التجارب بمجموعها على أن قضية التوازن الاستراتيجي، في الحروب الصليبية القديمة لم تكن قضية جامدة، بل إنها تميزت بكل الخصائص الملازمة لضمون التوازن الاستراتيجي، وأهمها: المرونة، والتحول، والمرحلة. وتعني المرونة هنا التكيف مع الظروف الزمنية والمكانية لمسرح العمليات. ويعني التحول أنه باستطاعة أحد

الأطراف اختيار وسائل العمليات المناسبة لضعف قوة خصميه ودعم قدرته الذاتية على حساب خصميه .

أما المرحلية فتعني أن التوازن الاستراتيجي ليس غاية في ذاته ، وليس مرحلة يمكن التوقف عندها ، وإنما هو عتبة للوصول إلى موقع التفوق .

ولقد برهن العرض السابق أن المسلمين لم يحاولوا أبداً الموازنة بين حجم قوى العدو ، وحجم قواتهم الذاتية . إذ أن رصيدهم المعنوي الهائل - الإيمان - وثقتهم المطلقة بتفوقهم في أساليب العمليات كان هو المعاوض لهم عن تفوق العدو - العددي - . ويفسر ذلك صمود المسلمين أمام ثقل الهجمات التي تعرضوا لها ، وتجاوزهم للمحن والكوارث التي نزلت بساحتهم . وهذا لا يعني أنهم كانوا يهملون قضية التفوق المادي بدلالة اهتمامهم بتأمين أكبر حشد ممكن من القوى البشرية المقاتلة للوصول إلى التوازن مع العدو ، ثم تجاوز هذا التوازن إلى مرحلة التفوق . وهنا وفي مجال البحث عن التفوق بالقوى يمكن الإشارة إلى ما اتباهه الظاهر بيروس في مواجهة التفوق الكبير للمغول ، فقد أفاد بيروس من المسلمين التار (القبيلة الذهبية بقيادة الخان بركة) ووجههم ضد المغول الوثنين . ولم يكن ذلك إلا تطويراً للتحالفات التي استخدموها المسلمون في مرات كثيرة ضد الفرنج الصليبيين ، من أجل تأمين التوازن الاستراتيجي لا على مستوى جبهة الصراع - في بلاد الشام - وإنما على المستوى الاستراتيجي الشامل .

يظهر ذلك أن قضية (التوازن الاستراتيجي) في الحروب الصليبية القديمة قد أخذت شكلاً معقداً ، شمل التحالفات العسكرية ، كما شمل كافة عوامل الصراع ، الاقتصادية والمعنوية والبشرية والاستعداد القتالي ، والفضائل الحربية للمقاتلين . وكان تفوق المسلمين في تطبيق مبادئ الحرب: المبادأة والمباغة وأمن القوات ، والتأمين الإداري للقوات ، ثم مهاراتهم الكبيرة في أساليب حرب الحركة ، واستخدام القدرة الحركية في الهجوم ، هو العامل الأساسي والحاصل الذي استنزف القدرة القتالية للفرنج ، ثم للمغول ، ونقل المسلمين من موقع الدفاع الاستراتيجي ثم إلى موقع التوازن ، ثم إلى موقع الهجوم الاستراتيجي الشامل . ولقد اعتمد المسلمون في حربهم الطويلة الأمد على

محصلة العوامل الخارجية والداخلية. غير أن اعتقادهم الأساسي بقي ثابتاً وهو الاعتماد على الصراع المسلح باعتباره الوسيلة الوحيدة لحل التناقضات التي بقيت ملزمة للحروب الصليبية ومرافقة لها ، منذ بدايتها وحتى نهايتها . فقد جاء الفرج من كل أرجاء الغرب لاقامة كياناتهم بقوة السلاح . واستمروا في الاحتكام للسلاح من أجل تحقيق أهدافهم . ولم يكن باستطاعة المسلمين اختيار سبيل آخر سوى الاستجابة للتحدي الذي فرضته قوة السلاح .

٢ - المنف والتطرف في الحروب الصليبية .

عرف المسلمون في الحروب الصليبية نوعاً من العنف ومن التطرف لم يعهدوه ولم يعرفوه من قبل ، فكثيراً ما جابتهم مقاومات عاتية في فتوحاتهم ، ورغم ذلك فقد عمنوا وهم في نشوة انتصارهم على منح الأمان لكل من لا يحمل السلاح . ذلك أن المسلمين يتعاملون مع الحرب على أساس أنها مرحلة للوصول إلى السلام والأمن وتعريف الناس بدين الإسلام وفضائل المسلمين ، فكان العنف يصل ذروته وأقصى شدته في ميدان القتال ، ثم يتحول إلى رحمة ورأفة وأخوة لمن يقبل على دين الله ، ودون قهر لمن يعرض عن ذلك ويقبل البقاء على دينه والالتزام بشروط المسلمين : الإسلام أو الجزية أو الحرب .

فكان الجزية لقاء الذمة التي يمنحها المسلمون لأهل الذمة . أما أعمال الإبادة الاجتماعية ، وأما الاستباحة ، وأما النهب وانتهاك الحرمات ، فلم تعرفها المدن التي فتحتها المسلمين الذين كانوا يتطلعون أبداً ، ومن خلال الحرب ، إلى إعادة بناء مجتمع ما بعد الحرب على أسس وقواعد جديدة حدد الإسلام أصولها ومرتكزاتها . وهذا فقد صدم المسلمين صدمة عنيفة لما ارتكبه الفرنج الصليبيون من المذابح وما مارسوه من الجرائم على امتداد مسيرتهم في بلاد الشام ، بداية من أنطاكية ونهاية بمذبحة القدس . وكانت دماء المسلمين التي أريقت ظلماً أو غدراً هي السد الأول الذي انتصب قائماً ليمنع كل تفاهم بين المسلمين وبين أعداء الدين . وقد حار المسلمون في تفسير هذه الظاهرة ، غير أن أعداء المسلمين ذاتهم أوضحوا مقاصدهم الكامنة وراء هذه المذابح : لقد كانوا يريدون الأرض خالية من السكان لإقامة إماراهم ومالكم ، ويريدون الأرض لتوزيعها على كبار رجال الحملات الصليبية . وكانوا يريدون من خلال أعمال الإرهاب أيضاً نشر حالة من الرعب تساعدهم على تغطية ضعف قدرتهم البشرية المقاتلة . ولكن

روح الحقد التي غرسها رجال الكنيسة واستثمروها لتنفيذ أهدافهم لم تلبث أن خدت جذوتها في نفوس الرجال الذين استوطنوا في بلاد الشام ، وعرفوا المسلمين وفضائلهم . فكان لا بد من إمداد الصليبيين بدم جديد يحمل روح الحقد ذاتها ، فكانت الموجات المتتالية للفرنج الصليبيين هي الدم الحاقد الذي كان ينكاً باستمرار جراح المسلمين الدامية ، ويجعلهم يعيشون دائماً ذكريات المذابح التي ارتكبها الفرنج الصليبيون عند قدومهم إلى بلاد الشام للمرة الأولى ويجعلهم يربطون ربطاً محكماً بين جرائم الفرنج القديمة وجرائمهم المتتالية . وبالاضافة إلى ذلك فقد أفرزت الروح الصليبية التي زرعت الكنيسة بذورها ، بجموعات من الطوائف الدينية التي أخذت على عاتقها الابقاء على جذوة العداء متقدة ، وروح الصليبية مسيرة .

لقد نشأت الطوائف الدينية العسكرية ، على أنقاض طائفة دينية نظمت في الأساس لخدمة المسيحيين ، فالمعلوم أن جماعة من المسيحيين المدينين بمدينة **أمالفي** ★ قد حصلت في سنة ٤٦٣ هـ = ١٠٧٠ م على إجازة من الفاطميين الذين كانوا يحكمون القدس باقامة نزل يؤوي جماعة من المتنبئين والأمالفين الذين يعملون لخدمة الحجاج الفقراء . وتقرر تدشين الدار باسم القديس يوحنا المتصدق الذي اشتهر بالاحسان عندما كان بطيريراً في الاسكندرية في فترة الفتح الإسلامي . وكان معظم القائمين على هذه الدار من الرهبان الأمالفين الذين تولى رئاستهم مقدم كان اسمه جيرار - عندما استولى الفرنج الصليبيون على القدس . وقد أفاد جيرار هذا من معرفته بالإقليم والسكان ، فوضع نفسه وطائفته في خدمة ملك القدس وحكومته الجديدة ، وحصل منها على أحباس - أوقاف - وانحاز عدد كبير من الحجاج لطائفته ، التي لم تلبث أن أصبحت طائفة مستقلة ، تدين للبابا مباشرة بالولاء والطاعة ، فزاد ما يجري بذلك لها من الأراضي ، وجعل لها معظم رجال الكنيسة عشر ما يرد إليهم من دخل . وجرى تسميتها (بطائفة الاستبارية) وجرى أيضاً إحلال يوحنا الانجيلي محل يوحنا المتصدق ★★ . وعندما توفي هذا الجيرار سنة ٥١٢ هـ = ١١١٨ م ، خلفه راهب فرنسي

(★) **أمالفي** : (AMALFI) مدينة ايطالية تحمل موقعاً جيلاً على خليج ساليرن .

(★★) **فرسان الاستبارية** : (HOSPITALIERS DE SAINT-JEAN) هي الطائفة الدينية التي نظمت في القدس ،

اسمه (ريموند لو بوبيه). اشتهر بتطوير عمل طائفته من إرشاد الحجاج وإيوائهم إلى تنظيم طائفة من الفرسان المقاتلين، الذين يعاهدون على التقشف والطهارة والطاعة، وينذرون أنفسهم لقتال الوثنيين (المسلمين).

واخذ فرسان الاستبارية شارة تميزهم عن سواهم وذلك بأن جعلوا صليباً أيضاً على أرديتهم التي يلبسونها فوق ثياب القتال.

وساعد على هذا التطور ما حدث في تلك السنة ذاتها (٥١٢ هـ = ١١١٨ م) حيث تقدم فارس من شامانيا - اسمه هيوباينز - إلى ملك القدس بلدوين الأول، وأقنعه بضرورة إنشاء طائفة تتلزم بالجانبين الديني والعسكري، ووافق الملك على الفكرة، وسمح لمقدم هذه الطائفة ولرجاله بالنزول في جناح بالقصر الملكي (بساحة المعب) - وهو المسجد الأقصى) ومن هنا حملت هذه الطائفة اسم (الداوية - أو فرسان المعب) ★ ولم تلبث هذه الطائفة أن انتظمت في ثلاث طبقات : الفرسان، وكليم من أصل نبيل. ثم الأجناد من البورجوازية، واعتبروا بأنهم هم ساستة الجماعة ومراقبوها، وأما الطبقة الثالثة فتألفت من رجال الدين الذين شغلوا الوظائف الدينية، وقاموا بكل ما لا ينفع للعسكرية بصلة من الصلات.

واخذوا الصليب الأحر شعاراً لهم فوضعه الفرسان على أرديتهم البيضاء، ووضعه الأجناد على أرديتهم السوداء.

وكان من أول الواجبات التي تعاهد فرسان الداوية على الاضطلاع بها هي حماية الطريق الممتد من الساحل إلى القدس ، من هجمات المسلمين. ثم لم يلبثوا أن شاركوا في كل حملة نظمتها مملكة القدس. وأمضى مقدم الطائفة زمناً طويلاً وهو يتتجول في بلاد أوروبا لخشد المتطوعين لطائفته.

بذل ملك القدس بلدوين للطائفتين كل دعم وتأييد ، رغم أنها كانتا مستقلتين عن

= وحصلت على عدد من القلاع والمحصون في بلاد الشام وانتقلت عند خروج الفرنج وطردهم من عكا إلى قبرص ثم إلى رودس ، ثم إلى مالطا.

(★) الداوية - أو فرسان المعب : (KNIGHTS-TEMPLAR)

سلطته ، فلم تدينا بالطاعة والولاء إلا للبابا . ولم تتضمن الاقطاعات الكبيرة التي وهبها الملك وأتباعه للطائفيين أي شرط يلزم هؤلاء الرهبان الفرسان بالقتال مع جيش الملك . ولكنهم لم يبلغوا على كل حال ، درجة من الثراء تسمح لهم بتحدي سلطة الملك ، إلا بعد أن انقضى جيل على قيام مملكة الفرنج الصليبيين في القدس . ولكنهم في الوقت ذاته ، أمدوا المملكة بما كانت تحتاجه وهو جيش منظم يضم جنداً مدربين يستطيع دعم الملك بأمداد منتظمة من المحاربين الأوفياء الذين لا يصرفهم عن الواجب أفكار تتعلق بالطموح الشخصي أو الربح الخاص .

تطور نفوذ الطوائف الدينية العسكرية باستمرار ، سواء في زيادة عدد رجالها ، أو في تعاظم ثروتها ومتلكاتها ، حتى وصلت في سنة ٥٨٣ هـ = ١١٨٧ م (سنة وقوع معركة حطين) إلى أن أصبحت هي التي تمتلك أكبر مساحة من الأراضي والاقطاعات في بلاد الشام ، وذلك بفضل ما حصلت عليه من الهبات والأوقاف - الأحباس - وبما دأبت عليه باستمرار من ضم للأراضي . وانحاز إلى صفوف هذه الطوائف عدد كبير من النبلاء . واضطربت قدوم المتطوعين من الغرب للانضمام إليها . ولم يكن عدد أفراد هذه الطوائف ثابتاً ، بسبب تباين أعداد من ينضم إليها في كل سنة ومن يقتل منها ، والمعروف أن طائفة الاستبارية قد أرسلت مع قوات الحملة على مصر (سنة ٥٥٣ هـ = ١١٥٨ م) خمسة فارس تقريباً . كما شارك في معركة حطين ثلاثة فارس . وكان هؤلاء من فرسان الطائفة في مملكة القدس ، فقط ، وكانت أعداد كبيرة منهم قد أقيمت على شكل حاميات ثابتة في القلاع والمحصون والمدن في كل إمارة من إمارات الفرنج . ويظهر أن طائفة الاستبارية كانت أكبر حجماً من طائفة الداوية . وتولى الاستبارية والدواية حراسة الطرق ، وخاصة منها الطريق إلى الموضع المقدسة للاغتسال في نهر الأردن . وتميزت طائفة الداوية باهتمامها الكبير بالأمور الحربية . وما حازوه من الشهرة يرجع إلى شدة بأسهم في الأعمال القتالية الهجومية . هذا مع ممارسة أعمال الصيرفة ، والتجارة وعقد الصفقات ، مما ساعدهم على إقامة علاقات مع المسلمين . وتوطيد صلاتهم مع طائفة الأساعيلية (الخاشين أو الباطنية) .

عندما جاءت الحملة الصليبية الثالثة إلى بلاد الشام (سنة ٥٩٣ هـ = ١١٩٦ م) . ثم

عادت الى بلادها ممزقة. تركت في بلاد الشام طائفة من الالمان الذين تم تنظيمهم بصورة مماثلة لتنظيمي طائفي الاستبارية والداوية. وقد عرفت هذه الطائفة التي اعتمدت بصورة أساسية على المقاتلين الالمان، باسم (طائفة فرسان التيوتون) وتلقت هذه الطائفة دعم ملك القدس ومبركة البابا، وتم الاعتراف بها على أنها طائفة عسكرية. وحصلت على اقطاعات وقلاء خاصة بها.

لقد ظهر خلال عرض الأحداث في الفصلين السابقين ما قامت به هذه الطوائف من أعمال قتالية، فكانت رأس الحربة في كل معركة، وكانت العامل المحرض وراء كل اشتباك. وهي الأشد وطأة على المسلمين بما كانت تمارسه من تحريض، وما تنشره من الأحقاد ومشاعر الكراهة، ولهذا اختصها المسلمون بالقتل كلما ظفروا برجالها. فلما طرد المسلمون بقايا الفرنج من بلاد الشام. تابعت هذه الطوائف التي عاشت للحرب ومن أجل الحرب وعلى حساب الحرب، دورها في التحريض على تحريرid حلات جديدة، وبث روح الصليبية في الغرب، وأظهر البابا عطفه على مقدمي هذه الطوائف، ومهد لهم الطريق للاتصال المباشر بملوك الغرب. غير أن هؤلاء - وخاصة ملك فرنسا فيليب - قد غيروا مواقفهم من هذه الطوائف بعد أن انتهى دورها.

لقد وجدت هذه الطوائف أنها فقدت مجال العمل الذي عاشت له، فمضت طائفة فرسان التيوتون الى بلاد البلطيق ل تقوم بفتحها و تستقر فيها. أما طائفة الاستبارية، فقد عملت بما توافر لها من الثروة على شراء جزيري كوس و ليروس، و انطلقت منها للسيطرة على بقية جزر أرخبيل الدوديكانيز. و جعلت من رودس التي احتلتها بجهد وعناء، قاعدة لها. و حافظت على وجودها حتى القرن العشرين. أما طائفة الداوية، فكانت أكثر ثراء، إلا أنها كانت أكثر قدرة على إثارة العداء. و المعروف أنها ظلت زماناً طويلاً وهي تتحكر أعمال الصيرفة في العالم، وأكبر قوة لاقراض المال والحصول على الربا الفاحش. وأحرزت نجاحاً كبيراً في ممارسة مهنة لا تخظى بالاحترام. وأدى نشاطهم المالي إلى إقامة اتصالات وثيقة بال المسلمين، واتخذ كثير منهم أصدقاء لهم من المسلمين (الباطنية أو الاسماعيلية) واهتموا بالديانة والدراسات الإسلامية. وشاع عن الداوية بأنهم يدرسون وراء أسوار قلاعهم فلسفات غريبة، و يمارسون أعمالاً وصفت

بالمهرطقة. وكان للمبتدئين - المريدين - شعائر منافية للدين والأخلاق. وكثير الحديث عنها يصاحب ممارسة الرذائل المنافية للطبيعة من شعائر العربدة. فلما كان شهر تشرين الأول - أكتوبر - ١٣٠٧ م. أصدر ملك فرنسا فيليب بالقاء القبض على كل من كان في فرنسا من رجال الداوية، ومحاكمتهم بجرائم الألحاد التي صاغها رجال من الداوية ذاتهم، أعلنا توبتهم، وجمعت الاعترافات. فلما كان ربيع السنة التالية، أصدر البابا الأوامر إلى كل أمير بالقاء القبض على الداوية في بلاده. ومصادرته ممتلكاتهم. وتعرض كثير منهم للقتل والحرق في فرنسا. بينما ألقى بهم في جميع أنحاء أوروبا في السجون.

هكذا انتهى أمر الفئة الباغية التي أفرزتها الحروب الصليبية، واستخدمتها عندما كانت هناك حاجة لاستخدامها، ثم دمرتها بعد أن تحولت إلى عبء ثقيل يرهق كاهلها. ولم يبق من وجود هذه الطائفة سوى ما زرعته من الحقد والكراءة والعنف والتطرف. وقد أكلت النار بعضها ببعضًا إذ لم تجد ما تأكله.

٤ - الصراع السياسي والصراع المسلح .

عندما احتل الفرنج الصليبيون دمياط سنة ٦١٥ هـ = ١٢١٨ م. عرض الكامل بن الملك العادل الأيوبي على الفرنج أن يعيد إليهم القدس مقابل انسحابهم من مصر، فرفضوا إلى أن تم طردتهم من مصر بالقوة. وعندما عاد الفرنج إلى دمياط سنة ٦٤٧ هـ = ١٢٤٩ م، عرض الاخوة الأيوبيين عرضاً مماثلاً فرفضوه، إلى أن تم أسر ملكهم لويس التاسع وتطويق قواتهم في المنصورة، وطردتهم من مصر بقوة السلاح، وقبل ذلك، وفي سنة ٦٠٠ هـ = ١٢٠٣ م هاجم الفرنج مصر، واحتلوا سواحلها، فعقد الملك العادل هدنة مع الفرنج. وأعطاهم يافا مقابل خروجهم من مصر ويمكن اعتبار هذه النهاية الثلاثة أمثلات لاقتران الصراع السياسي بالصراع المسلح في الحروب الصليبية القديمة. أما ما حدث سنة ٦٢٦ هـ = ١٢٢٨ م عندما أعاد الملك الكامل مدينة القدس إلى الفرنج بوجب هدنة تم عقدها مع إمبراطور الغرب وملك ألمانيا - فريدرick الثاني -. فيمكن اعتبارها صراعاً سياسياً جرى تحت قعقة السلاح، ولكن بدون اللجوء إلى استخدامه. والأمثلة بعد ذلك كثيرة جداً، مما تضمنه عرض الأحداث في الفصلين السابقين، ولقد جاء الفرنج بمحاذفهم لتحقيق أهداف سياسية واقتصادية واجتماعية تندمج جميعها في تيار ديني - صليبي - فكان لا بد من أن يشمل الصراع المسلح عوامل الصراع السياسي. ويظهر أن الهجمة الصليبية الأولى قد حققت تلك الأهداف جميعها. ولهذا فقد هيمن الصراع المسلح على جميع الأهداف وجعلها تابعة له. واستمر الصراع المسلح هو المهيمن حتى يوم حطين. وإذا ذاك تبين للفرنج أنه من المحال عليهم المحافظة على وجودهم، والبقاء على كياناتهم، بالاحتكام إلى السلاح دائماً، وأنه لا بد من البحث عن وسيلة للتعايش مع المسلمين. وقد برزت هذه الحقيقة واضحة في محاولات فريدرick الثاني لاستعادة القدس - دون أي اشتباك أو معركة - وعندما تم له ذلك، عاد إلى بلاده. ثم تأكّدت هذه الحقيقة مرة أخرى،

وبشكل أكثر وضوحاً، عندما قدم ملك فرنسا لويس التاسع على رأس جملته، واحتل دمياط. فتصحه الفرنج المقيمين في بلاد الشام بقبول مبادلة القدس بالانسحاب من دمياط، غير أن ملك فرنسا المشبع بروح الصليبية الأولى، امتنع عن اجراء حوار سياسي مع المسلمين. فهو ما جاء على رأس جيشه إلا لقتال الكفار - المسلمين -. وإذا تم أسره وتدمير جيشه، أصبح مقتنعاً بأهمية الصراع السياسي، وتبين لهفائدة هذا الصراع عندما استطاع أن ينتزع مكاسب من جميع أمراء المسلمين والافادة من صراعاتهم الداخلية، لضرب بعضهم البعض، واستثمار التناقضات لحل مشكلات الفرنج على حساب المسلمين وببلادهم. واستمر بعد ذلك الصراع السياسي والصراع الاقتصادي في ممارسة الدور المهيمن - بصورة عامة - على الصراع السياسي، والوجه له. ولكن بقي الصراع المسلح هو الأداة النهاية لحل التناقضات، عندما تصل هذه التناقضات إلى مأزق صعب لا يمكن حله إلا بالعودة إلى الاحتكام للسلاح. وهذا ما يفسر تباعد الحدود الزمنية الفاصلة بين المعارك الكبيرة والاشتباكات الخامسة.

تضهر عملية استعراض الأحداث والوقائع المرتبطة بالصراع السياسي مجموعة من الحقائق :

أوها: لقد كان كل طرف من الأطراف المتصارعة يحاول تحقيق أكبر قدر من المكاسب التي لم يتمكن من تحقيقها بقوة السلاح. وأن هذه المكاسب ذات صفة مرحلية، غير ثابتة ولا مستقرة، نظراً لاعتقاد الأطراف المتصارعة بأنها لا تمثل حتى الحدود الدنيا من أهدافها، غير أن ظروف الصراع المسلح - الداخلية والخارجية - قد فرضت اللجوء إليها وقوتها.

وثانيها: واستناداً إلى الحقيقة السابقة، فقد كان كل طرف من الأطراف المتصارعة يحاول استثمار كافة الضروف الداخلية والخارجية من أجل إعادة بناء قدرته الذاتية، وتنظيم قواته المقاتلة، ودعم جبهته الداخلية، وتسويه مشكلاته، استعداداً لالغاء المكاسب السياسية، وزيادة هامش العمل العسكري بما يتتوافق وأهداف الصراع الأساسية.

وثلاثها : واستناداً إلى الحقيقة السابقة أيضاً، فقد كانت التسویات السياسية لا تحظى باحترام المقاتلين على جبهي الصراع، نظراً لتناقضها مع الأهداف التي تكونت القناعة بفائدهتها وأهميتها عبر الصراع المسلح المرير، وعبر التوجيه الفكري والديني، فكانت مقاومتها التدرجية على مستوى المقاتلين هي البداية - دائمًا - للعودة إلى الصراع المسلح.

ورابعها : أن هذه التسویات لم تكن باستمرار متوافقة مع مراكز القوى المختلفة على جبهي الصراع، ولا منسجمة مع مصالحها، مما كان يفسح المجال للصراعات الداخلية وتفتت القوى الكامنة في جبهات الصراع. وكانت القيادة الأقوى، هي القيادة التي تستطيع الهيمنة على مراكز القوى المتنافرة. وحلها بالإكراه على قبول التسویات السلمية. غير أن هذا الإكراه لم يكن ليزييل عامل (المصلحة). فكان ضعف الضغط القيادي لسبب من الأسباب الطبيعية أو الاصطناعية - الانفعالية - كافياً لإعادة تفجير الموقف.

وخامسها : أنه كلما توافرت للقيادة مركبة قوية، كلما أمكن للتسویات السياسية، أن تتحقق نجاحات أكبر، وأن تتضمن قدرًا أقل من الخسائر والتنازلات. وكلما تنافرت مراكز القوى وتمزقت كلما حقق أحد الأطراف - الذي يمارس المركبة القوية في القيادة - أن يحقق مكاسب أكبر على حساب مراكز القوى المتنافرة.

لقد جاءت الحملة الصليبية الثالثة، وخاض قائدها (ريتشارد قلب الأسد) صراعاً مrirياً ضد قوات المسلمين بقيادة صلاح الدين الأيوبي، ولكنه عندما أدرك أنه من المحال عليه وعلى قواته الوصول إلى القدس. وأنه من الصعب الحصول على انتصارات حاسمة. اكتفى بما حققه من إنجاز وهو تمجيد قوات المسلمين وحرمانها من فرصة تطوير مكتسباتها وأعمالها القتالية، وشرع في إجراء المفاوضات مع صلاح الدين، وقد استمرت هذه المفاوضات زهاء عام كامل، وتخللتها معارك واشتباكات كثيرة. حاول الطرفان بواسطتها الحصول على إنجازات تساعد على دعم الحوار السياسي. وفي النهاية، وعندما تم الاتفاق السياسي، لم يتضمن أكثر من تمجيد للوضع العسكري وبصورة مؤقتة.

ومقابل ذلك ، وعلى الرغم من الفشل الذريع والهزيمة المنكرة التي نزلت بقوات الفرنج في المنصورة ، فقد استطاع لويس التاسع تحقيق مكتسبات كثيرة لم يكن يحلم بها وهو أسير في المنصورة . ولم يكن ذلك إلا نتيجة لتمزق جبهة المسلمين وتناقر أقطابها وصراع ملوكيها وامرائها . وتكررت هذه الظاهرة ذاتها عندما جاء فريدريك الثاني ، فأفاد من تمزق الجبهة الإسلامية لانتزاع المكاسب من كل امراء المسلمين المتصارعين .

لقد سبقت الإشارة إلى أن الصلح الذي عقده فريدرick الثاني مع السلطان الكامل (سنة ٦٢٦ هـ = ١٢٢٨ م) والتي قبضت باعادة القدس الى الفرنج ، لم تعجب المسلمين ولم تحظى برضى الفرنج . فقد وجد الفرنج أنها لا تتحقق الحد الأدنى من طمعهم ، ووجد فيها المسلمون غدرًا بتضحياتهم وجهودهم : وتفريطًا بما أحرزواه بقوة السلاح . وكان الوفاء لأرواح الشهداء ، وتضحياتهم عاملاً وضعف الطرفان في اعتبارها ، مما حل بمجاهدي المسلمين ومقاتلي الفرنج على رفض الاتفاق ، الذي لم يعمر طويلاً على كل حال ، إذ سرعان ما اندفعت جاهير المسلمين لاحباط الجهود السلمية ، فتم طرد الفرنج نهائياً من القدس (على أيدي الخوارزمية) . وبسبقت الإشارة أيضأً إلى أن هذه الاتفاques قد أدت أحياناً إلى نشوب صراعات دامية بين الفرنج - مثل ذلك القتال العنيف الذي اندلع بين البنادية والبيازنة والجنوبيين - على امتداد ساحل بلاد الشام ، والذي استمر طويلاً ، واستنزف كثيراً من قدرة الفرنج وامكاناتهم .

لقد عرف ملوك الفرنج ما بين ملوك المسلمين وامرائهم من صراعات وتناقضات فاستثمروها . غير أن ملوك المسلمين وامرائهم لم يكونوا أقل معرفة بالفرنج وما بين مراكز القوى المختلفة من تناقضات . وقد أمكن لهم في مرات كثيرة استثمار هذه التناقضات بصورة جيدة لتمزيق الجبهة الداخلية للفرنج وإضعافها واستنزافها . وقد أظهر ملوك المسلمين وامرائهم - عامة - كفاءة عالية في استخدام قدرتهم العسكرية لتعزيز التناقضات بين الفرنج ومراكز قواهم المختلفة ، فكانوا ينحون حاليهم ورعايتهم للمتعاونين معهم من الفرنج ، في حين يشتدون في حربهم وعدائهم لمن يعادونهم . مما حل بملوك الفرنج وامرائهم على التاس صداقة أمراء المسلمين ، والتعاون معهم إلى درجة التحالف في مرات كثيرة .

لم يكن ملوك المسلمين وامرائهم يخافون من العمل السياسي ، طالما أن هذا العمل لا ينتقص من قدراتهم الذاتية ، ولا يجد من حرية عملهم العسكري إلا بقدر ما يجد أيضاً من حرية العمل العسكري للفرنج ذاتهم . وكانوا على ثقة دائمةً أن الصراعات بين مراكز القوى للفرنج ، وأن التكوين العدائي للفرنج ، وأن الدور الذي تمارسه الطوائف الدينية والعنصر المتطورة ، سيفجر في النهاية كل جهد سياسي ، وأنه لا بد من استئناف الحرب ، ولعل هذا السبب هو الذي حمل مؤرخي المسلمين على التمسك باصطلاح (المدنية) عند عقد كل اتفاق سياسي بين المسلمين والفرنج .

وعرف المسلمون منذ البداية أن كيانات الفرنج على أرض بلاد الشام ، وملكهم ، وإماراتهم ، مرتبطة برباط - أو بروابط - وثيقة بملوك الغرب ، وهذا فقد حرصوا على خوض الصراع السياسي - الديني - معهم . وأمكن لهم اصطناع صداقات كانت مفيدة في كثير من الأحيان ، مثل تلك التي انعقدت أواصرها بين صلاح الدين الأيوبي وريشارد قلب الأسد . ومثل صداقة فريدريك الثاني مع الكامل ، ومثلها صداقة ادوارد ملك إنكلترا والظاهر بيبرس . وكذلك صداقة ملك صقلية - شارل الجو - مع بيبرس وقلاوون . وأفاد المسلمين من هذه الصداقات لكيح جاح تطرف الفرنج ، وإثارة التناقضات بينهم ، بل إن فريدريك الثاني كان يزود الكامل بالمعلومات عن الحملات الصليبية المحتملة (حملة لويس التاسع التي انتهت في تونس) . ويتبادل الرسائل في بعض القضايا ، غير أن العمل السياسي من خلال هذه العلاقات لم يعطى من مسيرة الصراع المسلح ، ولم يكن بديلاً عنها ، وإنما استخدم لدعم الصراع المسلح وتطويره . وذلك لאיان المسلمين وقادتهم اياناً مطلقاً بمحضية انتصار الحل العسكري في النهاية ، فكان عملهم السياسي مع ملوك الغرب هو لاقناعهم بصورة مباشرة بعمق مشروعهم الصليبي وعدم فائدته ، بينما كان الجسم على أرض القتال هو وسيلة الاقناع المباشرة .

وهكذا عمل المسلمون على تحويل الكيانات الصليبية إلى أعباء مرهقة ، أرهقت ملوك الغرب ، واستنزفتهم ، وجعلتهم يقفون في النهاية موقف المتراجع عندما انهارت عكا - آخر كيانات الفرنج التي بقيت على أرض الشام -. ولعل من المثير حقاً ملاحظة أن الصراع السياسي الذي بُرِزَ أكثر من سواه قد جاء مقترناً باسماء كبار

الرجال في المعسكرين، المتصارعين على جبهتي القتال، على نحو ما سبق ذكره. بينما جاءت الجهود السياسية الفاشلة على أيدي قادة صغار أو فاشلين من أمثال ملك فرنسا لويس التاسع الذي جلب لبلاده من المآسي ما لم يجعلها سواه. وحل لقواته من الفشل ما لم يحملها سواه.

هناك حقيقة لا بد من الاشارة إليها ، لقد أسمم الصراع السياسي اسهاماً كبيراً في الابقاء على وجود الفرنج في بلاد الشام. فقد وصل الفرنج واحتلوا القدس سنة ٤٩٢ هـ = ١٠٩٨ م. ووقعت معركة حطين سنة ٥٨٣ هـ = ١١٨٧ م. وفتح المسلمين عكا سنة ٦٩٠ هـ = ١٢٩١ م. والمعروف أن ما جرى بعد حطين من صراعات سياسية وحالات صليبية هي التي أبقيت على وجود الفرنج زهاء مئة عام ونيف. غير أنه من المحال إعطاء الصراع السياسي أكثر من دوره في تأخير طرد الفرنج من بلاد الشام . إذ أسهمت في ذلك أيضاً مجموعة من العوامل ، منها هجوم المغول التتار - ومنها حالات الفرنج على مصر . ومنها صراعات المسلمين على الجبهة الداخلية . وإذا كان للصراع السياسي دوره ، فهو لا يتجاوز حدود إعطاء فترات متباude بين الأعمال القتالية ، التي كانت تعمل دائياً على إحراق المراحل الزمنية ، والتعجيل بمسيرة الأحداث ، ودفعها حتى نهايتها القصوى بسرعة مذهلة .

٨ - العامل الاقتصادي - والانسان المسلم .

عندما حاصر المسلمون قوات الفرنج، القائمة على حصار عكا (سنة ست وثمانين وخمسة) أورد المؤرخ ابن الأثير العبارة التالية : « اشتد الغلاء على الفرنج، حتى بلغت غرارة الحنطة أكثر من مائة دينار صوري ، فصبروا على هذا . وكان المسلمون يحملون إليهم الطعام من البلدان . منهم الأمير اسامة مستحفظ بيروت ، كان يحمل الطعام وغيره . ومنهم سيف الدين علي بن أحد المعروف بالمشطوب - الذي كان يحمل من صيدا أيضاً إليهم . وكذلك من عسقلان وغيرها . ولو لا ذلك هلكوا جوعاً ، خصوصاً في الشتاء عند انقطاع مراكمتهم عند تهيج البحر ».

والسؤال الذي يفرض ذاته هنا هو : « هل كان المسلمين يرغبون ببقاء الفرنج في بلادهم ؟ ولماذا لم يتركوهم و شأنهم حتى يهلكوا جوعاً؟ ». وقد يكون من الصعب الاجابة على مثل هذا السؤال بمعزل عن مجموعة العلاقات التجارية والاقتصادية التي جرت أثناء فترة الحروب الصليبية . فالمعروف أن الامارات الصليبية التي أقيمت على امتداد سواحل بلاد الشام . قد جعلت موانئ التجارة مع الغرب في قبضة الفرنج الصليبيين . ولكن المسلمين احتفظوا بسيطرتهم الاقتصادية ، إذ كانت قوافهم هي التي تنقل المنتجات الزراعية والصناعات المختلفة من سائر المشرق الإسلامي . فأفاد الفرنج من الرسوم التي فرضوها على مرور هذه المتاجر . وبذلك استمر تدفق التجارة بصورة منتظمة . وقام تعاون وثيق بين تجار المسلمين وتجار الفرنج في سواحل بلاد الشام . وخاصة البنادقة والجنويين والبيازنة الذين احتكرت أساطيلهم نقل التجارة عبر البحر إلى سائر أرجاء أوروبا . وقد وجد تجار المسلمين أن الفرصة مواتية لاستثمار ضائقة الفرنج ، وبيع منتجاتهم بأثمان مرتفعة ، وكان المسلمون يتقوون بما يحصلون عليه من الأرباح لدعم قدرتهم الذاتية - لاسيما وأنه قد ظهر لل المسلمين أن الفرنج قد صمدوا

للسائقة التي نزلت بهم -. وأدركوا أن مثل هذه الصائفة لا يمكن لها أن تمضي على وجود الفرنج. فكان في رأيهم استثمارها والإفادة منها.

يمكن مقارنة هذا الموقف بموقف مضاد جاء بعد اثنين وسبعين عاماً، وفي سنة ٦٥٨ هـ = ١٢٥٩ م. خرج المضفر قطوز بجيش المسلمين الضخم من مصر لقتال المغول التتار، واضطرب للسير على امتداد الساحل للوصول إلى الشمال، كما اضطر للحصول على المواد التموينية والأمدادات لجيشه الكبير، فأرسل سفاره إلى عكا. ووافق الفرنج على السماح لجيش المسلمين بالمرور من أراضيهم، وقدموا له ما يحتاجه، بل ذهبوا إلى ما هو أبعد من ذلك عندما استضافوا أمراء الجيش في عكا، واستقبلوهم ونظموا لهم الزيارات، ولم يكن ذلك مجرد ظاهرة من ظواهر الفروسيّة التي اشتهرت بها حروب القرون الوسطى، بقدر ما كانت استجابة طبيعية لمتطلبات التعايش خلال فترة حروب استمرت مائتي عام. ولقد أفاد الفرنج - مرحلياً - بالحصول على أموال وخيول وسواها دعمت من قدرتهم الحربية. وهكذا كان التعاون التجاري ذو هدف واضح وهو دعم القدرة القتالية الذاتية للطرفين المتصارعين.

لقد عرفت الحرب الصليبية القديمة نوعاً مميزاً من الحرب الاقتصادية ذات الضواهر المتعددة، والأشكال المتنوعة: منها التدمير المتبادل للموارد الزراعية، ومنها النهب المتبادل للقرى والمدن، ومنها استخدام الأسرى لأعمال الزراعة والصناعة والبناء ، ومنها الهجوم على القوافل التجارية. ومنها أيضاً أعمال الحصار والتقطيع والعزل للمدن والمحصون. وكانت البداية على أيدي الفرنج عندما عملوا على تدمير كل ما يصادفونه في طريقهم خلال هجومهم الأول. ولكن سرعان ما تبين لهم أنهم هم الخاسرون من هذا التدمير، إذ بقي الشريط الساحلي ، وما يتضمنه من المزارع والحقول هو موردهم الحيوي الأول، وعليه يعتمدون في تأمين متطلباتهم التموينية. كما كانت مواردهم البشرية موجهة بصورة أساسية للحرب لا للزراعة والبناء والصناعة، ولم تكن لديهم أصلاً المهارات الصناعية التي عرفتها أقطار العالم الإسلامي ، وخاصة ما اشتهرت به بلاد الشام وصناعتها من المهارات. فتوقفوا عن أعمال الإبادة، وأخذوا في الاحتفاظ بالأسرى لاستخدامهم للبناء والزراعة والصناعة. وقد بقي هذا شأنهم حتى وقت

متاخر . وقد ظهر ذلك واضحأ أيام الظاهر بيبرس ، عندما اشترط بيبرس اطلاق سراح أسرى المسلمين الذين يحتفظون بهم ، قبل أي اتفاق . وعندما رفض الداوية - خاصة - اطلاق سراح المسلمين - وعمال الصناعة منهم بصورة محددة -. غضب بيبرس ، وامتنع عن الاتفاق مع الفرنج ، وشن عليهم حرباً شعواء هدفها الأساسي تحرير أسرى المسلمين .

أدرك المسلمون أهمية الخنق الاقتصادي في تضييق الخناق على الفرنج ، منذ البداية ، فأخذوا في تدمير المزارع والحقول تدميراً منهجاً منظماً ، بداية من أقصى الشمال وحتى أقصى الجنوب ، وانطلقت سراياهم وكتائبهم وهي تجوب المناطق التي فرض الفرنج سيطرتهم عليها ، لتهب قطعان الماشية وتلتهم المزارع ولتحرق الحقول . وإذا تأكدت للمسلمين أهمية الخنق الاقتصادي أصبحت الإغارات على ممتلكات الفرنج تختل المرتبة الأولى في سلم الأفضليات ، وتسقق وترافق كل عملية هجومية كبرى . وقد اضطر الفرنج نتيجة لذلك الى التهاب متطلباتهم الحياتية تارة من قبرص ، وتارة من بلاد البيزنطيين - الروم - أو منها معاً ومن سواها ، ووصل الأمر أحياناً إلى تنظيم أعمال هجومية كبيرة للحصول على المواد التموينية ، وكان المسلمون يعرفون ذلك ، فيعدون العدة لمجابهة هجمات الفرنج المتوقعة وإحباطها ، بل إن مثل هذا الصراع حول الموارد الاقتصادية ، كثيراً ما أخذ شكل نزاع مثير ، حيث يباغت الفرنج بعض الأقاليم للاستيلاء على قطعان الماشية والخيول والأغنام ، فتسرع قوات المسلمين لنصب الكمائن ومطاردة المؤخرات حتى يتم لها استرداد (الغنيمة) . وكان الصراع على الموارد الاقتصادية في مرات كثيرة هو العامل الأساسي لتفجير الحرب وتصعيد الصراعسلح . والمعروف أن أحد العوامل التي فجرت الصراع وأدت إلى وقوع معركة حطين ، كانت قيام أمير الكرك - رينالد شاتيون - على قافلة من قوافل المسلمين ، ونهبها .

ومقابل ذلك ، أظهر المسلمون اهتماماً كبيراً بتنمية مواردهم الاقتصادية - الزراعية والصناعية - لتلبية متطلبات الحرب . وكان الزنكيون هم أول من أدرك ضرورة تنمية الموارد الزراعية ، فعملوا على استصلاح الأقلام المحيط بالموصل ، حتى أصبح حقولاً

زراعية متصلة ، وحتى تحول إلى منطقة مكتظة بالسكان ، تصبح بالحياة ، بعد أن كانت خراباً . واستمروا على هذا النهج وطوروه فيسائر بلاد الشام . ولم يكن جهدهم لضم مصر لمسيرة الجهاد في سبيل الله ، إلا ليتقوى بها المسلمون على أعدائهم ، وللإفادة من مواردها البشرية والزراعية . فربطوا بذلك بين التكامل الاقتصادي والكمون الحربي في صورته البسيطة الأولى . وإذا لجأ الفرنج للإفادة من أسرى المسلمين لاعمال الزراعة والبناء ، فليس هناك ما يمنع من استخدام الوسيلة ذاتها ، لاسيما وأنه توافر في مصر في بعض الأوقاتآلاف الأسرى - الذين فاقوا في عددهم ما ضمته جيوش مدن الفرنج من أعداد المقاتلين - فتم توجيههم لاعمال الزراعة والبناء وسواها من الأعمال التي تتطلب جهد الطاقة البشرية . فكان الفرنج هم الخاسرون دائمًا ، إذ بينما كانت المساحات الزراعية التي استولى عليها الفرنج محدودة وضيقـة . كان لدى المسلمين من الموارد الهائلة ما يضمن لهم الامداد المنتظم لقوتهم . فكانت أعمال التدمير المتبادلة تلحق الضرر بالفرنج أضعافاً عما كانت تلحقه بالمسلمين . هذا بالإضافة إلى امتلاك المسلمين قدرات أكبر وأمكانات أوفر لحماية اقتصادهم وممتلكاتهم ضد هجمات الفرنج المباغـة ، نظراً لتفوقهم في أساليب الحركة ، وفي الأساليب المجموعـة .

لقد أثـار المسلمين أكثر من حرب ضارـية ، بسبب استيلاء الفرنج على قافلة تجارية ، أو بسبب إغـاراتـهم العنيفة على إقليم من أقاليم بلاد الشام ونهـبه وتدمرـه . وقد يـبدو ذلك غـريـباً للوهلة الأولى ، إذ قد لا يستحق ضياع قطـيعـ من قطـاعـ الأغنـام ، أو فقد قافلة من القـوافـل ، إجرـاء مثل تلك الحشوـدـ ، وتحـمـلـ مثل تلك المشـقةـ ، والتـعرضـ لمثل تلك الخـسائرـ ، لاسيـماـ وقد مـلكـ الفرنـجـ مدـنـاـ وـمـنـاطـقـ أـكـثـرـ قـيـمةـ منـ القـطـيعـ أوـ القـافـلـةـ . غيرـ أنـ المسلمينـ لمـ تـكـنـ نـظـرـتـهمـ مـحـدـدةـ بـالـقـيـمـ المـادـيـةـ ، بلـ كـانـ ماـ هوـ أـكـثـرـ أـهـمـيـةـ بـالـنـسـبـةـ لـهـ :ـ المحـافظـةـ عـلـىـ أـمـنـ الـمـسـلـمـيـنـ وـرـوـحـهـمـ الـعـنـوـيـةـ ، وـاستـعـادـهـمـ الـقتـالـيـ .ـ وهـنـاـ يـظـهـرـ الفـارـقـ المـيـزـ بـيـنـ حـرـصـ الـفـرنـجـ عـلـىـ اـسـتـعـادـةـ أـسـرـاهـمـ وـبـيـنـ حـرـصـ الـمـسـلـمـيـنـ عـلـىـ اـسـتـعـادـةـ أـسـرـاهـمـ .ـ فـلـقـدـ كـانـ الـفـرنـجـ يـرـغـبـونـ فـيـ اـسـتـعـادـةـ أـسـرـىـ لـزـيـادـةـ قـدـرـتـهـمـ الـقتـالـيـةـ وـالـأـنـتـاجـيـةـ وـالـإـدـارـيـةـ ،ـ فـيـ حـينـ كـانـ الـمـسـلـمـيـنـ يـعـمـلـونـ عـلـىـ اـسـتـعـادـةـ أـسـرـىـ حـفـاظـاًـ عـلـىـ فـضـائـلـ الـمـسـلـمـيـنـ وـتـجـيـبـهـمـ مـذـلـةـ الـأـسـرـ ،ـ وـمـهـانـةـ فـقـدـ الـحـرـيـةـ ،ـ وـحـلـهـمـ عـلـىـ الـاعـتـزـارـ بـالـأـمـةـ .ـ

التي إليها ينتسبون، ومن أجل قضيتها يحاربون **فَيُقْتَلُونَ، وَيَقْتَلُونَ**، ويؤسرون ويأسرون. وكان هذا الرباط المعنوي أشد قداسة وأكثر أهمية بالنسبة للمسلمين، وقد تكون النتيجة المباشرة واحدة بالنسبة للطرفين المتشارعين، غير أن النتيجة غير المباشرة - أو البعيدة - كانت مختلفة تماماً، إذ أنها زادت من تلاحم المسلمين وتماسكهم، بينما أدت إلى تفتت الجبهة الداخلية للفرنج وضعفها.

لقد بقي الإنسان المسلم عزيزاً على الدولة الإسلامية، كريماً على الأمة الإسلامية، رغم ما أنزلته الحروب الصليبية بساحتها من النكبات، وما تعرض له من البلاء والابتلاء. ولقد أظهر عرض الأحداث مدى اهتمام أمراء المسلمين بجندهم وأمتهم - لا باعتبارهم قدرة انتاجية، ولا باعتبارهم قدرة مقاتلة - بل باعتبارهم كرماء لما كرّمهم الله به من الإسلام ولهذا فكان كل عمل يقوم به الفرنج ضد المسلمين كان أمراء المسلمين يقابلونه برد أقوى، وأكثر عنفاً. وصحيح أنهم لم يستطيعوا مجاراة الفرنج بفظائعهم ومذاجهم، بسبب تناقض هذه الفظائع والجرائم مع الفضائل الحربية للMuslimين، إلا أنهم كانوا في ميادين القتال أشد بأساً على الفرنج، وأقسى انتقاماً، غضباً لله ودينه وأمته، (**أشداء على الكفار رحاء بينهم**).

وقد ظهر ذلك بوضوح أكبر في صراعات المسلمين بعضهم ضد بعض، إذ كان الصراع لا يتجاوز على الأكثر حدود الحصار، والاشتباكات الثانوية. وكثيراً ما حدث أن تنازل أحد الأطراف عن حقه رغم ما يمتلكه من القدرة والقوة، حقناً لدماء المسلمين، وحفظاً لقدراتهم، بينما كان الصراع الداخلي للفرنج يأخذ شكلاً وحشياً رهيباً لا رحمة فيه، مثل ما تعرضت له القسطنطينية على يد الفرنج من نهب وتدمر واستباحة (سنة ٦٠٠ هـ = ١٢٠٣ م). وكذلك ما حدث من قبل، عندما أغرت الكنوز والثروات المترامية في قبرص، أحد الأمراء الفرنج - رينالد شاتيون - بقيادة حملة إلى قبرص (سنة ٥٥١ هـ = ١١٥٦ م). وصفتها المصادر التاريخية بما يلي:

وصار الفرنج والأرمي يذرعون الجزيرة من أقصاها إلى أقصاها، ينهبون ويسلبون كل ما أبصروه من العهائر؛ من الكنائس والأديرة والدكاكين والمنازل الخاصة. وأشعلوا الحرائق في المحاصولات الزراعية، وقاموا بتقطيع القطعان

وساقوها مع جميع سكان الجزيرة الى الساحل . فانتهكت اعراض النساء ، و تعرض للقتل الأطفال والشيخ لعجزهم عن المسير ، وما أجروه من القتل والنهب بلغ من اتساع نطاقه ما قد يحصد هم عليه المون أو المغول ... ولم تنتعش أبداً جزيرة قبرص من التخريب الذي أحدثه الفرنسيون وخلفاً لهم الأرمن » .

فهل من الغريب إن تلامس العامل الاقتصادي ، بالعامل البشري ، وتلامس العامل المادي بالعامل المعنوي ، وتلامست قاعدة جبهة المسلمين وقيادتها ، في إطار المدف الكبير الذي هو الدفاع عن الإسلام وأهله ضد أشرس وأقوى حرب عرفها التاريخ في القدم والحديث ؟ وهل من الغريب أن ينتصر المسلمون ، وقد توافرت لهم العوامل الأساسية لاحراز أي نصر ؟ . لم يكن ذلك أمراً غريباً ، غير أن الظاهرة المثيرة حقاً هي تكامل عوامل الصراع بصورة مذهلة ، وتوازنها ، وتضافرها في إطار هدف الحرب ، وهو المدف الذي صهر في بوقته كافة التناقضات التي كانت تنشب بصورة طبيعية بين المسلمين ، والتي حاول الفرنج استثمارها بكل جهد مستطاع ، فنجحوا أحياناً ، وفشلوا في النهاية . وكان فشلهم من دروس التاريخ التي لا تنسى .

٦ - قصة المعركة الإسلامية وتطورها .

لقد أظهر عرض الأحداث الأشكال المختلفة للمعركة الإسلامية خلال فترة الحروب الصليبية . وأكد هذا العرض تطور المعركة الإسلامية تطوراً كبيراً ، ولكن هذا التطور بقي محدوداً بخصائص فن الحرب الإسلامي وقواعده ، ولعل من أبرز أشكال المعركة في هذه الحقبة ، المعركة التصادمية ، والمعركة الدفاعية ، والمجوم على القلاع والمحصون . ونظراً لاتساع مسرح العمليات ، فقد تطور اسلوب تعبيئة القوات وحشدتها ، وزجها في المعركة . وتلخصت قصة المعركة بصورة عامة بما يلي :

تتجمع جيوش المسلمين في بداية فصل الربع ، وتسير نحو هدفها ، الذي غالباً ما يكون امارة من امارات الفرنج أو مدينة من مدنهم ، فتنضم إليها جيوش المدن القريبة من الهدف ، وتكون طلائع المسلمين وشبكات استطلاعهم واستخباراتهم - جاسوسيتهم - قد اندفعت أمام الجيوش لجمع المعلومات وتحديد قوة العدو ، وأهدافه وتحركاته ، وكثيراً ما تعمل هذه المقدمات على الایقاع بخدمات العدو ، (في كمائن) أو تباغتها بهجمات سريعة ، فتقتل من تقتله منها وتتأسر من تستطيع أسره . ثم هي تخبر أمير الجيش - القائد العام - بما يتوافر لها من المعلومات ، فيتحرك الجيش نحو جيش العدو في ترتيب المسير ، حتى إذا ما وصل الجيشان إلى ساحة المعركة ، نظم الطرفان قواتهما على الشكل المعهود ، مقدمة ، وميمنة وقلب ويسرة ، ومؤخرة وهذا هو التنظيم الذي كان يعرف باسم (المصاف) . وتبدأ المعركة بالاشتباكات ثم تطور إلى قتال عنيف غالباً ما ينتهي بالجسم لمصلحة أحد الطرفين ، وقد ينتهي بدون حسم ، فينسحب الطرفان ، وقد نزلت بقواتها الخسائر ، ويتحقق لكل طرف أن يزعم لنفسه النصر . طالما أنه لا زال يحتفظ بكتلة جيشه الرئيسية وهي في حالة سليمة وقدرة على خوض المعركة من جديد . وقد يجد أحد الطرفين أنه لا يحقق كسباً من خلال المعركة ، فيبادر إلى الانسحاب دون قتال .

لقد أظهر المسلمون تفوقهم في هذا النوع من المعارك، إذ كانوا يحرصون على اختيار الأرض المناسبة لحرب الحركة، والتي تسمح لهم بإجراء التطويق المزدوج، والتي تتوافر فيها امكانات انتشار القوات واحتفائها وتقويتها. فكانوا يعملون على نشر قواتهم خلف التلال، ويدفعون قوة كافية للاشتباك مع الفرنج، ثم يتظاهرون بالهزلية (يتطاردون أمامهم) مما يغري قوات الفرنج للانقضاض بكل ثقلهم على القوة التي تواجههم، غير مدركون أن هذه القوة ليست إلا قسماً من الجيش الأساسي. وعندما يجدون أنفسهم وقد أحاط بهم من كل جانب، فتحتول المعركة إلى مذبحة قاسية. وتحاول قوات الفرنج الخروج من دائرة الحصار، فتفشل في ذلك، إلا فلولاً مزقة منها تحمل جراحها لتخبر عنها تعرضت له قوات الفرنج من كارثة. وقد جرت معركة حطين على هذا النحو، ومثلها كانت معركة عين جالوت، ومثلها أيضاً معركة المنصورة، وكثير من المعارك الكبرى وحتى الصغرى.

لقد عرف الفرنج تفوق المسلمين عليهم في أساليب حرب الحركة، فحاولوا تجنب الاغراء الذي كان يقدمه لهم المسلمون لجرهم إلى أرض القتل، وامتنعوا عن المطاردة في كثير من الأحيان، الأمر الذي حرموا من القدرة على الحسم في ميدان المعركة. وبات باستطاعة المسلمين إذا ما استعصى عليهم إحراز النصر، الانسحاب إلى موقع قريب، وإعادة تنضم قواتهم، أو استقادام قوات دعم إضافية لخوض المعركة ذاتها أو البحث عن معركة جديدة. كما حاول الفرنج اللجوء إلى إقامة الموانع، وحفر الخنادق، لحرمان المسلمين من ميزة تفوقهم في حرب الحركة، إلا أنه كان باستطاعة المسلمين الافادة من نقطة ضعف في تنظيم العدو القتالي للانقضاض عليه. ولقد تطلب ذلك بالضرورة، إجراء عمليات الاستطلاع بالقوة - الاغارات والهجمات المباغطة والانسحاب - لمعرفة حدود التنظيم القتالي للفرنج، وطبيعته، وقوته، من أجل توجيه القوات نحو الهجوم الحاسم الذي يبدأ عادة بتطويق العدو وحصاره.

كانت قوات الفرنج تحاول قدر المستطاع تجنب الصدام في المعركة التصادمية، إلا إذا أمكن لها تحقيق المباغطة. وكان يتم لها ذلك في بعض الأحيان، وعندما تمسك

بالمبادأة، وتزج بقواتها لخوض معركة ضارية. وعندها كانت قوات المسلمين إما أن تخوض المعركة مرغمة - في ظروف غير مناسبة، وغالباً ما كانت تدفع الثمن غالياً، وتنسحب إذا ما استعصى عليها تحقيق النصر، وإما أن تنسحب تحت حماية مؤخرات قوية. لتعيد تنظيم قواتها. ومهمها كان عليه الأمر، فقد تميزت هذه المعارك التصادمية بالعنف الشديد، والذي وصفه المؤرخون بعبارات دقيقة مثل: «اشتد القتال بين الطرفين، حتى أفرغ الصبر، وحتى ظن الطرفان أنه الملاك والفناء». ومثل «اقتتل الناس قتالاً لم يسمع بمثله أحد أو عرفه». وسوى ذلك من التعبيرات التي تبرز مدى ما كان عليه القتال من الشراسة والضراوة، حيث يحاول كل طرف انتزاع النصر مهما بلغ الثمن، ومهمها تطلب ذلك النصر من التضحيات. على أنه كان بالمستطاع في كثير من الأحيان تجنب المعركة التصادمية، نظراً لما تتضمنه من المجازفات والمخاطر والنتائج غير المضمونة. والاستعاضة عنها بتوجيه الضربات إلى المناطق الأضعف والأقل مقاومة. ومثال ما كان يفعله الطرفان عند علمهما بوجود قواتهما في منطقة معينة، فيتم توجيه الضربات العنيفة إلى مناطق بعيدة جداً عن مناطق الحشد. وقد حدث في مرات كثيرة أن وجه المسلمون ضرباتهم إلى مناطق الجليل، أو بلاد الساحل، عندما تكون قوات الفرنج مختشدة في الشمال. أو توجيه الضربات إلى الشمال عندما تكون قوات الفرنج مختشدة في الجنوب. وقد فعل الفرنج مثل ذلك. حيث كانوا يركزون ضرباتهم على مناطق الفراغ، أو مناطق الضعف، بحيث يحققون أكبر قدر من المكاسب المادية والمعنوية، بشمن مقبول أو محتمل. حتى إذا ما توافرت لهم المعلومات عن تحرك جيوش كبيرة من المسلمين لقتالهم. انسحبوا سراعاً وعادوا إلى قواعدهم - مدنهم وأمارتهم - مكتفين بما حققوه من نصر، وما حصلوا عليه من الغنائم.

أدرك المسلمون منذ البداية أن الإمارات التي أقامها الفرنج على أرض بلاد الشام، تشكل مع مملكة القدس جبهة واحدة، وأن هذه الإمارات، مع مملكتها، ما هي إلا قواعد للعدوان والتوسيع. ولهذا فقد ترك الجهد الأساسي للمسلمين لحصر هذه (الممتلكات) التي سيطر عليها الفرنج، ضمن حدودها، وبذلوا كل ما في وسعهم لاستنزافها وعدم السماح لها بالتلوّس. ولهذا كانت أي ضربة على أي إمارة تحقق

المدف ، بشرط أن تستنزف هذه الضربات من جهد الفرنج وقدراتهم بأكثر ما تلحق الضرر بال المسلمين . ولذا كان تجنب المعركة الخامسة - التصادمية - من مصلحتهم . وكان الفرنج بدورهم يريدون المحافظة على قواعدهم التي استولوا عليها ، ومن ثم متابعة التوسيع . فكانت ضرباتهم في مناطق الفراغ - أو النقاط الضعيفة ، وتجنب المعركة التصادمية ، هو في مصلحتهم . ولذا تميز الصراع بالمسيرات الطويلة والهجمات العنيفة ، والانسحاب السريع . وكان كل طرف يحقق كسباً في منطقة من المناطق ، أو في إمارة من الإمارات ، ليخسر - عن طيبة خاطر - في مناطق أخرى . ولهذا تدخلت الحدود - كتدخل أسنان المشط - وبرزت القلاع والمحصون على خطوط غير منتظمة . إلا أنها ذات أهمية طبوغرافية - جيوستراتيجية حاسمة .

لقد ظهرت للمسلمين فائدة التعامل مع جبهة الفرنج على أنها جبهة واحدة في مناسبات كثيرة ، كان أولها وأوضحتها عندما توجهت قوات المسلمين إلى مصر . ففي المرات الثلاث - أو الحملات الثلاث - واجه أسد الدين شيركوه ، وابن أخيه صلاح الدين الأيوبي - ثقل قوات الفرنج المتفوقة على أرض مصر . فما كان من نور الدين زنكي إلا أن قام بهجمات ضخمة هدد فيها إمارات الفرنج وملكتهم في القدس تهديداً خطيراً مما أرغمهما على الانسحاب من مصر وتحجيف الضغط عن قوات المسلمين فيها . وحدث مثل ذلك أيضاً أثناء حملة ملك فرنسا - لويس التاسع - على دمياط والمنصورة . وتكررت هذه الظاهرة . مما أرغم الفرنج على الاحتفاظ بقوات كافية في قلاعهم ومحصونهم ، للدفاع عنها وحمايتها ، الأمر الذي أدى وبالتالي إلى حرمان الفرنج من قدرتهم الحركية ، ووضع حدأً لحرية عملهم العسكري ، وبهذا صار باستطاعة المسلمين حشد أكبر قدر من قواتهم للاستيلاء على الهدف الذي يريدون ، وإعادة فتح القلعة والخصن الذي يرغبون ويصممون . وتحولت بذلك كافة مراكز الفرنج القوية إلى نقاط ضعيفة ، مما ساعد على إعادة فتحها وطرد الفرنج منها .

يظهر ذلك بوضوح مدى التطور الكبير ، والتعقيد الشديد الذي بلغه فن الحرب الإسلامي ، أيام الحروب الصليبية . ولم يكن هذا التطور وذاك التعقيد مقتضاً على المفاهيم أو الأسس الاستراتيجية ، وإدارة الحرب ، وإنما كان شاملآً

لفن العمليات وحق المستوى التعبوي - أو التكتيكي - . ولئن كان الفضل في هذا التكامل يعود إلى المذهب العسكري الإسلامي الذي تحدّث معاليه منذ الأيام الأولى لفتح العرب المسلمين ، فإن الفضل في تطوره وارتقاءه إنما يعود لقادة الحرب الكبار الذين أخْبَطُهم الأمة الإسلامية من بين صفوف الزنكيين والأيوبيين والماليك ، وذلك دونما انتقاص لجهود الحشود المائة من جند الله ، المجاهدين في سبيله ، والذين كان لتضحياتهم وصدق جهدهم وجهادهم ما ساعد على هذا التطور .

اضطلعت البحرية الإسلامية التي اتخذت من الموانئ المصرية قواعدها ، بدور كبير في الصراع ضد الفرنج الصليبيين . وكان من أهم الواجبات التي نفذتها :

- ١ - نقل القوات والامدادات للمدن الإسلامية الساحلية عند تعرضها للحصار .
- ٢ - احکام الحصار على مدن الفرنج الساحلية بالتعاون مع القوات البرية .
- ٣ - مهاجمة أساطيل الفرنج وقواعدهم في قبرص وعلى سواحل بلاد الشام .
- ٤ - التعرض لاساطيل الفرنج وسفنه التجارية وقوافل امداداتهم البحرية .
- ٥ - مطاردة قوات الفرنج في البحر الآخر - مثل مطاردتها لقوات رينالد شاتيون الذي حاول غزو الحجاز - .
- ٦ - التعاون مع القوات البرية في عمليات خاصة (مثل حصار القوات الفرنسية في دمياط) .

ومن الواضح أن هذه الواجبات مائة لواجبات القوات البرية . ومتكمالة معها . فهي بذلك النموذج البسيط لما هي واجبات القوات في الأزمنة الحديثة ، مما يؤكد مرة أخرى التطور الكبير الذي بلغه فن الحرب الإسلامي أيام الحروب الصليبية . ولقد تميزت الأعمال البحرية الإسلامية بالروح المجنونة ، مثلها كمثل الأعمال البرية . كما اشتربت مع القوات البرية . بميزة امتلاك القدرة الحركية العالية واستخدام هذه القدرة في القتال لتحقيق هدف الحرب . ولقد برزت في هذا المضمار أسماء عدّ من أمراء البحر ، لعل أوفرهم خطأ هو (حسام الدين لؤلؤ) الذي اقتنى اسمه بالأعمال القتالية الكبرى في أيام صلاح الدين الأيوبي ، والذي أمكن له تحقيق انتصارات حاسمة

على القوات البحرية للفرنج. ولقد تعرضت البحرية الإسلامية لکوارث ونكبات غير أنها كانت قادرة باستمرار على استعادة قدرتها وامكاناتها بسرعة ، واستئناف دورها في حمل راية الجهاد في سبيل الله ، حيثما تستطيع أن تحملها مياه البحار .

لقد كان من أهم الشروط الواجب توافرها في مثل هذه الحرب المعقّدة . على مستوى ادارة الحرب ، هو تأمين شبكة دقيقة من الاتصالات لتأمين تنسيق التعاون بين القوات البرية المنتشرة على مساحات واسعة ، وللحصول على المعلومات وارسال الأوامر بسرعة ، وتنظيم التعاون بين القوات البرية والقوات البحرية . ولقد أظهر نور الدين محمود - زنكي - اهتماماً كبيراً في تنظيم شبكة الحمام الزاجل (الهوادي) . مع تنظيم شبكة الساعة في كافة البلاد . فبات باستطاعة القائد الحصول على المعلومات واتخاذ القرارات وتنفيذها في الوقت المناسب . ولقد ظهرتفائدة هذا التنظيم في مناسبات كثيرة حيث كانت القوات البرية والقوات البحرية تعمل بتنسيق تام وتعاون مطلق ، رغم تباعد المسافات ، ورغم اختلاف القيادات وتبين أساليب عمل قواتها . ويعتبر ذلك برهاناً غير مباشر لما كانت عليه القيادات من التفاهم والانسجام والاخلاص في العمل .

لم يكن ذلك الانسجام والتعاون ليتحقق على كل حال ، لو لم تتوافر للقوات الإسلامية فضيلة (الاستعداد الدائم للقتال) إذ كثيراً ما كان الفرنج يقررون القيام بهجوم كبير في الوقت الذي يكون فيه القائد الأعلى (السلطان أو الملك) قد حرف جيوشه إلى بلادها بعد موسم قتالي صعب وبعد غربة طويلة عن الأهل والأوطان واستعداداً لموسم القتال التالي وعندها يضطر القائد الأعلى لاستدعاء جيوش المدن والأقاليم على عجل ، فتتقدم هذه الجيوش سراعاً لتصل في الزمان المحدد إلى المكان المعين كمنطقة حشد ، لتبدأ دورة قتالية جديدة . وكثيراً ما حدث أيضاً أن وصلت قوات دعم كبيرة للفرنج التي لم تكن تنتظر طويلاً على الساحل لتبادر بالهجوم . وفي أحيان أخرى كانت جيوش المسلمين ، تصاب بانتكasaة ، أو تجد نفسها أمام موقف يتطلب إجراء حشد أكبر للقوى . مما يتطلب بالضرورة استنفار جيوش المسلمين التي برهنت الأحداث أنها كانت على استعداد دائم للقتال ولتلبية كل نداء إلى حيث يتطلب

الموقف. ولعل الظاهرة المثيرة في ذلك كله هو أن استدعاء الجيوش العاجل، كان يأتي غالباً في أعقاب حدث هام، أو مذبحة يتعرض لها المسلمين، وكان من طبيعة الأمور - وفي ذاك العصر خاصة بحسب الشواهد التاريخية المتوفرة، ومنها تجربة الحروب الصليبية ذاتها - أن تظهر الجيوش نوعاً من التقاус أو التكاسل، في حين كان موقف الجيوش الإسلامية مناقضاً، إذ كانت النكبات والكوارث تزيد من مشاعر الغضب، وتحفز على المزيد من خوض غمار القتال. وقد يكون من الصعب تفسير هذه الظاهرة بغير إرجاعها إلى موقعها من فن الحرب الإسلامي المستند في مركزاته وقواعديه إلى الدين الإسلامي.

وكما كان دور الدين الإسلامي، ومذهبه العسكري، أساساً وحاصلـاً في الاعداد القتالي للقوات، فقد كان دوره مماثلاً في تنظيم العلاقة بين قادة المسلمين وقواتهم، ولقد كان أمراء الزنكيين والأيوبيين والماليك، نسيجاً واحداً رغم تباين قبائلهم واختلاف شعوبهم وتبعاد مواطنهم وظروف نشوئهم وبروزهم على سطح الأحداث. فقد كانوا جميعاً نماذج رائعة في التجدد والاخلاص والتضحية وسواها من الفضائل القيادية والفضائل الحربية، إنها لا تختلف أبداً عن نماذج السلف الصالح من أمثال خالد ابن الوليد وأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص والقعقاع بن عمرو التميمي وسواهم من لا يطahهم حصر. ولا يجمعهم إحصاء. فكانت علاقتهم بجندهم قائمة على العمل المشترك للهدف الواحد، وهذا لم تكن هذه العلاقة هي علاقة مصلحة - ولو أنه كان من مصلحة الأمراء وجندهم إقامة مثل هذه العلاقة والمحافظة عليها - بل كانت علاقة نبيلة لارتباطها بالهدف النبيل للحرب ذاتها. وهو الهدف الذي كان يضمن التلاحم بين جاهير المسلمين وبين جندهم وقادتهم التي تمثل القيادة السياسية والقيادة العسكرية - بمفهوم الأزمنة الحديثة -. وكان دور القيادة أيضاً هو تنسيق الجهد العسكري مع جهد القاعدة الواسعة لجماهير المسلمين.

ما من حاجة للحديث عن مكان القائد في المعركة أيام الحروب الصليبية، إذ أن مكانه بقي ثابتاً ولم يتغير. فهو مع المقدمة والطلائع في التقدم، وهو مع المؤخرة - الساقة - أثناء التراجع والانسحاب. وهو في القلب عند اتخاذ النظام القتالي

(الصف). وهو مع أحد الجناحين بحسب ما يتطلبه الموقف، إنه دائمًا يستأثر بمواطن الخطط، ولم يكن ذاك جبًا بالخطط والمجازفة، وإنما لاتخاذ القرار المناسب وتنفيذه مباشرة، في أشد مواطن الخطط الحاجة، ولطالما أشفع أمراء المسلمين، وشيوخهم، على قائدتهم الأعلى من استئثاره بمواطن الخطط، ولطالما التمسوا منه الاشفاع على المسلمين من مكروره ينزل بهم، إن أصحابه مكروروه. وغريب ما في الأمر أن الاجابة التي جاءت على لسان ذاك النفر من القادة الكبار:

« ومن أنا حتى يقال هذا ، الله الذي حفظ الإسلام وأهله ، هو الذي يتكلف

بهم » .

وكما كان موقعه في الحرب ، كان موقفه أيضًا في الادارة والحكم ، حيث كانت ممارسة هذه الادارة التنقل باستمرار ، بين عاصمة وأخرى ، وقرية وأخرى ، لحت المسلمين على الجهاد ، وتبثة قواهم . والنظر في أمورهم ، ومعالجة مشكلاتهم ، وتأمين متطلباتهم على أساس الحق والعدالة وقواعد الشرع الإسلامي ، مستعيناً في سلمه وحربه بكلبار رجال الدين والفقهاء المخلصين والعلماء الصالحين .

لقد جاء الفرنج الصليبيين إلى بلاد الشام ، وظهرروا على أنهم قوة مجهولة المعالم ، مجهولة القوة ، مجهولة المدف ، وتعامل المسلمون مع مجموعة من القوى المجهولة ، فكانت معاركهم الأولى ، رغم ما ظهر فيها من البطولات ، ورغم ما تميزت به من المهارات والكافاءات القيادية إلا أنها كانت معارك استطلاع بالقوة - إذا ما جاز التعبير - هدفها التعرف على هذا المجهول ، وتحديد النهج الأمثل للتعامل معه ، فكانت تلك المعارك برهاناً على تفوق المسلمين في فن العمليات ، وفي الأساليب التعبوية - التكتيكية - ثم أخذت ملامع الصراع أشكالها الواضحة على مستوى السياسة - الاستراتيجية . وكان الفضل في ذلك لجماهير المسلمين وقادتهم على السواء . حيث كانت عيون المسلمين ترصد بدقة أعمال العدو ، وتنظيماته ، وقواته ، ومواطن ضعفه وقوته . ثم تتناقل هذه المعرفة في وسط الجماهير وقادتهم ، مما أسهم في صياغة المفاهيم المشتركة للصراع ، غير أن ذلك لا ينتقص من دور القيادات الإسلامية في تنظيم

شبكات العيون - الجاسوسية - التي كانت تردد الامراء بفيض من المعلومات الدقيقة والتي كانت في كثير من الأحيان تستخلص من قلب مراكز القوى المعادية، ومن مقر قياداتهم. وكانت هذه المعرفة - للعدو - هي أساس كل تطور أحرزته المعركة الإسلامية، وهي أساس الارتفاع بفن الحرب الإسلامي إلى المرتبة التي بلغها ، والتي أرسلت بظلالها إلى الأزمنة الحديثة. فلا غرابة بعد هذا إن أصبحت معارك الحروب الصليبية موضع أبحاث كثيرة - معاصرة -. حيث يكتشف الباحثون في كل يوم آفاقاً جديدة لم يسبق ارتياحتها ، أو يخرجون بنتائج ودروس مستخلصة تغاير أو تتكامل مع ما سبقها من العبر والدروس .

٦ - التجربة التاريخية للحروب الصليبية .

ومضت أزمنة ودهور ، والجدل مستمر بشأن المعركة الإسلامية أيام الحروب الصليبية . وكثيراً ما يتركز الجدل على (فن الحرب) و (إدارة الحرب) و (فن العمليات) و (الأساليب التعبوية - التكتيكية) . وما كان يقابلها لدى الفرنج . وقد يكون من طبيعة الأمور أن تتبادر وجهات النظر ، وأن تختلف الآراء . فهل كان انتصار المسلمين على الفرنج هو انتصار للهجوم على الدفاع؟ وهل كان انتصار المسلمين هو تأكيد على انعدام دور القلاع والتحصينات ونذيرأً بزوال أهميتها؟ وهل انتصر المسلمون بفضل وحدتهم السياسية (الدينية) بينما كان ضعف هذه الوحدة في القيادة السياسية للفرنج هو سبب فشلهم وهل كان ما توافر للجيوش الإسلامية من قيادات تميزت بكماءتها القيادية العالية هو العامل فيما أحرزه المسلمين من انتصارات؟ وهل كان اختلاف الطبيعة الجغرافية - الطبوغرافية - بين مسرح العمليات الأوروبي، ومسرح العمليات في بلاد الشام ، هو السبب فيما أحرزه المسلمين من انتصارات على الفرنج انتهت بالنصر الكبير في طرد الفرنج من بلاد الشام؟ هذه التساؤلات ، وأمثالها، كثير - لا يدخل تحت حصر - هي بعض ما تضمنته أبحاث الغربيين . وفي الحقيقة فإن استعراضها يظهر أنها جيئها جزئيات في مسألة أشد عمقاً ، وأكثر اتساعاً . وهذه المسألة تكمن في (مفهوم الحرب ذاتها) وفي (عدالة قضيتها) . غير أنه قد يكون من المناسب التعرض لبعض ما جاء فيها . وأولها على سبيل المثال: العلاقة بين الهجوم والدفاع ، وأي من الاثنين هو الشكل الأقوى في الحرب؟ لقد جاء الفرنج من كل أرجاء الغرب، واجتاحوا بلاد الشام من أقصاها إلى أقصاها ، فهل كانت مسيرتهم الطويلة واحتياطهم لبلاد الشام هو عملية دفاعية؟ من الصعب القبول بهذه المقوله ، واعتبار أن التزام الفرنج بالدفاع هو الذي جعلهم يخسرون معاركهم وحروفهم ، إذ أن الفرنج استمروا في ممارسة الأفعال الهجومية حتى المرحلة الأخيرة من وجودهم على أرض الشام . ولقد كانت

هجاجاتهم المتتالية على مصر، ثم هجاجاتهم السنوية - الدورية - على بلاد المسلمين في الشام، إنما هو برهان ثابت على امتلاكهم للقدرة الحركية العالية، واستخدام هذه كثير لا يدخل تحت مصر هي بعض ما تضمنته أي رد الغربيين. وفي الحقيقة فإن اشواطها يظهر أنها جمعها جزئيات في مسألة أشد عمقاً، وأكثر اتساعاً. وهذه المسألة القدرة في الأعمال المجنونة. ولكن المسلمين تفوقوا على الفرنج في مجال السياسة الاستراتيجية كما تفوقوا عليهم في فن العمليات، فحرمواهم من حرية عملهم العسكري، واستنزفوا قدرتهم، فأمكن لهم الانتصار عليهم. أما الاعتماد على قصة القلاب والتحصينات التي استخدمها الفرنج في بلاد الشام، وأقاموا فيها، واعتبارها شاهداً على نهج الفرنج الدفاعي، فهي قصة تفتقر للدقة والواقعية، إذ برهن عرض الأحداث أن هذه القلاب والتحصينات ما كانت - بالنسبة للفرنج - إلا القواعد المتقدمة للعدوان والتوسيع على حساب بلاد المسلمين. أما عن قصة نجاح المسلمين في إعادة فتح القلاب والمحصون - دفعه واحدة - فهي ليست قصة انتصار الهجوم على الدفاع - ولو أن الهجوم هو الذي ينتصر عادة على الدفاع - بقدر ما هي انتصار التفوق الاستراتيجي، على الضعف الاستراتيجي. إذ أصبح باستطاعة المسلمين وقد امتلكوا هذا التفوق، أن يحشدوا القوى والوسائل الكافية، وأن يعيدوا فتح القلاب والمحصون بعد حرمانها من كل امكانات الدعم الخارجي.

وهنا لا بد من القول أيضاً أن المسلمين قد أظهروا تفوقاً واضحاً في التعامل مع القلاب والمحصون، وفي استخدام وسائل الحصار (المنجنيقات والأبراج وسواها) وفي أعمال النقب والتفجير. ولكن ذلك كله لم يكن ليضمن تحقيق مثل تلك الانتصارات الرائعة، بمثل تلك التضحيات البسيطة نسبياً - أو المقبولة -. لو لم يمتلك المسلمون ميزة التفوق الاستراتيجي - على نحو ما سبق ذكره -. أما عن القلاب ودورها التاريخي في الدفاع، فهو أمر لا يقبل الجدل أو المناقشة، فالمعروف أن الدفاع والهجوم هما مرحلتان متكمالتان، لا غنى لأحداهما عن الأخرى، وقد كان دور القلاب والتحصينات في الماضي مماثلاً تماماً لما هو عليه دور التحصينات الدفاعية في الأزمة الحديثة، وقد عرف المسلمون ذلك وأتقنوه، كما عرفه الفرنج أيضاً واستخدموه، بدلالة إقامة القلاب والمحصون في مناطق الحدود بين دول أوروبا، لاسيما في الفترة التي

أعقبت الحروب الصليبية، حيث أخذ الأوروبيون عن المسلمين كثيراً من فن بناء القلاع وتحصينها وتزيينها واستمر ذلك حتى استخدام البارود في المدفعية فانتقلت القلاع والتحصينات من الذرى والقمم لتأخذ مكانها في باطن الأرض. وجاءت النار النووية لتزيد من عمق هذه التحصينات بعيداً عن ظاهر الأرض.

يمكن الانتقال بعدها إلى ما قيل عن تفوق المسلمين في وحدتهم السياسية - الدينية - رغم ما وقع بين ملوك المسلمين وامرائهم من صراعات وصلت في مرات كثيرة إلى الحرب. فتلك حقيقة لا تقبل الجدل، إلا أنه لا بد من التوقف مرة أخرى عند بعض ظواهر هذه الوحدة وعوامل تمزقها.

لقد كانت الوحدة بين أقطار العالم الإسلامي هي الحالة الطبيعية التي فرضها الإسلام في تنظيم المجتمع الإسلامي، غير أن هذه الوحدة كانت تتعرض بصورة استثنائية للتمزق - لعامل شخصي أو مصلحي عارض - فكان يتم قتال الفئة الباغية إلى أن تفيء إلى أمر الله - القاضي بالطاعة والجماعة، وتبعاً لذلك كان هذا الذي يخرج عن الجماعة، أو ذاك الذي يقاتل لوحدة الجماعة يحتكمون إلى المسلمين، وكانت موازين هذا الاحتکام هي العمل لخير الإسلام والمسلمين. فكان المتخاصمون كل يبذل جهداً أكبر لما فيه هذا الخبر، ولما تقتضيه مصلحة المسلمين ومن هنا كانت الخصومات والمنافسات سرعاً ما تنجلی عن وحدة اتفاق، نظراً لوحدة الهدف. وقد حدث كثيراً أن استعان بعض أمراء المسلمين بالفرنج، واستنصروا بهم على أخوانهم المسلمين، ثم لم يلبثوا أن سارعوا للندم والتوبة، فأعادوا تقويم مواقفهم، وارتضوا بحكم الطاعة والجماعة. وقد حدثت أمثلولات مشابهة لدى الفرنج، كما كان موقف كونت طرابلس - ريموند - قبل معركة حطين، غير أنها كانت حالة استثنائية بينما كان النقيض هو الحال الاستثنائية عند المسلمين الذين كانت الطاعة والجماعة هي أساس تنظيم مجتمعهم وحياتهم.

وقد يكون من طبيعة الأمور في مجتمع هذه سماته، وهذه فضائله، وقد جاءه التحديات الثقيلة، أن ينجب أجيالاً من القادة الذين توافرت لهم كفاءة قيادية عالية - على مختلف المستويات القيادية - مثل ذلك كمثل ما حدث في عهد النبوة، عندما

أنجب المجتمع العربي الإسلامي أجيالاً من القادة، لم تعرف الدنيا نظيرًا لهم ولا مثيلاً في تجردهم وآخلاقهم وكفاءتهم. وتقود هذه المقارنة إلى حقيقة ثابتة ومعروفة - بالنسبة للمسلمين على الأقل - وهي أن الفضل في تكوين مثل هذه الفئة القيادية، إنما يعود إلى مدرسة الإسلام الدينية، التي صاحت للمسلمين مذهبهم العسكري، وحددت لهم نهجهم الواضح في أمور سلمهم وحربهم.

لقد زعم الباحثون والمؤرخون الغربيون - فيما زعموا - أن فشل الحروب الصليبية، إنما يعود في قسم كبير منه لاختلاف الطبيعة الجغرافية والطبوغرافية، حيث كانت السهول، الفسيحة، والصحاري المتدة، تسمح للمسلمين باظهار تفوقهم في حرب الحركة. بينما اعتاد المقاتلين الصليبيين على إظهار تفوقه في المناطق الجبلية ومناطق الغابات التي تسمح بالاختباء والتمويه وتنظيم الدفاع، وتحقيق الهجوم المباغت. وقد لا تكون هناك حاجة للرد على مثل هذه المزاعم. فلقد خاض العرب المسلمون حروبهم، وانطلقوا من صحراء الجزيرة إلى رحاب الدنيا التي ضمت السهول والجبال، المناطق الحارة والمناطق الباردة، الغابات والمناطق الجرداء، واستطاعوا التعامل مع البيئات الطبوغرافية المختلفة والأحوال المناخية المتباينة، فسارت جيوشهم عبر الصحاري المقفرة إلى الغابات المكتضة ومن السهول الرحبة إلى الجبال الوعرة. وقد جاء الخلف من المسلمين فساروا على هدى أسلافهم، ولم تشكل لا الموضع الطبيعية ولا الظروف الجوية عوائق أمام مسيرتهم الضاغفة. ومقابل ذلك، فقد جاء الفرنج إلى بلاد الشام، واجتاحوها وأقاموا إماراتهم على أرضها، وبذلك أكدوا أن الأحوال الجوية واختلاف الطبيعة الجغرافية، لم تشكل عائقاً أمامهم. واستقر الفرنج في بلاد الشام زهاء مئي عام. وتوالدت أجيال منهم على أرض بلاد الشام، فصاروا من حيث التكيف مع المناخ والتكيف مع الطبيعة الحيوانية استراتيجية مثلهم كمثل المسلمين سواء بسواء. وبالاضافة إلى ذلك، فإن الإمارات التي أقاموا حكمهم فيها: (الراهء، انطاكيه، طرابلس، صيدا، القدس) تشبه في كثير من ملامحها بعض أقاليم أوروبا، بجيالها وغاباتها، بأمطارها واعتدال مناخها، بأنهارها ومياهها. ولا ريب أن العامل الجغرافي، وعامل المناخ، من العوامل التي تلقي بثقلها في تحديد مجريات الأعمال القتالية، لاسيما في الأزمات الغابرية، غير أنها هنا لم تكن ذات ثقل كبير، وإذا كان لها شيء من الثقل، فهو ثقل يقع على

عاتق الأطراف المتحاربة جميعها ، وليس على عاتق طرف دون الآخرين .

يمكن بعد ذلك تجاوز كل ما يحتمل قوله من الحجج والذرائع لتعليل فشل الحملات الصليبية القديمة ، من وجهة نظر الغربيين ، ذلك أن تلك الحجج والذرائع جميعها تتجاوز حقيقة أساسية وثابتة ، وهي أن الإسلام وجنته كانوا أقوى من الفرنج في عقيدتهم الدينية ، وفي مذهبهم العسكري ، وهذا هو سبب انتصارهم . وأما ما قيل بعدئذ من الحجج ، وما يحتمل أيضاً قوله ، فهو ليس إلا تمسك بالظواهر ، وإلا إمعاناً في التضليل والخداع - خداع الآخرين وليس خداع الذات - إذ أن أصحاب تلك التفاسير يعرفون يقيناً السبب الحقيقي لانتصار الإسلام وأهله .

لقد زعم كثير من المؤرخين والباحثين الغربيين أنهم لم يجدوا في المذهب العسكري الإسلامي ، وفي فن الحرب الإسلامي ما يمكن تعلمه ، بينما وجدوا في كثير من العلوم والفنون والأداب ما يمكن تعلمه . وقد يكون ذلك صحيحاً في مجال فن الحرب ، إذ أن التعلم يتطلب استعداداً مسبقاً للتعلم ، كما يتطلب تطوراً فكريأً مناسباً . ويظهر أن الفرنج في تلك الحقبة كانوا يفتقرن مثل ذاك الاستعداد ، فاستعصى عليهم اكتساب العلم والمعرفة ، واكتفوا باكتساب الظواهر فقط ، وقد جاءت تفسيراتهم وتعليلاتهم بعدئذ موجهة لهذه الظواهر . فماذا يتعلمون من المسلمين وهم الذين جاؤوا لمحاربتهم؟ - عقيدتهم الدينية ومذهبهم العسكري المستند إليها؟ أم فضائل المسلمين الحرية والمستندة إلى شريعة الله؟ أم مؤهلات القيادة الإسلامية والتي حدد الإسلام قواعدها ومرتكزاتها؟ . وإذا فقد كان إعراض الفرنج عن التعلم ليس جهلاً أو تجاهلاً ، وإنما كان إمعاناً في الصلال وإيغالاً في الجحود والانكار . ولم يكن باستطاعة المسلمين بداعه فرض علومهم العسكرية وفق الحرب المتوافر لهم على الفرنج ، وهو على مثل هذه الحالة من التصub الأعمى والانغلاق الفكري .

قام الفرنج الصليبيون بعد أن تم طردتهم من بلاد الشام بتنظيم حملة صليبية جديدة ، انطلقت من قبرص ، وهاجمت الاسكندرية (سنة ٧٦٧ هـ = ١٣٦٥ م) ونهبتها ودمرتها . وقد جاء في تاريخ الحروب الصليبية (٢/٧٤٦) ما يلي :

«احتفل الصليبيون بانتصارهم ، بما ارتكبوه من وحشية لا مثيل لها ، وما وقع

من الحرب المقدسة التي استمرت نحو مئي وخمسين عاماً، لم تعلم الصليبيين شيئاً عن الإنسانية. فما أجروه من المذابح لم يضارعوا سوى تلك التي حدثت في القدس سنة ١٠٩٩ م. وفي القسطنطينية سنة ١٢٠٤ م) ولم يبلغ المسلمين هذه القسوة والوحشية عند استيلائهم على أنطاكية أو عكا».

والمعروف أيضاً أن الصليبيين لم يتوقفوا عن الكيد للإسلام والمسلمين، بما عمر قلوبهم من الحقد الأسود والكراهية البغيضة ضد الإسلام وأهله. ووقع على عاتق الاتراك العثمانيين عبء مواجهة الحملات الصليبية ونقلها إلى أوروبا. وكان منها الحملة الشهيرة باسم حملة نيكوبوليس (سنة ٧٩٩ هـ = ١٣٩٦ م). والتي جاء في المصدر السابق ذاته (٢٦٤/٣) بصدقها ما يلي: «وصلت الجيوش الغربية الى بودا - بست ، وقد ضمت ما زاد على مئة ألف عسكري... ولم يكن السلطان العثماني بايزيد من جانبه متواكلأً، فعندما بلغته الانباء بأن الحملة الصليبية احتشدت في بلاد المجر ، كان يحاصر القسطنطينية ، فبادر بايزيد على الفور الى استدعاء كل من في متناول يده من العساكر ، وتوجه بهم صوب الشمال ، الى نهر الدانوب . وجرى تقدير عدد جيشه بما يزيد على مائة ألف رجل.

على أن فرسان الغرب لم يتعلموا شيئاً من تجربة استمرت ثلاثة قرون، فحينما جرت مناقشة خطة الحملة في - بودا - نصح ملك المجر سيمسوند - بالتخاذل خطة الدفاع إذ كان يعلم ما عليه قوة خصمه . فاعتقد أنه لمن الخير أن يستدرجوا الاتراك إلى داخل بلاد المجر ، ثم يهاجمونهم من موقع سبق إعدادها وتجهيزها ... غير أن حلفاءه كانوا كالمحاربين الصليبيين الأوائل يرون اتخاذ خطة هجوم كبير ، فيتغلبون على الاتراك ، وتتقدم الجيوش المسيحية منتصرة في الأناضول ، الى بلاد الشام ، والى القدس ذاتها . وكان العساكر من العنف ما حمل سيمسوند على الاذعان».

والمعروف أن هذه الحملة الضخمة التي اعتبرت أضخم حملة حشدتها الغرب للقضاء على المسلمين، قد تحطمته وتمزقت عندما وصلت الى نيكوبوليس واصطدمت بقوات الاتراك المسلمين ، الذين نظمهم السلطان بايزيد تنظيماً رائعاً ، بذات الطريقة التي جرت عليها احداث معارك المسلمين في حطين وعين جالوت وسواها .

هكذا لم يتعلم الفرنج الصليبيين شيئاً لا من فضائل المسلمين، ولا من طرائقهم القتالية. وأساليبهم التعبوية - التكتيكية -. وقد يكون من غير المهم أن يتعلم الفرنج الصليبيون شيئاً من المسلمين، بل لعله من الخير للMuslimين أن يتلهموا، ولكن ما بال المسلمين يهجرون تجربتهم الذاتية، وما ضمته من دروس وعظات لازالت تحتفظ بكل فائدتها وقيمتها وأهميتها؟ أم تراهم صرفوا عنها - بتخطيط اعدائهم وتنفيذهم - فانصرفوا طائعين مختارين للأخذ بما يضرهم ولا ما ينفعهم شأنهم في هذا كمثل شأنهم في سائر أمور دينهم ودنياه؟ .

وتبقى التجربة التاريخية للحروب الصليبية، محفوظة بالكثير الكثير من قيمتها وفائدها ، لا بالنسبة لفن الحرب فقط ، وإنما أيضاً بما رافق هذه الحرب من تطورات على مستوى السياسة الاستراتيجية ، وعلى مستوى اقتصاد الحرب ، وعلى المستوى الاجتماعي ، وحتى على المستوى السكاني - الديموغرافي - .

لقد تميزت الحروب الحديثة بتعقيداتها الكبير ، على كافة الصعد والمستويات ، بداية من إدارة الحرب ونهاية بتنفيذ أعمالها القتالية على مستوى الوحدات الصغرى. واختلطت فيها أعمال الهجوم بالتنظيم الداعي ، واشتبكت فيها عمليات القوات النظامية بعمليات الانصار والعصابات (الحروب الثورية). وقد أظهر عرض الأعمال القتالية في الحروب الصليبية القديمة أنها كانت على مثل هذا المستوى من التعقيد. وليس هذه هي الصلة أو الرابطة الوحيدة التي تصل تجربة الماضي بحروب الأزمنة الحديثة ، بل هناك الكثير من الضواهر المشتركة: وهل هناك ثمة اختلاف كبير بين توصية ريتشارد قلب الأسد . بتوجيهه الحملات الصليبية إلى مصر لعزلها عن عالمها الإسلامي . وبين المحاولات الحديثة للحملات الصليبية الراهنة لعزل مصر عن عالمها العربي - الإسلامي؟ . وهل تختلف المحاولات الصليبية القديمة عن الحملة الحديثة من حيث إصرارها على الاحتفاظ بالقدس وإيقاعها تحت حكم أعداء الإسلام والمسلمين؟ . ثم هل يختلف تعاون المغول - التتار مع الفرنج في الأزمنة القديمة ، رغم ما بين المسلمين المتناقضين ، عن تعاون مراكز القوى المعادية للإسلام وأهله في الأزمنة

الحديثة؟

٦ - إِنْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٌ مِّنْ كَانَ لِهِ قُلْبٌ .

ما أشد ضراوة تلك المخوب والحملات الصليبية التي شنها الغرب على الإسلام والمسلمين. في بينما كان المسلمون على أرض الأندلس يخوضون حرباً لا هواة فيها، كان إخوانهم في المغرب العربي - الإسلامي وفي جزائر البحر الأبيض المتوسط - ينazuون الفرنج الصليبيين ويقاتلوهم على كل شبر ، فيما كان المسلمون في بلاد الشام يجاهون الفرنج الذين جاؤوا من كل فج عميق ، وكلهم يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم. ونهض المسلمون في كل مكان ، وقد عرفوا أن الله متم نوره ولو كره الكافرون. وما كان عليهم إلا أن ينصروا الله حتى يتم الله وعده وينصر عباده. وصدق المسلمون ما عاهدوا الله عليه ، فصدقهم الله وعده ، وأعزّ جنده ، وهزم الأحزاب وحده.

لقد تداعت الدنيا على المسلمين ، وضاقت على المسلمين بما راحت ، وفي وسط ظلمة الليل القائمة ، حيث زلزلت الأرض زلزاها ، وأذهب الروع كل ذات حل عن حلها ، ما وهن المسلمون ولا ضعفوا ، ما اهتز منهم اليقين ، ولا ضاع منهم الحرج ، ولا ذهب عنهم الادراك والوعي ، وكان ذلك من أروع ما أبرزته التجربة التاريخية. للحروب الصليبية القديمة. فعندما وصلت حملة الفرنج الصليبيين الى دمياط ، ظن الناس - من المسلمين وغير المسلمين - أن الدنيا قد مدت بهم أو كادت - ووصلت القلوب الى الخناجر ، فهذا سيكون من أمر المسلمين وقد أوشك الفرنج على امتلاك مصر فيما كانت حشود المغول التتار تدق بعنف أبواب العراق بعد أن اجتاحت كل أقاليم المشرق العربي - الإسلامي .

وأشرقت ظلمة الليل بانتصار المسلمين في المنصورة. وانزاح الهم عن صدور المسلمين. ومرة أخرى. أدهمت ظلمة الليل ، فقد اجتاح المغول التتار عاصمة الإسلام

وال المسلمين - بغداد -. وأزالوا الخلافة أساس وحدة الطاعة والجماعة - وموضوا في زحفهم الظافر فاجتاحتوا بلاد الشام ، ودقوا أبواب مصر بقوة وعنف . وكان أمراً غريباً أن يقدم المفتر قطوز على شنق رسول هولاكو الذين جاؤوا - وهم يتوقعون استسلام وثيقة استسلام مصر . فأي قوة هذه التي اعتمدتها قطوز وهو يرفض التحدي الذي فرضه عليه المغول التتار؟ إنها قوة الإيمان ، لا أكثر ولا أقل . وبروح الإيمان هذه ، قاد قطوز جيشه إلى فلسطين ، وتبددتظلمة مرة أخرى ، وأشرق الضوء الباهر من عين جالوت ، فأعاد لذينا المسلمين بهجتها وصفاءها .

لم تكن الحملات الصليبية التي عرفها المسلمون في بلاد الشام إلا فصلاً محدداً من فصول الصراع الممرين الذي خاضه المسلمون في تلك الحقبة التاريخية ، فبينما كان المسلمون في الشام يمارسون تجربتهم القتالية مع الفرنج الصليبيين ، كان إخوانهم في أقصى المشرق يمارسون تجربة مماثلة مع المغول التتار ، ومع بلاد الهند ، حيث استمر الصراع عشرات السنين ، قبل أن يتمكن المغول من الوصول إلى بلاد العراق والشام . ولم تكن فصول هذا الصراع أقل عنفاً ولا أقل إثارة من تلك التي عرفها الفرنج في بلاد الشام .

ومن الشمال ، من أقصى الشمال ، انحدر الكرج في حالات سنوية أو دورية منتتظمة للاغارة على بلاد المسلمين في بلاد فارس ، وفي أذربيجان ، وفي أي بلاد تصله قواتهم ، وكان على المسلمين هناك أن يخوضوا حرباً ضارية ضد الغزو والأعمال العدوانية المتكررة .

هكذا اشغل كل إقليم من إقاليم المسلمين بهمومه ويتبعه ، وبشكلاه ، وحمل المسلمين السلاح في كل مكان ، ضد من يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواهم وبأيديهم وبسلاحهم وبكل ما يستطيعون حشده من أجهزة القتل والابادة .

وكأن ذلك كله لم يكن كافياً ، وكان كل مسلم يحتاج كل قوى الدنيا حتى تنال منه . وكان كل مسلم حقاً أقوى من كل قوى الشر والعدوان - ولم يطاله إلا ما كتبه الله له . فانتصر في كل مكان ، وكان كل نصر على أي جبهة من الجبهات هو انتصار

ل كافة المسلمين في كل مكان ، ولعل أكبر انتصار حققه المسلمون هو انتصارهم على أعداء الداخل ، الذين شكلوا أعظم ابتلاء على أمّة المسلمين ، وشعورها المختلفة .

كان الباطنية - أو الإسماعيلية - قد نشروا شبكتهم المنظمة في جميع بلاد المسلمين ، وأفادوا من انصراف المسلمين لقتال أعداء الخارج ، ليشهروا سيفهم في ظهور المسلمين . ونال المسلمين منهم بلاء عظيم ، فقد وجهوا حقدهم الدفين ضد شيوخ الإسلام - السنة - وعلمائهم وامرائهم وقادتهم . وقتلوا خيار المسلمين غدرًا . ولم يكن باستطاعة المسلمين تجاهل الخطر الداخلي ، فوجهو ما يستطيعونه من جهد للقضاء على أعداء الداخل . ولكن لم يكن لديهم لا القوى ، ولا الظروف الزمنية ، ولا الامكانيات ، لاستئصال شأفتهم وتدميرهم ، فاستشاط شرهم وقويت شوكتهم ، وعم بلاؤهم ، وظن المسلمون أنه لا خلاص منهم ، وأثناء ذلك كان هؤلاء يتعرضون لضغوط داخلية وخارجية ، فهم مسلمون في اعتقادهم وهم حرب على المسلمين في واقعهم وحقيقةهم ، وإذا هم وصلوا إلى ما يريدونه ، وجدوا أنهم في ضلال بعيد ، مما حمل زعيمهم على حل طائفته للعودة للإسلام (سنة ٦٠٨ هـ = ١٢١١ م) وهو ما ورد في التاريخ بالنص التالي : «أظهر الإسماعيلية ، وقدمهم جلال الدين من سلالة حسن بن الصباح ، الانتقال عن فعل المحرمات واستحلالها . وأمر بإقامة الصلوات ، وشرائع الإسلام ببلادهم من خراسان والشام . وأرسل مقدمهم رسلاً إلى الخليفة وغيره من ملوك الإسلام يخبرهم بذلك ، وأرسل والدته إلى الحج ، فأكرمت بيغداد أكرااماً عظيماً ، وكذلك بطريق مكة ». أما الضغوط الخارجية ، فكانت الخضوع للطوائف الدينية للفرنج (الدولية والاسبارية) ودفع الاتاوة والجزية لها . وعداء المغول التتار . وقد أدى ذلك في النهاية إلى تدمير هذه الطائفة تدميراً مذهلاً على أيدي المغول - التتار ، مما أرغمه في النهاية على العمل تحت راية الإسلام والمسلمين . فكان شأنهم كثأن الطوائف الدينية التي أقامها ونظمها الفرنج للكيد للمسلمين . ثم ما لبثوا أن دمروها . ويعتبر ذلك بدوره تجربة تاريخية مثيرة . إذ أن قيام الكيانات المستقلة بقوة السلاح ، والعنف ، والتطرف ، لن يحمل إلا على العنف المضاد والمزيد من التطرف . مما يؤدي وبالتالي إلى تدمير أعداء الداخل الذين يريدون الخروج على الجماعة وقهرها بقوة الإرهاب .

كيف استطاعت الأمة الإسلامية أن تنتصر على أعداء الداخل وأعداء الخارج؟

كيف استطاع المسلمون الانتصار على ذاهم وعلى أعدائهم؟.

كيف استطاع المسلمون تجاوز نقاط ضعفهم، والافادة من موقع قوتهم؟.

ذلك ليس سرهم، وإنما هو سر الإسلام العظيم، الذي انتصر به المسلمين على أنفسهم، وعلى أعدائهم، فنصرهم الله على ذاهم وعلى أعدائهم.

لم يكن طريق الانتصار سهلاً، فكم كان حجم جيوش الاعداء التي حاولت تدمير الإسلام وأهله؟ قد يكون من المؤسف حقاً عدم توافر بيانات دقيقة عن عدد الجيوش أو الحملات الضخمة التي غزت بلاد الإسلام. ولكنها كانت بالتأكيد أكبر عدداً وأوفر عتاداً مما كان لدى المسلمين. ورغم ذلك فقد نجح المسلمون في القضاء على كل تهديد داخلي وخارجي.

لقد عرف كل مسلم، وكل بلد إسلامي، كبير أو صغير، أنه لا حصن له إلا بالإسلام، فتحصن به وامتنع. وحمل كل مسلم راية الجهاد في سبيل الله، فكان فرض الجهاد هو الذي حفظ للإسلام وأهله وجودهم.

لقد عملت هذه الحروب والتحديات على تبديل البنية السكانية - الديموغرافية - لل المسلمين في بلاد الشام. فعندما جاء الفرنج إلى بلاد الشام. كانت كثير من امارات المدن بيد العرب المسلمين - من أمثال بنو عمار في طرابلس وبنو منقذ في شيزر وبنو كنانة في مصر. فدمر الفرنج قوة العرب المسلمين، ولم يعد لهم وجود ولا ذكر، غير أن وجودهم وتأثيرهم بقي قوياً في التوجيه الديني وفي ممارسة القيادة على مستوى جاهير المسلمين. ولم يكن من المهم بالنسبة للعرب المسلمين تمارسة القيادة العليا، ولكن كان من المهم بالنسبة لهم هو انتصار الإسلام وأهله، وقد تحقق لهم ما أرادواه.

لقد كانت حرباً واحدة ذات هدف واحد رغم امتداد جبهتها الواسعة من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب. ولقد حاول بعض أمراء المسلمين - مثل صلاح الدين الأيوبي - الحصول على دعم من ملوك المغرب والأندلس، معتبراً أن الجبهة الرئيسية

هي جبهة بلاد الشام، غير أن اتساع الحرب وضراوتها لم تترك مجالاً لأي قطر إسلامي، أن يدعم قطراً آخر، وجاء الإسلام لنصرة الجميع، فمن قلب المغول التتار، ظهر الإسلام وانتصر، ومن قلب الفرنج ظهر الإسلام وانتصر، إذ كانت شعوب الترك والتتار قد انسابت عبر سهوب أوروبا الشرقية لتشل حركة الفرنج. وظهرت العلاقة الثابتة بين انتصار الإسلام بأهله، وبين انتصار المسلمين بالإسلام. وحافظت هذه العلاقة على صحتها وعلى قيمتها، منذ ظهور الإسلام وحتى الأزمنة الحديثة.

واليوم، وكما كان عليه الإسلام والمسلمون في أمسهم القريب والبعيد، يجاهون حرباً ضارية على كافة جبهاتهم الداخلية والخارجية، ويتعلّم المسلمون إلى العرب المسلمين الذين أصبحوا شتاناً لا عربياً ولا مسلمين، وقد فقدوا الأرض التي يستندون إليها. وهل يمكن لنصر أن يتحقق بدون قاعدة؟ وأين هي هذه القاعدة؟ لطالما تعب الباحثون في بحثهم عن هذه الأرض في حضارة الغرب وفي عقائد الشرق فما وجدوها لا هنا ولا هناك، وكل يتمسّك بما اعتقاده أنه الأرض أو القاعدة التي يمكن الاستناد إليها، وبذلك ضاعت عن الأنصار أن هذه الأرض التي يزعمون أنها هي المناسبة، ماهي إلا جزء من الحرب الشاملة ضد الإسلام وأهله، ولكن لئن ضاعت هذه الرؤية عن البعض، فإنها لم تغب عن أنصار معظم المسلمين - والعرب المسلمين بخاصة - مما أكدته شواهد لا نهاية لها. فهل تعيش الأمة العربية الإسلامية والشعوب الإسلامية مرحلة المخاض العسير في البحث عن صلاح الدين أو الظاهر بيبرس؟ يقيناً لا ، وإنما بحثها هو لإعادة الفضائل والقيم التي حفظت للإسلام وأهله وجودهم، فلو لا فرض الجهاد في سبيل الله، ما رفع كل مسلم حينما كان سالحاً بحثاً عن أحد الحسينين. ولو لا البحث عن الطاعة والجماعة ما توحدت قوى المسلمين.

واليوم، وكما كان عليه الإسلام والمسلمون في أمسهم القريب والبعيد، يجاهون حرباً ضارية على كافة جبهاتهم الداخلية والخارجية، وقد توّعت طرائق هذه الحرب، وتطورت أساليبها، وتعقدت ظواهرها، غير أنها لازالت تحتفظ بجميع أهدافها. ولعل استعراض مسيرة الأحداث في النصف القرن الماضي كافية لاقناع كل ذي عينين - إذا ما أراد إمعان النظر في حقيقة الأمور - بالحاجة لإعادة تقويم كل ما حدث،

والانطلاق من جديد على قاعدة ما يسمى (بالأصالحة الذاتية) والتي استخدمت بديلاً عن فضائل الإسلام ودين الإسلام، خوفاً أو ضعفاً من ذكر الإسلام وأهله. غير أن مسيرة الأحداث وتطوراتها سترغم كل معاند، وكل مكابر، بأنه لا سبيل غير سبيل الإسلام وتلك هي تجربة الحروب الصليبية التي بدأت ولما تصل إلى نهايتها. فقد توفرت الحملات الصليبية، ولا زالت الحرب المستمرة على أشدّها. وتقدم هذه التجربة التاريخية الفذة معيناً لا ينضب وذخراً لا ينفذ لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

بسام العسلي

قراءات

القدس في يومين مشهودين

دخل الفرنج الصليبيون مدينة القدس يوم الجمعة لسبعين بقين من شعبان سنة اثننتين وتسعية وأربعين. ولبتو فيها أسبوعاً وهم يقتلون المسلمين. واحتسم جماعة من المسلمين بمحراب داود، فاعتصموا به، وقاتلوا فيه ثلاثة أيام، فبذل لهم الفرنج الأمان، فسلموه إليهم، وفيهم الفرنج، وخرجوا ليلاً إلى عسقلان فأقاموا بها. وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم من فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف، وأخذوا من عند الصخرة نيفاً وأربعين قنديلاً من الفضة وزن كل قنديل ثلاثة آلاف وستمائة درهم. وأخذوا تنوراً من فضة وزنه أربعون رطلاً بالشامي - وأخذوا من القناديل الصغار مائة وخمسين قنديلاً نقره. ومن الذهب نيفاً وعشرين قنديلاً، وغنموا منه ما لا يقع عليه الاحصاء. وورد المستنفرون من الشام في رمضان إلى بغداد، صحبة القاضي أبي سعد الهروي، فأوردوا في الديوان كلاماً أبكى العيون، وأوجع القلوب، وقاموا بالجامع يوم الجمعة، فاستغاثوا وبكوا وأبكوا، وذكروا ما دهم المسلمين بذلك الشريف المغضوم من قتل الرجال وسي الحريم والأولاد ونهب الأموال، فلشددة ما أصابهم، أفطروا، فأمر الخليفة أن يسير القاضي أبو محمد الدامغاني وأبو بكر الشاشي وأبو القاسم الزنجاني وأبو الوفا بن عقيل وأبو سعد الحلواني وأبو الحسين بن سماك، فساروا إلى حلوان، فبلغهم قتل مجد الملك البلاساني، فعادوا من غير بلوغ أرب ولا قضاء حاجة. واختلف السلاطين الأتراك، فتمكن الفرنج من البلاد، فقال أبو مظفر الأبيوردي في هذا المعنى أبياتاً منها:

فلم يبق منا عرصة للمراحم
 إذا الحرب شبت نارها بالصوارم
 وقائع يلحقن الذرى بالمناسم
 وعيش كنوار الخميلة ناعم
 على هفوات أيقظت كل نائم
 ظهور المذاكي أو بطون القشاعم
 تجرون ذيل الخفض فعل المسالم
 توارى حياء حسنها بالمعاصم
 وسمر العوالي داميات اللهاذم
 تتضل لها الولدان شيب القوادم
 ليس لم يقرع بعدها سن نادم
 ستغمد منهم في الطلى والمجاجم
 ينادي بأعلى الصوت يا آل هاشم
 رماحهم والدين واهي الدعائيم
 ولا يحسبون العار ضربة لازم
 ويفضى على ذل كمة الأعاجم
 عن الدين ضنوا غيره بالمحارم
 فهلا أتوه رغبة في الغنائم
 فلا عطسوا إلا بأجدع راغم
 إلينا بأخذ النسور القشاعم
 تطيل علينا الروم عض الأباهم
 رمينا إلى أعدائنا بالجرائم

مزجنا دماء بالدموع السواجم
 وشر صلاح المرء دمع يفيضه
 فأيهاب بنى الإسلام إن وراءكم
 أتهوية في ظل أمن وغبطه
 وكيف تنام العين ملء جفونها
 وإخوانكم بالشام يضحى مقيلهم
 تسومهم الروم الهوان وأنتم
 وكم من دماء قد أبيحت ومن دمي
 بحث السيف البيض محمرة الضبا
 وبين اختلاس الطعن والضرب وقفه
 وتلك حروب من يغب عن غمارها
 سلن بأيدي المشركين قواضاً
 يكاد لهن المستجن بطيبة
 أرى أمري لا يشرعون إلى العدا
 ويختبئون النار خوفاً من الردى
 أترضى صناديد الأغاريب بالأذى
 فليتهم إذ لم يذدوا حية
 وإن زهدوا في الأجر إذ حمس الوعا
 لئن أذعنتم تلك الخياشيم للبرى
 دعوناكم وال Herb ترنو ملحمة
 تراقب فيما غارة عربية
 فإن أنتم لم تغتصبوا بعد هذه

* * *

كان ذلك هو اليوم الأول - أما اليوم الثاني فكان يوم ٢٧ رجب ٥٨٣ هـ
 (١١٨٧ م) حيث أعاد المسلمون فتح القدس بقيادة صلاح الدين الأيوبي. وتضمنت

قصة ذلك اليوم المشهود - كما وردت في التراث:

كان صلاح الدين قد أقام بظاهر عسقلان حتى فتحها ، وبث السرايا في أطراف البلاد المجاورة لها ، ففتحوا الرملة والداروم وغزه ومشهد ابراهيم الخليل عليه السلام وتبنين وبيت لحم وبيت جبريل والنطرون ، وأرسل الى مصر - بواسطة الحمام الراجل - يستدعي اسطوله الذي سار فور وصول الاستدعاء ، في جمع من المقاتلة بقيادة مقدم الاسطول الحاجب - حسام الدين لؤلؤ - وهو معروف بالشجاعة والشهامة وين النقيبة ، فأقام الاسطول في البحر يقطع الطريق على الفرنج ، كلما رأى لهم مركباً غنمه ، وشانياً أخذه . وسار صلاح الدين عن عسقلان الى القدس . وكان بها البطرك المعظم عندهم ، وهو أعظم شأنًا من ملوكهم ، وبها أيضاً صاحب الرملة باليان ابن بيرزان وكانت مرتبته عندهم تقارب مرتبة الملك . وبها أيضاً من خلص من فرسانهم من جطين وقد جعوا وحشدوا ، واجتمع أهل تلك التواحي وغيرها ، فاحتشد في القدس كثير من الخلق يرون جميعاً أن الموت أيسر عليهم من أن يلک المسلمين القدس وأخذوها منهم ، ويرون أن بذل نفوسهم وأموالهم وأولادهم هو بعض ما يجب عليهم من أجل الدفاع عن القدس وتخزينها ، فعملوا خلال تلك الأيام بما وجدوا إليه سبيلاً . وصعدوا على سور القدس ، بجدهم وحديدهم ، مجتمعين على حفظها والدفاع عنها بجهدهم وطاقتهم مظهرين العزم على المناضلية دونها بحسب استطاعتهم ، ونصبو المنجنيقات لمنعوا من يريد الدنو منها والتزول عليها . ولما اقترب صلاح الدين منها ، تقدم أمير في جماعة من أصحابه غير محتاط ولا حذر . فلقيه جموع الفرنج قد خرجوا من القدس فقاتلوا وقاتلهم فقتلوا وقتلوا جماعة من معه ، فأفهم المسلمين قتله ، وفجعوا بفقده ، وساروا حتى نزلوا على القدس منتصف رجب ، فلما نزلوا عليه ، رأى المسلمون على سوره من الرجال ما هاهم وسمعوا لأهله من الجلبة ومن الضجيج من وسط المدينة ما استدلوا به على كثرة الجمع .

وبقي صلاح الدين خمسة أيام يطوف حول المدينة لينظر من أين يقاتلها ، لأنه في غاية الحصانة والامتناع ، فلم يجد عليه موضع قتال إلا من جهة الشمال ، نحو باب عمود أو كنيسة صهيون . فانتقل إلى هذه الناحية في العشرين من رجب ، ونزلها ، ونصب

تلك الليلة المنجنقات ، فأصبح من الغد وقد فرغ من نصبها ورمى بها . ونصب الفرنج على سور البلد منجنقات ورموا بها ، وقوتلوا أشد قتال رأه أحد من الناس ، كل واحد من الفريقين يرى ذلك ديناً وحثناً واجباً فلا يحتاج فيه إلى باعث سلطاني ، بل كانوا يمنعون ولا يمتنعون ، ويذجون ولا ينذجون . وكان خيالة الفرنج كل يوم يخرجون إلى ظاهر البلد يقاتلون ويبارزون ، فيقتل من الفريقين ومن استشهد من المسلمين الأمير عز الدين عيسى ابن مالك ، وهو من أكابر الأمراء ، وكان أبوه صاحب قلعة عبر ، وكان يصطلي القتال بنفسه كل يوم .

فانتقل إلى رحمة الله تعالى ، وكان محبوياً إلى الخاص والعام . فلما رأى المسلمين مصرعه عظم عليهم ذلك وأخذ من قلوبهم ، فحملوا حلة رجل واحد ، فأزالوا الفرنج عن مواقبهم ، فأدخلوهم بلدتهم . ووصل المسلمون إلى الخندق فجاوزوه والتتصقوا إلى السور فنقوبه وزحف الرماة يمحونهم ، والمنجنقات تولى الرمي لتكشف الفرنج عن الأسوار ، ليتمكن المسلمون من النسب ، فلما نقوبه حشوه بما جرت به العادة . فلما رأى الفرنج شدة قتال المسلمين وتحكم المنجنقات بالرمي المتدارك وتمكن النقابين من النسب ، وأنهم قد أشرفوا على الهالك ، اجتمع مقدموهم يتشارون فيما يأتون ويدرون ، فاتفق رأيهم على طلب الأمان وتسليم القدس إلى صلاح الدين . فأرسلوا جاعة من كبرائهم وأعيانهم في طلب الأمان ، فلما ذكروا ذلك للسلطان ، امتنع من إجابتهم ، وقال :

« لا أفعل بكم إلا كما فعلتم بأهله حين ملكتموه سنة اثنتين وستعين وأربعين من القتل والسي وجزاء السيئة بمنتها » .

فلما رجع الرسل خائبين محرومين ، أرسل - باليان بن بيرزان - وطلب الأمان لنفسه ليحضر عند صلاح الدين في هذا الأمر وتحريره ، فأجيب إلى ذلك ، وحضر عنده ورغم في الأمان وسأل فيه ، فلم يجده إلى ذلك ، واستعطفه فلم يعطف عليه ، واسترحه فلم يرحمه ، فلما أيس من ذلك قال له :

« أيها السلطان ! أعلم أننا في هذه المدينة في خلق كثير لا يعلمهم إلا الله »

تعالى، وإنما يفترون عن القتال رجاء الأمان، وظنناً منهم أنك تحبهم إليه كما أجبت غيرهم. وهم يكرهون الموت ويرغبون في الحياة. فإذا رأينا الموت لا بد منه، فوالله لنقتلن أبناءنا ونساءنا وخرق أمواالنا وأمتعتنا، ولا نترككم تغنمون منها ديناراً واحداً ولا درهماً. ولا تسرون ولا تأسرون رجالاً ولا امرأة. وإذا فرغنا من ذلك أخربنا الصخرة والمسجد الأقصى وغيرها من الموضع. ثم نقتل من عندنا من أسرى المسلمين وهو خمسة آلاف أسير. ولا ترك لنا دابة ولا حيواناً إلا قتلناه. ثم خرجنا إليكم كلنا وقاتلناكم قتال من يريد أن يجمي دمه ونفسه، وحيثئذ لا يقتل الرجل حتى يقتل **أمثاله**، ونموت أعزاء أو نظرر كراماً.

عاد صلاح الدين فاستشار أصحابه، فأجمعوا على إجابة الفرنج على طلبهم إلى الأمان واستقر الاتفاق على أن يؤخذن من الرجل عشرة دنانير، يستوي فيه الغني والفقير، ويزن الطفل من الذكور والبنات دينارين، وتنزن المرأة خمسة دنانير. فمن أدى ذلك إلىأربعين يوماً. فقد نجا، ومن انقضت الأربعون يوماً عنه ولم يؤخذ ما عليه، أصبح ملوكاً. فبذل باليان بن بيزان عن القراء ثلاثين ألف دينار، فأجيب إلى ذلك.

وسلمت المدينة يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب. وكان يوماً مشهوداً. ورفعت الأعلام الإسلامية على أسواره.

ورتب صلاح الدين على أبواب البلد في كل باب أميناً من الأماء ليأخذوا من أهله ما استقر عليهم. فاستعملوا الخيانة ولم يؤدوا فيه أمانة. واقتسم الأماء والأموال، وتفرقت أيدي سباً. ولو أديت فيه الأمانة، لملأ الخزائن وعم الناس. فإنه كان فيه على الضبط ستون ألف رجل ما بين فارس وراجل، سوى من يتبعهم من النساء والولدان. ولا عجب في ذلك، فقد اجتمع في القدس كل من في تلك النواحي من البلاد التي فتحها المسلمون. حتى امتلأت الطرق والكنائس بهم، وحتى صار الانسان لا يقدر أن يمشي - لشدة الزحام - ومن الدليل على كثرة الخلق أن أكثرهم وزن ما استقر من القطيعة، وأطلق باليان بن بيزان ثمانية عشر ألف رجل وزن منهم ثلاثين ألف دينار.

وبقي بعد هذا جميعه من لم يكن معه ما يعطي. وأخذ أخيراً ستة عشر ألف ما بين رجل وامرأة وصبي. كما أن جماعة من الأمراء ادعى كل واحد منهم أن جماعة من رعية إقطاعه مقيمون بالقدس، فيطلبهم ويأخذ قطيعتهم. وكان جماعة من الأمراء يلبسون الفرنج زي الجندي المسلمين ويخرجونهم ويأخذون منهم قطيعة قررواها. واستوهد جماعة من صلاح الدين عدداً من الفرنج فوهبهم لهم، فأخذوا قطيعتهم، وبالجملة فلم يصل إلى خزائنه إلا القليل. وكان بالقدس بعض نساء الملوك من الروم وقد ترهبت وأقامت به، هي ومن معها من الحشم والعبيد والجواري خلق كثير، ولها من الأموال والجوائز النفيسة شيء عظيم. فطلبت الأمان لنفسها ومن معها، فأمنها وسيرها. وكذلك أيضاً أطلق ملكة القدس التي كان زوجها الذي أسره صلاح الدين قد ملك الفرنج بسببها ونيابة عنها، كان يقوم بالملك، وأطلق مالها وحشمتها، واستأذنته في المصير إلى زوجها وكان حينئذ محبوساً بقلعة نابلس، فأذن لها، فأذنته وأقامت عنده. وأذنته أيضاً امرأة صاحب الكرك، البرنس أرنات (أو رينالد شاتيون) وهو الذي قتله صلاح الدين بيده يوم حطين فشفعت في ولد لها مأسور فقال لها صلاح الدين: إن سلمت الكرك أطلقته لك. فسارت إلى الكرك فلم يسمع منها الفرنج ولم يسلمه، فلم يطلق ولدتها ولكن أطلق مالها ومن تبعها. وخرج البطريرك الكبير الذي للفرنج ومعه من أموال البيع منها الصخرة والأقصى وقامة - القيامة - وغيرها ما لا يعلمه إلا الله تعالى. وكان له من المال مثل ذلك، فلم يعرض له صلاح الدين. فقيل له ليأخذ ما معه، يقوى به المسلمين. فقال: «لا أغدر به». ولم يأخذ منه غير عشرة دنانير. وسير الجميع ومعهم من يحميهم إلى مدينة صور.

كان الفرنج قد وضعوا على رأس قبة الصخرة صليب كبير مذهب، فلما دخل المسلمون يوم الجمعة، تسلق جماعة منهم إلى أعلى القبة ليقلعوا الصليب، فحين صعدوا صاح الناس كلهم صوتاً واحداً من البلد ومن ظاهره، المسلمين والفرنج، أما المسلمين فكبروا فرحاً. وأما الفرنج فصاحوا تفجعاً وتوجعاً. فسمع الناس صيحة كادت الأرض أن تميد بهم لعظمها وشدتها.

فلما ملك المسلمون البلد، وفارق الكفار، أمر صلاح الدين إعادة الأبنية إلى حالتها.

القديم ، فإن الداوية بنوا غربى الأقصى أبنية ليسكنوها ، وعملوا فيها ما يحتاجون إليه من هوى ومستراح وغير ذلك ، وأدخلوا بعض الأقصى في أبنيةهم ، فأعيد إلى الأول . وأمر بتطهير المسجد والصخرة من الأقدار والأنجاس . ففعل ذلك أجمع . ولما كان الجمعة الأخرى - رابع شعبان - صلى المسلمين فيه الجمعة ومعهم صلاح الدين وصلى في قبة الصخرة .

وعندما أذن المؤذنون للصلوة ، قبل الزوال ، كادت القلوب تطير من الفرح في ذلك الحال .

ولم يكن للمسجد خطيب معين ، فأصدر السلطان صلاح الدين - المرسوم الصلاحي - وهو في قبة الصخرة أن يكون قاضي دمشق محي الدين بن الزكى هو الخطيب والإمام في ذلك اليوم . فلبس محي الدين بن الزكى الخلعة السوداء . وبدأ خطبته بقوله :

﴿فَقُطِعَ دَأْبُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

ثم أورد تحميدات القرآن كلها إلى أن قال : الحمد لله معز الإسلام بنصره ، ومذل الشرك بقهقهه ومصرف الأمور بأمره ، ومزيد النعم بشكره ، ومستدرج الكافرين بمكره ، الذي قدر الأيام دولًا بعده ، وجعل العاقبة للمتقين بفضله ، وأفاض على العباد من ظله وهطله ، الذي أظهر دينه على الدين كله ، القاهر فوق عباده فلا يمانع ، والظاهر على خليفته فلا ينazu ، والأمر بما يشاء فلا يراجع ، والحاكم بما يريد فلا يدافع ، أحمده على إظهاره وإظهاره وإعزازه لأوليائه ، ونصرة أنصاره ، ومظهر بيت المقدس من أدناس الشرك وأوضاره ، حمد من استشعر الحمد باطن سره وظاهر أحجاره . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، الأحد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . شهادة من طهرا بالتوحيد قلبه ، وأرضى به ربها ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، رافع الشكر وداعض الشرك ورافض الإفك ، الذي أسرى به من المسجد الحرام إلى هذا المسجد الأقصى ، وعرج به منه إلى السموات العلي ، إلى سدرة المنتهي ،

عندما جنة المأوى، ما زاغ البصر وما طفى، صلى الله عليه وسلم، وعلى خليفته الصديق السابق إلى الإيمان، وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، أول من رفع عن هذا البيت شعار الصليان. وعلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان ذي النورين جامع القرآن. وعلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب مزلزل الشرك، ومكسر الأصنام وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم ياحسان.

تهنئة وتغبيطاً للحاضرين بما يسره الله على أيديهم من فتح بيت المقدس، الذي من فضائله وما ترثه أنه أول القبلتين وثاني المسجدين وثالث الحرمين، لا تشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه. ولا تعقد الخناصر بعد الموطنين إلا عليه، وإليه أسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام، وصلى فيه الأنبياء والرسل الكرام، ومنه كان المعراج إلى السموات، ثم عاد إليه، ثم سار منه إلى المسجد الحرام على البراق. وهو أرض المحشر والمنشر يوم التلاق. وهو مقر الأنبياء ومقصد الأولياء وقد أسس على التقوى من أول يوم.

ثم ذكر تمام الخطيبين، ثم دعا لل الخليفة الناصر العباسي، ثم دعا للسلطان الناصر صلاح الدين. وبعد الصلاة جلس الشيخ زين الدين أبو الحسن بن علي نجا المصري على كرسي الوعظ بإذن السلطان، فوعظ الناس. واستمر القاضي ابن الزكي يخطب بالناس في أيام الجمع أربع جمعات، ثم قرر السلطان للقدس خطيباً مستقراً، وإماماً برسم الصلوات الخمس. وأمر أن يعمل له منبر. فقيل له إن نور الدين - زنكي - كان قد عمل بحلب منبراً أمر الصناع بالمبلاعة في تحسينه وإتقانه. وقال: هذا قد عملناه لينصب بالبيت المقدس. فعمله التجارون في عدة سنين، لم ي العمل في الإسلام مثله. فأمر بالحضور فحمل من حلب، ونصب بالقدس. وكان بين عمل المنبر وحمله ما يزيد على عشرين سنة. وكان هذا من كرامات نور الدين وحسن مقاصده رحمة الله. ولما فرغ صلاح الدين من صلاة الجمعة تقدم بعمارة المسجد الأقصى، واستنفاذ الوسع في تحسينه وترصيفه وتدقيق نقوشه. فأحضروا من الرخام الذي لا يوجد، ومن الفص المذهب القسطنطيني وغير ذلك مما يحتاجون إليه، قد ادخل على طول السنين، فشروعوا في عمارته، ومحوا ما كان في تلك الأبنية من الصور.

وكان الفرنج قد فرشوا الرخام فوق الصخرة وغيبوها فأمر بكشفها . وكان سبب تعطيتها بالفرش أن القسيسين باعوا كثيراً منها للفرنج الواردين إليهم من داخل البحر للزيارة ، يشترونها بوزنه ذهباً رجاء بركتها . وكان أحدهم إذا دخل إلى بلاده باليسir منها . بنى له الكنيسة ويجعل في مذبحها . فخاف بعض ملوكهم أن تفنى ، فأمر بها ففرش فوقها حفظاً لها . فلما كشفت نقل إليها صلاح الدين المصاحف الحسنة والرباعات الجيدة . ورتب القراء . وأدر عليهم الوظائف الكثيرة . فعاد الإسلام هناك غضاً طرياً . وهذه المكرمة من فتح البيت المقدس لم يفعلها بعد عمر بن الخطاب رضي الله عنه غير صلاح الدين رحمه الله وكفاه ذلك فخراً وشرفاً . وأما الفرنج من أهله ، فإنهم أقاموا وشرعوا في بيع ما لا يمكنهم حمله من أمتعتهم وذخائرهم وما لا يطيقون حمله . وباعوا ذلك بأرخص الأثمان . فاشتراه التجار من أهل العسكر ، واشتراه النصارى من أهل القدس الذين ليسوا من الفرنج ، فانهم طلبوا من صلاح الدين أن يمكنهم من المقام في مساكنهم ويأخذ منهم الجزية ، فأجاههم إلى ذلك ، فاستقرروا .

وعادت القدس للإسلام وأهله

فهرس

الصفحة	الموضوع
٧	المقدمة
١٥	الفصل الأول
١٧	١ - الموقف على جبهتي الصراع
٢٥	٢ - المسلمين في مواجهة الصدمة الأولى
٣٧	٣ - الفرنج في بلاد الشام
٥١	٤ - المخاض العسير في الموصل
٦٤	٥ - الزنكيون وقيادة الجهاد
٧٥	٦ - التحول الحاسم
٨١	٧ - عشر سنوات من تاريخ مصر
١٠٣	٨ - العدو الأكبر للفرنج
١١١	٩ - صلاح الدين والإرث الكريم
١٢٥	١٠ - نادت الشام ، فوداعاً يا مصر
١٣٨	١١ - يوم حطين
١٤٤	١٢ - الحملة الصليبية الثالثة
١٧٣	١٣ - الصليبيون في دمياط
١٩٥	١٤ - انهيار الأيوبيين
٢١٣	١٥ - ملك فرنسا أسيراً في المنصورة
٢٢٧	١٦ - المغول التتار - وعين جالوت
٢٣٨	١٧ - الانتقام العادل
٢٥٤	١٨ - وابتلت رمال المسلمين بناء الفرنج

الموضوع

الصفحة

الفصل الثاني: القلاع والمحصون أيام الصليبيين ٢٥٧
١ - القدس وتحصيناتها ٢٦٥
٢ - انطاكية، وأسوارها ٢٧٤
٣ - الرهاء ٢٩٣
٤ - قلعة المضيق - أقامية - ٣٠٥
٥ - قلعة الحصن [حصن الأكراد] ٣١٦
٦ - قلعة المرقب ٣٤٣
٧ - قلعة الكرك ٣٦١
٨ - قلعة بعلبك ٣٧٥
٩ - قلعة بغراس ٣٨٧
١٠ - قلعة دمشق ٤٠١
١١ - قلعة شيزر ٤١٦
١٢ - قلعة الشقيف [بوفورت] ٤٢٨
١٣ - قلعة حلب ٤٤٠
١٤ - قلعة حارم ٤٥٤
١٥ - قلعة صور ٤٦٣
١٦ - قلعة صلاح الدين الأيوبى [صهيون] ٤٧٤
١٧ - قلعة طرابلس ٤٩١
١٨ - قلعة طرطوس ٥٠٣
١٩ - قلعة عكا ٥١٣
٢٠ - قلعة عتليت [قصر الحجاج] ٥٢٩
٢١ - قلعة قيسارية ٥٣٨
٢٢ - قلعة مصياف ٥٤٧
٢٣ - قلعة غرود [الصبية] ٥٥٧

٥٦٦	٢٤ - قلعة رودس
٥٨٢	٢٥ - قبرص وقلاعها
٦٢١	الفصل الثالث: الحروب الصليبية وفن الحرب
٦٢٣	١ - الصمود في حوار الإرادات المتصارعة
٦٢٩	٢ - التوازن الاستراتيجي - والتفوق
٦٣٧	٣ - العنف والتطرف في الحروب الصليبية
٦٤٣	٤ - الصراع السياسي والصراعسلح
٦٤٩	٥ - العامل الاقتصادي - والإنسان المسلم
٦٥٥	٦ - قصة المعركة الإسلامية وتطورها
٦٦٤	٧ - التجربة التاريخية للحروب الصليبية
٦٧١	٨ - إن في ذلك لذكرى من كان له قلب
٦٧٧	قراءات: القدس في يومين مشهودين

الفهرس العامة للجزء الرابع من فن الحرب

١ - فهرس الأعلام

حرف الألف

- | | |
|--|--|
| <p>آدم (اسقف عكا) : ٥٦١ .</p> <p>آفسنقر البرسي قسيم الدولة : ٦٤٧</p> <p>ادوارد (ملك انكلترا) : ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٤٤٦ ، ٢٤٨ ، ٢٤٧ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٤٩</p> <p>أديلابد سالونا (كونتيسة صقلية) : ٥١٨ .</p> <p>ارسلان ناش : ٢٧٩ .</p> <p>الأرطبون : ٢٦٦ .</p> <p>ارمان بريغورد (مقدم الداوية) : ٢٠٧ .</p> <p>اريشيل شارون : ٤٣٩ .</p> <p>أريق بوفا : ٢٢٨ ، ٢٣٢ .</p> <p>اسامه (أمير بيروت) : ١٦٠ ، ١٧٦ ، ٦٦٩ .</p> <p>اسامة بن منتز : ٤٢٣ ، ٤٢٥ .</p> <p>اسحاق (اخو الكسيوس الثالث) : ١٧٨ .</p> <p>اسحاق الجيلوس البيزنطي : ١٤٤ .</p> | <p>ادمير (الأسقف) : ٣٤ .</p> <p>ادوارد بن هنري : ٢٤٨ ، ٢٤٧ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ .</p> <p>أباقة بن هولاكـو : ٢٤٣ ، ٢٤١ ، ٢٥٠ ، ٢٤٨ ، ٢٤٧ ، ٢٤٦ ، ٢٤٣ ، ٣١٢ ، ٢٥٢ ، ٢٥١ .</p> <p>ابراهيم باشا : ٤٩٠ .</p> <p>ابراهيم الخليل (عليه السلام) : ٤٤٠ ، ٥٥٤ .</p> <p>ابن الأنباري (الراوي) : ٣٧ ، ٤١٦ ، ٤٧٤ ، ٤٩٧ ، ٥٦٣ .</p> <p>احمد باشا الجزار : ٥٢٨ .</p> <p>احمد بن عطاش : ٥٤٩ .</p> <p>احمدبیل بن ابراهیم بن وہسودان الروانی الكردی : ٥٦ ، ٦٩ .</p> <p>ادموند (دوق لانکستر) : ٢٤٨ ، ٢٤٧ .</p> |
|--|--|

الاعز أبا الحasan (الوزير) : ٥٥٠ .
أغول قاميش : ٢٢٨ .
افتخار الدولة : ٣٩ ، ٣٦٨ .
الأفضل (أخو صلاح الدين) : ١٣٣ ، ١٣٥ ، ٤٦٦ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ .
الأفضل (وزير الفاطميين) : ٤٩٧ .
الأفضل بن بدر الجالي (أمير الجيوش) : ٤١ ، ٣٩ ، ٣٨ ، ٥١٨ ، ٥١٧ ، ٦١ ، ٤٢ .
الفضل علي بن صلاح الدين : ١٣٨ ، ١٤١ ، ١٥٨ ، ١٦٤ ، ١٦٦ .
الفنش بن الفونسو : ٧٥ .
اقطاي (القائد) : ٢٣٣ .
الكسيوس الأول (الكسيوس) : ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٧ .
كوميني البيزنطي (ملك الروم) : ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٨ ، ٦٩ ، ٦٩٦ .
الكسيوس الثالث البيزنطي : ١٧٨ ، ٢٩٩ .
١٧٩ .

اسحاق كوميني البيزنطي (حاكم قبرص) : ٥٩٧ .
أسد الدين شير كوه بن شير كوه: ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٩١ ، ٩٠ ، ٨٩ ، ٨٨ ، ٨٧ ، ٩٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٧٤ ، ١٠٦ ، ١٠٥ .
الاسكندر المقدوني : ٤٢٤ ، ٤٢٠ ، ٤٥٨ ، ٤٦٢ ، ٤١٢ ، ١٨٤ ، ٥٦٣ .
اسمعيل (مقدم الفرج) : ٥٥٢ .
اسمعيل بن الدانشند : ٤١ ، ٢٨١ .
أسوار (أمير حلب) : ٦٨ ، ٦٥ ، ٤٤٩ ، ٤٤٨ ، ٤٢١ .
الأشرف خليل بن السلطان قلاوون: ٢٥٦ ، ٤٧٣ ، ٥٠١ ، ٥١٢ ، ٥٣٦ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦ ، ٥٢٦ ، ٥٢٧ ، ٥٢٦ ، ٥٨٦ ، ٥٦٦ .
الأشرف موسى بن العادل الأيوبي: ١٧٥ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٥ ، ١٩٣ ، ٢١٨ ، ٢١٥ ، ٢٠١ ، ٢٠٠ .
٤٥١ ، ٤٣٧ ، ٤٣٣ .

الكسيوس - أبوب

- | | |
|---|--|
| اوشين بن هيثوم الأرمني : ٢٩٥
. ٢٩٦
إياز بن إيلفازى : ٤٩ ، ٥١ ،
. ٥٥ ، ٥٤ ، ٥٣
اليانو (الكاردينال) : ١٤٦
اليانور قشتالة : ١٦٦
إيشكين الحنفي (الأمير) : ٤٢
. ٤٣
إيربان الثاني (البابا) : ٢٢ ، ١٧
إيربان الثالث (البابا) : ١٤٤
. ٥٧٥ ، ٥٢٢
إيرن الجليلنا : ١٧٨
إيزابيلا (الملكة) : ١٣٠ ، ١٦٩
. ١٧٧
إيزابيلا (الأميرة) : ٣٦٨
إيشينا : ١٣٩
إيلبكي بن برسق : ٤٨
إيلفازى بن أرتق : ٤٩ ، ٤٥ ، ٣٩
. ٥٣
. ٦١ ، ٦١ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤
. ٤٠٥ ، ٤٤٥ ، ٤٤٥
أبوب (أبو صلاح الدين) : ٩٧ | الكسيوس الصفيدي بن اسحاق
(الكسيوس الرابع) : ١٧٨
. ١٧٩
ألب أرسلان السلاجوقى : ٤٦ ، ٢٩٤
. ٣٣٦ ، ٤٤٤
أبي بن ارسلان ناش : ٤٥
امالفي : ٢٢
امرييك (ايبي ملك القدس) : ٨٨٧
. ١١٣ ، ١٢٢ ، ١٤٢ ، ١٧٨
. ٢٠٥ ، ٣٣٦ ، ٥٦٤ ، ٦٠٦
الأمير العالم (الأعجمي) : ٩٤
الأسير بن عز الدين الاسدي : ١٦١
انطونيو فلافيانو : ٥٧٥
الجوسالجور هاززن (مقدم التيوتون) :
. ٢٣٥
اندرولوجيبيمو : ٢٢٨
انطونيوس : ٥١٨
انطليوخس : ٢٧٤
انوسنت الثالث (البابا) : ١٧٨
. ١٨٥
انوسنت الرابع : ٢٢٧
أودوسانت اماند (مقدم الداوية) :
. ١١٩ |
|---|--|

حرف الباء

- | | |
|---|---|
| <p>بركيازق : ٥٥٠ .</p> <p>برنارد فالنس : ٢٨١ .</p> <p>بطرس (كونت بريتاني) : ٢٠٣ ، ٢٢١ .</p> <p>بطرس (ملك قبرص) : ٥٧٥ ، ٥٨٧ .</p> <p>بطرس بارثولوميو : ٢٧٩ .</p> <p>بطرس القدس : ٢٢٥ ، ٥٥٤ .</p> <p>بطرس الناسك : ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ .</p> <p>بكناش بن تتش (عسم الطفل) :</p> <p style="margin-left: 2em;">٤٢ ، ٤٣ .</p> <p>الأمير بكتمر : ١٧٤ .</p> <p>أبو بكر بن الداية (نائب نور الدين) :</p> <p style="margin-left: 2em;">٤٤٨ ، ٤٤٩ .</p> <p>أبو بكر الشاشي : ٦٧٧ .</p> <p>بلاتش : ٢١٣ .</p> <p>بلدوين البولوني (برموبل) (بلدوين) :</p> <p style="margin-left: 2em;">٤١٦ ، ٤٢٠ ، ٤٣٦ ، ٤٣٩ .</p> | <p>باجان السافي : ٣٦٢ .</p> <p>بارثولوميو توريل : ٣٩٧ ، ٢٤٧ .</p> <p>باسيل (امبراطور الروم) : ٤٨٧ .</p> <p>باشيا : ١٣٧ .</p> <p>باطو : ٢٢٨ .</p> <p>بالدك أو بلق (امير سمباسط) :</p> <p style="margin-left: 2em;">٢٩٨ .</p> <p>باليان بن بارزان : ١٤١ ، ١٦٨ ، ١٤١ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ٦٧٩ ، ٦٨٠ .</p> <p style="margin-left: 2em;">٦٨١ .</p> <p>بایدار : ٢٣٤ .</p> <p>بایزید خسان الأول العثماني : ٥٧٧ ، ٦٦٩ .</p> <p>بدر فرماندز : ٢٤٦ .</p> <p>برواند المرقي : ٣٥٧ ، ٤٩٨ .</p> <p>برسق بن برسق : ٥٤ ، ٥٥ .</p> <p>بركة (خان التعبية) : ٢٣٢ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ .</p> <p style="margin-left: 2em;">٤٣٥ ، ٤٤١ ، ٤٤٩ .</p> |
|---|---|

بهرام فيلارتيوس :	٢٧٧ ، ٢٩٥ .	٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٥١ ، ٤٢ ، ٥٢ ، ٥٦
بهرام الاسترابادي :	٥٦٠ .	٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧
بهرام شاه (اخو صلاح الدين) :	٣٨٣ .	١١٧ ، ١٢٠ ، ١١٩ ، ١١٨ ، ١١٧
بوتوميتس (قائد الكسيوس) :	٣٠ .	١٢٣ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨
	٣١ .	٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٢
بوري بن أتابك :	٣٨٢ .	٣٦٧ ، ٤٠٤ ، ٤٠٢ ، ٤٠٦
بونز (كونت طرابلس) :	٣٤٢ .	٤٣٣ ، ٤٠٨ ، ٤٠٧ ، ٤٠٥
	٤٩٨ .	٤٣٤ ، ٤٩٨ ، ٤٦٤ ، ٥٣٢
بونيفاس مونفيرات :	١٧٨ .	٥٦٣ ، ٥٦٤ ، ٥٦٥ ، ٥٦٦
بوهمند (بيمند) بن روبرت (الأول) :		٦٣٩ .
		بلدوين الثالث (ابن ميليسيند ملكة القدس) :
	٢٢ ، ٢٣ ، ٢٨ ، ٣٠ .	٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤٠٨
	٣٤ ، ٤١ ، ٤٠ ، ٣٦ .	٥١٧ ، ٥١٠ ، ٤٣٢
	٤٦ ، ٤١ ، ٤٠ ، ٣٦ .	٥١٨ ، ٥١٩
	٤٦٠ ، ٤٥٩ ، ٣٠٨ .	٥٢٠ .
	٤٦٧ .	بلك بن بهرام بن أرتق :
	٤٩٠ .	٦٠ ، ٦٢ .
بوهمند الثالث النورماندي (امير انطاكيه) :	١٢٢ ، ١٣٥ ، ١٣٧ .	بليان الطباخى (الأمير سيف الدين) :
	١٤٦ ، ١٥١ ، ٢١٥ .	٣٥٩ .
	٢٢١ .	بهاء الدين قراقوش :
	٢٢٣ ، ٢٨٢ ، ٢٨١ .	٩٥ ، ٩٤ ، ٩٢ .
	٢٨٠ .	١٥٥ .
	٣٩٧ ، ٣٩٦ ، ٣١١ .	بهرام (ابن اخت الأسد ابا زادي) :
	٣٩٨ .	٥٥٢ ، ٥٥١ .
	٤٣٤ .	٥٥٠ .

بوهند الثاني (امير انطاكيّة) : بيجو (قائد المغول) : ٢٢٩ ، ٢٣٠ .	٤٥٠	٢٨٥ ، ٢٨٦ .
بيلجيون (الكاردينال) : ١٩٤ .		٣٩٩ .
بوهند الخامس : بير دوبسون الفرنسي (مقدم الاستمارية) : ٥٧٦ ، ٥٧٧ .	٥٧٨	٥١١ .

حرف التاء

<p>تيميم : ١٨ .</p> <p>تورانشاه (ابن الصالح ابوب مسم الناصر يوسف) : ١٧٣ ، ٢٠٢ ، ٤٥١ .</p> <p>توروس بن هينوم (امير الارمن) : ٣٦ ، ٤٠ ، ٤٤٣ ، ٢٩٥ ، ٣٠٠ ، ٢٩٨ ، ٢٩٧ ، ٢٩٦ ، ٤٠٠ .</p> <p>توماس بيرارد (مقدم الداوية) : ٣٩٥ ، ٥١٢ .</p> <p>التوتنشاش الارمني : ٤٠٨ .</p> <p>تيبالد (كونت شامبانيا) : ١٧٨ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ .</p> <p>تيمور الأعرج (تيمورلنك) : ٤٥١ ، ٥٧٧ .</p>	<p>تاج الدولة تشن بن أسلب ارسلان : ٣٠٩ ، ٣٨ ، ٢٢ .</p> <p>تاج الملوج بوري بن طنكتين : ٥٧ ، ٤٠٦ ، ٤٠٥ ، ١٢٥ ، ٦٥ .</p> <p>تانكفرد (طنكري) : ٢٨ ، ٣٠ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤٠٢ ، ٤٠١ .</p> <p>تلبي الدين عمر (ابن أخي صلاح الدين) : ٩٦ ، ١٢٤ ، ١١٧ ، ١٢٦ ، ١٤١ ، ١٤٦ ، ١٤٩ ، ١٣٨ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٨ ، ٤٣٤ ، ٤٧٠ .</p> <p>قرناش بن ايلغازي الارتقى : ٤٤٦ .</p> <p>غيريك (امير منمار) : ٥٢٦ ، ٥٢٦ ، ٥١ .</p>
--	---

حرف الجيم

- | | |
|--|---|
| <p>جلال الدين (مقدم الإمام علي بن من سلالة حسن بن الصباح) : ٦٧٣ .</p> <p>جلال الدين بن خوارزمشاه : ١٩٥ . ٢٠١ .</p> <p>جال الدين محمد بن بوري : ٧١ ، ٧٢ .</p> <p>جناح الدولة (صاحب حسن) : ٤٩٥ ، ٤٨٠ ، ٢٨٠ ، ٢٧٩ .</p> <p>جنادة بن أبي أمية الأزدي : ٥٦٦ .</p> <p>جيهداي المخولي : ٢٢٧ .</p> <p>الجراد (ابن أخ الكامل) : ٢٠١ .</p> <p>جوانا : ١٦٦ .</p> <p>جودفري دو بويون : ٢٠ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢١ ، ٢٧٩ ، ٤٠ ، ٣٠ ، ٢٨ ، ٢٧ .</p> <p>جودفري ويليس : ٢٤٨ .</p> <p>جوستينيان الأول (امبراطور الشرق) : ٢٧٤ .</p> <p>جوسلين (أمير الرها) : ٥١ ، ٥٩ .</p> <p>جلال الدين أبي الحسن علي بن عمار : ٦٠ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٧٤ ، ٧٧ ، ٧٨ .</p> | <p>جان الأول البيزنطي : ٤٨٥ .</p> <p>جان دولاستيك : ٥٧٥ .</p> <p>جاولي سقاوو : ٤٦ .</p> <p>جاولي بن عز الدين الأسدی : ١١٩ . ١٦١ .</p> <p>جاي (ولقبه الزانة قائد الفرنج) : ٤٥٥ .</p> <p>جاي امبرياكو (سيد جيسل) : ٥٤٥ .</p> <p>جاي فريسل : ٤٥٥ .</p> <p>جاي لورنجيان : ١٣٢ .</p> <p>جبرائيل الأرمني (أمير ملطية) : ٣٦ ، ٣٩٦ ، ٤٠ ، ٤٩٥ ، ٤٠ ، ٢٩٦ .</p> <p>أبا جضر بن المشاط : ٥٥٠ .</p> <p>جكا (الأمير) : ٣٢ .</p> <p>جكترمنش : ٤٦ ، ٤٥ .</p> <p>جلال الدين أبي الحسن علي بن عمار : ٣٥٥ .</p> |
|--|---|

جيفرى سارجنس : ٢٢٤ .	٣٩٥ ، ٤٤٦ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٩٨ .
جيمس (ملك أراغون) : ٢٥٥ .	ابن جوسلين : ٤٥٩ .
جيمس أفيستيز : ١٦٤ .	جوسياس (استف صور) : ١٤٤ .
جيمس الأول : ٢٤٥ .	جون تزيميسكس : ٣٨١ .
جيمس الثاني (أخو شارلوت الفير شرعى) : ٦٠٣ ، ٦٠٨ .	جون الثاني (كونين) البيزنطى: ٤٢٠ .
جيمس مايللى : ١٣٦ ، ٢٥٠ .	جون كاتنا كوزينوس : ٣٥٦ .
جيوش بلك : ٥٤ .	جي لوزينيان : ٦٠٧ .
جيوفانى أورسيني (مقدم الاستبارية): ٥٧٦ .	المقدم جيرار : ٦٣٨ .
	جيوفانى بوسوك (قائد الجليس) : ٤٠٥ .

حرف الحاء

كتاب العزيزي) : ٢٦٧ .	حبيب بن مسلمة : ٢٩٣ .
الحسن بن الصباح : ٦٧٣ ، ٥٤٩ .	أم حرام بنت ملuhan الانصارية : ٠
أبو الحسن بن منقذ (صاحب شizer) :	٥٨٣ .
٣١٠ .	الحرة (زوجة عبد النبي) : ٩٨ .
أبو الحسين بن سماك : ٦٧٧ .	الأمير حسام الدين طرنتاي : ٢٥٤ .
حنا الأورشليمي (القديس) : ٥٧٧ ، ١٢٨ .	حسام الدين لوكا الحاجب : ١٢٧ ، ١٢٨ .
٥٨١ ، ٥٨٠ .	١٥٣ ، ١٥٤ ، ٢٦٩ ، ٦٥٩ .
أبو حنيفة : ٥٢ .	٦٧٩ .
ابن حوقل : ٣٨٧ .	الحسن بن أحمد الملي (صاحب

حرف الخاء

صالد بن الوليد : ١١٢ ، ٥٥٣ .	خارتكين (الأمير) : ٣٨١ ، ٢٦٥ .
ابن الخطاط : ٨٧ .	٦٦١ .
خير الدين (صاحب حصن كينا) :	خلف بن ملاعيب الكلابي : ٣٠٩ .
٤٥٨ .	٣١٠ .

حُرْفُ الدَّالِ

حُرْفُ الدَّالِ

ذا المناقب (ابن عم فخر الملك) : أبو ذر الغفارى : ٥٨٣ . ٤٩٧ .

حرف الراء

- | | |
|---|--|
| <p>روبرت (كوفن أرتوا) : ٢١٤ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٣٠٨ .</p> <p>روبرت (بطريرك القدس) : ٢٢٣ ، ٣٠٨ .</p> <p>روبرت جويسكارد : ٢٢٤ ، ٣٠٩ .</p> <p>روبين الامبراطور البيزنطي : ١٢١ ، ٣٩٥ .</p> <p>روجر (مقدم الاستبارية) : ١٣٦ .</p> <p>روجر (امير انطاكية) : ٢٨٤ .</p> <p>روجر (حفيد تنكرد) : ٣٥٦ .</p> <p>روجر بورصا (ابن روبرت) : ٢٣ ، ٢٢ .</p> <p>روجر فلور المقامر : ٥٢٧ .</p> <p>روجيبل (روجر) : ٥٤ .</p> <p>ريتشاد ايول كورنوال : ٢٠٦ .</p> <p>ريتشارد قلب الأسد : ١٤٦ ، ١٦٠ ، ١٦٦ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦١ .</p> <p>ريتشارد قلب الأسد : ١٧٥ ، ١٧٠ ، ١٦٩ ، ١٦٨ .</p> <p>ريتشارد قلب الأسد : ١٧٢ ، ٤٣٨ ، ١٨٦ ، ١٧٨ .</p> <p>ريتشارد قلب الأسد : ٥٨٥ ، ٥٩٥ ، ٥٢٦ ، ٥٢٣ .</p> <p>ريتشارد قلب الأسد : ٦٧٠ ، ٦٤٧ ، ٦٦٥ ، ٦٥٧ .</p> | <p>رابسوماتيس : ٥٩٧ .</p> <p>رجار الفرنجي : ١٨ .</p> <p>رضوان بن تتش بن ألب ارسلان : ٤٨ ، ٤٦ ، ٤٥ ، ٤٤ ، ٤٣ ، ٣١٠ ، ٣٠٩ ، ٢٨١ .</p> <p>ركن الدولة دارد : ٥٣ .</p> <p>ركن الدين الظاهر بيبرس البندقداري : ٢٢١ ، ٢٠٩ ، ٢٠٤ ، ٢٠٣ ، ٢٣٦ ، ٢٣٥ ، ٢٣٤ ، ٢٣٣ ، ٢٣٨ ، ٢٣٧ ، ٢٤٠ ، ٢٣٩ ، ٢٣٨ ، ٢٣٧ ، ٢٤٤ ، ٢٤٣ ، ٢٤٢ ، ٢٤١ ، ٢٤٨ ، ٢٤٧ ، ٢٤٦ ، ٢٤٥ ، ٢٨٧ ، ٢٨٦ ، ٢٥٠ ، ٢٤٩ ، ٣٥٨ ، ٣٤١ ، ٣٤٠ ، ٣١٣ .</p> <p>٤١٤ ، ٤٠٠ ، ٣٩٩ ، ٣٧٢ ، ٤٣٨ ، ٤٣٧ ، ٤٢٧ ، ٤٢٦ ، ٥١٢ ، ٥١١ ، ٥٠٠ ، ٤٧٢ ، ٥٥٥ ، ٥٤٦ ، ٥٤٥ ، ٥٣٦ ، ٦٣٥ ، ٦٢٦ ، ٥٨٦ ، ٥٧٥ ، ٥٦٥ .</p> <p>٦٧٥ ، ٦٥١ ، ٦٤٧ ، ٦٣٥ ، ٦٢٥ ، ٦٢٠ .</p> |
|---|--|

ريمنالد رسيل : ٢٤٨ .	ريمنالد رسيل : ٥٠٩ ، ٥٠٨ ، ٤٩٥ .
ريسو بونوميل (المفي) : ٢٤٠ .	ريمنالد رسيل : ٦٦٦ ، ٦٣١ ، ٥١١ .
ريمند بن ريمند الصنعيجي : ١٣٣ .	ريموند لوبوييه : ٦٣٩ .
ريوند (كونت انطاكية) : ٣٩٥ .	ريمنالد (القائد) : ٢٦ ، ٢٥ .
ريوند الثاني بن يورز : ٤٩٩ ، ٣٣٦ .	ريمنالد (القائد) : ١١٩ .
ريوند روبيان : ٣٩٨ .	ريمنالد سانت فاليري : ٤٥٦ .
ريوند زاكوسنا (مقدم الاستبارية) : ٥٧٦ .	ريمنالد شاتيون (أرнат) : ١٢٢ .
ريوند سانت جيل (امير طرابلس) :	ريمنالد سانت جيل : ١٢٣ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣٦ ، ١٣٨ .
٢٣ ، ٢٠ ، ٤٣ ، ٣٣ ، ٣٠ ، ٣١ .	ريمنالد سانت جيل : ١٣٥ ، ١٣٩ ، ١٤١ ، ١٤٢ .
١١٢ ، ١١٣ ، ١١٦ ، ١١٨ .	ريمنالد سانت جيل : ١٤٣ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ .
١٣١ ، ١٣٤ ، ١٣٣ ، ١٣٢ .	ريمنالد سانت جيل : ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ .
١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٩ .	ريمنالد سانت جيل : ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ .
١٤٠ ، ٢٨٥ ، ٢٧٩ ، ١٤١ .	ريمنالد سانت جيل : ١٤٩ ، ١٥٠ .
٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٣ ، ٤٣٢ .	ريمنالد سانت جيل : ٥٦١ .

حرف الزاي

زبيدة : ٣٨٧ .	زمر الدولة الجيوشي : ٥١٧ ، ٥١٨ .
زراد (أو بروزد) : ٣٧ ، ٣٨ .	زين الدين علي بن نجمان الواظب : ١٠٠ .
زمرد خاتون (أم شهاب الدين) : ٧١ .	زنكبي بن برسق : ٤٤ .
زنكبي بن برسق : ٤٤ .	زنكبي بن برسق : ٥٥ .

حرف السين

- | | |
|--|---|
| <p>سكمان القطبي : . ٤٨ ، ٤٩ .</p> <p>سلطان بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكتاني (أبي المساكر) :</p> <p style="text-align: right;">٤٢١ .</p> <p>سلمان بن ربعة الباهمي : . ٢٩٣ .</p> <p>السلطان سليم الأول (الفازى) :</p> <p style="text-align: right;">٥٧٨ .</p> <p>السلطان سليم الثاني : . ٥٨٧ .</p> <p>سليمان بن أرتقى : . ٢٧٩ .</p> <p>سليمان خان الأول القانوني : . ٥٧٩ .</p> <p>سليمان بن قتلمنش (أو قطلمش) :</p> <p style="text-align: right;">٢٧٧ .</p> <p>السلطان سليمان القانوني المثاني :</p> <p style="text-align: right;">٢٦٧ .</p> <p>ستان شيخ الجبل (زعيم الباطنية) :</p> <p style="text-align: right;">١١٢ ، ١١٥ ، ١٦٨ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣ .</p> <p>سنجر السلطان : . ٥٥٢ .</p> <p>سنجر (القائد) : . ٤٥٠ ، ٢٣٠ .</p> | <p>سارتاق بن باطو : . ٢٢٨ .</p> <p>سانككينز (سانشو) : . ٢٤٦ .</p> <p>سيبللا : . ١٢٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ٣٩٧ .</p> <p>ستيفان (صاحب حلة الأطفال) :</p> <p style="text-align: right;">١٨١ ، ١٨٢ .</p> <p>ستيفانى (العريس) : . ٣٦٩ ، ١٣١ .</p> <p>ستيفانى ميللي : . ٣٦٨ .</p> <p>سرخك : . ٤٦٠ ، ٤٦١ .</p> <p>سعد حداد : . ٤٣٩ .</p> <p>أبو سعد الحلواني : . ٦٧٧ .</p> <p>سعد الدولة (الطوashi) : . ٤١ .</p> <p>سعد الدين كمشتكين : . ١١٤ ، ١١٢ .</p> <p>سعد بن مالك بن أبي وقاص :</p> <p style="text-align: right;">٢٩٣ ، ٦٦١ .</p> <p>أبي سعد الهروي (القاضي) : . ٦٧٧ .</p> <p>ابن سعيد (الراوي) : . ٤٥٤ .</p> <p>سقمان بن أرتقى التركمانى : . ٣٨ .</p> <p style="text-align: right;">٣٩ .</p> |
|--|---|

- | | |
|--|---|
| .٤٤٧ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ١١٥
سيف الدين قلاوون الصالحي :
.٢٦٢ ، ٢٤٣ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٦ ، ٢٥٥ ، ٢٥٤ ، ٢٥٣
.٣١٣ ، ٣٥٨ ، ٣٤١ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠
.٤٢٦ ، ٤٠٠ ، ٣٨٣ ، ٣٦٠
.٤٧٣ ، ٤٩٠ ، ٤٧٢ ، ٥٠٠ ، ٤٩٠ ، ٤٧٣ ، ٤٢٧
.٥٢٥ ، ٥١٢ ، ٥٠٢ ، ٥٠١
.٦٤٧ ، ٦٢٦ ، ٥٤٦ ، ٥٣٦
سيف الدين أسد مرکوجي المتصوري:
.٥٠١
سيف الدين يازكج :
.٢٧٤
سيلوقوس الأول :
.٢٨٧
سيمون مانسل :
.١١١ | .٢٥٢
سنقر دزدار :
.٥٣
سيهيل بن عدي :
.٣٩٣
سور جلتاني :
.٢٢٩
سيجسموند (ملك الجسر) :
.٦٦٩
سيجلجعايتا :
.٢٢
سيف الدولة الحمداني علي بن أبي
البيجاه (أبو الحسن) :
.٤٤٠
.٤٤٣ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧
سيف الدين شيركوه :
.٣٨٤
سيف الدين علي بن أحمد (المعروف
بالمشطوب) :
.٦٤٩ ، ١٦١ ، ١٥٩
سيف الدين غازي بن أتابلك بن زنكى:
.٧٤
.١٠٩ ، ٧٦ ، ٧٥
.١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٦ |
|--|---|

حرف الشين

شرف الممالي بن الأفضل بن بدر الممالي : ٤٢٦٤١ .	شارل (كونت انجو) : ٢١٤ ، ٢٥٠ ٢٤٧ .
شمس الخواص (أمير قاج الملاوك) : ٤٠٧ .	شارل كان (ملك إسبانيا) شارل الخامس : ٥٧٩ ، ٥٨٠ .
شمس الدولة تورانشاه بن أبوب : ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٠ . ١٢٢ .	ابن شارل كان (ملك إسبانيا) : ٥٨٧ .
شمس الدولة جكيرمش : ٣٠٠ ، ٣٠٠ . ٣٠١ .	شارلوت دي لوزينيان : ٦٠٣ . الإمام الشافعي : ٩٠ .
شمس الدولة محمد بن بوري : ٣٨٢ .	شاه أرمن السلاجوقى : ١٢٧ .
شمس الدين (قاضي نابلس) : ١٩٩ .	شاور (وزير) : ٨١ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ .
شمس الدين سنقر الأشقر (الباشق الأحمر) : ٢٤٦ .	شجرة الدر (زوجة غيات الدين) : ٢١٩ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٣٣ .
شمس الدين أبيدكتز : ١٠٦ .	شداد بن أوس : ٥٨٣ .
شمس الدين محمد بن عبد الملك (المعروف بابن المقدم) : ١١١ ، ١٢٨ .	شرحبيل بن حسنة : ٢٦٥ .
شمس الدين بن منفذ : ٤٢٥ .	شرف الدولة بن أبي الطيب : ٤٩٧ ، ٤٩٨ .
	شرف الدين برغش : ٨٩ ، ٨٥ .

شہاب الدین العارمی : ٩٦ ، ١١٥	شمس الملوك اسماعیل ابن بوری :
٥٥٤ .	٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٩٣ ، ٩٣ ، ٥٦٠
شہاب الدین محمود بن تاج الملوك بوری ابن طفتکی : ٦٧ ، ٧٠ ، ٧١	٥٦١ .
٣٨٢ .	شہاب الدین الیاس بن ایلفسازی بن أرتقی : ١٠٥ .

حرف الصاد

صلح الدين يوسف بن أيوب :	صالح الدين قابیاز : ٣٤١ .
٩١ ، ٩٠ ، ٨٩ ، ٨٦ ، ٨٥	الملك الصالح اسماعیل بن نور الدين محمود : ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٣ ،
٩٦ ، ٩٥ ، ٩٤ ، ٩٣ ، ٩٢	١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٦ ، ١٢٣ ، ١٢٣ ،
١٠١ ، ١٠٠ ، ٩٩ ، ٩٨ ، ٩٧	٢٠٥ ، ٢٠٤ ، ٢٠١ ، ٢٠١ ، ١٢٤
١١٢ ، ١١١ ، ١١٠ ، ١٠٩ ، ١٠٢	٤٣٦ ، ٤٣٦ ، ٢١١ ، ٢٠٧ ، ٢٠٦
١١٦ ، ١١٥ ، ١١٤ ، ١١٣	الصالح أيوب بن الكامل : ٢٠١ ، ٢٠١
١٢٠ ، ١١٩ ، ١١٨ ، ١١٧	٢٠٦ ، ٢٠٥ ، ٢٠٤ ، ٢٠٢
١٢٤ ، ١٢٣ ، ١٢٢ ، ١٢١	٢١٢ ، ٢١٠ ، ٢٠٨ ، ٢٠٧
١٢٨ ، ١٢٧ ، ١٢٦ ، ١٢٥	٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢١٨ ،
١٢٢ ، ١٢١ ، ١٢٠ ، ١٢٩	٤٣٦ ، ٤٣٦ ، ٢١٩
١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦	صالح بن رزبلک : ٨٠ .
١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٣٨ ، ١٣٧	صباوو : ٤٤ .
١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥	صنفیة خاتون (أخت الكامل) :

ضحاك - ضرغام

٧٤

، ٤٣٤ ، ٤٢٣ ، ٤٢٢ ، ٤٢٦
، ٤٦٠ ، ٤٥٠ ، ٤٤٩ ، ٤٣٥
، ٤٧٠ ، ٤٦٩ ، ٤٦٨ ، ٤٦١
، ٤٨٧ ، ٤٧٤ ، ٤٧٢ ، ٤٧١
، ٥١١ ، ٥١٠ ، ٤٩٠ ، ٤٨٩
، ٥٤٤ ، ٥٣٤ ، ٥٢٤ ، ٥٢١
، ٥٧٤ ، ٥٥٤ ، ٥٥٣ ، ٥٤٥
، ٦٢٦ ، ٦٠٦ ، ٥٨٥ ، ٥٧٥
، ٦٤٥ ، ٦٣٢ ، ٦٣١ ، ٦٣٠
، ٦٧٤ ، ٦٥٩ ، ٦٥٨ ، ٦٤٧
، ٦٨٠ ، ٦٧٩ ، ٦٧٨ ، ٦٧٥
، ٦٨٤ ، ٦٨٣ ، ٦٨٢ ، ٦٨١
. ٦٨٥
صنيف الفرجي : ١٩٥ ، ٤٩٦ .

، ١٤٩ ، ١٤٨ ، ١٤٧ ، ١٤٦
، ١٥٣ ، ١٥٢ ، ١٥١ ، ١٥٠
، ١٥٨ ، ١٥٧ ، ١٥٦ ، ١٥٥
، ١٦٢ ، ١٦١ ، ١٦٠ ، ١٥٩
، ١٦٦ ، ١٦٥ ، ١٦٤ ، ١٦٣
، ١٧٠ ، ١٦٩ ، ١٦٨ ، ١٦٧
، ١٧٥ ، ١٧٤ ، ١٧٣ ، ١٧١
، ٢٠٩ ، ٢٠٠ ، ١٩٦ ، ١٩٤
، ٢٦٩ ، ٢٣٦ ، ٢٣١ ، ٢١٠
، ٢١٤ ، ٢٢٢ ، ٢٧١ ، ٢٧٠
، ٢٥٨ ، ٢٥٧ ، ٢٤٠ ، ٢٣٨
، ٣٧٣ ، ٣٧١ ، ٣٧٠ ، ٣٦٩ ، ٣٦٨
، ٤١٢ ، ٣٩٦ ، ٣٩٥ ، ٣٨٣
، ٤٢٥ ، ٤٢٤ ، ٤٢٣ ، ٤١٤

حرف الصاد

ضرغام : ٨٢ ، ٨١ ، ٨٠ .

ضحاك البقاعي : ٣٨٢ .

حرف الطاء

١٧٣ ، ٢٧٩ ، ٣١٠ ، ٤٠٢ ،	٤٠٦ ، ٤٠٥ ، ٤٠٤ ، ٤٠٣ ،
٤٦٦ ، ٤٦٥ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ ،	٥٦٠ ، ٥٥١ ،
٢٤١ ، طقز خاتون :	٢٣٣ ،
٢٣٠ ، طوران شاه (عم الناصر) :	٤٩١ ، أبو الطيب المتنبي :

أبي طاهر المعروف (بابن الصائغ) :	٣٠٩ ، ٣١٠ ،
أبو طاهر بن سعد المرغيناني :	٥٥١ ،
طفل بن محمد ملكشاه :	٥٨ ،
طفتكين (أتا بك) :	٤٢ ، ٤٣ ،
	٤٧ ، ٥٢ ، ٥١ ، ٥٠ ، ٤٩ ،
	٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ،
	٥٨ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٧ ،

حرف الظاء

الظاهر غازي بن صلاح الدين :	١٢٩ ، ١٥٨ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ،
	١٧٥ ، ٣٥٨ ، ٣٩٨ ،
	٤٧٠ ، ٤٥٢ ، ٣٩٩ ،

الظافر بن صلاح الدين :	١٥٨ .
الظاهر بيبرس - ركن الدين .	
الظاهر الثاني :	٢٠١ .

حرف العين

عبد السلام المغربي : ٤٧٠ .	العادل أبو بكر بن أبيوب : ١٢٧ ، ١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٥٧ .
عبد النبي (صاحب زيد) : ٩٨ .	أبو عبيدة بن الجراح : ٢٦٥ ، ٢٧٥ .
أبو عبيدة بن الجراح : ٢٦٥ ، ٢٧٥ .	أبو عبيدة بن الجراح : ٢٦٥ ، ٢٧٥ .
عثان بن عنان (ذو النورين) : ٢٩٣ .	عثان بن عنان (ذو النورين) : ٢٩٣ .
عثان بن عنان (ذو النورين) : ٢٩٣ .	عثان بن عنان (ذو النورين) : ٢٩٣ .
عز الدين جربيك : ٩٠ ، ٨٩ .	عز الدين جربيك : ٩٠ ، ٨٩ .
عز الدين زنكي بن مسعودان آقسنقر :	العادل الثاني : ٢٠١ ، ٢٠٣ .
عز الدين عيسى بن مالك : ٦٨٠ .	العادل بن الصالح بن رزيك : ٨٠ ، ٨٣ .
عز الدين فروخشاه (فroxشاه) :	العادل بن الكامل : ١٨٣ ، ١٨٤ .
عز الدين فروخشاه (فroxشاه) :	العادل بن الكامل : ١٨٣ ، ١٨٤ .
عز الدين قلچ أرسلان بن مسعود بن	العاقد لـ دين الله الفاطمي : ٨١ ، ٨٢ .
قلچ أرسلان : ٦٢ ، ١٠٦ ، ١١٤ .	عز الدين قلچ أرسلان بن مسعود بن
عز الدين قلچ أرسلان : ٦٢ ، ١٠٦ ، ١١٤ .	عز الدين قلچ أرسلان : ٦٢ ، ١٠٦ ، ١١٤ .
عز الدين قلچ أرسلان : ٦٢ ، ١٠٦ ، ١١٤ .	عز الدين قلچ أرسلان : ٦٢ ، ١٠٦ ، ١١٤ .
عيادة بن الصامت : ٥٨٣ .	عيادة بن الصامت : ٥٨٣ .
عبد الله بن عبد الله بن عتبان : ٢٩٣ .	عبد الله بن عبد الله بن عتبان : ٢٩٣ .
عبد الله بن قيس الجاسي (حليف بني	عبد الله بن قيس الجاسي (حليف بني
فزانة) : ٥٨٣ .	فزانة) : ٥٨٣ .

عز الملك (صاحب صور) : ٤٦٥	عز الملك العزيز بن الظاهر غازي : ٢٠١
الملك العزيز بن الظاهر غازي : ٤٢١ ، ٤٢٠ ، ٣٨٢ ، ٣٠٣	العزيز عثمان بن صلاح الدين الملك : ٤٤٨ ، ٤٤٧ ، ٤٤٦ ، ٤٢٢
العزيز عثمان بن صلاح الدين الملك : ١٣٣ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥	عثمان الدين صندل : ٩٥
عثمان الدين صندل : ٩٥	عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ٦٢٦ ، ٤٤٩
عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ٦٢٦	عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ٢٦٦ ، ٢٩٣ ، ٣٨١ ، ٥٣٨
عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ٢٦٦	عطاء بن حفاظ السلمي (الخادم) : ٧٩
عطاء بن حفاظ السلمي (الخادم) : ٧٩	ابن عطير : ٥٨
ابن عطير : ٥٨	عفراون الرومي : ٦٠
عفراون الرومي : ٦٠	علاه الدين خرم شاه بن عز الدين مسعود : ١٥٦
علاه الدين خرم شاه بن عز الدين مسعود : ١٥٦	علي بن أبي طالب رضي الله عنه : ٢٦٦
علي بن أبي طالب رضي الله عنه : ٢٦٦	المظنم عيسى بن العادل الأيوبي : ١٧٥
المظنم عيسى بن العادل الأيوبي : ١٧٥	علي الكردي : ٤٨
علي الكردي : ٤٨	عماد الدين أحمد بن علي (ابن المشطوب) : ١٨٨
عماد الدين أحمد بن علي (ابن المشطوب) : ١٨٨	عماد الدين زنكبي بن آقسندر : ٥٢
عماد الدين زنكبي بن آقسندر : ٥٢	عيسى بن مريم (عليها السلام) : ٥٥٤
عيسى بن مريم (عليها السلام) : ٥٥٤	عيسى المكارى (الفقيه) : ٩١
عيسى المكارى (الفقيه) : ٩١	عيسى المكارى (الفقيه) : ٩٨
عيسى المكارى (الفقيه) : ٩٨	عين الدولة الباروقي : ٨٩
عين الدولة الباروقي : ٨٩	٧٧ ، ٧٩ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ٢١

حرف الغين

البابا غريفوري السابع : ٢٩٦ .	غازى جشتكتين (أو أنوشتكين)
غريفوري العاشر (البابا) : ٦٢٥ ، ٢٤٩ .	الدانشمندي : ٣٣ ، ٤٠ ، ٤٠ ، ٢٨١ .
غليوم دوكراتوم : ٣٣٦ .	غرس الدين قلچ : ٨٩ .
غوتبيه دافين : ٥٤٥ .	غريفوري التاسع (البابا) : ٢٠٢ .
غياث الدين طوران شاه ابن الصالح	غريفوري الثامن (البابا) : ١٤٤ .
أيوب : ٢١٩ ، ٢٢٣ ، ٢٢٣ .	أيوب : ٥٢٢ ، ١٤٥ .

حرف القاء

فخر الدين بن شيخ الشيوخ : ١٩٧ ، ٤٤٠	فخر الدين بن شيخ الشيوخ : ١٩٧ ، ٤٩١ ، ٤٧٤ ، ٤٥٤ ، ٤٤٠
٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢١٨ ، ٥٤٧ ، ٥٣٨ ، ٥١٣ ، ٥٠٣	٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢١٨ ، ٥٤٧ ، ٥٣٨ ، ٥١٣ ، ٥٠٣
٥٦٦ ، ٥٥٧	٥٦٦ ، ٥٥٧
ابن فرجلة : ٨٧ .	فخر الدين قرا ارسلان : ١٠٥ ، ٢٢١ .
فرناند : ٢٤٦ .	فخر الدين قرا ارسلان : ١٠٥ ، ٤٥٨ .
فرنسوا الأول (ملك فرنسا) :	فخر الملك أبو علي بن عمار : ٤٠٣ ، ٤٩٦ ، ٤٩٦ ، ٤٩٧ .
٥٧٩ .	أبو الفداء (الحافظ بن كثير) :
فروخشاه (ابن أخي صلاح الدين) :	٣٠٨ ، ٣١٦ ، ٣٤٣ ، ٣٦١ .
١١٧ .	٣٧٥ ، ٣٨٧ ، ٤١٦ ، ٤٢٨ .
فريدريلك الأول : ١٣٢ .	

فريدريلك ببروسه (ملك جرمانيا) :	٤٧٢ ، ٤٦٦
فريدريلك الثاني الألماني :	١٩٦ ، ١٩٧
فلاديسلاس الثاني (ملك بوهيميا) :	٣٣٩
فولوك (ملك القدس) :	٢٨٥ ، ٢٨٦
فولكرود فيلاريه (مقدم الاستبارية) :	٥٧٤
فونسو (ابن حاكم طليطلة) :	٧٥
فونسو (كونت بواتو) :	٢١٧ ، ٢٢٦
فيليپ (زوج ايرين) :	١٧٨
فيليپ أغسطس :	١٤٦ ، ١٦٠
فيليپ (زوج ايرين) :	١٧٨
فيليپ أوغست (ملك فرنسا) :	٤٦٢ ، ٦٤١ ، ٥٢٤ ، ٥٢٣ ، ٥٢٢
فيليپ الثالث :	٢٥٠
فيليپ كونت فلاندر :	١١٦ ، ٤٦٠
فيليپ مونتغورت :	٢١٠ ، ٢٤٦
فيليپ ناتيل (الشاعر) :	٤٧٣ ، ٤٧٢ ، ٢٤٧
فيليپ دوناتاك :	٥٧٥ ، ٥٧٧
فيليپ دوليسيل آدم :	٥٧٩

حرف القاف

- | | |
|--|---|
| القطب النساوي الفقيه : ١٠٩ .
فطر (أو قطوز) : ٢٣٣ ، ٢٣٤ .
: ٣٧٢ ، ٢٣٧ ، ٢٣٦ ، ٢٣٥ .
٣٨٣ ، ٤١٣ ، ٦٢٦ ، ٦٢٤ ، ٦٢٣ .
. ٦٧٢ ، ٦٥٠ .
القعاع بن عمرو التميمي : ٦٦١ .
فلوج ارسلان بن سليمان بن قتلمنش
السلاجوقى : ٢٥ ، ٣١ ، ٣٠ .
، ٣٢ ، ٢٣ ، ٣٥ ، ٨٠ ، ١٢١ .
. ٣٩٤ : ٢٧٧ ، ٢٣٩ .
القص (صاحب طرابلس) : ٤٥٩ .
. ٢٢٨ : القوريلتاي .
القومصة (صاحب طبرية) : ١٣٣ .
قبص : ٥٣٨ . | العائم بأمر الله : ٤٦٥ ، ٤٦ .
ابو القاسم الزنجاني : ٦٧٧ .
السلطان قانصوه الغوري : ٤٥٢ .
قابياز النجمي : ١٣٦ ، ٥٢١ .
قبلياي : ٢٢٨ ، ٢٣٢ .
فرجان (الزعيم التركمانى) : ٥٤ .
. ٢٣٩ .
قسطنطين بن روبين : ٢٩٦ .
قسطنطين كولoman : ١٠٣ ، ٣٣٦ .
. ٣٣٨ .
قسم الدولة - آفسنقر البرسقى .
قطب الدين مودود : ٧٧ ، ٧٦ .
. ٤٥٨ ، ١٠٥ .
قطب الدين ينال بن حسان المنجى : ٨٩ . |
|--|---|

حرف الكاف

كليمنت الثالث : ١٤٥ .	الكامل شجاع بن شاور : ٨٦ ، ٩٠ .
كليمنت الرابع (البابا) : ٢٤٦ .	٩١ .
كليوباترا : ٥١٨ .	الكامل بن العادل الابوبي : ١٧٥ ،
كشنكين الناجي (الخسي) : ٣٨١ ،	١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ،
٣٨٢ .	١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ،
كتندي (الأمير) : ٥٦ .	١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ١٩٩ ، ١٩٧ ،
كتراد موتغيرات بن فريدريلك الثاني:	٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٠ ،
١٦٥ ، ١٦٨ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٧ ،	٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ،
٢١٣ ، ٤٠٩ ، ٤٢٥ ، ٤٦٨ ، ٤٧٢ ،	٥٣٥ ، ٦٤٣ ، ٦٤٦ ، ٦٤٧ ،
٤١١ ، ٥٢٠ ، ٥٢٣ .	٦٠٨ .
الكتز : ١٠٢ .	كتيفا : ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ،
كوتوكناي : ٢٢٩ .	٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٣٨٣ ،
الملكة كومينينا : ٣٦٩ .	٤١٣ ، ٤٣٧ ، ٤٤٠ ، ٤٥٠ ،
كي جاي : ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ،	٦٣٤ .
١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ .	كتيبة : ٤٦٤ .
كيخسو الثاني : ٢٠٢ .	كربيوغا : ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٩٧ ،
كيكاروس : ٢٣٨ ، ٣٩٩ .	١٩٠ .
كيوك (الخان الكبير) : ٢٢٨ ،	كرمنين (الأميرة) : ١٩ .
٢٢٩ .	كسرى الأول : ٣٠٥ .
	كسرى الثاني : ٢٧٥ .

حرف اللام

لويس الثاني (ملك الجر) : ٥٧٩ لويس السابع (ملك فرنسا) : ١٠٩ . ٥٢٠ ، ٤١١ ، ٤١٠ ليو (السوري) : ٢٤٢ ليو بن هشيم (ملك أرمينية) : . ٣٩٦ ، ٢٤٣ ، ٢٤٦ ، ٢٥٢ ، ٣٩٦ . ٤٠٠ ، ٣٩٩ ، ٣٩٨ ، ٣٩٧ ليوبولد (دوق أورانيا) : ٥٤٥ ابن ليون الأرمني : ٦٩ ، ١٢١ . ٣٩٤ ، ٢٧٧ البابا ليون العاشر (جان مدبنشي) : . ٥٧٩	ابن لقمان : ٢٢٥ لالة مصطفى باشا : ٥٨٧ ، ٦٠٨ لور : ٥٧٩ لويس التاسع (سانت لويس) ملك فرنسا : ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٨ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٢ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٦ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٣٠ ، ٢٢٩ ، ٢٢٨ ، ٢٢٧ ، ٢٤٧ ، ٢٤٦ ، ٢٤٤ ، ٢٤٣ ، ٤٣٨ ، ٤٣٦ ، ٥٥٤ ، ٦٤٣ ، ٦٣٣ ، ٦٢٦ ، ٥٨٥ ، ٦٤٨ ، ٦٤٧ ، ٦٤٦ ، ٦٤٤ ، ٦٥٨
--	--

حرف الميم

محمود بن صالح بن هرداوس : ٤٤٤ .	مارتينا : ٢٧٥ .
محمود بن محمد بن ملكشاه ابن ألب ارسلان : ٦٠ ، ٥٨ ، ٥٦ ، ٦١ ، ٦٢ .	مارسيل : ٢٢٤ .
	ماريا كومينينا (ملكة القدس) : ١٣٠ ، ١٨٤ .
	ماريا بريين : ٢١٥ .
عبي الدين : ٢٤٥ .	مانويل البيزنطي : ١٢٢ .
عبي الدين بن زكي (الخطيب) :	مجد الملك البلاساني : ٦٧٧ .
٦٨٣ ، ٦٨٤ .	مجير الدين أبق (حاكم دمشق) : ٦٨١ .
مرشد بن علي : ٤٢٢ .	محمد رسول الله (ﷺ) : ٦٨٣ ، ٧٩ ، ٥٦١ ، ٥٦٢ .
مرغريت : ٢١٨ .	
مرقص النسطوري : ٢٢٧ .	القاضي أبو محمد الدامقاني : ٦٧٧ .
المركيس : ١٤٦ .	السلطان محمد الفاتح : ٥٧٧ .
مريم بنت عمران : (العذراء)	محمد بن لاجين : ١٣٥ .
عليها السلام : ٥١٢ .	محمد بن المقدم : ٥٦٤ .
المزدقاني (مقدم الإماماعبليه) .	محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان
٤٠٧ .	السلجوقي : ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٦ ، ٥٩ ، ٥٩٧ ، ٥٦ ، ٥٥ .
المسارش باش : ٥٩ .	
المستضيء بأمر الله : ٩٤ ، ١٠٧ .	
المستظاهر بالله العباسي : ٤٩٧ ، ٤٨ .	
المستعلي بأمر الله الفاطمي : ٥٠٨ .	

- | | |
|--|--|
| . ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٩
معز الدين سنجر شاه : ١٥٨
معين الدولة سقمان : ٣٠٠ ، ٣٠١
معين الدين أوز (مملوك طفتكنين) :
٦٧ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٦
٣٨٢ ، ٤١١ ، ٤١٠ ، ٤٠٨ ، ٣٨٢
. ٥٦١ ، ٥٦٢ ، ٥٦٤
المقداد : ٥٨٣
ابن المقدم (أمير بعلبك) : ٣٨٣
ابن ملاعب (أمير أقامية) : ٥٥١
ملكشاه التركمانى : ٢٣ ، ٢٧٧
مليح بن أبيون الأرمني : ١٠٦ ،
. ١٠٧
مناحيم بيغن : ٤٣٩
منجو تيمور : ٢٥١ ، ٢٥٢
التصور ابراهيم (صاحب حصن) :
٢٠٧ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣
. ٢٥٢
التصور يعقوب الموحدي : ٤٢٥
منقذ (صاحب شيزر) : ٣٨
ابن منقذ (الراوي) : ٣٤٣
ابن منقذ (صاحب شيزر) : ٤٨
منكتو : ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ،
. ٢٣٢ | المستنصر بالله : ٢٣ ، ٤٦٣ ، ٥٤٩
مسعود (قائد طفتكنى) : ٤٦٦ ،
. ٤٦٧
مسعود بن قلوج أرسلان : ٧٧
مسعود بن محمد بن ملكشاه بن ألب
أرسلان : ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٢ ، ٥٣
. ٧٦
المسيح (عيسي بن مریم) : ١٦٥
. ٢٤٠ ، ٢٧٩ ، ٢٩٤
ابن المشطوب - عماد الدين .
أبو مظفر الأبيوردي : ٦٧٧
المظفر الأيوبي (أمير ميسافارقين) :
. ٢٠٢
مظفر الدين كوكبدي بن زين الدين
١٣٦ ، ١٣٨ ، ١٤٩ ، ١٩٥
. ٥٢١
معاوية بن أبي سفيان (رضي الله عنه) :
٣٥٤ ، ٣٩٢ ، ٤٠١ ، ٥٠٣
. ٥١٣ ، ٥٣٨ ، ٥٦٦ ، ٥٨٢
. ٥٨٣
المعتصم (أبو اسحاق العباسى) :
. ٤٣٧
المستمد على الله الفاطمي : ٤٦٧
المز عز الدين إبيك التركمانى : ٢٢٥ |
|--|--|

٥٦ ، ٤٠٣ .
 الموريان الرومي : ٢٩٣ .
 ميسرة بن مسروق العبسي : ٣٩٢ .
 ميليسيند (ملكة القدس) : ٣٠٤ ،
 . ٥٢٠ ، ٤٠٨ .

منير الدولة الجيوشي : ٤٦٣ .
 مؤمن الخليفة (السوداني) : ٩٢ .
 مودود بن محمد بن ملكشاه ابن ألب
 أرسلان (صاحب الموصل) : ٤٨ ،
 ، ٥٣ ، ٥٢ ، ٥١ ، ٥٠ ، ٤٩

حرف النون

٢٠٢ ، ٢٣٠ ، ٢١٥ ، ٢٣١ ، ٢٢١ .
 . ٤٥١ ، ٢٣٣ .
 نجم الدين البي : ١٥٨ .
 نجم الدين أيوب : ٩٦ ، ٩٨ ، ٩٥ ، ١٠٥ .
 . ٣٨٤ .
 ابن نجية القاضي : ١٠٠ .
 أبو نصر أحمد بن الفضل (معين
 الملك) : ٥٥٢ .
 نصرة الدين (شقيق نور الدين) :
 . ٥٦٣ ، ٥٦٢ .
 نظام الملك السلاجوقى : ٥٤٩ .
 نظفور فوqان : ٤٢٧ ، ٤٢٠ ، ٤٤٣ ، ٤٤٣ .
 . ٤٤٥ ، ٤٨٦ .
 نقولا (صاحب حملة الأطفال) :
 . ١٧٢ .

ثابلين برتاپرت : ٥٨١ ، ٥٢٨ .
 الناصر داود الأيوبي : ١٩٦ ، ١٩٨ .
 ، ٢٠٤ ، ٢٠٣ ، ٢٠١ .
 ، ٢٠٨ ، ٢٠٧ ، ٢٠٦ ، ٢٠٥ .
 ، ٤١٢ ، ٣٧٢ ، ٢١١ ، ٢٠٩ .
 . ٤٥٠ .
 ناصر الدين محمد بن تقى الدين :
 . ١٧٤ ، ١٨٣ ، ٥١٢ .
 ناصر الدين محمد بن شير كوه : ٨٢ ،
 . ١١٧ .
 ناصر الدين منكورس (صاحب قلعة
 أبي قبيس) : ٤٨٩ .
 الناصر لدين الله العباسي : ١٩٥ .
 الناصر يوسف (أمير حلب) :

، ٣١١ ، ٣٠٤ ، ٣٠٣ ، ٢٨٥
 ، ٢٣٦ ، ٣١٥ ، ٣١٤ ، ٣١٣
 ، ٣٧٣ ، ٣٦٨ ، ٣٢٨ ، ٣٣٧
 ، ٣٩٥ ، ٣٨٤ ، ٣٨٣ ، ٣٨٢
 ، ٤١١ ، ٤١٠ ، ٤٠٩ ، ٤٠٨
 ، ٤٤٧ ، ٤٢٦ ، ٤٢٣ ، ٤١٨
 ، ٤٥٦ ، ٤٥٢ ، ٤٤٩ ، ٤٤٨
 ، ٤٦٠ ، ٤٥٩ ، ٤٥٨ ، ٤٥٧
 ، ٥٦٣ ، ٥٦٢ ، ٥٦١ ، ٥٦٠
 ، ٦٣١ ، ٦٢٦ ، ٦٢٥ ، ٦٢٤
 . ٦٥٨ ، ٦٦٠ ، ٦٦٤ ، ٦٨٤
 . نوغاي : ٢٢٣

نكتاس (المؤرخ) : ١٨٠ .
 نوح (عليه السلام) : ٥٥٤ .
 نور الدين علي بن السلطان ابيك :
 . ٢٣٣
 نور الدين محمود بن عياد الدين زنكبي :
 ، ٧٨ ، ٧٧ ، ٧٦ ، ٧٥ ، ٧٤
 ، ٨٣ ، ٨٢ ، ٨١ ، ٨٠ ، ٧٩
 ، ٨٨ ، ٨٧ ، ٨٦ ، ٨٥ ، ٨٤
 ، ٩٣ ، ٩٢ ، ٩١ ، ٩٠ ، ٨٩
 ، ٩٠٢ ، ٩٨ ، ٩٧ ، ٩٦ ، ٩٥ ، ٩٤
 ، ١٠٦ ، ١٠٥ ، ١٠٤ ، ١٠٣
 ، ١١٠ ، ١٠٩ ، ١٠٨ ، ١٠٧
 ، ١٢١ ، ١٢٠ ، ١١٢ ، ١١١

حرف الهاء

هنري (كونت شامبانيا) : ٢٠٢ ،	هابيل : ٥٥٤ .
٣٩٢ .	هاني بعل : ٦٣٤ .
ابن هنفري (هنفري) : ١٤٢ .	هرقل (ملك الروم) : ٢٧٥ ،
هولاكو (أخوه منكوه) : ٤٢٨ ،	٣٩٢ .
٢٢٣ ، ٢٢٢ ، ٢٢١ ، ٢٣٠ ،	هرقل (بطيريك القدس) : ١٣٢ ،
٢٤٠ ، ٢٣٨ ، ٢٣٧ ، ٢٣٦ ،	١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٧ .
٤٥٠ ، ٢٤٣ ، ٢٤٢ ، ٢٤١ ،	مبرت (شاعر الفرنج) : ٦٢٥ .
٦٧٢ ، ٦٣٤ ، ٤٦١ ، ٤٥١ .	هنفري (سيد تنبين) : ١١٧ ،
هونوريوس الثالث (الكاردينال سافيلي) : ١٨٥ .	١٣٠ ، ١٤٢ ، ٣٦٨ ، ٣٨٣ ،
ابو اليعاجه (صاحب إربيل) : ٤٩ .	٤٣٣ ، ٥٦٢ ، ٥٥٤ .
ابو اليعاجه السعدي : ١٠٢ .	هنري (ابن أخي ملك فرنسا) :
ميرو : ١١٩ .	١٥٧ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ،
ميرو (حاكم قبرص) : ٥٨٦ .	١٧٨ .
هيوباينز (الفارس الشمباني) :	هنري الثالث : ٢٤٧ ، ٢٠٦ .
٥٣٢ ، ٦٣٩ .	هنري الثاني (ملك قبرص) : ١٣٢ ،
هيوب الثاني : ٢٤٥ .	٢١٤ ، ٤٧٣ ، ٢٥٥ ، ٢٥٤ .
هنري السادس : ١٧٦ ، ١٧٧ ،	٦٠٧ .
١٧٩ .	هنري (كونت بار) : ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

هيو ربفيل : ٣٥٨ .	مبثوم (ملك الأرمن) : ٢١٥ ،
هيو سانت أومر : ٥٦٠ .	٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ،
هيو الصلب : ١٨١ .	٢٣٤ ، ٢٣٨ ، ٢٤٣ ، ٤٤٦ ،
هيو لوزجنان (هيو الثالث) : ٢٤٥ .	٢٩٥ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ،

حرف الواو

وليم جورдан : ٤٩٨ .	واليران (صاحب البيرة) : ٣٠١ .
وليم الخنزير : ١٨١ .	أبو الوفا بن عقبة : ٥٥٢ ، ٦٧٧ .
وليم سالسبوري : ٢٢١ ، ٢٢٠ .	ولتر بريين : ٢١٠ ، ٢١١ .
وليم الصوري : ٤٦٧ .	والتر المفلس : ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٠٤ .
وليم مور : ٤٠٧ .	الوليد بن عبد الملك : ٢٦٢ .
وليم مونتغمرات : ٣٩٩ .	الوليد بن عقبة : ٢٩٣ .
وليم هاردون (أمير أخايا) : ٢١٥ : ٢١٦ .	وليم (ابن سبيلا) : ٣٩٧ .
	وليم الثاني : ١٤٤ .

حرف الياء

- | | |
|--|---|
| <p>يوحنا (امبراطور الروم) : ٣٩٥ .</p> <p>يوحنا (كونت يافا) : ٢٣٩ .</p> <p>يوحنا ابلين: ٢١٥ ، ٢١٧ .</p> <p>يوحنا الانجيلي : ٦٣٨ .</p> <p>يوحنا بار كر : ٢٤٨ ، ٢٥٠ .</p> <p>يوحنا بريستر : ٢٢٧ .</p> <p>يوحنا بريدين: ١٨٤، ١٨٥، ١٩٤، ٥٤٥ .</p> <p>يوحنا الثاني (سيد بيروت) : ٢٣٢ ، ٢٣٩ .</p> <p>يوحنا جرائيلي : ٢٥٥ .</p> <p>يوحنا الرابع : ٢٨١ .</p> <p>يوحنا بن فيليب : ٢٤٧ ، ٤٧٢ .</p> <p>القديس يوحنا التصدق : ٦٣٨ .</p> <p>يوليان (سيد صيدا) : ٤٣٧ ، ٢٣٢ .</p> <p>ييف للبريتوني : ٥٥٤ .</p> | <p>الأمير ياخز : ٤٩٥ .</p> <p>يازكش : ١١٥ .</p> <p>ياسر : ٩٩ .</p> <p>ياغي سيان التركمان : ٣٧ ، ٤١ ، ٤١ .</p> <p>٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٨٢ ، ٤٥٥ .</p> <p>مجيس بن ذكربا (عليه السلام) : ٢٦٦ .</p> <p>يزيد بن أبي سفيان (رضي الله عنه) : ٥٣٨ .</p> <p>يعقوب (عليه السلام) : ١١٧ .</p> <p>يعقوب الحلبي : ١٦١ .</p> <p>يعقوب الملائكة : ٥٦٤ .</p> <p>يمن (الخادم) : ٣٨٣ .</p> <p>يونسيوس (البطريرك اليوثاني) : ٤٣١ .</p> |
|--|---|

٢ - فهرس المواقع والأماكن الجغرافية

حرف الألف

أرطاح : ٤٥٩ ، ٣٣٨	آسيا : ٢٧ ، ٥١ ، ١٢٩ ، ٢٣٠
أرتوا : ٢٢١ ، ٢٢٠ ، ٢١٤	٢٢٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧
أرطوا : ٢٢١ ، ٢٢٠ ، ٢١٤	٢٧٥ ، ٢٢٥
أرطوا : ٢٢١ ، ٢٢٠ ، ٢١٤	٢٩٧ ، ٥٨٢ ، ٥٧٩ ، ٥٠٠
أرطوا : ٢٢١ ، ٢٢٠ ، ٢١٤	٣٠٢ ، ١٢٨ ، ٧٣
أرطوا : ٢٢١ ، ٢٢٠ ، ٢١٤	آمد : ٢٩٤ .
أرطوا : ٢٢١ ، ٢٢٠ ، ٢١٤	آني : ٥٧٦ .
أرطوا : ٢٢١ ، ٢٢٠ ، ٢١٤	آيدن : ٥٧٦ .
أرطوا : ٢٢١ ، ٢٢٠ ، ٢١٤	الأكارب : ٤٢١ ، ٢٨٤ ، ٧٠ ، ٥٨
أرطوا : ٢٢١ ، ٢٢٠ ، ٢١٤	٤٤٥ .
أرطوا : ٢٢١ ، ٢٢٠ ، ٢١٤	اجنادين : ٢٦٥ ، ٢٦٦ .
أرطوا : ٢٢١ ، ٢٢٠ ، ٢١٤	أخايا : ٢١٥ .
أرطوا : ٢٢١ ، ٢٢٠ ، ٢١٤	أنوبجان : ٦٦٢ ، ١٩٠ ، ١٠٦ .
أرطوا : ٢٢١ ، ٢٢٠ ، ٢١٤	أنزعات : ٥٧ .
أرطوا : ٢٢١ ، ٢٢٠ ، ٢١٤	آذنة : ٦٩ ، ٣٩٤ ، ٣٨٣ ، ١٠٧ .
أرطوا : ٢٢١ ، ٢٢٠ ، ٢١٤	٥٠٣ ، ٤٠٠ ، ٣٩٥ .
أرطوا : ٢٢١ ، ٢٢٠ ، ٢١٤	أربيل : ٤٩ ، ١٣٥ ، ١٥٧ ، ١٥٧ .
أرطوا : ٢٢١ ، ٢٢٠ ، ٢١٤	١٩٥ .

اصطنبول . ٥٧٤	٢٦٦ ، ٢٨٦ ، ٢٨٢ ، ٢٥٦ ، ٢٥٠ ، ٢٥٣ ، ٢٩٣ ، ٢٧٧
أطفيح . ٨٤	٢٩٥ ، ٢٩٤ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٢٧٧
اعزاز : ٧٨ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١٧٣ ، ١٧٣	٣٩٨ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٣٩٦
. ٣١٤ ، ٤٤٨	٤٠٠ ، ٤١٣ ، ٤٠٠ ، ٣٩٩
أفامية (أو فامية) : ٥٠ ، ٥٤ ، ٥٠	٦٣١ ، ٦١٦
، ٣٠٩ ، ٣٠٨ ، ٣٠٥ ، ٢٤٨	أريحا : ١٣١ ، ٣٦٩
، ٣١٣ ، ٣١٢ ، ٣١١ ، ٣١٠	أزمير : ٥٧٦ ، ٥٧٧
. ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٤٨٧ ، ٤٨٧ ، ٣١٥	اسبارطة : ٢١٦
افريقيا : ١٨ ، ١٩ ، ٤٠٩ ، ٤٠٩	اسبانيا : ١٨١ ، ٥٧٩ ، ٥٨٠ ، ٥٨٠
. ٤٨٥	. ٥٨٧
الأقحوانة : ٥١ ، ١٢٦ ، ١٣٨	أستوناوند : ٥٥٠
. ٥٦٦	اسرائيل : ٥٥٧
افريطيش : ٥٦٦	الاسكندرونة : ٢٧٨ ، ٧٠ ، ٢٧٨ ، ٣٩٥ ، ٣٨٧
. ١٠٦	الاسكتدرية : ١٠٠ ، ٨٦
اقصراء : ١٠٦	، ١٥٧ ، ١٢٢ ، ١٥١ ، ١٠١
. ١٠٥	، ٢٥٥ ، ١٩٨ ، ١٨٢ ، ١٥٨
اللبوة : ١٠٥	. ٦٦٨ ، ٦٣٨ ، ٥٨٧ ، ٥٧٥
البيزة : ٧٤ ، ١٢٦ ، ٢٣٠ ، ٣٠١	اسلام بول أو (استانبول) : ٥٧٩ ، ٥٧٧
. ٤٥٠	أسوان : ٩٧
اللجنون : ١٢٦	اشمون : ١٩٢
. ١٧٨ ، ١٧٧ ، ١٤٦	أصبهان : ٥٢ ، ٥٤٩ ، ٥٤٠
المانبا : ١٨٢	اصفهان : ١٠٦
. ٢٠٦ ، ٢١٣ ، ٤٠٩	
. ٤٣٦ ، ٥٢٣ ، ٦٣٣	
اللورين : ٢٧ ، ٢٨ ، ١٨٥	
. ٢٦٨	

، ٢٩٧ ، ٢٩٥ ، ٢٨٨ ، ٢٨٧
 ، ٣٠٤ ، ٣٠١ ، ٢٩٩ ، ٢٩٨
 ، ٣٢٥ ، ٣١٣ ، ٣١١ ، ٣٠٨
 ، ٣٠٥ ، ٣٤٢ ، ٣٣٨ ، ٣٣٦
 ، ٣٩٢ ، ٣٨٧ ، ٣٨١ ، ٣٥٦
 ، ٣٩٦ ، ٣٩٥ ، ٣٩٤ ، ٣٩٣
 ، ٣٠٠ ، ٣٩٩ ، ٣٩٨ ، ٣٩٧
 ، ٣٨٦ ، ٣١٣ ، ٤٠٧ ، ٤٠٦
 ، ٣٦٦ ، ٣٦٥ ، ٣٦٥ ، ٣٦٤
 ، ٣٥٥ ، ٣٥٣ ، ٣٤٨ ، ٣٤٧
 ، ٣٦٠ ، ٣٥٩ ، ٣٥٧ ، ٣٥٦
 ، ٣٩٠ ، ٣٩٠ ، ٣٦٤ ، ٣٦١
 ، ٣٠٠ ، ٣٩٩ ، ٣٩٨ ، ٣٩٧
 ، ٠٠١ ، ٠١١ ، ٠٠٩ ، ٠٠٨
 ، ٦٢٤ ، ٥٨٤ ، ٠٠٥ ، ٠٠٤
 ، ٦٦٩ ، ٦٦٧ ، ٦٣٧ ، ٦٣١
 ، ١٥٧ ، ١٤٦ ، ١٤٥ : انكلترا
 ، ١٦٠ ، ١٦٤ ، ١٦١ ، ١٦٠
 ، ١٦٩ ، ١٦٨ ، ١٦٧ ، ١٦٦
 ، ٢٠٦ ، ٢٠٢ ، ١٨٦ ، ١٧٠
 ، ٢٠٠ ، ٢٤٩ ، ٢٤٧ ، ٢١٣
 ، ٢٧٢ ، ٤٣٨ ، ٤٣٦ ، ٢٥١
 ، ٦٣٢ ، ٥٨٠ ، ٥٧٦ ، ٥٧٣
 . ٦٤٧

أليس : ٢٨٥ .
 امالفي (مدينة ايطالية) : ٦٣٨ .
 الأمانوس : ٣٨٧ .
 أميران : ٥٦٣ .
 الأناضول : ٢٣٨ ، ١٣٩ ، ٥١
 ، ٢٠٥ ، ٢٥١ ، ٢٤٨ ، ٢٤٣
 ، ٦٦٩ ، ٣٥٩ ، ٣١٣ ، ٣٠٤
 . الجر : ٢٥٠ ، ٢١٦
 الأندلس : ١٧ ، ١٨ ، ٢٣ ، ٩٣
 ، ٢٤٥ ، ٥١٣ ، ٥٢٦ ، ٦٧١ ، ٦٧٤
 . ٦٧٤ .
 انطاكية : ٣٦ ، ٣٥ ، ٣٣ ، ٢٦
 ، ٤٣ ، ٤١ ، ٤٠ ، ٣٨ ، ٣٧
 ، ٥٨ ، ٥٤ ، ٥٣ ، ٥١ ، ٤٦
 ، ٧٧ ، ٧٠ ، ٦٩ ، ٦٨ ، ٦٧
 ، ٦٢٢ ، ١١٧ ، ١٠٨ ، ١٠٥
 ، ٦٥١ ، ١٤٦ ، ١٣٧ ، ١٣٥
 ، ٢٣١ ، ٢١٥ ، ٢٠٩ ، ١٩٨
 ، ٢٤٤ ، ٢٤٣ ، ٢٤١ ، ٢٣٨
 ، ٢٧٤ ، ٢٥٤ ، ٢٤٨ ، ٢٤٥
 ، ٢٧٨ ، ٢٧٧ ، ٢٧٦ ، ٢٧٥
 ، ٢٨٢ ، ٢٨١ ، ٢٨٠ ، ٢٧٩
 ، ٢٨٦ ، ٢٨٥ ، ٢٨٤ ، ٢٨٣

انكوتا : ١٨٢ .	اوستريا : ٥٦٥ .
اوئانتو (طارنت) : ٢٢ .	أياس : ٤٠٠ ، ٢٤٣ .
اوروبا : ١٩ ، ١٧١ ، ١٣٢ ، ٤٠ ، ٢٠ .	ابطاليا : ٢٢ ، ٢١ ، ٣٢ ، ٢٥ ، ٢٢ .
١٧٦ ، ٣٠٤ ، ٣٦٨ ، ٣٦ ، ٢٠٧ ، ٢٥٠ .	٥٣٦ ، ٢٠٥ ، ٢٥٠ ، ١٨٢ .
٥٢٦ ، ٥٧٥ ، ٥٣٦ ، ٥٣٢ ، ٥٧٧ .	٥٨١ ، ٥٨٠ .
٥٧٦ ، ٦٦٩ ، ٦٦٧ ، ٦٦٥ ، ٦٦٩ .	ايالة : ٩٤ ، ١٢٥ ، ١٢٨ .
٦٦٠ .	١٢٩ .
٦٦٠ .	ايلياه : ٢٦٦ .

حرف الباء

- | | |
|---|-----------------------------------|
| باقوس : ٥٨٥ ، ٦١٤ . | البئر البيضاء : ٩٢ . |
| بالس : ٤٩ ، ٤٤٠ . | باب الأبواب (باكتحاليا) : ٢٩٣ . |
| بانيس : ٤٧ ، ٦٥ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٢ . | بحر الادرياتي : ١٩ . |
| ٨٣ ، ١١٨ ، ١١٧ ، ١٠٥ ، ٩٥ . | باب اصطfan (اسطfan) : ١٩٩ ، ٢٦٨ . |
| ١١٩ ، ١٣٨ ، ١٧٣ ، ١٨٦ . | باب الجنان : ٤٤٦ . |
| ٣٥٦ ، ٣٥٥ ، ٣٤٣ ، ٢٦٧ . | باب الحديد : ٢٧٤ . |
| ٤٠٤ ، ٤٠٣ ، ٣٥٨ ، ٣٥٧ . | باب الدرب : ٥٤٩ . |
| ٤٦٥ ، ٤٢٣ ، ٤٢٨ ، ٤٠٩ . | باب دمشق : ٢٦٨ . |
| ٥٥٧ ، ٥٥٢ ، ٥٠٠ ، ٤٦٧ . | بال فهو (أو هيرود) : ٢٦٨ . |
| ٥٦٣ ، ٥٦٢ ، ٥٦١ ، ٥٦٠ . | باب العمود : ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٦٧٩ . |
| ٥٦٥ ، ٥٦٦ . | باب القديس بولس : ٢٧٤ . |
| ببشه : ١١٩ . | باب القديس جورج : ٢٧٤ . |
| البترون : ٢٥٤ ، ٥٠١ . | باب الكلب : ٢٧٥ . |
| بحر آرال : ٢٢٧ . | البابين : ٨٤ ، ٨٦ . |
| البحر الأبيض المتوسط : ٢٢ ، ١٨٦ ، ١٨٦ . | بار : ٢٠٣ ، ٢٠٤ . |
| ٢٨٢ ، ٣٥٤ ، ٣٥٣ ، ٥١٣ . | باريس : ٢١٤ ، ٢٢٩ ، ٣٨٦ . |
| ٥١٨ ، ٥٣٢ ، ٥١٩ . | بازل : ١٨٢ . |
| ٥٨١ ، ٦٧١ . | الباشورة : ١١٩ ، ١٢٠ . |
| البحر الأحمر : ٦٥٩ ، ١٨٩ . | |

بحيرة المزلاة : ٢١٩ .	البحر الأسود : ٥٧٧ .
برلينست : ١٤٥ .	بحر أشون : ١٩١ .
برج الاستبارية : ٥٠١ .	بحر إيجي : ٥٦٦ ، ٥٧٦ ، ٥٨١ .
برج الأسف : ٥٠١ .	بحر إيلة (إيلات) : ١٢٧ .
البرج الأول (برج أبورن) : ٣٥٨ .	بحر الشام : ٥٠٣ .
برج الحصار : ٦٠٦ .	البحر الصغير : ٢١٩ ، ٢٢١ ، ٢٢٠ .
برج داود : ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢٠٠ .	٢٢٤ ، ٢٢٢ .
٢٦٨ .	البحر الضيق : ٥٨٥ .
برج الرصاص : ٧٨ ، ٣١٤ ، ٤٤٨ .	بحر قزوين : ٢٩٤ .
برجنديا : ٢١٥ ، ٢٢٠ .	بحر الخلقة : ١٩١ .
برزية : ١٧٣ ، ٤٩٠ .	البحر البت : ٣٦١ .
برشلونة : ٢٤٥ ، ٤٦٨ .	بحر الجليل : ١١٧ ، ١٣٨ ، ٢٣٦ .
برغس : ٥٧٥ .	٤٠٤ ، ٥٦٠ ، ٥٦٤ .
برغنديا : ١٦٣ ، ١٨٥ .	البحيرة : ٣١ .
برقة : ١٢٨ .	بحيرة أسكان : ٣٠ .
البرمون : ٢١٩ .	بحيرة أنطاكية : ٣٩٩ ، ٥١١ .
برندزيزي : ١٨٢ .	بحيرة الحولة : ١١٧ ، ٥٦٤ .
بريتافي : ١٦٦ ، ٢٠٦ .	بحيرة دمشق : ٥٤ .
بريطانيا : ٥٨١ .	بحيرة طبرية : ٥١ ، ٤٠٤ ، ٤٠٦ .
بزاغة : ٥٨ ، ٧٠ ، ٦٠ ، ١١٦ ، ١١١ .	بحيرة العمق : ٤٥٦ .
٤٤٧ ، ٤٤٧ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٢٨٣ .	بحيرة قدس (قطينة) : ١٠٤ .
بصرى : ٤٢ ، ٤٣ ، ١٣٥ ، ١٧٣ ، ١٧٣ .	١٨٤ .
٤٠٨ ، ٥٦٢ .	

البلقنة :	٣٣٥ ، ٢٥١ ، ٢٦٢ ،	٣٣٩ ، ٦٩ ، ٦٩ ،
٣٨٣ ، ٣٤١ ، ٣٣٨ ، ٣٣٦	٣٨٣ ، ٣٤١ ، ٣٣٨ ، ٣٣٦	٣٨٣ ، ٣٤٢ ، ٤٢ ،
٠٥٦٢ ، ٠٠٠ ، ٤٠٦	٠٥٦٢ ، ٠٠٠ ، ٤٠٦	٠٥٦٢ ، ١١٣ ، ١٦٣ ،
بلليس :	٨٧ ، ٨٣ ، ٨٢ ،	٢٠١ ، ١١٣ ، ١٦٣ ،
البلطيق :	٦٤١ ،	٣٨١ ، ٣٧٥ ، ٣٣٨ ، ٢١٢
البلقان :	٢١ ،	٣٨٥ ، ٣٨٤ ، ٣٨٣ ، ٣٨٢
بليكانوم :	٣٣ ، ٣٠ ، ٢٨ ، ٢٧ ،	٣٦٢ ، ٤٩١ ، ٤٠٠ ، ٣٨٦
البندقية :	٥٧٥ ، ٥١٩ ، ١٧٩ ،	٥٦٢ ، ٥٥٢
٦٥٧ ، ٦٠٦ ، ٦٠٦ ، ٥٧٧	٦٥٧ ، ٦٠٦ ، ٦٠٦ ، ٥٧٧	٤٩ ، ٤٨ ، ٤٧ ،
٠٦٨	٠٦٨	٥٨ ، ٥٦ ، ٥٦ ،
برواتوا :	٢٢٣ ، ٢١٨ ، ٢١٧ ،	٢٣٠ ، ١٨٣ ، ١٢٨ ، ٩٥
٢٢٦	٢٢٦	٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٨٤ ، ٢٣١
بودابست :	٦٦٩ ،	٤٠٥ ، ٤٠١ ، ٣٥٥ ، ٢٩٦
بورة :	١٨٨ ،	٤٦٤ ، ٤٥٠ ، ٤٤٧ ، ٤٤٥
البوسفور :	٢٥ ،	٦٧٢ ، ٥٠٨ ، ٥٠١ ، ٤٩٧
بوفاقنتو :	٥٨٨ ،	٦٧٧ ، ٦٧٣
بومبيا :	٣٣٩ ،	بفسواس : ٧٠ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ،
بيت جبريل :	٤٨٨ ، ٦٧٩ ،	٣٩٣ ، ٣٩٢ ، ٣٨٧ ، ٢٥١
بيت جبرين :	٢٦٦ ،	٣٩٨ ، ٣٩٧ ، ٣٩٦ ، ٣٩٥
البيت الحرام :	١٢٨ ،	٤٩٠ ، ٤٠٤ ، ٣٩٩
بيت لحم :	١٩٨ ، ٤٨٨ ، ٥٣٥ ،	٠٧٦ ،
٦٧٩	٦٧٩	البصاع : ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧١ ،
		٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٣٦

بيت المقدس : ١٩ ، ١١٦ ، ١٤٤ ، ٥٠٩ ، ٨٨٨ ، ٤٧٠ ، ٥٢٢	٦٣٣ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٣٦٩ ، ١٦٣
٦٢٩ .	٦٨٣ ، ٦٨٤ ، ٦٨٥ .
بيزا : ١٨٥ ، ٨٩٨ ، ٠٠١ ، ٠٠١ .	٦٨٣ .
٥٢٣ .	١٧٠ .
بيزنطة : ١٤٤ .	بيروت : ٤٧ ، ٦٦ ، ٧٥ ، ١١٨ ، ١٦٠ ، ١٥٩ ، ١٥٧ ، ١٤٦
بيان : ٥٢ ، ١٢٦ ، ١٢٩ ، ١٨٥ ، ١٢٦ ، ٢٦٦ ، ٢٣٩ ، ١٨٦ .	١٩٦ ، ١٧٨ ، ١٧٦ ، ١٦١ ، ٣٧١ ، ٣٧٣ ، ٣٧٩ ، ٣٧٦
٣٨٧ .	٣٧٣ ، ٤٣٣ ، ٤٠٣ ، ٤٦٨ .
بيهق : ٠٠٠ .	٣٩٣ .

حرف التاء

تل الحبيج (أو الحاج) :	٥٠١	تبريز :	٤٨ ، ٤٩ ، ٢٦٣ ،
تل حدون :	٦٩ ، ٣٩٤ .		٣٩٩ .
تل خالد :	٧٨ ، ١٢٨ ، ٣١٤ ،	تبين :	١١٧ ، ١١٨ ، ١٣٠ ،
	٤٤٨ .		١٦٢ ، ١٨٧ ، ١٧٧ ،
تل دانث :	٤٠٥ ، ٢٨٣ .		٢٦٩ ، ٢٤٢ ، ١٩٨ ،
تل السلطان :	١١٤ .		٤٣٣ ، ٣٨٣ ، ٣٧١ ،
تل الثقب :	٤٠٦ .		٤٦٨ ، ٤٨٨ ، ٥٦٢ ،
تل العجلول :	١٩٧ .		٥٦٤ ، ٦٧٩ .
تل عفرين :	٥٨ ، ٢٨٤ ، ٢٨٣ .	تبني :	٢٦٦ .
تل الغياطية :	١٤٩ .	تدمر :	٦٠ .
تل كيسان :	١٤٩ ، ١٥٤ .	تركتستان :	٢٦١ ، ٢٦٨ .
تل هونين :	١١٧ ، ٥٦٤ .	وكيا :	٣٠ ، ٥٠٣ ، ٥٨٢ ،
تنيس :	٥٧ .		٥٨٨ ، ٥٨٧ .
توسكانيا :	٢٥٥ .	تقلبس :	٢٩٤ .
تونس :	٢٦٦ ، ٢٤٧ ، ٢٦٨ ،	تل باشر :	٤٩ ، ٥٩ ، ٧٨ ،
٥١٣ ، ٦٤٧ ، ٥٨٠ ، ٥٧٨ .			٣٠٣ ، ٢٩٨ ، ٢٩٧ ،
تيماء :	١٢٣ .		٣١٦ ، ٤٤٨ ، ٣٩٥ .

حرف الثاء

نهر دمياط : ١٥١ . | الثور : ٣٩٢ ، ٣٩٣ ، ٤٤٠ ، ٤٥٥ .

حرف الجيم

جبل الحبيج (جبل الحاج) :	الجاية : ٢٦٦ .
جبل الأمانوس :	جبال الأمانوس : ٢٤٤ ، ٢٤٣ ، ٢٤٦ ، ٢٨٢ ، ٤٠٠ .
جبل حوش (أو جوشن) :	جبل طوروس (اللكام) : ٣٣ ، ٣٩٩ ، ٢٩٦ .
جبل حيفا :	جبل القوقاز : ٢٢٢ ، ٢٢٣ .
جبل الزيتون :	جبال النصيرية : ٣٤٢ ، ٤٨٥ ، ٤٩٩ .
جزيرة سانت بيترو :	جبال النضارة (جبال العلوين حالياً) : ٣١٦ .
جبل سلبيوس :	الجبل : ١٠٦ ، ١٩٦ .
جبل الشيخ (أو جبل حرمون) :	جبل باريشا : ٤٥٤ .
جبل صهيون :	جبل حبيب التجار (سيلبيوس) : ٤٣٦ ، ٢٧٦ .
جبل الطور :	٥٣٤ .

- | | |
|--------------------------------|-------------------------------|
| جزيرة أرخبيل : ٦٤١ . | جبل عوف : ٥٧ . |
| جزيرة أرواد : ٥١٢ ، ٥٣٦ . | جبل القدموس : ٥٥٢ . |
| جزيرة اقريطش : ٥٧٤ . | جبل الكرمل (جبل الكرمل) : |
| جزيرة البلقان : ٢٨٣ . | ٥٣٦ ، ٥١٧ ، ٢٤٨ ، ٢٣٩ . |
| جزيرة دمياط : ٢٢٠ ، ٢١٩ . | جبل لبنان : ٣١٦ . |
| جزيرة الدوديكانيز : ٦٤١ . | جبل الكلام : ٥٤٧ . |
| جزيرة رودس : ٥٦٦ ، ٥٧٤ . | جبل النبي : ١٣١ . |
| ٥٧٨ ، ٥٧٧ ، ٥٧٦ ، ٥٧٥ . | جبلة : ١٧٤ ، ١٩٢ ، ٣٣٩ ، |
| جزيرة الروضة : ٥١٣ . | ٣٥٧ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٤٣ |
| جزيرة ابن عمر : ٥٣ ، ١٥٨ . | ٣٥٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩٦ ، ٥٠٠ ، |
| الجزيرة الثامنة : ٢٩٨ . | ٥٠٩ . |
| جزيرة كوس : ٦٤١ . | جبيل : ٤٢ ، ٤٧ ، ١٤٢ ، ١٧٨ ، |
| جزيرة لبروس : ٦٤١ . | ٢٦٩ ، ٣٦٠ ، ٣٧١ ، ٤٠٣ ، |
| جزيرة المصطكي : ٥٧٤ . | ٤٦٣ ، ٤٨٨ ، ٤٩٨ ، ٥٠١ ، |
| جزيرة المورة : ٢١٦ . | ٥٤٥ ، ٥٢٢ . |
| الجسر الحديدي : ٤٠٥ ، ٢٧٤ . | جرمانيا : ٤٧٢ . |
| جسر الخشب : ٤٠٧ . | الجزائر : ١٨٢ ، ٥٨٧ . |
| الجليل : ٤٣ ، ٥٠ ، ١١٨ ، ١١٩ ، | الجزيرة : ٥٤ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٣ ، |
| ١٣٢ ، ١٢٥ ، ١٢٠ ، ١١٩ . | ٦٦ ، ٧١ ، ٧٣ ، ١٢٦ ، ١١٣ ، |
| ١٨٥ ، ١٤٤ ، ١٣٦ ، ١٣٥ . | ١٧٥ ، ١٦٩ ، ١٢٩ ، ١٢٧ ، |
| ٢٠٦ ، ٢٠٥ ، ٢٠٣ ، ١٩٨ . | ٢٠٠ ، ١٩١ ، ١٩٠ ، ١٧٦ ، |
| ٢٣٩ ، ٢٢٦ ، ٢٢٢ ، ٢٠٨ . | ٢٢٩ ، ٢٢٥ ، ٢١٩ ، ٢٠١ ، |
| ٤٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٤٢ ، ٢٤١ . | ٢٣٠ ، ٢٩٣ ، ٢٨٢ ، ٢٣٠ ، |
| ٤١١ ، ٤٠٩ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ . | ٣٥٠ ، ٥٨٠ ، ٥٧٦ ، ٤٤٧ ، |
| | ٦٥٣ . |

جنيف : ١٨٢ .	٤٣٧ ، ٤٣٦ ، ٤٣٥ ، ٤٣٤
جنين : ١٢٦ .	٥٦٤ ، ٥٦٠ ، ٥٥٠ ، ٥٣٩
الجلolan : ٤٠٨ ، ٤٠٧ .	٦٣٠ ، ٦٣١ ، ٦٣٢ ، ٦٣٣
الجية : ٩٣ ، ٨٤ ، ١٨٧ .	٢١٨ ، ١٨٥ ، ١٨٢ ، ٢١٩

حرف الحاء

حاصم : ٦٥ ، ٨٣ ، ٧٧ ، ٢٢٠ ، ٢٠٨ ، ١٦٩	١٠٥ ، ٨٣ ، ٧٧ ، ٢٢٠ ، ٢٠٨ ، ١٦٩
٥٧١ ، ٤٥٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٠ .	١١٦ ، ١٢٨ ، ١٧٣ ، ٣٨٧
الحربيه : ٢١٠ .	٤٦٧ ، ٤٦٦ ، ٤٦٥ ، ٤٦٤
الحرم الشريف : ١٩٩ .	٤٦٥ ، ٤٦٤ ، ٤٦٣ ، ٤٦٢
حزن : ٥٩ .	٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤
حسن الأقارب : ٦٣ ، ٥٩ ، ٤٨	٧٣ : حاني
. ٤٤٧ ، ٤٤٦ ، ٦٤	٢٠٦ ، ٢٠٠ ، ١٧٠ ، ٢٠٦
حسن أرتاح : ٢٨٤ ، ٤٤ ، ٤٣ ، ٢	٣٧٧
. ٤٤٧	الحبسته : ٩٩
حسن أقاميه : ٤٦ ، ٤٧ ، ٣٠٩ ، ٧٧	٣٧٢ ، ٣٦١ ، ١٢٨ ، ٣٧٢
. ٣١١ ، ٣١٠	٦٥٩ ، ٦٣٠ ، ٢٩٤
حسن الأكراد (قلمة الحسن) :	٣٩٣ ، ٢٩٤
١٠٣ ، ١٠٦ ، ١٠٦ ، ١٨٤ ، ١٨٤	٦١ : حرماز
. ٣٢٥ ، ٣١٦ ، ٢٥١ ، ٢٤٧	١٣٦ ، ١٣٣ ، ١٣٣ ، ٢٥١

- | | |
|---------------------------|-----------------------------|
| حصن دربياك : ٢٤٦ | ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٣٩ |
| حصن دمياط : ٢٢٥ | ٣٥٩ ، ٥٢٥ |
| حصن دورازو : ٢٨٣ | ٤٤٧ ، ٤٥٦ |
| حصن رعبان : ٢٤٦ | ٥٧٨ ، ١٢٧ |
| حصن رفنتية : ٤٠٦ | ٣١٤ ، ٧٨ |
| حصن زرданا : ٤٨ ، ٢٨٤ | ٤٤٨ |
| حصن سان نيكولا : ٥٧٦ | |
| حصن شريف أرنون : ٢١٢ | ٥٦٣ ، ٣١٤ |
| حصن الشوبك : ٩٦ | ٢٨٦ ، ٢٨٥ ، ٦٨ |
| حصن صافيتا : ٤٨٩ ، ١٠٨ | ٤٨٩ |
| حصن عتليت : ٥٣٥ | ٤٨٩ |
| حصن عرقه : ٤٧ ، ١٠٨ ، ٤٩٨ | ٢٤٦ |
| حصن العريمة : ٤٨٩ | ٣٥٤ |
| حصن المزية : ٤٤٧ ، ٧٥ | ١٧٧ |
| حصن عسقلان : ٢١٢ | ٤٨٩ |
| حصن علمال : ٥٦٠ | ١٠٥ ، ٢٣١ |
| حصن العيد : ٤٨٩ | ٤٤٧ ، ٤٥٤ |
| حصن القدموس : ٥٥٣ | ٢٤٢ |
| حصن القديس جورج : ٥٧٨ | ٤٦٦ |
| حصن القليعة : ٢٤٢ | ٣٨٧ |
| حصن الكرك : ١٣٢ | ٤٩٧ |
| حصن كيفا : ٥٣ ، ١٠٥ ، ١١٤ | ٤٠٥ ، ١٢٦ ، ٥٧ |
| | ١٦٩ |
| | ٤٥٩ |

حليب : ٢٤ ، ٢٦ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ،
 ٥٤ ، ٤٩ ، ٤٨ ، ٤٧ ، ٤٦
 ، ٦٠ ، ٥٩ ، ٥٨ ، ٥٧ ، ٥٥
 ، ٦٥ ، ٦٤ ، ٦٣ ، ٦٢ ، ٦١
 ، ٧١ ، ٧٠ ، ٦٩ ، ٦٨ ، ٦٦
 ، ٨٨ ، ٧٨ ، ٧٧ ، ٧٦ ، ٧٤
 ، ١١١ ، ١٠٦ ، ١٠٤ ، ٨٩
 ، ١١٥ ، ١١٤ ، ١١٣ ، ١١٢
 ، ١٢٩ ، ١٢٨ ، ١٢٦ ، ١٢٤
 ، ١٧٤ ، ١٧٣ ، ١٥١ ، ١٣٣
 ، ٢٠٢ ، ٢٠١ ، ١٩٥ ، ١٧٥
 ، ٢٤٠ ، ٢٣٧ ، ٢٣٠ ، ٢١٥
 ، ٢٤٨ ، ٢٤٦ ، ٢٤٣ ، ٢٤٢
 ، ٢٦٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٢ ، ٢٥١
 ، ٢٨٢ ، ٢٨١ ، ٢٧٩ ، ٢٧٨
 ، ٣٠٣ ، ٢٨٥ ، ٢٨٤ ، ٢٨٣
 ، ٣١٣ ، ٣١١ ، ٣٠٩ ، ٣٠٤
 ، ٣٥٨ ، ٣٣٨ ، ٣٣٧ ، ٣١٨
 ، ٤٠٥ ، ٣٩٩ ، ٣٩٨ ، ٣٨٣
 ، ٤٢٠ ، ٤١١ ، ٤١٠ ، ٤٠٨
 ، ٤٤٣ ، ٤٤٠ ، ٤٢٨ ، ٤٢١
 ، ٤٤٧ ، ٤٤٦ ، ٤٤٥ ، ٤٤٤
 ، ٤٥١ ، ٤٥٠ ، ٤٤٩ ، ٤٤٨
 ، ٤٥٤ ، ٤٥٥ ، ٤٥٤ ، ٤٥٢

حسن ليزون الصغير (مجدو قدیماً) :
 . ٢٣٩
 حسن مارتينینفو : ٦٠٨ ، ٦٠٧
 حسن خاصة الأحزان : ١١٩ .
 حسن المرقب : ٣٣٨ ، ٢٥٣ ، ٢٥٢
 ، ٥٠٠ ، ٣٦٠ ، ٣٥٩ ، ٣٥٨
 . ٥١٢
 حسن مرقية : ٢٤٧ .
 حسن مصياف (مصياف) : ٥٤٩ .
 حسن النبيطرة : ١٠٥ .
 حسن موراتو : ٦٠٨ .
 حسن مونتفورت : ٢٦١ .
 حسن نمرود : ٥٦٤ .
 حسن يجمور : ٤٨٩ .
 حطين : ١٣٨ ، ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٤٤
 ، ٢٦٩ ، ٢١١ ، ٢٠٩ ، ١٤٤
 ، ٣٧٤ ، ٣٧٣ ، ٣٧١ ، ٣١٥
 ، ٤٦١ ، ٤٣٤ ، ٤١٢ ، ٣٩٥
 ، ٥١٠ ، ٤٩٠ ، ٤٨٨ ، ٤٦٨
 ، ٥٤٤ ، ٥٣٤ ، ٥٢١ ، ٥١١
 ، ٦٣٢ ، ٦٢٩ ، ٦٢٥ ، ٥٨٥
 ، ٦٥١ ، ٦٤٨ ، ٦٤٣ ، ٦٤٠
 ، ٦٧٩ ، ٦٦٦ ، ٦٦٩ ، ٦٦٨
 . ٦٨٢

حلوان - حينا

٧٣٦

، ١٧٤ ، ١٥٦ ، ١٥١ ، ١١٨
، ٢١٠ ، ٢٠٧ ، ٢٠٢ ، ١٨٩
، ٢٤٢ ، ٢٣٧ ، ٢١٦ ، ٢١٥
، ٢٩٣ ، ٢٧٩ ، ٢٦٥ ، ٢٥٢
، ٢٢٧ ، ٢٢٥ ، ٢١٦ ، ٢٠٩
، ٣٩٣ ، ٣٨٣ ، ٣٨٢ ، ٣٨١
، ٤٢٨ ، ٤٢١ ، ٤١٦ ، ٤٠٠
، ٤٦١ ، ٤٥٢ ، ٤٥١ ، ٤٤٦
، ٥٠٣ ، ٥٠٠ ، ٤٩٥ ، ٤٨٧
، ٦٧٧ ، ٦٥١ ، ٥٥٥ ، ٥٥٩
. ٦٣٤

. حلنون : ٧٣ ، ٧٣

. الخناقة : ٥٧

حسوران : ٧٦ ، ٥٧ ، ٤٢ :
، ٦٠٥ ، ٤١٢ ، ١٠٨ ، ٧٣
. ٤٠٨ ، ٤٠٧

، ٢٨٠ ، ١٦٨ ، ٤١ : حينا
، ٤٠٤ ، ٣٧١ ، ٢٦٩ ، ٢٥٦
، ٥٤٢ ، ٥٣٦ ، ٥٢٢ ، ٥١٧
. ٥٦٥

، ٤٨٧ ، ٤٦١ ، ٤٦٠ ، ٤٥٩
، ٥٥٣ ، ٥٥٢ ، ٥٥١ ، ٤٨٩
. ٦٨٤ ، ٦٢٣ ، ٥٦٢
. حلوان : ٦٧٧
الحمام الهوادى : ١٠٧
، ٦٨ ، ٦٣ ، ٥٤ ، ٤٨ : حماه
، ١١٤ ، ١١٣ ، ١١٢ ، ٦٩
، ١٢٤ ، ١١٧ ، ١١٦ ، ١١٥
، ١٨٣ ، ١٧٤ ، ١٥٨ ، ١٥١
، ٢٢٧ ، ٢٢١ ، ٢٠٢ ، ١٩٥
، ٣٣٨ ، ٢٥٢ ، ٢٤٨ ، ٢٤٠
، ٣٨١ ، ٣٨٣ ، ٣٨٠ ، ٣٧٩
، ٤٢١ ، ٤١٦ ، ٣٨٣ ، ٣٨٢
، ٤٥٢ ، ٤٥٠ ، ٤٤٩ ، ٤٣٨
، ٥١٣ ، ٥١١ ، ٤٨٧ ، ٤٦٥
. ٥٥٦ ، ٥٤٧ ، ٥٤٥ ، ٥٤٤
، ٤٧ ، ٤١ ، ٣٨ ، ٢٣ : حصن
، ٤٧ ، ٤٧ ، ٤٥ ، ٤٤ ، ٤٣ ، ٤٢
، ١١٣ ، ١١٢ ، ١٠٨ ، ٨٩

حرف الخاء

الخليج العربي : ٢٢٧ .	الخابور : ٥٣ ، ٣٠٠ .
خليج (مرمرة - أو مارماريس) : ٥٧٩ .	خالنجان : ٥٥٠ .
خوارزم : ٦٢٧ .	خانقين : ٤٨٥ .
خوزستان : ٥٥٠ .	خراسان : ٢٦ ، ٥٠٠ ، ٦٧٣ .
خبر : ٦٠٣ .	الخربة : ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٧ .
	خسفين : ١٣٨ ، ١٨٦ .
	خلاط : ١٧٤ ، ١٩٥ .

حرف الدال

دمشق : ٤٢ ، ٣٩ ، ٣٨ ، ٢٤ ، ١٤
 الداروم : ٥١ ، ٥٠ ، ٤٩ ، ٤٧ ، ١٣
 ٥٨ ، ٥٧ ، ٥٦ ، ٥٣ ، ٥٢
 ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٢ ، ٦٥
 ٦٧ ، ٧١ ، ٧٠ ، ٦٨ ، ٦٧ ، ٦٦
 ٧٩ ، ٧٨ ، ٧٧ ، ٧٥ ، ٧٣
 ٧٣ ، ٧٠ ، ٧٩ ، ٧٨ ، ٧٧ ، ٧٦
 ٧٦ ، ٧٥ ، ٧٤ ، ٧٣ ، ٧٢
 ٧٢ ، ٧١ ، ٧٠ ، ٦٩ ، ٦٨
 ٦٧ ، ٦٦ ، ٦٥ ، ٦٤ ، ٦٣
 ٦٣ ، ٦٢ ، ٦١ ، ٦٠ ، ٥٩
 ٥٨ ، ٥٧ ، ٥٦ ، ٥٥ ، ٥٤
 ٥٣ ، ٥٢ ، ٥١ ، ٥٠ ، ٤٩
 ٤٨ ، ٤٧ ، ٤٦ ، ٤٥ ، ٤٤
 ٤٣ ، ٤٢ ، ٤١ ، ٤٠ ، ٣٩
 ٣٨ ، ٣٧ ، ٣٦ ، ٣٥ ، ٣٤
 ٣٣ ، ٣٢ ، ٣١ ، ٣٠ ، ٢٩
 ٢٨ ، ٢٧ ، ٢٦ ، ٢٥ ، ٢٤
 ٢٣ ، ٢٢ ، ٢١ ، ٢٠ ، ١٩
 ١٨ ، ١٧ ، ١٦ ، ١٥ ، ١٤
 ١٣ ، ١٢ ، ١١ ، ١٠ ، ٩
 ٩ ، ٨ ، ٧ ، ٦ ، ٥ ، ٤
 ٣ ، ٢ ، ١ ، ٠

دار ابن لقمان : ٢٢٥ .
 الداروم : ١٧٠ ، ١٦٩ ، ١٣٩ ، ١٣٨ .
 داريا : ٦٧٩ .
 الدارين : ٤٤٣ .
 الدامور : ٤٨٨ .
 دراكون : ٣٦ .
 درب ساك : ٢٨٧ ، ٢٥١ ، ١٧٣ .
 درعا : ٤٩٠ .
 درعا : ٤٠٨ .
 الدروب : ٣٩٢ ، ٣٩١ ، ٣٩٠ ، ٣٩٦ .
 الدروب : ٤٤٠ .
 الدروب الشامية : ٢٧٦ .
 درولية : ٣٩٢ .
 الدلتا : ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢١٤ .
 دهلي : ٢٠٠ .
 دلوك : ٧٨ ، ٣١٤ ، ٣١٣ ، ٣١٢ .
 دار - دمشق

٦٨٣ ، ٦٣١ ، ٦٢٧ ، ٥٦٥	٢١٢ ، ٢١١ ، ٢١٠ ، ٢٠٩
دمياط : ٩٣ ، ٩٤ ، ١٠١ ، ١٠٥	٢١٦ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٠
١٨٧ ، ١٨٦ ، ١٧٣ ، ١٢٣	٢٤٨ ، ٢٤٢ ، ٢٣٧ ، ٢٣٤
١٩١ ، ١٩٠ ، ١٨٩ ، ١٨٨	٢٦٥ ، ٢٥٥ ، ٢٥٢ ، ٢٥١
١٩٥ ، ١٩٤ ، ١٩٣ ، ١٩٢	٢١٣ ، ٢١٠ ، ٢٨٨ ، ٢٧٩
٢١٨ ، ٢١٧ ، ٢١٦ ، ٢١٤	٢٧٠ ، ٣٦٩ ، ٣٣٧ ، ٣١٤
٢٢٥ ، ٢٢٤ ، ٢٢٣ ، ٢١٩	٣٨٢ ، ٣٨١ ، ٣٧٥ ، ٣٧٢
٥٣٤ ، ٤٣٦ ، ٤١٢ ، ٢٢٦	٣٨٦ ، ٣٨٥ ، ٣٨٤ ، ٣٨٣
٦٢٣ ، ٥٨٥ ، ٥٤٥ ، ٥٣٥	٤٠٤ ، ٤٠٣ ، ٤٠٢ ، ٤٠١
٦٥٩ ، ٦٥٨ ، ٦٤٨ ، ٦٤٣	٤٠٨ ، ٤٠٧ ، ٤٠٦ ، ٤٠٥
٦٧١	٤١٢ ، ٤١١ ، ٤١٠ ، ٤٠٩
دوريليون : ٣٥ ، ٣٣	٤٢٤ ، ٤١٥ ، ٤١٤ ، ٤١٣
ديار بكر : ٦١ ، ١٠٩ ، ١٢١	٤٣٥ ، ٤٣٤ ، ٤٣٢ ، ٤٢٨
١٠١ ، ١٤٩ ، ١٢٩ ، ١٢٧	٤٥٠ ، ٤٤٦ ، ٤٤٥ ، ٤٣٦
٣٠٢ ، ٣٠٠ ، ٢٢٢ ، ١٨٤	٤٦٠ ، ٤٥٩ ، ٤٥٨ ، ٤٥١
٥٦٣ ، ٤٥٥ ، ٤٠٦	الديار الجزرية : ١٧٤
ديار الجزرية : ١٠٩ ، ١٣٥ ، ١٥٦ ، ١٥٦	٤٦٧ ، ٤٦٦ ، ٤٦٥ ، ٤٦١
١٨٤ ، ١٩٥ ، ١٩٥	٤٩٩ ، ٤٩٧ ، ٤٩٥ ، ٤٩١
دير الأرمن (المعروف باسم دير القديس	٥٢٥ ، ٥٢٠ ، ٥١٨ ، ٥٠٩
يعقوب) : ٢٠٨	٥٤٦ ، ٥٤٥ ، ٥٤٤ ، ٥٣٥
دير أبوب : ٤٠٥	٥٦٠ ، ٥٥٧ ، ٥٥٢ ، ٥٥١
	٥٦٤ ، ٥٦٣ ، ٥٦٢ ، ٥٦١

حرف الدال

ذات البقل : ٥٩ .

حرف الراء

الرملة : ٤١ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٩٤ ، ١١٦ ،	رابع : ١٢٨ ،
رأس العين : ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ،	رأس العين : ٧٣ ، ٢٩٣ ، ٣٠٢ ،
١٨٥ ، ١٨٣ ، ١٧٠ ، ١٦٩	رأس الماء : ١٣٥ ،
٤٨٨ ، ٤٨٨ ، ٤٧٢ ، ٢١٠	الراوندان : ٧٨ ، ٢٩٨ ، ٣١٦ ،
٦٧٩	٤٤٨ ،
الرما : ٣٦ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ،	الرلين : ١٨٢ ،
٦٠ ، ٥٨ ، ٥٧ ، ٥٣ ، ٤٩٤٦	ربض غزه : ٩٤ ،
٦١ ، ٦٦ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥	الربوة : ٤١٠ ،
١٢٦ ، ١٣٦ ، ١٤٩ ، ١٤٩ ، ١٧٤	الربحة (الميادين حالياً) : ٤٣ ،
٢٨٢ ، ٢٧٩ ، ٢٣٠ ، ٢٠٨	٧٧ ،
٢٩٤ ، ٢٩٣ ، ٢٨٦ ، ٢٨٣	الرسن : ١١٣ ،
٢٩٩ ، ٢٩٨ ، ٢٩٧ ، ٢٩٥	ربعان : ٥٣ ،
٣٠٣ ، ٣٠٢ ، ٣٠١ ، ٣٠٠	رفيبة : ٤٣ ، ٥٥ ، ٤٠٤ ،
٤٤٦ ، ٤٤٥ ، ٣٩٥ ، ٣٠٤	الرقنة : ٤٢ ، ٧٣ ، ٢٩٣ ، ٤٢١ ، ٣٠٢ ،

روما : ٣٦ ، ١٨٥ ، ١٤٥ ، ٢٥٥ ، ٢٥٥	روحاء : ٤٩٨ ، ٤٥٠ ، ٤٤٩ ، ٤٤٧
٣٩٨ ، ٣٠٤ ، ٢٩٦ ، ٢٧٥	٤٩٩ ، ٦٢٤ ، ٦٢٩ ، ٦٢٧ ، ٦٦٧
. ٥٣٢	روحاء : ٣٥٩ .
. ٢٢٩ ، ٢٢٨	رومن : ٥٦٦ ، ٥٧٤ ، ٥٧٥ ، ٥٧٥
. ٥٠٠ ، ١٠٦	٥٧٦ ، ٥٧٩ ، ٥٧٨ ، ٥٧٧ ، ٥٧٦
	. ٦٤١ ، ٥٨١ ، ٥٨٠

:

حرف الزاي

زيردا : ٥٩ .	الزبداني : ٤٠٣ ، ٣٧٥
زنغان : ٥٨ .	زبطرة : ٣٩٣ ، ٢٩٤
	زيد : ٩٩ ، ٩٨

حرف السين

سقحبا : . ٤٠٦	الساحل : ١٧٣ ، ١٨٣ ، ١٩٧ ، ١٩٨
ستمية : . ٤٢١ ، ٥١	. ٤٢٨ ، ٣٠١
سمشاط : . ٢٩٤	ساحل الجوزاء : . ١٢٨
سيساط : . ٢٩٨ ، ١٢١ ، ٥٣	سامراء (سر من رأى) : . ٣٠٨
سن ابن عصيبة : . ٧٨	السامرة : . ٢٠٦
سنubar : . ٤٥ ، ٥١ ، ٤٩	سان سيمون : . ٥٨٤
٥٢ ، ٥١ ، ٤٩	سانت جوشا (معر) : . ١٨٢
١٢٧ ، ٧٧ ، ٧٦ ، ٦٠	ساوه : . ٥٨
١٥٨ ، ١٥٧ ، ١٥٦ ، ١٤٩	سبسطية : . ٢٦٩ ، ٢٦٦
٤٥٦ ، ٤٥٥ ، ٢٧٩ ، ١٧٤	ستاليونفراد : . ٣١٤
. ٥٢٦	سجن خربت : . ٦١
سفنافوره : . ٣١٤	سجن دمشق : . ١٤٧
سنمكوه : . ٥٥٠	سدرة النتهي : . ٦٨٣
سهل البقاع : . ٣٨١ ، ٢٣٢	سرفتكار : . ٢٤٣
سهل حوران : . ١٨٦	سرمنية : . ٤٩٠
سهل ساري سو : . ٣٣	صومان : . ٣١٠ ، ٣٠٩
٢٢٢ ، ٢٢٢	سروج : . ٤١ ، ٤٣ ، ٧٤ ، ٥٣
السوداد : . ٦٧ ، ٤٦٦ ، ٤٩٥	، ١٢٦ ، ٧٤ ، ٥٣ ، ٣٠١ ، ٣٠٠ ، ٢٩٨ ، ٢٣٥
سوبيا : . ١٧٨	. ٤٥ ، ٣٠٣
سود ماردين : . ٥٣	

سيس (عاصمة الأرمن) : ٢٤٣	سوريا : ٣٥ ، ٢٣٠ ، ٢٧٥ ، ٣١٦
. ٤٠٠ ، ٣٩٧ ، ٢٩٦	. ٥٨٧ ، ٥٥٧ ، ٦٣٤
. ٥٨٠	. ٢٨٦ ، ٢٤٤
سيفيتا فيتشا :	السويدية : ١٨٧
. ٥٦٣	. ١٨٢
سيناء :	سويسرا : ١٨٢
. ٤٠	. ٦٣٣
سيواس :	سيبيريا :
. ١٠٦ ، ٢٨١	

حرف الشين

١٨١ ، ١٨٠ ، ١٧٦ ، ١٧٥	٢٣ ، ١٩ ، ١٨ : بلاد الشام
١٨٩ ، ١٨٥ ، ١٨٤ ، ١٨٣	٤٦ ، ٤٣ ، ٣٨ ، ٣٧ : ٢٤
١٩٧ ، ١٩٦ ، ١٩٤ ، ١٩٠	٦٢ ، ٥٨ ، ٥٥ ، ٥٣ ، ٥١
٢٠٨ ، ٢٠٦ ، ٢٠٤ ، ٢٠١	٧٢ ، ٧٠ ، ٦٩ ، ٦٨ ، ٦٣
٢١٥ ، ٢١٤ ، ٢١٢ ، ٢١١	٨١ ، ٨٠ ، ٧٩ ، ٧٥ ، ٧٤
٢٢٨ ، ٢٢٥ ، ٢١٧ ، ٢١٦	٨٧ ، ٨٦ ، ٨٤ ، ٨٣ ، ٨٢
٢٢٤ ، ٢٢٣ ، ٢٢١ ، ٢٢٠	٩٠٢ ، ٩٩ ، ٩٣ ، ٩١ ، ٨٩
٢٤١ ، ٢٤٠ ، ٢٣٨ ، ٢٣٧	١٠٨ ، ١٠٧ ، ١٠٥ ، ١٠٣
٢٤٩ ، ٢٤٨ ، ٢٤٤ ، ٢٤٣	١١٤ ، ١١٣ ، ١١١ ، ١٠٩
٢٥٣ ، ٢٥٢ ، ٢٥١ ، ٢٥٠	١٢٣ ، ١٢٢ ، ١١٧ ، ١١٦
٢٦٦ ، ٢٦٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٥	١٣٠ ، ١٢٩ ، ١٢٥ ، ١٢٤
٢٧٦ ، ٢٧٥ ، ٢٦٩ ، ٢٦٧	١٣٥ ، ١٣٤ ، ١٣٣ ، ١٣٢
٢٨٥ ، ٢٨٤ ، ٢٧٩ ، ٢٧٧	١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٧ ، ١٣٦

، ٥٥٣ ، ٥٥١ ، ٥٥٠ ، ٥٥٩
 ، ٥٦٤ ، ٥٦١ ، ٥٥٨ ، ٥٥٥
 ، ٥٨٣ ، ٥٨٢ ، ٥٧٨ ، ٥٧٤
 ، ٥٨٤ ، ٥٨٦ ، ٥٨٥ ، ٥٨٤
 ، ٦٢٩ ، ٦٢٧ ، ٦٢٤ ، ٦٢٨
 ، ٦٢١ ، ٦٢٢ ، ٦٢٠ ، ٦٢٠
 ، ٦٢٠ ، ٦٢٨ ، ٦٢٧ ، ٦٢٥
 ، ٦٤٨ ، ٦٤٧ ، ٦٤٦ ، ٦٤٤ ، ٦٤١
 ، ٦٥٧ ، ٦٥٤ ، ٦٥٠ ، ٦٥٩
 ، ٦٦٥ ، ٦٦٤ ، ٦٦٢ ، ٦٥٩
 ، ٦٧١ ، ٦٦٩ ، ٦٦٨ ، ٦٦٧
 ، ٦٧٥ ، ٦٧٤ ، ٦٧٣ ، ٦٧٢
 ، ٦٧٨ ، ٦٧٧
 شامانيا : ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧٠
 ، ٢٩٧ ، ٢٠٤ ، ٢٠٣ ، ٢٠٢
 ، ٦٣٩ ، ٥٣٢
 . شبه الجزيرة العربية : ٢٢
 . شتاركتسبرغ : ١٧٧
 . شتحان : ٥٣
 . شرمصاح : ٢٢٤
 . الشفر : ٤٨٩
 . شفيعم : ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦١ ، ١٦٣
 الشيف أرنون : ١٨٦ ، ٢٢٢
 ، ٤٣٢ ، ٤٣٨ ، ٤٣١ ، ٤٣٩

، ٣٠٣ ، ٣٨٨ ، ٣٨٧ ، ٣٨٦
 ، ٣١٠ ، ٣٠٩ ، ٣٠٨ ، ٣٠٥
 ، ٣١٤ ، ٣١٣ ، ٣١٢ ، ٣١١
 ، ٣٥٥ ، ٣٣٨ ، ٣٣٥ ، ٣١٥
 ، ٣٦١ ، ٣٦٠ ، ٣٥٩ ، ٣٥٦
 ، ٣٧٠ ، ٣٦٩ ، ٣٦٨ ، ٣٦٧
 ، ٣٨١ ، ٣٧٥ ، ٣٧٤ ، ٣٧٢
 ، ٣٩٢ ، ٣٨٦ ، ٣٨٤ ، ٣٨٣
 ، ٣٩٩ ، ٣٩٥ ، ٣٩٤ ، ٣٩٣
 ، ٤١١ ، ٤٠٩ ، ٤٠٤ ، ٤٠٠
 ، ٤١٦ ، ٤١٥ ، ٤١٤ ، ٤١٢
 ، ٤٢٥ ، ٤٢٤ ، ٤٢٢ ، ٤٢٠
 ، ٤٣٨ ، ٤٣٧ ، ٤٣٦ ، ٤٣٦
 ، ٤٤٩ ، ٤٤٥ ، ٤٤٤ ، ٤٤٠
 ، ٤٥٠ ، ٤٥٦ ، ٤٥١ ، ٤٥٠
 ، ٤٦١ ، ٤٦٠ ، ٤٥٨ ، ٤٥٧
 ، ٤٦٨ ، ٤٦٦ ، ٤٦٣ ، ٤٦٢
 ، ٤٨٠ ، ٤٧٤ ، ٤٧٣ ، ٤٧٢
 ، ٤٩١ ، ٤٨٨ ، ٤٨٧ ، ٤٨٦
 ، ٥٠٨ ، ٥٠٣ ، ٥٠١ ، ٤٩٥
 ، ٥١٣ ، ٥١٢ ، ٥١١ ، ٥٠٩
 ، ٥٢٧ ، ٥٢٠ ، ٥١٩ ، ٥١٧
 ، ٥٣٧ ، ٥٣٦ ، ٥٣٤ ، ٥٣٣
 ، ٥٤٦ ، ٥٤٤ ، ٥٤٢ ، ٥٤١

٣٦٧ ، ٣٦١	٦٣٧ ، ٦٣٦ ، ٦٣٥ ، ٦٣٤
٦٨ ، ٥٠ ، ٤٨ ، ٣٨ ، ٣	٥٢٢ ، ٤٨٨ ، ٤٣٨
٤٠٣ ، ٣١٠ ، ١١٧ ، ٧٠	شيف تيرون : ٦٦
٦٦٢ ، ٦٢١ ، ٤٢٠ ، ٤١٦	شون طناح : ٢١٦ ، ٢١٦
٦٦٢ ، ٦٢٦ ، ٤٢٥ ، ٤٢٣	٢١٩
٦٦٣ ، ٥٦٩ ، ٥٦٨ ، ٤٨٧	الشوبك : ٩٦ ، ١٢٥ ، ١٢٥ ، ٩٦

حرف الصاد

٢٢ ، ٢٢ ، ١٩ ، ١٨ ، ١	صافيتا : ١٠٥ ، ٥١٢ ، ٢٤٧
١٢٦ ، ١٠٠ ، ٩٩ ، ٩٣	الصبيبة : ٥٦١ ، ٥٦٠ ، ٥٥٧
٢٥٧ ، ٢٣٨ ، ٢٨٠ ، ٢٦٨	٥٦٥ ، ٥٦٤ ، ٥٦٣
٦٤٧ ، ٥٢٣ ، ٥١٨	صدر : ١٢٩
٥٧	صرخد : ١٧٣
٤٠٨ ، ١٧٥	الصبيدة : ١٠٠ ، ٨٦ ، ٨٤ ، ١
٤٨٩ ، ٤٧٦ ، ٤٧	١٠٢
صبيون : ٣٩	ضند : ١١٨ ، ٢٠٠ ، ٢٤١
صور : ٢٨	٤٣٣ ، ٤٣٢
١٨٨ ، ١٨٧ ، ١٨٦ ، ١٨٤	٤٣٩ ، ١٣٨ ، ١٣٦
١٧٤ ، ١٥٩ ، ١٥١ ، ١٥٩	صفرية : ٦٨٨ ، ٣٧١ ، ٢٦٩ ، ١٦٩
١٧٧ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ، ١٧٥	٦٣١ ، ٥٢٢ ، ٥٢١
٢٠٩ ، ١٩٣ ، ١٨٦ ، ١٨٤	صفين : ٦٠
٢٥٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٥ ، ٢٤٠	

، ١٩٨ ، ١٩٧ ، ١٩٢ ، ١٨٦
 ، ٢٨٩ ، ٢٣٥ ، ٢٣٢ ، ٢٠٠
 ، ٣٧١ ، ٣٤٠ ، ٣٦٩ ، ٣٥٦
 ، ٤٣٤ ، ٤٣٣ ، ٤٣٢ ، ٤٢٨
 ، ٤٦٣ ، ٤٣٧ ، ٤٣٦ ، ٤٣٥
 ، ٤٧٤ ، ٤٧١ ، ٤٦٨ ، ٤٦٦
 ، ٥١٧ ، ٥١١ ، ٥٠٩ ، ٤٨٨
 ، ٦٨٩ ، ٥٨٦ ، ٥٣٦ ، ٥٢٢
 . ٦٦٤
 . ٥٢٨

، ٤٢٨ ، ٤٠٤ ، ٣٨٠ ، ٢٥٦
 ، ٤٦٣ ، ٤٣٧ ، ٤٣٥ ، ٤٣٤
 ، ٤٦٧ ، ٤٦٦ ، ٤٦٥ ، ٤٦٤
 ، ٤٧١ ، ٤٧٠ ، ٤٦٩ ، ٤٦٨
 ، ٥١٣ ، ٥٠٩ ، ٤٧٣ ، ٤٧٢
 . ٥٤٢ ، ٥٣٣ ، ٥٢٠ ، ٥١٧
 . ٦٨٢ ، ٥٧٠ ، ٥٥٢
 صين : ٦٨ : ٦٩ ، ٦٦ ، ٦٦
 ، ١٨٨ ، ١٨٧ ، ١٨٦ ، ١٨١
 ، ١٧٨ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ، ١٥٩

حرف الطاء

٤٢٨ ، ٤٣٣ ، ٤٠٧ ، ٤٠٣	٥٧ ، ٥١ ، ٤٧ ، ٤٧
٤٦٨ ، ٤٦٥ ، ٤٥٩ ، ٤٥٥	١١٨ ، ١٠٨ ، ٦٦ ، ٥٩
٤٩٦ ، ٤٩٥ ، ٤٩١ ، ٤٧٣	١٣٦ ، ١٣٣ ، ١٢٦ ، ١١٩
٥٠٠ ، ٤٩٩ ، ٤٩٨ ، ٤٩٧	١٥٢ ، ١٤٠ ، ١٣٩ ، ١٣٧
٥٠٩ ، ٥٠٨ ، ٥٠٢ ، ٥٠١	٢٠٦ ، ١٩٢ ، ١٧٤ ، ١٦٣
٥٨٤ ، ٥٠٠٥ ، ٥١٩ ، ٥١٣ ، ٥١١	٤٠٤ ، ٢٦٩ ، ٢١٢ ، ٢٠٨
٦٧٤ ، ٦٦٨ ، ٦٦٦ ، ٦٣١	٥٢١ ، ٥١٣ ، ٤٣٣ ، ٤٠٥
٢٤٧ ، ٢٤٣ ، ١٠٧ ،	٥٦٣
٦٨٧ ، ٤٠٠ ، ٢٩٧ ، ٢٩٥	٤٧ ، ٤٣ ، ٤١ ، ٢٣
طرطوس (أنظر طرس) ٤١ ،	٧٥ ، ٦٦ ، ٥٩ ، ٥٤
٥٠ ، ٣٦٣ ، ٣٤٠ ، ٣٣٩ ، ٣٣٨	٥١ ، ١١٢ ، ١٠٨ ، ١٠٥ ، ١٠٣
٣٩٢ ، ٣٨٧ ، ٣٦٠ ، ٣٥٧	١١٩ ، ١١٨ ، ١١٧ ، ١١٦
٤٩١ ، ٤٦٦ ، ٤٩٥ ، ٤٩٣	١٣٥ ، ١٣٢ ، ١٣٣
٥٠٣ ، ٥٠٠ ، ٤٩٨ ، ٤٩٦	١٤١ ، ١٤٠ ، ١٣٧ ، ١٣٦
٥١٤ ، ٥١٠ ، ٥٠٩ ، ٥٠٨	٢٠٤ ، ١٩٨ ، ١٨٤ ، ١٥١
٥٣٦ ، ٥٣٩ ، ٥١٢	٢٨٩ ، ٢٤٧ ، ٢٤٢ ، ٢٠٩
٢٩٤ ،	٢٨٥ ، ٢٨٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٤
٧٥ ، ١٨ ،	٣١٦ ، ٣١١ ، ٢٨٧ ، ٢٨٦
طلطة ،	٢٤٠ ، ٢٣٨ ، ٢٣٦ ، ٢٣٥
١٠٢ ،	٣٥٦ ، ٣٥٠ ، ٣٤٢ ، ٣٤١
الطور (جيبل) ، ٢٠٦ ، ١٨٣ ،	٣٨١ ، ٣٦٠ ، ٣٥٨ ، ٣٥٧
٢١٢	٣٩٨ ، ٣٩٧ ، ٣٨٥ ، ٣٨٤
طوروس ، ٣٦	

حرف العين

، ٥٢، ٤٢، ٣٩، ٣٨ : عكا
 ، ١٣٣، ١٢٦، ١١٦، ٦٦
 ، ١٦٦، ١٣٨، ١٣٧، ١٣٥
 ، ١٥٣، ١٤٩، ١٤٨، ١٤٧
 ، ١٥٨، ١٥٧، ١٥٥، ١٥٣
 ، ١٦٢، ١٦١، ١٦٠، ١٥٩
 ، ١٦٦، ١٦٥، ١٦٤، ١٦٣
 ، ١٧٧، ١٧٦، ١٧٢، ١٧٩
 ، ١٨٧، ١٨٥، ١٨٤، ١٨٣
 ، ٢٠٠، ١٩٧، ١٩٦، ١٩٨
 ، ٢٠٥، ٢٠٤، ٢٠٣، ٢٠٢
 ، ٢١١، ٢٠٩، ٢٠٧، ٢٠٦
 ، ٢١٨، ٢١٦، ٢١٥، ٢١٤
 ، ٢٢٥، ٢٢٤، ٢٢٨، ٢٢٦
 ، ٢٤١، ٢٤٠، ٢٣٩، ٢٣٦
 ، ٢٤٦، ٢٤٥، ٢٤٤، ٢٤٢
 ، ٢٥١، ٢٥٠، ٢٤٩، ٢٤٨
 ، ٢٥٥، ٢٥٤، ٢٥٣، ٢٥٢
 ، ٢٦٠، ٢٥٥، ٢٦٩، ٢٥٧

عدن : ٩٩.
 عذرا : ٧٣.
 العراق : ٢٩٣، ١٩٠، ٧٩
 ، ٦٧١، ٤٤٠، ٣٠٨، ٣٠٥
 . ٦٧٢.
 عرقا : ٣٨، ٣٨، ٤٩٦، ٢٤٢، ١٠٨
 عريمة : ١٠٥، ١٠٥
 عسقلان : ٥٩، ٥٧، ٤٢، ٣٩
 ، ١٥٩، ١١٥، ٩٤، ٧٩
 ، ١٧٠، ١٦٩، ١٦٨، ١٦٥
 ، ٢٠٤، ٢٠٣، ١٩٤، ١٧١
 ، ٢١٢، ٢١١، ٢٠٦، ٢٠٥
 ، ٣٧١، ٣٥٦، ٢٦٩، ٢٣٩
 ، ٤٨٨، ٤٧٩، ٤٣٦، ٤٠٥
 ، ٧٦٩، ٥٧٠، ٥١٩، ٥٠٨
 . ٦٧٧.
 العسيلة : ١٢٩.
 عشرتا : ١٠٨.
 غربين : ٢٧٦.

العواصم : ٤١ ، ٢٩٤ ، ٣٩٣ ،	٤٠٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٥ ، ٤٠٩ ، ٤٠٥
عيذاب : ١٢٨ ،	٤٦٩ ، ٤٦٨ ، ٤٦٦ ، ٤٦٣
عين البقر : ٥١٣ ،	٤٨٨ ، ٤٧٣ ، ٤٧١ ، ٤٧٠
عين تاب (عيتاب) : ٧٨ ،	٥١٧ ، ٥١٣ ، ٥١٢ ، ٥٠١
٢٩٧ ، ٢٥٢ ، ٢٥١ ، ٢٤٨	٥٢١ ، ٥٢٠ ، ٥١٩ ، ٥١٨
٤٤٨ ، ٣١٤ ، ٢٩٨	٥٢٥ ، ٥٢٤ ، ٥٢٣ ، ٥٢٢
عين جالوت : ١٧٦ ، ٢٣٦ ، ٢٢٧	٥٣٥ ، ٥٢٨ ، ٥٢٧ ، ٥٢٦
٢١٥ ، ٣١٣ ، ٢٨٦ ، ٢٣٧	٥٤٦ ، ٥٤٤ ، ٥٤٢ ، ٥٣٦
٤١٣ ، ٣٩٩ ، ٣٨٣ ، ٣٧٢	٥٨٦ ، ٥٧٥ ، ٥٦١ ، ٥٥٤
٥٥٥ ، ٤٦١ ، ٤٥١ ، ٤٣٧	٦٤٨ ، ٦٤٧ ، ٦١٤ ، ٦٠٧
٦٦٩ ، ٦٥٦ ، ٦٣٤ ، ٦٢٩	٦٦٩ ، ٦٥٠ ، ٦٤٩
٦٧٢	عكار : ٣٤١
عين زربة : ٦٩ ، ٢٩٥ ، ٢٨٥	عمان : ٩٩
٣٩٤	عواص : ٢٦٦
عيون صفورية : ٢٠٥	عوربة : ٣٩٣ ، ٤٦
عيون كريتون : ١٣٦	

حرف الغين

غمر : ٤٥٩ .	غزة : ١٩ ، ٢٠٣ ، ١٩٧ ، ١٧٠ ،
النور : ٥٧ ، ١٧٤ ، ٥٧ .	٢٠٩ ، ٢٠٦ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ،
النوطة : ٧٢ ، ٧٢ .	٢٣٤ ، ٢١١ ، ٢١٠ ، ٦٧٩ ، ٤٨٨ ، ٤٣٧ ، ٢٧٧ ، ٢٦٦

حرف الفاء

فارس : ٩٩ ، ٢٣٠ ، ٢٢٨ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ،	فارسکو : ٢١٩ ، ٢٢٥ ، ٢١٩ ،
٤٢١ ، ٣٠٣ ، ٣٠٢ ، ٣٠٠ ،	٥٨٥ ، ٥٨٦ ، ٥٨٧ ، ٥٨٨ ، ٥٨٨ ،
٥١٩ .	٦٠٦ ، ٦٠٧ ، ٦٠٨ ، ٦٠٨ ، ٦٠٧ .
الفرادي : ٧٤ .	فحل : ٢٦٥ .
فرنسا : ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٥ ، ١٣٢ ،	فحل بیسان : ٣٧٥ .
١٦٠ ، ١٥٧ ، ١٤٦ ، ١٤٥ ،	الفرات : ٦٠ ، ٦١ ، ٦٩ ، ٦١ ، ٦٠ ،
١٦١ ، ١٦٩ ، ١٦٩ ، ١٦١ ،	٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٧ ،
١٨١ ، ١٧٨ ، ١٧٨ ، ١٧٨ ،	٦٨ ، ٦٩ ، ٦٩ ، ٦٩ ، ٦٩ ، ٦٩ ،
١٨٥ ، ١٨٣ ، ١٨٣ ، ١٨٢ ،	٦٩ ، ٦٩ ، ٦٩ ، ٦٩ ، ٦٩ ، ٦٩ ،
٢٠٢ ، ٢١٧ ، ٢١٣ ، ٢٠٣ ،	٦٩ ، ٦٩ ، ٦٩ ، ٦٩ ، ٦٩ ، ٦٩ ،
٢١٨ ، ٢٢٦ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ،	٦٩ ، ٦٩ ، ٦٩ ، ٦٩ ، ٦٩ ، ٦٩ ،
٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٨ ، ٢٢٧ ،	٦٩ ، ٦٩ ، ٦٩ ، ٦٩ ، ٦٩ ، ٦٩ ،
٤٠٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠٠ ، ٤٠٩ ،	٦٩ ، ٦٩ ، ٦٩ ، ٦٩ ، ٦٩ ، ٦٩ ،

، ٣٨٥ ، ٣٨١ ، ٢٦٧ ، ٢٦٦
 ، ٤٨٨ ، ٤٦٤ ، ٤١٢ ، ٤١١
 ، ٥٢٠ ، ٥١٧ ، ٥٠٨ ، ٥٠٠
 ، ٥٢٨ ، ٥٣٥ ، ٥٢٩ ، ٥٢٨
 ، ٥٦٠ ، ٥٥٧ ، ٥٦٥ ، ٥٤٢
 . ٦٢٤ ، ٦٢٨ ، ٥٦٥

فم الصلح : ٣٠٨

فندورم : ١٨١

فسوة : ١٨٣

الفولة : ٥٢٢ ، ٤٨٨

فينيسيا : ٦٠٨

، ٥٢٠ ، ٤٧٢ ، ٤٣٨ ، ٤٣٦
 ، ٥٧٩ ، ٥٥٤ ، ٥٢٦ ، ٥٢٣
 ، ٦٦٢ ، ٦٦١ ، ٦٣٣ ، ٥٨٥
 . ٦٧٢ ، ٦٤٨ ، ٦٥٨ ، ٦٤٤
 . الفلاندر : ٢٦٨ ، ٤٦٠
 فلسطين : ٣٨ ، ٥٠ ، ٩٤ ، ٨٦
 ، ١٤٥ ، ١٣٣ ، ١٢٩ ، ١٠٠
 ، ١٧٨ ، ١٧٥ ، ١٧٤ ، ١٦٩
 ، ١٩٣ ، ١٨٦ ، ١٨٥ ، ١٨١
 ، ٢٠٢ ، ٢٠١ ، ١٩٧ ، ١٩٦
 ، ٢٣٤ ، ٢١٢ ، ٢١١ ، ٢٠٦
 ، ٢٥٠ ، ٢٤٨ ، ٢٤٦ ، ٢٤٥

حرف القاف

، ٢١٨ ، ٢١٦ ، ٢١٥ ، ٢١٤
 ، ٢٤٧ ، ٢٤٥ ، ٢٢٨ ، ٢٢٧
 ، ٤٧٣ ، ٢٠٥ ، ٢٥٤ ، ٢٤٨
 ، ٥١٢ ، ٥٠١ ، ٤٩٧ ، ٤٩٦
 ، ٥٦٦ ، ٥٣٦ ، ٥٢٧ ، ٥٢٦
 ، ٥٨٢ ، ٥٧٧ ، ٥٧٥ ، ٥٧٤
 ، ٥٨٦ ، ٥٨٥ ، ٥٨٤ ، ٥٨٣
 ، ٥٩٧ ، ٥٩١ ، ٥٨٨ ، ٥٨٧
 ، ٦٠٨ ، ٦٠٢ ، ٦٠٦ ، ٦٠٣
 ، ٦٥١ ، ٦٢٨ ، ٦١٨ ، ٦١٤
 ، ٦٦٨ ، ٦٥٩ ، ٦٥٤ ، ٦٥٣
 ، ٦٠ ، ٣٩ ، ٣٨ ، ٢٤ ، ٣
 القدس : ٢٤ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ،
 ، ٥١ ، ٤٨ ، ٤٧ ، ٤٣ ، ٤٢
 ، ٦١ ، ٥٧ ، ٥٥ ، ٥٤ ، ٥٢
 ، ٨٣ ، ٧٩ ، ٦٩ ، ٦٥ ، ٦٢
 ، ١١٦ ، ١١٣ ، ٩٣ ، ٨٧
 ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢٣
 ، ١٣٢ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٦
 ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦

قاروشا (القرية الصغيرة) : ٦٠٨ .
 القاهرة : ٣٩ ، ٨٢ ، ٨٦ ، ٨٧ ،
 ، ١٢٨ ، ٩٩ ، ٨٩ ، ٨٨
 ، ٢١٩ ، ١٨٣ ، ٢١٨ ، ١٣٤
 ، ٢٤٥ ، ٢٣٧ ، ٢٣٤ ، ٢٢٢
 ، ٥٠٨ ، ٤٧٣ ، ٤٢٨ ، ٢٥٥
 ، ٥٢٧ ، ٥٢٥
 قابين : ٥٤٩ .
 قبة السلسلة : ٢٦٧ .
 قبة المشر : ٢٦٧ .
 قبة المراج : ٢٦٧ .
 قبة الميزان : ٢٦٧ .
 قبة الصخرة : ٦٨٢ ، ٦٨٣ ، ٦٨٤
 . قبر جعفر الطيار رضي الله عنه : ٣٦١ .
 قبر يحيى بن زكريا (عليه السلام) :
 ٢٦٦ .
 قبرص : ٧٠ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ،
 ١٦٢ ، ١٧٨ ، ١٨٤ ، ١٩١ ،
 ١٩٢ ، ٢١٢ ، ٢٠٢ ، ١٩٦ ، ١٩٨

٥١١ ، ٥٠٨ ، ٤٩٩ ، ٤٩٨	١٦٦ ، ١٦٥ ، ١٤٤ ، ١٣٧
٥١٩ ، ٥١٨ ، ٥١٧ ، ٥١٢	١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٦٧
٥٢٣ ، ٥٣٢ ، ٥٢١ ، ٥٢٠	١٧٥ ، ١٧٤ ، ١٧٣ ، ١٧١
٥٤٤ ، ٥٤٣ ، ٥٣٥ ، ٥٣٤	١٨٥ ، ١٨٤ ، ١٨٣ ، ١٧٨
٥٦١ ، ٥٦٠ ، ٥٥٧ ، ٥٤٥	١٩٢ ، ١٩٠ ، ١٨٧ ، ١٨٦
٥٨٥ ، ٥٧٥ ، ٥٦٤ ، ٥٦٢	١٩٨ ، ١٩٧ ، ١٩٦ ، ١٩٣
٦٢٣ ، ٦١٤ ، ٦٠٦ ، ٥٨٦	٢٠٦ ، ٢٠٤ ، ٢٠٠ ، ١٩٩
٦٣٩ ، ٦٣٨ ، ٦٣٧ ، ٦٢٨	٢١٢ ، ٢٠٩ ، ٢٠٨ ، ٢٠٧
٦٤٤ ، ٦٤٣ ، ٦٤١ ، ٦٤٠	٢٣٠ ، ٢٢٣ ، ٢١٨ ، ٢١٣
٦٥٧ ، ٦٤٨ ، ٦٤٦ ، ٦٤٥	٢٥٤ ، ٢٤٨ ، ٢٤٥ ، ٢٣٢
٦٧٠ ، ٦٦٩ ، ٦٦٧ ، ٦٥٨	٢٦٨ ، ٢٦٧ ، ٢٦٦ ، ٢٦٥
٦٨٠ ، ٦٧٩ ، ٦٧٨ ، ٦٧٧	٢٧٢ ، ٢٧١ ، ٢٧٠ ، ٢٦٩
٦٨٥ ، ٦٨٤ ، ٦٨٢ ، ٦٨١	٢٨٨ ، ٢٨٦ ، ٢٨٥ ، ٢٨٠
٢٢٩ ، ٢٢٨ ، ٢٢٧ ، ٢٢٠	٣١١ ، ٣٠٦ ، ٣٠٢ ، ٢٩٩
قرقيساد : ٢٩٣	٣٥٦ ، ٣٤٢ ، ٣٣٨ ، ٣٣٦
قرقىساد : ٢٩٣	٣٧٢ ، ٣٧١ ، ٣٧٠ ، ٣٦٧
قردون جاه : ١١٣	٣٩٥ ، ٣٨٣ ، ٣٨١ ، ٣٧٣
قرية لوبكى : ٣٣	٤٠٦ ، ٤٠٤ ، ٤٠٢ ، ٣٩٩
قرزون : ٥٤٩	٤١٠ ، ٤٠٩ ، ٤٠٨ ، ٤٠٧
السلطنتية : ٢١ ، ٢٦ ، ٢٥	٤٢٨ ، ٤١٣ ، ٤١٢ ، ٤١١
٢٦ ، ٣٨ ، ٣٢ ، ٢٨	٤٢٨ ، ٤٢٤ ، ٤٢٣ ، ٤٢٢
٢٧ ، ١٧٩ ، ١٧٨ ، ١٦	٤٦٠ ، ٤٤٩ ، ٤٤٨ ، ٤٤٥
٢١٥ ، ١٨٥ ، ١٨٤ ، ١٨٣	٤٦٩ ، ٤٦٨ ، ٤٦٦ ، ٤٦٤
٢٩٦ ، ٢٨٣ ، ٢٧٧ ، ٢٧٥	٤٩٦ ، ٤٩٥ ، ٤٩٤ ، ٤٨٨

قلمة بعلك : . ٧٩	قلمة بغراس : . ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٨٧	قلمة بدوروم : . ٥٧٤	قلمة أبي قيس : . ٤٨٩	القصر الأبيض : . ٣١٦
قلمة بفانتو : . ٦١٨	قلمة بيلاليس : . ٦٠٣	قلمة بيلاليس : . ٦٠٣	قلمة أصبهان : . ٥٤٩	قلمة أعزاز : . ١١٥
قلمة بيضاء : . ٥١٢	قلمة تبنين (وقد يأْيَ قلمة تورون) : . ٤٠٤	قلمة تبنين (وقد يأْيَ قلمة تورون) : . ٤٠٤	قلمة أقامية (قلمة المضيق) : . ٥٤	قلمة أقامية (قلمة المضيق) : . ٥٤
قلمة جمبر : . ٦٨٠	قلمة حارم : . ٦٤ ، ٦٥٦ ، ٦٥٧	قلمة جمبر : . ٤٢ ، ١٠٥	قلمة اكسيريجوردون : . ٢٦	قلمة اكسيريجوردون : . ٢٦
قلمة الجند : . ٩٩	قلمة حجاج : . ٥٣٤	قلمة الجند : . ٩٩	قلمة الموت : . ٥٤٩	قلمة الموت : . ٥٤٩
قلمة الحصن (حصن الأكراد) : . ٣١٦	قصر الحجيج : . ٥٢٩	قلمة الحصن (حصن الأكراد) : . ٣١٦	قلمة أنكورية : . ٤١ ، ٢٨١	قلمة أنكورية : . ٤١ ، ٢٨١
٣٣٩ ، ٣٣٦ ، ٣٣٨ ، ٣٣٧	قلمة حلب : . ٤٥٢	٣٣٩ ، ٣٣٦ ، ٣٣٨ ، ٣٣٧	قلمة بانياس : . ٦٥ ، ٤١١ ، ٥٥١	قلمة بانياس : . ٦٥ ، ٤١١ ، ٥٥١
٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣	قلمة حلب : . ٤٥٢	٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣	٥٦٢ ، ٥٦١ ، ٥٦٠ ، ٦٥	٥٦٢ ، ٥٦١ ، ٥٦٠ ، ٦٥
. ٥٥٥		. ٥٥٥	. ٥٦٣	قلمة بعرن : . ٦٦ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٣٦٢

- | | |
|--|----------------------------|
| قلعة خرتبرت : ٦١ ، ٣٤٠ ، ٢٤٤ ، ٥٣٣ ، ٥٢٩ ، ٣٤٠ ، ٢٤٤ | . ٣٠٢ ، ٦٢ ، ٦١ ، ٣٠٢ ، ٦٢ |
| . ٥٤٦ ، ٥٣٧ ، ٥٣٦ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦ | . ٥٥٠ ، ٥٥٠ |
| قلعة علمال : ٤٠٤ ، ٣٨٧ ، ٣٣٩ | . ٥٢٩ ، ٥٢٩ |
| . ٥٦٠ ، ٣٨٧ ، ٣٣٩ | . ٤٠٣ ، ٤٠٣ |
| القلعة العلمية : ٥٧٤ ، ٥٧٤ | . ٥٦٦ ، ٥٦٦ |
| . ٥٧٤ ، ٥٧٤ | . ٢٣٩ ، ٢٣٩ |
| قلعة فيليرمو : ٣٥٥ | . ٥٩١ ، ٥٩١ |
| . ٣٥٥ ، ٣٥٥ | . ٦٠ ، ٦٠ |
| قلعة القدموس : ٥٧٨ | . ٥٥٠ ، ٥٥٠ |
| . ٥٧٨ ، ٥٧٨ | . أرنون (أرنون) : ١١٨ ، ٦٠ |
| قلعة قسطنطون : ٣٩٥ | . ٤٤٢ ، ١٤٧ ، ١٤٦ |
| . ٣٩٥ ، ٣٩٥ | . ٤٤٣ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ |
| قلعة القنطرة : ٦١٨ ، ٥٨٨ | . ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ |
| . ٦١٨ ، ٥٨٨ | . ٤٢٠ ، ٤١٦ ، ٣١١ |
| قلعة قيسارية : ٢٤٠ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦ | . ٤٢١ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ |
| . ٥٣٨ ، ٥٣٨ | . ٣١٦ ، ٤٢٦ |
| قلعة الكرك مؤاب : ٣٦١ ، ٣٦٧ | . ٤٢٨ ، ٤٢٨ |
| . ٣٦١ ، ٣٦٧ | . ٤٢٦ ، ٤٢٦ |
| . ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٣ | . ٤٨٥ ، ٤٧٤ ، ٤٦٢ |
| . ٣٧٢ ، ٣٧٣ | . ٤٨٨ ، ٤٨٩ |
| قلعة كوكب الهوى : ١٢٦ | . ٤٩٠ ، ٤٩٠ |
| . ١٢٦ | . ٢٠٦ ، ٣٧١ |
| قلعة كولوسي : ٦١٤ | . ٥٥٠ ، ٥٥٠ |
| . ٦١٤ | . ٥٠٩ ، ٥٠٩ |
| قلعة كيرينيا : ٥٩٧ ، ٦٠٣ | . ١٨٦ ، ١٨٦ |
| . ٥٩٧ ، ٦٠٣ | . ٢٤٠ ، ٢٤٠ |
| قلعة لاروش دي رسول : ٢٤٤ | . عثيث (عثيث) : ٢٤٠ ، ٢٤٠ |
| . ٤٠٠ ، ٤٠٠ | |
| قلعة لا مبرون : ٢٩٦ | |
| . ٢٩٦ | |
| قلعة لميم : ٤٥٥ | |
| . ٤٥٥ | |
| قلعة مخاضة الأحزان : ١١٨ | |
| . ١١٨ | |
| قلعة المرقب : ٣٤٠ ، ٣٤٣ ، ٣٥٤ | |
| . ٣٤٠ ، ٣٤٣ | |
| قلعة الطربان : ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٥٧ | |
| . ٣٥٦ ، ٣٥٧ | |
| قلعة الطور : ٣٦٠ ، ٣٥٩ | |
| . ٣٦٠ ، ٣٥٩ | |

قونية : ٢٧٧ ، ٢٣٩ ، ٧٧ ، ٣٥ ، ٢٧٧ ، ٢٧٧	قلعة مصياف (مصياف) : ١١٥ ، ٥٤٩ ، ٥٥٤ ، ٥٥٥ ، ٥٥٥
. ٣٩٩	. ٥٤٧
قيزيل ضاي : ٣٨٧	. ٥٥٦
فيصارية : ٤١ ، ١٦٤ ، ١٧٦ ، ١٩٦ ، ٢٦٩ ، ٢٤٩ ، ٢٤٠ ، ٥٠٢ ، ٤٨٨ ، ٤٤٣ ، ٣٧١	قلعة مونتفورت : ١٧٧ ، ٢٤٧ ، ٦٨٢
٥٣٨ ، ٥٣٦ ، ٥٢٢ ، ٥٠٨ ، ٥٤٥ ، ٥٤٤ ، ٥٤٣ ، ٥٤٢	قلعة نابلس : ٥٥٠
. ٥٦٦	قلعة الناظر : ٩٩
قيصرية : ٣٥ ، ٢٩٧	قلعة النعكر : ٥٦٠ ، ٥٦٠ ، ٥٦٣ ، ٥٦٤ ، ٥٦١
قبليقة (كيليكيا) : ٢٣١ ، ٢٢٩ :	. ٥٦٥
٢٥١ ، ٢٤٤ ، ٢٤٣ ، ٢٤٢	قلعة هونين : ١٧٦
٢٩٦ ، ٢٩٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٣	قلعة يعقوب : ٤٣٣
٣٩٩ ، ٣٩٥ ، ٣٩٤ ، ٣٩٣ ، ٣٨٧	القلبيات : ١٨٤
. ٥٠٣ ، ٤٠٠	قنسرين : ٤١ ، ٤٤ ، ٦٥ ، ٦٥
قيمون : ١٦٦	. ٤٤٩ ، ٤٤٠ ، ٣٩٢
	. ٤٤٨ ، ٣١٨ ، ٧٨

حرف الكاف

كفر يصل : .	٤٠٥	كاثدرائية القديس نيكولا : .	٦٠٧
كرد كوه : .	٥٥٠	كانى : .	٦٣٤
كفر سود : .	٤٤٨، ٣١٤، ٧٨	الكرج : .	٦٧٢، ٢٥٢، ٢٣٠
كفر طساب : .	٦٢، ٥٥، ٥٤	كرد جا شهر : .	٣٣
	٤٨٧، ٦٩	كردستان : .	٢٢٩، ٢٢٧
كفر كنكة : .	١٣٦، ١٨٣	الكرك : .	٩٦، ٩٨، ٩٧، ٩٦
كفر لانا : .	٤٤٨، ٣١٤، ٧٨		١٠٥، ١٢٥، ١٢٣، ١٢٢
كلاوي : .	١٨٠		١٣٢، ١٣١، ١٣٠
كليرمونت : .	١٧		١٢٧، ١٢٦، ١٢٥
الكنيسة الارثوذكسيّة : .	٢٩٥		١٣٤، ١٣٥، ١٣٨
الكنيسة الأرمنيّة : .	٢٩٥		١٩٢، ١٩٣، ٢٠٠
كنيسة صهيون : .	٦٢٩، ٢٧٠		٢٠٣، ٢٠٧، ٢٠٦، ٢٠٤
كنيسة العذراء : .	٢٣٩		٢٣٤، ٢١١، ٢١٠، ٢٠٩
الكنيسة القبرصيّة : .	٥٨٣		٣٦٩، ٣٦٧، ٣٦١
كنيسة القدس صوفية : .	١٧٩		٣٧٤، ٣٧٢، ٣٧١
كنيسة القديسة ماريا : .	٥١٠، ٥٠٣		٤٥٠، ٤٨٩، ٦٢٧
كنيسة القيامة (أو بيعة القيامة) :			٦٥١، ٦٨٢
٥٧، ١٣٧، ١٦٧، ١٩٩			٥٤٩، ٩٩، ٩٩
	٦٨٢، ٢٠٩		٥٦٦، ٩٩
			كش : .

كينيا : ٦٠٣	الكنيسة اللاتينية : ٣٩٩
كيرينيا : ٥٨٨ ، ٥٩١ ، ٥٩٧	كنيسة لد : ١٦٥
كيسوم : ٥٣	كوكب : ٤٨٩
كيفيتون (كونا (كونا أو جكسن حالياً)) : ٢٨ ، ٢٧ ، ٢٦ ، ٢٥	كوكسون : ٢٩٧
	كولونيا : ١٨٢
	كومانا (كونا أو جكسن حالياً) :

حرف اللام

لاباب : ٥٠٣	اللباب : ٥٠٣
لبنان : ٢٤٣ ، ٦٢٨ ، ٤٣٣	لبنان : ٢٤٣ ، ٦٢٨ ، ٤٣٣
لاتهان (مجمع) : ١٨٦	لاتران (مجمع) : ٥٥٧ ، ٤٩٩ ، ٤٣٩
اللاتين : ٢١٥	اللاتين : ٢١٥
لد (لد) : ١٨٥ ، ١٩٨ ، ٢٤٥	لد (لد) : ١٨٥ ، ١٩٨ ، ٢٤٥
لادفحة : ٤١ ، ٦٨ ، ١٠٨ ، ١١٦	اللاذقية : ٤١ ، ٦٨ ، ١٠٨ ، ١١٦
لبيانت : ٥٨٧	لبيانت : ٥٨٧
لياسول : ١٩١ ، ٢١٤ ، ٢١٦	لياسول : ١٩١ ، ٢١٤ ، ٢١٦
لينينغراد : ٣١٤	لينينغراد : ٣١٤
ليون (مجمع) : ٢١٣ ، ٢٤٩	ليون (مجمع) : ٢١٣ ، ٢٤٩
. ٢٥٠	. ٢٥٠

حرف الميم

مسجد حيون : ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٧٦ ، ٢٦٣ ، ٤٣٤ ، ٢٦٦ .	ماردين : ٤٩ ، ٥٣ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ١٠٥ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١٢٧ ، ٣٠٢ ، ٢٨٤ ، ١٧٤ ، ٢١٤ ، ٤٦٨ .
مسجد مرسيليا : ١٨١ ، ١٨٢ ، ٢٠٢ ، ٢١٤ ، ٤٦٨ .	مسجد مالطا : ١٩٤ ، ٥٨٠ ، ٥٨١ ، ٥٨٢ .
مسجد مرسين : ٥٠٣ .	مسجد مارعنه : ٥٨٧ .
مسجد مرعش : ٣٦ ، ٢٨٣ ، ٧٨ ، ٥٣ ، ٢٩٣ ، ٣١٤ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٤٤٨ .	مسجد ماوراء النهر : ٥٥٠ .
مسجد مرفاما ندرادي : ٥٧٦ .	مسجد مجدى يابا : ٣٧١ ، ٤٨٨ .
مسجد مرقية : ٢٥١ .	مسجد مجدى يابا : ٢٦٩ .
مسجد المزة : ٤١٠ .	مسجد الجسر : ١٤٦ ، ١٨٥ ، ١٨٧ ، ٥٧٧ ، ٥٧٩ .
مسجد الأقصى : ١٦٧ ، ١٩٨ ، ٢٧١ ، ٢٠٧ ، ١٩٩ .	مسجد محراب داود : ٢٦٧ ، ٦٧٧ .
مسجد المدنة : ٦٣٩ ، ٥٣٥ ، ٥٣٢ ، ٦٢٣ ، ٦٨١ ، ٦٨٢ ، ٦٨٣ ، ٦٨٧ .	مسجد عناضه الأحزان : ١١٧ ، ٥٦٤ .
مسجد مراغة : ٤٩ ، ٥٦ .	مسجد المدينة : ١٢٨ ، ١٤٣ .
مسجد المرج : ٧٣ .	مسجد مراغة : ٤٩ ، ٥٦ .
مسجد دابق : ٢٧٩ .	مسجد دابق : ٢٧٩ .
مسجد رامط : ٧٣ .	مسجد رامط : ٧٣ .
مسجد الصفر : ٥٢ ، ١٨٦ ، ٣٨١ ، ٤٠٦ .	مسجد الصفر : ٥٢ ، ١٨٦ ، ٣٨١ ، ٤٠٦ .
مسجد صالح (عليه السلام) : ٥١٣ .	مسجد صالح (عليه السلام) : ٥١٣ .

٦٢٢٠، ٤١٧، ٢١٦، ٢١٥
 ٦٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٣، ٢٢٢
 ٦٢٢٦، ٢٢٨، ٢٢٣، ٢٢١
 ٦٢٤١، ٢٤٠، ٢٣٨، ٢٣٧
 ٦٢٤٢، ٢٤٦، ٢٤٤، ٢٤٢
 ٦٢٧٢، ٢٦٩، ٢٦٨، ٢٦٨
 ٦٣١٤، ٣٠٩، ٢٩٤، ٢٧٧
 ٦٣٦٨، ٣٥٩، ٣٥٥، ٣٣٦
 ٦٣٨٣، ٣٧٢، ٣٧٠، ٣٦٩
 ٦٤١٢، ٤٠٥، ٣٨٦، ٣٨٦
 ٦٤٧٧، ٤٣٦، ٤٣٢، ٤٣٢
 ٦٤٨٤، ٤٥٠، ٤٤٩، ٤٤٨
 ٦٤٧٦، ٤٦٣، ٤٦٠، ٤٥٨
 ٦٤٧٠، ٤٦٧، ٤٦٦، ٤٦٥
 ٦٥٠٨، ٥٠٠، ٤٩٧، ٤٨٥
 ٦٥٣٥، ٥٣٤، ٥١٨، ٥١٣
 ٦٥٤٤، ٥٣٦، ٥٣٥، ٥٣٤
 ٦٥٥٤، ٥٥٠، ٥٤٩، ٥٤٥
 ٦٥٦٣، ٥٦٣، ٥٦٣، ٥٦٢
 ٦٥٨٢، ٥٨١، ٥٧٩، ٥٧٨
 ٦٥٨٦، ٥٨٥، ٥٨٤، ٥٨٣
 ٦٦٢٧، ٦١٤، ٥٨٨، ٥٨٧
 ٦٦٣٤، ٦٣٣، ٦٣١، ٦٣٠
 ٦٦٥٠، ٦٦٨، ٦٦٣، ٦٦٣

. ٢٩٥، ٢٩٦، ٢٩٦، ٢٩٥
 مشهد ابراهيم الخليل (عليه السلام) :
 . ٦٧٩
 مصر : ١٨، ٢٣، ١٩، ١٨
 ٦٤٤، ٤٢، ٤١، ٣٩، ٣٨
 ٦٦١، ٥٧، ٥٧، ٤٨، ٤٧
 ٦٨٢، ٦١، ٦٠، ٦٠، ٦٠
 ٦٨٧، ٦٧، ٦٦، ٦٤، ٦٣
 ٦٩٥، ٩٨، ٩٣، ٩٣، ٩٣
 ٦٩٠، ٩٩، ٩٨، ٩٧، ٩٦
 ٦٩٠، ٩٠، ٩٠، ٩٠، ٩٠
 ٦١٢٣، ١١١، ١٠٩، ١٠٨
 ٦١١٢، ١١٦، ١١٥، ١١٤
 ٦١٢٧، ١٢٦، ١٢٥، ١٢٤
 ٦١٢٣، ١٢٠، ١٢٩، ١٢٨
 ٦١٠١، ١٢٨، ١٢٦، ١٢٦
 ٦١٧٣، ١٦٧، ١٦٧، ١٦٦
 ٦١٧٧، ١٦٦، ١٦٥، ١٦٥
 ٦١٨٥، ١٦٤، ١٦٣، ١٦٣
 ٦١٨٩، ١٦٨، ١٦٧، ١٦٦
 ٦١٩٤، ١٩٣، ١٩١، ١٩٠
 ٦٢٠١، ١٩٧، ١٩٦، ١٩٥
 ٦٢٠٧، ٢٠٥، ٢٠٤، ٢٠٣
 ٦٢١٤، ٢١٤، ٢١٢، ٢١٠

- | | |
|---|---|
| ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٨٢ ، ٢٨١
، ٣٩٦ ، ٣٩٣ ، ٣٩٧
، ١٠٧ .
منى : ١٢٨ .
منبج : ٤٦ ، ١١٦ ، ١٣٤ ،
، ٤٤٥ ، ١٧٣
منقوليا : ٢٢٨ ، ٢٣٠ ،
، ٢١٨ ، ٢١٣ ، ٩٣
، ٢٢٢ ، ٢٢١ ، ٢٢٠ ،
، ٢١٩
، ٢٢٣ ، ٢٢٨ ، ٢٢٥ ،
، ٥٨٦
، ٦٣٣ ، ٦٦٣ ، ٦٦٦ ،
، ٦٥٦ .
الموزر : ٧٣ .
الموصل : ٤٨ ، ٤٧ ، ٤٦ ، ٤٥
، ٥٢ ، ٥٢ ، ٥١ ، ٥٠ ، ٤٩
، ٦٦ ، ٦٣ ، ٦٢ ، ٦٠ ، ٥٦
، ٧٦ ، ٧٤ ، ٧٣ ، ٦٨ ، ٦٧
، ٦٧ ، ٦٦ ، ٦٥ ، ٦٤
، ١٢١ ، ١١٥ ، ١١٤ ، ١١١
، ١٢٣ ، ١٢٧ ، ١٢٦ ، ١٢٣
، ١٦٧ ، ١٥٦ ، ١٤٩ ، ١٤٥
، ١٩٤ ، ١٧٦ ، ١٧٤ ، ١٧٣
، ٣٠٢ ، ٣٠١ ، ٢٩٧ ، ٢٧٧
، ٣٠٤ ، ٣٠٣ ، ٣٠٢ ، ٣٠١ | ، ٦٧٠ ، ٦٦٥ ، ٦٥٨ ، ٦٥٢
، ٦٧٩ ، ٦٧٤ ، ٦٧٢ ، ٦٧١
مصياف : ٥٤٧ ، ٥٥٣ ، ٥٥٦ ،
، ٥٥٦ .
المصيصة : ٦٩ ، ١٠٧ ، ٢٤٣ ،
، ٣٩٤ ، ٣٩٢ ، ٣٩٧ ، ٣٩٥
، ٥٠٣ ، ٤٠٠ ، ٣٩٥
مضيق جبل طارق : ١٩ .
معبد باخوس : ٣٨٣ .
معبد هيرود أجريبينا : ٥٤٣ .
المرة : ٥٤ ، ٦٩ ، ٦٨٧ .
معصرة النعمان : ٦٩ ، ٣٧ ،
، ٣١٣ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ .
، ٢٦٨ .
، ٥٠٨ .
معلبا : ٤٨٨ ، ٣٧١ ، ٢٦٩
، ٥٢٢ .
المقرب : ٥٨٧ ، ٥٧٩ ، ٤٢٥
، ٦٧٤ ، ٦٧١ .
مقام ابراهيم الخليل (عليه السلام) :
، ٤٤٠ .
مسكة المكرمة : ٩٨ ، ٩٩ ، ١٢٣ ،
، ١٢٨ .
، ٦٧٣ ، ٦٧٥ ، ١٩٥ .
ملازكرود : ٢٩٥ ، ٣٩٣ .
مطبعة : ٣٦ ، ٤٠ ، ٤٠٣ ، ٤٠٢ ،
، ٤٠١ ، ٤٠٠ |
|---|---|

ميناء برنديزي الايطالي : ٢٠٢ .	٤٥٨ ، ٤٥٩ ، ٤٥٢ ، ٤٤٩ ، ٤١٧ .
ميناء التبتة : ٢٥٥ .	٥٦٣ ، ٥٥٢ ، ٤٥٩ ، ٤٥٨ .
ميناء دمياط : ١٩١ .	٦٣٠ ، ٦٥١ .
ميناء رشيد : ١٩١ .	٢٠٤ ، ١٩٨ .
ميناء السويدية : ٢٢٨ ، ٢٧٤ .	٢٣٠ ، ٢٠٢ .
٥٨٦ ، ٢٨٣ ، ٢٨٦ ، ٢٨٢ .	٢٩٤ .
ميناء صور : ١٢٦ .	٢٢٤ ، ميت الحولي عبد الله :
ميناء عكا : ١٢٠ ، ١٢٦ ، ٩٥٨ .	٦٧ ، ميدان الحصى :
٥١٧ .	١٥٨ .
ميناء لياسول : ٢٤٧ .	٥٢٩ ، ٥١٧ .
ميناء يافا : ٥١٧ .	٢٨٢ .
	ميناء ايج مورت : ٢١٦ ، ٢٠٢ .

حرف النون

نهر باردي :	٢١١ ، ٢١٠ ، ٤١٠ .	نهر بردان :	٥١٨ ، ٥٣٢ ، ٤٣٧ .
نهر الأزرق :	٣٣ ، ٤٣٣ ، ٦٤٠ .	نهر البلخ :	٢٨٢ ، ٣٠١ .
نهر البرد :	٢١١ ، ٢١٠ ، ٤١٠ .	نهر تربيك :	٢٢٣ ، ١٩٨ .
نهر البردان :	٥١٨ .	نهر الجوز :	٧٨ ، ٣١٤ ، ٤٤٨ .
نهر الدانوب :	٦٦٩ .	نهر الدانوب :	٣٢١ ، ٤٨٨ ، ٥٥٢٢ ، ٥٤٦ .
نهر دجلة :	١٢٨ .	نهر دجلة :	٤٥ ، ٧٣ ، ١١٤ .
نهر السند :	٢٢٧ .	نهر الماصي :	٢٥٢ ، ٢٧٤ .
نهر النهرين :	٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٣٠٨ .	نهر النطرون :	١٦٧ ، ١٦٦ ، ١٦٩ .
نهر المصاصي :	٤٠٣ ، ٣٨١ ، ٣٤٢ ، ٣١١ .	نهر النمسا :	١٨٥ ، ٥٧٢ .
نهر الأردن :	٤٩٩ ، ٤٢١ ، ٤١٦ ، ٤٠٦ .	نهر الأردن :	٥١ ، ١١٧ ، ١١٨ .
نهر أبو ملي :	٤٩١ .	نهر أبو ملي :	١٢٦ ، ١٢٩ ، ١٣٢ .
نهر الفرات :	٢٣٠ ، ٢٤٨ .	نهر الفرات :	٢٠٣ ، ٢٠٦ ، ٢١١ .
نهر كار :	٢٥٢ ، ٢٥١ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ .	نهر كار :	٣٧١ ، ٣٧٦ ، ٣٦٤ ، ٣٣٦ .
	٤٥٠ .		٣٨١ ، ٣٨٣ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ .

نيقو بوليس (مدينة بلفارية) : .
٩٦٩ ، ٥٧٧
نيقوسيا : ٢١٥ ، ٢٢٧ ، ٥٨٥
. ٥٩١ ، ٥٨٦
نيقوميديا (أزميت) : .
٢٨
نيقية : ٢٥ ، ٢٨ ، ٢٦ ، ٣٠
٢١٥ ، ٦٩ ، ٣٣ ، ٣٢ ، ٣١
. ٣٩٤
النبيل : ١٨٤ ، ٨٦ ، ٥٧
١٨٧ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ٢١٦
. ٤٠٦ ، ٢٢٤ ، ٢٢١ ، ٢١٩ ، ٢١٧

نهر الفولغا : ٤٢٨
نهر قاديشا : ٤٩١
نهر قويق : ٤٤٠
نهر الليطاني : ١١٨ ، ١١٩
٤٢٨ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤
نهر الain : ١٧٨
نهر اليرموك : ١٢٦
الدواقير : ٣٨
نوى : ١٨٦
النوبة : ٩٧
نيفين : ٥٠١ ، ٢٥٤

حرف الهاء

هضبة بامير : ٢٢٧
هذان : ٤٨ ، ٥٤ ، ١٠٦
المند : ٩٩ ، ٥٠٠ ، ٦٧٢
هونين : ١٧٣ ، ١٩٦ ، ٢٠٥ ، ٣٧١

هرة : ٤٤٦
هرقل : ١٩
هرقلة : ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٩٣
مضبة الأناضول : ٣٥

حرف الواو

وادي الكرك : ٣٦١	وادي بردى : ٣٧٥
وادي كيدرون (وادي سقى مريم حالياً) : ٢٦٧	وادي بزاغة : ٥٤
وادي مرجميون : ١١٨ ، ٤٣٣	وادي النم : ٥٥٢
وادي موسى : ٣٦٧	وادي جهنم : ٣٦٧
وادي نهر اقساوا : ٤٠	وادي الست : ٣٦١
واسط : ٦٢ ، ٣٠٨	وادي السلالة : ٥٩
	وادي الفرات : ٣٣
	وادي الفرنجية : ٣٦١

حرف الياء

يازور : ٤١	يافا : ٤١ ، ٤٢ ، ١٦٥ ، ١٦٦
	اليموك : ٥٧ ، ٢٦٥ ، ٤٠٥
	بفري : ٤٤٧
	اليمن : ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٠
	اليونان : ١٧٩ ، ٤٢٠ ، ٥٨١
	يافا : ٤١ ، ٤٢ ، ١٦٥ ، ١٦٦
	اليموك : ٥٧ ، ٢٦٥ ، ٤٠٥
	بفري : ٤٤٧
	اليمن : ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٠
	اليونان : ١٧٩ ، ٤٢٠ ، ٥٨١

٢ - فهرس الشعوب والقبائل والجماعات والفرق

حرف الألف

اللاتين : ٢١٥ ، ٢٦٩ ، ٢٨١ ، ٦٤١ ، ٦٧٣ .	اللاتين : ٢١٥ ، ٢٦٩ ، ٢٨١ ، ٣٩٧ ، ٥٧٦ .
الأكراد : ١٨٨ ، ٢٨٣ ، ٣٠١ ، ٣٠١ .	الأراثة (فرق) : ٣٠٢ ، ٣٠٠ .
. ٣٣٥ .	الاسبانيين (شعب) : ٥٧٧ .
الالمان (شعب) : ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٤٢٧ .	الاستارية (فرق) : ١٣٤ ، ١٣٢ .
٧٥ ، ١٧٧ ، ١٧٦ ، ١٥٨ ، ١٥٨ .	١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ .
٨٠٩ ، ٢٤٧ ، ٢٤١ ، ١٩٩ .	١٣٩ ، ١٦٦ ، ١٦٠ .
. ٦٤١ ، ٥٧٧ ، ٥٧٤ .	١٩٩ ، ٢٠٨ ، ٢٠٧ ، ٢٠٦ .
الامويون (بني أمية) : ١٧ ، ٢٣١ .	٢٠٥ ، ٢٠٤ ، ٢٠٣ .
. ٤١٣ ، ٤٠١ .	٢٠٩ ، ٢١٢ ، ٢١١ ، ٢١٠ .
٢٦٧ .	٢١٤ ، ٢٤٤ ، ٢٤٠ ، ٢٣٩ .
الأمافيين : ٦٣٨ .	٢١٤ ، ٢٤٦ ، ٢٤٣ ، ٢٤٢ .
. ٥٨٠ .	٢٥٢ ، ٢٥١ ، ٢٤٧ .
الانكشارية (فرق) : ١٤٥ ، ١٦٣ ، ١٦٩ .	٢٣٦ ، ٢٣٩ ، ٢٣٨ .
الانكليز : ١٤٥ ، ١٦٣ ، ١٦٩ ، ٥٢٥ .	٢٣٠ ، ٣٠٩ ، ٣٠٨ .
٥٢٥ ، ٥٢٤ ، ٢٤٨ ، ٢٤٨ .	٣٥٧ ، ٣٥٦ ، ٣٥٥ .
. ٥٧٧ .	٣٥٨ ، ٤٣٦ ، ٤٧٢ .
الأوربيون : ٦٦٥ .	٣٩٨ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ .
. ٣٩٢ .	٥٠٤ ، ٥٢٦ ، ٥٢١ .
بني اباد : ٣٩٢ .	٥١١ ، ٥٧٦ ، ٥٧٦ .
الابطاليون : ١٩٦ ، ١٩٩ ، ١٩٩ .	٥٨٠ ، ٥٧٩ ، ٥٧٩ .
. ٢١٤ .	٦٧٧ ، ٦٨٨ ، ٦٧٨ .
٢١٥ .	٦٩٠ ، ٦٣٩ ، ٦٣٨ .

١٢٩ ، ١٢٢ ، ٣٣ ، ٢٨ ، ٢٧
٢٦٦ ، ٢٥٠ ، ٢٣٨ ، ١٤٦
٢٧٦ ، ٢٧٥ ، ٢٧٤ ، ٢٦٧
٢٨٢ ، ٢٨١ ، ٢٨٠ ، ٢٧٧
٣٠٠ ، ٢٩٦ ، ٢٩٥ ، ٢٩٤
٣٥٦ ، ٣٥٤ ، ٣٣٦ ، ٣٠٥
٣٩٥ ، ٣٩٣ ، ٣٩٢ ، ٣٧٥
٤٤٧ ، ٤٤٣ ، ٤٢٠ ، ٤٠٠
٤٩٨ ، ٤٨٦ ، ٤٩٦ ، ٤٨٥
.٥٨٤ ، ٥٦٦ ، ٥٤٧ ، ٥٣٣
البيكجية (فرق) : ٤٩ .
البرومنتريين (طائفـة) : ٦٠٣ ، ٦٠٦

حرف النساء

الترك (الأتراك) : ٢١ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٣
٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٧ ، ٣٠ ، ٣١
٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦
٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣
٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٤٩٥
٤٩٦ ، ٤٩٧ ، ٤٩٨ ، ٤٩٩
٥٠١ ، ٥٠٢ ، ٥٠٣ ، ٥٠٤
٥٠٥ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩
٥١٩ ، ٥٢٠ ، ٥٢١ ، ٥٢٢
٥٢٣ ، ٥٢٤ ، ٥٢٥ ، ٥٢٦
٥٢٧ ، ٥٢٨ ، ٥٢٩ ، ٥٢٩٥
٥٣٠ ، ٥٣١ ، ٥٣٢ ، ٥٣٣
٥٣٤ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦ ، ٥٣٧
٥٣٨ ، ٥٣٩ ، ٥٣٩٦ ، ٥٣٩٧
٥٣٩٨ ، ٥٣٩٩ ، ٥٣٩٩٠

حرف الباء

.٣١ .الجنـاك
.٢١٨ .البلـدو
.١٨٠ .البراـبرـة
،٢٤٨ .البرـيتـونـينـ (البرـيتـونـ)ـ فـرقـ :
.٣٧٢ .البنـادـقةـ :١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٩١ ، ١٩١
،٢١٤ .البـورـيـونـ :٣٨٣ ، ٤٠٩ ، ٤١٤ .
،٢١٧ .البيـازـنـةـ (نـسـبـةـ لـبـيزـاـ)ـ (فـرقـ)ـ :
،٢١٥ .البيـزـنـطـيـنـ :١٧ ، ٢٢ ، ٥٢٢ ، ٥٢٣
،٦٤٦ .البيـزـنـطـيـنـ :٢٥ ، ٢٣ ، ١٩ ، ١٧

حرف الدال

الدانشمندون (الدانشمند) : ٣٥ ،
٤٠ ، ٤١ ، ٣٩٥ .

الداوية (فرسان المعبد) : ١١٨ ،
١١٩ ، ١٢٢ ، ١٣٤ ، ١٣٦ ، ١٣٧
، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٤٧
، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٢
، ١٥٦ ، ١٦٦ ، ١٧٠ ، ١٧٣
، ٢٠٨ ، ٢٠٧ ، ٢٠٦ ، ٢٠٥
، ٢١٥ ، ٢١٤ ، ٢١٠ ، ٢٠٩
، ٢٢٢ ، ٢٢١ ، ٢٢٠ ، ٢١٩
، ٢٤٢ ، ٢٤١ ، ٢٤٠ ، ٢٣٩
، ٢٣٩ ، ٢٣٨ ، ٢٤٤ ، ٢٤٣
، ٢٣٨ ، ٢٣٦ ، ٢٣٥ ، ٢٣٤
، ٢٣٧ ، ٤٣٣ ، ٤٠٠ ، ٣٩٩
، ٥١١ ، ٥١٠ ، ٥٠١ ، ٤٨٨
، ٥٢٦ ، ٥٢٢ ، ٥٢١ ، ٥١٢
، ٥٣٣ ، ٥٣٢ ، ٥٣٩ ، ٥٣٧
، ٥٣٧ ، ٥٣٦ ، ٥٣٥ ، ٥٣٤
، ٥٨٧ ، ٥٨٥ ، ٥٧٦ ، ٥٦٥
، ٦٣١ ، ٦٣٩ ، ٦٤٠ ، ٦٤١
، ٦٤٢ ، ٦٥١ ، ٦٧٣ .

الدستيرون: ٧٢ ، ٧٣ .
الديلم: ٥٦٩ .

٥٨٨ ، ٦٠٣ ، ٦٠٦ ، ٦٠٦ ، ٦٠٨
٦١٤ ، ٦٦٩ ، ٦٧٥ ، ٦٧٧ .
التركيبولية (فرق): ١٣٧ .
نوخ: ٢٩٣ ، ٣٩٢ .
التيوتون (فرق): ١٧٧ ، ١٩٩ ،
٢٤١ ، ٢٣٥ ، ٢٠٩ ، ٢٠٦
، ٣٣٨ ، ٥٣٩ ، ٥٣٤ ، ٢٤٧
، ٥٧٤ ، ٦٤١ .

حرف الجيم

الجنوبين: ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢١٧ ، ٢٠٠ ،
٤٩٨ ، ٤٦٨ ، ٤٥٥ ، ٤٥٤
، ٥٩١ ، ٥٨٤ ، ٥٨٦ ، ٥٠١
، ٦٢٨ ، ٦٠٦ ، ٦٠٣ ، ٦٠٣
، ٦٤٩ ، ٦٤٦ .

حرف الحاء

الخلبيون: ٤٤٦ .
المدانيون (بنو حمدان): ٤٤٠ .
٤٨٦ ، ٤٠٠ .

حرف الخاء

بنو خالد: ٥٩ .

، ٤٢٣ ، ٤٢٢ ، ٤٢١ ، ٤٢٠
 ، ٤٤٧ ، ٤٤٥ ، ٤٤٤ ، ٤٤٣
 ، ٤٥٩ ، ٤٥٥ ، ٤٥٤ ، ٤٥٢
 ، ٤٨٧ ، ٤٨٦ ، ٤٨٥ ، ٤٦٠
 ، ٥٢٢ ، ٥٠٨ ، ٤٩٨ ، ٤٩٦
 ، ٥٦٦ ، ٥٤٧ ، ٥٤٢ ، ٥٣٣
 ، ٥٨٣ ، ٥٨٢ ، ٥٨١ ، ٥٧٨
 . ٥٨٤ ، ٦٥١ ، ٦٧٨ ، ٦٧٢ ، ٦٨٢
 الرومان (النورمانديين) : ٢٦٥ ،
 . ٥٨٢ ، ٤٢٠ ، ٢٦٨

حرف الزاي

. الزنج : ٩٩
 الزنكيون : ١٢٤ ، ١٠٢ ، ٦٤ ، ١٢٤
 ، ٣٨٤ ، ١٧٤ ، ١٢٦
 ، ٤٢٣ ، ٤١٤ ، ٤٠٨ ، ٣٨٦
 ، ٤٤٩ ، ٤٤٥ ، ٤٥٦ ، ٦٣٠ ، ٦٣٢
 . ٦٦١ ، ٦٥١ ، ٦٥٩ ، ٦٣٢

حرف السين

السلاجقة : ١٩ ، ٢٣ ، ٢٦ ، ٢٣
 ، ٣٨ ، ٣٨ ، ١٢٩ ، ١٢٩
 ، ٢٧٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣١ ، ٢٠٢
 ، ٣٩٨ ، ٣٩٨ ، ٣٩٥ ، ٢٩٤

حرف الدال

القبيلة الذهبية (القبجاق) : ٢٢٨ ،
 ، ٢٤١ ، ٢٣٩ ، ٢٣٨ ، ٢٣٢
 . ٦٣٥ ، ٢٤٦

حرف الراء

بنو ربيعة : ٥٩ ، ٢٩٣
 ربيعة طيء : ١٤٨ .
 آل روبيين : ٢٩٥ .
 الروس : ٢٢٨ .

الروم : ٢٣ ، ٢١ ، ١٩ ، ١٧ ، ٢٣
 ، ٣١ ، ٣٠ ، ٢٨ ، ٢٧ ، ٢٥
 ، ٦٨ ، ٦٠ ، ٤٦ ، ٣٣ ، ٣٢
 ، ٦٩ ، ٧٠ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ٧٠ ، ٦٩
 ، ١٨٠ ، ١٢٢ ، ١٠٧ ، ١٠٦
 ، ٢٧٥ ، ٢٦٧ ، ٢٦٦ ، ٢٦٥
 ، ٢٨٠ ، ٢٧٩ ، ٢٧٧ ، ٢٧٦
 ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٩٣
 ، ٢٩٦ ، ٢٩٥ ، ٢٩٧ ، ٢٩٧
 ، ٣٠٠ ، ٣٣٦ ، ٣٣٨ ، ٣٣٨
 ، ٣٥٦ ، ٣٥٥ ، ٣٧٥ ، ٣٥٤
 ، ٣٨٧ ، ٣٨٦ ، ٣٩٢ ، ٣٨١
 ، ٣٩٣ ، ٣٩٥ ، ٣٩٤ ، ٣٩٣

٥٦٦ ، ٥٦٠ ، ٥٤٢ ، ٥٣٣
٥٨٣ ، ٥٨٢ ، ٥٨١ ، ٥٧٤
. ٦٧٥ ، ٦٦٧ ، ٦٧٤ ، ٦٥٩
بنو حمار : ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٤٩٥ ،
. ٦٧٤ ، ٤٩٨ ، ٤٩٧

حرف الغين

بنو غسان : ٣٩٢

حرف الفاء

الفرس : ٣٠٥ ، ٢٧٥ ، ٢٦٥
. ٤٨٥ ، ٤٧٢ ، ٣٩٣
الفرنج (الصلبيون) : ١٩ ، ١٨ ،
٢٧ ، ٢٦ ، ٢٥ ، ٢٤ ، ٢٠
، ٢٣ ، ٢٢ ، ٢١ ، ٢٠ ، ٢٨
، ٢٨ ، ٢٧ ، ٢٦ ، ٢٥ ، ٢٤
، ٤٣ ، ٤٢ ، ٤١ ، ٤٠ ، ٣٩
، ٤٨ ، ٤٧ ، ٤٦ ، ٤٥ ، ٤٤
، ٥٣ ، ٥٢ ، ٥١ ، ٥٠ ، ٤٩
، ٥٨ ، ٥٧ ، ٥٦ ، ٥٥ ، ٥٤
، ٦٤ ، ٦٢ ، ٦١ ، ٦٠ ، ٥٩
، ٦٩ ، ٦٨ ، ٦٧ ، ٦٦ ، ٦٥
، ٧٦ ، ٧٥ ، ٧٤ ، ٧٣ ، ٧٢
، ٨٢ ، ٨١ ، ٧٩ ، ٧٨ ، ٧٧

٤٥٢ ، ٤٤٤ ، ٤١٤ ، ٣٩٩
. ٤٥١ ، ٤٥٥
السلوقيين : ٤٢٠
السودان : ١٠٢ ، ٢٦٨

حرف الطاء

الطاولونيين : ٥٨٤
. طيء : ٥٩

حرف العين

العباسيين : ١٧ ، ٩٥ ، ٥٥١
العثمانيون : ٤٢٧ ، ٤٥٢ ، ٥٦٦ ،
. ٥٧٦ ، ٥٧٨ ، ٥٨٧
المعجم الاعاجم : ٦٧٨
العرب (الأعراب) : ٥٩ ، ١٧ ،
. ٦٠ ، ٢٦٥ ، ٢٢٧ ، ١٠٢ ،
، ٢٩٤ ، ٢٧٦ ، ٢٧٥ ، ٢٦٨
، ٣٦٣ ، ٣١٢ ، ٣٠٥ ، ٣٠١
، ٣٨٦ ، ٣٨١ ، ٣٧٥ ، ٣٥٤
، ٤٠٢ ، ٤٠١ ، ٣٩٣ ، ٣٩٢
، ٤٢٠ ، ٤٠٨ ، ٤٠٧ ، ٤٠٣
، ٤٦٢ ، ٤٥٥ ، ٤٤٠ ، ٤٣٧
، ٤٨٦ ، ٤٨٥ ، ٤٧٣ ، ٤٦٣
. ٥١٨ ، ٥١٣ ، ٥٠٣ ، ٤٩٩

، ٢٠٠ ، ١٩٩ ، ١٩٨ ، ١٩٧
 ، ٢٠٥ ، ٢٠٤ ، ٢٠٢ ، ٢٠١
 ، ٢٠٩ ، ٢٠٨ ، ٢٠٧ ، ٢٠٦
 ، ٢١٣ ، ٢١٢ ، ٢١١ ، ٢١٠
 ، ٢١٧ ، ٢١٦ ، ٢١٥ ، ٢١٤
 ، ٢٢١ ، ٢٢٠ ، ٢١٩ ، ٢١٨
 ، ٢٢٥ ، ٢٢٤ ، ٢٢٣ ، ٢٢٢
 ، ٢٢٥ ، ٢٢٤ ، ٢٢٢ ، ٢٢٧
 ، ٢٢١ ، ٢٢٠ ، ٢٢٩ ، ٢٢٨
 ، ٢٦٦ ، ٢٦٥ ، ٢٦٤ ، ٢٦٢
 ، ٢٥٠ ، ٢٥٩ ، ٢٥٨ ، ٢٥٧
 ، ٢٥٤ ، ٢٥٣ ، ٢٥٢ ، ٢٥١
 ، ٢٦٩ ، ٢٦٨ ، ٢٦٧ ، ٢٦٥
 ، ٢٧٣ ، ٢٧٢ ، ٢٧١ ، ٢٧٠
 ، ٢٨٠ ، ٢٧٩ ، ٢٧٨ ، ٢٧٧
 ، ٢٨٤ ، ٢٨٣ ، ٢٨٢ ، ٢٨١
 ، ٢٨٨ ، ٢٨٧ ، ٢٨٦ ، ٢٨٥
 ، ٢٩٨ ، ٢٩٧ ، ٢٩٦ ، ٢٩٥
 ، ٣٠٢ ، ٣٠١ ، ٣٠٠ ، ٢٩٩
 ، ٣٠٩ ، ٣٠٨ ، ٣٠٤ ، ٣٠٣
 ، ٣١٣ ، ٣١٢ ، ٣١١ ، ٣١٠
 ، ٣٣٦ ، ٣٣٥ ، ٣١٥ ، ٣١٤
 ، ٣٤١ ، ٣٤٠ ، ٣٣٨ ، ٣٣٧
 ، ٣٥٦ ، ٣٥٥ ، ٣٥٤ ، ٣٤٢

، ٣٨٧ ، ٣٨٦ ، ٣٨٥ ، ٣٨٤ ، ٣٨٣
 ، ٣٩٣ ، ٣٩٢ ، ٣٩٠ ، ٣٨٩ ، ٣٨٨
 ، ٣١٠ ، ٣١٠ ، ٣٩٩ ، ٣٩٧ ، ٣٩٤
 ، ٣١٠ ، ٣١٠ ، ٣١٣ ، ٣١٢ ، ٣١٠
 ، ٣١٩ ، ٣١٨ ، ٣١٧ ، ٣١٦ ، ٣١٦
 ، ٣١٨ ، ٣١٧ ، ٣١٦ ، ٣١٥ ، ٣١٥
 ، ٣١٢٥ ، ٣١٢٢ ، ٣١٢٠ ، ٣١١٩
 ، ٣١٣٠ ، ٣١٢٩ ، ٣١٢٧ ، ٣١٢٦
 ، ٣١٣٨ ، ٣١٣٣ ، ٣١٣٢ ، ٣١٣١
 ، ٣١٣٨ ، ٣١٣٧ ، ٣١٣٦ ، ٣١٣٥
 ، ٣١٤٢ ، ٣١٤١ ، ٣١٤٠ ، ٣١٤٩
 ، ٣١٤٦ ، ٣١٤٥ ، ٣١٤٤ ، ٣١٤٣
 ، ٣١٤٠ ، ٣١٤٩ ، ٣١٤٨ ، ٣١٤٧
 ، ٣١٤٨ ، ٣١٤٣ ، ٣١٤٢ ، ٣١٤١
 ، ٣١٤٨ ، ٣١٤٧ ، ٣١٤٦ ، ٣١٤٥
 ، ٣١٤٢ ، ٣١٤١ ، ٣١٤٠ ، ٣١٤٩
 ، ٣١٤٦ ، ٣١٤٥ ، ٣١٤٤ ، ٣١٤٣
 ، ٣١٤٠ ، ٣١٤٩ ، ٣١٤٨ ، ٣١٤٧
 ، ٣١٤٨ ، ٣١٤٣ ، ٣١٤٢ ، ٣١٤١
 ، ٣١٤٨ ، ٣١٤٧ ، ٣١٤٦ ، ٣١٤٥
 ، ٣١٤٢ ، ٣١٤١ ، ٣١٤٠ ، ٣١٤٩
 ، ٣١٤٦ ، ٣١٤٥ ، ٣١٤٤ ، ٣١٤٣
 ، ٣١٤٠ ، ٣١٤٩ ، ٣١٤٨ ، ٣١٤٧
 ، ٣١٤٨ ، ٣١٤٧ ، ٣١٤٦ ، ٣١٤٥
 ، ٣١٤١ ، ٣١٤٠ ، ٣١٤٩ ، ٣١٤٨
 ، ٣١٤٨ ، ٣١٤٧ ، ٣١٤٦ ، ٣١٤٥
 ، ٣١٤٢ ، ٣١٤١ ، ٣١٤٠ ، ٣١٤٩
 ، ٣١٤٨ ، ٣١٤٧ ، ٣١٤٦ ، ٣١٤٥
 ، ٣١٤٢ ، ٣١٤١ ، ٣١٤٠ ، ٣١٤٩
 ، ٣١٤٧ ، ٣١٤٥ ، ٣١٤٤ ، ٣١٤٣

٥١٩ ، ٥١٨ ، ٥١٧ ، ٥١٣
 ٥٢٣ ، ٥٢٢ ، ٥٢١ ، ٥٢٠
 ٥٢٧ ، ٥٢٦ ، ٥٢٥ ، ٥٢٤
 ٥٢٤ ، ٥٢٣ ، ٥٢٢ ، ٥٢٩
 ٥٢٣ ، ٥٢٢ ، ٥٢٦ ، ٥٢٥
 ٥٠٠ ، ٥٦٦ ، ٥٤٥ ، ٥٤٤
 ٥٠٠ ، ٥٠٦ ، ٥٠٥ ، ٥٠٤
 ٥٦١ ، ٥٦٠ ، ٥٥٧ ، ٥٥٦
 ٥٦٥ ، ٥٦٤ ، ٥٦٣ ، ٥٦٢
 ٥٧٦ ، ٥٧٥ ، ٥٧٤ ، ٥٧٦
 ٥٨٦ ، ٥٨٥ ، ٥٨٤ ، ٥٧٧
 ٦٠٦ ، ٥٩٧ ، ٥٨٨ ، ٥٨٧
 ٦٢٥ ، ٦٢٤ ، ٦٢٣ ، ٦٢٧
 ٦٢٩ ، ٦٢٨ ، ٦٢٧ ، ٦٢٦
 ٦٢٣ ، ٦٢٢ ، ٦٢١ ، ٦٢٠
 ٦٢٨ ، ٦٢٧ ، ٦٢٥ ، ٦٢٤
 ٦٢٤ ، ٦٢٣ ، ٦٢١ ، ٦٢٠
 ٦٢٩ ، ٦٢٨ ، ٦٢٧ ، ٦٢٦
 ٦٥٣ ، ٦٥٢ ، ٦٥١ ، ٦٥٠
 ٦٥٧ ، ٦٥٦ ، ٦٥٥ ، ٦٥٤
 ٦٦٢ ، ٦٦٠ ، ٦٥٩ ، ٦٥٨
 ٦٦٧ ، ٦٦٦ ، ٦٦٥ ، ٦٦٤
 ٦٧٢ ، ٦٧١ ، ٦٧٠ ، ٦٦٨
 ٦٧٧ ، ٦٧٥ ، ٦٧٤ ، ٦٧٣

، ٣٦٠ ، ٣٥٩ ، ٣٥٨ ، ٣٥٧
 ، ٣٧٠ ، ٣٦٩ ، ٣٦٨ ، ٣٦٧
 ، ٣٧٣ ، ٣٧٢ ، ٣٧١
 ، ٣٨٣ ، ٣٨٢ ، ٣٨١ ، ٣٧٤
 ، ٣٩٤ ، ٣٨٦ ، ٣٨٥ ، ٣٨٤
 ، ٤٠٠ ، ٣٩٨ ، ٣٩٧ ، ٣٩٥
 ، ٤٠٥ ، ٤٠٤ ، ٤٠٣ ، ٤٠٢
 ، ٤٠٩ ، ٤٠٨ ، ٤٠٧ ، ٤٠٦
 ، ٤١٣ ، ٤١٢ ، ٤١١ ، ٤١٠
 ، ٤٢٢ ، ٤٢٠ ، ٤١٥ ، ٤١٤
 ، ٤٢٦ ، ٤٢٥ ، ٤٢٤ ، ٤٢٣
 ، ٤٣٤ ، ٤٣٣ ، ٤٣٢ ، ٤٣٨
 ، ٤٣٨ ، ٤٣٧ ، ٤٣٦ ، ٤٣٥
 ، ٤٤٧ ، ٤٤٦ ، ٤٤٥ ، ٤٤٩
 ، ٤٥٣ ، ٤٥٢ ، ٤٤٩ ، ٤٤٨
 ، ٤٥٨ ، ٤٥٧ ، ٤٥٦ ، ٤٥٥
 ، ٤٦٢ ، ٤٦١ ، ٤٦٠ ، ٤٥٩
 ، ٤٦٧ ، ٤٦٦ ، ٤٦٥ ، ٤٦٤
 ، ٤٧١ ، ٤٧٠ ، ٤٦٩ ، ٤٦٨
 ، ٤٨٦ ، ٤٨٥ ، ٤٧٣ ، ٤٧٢
 ، ٤٩٠ ، ٤٨٩ ، ٤٨٨ ، ٤٨٧
 ، ٤٩٨ ، ٤٩٧ ، ٤٩٦ ، ٤٩٥
 ، ٥٠٨ ، ٥٠١ ، ٥٠٠ ، ٥٩٩
 ، ٥١٢ ، ٥١١ ، ٥١٠ ، ٥٠٩

المصريون : ٣٨ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٢ ،
٤٨٧ ، ٨٦ ، ٨٥ ، ٨٣ ، ٥٧
١٥٦ ، ١٠٠ ، ٩٨ ، ٩٣ ، ٩٢
٢٣٤ ، ٢٢٠ ، ٢١٢ ، ٢٠٦
٥٨٤ .
المغول (التتار) : ١٩٠ ، ٢٢٧ ،
٢٣١ ، ٢٣٠ ، ٢٢٩ ، ٢٢٨
٢٣٥ ، ٢٣٤ ، ٢٢٣ ، ٢٢٢
٢٤٠ ، ٢٣٨ ، ٢٣٧ ، ٢٣٦
٢٤٦ ، ٢٤٤ ، ٢٤٣ ، ٢٤١
٢٥٠ ، ٢٤٩ ، ٢٤٨ ، ٢٤٧
٢٨٦ ، ٢٥٤ ، ٢٥٢ ، ٢٥١
٣١٥ ، ٣١٣ ، ٣١٢ ، ٢٨٧
٣٨٣ ، ٣٧٢ ، ٣٥٩ ، ٣٤٠
٤٢٦ ، ٤١٣ ، ٣٩٩ ، ٣٨٨
٤٥٢ ، ٤٥١ ، ٤٥٠ ، ٤٣٧
٥٢٥ ، ٤٧٢ ، ٤٦٢ ، ٤٦١
٥٨٥ ، ٥٥٦ ، ٥٥٥ ، ٥٣٦
٦٣٣ ، ٦٢٨ ، ٥٨٧ ، ٥٨٦
٦٣٤ ، ٦٣٥ ، ٦٤٨ ، ٦٤٧ ، ٦٥٠
٦٧٢ ، ٦٧١ ، ٦٧٠ ، ٦٥٤
٦٧٣ ، ٦٧٥ .
المالك : ٢١٨ ، ٢٢١ ، ٢٢٥ ،
٢٣٤ ، ٢٣٧ ، ٢٣٣

٦٧٩ ، ٦٨٠ ، ٦٨١ ، ٦٨٢ ، ٦٨٣ ،
٦٨٥ .
الفرنسيون : ٣٠ ، ٢٥ ، ٢٢ ، ١٦٣ ، ١٦٢ ، ١٦٩ ، ١٧٩ ،
١٨٢ ، ٢١٧ ، ٢١٤ ، ٢١٣ ، ٢٤٨ ، ٥٢٣ ، ٥٧٧ ، ٢٢١
٥٨٤ ، ٥٥٤ .
بنو فزارة : ٥٨٣ .
الفلمنكيون : ١٦٥ ، ١٧٩ ، ١٦٥
٥٢٣ .
الفيتنميين : ٤٦٣ .

حرف القاف

القياصرة : ٦٠٣ ، ٦٠٦ ، ٦٠٧ .
القرطاجيون : ٤٦٣ ، ٥٨٢ .

حرف الكاف

بنو كنانة : ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٤٢٤ ،
٦٧٤ .

حرف الميم

آل مانسوير : ٣٥٦ ، ٣٥٧ .
المجريون (الجر) : ٥٧٧ .
بنو محرز : ٣٥٥ .

الدورمان : ٢٢ ، ٢٨ ، ٢٨٠، ٣٠ ، ٥١٨ ، ٢٨٣ ، ٢٨٢

حرف الهاء

آل هاشم : ٦٧٨ .

آل هيثوم : ٢٩٥ .

حرف الياء

اليوسين : ٢٦٧ .

اليهود : ٥٢٨ .

اليونانيين : ٢٨٢ ، ٣٩٧ ، ٥٧٤ ، ٥٧٨

، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٤٠٠ ، ٣٩٩ ، ٢٨٧ ، ٢٥١ ، ٤٠٠ ، ٤٣٧ ، ٤٣٦ ، ٤١٦ ، ٥٠١ ، ٥٠٠ ، ٤٥٢ ، ٤٥١ ، ٥٧٨ ، ٦٠٣ ، ٦٠٩ ، ٦٦١ ، ٤٢٢ ، ٤٢٠ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٦ ، ٥٤٩ ، ٤٢٦ ، ٦٧٨ .

حرف النون

السطورية (النسطورة) : ٢٢٩ ، ٢٧٦ ، ٢٨٢ .

٤ - فهرس الأديان والمذاهب

الارثوذكسيّة (مذهب) :	١٧٨ ، ٢٣١ ، ٤٥١
الأرمن (مذهب) :	٣٧ ، ٣٦ ، ٤٠ ، ١٠٧ ، ١٠٦ ، ٥٣
البروتستانت (مذهب) :	٢٣٨ ، ٢٣١ ، ٢٣٠ ، ٢٢٩
السريان الارثوذكسيّة (مذهب) :	٢٨١ ، ٢٤٦ ، ٢٤٤ ، ٢٦٣
السريان اليعقوبيّة (مذهب) :	٢٩٧ ، ٢٩٦ ، ٢٩٥ ، ٢٩٤
السنة (مذهب) :	٣٠١ ، ٣٠٠ ، ٢٩٩ ، ٢٩٨ ، ٣٠٣
الاساعيلية (الباطنية والحساينيّة) (مذهب) :	٥٨٤ ، ٤٠٠ ، ٣٩٨ ، ٣٩٧ ، ٦٥٣
الشافعية (مذهب) :	٦٢ ، ٦١ ، ٥٦
الشيعة (العلويّين) مذهب :	٩٦ ، ٢٣٠ ، ٢٤٩ ، ٢٤٧
	٤٤٥ ، ٤٤٤ ، ٣٥٥ ، ٣٩٤ ، ٩٩

السابقة - اليماقبة

٧٧٦

- ، ١٨٠ ، ١٧١ ، ٣٨٦ ، ٣٥ ، ٣٢
- ، ٢٢٩ ، ٢١٧ ، ٢٠٠ ، ١٩٧
- ، ٢٣٥ ، ٢٣٢ ، ٢٣١ ، ٢٣٠
- ، ٢٧٥ ، ٢٤٢ ، ٢٤١ ، ٢٣٧
- ، ٤٠٩ ، ٣٤١ ، ٣٠٣ ، ٢٩٨
- ، ٥٧٩ ، ٥٥٢ ، ٤٦٤ ، ٤٥١
- ، ٦٣٨ ، ٦٠٦
- . الملكانيين : ١٩٤
- . ملوك الطوائف : ١٧
- السطورية (النساطرة) : ٢٢٩
-) . ٢٨٢ ، ٢٧٦
- النصارى (دين) : ١٧ ، ٥٢
- ، ٢٧٧ ، ١٦٠ ، ١٢٧ ، ١٠٠
- ، ٤٠٥ ، ٤٢٤ ، ٣٤١ ، ٢٧٨
- . ٦٨٥ ، ٤٩٥
- النصرانية (دين) : ١٨ ، ٦٩
- . ٧٨ ، ٣١٤ ، ٤٤٨ ، ٤٤٨
- . التصيرية (دين) : ٢٨٥ ، ٥٥٢
- . اليماقبة : ٢٨٨ ، ٢٨٢

- . ٣٧٥ : الصابئة (مذهب)
- . ٣٣٧ : الصوفية (مذهب)
- ، ٩٥ ، ٩٤ : الملوين (مذهب)
- ، ٤٩٩ ، ٢٧٧ ، ٢٦٨ ، ٩٩
- . ٥٤٧
- ، ٢٣ ، ١٨ : الفاطميين (مذهب)
- ، ٣٨ ، ٢٦٨ ، ٢٦٧ ، ٩٥
- ، ٣٠٩ ، ٢٩٥ ، ٢٩٤
- ، ٤٦٤ ، ٤٤٩ ، ٤٤٦
- ، ٣٥٥ ، ٥٠٨ ، ٤٩٧
- . ٤٦٦
- . ٦٣٨
- القبط (الأقباط) (مذهب) : ١٩٦
- . ٢٢٠ ، ٢١٧
- . ٥٤٩
- القرامطة (فرق) :
- الجوس الجوسية (مذهب) : ٥٥٢
- المسيحيون (دين) : ١٧ ، ٢٠
- ، ٣١ ، ٣٠ ، ٢٨ ، ٢٦
- . ٢٥

هذا الكتاب

موسوعة تاريخية عسكرية تقدم لك المعرفة بتاريخ الأمة العربية وأعمال الفتوحات العظمى التي عاشتها على امتداد أربعة عشر قرناً من عمر الزمن هو تاريخ الأمة العربية الإسلامية منذ أن أضاءت الدنيا وأشرقت برسالة الإسلام حتى اليوم.

• تبرز الحنكة العسكرية والإدارية التي تميز بها القائد المسلم بمحسنه العربي الذي فطر عليه في تطبيق مبادئه الحرب في الاستراتيجية والتنفيذ في ميدان المعركة، وفي فن القيادة وكفاءتها والروح المعنوية العالية للمقاتلين سواء في الحروب النظامية أو الحروب الثورية الداخلية وقمع الفتنة أيام راسخ بنصر من الله وتأييده.

• تشمل :

- عهود الخلفاء الراشدين والأمويين للأعمال القتالية في الشمال والشرق والغرب والأندلس وجنوب أوروبا والغزوات البحرية.
- المجاهد على جهة الروم في العهد العباسي وعلى شعور الهند والحروب البحرية وغزو التتار لبلاد الإسلام وتمزيق قواهم في معركة عين جالوت
- الغزو الصليبي لبلاد الإسلام في الحملات الصليبية المتتالية ومعركة حطين وتحرير القدس وطرد الصليبيين الفرج وتصفية وجودهم في الشرق.
- ظهور العثمانيين وحملهم راية الجهاد وفتح القسطنطينية والتغلب في أوروبا شمالاً وغرباً والتوسع في آسيا والحروب مع الروسيا

• مرجع هام يحتاج إليه :

- تلميذ التاريخ وأستاذه
- العسكري في ممارسته لفنه وعلمه
- المؤرخ في تقصيه للحقائق التاريخية
- كل مواطن عربي تواق للاستزادة بمعرفة تاريخ امته